



إصدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي - الجزائر

بحوث الملتقى الدولي الثامن

جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع

بتاريخ: 22 و 23 ربيع الثاني 1444هـ / الموافق لـ 15 و 16 نوفمبر 2022



تحرير

د. عباس منعر

أ.د. إبراهيم رحمانى

في تنزيل النص القرآني على الواقع
جهود علماء الغرب الإسلامي

أ.د. إبراهيم رحمانى
د. عباس منعر
تحرير

هذا الكتاب

لقد تشكلت على مدى قرون من الزمن ثروة علمية يصعب حصرها، مثلت خلاصة تفاعل عقول الناجين من أبناء المسلمين مع توجيهات القرآن الكريم، وأثمرت مواقف تستعصي عن العد سجلت مشاهد مختلفة لإصلاح الواقع البشري بمقتضى التوجيه الرباني، وهو ما نطلق عليه هنا: تنزيل النص القرآني على الواقع.

وإن هذه الصفحات تترجم إرادة راسخة لدى المشتغلين بالعلوم الإسلامية بجعل القرآن الكريم في المقام الأول من العناية البحثية، وأنه الأصل وغيره متفرع عنه، وأنه لا يمكن أن توصف أي أعمال علمية تنجز بكونها إسلامية ما لم تستند إلى هذا الركن المتين، كتاب الله الخالد.

ثم إن دراسة تجارب المثقفين من العلماء الأخيار من أعلام بلدنا في الغرب الإسلامي تفتح آفاقا واسعة أمام عقل المسلم المعاصر ليدرك مدى ضرورة التجاوب مع متطلبات الحياة ونوازلهاء، وإن علماءنا القدماء اجتهدوا وفق آليات النظر والاستدلال لإيجاد حلول لمشكلات عصرهم، بل لتحسين أوضاعهم المختلفة؛ فلماذا لا يكون لمن يأتي بعدهم الحق نفسه: فيستفيدون من هذا الرصيد علميا ومنهجيا، ويرفعون مستوى أداء الأمة اليوم حضاريا استلهاما من القرآن الكريم؟

ISBN: 978-9969-517-08-8



سليمي



إصدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي - الجزائر

جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع

أبحاث الملتقى الدولي السابع المنظم من قبل قسم أصول الدين،
بالتعاون مع: مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية -
معهد العلوم الإسلامية- جامعة الوادي- الجزائر

بتاريخ: 21 و 22 ربيع الثاني 1444 هـ / الموافق لـ 15 و 16 نوفمبر 2022 م.

تحرير وإشراف وتقديم

د / عباس منصّر

أ.د / إبراهيم رحمانى



مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية

Laboratory of Algerian scientists contributions to enrich the Islamic studies

معهد العلوم الإسلامية - جامعة الوادي

Institute of Islamic Sciences - University of El Oued - Algeria

مخبر بحث معتمد من قبل وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

تحت رقم (70). بتاريخ: 2015/02/21. الرمز: E0780400

الموقع الإلكتروني: <https://www.univ-eloued.dz/index.php/8-univ/1818-lasceis>



■ الطبعة الأولى: 1445 هـ / 2023 م

■ رقم الإيداع القانوني: سبتمبر 2023 م

■ ردمك: 8- 08 - 517 - 9969 - 978

© محفوظة
جميع الحقوق

■ التنفيذ الطباعي:

ولاية الوادي، الجزائر
☎ 032 14 93 39
☎ 0557 97 44 43
✉ imp.already@gmail.com





رياسة الملتقى

لقد جعل الله تبارك وتعالى كتابه الكريم هداية للبشرية جمعاء، منه تستقي الأمة ما يصلح حالها في العاجل والأجل وتقوم حياتها المادية والروحية على منوال تعاليمه، وتصف منه الحلول والهدايات لما يجابهها من تحديات ومستجدات. تحقيقاً لمبدأ صلاحية القرآن لكل زمان ومكان واقتداء بالسلف الصالح من الأئمة المهديين والعلماء العاملين الذين أولوا قضية تنزيل القرآن على الواقع أهمية بالغة.

فالقرآن الكريم لم ينزل ليتلى على الألسنة أو لتزين به الرفوف دون أن يكون له أثر في الواقع أو تأثير فيما يستجد على مرّ العصور، ولما كانت قضية التنزيل الواقعي للقرآن بهذه الأهمية، وكان علماء الغرب الإسلامي من مفسرين وفقهاء ومفكرين وأدباء سباقين أكثر من غيرهم إلى أعمال النص القرآني في واقعهم واستنطاق الآيات لتنزيلها على بيئاتهم، حتى شهد أهل المشرق لأهل المغرب بذلك كما ذكر الدكتور عبد العزيز الضامر في كتابه (تنزيل الآيات على الواقع) ص(52).

لذلك ارتأت النخبة العلمية المتخصصة في علوم القرآن والتفسير بقسم أصول الدين بمعهد العلوم الإسلامية بجامعة الوادي (الجزائر) إقامة هذا الملتقى الدولي لرصد جهود علماء الغرب الإسلامي في الاهتمام بقضية تنزيل القرآن على الواقع.

إشكالية الملتقى

تكمن أهمية هذا الملتقى في الآتي:

- استجماع جهود الأساتذة والباحثين لجمع جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل الآيات على الواقع.
- لفت عناية طلبة الدكتوراه لخدمة تراث علمائنا.
- الوقوف على مجالات التنزيل عند علمائنا ومعرفة طرائقهم في استنطاق النص القرآني.

والإشكالية الرئيسية التي تدور حولها فكرة الملتقى:

أين تكمن جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع؟ وما هي مجالات التنزيل عندهم؟.

أهداف الملتقى

- وهذه التظاهرة تهدف لتحقيق جملة من الأهداف:
- تأصيل قضية التنزيل الواقعي للقرآن الكريم.
- القيام بالواجب العلمي والأخلاقي تجاه تراث علماء الغرب الإسلامي من خلال إبراز اهتمامهم بقضية التنزيل.
- الوقوف على اهتمام علماء الغرب الإسلامي بالمستجدات وما يطرأ في واقعهم من أحداث ومواقف.
- إبراز جهود علماء الغرب الإسلامي في اهتمامهم بمسالك الاستنباط والربط والتحليل وذلك من خلال استنطاقهم للآيات واستخراجهم للهدايات.

محاور الملتقى

المحور الأول: إطار تأصيلي حول تنزيل النص القرآني على الواقع بين التنظير والممارسة.

التعريف، الشروط، الأنواع، القواعد والضوابط، الآليات، الحدود... الخ (تم استكتاب نخبة من الأساتذة في هذه الجزئية)

المحور الثاني: توظيف تنزيل النص القرآني في النوازل والمستجدات.

ابن العربي، ابن جزي، القرطبي، ابن الزبير الغرناطي... الخ

المحور الثالث: توظيف تنزيل النص القرآني في درس التفسير.

ابن أبي زمنين، ابن عطية، أبو حيان، الثعالبي... الخ

المحور الرابع: توظيف تنزيل النص القرآني في الإصلاح الاجتماعي.

ابن باديس، الطاهر بن عاشور، الحواس بوسنة ومن نسج على منوالهم.

المحور الخامس: توظيف تنزيل النص القرآني في مجالات أخرى.

توثيق الأحداث التاريخية في بلاد المغرب والأندلس، أدب الرحلات، علم الاجتماع والعمران، الأصول ومقاصد التشريع، دلالات الألفاظ والسياق... الخ

إدارة الملتقى

- الرئيس الشرفي للملتقى: أ.د. عمر فرحاتي
- رئيس الملتقى: أ.د. إبراهيم رحمانى
- مدير الملتقى: د. عباس منصر
- رئيس اللجنة العلمية: أ.د. عبد الكريم بوغزالة
- رئيس اللجنة التنظيمية: د. مختار قديرى

أعضاء اللجنة العلمية

- أ.د. إبراهيم رحمانى إبراهيم (جامعة الوادى)
- أ.د. عبد القادر مهابوت (جامعة الوادى)
- أ.د. عماد جراية (جامعة الوادى)
- أ.د. نبيل موفق (جامعة الوادى)
- أ.د. نورة بن حسن (جامعة باتنة 1)
- د. إدريس ريمى (جامعة الوادى)
- د. الصادق ذهب (جامعة الوادى)
- د. العيد حذيق (جامعة الوادى)
- د. حمزة بوخزنة (جامعة الوادى)
- د. رضوان لخشين (جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة)
- د. سلمى حضيض العوفى (جامعة طيبة - المدينة المنورة)
- د. عبد القادر شكيمة (جامعة الوادى)
- د. عبد المطلب بوغرارة (جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة)
- د. على زوارى أحمد (جامعة الوادى)
- د. فضل حسن البدراني (جامعة الموصل - العراق)
- د. قبلى بن هنى (جامعة الأغواط)
- د. محمد العربى ببوش (جامعة الوادى)
- د. مختار قديرى (جامعة الوادى)
- د. مصباح موساوى (جامعة الوادى)
- د. ميلود عماره (جامعة الوادى)
- د. هشام شوقى (جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة)
- د. ياسين باهى (جامعة الوادى)

أ. محمد الصالح غريسي (جامعة الوادي)
أ. نبيل بوراس (جامعة الوادي)

أعضاء اللجنة التنظيمية:

د. الصادق ذهب
د. زكرياء قادي
د. محمد العربي ببوش
د. نبيل صوالح محمد
د. ياسين باهي
د. السعيد هراوة
د. يوسف تريعة

أعضاء لجنة التدقيق اللغوي

أ.د. قويدر قيطون
د علي زواري أحمد
د. الصادق ذهب
د. عباس منصر
د. عبد القادر شكيمة
د. مختار قديري
أ. محمد الصالح غريسي
أ. نبيل بوراس

كلمة مدير الملتقى:



الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وأصحابه أهل الود والوفاء، وبعد:

فالشكر موصول ابتداء للسيد مدير الجامعة المحترم سعادة الأستاذ الدكتور عمر فرحاتي الراعي الرسمي لهذا الملتقى المبارك، كما الشكر موصول للسيد مدير المعهد سماحة الأخ الأكبر والمعلم والموجه الأول لأسرة المعهد الأستاذ الدكتور إبراهيم رحمانى فكان نعم المرافق ونعم المستشار في كل مراحل إعداد الملتقى.

أستاذتي الأفاضل، الباحثون الأكارم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ما هذه الأشغال والجلسات التي ستعقد اليوم والغد إلا تنويجا لعمل أشهر موالية من المتابعة العملية والإدارة الإلكترونية التي أخذتها على عاتقي الشخصي رداً على التساؤلات وإجابة على الاستفسارات الواردة إلى بريد الملتقى فالحمد لله الذي وفقنا وما كنا لنوفق لولا أن هدانا الله.

هذا الملتقى نجاح لمعهدنا واستحقاق علمي لجامعتنا التي نسعى جميعاً كأُسرة جامعية ننتسب إليها لتطويرها والوصول بها أعلى المراتب في مصاف الجامعات الوطنية والدولية.

أما فكرة الملتقى فتدور بالأساس حول العناية بموروث علمائنا وجمع متفرقات قرائح جهابذتنا الذين أفنوا أعمارهم في خدمة كتاب الله فأقل ما يمكن أن نقدمه إلى أرواحهم الزكية جهداً علمياً نسديه لأمتنا ووطننا نهتم من خلاله بجهود هؤلاء في تنزيل النص القرآني على الواقع. فشمرت على ساعد الجد واستعنت بعد الله تعالى بزملائي في اللجنة العلمية وأخرجنا ديباجة الملتقى في بداية شهر ماي المنصرم فما إن خرج إعلان الملتقى حتى تفاعل الباحثون وتسابق المهتمون من داخل وخارج الوطن للكتابة في محاوره.

إن هذا الواجب العلمي والأخلاقي يحتم علينا أن نقف على تفاعلات هؤلاء الأعلام مع النص القرآني ومحاولاتهم إسقاطه على الواقع المعاش في شتى المجالات، وهذا

لاستلهم الدروس والعبر والبحث عن الحلول للمشكلات والمستجدات التي طرأت على الأمة في عصورهم ومحاولة الاستفادة منها اليوم للنهوض بأعباء أمتنا ووطننا وهذا كله تحقيقاً لأصل صلاحية القرآن لكل زمان ومكان.

فكانت حصيلة البحوث الواردة في الأجال 52 بحثاً مكتملاً، بعد التحكيم العلمي والمنهجي الذي سادته السرية والحياد وفق معايير الجودة التي أقرتها اللجنة العلمية الموقرة أسفرت عملية الانتقاء على إجازة (34) بحثاً محكماً مست محاور الملتقى الخمسة. في حين رفض (18) بحثاً منها (4) من خارج الوطن و(10) بحوث من داخل جامعة الوادي.

أما البحوث المجازة للمشاركة فتفصيلها كالآتي:

- (3) بحوث من المملكة العربية السعودية.
(13) بحثاً مقدم من طلبة الدكتوراه منها (8) من جامعتنا و(5) من مختلف الجامعات الوطنية.
(18) بحثاً من الأستاذة الباحثين منها (7) بحوث من خارج جامعة الوادي.

هذا إن دل على شيء إنما يدل على الشفافية التامة والنزاهة اللا متناهية التي صاحبة عملية التحكيم والانتقاء؛ وهذا كله من أجل تحقيق الأهداف المرسومة من إقامة هذا الملتقى.

فهنيئاً للباحثين بهذه المشاركة العلمية الفاعلة وهنيئاً لمعهدنا بهذا الملتقى الدولي الذي يعكس الحركية العلمية بجامعتنا وأتمنى للجميع التوفيق والسداد والله من وراء القصد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وشكراً.

د. عباس منصر

أستاذ محاضر "أ" في التفسير وعلوم القرآن
قسم أصول الدين - كلية العلوم الإسلامية - جامعة الوادي
meneceur-abbas@univ-eloued.dz

كلمة رئيس الملتقى:



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

وبعد،،،

فإن الاشتغال بالقرآن الكريم يعد أشرف الأعمال التي يتنافس فيها المتنافسون ويتسابق إليها المتسابقون؛ إذ يستلهم هذا الشرف والمكانة من شرف الموضوع وهو كتاب الله الخالد، ورسالة رب العزة إلى خليفته في أرضه.

وعلى هذا، فمنذ أن بدأ نزول الوحي على خاتم الرسل محمد ﷺ حتى ملك هذا الكلام الإلهي على الناس أفئدتهم، وأصبح محور عناية مجالسهم، واشتغلوا عليه جماعات ووحدانا لاكتشاف أسرارهِ وبيان معانيهِ؛ استجابة لطلب تدبرهِ والتفكر فيه، وبحثا عن معالم الهداية للتي هي أقوم.

والأصل أن تتجسد تلك الهداية في السلوك الفردي والجماعي، وأن يحسن الناس تمثّل مطلوبات الوحي المطهر فيزيلوا من حياتهم كل مظاهر التعاسة والشقاوة التي مكنت لها الجاهلية لقرون، وجعلت من حياة الخلق شقاء لا يطاق.

ولئن كان كلام الوحي للناس عامة، إلا أن مدارك الناس ومستوياتهم في الفهم مختلفة؛ فاقضى الأمر أن ينفر من كل طائفة جماعة يتخصصون في تعلّم أحكام هذا الدين، ويتولون تذليل الصعاب أمام من لم يتمكنوا من حسن الفهم أو التطبيق. ولقد تنوعت الجهود، وتعددت المستويات، وتشكلت على مدى قرون من الزمن ثروة علمية يصعب حصرها، مثّلت خلاصة تفاعل عقول النابهين من أبناء المسلمين مع توجيهات القرآن الكريم، وأثمرت مواقف تستعصي عن العد سجّلت مشاهد مختلفة لإصلاح الواقع البشري بمقتضى التوجيه الرباني، وهو ما نطلق عليه في هذا الملتقى: تنزيل النص القرآني على الواقع.

وإن برمجة هذا اللقاء العلمي يعبر عن إرادة راسخة لدى المشتغلين بالعلوم الإسلامية بجعل القرآن الكريم في المقام الأول من العناية البحثية، وأنه الأصل وغيره

متفرع عنه، وأنه لا يمكن أن توصف أي أعمال علمية تنجز بكونها إسلامية ما لم تستند إلى هذا الركن المتين، كتاب الله الخالد.

ثم إن دراسة تجارب المتفهمين من العلماء الأخيار من أعلام بلدنا في الغرب الإسلامي تفتح آفاقا واسعة أمام عقل المسلم المعاصر ليدرك مدى ضرورة التجاوب مع متطلبات الحياة ونوازله، وإن علماءنا القدامى اجتهدوا وفق آليات النظر والاستدلال لإيجاد حلول لمشكلات عصرهم، بل لتحسين أوضاعهم المختلفة؛ فلماذا لا يكون لمن يأتي بعدهم الحق نفسه؛ فيستفيدون من هذا الرصيد علميا ومنهجيا، ويرفعون مستوى أداء الأمة اليوم حضاريا استلهاما من القرآن الكريم؟

نأمل أن يوفق الباحثون في وضع أيديهم على مفاصل الموضوع بما يمكن من إيضاح القواعد الحاكمة لتنزيل النص القرآني على الواقع، وبما يجعل قراءتنا للواقع صحيحة تثمر الخير إن وجدت هداية السماء إليه مسلكا منظما لمعطياته.

لا يفوتني في مقام التقديم لهذا العمل العلمي المبارك أن أوجه خالص شكري وتقديري للسيد مدير الجامعة البروفيسور عمر فرحاتي على رعايته الكريمة وحسن مرافقته لمختلف الأنشطة العلمية للمعهد، وأشكر أيضا مساعدي المدير على مؤازرتهم المتواصلة، وأشكر مدير الملتقى د. عباس منصر ومختلف معاونيه في اللجنتين العلمية والتنظيمية على الجهود المبذولة في هذا الملتقى. كما أخص الباحثين بالتهنئة والشكر على إنجازهم هذه البحوث المفيدة، وأسأله سبحانه أن يبارك في الجميع، وأن ينفع بهذا الإصدار ويتقبله في صالح الأعمال.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أ. د. إبراهيم رحمانى

أستاذ أصول الفقه والفقه المقارن

عميد كلية العلوم الإسلامية - جامعة الوادي

rahmani-brahim@univ-eloued.dz

مجموع بحوث المتقى

شروط تنزيل النصّ القرآنيّ على الواقع

د/ علي زواري أحمد

قسم الحضارة الإسلامية-معهد العلوم الإسلامية – جامعة الوادي

zouari-ahmed-ali@univ-eloued.dz



ملخص

يندرج مقالنا ضمن الموضوعات القرآنيّة التي تحتاج للبحث والدّراسة في عصرنا اليوم؛ ألا وهو موضوع تنزيل القرآن على الواقع، وذلك لبيان الشّروط اللازم توفّرها لتّنزيل حتى يؤدي القرآن الكريم دوره في معالجة واقع النّاس، ويحقّق صلاحية نصّه الخالد المعجز لكلّ الأزمنة والأمكنة، وما يحتاج الأمر منّا إلّا حسن التّنزيل الذي يجعل النصّ القرآنيّ مقبولا ومستساغا في الواقع الذي أنزل عليه، ومن تلك الشّروط التي وقفنا عندها؛ الشّروط الأوّل: فقه النصّ القرآنيّ. والشّروط الثّاني: فقه الواقع. والشّروط الثّالث: فقه التّنزيل، وقد توصّلنا لجملة من التّنتائج، منها: أنّ تنزيل النصّ القرآنيّ على الواقع من الحاجيات لكلّ عصر، ولا بدّ فيه من الجمع بين فقه النصّ القرآنيّ وفقه الأحوال الواقعيّة حتّى يمكن تنزيل النّصوص القرآنيّة عليها، كما أنّ تنزيل النّصوص القرآنيّة على الوقائع من المنزلقات الخطيرة التي يجب الحذر منها.

الكلمات المفتاحيّة: تنزيل؛ النصّ القرآنيّ؛ فقه النصّ القرآنيّ؛ فقه الواقع؛ فقه التّنزيل.

Summary

Our article falls within the Qur'anic topics that need research and study in our time today, namely the subject of downloading the Qur'an to reality, in order to indicate the necessary conditions for downloading in order for the Holy Qur'an to play its role in addressing the reality of people, and to achieve the validity of its immortal and miraculous text for all times and places, and what is needed from us is the good download that makes the Qur'anic text acceptable and palatable in the reality on which it was revealed, and from those evils that we stood on; the first condition - the jurisprudence of the Qur'anic text. The second condition – the jurisprudence of reality. And the third condition - the jurisprudence of the download, and we have reached a number of results, including: that downloading

the Qur'anic text on reality is one of the needs of each era, and in it it is necessary to combine the jurisprudence of the Qur'anic text with the jurisprudence of the factual conditions so that the Qur'anic texts can be downloaded to reality, and the download of Qur'anic texts on facts is one of the dangerous slides that must be guarded against.

Keywords: download; Qur'anic text; jurisprudence of the Qur'anic text; jurisprudence of reality; jurisprudence of download.

مقدمة

القرآن الكريم كتاب الله الخالد، ورسالته الخاتمة التي أرسلها رحمة للعالمين، فأحكم آياته ثم فصلها بحسب الوقائع والمناسبات، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾¹. ولذا اقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل هذا القرآن مفزقا على الأحداث والوقائع، فقال تعالى معللا ذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾². وقال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾³.

وهذا ما أراده الله تعالى بتنزيله وفق أسباب في الأرض في أوقات وأزمان معينة، فكان من بعض أبعاد تفريق إنزاله مراعاة الأسباب والمناسبات، ومعالجة المشكلات، وتقديم الأحكام للمحدثات والمستجدات، والإجابة عن أسئلة الإنسان، وتقديم العطاء الخالد لمسيرة الحياة، وبناء الأنموذج المحتذى، وإقامة الحضارة وفق منهج اللبنة، وأخذ الناس بأحكام التشريع شيئا فشيئا، وتربية نفوسهم وسلوكهم وعقولهم بقيم الدين، وتمكينهم من استيعاب أحكامه وتمثلها في واقع الحياة بتثبيت وتمهل وأناة⁴.

وهذا ما فهمته أمتنا عبر عصورها المختلفة حتى أصبحت ظاهرة تنزيل النص القرآني على الواقع من الأشياء المعلومة لدى الأمة، ولكنها مع ذلك تتفاوت من عصر لعصر، فقد تغيب أو تضعف في مرحلة من المراحل، فلما تقوى وتظهر في عقد آخر ومرحلة أخرى، وهكذا دواليك حتى أخذت بالظهور التدريجي في العقود الأخيرة من زمننا، وذلك أن القضية تكمن في صلاحية النص القرآني لكل زمان ومكان، وارتباط مفاهيمه بمقاصدها، واقتراح أحكامه بأسبابها ودواعيها، ما يجعلنا نستصحب هذا الأمر عند تنزيل النصوص القرآنية على

1 - هود: 1.

2 - الفرقان: 32.

3 - الإسراء: 106.

4 - ينظر: عمر عبيد حسنة، تقديم لكتاب: فقه التّزويل عند الإمام ابن تيمية، الأستاذة / جميلة حسن تلوت، من كتاب الأمة، ص: 5.

الواقع.

وللعلم فإنّ مسألة التّنزيل للنصّ القرآنيّ ليست مجرد ذكر آية في شيء ما ولا تلقي لها بالا، وخاصّة ممّن لهم صيت وصوت مسموع ولهم تأثير في الرأى العام، بل إنّ مسألة التّنزيل من الخطورة بمكان - رغم أهميتها - فهي قضيّة ذات حدين؛ إمّا أن تكون نافعة أو تكون ضارة، وفي هذا يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة: "أما الإشكاليّة أمس واليوم وغدا أنّنا أمام جملة آيات القرآن، أو أمام القرآن جملة واحدة، وأمام مجمل تجسيدها في مجتمع النّبوة، وجملة فهمها وتنزيلها من خلال التّراث، فكيف نستوعب هذا جميعه، بكلّ ما يتطلّب من تخصّصات وأدوات معرفيّة شرعيّة وإنسانيّة واجتماعيّة وتشريعيّة وقانونيّة وعباديّة؟ وكيف نستوعب واقعنا بكلّ ظروفه وتعقيداته ومكوّناته؟ وكيف نقيس ونحدّد ونفقه استطاعتنا، محلّ التّكليف أو مناط التّكليف؟ وكيف نضع هذا الواقع في موقعه المناسب، ونستهدي بالتّراث في كفيّة تنزيل القيم الملائمة للحال التي نحن عليها، والواقع الذي نعيشه، من خلال جملة آيات القرآن الكريم؟ وكيف نطوّر ونرتقي باستطاعتنا لاستكمال تنزيل جملة الآيات على واقعنا؟¹.

ونظرا لأهميّة ما ذكرنا فقد وسمنا بحثنا بـ: "شروط تنزيل النصّ القرآنيّ على الواقع".

أهميّة الموضوع:

لا ريب أن الموضوع له أهميّة بالغة في حياتنا، وخاصة في عصرنا الذي تكاثرت فيه الأحداث، وتقدّم فيه العلم، وتغيّرت فيه الطّباع بسبب الحياة المعاصرة وما فيها من زخم إنتاجيّ بسبب الثّورة العلميّة التي شهدها العالم، وقد أدى كلّ ذلك لنشوب الصّراعات والتّجاذبات وظهور النّظم والقوانين والتّكتلات ما أدّى لتعقيد العديد من جوانب الحياة سواء على مستوى الأفراد أو مستوى الجماعات والدّول، لذا أصبح من الضّروري الالتفات لمسألة تنزيل النصّ القرآنيّ على الواقع المعيش بما يتلاءم ويتناسب وهذا الواقع، وعليه تكمن أهميّة الموضوع في:

- دور القرآن الكريم في معالجة واقع النّاس، وصلاحيّة نصّه الخالد المعجز لكلّ الأزمنة والأمّكنة، وما يحتاج الأمر منّا إلا حسن التّنزيل الذي يجعل النصّ القرآنيّ مقبولا ومستساغا في الواقعة التي أنزل عليها.

- حاجة الدّعاة والخطباء والمتخصّصين في العلوم الإسلاميّة إلى توصيف الواقع بتنزيل النصّ القرآنيّ عليه تنزيلا سليما صحيحا، فلا يكون في ذلك تعسف، ولا ليّ لأعناق النّصوص القرآنيّة بسبب تنزيلها في غير مواطنها.

1 - ينظر: عمر عبيد حسنة، فقه التّنزيل عند الإمام ابن تيمية، ص: 13

- كما أنّ موضوع التّنزيل للنصّ القرآنيّ ذو أهميّة كبيرة لأهل الاختصاص في تخصصاتهم المختلفة، حيث يحتاجون إلى توصيف الواقع الذي هم فيه، كالمختصين في التّربية، والاجتماع والنفس والسياسة والطّب والتّغذية .. كلّ أولئك بحاجة لتنزيل النصّ القرآنيّ لمعالجة ورسم الطّرق الكفيلة للتّهوض بتخصصاتهم.

- كما أنّ تنزيل النصّ القرآنيّ يحتاجه عامّة النّاس في حياتهم العامّة والخاصّة؛ فالإنسان يُنزّل النصّ القرآنيّ منزلة ما يُحب أن يتصوّره كما هو حاله في الواقع، فإذا كان مظلوما - مثلا - نراه يستشهد بآيات الظّلم ووعيد الظّالمين لتوظيف النصّ القرآنيّ المتعلق بالظّلم، وهكذا في كلّ شأنه يسعى الإنسان لتنزيل النصّ القرآنيّ على واقع حياته من فرح أو حزن أو فعل يُحقّق مصلحته.. وهذا أمر طبيعي أن يكون النصّ القرآنيّ مصحوبا في كلّ موقف من مواقف الحياة اليوميّة، لأنّه نصّ يتفاعل مع جميع الأفكار التي يُطلقها الفرد ويستصحبها فيها ليستشهد به في تقويّة نظريته، وتطويعه ليتماشى مع نسق الفكرة التي يحملها.

ولتلبية تلك الأفكار التي تنشأ من حين لآخر استطاع النصّ القرآنيّ أن يتماهى ويستوعب كلّ ما تمرّ به الإنسانيّة من مراحل التّطور في الحياة البشريّة، ليس فقط في العبادات؛ بل يتخطاها للتّخطيط للحياة الفعليّة التي تمثل الواقع من ناحيته السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والتربويّة والرياضيّة.. فالنصّ القرآنيّ قد أسّس لمفاهيم أدّت إلى احتواء تلك الأفكار مجملتها.

دوافع اختيار الموضوع

الدّافع الرّئيسيّ للكتابة في هذا الموضوع هو المشاركة في هذا الملتقى الموسوم، بـ "جهود علماء الغرب الإسلاميّ في تنزيل النصّ القرآنيّ على الواقع" الذي ينظمه قسم أصول الدين، معهد العلوم الإسلاميّة، لجامعتنا بالوادي، والمنعقد بتاريخ: 15 و16 نوفمبر 2022م.

والدّافع الآخر هو المساهمة في معالجة الواقع - ولو بهذا الجهد المتواضع - نظرا لفسوّ ظاهرة التّنزيل للنصّ القرآنيّ في العشريّات الأخيرة من القرن الماضي وإلى اليوم، وهذا التّنزيل فيه النّافع الذي نفع الأمة وساهم في ترشيد مسيرتها ورسم طريق نهضتها وجمع شتات أمرها ووضع معالم مستقبلها فمثل هذا التّنزيل يُشدّ عليه، ويُشجّع على أمثاله، ولكن في المقابل فيه المنحرف الضّار الذي نتج عنه من المآسي والمصائب التي تجرّعت الأمة بسببه المتاعب وأوردها أعتاب المهالك، وشوّه سماحة قرآنها الذي كتب الله فيه الهداية للتي هي أقوم، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰثِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾¹.

الهدف من الموضوع

أما الهدف من الموضوع فيكمن في:

- معرفة كيفية تنزيل النصوص القرآنية على الواقع.
- بيان ضرورة التنزيل المنضبط والموزون لتحقيق الحياة بالقرآن في الواقع، ولا يمكن أن تنهض الأمة إلا من خلال ذلك، كما بين مالك بن نبي في شروط النهضة.
- بيان خطورة التنزيل إذا لم يكن منضبطا بالشروط المطلوبة.

إشكالية البحث

من خلال ما ذكرنا تتضح إشكالية موضوعنا، والمتمثلة في مدى معرفة الشروط المتعلقة بتنزيل النص القرآني على الواقع، ومدى الانضباط بها في الواقع ليسلم النص القرآني من التنزيل الخاطئ الذي قد يؤدي لنتائج وأثار سلبية على الأفراد والأمة وعلى فحوى النص القرآني ذاته.

منهج البحث

وقد اتبعنا في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي، الذي يوصف الحالة وشروطها، ثم يحلل المادة العلمية المتعلقة بذلك أثناء العرض والتفصيل، وبعدها يوصل لاستخراج النتائج وفقاً للشواهد والقرائن المذكورة في طيات البحث.

خطة البحث

وقد حاولنا وضع خطة موجزة ومختصرة وقاصدة ومناسبة لمعالجة الموضوع من غير الخوض في مقدمات وعناصر تُطنب الموضوع وتزيده حشواً هو في مندوحة عنه، تتمثل هذه الخطة في:

- مقدمة
- المطلب الأول: شرط فقه النص القرآني.
- المطلب الثاني: شرط فقه الواقع.
- المطلب الثالث: شرط فقه التنزيل.
- خاتمة.
- قائمة المصادر والمراجع.
- وبعد هذه المقدمة نشرع في عرض وتفصيل عناصر البحث.

المطلب الأول - شرط فقه النصّ القرآنيّ.

تمهيد:

هذا المطلب نتحدث فيه عن الشرط الأول والمتعلق بفقه النصّ القرآنيّ، ولكن قبل ذلك نعرّج على معنى الفقه والمراد بالنصّ القرآنيّ، ونبين أهميّة فقه النصّ القرآنيّ، ثم بعدها نتطرق للآليات الإجرائية المساعدة على فقه النصّ القرآنيّ لتنزيله على الواقع، وسنتناولها متتالية كلّ آليّة في فرع مستقل.

معنى الفقه: معناه الفهم والإدراك والعلم، فقه الأمر: فهمه بعد جهل وأدركه بعد تفكير، أي أحسن إدراكه¹. كما في قوله تعالى: "وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ"²، لا تفقهون: لا تفهمون. وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم في دعائه لابن عباس رضي الله عنهما: "اللَّهُمَّ فَقِّهُهُ فِي الدِّينِ"³. أي فهمه.

والمقصود بالنصّ القرآنيّ هاهنا هو كلام الله تعالى الموجود بين دفتي المصحف.

والمراد بفقه النصّ القرآنيّ كمركب ثلاثي، أي فهم وإدراك القرآن الكريم والإحاطة به علماً.

ففقه النصّ القرآنيّ من الشّروط المهمّة والضروريّة والأساسيّة المساعدة في تنزيل النصّ القرآنيّ على الواقع، ومن غير ذلك لا يمكن أن يسلم التّزيل من الانحراف والشّطط، وفي هذا يقول ابن باديس رحمه الله تعالى: "أن نقرأ القرآن ونتفهمه، حتّى تكون آياته على طرف ألسنتنا، ومعانيه نصب أعيننا، لنطبّق آياته على أحوالنا، ونُزِلها عليها كما كانت تنزل على الأحوال والوقائع، فإذا حدث مرض قلبيّ أو اجتماعيّ طلبنا دواءه في القرآن وطبقناه عليه. وإذا عرضت شبهة أو ورد اعتراض، طلبنا فيه الرّد والإبطال، وإذا نزلت نازلة طلبنا فيه حكمها، وهكذا نذهب في تطبيقه وتنزيله على الشّؤون والأحوال إلى أقصى حد يمكننا"⁴. وفيما يلي نعرض أهمّ الآليات الإجرائية المساعدة على فقه النصّ القرآنيّ، والمتمثّلة في الفروع التّالية:

1 - أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: 1424هـ): معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، 1429هـ - 2008م، 3/1732.

2 - الإسراء: 44.

3 - محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، رقم الحديث: 143، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة: الأولى، 1422هـ، 41/1.

4 - عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (المتوفى: 1359هـ): مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، المحقق: علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، 1416هـ - 1995م، ص: 181.

الفرع الأول - المعرفة بأسباب التّزول

لا ريب أنّ للنّصّ القرآنيّ آلياته وأدواته التي تؤدي لفهمه الفهم الصّحيح، ومن أهمّ ما يساعد على ذلك المعرفة بأسباب التّزول، وذلك لأنّ هذا العلم يساعد الإنسان على فهم النّصّ القرآنيّ مقرونا بالواقعة وظروفهما وملابساتهما التي قد تجعل النّصّ خاصّاً، والواقعة خاصّة، كما تجعلهما على العموم اتباعاً لقاعدة: أنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السّبب، إلّا أنّ رعاية أسباب التّزول تبقى في غاية من الأهميّة لفهم النّصّ ومدى شموليّته لبعض المستجدات والأحوال والوقائع من عدمها.

يقول الإمام الشّاطبيّ: "أنّ الغفلة عن أسباب التّزول تؤدي إلى الخروج عن المقصود بالآيات... وهذا شأن أسباب التّزول في التعريف بمعاني المنزل، بحيث لو فقد ذكر السبب؛ لم يعرف من المنزل معناه على الخصوص، دون تطرق الاحتمالات وتوجه الإشكالات".¹

وقد ضرب الشّاطبيّ مثالا على ذلك مفاده أنّ رجلا جاء إلى ابن مسعود رضي الله عنه؛ فقال: تركت في المسجد رجلاً يفسر القرآن برأيه، يفسر هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾²؛ قال: يأتي النّاس يوم القيامة دخان، فيأخذ بأنفاسهم، حتّى يأخذهم منه كهينة الزّكام. فقال ابن مسعود: "من علم علماً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإنّ من فقه الرجل أن يقول لما لا علم له به: الله أعلم، إنّما كان هذا لأنّ قريباً استعصوا على التّبيّ - صلى الله عليه وسلم - دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط وجهد حتّى أكلوا العظام، فجعل الرّجل ينظر إلى السّماء فيرى بينه وبينها كهينة الدّخان من الجهد؛ فأنزل الله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾³ الآية... إلى آخر القصة".⁴

فأسباب التّزول تشكّل وسائل الإيضاح المعينة على كيفة تنزيل النّص على الواقع، وكلّ واقع مماثل، في كلّ زمان ومكان، مثال ذلك في تنزيل قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَخْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾⁵.

هذه الآية نزلها بعض النّفر ممّن غزو القسطنطينيّة على بعض المقاتلين من المسلمين الذين حملوا على العدو بأنفسهم يطلبون الشّهادة في سبيل الله، فرأى أولئك النّفر أنّ هذا الصّنيع من تعريض النّفس للتهلكة، وتمّ تنزيل هذه الآية على هذه الواقعة، فما كان من أبي أيّوب الأنصاريّ رضي الله عنه إلّا أن يصوّب هذا التّزول من خلال سبب التّزول الذي شهدته

1 - إبراهيم بن موسى الشّاطبيّ (المتوفى : 790هـ): الموافقات، المحقق : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة : الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م، 151/4.

2 - الدخان: 10.

3 - الدخان: 10.

4 - الشّاطبيّ: الموافقات، 151/4.

5 - البقرة: 195.

بنفسه.

جاء في تفسير ابن جرير الطبري عن أسلم أبي عمران، قال: "غزونا المدينة، يريد بالقسطنطينية، وعلى أهل مصر عتبة بن عامر، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. قال: فصفنا صقين لم أر صقين قط أعرض ولا أطول منهما، والروم ملصقون ظهورهم بحائط المدينة، قال: فحمل رجل منا على العدو، فقال الناس: مه! لا إله إلا الله، يلقي بيده إلى التهلكة! قال أبو أيوب الأنصاري: إنما تتأولون هذه الآية هكذا، أن حمل رجل يُقاتل يلتمس الشهادة، أو يُبلي من نفسه! إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار! إنا لما نصر الله نبيه وأظهر الإسلام، قلنا بيننا معشر الأنصار خفيًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا قد كنا تركنا أهلنا وأموالنا أن نقيم فيها ونصلحها حتى نصر الله نبيه، هلم نقيم في أموالنا ونصلحها! فأنزل الله الخبر من السماء: "وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" الآية، فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة: أن نُقيم في أموالنا ونصلحها، وندعُ الجهاد. قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يُجاهد في سبيل الله حتى دُفن بالقسطنطينية".¹

فالصحابة رضي الله عنهم أقدر الناس على فهم النص القرآني لما حباهم الله به من مصاحبة أسباب نزول القرآن الكريم، وهم في هذا أثبت الناس قولاً لمعايشتهم للوقائع، وفي هذا يقول الشاطبي رحمه الله تعالى: "مباشرتهم للوقائع والنوازل، وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة: فهم أقعد في فهم القرائن الحالية² وأعرف بأسباب التنزيل، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب. فمتى جاء عنهم تقييد بعض المطلقات، أو تخصيص بعض العمومات؛ فالعمل عليه صواب، وهذا إن لم ينقل عن أحد منهم خلاف في المسألة، فإن خالف بعضهم؛ فالمسألة اجتهادية".³

الفرع الثاني - الاستعانة بفهم الصحابة لسور والآيات القرآنية

كما أن من الأشياء المعينة على فهم النص القرآني فهما سليماً ما ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم من فهم لبعض سور وآيات القرآن الكريم، فإثبات فهم السلف للنص القرآني على نحو معين من أهم الوسائل لفهمه وتنزيله على واقعنا إن كانت الملابس تتماثل، وذلك أن بعض نصوص القرآن يُفهم ظاهرها بدلالة معينة، ويُفهم باطنها بخلاف ذلك، من ذلك فهم عمرو بن عباس رضي الله عنهما وتنزيلهم لسورة النصر على أنها قرب أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله إياه.

1 - محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ): جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م، 3/590.

2 - أي: التي تعي من جهة الحوادث والنوازل المقتضية لنزول الآية وورود الحديث.

3 - إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: 790هـ): الموافقات، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى 1417هـ/1997 م، 4/128.

عن ابن عباس رضي الله عنه، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سألهم عن قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، قالوا: فتح المدائن والقصور، قال: فأنت يا بن عباس ما تقول؟ قلت: مَثَلٌ ضُرِبَ لمحمد صلى الله عليه وسلم نعت إلىٰه نفسه¹.

وفي رواية أخرى لابن عباس رضي الله عنه، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يُدنيه، فقال له عبد الرحمن رضي الله عنه: إِنَّ لَنَا أَبْنَاءً مِثْلَهُ، فقال عمر: إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ تَعْلَمُ، قَالَ: فَسَأَلَهُ عمر رضي الله عنه عن قول الله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ السَّورَةُ، فقال ابن عباس رضي الله عنه: أَجَلُهُ، أَعْلَمَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، فقال عمر: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مِثْلُ مَا تَعْلَمُ².

فَالصَّحَابَةُ رضي الله عنهم كما يقول ابن رشد رحمه الله تعالى: "كانوا هم أَقْعَدُ بِمَفْهُومِ الْأَحْوَالِ وَدَلَالَاتِ الْأَقْوَالِ"³.

الفرع الثالث - مراعاة اجتهاد السلف أو اتفاقهم على تنزيل نص قرآني معين

ومن الأشياء المعينة على فهم النَّصِّ القرآني والمساعدة على تنزيله على واقعة ما، هو اتفاق السلف على تنزيل نص قرآني معين في واقعة معينة، أو اجتهاد بعضهم في تنزيله على واقعة معينة حدثت في عصرهم، ولو بعد عصر النبوة، وما أَكْثَرَ ذَلِكَ فِي أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ رضي الله عنهم التي ذكرها المفسرون في تفسير الآيات القرآنية.

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وانظر في عموم كلام الله ورسوله لفظا ومعنى، حتى تعطيه حقه، وأحسن ما تستدل به على معناه: آثار الصحابة الذين كانوا أعلم بمقاصده، فإن ضبط ذلك يوجب توافق أصول الشريعة وجريها على الأصول الثابتة المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾"⁴.

مثال ذلك ما جاء في تفسير القرطبي رحمه الله تعالى في بيان معنى الفتنة من قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁵.

1 - الطَّبري: جامع البيان، 668/24.

2 - المرجع نفسه والصفحة نفسها.

3 - أبو الوليد محمد بن أحمد الشهير بابن رشد الحفيد (المتوفى: 595هـ): بداية المجتهد ونهاية المقتصد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة: الرابعة، 1395هـ/1975م، 305/1.

4 - الأعراف: 157.

5 - تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (المتوفى: 728هـ): القواعد النورانية الفقهية، حققه وخرَّج أحاديثه: د أحمد بن محمد الخليل، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1422هـ، ص: 223.

6 - النور: 63.

قال: والفتنة هنا القتل، قاله ابن عباس. عطاء: الزلازل والأهوال. جعفر بن محمد: سلطان جائر يسلط عليهم¹.

فهذا القول الأخير الذي ذكره القرطبي عن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه أخذه ابن باديس رحمه الله تعالى ونزله على واقعه وواقع الأمة، جاء في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، لابن باديس تحت عنوان "أعظم الفتنة" قوله: "غير أن أعظم الفتنة- فيما نرى- هو ما قاله الإمام جعفر الصادق: "أن يسلط عليهم سلطان جائر" فإنه إذا جار السلطان- وهو من له السلطة في تدبير أمر الأمة والتصرف في شؤونها- فسد كل شيء: فسدت القلوب والعقول والأخلاق والأعمال والأحوال، وانحطت الأمة في دينها ودنياها إلى أحط الدرجات، ولحقها من جرائه كل شر وبلاء وهلاك.

ثم يتفاوت ذلك الفساد بحسب ذلك الجور في قدره وسعته ومدّة بقائه. هذا إذا كان ذلك الجائر من جنسها ويدين- بحسب ظواهره- دينها، فكيف إذا لم يكن من جنسها ولا دينها في شيء!!

حقاً إنّ أعظم ما لحق الأمم الإسلامية من الشرّ والهلاك كلّها جاءها على السلاطين الجائرين منها ومن غيرها. وهذا ما يشهد به تاريخها في ماضيها وحاضرها. فما أصدق كلمة جعفر الصادق، وما أعمق نظره فيها!! ومن أحق بمثلها من بيت النبوة ومعدن الحكمة؟! عليهم الرضوان والرحمة².

الفرع الرابع - فهم اللغة العربية واستعمالها

كما أنّ من العوامل المساعدة على فقه النصّ القرآنيّ فهم اللغة العربيّة كما نزل بها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾³. فبلغة العرب نزل القرآن ومن خلالها يفهم كما كان زمن نزوله، قال الشافعي: "فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرّف من معانيها"⁴، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قُلُوبِكَ لَتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾⁵، قال ابن خلدون: "فاعلم أنّ القرآن نزل بلغة العرب وعلى وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلّهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه"⁶.

1 - القرطبي أبو عبد الله (المتوفى: 671هـ): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964م، 323/12.

2 - ابن باديس: مجالس التذكير، ص: 338.

3 - يوسف: 2.

4 - محمد بن إدريس أبو عبد الله الشافعي (المتوفى: 204هـ): الرسالة، المحقق: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، الطبعة: الأولى، 1358هـ/1940م، 50/1.

5 - الشعراء: 193 - 195.

6 - عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون (المتوفى: 808هـ): تاريخ ابن خلدون، المحقق: خليل شحادة، دار

لهذا لا يمكن تنزيل نصّ قرآنّي على واقعة إلا بفهم اللّغة واستعمالها في القرآن الكريم، فمعرفة معاني الآيات ومدلولات ألفاظها من حيث الاستعمال القرآني من الوسائل المهمّة في تنزيل النّصّ القرآني، ولا نعجب حين نرى السّلف يردّون كلّ تنزيل لا يتوافق واللّغة القرآنيّة.

من ذلك تنزيل لفظ البعير - على الحمار - لورود لفظ البعير في النّصّ القرآني من قوله تعالى: ﴿وَنَزَّادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾¹. وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾². على من أوصى قبل موته أن يتصدّق عليه أهله بحمار، فهل يُنزل على الجمل الذّكر أم على النّاقة الأنثى، أم على الاثنين، أم على غيرهما من الدواب كالحمير؟، فعرفنا الذي نعرفه يفرق بين البعير والحمار ولا يستعمل أحدهما مكان الآخر، وإذا أُطلق لفظ البعير كان على الجمل الذّكر لا على النّاقة.

ومع ذلك كان الخلاف بين الفقهاء في تنزيل هذا النّصّ على الواقع العرفي اللّغوي الذي سينزل عليه النّصّ القرآني، فمتى كان لفظ البعير يُطلق على أحد تلك المعيّنات كان محلا للوصيّة ونزل عليه النّصّ القرآني، وإلا كان التّنزيل في غير محله ويجانبه الصّواب، مع أنّ احتمال اطلاق لفظ البعير على الحمار مستساغ لسياق الآيات التي جاءت باللفظ الذي يتناسب والمخاطبين وهم العبرانيون أبناء يعقوب عليه السلام، الذين يستعملون لفظ البعير ويطلقونه على الحمير.

جاء في كتاب حياة الحيوان الكبرى لمحمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، تحت عنوان: البعير، قوله: "سعيّ بعيرا لأنّه يبعّر، يقال: بعّر البعير بفتح العين فهما بعرا بإسكان العين كذبح يذبح ذبحا، قاله ابن السكيت وهو اسم على الذّكر والأنثى، وهو من الإبل بمنزلة الإنسان من النّاس، فالجمل بمنزلة الرجل، والنّاقة بمنزلة المرأة، والقعود بمنزلة الفتى، والقلوص بمنزلة الجارية، وحكي عن بعض العرب: صرعتني بعيري، أي ناقتي، وشربت من لبن بعيري. وإنّما يُقال له بعيرا إذا أجذع، والجمع أبعرة وأباعر وبعران. قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، أراد بالبعير الحمار، لأنّ بعض العرب يقول للحمار بعير، وهذا شاذ، ولو أوصى ببعير تناول النّاقة على الأصحّ. وهو كالخلاف في تناول الشّاة الذّكر، وإن كان عكسه في الصورة.

والوجه الثّاني عدم التّناول. وهو المحكي عن النّصّ، والمعروف في كلام النّاس خلاف كلام العرب تنزيلا للبعير منزلة الجمل. قال الرّافعي: وربما أفهمك كلامهم توسّطا بين تنزيل

الفكر، بيروت، الطبعة: الثّانية، 1408هـ - 1988م، 1/553.

1 - يوسف: 65.

2 - يوسف: 72.

النّص، على ما إذا عمّ العرف باستعمال البعير بمعنى الجمل، والعمل بما تقتضيه اللّغة إذا لم يعم لا جرم.

قال الشّيع الإمام السّبيكي: إنّ تصحيح خلاف النّص في مثل هذه المسائل بعيد، لأنّ الشافعي رضي الله عنه اعرف باللغة، فلا يخرج عنها إلا لعرف مطرد، فإن صح عرف بخلاف قوله اتبع، وإلا فالأولى اتباع قوله¹.

لهذا يحتاج التّنزيل إلى الفهم الدّقيق باللغة العربيّة، كعلم الصّرف، ومعاني الأبواب الصرفيّة ودلالاتها، كما يحتاج إلى علوم النّحو والبلاغة وفقه اللغة، وغيرها من علوم اللغة العربيّة. يقول الأستاذ محمد سالم: "لقد وقفنا على تحقيق نفيس في هذا المقام بسطه الشّاطبي- رحمه الله- في فصل العموم والخصوص، ونحن نكتفي هنا بعرض خلاصته، وهي أنّ مراتب العموم ثلاثة:

المرتبة الأولى: مرتبة العموم الوضعي، وهو استغراق ما يدل عليه اللفظ بحسب أصله الإفرادي وحقيقته اللغوية. وهذه هي أوسع المراتب وأعمها.

المرتبة الثّانية: مرتبة العموم في الاستعمال اللّغوي، وهو استغراق ما يدل عليه الكلام بحسب عرف التخاطب عند العرب، وما يغلب قصدهم إليه في محاوراتهم، حتى صار فيه كأنه حقيقة عرفية عامة.

المرتبة الثّالثة: مرتبة العموم في الاستعمال الشّرعي، وهو استغراق ما يدل عليه الكلام بحسب ما عرف من مقاصد الشّارع وقواعده، حتى صار كأنه فيه حقيقة عرفيّة خاصّة "حقيقة شرعيّة".

وطريقة تنزيل النّصوص على هذه المراتب ألا ينتقل بها عن مرتبة من العموم إلى مرتبة أوسع منها إلا حيث لا يوجد داع للوقوف عند تلك المرتبة الدنيا.

فينبغي في كلّ موضع أن ينظر إلى النّص: هل للشّارع فيه عرف خاصّ يحدّ من عمومه ويضيّق من دائرته؟ فإن كان؛ وجب تنزيل النّص على قدر تلك المرتبة، ومن جاوزها إلى ما وراءها؛ فقد زاد في الشّرع ما ليس منه. وإن لم يكن للشّارع عرف خاصّ؛ وجب أن ينظر مرة أخرى: هل جرى عرف العرب في محاوراتها بحمل ذلك النّص على وجه لا يستوعب كلّ حقيقة؟ فإن وجد؛ فليقتصر عليه دون زيادة ولا مجاوزة. وأمّا إذا لم يكن عرف خاصّ شرعيّ، ولا عرف عام لغويّ؛ فيفسّر النّص ببعض متناولاته، فإنّه يجب أن يرجع به إلى أصل وضع اللّغة، فتؤخذ القضية فيه بأوسع معاني العموم التي تقبلها صيغتها. ومن وقف بالعموم حينئذ دون غايته؛ فقد نقص من الشرع ما هو فيه.

1 - محمّد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، كمال الدين الشّافعي (المتوفى: 808هـ): حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثّانية، 1424 هـ، 1/ 193.

وهذا الترتيب، وإن كان متفقاً عليه في الجملة، إلا أن العلماء قد يختلفون في المرتبة اللاتقة بنصّ، بناء على أن بعضهم قد يفهم في الاستعمال أو الشرعي من القرائن المخصّصة ما لا يفهمه غيره، فيأخذ هذا بالخصوص وذلك بالعموم¹.

ومثال ما جرى فيه للشارع عرف خاص يقف به دون الأوضاع والاستعمالات اللغوية: ما ورد من عمومات الوعيد على الذنوب التي هي بمفردها دون الشّرك، ولكّنها في الأصل من مساوئ أعمال الكفار، وقبائح صفاتهم، فلما توعّد فاعلوها؛ لم يستثن منهم أحد أتكالاً على ما عرف من كليات الشرع القطعية أن كلّ ذنب دون الشّرك لا بأس من مغفرته، كقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾². ونحوها. فمن لم يعرف معهود الشّارع ومقاصده حمل تلك العمومات على ظاهرها في المؤمنين وغيرهم³.

ذلك .. أن الله تعالى إنّما ذكر الكفّار في القرآن بأسوأ أعمالهم، والمؤمنين بأحسن أعمالهم ليعتبر أولو الأبصار وليجتهدوا في الفرار من مثل أعمال المسيئين، وفي اللّحاق بدرجات المحسنين، سيرا على قدمي الخوف والرجاء .. غير آمنين من مكر الله ولا يائسين من رحمته، وهذا هو معنى قول العلماء: إن كل آية وردت في حق الكفّار فإنّها تجرّ بذيلها على عصاة المؤمنين .. فما أدقّ هذا التعبير! حيث قالوا "تجرّ بذيلها" ولم يقولوا: تطبق بنصّها، وذلك لأنّ العقوبات فيها لا تنطبق بنصّها على المؤمنين كما هي، وإنّما يصيب العاصي طرف منها إن لم يعف الله عنه⁴.

فتنزيل آيات الكفار على المؤمنين بما جرى به الاستعمال القرآني رأيناه في واقعنا مشاهدا ومسموعا ومكتوبا، وأصاب الأئمة به غلط كثير، ودبّ بينها الخلاف بسببه وحلّت الفرقة من جراء ذلك، يقول الأستاذ سليمان بن حمد العودة: "ولكنني قبل ذلك أسارع القول مُحذراً من مسلكٍ خطير واستعمالٍ محذور، ألا وهو محاولة تطبيق (تنزيل) الأحكام الشرعية التّظريّة على الواقع من قبل أناسٍ لا يملكون أدوات التّطبيق، وليس لهم من فهم قواعد الشريعة وكلياتها ما يستطيعون به تنزيل النّصوص منازلها الحقّة، فلا ينبغي أن تدرج قضية التكفير على كلّ لسان، ومصيبةٌ أن يتجرأ فيها سفهاء الأحلام بغير علم ولا برهان، وأهل السنة- قديماً وحديثاً- يحتاطون لذلك كثيراً، ولذا فرقوا بين تكفير المطلق وتكفير المعين، ووضعوا شروطاً للتكفير وموانع يعذرُ بها الجاهل والمتأوّل .. إلى غير ذلك من ضوابط يعيها الرّاسخون في العلم، وإليكُم شيئاً من احتياطاتهم وحذرهم من تكفير المعين. يقول ابن

1 - محمّد سالم أبو عاصي: علوم القرآن عند الشّاطبيّ من خلال كتابه الموافقات، دار البصائر، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1426هـ - 2005م، ص: 66.

2 - التغابن: 9.

3 - ينظر: محمد سالم: علوم القرآن عند الشّاطبيّ، ص: 69.

4 - ينظر: المرجع نفسه، ص: 72.

تيميّة، يرحمه الله: (وليس لأحدٍ أن يكفر أحداً من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تُقام عليه الحجة، وتبين له المحجة، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يُزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة)¹.

بل ولم يسلم من ذلك التّزِيل حتّى أُعين الأفراد ما بالك بمجموعهم، ومثل هذا التّزِيل له من المخاطر ما لا تحمد عواقبه، يقول عبد الله بن يوسف الجديع: "ومن أبطل الباطل وأظلم الظلم تنزيل النصوص العامّة في التكفير وشبهه على الأعيان من المسلمين لمواقعهم لذلك، خاصّة في هذا الزّمان لغلبة الجهل، قبل أن تقوم عليه الحجة الشرعيّة ممن هو أهل لإقامتها، لا من الصّبيان في العلم وأتباع الخوارج، وتكون الحجة قد بلغت وفهمها المبلغ، في تفصيل ليس لهذا موضعه"².

الفرع الخامس - معالجة التّزِيل المخالف للفهم السّليم للنّص القرآنيّ

لقد كان الصّحابة الكرام رضي الله عنهم بالمرصاد لأيّ تنزيل سمعوه يخالف الفهم السّليم للنّص القرآنيّ، فكما ذكرنا من قبل وقفة أبي أيّوب الأنصاريّ نورد كذلك هنا وقفة حبر الأُمّة عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه، حين راجع الخليفة مروان بن الحكم في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾³. فمروان بن الحكم توقف في تنزيل هذا النّص القرآنيّ حتى سأل ابن عباس فقال له: ما لكم ولهذه الآية؟! ...

جاء عند ابن جرير الطّبريّ، عن عبد الله بن أبي مليكة: أن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أخبره: أنّ مروان بن الحكم قال لبوابه: يا رافع، اذهب إلى ابن عبّاس فقل له: "لئن كان كل امرئ ممّا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً، لتعذبنّ جميعاً!" فقال ابن عبّاس: ما لكم ولهذه الآية؟ إنّما أنزلت في أهل الكتاب! ثمّ تلا ابن عبّاس: "وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للنّاس" إلى قوله: "أن يحمدوا بما لم يفعلوا". قال ابن عبّاس: سألهم النّبيّ صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إيّاه، وأخبروه بغيره، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما قد سألهم عنه، فاستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم إيّاه ما سألهم عنه⁴.

كأنه يريد أنّ ما فيها من القطع بالعذاب واليأس من النّجاة خاصّ بأهلها ومن يشبههم

1 - سليمان العودة، شعاع من المحراب، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، 1434هـ - 2013م، 35/2.

2 - عبد الله بن يوسف الجديع: العقيدة السّلفية في كلام رب البرية وكشف أباطيل المبتدعة الرّدية، دار الإمام مالك، دار الصّميعي للنشر والتوزيع، الطبعة: الثّانية، 1416هـ - 1995م، ص: 11.

3 - عمران: 188.

4 - الطّبريّ: جامع البيان، 470/7.

من الذين يفترون على الله الكذب ويكذبون بآياته. وهذا لا ينافي أن غيرهم ممن أَلَمَ بذنوبهم قد يصيبه العذاب أيضا، لكن إلى أجل محدود، وإلى مفازة في النهاية. وإلى هذا المعنى- والله أعلم- كان قصد ابن عباس في إجابته مروان، حيث قال له: ما لك ولهذه الآية؟! ... إلخ¹.

والكلام في هذا يطول، وصفحات البحث لا تسمح بأكثر من هذا، ولذا نكتفي بما ذكرنا لننتقل للشَّروط الثَّانِي من خلال المطلب الثَّانِي المتعلِّق بفقه الواقع.

المطلب الثَّانِي: شرط فقه الواقع

تمهيد:

هذا المطلب نتحدث فيه عن الشَّروط الثَّانِي للتَّزِيل والمتعلِّق بفقه الواقع، ولكن قبل ذلك نبيِّن المراد بفقه الواقع، وبعدها نتناول الآليات الإجرائية المطلوبة للتَّحلي بفقه الواقع، والتي لا يمكن أن يستغني عنها من يرد تنزيل النَّصِّ القرآني على واقعه.

نعود فنقول: كنَّا تحدثنا في المطلب السَّابِق عن معنى الفقه، وقلنا هو الفهم والإدراك والعلم.

وأما لفظ "واقع" فهو مفرد يراد به: حاصل، حقيقة، عكسه خيال². فيقال الواقع، واقع افتراضي، وهذا واقعيّ اسم منسوب إلى واقع، ومنه حدث واقعيّ أي منسجم مع الحقيقة والواقع³.

ومنه فالمراد بفقه الواقع كمركب إضافي: فهو فهم الأمور الحادثة والوقائع النَّازلة. بمعنى: فقه الحياة التي يعيشها الشَّخص⁴.

وعليه فالمقصود بفقه الواقع أن يكون لدى الشَّخص فهم دقيق للواقع الذي يعيشه، وإطلاع على المتغيَّرات والتَّغيَّرات التي حدثت في عصره، والتي لها تأثير على التَّزِيل - وما أكثرها في عالمنا اليوم - ولذا سوف نحصِّص الفرع الموالي للحديث عن ضرورة فقه الواقع في التَّزِيل.

1 - ينظر: محمَّد سالم: علوم القرآن عند الشَّاطبي، ص: 72.

2 - أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، 2482/3.

3 - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

4 - عبد الله بن محمد الطَّيَّار، عبد الله بن محمَّد المطلق، محمَّد بن إبراهيم الموصي، الفقه الميسر، مَدَارُ الوُطْن للنَّشر، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: ج 7 و 11 - 13: الأولى 2011/1432 باقي الأجزاء: الثانية، 1433 هـ - 2012 م، 7/13.

الفرع الأول - ضرورة فقه الواقع لصاحب التّزّيل

لا بد لمن يريد تنزيل النّصّ القرآنيّ على الواقع أن يكون على فهم بما في الحياة من النّوازل والمتغيّرات الجديدة في الحياة والأفراد والمجتمعات وتصورها، ومعرفة النّاس والأعراف والأزمان والأشخاص، فدراسة الواقع وفهمه فهما جيّدا من الأمور الهامّة جداً في تنزيل النّصّ القرآنيّ، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علماً والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع ثم يطبق أحدهما على الآخر فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجر فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتّفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله"¹.

وما قاله ابن القيم رحمه الله تعالى من ضرورة فقه الواقع للفقيه الذي يريد إسقاط الحكم الشرعيّ على الواقع، نفسه يقال لمن يريد تنزيل النّصّ القرآنيّ على واقعه، فالعديد من الاختلافات بين المسلمين اليوم؛ سواء كانوا أفراداً أو جماعات أو شعوباً أو حكومات لم تأت من خطأ في فهم آية قرآنيّة أو حديث نبويّ؛ بل جاءت من خطأ في فهم الواقع السياسي أو العقائدي أو الاجتماعي أو الإداري... وتُبنى على ذلك الآراء والقناعات والاجتهادات بلا دراسة شاملة ومعمّقة مبنية على معطيات واقعيّة، ففهم الواقع بمختلف جوانبه له دور كبير في تحقيق الاتفاق والتعاون وصناعة الإصلاح وإصابة الحقيقة، ولذا فتزّيل نصوص القرآن على الواقع اعتماداً على علوم ومعارف واقعية مساعدة لحد كبير على حسن التّزّيل.²

الفرع الثاني - معرفة الواقع وما فيه من أعراف ومتغيّرات

من فقه الواقع المساعد على التّزّيل معرفة التّعريفات والاصطلاحات، والتّطورات التاريخيّة للدلالات، والاستعمالات القرآنيّة للألفاظ والتركيبات، وكذا الاستعمالات الواقعيّة في واقع النّاس كلّ هذه الأشياء من فقه الواقع، وأثناء تنزيل نص قرآنيّ نحن بحاجة لاصطحاب ذلك حتى لا نُسيء في التّزّيل، خذ على سبيل التّمثيل لفظ سيّارة الواردة في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرى هَذَا غَلامٌ﴾³،

1 - محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (751هـ)، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دراسة وتحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة، 95/1.

2 - ينظر: عبد الله الشيخ المحفوظ بن بيه، سبل الاستفادة من النوازل "الفتاوى" والعمل الفقهي في التطبيقات المعاصرة، مجلة مجمع الفقه الإسلامي، تصدر عن منظمة المؤتمر الإسلامي بجدة، العدد:

11.

3 - يوسف: 19.

لا ريب أنّها ليست هي السيّارة المعروفة اليوم بمحركها وعجلاتها و...، فلا يمكن أن تنزّل السيّارة المستعملة في اللفظ القرآنيّ على السيّارة المستعملة في واقع النّاس اليوم إلا من بعض الوجوه، كاستعمالها في الكلام مجازاً، وفي مثل هذه الحالات لا يعتبر تنزيلاً بل يدخل ضمن الاقتباس، أو استعمالها كمعنى فقط وحينها تدخل ضمن الأمثال القرآنيّة الكامنة.

ومثل ذلك لفظ السّاعة المذكور في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾¹، ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾²، ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُذِيرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾³، فهل السّؤال عن السّاعة المراد به آلة الوقت التي عند النّاس اليوم؟!، فهذا الوارد في النّص القرآنيّ ولا ريب ليس لفظ السّاعة المتعارف عليها اليوم في استعمال النّاس، بل ولا يخطر ذلك ببال أحدهم، لذا لا يمكن تنزيل النّص القرآنيّ على مثل هذه الأمور التي تختلف دلالاتها واستعمالاتها بين النّصّ القرآنيّ والواقع.

وفي هذا السّياق ننبه على عدم الانسياق وراء ثقافة التّفكيك الوافدة، أو التّهاافت على القراءات التّأويليّة الحداثيّة المعاصرة التي تُعزف عن تمعّن النّصّ القرآنيّ بمقاييس الفهم اللّغويّ العربيّ الفصيح الخالي من أيّ عجمة، وتطويع النّصّ القرآنيّ لتنزيله على فهم القارئ الذي يفصره بما يراه في ثقافته وواقعه فيلوي بذلك أعناق النّصوص ليّاً، وبسبب تلك الاختراقات فسدت عند بعض بني جلدتنا ذائقة التأمّل، وحجّمت فينا قدرة التّمكّن من الفهم الصّحيح للنّصّ القرآنيّ كما ينبغي.

الفرع الثّالث - الدّربة في تفرّس الواقع والخبرة به

من الأشياء الأساسيّة في فقه الواقع هي الخبرة بالواقع والدّربة في تفرّس ما يجري عليه العمل في الواقع، والمعرفة التّفصيليّة بالموضوع نفسه، كلّ ذلك من الضّرورة بمكان في تنزيل النّصّ القرآنيّ، ومن الأمثلة على ذلك تنزيل عمر رضي الله عنه نصّ المؤلّفة قلوبهم على واقع المسلمين في الزّكاة، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾⁴. فلفقه عمر رضي الله عنه بهذا النّصّ القرآنيّ، وفقهه بالواقع الذي سينزل عليه النّصّ نجده لم يعط الزّكاة لمن كانوا يعطون نصيبهم من الزّكاة ممن يوصفون بالمؤلّفة قلوبهم.

1 - الأعراف: 187.

2 - طه: 15.

3 - الأحزاب: 63.

4 - التوبة: 60.

فكلّ ما فعله عمر رضي الله عنه أنّه قام بعملية تنزيل النّصّ القرآنيّ على الواقع تنزيلاً صحيحاً لا غير، فهو لم يفعل ذلك اجتهداً منه لتعطيل نصّ قطعيّ، ولكنّه رأى أنّ الحكم المنزل في النّصّ قد زالت علته، وهي أنّ أخذ المؤلّفة قلوبهم من مال الزّكاة كان تأليفاً لقلوبهم عندما كان الإسلام في ضعف وقلة من الأتباع، كما كان يرجى من ذلك ترسخ الإيمان في قلوبهم واستقراره في نفوسهم، فلما زالت العلة وقويّ الإسلام برجاله، ومضت مدّة كافية تحوّل فيها إيمانهم إلى إيمان حقيقيّ، رأى عمر رضي الله عنه أنّ الواقع قد تغيّر؛ فأوقف تطبيق الحكم لفقد سببه، فكلّ ما في الأمر أنّ علة أخذهم من مال الزّكاة قد زالت فلم يعطهم.

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: "وما شرّعه النّبّي صلى الله عليه وسلم شرعاً معلّقاً بسبب، إنّما يكون مشروعاً عند وجود السّبب؛ كإعطاء المؤلّفة قلوبهم فإنّه ثابت بالكتاب والسّنّة، وبعض النّاس ظنّ أنّ هذا نسخ لما روي عن عمر أنّه ذكر أنّ الله أغنى عن التّألف، فمن شاء فليؤمّن، ومن شاء فليكفر، وهذا الظنّ غلط؛ ولكنّ عمر استغنى في زمنه عن إعطاء المؤلّفة قلوبهم، فترك ذلك لعدم الحاجة إليه لا لنسخه كما لو فرض أنّه عديم - في بعض الأوقات - ابن السبيل، والغارم ونحو ذلك"¹.

ومما يدلّ على فقه عمر رضي الله عنه بالواقع، والدقّة في تنزيل النّصّ عليه أنّه لم يتكلّم في الحكم ذاته، بل تكلم فيمن يحملون تلك الصّفة والمقاصد المرجوة من ذلك، فلم يجد في الواقع ما يملّي بإعطائهم مع بقاء الحكم قائماً لو تغيّر الواقع ووجدت الملابس لتنزله عليهم مرّة أخرى ليعطهم، يقول ابن قدامة رحمه الله تعالى في كتابه المغني: "وأحكامهم كلّها باقية. وهذا قال الحسن والزّهريّ وأبو جعفر محمّد بن عليّ وقال الشّعبي ومالك والشافعيّ وأصحاب الرّأي: انقطع سهم المؤلّفة بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد أعزّ الله تعالى الإسلام وأغناه عن أن يتألّف عليه رجال، فلا يُعطى مشرك تالفاً بحال... على أن ما ذكره من المعنى لا خلاف بينه وبين الكتاب والسّنّة، فإنّ الغنى عنهم لا يوجب رفع حكمهم، وإنّما يمنع عطيتهم حال الغنى عنهم، فمتى دعت الحاجة إلى إعطائهم أعطوا، فكذلك جميع الأصناف، إذا عُدّ منهم صنف في بعض الزّمان، سقط حكمه في ذلك الزّمن خاصّة، فإذا وجد عاد حكمه، كذا هنا"².

وبهذا أعطانا عمر رضي الله عنه فقهاً للنّصّ القرآنيّ أنّ الأصناف الثّمانيّة المذكورة في

1 - تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (المتوفى: 728هـ): مجموع الفتاوى، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: 1416هـ/1995م، 94/33.

2 - موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة (المتوفى: 620هـ): المغني، مكتبة القاهرة، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: 1388هـ-1968م، 497/2.

الآية ليست أوصافاً ملازمة للشخص طوال حياته لا تفارقه حتى الموت، بل هي أوصاف مفارقة وطارئة، فالرجل قد يكون في وقت من الأوقات فقيراً معوزاً فيُعطى نصيبه من الزكاة، ثم يرتفع عنه وُصفُ الفقر فلا يكون من أهل الزكاة، وعدم إعطائه في هذه الحالة ليس إبطالاً للنصّ ولا إلغاءً للحكم؛ وإنما هو تعليق له لارتفاع علته، فكذلك الحال في المؤلّفة قلوبهم: فقد يكون الرجل في وقت من الأوقات من المؤلّفة قلوبهم فيُعطى من الزكاة، ثم يرتفع عنه هذا الوصف فلا يُعطى منها، ولذا فعدم إعطائه إنما هو من قبيل انتهائه لانتفاء علته، وهذا ما فهمه عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى فقد رجع إلى تطبيق حكم المؤلّفة قلوبهم من جديد لمّا رأى أنّ العلة الموجبة لذلك قائمة في بعض الأشخاص.

ومن فقه الواقع في التّزِيل ما كان من شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى من فِرَاسَة في تَزِيل آيات الخمر على واقع التّتار وهم يشربون الخمر في بلاد المسلمين، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التّتار يقوم منهم يشربون الخمر فأنكر عليهم من كان معي فأنكرت عليه وقلت له "إنما حرّم الله الخمر لأنّها تصدّد عن ذكر الله وعن الصّلاة وهؤلاء يصدّهم الخمر عن قتل النّفوس وسبى الدّريّة وأخذ الأموال فدعهم"¹.

الفرع الرابع - معالجة التّزِيل المخالف لحقيقة الواقع

وفي آخر هذا المطلب نقول بأنّ العلماء من القديم وإلى العصر الحديث يؤكّدون على فقه الواقع، ويحذرون من التّحريف عند التّزِيل فينزل الواحد النّصّ القرآنيّ في غير الواقع الذي يجب أن يُنزل عليه؛ سواء أكان ذلك بقصد وعلم أو بجهل وغير قصد، وذلك لخطورة التّزِيل وأنه تحريف للكلم عن مواضعه، وأنه تقول على الله تعالى بغير وجه يرتضيه الحقّ، وحتى لا يكون ذلك سببا في تضليل النّاس وإغوائهم وجب التّنبيه عليه، وما أجمل ما فعله علامة الجزائر عبد الحميد بن باديس رحمه الله تعالى حين رأى البعض قد حرّف في تَزِيل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾².

فكتب ابن باديس في مجالسه تحت عنوان "تحذير من تحريف" قال فيه: رأى بعض النّاس المديّة الغربيّة المسيطرة اليوم على الأرض- وهي مديّة مادّيّة في نهجها وغايتها ونتائجها، فالقوّة عندها فوق الحقّ والعدل والرحمة والإحسان- فقالوا: إنّ رجال هذه المديّة هم الصّالحون الذين وعدهم الله بإرث الأرض، وزعموا أنّ المراد بـ (الصّالحون) في الآية: الصّالحون لعمارة الأرض.

فيا لله للقرآن، وللإنسان، من هذا التّحريف السّخيف!! كأنّ عمارة الأرض هي كلّ شيء؛

1 - ابن القيم: إعلام الموقعين، 18/4

2 - الأنبياء: 105.

ولو ضلّت العقائد، وفسدت الأخلاق، واعوجت الأعمال وساءت الأحوال، وعُذبت الإنسانية بالأزمات الخائفة، وروّعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة، وهددت بأعظم حرب تأتي على الإنسانية من أصلها والمدنية من أساسها.

هذه هي بلايا الإنسانية التي يشكو منها أبناء هذه المدنية المادية التي عمّرت الأرض وأفسدت الإنسان، ثمّ يريد هذا المحرّف أن يطبّق عليها آية القرآن: كتاب الحقّ والعدل والرحمة والإحسان، وإصلاح الإنسان ليصلح العمران.

فأمّا الصّالحون، فهو لفظ قرآني كما قدمناه، وقد شرف أهله بإضافتهم إلى الله في قوله (عبادي) فحمله على الصّالحين لعمارة الأرض تحريف للكلم عن مواضعه أبشع التحريف وأبطله، فليحذر المؤمن منه ومن مثله من تحريفات المبطلين والمفتونين¹.

المطلب الثالث: شرط فقه التّنزيل

تمهيد:

في هذا المطلب الثالث والأخير نتكلم عن شرط فقه التّنزيل، وقد بيّنا معنى الفقه في المطلب الأوّل، وقد قلنا يراد به الفهم والإدراك والعلم، ولذا سنبين معنى التّنزيل ثمّ نذكر معنى فقه التّنزيل كمركب باختصار كما فعلنا في التعريفات السابقة قصد بيان المراد بهذا الشرط لا غير.

التّنزيل لفظ مفرد: جمعه تنزيلات (لغير المصدر): مصدر نزّل². ومنه أنزل الشّيء: جعله يهبط، ونزّل الشّيء مكان غيره: أقامه مقامه³. ومن معاني التّنزيل: ترتيب الشّيء ووضعه منزله⁴. وكلّ هذه المعاني اللّغوية مرادة في بحثنا.

وأما المراد بفقه التّنزيل - كمركب إضافي -؛ فهو فهم تطبيق النّص القرآني على الحوادث والوقائع كما هي في الواقع، بمعنى التّطابق بين مقصد النّص القرآني وحال الواقع المنزل عليه.

إذا فلا بدّ لمن أراد التّنزيل أن يكون على علم ومعرفة بكيفية تنزيل النّص على الواقع الذي يريد تنزيل النّص عليه، وهنا يمكن أن نستفيد ممّا قاله علماء الأصول عند الحديث عن تنزيل الحكم الشرعيّ على الوقائع النّازلة، ومن أولئك الإمام الشّاطبيّ في كتابه الموافقات.

1 - ابن باديس في مجالس التّدكير، ص: 349.

2 - أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة 2197/3.

3 - المرجع نفسه، 2196/3.

4 - أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ): معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م، 417/5.

الفرع الأول - الإمام الشاطبي وفقه التنزيل

الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى يعتبر أبرز من تكلم عن البعد التنزيلي في التنظير الأصولي فقد جعل الاجتهاد في تنزيل الحكم الشرعي على الواقع قسيم الاجتهاد في فهم النص، وعبر عن هذا الضرب من الاجتهاد بالاجتهاد في تنزيل الأحكام الشرعية أو إيقاعها على الوقائع، أو تنزيل الوقائع على الأدلة الشرعية، فقال: "المقصود من وضع الأدلة تنزيل أفعال المكلفين على حسبها"¹.

ثم يقول في موطن آخر مبيناً المراد بالتنزيل: "ومعناه أن يثبت الحكم بمدركه الشرعي لكن يبقى النظر في تعيين محله"²، أي: في تطبيقه على الجزئيات والحوادث الخارجية، سواء أكان نفس الحكم ثابتاً بنص أم إجماع أم قياس. وبعدها يضرب لنا مثالا على هذا التنزيل في المحل، فيقول:

"وذلك أن الشارع إذا قال: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوْيَ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾³. وثبت عندنا معنى العدالة⁴ شرعا افترقنا إلى تعيين من حصلت فيه هذه الصفة وليس الناس في وصف العدالة على حد سواء، بل ذلك يختلف اختلافا متبايناً؛ فإننا إذا تأملنا العدول وجدنا لاتصافهم بها طرفين وواسطة: "طرف أعلى" في العدالة لا إشكال فيه كأبي بكر الصديق، و"طرف آخر" وهو أول درجة في الخروج عن مقتضى الوصف؛ كالمجاوز لمرتبة الكفر إلى الحكم بمجرد الإسلام، فضلاً عن مرتكبي الكبائر المحدودين فيها، و"بينهما" مراتب لا تنحصر، وهذا الوسط غامض، لا بد فيه من بلوغ حدّ الوسع، وهو الاجتهاد"⁵.

فالمثال الذي ضربه - وهو المذكور في الآية: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوْيَ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾⁶ - يتعلق بتنزيل بتنزيل صفة العدالة على الواقع وهذا يحتاج - كما ذكر - لاجتهاد في تحديد معناها بالضبط ومن يوصفون بذلك في الواقع، وقد أعطى نماذج أخرى، كتحديد صفة الفقر في الوصية التي يوصي بها الإنسان، وكذلك في فرض نفقات الزوجات والقربات، فكلّ هذا وأمثاله يرى بأنه لا بدّ فيها من النظر بالاجتهاد.

والهدف من هذا الاجتهاد هو التوصل إلى حسن تنزيل وتطبيق معاني نصوص القرآن

1 - الشاطبي: الموافقات، 217/3.

2 - المرجع نفسه، 12/5.

3 - الطلاق: 2.

4 - وهي ملكة تحمل على ملازمة التقوى والمروءة، وملازمة التقوى تكون باجتناب الكبائر، والمروءة صون النفس عن الأدناس وما يشينها عند الناس، والشرط في الزواية والشهادة أدناها، وهو ترك الكبائر، وترك الإصرار على صغيرة، وترك الإصرار على ما يخل بالمروءة، هكذا عرفها الأصوليون.

5 - الشاطبي: الموافقات، 12/5.

6 - الطلاق: 2.

المجسّمة والمصوّرة في ذهن المُنزّل على الواقع، ولا ريب أنّ هذا الاجتهاد الذي يدعوا له الشاطبي لا يكون إلا بفقّه يعين صاحبه على كيفية تنزيل النّصّ القرآنيّ على الواقع.

وبعد كل ما ذكرنا نعطي بعض النّماذج الحديثة التي تبيّن الفقه في التّنزيل، وسوف نأخذ لكلّ مفسر نموذجاً تنزيلياً واحداً، وذلك قصد مراعاة حجم البحث.

الفرع الثّاني - نموذج لتنزيل الشّيخ محمد عبده

نقف مع تنزيل الشّيخ محمّد عبده رحمه الله لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾¹.

فقد أجاد الشّيخ في تنزيل النّصّ على الواقع المرير الذي يتدافع فيه النّاس على المحاكم وبذلك يخسرون الأموال الكثيرة بسبب الشكوى وما تحمله القضايا من مصاريف مختلفة بما يعود بالضرر على الطرفين أو أحدهما، وهم في مندوحة عن ذلك، ولو جلسوا لبعضهم وسوا القضية بينهم، أو لو استعانوا بأهل الفضل ممن يثقوا بصلاحيهم وقدرتهم على الإصلاح لكان خيراً لهم.

يقول الأستاذ محمّد رشيد رضا رحمه الله تعالى: "وذكر الأستاذ الإمام في تفسير الآية ما عليه المسلمون في هذا العصر، ولا سيّما في بلاد مصر، من كثرة التّقاضي والخصام، والإدلاء إلى الحُكّام، حتى إنّ منهم من لا يطالب غريمه بحقه إلا بواسطة المحكمة، ولعلّه لو طالبه لما احتاج إلى التّقاضي، ومنهم من يحاكم الآخر لمحض الانتقام والإيذاء وإن أضّر بنفسه"².

الفرع الثّالث - نموذج لتنزيل الأستاذ محمّد رشيد رضا

نتناول نموذجاً واحداً - كذلك - لتنزيل من تنزيلات الأستاذ محمّد رشيد رضا رحمه الله، والمتمثّل في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾³.

فقد نزّل هذا النّصّ على واقعة من الوقائع سمعها في زمنه، وهي تمثّل الشّدوذ الجنسي - أي عمل قوم لوط - وما أكثر هذا الشّدوذ اليوم؛ وخاصّة بعد ظهور من يسمونهم بالمثليين، فما قاله الشّيخ حريّ بأن يُنزّل على أمثال هؤلاء، فقد نزّل النّصّ - رحمه الله تعالى - على الواقع أحسن تنزيل، ينمّ على فقهه أصيل بهذا التّنزيل، حيث يقول: "حدثني تاجر أنّه دخلت دكانه مرّة امرأة بارعة الجمال فأسفرت عن وجهها فقام لخدمتها دون أعوانه،

1 - البقرة: 188.

2 - محمد رشيد رضا (المتوفى: 1354هـ) تفسير المنار، النّاشر: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب سنة النّشر: 1990، 2/ 162.

3 - الأعراف: 81.

فلما رأته دهش بروعة حسنهما قالت له: انظر أتجد في عيبا؟ قال: إني لم أر مثلك قط؟ قالت: ولكن زوجي فلانا يتركني عامّة لياليه كالشيء اللقا (هو الذي يلقي ويرمى لعدم الانتفاع به) في غرف الدّار ويلهو عني في الدّور السفلي بغلمان الشّوارع حتّى مساحي الأحذية، وهو لا يشكو منّي شيئا من خُلق ولا خُلق ولا تقصير في عمل ولا خيانة في مال ولا عرض على أنّه يعلم أنّي أعلم هذا ولا يبالي به ولا يحسب حسابا لعواقبه"¹.

الفرع الرابع - نموذج لتزليل الشّيخ عبد الحميد بن باديس

أمّا الشّيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله فنقف معه في تنزيل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾².

فقد نزل الشّيخ هذا النّص القرآنيّ المتعلق بمعنى الفتنة على واقعنا اليوم أحسن تنزيل، حيث يخبرنا هذا التّزليل على فقه الشّيخ ومعايشته للواقع معايشة العالم الحريص على أمته، والغيور على وضعها المؤسف الذي صارت إليه حتّى أصبحت تعيش في الفتنة: إمّا فاتنة أو مفتونة، يقول الشّيخ في مجالس التّدكير تحت عنوان "تطبيق" بمعنى تنزيل: "كما يفتن الفرد بالفرد، كذلك تفتن الأمة بالأمة: من ذلك أنّنا- معشر الأمة الإسلاميّة- قد فتننا بغيرنا من أمم الغرب، وفتنوا هم أيضاً بنا: فنحن ندين بالإسلام وهو دين السّعادة الدنيويّة والأخرويّة، ولكن حيثما كنّا- إلّا قليلاً- لسنا سعداء لا في مظاهر تديننا، ولا في أحوال دنيانا.

ففي الأوّل: نأتي بما يبرأ منه الإسلام، ونصرّح بأنّه من صميمه. وفي الثّانيّة: ترانا في حالة من الجهل والفقر والدّل والاستعباد يرثي لها الجماد.

فلما يرانا الغربيون على هذه الحالة ينفرون من الإسلام، ويسخرون منه، إلّا من نظر منهم بعين العلم والإنصاف، فإنّه يعرف أن ما نحن عليه هو ضد الإسلام، فكنا فتنة عظيمة عليهم، وحجاباً كثيفاً لهم عن الإسلام. فكنا- ويا للأسف- فتنة للقوم الظّالمين.

وهم من ناحيتهم نراهم في عزّ وسيادة، وتقدّم علمي وعمرانيّ، فننظر إلى تلك النّاحية منهم فنندفع في تقليدهم في كلّ شيء، حتّى معائهم ومفاسدهم، ونزدري كلّ شيء عندنا حتّى أعزّ عزيز. إلّا من نظر بعين العلم فعرف أن كلّ ما عندهم من خير، هو عندنا في ديننا وتاريخنا، وأنّ ذلك هو الذي تقدموا وسادوا به. وأنّ ما عندهم من شرّ هو شرّ على حقيقته، وأنّ ضرره فهم هو ضرره، وأنّه لا يجوز أن يتابعوا عليه، فكانوا فتنة لنا حتى ينظر من ينظر بعين الحقّ للحقائق ممن تبهّر الظّواهر فتسلبه إدراكه فيغدو لا يفرق بين اللّب

1 - محمد رشيد رضا: تفسير المنار، 8/ 464.

2 - الفرقان: 20

والقشور"¹.

وبهذه النماذج نكتفي، فالموضوع ذو شجون وقد حاولنا أن نبسط القول فيه بما يفي بالغرض وعلى الله قصد السبيل.

خاتمة

وفي خاتمة هذا البحث نضع بين أيدينا النتائج التالية:

- تنزيل النصوص القرآنية على الواقع الناس بحاجة إليه في كل عصر، ولا يمكن الاستغناء عنه، حتى يعيشوا بالقرآن فهما وتنزيلا.

- لا بد من التأكيد على الجمع بين فقه النص القرآني وفقه الأحوال الواقعية حتى يمكن تنزيل النصوص القرآنية على الواقع.

- النصوص القرآنية لا تتناول كل الصور والوقائع في الواقع، ولكن مقاصدها وقواعدها وأصولها تفي بالحاجات مهما كثرت والمستجدات مهما تنوعت، ومن هنا يمكن تنزيلها بشروطها التي ذكرناها.

- تنزيل النص القرآني على المحل الذي يحتاج إليه يحتاج لفقه مبني على اجتهاد في معرفة دلالات النص المطابقة للمحل، ولا يكون ذلك إلا باتباع قواعد الفهم الصحيحة التي تضع النص القرآني في محله الذي يناسبه ويراد له.

- تنزيل النصوص القرآنية على وقائع حدثت أو ستحدث أو على واقع لا تشملها ملابسات النص القرآني يعتبر من المنزلقات الخطيرة التي يقع فيها الناس اليوم.

- تنزيل النصوص القرآنية على الواقع من غير مناسبة أو بينة من الشرع، يعتبر من التقول على الله سبحانه وتعالى بغير علم، وموافقة لهوى النفس.

- من أراد أن يلج هذا الباب - باب تنزيل النصوص القرآنية على الواقع - فيجب عليه أن يلقي على عتبه أهواءه ليسلم له دينه، ويصح له تنزيله، أما أن يبقى على هواه ويريد أن يصح التنزيل فلا، وليعلم أنه سيكون ساعتئذ منزلا لهواه على الواقع لا لنصوص مولاه، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾².

1 - ابن باديس: مجالس التذكير، ص: 167.

2 - الإسراء: 37.

قائمة المصادر والمراجع

- أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: 1424هـ): معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، 1429هـ - 2008م.
- أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ): معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م.
- إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشَّاطِبيّ (المتوفى: 790هـ): الموافقات، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م.
- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية (المتوفى: 728هـ): القواعد النورانية الفقهية، حققه وخرج أحاديثه: د أحمد بن محمد الخليل، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1422هـ.
- تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية (المتوفى: 728هـ): مجموع الفتاوى، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: 1416هـ/ 1995م.
- سليمان العودة، شعاع من المحراب، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، 1434هـ - 2013م.
- عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (المتوفى: 1359هـ): مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، المحقق: علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، 1416هـ - 1995م.
- عبد الله بن محمد الطيّار، عبد الله بن محمد المطلق، محمّد بن إبراهيم الموسى، الفقه الميسر، مَدَارُ الْوَطْنِ لِلنَّشْرِ، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: ج 7 و 11 - 13: الأولى 1432/ 2011 باقي الأجزاء: الثانية، 1433هـ - 2012م.
- عبد الله بن يوسف الجديع: العقيدة السلفية في كلام رب البرية وكشف أباطيل المبتدعة الردية، دار الإمام مالك، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، 1416هـ - 1995م.
- عبد الله الشيخ المحفوظ بن بيه، سبل الاستفادة من النوازل "الفتاوى" والعمل الفقهي في التطبيقات المعاصرة، مجلة مجمع الفقه الإسلامي، تصدر عن منظمة المؤتمر الإسلامي بجدة، العدد: 11.
- عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون (المتوفى: 808هـ): تاريخ ابن خلدون، المحقق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1408هـ - 1988م.

- عمر عبيد حسنة، تقديم لكتاب: فقه التّزئيل عند الإمام ابن تيمية، الأستاذة / جميلة حسن تلوت، من كتاب الأئمة.
- القرطبي أبو عبد الله (المتوفى: 671هـ): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964م.
- محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (751هـ)، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دراسة وتحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة.
- محمد بن أحمد أبو الوليد الشهير بابن رشد الحفيد (المتوفى : 595هـ): بداية المجتهد ونهاية المقتصد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة : الرابعة، 1395هـ/1975م.
- محمد بن إدريس أبو عبد الله الشافعي (المتوفى: 204هـ): الرسالة، المحقق: أحمد شاكر، مكتبته الحلبي، مصر، الطبعة: الأولى، 1358هـ/1940م.
- محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، رقم الحديث: 143، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة: الأولى، 1422هـ.
- محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ): جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000م.
- محمد رشيد رضا (المتوفى: 1354هـ) تفسير المنار، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة النشر: 1990
- محمد سالم أبو عاصي: علوم القرآن عند الشاطبي من خلال كتابه الموافقات، دار البصائر - القاهرة، الطبعة: الأولى، 1426هـ - 2005م.
- محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدّميري، أبو البقاء، كمال الدين الشافعي (المتوفى: 808هـ): حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، 1424هـ.
- موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة (المتوفى: 620هـ): المغني، مكتبة القاهرة، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: 1388هـ - 1968م.

تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ مبارك الميلي

من خلال كتاب "الشرك ومظاهره"

- دراسة نظرية تطبيقية واقع أهل زمانه -

د / هشام شوقي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة

chougui.hicham@univ-emir.dz



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد الأمين وعلى آله وصحبه وأزواجه والبررة إلى يوم الدين، أما بعد:

مذ نزل القرآن الكريم والعلماء مهتمون بشرحه وبيان معانيه؛ ابتداء بإمام المفسرين وسيد الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا، وكان القرآن الكريم بمثابة بستان يقطف من ثماره كل عالم ما يناسب تخصصه، فمنهم من اشتغل به من الناحية اللغوية فتجده يستخرج دررا تتعلق بالنحو والبلاغة وغيرها من علوم العربية، ومن اشتغل به من ناحية الأحكام الشرعية فقهية وعقدية فتجده يستخرج أحكام الفروع والأصول منصوصة أو مستنبطة، ومنهم اهتم به من الجانب الإصلاحي فتجده ينزل الآيات القرآنية على الواقع الذي يعيشه في زمنه فيصف الداء ويستنبط من آيات القرآن الكريم الدواء .

ومن هؤلاء العلماء الذين سلكوا هذا المسلك الأخير الشيخ المصلح: مبارك الميلي الذي هو أحد أبرز رجالات الإصلاح في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الذين سبّلوا أنفسهم في سبيل الله وإصلاح ما أفسده الاستعمار الفرنسي من عقائد وسلوكات منحرفة، وكان عمدتهم في الإصلاح كتاب الله تعالى، فكان الشيخ مبارك الميلي يسعى لبيان الدين الصحيح من خلال تصحيح المعتقدات الباطلة التي شاعت في زمنه فألّف كتابا سماه "الشرك ومظاهره"؛ كان يصف فيه أنواعا من الانحرافات العقدية والمظاهر الشركية التي انتشرت انتشارا رهيبا في زمنه ويبيّن الاعتقاد الصحيح فيها، وكانت عمدته فيه آيات القرآن الكريم التي كان ينزلها على تلك المظاهر فيذكر العلاج من خلالها . ولعلّ الشيخ مبارك الميلي من أبرز من اعتنى بقضية تنزيل الآيات على الواقع، فقد جمع فيها بين التنظير لها بكلام طويل—وهذا قليل أو غير موجود عند غيره من علماء الجمعية- ثم طبّقها في دروسه الشفهية التي كانت

تلقى في رحلاته أو المكتوبة في التي دَوَّنَهَا في كُتُبِهِ ، حيث وجد من خلالها منفذا لتزليل الآيات المحذرة من الشرك والمفصلة لبعض أنواعه على بعض المظاهر التي شاعت في زمانه وهي في حقيقتها صورة ومظهر من مظاهر الإشراك بالله تعالى .

لذلك فإن أبرز مظهر لاعتناء الشيخ بهذه القضية أنه تحدث عنها من جهتين :

- جهة التنظير: حيث بين الشيخ معنى هذه القضية وذكر قواعدها وأدلتها .

- جهة التطبيق: حيث نزل آيات القرآن الكريم على كثير من الحوادث في زمانه لعلاقة

بين الآية والواقعة .

فكثيرا ما كان الشيخ مبارك عند تنزيله للآيات على الواقع يذكر حوادث حدثت له في حياته اليومية من خلال مخالطته للناس، أو قصصا وأخبارا سمعها من غيره في مناطق أخرى فيستغل تفسيره للآيات ببيان ما تضمنته هذه الحوادث من مخالفات لما حث القرآن على الالتزام به ، وهذا أمر شدد انتباهي فحاولت في هذه المداخلة جمع المادة العلمية المتعلقة بهذه المسألة عند الشيخ مبارك من الجانب التأصيلي والتطبيقي، ثم ترتيبها لتخدم مقصد الملتقى الذي نظمته -مشكورا- معهد العلوم الإسلامية بجامعة الوادي تحت عنوان "جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع"، و كان عنوان هذه المداخلة "تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ مبارك الميلي من خلال كتابه "الشرك ومظاهره - دراسة نظرية تطبيقية واقع أهل زمانه - .

وسأسعى من خلال هذه الورقة البحثية الإجابة عن الإشكاليات والتساؤلات الآتية:

1 - كيف أصل الشيخ مبارك الميلي لمسألة "تنزيل الآيات على الواقع" ؟.

2- وما هو المنهج الذي سلكه في تنزيلاته ؟ .

3 - ما هي أهم الحوادث والأخبار التي ذكرها الشيخ مبارك ونزل عليها آيات القرآن

الكريم ؟ .

هذه الإشكاليات سيجد القارئ لها جوابا في طيات هذا البحث .

أهمية البحث:

هذه المداخلة لها أهمية من جوانب متعددة؛ مجملها:

1- معرفة الجانب التأصيلي عند أحد علماء جمعية العلماء لمسألة "تنزيل الآيات على

الواقع" .

2- معرفة المنهج الذي سلكه الشيخ في تنزيلاته لسلوك مسلكه في ذلك .

3- إحياء تراث علماء بلدنا المتعلق بالتفسير في غير كتب التفسير .

4- معرفة بعض الوقائع والحوادث التي كانت في زمن الشيخ وطريقة معالجته لها

ليقتدي به الأجيال في ذلك .

الدّراسات السابقة:

بعد اطلاعي على البحوث التي كتبت حول الشيخ مبارك الميلي في قضية تنزيل الآيات على الواقع وجدت مذكرة ماستر بعنوان "تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ مبارك الميلي" للطالبة: مريم زباني، قسم الكتاب والسنة جامعة الأمير عبد القادر، وجاءت دراسة تناسب المرحلة التي كتبت فيها .

المنهج المتبع:

تعددت المناهج المستعملة في هذا البحث بحسب المسألة المراد تحريرها، فقد قمت باستعمال المنهج الاستقرائي: وذلك حين تتبع المواضيع المتعلقة بتنزيلات الشيخ مبارك، كما استعملت المنهج التحليلي: وذلك بتحليل أقوال الشيخ في بعض المواطن .

خطة البحث:

جاءت خطة هذه الورقة البحثية متكونة من مبحثين :

المبحث الأول: تأصيل الشيخ مبارك الميلي لمسألة "تنزيل الآيات على الواقع" . وفيها ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: الرد على من قال بخصوص السبب .

المطلب الثاني: أدلة صحة تنزيل الآية على الوقائع المشابهة .

المطلب الثالث: قاعدتان مهمتان لهما علاقة مباشرة بمسألة "تنزيل الآيات على الواقع" .

المبحث الثاني: تنزيلات الشيخ مبارك الميلي للآيات من خلال واقع أهل زمانه والحياة اليومية له . وفيه خمسة مطالب هي:

المطلب الأول : منهج الشيخ مبارك الميلي في تنزيل الآيات على الواقع .

المطلب الثاني: التصرف في الكون .

المطلب الثالث: علم الغيب .

المطلب الرابع: قضية السحر .

المطلب الخامس: شرك الدعاء .

الخاتمة: وفيها أهم النتائج المتوصل إليها .

وتفصيل ذلك كله كما يلي:

المبحث الأول: تأصيل الشيخ مبارك الميلي لمسألة "تنزيل الآيات على الواقع"

استفتح الشيخ مبارك الكلام على قضية النزول بعنوان لها فقال "تنزيل الآيات النازلة في قوم على من أشبه حالتهم اليوم"، ثم شرع في ذكر ما يتعلق بها من جهة التنزيل لها، وقد ذكر في ذلك ثلاث مسائل جعلت كلّ واحدة منها على شكل مطلب، وبيانها كالآتي:

المطلب الأول: الرد على من قال بخصوص السبب:

حيث استفتح الشيخ تنظيره لقضية تنزيل الآيات على الواقع بالرد على من ادّعى تخصص الآيات بمن نزلت فيهم هروباً من تنزيلها عليه فقال "رأى الطريقون ومن لفّ لَقَهم أن القرآن فاضحهم وكشف عوارهم، فتعلّلوا للتسلّل منه بعلة شتى، وما هي بنافعتهم بعدما عمت لفظة "فاقوا"، وكان من تعلّلهم تقوّلهم: إن ما جاء في قوم من المشركين وأهل الكتاب، فهو خاص بهم، لا يتناول المسلمين، وإن جاؤوا بما هو أشنع وأضل"¹.

فهذا الرد من الشيخ مبارك على أصحاب هذا القول ليبطل دعواهم بعدم دخولهم في عموم الآيات المحذّرة من أفعالهم المشابهة لأفعال المشركين أو أشدّ منها، وهذه المسألة لهم فيها سلف ممن سبقهم وهو قول من قال "العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ" وهذا القول هو رواية عن مالك ووافقه أبو ثور والمزني والقفال من الشافعية، ونقله الجويني عن الشافعي ولا يصح عنه، فما في الأم خلاف ذلك حيث يقول الشافعي: "ولا تصنع الأسباب شيئاً إنما تصنعه الألفاظ لأن السبب قد يكون ويحدث الكلام على غير السبب"². وقد استدلل أصحاب هذا القول بأدلة منها:

- 1 - أنه لو لم يكن للسبب مدخل لما نقله الراوي إذ لا فائدة فيه .
 - 2 - لو كان الخطاب الوارد على سبب ما عاماً، لجاز إخراج السبب من صورة العموم بالتخصيص، لأنه يتساوى فيه جميع أفرادها، ففي آية اللعان مثلاً نزلت في عويمر العجلاني، فإنها تختص به، فإنه لو لم تختص به لجاز إخراجها كأي فرد من العموم .
 - 3 - تأخير بيان الحكم إلى حين وقوعه -أي على سبب خاص- دليل على اختصاصه به³ .
- وقد استدلل الشيخ في الرد على من خصّص اللفظ بسببه بدليلين هما:

¹ رسالة الشرك ومظاهره، مبارك بن محمد الميلي، تحقيق وتعليق: أبي عبد الرحمن محمود، دار الراجعية للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، سنة: 1422هـ - 2001م، (ص: 81).

² الأم، محمد بن إدريس الشافعي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، الطبعة: بدون طبعة، سنة النشر: 1410هـ/1990م، (373/5)، ونهاية السؤل شرح منهاج الوصول، عبد الرحيم الإسنوي، دار الكتب العلمية - بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، سنة: 1420هـ-1999م، (ص: 219).

³ شرح مختصر الروضة، نجم الدين الطوفي، (ت: 1316هـ)، المحقق: عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1407 هـ/ 1987 م، (504/2).

الدليل الأول: مسألة "مقصود البعثة وحكمة التكليف"، فالمناسب لذلك تعميم معاني القرآن على كلّ ما شابهها من حوادث وإلّا لم تتحقّق الحكمة من الرسالة، وفي ذلك يقول: فإن الغرض من بعثة كلّ نبي هو توحيد الخلق على توحيد الخالق وإقامة دينه، قال تعالى: ﴿سَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الشورى: ١٣.

وحكمة التكليف هو تكميل الإنسان باتباعه شريعة الملك الديان، وليس الأمر كما يظنه بعض الجهال من أن التكليف كجزية تضرب على العبيد من الملك، ويعفى منها من توسل إليه بمنزلة وجاه، فتراهم يفخرون بكونهم من خير أمة أخرجت للناس، أو يعتزّون بالاعتزاء إلى مشهور بالفضل والصلاح، من غير أن يأتمروا بينهم بمعروف، أو يتناهوا عن منكر، وقد قال تعالى ﴿لِيُبْلِغَ إِلَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الملك: ٢، ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَدَّرُ﴾ الحجرات: ١٣¹.

والدليل الثاني: هو عمل الأئمة وعدم تخصيصهم للآية بسبب نزولها حتى أصبح الأمر متواردا عندهم فكان الواجب اتباع طريقهم، وفي ذلك يقول: "وقد تصرف الأئمة في الآيات النازلة في الأمم الماضية واستنبطوا منها أحكاماً لهذه الأمة ... وكثيراً ما نجد في عبارات المفسرين أن الآية نزلت في بني إسرائيل مثلاً، وأنها متناولة من كان على مثل حالهم من هذه الأمة، مثل آية الكاتمين للعلم ولعنهم، ومثل آية: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ البقرة: ٤٤².

وهذه الآية نزلت في بني إسرائيل عموماً، وذكر الواحدي عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أنها: نزلت في يهود أهل المدينة، كان الرجل منهم يقول لصهره ولذوي قرابته ولمن بينهم وبينه رضاع من المسلمين: اثبت على الدين الذي أنت عليه وما يأمرُك به وهذا الرجل يعنون محمداً ﷺ فإن أمره حق، فكانوا يأمرّون الناس بذلك ولا يفعلونه³. ومن عبارات المفسرين في تعميم الآية كلام الشيخ عبد الرحمن السعدي حيث قال: "وهذه الآية، وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد"⁴.

¹ رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 81).

² المرجع نفسه، (ص: 82).

³ أسباب النزول، أبو الحسن النيسابوري (ت: 468هـ)، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح - الدمام، الطبعة: الثانية، 1412 هـ - 1992 م، (ص: 24)، وهذا الأمر سكت عنه الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في كتابه "العجاب في بيان الأسباب" (252/1). وقال فيه سليم الهلالي ووسى نصر: "هو حديث كذب: لأنّ الكلي وشيخه كذابان" ينظر: الاستيعاب في بيان الأسباب، سليم بن عبد الهلالي ومحمد بن موسى آل نصر، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، السعودية، ط: 1، سنة: 1425هـ، (24/1).

⁴ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت: 1376هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط: 1، سنة: 1420هـ/2000 م، (ص: 51).

المطلب الثاني: أدلة صحة تنزيل الآية على الوقائع المشابهة :

من المسائل التأصيلية التي ذكرها الشيخ مبارك الميلي في الجانب النظري لقضية تنزيل الآيات على الواقع؛ ذكره للأدلة الشرعية الدالة على صحة تعميم الألفاظ الواردة في الآية وتنزيلها على الوقائع المشابهة، حيث استدل بأدلة متنوعة بلغت عشرة أدلة ما بين القرآن والسنة وكلام السلف والمعقول، ومجمل ما ذكره من أدلة في ذلك كالآتي:

أولاً: الأدلة من القرآن الكريم، استدل الشيخ على مشروعية تنزيل الآيات على الواقع بأربعة مواضع من القرآن الكريم، وهي:

1 - قوله تعالى في وصف كتابه: ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ البقرة: ١٨٥ ؛ فإن كان الذين نريد هدايتهم بالقرآن من الناس، فلم نزد على أن أوصلناهم لحقهم من كتاب ربهم .

2 - وقوله على لسان نبيه ﷺ: ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُذَكِّرَ بِهِ مَنِ بَلَغَ ﴾ الأنعام: ١٩ ؛ فعطف على ضمير المخاطبين من المشركين من بلغه القرآن في زمنهم وبعد عصرهم .

3 - وقوله سبحانه: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ الأنعام: ٥١ ، والذين يخافون الحشر هم المؤمنون ومن هم مظنة الإيمان ممن لم يطبع الله على قلوبهم؛ فلم تخص الآية المشركين بالإنذار .

4 - وقوله تعالى بعد حكاية حادثة قوم لوط: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ هود: ٨٣ ؛ فسر البغوي الظالمين هنا بمشركي مكة أو ظالحي هذه الأمة¹ . والجمع بين الوجهين غير ممتنع، وعلى كل حال دلّت الآية على إلحاق المتأخر بالمتقدم في استحقاق عقوبته متى كان على مثل حالته .

وفسر ابن كثير الآية على التعميم²، فجعلها بمعنى حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلْ عَمَلًا قَوْمَ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ»³، وحكي عن أبي حنيفة أنه يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط .

فالآية دلت على أن ما أصاب قوم لوط غير خاص بهم، والحديث دل على تنفيذ حكمها فيمن أشبههم، وقول أبي حنيفة دل على مراعاة صفة التنفيذ⁴ .

¹ معالم التنزيل في تفسير القرآن، المؤلف: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ (194/4) .

² ينظر: تفسير القرآن العظيم، تأليف: أبو الفداء إسماعيل بن كثير، ت: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: 2، سنة: 1420 هـ - 1999 م، (342/4) .

³ رواه الترمذي في سننه، كتاب: الحدود، باب: ما جاء في حَدِّ اللُّوطِيّ، رقم: 1528 .

⁴ رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 83) .

ثانيا: الأدلة من السنة النبوية، وذكر الشيخ في ذلك حديثين يدلان على تعميم ألفاظ القرآن وهما:

1 - حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ : قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا! اتَّقِ اللَّهَ، وَدَعْ مَا تَصْنَعُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجِلُّ لَكَ. ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ؛ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكْبَلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ؛ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ». ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَكَّنُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَلْيَسْفُوتَ ﴿٨٠﴾﴾ المائدة: ٧٨ - ٨١. ثُمَّ قَالَ: «كَأَلَا؛ وَاللَّهِ: لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا، أَوْ لَيُضْرِبَنَّ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»¹.

وهذا الحديث صريح في تنزيل ما نزل في اليهود على المسلمين .

2 - والحديث الثاني: ما رواه الشيخان عن عائشة وابن عباس -رضي الله عنهما-؛ أنه ﷺ قال في مرض موته: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، يحذر ما صنعوا "².

فقد فهما أن اللعنة غير خاصة بأهل الكتابين، وأن المقصود تحذير المسلمين من فعلهم، حتى لا تشملهم لعنتهم، ومنزلتهما في العلم والدين منزلتهما . فكان الواجب أن نعني بما نزل في غيرنا لنحفظ أنفسنا من مشابهمهم في العقائد الزائفة، والأقوال المنكرة، والأفعال الخاطئة .

ثالثا: الأدلة من كلام السلف: وذكر في هذا النوع ثلاث كلمات مأثورة عن السلف تدل على صحة تعميم معنى الآية على ما شابهها من حوادث وهي:

1 - ما جاء في "سيرة الحسن البصري" لأبي الفرج ابن الجوزي: أن الحسن قال: "رحم الله رجلاً خلا بكتاب الله، وعرض عليه نفسه، فإن وافقه، حمد ربه وسأله المزيد من فضله، وإن خالفه: تاب وأتاب ورجع من قريب" [ص:45] .

¹ رواه أبو داود في سننه كتاب الملاحم، باب: الأمر والنهي، رقم: 4338 . وضعفه الشيخ الألباني في كتابه: صحيح وضعيف سنن أبي داود (336/9) .

² رواه البخاري في أبواب المساجد، باب: الصلاة في البيعة، رقم: 425 . ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب النبي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم: 1212 .

2 - وقال أبو عبد الله الأبلبي التلمساني المتوفى منتصف القرن الثامن: "لولا انقطاع الوحي؛ لنزل فينا أكثر مما نزل في بني إسرائيل "لأننا أتينا أكثر مما أتوا". نقله ابن مريم في "البستان" (218).

3 - وقال الحافظ ابن حجر المتوفى منتصف القرن التاسع في "فتح الباري" بعدما أشار إلى كثرة ما أنذر به النبي ﷺ أمته: "وقد وقع معظم ما أنذر به، وسيقع بقية ذلك" (13/256).
فهذه دلائل وشواهد تريك صواب العلماء المجتهدين في تحذيرهم لإخوانهم المسلمين، وتكشف لك عن غرض المبطلين وخطأ المعارضين¹.

رابعاً: الأدلة من المعقول على تعميم ألفاظ الآية على ما يشبهها من وقائع:

واكتفى الشيخ مبارك الميلي في هذا اليوم بوجه استدلال عقلي واحد ختم به أدلته؛ وهو سؤال منطقي طرحه فقال: "ثم إنك تجد الإسلام خاتمة الأديان، ونبية خاتم النبيين، وكتابه خاتم الكتب، وهذه الأمة خاتمة الأمم، وهي من جنس تلك الأمم الماضية؛ تقسو قلوبها كما قست قلوبهم، وتفسد عقائدها كما فسدت عقائدهم، وتعصي كما عصوا، وتبتدع كما ابتدعوا؛ فهل من حكمة أحكم الحاكمين ورحمة رب العالمين أن يقصر ما عاب به من قبلنا عليهم، ويدعنا سدى من غير دليل يعرفنا فسادنا وقبيح أعمالنا إذا نزل بنا ما نزل بالأمم قبلنا؟!".

لقد أحاط ربك بكل شيء علماً، ووضع لكل حال حكماً، والقرآن الذي فضح من قبلنا هو الذي يفضحنا، والقرآن الذي هدى من تقدمنا هو الذي يهدينا"².

المطلب الثالث: قاعدتان مهمتان تطبق بهما مسألة "تنزيل الآيات على الواقع"

ذكر الشيخ قاعدتين مهمتين استعملهما المفسرون في تنزيل الآيات على الواقع، وهما:

القاعدة الأولى: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"، والحديث عنها في عدة

نقاط:

1- تعريفها: ومعنى هذه القاعدة هو أنه إذا وقعت حادثة في زمن النبي ﷺ، فإنزل الله عز وجل على نبيّه آية مبينة لتلك الواقعة بلفظ من ألفاظ العموم، فمعنى الآية حينئذ يشمل صاحب تلك الحادثة وغيره ممن شابهه فيها، لأن القرآن نزل تشريعاً عاماً لجميع الأمة ولا يختص بالسبب³.

¹ رسالة الشرك ومظاهره مبارك الميلي، (ص: 86).

² رسالة الشرك ومظاهره مبارك الميلي، (ص: 86).

³ ينظر: مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس بن تيمية، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، السعودية، عام النشر: 1416هـ/1995م، (13/338)، وشرح الكوكب المنير، ابن النجار الحنبلي (ت: 972هـ)، المحقق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة: الثانية، سنة: 1418هـ-1997م، (177/3).

2- حالات العام الوارد على سبب خاص: والعموم الوارد على سبب خاص له ثلاث

حالات هي:

- الأولى: أن يقترن بما يدل على العموم فيعم اجماعاً كقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ المائدة: ٣٨، سبب نزولها المخزومية التي قطع النبي ﷺ يدها وإتيان بلفظ السارق الذكريدل على التعميم وعلى القول بأنها نزلت في الرجل الذي سرق رداء صفوان بن أمية في المسجد فالإتيان بلفظ السارقة الأنثى دليل على التعميم أيضاً .

- الثانية: أن يقترن بما يدل على التخصيص فيخص اجماعاً كقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لِّكَ مِنَ الدُّنْيَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأحزاب: ٥٠.

- الثالثة: ألا يقترن بدليل التعميم ولا التخصيص وهي مسألة المؤلف. والحق فيها أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فيعم حكم آية اللعان النازلة من عويمر العجلاني وهلال. وآية الظهر النازلة في امرأة أوس بن ا لصامت وآية الفدية النازلة في كعب بن عميرة. وآية: ﴿وَلِلنِّسَاءِ نِصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ النساء: ٧. النازلة في ابنتي سعد بن الربيع. وهكذا¹.

والقاعدة الثانية: هي قاعدة: "شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ".

ومحل هذه القاعدة في الأحكام والفروع التي لم يرد ما ينسخها، وأما الاعتقاد، فالدين فيها واحد لجميع العالم، وهو الإيمان بالله، وتوحيده وتصديق رسله، والإيمان بالدار الآخرة².

المبحث الثاني:

تنزيلات الشيخ مبارك الميلي للآيات من خلال واقع أهل زمانه والحياة اليومية له

وفيه خمسة مطالب هي:

المطلب الأول: منهج الشيخ مبارك الميلي في تنزيل الآيات على الواقع

تنوعت أساليب الشيخ مبارك في تنزيه للآيات على الوقائع التي كانت في زمانه، فسلكت طرقاً شتى مجملها ما يلي:

1- التمهيد للمسألة المراد الحديث عنها، وذلك بالإطالة في المقدمات التأصيلية

¹ مذكرة في أصول الفقه، محمد الأمين الشنقيطي (ت 1393هـ)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة. ط: 5، عام: 2001 م، (ص: 251).

² ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ت: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط: 1، سنة: 1416 هـ، (234/1)، التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997 م، (206/6-209).

للمسألة من حيث التعريف اللغوي والاصطلاحي، وذكر بعض المسائل المشابهة لها وغير ذلك، ثم يختتم الحديث عن المسألة بربط الآية بالواقع وبيان علاجها، وتقديم النصائح والنهي عن المخالفات .

2- استشهاد الشيخ أثناء تنزيلاته بوقائع شخصية وقعت له في حياته اليومية وأسفاره ومخالفته للناس، ليبين أن القضية واقع يعيشه الناس فيحتاج إلى علاج من القرآن الكريم وليس مجرد أوهام نظرية يذكرها الشيخ لا وجود لها في الواقع ، ومثالها قوله "فقد حدثني بقرية أبي سعادة من حضر مجلساً فيه كاهن سكير ممن يعرفون في العرف بالمرايطين، فطلب رجل من مرابطه ذلك ولدأً ذكراً، فأعطاه إياه، وعيّن له علامة تكون بجسمه عند الوضع، وقال له: إن وضع بها، فهو مني، وإن خلا منها؛ فهو من الله!!

ولهذه الطامة أشباه ونظائر يعرفها من اختلط بالعامية وسمع أخبارهم مع أوليائهم"¹.

3- التنزيل المباشر من الشيخ وبعبارة واضحة، وهذا غالب تنزيلاته أما التلميح فكان عنده قليلا وذلك لطبيعة التنزيلات عنده، فهي متعلقة بقضايا العقيدة فكان الأنسب لها التنزيل المباشر.

4- أغلب تنزيلات الشيخ جاءت عكسية، بذكر المعنى المراد من الآية ثم بيان مخالفة الناس لمضمونها .

5- تنوع الشيخ لصيغ التنزيل بعبارات مختلفة: ومنها:

- "أما ... عند الناس اليوم".

- "مما يهذي به جمهور المسلمين في هذه الأيام".

- "وصفة ... اليوم عندنا".

- "ولقد فشا في المسلمين اليوم".

6- ختام الشيخ للتنزيل بنصيحة أو إنذار وتحذير، ليجمع في ذلك بين الترغيب للاتباع والترهيب من المخالفة والترك².

المطلب الثاني: المسألة الأولى: التصرف في الكون

من المسائل المهمة التي اعتنى بها الشيخ مبارك الميلي في كتابه "الشرك ومظاهره" مسألة "التصرف في الكون"، حيث شاع في زمنه انتشار بعض العقائد الباطلة وبعض الخرافات من أن بعض البشر لهم تصرف في الكون، فانبرى الشيخ للمسألة وعالجها علاجاً دقيقاً، فقرر أن التصرف في الكون إنما هو خاص بالله سبحانه، وأن نسبة الفعل للمخلوق لا تخلو من

¹ رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 194).

² تنزيل الآيات على الواقع عند مبارك الميلي، مريم زيناي، مذكرة ماستر، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، ص (60-61).

إحداها: أن تكون النسبة على معنى التأثير في الفعل من دون الله .

ثانيها: أن تكون على معنى التأثير بجعل الله وتفويضه .

ثالثها: أن تكون على معنى الإخبار عن عادة أجزاها الله من غير تأثير ذاتي أو جعلي .

ثم استدل لذلك بآيات من القرآن الكريم فقال : " أَنْبَأَتْ عَنْهُ آيَاتُ آلِ عِمْرَانَ

وَالْأَنْعَامِ وَالْأَعْرَافِ وَالْقَصَصِ وَالْمَنَافِقُونَ ... وكثير في معناها: قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ

شَيْءٌ﴾ آل عمران: ١٢٨ ، ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ خَزَائِنِ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ

إِنِّي مَلَكٌ﴾ الأنعام: ٥٠ ، ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ

لَأَسْتَكْثِرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ الأعراف: ١٨٨ ، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

القصاص: ٥ ، ﴿وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ المنافقون: ٧^١ .

وهذه الآيات تدل بمجموعها على أن التصرف في الكون من حقوق الربوبية ، فالله تعالى

يتصرف كما يشاء في كواكبه وأجرامه ، وأن الله تعالى يُسَيِّرُ الشمس من المشرق على المغرب

وأنه الفاعل المختار لما يشاء^٢ .

ثم نزل الآية على العقيدة المنتشرة عند العامة من أهل زمانه الذين وقع كثر منهم في

الشرك بسبب هذه المسألة ، وأنهم كانوا على قسمين:

- فممنهم من يعتقد نسبة الأفعال إلى الأولياء وتصرفهم في الكون على معنى التأثير بجعل

الله وتفويضه ، فهؤلاء الأولياء أعماء على الله ، ففوض إليهم التصرف فما قضوه للناس ،

وافقه الله عليه ، بدليل قول بعضهم: " إنا نكذب والله يصدق " .

- وهناك طائفة أخرى منهم تعتقد أن الولي يفعل ما يفعل بقوته لا بقوة الله ، وبعض

من يدعي الولاية يدعي ذلك لنفسه ويقر العامة عليه .

وهذا كله تنزيل من الشيخ على واقعه المعيش ليجد حلاً وينقذ إخوانه المؤمنين ممّا هم

غارقون فيه من العقائد التي تخرجهم عن ملّة محمد ﷺ .

ثم ختم الشيخ تنزيله لآيات خصوصية التصرف في الكون لله بحادثتين وقعتا للشيخ في

زمانه إحداها حكاية حكاها له أحد أصدقائه ، والأخرى حادثة وقعت للشيخ نفسه ، فقال:

"حكايتان عن العامة:

^١ رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 193) .

^٢ تفسير ابن كثير، (487/5)، والموسوعة العقدية - الدرر السنية، إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف، الناشر: موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net، (132/1) .

الأولى: فقد حدثني بقرية أبي سعادة من حضر مجلساً فيه كاهن سكير ممن يعرفون في العرف بالمرايطين، فطلب رجل من مرابطه ذلك ولداً ذكراً، فأعطاه إياه، وعيّن له علامة تكون بجسمه عند الوضع، وقال له: إن وضع بها، فهو مني، وإن خلا منها؛ فهو من الله !! ولهذا الطامة أشباه ونظائر يعرفها من اختلط بالعامّة وسمع أخبارهم مع أوليائهم .

الثانية: وقد كنت سنة أربع وأربعين مع فقيه ميلبي بمقهي في قسنطينة، فقص علينا رجل مصيبة أيس من السلامة منها، ثم حصل له الفرج، فعبر عن خطورتها قائلاً: لوما الناس الصالحين ... فقال له صاحبي مرشداً أو منكثاً: وربي؟ فأجابه: ربي والناس الصالحين. فقال له: وربي وحده . فلم يجاره، وقال له: هكذا سمعنا الناس يقولون. ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ آ ل عمران: ٨¹.

المطلب الثالث: المسألة الثانية: علم الغيب

وهذه من القضايا المهمة التي أطال الشيخ مبارك الميلبي النفس فيها، وردّ على من أخطأ فيها مثل الرازي خصص نوعاً من الغيب يعلمه الناس وهو تخصيص لا دليل عليه²، وقرّر في هذه المسألة انفراد الله تعالى بمعرفة الغيب، واستدلّ على ذلك بالآيات الدالة على اختصاصه سبحانه بعلم الغيب فقال: "ما جاء في اختصاص الله بعلم الغيب: وقد جاءت آيات وأحاديث في إفراد الله وحده بعلم الغيب، وهي كثيرة، تقدم بعضها: ونقتصر هنا من الآيات على ما في الأنعام والنمل والجن:

قال تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الأنعام: ٥٩. ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ النمل: ٦٥، ﴿ عَلَيْهِ الْغَيْبُ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ﴾ الجن: ٢٦-٢٧³.

وهذه الآيات تدلّ بمجموعها على أن الله تعالى هو المختص بعلم الغيب فلا يعلم أحد الغيب، بل الله - عز وجل - هو الواحد الأحد وهو العالم بغيب السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن، فمن ادّعى مشاركة الله في شيء من ذلك بكهانة أو عرافة أو غيرهما، أو صدق من ادّعى ذلك، فقد جعل لله شريكاً فيما هو من خصائصه، وقد كذب الله ورسوله⁴.

¹ رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلبي، (ص: 195).

² ينظر كلام الرازي، مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط: 3، سنة: 1420 هـ، (273/2).

³ رسالة الشرك ومظاهره مبارك الميلبي، (ص: 198).

⁴ القول السديد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت: 1376هـ)، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - السعودية، الطبعة: الثانية، 1421هـ، (ص: 100).

وبعد التقرير السابق للمسألة أتبع الشيخ مبارك كعادته الكلام على ما شاع عند أهل زمانه عند العوام من اعتقادات باطلة في هذه القضية فقال: "نسبة العامة علم الغيب لبعض الناس:

والعوام ينسبون علم الغيب المطلق إلى من اتخذوهم أولياء، سواء سماهم الشرع أولياء أو كهاناً أو سحرة أو مردة أو مجانين، فيخشون في غيبتهم أن يطلعوا على ما لا يرضونه منهم، ويشدون إليهم الرحال استعلاماً عن سرقة، أو استفتاء عن عاقبة حركة .

وبوادي القطن قرب ميله شرقها كاهن اسمه سيدي مبارك، يأتيه المستطلعون للغيب من مئات الأميال كسوق هراص وأراضي الحراكتة، ومات، فقام ابنه مقامه، ولم يزل حياً- أو: حية- على الجهال، ومثله كثيرون، وإن اختلفت شهرتهم ضيقاً واتساعاً¹ .

ثم ختم الشيخ الكلام على المسألة بحكايتين شائعتين في بلدته ميله ليبين أن ما تحدّث عنه واقع معيش لا مجرد ادّعاءات منه فقال: "حكايتان عن العامة:

وحدثني ميلتان لم يزا حيين:

قال أحدهما: كنت عند باش تارزي شيخ الطريقة الرحمانية بقسنطينة أعلم القرآن، وكنت فتى تدعوني نفسي إلى غشيان النساء، فلم يكن يمنعني إلا خشية الشيخ أن يطلع عليّ من طريق الغيب .

وقال الآخر: كنت ذا(*) سوق في تاجنانت من أرض أولاد عبد النور، وبقري اثنان يتنازعان، فحلف أحدهما للآخر بسيد عبد الرحمن بن الحمالوي- شيخ من شيوخ الطريقة الرحمانية- قرب سقان، فتغير وجه المحلوف له، وأنكر على الحالف قائلاً: أليس الشيخ عالماً بما يجري الآن بيننا؟ قال محدثي: ظننته لأول سماع إنكاره أنه ينهأ عن الحلف بالمخلوق؛ فإذا هويكبره عن الحلف به، ويشركه مع الله في غيبه!!

والحكايات في مثل هذه الضلالات مما لا تسعه المجلدات؛ فإن نسبة الغيب المطلق إلى الأولياء ممّا شاع وذاع، وملاً الحزن والقاع، وهو شرك بإجماع، وإنما حسّنه الجهل، والقعود عن العلم حتى فقد طلابه، وتنوعت عقباته وصعابه، ولم يبق من أهله إلا من يدعي فقه الفروع على قلة وجمود² .

المطلب الرابع: المسألة الثالثة: قضية السحر

من القضايا المهمة التي بسط فيها القول الشيخ مبارك الميلي وذكر فيها مباحث كثيرة، قضية السحر الذي شاع في زمانه ووردت النصوص الشرعية بالزجر عنه أيما زجر، ذلك أنه

¹ رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 210) .

² المرجع نفسه، (ص: 210-211) .

مظهر من مظاهر الإشراف بالله تعالى، ولذلك أدخله الشيخ في كتابه "الشرك ومظاهره".

وقد عرّف الشيخ مبارك السحر لغة واصطلاحاً، وذكر أنواعه الثمانية (سحر البابليين، سحر أصحاب الأحوال، سحر أصحاب العزائم، سحر أصحاب الشعوذة، سحر أصحاب التخيل بالصنعة، سحر أصحاب التخيل بالخواص، سحر أصحاب التنويم، سحر النمام) ثم ذكر ما يقع بها السحر وما لا يقع .

وبعدها وصل إلى المقصود من بحثنا وهو الاستدلال على حرمة السحر بأي القرآن الكريم، فعنون لذلك بعنوان مناسب وذكر ثلاث آيات قرآنية فقال: "ما جاء في السحر: وهذا بعض ما جاء في السحر:

1 - قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانِ كَفَرُوا﴾ البقرة: ١٠٢.

2 - وقال حكاية عن موسى وخطابه للسحرة: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِطُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يونس: ٨١.

3 - وقال جل شأنه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ طه: ٦٩¹.

وانطلاقاً من مدلول هذه الآيات اختلف العلماء في كفر الساحر من عدمه ونوع عقوبته، وقد لخص الإمام النووي المسألة فقال: "... وقد سبق في كتاب الإيمان أن رسول الله ﷺ عدّه من السبع الموبقات وسبق هناك شرحه؛ ومختصر ذلك أنه: قد يكون كفرًا وقد لا يكون كفرًا بل معصيته كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر كفرًا وإلا فلا، وأمّا تعلمه وتعليمه: فحرام، فإن تضمن ما يقتضي الكفر كفرًا وإلا فلا، وإذا لم يكن فيه ما يقتضي الكفر عُزِّر واستتيب منه ولا يقتل عندنا، فإن تاب قبلت توبته، وقال مالك: الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب ولا تقبل توبته بل يتحتم قتله"².

وبعدما ذكر الشيخ المسائل السابقة المتعلقة بالسحر والآيات الواردة فيه، نزل معاني ومضمون تلك الآيات على من تأثر بالسحر أو عمل به من أهل زمانه وبين بطلان عملهم وخطر ما يقومون به فقال: "ولوع بعض الطبقات به:

أبعدَ هذا التنبيه وذلك التحذير يتسابق أصحاب هذا الكتاب وأتباع ذلك الرسول إلى ضروب السحر، ويتنافسون في إتقانها، ويفخر فاخرهم بالمهارة فيها؟!

¹ رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 88).

² المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، 1392هـ، (176/14).

تجد بعض المنتسبين إلى بيوت الصلاح أو دور الطرق الصوفية- وما أكثرهم! - يدجلون على بله العوام بمخاريق سحرية، يوهمونهم بها أنهم ذوو كرامات أولوا تصرف في الرُّوحانيات، وترى بعض من تعلّموا القراءة والكتابة يكبون على شمس المعارف اللبوني، يأخذون منها أقوالاً وأعمالاً مبنية على علم الحروف المنظور فيه إلى طبائع الكواكب المزعوم أنها الحاكمة في هذا العالم، فيعتقدون اعتقاد الكلدان، ويلبسون لباس أهل القرآن، كلّ ذلك ليُنعتوا بالحكمة، ويشار إليهم بتطويع ملوك الجان"¹.

ثم خصّص الحديث عن النساء لأنهنّ أكثر من يتعاطى السحر ويسعى فيه لأغراض مختلفة فقال: ولوع النساء بالسحر:

أما النساء؛ فلا تسأل ... هذه تربط الزوج عن زوجه أو تحله، وتلك تبلّد الرجل حتى تروّج عليه زوجه كلّ شيء، وماهرة تنزل القمر في القصعة كأن القمر خبزة، ولا تجد في الأغلب من تتزوج إلا وهي متزوّده من العجائز بوصايا سحرية ورُقّي وأدوية (وفمين- لا تكذب- نساء صوالج)، ولو عنيت أمتنا بالعلم عنايتها بالسحر، لم تنحرف في حياتها عن سلّم الرقي، ولكنها حادت عن سنة التقدم، وأحاطت بها خطاياها، فحاق بها سوء عملها، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿٥٦﴾ فصلت: ٤٦².

ومما يدل على ولوع النساء بالسحر وتأثرهن به أكثر من الرجال القصة التي رواها الطبري في تفسيره لآيات السحر في سورة البقرة، وهي قصة عائشة مع العجوز التي جاءتها بعد وفاة النبي ﷺ تشكو إليها ما فعلته بها ساحرة³.

وكعادة الشيخ ختم تنزيله بحكاية عن رجل من أهل زمانه يدعى العبيدي فقال فيه: "العبيدي المليبي:

وقد أدركت بميلة جيلاً كله إعجاب برجل يدعونه: العبيدي، وينقلون في مجالسهم أحاديث تصرفه في الجن^(*)؛ فهذا يقول: أخرجته من فلانة وسجنه في زجاجة!! وذاك يحدثك عن إحراقه وتصاعد دخانه!! وآخر يروي لك توبيخه لهم وتهديده إياهم!! فهذا الحكيم العبيدي بميلة يكاد يحظى حظوة ذلك الحاكم العبيدي بمصر، وقد قرأت القرآن على من ورث العبيدي المليبي في صنعته، وإن كان دون شهرته، وكنت أتمنى لو يطلعني شيخي على هذا السر، فحفظني الله من ذلك الشر"⁴.

¹ رسالة الشرك ومظاهره، مبارك المليبي، (ص: 238).

² رسالة الشرك ومظاهره مبارك المليبي، (ص: 238-239).

³ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: 1، سنة: 1420 هـ/ 2000 م، (440/2).

⁴ رسالة الشرك ومظاهره، مبارك المليبي، (ص: 238).

المطلب الخامس: المسألة الرابعة: شرك الدعاء

يعتبر الدعاء من أهم مظاهر العبادة التي أمر الله تعالى بإفرادها بها في كتابه الكريم أو على لسان رسوله الكريم، ولذلك أفرده الشيخ مبارك الميلي بحديث طويل ذكر فيه مسائل كثيرة جدا، فذكر معناه وأنواعه، ثم أفرد الحديث بدعاء غير الله وحكمه ومفاسده، ثم ذكر الآيات التي جاءت في باب الدعاء في القرآن على طريقة التفسير الموضوعي، فذكر أربعة فروع لموضوع الدعاء في القرآن الكريم وهي :

أولاً: ما جاء في توجيه الداعي إلى الله: وذكر فيه ثلاث آيات هي:

1 - فمن الآيات في الجهة الأولى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ البقرة: ١٨٦، ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الأعراف: ١٨، ﴿ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ فاطر: ١٣.

2 - ومنها في الجهة الثانية: ﴿تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ إِذَا دَعَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِذَكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ يونس: ١٠٦ - ١٠٧، ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ آمَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ النحل: ٢٠ - ٢١، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ الإسراء: ٥٦، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ صُرِبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ وَابْتَغُوا الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الظَّالِمُ وَالْمُظْلُومُ﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحج: ٧٣ - ٧٤.

ثالثاً: ما جاء في تذكير السائلين بالتوحيد: وذكر فيه أربع آيات هي:

3 - ومنها في الجهة الثالثة: ﴿قُلِ أَنَدِّعُكُمْ إِن أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرُ اللَّهُ تَدْعُونَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بَلِ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ الأنعام: ٤٠ - ٤١، ﴿الَّذِي يُسَبِّحُكَ فِي اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَخَرَجَ بِهِمْ يَرْجَحُ طَبِيبًا وَقَرِحُوا بِهَا جَهَنَّمَ يَرْجَحُ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِن أُبْعِثْنَا مِن هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِكِينَ﴾ يونس: ٢٢، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الإسراء: ٦٧، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ العنكبوت: ٦٥.

رابعاً: ما جاء في تعادي السائلين والمسؤولين: وذكر فيه ثلاث آيات هي:

4 - ومنها في الجهة الرابعة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ البقرة: ١٦٦، ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ يَبْعِضُ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ العنكبوت: ٢٥، ﴿الْأَخْلَافَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ الزخرف: ٦٧^١.

وهذه الآيات كلها فيها دلالة على وجوب صرف الدعاء لله وحده وأنه لا يمكن أن يكون الإنسان موحداً إلا إذا أفرد الله تعالى بالدعاء، ومع ذلك فقد وقع كثير من الناس في الشرك بسبب الدعاء؛ قال الألوسي: "الناس قد أكثروا من دعاء غير الله تعالى من الأولياء الأحياء منهم والأموات وغيرهم، مثل يا سيدي فلان أغني، وليس ذلك من التوسل المباح في شيء، واللائق بحال المؤمن عدم التفوه بذلك وأن لا يحوم حول حماه، وقد عدّه أناس من العلماء شركاً^٢."

وبعد هذا العرض لآيات القرآن الكريم في باب الدعاء نزل الشيخ الآية على الواقع الذي كان يعيشه أهل زمانه وما شاع فيه من الشرك في الدعاء فقال: "فشودعاء غير الله: ولقد فشا في المسلمين دعاء غير الله على شدة إنكار كتابهم له وتحذير نبيهم منه، حتى صار الجهلة ومن قرب منهم يؤثرونه على دعاء الله وحده، والاستشهاد لذلك بالحكايات عنهم واستيعابها مملّ معجز؛ فلنقتصر على حكاية واحدة"^٣.

ثم ختم الشيخ حديثه كعادته بذكر حادثة وقعت له في إحدى زياراته فقال: "الحكاية العاشورية:

ففي سنة سبع وأربعين قتل شيخنا محمد الميلي رحمه الله، فأتيت من الأغواط، وجاء للتعزية الشيخ عاشور صاحب "منار الأشراف" وملقب نفسه: كليب الهامل، والهامل قرية بالحضنة قرب أبي سعادة، بها زاوية كانت تمدّه بالمال، فحضرت مجلسه، ولم أشعره بحضوري؛ إذ كان قد اجتمع عليه العى والصمم، وذلك لئلا يحترز في حديثه أو نقع في حديث غير مناسب للمقام.

سمعت في ذلك المجلس بأذني كليب الهامل يحكي مناقصاً لدعوة الإصلاح التي اشتهرت

^١ رسالة الشرك ومظاهره مبارك الميلي، (ص: 282-284).

^٢ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، ت: علي عبد البارى عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1415هـ، (298/3).

^٣ رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 285).

يومئذ: أن شيخاً من شيوخ الطرق الصوفية كان مع مريديه في سفينة، فهاج بهم البحر، وعلت أمواجه، فلجؤوا جميعاً إلى الله يسألون الفرج والسلامة، وكان الشيخ منفرداً في غرفة يدعو، فلم تنفج الأزمة، وعادته أن لا يبطأ عليه بالإجابة، فوقع في روعه أنه أتى من قبل أتباعه، لا لنقص فيه يوجب هذا الإعراض عنه، فخرج على أتباعه مغضباً، يقول: ماذا صنعتم في هذه الشدة؟ فقالوا: دعونا الله مخلصين له الدين بلسان المضطرين (إشارة لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ النمل: ٦٢، فنكر عليهم اللجوء إلى الله مباشرة، ووتبعهم عليه، وعرفهم أن ذلك هو الحائل دون استجابة دعائه، وأنذرهم عاقبة استمرارهم على التوجه إلى ربهم، وأنه الغرق، وعلمهم أن واجهم هو التوجه إليه وسؤاله، ثم هو وحده يتوجه إلى الله، فتابوا من دعاء الموحدين، وامتلوا تعليم الشيخ المخالف لتعليم رب العالمين، وعاد الشيخ إلى غرفته يدعو متوسطاً بين الله ومريديه، فأنكشت الغمة، وسلمت السفينة، وحمد الشيخ ثقته بنفسه وفقهه سر البطء عن استجابة دعائه تفقيمه لأتباعه سر النجاة وصرفهم إلى الثقة به عن الثقة بالله .

هذا معنى ما سمعته من كليب الهامل، ولم أقيد الحكاية حين السماع حتى أؤديها بلفظها وأصورها بنصها، ولم يسعني وأنا في مقام التحذير من الشرك اجتناب إدراج ما ينافي غرض الحاكي في الحكاية حتى تتم ثم أعلق عليها؛ لئلا يعلق بذهن القارئ شيء من الشرك، ولو إلى حين، ولم أميز المدرج في الحكاية؛ لأنه لا يخفى على العارف بحال المعارضين لدعاة الإصلاح الديني".

يستدل الشيخ عاشور وأشباهه بأمثال هذه الحكاية على لزوم التعلق بشيوخ الزوايا وتوسيطهم بين العباد وربهم ناسخين بها نصوص الشريعة الكثيرة المحكمة، وتعلقها منهم العامة بقلوبها، وتمسك بها في الاحتجاج لإيثار دعاء غير الله، وتعتقد أن ذلك أليق بحالها من أن تخاطب بنفسها أرحم الراحمين: سنة المشركين من قديم كما تقدم عن الكلدانيين¹.

خاتمة

بعد هذه الرحلة العلمية مع قضية تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ مبارك الميلي، نخلص إلى النتائج الآتية:

- اعتناء الشيخ مبارك الميلي بمسألة تنزيل الآيات الواقع كان ظاهراً في كتابه "الشرك ومظاهره".

- تميز الشيخ مبارك عن غيره من علماء الجمعية بالجمع بين التنظير والتطبيق لمسألة التنزيل، بينما اعتنى غيره بالجانب التطبيقي مثل ابن باديس .

¹ رسالة الشرك ومظاهره مبارك الميلي، (ص: 286-287).

- تنوعت أساليب الشيخ في تنزيله للآيات على الواقع بالتصريح وحكاية الوقائع واستعمال الألفاظ العامة .

- من أهم المسائل التي اعتنى بها الشيخ وذكر فيها أحداثاً واقعية: مسألة: التصرف في الكون، ومسألة علم الغيب، ومسألة السحر، ومسألة الدعاء .

وفي الأخير فإنني أوصي الباحثين بالاعتناء بالتراث التفسيري الجزائري في غير كتب التفسير، ففيها مادة علمية غزيرة وتقييد لحوادث تاريخية وعلاج أمراض اجتماعية في ظلّ كلام الله تعالى .

قائمة المصادر والمراجع

- ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ت: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط: 1، سنة: 1416 هـ.
- أسباب النزول، أبو الحسن النيسابوري (ت: 468هـ)، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح - الدمام، الطبعة: الثانية، 1412 هـ - 1992 م .
- الاستيعاب في بيان الأسباب، سليم بن عيد الهلالي ومحمد بن موسى آل نصر، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط: 1، سنة: 1425 هـ .
- الأم، محمد بن إدريس الشافعي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، الطبعة: بدون طبعة، سنة النشر: 1410 هـ/1990 م .
- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997 م .
- تفسير القرآن العظيم، تأليف: أبو الفداء إسماعيل بن كثير، ت: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: 2، سنة: 1420 هـ - 1999 م .
- تنزيل الآيات على الواقع عند مبارك الميلي، مريم زيناي، مذكرة ماستر، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت: 1376هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط: 1، سنة: 1420 هـ/2000 م .
- جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: 1، سنة: 1420 هـ/2000 م .
- الجامع الصحيح سنن الترمذي، تأليف: محمد بن عيسى الترمذي، ت : أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- رسالة الشرك ومظاهره، مبارك بن محمد الميلي، تحقيق وتعليق: أبي عبد الرحمن محمود، دار الراجعية للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، سنة: 1422 هـ - 2001 م،
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، ت:

- علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ .
- سنن أبي داود، دار الكتاب العربي . بيروت .
- شرح الكوكب المنير، ابن النجار الحنبلي (ت: 972هـ)، المحقق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة: الثانية، سنة: 1418هـ - 1997 م .
- شرح مختصر الروضة، نجم الدين الطوفي، (المتوفى : 1316هـ)، المحقق : عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ، 1407 هـ/ 1987 م
- صحيح البخاري، دار ابن كثير، بيروت، ط: 3، 1407 / 1987، ت: د مصطفى ديب البغا .
- القول السديد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت: 1376هـ)، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، 1421 هـ .
- مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس بن تيمية ، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: 1416 هـ/ 1995 م .
- مذكرة في أصول الفقه، محمد الأمين الشنقيطي (ت 1393هـ)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط: 5، عام: 2001 م .
- معالم التنزيل في تفسير القرآن ، المؤلف : أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، المحقق : عبد الرزاق المهدي، الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة : الأولى ، 1420 هـ .
- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: 3، سنة: 1420 هـ .
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية ، 1392 هـ .
- الموسوعة العقدية - الدرر السنية، إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ غلوي بن عبد القادر السقاف، الناشر: موقع الدرر السنية على الإنترنت . dorar.net
- نهاية السؤل شرح مناهج الوصول، عبد الرحيم الإسنوي، دار الكتب العلمية - بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، سنة: 1420 هـ- 1999 م .

- 61 -

الكريم، والعمل بأحكامه وإحلال حلاله وتحريم حرامه؛ قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)؛ إذ بها ندلُّ على عموم الشريعة وشمولها للناس أجمعين، وبها نتمكن من تخريج فروع النوازل غير المتناهية على أصول النصوص المتناهية، ومنه معرفة حكم الله ﷻ في كل مسألة تعرض للعبد، وعبادة الله رب العالمين على بينة وبصيرة.

* ولذلك جاءت هذه الورقة العلمية تحاولُ الإجابة عن الإشكال الآتي: ما معنى قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)؟ وما أصلها من النصوص الشرعية وكلام أهل العلم الراسخين؟ ثمَّ ما علاقتها بتنزيل النص الشرعي عمومًا، والنص القرآني على سبيل الخصوص على الواقع؟

* ولمَّا تأملتُ في الدراسات التي قاربت هذه القضية؛ وجدت أن جُلَّها يربطُ مسألة التنزيل بالعلماء أو بعالمٍ بعينه، ومن هذه الدراسات:

- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين دراسةً وتطبيق، لعبد العزيز الضامر

- منهج العلماء في تنزيل الهدايات على الواقع، لمحمد العواجي

- تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام ابن القيم رحمه الله، ليحيى زمزمي

وهذه الدراسات، جُلُّها كان تركيز النظر فيها على الشخصية أو الشخصيات لا على المسألة، والدليل على ذلك، أن الدكتور العواجي وفقه الله - على سبيل المثال -، في بحثه (منهج العلماء في تنزيل الهدايات على الواقع)؛ لما جاء إلى ذكر فوائد تنزيل النص القرآني على الواقع قال: توثيق الأحداث التاريخية في عصر المفسر، والتعرف على موقف المفسر من هذه الأحداث، والتعرف على سيرة المفسر¹. وواضحٌ محورية شخصية المفسر في هذا الطرح.

والذي حاولته أنا في هذا البحث؛ هو التركيز على مسألة التنزيل؛ تنزيل النص القرآني وربطها بمسألة من المسائل العلمية المؤثرة فيها، وهي دلالات الألفاظ، وأقربُ دراسةٍ إلى هذا النمط من المعالجة وجدتها:

- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين بدلالة المفهوم، لرقية العتيق. وإن كانت هي اختارت جانبًا من جوانب دلالات الألفاظ؛ هو باب (المنطوق والمفهوم)، واخترت أنا جانبًا آخر أرى أنه لا يقلُّ أهميَّةً؛ هو باب (العموم والخصوص)، وركزت على قاعدة خاصة من قواعده هي قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

* ولتحقيق أكبر قدرٍ من الأهداف المتوخَّى تحصيلها من هذا البحث؛ فقد بنيتُ أركانه على خُطَّةٍ، أحسبُ أنها خادمةٌ للمقصود، مؤديةٌ إلى الغرض المنشود، وجعلتها إجمالاً في: مقدمة ومقصدتين وخاتمة.

¹ يُنظر: العواجي، منهج العلماء في تنزيل الهدايات على الواقع، ص 7-8.

أما المقدمة؛ ففيها تعريفٌ بالموضوع من خلال بيان أهميته والإشكال الذي يطرحه، وأهم الدراسات السابقة، ومنهجية تقسيمه ومعالجته.

وأما المقصد الأول: قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب): شرحاً وتأصيلاً. ففيه مسألتان تم توزيعهما على فرعين: الفرع الأول: وفيه شرح للقاعدة تحليلياً وتمثيلاً. والفرع الثاني: وفيه تأصيل للقاعدة من ثلاث جهات؛ من جهة النصوص الشرعية، ومن جهة كلام الأصوليين، ومن جهة علماء التفسير وعلوم القرآن.

وأما المقصد الثاني: استثمار قاعدة (العبرة بعموم اللفظ) في تنزيل النص القرآني على الواقع؛ ففيه بيان تطبيقي لعمل المفسرين في إعمال القاعدة في تفسير الآي، وكيفية استثمارها في تنزيل النص على الواقع، وذلك من خلال دراسة ستة أمثلة وأما الخاتمة؛ ففيها تسجيلٌ للنتائج المجنّية، على ما هي الأعراف الأكاديمية، في خواتيم الأعمال العلمية.

هذا، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

المقصد الأول: قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب): شرحاً وتأصيلاً

سنحاول في هذا المقصد بيان أمرين اثنين: الأول شرح القاعدة من خلال تحليل عبارتها، وتقريب معناها بالأمثلة. والآخر تأصيل القاعدة من النصوص الشرعية، والمأثورات العلمية عن أهل الأصول وأهل التفسير، وهذا إجمالاً تفصيله فيما يأتي:

الفرع الأول: شرح القاعدة:

معنى القاعدة على ما بيّن أهل الاختصاص: أن آيات القرآن العظيم التي نزلت لسبب أو حادثة، وحملت في طياتها حكماً؛ فإن ذلك الحكم يكون عاماً ولا يختص بصاحب سبب الواقعة أو الحادثة¹.

قال ابن تيمية رحمه الله (ت: 728هـ): "وَقَدْ يَجِيءُ كَثِيرًا مِنْ هَذَا الْبَابِ، قَوْلُهُمْ: هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي كَذَا، لَا سِيَّيَمَّا إِنْ كَانَ الْمَذْكُورُ شَخْصًا: كَأَسْبَابِ التُّرُوفِ الْمَذْكُورَةِ فِي التَّفْسِيرِ، كَقَوْلِهِمْ: إِنَّ آيَةَ الظَّهَارِ نَزَلَتْ فِي امْرَأَةِ أُوسَى بْنِ الصَّامِتِ، وَإِنَّ آيَةَ اللَّعَانِ نَزَلَتْ فِي عُويمر العجلاني أو هلال بن أمية، وَأَنَّ آيَةَ الْكَلَالَةِ نَزَلَتْ فِي جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَنَّ قَوْلَهُ: (وَأَنَّ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ) نَزَلَتْ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ وَالتَّضْيِيرِ، وَأَنَّ قَوْلَهُ: (وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ) نَزَلَتْ فِي بَدْرِ، وَأَنَّ قَوْلَهُ: (شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ) نَزَلَتْ فِي قَضِيَّةِ تَمِيمِ الدَّارِي وَعَدِيٍّ بْنِ بَدَاءٍ، وَقَوْلُ أَبِي أَيُّوبَ إِنَّ قَوْلَهُ: (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) نَزَلَتْ فِيْنَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ الْحَدِيثِ، وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرٌ، مِمَّا يَذْكُرُونَ أَنَّهُ نَزَلَ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ، أَوْ فِي

¹ يُنظر: السبب، قواعد التفسير جمعاً ودراسة، ج 2، ص 593.

قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، أَوْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

[...] وَالْآيَةُ الَّتِي لَهَا سَبَبٌ مُعَيَّنٌ؛ إِنْ كَانَتْ أَمْرًا وَهَيِّئًا؛ فَهِيَ مُتَنَاوِلَةٌ لِذَلِكَ الشَّخْصِ وَلِغَيْرِهِ مِمَّنْ كَانَ بِمَنْزِلَتِهِ، وَإِنْ كَانَتْ خَبَرًا بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ؛ فَهِيَ مُتَنَاوِلَةٌ لِذَلِكَ الشَّخْصِ وَغَيْرِهِ مِمَّنْ كَانَ بِمَنْزِلَتِهِ أَيْضًا¹.

ففي قوله ﷺ على سبيل المثال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يَكْلَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 174]. يذكر أهل التفسير أن المراد بالذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب؛ اليهود الذين كتموا التوراة، هذا سبب نزولها، ولكن الوعيد لا يختص بهم، بل هو عامٌّ لكل من اتصف بصفته من الكتمان.

قال الشوكاني رحمه الله (ت: 1250هـ): "قَوْلُهُ ﷺ: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ) قِيلَ: الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ، لِأَنَّهُمْ كَتَمُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَةِ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ. [...]، وَهَذَا السَّبَبُ وَإِنْ كَانَ خَاصًّا؛ فَالِإِعْتِبَارُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ، وَهُوَ يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ كَتَمَ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ الرِّشَا"². والذي يتضح من نصِّ الشوكاني رحمه الله الأنف، إعمال المفسرين لقاعدة (عموم اللفظ) والأخذ بها في كل موضع تنطبق عليه.

الفرع الثاني: تأصيل القاعدة:

أصل هذه القاعدة مُستنبطٌ من دلالات نصوصٍ شرعية كثيرة، من القرآن والسنة، ولعلَّ بداية شهرتها بنصها وصياغتها؛ كانت عند معاصر الأصوليين، ثم انتقلت إلى علماء التفسير وعلوم القرآن - وإن كان متقدموهم قد حوَّموا حول معناها، كما سأشيرُ من بعد -، ولذلك فإني سأسرد ههنا نصوص أهل العلم من الأصوليين في تأصيل هذه القاعدة مرتبة تاريخيًا، ثم أعقبها تباعًا بنصوص علماء التفسير وعلوم القرآن، مصدِّرًا جميع ذلك ببعض النصوص الشرعية المؤصلة لها، وهذا إجمالٌ تفصيله كالآتي:

أولاً: بعض النصوص الشرعية المؤصلة لقاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب):

قبل أن ننتقل إلى تأصيل القاعدة من كلام العلماء؛ سواء منهم الأصوليون أو المفسرون؛ فإنه لا بد من الإشارة إلى أنَّ هناك نصوصًا شرعية غايَةٌ في النفاسة، من جهة دلالتها الصريحة على مضمون قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)، سواء كانت من نصِّ النبي ﷺ على ذلك صراحةً، أو من تطبيقه العملي ﷺ لفحواها، أو من فهم

¹ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 13، ص 238-239.

² الشوكاني، فتح القدير، ج 1، ص 197.

الصحابه رضوان الله عنهم ومن بعدهم من التابعين، ممّا نصّ عليه النبي ﷺ:

- أمّا من نصّ النبي ﷺ صراحةً؛ فما روى البخاري رحمه الله (ت:256هـ) في صحيحه، "عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: (أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) [هود:114]، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْ هَذَا؟ قَالَ: «لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ»¹.

وفي لفظ: "قَالَ الرَّجُلُ: أَلَيْ هَذِهِ؟ قَالَ ﷺ: «لَمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي»².

- وأمّا من تطبيق النبي ﷺ العمليّ لفحوى هذه القاعدة؛ فما روى البخاري ومسلم في صحيحهما، "عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ، فَقَالَ: (أَلَا تُصَلُّونَ؟) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ؛ فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثْنَا، فَانصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قُلْتُ لَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ، يَضْرِبُ فَخْذَهُ وَيَقُولُ: (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) [الكهف:54]"³.

والشاهد في الحديث؛ استدلال النبي ﷺ بالآية، وحملها على عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو مؤمن، مع أنها نازلة في الكفار الذين يجادلون في القرآن. قال الثعلبي رحمه الله (ت:427هـ): "(وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا): خصومة في الباطل، يعني أبي بن خلف الجمحي. وقيل: إنه عام ليس بخاص، واحتجّوا بما روى الحسن بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن أبيه ﷺ قال: «إن رسول الله ﷺ طرقه هو وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، فقال: ألا تصلّون؟ فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله تعالى، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت ذلك له، ولم يرجع شيئاً، فسمعتة وهو يضرب فخذه ويقول: (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)"⁴.

- وأمّا فهمُ الصحابة رضوان الله عنهم؛ فقد قرّر السيوطي رحمه الله (ت:911هـ) في (الإتقان) أَنَّ "مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى اعْتِبَارِ عُمُومِ اللَّفْظِ: احْتِجَاجُ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ فِي وَقَائِعِ بَعْمُومِ آيَاتٍ نَزَلَتْ عَلَى أَسْبَابٍ خَاصَّةٍ، شَائِعًا ذَائِعًا بَيْنَهُمْ"⁵.

ومن ذلك ما روى البخاري رحمه الله في (الصحيح)، عن "عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْقِلٍ، قَالَ: قَعَدْتُ إِلَى كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ؛ يَغْنِي مَسْجِدَ الْكُوفَةِ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ (فُدْيَةٍ مِنْ

¹ البخاري، الصحيح، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة، حديث 526، ج 1، ص 111.

² البخاري، الصحيح، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلَّذِينَ كَانُوا عَلَى شَاكٍ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا) [هود:114]، حديث 4687، ج 6، ص 75.

³ البخاري، الصحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قوله تعالى: (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)، حديث 7347. و: مسلم، الصحيح، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب مَا رُويَ فِيهِمْ نَامَ اللَّيْلِ أَجْمَعُ حَتَّى أَصْبَحَ، حديث 775.

⁴ الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج 6، ص 178.

⁵ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج 1، ص 111.

صِيَامٍ)، فَقَالَ: حُمِلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْقَمَلُ يَتَنَائَرُ عَلَى وَجْهِ، فَقَالَ: «مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ الْجَهْدَ قَدْ بَلَغَ بِكَ هَذَا، أَمَا تَجِدُ شَاءً؟». قُلْتُ: لَا، قَالَ: «صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ لِكُلِّ مَسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، وَاحْلِقْ رَأْسَكَ» فَتَزَلْتُ فِي خَاصَّةٍ، وَهِيَ لَكُمْ عَامَّةٌ¹.

- وكذلك كان صنيع التابعين من بعدهم: فقد روى ابن جرير رحمه الله في (التفسير)، أَنَّ "سعيداً المقبري [ذاكر] محمد بن كعب [القرظي]²، فقال سعيد: إن في بعض الكتب: أن لله عبادة؛ ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أَمْرٌ من الصَّبر، لبسوا للناس مُسُوكَ الضَّأْنِ من اللين، يجتروُن الدنيا بالدين، قال الله تبارك وتعالى: أَعْلِيَّ يَجْتَرُونَ، وبِي يَغْتَرُونَ!! وَعَزَّيْ لَأَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً تَرْكُ الْحَلِيمِ مِنْهُمْ حَيْرَان!! فقال محمد بن كعب: هذا في كتاب الله جل ثناؤه. فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله؟ قال: قول الله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: 204-205] فقال سعيد: قد عرفت فيمن أنزلت هذه الآية! فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل في الرجل، ثم تكون عامَّةً بعد³.

والذي يُستفاد ممَّا تمَّ سياقه؛ أن فحوى قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)؛ كان معمولاً به عند النبي ﷺ ذاته، وكان مفهومها واضحاً مستقرّاً عند الصحابة ومن بعدهم من التابعين.

ثانياً: تأصيل قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) من كلام الأصوليين:

- من أوائل ما أنت واجدٌ من النصوص الأصولية الصريحة في تأصيل قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب): ما ذكر الخطيب البغدادي رحمه الله (ت: 463هـ) في (الفقيه والمتفقه): "وَإِذَا نَزَلَتْ آيَةٌ عَلَى سَبَبٍ خَاصٍّ؛ كَانَ حُكْمُهَا عَامًّا كَمَا [...] رُؤِينَا] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْقِلٍ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا فِي الْمَسْجِدِ، فَجَلَسَ إِلَيْنَا كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ فَقَالَ: فِي نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ) [البقرة: 196] قَالَ قُلْتُ: كَيْفَ كَانَ شَأْنُكَ؟ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحْرَمِينَ، فَوَقَعَ الْقَمَلُ فِي رَأْسِي وَلَحِيتِي وَشَارِبِي، حَتَّى وَقَعَ فِي حَاجِبِي، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: (مَا كُنْتُ أَرَى بَلَغَ مِنْكَ هَذَا، ادْعُوا الْحَالِقَ)، فَجَاءَ الْحَالِقُ فَحَلَقَ رَأْسِي، فَقَالَ: (هَلْ تَجِدُ مِنْ نَسِيكَةٍ؟) قُلْتُ: لَا - وَهِيَ شَاءَ

¹ البخاري، الصحيح، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ)، حديث 4517، ج 6، ص 27.

² محمد بن كعب القرظي: تابعي جليل، من أعلم الناس بتأويل القرآن العظيم، وُلِدَ في حياة النبي ﷺ، وقيل رآه. كان يقص في المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه سقف فماتوا سنة ثمان ومائة 108هـ رحمة الله عليه وعليهم أجمعين. يُنظر: ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج 2، ص 233.

³ ابن جرير، جامع البيان، ج 4، ص 232.

- قال: (فَصُمُّ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمُ ثَلَاثَةَ أَصْعٍ بَيْنَ سِتَّةِ مَسَاكِينَ) قال: فَأَنْزِلْتُ فِيَّ خَاصَّةً، وَهِيَ لِلنَّاسِ عَامَّةٌ¹.

- ومنهم الشيرازي رحمه الله (ت:476هـ) في (التبصرة)، وقد ساق في ذلك استدلالاً طريفاً جداً يحتج فيه عبد الله بن الزبير - وهو مشرك -، على النبي ﷺ بصيغة العموم!! قال الشيرازي رحمه الله: "زَوِيَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبْرِى: لِأَخْصَمَنِ مُحَمَّداً، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: قَدْ عُيِدَتِ الْمَلَائِكَةُ وَعُيِدَ الْمَسِيحُ؛ أَفَيَدْخُلُونَ النَّارَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ أُولَئِكَ غَنَّا مَبْعُدُونَ)، فَاحْتَجَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِعُمُومِ اللَّفْظِ، وَلَوْ لَمْ يَقْتَضِ اللَّفْظُ الْعُمُومَ؛ لَمَا اخْتَجَّ بِهِ، وَلَأَنْكَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ احْتِجَاجَهُ"².

- ومنهم كذلك الغزالي رحمه الله (ت:505هـ) الذي يقول في (المستصفى): "وَرُودُ الْعَامِّ عَلَى سَبَبٍ خَاصٍّ لَا يُسْقِطُ دَعْوَى الْعُمُومِ، كَقَوْلِهِ ﷺ حَيْثُ مَرَّ بِشَاةٍ مَيْمُونَةٍ: (أَيُّمَا إِهَابٍ دُبِعَ فَقَدْ طَهِّرَ) [...] وَالذَّلِيلُ عَلَى بَقَاءِ الْعُمُومِ: أَنَّ الْحُجَّةَ فِي لَفْظِ الشَّارِعِ، لَا فِي السُّؤَالِ وَالسَّبَبِ، [...] وَأَكْثَرُ أَصُولِ الشَّرْعِ خَرَجَتْ عَلَى أَسْبَابٍ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ) [المائدة:38] فِي سَرِقَةِ الْمِجَنِّ أَوْ رِدَاءِ صَفْوَانَ، وَنَزَلَتْ آيَةُ الظَّهَارِ فِي سَلَمَةِ بَنِي صَخْرٍ، وَآيَةُ اللَّعَانِ فِي هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ، وَكُلُّ ذَلِكَ عَلَى الْعُمُومِ"³.

والناظر في كلام أهل الأصول في هذه القاعدة؛ يلاحظ تركيزهم على جانب الأحكام العملية المستفادة من الأدلة التفصيلية؛ أي أن زاوية نظرهم كانت مُنْصَبَّةً على قسمٍ من آيات القرآن العظيم؛ هو ما اصطلاح أهل العلم على تسميته بآيات الأحكام، لا على جميع النصوص القرآنية.

ثالثاً: تأصيل قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) من كلام المفسرين:

وأما علماء التفسير وعلوم القرآن؛ فإن مُتَقَدِّمِيهِمْ قد أشاروا إلى معاني هذه القاعدة وحوَّموها حول فحواها، وإن كانوا لم ينصُّوا عليها بلفظها، ومن أوائل من نبه عليها من المفسرين:

- شيخ المفسرين؛ الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري رحمه الله (ت:310هـ)؛ فإنه رحمة الله عليه عند تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ [الحجر:24]. ذكر سبباً لنزول الآية؛ وهو ما رواه "عن ابن عباس رض الله عنه قال: كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ امرأةٌ حسناء من أحسن الناس، فكان بعض الناس يستقدم في

¹ الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج1، ص225-226.

² الشيرازي، التبصرة في أصول الفقه، ص106.

³ الغزالي، المستصفى، ص235-236.

الصفّ الأوّل لئلا يراها، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصفّ المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه في الصفّ، فأنزل الله في شأنها: (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)¹.

ولكنه عند ترجيح الأقوال في الآية؛ لم يقتصر على المعنى الوارد في سبب النزول، وإنما جعله عامًّا. قال رحمه الله: "وأولى الأقوال عندي في ذلك بالصحة قول من قال: معنى ذلك: ولقد علمنا الأموات منكم يا بني آدم فتقدّم موته، ولقد علمنا المستأخرين الذين استأخر موتهم ممن هو حيّ ومن هو حادث منكم ممن لم يحدث بعد، لدلالة ما قبله من الكلام، وهو قوله (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) وما بعده وهو قوله (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ) على أن ذلك كذلك، إذ كان بين هذين الخبرين، ولم يجر قبل ذلك من الكلام ما يدلّ على خلافه، ولا جاء بعد. وجائز أن تكون نزلت في شأن المستقدمين في الصفّ لشأن النساء والمستأخرين فيه لذلك، ثم يكون الله عزّ وجلّ عمّ بالمعنى المراد منه جميع الخلق، فقال جلّ ثناؤه لهم: قد علمنا ما مضى من الخلق وأحصيناها، وما كانوا يعملون، ومن هو حيّ منكم، ومن هو حادث بعدكم أيها الناس، وأعمال جميعكم خيرها وشرّها، وأحصينا جميع ذلك ونحن نحشر جميعهم، فنجازي كلا بأعماله، إن خيرًا فخيرًا وإن شرًا فشرًا. فيكون ذلك تهديدًا ووعيدًا للمستأخرين في الصفوف لشأن النساء ولكلّ من تعدّى حدّ الله وعمل بغير ما أذن له به، ووعدا لمن تقدّم في الصفوف لسبب النساء، وسارع إلى محبة الله ورضوانه في أفعاله كلها"².

- وكذلك الزمخشري رحمه الله (ت: 538هـ) الذي قال عند تفسير قوله ﷺ: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا) [البقرة: 114]: "فإن قلت: فكيف قيل: (مساجد الله)، وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد؛ وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت: لا بأس أن يجيء الحكم عامًّا، وإن كان السبب خاصًّا، كما تقول لمن أذى صالحا واحداً: ومن أظلم ممن أذى الصالحين"³. ثم أعاد تقريرها عند تفسير قوله ﷺ: (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) [الهمزة: 1]، فقال: "قيل: نزلت في الأخنس بن شريق، وكانت عادته الغيبة والوقية. وقيل: في أمية بن خلف. وقيل: في الوليد بن المغيرة واغتيابه لرسول الله ﷺ وغيظه منه. ويجوز أن يكون السبب خاصًّا والوعيد عامًّا، ليتناول كلّ من باشر ذلك القبيح"⁴.

وأما متأخرو المفسرين؛ فقد نصوا على القاعدة نصًّا، وأعملوها في التفسير، ومنهم:

- الألوسي رحمه الله (ت: 1270هـ) في (روح المعاني) عند تفسير قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا

¹ ابن جرير، جامع البيان، ج 14، ص 94.

² ابن جرير، جامع البيان، ج 14، ص 94.

³ الزمخشري، الكشاف، ج 1، ص 179.

⁴ الزمخشري، الكشاف، ج 4، ص 597.

النَّبِيِّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال:70]، قال رحمه الله: "جاء في رواية أنها نزلت في العباس ؑ، وقد روي عنه أنه قال: كنت مسلمًا، لكن استكروهني، فقال رسول الله ﷺ: (إن يكن ما تذكر حقًا؛ فالله تعالى يجزيك، فأما ظاهر أمرك؛ فقد كان علينا، فإد نفسك، وابني أخويك؛ نوفل بن الحارث وعقيل بن أبي طالب، وحليفك عتبة بن عمرو [...]. وزوي عنه ؑ أنه قال بعد حين: أبدلني الله خيرا من ذلك؛ لي الآن عشرون عبدًا؛ إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفًا، وأعطاني زمزم، وما أحبُّ أن لي بها جميع أموال مكَّة، وأنا أنتظر المغفرة من ربكم، يتأول ما في قوله تعالى: (وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [...]. وزوي أنه قدم على رسول الله ﷺ مال البحرين؛ ثمانون ألفًا، فتوضأ ﷺ، وما صلى حتى فرقه، وأمر العباس ؑ أن يأخذ منه، فأخذ ما قدر على حمله، وكان ﷺ يقول: هذا خيرٌ ممَّا أُخِذَ مِنِّي، وأرجو المغفرة"¹.

قال الألوسي رحمه الله (ت:1270هـ) مُعَقِّبًا على ذكر هذا السبب: "والظاهر أن الآية عامة لسائر الأسارى، على ما تقتضيه صيغة الجمع، ولا يابى ذلك رواية أنها نزلت في العباس ؑ، لما قالوا من أن: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"².

- ومنهم الشنقيطي رحمه الله (ت:1393هـ=1973م) في (أضواء البيان)، وقد أعملها في مواضع كثيرة، - وهو الأصولي المفسر -، ومنها عند تفسير قوله ﷺ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:59]. قال رحمه الله: "وَكُوْنُهُمْ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ لَيْسَ بِوَجِيهِ عِنْدِي؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ) [مريم:59]، صِيغَةٌ تَدُلُّ عَلَى الْوُقُوعِ فِي الزَّمَنِ الْمَاضِي، وَلَا يُمَكِّنُ صَرْفَهَا إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ إِلَّا بِذَلِيلٍ يَجِبُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ كَمَا تَرَى، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ خَلَفُوا أَنْبِيَاءَهُمْ وَصَالِحِيهِمْ قَبْلَ نَزُولِ الْآيَةِ، فَأَضَاعُوا الصَّلَاةَ، وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَالْعَبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ، فَكُلُّ خَلْفٍ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ يَدْخُلُونَ فِي الدِّمِّ وَالْوَعِيدِ الْمَذْكُورِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ"³.

والمتأمل في تطبيقات المفسرين لقاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)؛ يلاحظ أنهم - على خلاف الأصوليين -، لم يقصروا كلامهم على آيات الأحكام، بل كانت تطبيقاتهم للقاعدة شاملة آيات الأحكام، والأخبار والآداب وغيرها، ولذلك كانت كتب التفسير أسعد حظًا باستثمار هذه القاعدة في تنزيل النص القرآني على الواقع، وذلك ما سأحاول بيانه في المقصد التالي.

¹ الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج5، ص232.

² الألوسي، روح المعاني، ج5، ص232.

³ الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج3، ص445.

المقصد الثاني: استثمار قاعدة (العبرة بعموم اللفظ) في تنزيل النص القرآني على الواقع المقصود بـ(تنزيل الآيات على الواقع)؛ إجراء حكم الآية على حادثة مُستجدة من السنن الإلهية، أو الأفعال الإنسانية، للفرد والجماعة في أحوالها المختلفة¹. ولكن أكثر الناس - للأسف -، يقرأ القرآن كأنه نصوصٌ تاريخيةٌ تسرد أحداثاً لما مضى من الأمم، ولا علاقة لنا بها، حتى إنك لتحضرُ لدرسٍ في التفسير؛ يُوحى إليك مُلقية أن نمّ فلا خوف عليك؛ فإنما يتكلم القرآن عن قريشٍ ومن قبلهم من الأمم البائدة، ولا علاقة له بإصلاح حاضرك ولا مستقبلك. قال ابن القيم رحمه الله (ت:751هـ): "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْعُرُونَ بِدُخُولِ الْوَاقِعِ تَحْتَهُ، وَتَضَمُّنِهِ لَهُ، وَيَطْنُونَهُ فِي نَوْعٍ وَفِي قَوْمٍ قَدْ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَعْقِبُوا وَارِثًا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ فَهْمِ الْقُرْآنِ. وَلَعَمْرُ لِلَّهِ إِنْ كَانَ أُولَئِكَ قَدْ خَلَوْا، فَقَدْ وَرِثَهُمْ مَنْ هُوَ مِثْلُهُمْ، أَوْ شَرٌّ مِنْهُمْ، أَوْ دُونَهُمْ، وَتَنَاولُ الْقُرْآنَ لَهُمْ كَتَنَاولِهِ لِأُولَئِكَ"².

كما يُنبِئُه رحمه الله مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِنَفْسِهِ، وَيُدْرِكَ طَرَفًا مِنْ هَدْيِ الْقُرْآنِ، أَنْ يَتَدَبَّرَ آيَ الْقُرْآنِ وَيَنْزِلَهَا عَلَى وَاقِعِهِ، فَإِنَّهُ السَّبِيلُ إِلَى ذَلِكَ. قَالَ رحمه الله: "وَالنَّاصِحُ لِنَفْسِهِ، الْعَامِلُ عَلَى نَجَاتِهَا، يَتَدَبَّرُ هَذِهِ الْآيَاتِ حَقًّا تَدَبُّرُهَا، وَيَتَأَمَّلُهَا حَقًّا تَأَمُّلُهَا، وَيُنْزِلُهَا عَلَى الْوَاقِعِ، فَيَبْرَى الْعَجَبَ، وَلَا يَظُنُّهَا اخْتِصَاصٌ بِقَوْمٍ كَانُوا فَبَانُوا، فَالْحَدِيثُ لِكَ وَاسْمَعِي يَا جَارَةُ، وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ"³.

ولا ريب أن لا سبيل إلى تنزيل الآيات على الواقع، وهي مرتبطةٌ بأسباب نزولٍ، وسياق تنزيلٍ لا يُمكن تعديهِ؛ إلّا بآلةٍ وأداةٍ تُمكنُ من ذلك بطريقةٍ سليمةٍ المقدمات مأمونة النتائج، هذه الأداة هي قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) التي تُعدُّ اتفاقيةً بين أهل العلم. قال ابن القيم رحمه الله (ت:751هـ) عند قول الله ﷻ: ﴿الْهَآكُمُ النَّكَاتُ﴾ [التكاثر:1]، بعد أن ناقش القائلين بتخصيص الخطاب في الآية بالكفار ورده لقولهم: "وأيضاً؛ فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وأن الإلهاء بالتكاثر واقعٌ من المسلمين كثيراً، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر، وخطاب القرآن عامٌ لمن بلغه، وإن كان أولٌ من دخل فيه المعاصرون لرسول الله ﷺ؛ فهو متناول لمن بعدهم، وهذا معلوم بضرورة الدين، وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المتأخرين، فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ) ونظائره؛ كما دخل تحتها الصحابة، بالضرورة المعلومة من الدين، فقوله: ﴿الْهَآكُمُ النَّكَاتُ﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف"⁴.

وقضية تنزيل النص القرآني على الواقع، اشتهرت أكثر عند مفسري المغاربة؛ لما كانت

¹ يُنظر: رقية العتيق، تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين بدلالة المفهوم، ص29.

² ابن القيم، مدارج السالكين، ج1، ص351.

³ ابن القيم، مدارج السالكين، ج2، ص367.

⁴ ابن القيم، عدة الصابرين، ص192.

تموَّجُ به بلاد الأندلس والمغرب عموماً من الأحداث. قال الدكتور الضامر وفقه الله: "كتفاسير المغاربة - أمثال ابن العربي والقرطبي - التي يكثر فيها هذا النوع عن غيرها من تفاسير المشاركة، وهذا الأمر راجعٌ إلى اهتمام علماء ذلك القطر بفقه النوازل والمستجدات الطارئة على عصرهم، وإلى رصد وتسجيل ما يكون في رحلاتهم من مواقف وأحداث، وفوق ذلك اهتمامهم بمسلك الاستنباط والربط والتحليل أكثر من غيرهم"¹.

وسأحاول فيما يأتي من أمثلة: أن أبين أثر قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) في تنزيل النص القرآني على الواقع عملياً من كلام أهل العلم، وسيكون العمل مرتباً في النقاط الأربع الآتية: الأولى: اختيار النص القرآني الذي نزل المفسرون على الواقع، والثانية: ذكر معنى الآية إجمالاً من كلام المفسرين، والثالثة: سياق سبب النزول الذي نزلت لأجله، والرابعة: تنزيل الآية على الواقع وأثر قاعدة (العبرة بعموم اللفظ) في ذلك.

المثال الأول: قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 33].

- معنى الآية - على ما ذكر البيضاوي رحمه الله (ت: 685) -: "(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) أي يحاربون أولياءهما وهم المسلمون، جعل محاربتهم محاربتهم تعظيماً. وأصل الحرب السلب، والمراد به هاهنا قطع الطريق، وقيل المكابرة باللصوصية، وإن كانت في مصر. (وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا) أي مفسدين، ويجوز نصبه على العلة أو المصدر لأن سعيهم كان فساداً فكانه قيل: ويفسدون في الأرض فساداً. (أَنْ يُقَتَّلُوا) أي قصاصاً من غير صلب، إن أفردوا القتل. (أَوْ يُصَلَّبُوا) أي يصلبوا مع القتل، إن قتلوا وأخذوا المال. وللفقهاء خلاف في أنه يقتل ويصلب، أو يصلب حياً ويترك أو يطعن حتى يموت. (أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ) تقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى، إن أخذوا المال ولم يقتلوا. (أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ) ينفوا من بلد إلى بلد، بحيث لا يتمكنون من القرار في موضع، إن اقتصرنا على الإخافة. وفسر أبو حنيفة النفي بالحبس. وأو في الآية على هذا للتفصيل، وقيل: إنه للتخيير، والإمام مخير بين هذه العقوبات في كل قاطع طريق. ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ذل وفضيحة. وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ لعظم ذنوبهم"².

فهي على ذلك تبين (حدّ الحاربة) في دين الإسلام العظيم، وهو على ترتيب الآية: القتل قصاصاً لمن قتل فقط، والقتل مع الصلب لمن قتل وأخذ المال، وتقطيع اليد والرجل من خلاف لمن أخذ المال ولم يقتل، والنفي من الأرض بالطرد أو الحبس لمن أخاف السبيل ولم

¹ عبد العزيز الضامر، تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، ص 62.

² البيضاوي، أنوار التنزيل، ج 2، ص 125.

يقتل ولم يأخذ مالا.

- وللاية سبب نزول ذكره أهل التفسير، وهو ما روى الواحدي رحمه الله (ت:468هـ) في (أسباب النزول): " عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ زَهْطًا مِنْ عُكْلٍ وَعَرِينَةَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا أَهْلَ ضَرْعٍ وَلَمْ نَكُنْ أَهْلَ رَيْفٍ، فَاسْتَوْخَمْنَا الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذُودٍ وَرَاعٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا فِيهَا فليشربوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَلَمَّا صَحُّوا وَكَانُوا بِنَاجِيَةِ الْحَرَّةِ؛ قَتَلُوا رَاعِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاسْتَأْفَوْا الدَّوْدَ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَثَارِهِمْ، فَأَتَيْ بِهِمْ؛ فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ، فَتَرَكُوا فِي الْحَرَّةِ حَتَّى مَاتُوا عَلَى حَالِهِمْ. قَالَ قَتَادَةُ: ذَكَرْنَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِمْ: (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ"¹.

- ولا ريب أنَّ في الآية حُكْمًا شرعيًّا، والأحكام الشرعيَّةُ عامَّةٌ لكلِّ المُكَلَّفِينَ، في كلِّ وقتٍ وحينٍ، وهذا التعميمُ يُستَفَادُ من قاعدة: (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)، ولذلك نجد ابن العربي رحمه الله (ت:543هـ) يقول في تنزيل حكم هذه الآية على واقعةٍ عُرضت عليه رحمه الله أَيَّامَ قضاائه: "وَلَقَدْ كُنْتُ أَيَّامَ تَوَلِّيَةِ الْقَضَاءِ قَدْ رَفَعْتُ إِلَيْ قَوْمٍ خَرَجُوا مُحَارِبِينَ إِلَى رُفْقَةٍ، فَأَخَذُوا مِنْهُمْ امْرَأَةً مُغَالِبَةً عَلَى نَفْسِهَا مِنْ زَوْجِهَا وَمِنْ جُمْلَةِ الْمُسْلِمِينَ مَعَهُ فِيهَا فَاحْتَمَلُوهَا، ثُمَّ جَدَّ فِيهِمُ الطَّلَبُ فَأَخَذُوا وَجِيءَ بِهِمْ، فَسَأَلْتُ مَنْ كَانَ ابْتِلَانِي اللَّهَ بِهِ مِنْ الْمُفْتِينَ، فَقَالُوا: لَيْسُوا مُحَارِبِينَ؛ لِأَنَّ الْجِرَابَةَ إِنَّمَا تَكُونُ فِي الْأَمْوَالِ لَا فِي الْفُرُوجِ. فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ الْجِرَابَةَ فِي الْفُرُوجِ أَفْحَشُ مِنْهَا فِي الْأَمْوَالِ، وَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ لَيَرْضُونَ أَنْ تَذْهَبَ أَمْوَالُهُمْ وَتُحْرَبَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، وَلَا يُحْرَبُ الْمَرْءُ مِنْ زَوْجَتِهِ وَبَنِيهِ، وَلَوْ كَانَ فَوْقَ مَا قَالَ اللَّهُ عُقُوبَةً؛ لَكَانَتْ لِمَنْ يَسْلُبُ الْفُرُوجَ، وَحَسْبُكُمْ مِنْ بَلَاءٍ صُخْبَةُ الْجُهَالِ، وَخُصُوصًا فِي الْفُتْيَا وَالْقَضَاءِ"².

وظاهرٌ من تنزيل ابن العربي رحمه الله لهذه الآية على الواقعة التي عُرضت عليه؛ (واقعة سلبِ امرأةٍ بالقوَّة من زوجها) استعانتَه على هذا التعميم في التَّنْزِيلِ؛ بقاعدة (العبرة بعموم اللفظ)؛ إذ لفظ (الحرابة) يعني في الأصل عموم السلب، ولا يختص بسلب المال دون غيره، كما يُشِيرُ إلى ذلك أصله اللغوي. قال ابن فارس رحمه الله (ت:395هـ): "(حَرَبَ) الْحَاءُ وَالرَّاءُ وَالْبَاءُ أَصُولٌ ثَلَاثَةٌ: أَحَدُهَا السَّلْبُ، وَالْآخَرُ دَوْبِيَّةٌ، وَالثَّالِثُ بَعْضُ الْمَجَالِسِ. فَلِأَوَّلِ: الْحَرْبُ، وَاشْتِقَاقُهَا مِنَ الْحَرْبِ وَهُوَ السَّلْبُ. يُقَالُ حَرَبْتُهُ مَالَهُ، وَقَدْ حَرَبَ مَالَهُ، أَيَّ سَلَبْتُهُ، وَالْحَرْبُ: الْمُحْرُوبُ. وَرَجُلٌ مُحْرَابٌ: شَجَاعٌ قَوُّومٌ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُبَاشِرٌ لَهَا. وَحَرِبَتُهُ الرَّجُلُ: مَالُهُ الَّذِي يَعِيشُ بِهِ، فَإِذَا سَلَبْتُهُ لَمْ يَقُمْ بَعْدَهُ"³.

¹ الواحدي، أسباب النزول، ص195.

² ابن العربي، أحكام القرآن، ج2، ص95.

³ ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص48.

وغيرُهُ من المفتين الذين عَرَضَ عليهم القضيةَ، تَمَسَّكُوا في تفسير (الحراية) بلفظ سبب النزول؛ وهو قصة العرنين؛ إذ الذي سَلَبَهُ أولئك في قصَّة الحديث؛ إنما هو إيل الصدقة (وهي النَّدْوُ الذي أمر لهم به رسول الله ﷺ)، وإيل مالٍ، ولذلك قالوا في (واقعة سلب الرجل امرأته)؛ ليست حراية؛ لأن الحراية سلبُ المال. وهو ما استنكره ابنُ العربي رحمه الله عليهم، واسترجع لأجله، لأنَّه - كما يرى -؛ سلب الفروج والأعراض أشدُّ وأنكى على النفس من سلب الأموال، وإن الرجل ليرضى أن يُصاب في ماله، ولا يرضى أن تُنالَ قُلامَةٌ من عرض زوجته أو ابنته. وهذا التنزيل لنص الآية على الواقع من ابن العربي رحمه الله، إنما يُنال بإعمال قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)، ولولاه لكان الحكم قاصراً على اعتبار (الحراية) سلب المال فقط، كما هي في سبب النزول.

- ثُمَّ إِنَّ مِنْ صُورِ تَعْمِيمِ آيَةِ (الحراية)، وتنزيلها على الواقع عند ابن العربي رحمه الله كذلك؛ أَنَّ السَّارِقَ إِذَا دَخَلَ بَيْتاً بِغَرَضِ السَّرِقَةِ وَالِاسْتِحْوَاذِ عَلَى الْمَالِ، وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ حَامِلٌ لِسَلَاحٍ يُشْهِرُهُ فِي وَجْهِ صَاحِبِ الدَّارِ إِذَا قَطَنَ لَهُ؛ فَإِنْ هَذَا يُحْكَمُ فِيهِ بِحُكْمِ الْحَرَايَةِ لَا السَّرِقَةِ. قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "إِنَّ السَّارِقَ إِذَا دَخَلَ بِالسَّلَاحِ يَطْلُبُ الْمَالَ، فَإِنْ مَنَعَ مِنْهُ أَوْ صَبَحَ عَلَيْهِ؛ حَارَبَ عَلَيْهِ؛ فَهُوَ مُحَارِبٌ يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِحُكْمِ الْمُحَارِبِ.

وَكُنْتُ فِي أَيَّامِ حُكْمِي بَيْنَ النَّاسِ، إِذَا جَاءَنِي أَحَدٌ بِسَارِقٍ، وَقَدْ دَخَلَ الدَّارَ بِسِكِّينٍ يَسْحَبُهُ عَلَى قَلْبِ صَاحِبِ الدَّارِ وَهُوَ نَائِمٌ، وَأَصْحَابُهُ يَأْخُذُونَ مَالَ الرَّجُلِ؛ حَكَمْتُ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمُحَارِبِينَ، فَافْتَهُمُوا هَذَا مِنْ أَصْلِ الدِّينِ، وَارْتَفَعُوا إِلَى يَفَاعِ الْعِلْمِ عَنْ حَضِيضِ الْجَاهِلِينَ¹.

وهذا الإسقاط الواقعي للآية؛ يُحتاجُ فيه كذلك إلى قاعدة (العبرة بعموم اللفظ)، وكيفية ذلك أَنَّ نَصَّ الْآيَةِ ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وكلمة (الذين) من صيغ العموم - كما نص على ذلك القرافي في (شرح تنقيح الفصول)² -، فهؤلاء السارقون، باستعمالهم للسلاح والتهديد بالقتل في سرقتهم؛ خرجوا عن حد (السرقه)؛ الذي هو: أخذ شيء من حرز خفية، ودخلوا في حد (الحراية)، ولو كانوا في مصرٍ لا في خلاءٍ من الأرض، وهذا الذي حكم به ابنُ العربي رحمه الله فيهم.

المثال الثاني: قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْأَيَّاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 118].

- معنى الآية عند أهل التفسير: أَنَّ اللَّهَ ﷻ يُحَذِّرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ خُصُومِ الْإِسْلَامِ،

¹ ابن العربي، أحكام القرآن، ج 2، ص 100.

² قال رحمه الله وهو يعدد صيغ العموم: "والذي، والتي، وتثنيتهما، وجمعهما". القرافي، شرح تنقيح الفصول، ص 179.

"فإنهاهم نهباً باتا عن اتخاذهم بطانة لهم من دون المؤمنين، ويمنع المسلمين من الإفضاء إليهم بأسرارهم، وذلك حتى لا يستعين عليهم بها أعداؤهم. ولا يقف كتاب الله عند هذا الحد؛ بل يكشف للمسلمين حقائق خصوم الإسلام الدفينة، ونواياهم الخفية، فهم بشهادة الله الذي يعلم السر والنجوى، حريصون كل الحرص على أن يلبيلوا أفكار المسلمين، ويجعلوها مضطربة متناقضة متشاكسة باستمرار، وهم بشهادة كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يحملون للمسلمين بغضا دفيناً، وكرها عميقاً، وهذا البغض يتجلى في فلتات ألسنتهم، ويبرز على ملامحهم وفي انطباعاتهم، كلما جاءت مناسبة أو دعت ضرورة لبروزه.

ثم ينعى كتاب الله على السذج من المسلمين ما هم عليه من سذاجة يستغلها خصومهم إلى أقصى الحدود، حتى أنهم ليبادرون إلى محبة أولئك الخصوم الألداء، بينما خصومهم ثابتون على حقهم، ولا يتنازلون عن بغضهم للإسلام وأهله قيد شعرة [...] وقوله تعالى: (بِطَانَةٍ مِّنْ دُونِكُمْ) أي بطانة من غيركم من أهل الأديان الأخرى، وبطانة الرجل هم خاصة صحبه الذين يطلعون على داخل أمره. وقوله تعالى: (وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ)؛ أي أنهم لا يتمنون للمسلمين إلا ما فيه إضرار بهم، وإعنات لهم، من أنواع الشقاء والضرر والفساد. وقوله تعالى في التعقيب على هذه البيانات الإلهية والإنذارات السماوية: (قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) معناه أنه قد بين للمسلمين منابع الخطر وأسباب الضرر ليتجنبوها، ولا يقعوا في أشراكها، إن كان عندهم من العقل السليم، والرأي السديد ما يعالجون به شؤونهم، ويحفظون به كياناتهم، وذلك لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، فإن وقعوا في مصايد الأعداء ومكايدهم بعد ذلك؛ كانت المسؤولية عليهم وحدهم بدءاً وختاماً¹.

- وقد ذكر ابن جرير رحمه الله، أنَّ هذه الآية نزلت في قوم من المسلمين، كانوا يخالطون حلفائهم من اليهود وأهل النفاق، ويصافونهم المودة، بالأسباب التي كانت بينهم في جاهليتهم قبل الإسلام، فنهاهم الله عن ذلك وأن يستنصحوهم في شيء من أمورهم. ثم أسند إلى "سعيد بن جبیر، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود، لما كان بينهم من الجوار والجلف في الجاهلية، فأنزل الله ﷻ فيهم، ينهاهم عن مباطنهم، تخوُّف الفتنة عليهم منهم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ) إلى قوله: (وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ)².

- ولا ريب أنَّ هذا النهي لعباد الله المؤمنين، عن اتخاذ الكافرين بطانة عامٌّ في كل بطانة سوء، في كل زمانٍ من الأزمان، ولذلك نقل القرطبي رحمه الله في (الجامع)، عن عمر رضي الله عنه أنه

¹ محمد المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، ج 1، ص 257-259.

² ابن جرير، جامع البيان، ج 7، ص 141.

قيل له: "إِنَّ هَاهُنَا رَجُلًا مِنْ نَصَارَى الْجَبَرَةِ: لَا أَحَدَ أَكْتَبَ مِنْهُ، وَلَا أَحَطَّ بِقَلَمٍ، أَفَلَا يَكْتُبُ عَنْكَ؟ فَقَالَ: لَا أَخَذُ بَطَانَةً مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ. فَلَا يَجُوزُ اسْتِكْتَابُ أَهْلِ الدِّمَةِ، وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ تَصَرُّفَاتِهِمْ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالِاسْتِنَابَةِ إِلَيْهِمْ. قُلْتُ: وَقَدْ انْقَلَبَتِ الْأَحْوَالُ فِي هَذِهِ الْأَرْمَانِ، بِاتِّخَاذِ أَهْلِ الْكِتَابِ كَتَبَةً وَأَمْنَاءَ، وَتَسَوُّدُوا بِذَلِكَ عِنْدَ الْجَهْلَةِ الْأَغْبِيَاءِ، مِنَ الْوَلَاةِ وَالْأَمْرَاءِ".¹

وهذا الإسقاط الواقعي لنص الآية من القرطبي رحمه الله، إنما مرده إلى قاعدة (العبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)؛ فتصدير الخطاب بـ(يا أيها الذين ءامنوا) من صيغ العموم - كما سبق سياقه عن القرافي رحمه الله -، كما أن كلمة (بطانة) نكرة في سياق النهي (لا تتخذوا)؛ وهي كذلك من صيغ العموم، - كما نبّه عليه ابن القيم رحمه الله في (البدائع)². وهذا الإسقاط العكسي في الآية: استفادته من قاعدة (عموم اللفظ) واضحة؛ فالنهي عن تولية الكفار وإدنائهم عامٌ لجميع المؤمنين، في كل وقتٍ وحين.

ثالثاً: قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:94].

- معنى الآية على ما ذكر أهل التفسير: أَنَّ اللَّهَ "يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله (لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ)، يقول: ليختبرنكم الله (بشيء من الصيد)، يعني: ببعض الصيد. وإنما أخبرهم تعالى ذكره أنه يبلوهم بشيء، لأنه لم يبلهم بصيد البحر، وإنما ابتلاهم بصيد البر، فالابتلاء ببعض لا بجميع. وقوله: (تناله أيديكم)، فإنه يعني: إما باليد، كالبيض والفراخ، وإما بإصابة النبل والرماح، وذلك كالحرمر والبقر والظباء، فيمتحنكم به في حال إحرامكم بعمرتكم أو بحجّكم".³

كما قال ابن عطية رحمه الله (ت:542هـ): "قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾، أي: ليختبركم؛ ليرى طاعتكم من معصيتكم، وصبركم من عجزكم عن الصيد، وكان الصيد أحد معاش العرب العاربة، وشائعاً عند الجميع منهم، مُسْتَعِمّاً جداً، فابتلاهم الله فيه مع الإحرام أو الحرم، كما ابتلى بني إسرائيل في أن لا يعتدوا في السبت. و(من) تحتل أن تكون للتبعيض، فالمعنى: من صيد البر دون البحر، ذهب إليه الطبري وغيره، ويحتمل أن يكون التبعيض في حالة الحرمة؛ إذ قد يزول الإحرام ويفارق الحرم، فصيد بعض هذه الأحوال بعض الصيد على العموم، ويجوز أن تكون لبيان الجنس، قال الزجاج: وهذا كما تقول لأمتحنك بشيء من الورق، وكما قال تعالى:

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج4، ص179.

² ابن القيم، بدائع الفوائد، ج4، ص2.

³ ابن جرير، جامع البيان، ج10، ص582-583.

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج:30] [...] وقال مجاهد: الأيدي تنال الفراخ والبيض وما لا يستطيع أن يفر، والرماح تنال كبار الصيد".¹

ولأي شيء كان هذا الاختبار والابتلاء؟ قال ربنا ﷺ: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾، "يعني: أَنَّهُ تَعَالَى يَبْتَلِيهِمْ بِالصَّيْدِ يَغْشَاهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، يَتَمَكَّنُونَ مِنْ أَخْذِهِ بِالْأَيْدِي وَالرِّمَاحِ سِرًّا وَجَهْرًا؛ لِيُظْهِرَ طَاعَةَ مَنْ يُطِيعُ مِنْهُمْ فِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) [الملك:12] .

وَقَوْلُهُ هَاهُنَا: (فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ) قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: يَعْنِي بَعْدَ هَذَا الْإِعْلَامِ وَالْإِنْدَارِ وَالْتَقَدُّمِ (فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أَي: لِمُخَالَفَتِهِ أَمَرَ اللَّهِ وَشَرْعَهُ".²

- وقد ذكروا لها سبب نزول؛ هو ما رواه ابن أبي حاتم رحمه الله (ت:327هـ) في (التفسير)، "عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ فِي قَوْلِهِ: (لِيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ) قَالَ: أُنْزِلَتْ فِي عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ؛ فَكَانَتْ الْوَحْشُ وَالطَّيْرُ وَالصَّيْدُ يَغْشَاهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ قَطُّ فِيمَا خَلَا، فَتَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْ قَتْلِهِ، وَهُمْ مُحْرِمُونَ، (لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ)".³ بل إن الثعلبي رحمه الله (ت:427هـ) قد ذكر في (الكشف والبيان) سبباً أخص من هذا، وهو قوله: "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ .. الآية، نزلت عام الحديبية: ابتلاهم الله بالصيد، فكان الوحش يغشى رحالهم كثيراً، وهم محرمون، فبينما هم يسرون بين مكة والمدينة؛ إذ عرض إليهم حمارٌ وحشي، فحمل عليه أبو اليسر بن عمرو، فطعنه برمح فقتله، فقيل له: إنك قتلت الصيد وأنت حرم، فأتى رسول الله ﷺ فسأله عن ذلك فأنزل الله: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ) ليختبرنكم الله (بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ)".⁴

- فإذا تجاوزنا سبب النزول، ودُرنا مع الصيغة، وأعملنا قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)؛ - وإن كان هذا أقرب إلى التفسير الإشاري منه إلى التفسير التحليلي -، فإننا واجدون تطبيقات كثيرة لهذه الآية من جهة تنزيلها على الواقع، ومن ذلك:

وسائل الاتصال الحديثة؛ من الهواتف الذكية والحواسب اللوحية وغيرها؛ فإنها يسّرت على النَّاس كثيراً الوصول إلى الحرام الذي كان متعسراً عليهم إدراكه في وقت مضى، فإذا اعتبرنا الحرام (صيداً)، وتيسره وسهولة إصابته مُشاراً إليها بقول الله ﷻ: (تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ)، أي أنه لسهولة تحصيله يُنال بالأيدي، فأصبح الإنسان يُدرك مطلوبه بكبسة زر، وتضمن له تلك الأجهزة خلوةً لفعل المحظور الشرعي، وهو جالس بين الناس.

¹ ابن عطية، المحرر الوجيز، ج2، ص235-236.

² ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج3، ص190.

³ ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص1402.

⁴ الثعلبي، الكشف والبيان، ج4، ص108.

لأي شيء كل هذا؟ زيادة في البلاء، (لَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ). قال ابن عاشور رحمه الله (ت: 1393هـ= 1973م): "أَيُّ مَنْ يَخَافُ اللَّهَ وَهُوَ غَائِبٌ عَنِ اللَّهِ، أَيُّ غَيْرِ مُشَاهِدٍ لَهُ. وَجَمِيعُ مَخَافَةِ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا هِيَ مُخَالَفَةُ بِالْغَيْبِ. قَالَ تَعَالَى: (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) [المالك: 12]

وَقَائِدُهُ ذِكْرُهُ أَنَّهُ ثَنَاءٌ عَلَى الَّذِينَ يَخَافُونَ اللَّهَ أَتَى عَلَيْهِمْ بِصِدْقِ الْإِيمَانِ وَتَنَوَّرَ الْبَصِيرَةُ، فَإِنَّهُمْ خَافُوهُ وَلَمْ يَرَوْا عَظَمَتَهُ وَجَلَالَهُ وَنَعِيمَهُ وَثَوَابَهُ وَلَكِنَّهُمْ أَتَقَنُوا بِذَلِكَ عَنْ صِدْقِ اسْتِدْلَالٍ. وَقَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا مَا فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: (إِنَّهُمْ آمَنُوا بِي وَلَمْ يَرَوْني، فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْني).

وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ فَسَّرَ الْغَيْبَ بِالدُّنْيَا. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: الظَّاهِرُ أَنَّ الْمَعْنَى (بِالْغَيْبِ) عَنِ النَّاسِ، أَيُّ فِي الْخُلُوعِ. فَمَنْ خَافَ اللَّهَ: انْتَهَى عَنِ الصِّيدِ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ، يَغْنِي أَنْ الْمُجْرُورَ لِلتَّقْيِيدِ، أَيُّ مَنْ يَخَافُ اللَّهَ وَهُوَ غَائِبٌ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ الَّذِينَ يَتَقَى إِنْكَارُهُمْ عَلَيْهِ أَوْ صَدُّهُمْ إِيَّاهُ وَأَخَذَهُمْ عَلَى يَدِهِ أَوْ التَّسْمِيْعُ بِهِ¹.

ومن ذلك كذلك تسهيل المحرمات على المسلمين في كل الميادين؛ من الهجرة إلى بلاد الكفر وإغرائهم بها، ومن تسهيل العقود الربوية والاعتناء بها، ومن تسهيل العلاقات الجنسية المحرمة وجرحهم إلى وحلها.

فهذه الآية؛ إذا استحضر الإنسان معناها، وأسقطه على واقعه الذي يعيشه؛ كان له من أعظم العون على خوف الله ﷻ، والانكفاف عما حرم سبحانه، خاصة ذنوب الخلوات².

خاتمة

لا يفوتي -وقد أكرمني الله عز وجل بالتطواف على مسألتين عظيمتين من مسائل العلم؛ قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)، ومسألة تنزيل النص القرآني على الواقع؛ أن أسجل أهم ما حصلت من نتائج، فأقول:

1- قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)؛ قاعدة متفق عليها، لا يكاد يُخالف فيها أحد من الأمة، ولا يشوش على ذلك ما تجده في كتب الأصول من إشارة إلى الخلاف فيها؛ لأن مقصودهم بالخلاف هو: هل دخول غير السبب بالقياس أم بعموم الصيغة والنص؟ وهو خلافٌ صوري لفظي، مؤداه في الأخير دخول غير السبب في معنى الآية أيًا كان وجه دخوله؛ بالقياس أم بعموم النص.

¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 7، ص 40-41.

² ينظر: مشهور بن حسن آل سلمان، وقفات مع قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ يَفْعَلُونَ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصِّيدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ)، مقطع فيديو على اليوتيوب.

2- قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)؛ وإن كانت شهرتها بالنص والصياغة في المدونة الأصولية؛ إلا أن تطبيقها والحوم حول فحواها بدأ قديماً عند المفسرين، وهذه قضية تاريخية متعلقة بهذه القاعدة العلمية حريةً بإفرادها ببحثٍ أو دراسةٍ.

3- تنزيل الآيات القرآنية على الواقع مسألةً ظنيّةً راجعة إلى الاجتهاد، فهي على ذلك من قبيل التفسير بالرأي الذي مُعتمده القياس والتمثيل، وقد يكون صحيحاً وقد يكون خطأً.

4- الذي يقوي التنزيل ويُعضده أمورٌ عدة، لكن أغلبها يرتكز على أمرين اثنين: قوة تأصيل المفسر واستكمالهِ للألة، وبصره الثاقب بواقعه المنزل عليه.

5- المفسرون أسعد حظاً بقاعدة (عموم اللفظ) من الأصوليين؛ لأن مجال التطبيق عندهم أوسع (القرآن الكريم كله)، فيما كان جلُّ تركيز الأصوليين على جزء من آيات القرآن؛ هو ما اصطُلح عليه بآيات الأحكام.

هذا، وصلى الله على نبيينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

1- ابن أبي حاتم عبد الرحمن بن محمد، تفسير القرآن العظيم، تحقيق أسعد الطيب، ط3، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، 1419هـ.

2- ابن الجزري محمد بن محمد، غاية النهاية في طبقات القراء، عناية برجستراسر، دط، مكتبة ابن تيمية، مصر، 1351هـ.

3- ابن العربي محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، تعليق محمد عطا، ط3، دار الكتب العلمية، لبنان، 1424هـ-2003م.

4- ابن القيم محمد بن أبي بكر، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ط3، دار ابن كثير، دمشق، 1409هـ-1989م.

5- ابن القيم محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد البغدادي، ط3، دار الكتاب العربي، لبنان، 1416هـ-1996م.

6- ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، جمع عبد الرحمن بن قاسم، دط، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، السعودية، 1416هـ-1995م.

7- ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دط، الدار التونسية للنشر، 1984م.

8- ابن عطية عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1422هـ.

9- ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر، بدائع الفوائد، دط، دار الكتاب العربي، لبنان، دت.

- 10- ابن كثير إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي سلامة، ط2، دار طيبة، السعودية، 1420هـ-1999م.
- 11- الألوسي محمود بن عبد الله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق علي عطية، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1415هـ.
- 12- البخاري محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق محمد زهير الناصر، ط1، دار طوق النجاة، السعودية، 1422هـ.
- 13- البيضاوي عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد المرعشلي، ط1، دار إحياء التراث، لبنان، 1418هـ.
- 14- الثعلبي أحمد بن محمد، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق أبي محمد بن عاشور، ط1، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 1422هـ-2002م.
- 15- الخطيب البغدادي أحمد بن علي بن ثابت، الفقيه والمتفقه، تحقيق عادل العزازي، ط2، دار ابن الجوزي، السعودية، 1421هـ.
- 16- الدارمي عبد الله بن عبد الرحمن، سنن الدارمي، تحقيق نبيل الغمري، ط1، دار البشائر، لبنان، 1424هـ-2013م.
- 17- رقية العتيق، تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين بدلالة المفهوم، مجلة الجامعة الإسلامية، السعودية، ملحق العدد 183.
- 18- الزمخشري محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، دار الكتاب العربي، لبنان، 1407هـ.
- 19- السبب خالد بن عثمان، قواعد التفسير جمعا ودراسة، دط، دار ابن عفان، السعودية، دت.
- 20- السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1394هـ-1974م.
- 21- الشنقيطي محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دط، دار الفكر، لبنان، 1415هـ-1995م.
- 22- الشوكاني محمد بن علي، فتح القدير، ط1، دار ابن كثير، لبنان، 1414هـ.
- 23- الشيرازي إبراهيم بن علي، التبصرة في أصول الفقه، تحقيق محمد حسن هيتو، ط1، دار الفكر، دمشق، 1403هـ.
- 24- الطبري محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد شاکر، ط1، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1420هـ-2000م.
- 25- عبد العزيز الضامر، تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين دراسة وتطبيق، ط1، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الإمارات، 1428هـ-2007م.

- 26- العواجي محمد بن عبد العزيز، منهج العلماء في تنزيل الهدايات القرآنية على الواقع، ورقة علمية موجهة إلى ملتقى (إسعاد الإنسان بهدى القرآن)، جامعة ملايا، ماليزيا، 1439هـ.
- 27- الغزالي محمد بن محمد، المستصفى، تحقيق محمد عبد الشافي، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1413هـ-1993م.
- 28- القرافي أحمد بن إدريس، شرح تنقيح الفصول، تحقيق طه سعد، ط1، شركة الطباعة الفنية المتحدة، سوريا، 1393هـ-1973م.
- 29- القرطبي محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وزميله، ط2، دار الكتب المصرية، مصر، 1384هـ-1964م.
- 30- محمد المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1405هـ-1985م.
- 31- مسلم بن الحجاج أبو الحسن، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.
- 32- مشهور بن حسن آل سلمان، وقفات مع قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ يَفْعَلُونَ) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ يَفْعَلُونَ)، مقطع فيديو على اليوتيوب، الجمعة 14/03/2016.
- 33- الواحدي علي بن أحمد، أسباب نزول القرآن، تحقيق عصام الحميدان، ط2، دار الإصلاح، السعودية، 1412هـ-1992م.

معيارية التفكير المقاصدي من خلال تنزيل النص القرآني على موارد الإصلاح الاجتماعي

أ.د / قبلي بن هني

قسم العلوم الإسلامية-كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة الأغواط

b.guebli@lagh-univ.dz



مقدمة

الحمد لله المعبود في عليائه، وصلى الله وسلم على محمد بن عبد الله خاتم أنبياءه، وعلى من اهتدى بهديه من أصحابه وإخوانه وأحبابه، أما بعد:

لا شك أن اقتناص الملكات في تكريس الجهود وفق المنظومة التشريعية يعطي الباحثين تصورا دقيقا حول معالم التنظيم الرباني لمعاني الحياة والمدنية التي تجمع مقومات الوجود الإنساني على أكمل الوجوه، حيث تمد الوعي المعرفي بمعاقد الفهوم المقتنصة من الهدايات الربانية.

كما أنها تلتزم منه ارتشاف آليات التحقيق ومناطق التوظيف حال تنزيل نصوص الوحي وتوجيهها وفق قالب علمي محكم التنظير والتقييم مبنيا على مكان الإفهام والبرهنة المنطوية تحت معيارية تحكمها منظومة المقاصد الشرعية بما يكتنفها من القطع وال لزوم، وترتسم من خلالها ضوابط التنزيل والتفعيل.

ولا غرو والحال هذه من استدعاء العقول إلى الانبعاث في البحث عن الدلالات الحضارية وأثارها في واقع الأمة، حتى أضحت حتمية عصرية لا تفتأ تخامر المفاهيم من وجوه شتى، وخاصة فيما أنيطت معالمه بظاهرة الإصلاح كمتغير أساس في مناهج التفكير الحديثة.

ومن هذا السياق تكمن أهمية البحث: بحيث لا تعتبر تلك الدلالات عاملا فاعلا في نهضة الأمة وإصلاحها أفرادا وجماعة حتى تناط بجملة من المناسبات التي تؤثر في معاهد الاستصلاح الرباني المرتشف من خلال تنزيل النص القرآني ومعالجته لمستجدات الأزمنة والأمكنة وفق مختلفة موارد الظروف الفكرية والمعطيات الإنسانية.

كما أن الهدف من البحث رام تمحيص ما اشرأبت إليه همم كثير من مصلحي هذه الأمة وعلمائها عبر عصور متعاقبة، على غرار الأئمة المغاربة وعلمائها العاملين الذين كان لهم قدم السبق في هذا المقام، حيث يعلمون تفاصيل الأحوال وملابسات الوقائع، فسعوا بجد واجتهاد في تمحيص بوتقة تجمع معاني الإصلاح وانتظام أحوال المجتمع وفق الإرشادات

القرآنية والتوجهات الربانية، بما تناط في قوالها المعتبرة تعويلا على منظومة مقاصد التشريع مقارنة بالسّنن الربانية ومعالن النهضة الإصلاحية.

وعلى غرار ما سبق فإن مباحثة قضايا الصلاح في الأرض وطلبه بعد فساد زمان الناس وقلة ديانهم إنما هو بعد فضل الله تعالى وجميل منته ما هيئ الله تعالى من رجال أصلهم في أنفسهم بالعلم والمعرفة الشرعية والخبرة النفسية والاجتماعية فسلك بهم طريق الإصلاح حتى أنار الله بهم الدروب وفتح بهم القلوب وهدى بهم النفوس فتحررت أبدانهم من الأوهام والفساد. ومن ثمّ عولت في بحثي هذا على جهود أعلام المغرب الإسلامي وما ورثوه من مناهج إصلاحية ومسالك تعليمية مقتنصة من هدايات النص القرآني، مستبصرًا بما حرروه ومستعينًا بما دونوه في هذا المقام. ملتمسًا في ذلك تكريس المنهج البحث الوصفي التحليلي، موردا ما أمكنني من الحجج في ما دنى من معارفهم.

ولاجتماع هذه المعاني وما اشتملت عليه من المعارف، أضع سؤالًا استشكل فيه ما يقصد البحث الجواب عنه، فما هي حقيقة هذه المعيارية التي ترجع بالفهم على باحث المقاصد لتحصيل معالم توظيف تنزيل النص القرآني بقصد الإصلاح الاجتماعي؟ وما هي المناحي التقييمية للعمل الإصلاحي من خلال جهود علماء المغرب الإسلامي؟.

وحقّ تنتظم حدود البحث ارتسمت خطة للاستجلاء مضامينه في مقدمة ومبحثين وخاتمة، فكانت كالآتي:

- مقدمة
- توطئة فيها تحرير المفاهيم وتمحيص المناهج المعتبرة في التعامل مع النص القرآني
- المبحث الأول: حد المعيارية المقاصدية في بوتقة الإصلاح ودلائله القرآنية وفيه ثلاثة مطالب:
- ✓ المطلب الأول: مفهوم معيارية التفكير المقاصدي وما ينطوي عليه من الأصول والأحكام
- ✓ المطلب الثاني: دلائل النص القرآني على مقاصد الاستخلاف وموارد استصلاحه
- ✓ المطلب الثالث: بواعث الإصلاح الاجتماعي وتوطئها في الواقع وفق المعيارية المقاصدية
- المبحث الثاني: استثمار المعيارية المقاصدية في الاستصلاح جامعة المكلفين وفيه ثلاثة مطالب:
- ✓ المطلب الأول: أثر المعيارية المقاصدية في انتظام معاهد الإصلاح الفكري للمكلفين.
- ✓ المطلب الثاني: مرتكزات المعيارية المقاصدية في استصلاح الجماعة من خلال تصرفات الأفراد
- ✓ المطلب الثالث: ضرورة الوعي الجماعي والجماعي ومقدراته في الإصلاح الاجتماعي
- الخاتمة.

توطئة فيها تحرير المفاهيم وتمحيص المناهج المعتمدة في التعامل مع النص القرآني

طلب مفاتيح المعارف ينبثق عن تكريس المفاهيم المحفوظة بالقوالب المنضبطة التي تتشكل منها صناعة المناهج العلمية المعتمدة في تحصيل العلوم وتحرير اصطلاحاتها وتحديد مفاهيمها التي تعد ترجمانا لمعانيها المرادة في فنون النظائر المختلفة، والتي تعود على النص القرآني بالتفعيل والبحث في قانون توظيفه في واقع الناس في كل عصر ومصر.

والذي يرتسم في معدن التفكير العقلي الإثماني في بواغث الصلاح وموارد النفع ومنتوج درء الفساد والفتن والغلط الفكري الذي تغبن به الأمم. ولذا كان حريا بكل باحث ودارس النظر في معالم المباحثات النظرية والإجرائية لانتقاء المنهج المنتخب المبحوث من خلاله في مجامع الصلاح في القرآن الكريم، وهي متفرعة على ثلاثة أصول: البرهنة والتفصيل والتعليل، والتي تنأى بذاتها ومفهومها عن القضايا التجريبية والرياضية.

والناظر في هذه الثلاثة الأصول يجد أنها تؤول بأي تفكير أو تدبر أو تعقل في النص القرآني إلى تمحيص الدلالات الواضحات وتقويم التصورات وتقويم الإدراكات ومراتبها والنسب التي تحدد مقاصد الإفهام ومعاهد الإكرام. وبينهما قدر مشترك في ملازمة إصلاح العقل الذي يمد وظائف العمل الإنساني بمقاصد الصلاح ومكامن الفلاح، قال العلامة ابن عاشور التونسي رحمه الله: "إصلاح عقل الإنسان هو أساس إصلاح جميع خصاله ويحيي بعده الاشتغال بإصلاح أعماله وعلى هذين الإصلاحين مدارقوانين المجتمع الإسلامي"¹.

وبإنعام في مناهج البحث والمعرفة التي ساد تفعيلها في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية يجدها رواسب نظريات² غربية وتلاقح عقلي أنتجت التجارب والملاحظات التي فرضتها تصورات معينة وبيئة محددة ودراسات مقررة. وحتى نرتقي بمقاصد البحث في العلوم الشرعية وما تعلق على وجه الخصوص بالنص القرآني، باعتباره أقدس نظم وأصح كلام لمصدرته الربانية، وأدق سياق لمعيارته الإصلاحية، وأبين واقعية في هداياته السماوية، خلافا لما يعتقده الحداثيون³ والاستشراقيون والتغريبون والعلمانيون وأصحاب الأسلمة المتوسعون، المعولين على منهجية البحث وفق قانون (السببية المطلقة)، بغض

1 أصول النظام الاجتماعي في الإسلام لمحمد الطاهر بن عاشور. [المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر والشركة التونسية للتوزيع - تونس - دط - ت]. (ص 45).

2 أشهرها: (المدرسة السلوكية) في علم النفس، و(المدرسة الوضعية) في علم الاجتماع، و(المدرسة التوثيقية) في علم التاريخ، و(نظرية ماركس) في الإعلام وغيرها كثير، ومن أبواب تلك الفلسفات نذكر منهم: شاخت، ودور كايم، وفولتير، وجون لوك، وجان جاك روسو، وديكارت، وتوماس هوبز، وجون ستيوارت ميل، ومارتن لوتر، وغيرهم كثير.

3 ومن ابتغى الاستفصال في أخبارهم وأقوالهم، فليراجع للاستزادة كتاب: القرآنيون العرب وموقفهم من التفسير "دراسة نقدية"، لجمال بن محمد هاجر [دار التفسير، م، ع، السعودية، ط 1436/01هـ].

النظر عن الأبعاد النظرية والأيدولوجية والعاطفية لتلك المعطيات والآثار المستندة إليها، فضلا على أنهم لا يكادون يتفقون على وجهة واحدة ولا نتيجة محددة¹.

كيف وقد خاطبنا الله تعالى بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 77-79]. فإنه لا يحصل الإيمان بالعلم الموجود والمفقود إلا إذا ارتسم منهج دقيق ينظر من خلاله في مباحث المعارف التي تستبد بصحيح الآلة وحسن نظامها في معاهد التفكير. يقول العلامة ابن باديس: "ولما امتاز الإنسان عن سائر الحيوان بالعقل والتفكير، امتاز عنه بالتنقل والتحول في أطوار حياته ونظم معيشتة بمكتشفاته ومستنبطاته .. وبقدر ما تكثر معلومات الإنسان، ويصح إدراكه لحقائقها ولنسبها -ويستقيم تنظيمه لها- تكثر اكتشافاته واستنبطاته في عالمي المحسوس والمعقول، وقسمي العلوم والآداب"².

وليس من نافلة القول أن ندندن دائما على إقامة القيم الشرعية وامتنال الوصايا النبوية في مناهجنا العلمية والبحثية، ونتخذها نبراسا يحتذى به في تطوير نظرية المعرفة في مجتمعاتنا الراغبة في التنمية والرقى العمراني. جمعا بين ظواهر الأشياء وحقائق الأشكال، وما تحمله قوانين السنن الكونية من بديع صنع الخالق، مع اقتراحه بنظام تفكيري محكم تصوغه معاهد التدبر والبحث، يقول العلامة البشير الإبراهيمي: "لا كاشف للحقائق الكونية كالبحث، ولا شارح للأسرار الدينية كالتدبر، ولا محلل للأحداث الاجتماعية كالتاريخ"³.

قلت: لأن غاية ما عندهم من تربصات العقول واضطرابها راجع إلى الاعتبار بالظواهر وتحكيم السنن الطبيعية والفكر الرياضي أو التخيل الإمريقي، وقد أخبر الله تعالى عن حالهم بأن ما هم فيه زخرف المظاهر فحسب، فقال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: 7]، وجمهور المفسرين على أن المقصود "الظهور والعلو في الدنيا، من إتقان الصناعات والمباني، ومظان كسب الأموال والفلاحات، ونحو هذا"⁴.

1 ومن باب الاستئناس نورد ما قال الشيخ ابن تيمية بأنهم "... لا يتفقون إلا على ما يتفق عليه جميع بني آدم من الحسيات المشاهدة والعقليات التي لا ينازع فيها أحد". منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية لابن تيمية [المحقق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى/ 1406 هـ] (357/1).

2 الآثار لابن باديس [حققه عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية. ط. 01/ 1388 هـ]. (ص 45).

3 آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي [دار الغرب الإسلامي. الطبعة: الأولى، 1997] (472/3).

4 المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي [حققه عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت. ط. 01/ 1422 هـ] (329/4).

والشاهد منه أن الباحث في العلوم الشرعية وما أنيط به التفكير من النظريات والكلديات والقواعد المستنطقه من تصرفات الشارع الميينة في النص القرآني والمحكوم عليها الصلوحية من حيث التدليل والتحصيل والتفعيل. والله تعالى يقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282]¹. ولذا مهدت كل السبل في استصلاح التصور الحضاري على أساس التقدير الشرعي الذي بين حدود عاقلية الإنسان ومنتهى قدراته المعرفية. فمتى عزل العلم عن تهذيب النفوس وصلاح تفكيرها أصبح العلم آلة فساد ولا محالة.

ومن أبين مظاهر الشريعة وأكمل محاسنها عدم إغفال التعرض لحقوق العقول وموجبات استغلال قدراتها بحكم أنها لا تملك الاستحواذ على إدراك المصالح واستثمارها في الوجود الإنساني ومصلحة الأمة، وعلى هذا الأساس المنهجي المنضبط قامت تلكم المعيارية التي تحكم مقامات التفكير المقاصدي، مع الإقرار بخطوة المذهب ذي الموقف الحرج والمرتقى الوعر، وتفصيله في المبحث التالي.

المبحث الأول: حد المعيارية المقاصدية في بوتقة الإصلاح ودلائله القرآنية

وفي ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: مفهوم معيارية التفكير المقاصدي

وما ينطوي عليه من الأصول والأحكام

يدور عمل المتفقهة على تمحيص القواعد وتحصيل الكليات والتعويل عليها في طلب دلائل التكاليف، والبحث في أحكام النوازل والتوقيع لرفع الخلاف، ومن أهم ما أنيطت به هذه الوظيفة الربانية ضبط موارد الفقه على اختلاف مواضعها، قد إقامة العبودية وإظهار الافتقار للمعبود سبحانه، وما يلحقه من قصد حفظ نظام المكلفين وتمكينه في الواقع باستدامة صلاحه² في معالم الوجود الإنساني وما بين يديه من الممكنات، وقد لا تتحقق الهيمنة عليه والاستحواذ على مسببات التحصيل والتفعيل إلا إذا تقررت علميا ومعرفيا وفكريا ونفسيا واجتماعيا آليات المعيارية المعتبرة في الصناعة الفقهية في قالها المقاصدي، والتي تنضبط من موردين، يرتبط كل منهما بمقومات انبعاث التفكير في الحوادث التي تكررت أو تكاثرت حتى صارت واقعا معينا له حيثياته ومستحقاته النظرية والمنهجية والتطبيقية:

- فالمورد الأول: فقه المصلحة الشرعية من حيث مقاصدها ومسبباتها، آثارها في الحوادث.

1 قال الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب [دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط 03/ 1420هـ] (99/7): "أنه يعلمكم ما يكون إرشادا واحتياطا في أمر الدنيا، كما يعلمكم ما يكون إرشادا في أمر الدين".

2 مقتبس من مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور [حققه محمد الحبيب ابن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، دط/ 1425هـ] (194/3).

- والمورد الآخر: فقه الواقع والبحث في ملاسبات ومتعلقات القضايا وتفاسيل الأحوال. وباعتبار كل من الفقهاء استحث النظر في معيارية تأم نظام المقاصد باعتباره علما منضبط الحدود والمفاهيم، واضح المعالم متقن المعاهد، معلوم والأصول والقواعد الجامعة وما انبنى عليها من التفاريع التي يُطلب منها معرفة كل "ما يستهدفه الشارع من الغايات في وضع التكليف بموجب البواعث لاستصلاح الجامعة الإنسانية"¹.

ومتى ما تشكل أساس هذا النمط من المعارف الشرعية، وتمكنت أركان نظامه في مدارك الفهم لدى أرباب الاجتهاد، لزم الفحول قراءة واقع المكلفين وربط الحوادث بآليات التنزيل ومعاهد التوظيف. إذ طلب توظيف تنزيل النص القرآني وفق معيارية مقاصدية لا يقل أهمية عن اجتهاد أرباب الصنعة في تمحيص القواعد النظرية والمباحث العلمية، حتى تجتمع معالم هذه المعيارية من حيث التأصيل والتنزيل، حتى ترتب المفاهيم في قرائح المستبصرين، ويكون جماع البحث في تفاصيل هذه المعيارية بالتعويل على المقياس الذي توزن به البواعث، والتي هي الموارد العقلية التي تنقذ في ذهن المكلف، حتى تكون بمثابة القرائن المكنونة في الوظائف الشرعية التي يلتمس منها معنى التأثير والتناسب، فيستخرج بها مقاصد التشريع، وقد يعين عليه فهم المعاني والعلل والأسباب² وما ترتب عليها في ذاتها من موجباتها الشرعية المرتبطة بأحكامها التي تلزم ذمة المكلف في نفسه وواقعه ومكانه وزمانه ووضعه، وخاصة ما استنطقه الوازع منها وارتبطت به مؤثرات تناسبه في الوضع والطبع، حال الإبقاء أو الرفع.

ومن لازم تفعيل المقياس الأنف ذكره التعويل على اعتبار المصالح المرعية، والتي هي بجعل الشارع لها كذلك، حتى تكون مدار التكليف عند النظائر الذين يفرقون بين المعلوم منها والمظنون والموهم، ولذلك جاء الحث والندب إلى السعي في تحصيلها وتكثيرها لكونها تحقق الخير وتحصل النفع للمكلفين، ولذلك اقترنت بالغايات³ والحكم⁴ المعلومة من تصرفات الشارع. يقول العلامة الشاطبي: "المفهوم من وضع الشارع أن الطاعة أو المعصية

1 ينظر كتابنا: نبراس الوصول إلى منارة المقاصد الإلهية وتحصيل هدي الرسول (صلى الله عليه وسلم) [دار الضحى بالجلفة الجزائر - الطبعة الأولى، 1440هـ] (ص40).

2 قال الشاطبي في الموافقات [حققه أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان. ط01/1417هـ] (1/ 382): "الأسباب -من حيث هي أسباب شرعية لمسببات- إنما شرعت لتحصيل مسبباتها، وهي المصالح المجتلية، أو المفاصد المستدفة".

3 يقول الشيخ ابن تيمية في مجموع الفتاوى [طبعة الباز والجزار، دار الوفاء. ط01/ 1426هـ] (3/19): "الغايات المحمودة في مفعولاته وأموراته، وهي ما تنتهي إليه مفعولاته وأموراته من العواقب الحميدة، تدل على حكمته البالغة".

4 تعريف البناني بقوله: "الحكمة هي ما يترتب على التشريع من جلب مصلحة أو تكميلها"، ينظر: حاشية البناني على شرح المحلى على جمع الجوامع، مصطفى الحلبي، مصر ط1349/1 هـ (236/2).

تعظم بحسب عظم المصلحة أو المفسدة الناشئة عنها، وقد علم من الشريعة أن أعظم المصالح جريان الأمور الضرورية الخمسة المعتبرة في كل ملة، وأن أعظم المفسد ما يكرّ بالإخلال عليها¹.

وعلى غرار ذكرنا للموارد العقلية في مقام البواعث، إنما هو مقترن بتمام البصيرة واليقين في معرفة الحكمة، فإنه لا يعني أننا نعول على العقل المجرد²، بل إنه بمفرده لا يمكن له أن يقيم لهذه المعيارية -بحسب جزئها: البواعث والمصالح³- الميزان الحق إلا بضرب من الظنون والأوهام لنيل الحظوظ النفسية العاجلة والشهوات الدنيوية بما لا يتفق مع ضابط تحصيل العقل للأشكال والأحكام المنظور فيها باعتبار ما ذكرنا. وقد وقفت على كلام نحوه للعلامة ابن باديس، حيث قال ما نصه: "ولما كان الإنسان -بما فطر عليه من الضعف والاستعجال- كثيراً ما يبيّن أقواله وأفعاله واعتقاداته على شكوكه وأوهامه وعلى ظنونه حيث لا يكتفي بالظن، وفي هذا البناء الضرر والضلال. بين الله تعالى في محكم كتابه أنه لا يجوز لهم ولا يصح منهم البناء لأقوالهم وأعمالهم واعتقاداتهم إلا على إدراك واحد وهو العلم فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36]، أي لا تتبع ما لا علم لك به، فلا يكن منك اتباع بالقول أو بالفعل أو بالقلب لما لا تعلم .. بل علينا أن ننظر فيه ونفكر، فإذا عرفناه عن بينة اعتقدناه، وإلا تركناه حيث هو في دائرة الشكوك والأوهام أو الظنون التي لا تعتبر"⁴.

مع العلم أنه لا ينال ما عند الله بمخالفة مقصوده في الأعمال، وقد وضعت الشريعة أساساً لمصالح العباد وتحصيل حظوظهم التي هي "عائدة عليهم بحسب أمر الشارع، وعلى الحد الذي حده، لا على مقتضى أهوائهم وشهواتهم .. فالأوامر والنواهي مخرجة له عن دواعي طبيعه واسترسال أغراضه، حتى يأخذها من تحت الحد المشروع"⁵.

لأن الشارع الحكيم العليم بجميع العوائد والمدركات والمعلومات والمعلولات، أنزل شريعته في الآيات المحكمات، وفصل فيها موارد النفع والخيرات، وبارك فيها لأتباعها بأكمل المسرات. ولذا ترى "الشارع قد عين لمطالب العبد طرقاً خاصة على وجوه خاصة، وقصر الخلق عليها بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وأخبر أن الخير فيها، وأن الشر في تعديها إلى غير

1 الموافقات للشاطبي (511/2).

2 قال الإمام ابن عطية الأندلسي في المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (2/ 319): "أن العقل لا يوجب ولا يكلف وإنما يوجب الشرع..".

3 قال الإمام الشاطبي في الاعتصام [حققه سليم الهلالي ، دار ابن عفان، السعودية. ط01/ 1412هـ] (63/1): "العقول لا تستقل بإدراك مصالحها دون الوحي".

4 آثار ابن باديس (1/ 269-270).

5 نقلاً من: المصدر نفسه للشاطبي (294/2).

ذلك، لأن الله يعلم ونحن لا نعلم، وأنه إنما أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين¹.

وفي منظومة التشريع جملة من المقاصد المستقراة، تؤم جميعها معاني الصلاح التي تندرج تحت ما يناسبها من النص القرآني، ضبطا لكلياتها، قال العلامة ابن عاشور في مقدمة تفسيره: "إن القرآن أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89] فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية. فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد، لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر²."

وقد انبرى رحمه الله لتحديد تقاسيمها بالمثال والعدد، وجعلها ثمانية أقسام سماها "المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها"³. ترجع كلها إلى أصل واحد هو رعي المصالح الكلية الإسلامية، وعاد هذا الأصل بأصيل وتقنين تلك المعيارية التي تقتزن بتفعيل المقاصد الشرعية وتزيلها في الواقع لضبط تصرفات المكلفين وحدانا وجماعات. يقول العلامة ابن عاشور: "الأحكام الشرعية المتلقاة من الرسول عليه الصلاة والسلام كلها وحي من الله تعالى. ثم لم يزل أئمة الشريعة من عهد الصحابة فما بعد، يتوخّون أن تكون آراؤهم في استنباط الأحكام، مستخرجة من التفرع عن أصول الكتاب والسنة، ولذلك كانوا كثيرا ما يشددون النكير على القول بالرأي غير المستند إلى ذلك"⁴.

وعلى وفق هذا الأصل يكون كل نظر استند فيه على المقاصد في تأصيل مناهج الاستدلال وتحقيق مسالك الاستنباط وتحرير المفاهيم وتعليلها يعتبر تفكيراً مقاصدياً، بض النظر عن إصابة الحق فيه أو نأيه عنه.

المطلب الثاني: دلائل النص القرآني على مقاصد الاستخلاف وموارد استصلاحه

إذا كان قد تقرر أن النص القرآني إنما يعتبر من بعض الوجوه مستندا كلياً تنطوي تحته جميع التفاريع الشرعية، فهو "عمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله لا

1 نقلا من: الاعتصام للشاطبي (ص65).

2 التحرير والتنوير لابن عاشور [الدار التونسية للنشر - تونس - دط/ 1984 هـ] (1/ 38).

3 تنظر تفصيلها في المصدر نفسه لابن عاشور (1/ 39-41).

4 مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور (350/3).

يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه؛ لأنه معلوم من دين الأمة¹.

فقد جعلت معاهد الإصلاح تحت هذا المورد الكلي الذي تتواطأ على تحصيله وحفظه جمهرة الوسائل المفضية إليه، وهو أن الله تعالى لما أنزل كتابه أخبر أن مما قصده من تنزيله التبیین وإعمال الفكر فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]، وهما معقد كلي يرتسم من خلاله جميع موارد الإصلاح المستنبط من تفاريع الأعمال، الأقوال والأفعال جميعاً². وفي هذا السياق يقول العلامة المغربي الأمين الشنقيطي في الأضواء عند تفسيره لهذا الآية: "وقد ذكر (الله) جل وعلا في هذه الآية حكمتين من حكم إنزال القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم:

- إحداهما: أن يبين للناس ما نزل إليهم في هذا الكتاب من الأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، ونحو ذلك. وقد بين هذه الحكمة في غير هذا الموضع أيضاً، كقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 64]، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: 105].

- الحكمة الثانية: هي التفكير في آياته والاتعاظ بها .. وقد بين هذه الحكمة في غير هذا الموضع أيضاً، كقوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].. إلى غير ذلك من الآيات³.

ويتضح من خلال ذلك أن من اقتدر عليهما وأداهما على أكمل الوجوه، كان معدوداً من أساطين الحكمة وأهل الإلهام الرباني، لأنه يشيع في النفوس التعاليم السمحة حيث يحافظ على ثغورها من التخلق بالغالب المبتوث ويحميها من أن يضمحل فيها العقد الموروث، ويتعهد غراستها ويدوم على حراستها، فيقيم فيها الوازع النفساني ويقويه بالدلائل والمكاسب الفاضلة ليصارع بواعث الأهواء الكثيرة والمآرب العارضة في زمنه الذي هو فيه.

ولما كان القصد التبعية عمارة الأرض وخلافتها بأكمل الوجوه، فإنه لن يتم إلا إذا روعي معنى إقامة النظام الذي تمحض به الشرع في العمران والتمدن واستثمار سنن الحياة ومعالِم الوجود في تحصيل المقصود، وليس هذا المعنى إلا صلاح البشر الذي يسكنها ويدب

1 الموافقات للشاطبي (4/ 144)

2 وقد أحسن الشيخ أبو حامد الغزالي لما قال: "وأول ما يستضاء به من الأنوار ويسلك من طريق الاعتبار ما أرشد إليه القرآن فليس بعد بيان الله سبحانه بيان". [إحياء علوم الدين [دار المعرفة - بيروت، دط/دت] (1، ص105).

3 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للأمين الشنقيطي [دار الفكر، بيروت - لبنان-دط/1415 هـ] (2/ 380).

فوقها بوجوه السعي المختلفة. ولن يبلغ صلاح البشر نهايته إلا إذا علم مقصود الله فيه، وهذا مرتبط نفعه بالنظر في آياته الكونية والشرعية الدالة على القصد من خلق الإنسان وأمره بعمارة الأرض بألا يفسد فيها، ولذلك قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: 30]، ولقد أحسن القرطبي توظيف هذه الآية لما اعتبرها قاعدة كلية بأنها: "أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة، ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة"¹.

وعلى هذا الأساس ندب الله تعالى إلى المكلفين إلى تدبير شؤون الحياة وتسخير موجودات العالم، تعويلا على استحواذهم على آلة التمكين، حتى تجري أسباب القوة وفق بواعث التسبب الكونية. فوجهها على مناح متعددة منها:

الأول: أكسب العباد قوة لتحصيل هذا القصد فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [أنفال: 60] ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: 52] ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: 54].

الثاني: حقق معالم الصلاح في الأمر كله، وكره طروء الفساد بعد الصلاح، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56]، وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85]، وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: 22].

الثالث: الامتنان بالإصلاح حتى يشكروه ويذكروه دائما، وتتم لهم خلافة الأرض على مقتضى العبودية المطلقة لله سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55].

وإنا متى نُعمل الفكر في خطابات القرآن الكريم الكثيرة حول ما ينعم البصيرة يقوي المدارك، "نفهم وجه اهتمام القرآن باستدعاء العقول للنظر والتذكر والتعقل والعلم والاعتبار"². فكان والحال هذه أن من أهم المهام تحصيلاً لمسمى الصلاح في الواقع هو إصلاح التفكير كمقصد أصلي، وما ينتج عنه من مقاصد تبعية تفضي إلى استثمار مقدرات

1 الجامع لأحكام القرآن للقرطبي [تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش - دار الكتب المصرية- القاهرة. ط 1384هـ] (1/ 264).

2 أصول النظام الاجتماعي في الإسلام لابن عاشور (ص 52).

العقول ومكتسبات الفهم في تقويم التصرفات وانتظام شأنها، لأن أعمال العباد جارية على حسبه صلاحا وفسادا نفعاً وضراً، وخاصة إذا كان لها الأثر المباشر على الجماعة، حيث يبرز البعد الاجتماعي من جهتي: صلاح تصرفات الأفراد وصلوحية الأواصر التي تربطهم في المجتمع.

ومن أظهر النماذج تحقيقاً للبعد الاجتماعي ما تعلق بإدارة المال والحث على تزكية النفوس بإنفاقه وتزكيته بالصدقات، بل قد جعله معياراً لنيل البر وتحصيل الخير¹، كما قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 92]. فنيه أن الفلاح مضمون بالوقاية من شر الشح وبواعثه في النفوس، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: 16]²، قال العلامة ابن عاشور: "وفي ذلك صلاح عظيم للأمة إذ تجود أغنياءها على فقرائها بما تطمح إليه نفوسهم من نفائس الأموال فتشدد بذلك أواصر الأخوة، ويهنأ عيش الجميع"³.

وقد نلتبس من خلال هذه المعاني عظم المقاصد الجزئية التي تعكس معنى استصلاح خلافة الإنسان في الأرض، وتكوين المجتمعات المدنية الراقية فكرياً وحضرياً فضلاً على صحة معتقداتها وسلامة ديانتها، ولذلك "لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ومن معه من المسلمين وامتاز أهل الإسلام بجماعة ومدينة، وتكون المجتمع الإسلامي، أصبح الإسلام شريعة تضبط أمور المسلمين في مدينتهم، وتبين حقوقهم في معاملات بعضهم بعض ومعاقداتهم، ونظام العائلة بينهم ومعاملتهم من حولهم .. فاستكمل الإسلام كيان الشرائع الاجتماعية للقضايا المدنية. وأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمة الحقوق وحذر من اقتطاعها وسد منافذ التأويل إلى استحلالها..."⁴.

1 قال الشيخ ابن عاشور في التحرير والتنوير (4/ ص5): "المقصود من هذه الآية أمران: أولهما التحريض على الإنفاق والتنبه بأنه من البر، وثانيهما التنبه بالبر الذي الإنفاق خصلة من خصاله". كما نبه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: 75] على مهمة عظيمة وهي قوله: "أن أواصر العقيدة والرأي أقوى من أواصر الجسد". التحرير والتنوير له (10/ ص92).

2 ودل عليه أيضاً في موضع [الحشر: 9]، حيث ختم بهذا الوعد العظيم سياق الآية التي ذكر فيها ظاهرة عظيمة تمثل مكون المجتمع الصالح بما فيه من التحبب بين الصحابة وإثارهم بالحفظ والسعي في النفقات والإعانات وبذل المعروف من دون إحصاء، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9].

3 المصدر نفسه لابن عاشور (4/ ص6).

4 أصول النظام الاجتماعي في الإسلام لابن عاشور (ص180).

فيلاحظ من ذلك اقتناص جملة من المقاصد الدالة على: المساواة¹ بين الأفراد في الحقوق والحلوظ والمستحقات، وما يستتبعها من إقامة العدل² بين جميع المكلفين وتعيين حقوقهم³ في نفوسهم وأعمالهم وأموالهم وغيرها. ومنها: نشر التسامح⁴ والتواضع والإنصاف والتعاون على البر التواطئ على كل ما تستحسنه العقول الحكيمة من التصرفات الرشيدة وتمتدحه الطباع السليمة. وجماع ذلك كله مندرج تحت قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ [العصر: 3].

مع أننا في مثل هذا المقام التأصيلي المهم، لا بد أن ندندن حول تمحيص دقيق لتلك الدلائل المستنبطة من النص القرآني لتوظيف تنزيله في واقع الأمة، وذلك بتحصيل منظومة منضبطة يحتاجها النظار في تحكيمهم للشرعية وتنزيلهم لأحكامها على المستجدات التي تحدث عبر الأزمنة وما تستتبعه من تجدد العوائد والمظاهر والتصرفات، فلا بد والحال هذه من مسلكين:

أولهما: تأصيل القواعد وتنظير القوالب الإصلاحية المقتنصة من النص القرآني (والسنة النبوية)، حتى تنتظم الكليات التي تنضبط من خلالها مباحث الجزئيات، من حيث الاندراج والاستدلال حتى تجمع الفروع حتى يسهل على الناظر ربط الجزئيات بتصرفات الأعيان⁵.

ولقد نبه الإمام القرافي على أهمية العناية بضبط القواعد وانتظام معاهد الكليات، فقد قال رحمه الله تعالى: "من جعل يخرج الفروع بالمناسبات الجزئية دون القواعد الكلية تناقضت عليه الفروع واختلفت وتزلزلت خواطره فيها واضطربت، وضاعت نفسه لذلك وقنطت، واحتاج إلى حفظ الجزئيات التي لا تتناهى وانتهى العمر ولم تقض نفسه من طلب منها ومن ضبط الفقه بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات لاندراجها في الكليات، واتحد عنده ما تناقض عند غيره وتناسب"⁶.

وقد يكون لذلك ثمرة مهمة أخرى، وهي ما يجري من المباحثة والمناظرة على مستوى تمحيص النقود ورد الاعتراضات وكشف الاستشكالات، حتى تظهر محاسن الإسلام الكبرى ومقاصده النبيلة العظيمة.

1 يراجع: المرجع السابق لابن عاشور (ص 143-159).

2 يراجع: المرجع نفسه لابن عاشور (ص 185-189).

3 يراجع: المرجع نفسه لابن عاشور (ص 178-185).

4 يراجع: المرجع نفسه لابن عاشور (ص 226).

5 وقد وقفت على موافقة طيبة لما نظرت مقدمة ابن خلدون فوجدته قد قرر ذلك رحمه الله تعالى، لما تكلم عن خصوصية أهل العلم في: "الفصل الثاني والأربعون". تراجع مقدمة ابن خلدون [حققه عبد الله الدرويش، دار يعرب ط 2004/01] [359/2].

6 الفروق للقرافي [عالم الكتب، دط/دت] [1/ ص 03].

مع اعتبار هيئة المخاطب به ومستواه المعرفي، فإن من موارد الإصلاح المهمة النظر في حال المخاطبين والتفريق بين العارف العاقل للمحادثة وغيره من العامة الذين ينغلق عليهم الفهم في كثير من المسائل والمناسبات، ولذلك حرص الشاطبي في هذا المقام على درء الفساد عن تلك الموارد فقال: "وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة، فإن صحت في ميزانها، فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة، فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها، فلك أن تتكلم فيها إما على العموم إن كانت مما تقبلها العقول على العموم، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ، فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية"¹.

وقد نبه ابن عاشور عليه لما تكلم عن تفاريع أصول نظام الجامعة لما نفى مسعى المساواة باعتبار تفاوت العقول والمواهب في الصلاحية إدراك المدركات، ومثل بالعالم وغير عند تفاوت المدركات في فهم الشريعة والقدرة على تلقى المستنبطات، ولذلك حجب عن رتبة الاجتهاد من لم يكن بتلك الهيئة العلمية².

كما أن لهذا المسلك فائدة أخرى عظيمة النفع تعود على المكلف في نفسه حيث أن انتظام الأصول العامة يربط الناظر في التصرفات بمقاصدها الأصلية، وهذا أدعى إلى الامتنال والاحتساب. يقول العلامة الشاطبي في ذلك: "قد ظهر أن البناء على المقاصد الأصلية أقرب إلى الإخلاص، وأن المقاصد التابعة أقرب إلى عدمه، ولا أنفيه" -ثم قال:- "ويظهر من هنا أيضا أن البناء على المقاصد الأصلية يصير تصرفات المكلف كلها عبادات، كانت من قبيل العبادات أو العادات؛ لأن المكلف إذا فهم مراد الشارع من قيام أحوال الدنيا، وأخذ في العمل على مقتضى ما فهم، فهو إنما يعمل من حيث طلب منه العمل، ويترك إذا طلب منه الترك، فهو أبدا في إعانة الخلق على ما هم عليه من إقامة المصالح باليد واللسان والقلب"³.

ثانيهما: التدريب على الخير والحث عليه وتكثير سبله في الأمة بالتدريس والتعليم والتربية والتوعية ومثابرة فيه، اعتبارا بقاعدة: (من سن في الإسلام سنة حسنة)⁴، والناس متفاوتون

1 الموافقات للشاطبي (5/ 172).

2 يراجع أصول النظام الاجتماعي في الإسلام لابن عاشور (ص 54)

3 المصدر نفسه للشاطبي (2/ 337).

4 أصلها في حديث النبي ﷺ في صحيح مسلم [حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، دط/دت] (2/ 704 برقم: 1017) من حديث المنذر بن جبر، عن أبيه، مفاده أن قوما حفاة عراة بهم فاقة وحاجة، فوجد النبي ﷺ لحالهم، فخطب في الصحابة يحثهم على الصدقة، فجاء رجل من الأنصار بمصرة عجزت كفه عنها، ثم تتابع الناس، ولذلك قال رسول الله ﷺ: "من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء".

في ذلك بحسب قدراتهم ومراتب إدراكهم وفهمهم، ويرجع ذلك إلى تحقيق المناطات في تصرفات كل مكلف بحسبه، فهي أمور اعتبارية تبنى على المظنات والتكليف بما يطاق، كما أنها موكولة إلى ديانة المكلف في نفسه. قال الشاطبي رحمه الله تعالى: "كل خصلة أمر بها أو نهى عنها مطلقاً من غير تحديد ولا تقدير؛ فليس الأمر أو النهي فيها على وزن واحد في كل فرد من أفرادها ... إلا أن مجيئها في القرآن على ضربين:

أحدهما: أن تأتي على العموم والإطلاق في كل شيء، وعلى كل حال، لكن بحسب كل مقام، وعلى ما تعطيه شواهد الأحوال في كل موضع، لا على وزن واحد، ولا حكم واحد، ثم وكل ذلك إلى نظر المكلف؛ فيزن بميزان نظره، ويتهدى لما هو اللائق والأحرى في كل تصرف، أخذاً ما بين الأدلة الشرعية والمحاسن العادية؛ كالعدل، والإحسان، والوفاء بالعهد، وإنفاق عفو المال، وأشباه ذلك..

والضرب الثاني: أن تأتي في أقصى مراتبها، ولذلك تجد الوعيد مقروناً بها في الغالب، وتجد المأمور به منها أوصافاً لمن مدح الله من المؤمنين، والمنهي عنها أوصافاً لمن ذم الله من الكافرين"¹.

ومن خلال هذين الضربين تعتمد مميزات البحث عن البواعث الكامنة في محايير الفهوم جلباً للعلية المقترنة بتفاريح الاستصلاح في ضوء تفعيل معاهد المعيارية المقاصدية، كما سنوضحه في المطلب الآتي.

المطلب الثالث: بواعث الإصلاح الاجتماعي وتوطئتها في الواقع وفق المعيارية المقاصدية

من أركان المعيارية المقاصدية اقتناص البواعث المؤثرة في الأفضية والفتاوى وتنزيل الأحكام على الأعيان ببصيرة وروية، ومكمن ذلك بالاستبصار في واقع الأمة وملابسات تصرفات أهل الزمان من جهة عمل الأفراد كحرية فردية، ثم أثرها العام في المجتمع، وهذا له ضابطه كما حرره العلامة ابن عاشور في كتابه أصول النظام الاجتماعي، تحت فصل سماه: "الحرية"، مبيناً أن تحجير الحرية هو الأصل منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 35]. ثم قال: "لم يزل يدخل عليه التحجير في استعمال حريته بما شرع له من الشرائع والتعاليم المراعي فيها صلاح حاله في ذاته ومع معاشريه بتميز حقوق الجميع ومراعاة إيفاء كل بحقه"².

1 الموافقات للشاطبي (2/ 392-397). - بتصرف -.

2 أصول النظام الاجتماعي في الإسلام لابن عاشور (ص 162). ثم جاء بفصل ذكر في "الحرية المنشودة" بشرح مفصل بين فيه معاني هذا المقصد (ص 169-177).

قلت: وهذا من أظهر معالم توظيف تنزيل النص القرآني في الاستصلاح البشري، ولعل من أثر ذلك التحجير جاءت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم باعتبار كلية عظيمة النفع تستصلح حال العوائد والنظم

وطرائق التعبد عند العرب، وهي تقرير الأحوال الصالحة والحث على تغيير الفساد في المجتمع¹.

وبالتعويل على ما استبصره الفحول في معاني الحياة الدنيا وما يصلحها وما عرفوا به من المعاني المقصودة في استخلاف الإنسان ورغبته في عمارة الأرض، وجدنا ذلك لا يخرج عن بواعث الوازع المطلق:

* فمنه ما يرجع إلى عمارة النفوس بالإيمان والعمل الصالح، وهذا الجانب ينتج أثره في التصورات والتصرفات، فلزم النظر في حال الأمة من جهة مدى تحقيقهم للتوحيد وتصحيح الاعتقاد وسلامة مناهج التفكير في المطلوبات الشرعية. وضابطه في صلاح الواقع في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 110].

* ومنه ما يرجع إلى عمارة الأرض مما أنيط بترتيب النظم وتقنين العلاقات وضبط المعاملات التي تحكمها سنة المعروف والحث على تكثيره واجتناب أسباب انحرافها. وضابطه في صلاح الواقع في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 39].

وعلى هذا الأساس تبنى كل معرفة عقلية أو معلومة أدبية ترجع إلى خدمة القيم الشرعية التي شهد الشرع لجنسها بالصلاح، وكل ما يكرّ عليها بالعدم والهدم من الأشكال والأفعال فهي راجعة إلى سوء الفهم أو سوء القصد أو غلبة الأهواء وشدة موطن الأوهام على العقول².

1 في كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور فصل في بالغ الأهمية والإفادة وسمه بقوله: "مقصد الشريعة من التشريع تغيير وتقرير"، ثم قال: قد يستكن في معتقد كثير من العلماء قبل الفحص والتفوص في تصرفات التشريع أن الشريعة إنما جاءت لتغيير أحوال الناس. والتحقق أن للتشريع مقامين:

- المقام الأول تغيير الأحوال الفاسدة وإعلان فسادها. وهذا المقام هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: 257)، وقوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: 16).

- والمقام الثاني تقرير أحوال صالحة قد اتبعها الناس. وهي الأحوال المعبر عنها بالمعروف في قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ (الأعراف: 157). ينظر للاستزادة مقاصد الشريعة الإسلامية له (3/ 297 - 298).

2 ينظر نحوه في مقدمة ابن خلدون (325/2)

يقول العلامة ابن عاشور: "المجتمع الإنساني قد مني عصورا طويلة بأوهام وعوائد ومألوفات أدخلها عليه أهل التضليل، فاختلطت عنده بالعلوم الحق فتقاوَل الناس عليها وارتاضوا على قبولها، فالتصقت بعقولهم التصاق العنكبوت ببيتته، فتلك يخاف منها أن تتلقى بالتسليم على مرور العصور فيعسر إقلاعهما عنها وإدراكهم ما فيها من تحريف عن الحق، فليس لتمييزها إلا أهل الرسوخ أصحاب العلوم الصحيحة الذين ضربوا في الوصول إلى الحقائق كل سبيل، واستوضحوا خطيرها وسليمها فكانوا للسبلة خير دليل. وكون الإسلام هو الفطرة، وملازمة أحكامه لمقتضيات الفطرة في تفاريعهما"¹.

قلت: وبناء عليه فإن كل نفع حاصل في الواقع إنما هو من آثار الفطرة السليمة الكامنة في نفوس العباد، لأن رأس مركب القيم والسلوك في النفوس وفي المجتمع والأقاليم منبعث من صلاح الفطرة وسلامتها من الآفات، فلا غرو من "الاعتراف بانفعالات الإنسان وعواطفه، وضرورة معرفة الطرق الصحيحة لتهدئتها ومجاهدتها والتسامي بها، حتى يمكن بناء شخصية المسلم"². لأنه ما ضر الأمة من التصرفات المهلكة إلا حصول خوارمها واكتساب نواقضها، وعدول الناس عن الاستقامة إلى ضدها حتى انتكست فطرة كثير منهم، ومجّ تلك الطرائق ذوو العقول الراجعة.

لكن إرادة الله تعالى الخير بهذه الأمة سنة معلومة، وقد جاء ذلك في القرآن الكريم صريحا في مواضع منها: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: 26]، وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28] ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: 6]. قال ابن عاشور: "وإنك لتوقن بأن أمة يزجي بها دينها إلى صحة التفكير في كل النواحي.. لهي جديرة بما نالته من سيادة العالم أيام كانت أخلاقها الدينية غير مشوبة بخليط الخطأ في فهمه حق فهمه"³.

وفي ميزان العقل أنه ليس يضر الناس مكاسيهم وأقواتهم، "وإنما الذي يضر هو التعاليم المؤثرة في نفوس أتباعهم من الاعتماد على أوهام باطلة، لا تلائم نظم العمران في هذا العالم"⁴. ومع ذلك قد تجد سفسطة تنتجها محابير عقلية يتناخر بها ضعاف النفوس من أمتنا حملهم عليها: فوات الفهم وسوء القصد وقلة العلم والانهيار بالمتغلب (فكريا وماديا).

1 التحرير والتنوير لابن عاشور (21 / 92).

2 آراء ابن الجوزي التربوية «دراسة وتحليلا وتقويما ومقارنة» للىلى عبد الرشيد عطار، [منشورات أمانة للنشر، ميريلاند - الولايات المتحدة الأمريكية، ط1 1419 / 01 هـ] (ص188).

3 أصول النظام الاجتماعي في الإسلام لابن عاشور (ص 63)

4 المرجع نفسه لابن عاشور (ص 10).

وتصوير المنكر عادة وحتى جعلوا إذاعته في الناس ديناً ونصيحة وهو في الواقع ظلم وعدوان. ولذا لما كان المقام عظيم الخطر حذر الله تعالى منه فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36]. تحذيراً من الغلط والوهم وتتضمن الأمر بقطع دابر كل وسيلة تفضي إلى رد الحق ونشر الباطل في الأمة، وهذا عين الفساد في نظام الواقع وانفلات المجتمع من القيم والأخلاق¹، ولأجل ذلك كان في عرف الشريعة أن "النواهي معتمد الفساد، فكل ما نهي عنه فإنما نهي لمفسدة تحصل منه"².

ومن خلال تلكم التفاريع نتج ضابط التصرفات المعتمد به في الإصلاح والرغبة في ذبوعه في الأمة، يقول الله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]، لأن النفوس تعترها مغالبة الأميال النفسية والمؤثرات الوجدانية فجعل الله تعالى لهذه الأنفس قانوناً يحكمها في تصارييف الحياة منوطة بضوابط المعاملات والعلاقات والنظم التي نص عليها القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الحج: 18]، ففيه بيان تنزيل الشريعة والحث على توظيف مقتضيات تلك التشريعات، لأن تعاليم الإسلام جاءت بتصحيح العقيدة والتربية والسلوك والعمل كما وقّت مسالك تقي العباد مزالق الأفهام ومفاسد الأوضاع، وفرع عليها جميع الوسائل المفضية إلى الإصلاح وقطع دابر الفساد وذرائع المضرات وهو معنى الحنيفية ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: 105].

ومن منطوق الآية يظهر أن ثمة قوتان تتغالبان في الواقع لابد من معرفتهما ومسبب كل منهما، وهما الخير الذي وضحته الديانة الحنيفية، ومقابله الشرك الذي يمثله حزب المشركين، يقول ابن خلدون: "الخير والشر طبيعتان موجودتان في العالم لا يمكن نزعهما، وإنما يتعلق التكليف بأسباب حصولهما، فيتعين السعي في اكتساب الخير بأسبابه ودفع أسباب الشر والمضار"³.

وتحكم هذه المسالك قاعدة مهمة: وهي أن "الوسيلة القريبة تُخصص العموم كالمقصود

1 وقد نستأنس هنا بنقل من تفسير المنار لمحمد رشيد رضا [البيئة المصرية العامة للكتاب، دط/ 1990] (8/ 469)، حيث قال رحمه الله تعالى: "إن الإفساد في الأرض يشمل إفساد نظام الاجتماع البشري

بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل والبغي والعدوان على الأنفس والأعراض، وإفساد الأخلاق والآداب بالإنم والفواحش الظاهرة والباطنة وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام".

2 القواعد لأبي عبد الله المقرئ [حققه محمد الدردابي - دار الأمان بالمغرب : 2012] (ص: 261). وينظر تحرير (الفرق الثامن والثلاثون والمائة) من الفروق للقرافي (3/ 97).

3 مقدمة ابن خلدون (328/2).

على الأصح¹. وهي تصدق على الجهتين والمقصدتين وما يتوسل به إلى وحدة منهما، ومتى ارتكزت مقدمات الجلب والدفع على النزعة الإصلاحية المنبثقة من معدن اليقين والمعروف واليسر والاعتدال والتوسط والسماحة وترك الغلو إلا سادت الشريعة بمحاسنها ومكارمها وانبعثت في النفوس وازع السلامة واضمحلت التعاليم الباطلة والعوائد السيئة. أليس قد أخبر الله تعالى أن هذا الدين هو الخير كله ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30]. وخاصة من أنعم فكره وأجمع نظره على تحصيل مظاهر القوامة ومكاسب القيمة في النفوس وأثارها على التصرفات، وهو ما سنسوق تفصيله في المبحث الآتي.

المبحث الثاني: استثمار المعيارية المقاصدية في الاستصلاح جامعة المكلفين

وفي ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أثر المعيارية المقاصدية في انتظام معاهد الإصلاح الفكري للمكلفين.

الناظر في مقاصد الشريعة المتعلقة بالتسبب إلى صلاح الأمة من حيث تصرفات أفرادها، قد يحضى بكلية تنال بالمجموعية التي تعبر عن المنهج الإصلاحي الذي عُني به النص القرآني، فمن ابتغى توظيفها في مواردها الإصلاحية وجدت النصوص تنقسم أقساماً اعتبارية من جهات مختلفة، منها²: الامتنان الرباني بكرامة الإنسان، وما خصه بالعاقلية التي هي منبع تصوراتهِ وتمحيص حال رتبة نفسه من العبودية، فحثه على زكها وتهذيبها ومقتضيات سعادتِها في الدنيا والآخرة، وغيرها من مقاصد إصلاح الإنسان في نفسه ومجموعه.

ومن تدبر جميع "العقائد الإسلامية وشرائع الإسلام وقوانينه حقائق تدركها العقول، وتطبقها على الخارج فتجدها مطابقة للواقع"³، وعلى هذا جرت جميع السنن وتوافقت حتى أضحت بيئة لا تحتاج إلى برهان ولا حجاج. ومتى ما ادعى مدع انخراط عقد نظامها فهو راجع إلى قصور في التعقل من جاء تسلط الأوهام والتخيلات التي انطفأت بسببها أضواء الحقائق في قلبه حتى أظلم فكره وتكدست طرائق تدبره. وقد قال الله تعالى لنبيه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: 79]، "وقعت جملة (إنك على الحق المبين) موقعا لم يخاطب الله تعالى أحدا من رسله بمثله، فكان ذلك شهادة لرسوله بالعظمة الكاملة المنزهة عن كل نقص، لما دل عليه حرف (على) من التمكن، وما دل عليه اسم (الحق) من معنى جامع لحقائق الأشياء، وما دل عليه وصف (مبين) من الوضوح والتهوض"⁴.

1 نقلا من: القواعد للمقري [حققه أحمد بن حميد، جامعة أم القرى - م/ع/ السعودية. دط/ دت] (509/2)

2 وثمة تفصيل حسن لهذه المنافذ، ينظر في كتاب: مقاصد القرآن من تشريع الأحكام لعبد الكريم حامدي [دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط1429/01هـ] (ص 60-65).

3 أصول النظام الاجتماعي في الإسلام لابن عاشور (ص 29).

4 التحرير والتنوير لابن عاشور (20/33).

فينبغي والحال هذه المعاني المسوقة في الآية في استثمار الأصول والكميات والمقاصد
المعتبرة، بله والدلالات الاعتبارية المفضية إلى تحقيق معنى الصلاح في النفوس بجامع الأثر
والحث على الفضيلة وتصحيح التصور في الذهن¹. ولا يتم ذلك على جهة الكمال إلا
باستصلاح مركب الوجود الإنساني من حيث الفردية والجماعية، وهو منوط بثلاثة مقاصد:
"التفكير وإصلاح العمل والإيجاد الوازع"². وهي مكامن تحقيق ماهية المعيارية التي تتبارى
فيها فهوم العقلاء وأهل الشريعة لتحصيل الصلاح واقعا أو توقعا.

وهذه الثلاثة تلزم الإنسان (الفرد المكلف)³ في ذاته وما ارتبط به من حق غيره، مع
اعتبار ضابط التساوي في الحقوق والحظوظ مع لحظ المقتضي فيه بين الرجل والمرأة في
ذلك سواء⁴، لأن ذلك معدود من تمام بناء الشريعة على مقتضى الصلاح في حكمها

1 قال الشاطبي في الموافقات (5/ 226): "النظر في الجزئيات والمنصوصات إنما مقصوده التوصل إلى ذلك
المطلوب الكلي الشرعي، حتى يبني عليه فتياه ويرد إليه حكم اجتهاده".

2 أصول النظام الاجتماعي في الإسلام لابن عاشور (ص 91).

3 نفقري في اللفظ (الإنسان) مع مرسومه في فكر الاجتماعيين والحداثيين، إذ يركز عندنا هذا المصطلح على
عامل التكليف بشروطه، وكونه محكوما عليه في شريعة الباري سبحانه، لا كانتا مدنيا مجردا في الطبيعة أو
يعد مركزا مطلقا في الكون يعث بمقدرات عقله وينأى بنفسه عن شريعة رب العالمين. قال الشيخ ابن
عاشور في مقاصد الشريعة الإسلامية (36/3): "من أعظم ما اشتمل عليه خلق الإنسان خلق قبوله
التمدين، الذي أعظمه وضع الشرائع له. وما أرسل الله تعالى الرسل وأنزل الشرائع إلا لإقامة نظام البشر،
كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:
25] [إلى قوله رحمه الله] فالشرائع كلها وبخاصة شريعة الإسلام جاءت لما فيه صلاح البشر في العاجل
والآجل، أي في حاضر الأمور وعواقبها".

4 أما ما يتعلق بالمرأة فلها كامل الحظ والحق في جانب الإصلاح مثل الرجل تماما، قال الإمام في التحرير
والتنوير (2/ 400) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228]: "ودين الإسلام
حري بالعناية بإصلاح شأن المرأة، وكيف لا وهي نصف النوع الإنساني، والمربية الأولى، التي تفيض التربية
السالكة إلى النفوس قبل غيرها، والتي تصادف عقولا لم تمسها وسائل الشر، وقلوبا لم تنفذ إليها خراطيم
الشیطان. فإذا كانت تلك التربية خيرا، وصدقا، وصوابا، وحقا، كانت أول ما ينتقش في تلك الجواهر
الكريمة، وأسبق ما يمتزج بتلك الفطر السليمة، فهيأت لأمثالها، من خواطر الخير، منزلا رحبا، ولم تغادر
لأغيارها من الشرور كرامة ولا حبا. ودين الإسلام دين تشريع ونظام، فلذلك جاء بإصلاح حال المرأة، ورفع
شأنها لتنهأ الأمة الداخلة تحت حكم الإسلام، إلى الارتقاء وسيادة العالم".

وجاء في كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية (3/ 281)، في فصل سماه: (ي) المساواة، يندرج تحت أنواع
المقاصد العامة (القسم الثاني) ما نصه: "فالمساواة في التشريع أصل لا يتخلف إلا عند وجود مانع. فلا
يحتاج إثبات التساوي في التشريع بين الأفراد أو الأصناف إلى البحث عن موجب المساواة، بل يكفي بعدم
وجود مانع من اعتبار التساوي. ولذلك صرح علماء الأمة بأن خطاب القرآن بصيغة التذكير يشمل النساء.
ولا تحتاج العبارات من الكتاب والسنة في إجراء أحكام الشريعة على النساء إلى تغيير الخطاب من تذكير إلى
تأنيث ولا عكس ذلك". كما أورد الشيخ ابن عاشور فصلا بعنوان: "شأن المرأة" في كتابه أصول النظام
الاجتماعي (ص 97-102) بين فيه مكانة المرأة وما تستحقه من العناية والاهتمام، ووضع فصلا في كتابه
الأخر: أليس الصبح بقريب التعليم العربي الإسلامي [دار سحنون، تونس - دار السلام، مصر، ط 01 /
2006م]، فصلا بعنوان: "تعليم المرأة" (ص 51-53).

والإصلاح في قصدها، فرتب التساوي في الحكم على ما اتفق فيه الوصف بين الذوات، ما لم تلحظه الشريعة مؤثرا معتبرا في التفريق¹.

وجمّاع المعيارية المنشودة في التفكير المقاصدي التي تبني معانيها على الحقائق المرتكزة في خصائص الإنسان من حيث إدراكاته (العقلية) وما ينبثق عنها من المؤثرات المعرفية التي تكشف معدن النفوس وانطباعاتها وميولاتها والبحث عن أغراضها وبواعثها التي هي عنوان تصوراتها.

وهذه التصورات هي معتقدات المكلف ومعارفه، فيسعى في فكاك عقله من الأوهام وما تلبس بها من عقائد باطلة وعلائق الخرافة، كما يستوجب الحال على الدعاة والمصلحين من الأمة مراعاة هذه الأنماط الفكرية، و"أن يسعوا جد السعي لإزالة ما عسى أن يكون ناشئا على تقاليد قديمة أو عوائد مذمومة، حتى اشتهت بالجيلة بطول عهدها في أصحابها" فأفسدت العقول واضمحلت عندها أنوار الفطرة السليمة المرتكزة في طبيعة الإنسان، ومتى تغلبت سنن التعليم والأخلاق الفاضلة اندثرت العوارض السيئة، ولو ترك الإنسان إلى فطرته السليمة لضمن نصف طلب الحقيقة لأن "فساد الاعتقاد طارئ على الناس"²، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَتَتْ فَأَعْلَتْ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكْسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: 62 - 65].

ذلك و"لا شك أن الشرائع الإلهية كلها جاءت بالصدق وتصدت إبطال الإشراك والتشنيع بحال أهله والأمر بتوحيد الله وتنزيهه"³. فأنزل آيات القرآن واضحة بينة في الدعوة إلى التوحيد متضمنة رد كذب المفترين وشبهات الضالين بل سد كل ذريعة إلى الشرك.

وقد يكون من أظهر الأمثلة ميلان القلب بالتوكل على المخلوق والاعتماد عليه مطلقا في قضاء الحوائج والتغافل عن الخالق المنعم الحي الذي لا يموت سبحانه، فقد يتوكل عليه بقلبه جملة، فهذا من الوهم المنبثق عن الشرك الخفي لأن الله تعالى لا يتوكل إلا عليه وحده، كيف وقد خاطب الله تعالى نبيه به أمرا له بقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 58]، وفي هذه الآية "تعريض بالمشركون إذ ناطوا آمالهم بالأصنام وهي أموات غير أحياء. وفي الآية إشارة إلى أن المرء الكامل لا يثق إلا بالله لأن التوكل على الأحياء المعرضين للموت وإن كان قد يفيد أحيانا لكنه لا يدوم"⁴.

1 أصول النظام الاجتماعي في الإسلام لابن عاشور (ص 36).

2 المرجع السابق لابن عاشور (ص 47).

3 المرجع السابق لابن عاشور (ص 46).

4 التحرير والتنوير لابن عاشور (19 / 59).

قلت: من رام توظيف تنزيل هذه الآية في واقع الناس وجد عجباً عظيماً، اعتباراً بقاعدة فساد الزمان وضعف ديانة الناس¹. إذ لا مناص من الحزم في إنفاذ الشريعة وفق معيارية محكمة النظام تؤم إعمال المقاصد في محالّها، وترتيب الأحكام وفق مواقعها.

المطلب الثاني: مرتكزات المعيارية المقاصدية في استصلاح الجماعة من خلال تصرفات الأفراد

مطالب الأعمال وتحقيقها في واقع المكلفين هي معين تصرفاتهم الظاهرة، وهي معلولة بمقاصد تفكيرهم ومعدن أفعالهم، وحتى تتناسب الأفعال والأفهام رتب ذلك بالتحقق في تحصيل العلم والهداية لسلوك سبيل النجاح والنجاة من مهاوي الأغلاط والخسران في الدنيا والآخرة²، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: 12] وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [التحريم: 8]. والمراد بسعي النور "امتداده وانتشاره .. وإنما خص بالذكر من الجهات الأمام واليمين لأن النور إذا كان بين أيديهم تمتعوا بمشاهدته وشعروا بأنه كرامة لهم"³. والسبب في حصول هذا الثواب والنعيم راجع إلى تحصيل العلوم النافعة التي أنتجت الأعمال الصالحة.

وليس من نافلة القول التنبيه هنا إلى أن للعقل فوارق في الاستبصار بالقرائن المحيطة بواقعه، مع استثمار معارفه الطّبيعية والكسبية لتقييم منافعه والتجافي عما يخامره من موجبات الفساد الواقع، لأن الله تعالى ميزه عن الطبائع الحيوانية "بالفكر الذي جعل له، يوقع به أفعاله على انتظام وهو العقل التمييزي أو يقتنص به العلم بالأراء والمصالح والمفاسد من أبناء جنسه، وهو العقل التجريبي، أو يحصل به في تصور الموجودات غائباً وشاهداً، على ما هي عليه، وهو العقل النظري"⁴.

وقد تكونت من خلال ذلك قاعدة عظيمة دل عليها هذا الاهتمام، تعد مرصداً مفاهيمياً يركز في تحصيله على معلمتين:

إحدهما: البحث على اكتساب العلوم النافعة بمنهجية معلومة وكيفية معقولة⁵، حيث أن "المثابرة على طلب العلم، والتفقه فيه، وعدم الاجتزاء باليسير منه؛ يجر إلى العمل به

1 يراجع: سبل الاستفادة من النوازل والفتاوى والعمل الفقهي في التطبيقات المعاصرة لوهبة الزحيلي [دار المكتبي، الطبعة الأولى، 1421هـ] (ص 22 و 60). والمدخل الفقهي العام لمصطفى أحمد الزرقا [دار

القلم، دمشق، ط1 1418/01هـ] (ص 945-949) فصل (برقم: 77): "تغير الأحكام الاجتهادية بفساد الزمان".

2 أصول النظام الاجتماعي في الإسلام لابن عاشور (ص 51).

3 التحرير والتنوير لابن عاشور (28 / 371).

4 مقدمة ابن خلدون (2 / 164).

5 يراجع في ذلك ما أفاد به الإمام ابن عاشور في كتابه الماتع أليس الصبح بقريب (ص 39 - 40).

ويلجئ إليه"¹. وهذا هو أساس الفاعلية الحضارية التي تركز على تحصيل المعارف المختلفة، لإرساء قواعد التمدن الاجتماعي القويم.

وإني أحسب أن أصلح نص قرآني يجمع معاني إصلاح الواقع إذا تم توظيفه بكل ما يحمله من الدلائل والمقاصد الأحكام والفضائل، ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122]، قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: "فدعا الله تعالى المؤمنين إلى توجيه طوائف من جميع فرقهم لأجل التفقه في الدين، أي التفقه فيه إتماما لمقصد الشريعة من بث الإصلاح في العقيدة والتفكير والعمل..."². وقد بسط في هذا المعنى قولنا حسنا يراجع في محله من الكتاب لما فيه من الفائدة العلمية العظيمة.

الأخرى: بيان الثواب المترتب على هذا الأمر العظيم، وما يحصله أهل العلم من الفضل ونيل الدرجات في الدنيا والآخرة، وقد صرح به في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11]، يقول ابن عاشور في مقتضى هذه الرفعة الربانية: "لأن الذين أوتوا العلم قد يكون الأمر لأحد بالقيام من المجلس لأجلهم، أي لأجل إجلاسهم، وذلك رفع لدرجاتهم في الدنيا، ولأنهم إذا تمكنوا من مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم كان تمكّنهم أجمع للفهم وأنفى للملل، وذلك أدعى لإطالهم الجلوس وازديادهم التلقي وتوفير مستنبطات أفهامهم فيما يلقى إليهم من العلم، فإقامة الجالسين في المجلس لأجل إجلاس الذين أوتوا العلم من رفع درجاتهم في الدنيا"³.

ولما كان الناس -والحال هذه- قد تفاوتوا في هذا المقام من حيث المقادير والحاجة إليها، علق ذلك بأمرين:

الأول: الحث على البحث وسؤال أهل العلم والخبرة للانتفاع لا مجرد جمع للعلوم⁴، فقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: 7] وقال بعد في سورة النحل: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

1 الموافقات للشاطبي (103/1). وقد قال في أول سوقه لمعاني المقدمة الثامنة، (89/1): "العلم الذي هو العلم المعبر شرعا -أعني الذي مدح الله ورسوله [صلى الله عليه وسلم] أهله على الإطلاق- هو العلم الباعث على العمل، الذي لا يخلو صاحبه جاريا مع هواه كيفما كان، بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه، الحامل له على قوانينه طوعا أو كرها..".

2 أصول النظام الاجتماعي في الإسلام لابن عاشور (ص 92).

3 التحرير والتنوير لابن عاشور (28/41)، وينظر له: أليس الصبح بقريب (ص 40).

4 نبه عليه بإسهاب العلامة ابن الحاج في المدخل [دار الفكر، دط/1401هـ] (1/63 - 129) فذكر بيان ما ينبغي على طالب العلم فعله ونيته وهديه وأدبه وغيرها.

ولذلك كان فرضا على من علم أمرا أن يمثله من غير تردد ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 275]. ولتعلق المناسبة بنيل الحظوظ لزم هذا المقام السامي أن يتكرر تذكير الناس ووعظهم وتنبيههم على المهمات حتى يكون إسلامهم صحيحا، ولذا جاء من الأوامر وتكرر كثيرا الأمر بالتقوى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 278]. "قال ابن العربي لم يتكرر لفظ في القرآن مثلما تكرر لفظ التقوى اهتماماً بشأنها"¹.

الأخر: سلوك نمطين في البيان والدعوة وهما: التخلية ثم التحلية "لأن شأن الإصلاح أن يبدأ بإزالة النقص"²، هذا حتى تتلقى الشريعة بالقبول من دون بواغث الهوى والشبهات فقال الله سبحانه في كتابه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: 119] "فالإنذار هو الموعظة، وإنما اقتصر عليه لأنه أهم، لأن التخلية مقدمة على التحلية، ولأنه ما من إرشاد إلى الخير إلا وهو يشتمل على إنذار من ضده. ويدخل في معنى الإنذار تعليم الناس ما يميزون به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ وذلك بأداء العالم بث علوم الدين للمتعلمين"³.

فاجتماع قواعد نظام الشريعة في بوتقة المقاصد المرعية من حيث طلب الكفاءة الدينية في تكميل معنى الكرامة الإنسانية المنضبطة بمقام التقوى في ضابط المعاملات والتصرفات، وليس دون هذه الفلسفة القيمية نظام غير الشريعة الإسلامية الحافظة للتمدن والعمران والحضارة. لأنها تمتلك من البراهين لإصلاح النفوس، وتتشوف تحقيق عبوديتها وتصحيح ديانتها للواحد الأحد سبحانه وتعالى، فالشريعة الإسلامية "لها من الأسرار التي تتعلق بسياسة النفس وصلاح الفرد الذي يلتئم منه المجتمع"⁴.

ولن يصلح كلاهما إلا إذا أسند الأمر إلى الحكمة والرحمة وسنن الهداية، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 52]. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111]. وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89].

وقد اقترنت جميعها بالموعظة الحسنة وتهذيب النفوس على الكمالات، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ

1 المصدر السابق لابن عاشور (01 / 228).

2 المصدر نفسه لابن عاشور (19 / 59).

3 المصدر نفسه لابن عاشور (11 / 62).

4 ينظر: مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور (3 / 29).

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿يونس: 57﴾. مما يدل على اعتبار مقصد "قهر النفس عن الجنوح إلا ما لا يحل، وإرسالها بمقدار الاعتدال فيما يحل، وذلك راجع إلى ما ينشأ من الأفعال من جهة تلك الأوصاف مما هو داخل تحت الاكتساب"¹.

مع لفت الانتباه أن مقصد قهر النفوس حتى تكون مطيعة للمعبود سبحانه، لا يلزم منه قصد المشقة والعنت، قال الشاطبي: "إن الشارع لم يقصد إلى التكاليف بالمشاق الإعانات فيه -ثم أورد بعض الأدلة النقلية، ثم قال:- "ولو كان قاصدا للمشقة لما كان مريدا لليسر ولا للتخفيف، ولكن مريدا للحر والعبس، وذلك باطل". -ثم استدل بمشروعية الرخص-، فقال: "فإن هذا نمط يدل قطعاً على مطلق رفع الحرج والمشقة، وكذلك ما جاء من النهي عن التعمق والتكلف والتسبب في الانقطاع عن دوام الأعمال، ولو كان الشارع قاصداً للمشقة في التكليف، لما كان ثم ترخيص ولا تخفيف"².

قلت: وكل ذلك مندرج تحت مقصد الامتثال حيث تعبدنا الله تعالى بتحكيم سنته وتقديمها على أي معرفة أو نهج تفكير، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

قلت: هذا كله من أثر التفكير المستنير، الذي ينتج فعلاً صالحاً، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10]، أي عرف الإنسان الخير والشر، وما يأتيه من فعل حسن أو قبيح إنما هو تبع لمعرفته وعقيدته. وهو ظاهر من ذكره بعد هذا الامتنان اقتحام الأعمال الصالحة في قوله تعالى: ﴿فَكَ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ [البلد: 13-17]. فجعل سلوكه سبيل الخير والنجاة بسبب صحة إيمانه، قال أبو حيان: "لأنه لا بد أن يسبق تلك الأعمال الحسنة الإيمان، إذ هو شرط في صحة وقوعها من الطائع"³.

ولما كان لزوم عتبة التقوى والإيمان هما منارة الصلاح في الأرض وتزكية النفوس العامة، فقد "رسم لإصلاح الأعمال مقامين:

المقام الأول: التحذير مما يفيت المصالح الأكيدة ويجلب المفسدات للعامل وغيره.

والمقام الآخر: التحريض على الاستكثار من جلب المصالح ومن إبطال المفسدات للعامل وغيره"⁴.

1 الموافقات للشاطبي (2/ 175).

2 المصدر نفسه للشاطبي (2/ 210-212).

3 البحر المحيط في التفسير لابن حيان [حققه صديقي جميل، دار الفكر، بيروت، دط/1420هـ] (10/483).

4 أصول النظام الاجتماعي في الإسلام لابن عاشور (ص68).

ولعل أقرب آية يستدل بها على هذا المعنى من حيث جلب أثر الباطني إلى تصحيح الظاهر، قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: 157]، فكل من تناول المعروف والطيبات إنما منبعه من حصول ما تدركه النفوس إدراكا مستقيما، وفيه إشارة إلى حصول تركية النفوس بما تحفظه من المصالح المنوطة بمقاصدها في واقع التخاطب والتكليف. بعيدا عن كل الفلسفات الإجرائية والنظريات الاجتماعية المحدثة مما تمخض عن التجارب والملاحظات وقراءة العينات، وهذا يتضح لكل باحث بمقدار غوصه في شواهد العقل وقضايا الحكمة التي تدل بالقطع واليقين على أن أجمع وأبين الأواصر والجوامع الإنسانية هي أصرة الدين الإسلامي الذي هو مجموع التفكير الصحيح والعلم الصالح، لذلك تكرر نداء (الذين آمنوا) في القرآن كثيرا، حتى يستجيبوا ويجتمعوا على منابر الحق والهدى والبرهان، تحت قاعدة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)¹، إذ إن أخص الأوصاف بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد بينه الله تعالى فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 157]، ولقد صدق الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في وصفه لحال دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، بقاعدة معيارية عظيمة بأنه صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر، فقال رضي الله عنه بلفظه: "إذا سمعت الله يقول يا أيها الذين آمنوا فارعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شرتني عنك"².

قلت: ومما يتفرع على هذا الوصف الرباني للدعوة الإصلاحية النبوية، يجدر بنا التنبيه إلى مهمة جليلة، وهي أن من لازم تحقيق الصلاح والمحافظة على جريان مقاصد الشريعة على بابها، لزوم إنكار المحدثات في الشرع التي تحدث أثارا نفسانية وتكدر صفو الضمائر حتى تلزم أصحابها بتقليدها حتى كأنهم قد أشربوها كما في التعبير القرآني: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: 93] أي: "تداخلهم حبه ورسخ في قلوبهم صورته، لفرط شغفهم به، كما يتداخل الصبغ الثوب، والشراب أعماق البدن"³. هذا عين إلقاء النفس في التهلكة ومجانبة الإحسان واقتحام عقبة المضار والتربص بالظنون في الأوهام والتخرص في المفاهيم

1 قال العلامة الشاطبي في الموافقات (1/ 374): "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فإنه أمر مشروع لأنه

سبب لإقامة الدين، وإظهار شعائر الإسلام، وإخماد الباطل على أي وجه كان". وينظر منه في: (1/ 501).

2 نقلا من: تفسير القرآن العظيم لابن كثير [حققه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي ببيضون - بيروت، ط 01/ 1419 هـ] (3/ 438).

3 أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (1/ 94).

والمقالات¹ حتى ترجع للناس نزعة الجاهلية، والله المستعان.

ومن ملاك صلاح العمل بعد ذلك أن يتوسل فيه بأمور أجلها²: حسن النظام والتدبير والتسيير وحفظ التوقيت وترك الكلفة والمبادرة والإتقان مع انبعاث إلى العمل بثقة وأمانة، والشاهد عليه من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 46]، قال ابن كثير: "فهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات"³. وفي قصة طالوت لما ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: 249]، وهم الذين ثبتوا معه، ولحسن ظنهم برهم جاءت العزيمة التي أثمرت نجاحهم حيث قال تعالى: ﴿فَهَرَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 251]. وهذا مؤشر مهم على عمل الجماعة المشترك واتحاد المقاصد الحسنة والأهداف النبيلة.

المطلب الثالث: ضرورة الوعي الجماعي والجامعي ومقدراته في الإصلاح الاجتماعي:

تشرئب هم المصلحين في الأمم إلى تحقيق النظم القومية والسبل الرشيدة والمناهل الحكيمة للنهوض بجانب أممهم وتحصيل ما يناسب قواهم ويحقق أمن غذائهم ومعاشهم، وهذا الجانب محمود لكن ينقصه تحرير العباد من رق العبودية للوثنية والسفسطة والخرافة والشوائب الأغلاط الفكرية الناتجة عن زخارف الأقوال واستحكام الأوهام، ولذا كان من حظ مصلحي الأمة الإسلامية اعتبار القيم والتربية والحث على العلوم النافعة أول معالم التجديد والإصلاح.

ولما كان هذا أعلى المقامات ولا بدن سعوا في التعويل على محصلات الفهم واستثمارها في وعي الأمة على سبيل الجملة، حتى تكون أمة متماسكة قوية مرهوبة الجانب، ولعل أبسط مثال في الاستصلاح الرباني الذي يقيم بين الجماعة حق المساواة وتحقيق التعاون الأمر بالإنفاق، الذي هو من أعظم المقاصد الخاصة إثمارا للصالح الاجتماعي في معناه الإجرائي المسمى في معنى الجماعة والجامعة. قال الله تعالى: ﴿وَأَبِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: 26]. يقول العلامة ابن باديس في تفسير الآية: "فإذا تواردت أفراد المجتمع على هذه التأدية، سعدت وسعد مجتمعنا بنيله حاجيات الحياة، ولوازم البقاء والتقدم في العمران. أما إذا توانى الأفراد في القيام بالحقوق وقصروا في تأديتها إلى بعضهم، فإن الحاجة المشتركة من العلم والثقافة وحفظ الصحة والأخلاق

1 نبه الشيخ ابن عاشور في كثير من المواضع من كتابه أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، أن من تمام الإصلاح اجتناب عقائد أصحاب مقالات: القدر والجبر والإرجاء والخوارج. لما فيها من المفاصد العلمية والعملية وما ينبني عليها من الآفات الاجتماعية، وجعل أن امتلاك مدارك الحق في العقيدة الإسلامية منة من الله تعالى.

2 أصول النظام الاجتماعي في الإسلام لابن عاشور (ص 77-78).

3 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (1/ 157).

وأنواع الصناعة- تتعطل، وبتعطّلها يختل نظام الاجتماع ويعود إلى الانحلال والتقهقر، وينحط بأفراده إلى أسفل الدركات، فلهذا بعد ما أمر الله تعالى بإيتاء حقه- وهو توحيدته في عبادته- أمر بإيتاء حقوق العباد، القريب منهم والبعيد¹.

وعليه فقس باقي الأوامر المصلحة للعلاقات بين الأفراد وانتظام جماعتهم، وخاصة ما تعلق منها بـ"توفير المال للأمة والاقتصاد لأجله"²، فأضحي الحال هذه أن من مهمات المنافذ الإصلاحية في الواقع باعتباره من أهم المقاصد التي يراد من خلالها تهيئة إقامة الشريعة وتنفيذها وعمومها في الأمة، وذلك يرجع إلى مقصدين اثنين:

أعظمهما: مقصد دعوة الإسلام وعمومه لسائر البشر وتكثير سواد أتباعه بقدر الإمكان، وتسهيل الدخول فيه على راغبه قصد تعميمها على كافة العقول الواعية والقلوب العارفة، اعتبارا بمنزلتين: الأولى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256]، والثانية: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]. ولذا كان من دخله وخالطت بشاشته قلبه أفنى نفسه وماله في نصرته حتى تكون كلمة الله هي العليا. وعلة صلاح هذه الدعوة لما بنيت على وسائل شرعية نحو: التيسير والرفق ورفع الحرج والحذر من الشدة والغلظة وما يستلزم التنفير عنه، كل ذلك تمهيدا لتأسيس جامعة إنسانية يسودها نظام وحكم وسياسة تضحي بها مهروبة الجانب بين الأمم³، هذا متى تم احترام النظام وتم تفعيل أصوله التي انبنت عليه الجامعة⁴.

وقد نبه الله تعالى على ذلك في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، وحتى تمكن هذه الخيرية في الواقع لا بد من التوسل إلى قيام الجامعة وتحصيل قوتها بجملة من المقاصد يتذرع بها إلى فهم مقصود الشرع من وضع النظام والحكم بكل مصلحة تؤم معاني الأخوة والتآزر والتآخي وحفظ حيي الجماعة، النهي عن كل مفسدة تفضي إلى التقاطع والتدابير والتفرق وشق عصا المسلمين⁵. ولقد أحسن ابن عاشور في قوله: "فإذا ارتاضت نفوس الأمة على التخلق بالأخوة بينهم

1 تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير لابن باديس [حققه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان ط01/1416هـ] (ص: 79).

2 ينظر لذلك: أصول النظام الاجتماعي لابن عاشور (ص 197-205).

3 وضع ابن عاشور فصلا مهما في كتابه (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) (ص 122-205) بعنوان: "أصول نظام سياسة الأمة"، وقسمها إلى فنين:

- الأول: ما تعلق بالقوانين الضابطة للتصرفات، والتي رأسها مكارم الأخلاق والانصاف والمروءة.

- والفرن الآخر: ما جمع القوانين التي بها رعاية الأمة في مراتب الكمال، والذي رأسه تحقيق المساواة والعدل وتوفير المال وحماية البيضة.

4 ينظر: المرجع السابق لابن عاشور (ص 151).

5 المرجع نفسه لابن عاشور (ص 114-115).

سهلت على الشريعة سياستهم، وإنما تتراض النفوس على الأخوة بتكرير غرسها فيعا بتأكيد الدعوة إليها واجتثاث ما ينافيها¹. ودلائل هذه العبارة مكنونة بدقيق الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]. ولذلك جاء في شرعنا سن أحكام من شأنها "تطهير الجامعة من عروق الأدواء المهلكة"².

- وأما المقصد الآخر فهو: التعويل على النصوص الشرعية³. و"بثُ علومها، وتكثيرُ علمائها وحملتها⁴. وذلك فرض كفاية على الأمة بمقدار ما يسد حاجتها ويكفي مهماتها في سعة أقطارها وعظمة أمصارها. وقد استودع الله هذه الأمة كتابه مشتملاً على شرائع عظيمة تأصيلاً وتفريعاً. والرسول عليه الصلاة والسلام أمر أمتَه في مشاهد كثيرة بأن يبلغ الشاهد الغائب، وحث من يسمع مقالته على أن يعيها ويؤديها كما سمعها"⁵.

ومما يعطي لهذين المقصدين البعد الميداني تطبيق تعاليم الشريعة وإظهار علومها، حتى يتحقق بتنفيذها إيقاعُ حرمتها في نفوس الأمة، وتجعل طاعتها منبعثة عن اختيار. لا مندوحة فيها للظلم ولا للاحتقار ولا الاستخفاف بالحقوق، وقد أطال النفس في هذا المعنى العلامة ابن خلدون في فصل وسمه بقوله: (الظلم مؤذن بخراب العمران)، حيث قال: "اعلم أن العمران على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يروونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها، انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك.. فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران، وانتقضت الأحوال وابتدعَ (أي تفرقوا) الناس في الأفاق من غير تلك الإيالة (إقليم أو جهة) في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخف ساكن القطر، وخلت دياره، وخربت أمصاره، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان، لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة .. [إلى قوله رحمه الله] .. واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري، وهي الحكمة العامة المراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة، من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال. فلما كان الظلم كما رأيت مؤذناً بانقطاع النوع لما أدى إليه من تخريب العمران، كانت حكمة الحظر فيه

1 المرجع نفسه لابن عاشور (ص 121-122).

2 المرجع نفسه لابن عاشور (ص 171).

3 قال العلامة ابن الحاج في المدخل (1/ 90): "المقصود من القرآن إنما هو ما يؤخذ من أحكامه ومعانيه وذلك في مجالس العلماء وتلاوته باللسان فرع عن هذا الأصل المقصود".

4 لابن عاشور في كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية تحريض على الاجتهاد الجماعي ولزومه في العلماء الأمة على جهة الكفاية، لما فيه من النفع الكثير والخير العظيم الذي يعود على الأمة باستقرار أمرها وفكرها (3/ 395).

5 ينظر: المرجع نفسه لابن عاشور (3/ 520).

موجودة، فكان تحريره مهماً. وأدلته من القرآن والسنة كثيرة أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصص¹.

الخاتمة

تناول هذا النمط من الدراسات القرآنية يعطي للعقل فسحة تخامر فيها مقررات العلوم الشرعية مع تلاقي العلوم المدنية، فيشتركان في تحصيل المصالح الشرعية المستنبطة نظرياً من هدايات النص القرآني، ثم ربطها بتوصيل معالم توظيف تنزيلها على مسببات الأحوال ومقتضيات الأعمال وربطها بالنظم الحضارية، حتى تنبثق منها جملة من النظريات الشرعية التي تقيم في معقولات النظر معنى استخلاف الإنسان وإقامتها إقامة صالحة تدور حيث دارت المصلحة الشرعية والحكمة المرعية وفق مقارنة معرفية في حقل استصلاح الجامعة الإنسانية.

فلزم طرح المباحثات وفق جملة من المعطيات الفكرية تفعيلاً لمعاقد العلوم الشرعية الأصلية وفق معيارية مقاصدية رصينة القانون متينة العيون، حيث يُجعل رأس الأمر في أولى عتبات الاجتهاد والنظر: تقرير المصالح وإقامة الحقوق بلا تخصيص وسد ذرائع الفساد وعموم سلبه بلا تخصيص، فتكون مناهلاً عاماً للتشريع وكلية مطردة في التفرع حال توظيف تنزل النص القرآني بالخصوص، مع لزوم الحذر والتريث والسلوك بالأمة على متن الرحمة والمسامحة وغيرها من المحاسن والوسائل والمقاصد.

وهذا تمام القصد والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد الأمين وآله وصحبه أجمعين.

قائمة المصادر والمراجع

- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، دار الغرب الإسلامي. الطبعة: الأولى، 1997م.
- إحياء علوم الدين للغزالي، دار المعرفة - بيروت، دط/د.
- آراء ابن الجوزي التربوية "دراسة وتحليلاً وتقويماً ومقارنة" لليلى عبد الرشيد عطار، منشورات أمانة للنشر، ميريلاند- الولايات المتحدة الأمريكية، ط1419/01 هـ.
- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام لمحمد الطاهر بن عاشور. المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر و الشركة التونسية للتوزيع - تونس - دط - هـ.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للأمين الشنقيطي ، دار الفكر، بيروت - دط/1415 هـ.
- الآثار لابن باديس ، حققه عمار طالي، مكتبة الشركة الجزائرية. ط1388/01 هـ.
- الاعتصام للشاطبي، حققه سليم الهلالي، دار ابن عفا، السعودية. ط1412/01 هـ.
- البحر المحيط في التفسير لابن حبان ، حققه صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، دط/1420 هـ.
- التحرير والتنوير لابن عاشور ، الدار التونسية للنشر - تونس - دط/1984 هـ.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش - دار الكتب المصرية- القاهرة.

1 مقدمة ابن خلدون (477/1).

ط02/1384هـ

- الفروق للقرافي ،عالم الكتب. دط/دت.
- القرآنيون العرب وموقفهم من التفسير "دراسة نقدية"، لجمال بن محمد هاجر ، دارالتفسير، م، ع، السعودية، ط01/1436هـ.
- القواعد لأبي عبد الله المقرئ ، حققه محمد الدردابي – دارالأمان بالمغرب : 2012.
- القواعد للمقري. حققه أحمد بن حميد، جامعة أم القرى –م/ع/السعودية. دط /دت.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ، حققه عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت . ط01/ 1422 هـ
- المدخل الفقهي العام لمصطفى أحمد الزرقا ، دار القلم، دمشق، ط01/1418هـ.
- المدخل لابن الحاج ، دار الفكر، دط/1401هـ
- الموافقات للشاطبي، حققه مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان. ط01/1417هـ.
- أليس الصبح بقريب التعليم العربي الإسلامي لابن عاشور، دار سحنون، تونس، دار السلام، مصر، ط 01/2006م.
- تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير لابن باديس ، حققه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان. ط01/1416هـ
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، حققه: محمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01/ 1419 هـ.
- تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط/1990م.
- حاشية البناني على شرح المحلى على جمع الجوامع، مصطفى الحلبي، مصر ط 1349/1 هـ
- سبل الاستفادة من النوازل والفتاوى والعمل الفقهي في التطبيقات المعاصرة لوهبة الزحيلي ، دار المكتبي، الطبعة الأولى، 1421هـ.
- صحيح مسلم ، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، دط/دت
- مجموع الفتاوى لابن تيمية ، طبعة الباز والجزار، دار الوفاء. ط01/1426هـ.
- مفاتيح الغيب للرازي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط03/1420هـ
- مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور ، حققه محمد ابن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، دط/1425هـ
- مقاصد القرآن من تشريع الأحكام لعبد الكريم حامدي دار ابن حزم، بيروت، ط01/1429هـ.
- مقدمة ابن خلدون، حققه عبد الله الدرويش، دار يعرب ط01/2004م.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية لابن تيمية ، المحقق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى/1406هـ
- نبراس الوصول إلى منارة المقاصد الإلهية وتحصيل هدي الرسول (صلى الله عليه وسلم) لقبلي بن هني، دار الضعي بالجلفة الجزائر - الطبعة الأولى، 1440هـ.

التنزيل المقاصدي للآيات ضبطا وتقويما - دراسة في موافقات الشاطبي -

د/زيان سعيدي

قسم الشريعة-كلية العلوم الإسلامية - جامعة الوادي
saidi-ziane@univ-eloued.dz



ملخص

يعالج هذا البحث أثر توظيف المقاصد في العملية التنزيل عند واحد من أهم رواد الفكر المقاصدي وهو الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى، بدءا من تحرير مفهوم التنزيل وبيان موقعه ضمن منظومة الاجتهاد والتعامل مع النصوص بشكل عام، مع تجلية ضابطة المقاصد وحاكميتها على سلامة عملية تنزيل الآيات على الواقع. ويهدف البحث بالأساس إلى بيان موقع استثمار المقاصد عند عملية التنزيل لتحديد إطار مرجعي عام لتفسير القرآن وتنزيل آياته على الواقع. وكان من أهم ما توصل إليه البحث عدم تصور الانفكاك بين المقاصد وبين حضورها في عملية التنزيل تطلبا لسلامة التنزيل وترتب آثاره.

مقدمة

يعتبر العمل التنزيلي للنصوص على الواقع أحد أهم فروع الاجتهاد، وخلاصة النظر العميق، والتدبر الدقيق لمعاني هذه النصوص.

ولما كان القرآن هو المصدر التشريعي الأول الذي تدور حوله سائر المصادر وترجع إليه باقي الأدلة، لذا كان حتما على كل مسلم وخاصة أهل العلم والاجتهاد - أن يكون دائم الصلة بالقرآن على مستوى الفهم والتدبر وعلى مستوى التطبيق والامتثال.

وإن من حسن الصلة بالقرآن استنطاق آياته وتنزيلها على الواقع، لأن تنزيل الآيات لا يقل أهمية عن تفسيرها وبيان معانيها. بل إن تنزيل الآيات على الواقع يعتبر منهجا من مناهج تفسير القرآن، وتعميق الصلة بما جعله الله هداية وشفاء للناس.

ولما كانت المقاصد القرآنية هي الضابطة لحركة الاجتهاد استنباطا وتنزيلا، فإنه على ضوءها يرتسم الإطار الكلي وتحدد المرجعية العليا الحاكمة على كل عمل يتصل بالشريعة بما فيها العملية التنزيلية.

وأهم ضمانات منهجية وموضوعية في اعتقادي لضبط عملية تنزيل الآيات على الواقع وتقويمها، هو ربطها بالكليات المقاصدية القرآنية. ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتصور تنزيلا للآيات مع إهمال للمقاصد، لأن القرآن في تصور علماء الشريعة ما هو إلا كتاب

مقاصد، بل كتاب المقاصد الأول، ومعظم مقاصده كما قال العزرحمه الله: "الأمر باكتساب المصالح وأسبابها والزجر عن اكتساب المفسد وأسبابها".¹

ولما كان الشاطبي أحد أقطاب هذا العلم، فقد كانت له عناية بربط الاجتهاد التنزيلى للنصوص-وفي مقدمتها القرآن- والأحكام بمقاصد القرآن ووكلياته. بل عمل على تجلية ضرورية العلم بالمقاصد لسلامة التنزيل بعيدا عن التنزيل الآلي والميكانيكي (الحرفي الظاهري) للآيات دون وعي بالمقاصد وإدراك للمآلات.

لذا فإن هذا البحث يحاول تسليط الضوء على أثر المقاصد وأهمية ربطها، بتنزيل الآيات من خلال موافقات الشاطبي، لما لهذا الكتاب من عناية بالمقاصد وتقعيد لها. فكان عنوان البحث: "التنزيل المقاصدي للآيات ضبطا وتقويما. دراسة في موافقات الشاطبي". إشكالية البحث:

يمكن صياغة إشكالية البحث في التساؤل التالي:

أي دور للمقاصد في ضبط عملية تنزيل الآيات على الواقع؟

ويتفرع عنها: -ما علاقة المقاصد بالقرآن الكريم وأي بعد لها في ضبط العملية التنزيلية لآياته؟

-ما موقع استثمار المقاصد عند عملية التنزيل ضمن المنهج العام لتفسير القرآن؟

أهمية البحث:

تتجلى أهمية البحث في النقاط التالية:

1-ارتباطه بالمقاصد وأهمية استحضارها عند استنطاق الآيات فهما وتنزيلا.

2-سلامة التنزيل مرتبطة بمدى الالتزام بالإطار المرجعي للتعامل مع القرآن المتمثل في مقاصد القرآن ووكلياته.

3-أهمية الربط بين القرآن والمقاصد للعلاقة القوية بينهما.

أهداف البحث:

يروم البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف:

-الكشف عن أهم المرتكزات التي يتوجب على المفسر أو الناظر في القرآن العناية بها عند تنزيل الآيات على واقعه.

-تحقيق التناغم بين تنزيل الآيات باعتباره غرضا علميا وشرعيا للمفسر وبين روح الإسلام وأسرار شريعته.

¹ القواعد للعز

-الربط بين العملية التنزيلية للآيات وسائر العلوم الشرعية الأخرى كعلم التفسير والأصول والفقه ونحوها.

-الوقوف على المعنى السليم للآية ومدى تحقيقه للمصلحة عند تنزيله الآيات على الواقع.

خطة البحث:

وُزعت مضامين هذا البحث عبر ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ضبط مصطلحات البحث وتحريم مفهوم التنزيل عند الشاطبي. وفيه مطلبان: المطلب الأول: ضبط مصطلحات البحث، والمطلب الثاني: تحريم مفهوم التنزيل عند الشاطبي من خلال كتابه الموافقات.

المبحث الثاني: علاقة المقاصد بالقرآن وأهمية استحضار البعد المقاصدي في تنزيل الآيات. وفيه مطلبان: المطلب الأول: علاقة المقاصد بالقرآن، والمطلب الثاني: أهمية البعد المقاصدي في عملية التنزيل.

المبحث الثالث: آليات ضبط تنزيل الآيات على الواقع وحاكمية المقاصد. وفيه مطلبان: المطلب الأول: الآليات الضابطة لعملية تنزيل الآيات على الواقع، والمطلب الثاني: حاكمية المقاصد في عملية التنزيل.

المبحث الأول: ضبط مصطلحات البحث وتحريم مفهوم التنزيل عند الشاطبي

إن مصطلح التنزيل من المصطلحات المتداولة في مصنفات العلماء وبالأخص المصنفات الأصولية منها، وغالبا ما يدور معناه حول حمل النص على معنى من المعاني أو إسقاطه على واقعة معينة بشروط محددة. وقد كان للإمام الشاطبي استعمال بارز لهذا المصطلح في كتابه الموافقات. وفيما يلي عرض لمعاني التنزيل وضروب استعماله لدى علماء الشريعة وتحريم مفهومه لدى الشاطبي.

المطلب الأول: ضبط مصطلحات البحث

تدور مصطلحات البحث على مصطلحي التنزيل والمقاصد إفرادا وتركيبا، وسوف نحدد المعنى الإفرادي لكل من المصطلحين ثم نعرض على المفهوم التركيبي لها التنزيل المقاصدي.

أولا/ تعريف التنزيل: 1-تعريفه لغة: التنزيل، مصدر نَزَلَ ينزِلُ، ونَزَلَه تنزيلا، وأنزله إنزالا ومنزلا، واستنزله بمعنى واحد. والتنزيل الترتيب، واستنزل فلانا أي حط من مرتبته. والنازلة الشديدة من شدائد الدهر تنزل بالناس. ففيها معنى السقوط والفعل منه الإسقاط. والتنزيل ترتيب الشيء ووضعه منزله.²

² مختار الصحاح. ص 308، تاج العروس 30/478، معجم مقاييس اللغة 5/417

وعلى هذا، فإن المعاني اللغوية التي يدور حولها مصطلح التنزيل هي: الترتيب ووضع الشيء في منزله، والشدة من شدائد الدهر التي تحتاج في نزولها إلى تدبير وتقدير.

2-التنزيل اصطلاحاً: لقد سبق وأن أشرت في مقدمة هذا المبحث، أن مصطلح التنزيل من المصطلحات المتداولة لدى فقهاء الشريعة وعلمائها على تنوع اختصاصاتهم وعلومهم. وقد ورد هذا المصطلح في النصوص الشرعية مراداً به نزول القرآن الكريم، وأصل معناه الانحطاط من علو. يقول تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: 2] وقوله تعالى: "ونزلناه تنزيلاً" والمراد هنا فعل التنزيل. كما يطلق التنزيل ويراد به القرآن بمعنى المنزل. فيقال: جاء في التنزيل أي في القرآن المنزل. فهو من إطلاق المصدر مراداً به اسم المفعول.³

ومن استعمال علماء الشريعة لمصطلح التنزيل، استعمالهم له في العملية الفنية التي تعني الإسقاط وإحلال النص في محله المناسب وموضعه الملائم له وحمله على معناه. ومن عبارات العلماء التي تشهد بهذا الاستعمال لمصطلح التنزيل، عبارة ابن القيم: "والفقه تنزيل المشروع على الواقع".⁴ وفي أحكام الأمدي ما نصه: "قوله تعالى: ﴿يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ صيغة إخبار لا صيغة أمر، وذلك لا يدل على وجوب اتباعها، وبتقدير أن يكون ذلك أمراً فيجب حمله على ما هو مشترك الوجوب بين جميع الأنبياء، وهو التوحيد دون الفروع الشرعية المختلف فيها فيما بينهم لإمكان تنزيل لفظ النبيين على عمومهم بخلاف التنزيل على الفروع الشرعية".⁵

وفي البحر المحيط للزركشي: "ثالثها التنزيل على بعض الأحوال على الإطلاق ومراده الحمل على بعض الأحوال".⁶

وللإمام الشاطبي استعمال غير قليل للتنزيل في معنى الحمل والحلول والإسقاط. فمن ذلك قوله: "وبيان ذلك أن الدليل المأخوذ بقيد الوقوع معناه التنزيل على المناطق المعين".⁷ وفي موضع آخر يقول: "فالحاصل أن الشارع حكم على أفعال المكلفين مطلقة ومقيدة، وذلك مقتضى إحدى المقدمتين وهي النقلية، ولا ينزل الحكم بها إلى على ما تحقق أنه مناط ذلك الحكم على الإطلاق أو على التقييد، وهو مقتضى المقدمة النظرية، والمسألة ظاهرة في الشرعيات".⁸

³ إعلام الموقعين 3/367، الموافقات 3/406

⁴ زاد المعاد 5/422

⁵ الإحكام في أصول الأحكام 4/147

⁶ البحر المحيط 8/149

⁷ الموافقات 3/292

⁸ المصدر السابق 3/233

وغير بعيد عن هذا الاستعمال لمعنى التنزيل عند المتقدمين -غير المعاصرين- من العلماء استخدم هذا المصطلح مراداً به نقل المعنى الشرعي. والمراد من النص التشريعي من المفهوم التجريدي إلى الواقع العملي، فهو بهذا المعنى مرحلة تالية لمرحلة تفهم النص واستنتاج معناه، ثم إخضاع الواقع لحكم النص وتطبيق معناه عليه.

ومن التعريفات التي ننقلها في هذا السياق تعريف الدكتور عبد المجيد النجار: "ونعني بالتنزيل صيرورة الحقيقة الدينية التي وقع تمثيلها في مرحلة الفهم إلى نمط عملي تجري عليه حياة الناس في الواقع".⁹

ثانياً/ مصطلح المقاصد:

1- تعريف المقاصد لغة: المقاصد جمع مقصد والمقصد مصدر ميمي مأخوذ من الفعل قَصَدَ يقال: قَصَدَ يَقْصِدُ قَصْداً ومقصداً من باب ضرب. ولهذا الفعل عدة معان في اللغة: -الاعتماد والأَمُّ وإتيان الشيء والتوجه نحوه: تقول: قصده وقصد له وقصد إليه، إذا أَمَّه.

-استقامة الطريق: ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ سَأَلَ لَهْدَنُكَ

أَجْمَعُونَ﴾ [النحل:9]

قال ابن جرير: "والسبيل: هي الطريق، والقصد من الطريق: المستقيم الذي لا اعوجاج فيه"

-العدل والتوسط وعدم الإفراط: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: 19] وأليق هذه المعاني وأقربها مناسبة للمعنى الاصطلاحي هو المعنى الأول: الأَمُّ والاعتماد وإتيان الشيء، مع أن المعنى الثاني والثالث لا يخرجان أيضاً عن المعنى الاصطلاحي.

2- تعريف المقاصد اصطلاحاً: إن المتأمل في أغلب تعريفات الباحثين المعاصرين المهتمين بالدراسات المقاصدية يجدها لا تكاد تخرج في مجملها عن تعريف ابن عاشور وعلال الفاسي رحمهما الله تعالى مع تغيير بسيط وتعديل طفيف في العبارة هنا أو هناك. وإلا من حيث الجملة، فإن تعريف الشيخين يعتبر أساساً لهذه المحاولات في تعريف المقاصد. ومن هذه التعريفات:

* تعريف الريسوني: "مقاصد الشريعة هي الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد"⁽¹⁰⁾

⁹ في فقه التدين فهما وتنزيلاً. 15/2

¹⁰ نظرية المقاصد عند الشاطبي. ص 07

ثالثاً/ مفهوم التنزيل المقاصدي: بعد ما تبين لنا حقيقة مدلول مصطلح اللفظين، التنزيل والمقاصد، نأتي على محاولة تعريف المصطلح المركب منهما، فأقول: إن مبنى المقاصد على اختيار المصالح إبقاء وتحصيلاً وعلى المفاسد درءاً ودفعاً. ولأن المصالح لها أثر في تحديد المعنى وضبطه، باعتبارها القبلة التي توجهت إليها إرادة الشارع، لذا لا بد من ظهور أثرها في عمليتي الفهم والاستنباط كمرحلة أولى، ومرحلة التنزيل والتطبيق كمرحلة ثانية. لهذا يمكن القول في تعريف التنزيل المقاصدي بأنه: "الاجري على المصالح التي رامت الشريعة تحقيقها عند نقل النص الديني أو الحكم الشرعي من مرحلة الفهم والاستنباط إلى مرحلة التطبيق والامتثال".

ومعنى هذا وجوب استحضار النظر المقاصدي المبني على رعاية المصالح والمفاسد في جميع مراحل التعامل مع النص الديني قرأنا وسنة للوصول إلى ملائمة التطبيق والتنزيل لمقاصد الشارع وأغراضه من التشريع. وهذه الملائمة بين المقاصد الشرعية والعملية التنزيلية مما تتأكد معها حاكمية المقاصد القرآنية عند عملية تنزيل الآيات على الواقع والمقاصد النبوية عند عملية تنزيل الأحاديث على الواقع، وهما عند عملية تنزيل المجتهد للأحكام الشرعية على الواقع.

المطلب الثاني: تحرير مفهوم التنزيل عند الشاطبي من خلال كتابه الموافقات

أولاً/ موجز عن الشاطبي وموافقاته:

غني عن البيان التعريف بالإمام الشاطبي وكتاباه العجائب في بابيه، الموافقات. فالشاطبي هو الإمام المحقق العلامة القدوة الحافظ الجليل المجتهد، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المعروف بالشاطبي من أعيان المائة الثامنة (ت790هـ). وقد أثنى عليه العلماء ثناء كبيراً يدل على علو كعبه في العلم وتفرد في تحقيق مسائله العقلية والشرعية أصولاً وفروعاً في شتى العلوم. يقول عن نفسه رحمه الله تعالى: "وذلك أني والله الحمد لم أزل منذ فتق للفهم عقلي، ووجه شطر العلم طلي أنظر في عقلياته وشرعياته، وأصوله وفروعه، لم أقتصر منه على علم دون علم، ولا أفردت عن أنواعه نوعاً دون آخر، حسبما اقتضاه الزمان والمكان، وأعطته المنّة المخلوقة في أصل فطرتي، بل خضت في لججه خوض المحسن للسباحة، وأقدمت في ميادينه إقدام الجريء.... إلى أن قال: فابتدأت بأصول الدين عملاً واعتقاداً، ثم بفروعه المبنية على تلك الأصول".¹¹

أما عن كتابه الموافقات فهو فريدة عصره وخريدة مصره، يقول عنه التنبكتي: "جليل

¹¹ الاعتصام 32/1 انظر في ترجمته: نيل الابتهاج للتنبكتي ص47، الإفادات والإشادات لأبي الأجفان. ص163 وما بعدها.

القدر جدا لا نظيره يدل على إمامته وبعد شأوه في العلوم سيما علم الأصول.¹²

ومن أحسن ما قيل في بيان منزلة الكتاب، ما قاله محققه عبد الله دراز من اتخاذ هذا الكتاب منارا للمسلمين بتقريره بين العلماء، وإذاعته بين الخاصة؛ لكان منه مذبة تطرد أولئك الأدعياء المتطفلين على موائد الشريعة المطهرة، يتبحرون بأنهم أهل للاجتهاد مع خلوههم من كل وسيلة، وتجردهم من الصفات التي تدنيهم من هذا الميدان؛ سوى مجرد الدعوى، وتمكن الهوى، وترك أمر الدين فوضى بلا رقيب.¹³

وأستعير من هذا الكلام المحقق من المحقق، أن كتاب الشاطبي الموافقات يعتبر بحق أحد المراجع التي تؤصل لعملية الاجتهاد بمعناه الواسع فهما وتنزيلا. وما عنايته بالمقاصد ووجوب استحضارها في كل مراحل النظر والاجتهاد، إلا تأسيس لأصل الاجتهاد الاستنباطي والتنزيلي، وضبط لقواعده وإحكام لوسائله وآلياته.

ثانيا/ تحرير مفهوم مصطلح التنزيل عند الشاطبي:

لقد سقت فيما سبق بعضا من النصوص الشاطبية التي ورد فيها استعمال المصطلح عند الشاطبي، وبعيدا عن معناه العام الذي يراد به النزول فعلا أو التنزيل بمعنى المنزل مفعولا، فإن المعنى الخاص وهو حمل اللفظ على معناه وترتيب الحكم عليه وتطبيقه في خصوص الواقعة، كان له حضور في فكر الشاطبي واستعماله البياني. وباستقراء موارد استعمال هذا اللفظ (التنزيل) بجمع صيغه الاشتقاقية، يمكننا صياغة رؤية شاملة لهذا المصطلح عند الشاطبي. ولأن المعهود من الإمام الشاطبي تركيزه على التأصيل وضبط المصطلحات بدقة بأسلوب التقعيد، فسأحاول ضبط هذا المصطلح من خلال الموافقات تأصيلا وتقعيدا.

1- مرتبة التنزيل ضمن مراتب النظر الشرعي: المتبوع لكلام الشاطبي ضمن منظومة القواعد التي وضعها للتعامل مع النص، يدرك أن مرتبة التنزيل تلي مرتبة استيعاب مدلول النص وتعقل معانيه. فالجهد الذي يبذله الناظر في النصوص الشرعية، منزل أولا في الوقوف على كافة طرق الدلالة على المعاني والأحكام، وتحديد مراد الشارع منه خصوصا إذا كان النص غير مستقل بإفادة المعنى بنفسه، بل بالقرائن المحتفة والأمارات المحيطة بالنص، مع ملاحظة السياق العام لهذه النصوص وأحوال الخطاب من جهة الخطاب نفسه أو المخاطب أو المخاطب. وقد أشار إلى جملة من أدوات الفهم المعينة على معرفة مراد الله تعالى كعلوم العربية وعلم القراءات والناسخ والمنسوخ، وقواعد الأصول وما أشبهها.¹⁴

¹² نيل الابتهاج للتنبكي ص 48

¹³ مقدمة الموافقات. ص 11

¹⁴ الموافقات 198/4

ومن أقوال الشاطبي في هذا: "يلزم أن ينزل فهم الكتاب والسنة، بحيث تكون معانيه مشتركة لجميع العرب، ولذلك أنزل القرآن على سبعة أحرف، واشتركت فيه اللغات حتى كانت قبائل العرب تفهمه."¹⁵

ويقول أيضا: "فالحاصل أن الواجب في هذا المقام إجراء الفهم في الشريعة على وزان الاشتراك الجمهوري الذي يسع الأميين كما يسع غيرهم."¹⁶

ومن العناية باللفظ باعتباره وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، يقول: "فاللزام الاعتناء بفهم معنى الخطاب، لأنه المقصود والمراد، وعليه ينبنى الخطاب ابتداء، وكثيرا ما يغفل هذا النظر بالنسبة للكتاب والسنة، فتلتبس غرائبه ومعانيه على غير الوجه الذي ينبغي، فتستهم على الملتبس، وتستعجم على من لم يفهم مقاصد العرب، فيكون عمله في غير معمل، ومشيه على غير طريق، والله الوافي برحمته."¹⁷

وما هذا الاحتفاء من الشاطبي بمرحلة الفهم لألفاظ الشارع وتعقل معانيها، إلا توفيرا لضمانة أساسية يسلم معها التنزيل لهذه المعاني على الوقائع المختلفة، بحيث يكون منسجما مع مراد الشارع وقصده من التشريع، وهذا ما يوضحه كلامه السابق.

ويشير في موضع آخر إلى أن مرحلة التنزيل تأتي عقب التحقق من المناط الذي علق به الحكم، وهو المعروف بتحقيق المناط، فيقول: "فالحاصل أن الشارع حكم على أفعال المكلفين مطلقة ومقيدة، وذلك مقتضى إحدى المقدمتين وهي النقلية، ولا ينزل الحكم بها إلى على ما تحقق أنه مناط ذلك الحكم على الإطلاق أو على التقييد، وهو مقتضى المقدمة النظرية، والمسألة ظاهرة في الشرعيات."¹⁸

ولأن التنزيل مرتبط بفعل المكلف ويراد به حكم الشرع على فعل المكلف في الواقع أو في الخارج، يقول رحمه الله تعالى: "ولو فرض ارتفاع هذا الاجتهاد لم تنزل الأحكام الشرعية على أفعال المكلفين إلا في الذهن؛ لأنها مطلقات وعمومات وما يرجع إلى ذلك، منزلات على أفعال مطلقات كذلك."¹⁹

2-العوامل المؤثرة في عملية التنزيل: عرض الشاطبي لبيان ما يؤثر في تباين نتائج عملية التنزيل، وهي عوامل راجعة إلى اختلاف محل الأحكام وظروف الواقع وملابساته.²⁰ فاختلاف محل الحكم يلزم منه اختلاف الأحكام من محل لآخر.

¹⁵ المرجع السابق 136/2

¹⁶ المرجع نفسه 138/2

¹⁷ المرجع نفسه 140/2

¹⁸ المرجع نفسه 233/3

¹⁹ المرجع نفسه 17/5

²⁰ سترجن الحديث عن الواقع وظروفه وملابساته وأثره في عملية التنزيل في المبحث الموالي.

والمقاصد التي تبني عليها الأحكام لا يجزم بتحقيقها في كل واقعة، وعليه فإن الحكم يختلف بحسب تحقيق المصلحة من عدمها، وتكون النتيجة اختلاف نتائج التنزيل والتطبيق من محل لآخر. ومن مظاهر الاختلاف في محالّ الأحكام وأحوالها، الاختلاف بين الجزئية والكلية. يقول رحمه الله تعالى: "فيقال في الفرض: إنه يختلف بحسب الكل والجزء، كما تقدم بيانه أول الفصل. وهكذا القول في الممنوعات: إنها تختلف مراتبها بحسب الكل والجزء، وإن عدت في الحكم في مرتبة واحدة وقتاً ما، أو في حالة ما؛ فلا تكون كذلك في أحوال أخرى، بل يختلف الحكم فيها، كالكذب من غير عذر، وسائر الصفات مع المداومة عليها".²¹

ومن الأمثلة التي صرحها الشاطبي: "كالتنزه في البساتين، وسماع تغريد الحمام، والغناء المباح، واللعب المباح بالحمام، أو غيرها؛ فمثل هذا مباح بالجزء، فإذا فعل يوماً ما، أو في حالة ما؛ فلا حرج فيه، فإن فعل دائماً كان مكروهاً، ونسب فاعله إلى قلة العقل، وإلى خلاف محاسن العادات، وإلى الإسراف في فعل ذلك المباح"²²

وقد أصّل الشاطبي لوجهة نظره هذه بحديث معاذ، وفيه: "...لا تبشروهم فيتكلوا..." منها إلى أن الاختلاف في الأحكام يترتب عن الاختلاف في المحالّ، مما يجدر الانتباه إليه وملاحظته في عملية التنزيل.

والخلاصة أن رؤية الشاطبي لعملية التنزيل تركز أولاً على مرحلة قبلية لفهم النص وإدراك معانيه، وهي مرحلة ابتدائية قبل الشروع في عملية التنزيل، ثم مرحلة بعد هذه المرحلة في مراعاة أحوال الأحكام واختلاف محالها والعوامل المؤثرة فيها لسلامة التنزيل وصحة نتائجه بحيث تتوافق مع مقاصد الشريعة.

المبحث الثاني: علاقة المقاصد بالقرآن وأهمية استحضار البعد المقاصدي

في تنزيل الآيات

إن محاولة التأسيس والتأصيل لمنهج التنزيل المقاصدي لآيات القرآن، يحتم علينا الكشف عن طبيعة العلاقة بين المقاصد والقرآن. ذلك لأن الذي قرره أئمة الاجتهاد ومنهم الشاطبي، أن رتبة الاجتهاد -سواء كان اجتهداً استنباطياً أو تنزيلياً- لا تحصل إلا لمن اتصف بوصفين، أحدهما: فهم مقاصد الشريعة على كمالها، وثانيهما: التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها.²³

وهذا ما يؤكد أهمية استحضار المقاصد عند عملية تنزيل الآيات. وهذا ما سوف يتولى

²¹ المرجع السابق 215/1

²² المرجع نفسه 209/1

²³ المرجع نفسه 42/5

هذا المبحث تفصيله في المطلبين التاليين:

المطلب الأول: علاقة المقاصد بالقرآن

إنه لغني عن البيان أن نسهب في الكشف عن طبيعة الصلة بين المقاصد والقرآن، لأن كتاب المقاصد الأول بكل جدارة وامتنياز هو القرآن الكريم. وقد حوى من ضمن ما حواه، الحديث عن المقاصد عامها وخاصها وجزئها، ضروريها وحاجيها وتحسينيه، الكليات الخمس ومقاصدها ووسائلها... إلى مباحث كثيرة المصدر الأول في التأصيل لها هو القرآن. بل الذي قرره الغزالي وقبله الجويني ومن سار على ركبهم في الحديث عن المقاصد، يؤكدون أن القرآن هو المصدر التشريعي الأول للتأصيل للمقاصد أولاً، والطريق الأول ثانياً للكشف عن مقاصد الشارع.

وعن أصالة القرآن في تضمن المقاصد على اختلافها باعتباره الرافد الأول للبحث في المقاصد، يقول الشاطبي: "القرآن كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه؛ لأنه معلوم من دين الأمة، وإذا كان كذلك؛ لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة وطمع في إدراك مقاصدها، واللاحق بأهلها، أن يتخذ سميته وأنيسه، وأن يجعله جليسه على مر الأيام والليالي؛ نظراً وعملاً، لا اقتصاراً على أحدهما؛ فيوشك أن يفوز بالبغيه، وأن يظفر بالطلبة، ويجد نفسه من السابقين في الرعي الأول".²⁴

ويؤكد الشيخ ابن باديس رحمه الله تعالى ما قرره الشاطبي من اشتمال القرآن على المقاصد في كمالها وتمامها، فيقول: "فيه من علم مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبسط أسباب الخير والشر والسعادة والشقاوة في الدنيا والأخرى. وعلم النفوس وأحوالها، وأصول الأخلاق والأحكام. وكليات السياسة والتشريع. وحقائق الحياة في العمران والاجتماع. ونظم الكون المبنية على الرحمة والقوة، والعدل والإحسان.. إلى ما تقصر عن عده الألسنة وتعجز عن الإحاطة به الأفهام".²⁵

وما أكثر الآيات التي ورد فيها التعليل للأحكام بأدوات شتى للتعليل، لام التعليل (لام كي) الوصف المقترن بالفاء أو إن أو أن، المصدر المؤول المنصوب، وغيرها من الأدوات التعليلية للكشف عن حكمة النص والغاية من تشريعه، حتى إن ابن القيم ذكر أنها تتجاوز في القرآن الألف موضع بل أكثر من ذلك".²⁶

²⁴ المرجع السابق 144/4

²⁵ تفسير ابن باديس (في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير). ص 32

²⁶ إعلام الموقعين 3/3

لذا فإننا نقول: إن الارتباط بين المقاصد والقرآن وثيق والعلاقة بينهما علاقة عضوية لا تقبل فكاً ولا فراقاً، ومحاولة الفصل بينهما كمحاولة فصل رأس عن جسده، فهل تتصور معه حياة. والقرآن رأس والمقاصد جسد. وأقرب شيء إلى تفهم مقصود الشارع هو كلامه. يقول الشاطبي: "والأدلة الشرعية أقرب إلى تفهم مقصود الشارع من كل شيء".²⁷ ويقول: "ونصوص الشارع مفهومة لمقاصده، بل هي أول ما يتلقى منه فهم المقاصد الشرعية".²⁸

وكما أن المقاصد لا يقوم سوقها إلا بالعناية بالقرآن والرجوع إليه، فإن فهم القرآن وتفسير آياته لا يستغني هو الآخر عن المقاصد. ولذا فإنه يتعين على المفسر إذا عدم تفسيراً لآية في كتاب الله أو حديثاً في سنة رسول الله ﷺ أو أثراً من أقوال الصحابة، اجتهد في تفسير النص وفهمه مع التزامه بعدم الخروج عن إطار مقاصد الشريعة ليكون منسجماً ومتماشياً معها.²⁹ ومن التأكيد على ضرورة مراعاة المقاصد في تفسير اللفظ المحتمل في القرآن، أن نجعل التفسير الموافق لمقاصد الشرع أرجح من التفسير الآخر غير الموافق.³⁰

ومواطن الخلل والزلل في فهم القرآن وكذا السنة راجعة بالأساس إلى عدم الإدراك لمقاصد الشريعة. وكثير من أسباب الزغ والضلال واتباع الهوى في بعض طوائف أهل البدع شطره الأعظم في هذا الباب كما ذكر الشاطبي، حيث يقول: "ولعل الفرق الضالة المذكورة في الحديث 3 أصل ابتداعها اتباع أهوائها، دون توخي مقاصد الشرع".³¹

وبهذا البيان تظهر لنا الصلة الوثيقة بين المقاصد والقرآن ولازميتها للفهم السليم لآياته وتنزيلها السديد في الواقع. وهذا ما سنوضحه في المطلب التالي:

المطلب الثاني: أهمية البعد المقاصدي في عملية التنزيل

إن استحضار البعد المقاصدي لضبط عملية التنزيل تقويمها لضمان نتائج سليمة تتوافق مع إرادة الشارع الحكيم، لا تقل أهمية عن استحضار المقاصد في عملية تفهم النص وتعقل معناه. وقد سبق وأن ذكرت أن سلامة عملية الاجتهاد بنوعيه، يبدأ من مرحلة الفهم وينتهي بمرحلة الإسقاط والتنزيل. وفي كل مرحلة لا يمكن الاستغناء بحال عن استدعاء المقاصد واستحضارها، لأن سلامة الفهم والتنزيل معا لا يتأتى بدون أعمال للمقاصد وإلا كان التنزيل آلياً مجرداً لا يمت إلى مراد الشارع ولا إلى قصده من التشريع أي صلة.

فالإطار المرجعي الأول الذي ينبغي أن يكون شاملاً لعملية التنزيل، هو الإطار المقاصدي

²⁷ الموافقات 3/32

²⁸ الموافقات 3/125

²⁹ علال الفاسي. مقاصد الشريعة ومكارمها. ص 87-88

³⁰ اليوبي. المقاصد وعلاقتها بالأدلة. ص 489

³¹ الموافقات 2/299

أو بمعنى آخر، عملية التنزيل يجب أن تتم ضمن الكليات المقاصدية القرآنية، لأن معظم مقاصد القرآن كما صرح العزرحم الله تعالى: "الأمر باكتساب المصالح وأسبابها والزجر عن اكتساب المقاصد وأسبابها".³²

وأحد الأغراض السامية لعملية تنزيل الآيات على الواقع، المحافظة على مصالح العباد والخلق، وهو الأساس الذي تبنى عليه مقاصد الشريعة الإسلامية.

فالقرآن الذي وصفه الله بالهدى والنور والشفاء والرحمة، كانت تنزل آياته حاملة معها هذه المنافع والمصالح، وهكذا يجب أن تستحضر هذه المعاني والصفات عند تنزيل آياته على الواقع. يقول ابن باديس رحمه الله تعالى في معرض بيانه عن الحكمة في تنجيم القرآن: "حظنا من العمل بهذه الحكمة (التنجيم): أن نقرأ القرآن ونتفهمه، حتى تكون آياته على طرف ألسنتنا، ومعانيه نصب أعيننا، لنطبق آياته على أحوالنا، ونزلها عليها كما كانت تنزل على الأحوال والوقائع. فإذا حدث مرض قلبي أو اجتماعي طلبنا دواءه في القرآن وطبقناه عليه. وإذا عرضت شبهة أو ورد اعتراض، طلبنا فيه الرد والإبطال. وإذا نزلت نازلة طلبنا فيه حكمها، وهكذا نذهب في تطبيقه وتنزيله على الشؤون والأحوال إلى أقصى حد يمكننا".³³

وأقتبس من كلام ابن باديس في وصفه القرآن بأنه كتاب الدهر ومعجزته الخالدة فلا يستقل بتفسيره إلا الزمن.³⁴

إن القرآن الكريم ليس تراثاً أو مكتسباً تاريخياً خصّ بأحكامه ومعانيه من نزلت عليهم آياته، بل هو منهج لا يكشف عن عجائبه إلا الزمن وأطواره، فهو كما روي في وصفه: "لا تنقضي عجائبه".³⁵ ولكل عصر وجيل حظهم منه ونصيبهم من أنواره وهداياته ورحماته كما هي أوصافه، فالقرآن رأس مال متجدد يتعين استثمار نصوصه ومعانيها وجعلها حلاً لقضايا الواقع ومشكلاته، وعملية تنزيل آياته على الواقع لون من ألوان استثمار النص القرآني.

غير أن عملية الاستثمار للنص القرآني في حل مشكلات الواقع وتذليل تحدياته، لا يمكن أن يكتب لها النجاح إلا إذا كان هذا الاستثمار دائراً في فلك المقاصد متجهاً إلى قبلتها، وهذا يمكن الحديث عن ضابطة المقاصد وحاكميتها على عملية التنزيل أو استثمار النص القرآني في واقع الناس.

ثم إن استثمار النص القرآني بحاكمية المقاصد يجد تأصيله في أحد متعلقات الاجتهاد التي ذكرها الشاطبي، وهو التعلق بجانب المعاني، وليست هذه المعاني إلا تعبيراً عن المصالح والمفاسد، وهذه التي يلزم لها العلم بالمقاصد الشرعية. يقول الشاطبي: "الاجتهاد إن تعلق

³² قواعد الأحكام 07/1

³³ تفسير ابن باديس. ص 181

³⁴ المرجع السابق. ص 377

³⁵ البيهقي. شعب الإيمان 324/2 برقم 1933

بالاستنباط من النصوص، فلا بد من اشتراط العلم بالعربية، وإن تعلق بالمعاني من المصالح والمفاسد مجردة عن اقتضاء النصوص لها أو مسلمة من صاحب الاجتهاد في النصوص؛ فلا يلزم في ذلك العلم بالعربية، وإنما يلزم العلم بمقاصد الشرع من الشريعة جملة وتفصيلا خاصة.³⁶

ثم يستحضر أهمية العلم بالمقاصد فيما يتعلق بالمعاني القرآنية ليكون تنزيلها على الواقع بناء على فهم سليم وإدراك صحيح لها فيما سماه بالاجتهاد القاسي الذي لا يحتاج معه إلى التعلق بالألفاظ ومقتضياتها. وفي التعليل لهذا النوع من الاجتهاد الذي التزم به أصحاب الأئمة المجتهدين كابن القاسم والبويطي ومحمد بن الحسن من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة، فيقول رحمه الله تعالى: "فإنهم على ما حكي عنهم يأخذون أصول إمامهم وما بني عليه في فهم ألفاظ الشريعة، ويفرعون المسائل، ويصدرون الفتاوى على مقتضى ذلك. وقد قبل الناس أنظارهم وفتاويهم، وعملوا على مقتضاها، خالفت مذهب إمامهم أو وافقته، وإنما كان كذلك؛ لأنهم فهموا مقاصد الشرع في وضع الأحكام."³⁷

وفي خطورة ترك استحضار المقاصد في التعامل مع النص القرآني تنزيلا وتفهما، يقول رحمه الله تعالى: "فيعرض فيه أن يعتقد في صاحبه أو يعتقد هو في نفسه أنه من أهل الاجتهاد وأن قوله معتد به، وتكون مخالفته تارة في جزئي وهو أخف، وتارة في كلي من كليات الشريعة وأصولها العامة، كانت من أصول الاعتقادات أو الأعمال؛ فتراه آخذا ببعض جزئياتها في هدم كلياتها حتى يصير منها إلى ما ظهر له ببدائي رأيه من غير إحاطة بمعانيها ولا راجع رجوع الافتقار إليها، ولا مسلم لما روي عنهم في فهمها، ولا راجع إلى الله ورسوله في أمرها كما قال: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ الآية [النساء: 59]."³⁸

إن النتائج السلبية التي تعقب عملية التنزيل المهدرة لمقاصد الشريعة، هي تلك العملية التي تضيع معها مصالح الخلق وتتعطل معها منافعهم أو تتضارب فيما بينهم. فالتعامل مع النص القرآني في حال تجريد معناه، يختلف عنه في حال تنزيله على الواقع. شواهد هذا من النصوص كثيرة جدا، كالنهي عن سب آلهة المشركين، ومع أن سبهم مصلحة وهذا هو المعنى المجرد هنا، غلا أنه عند تنزيل هذا المعنى في أرض الواقع تتدخل المقاصد لضبطه، فلا يكون السب حينئذ مشروعا إذا ترتب عنه تفويت مصلحة أعظم أو لحوق مفسدة أكبر. يقول القرطبي: "فالمحقق قد يكف عنه حق له إذا أدى إلى ضرر يكون في الدين."³⁹

ومن شواهد السنة على إعمال المقاصد في عملية التنزيل على الواقع، امتناعه عليه

³⁶ الموافقات 124/5

³⁷ المرجع السابق 126/5

³⁸ المرجع السابق 143/5

³⁹ تفسير القرطبي 1/7

السلام عن قتل المرتدين وامتناعه من هدم البيت وإعادة بنائه على قواعد إبراهيم محتجا بالمقاصد، مقصد حفظ الوحدة واجتماع الكلمة ونقاء صورة الإسلام: "حتى لا يقول الناس إن محمدا يقتل أصحابه" ومراعاة لحدثة العهد بالإسلام وإشفاقا عليهم من تصرف يصدر منهم يأباه الإسلام وينافيه الإيمان: "لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية".

وهذا يتبين لنا أن أعمال المقاصد في عملية التنزيل واستحضارها، منهج شرعي أصيل نهضت بحججته النصوص الشرعية.

المبحث الثالث: آليات ضبط تنزيل الآيات على الواقع وحاكمية المقاصد

إن تحقيق المقصود والمبتغى من عملية تنزيل الآيات على الواقع مرتبط في اعتقادي بأمرين اثنين: أحدهما، سلامة عملية التنزيل نفسها، وذلك يوجب على المفسر أو المؤول أو المنزل -أو من يتعامل مع النص القرآني عموما- الوعي بأهم المرتكزات التي يقوم عليها سلامة عملية التنزيل، وهي بالأساس قواعد ضبط وآليات تقويم لحركة التنزيل أو عملية الاجتهاد التنزيلي. أما الأمر الثاني، فهو التناغم مع روح الإسلام والانسجام مع غاياته وأهدافه على مستوى نتائج عملية التنزيل أو على مستوى آليات عملية التنزيل والمرتكزات التي يقوم عليها، لذا سوف يكون هذا المبحث موزعا على مطلبين:

المطلب الأول: الآليات الضابطة لعملية تنزيل الآيات على الواقع

يعتبر تنزيل الآيات على الواقع منهجا من مناهج التفسير للقرآن وتعميق الصلة به. وإذا كان الخوض في تفسير القرآن يحتاج إلى ضوابط وشروط منها ما يتعلق بالمفسر من حيث أهليته: بتوافر جملة من الشروط الأصلية في كل علم ومنها علم التفسير، المعرفة بقواعد اللغة، ودلالات الألفاظ والمعرفة بالناسخ والمنسوخ وأسباب النزول مما يعين على فهم المراد...⁴⁰

وقد أشار الزركشي في البرهان إلى طائفة من الشروط لمن تصدى لتفسير القرآن تحت فصل سماه: "حاجة المفسر إلى الفهم والتبحر في العلوم".⁴¹

وكذلك عملية تنزيل الآيات على الواقع باعتبارها مظهرا من مظاهر التفسير، تحتاج هي الأخرى إلى توافر جملة من الضوابط والمواصفات في عملية التنزيل وفي القائمة بالتنزيل. ولما كانت عملية تنزيل النص القرآني على الواقع مرحلة تالية للفهم الصحيح والوقوف على المعنى السليم للآية، فإن ما يشترط في المفسر المتصدي لعملية التنزيل يشترط في المنزل المتصدي لعملية التنزيل. ويزاد عليه جملة من الضوابط التي يجب التزامها في عملية التنزيل جمعا بين الفهم السليم والتطبيق الصحيح للآية والاستفادة منه في الواقع.

⁴⁰ محمد حسين الذهبي. التفسير والمفسرون. 45/1

⁴¹ البرهان في علوم القرآن 153/2

أولا/ فهم الواقع محل التنزيل:

فهم الواقع أو فقه الواقع كما اصطلح عليه، من أهم اللوازم المعرفية عند التعامل مع النص الديني. وقد اتفقت كلمة العلماء-بتتبع بسيط- قديما وحديثا على اشتراط الناظر في النصوص والمستنبط منها أن يفقه واقع الناس، أي أن يكون ملماً بحال العصر وأحوال أهله زمانا ومكانا، عادات وأعراف، حوادث ونوازل، الخ.

وقد نقل ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين شرط الفقه بالواقع من شروط المفتي في كلام أحمد في قوله: "لا ينبغي للرجل أن ينصب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال الخامسة معرفة الناس."⁴²

وبتقرير واف علّق ابن القيم على هذا الشرط بقوله: "فهذا أصل عظيم يحتاج إليه المفتي والحاكم فإن لم يكن فقيها فيه فقيها في الأمر والنهي ثم يطبق أحدهما على الآخر وإلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح فإنه إذا لم يكن فقيها في الأمر له معرفة بالناس تصور له الظالم بصوره المظلوم وعكسه والمحق بصورة المبطل وعكسه وراج عليه المكر والخداع والاحتتيال وتصور له الزنديق في صورة الصديق والكاذب في صورة الصادق ولبس كل مبطل ثوب زور تحتها الإثم والكذب والفجور وهو لجهل بالناس وأحوالهم وعوائدهم وعرفياتهم لا يميز هذا من هذا بل ينبغي له أن يكون فقيها في معرفة مكر الناس وخداعهم واحتيالهم وعوائدهم وعرفياتهم فإن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعوائد والأحوال وذلك كله من دين الله كما تقدم بيانه."⁴³

فأنت تلاحظ أن ابن القيم ربط بين الصلاح والفساد من جهة وبين الواقع معرفة به وجهلا، بل اعتبر الجهل بالواقع قلبا للحقائق كلها جعل المحق مبطلا والمبطل محقا والظالم مظلوما والمظلوم ظلما.

بل اعتبر الفقه بالواقع أحد نوعي الفهم التي لا يتمكن الحاكم والمستفتي من الحكم بالحق إلا بهما، فقال رحمه الله تعالى: "ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم أحدهما فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علما والنوع الثاني فهم الواجب في الواقع وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع ثم يطبق أحدهما على الآخر."⁴⁴

إن عملية التبصير بواقع الناس ومعرفة أحوالهم وأحوال زمانهم ومكانهم، تتيح للمتعامل

⁴² 199/4

⁴³ المرجع نفسه 205/4

⁴⁴ الموافقات 88/1

مع النص الشرعي-فهما وتنزيلا- رصيда معرفيا وأساسا عمليا يمكنه من المحافظة على مصالحهم ورفع الحرج والمشقة عنهم.

ولهذا يمكن عدّ فقه الواقع أساس مرجعيا في عملية تنزيل الآيات على الواقع، لأنه إذا كان الثابت أن هذه الشريعة جاءت لمصالح العباد في الدارين وأن الغاية من النص الشرعي تحقيق هذه المقاصد، فإن تحقيقها على مستوى الفهم كما هو على مستوى التطبيق.

وإمامنا الشاطبي في كتابه الموافقات أشاد بهذا النوع من أنواع الفقه وأشار إليه في مواضع من كتابه الموافقات باعتباره أحد أهم المراكز التي تقوم عليها نظريته المقاصدية. يقول رحمه الله تعالى: "إن الدليل المأخوذ بقيد الوقوع معناه التنزيل على المناط المعين" ويقول: "معرفة عادات العرب في أحوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل" ويقول: "المقصود من وضع الأدلة تنزيل أفعال المكلفين على حسبها".⁴⁵

ومن مجموع كلامه هذا، يمكن أن نقول: إن الشاطبي يعتبر فقه الواقع مجموعا من ثلاثة عناصر مهمة في التنزيل: الحكم، والمكلف، والواقع، وهي عناصر من شأنها أن تمثل ضمانا مهمة لتحقيق مقاصد الشريعة. ويمكن في ضوء هذه النقول أن نقرر أن فقه الواقع أساس متين لعملية التنزيل، فهو الحلقة الوسطى الجامعة بين حلقة فهم النص واستيعابه وحلقة تطبيقه وتنزيله، لأنه لا يوجد نص ينزل على مكلف مجرد عن واقعه.

لأنه لا يوجد نص ينزل على مكلف مجرد عن واقعه، والشاطبي يسمي هذا العمل الاجتهادي المبني على فقه الواقعة وتبصر أحوال الناس وعاداتهم في تحقق المناط. وقد قال فيه: "لا يمكن أن ينقطع حتى ينقطع أصل التكليف وذلك عند قيام الساعة".⁴⁶

وقد ذكر الشاطبي جملة من المواضع التي قرر فيها اقتضاء تعيين المناط أخذ الدليل وفق الواقع بالنسبة إلى كل نازلة، ومنها على سبيل الحصر تنزيل النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 24] على حالة الصلاة لما دعا أبا ذر ولم يجبه اشتغالا منه بالصلاة واعتمادا منه رضي الله عنه على قوله عليه السلام: "إن في الصلاة لشغلا"⁴⁷ وظنا منه أن نازلته المعينة لا يتناولها معنى الآية لهذا قال عليه السلام: "ما منعك أن تجيب

⁴⁵ الموافقات

⁴⁶ الموافقات 63/4 وانظر في هذه الجزئية عبد المجيد النجار. خلافة الإنسان بين الوحي والعقل. ص 120 وما بعدها.

⁴⁷ ين الترمذي 233/2 برقم 390

إذ دعوتك وقد جاء فيما نزل علي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24]⁴⁸

وأختم هذا البيان بقول الشيخ يوسف القرضاوي: "إن الغفلة عن روح العصر وثقافته وواقعه والعزلة عما يدور فيه ينتهي بالمجتهد في وقائع هذا العصر إلى الخطأ والزلل وهو ينتهي غالبا بالتشديد والتعسير على عباد الله حيث يسر الله عليهم."⁴⁹

ثانيا/ تفعيل قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

تحدث صاحب كتاب تنزيل الآيات على الواقع عبد العزيز الضامر عن علاقة هذه القاعدة بعملية تنزيل الآيات على الواقع، وذكر أن هذه القاعدة من القواعد الصريحة والواضحة التي استدل بها المفسرون على قضية تنزيل الآيات على الواقع، ومن أصرح الأدلة التي ذكرها قوله عليه السلام في الرجل الذي أصاب من امرأة قبله فأتي النبي عليه السلام فأخبره فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [مود: 114]... فقال الرجل: يا رسول الله هذا لي خاصة؟ قال: بل لجميع أمتي.⁵⁰

ولا أود التطرق في هذا المقام إلى كلام الأصوليين حول هذه القاعدة ومدى الاعتبار لها. وإن كان جمهور الأصوليين على القول بمقتضاها وإلغاء خصوصية السبب محل النزول أو الورود للنص الشرعي.

لكن ما هو واقع هذه القاعدة هند الشاطبي، وكيف يمكن الإفادة منها واستثمارها في عملية التنزيل؟

لقد قرر الشاطبي تبعا لجمهور الأصوليين أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، إلا أنه أشار على مسألة مهمة في هذه القاعدة في جزئها المتعلق باللفظ، وهو أن العموم المعتبر في اللفظ من حيث إفراده وإن عارضه السياق فالمقصود من اللفظ، اللفظ الإفرادي.

وقد ذكر جملة من الأمثلة: منها استدلال عمر بن الخطاب في اتخاذ الخشن من الطعام ولبسه المرقع من الثياب في خلافته بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَذُّبُكُمْ طَبِيبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الحاقف: 20] فنزل الآية على مقتضى

⁴⁸ الموافقات 299/3

⁴⁹ القرضاوي: الدكتور يوسف، الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، ط3، الكويت، دار القلم، ص153.

⁵⁰ الضامر. تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين. ص17

حاله مع أن السياق يقتضي أنها نزلت في الكفار بقرينة عذاب الهون الذي لا يليق بالمؤمنين. وإن كان لعمر عليه السلام أصل في الاستدلال به لما قال للنبي: ادع الله أن يوسع على أمتك كما وسع على فارس والروم. فاستوى جالسا فقال: أو في شك يا ابن الخطاب أولئك عجبت لهم طبيائهم في حياتهم الدنيا.⁵¹

ومن الأمثلة، استدلال معاوية وتنزيل قوله تعالى: "من كان يريد الحياة الدنيا وزينته" على مقتضى حديث الثلاثة الذي هم أول من تسعربهم النار يوم القيامة، مع أن سياق الآية محل التنزيل في الكفار بقرينة قوله تعالى: "أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار."⁵²

ومن القيود المهمة التي وردت في كلام الشاطبي أثناء حديثه عن العموم وأثره والتي تصلح قيودا للعمل بالعموم المعتبر في هذه القاعدة: "ملاحظة انتشار العموم في أبواب الشريعة وتكرره في مواطن كثيرة بحسب الحاجة إليها. ومن الأمثلة التي ذكرها عموم رفع الحرج الذي جاءت به النصوص الكثيرة، ولهذا اعتبره علماء الملة أصلا مطردا أو عموما مرجوعا إليه من غير استثناء، ومثله تنزيل قوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ على موارده ومطانه."⁵³

وذكر قصة ابن مسعود في تفسير قوله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ حيث نقل سبب نزول هذه الآية لما دعا النبي على قريش بسنين كسني يوسف.. يقول الشاطبي: "وهذا شأن أسباب النزول في التعريف بمعاني المنزل، بحيث لو فقد ذكر السبب؛ لم يعرف من المنزل معناه على الخصوص، دون تطرق الاحتمالات وتوجه الإشكالات."⁵⁴

رابعا/ اعتبار المآل عند عملية التنزيل

من أهم المرتكزات التي يقوم عليها سلامة عملية التنزيل للآيات، النظر إلى مآلات هذا التنزيل ونتائجه في الواقع. وقد عدَّ الشاطبي قاعدة اعتبار المآل من القواعد العظام الحاكمة والضابطة لعملية التنزيل يقول رحمه الله تعالى: "النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعا كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، مشروعا لمصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرأ."⁵⁵

وقبل الحكم على الشخص وتنزيل النص على الواقعة أو الحالة لا بد من النظر إلى ما

⁵¹ الموافقات 282/3

⁵² نفس المرجع والموضع

⁵³ الموافقات 307/3

⁵⁴ المرجع السابق 152/4

⁵⁵ المرجع السابق 177/5

يؤول إليه الحكم. فقد يستجمع الفعل جميع الشرائط والأسباب وتنتفي كل الموانع، إلا أن تنزيل النص عليه متوقف على مآله، يقول الشاطبي: "النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعا كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، مشروعا لمصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرا، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه، وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك."⁵⁶

وقد ذكر الشاطبي أول دليل واقواها على اعتبار أصل المآل، وهو انبناء التكليف الشرعية على رعاية المصالح واعتبار المآل مراعاة لهذا النظر المصلي وتطبيق له. يقول الشاطبي: "وقد منع الله أشياء من الجائزات لإفضائها إلى المنوع: كقوله: ﴿ لا تقولوا راعنا ﴾ [البقرة: 104]. وقوله: ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ﴾ الآية [الأنعام: 108]. وأشبه ذلك."⁵⁷

وقد ذكر جملة من الأمثلة في أهمية اعتبار هذا الأصل في التعامل مع النص الشرعي.

المطلب الثاني: حاكمية المقاصد في عملية التنزيل

إضافة على ما سبق بيانه عن أهمية استحضار المقاصد في التعامل مع النص الشرعي وفضلا عن العلاقة الوطيدة بين المقاصد والنص، فيجب أن نلاحظ أن المقاصد ليست معان خارجة عن نصوص الوحي ليتها الأمر من إدراكا من جهة أخرى غير جهة النصوص كما قال النجار.⁵⁸

بل المقاصد محمولة في النصوص، فكل نص شرعي يمثل مقصدا شرعيا يتحقق بامتثال هذا النص أمرا ونهيا فالتشريع كما قال الدريني في مناهجه: "مقاصد وسائلها الأحكام."⁵⁹

وفي عملية تنزيل الآيات على الواقع تظهر أهمية استحضار المقاصد من خلال بعض من الأصول والضوابط.

أولا/ البعد عن حرفية النصوص والجمود على ظواهرها

إن من أهم مظاهر الصلة بالنص القرآني، بيان أثره في الواقع أو ربطه بواقع الناس، ذلك لأن النصوص الشرعية ليست حروفا جامدة، بل تحمل معها معان ومقاصد. وكل نص ديني تعبير عن مقصد شرعي، والهداية التي وُصف بها القرآن وجعلها منة على الناس بإنزال

⁵⁶ المرجع السابق 177/5

⁵⁷ المرجع السابق 287/5

⁵⁸ خلافة الإنسان. ص 93

⁵⁹ المناهج الأصولية. ص 27

القرآن، لا يمكن أن تتحقق في ظل الجمود على اللفظ دون تحريك الواقع بحركة القرآن والسنة. وقد قرر القرافي هذا المعنى بوضوح في قوله: "والجمود على المنقولات أبدا ضلال في الدين وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضين".⁶⁰

ودور التنزيل يرتبط بالأساس بالوصل بين الوحي والواقع، ولن يتحقق المراد منه على اللفظ وتمسك بحرفيته. وقد ذكر الشاطبي أمثلة في النعي على الجامدين على ألفاظ النصوص المضيعين لحقائقها ومعانيها.

"ومنهم من يرى شحم الخنزير وجلده حلالا؛ لأن الله قال: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ [المائدة: 3]، فلم يحرم شيئا غير لحمه، ولفظ اللحم يتناول الشحم وغيره بخلاف العكس".⁶¹

"ومن أرباب الكلام من ادعى جواز نكاح الرجل منا تسع نسوة حرائر مستدلا على ذلك بقوله تعالى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ [النساء: 3]، ولا يقول مثل هذا من فهم وضع العرب في مثنى وثلاث ورباع".⁶²

ثانيا/ اعتبار خصوصية الحالات وعوارضها الضرورية والحاجية

فالظروف الخاصة التي تحيط بالواقعة، من المرتكزات الأساسية في سلامة التنزيل القرآني، لأن اعتبار العموم في النصوص القرآنية بإطلاق قد يوقع في الحرج والمشقة ما لم يقيد بالظرف الخاص للواقعة محل التنزيل. وقد جاء في القرآن ما يؤكد اعتبار الخصوصية أثناء التنزيل.

فحالة الاضطراب غير حالة الاختيار والحكم يختلف من حالة إلى أخرى. فالنطق بكلمة الكفر، كفر لكن عند الإكراه تنتفي المؤاخدة بالكفر وحكمه ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: 106].

وقد ألمح الشاطبي إلى هذا المعنى معتبرا أن الأصل إذا أدى القول بحمله على عمومته إلى الحرج أو إلى ما لا يمكن عقلا أو شرعا، فهو غير جار على استقامة، يقول رحمه الله تعالى: "لأن الأصل إذا أدى القول بحمله على عمومته إلى الحرج أو إلى ما لا يمكن شرعا أو عقلا؛ فهو غير جار على استقامة ولا اطراد، فلا يستمر الإطلاق، وهو الأصل أيضا لكل من تكلم في مشكلات القرآن أو السنة، لما يلزم في حمل مواردها على عمومها أو إطلاقها من المخالفة المذكورة، حتى تقيد بالقيود المقتضية للاطراد والاستمرار فتصح، وفي ضمنه تدخل أحكام

⁶⁰ الفروق 321/1

⁶¹ الموافقات 128/4

⁶² الموافقات 277/4

الرخص، إذ هو الحاكم فيها، والفارق بين ما تدخله الرخصة وما لا⁶³ فرق إذن بين الحكم المجرد والحكم المنزل، وهذا ما يظهر في قواعد فقهية ومقاصدية كثيرة ذكرها العلماء.

"الحاجة تنزل منزلة الضرورة" المشقة تجلب التيسير".

والإمام الشاطبي وهو يتحدث عن النوع الثاني من مقاصد الشارع، وهو كون هذه الشريعة أمية، علل هذه الأمية بأنها الموافقة لأحوال المنزل عليهم، ذلك لتنزيل الشريعة على مقتضى حال المنزل عليهم أوفق برعاية المصالح التي يقصدها الشارع الحكيم.⁶⁴

ثالثا/ ترك التكلف والتعمق

من الشروط الأساسية في التعامل مع النص القرآني ترك التكلف والتعسف، وقد نقل ابن عاشور في التفسير كلاما عن شرف الدين الطيبي في شرح الكشاف في سورة الشعراء: "شرط التفسير الصحيح أن يكون مطابقا للفظ من حيث الاستعمال سليما من التكلف عريا من التعسف."⁶⁵

بل إن من سمات الراسخ في العلم أن يكون بعيدا عن التكلف وعن التعتن والتكلف تعاطي ما فيه كلفة ومشقة من دون حاجة إلى ذلك سواء كان ذلك فعلا أو قول. والنصوص في التحذير عن التكلف والنهي عن التعمق كثير جدا، وهذا ما يؤكد الأصل العام في انبناء الشريعة عليه وهو رعيها للمصالح. وقد ساق الشاطبي في مواضع من الموافقات عددا من النصوص والمسائل في النهي عن التكلف.⁶⁶

وربط رحمه الله تعالى بين التشديد والتكلف المنهي عنه وبين مقصد الشارع من مشروعية الرخص، إذ قصده فيها الرفق بالمكلف من تحمل المشاق.⁶⁷

ويقرر الشاطبي خروج التكلف والتعمق عن طريقة السلف أصحاب الرسوخ في العلم في استدلالهم وتعاملهم على النصوص فيقول رحمه الله تعالى: "وعلى هذا النحو مر السلف الصالح في بث الشريعة للمؤالف والمخالف، ومن نظر في استدلالهم على إثبات الأحكام التكليفية؛ علم أنهم قصدوا أيسر الطرق وأقربها إلى عقول الطالبين، لكن من غير ترتيب متكلف، ولا نظم مؤلف، بل كانوا يرمون بالكلام على عواهنه، ولا يبالون كيف وقع في ترتيبه، إذا كان قريب المأخذ، سهل الملمس، هذا وإن كان راجعا إلى نظم الأقدمين في

⁶³ المرجع السابق/159

⁶⁴ تعليق المحقق على كلام الشاطبي/2/109

⁶⁵ التحرير والتنوير/30/1

⁶⁶ الموافقات/4/316

⁶⁷ الموافقات/1/341

التحصيل؛ فمن حيث كانوا يتحرون إيصال المقصود، لا من حيث احتذاء من تقدمهم.⁶⁸ ومن الأمثلة التي ساقها الشاطبي في التكلف في تنزيل الآيات على الواقع، ما أورده عن أبي بكر الشبلي الصوفي إذا لبس شيئاً خرق فيه موضعاً فقال له ابن مجاهد: أين في العلم إفساد ما ينتفع به؟ فقال: ﴿فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾ [ص: 33].⁶⁹ ولا نطيل في سرد الأدلة والنصوص في تقرير هذا الأصل في العامل مع نصوص الشريعة فهما وتنزيلاً، لأنه من الأصول المقطوع بها في الشريعة، فإن القصد من النهي عن التكلف رفع الحرج في هذه الأمة، وقد بلغت أدلته مبلغ القطع كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185].⁷⁰

الخاتمة

- يعتبر تنزيل الآيات على الواقع منهجاً من مناهج تفسير القرآن وتعميق الصلة بما جعله الله هداية وشفاء للناس.
- تشكّل مفهوم التنزيل عند الشاطبي باعتبار التنزيل مرتبة تلي استيعاب مدلول النص وتعقل معانيه ضمن منظومة القواعد التي وضعها للتعامل مع النص الديني.
- تعتبر المقاصد القرآنية مرجعية ضابطة لحركة الاجتهاد استنباطاً وتنزيلاً، وعلى ضوءها يرتسم الإطار الكلي وتحدد المرجعية العليا الحاكمة على كل عمل يتصل بالشريعة بما فيها العملية التنزيلية.
- من أهم إنجازات الشاطبي في الموافقات عمله على تجلية ضرورة العلم بالمقاصد لسلامة التنزيل بعيداً عن التنزيل الآلي والميكانيكي (الحرفي الظاهري) للآيات والنصوص.
- التنزيل الآلي للآيات فُرغ منه العلم بالواقع، والعلم بالمقاصد واعتبار المآلات.
- التنزيل عمل اجتهادي يرتكز بالأساس على علم بأحكام الوحي ومقاصده، وإجرائها على واقع السلوك الإنساني لممارسة الاجتهاد التنزيلي.
- ترجع العوامل المؤثرة في عملية التنزيل في عرض الشاطبي إلى اختلاف محل الأحكام وظروف الواقع وملابساته.
- يحتاج فقه التنزيل إلى ضوابط حاكمة على عمل المجتهد على مستوى الفقهاء والتصور، وعلى مستوى التطبيق والامتنال.
- ما يشترط في المفسر المتصدي لعملية التنزيل يشترط في المنزل المتصدي لعملية

⁶⁸ الموافقات 71/1

⁶⁹ الموافقات 196/4

⁷⁰ انظر الموافقات 341/1

التنزيل، ويزاد عليه جملة من الضوابط التي يجب التزامها في عملية التنزيل جمعاً بين الفهم السليم والتطبيق الصحيح للآية في الواقع. ويأتي في مقدمتها الفقه بمحل التنزيل والعناية مآلاته.

- استثمار النص القرآني بحاكمية المقاصد يجد تأصيله في أحد متعلقات الاجتهاد التي ذكرها الشاطبي، وهو التعلق بجانب المعاني، وليست هذه المعاني إلا تعبيراً عن المصالح والمفاسد.

- عملية التنزيل يجب أن تتم ضمن الكليات المقاصدية القرآنية، لأن معظم مقاصد القرآن أمر باكتساب المصالح وأسبابها وزجر عن اكتساب المقاصد وأسبابها.

- تظهر حاكمية المقاصد في عملية التنزيل في البعد عن حرفية النصوص والجمود على ظواهرها، واعتبار خصوصية الحالات وعوارضها الضرورية والحاجية، والبعد عن التكلف.

ومما يرى الباحث أهمية التوصية به: العمل على إنجاز الأطاريح العلمية والبحوث الأكاديمية في فن تنزيل الآيات على الواقع تحت حاكمية المقاصد وضابطة الفقه بالواقع، تحقيقاً للمصالح التي اشتملت عليها الآيات محل التنزيل.

-فتح تخصص على مستوى الكليات والأقسام المعنية لدراسة ما يتعلق بفن التنزيل مضموناً وآليات باعتباره مبحثاً قوي الصلة بمباحث علوم القرآن.

-إقامة دورات علمية للتعريف بالعملية التنزيلية للآيات على الواقع.

فهرس المراجع

- إبراهيم بن موسى الشاطبي. (1417هـ). *الموافقات*. السعودية: دار ابن عфан.
- أحمد بابا التنبكتي. (2000 م). *نيل الابتهاج بتطريز الديباج*. ليبيا. ط3: دار الكاتب.
- أحمد بن إدريس الصنهاجي القرافي. (أحمد بن إدريس الصنهاجي القرافي). *الفروق*. 1418هـ: دار الكتب العلمية.
- النجار، ع. (1420). هـ. *خلافة الإنسان بين الوحي والعقل*. الولايات المتحدة الأمريكية. ط3: المعهد العالمي للفكر الإنساني .
- عبد الحميد محمد بن باديس. (1416هـ). *في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير*. بيروت- لبنان ط1: دار الكتب العلمية .
- عبد العزيز الضامر. (1428هـ). *تنزيل الآيات علة الواقع عند المفسرين*. دبي ط1: جائوة دبي الدولية للقرآن الكريم.
- عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام. (بلا تاريخ). *قواعد الأحكام في مصالح الأنام*. القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية.

- مجمد حسين ذهبي. (بلا تاريخ). *التفسير والمفسرون*. القاهرة: مكتبة وهبة.
- محمد الطاهر بن عاشور. (1984 هـ). *التحرير والتنوير*. تونس: الدار التونسية للنشر.
- محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. (1973). *إعلام الموقعين عن رب العالمين*. بيروت: دار الجيل .
- محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي. (1391 هـ). *البرهان في علوم القرآن*. بيروت: دار المعرفة .
- محمد سعد اليوبي. (1418 هـ). *مقاصد الشريعة وعلاقتها بالأدلة*. السعودية. ط1: دار الهجرة.
- يوسف القرضاوي: الدكتور ،. (بلا تاريخ). *الاجتهاد في الشريعة الإسلامية*. الكويت: دار القلم.

منهج علماء قسنطينة في توظيف الآيات القرآنية في مسائل الأسرة - من خلال نوازل ابن الفكون -

د / إبراهيم ريغي

مخبر الدراسات والبحوث الإسلامية والقانونية والاقتصاد الإسلامي

جامعة المسيلة (الجزائر)

ibrahimrighi@gmail.com



مقدمة

لقد أنزل القرآن الكريم ليكون منهج حياة، يُرشد إلى أقوم السبل وأنجحها في الدنيا والآخرة، فهو منبع الشريعة والمرجع الأساس لقواعدها وأحكامها، فكان على المسلمين أن يرجعوا إليه ويقتبسوا من نوره، مجتهدين ومقلدة، ومن هنا تظهر أهمية دراسة اهتمام العلماء بالاستدلال بالقرآن الكريم والاستئناس به، وقد ظهرت دراسات كثيرة في هذا المجال اعتنت بمختلف العلماء شرقاً وغرباً، لكن الأمر الملاحظ غياب الدراسات حول علماء الجزائر رغم ثراء تراثهم وتنوع مدارسهم، لذا وقع اختياري على نوازل ابن الفكون القسنطيني الذي جمع كثيراً من فتاوى علماء قسنطينة وغيرها في عصر البايك، لتسليط الضوء على جانب من مناهج علماء هذه المنطقة في هذا العصر الذي مازال إلى الآن لم ينل نصيبه الكافي من البحوث الفقهية والأصولية.

أولاً: أهمية الموضوع:

- يستمد الموضوع أهميته الكبرى من أهمية القرآن الكريم الذي هو المصدر الأساس للشريعة الإسلامية.

- تعلق الموضوع بعلماء بلدنا الذين لم ينالوا القسط الكافي من البحث الفقهي والأصولي، لإبراز جهودهم وإحياء تراثهم ومسح الصورة الاستعمارية القاتمة التي صورت الجزائر أرضاً قاحلة لم تنتج علماء، وإن تصحيح هذه الصورة ليجتاج إلى جهود كبيرة بتنظيم الملتقيات ونشر البحوث والكتب.

- تسليط الضوء على جزئية مهمة لم تنل حظها من البحث وهي مدى توظيف النصوص الشرعية عند فقهاء الجزائر الذين دونوا نوازل كان لها وزن في العالم الإسلامي كله.

ثانياً: التعريف بالموضوع وإشكاليته: تعالج هذه المداخلة موضوعاً يجمع بين الأصول والفقه والتاريخ، وهو بالضبط مدى توظيف فقهاء قسنطينة للآيات القرآنية في باب الأسرة من خلال نوازل ابن الفكون، وبيان أهم ملامح منهجهم في الاستدلال والاستئناس بالنصوص القرآنية، هل اهتموا كثيراً بإيراد الآيات القرآنية؟ وكيف كانت طريقتهم في ذلك؟

ثالثاً: الدراسات السابقة: لم أقف على دراسة خاصة بالموضوع في حدود إطلاعي القاصر، لذا تعاملت مباشرة مع نوازل ابن الفكون مستخدماً الأدوات المنهجية التي سأذكرها في العنصر الآتي.

رابعاً: منهجية البحث: اعتمدت في دراستي هذه على تحقيق الدكتور محمد مخلوف، الذي حقق نوازل ابن الفكون من كتاب النكاح إلى كتاب الغصب في رسالة دكتوراه بجامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة، إشراف: أ.د محمد بوركاب، نوقشت موسم: 1437/1438هـ- 2016/2017م.

وقد استعملت أداتي الاستقراء والتحليل، كما يلي:

- استعملت أداة الاستقراء فتبعت باب الأسرة من نوازل ابن الفكون، واستخرجت منه الآيات القرآنية وسياق إيرادها والفقهاء الذين وظفوها.
- كما استعملت أداة التحليل لتفكيك ما وصلت إليه بالاستقراء، بالشرح والتقسيم والتمثيل.

خامساً- خطة البحث: لقد قسمت هذا البحث إلى مبحثين:

المبحث الأول خاص بالتعريف بالفقهاء الذين وظفوا النصوص القرآنية في مسائل الأسرة من نوازل ابن الفكون، وكذا التعريف بالمسائل التي ورد فيها هذا التوظيف.

أما المبحث الثاني فكان خاصاً ببيان خصائص توظيف النصوص القرآنية في نوازل الفكون باب الأسرة، وبيان كيف وظف هؤلاء الفقهاء النصوص القرآنية في التنزيل والاستدلال والاستئناس وطريقتهم في ذكر الآيات القرآنية.

المبحث الأول: الفقهاء الموظفون للنصوص القرآنية في باب الأسرة من كتاب نوازل ابن الفكون والمسائل التي تم فيها هذا التوظيف

قبل الخوض في منهج العلماء في توظيف الآيات القرآنية لابد من التعريف بالفقهاء الذين وظفوا الآيات القرآنية في مسائل الأسرة من نوازل ابن الفكون، وكذا التعريف بالمسائل التي تم فيها هذا التوظيف.

المطلب الأول: التعريف بالفقهاء الذي وظفوا الآيات النصوص القرآنية في مسائل الأسرة من نوازل ابن الفكون

لقد جاء الاستدلال بالقرآن الكريم في مسائل الأسرة من نوازل ابن الفكون في خمس مسائل أجاب عنها أربعة فقهاء منهم من أجاب عن مسألتين وهو المفتي أبو زكريا يحيى المحجوب، وتفصيل الكلام عن هؤلاء الفقهاء فيما يلي:

أولاً- أبو حفص عمر الزان:

هو أبو حفص عمر بن محمد الكماد المعروف بالوزان القسنطيني، عالم بالفقه

والأصول والبلاغة والمعقول والتصوف، له مشاركة في العلوم العقلية والنقلية. كان من أبرز علماء قسنطينة في القرن 10هـ رفض الوظائف الرسمية حين عُرضت عليه، كان مُدرساً في مساجد قسنطينة، ولا سيما مسجد السيدة حفصة، ينتمي إلى أسرة علمية خرّجت كثيراً من العلماء، عُرفت بعائلة الكماد.

كان مهتماً بقراءة كتب التصوف ثم تحول إلى كتب الحديث فكان يحفظ صحيح البخاري بأسانيده.

من مؤلفاته: "تعليق على قول خليل (وخصصت نية الحالف)"⁽¹⁾، "البضاعة المزجاة" و"الرد على الشوبية" رد فيه على المرابط عرفة القيرواني الذي خرج على السلطة الحفصية وضمّن رده كثيراً من التصوف، و"حاشية" على شرح الصغرى للسنوسي، و"فتاوى" في الفقه والكلام، توفي سنة 960هـ / 1552م.

أخذ عنه جماعة في الفقه كعبد الكريم الفكون القسنطيني (الجد)، وأبى الطيب البسكري، وأبى زكريا: يحيى بن سليمان، وغيرهم.

قال عنه المنجور في فهرسته: "هو الفقيه العالم الكبير المتفنن المحقق الراسخ الصالح أبو حفص، كان آية يهر العقول في تحقيق فنون المنقول والمعقول، من عباد الله الصالحين"⁽²⁾. قيل إنه توفي سنة 960 هـ كما جاء في نيل الابتهاج وغيره، وقيل 965هـ، وذكر المكناسي أنه توفي سنة 950 هـ⁽³⁾.

وقد كان للوزان سبعة أجوبة في باب الأسرة من نوازل ابن الفكون. استأنس في أحدها بآية قرآنية، وهي مسألة في الطلاق التي سأتكلم عنها في المطلب القادم.

ثانياً- أبو زكريا يحيى المحجوب:

هو أبو زكرياء يحيى بن محجوبة، مفتي وقاضي قسنطينة في القرن 11 هـ (17م)، تعرض

⁽¹⁾ توجد نسخة منه في مكتبة جامعة برنستون الأمريكية (قسم يهودا) رقم 178 مجموع، وهو بخط يعود إلى القرن العاشر، وهو في حوالي ثلاث ورقات فقط وفي هذا المصدر أن الوزان توفي سنة 960 أيضاً. تاريخ الجزائر الثقافي: أبو القاسم سعد الله، دار البصائر، الجزائر، 2007م، ج1، ص422، وج1، ص383.

⁽²⁾ نيل الابتهاج بتطريز الديباج: أحمد بابا التنبكي، تحقيق: عبد الحميد الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، ليبيا، ط2، 2000 م، ص307.

⁽³⁾ أخذت ترجمته من هذه المصادر والمراجع: درة البحال في أسماء الرجال: أبو العباس المكناسي ابن القاضي، دار التراث، القاهرة، والمكتبة العتيقة، تونس، ط1، 1391هـ/1971م، ج2، ص202، وج3، ص155 و ص205. و نيل الابتهاج بتطريز الديباج: أحمد بابا التنبكي، تحقيق: عبد الحميد الهرامة، ص307. وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ/2003م، ج1، ص410. و تاريخ الجزائر الثقافي: أبو القاسم سعد الله، ج1، ص380-383. و معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج7، ص317. و معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر: عادل نويمض، مؤسسة نويمض الثقافية، بيروت، ط2، 1400 هـ/1980م، ص342.

لكثير من المحن مع دار السلطنة، تعرض مراراً للسجن والتغريم، كانت له زاوية باسمه لكن الاحتلال الفرنسي هدمها سنة 1865م، كان بينه وبين الفكون الجد سجال فقهي حول مسألة متعلقة بالوقف أثارت جدلاً علمياً، بدأ بفتوى ابن محجوبة بفسخ وقف فنازعه الفكون الجد والشيخ التواتي، وقد ألف في ذلك عبد الكريم الفكون رسالة سماها "تقييد في مسألة حبس" رد فيها على ابن محجوبة⁽¹⁾.

وقد كانت لابن محجوبة ستة أجوبة في باب الأسرة من نوازل ابن الفكون، استدل في اثنين منها بالقرآن الكريم، وهما مسألتين متعلقتين بالصدّاق والنفقة وسأتكلم عنهما في المطلب القادم.

ثالثاً- أبو عبد الله محمد الفكون:

هو أبو عبد الله محمد الفكون جد مصنف النوازل، كان فقيهاً صوفياً، تولى إمامة الجامع الأعظم بقسنطينة، توفي سنة 1045هـ أثناء منصرفه من الحج والزيارة في مكان يقع بين مكة والمدينة ومصر يسمى المويلح⁽²⁾، لذلك يسميه عبد الله بن محمد الفكون بدفين المويلح تمييزاً له عن جد والده لأنه لأبهما نفس الاسم والكنية.

وقد استدل محمد للفكون جد مصنف النوازل بأية قرآنية واحدة في باب الأسرة من نوازل ابن الفكون، وهي مسألة تتعلق بالخلع وسأتكلم عنها في المطلب القادم.

رابعاً- إبراهيم بن يوسف الغمري:

للأسف لم أقف على ترجمة له، وقد نقل ابن الفكون في نوازله بعض فتاويه، منها ثلاثة أجوبة في باب الأسرة، وهي التي تعيننا في هذه المداخلة، وقد استدل في واحدة منها بالقرآن الكريم نقلاً عن ابن رشد الجد، وهي مسألة تتعلق بالعق كَمَا سَنَرَى في المطلب القادم.

المطلب الثاني: المسائل التي وُظفت فيها النصوص القرآنية

في باب الأسرة من نوازل ابن الفكون:

جاء الاستدلال بالقرآن في نوازل الفكون مفرقاً في مختلف المسائل المتعلقة بكتاب النكاح وما يتعلق به، وهذه هي المسائل بالضبط:

أولاً- مسألة في باب الصداق والجهاز: وهي مسألة تتعلق بادعاء والدَي الزوجة بعد وفاتها أن الجهاز كان عارية منهما فطالباً الزوج بإرجاعه، وقد أجاب عن النازلة المفتي أبو زكريا يحيى المحجوب، وكانت خلاصة جوابه أن العبرة بالعرف وأن العرف جرى في قسنطينة على أن الجهاز تملك لا إعارة، وقرر أن إعطاء الجهاز بعقد إعارة فيه غش وخديعة، ثم

⁽¹⁾ تاريخ الجزائر الثقافي: أبو القاسم سعد الله، ج1، ص422، و ج5، ص144-145. و شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1406 هـ/1986 م، ص148-149.

⁽²⁾ شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية: أبو القاسم سعد الله، ص43.

عرج على الكلام عن ظاهرة سلبية انتشرت في قسنطينة وهي المغالاة في المهور والتفاخر بالجهاز، وهذا ما دفع إلى بعض العائلات إلى تقديم الجهاز إعارة ويبدو في الظاهر أنه تمليك، لكي لا يلحقهم العار بسبب فقرهم، وهنا يكون المفتي قد تناول القضية من جذورها عرفاً وشرعاً، والذي يهمنا هنا أنه ذكر آية قرآنية تصور حال الولي الفقير غير القادر على تجهيز ابنته العروس، فَسَاقَ الْآيَةَ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (النحل:58)⁽¹⁾.

ويلاحظ هنا أن المفتي شبه صورة هذا الولي الفقير بحال الرجل في الجاهلية حين كانوا يشعرون بالعار عندما يُرزقون بالإناث، وهذا العار فرضه العرف الجاهلي الفاسد، فالمفتي هنا ساق الآية للتشبيه والاعتبار، فكأن الأمر أصبح أشبه بالجاهلية، وهذا تحذير من هذه الظواهر الجاهلية التي لا ينبغي أن تنتشر في مجتمع المسلمين، وهنا يكون المفتي قد أقحم وظيفة الإصلاح في فتواه ولم يكتفِ بالجواب الفقهي، وإنما وظف الآية القرآنية للإصلاح والتحذير من مظاهر الجاهلية.

ثانياً- مسألة في باب الطلاق: وهي مسألة فرار المرأة من زوجها إلى رجل آخر دون طلاق من الأول، وهي ظاهرة قبيحة كانت منتشرة بين القبائل في ذلك العصر وأصبحت من الأمور المتعارف عليها في مجتمعهم، وقد استنكر السائل هذه العادة كما هو ظاهر في سؤاله، وسأل عنها المفتي أبو حفص عمر الزان، الذي أجاب باستنكارها وأن العصمة تبقى بيد الرجل الأول، وإذا طلق كان طلاقه في حالة إكراه من القبيلة أو استسلاماً للعرف، وأن من يقر بوقوع هذا الطلاق فهو ساع في معصية ينشأ عليها ولد غير شرعي، ثم ساق الآية ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ (البقرة:220)⁽²⁾.

والملاحظ هنا أن المفتي الزان ساق الآية للاستئناس والاعتبار لا للاستدلال الفقهي، لتأكيد حقيقة أن الله جل وعلا هو الأعلّم بنوايا الناس.

ثالثاً- مسألة في باب الخلع: وهي مسألة خلع المرأة زوجها على مال وكالئ (دين)، وذلك بأن تدفع له مالا وتعفيه من دينها عليه، وقد أجاب المفتي أبو عبد الله محمد الفكون (جد المصنف) بجواز ذلك، واستدل بالآية الدالة على مشروعية الخلع وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ (البقرة:229)⁽³⁾.

يلاحظ هنا استدلال المفتي بآية هي الأصل في ذلك الباب، إذ يسميها العلماء آية

(1) نوازل ابن الفكون- من كتاب النكاح إلى كتاب الغصب:- محمد بن عبد الكريم الفكون القسنطيني، تحقيق: محمد مخلوف، إشراف: أ.د محمد بوركاب، رسالة دكتوراه، تخصص: فقه وأصول، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 1437/1438هـ-2016/2017م، ص30-38.

(2) المصدر نفسه، ص26 و29.

(3) نوازل ابن الفكون- من كتاب النكاح إلى كتاب الغصب:- ص9.

الخلع⁽¹⁾، وهذا يدل على التركيز على الاستدلال بالقرآن وتنزيل آياته على الوقائع ولو في المسائل المشهورة في مقررات الفقه، وفي هذا نكتة وهي التذكير بالأصل دائماً وهو الوحي، وهو ما لا ينبغي على طالب الفقه أن يغفل عنه.

وقد شَفَّع استدلاله هذا بحديث نبوي وهو حديث الحديقة، الذي جاء فيه أن صحابية خالعت زوجها على أن ترد له حديثه⁽²⁾.

رابعاً- مسألة في باب النفقة: وهي مسألة كون النفقة على قدر الاستطاعة، جاءت في سؤال أجاب عنه الشيخ المفتي أبو زكريا يحيى المحجوب السابق ذكره، وقد قرر هذا المفتي أن الزوج ينفق على زوجته على قدر حاله واستدل بآيتين قرآنتين⁽³⁾، وهما: قوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ (الطلاق:7)، وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:286).

فنلاحظ هنا كيف قام المفتي بتنزيل الآيتين على الواقعة، وجمع بين الدليل الخاص والدليل العام، فالآية الأولى خاصة بالنفقة، والثانية أصل عام رجع إليه المفتي لتأكيد حقيقة أن التكليف يكون حسب الاستطاعة، وهذا مسلك بديع.

خامساً- مسألة في باب العتق والملك: وهي مسألة من حلف أن يعتق ما يملك قبل ما يملك فإنه يعتق بمجرد الملك وجوباً، وقد جاءت في سياق استطراد بعيد عن نص السؤال الذي كان متعلقاً بالطلاق، وكانت الإجابة من الشيخ إبراهيم بن يوسف الغمري نقل خلالها كلام ابن رشد الجد ونفيه لوجود الخلاف فيها واستدلاله لها بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (التوبة 75-77)⁽⁴⁾.

قال ابن رشد: "مما لا اختلاف فيه في المذهب أن من حلف بعتق ما يملك قبل أن يملكه، أو أوجبه على نفسه بشرط ملكه له فخص ولم يعم أن ذلك لازم له، والأصل في وجوب ذلك عليه قوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾"⁽⁵⁾.

(1) مفاتيح الغيب (تفسير الرازي): فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420 هـ/2000 م، ج6، ص448. والبحر المحيط في التفسير: أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صديقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420 هـ/1999 م، ج2، ص477 و481.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب الخلع وكيف الطلاق فيه، رقم: 5273.

(3) نوازل ابن الفكون- من كتاب النكاح إلى كتاب الغصب:- ص53.

(4) نوازل ابن الفكون- من كتاب النكاح إلى كتاب الغصب:- ص91.

(5) البيان والتحصيل: أبو الوليد ابن رشد الجد، تحقيق: محمد حيي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1408 هـ/1988 م، ج3، ص267.

والمُلاحظ أن الشيخ إبراهيم بن يوسف الغمري نقل كلام ابن رشد الجدل لكنه اختصر الدليل باكتفائه بالثلاث كلمات الأولى من الآيات.

المبحث الثاني: خصائص توظيف النصوص القرآنية في نوازل الفكون باب الأسرة
أول ملاحظة على منهج هؤلاء الفقهاء في النوازل أنهم لا يستدلون بالنصوص الشرعية إلا قليلاً، لدرجة أنني وجدت ست آيات فقط في باب الأسرة، يعني ست آيات في 102 صفحة من نوازل ابن الفكون، وهو رقم له دلالاته ومبرراته، فنوازل ابن الفكون تركز على بيان مشهور المذهب وتخرج الفروع على الفروع أكثر من الأصول، اللهم إلا إذا كان السياق سياق مناظرة فقهية فهنا يسوق الفقهاء الأدلة بالتفصيل، أما إذا السياق جواباً عن سؤال عامي فإن الفقيه يكتفي بذكر الحكم دون التفصيل في الأدلة، هذا هو الغالب وليست قاعدة مطردة.

ويمكن حصر ملامح منهج علماء قسنطينة في سوق الآيات القرآنية في أربع نواحٍ وهي تنزيل الآيات على الوقائع، والاستدلال بها، والاستئناس بها، والصياغة والمقصود بالصياغة كيفية ذكرهم للآية واستشهادهم بها، والتفصيل كما يلي:

المطلب الأول: تنزيل الآيات على الوقائع:

وهي الوظيفة الأساسية للفقهاء المتصدر للإجابة عن النوازل، فأول ما يقوم به هو البحث عن حكم النازلة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله مستعملاً وسائل الاستنباط والتنزيل، وقد وجدت هذا في نوازل ابن الفكون في باب الأسرة:

أولاً- قام المفتي أبو زكريا يحيى المحجوب بتنزيل آية ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ (الطلاق:7) على واقعة تتعلق بقيام زوجة بالإضرار بزوجها مستغلة فقره وإعساره، وقد أكد المفتي أن هذا الزوج مطالب بالنفقة على قدر استطاعته تطبيقاً للآية⁽¹⁾.

ثانياً- قيام المفتي أبو عبد الله محمد الفكون (جد المصنف) بتنزيل آية الخلع ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ (البقرة:229) على نازلة تتعلق بخلع امرأة لزوجها على مال وكالٍ (دين) لها عليه، فقد أكد المفتي وقوع الخلع هنا وتطبيق الآية على الواقعة⁽²⁾.

المطلب الثاني: الاستدلال بالآيات القرآنية:

الاستدلال عند الفقهاء هو ذكر الدليل⁽³⁾، والذي يهمننا هنا هو كيفية ذكر الدليل القرآني في نوازل الفكون في باب الأسرة، أي كيف وظّف فقهاء قسنطينة الدليل القرآني من

(1) نوازل ابن الفكون- من كتاب النكاح إلى كتاب الغصب:-ص53.

(2) نوازل ابن الفكون- من كتاب النكاح إلى كتاب الغصب:-ص9.

(3) الإحكام في أصول الأحكام: أبو الحسن الأمدي، علق عليه: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1406هـ، ج4، ص118.

خلال هذه النوازل، وبعد التتبع والاستقراء وجدت ما يلي:

أولاً- الاستدلال بالآيات المعروفة بكونها آيات الباب: في كثيرٍ من أبواب الفقه نجد آيات قرآنية هي الأصل في ذلك الباب، يذكرها الفقهاء هي الأولى في معرض بيان مشروعيتها ذلك الباب ودليله، مثل آية ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (البقرة: 183) يذكرها الفقهاء في أوائل أدلة مشروعيتها الصيام، وكذلك آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ (المائدة: 6) في باب الوضوء.

وفي نوازل ابن الفكون نماذج عن هذا، أذكر منها:

- كما سبق ذكره، ساق أبو عبد الله محمد الفكون (جد المصنف) آية الخلع ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ (البقرة: 229) لبيان وقوع الخلع في مسألة أجاب عنها⁽¹⁾.

- كما سبق ذكر أيضاً استدلال المفتي أبو زكريا يحيى المحجوب بالآية: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ (الطلاق: 7) على أن النفقة تكون حسب استطاعة الزوج⁽²⁾.

ثانياً- الاستدلال بالآية باعتبارها أصلاً من الأصول لا يُعدل عنها إلا بدليل آخر: قد يستدل المفتي بالآية باعتبارها أصلاً يُطبق حكمه على الواقعة ما لم يوجد دليل آخر أقوى في الدلالة أو عدم دخول الواقعة في مفهوم الآية بتغير ماهيتها، وقد وجدت حالتين من هذا القبيل في باب الأسرة من نوازل ابن الفكون وهما:

- لما سُئل المفتي أبو عبد الله محمد الفكون (جد المصنف) عن امرأة خالعت زوجها على مال وكالٍ (دين) كان لها عليه⁽³⁾، هنا قام المفتي بالرجوع إلى الأصل وهو الآية ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ (البقرة: 229) فهي لم تحدد كون المال عيناً حاضراً أم ديناً، فيبقى الأمر على الأصل وهو جواز الخلع، ومذهب الإمام مالك يجز أن يكون عوض الخلع معدوماً أو مجهول الوجود والقدر خلافاً للجمهور⁽⁴⁾.

وقد صرح المفتي بذلك صراحة فقال: "والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ...﴾ (البقرة: 229)"⁽⁵⁾.

- نقل المفتي إبراهيم بن يوسف الغمري استدلال ابن رشد (الجد) على وجوب العتق

(1) نوازل ابن الفكون- من كتاب النكاح إلى كتاب الغصب:-ص9.

(2) المصدر نفسه، ص53.

(3) نوازل ابن الفكون- من كتاب النكاح إلى كتاب الغصب:-ص9.

(4) بداية المجتهد ونهاية المقتصد: أبو الوليد ابن رشد الحفيد، دار الحديث، القاهرة، 1425هـ/2004م، ج3، ص90.

(5) نوازل ابن الفكون- من كتاب النكاح إلى كتاب الغصب:-ص9.

على من حلف أن يعتق ما يملك قبل ما يملك، بالآية: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعَقَبَهُمُ نَفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (التوبة 75-77) ⁽¹⁾.

فقد عدَّ ابن رشد الآية هي الأصل هنا، وقد رتبت الآية العقوبة على من نكث ذلك العهد، فدلَّت على وجوب الالتزام به فهي الأصل ولا يُعدل عنها بلا دليل أقوى.

ثالثاً- الاستدلال بالأصول العامة: والمقصود هنا بالأصول العامة تلك الآيات التي تتضمن قواعد كلية تشمل أحكامها عدة أبواب فقهية، مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: 185)، وقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: 256).

وفي باب الأسرة من نوازل ابن الفكون استدلال من هذا القبيل:

- استدلال المفتي أبو زكريا يحيى المحجوب بالآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: 286) وهي الأصول العامة، استدلل بها على كون النفقة على قدر استطاعة الزوج ⁽²⁾.

- المفتي أبو حفص عمر الزان ساق الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ (البقرة: 220) ليستدل على أن النيات لا يعلمها إلا الله ⁽³⁾، وهذه الآية من الأصول العامة رغم ورودها في مسألة خاصة وهي مخالطة أموال الولي مع أموال اليتيم.

المطلب الثالث: الاستئناس بالآيات القرآنية:

قد يورد المفتي الآية من أجل الاستئناس لتأييد الفكرة والإقناع والاعتقاس، لا من أجل الاستدلال الفقهي.

والاستئناس مرتبة دون الاستدلال، فالاستدلال هو البرهان والتأصيل، أما الاستئناس فهو التأييد والإقناع بقرينة أقل من الدليل، مثلاً نجد أبا الحسن الرجائي يصف إيراد المالكية لآيات قرآنية ليستدلوا على اشتراط الصوم في الاعتكاف، وصفه بأنه استئناس بالقرآن لا استدلال به، قال الرجائي: "وكثير ما يتسارع أهل المذهب إلى الاستدلال على أن الاعتكاف لا يكون إلا بصوم، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ (البقرة الآية 187). ولا دليل في ذلك، غير أنه من باب الاستئناس بالقرآن" ⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ البيان والتحصيل: أبو الوليد ابن رشد الجد، ج3، ص267. و نوازل ابن الفكون- من كتاب النكاح إلى

كتاب الغصب-: محمد بن عبد الكريم الفكون القسنطيني، تحقيق: محمد مخلوف، ص91.

⁽²⁾ نوازل ابن الفكون- من كتاب النكاح إلى كتاب الغصب-: ص53.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص26 و29.

⁽⁴⁾ مناهج التحصيل ونتائج لطائف التأويل في شرح المدونة وحل مشكلاتها: أبو الحسن الرجائي، اعتنى به: أبو الفضل الدمياطي، وأحمد بن علي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1428 هـ/2007 م، ج2، ص153.

وهذا الاستئناس موجود في نوازل ابن الفكون في باب الأسرة منه، وقد وظّفه فقهاء قسنطينة في فتاويهم، ومن ذلك تشبيه المفتي أبو زكريا يحيى المحجوب حال الآباء في عصره وبلده قسنطينة بحال الآباء في الجاهلية الذين وصفتهم الآية ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (النحل:58)⁽¹⁾، فقد ساق الآية هنا للاستئناس ودعم الفكرة، ووجه الشبه أن قسنطينة في القرن 11 هـ (17م) كانت بها تكاليف الأعراس غالية خاصة جهاز العروس، الأمر الذي يجعل الأولياء في حيرة وحرّج حالهم كحال الرجل في الجاهلية حين يُرزق ببنت.

وهذا التشبيه له غرض واضح وهو التحذير من ظاهرة المغالاة في تكاليف الأعراس والتباهي بها، وهو غرض إصلاحي يدل على اهتمام الفقهاء بالجانب الاجتماعي وممارستهم لوظيفة الإصلاح، وعدم اكتفائهم بالفتوى ونقل الأحكام الشرعية.

المطلب الرابع: منهجهم في ذكر النصوص القرآنية:

بناءً على استقرائي لنوازل ابن الفكون وجدت أن إيراد الدليل القرآني له خاصيتان، وهما اختصار الدليل وعدم ذكر وجه الاستدلال، والتفصيل كما يلي:

أولاً- الاختصار: يذكر المفتي الدليل القرآني مختصراً، مكتفياً بالشاهد منه أو دونه، فقد يكتفي بذكر كلمتين أو ثلاث من الآية، وربما يرجع هذا لأحد هذه الأسباب:

* طبيعة النوازل، فالمفتي له هدف وهو بيان الحكم، فيركز على الهدف أكثر من الوسائل.

* قد يكون السبب كون الآية جارية على الألسن أو ربما لكون المجتمع القسنطيني يكثر فيه حفظ القرآن وتلاوته.

ومن أمثلة الاختصار في الاستدلال قيام الشيخ إبراهيم بن يوسف الغمري بنقل استدلال ابن رشد واختصاره، فاكتفى بذكر الكلمات الثلاثة الأولى منها " وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ " (التوبة:75)⁽²⁾، رغم أن ابن رشد استدلال بثلاث آيات كاملة⁽³⁾.

ثانياً- عدم ذكر وجه الاستدلال: وقد يسوق المفتي الآية ولا يذكر وجه الاستدلال منها ربما لوضوحه، وعادة ما يكون ذكر وجه الاستدلال في سياق المناظرة، أما الإجابة على النوازل فلا يتطلب ذلك، فيكفي أن يوضح المفتي الحكم الشرعي والدليل باختصار إذا تطلب الأمر، مع التنبيه على وجود المناظرات والمناقشات الفقهية بكثرة في كتب النوازل.

(1) نوازل ابن الفكون- من كتاب النكاح إلى كتاب الغصب:- ص30-38.

(2) نوازل ابن الفكون- من كتاب النكاح إلى كتاب الغصب:- ص91.

(3) البيان والتحصيل: أبو الوليد ابن رشد الجد، ج3، ص267.

وقد لاحظت عدم ذكر وجه الاستدلال في كل الآيات المستدل بها في باب الأسرة من نوازل ابن الفكون.

الخاتمة

في الأخير أختتم هذا العرض بأهم النتائج التي توصلت إليها، وأهم التوصيات التي ثارت في ثناياه:

أولاً- النتائج:

- جاء توظيف النصوص القرآنية في نوازل ابن الفكون متفرقاً في أبواب مختلفة وهي الصداق والجهاز والطلاق والخلع والنفقة والعتق والملك.

- تلاحظ قلة الاستدلال بالنصوص الشرعية في نوازل ابن الفكون باب الأسرة، لدرجة وجود ست آيات فقط في 102 صفحة وهي الصفحات الخاصة باب الأسرة.

- من أسباب قلة الاستدلال بالنصوص الشرعية في نوازل ابن الفكون كونها فتاوى تركز على بيان مشهور المذهب وتخريج الفروع على الفروع أكثر من الأصول، ولم تأت في سياق مناظرات فقهية.

- تناولت هذه الدراسة منهج علماء قسنطينة في توظيف الآيات القرآنية في باب الأسرة من خلال أربع نواحي وهي تنزيل الآيات على الوقائع، والاستدلال بها، والاستئناس بها، والصياغة والمقصود بالصياغة كيفية ذكرهم للآية واستشهادهم بها.

- الاستئناس مرتبة دون الاستدلال، فالاستدلال هو البرهان والتأصيل، أما الاستئناس فهو التأييد والإقناع بقرينة أقل من الدليل، وقد استعملهما فقهاء قسنطينة في مسائل الأسرة.

- لم يهتم علماء قسنطينة الجانب الإصلاحي بل وظفوه في فتاويهم ولم يكون إيرادهم للآيات القرآنية مقتصرًا على الاستدلال على الأحكام بل أحياناً يكون لغرض إصلاحي مثلما رأينا توظيف المفتي أبو زكريا يحيى المحجوب للآية ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (النحل:58) للتحذير من ظاهرة المغالة في جهاز العروس وتكاليف الأعراس والتباهي بها فهي تجعل حال الولي يشبه حال الرجل في الجاهلية يشعر بالعار من البنات.

- تميزت طريقة إيراد الآيات القرآنية عند علماء قسنطينة -من خلال نوازل ابن الفكون- بالاختصار والاكتفاء بالشاهد وعدم ذكر وجه الاستدلال.

ثانياً- التوصيات:

يوصي الباحث بإجراء البحوث المختلفة على نوازل ابن الفكون من مختلف الجوانب الأصولية والفقهية والتاريخية والاجتماعية، لإمطة اللثام على تاريخ ثقافي لم ينل نصيبه الكافي من البحث.

وأركز في توصيتي -بحكم التخصص- على الجانب الأصولي كدراسة مناهج الاستدلال بالقرآن والسنة استنباطاً وتزيلاً، والاستدلال ببقية الأدلة في هذه النوازل.

قائمة المصادر والمراجع

- **الإحكام في أصول الأحكام:** أبو الحسن الأمدي، علق عليه: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1406هـ.
- **البحر المحيط في التفسير:** أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صديقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ/1999م.
- **بداية المجتهد ونهاية المقتصد:** أبو الوليد ابن رشد الحفيد، دار الحديث، القاهرة، 1425هـ/2004م.
- **البيان والتحصيل:** أبو الوليد ابن رشد الجد، تحقيق: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1408هـ/1988م.
- **تاريخ الجزائر الثقافي:** أبو القاسم سعد الله، دار البصائر، الجزائر، 2007م.
- **درة الحجال في أسماء الرجال:** أبو العباس المكناسي ابن القاضي، دار التراث، القاهرة، والمكتبة العتيقة، تونس، ط1، 1391هـ/1971م.
- **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية:** محمد مخلوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ/2003م.
- **شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية:** أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1406هـ/1986م.
- **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر:** عادل نويمض، مؤسسة نويمض الثقافية، بيروت، ط2، 1400هـ/1980م.
- **معجم المؤلفين:** عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **مفاتيح الغيب (تفسير الرازي):** فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ/2000م.
- **نوازل ابن الفكون- من كتاب النكاح إلى كتاب الغصب:** محمد بن عبد الكريم الفكون القسنطيني، تحقيق: محمد مخلوف، إشراف: أ.د محمد بوركاب، رسالة دكتوراه، تخصص: فقه وأصول، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 1437/1438هـ-2016/2017م.
- **نيل الابتهاج بتطريز الديباج:** أحمد بابا التنبكتي، تحقيق: عبد الحميد الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، ليبيا، ط2، 2000م.

**تنزيل النص القرآني في صناعة الفتوى
عند علماء المغرب الإسلامي المعاصرين
" محمد عبد العزيز جعيط " أنموذجاً**

د / محمد حناي

قسم العلوم الإنسانية-كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة الوادي

mohammed-hannai@univ-eloued.dz



الملخص

التَّنْزِيلُ الْقُرْآنِيُّ هو تلك النُّصوص الإلهيَّة المحكَّمة، صاحبة الحاكميَّة المطلقة من خلال العودة إليها دائماً والبناء عليها، حتى تكون مُخرجات الفتوى صحيحة، وهذا بالاستناد إلى فقه النُّصوص في ظلِّ مقاصد الشَّريعة، وفقه الواقع ومتغيراته، وتحقيق المناط، والتَّغيرات الزَّمنيَّة والمكانيَّة، والأخذ بالعادة والأعراف، والتَّمييز بين المقاصد والوسائل، كلُّ هذه الأسس استند إليها العلَّامة "مُحمَّد عبد العزيز جعيط" في صناعة فتواه، فكان أحد أعلام المغرب الإسلاميِّ المعاصرين المجيدين في الفقه وآليات صناعة الفتوى من خلال فقهه للتَّنْزِيلِ الْقُرْآنِيِّ.

الكلمات المفتاحية: التَّنْزِيل - النَّصُّ القرآني - صناعة الفتوى - مُحَمَّدٌ عبد العزيز جعيط - العلماء المعاصرون.

Abstract:

The Qur'anic download is those divinely ordained texts that possess the absolute rule of By always returning to it and building on it, so that the outputs of the fatwa are correct, and this Relying on the jurisprudence of texts in the light of the purposes of the Sharia, jurisprudence of reality and its variables, and the realization of The environment, temporal and spatial changes, the adoption of customs and mores, and the distinction between purposes.

And the means, all these foundations relied upon by the scholar “Mohammed Abdel Aziz Juait” in the manufacture of His fatwa, he was one of the flags of the contemporary Islamic Maghreb, innovators in jurisprudence and the mechanisms of industry Fatwa through jurisprudence to download the Qur’an.

Key words: Download - Quranic text - Fatwa industry - Muhammad Abdel Aziz Djait – scholars Contemporaries.

مُقَدِّمَة

تنزيل النَّصِّ القرآني هو حِكْمَة إلهيَّة رُبِطَتْ بزمان ومكان، وأُحِيطَتْ بظروف وأسبابٍ للتنزيل أراد الله منها أن تكون مَرَجَعاً، فباستقراءها واستقصائها وفهم كنهها وفقه لغة الآيات التي نزلت في حَقِّها تُجَدِّد حياة الإنسان، على قاعدة أن الإسلام دين صالح لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، بل مُصلِحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، فكُلُّما استدعت الظُّروف لتوظيف ذلك التَّنْزِيلِ سُمِحَ بالبناء عليه، شريطة أن نأخذ بعين الاعتبار التَّغْيِيرَاتِ والمتغيِّرات والتَّطَوُّرات الحاصلة على مستوى العلوم والمعارف والفُهوم والإدراكات الجديدة والمستجدة في حياة المسلمين خاصة والبشريَّة عامة، حتى نستطيع توظيف التَّنْزِيلِ القرآني والدَّهَابِ به في اتجاه الأحوط من فتوى، بالاستناد إلى الورع الذي لا يُرْجى منه إلا الصَّلاح والإصلاح وسعادة البشريَّة وتسييرها وفق النُّهج الرِّبَّاني الذي ارتضاه الله لخلقه بالاستناد إلى حاكميَّة النَّصِّ المنزل. على هذا النُّهج سار العلَّامة "مُحمَّد عبد العزيز جعيط" في صناعة الفتوى.

إشكاليَّة الدِّراسة: حتى نستشِفَّ مسار العلَّامة "مُحمَّد عبد العزيز جعيط" وطريقة صناعته للفتوى، قمنا بطرح الإشكاليَّة التَّالية: ما الأسس والمُقَوِّمات التي استند إليها العلَّامة "جعيط" في استنطاق وتوظيف التَّنْزِيلِ القرآني في صناعة الفتوى؟

وحتى نُجيب عن هذه الإشكاليَّة استعنا بعدَّة أسئلة ثانويَّة، هي كالآتي:

(1)- ما تعريف التَّنْزِيلِ القرآني؟

(2)- ما المقصود بصناعة الفتوى؟

(3)- من هو العلَّامة مُحمَّد عبد العزيز جعيط؟

(4)- ما أسس ومُقَوِّمات منهجه في توظيف النَّصِّ القرآني عند صناعة الفتوى؟

(5)- كيف استخدم التَّنْزِيلِ القرآني في صناعة الفتوى؟

مناهج الدِّراسة: اتبعنا في هذه الدِّراسة عدَّة مناهج، هي:

- المنهج التَّاريخي: اعتمدناه لرصد تطورات حياة العلَّامة "جعيط" وتطورها المفاهيمي والمنهجي العلمي. كما قمنا فيه بجمع أسس فتاوى العلَّامة "جعيط" والتَّحْقِيق في بُنيتهما عند صناعة الفتوى.

- المنهج الاستقصائي: اعتمدناه للقيام بمسح لما قدَّمه من مفردات تشرح مضامين التَّنْزِيلِ القرآني من منظور عربيَّة القرآن الكريم لا عربيَّة اللسان العربي، وكيف وظَّفها. مع تأصيل للمصطلحات المستخدمة في الورقة البحثيَّة.

- المنهج الاستقرائي: اعتمدناه للجمع والملاحظة في كَيْفِيَّة حصول عمليات البناء الفكري المنهج عند العلَّامة في طريقة صناعته للفتوى.

• **المنهج التحليلي:** لازمنه في كامل الورقة البحثية لاستنطاق المادة العلمية التي اعتمدها العلامة "جعيط" في صناعة الفتوى.

أهمية الدراسة: تكمن أهمية هذه الدراسة في رصد التطور العلمي المعرفي للعلامة "محمد عبد العزيز جعيط" بمقتضيات النص القرآني وتنزيلاته، وغوصه في لجج معارف العلوم الإسلامية، وتطويعها في صناعة الفتوى بما يفيد المستفتي على قاعدة الأحوط.

هدف الدراسة: هو الوقوف عند تطور مدرسة العلوم الشرعية المعاصرة ببلاد المغرب الإسلامي في كيفية تنزيلها للنص القرآني عند صناعة الفتوى، ممثلة في أنموذج دراستنا العلامة "محمد عبد العزيز جعيط".

الدراسات السابقة: أهم دراستين اعتمدنا عليهما هما: أطروحة دكتوراة للدكتور "محمد بن إبراهيم بوزغيبية"، وسمها بعنوان: "السَّيْخُ مُحَمَّدُ الْعَزِيزُ جَعِيطُ، حياته وفقهه"، وكتاب آخر لنفس المؤلف، وسمه بعنوان: "فتاوى شيخ الإسلام في تونس محمد العزيز جعيط واجتهاداته وترجيحاته"، مع بعض المقالات التي تناولت حياته وفتاويه.

أولاً- تعريف التَّنْزِيلِ القرآني وصناعة الفتوى.

استخدمت كلمة "التَّنْزِيلُ" في القرآن الكريم خمس عشرة مرة¹، ويرى الباحثون في علوم القرآن والمفسِّرون أنَّ المراد في سِتَّةٍ منها هو: القرآن الكريم، فيما جاءت الاستخدامات الأخرى لهذه الكلمة على نحوٍ يلامس القرآن، ولكن لا على النَّحْوِ الذي يُفهم بأنَّه اسم له، وإنَّما جاءت على نمطٍ يُبيِّنُ طبيعة هذا الكتاب الإلهي، وغالباً ما وردت إلى جانب كلمة "القرآن" وتسمياته الأخرى وتحمل حالة الوصف له. كما في "سورة الإنسان" التي تحدثت عن الإنسان وسلوكاته، وبعدها قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾².

وحتى نفهم التَّنْزِيلِ القرآني في صناعة الفتوى يجب التَّعرض إلى تأصيل مُصطلح التَّنْزِيلِ لغوياً.

¹ - في: سورة الإسراء: الآية 6 - سورة طه: الآية 4 - سورة الفرقان: الآية 25 - سورة الشعراء: الآية 192 - سورة السجدة: الآية 2 - سورة يس: الآية 5 - سورة الزمر: الآية 1 - سورة غافر: الآية 2 - سورة فصلت: الآية 2 - سورة فصلت: الآية 42 - سورة الجاثية: الآية 2 - سورة الأحقاف: الآية 2 - سورة الواقعة: الآية 80 - سورة الحاقة: الآية 43 - سورة الإنسان: الآية 23. ينظر، الرَّأْيُ الْأَصْفَهَانِي: مُفْرَدَاتُ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، تج: صفوان عدنان داوودي، ط 4، دار القلم، دمشق، 2009م، ص 799 - 880. وينظر، جلال الدِّين السُّيُوطِي: النُّزْهُ الْمُنْتَوَرُ فِي التَّفْسِيرِ الْمُنْتَوَرِ، ج 6، ط 1، دار الفكر، بيروت، 2011م، ص 321. وينظر، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: بصائر ذوي التَّمْيِيزِ فِي لَطَائِفِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، تج: مُحَمَّدُ عَلِي النَّجَّارُ وَعَبْدُ الْعَلِيمِ الطَّحَاوِي، ط 3، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1996م، 49/2 و 39/5. وينظر، عادل عصمت: الفرق بين (الإنزال) و(التنزيل).. في عربية المصحف، الموقع الإلكتروني: <https://www.albawabhnews.com/4409929>. تاريخ الزيارة: 23 سبتمبر 2022م.

² - سورة الإنسان: الآية 23.

1- تعريف التَّنْزِيل:

1 - 1 - لغة: "التَّنْزِيل" مصدر باب تفعيل، من الرُّبَاعِي للفعل "نَزَلَ"، ويدلُّ على الانتقال من أعلى إلى أسفل. فعند القول بنزول الشيء من أعلى إلى أسفل، يتداعى إلى الأذهان عند ذكر هذه الكلمة ترُّجُل الرَّاكِب من مركبه.

قال "ابن فارس" (ت. 395هـ/1005م): (ن. ز. ل) كلمة صحيحة تدلُّ على هبوط شيء ووقوعه. كأن نقول: «نزل عن دابته، نزل المطر من السَّمَاء، وما إلى ذلك»¹.

وهكذا الحال بالنبسبة إلى نزول القرآن الكريم من لدن الله تعالى على قلب الرَسُول ﷺ. والحقيقة هي أَنَّ القرآن الكريم تنزَّل من مقام العلم الإلهي إلى مرحلة الألفاظ والمفاهيم البشرية، ليكون مفهوماً لدى الخلق. وهكذا عندما يوصف القرآن الكريم بهذه الكلمة، فذلك يدلُّ على نزوله من مكانة عليا ومن موضع سامق، لهداية البشر وإرشادهم وتوعيتهم مُتدرجاً مُفرقاً طيلة مدَّة الرِّسالة المحمَّديَّة².

1 - 2 - التَّنْزِيل في المصطلح القرآني (عربية القرآن): هو وجود موضوعي للشيء خارج الوعي والإدراك الإنساني، أي قد يكون الشيء موجود بجوارك لكنك لا تدرك وجوده أو تشعر به؛ أي لم يدخل إلى وعيك. فالتَّنْزِيل في عربية القرآن الكريم، هو الإنزال ثمَّ الإدراك، أو المُنْزَل المُدْرَك³.

2- صناعة الفتوى: هو مصطلح مُركب يجب تعريف مفردتيه لتبين معناه والمقصود

به.

2 - 1 - تعريف الفتوى:

2 - 1 - 1 - لغة: الفِتْيَا، يُقال في اللسان العربي: "أفتى الفقيه في المسألة": أي بين

حكمها.

واستفتيتُ، أي سألتُ عن الحكم، قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾⁴. ومنه يُقال: فَتَوَى وَفُتِيَ⁵. وأفتاه في الأمر، أي أبانه له، وأفتيته في مسألة ما، أي

¹ - أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، نج: مُحَمَّد عبد السلام هارون، ج. 5، ط. 1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1979م، ص. 417.

² - الرَّاغِب الأصفهاني: مُفردات ألفاظ القرآن الكريم، المصدر السابق، ص. 799.

³ - مُحَمَّد شُحُور: الكتاب والقرآن - قراءة مُعاصرة، ط. 1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1990م، ص. 155 - 163.

⁴ - سورة النِّسَاء: الآية. 176.

⁵ - أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، المصدر السابق، ج. 4، ص. 474.

أجبتُه عنها¹.

فالفَتوى في اللغة، هي: "بيان الحكم".

2 - 1 - 2 - اصطلاحاً: الفتوى، هي إخبارٌ عن الله تعالى في إلزامٍ أو إباحة². وقيل: الفُتْيَا، هي توقيُّعٌ عن الله تبارك وتعالى³.

فالفَتوى في الاصطلاح الشرعي تُستعمل بالمعنى اللغوي نفسه الذي يتضمن إجابة السائل وبيان الحكم الشرعي لمن سأل عنه على غير وجه الإلزام⁴.

2 - 2 - تعريف الصنّاعة:

2 - 2 - 1 - لغة: صَنَعَ، الصَّادُ والتُّونُ والعَيْنُ، أَصَلَ صَحِيحٌ واحدٌ، وهو عمل الشَّيء صُنْعاً⁵.

والصنّاعة حرفة الصّانع، وعمله الصنّعة، والصنّاعة: ما نستطيع من أمر⁶.
والصنّ: هو إجاد الفعل، وكلُّ صنْعٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ صنْعٌ⁷؛ فالصنّاعة لغة: هي الفعل، بل إيجاد الفعل.

2 - 2 - 2 - اصطلاحاً: عند العلماء: «الصنّاعة ملكةٌ نفسانيّة يصدر عنها الأفعال الاختياريّة من غير روية، وقيل عِلْمٌ متعلق بكيفيّة العمل، حاصل بمزاولة العلم.. هذا في العرف العام، أمّا في العرف الخاص أعمُّ مما يحصل بمزاولة العمل... بل يقال لكلِّ علم يمارسه الرّجل حتى صار كالحرّفة له أنّه صنّاعته»⁸.

¹ - جمال الدّين بن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، مج. 5، ج. 37، ط. 1، دار المعارف، القاهرة، 1979م، ص. 3348.

² - أحمد بن دريس القرافي: الفروق. أنوار البروق في أنواء الفروق، تح: مُحمّد أحمد سراج الدّين و علي جمعة مُحمّد، ج. 4، ط. 1، دار السّلام للطباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة، القاهرة، 2001م، ص. 1184.

³ - عثمان بن عبد الرّحمن الشّهريزي (ابن صلاح): أدب المفتي والمُسْتَفِي، تح: موفق عبد الله عبد القادر، ط. 1، عالم الكتب للطباعة والنّشر والتّوزيع، 1986م، ص. 72.

⁴ - علي بن مُحمّد بن علي الجرجاني: التّعريفات، تح: إبراهيم الأبياري، ط. 1، دار الرّيان للتراث، القاهرة، 1985م، ص. 49. وينظر أيضاً: عبد الرّحمن بن جاد الله البناني المغربي: حاشية البناني على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع لابن السّبكي، ج. 2، ط. 1، دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، 1998م، ص. 397.

⁵ - أحمد بن فارس بن زكريا: مُعْجَم مقاييس اللغة، المصدر السّابق، ج. 3، ص. 313.

⁶ - جمال الدّين بن منظور: لسان العرب، المصدر السّابق مج. 4، ج. 28، ص. 2508.

⁷ - مُحمّد المرتضى الحسيني الرّيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تح: عبد الحلّيم الطّحاوي، ج. 21، ط. 1، مطبعة حكومة الكويت، الكويت 1984م، ص. 363.

⁸ - عبد ربّ التّئي بن عبد الرّسول الأحمد نكري: دستور العلماء، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، تع وتحر: حسن هاني فحص، ج. 2، ط. 1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2000م، ص. 181.

فكلُّ علم يمارس كالحرفة هو صناعة، إذاً فعلم الفقه أو الفتوى الممارسة من طرف الفقهاء هو صناعة.

يقول الإمام علي بن عبد الكافي السُّبكي (ت. 756هـ/1355م): «قد يطلق العلم باصطلاح ثالث على الصِّناعة، كما تقول على النَّحو أي صِناعته فيندرج فيه الظَّن واليقين، وكلُّ ما يتعلق بنظرٍ في المعقولات لتحصيل مطلوبٍ يسى علماً ويُسى صناعة»¹.

أمّا عن المركب اللفظي "صناعة الفتوى"، فقد ظهر هذا المصطلح عند الشَّيخ "عبد الله بن الشَّيخ المحفوظ بَيَّة" أحد علماء عصرنا الحالي، في كتابه (صناعة الفتوى وفقه الأَقْلِيَّات)، حيث قال: «الفتوى منتج صناعي ناتج عن عناصر عدَّة؛ منها: الدَّلِيل، ومنها: الواقع والعلاقة بين الدَّلِيل بأطرافه المختلفة التي تدور حول النَّص، وبين الواقع بتعقيده»².

فالفتوى نتيجة لامتزاج الدَّلِيل في الواقع، ثمَّ يُوضَّح أكثر المقصود بالمصطلح: «ووجه كون الفتوى صناعة، أنَّ المفتي عندما تُردُّ إليه نازلة، يُقَلِّب النَّظْرَ أوَّلًا في الواقع وهو حقيقة الأمر المستفتَى فيه إنَّ كان عقداً من العقود المستجدَّة، كيف نشأ وما هي عناصره المكوِّنة له؛ كعقود التَّأمين والإيجار المنتهي بالتَّمليك مثلاً، والدَّيُون المترتبة في الدِّمَّة في حالة التَّضخُّم، فبعد تشخيص العقد وما يتضمَّنُه، عندئذ يبحث عن الحكم الشرعي الذي ينطبق على العقد إنَّ كان بسيطاً وعلى أجزائه إنَّ كان مركَّباً، مستعرضاً الأدلَّة على التَّرتيب من نصوص وظواهر إنَّ وُجدت، وإلَّا فاجتهاد الرَّأي من قياس بشروطه، واستصلاح، واستحسان. إنَّها عمليَّة مُركبة وصنعة بالمعنى الآنف الذَّكر»³.

بهذا الكلام تمَّ بسطُ عمليَّة "صناعة الفتوى" عن طريق التَّمثيل لمراحلها المختلفة، من تقليب النَّظَر في النَّازلة وفق متطلَّبات واقعها، إلى تكييفها الفقهي وفق النصوص أو بالاجتهاد بالرَّأي، والخروج بالحكم الشرعي المنطبق على النَّازلة.

كما عرَّفها "قطب مصطفى سانو" بقوله: «هي عبارة عن: تلك الملكة الرَّاسخة وذلك العلم المنهجي الموضوعي الواعي الذي يقتدر به على إخبار السَّائل عن حكم الشَّرع بدليله في نازلة، إخباراً يُمكنه من تمثيل ذلك الحكم، والصُّدور عنه في ضوء الواقع الذي يعيش فيه»⁴.

¹ - علي بن عبد الكافي السُّبكي: الإبهاج في شرح المنهاج، ج. 1، ط. 1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 1983م، ص. 30.

² - عبد الله بن الشَّيخ المحفوظ بَيَّة: صناعة الفتوى وفقه الأَقْلِيَّات، ط. 1، دار المنهاج للنشر والتَّوزيع، جدَّة، 2007م، ص. 12.

³ - نفسه، ص. 14.

⁴ - قطب مصطفى سانو: صناعة الفتوى المعاصرة، ط. 1، مكتبة الرشد، الرياض، 2013م، ص. 24.

ويعتبر هذا التعريف أكثر تحديداً، فصناعة الفتوى مَلَكَه وعلمٌ من خلاله يمكن الوصول إلى الحكم الشرعي للنازلة في ضوء متطلبات واقعها.

بناء على هذا الأساس تعتبر «الفتوى نتاجاً صناعياً مُتَوَلِّداً من عناصر متفاعلة متآزرة: النَّص بمدركه الشرعي، والمقصد الثانوي في النَّص، والواقع المنزل عليه، والمجتهد بأدواته التي تكفل الملاءمة بين النَّص، والمقصد، والواقع»¹.

والملاحظ من تعريفات العلماء أنَّ «مصطلح الصِّناعة أَلْيَقُ بالفتوى من غيره، وأوفى بالتعبير عن خصوصيتها الذاتية وبنيتها التركيبية»².

فالفتوى إذن: هي صناعة تستلزم عدّة أدوات تتفاعل فيما بينها لتنتج الحكم الشرعي، الموافق لروح التشريع وهذه الأدوات هي: المفتي الحاذق والورع، النَّص، المقصد من وراء النَّص، وكذا الواقع المنزل عليه.

ثانياً- العلامة مُحَمَّد عبد العزيز جعيط ومسار حياته.

(1)- نسبه ومولده:

هو مُحَمَّد العزيز بن يوسف بن أحمد بن عثمان بن القاسم بن مُحَمَّد بن المبروك بن مُحَمَّد جعيط. وُلد بالمدينة العتيقة بالعاصمة التُّونسيّة في آخر شهر رجب 1303هـ/ أوائل شهر ماي 1886م³.

(2)- أسرته:

تنحدر هذه الأسرة من "اليمن"، ثمَّ نزلت بمدينة "القيروان" عند الفتح الإسلامي، وانتقل جدُّه الأكبر مُحَمَّد جعيط (ت. 1149هـ/ 1736م)⁴ إلى العاصمة، وتقلّد منصب الإفتاء في عهد حسين بن علي التركي (ت. 1153هـ/ 1740م)⁵. وبرز من عائلته الكثير من العلماء؛ منهم: والده الشَّيخ يوسف جعيط (1333هـ/ 1915م)⁶، وابن عمِّه الشَّيخ مُحَمَّد بن حمودة جعيط

¹ - قطب الرّيسوني: صناعة الفتوى في القضايا المعاصرة. معالم وضوابط وتصحيحات، ط.1، دار ابن حزم، بيروت، 2014م، ص.30.

² - نفسه، ص.29.

³ - كمال الدّين جعيط: «الشَّيخ جعيط حياته وآثاره»، مجلة جواهر الإسلام، ع.4، الشَّركة التُّونسيّة لفنون الرّسم، تونس، 1977م، ص.44 وما بعده. وينظر أيضاً: مُحَمَّد محفوظ: تراجم المؤلفين التُّونسيين، ج.2، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م، ص.37.

⁴ - حسين خوجة: الدَّليل لكتاب بشار أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان، ط.1، المطبعة الرّسميّة العربيّة، تونس، 1908م، ص.157 - 158.

⁵ - أحمد بن أبي الضَّيَّاف: اتحاف أهل الزَّمان بأخبار ملوك تونس وعبد الأمان، نج: لجنة من وزارة الثَّقافة التُّونسيّة، مج.1، ج.2، ط.2، الدَّار العربيّة للكتاب، تونس، 2004م، ص.118.

⁶ - مُحَمَّد محفوظ: تراجم المؤلفين التُّونسيين، المرجع السَّابق، ج.2، ص.42.

(1337هـ/1918م)¹ من خيرة علماء أصول الفقه الذين عرفتهم جامعة الزيتونة، وهو صاحب "منهج التحقيق والتوضيح لحلّ غوامض التَّنقيح" وهو حاشية قيِّمة على تنقيح "القرافي"².

(3)- تعلُّمه:

كان مولد الشَّيخ "مُحمَّد عبد العزيز جعيط" بعد دخول المحتل الفرنسي إلى "تونس"، فوقع الاهتمام به من طرف والده أيَّما اهتمام حيث اعتنى بتربيته، وأفرد له مؤدِّباً خاصاً بمنزله من أجل أن يغرس فيه مبادئ الدِّفاع على هوية بلاده العربيَّة الإسلاميَّة، وتمكَّن مُنذ صغره من حفظ القرآن الكريم والمتون، وأخذ مبادئ العلوم³، ثمَّ لما اشتدَّ عوده انخرط في سلك التَّعليم بجامع الزيتونة الأعظم، وتحصَّل على كلّ الشَّهادات العلميَّة التي يمنحها هذا المركز العلمي الكبير إلى أن سبَّي أستاذاً به عند إحداث هذه الخطة سنة (1353هـ/1935م)⁴.

(4)- شيوخه:

تتلذذ الشَّيخ "مُحمَّد عبد العزيز جعيط" على يد شيوخ كثيرين؛ منهم: الشَّيخ "سالم بوحاجب" (ت.1342هـ/1924م)⁵ والشَّيخ "مُحمَّد النُّخلي القيرواني" (ت.1342هـ/1924م)⁶ والشَّيخ "إبراهيم المارغني" (ت.1350هـ/1931م)⁷ والشَّيخ "مُحمَّد الخضر حسين" (ت.1377هـ/1958م)⁸، وكوَّنت منه هذه النُّخبة العلميَّة إحاطة شاملة بالعلوم النَّقليَّة

¹ - نفسه، ص.35. وينظر أيضاً، خير الدِّين الزُّركلي: الأعلام، ج.6، ط.1، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م، ص.110.

² - مُحمَّد محفوظ: تراجم المؤلفين التُّونسيين، المرجع السَّابق، ج.2، ص.35.

³ - نفسه، ص.37. وينظر أيضاً، كمال الدِّين جعيط: «الشَّيخ جعيط حياته وآثاره»، المرجع السَّابق، ص.46.

⁴ - مُحمَّد محفوظ: تراجم المؤلفين التُّونسيين، المرجع السَّابق، ج.2، ص.37.

⁵ - مُحمَّد بن عمر بن قاسم مخلوف: شجرة النُّور الزُّكيَّة في طبقات المالكيَّة، تع: عبد المجيد خيالي، ج.1، ط.2، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 2010م، ص.605. رقم التَّرجمة: 1691. وينظر أيضاً، مُحمَّد الخضر حسين: تونس وجامع الزيتونة، تع: علي الرِّضا الحسيني، ط.1، مؤسَّسة دار النُّوادر، دمشق، 2010م، ص.182. وينظر أيضاً، خير الدِّين الزُّركلي: الأعلام، المرجع السَّابق، ج.3، ص.71-72.

⁶ - مُحمَّد بن عمر بن قاسم مخلوف: شجرة النُّور الزُّكيَّة في طبقات المالكيَّة، المرجع السَّابق، ج.1، ص.605. رقم التَّرجمة: 1690. وينظر أيضاً، مُحمَّد محفوظ: تراجم المؤلفين التُّونسيين، المرجع السَّابق، ج.5، ص.26. وينظر أيضاً، مُحمَّد الفاضل بن عاشور: الحركة الأدبيَّة والفكرية في تونس، ط.1، الدَّار التُّونسيَّة للنشر، 1972م، ص.36.

⁷ - مُحمَّد محفوظ: تراجم المؤلفين التُّونسيين، المرجع السَّابق، ج.4، ص.229. مُحمَّد بوذينة: مشاهير التُّونسيين، ط.1، مطبعة شركة فنون الرِّسم والنَّشر والنَّحافة، تونس، 1988م، ص.42.

⁸ - مُحمَّد الصَّالح بن عمر: الأدب الحديث والمعاصر، ط.1، بيت الحكمة قرطاج، تونس، 1990م، ص.13. وينظر أيضاً، مُحمَّد محفوظ: تراجم المؤلفين التُّونسيين، المرجع السَّابق، ج.2، ص.126. وينظر أيضاً، مُحمَّد بوذينة: مشاهير التُّونسيين، المرجع السَّابق، ص.347.

والعقلية، وفكراً نافذاً في المباحث الغامضة، وقدرة على حلِّ المسائل المستعصية¹.

(5)- وظائفه:

تولَّى الشيخ "مُحمَّد عبد العزيز جعيط" الكثير من الوظائف بدءاً بخطَّة التدريس بالجامع الأعظم منذ سنة 1328هـ/1910م. كما عُيِّن مُدرِّساً بالمدرسة الصَّادقية سنة 1332هـ/1914م، وتقلَّد منصب الإفتاء على مقتضى المذهب المالكي سنة 1337هـ/1919م، وفي سنة 1357هـ/1939م، سُمِّيَ شيخاً للجامع الأعظم وفروعه.

وترقَّى إلى منصب شيخ الإسلام المالكي سنة 1364هـ/1945م، وبعد أكثر من سنتين كُلِّف بوزارة العدل مع إبقائه على خطة مشيخة الإسلام، وكان ذلك سنة 1376هـ/1947م. وعندما وقع استقلال تونس سعي مفتياً للديار التُّونسيَّة إلى سنة 1380هـ/1960م حيث أُحيل على الرَّاحة².

وطوال هذه المدَّة، قام الشيخ "جعيط" بعدَّة إصلاحات بالقلم والفكر والممارسة؛ أمَّا إصلاحاته القلمية فإنَّها تبدو جليَّة في آثاره وفتاويه، بينما إصلاحاته الفكرية كانت بارزة للعيان في التَّقنين الذي أحدثه عند إصداره مجلتي "الإجراءات الشرعية" و"الأحكام الشرعية" طبق المقاصد والمصالح، وبعد أن كوَّن لجنة للنظر في مسودة الأحكام الشرعية التي أعدَّها سنة 1367هـ/1948م، وبعد أن وقعت عدَّة جلسات همَّش المحتل الفرنسي هذا المشروع العظيم³.

أمَّا إصلاحاته على مستوى الممارسة فكانت عندما ترأَّس لجنة الحي الرِّبوتوني الذي سيَّؤوِّي طلبه الآفاق⁴ وحسَّن أوضاع التَّقاضي، وأسَّس محاكم عدَّة، وأحدث حيويَّة كبيرة لمَّا تولَّى وزارة العدلية التُّونسيَّة⁵.

(6)- وفاته:

توفي العلامة "مُحمَّد عبد العزيز جعيط" في يوم 27 شوال 1389هـ/5 جانفي 1970م،

¹ - مُحمَّد بُوزغيبية: فتاوى شيخ الإسلام في تونس مُحمَّد العزيز جعيط واجتهاداته وترجيحاته، ط.2، دار

ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2005م، ص.21.

² - مُحمَّد محفوظ: تراجم المؤلفين التُّونسيين، المرجع السَّابق، ج.2، ص.38. وينظر أيضاً، كمال الدِّين جعيط: «الشيخ جعيط حياته وآثاره»، مجلة جوهر الإسلام، ع.6، الشَّركة التُّونسيَّة لفنون الرِّسم، تونس، 1977م، ص.71.

³ - محمود شَمَّام: إشعاع الفقه الإسلامي على القانون الوضعي بالبلاد التُّونسيَّة، ط.1، المطابع الموحَّدة، تونس، 1986م، ص.154.

⁴ - كمال الدِّين جعيط: «الشيخ جعيط حياته وآثاره»، مجلة جوهر الإسلام، ع.3، الشَّركة التُّونسيَّة لفنون الرِّسم، تونس، 1978م، ص.22.

⁵ - مُحمَّد بُوزغيبية: المرجع السَّابق، ص.22.

ودفن بمقبرة الرّلاج بالعاصمة "تونس".¹

ثالثاً- أسس ومقومات منهجه في توظيف النّص القرآني عند صناعة الفتوى.

عند صناعة الفتوى يجب على المفتي أن يذكر دليل الحكم وأن يأخذ ما أمكنه من ذلك ولا يُلقيه للمستفتي مجرداً عن دليله²، ويجب عليه إذا وقعت له مسألة غير منصوطة وأراد تخريجها على قواعد مذهبه، أن يمعن النّظر في القواعد الإجمالية والمذهبية هل فيها ما يوجب انقذاح فرق بين الصّورة المخرجة والأصل المخرج عليه أم لا³؟ ولا يجوز للمفتي إبقاء السّائل في الإشكال والحيرة، بل عليه أن يُبين بياناً مُزيلاً للإشكال والشكّ، متضمناً لفصل الخطاب كافياً في حصول المقصود، فيمكن للمفتي أن يُجيب السّائل بأكثر مما سأله عنه، وهو من كمال نصحه وإرشاده⁴.

لقد اتبع الشّيخ "مُحمّد عبد العزيز جعيط" منهجاً ورعاً لتوظيف النّص القرآني عند صناعته للفتوى، وبتتبع فتاويه يتبين أنّه استند إلى عدّة أُسس، هي:

1- كان الشّيخ "مُحمّد عبد العزيز جعيط" يعزز فتواه بالنّصوص والأدلة ويقدم الحكم ثمّ يأتي بالدليل، وغالباً ما يعقبه بشرح يحتوي على مُقدّمة وفصول وخاتمة؛ ومن ذلك فتوى "نقل عين الأدبي عند موته للأعمى"⁵.

2- وكانت أجوبته فيها اقناع ووضوح؛ ومن ذلك فتوى "أموال الحج"⁶ و"حكم التّصوير في الإسلام"⁷.

3- وكان يجيب عن مختلف الأسئلة التي تبدو في نظره وحيمة، ويأتي على المسألة من كامل أطرافها، فتارة يُطيل؛ مثل: فتوى "ختان الكبير"⁸، وأخرى يوجز؛ مثل: فتوى "حكم البيرة"⁹، ويتوسط ثالثة، مثل: فتوى "ترجمة القرآن الكريم"¹⁰، كلّ ذلك حسب السّؤال، وعلى قدر درجة السّائل.

¹ - مُحمّد محفوظ: تراجم المؤلفين التّونسيين، المرجع السّابق، ج. 2، ص. 39.

² - مُحمّد بن أبي بكر بن أيوب (ابن قيم الجوزيّة): أعلام الموقعين عن ربّ العالمين، تخ: مشهور بن حسن آل سلمان وأحمد عبد الله أحمد، ج. 6، ط. 1، دار ابن الجوزي، الرّيّا، 2002م، ص. 49.

³ - أحمد بن دريس القرافي: الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، تخ: محمود عرنوس، ط. 1، مطبعة الأنوار، القاهرة، 1938م، ص. 76.

⁴ - ابن قيم الجوزيّة: أعلام الموقعين عن ربّ العالمين، المصدر السّابق، ج. 6، ص. 45 - 67.

⁵ - مُحمّد بوزغيب: المرجع السّابق، ص. 30.

⁶ - صحيفة الصّباح التّونسيّة، ع. ذو القعدة 1377/جوان 1958م

⁷ - مُحمّد بوزغيب: المرجع السّابق، ص. 30.

⁸ - المجلّة الرّبتونيّة، مج. 1، ج. 5، ذو القعدة 1355هـ/جانفي 1937م.

⁹ - صحيفة النّهضة التّونسيّة، ع. 124، محرم 1373هـ/سبتمبر 1953م.

¹⁰ - مُحمّد بوزغيب: المرجع السّابق، ص. 30.

- 4- وكان الشيخ "مُحمَّد عبد العزيز جعيط" كثيراً ما يُفتي اعتماداً على النَّصِّ مباشرة؛ مثل: فتوى "زكاة الحبوب"¹ و"الصَّدقة عن الميت"² و"الإضراب عن الجوع"³ و"إرث البنت"⁴.
- 5- كان غالباً ما يذكر المصادر والمراجع التي استنبط منها الأحكام؛ وذلك مثل فتوى "ختان الكبير"⁵، وفتوى "حرق الطَّعام" و"البطائق"⁶.
- 6- ويغلب على أجوبة الشَّيخ "مُحمَّد عبد العزيز جعيط" طابع التَّيسير والمصلحة والمقصد الشرعي؛ لأنَّها تعالج مشاكل أهل البلد في عصره، وهذا ما حملته عن الخروج عن المشهور في بعض الفتاوى مثل: "زكاة الفطر"⁷، و"دفع الزَّكاة في مصلحة الجيش"⁸، و"القرض الوطني"⁹، وخالف الشَّيخ "جعيط" في ذلك "الإمام المازري" الذي ذكر صاحب المعيار أنَّه بلغ طبقة الاجتهاد، ولم يُفتِ قط بغير المشهور¹⁰.
- 7- كانت لغة الشَّيخ "مُحمَّد عبد العزيز جعيط" فقهية، وكثيراً ما يعتمد على القواعد الأصولية؛ مثل: "فتوى توحيد المواسم والأعياد"¹¹، و"فتوى حقنة الإبرة في رمضان"¹².
- 8- كان الشَّيخ "مُحمَّد عبد العزيز جعيط" يعتمد أحياناً على غير المذاهب الأربعة؛ مثل: "المذهب الظَّاهري" في "مسألة نقل العين"¹³.
- 9- وكان كثيراً ما يناقش الفقهاء، ويضعف البعض منهم مُقديماً الدَّليل الذي يُؤيِّد به سبب تضعيفه لرأي أحدهم؛ وذلك مثل: التَّحقيقات التي قام بها في "فتوى ختان الكبير"¹⁴ و"فتوى التَّجنيس"¹⁵.

¹ - صحيفة الصَّباح التُّونسيَّة، ع. ربيع الثَّاني 1356هـ/جوان 1937م.

² - المجلَّة الرِّبوتنيَّة، مج. 1، ج. 10، ذو القعدة 1355هـ/جانفي 1937م، ص. 510 - 511.

³ - صحيفة الصَّباح التُّونسيَّة، ع. ذو القعدة 1375/مارس 1956م.

⁴ - مُحمَّد بوزغيبية: المرجع السَّابق، ص. 30.

⁵ - المجلَّة الرِّبوتنيَّة، مج. 1، ج. 5، ذو القعدة 1355هـ/جانفي 1937م، ص. 232.

⁶ - مُحمَّد بوزغيبية: المرجع السَّابق، ص. 31.

⁷ - صحيفة الزُّهرة، ع. رمضان 1364هـ/سبتمبر 1945م.

⁸ - صحيفة العمل، ع. محرم 1377هـ/أوت 1957م.

⁹ - صحيفة الصَّباح التُّونسيَّة، ع. رمضان 1376/أفريل 1957م.

¹⁰ - أحمد بن يحيى الونشريسي: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيَّة والأندلس والمغرب، تخ: جماعة من الفقهاء، إشراف: مُحمَّد حجي، ج. 4، ط. 1، نشر وزارة الأوقاف والشُّؤون الإسلاميَّة للمملكة المغربيَّة، الرِّباط، 1981م، ص. 293.

¹¹ - مُحمَّد بوزغيبية: المرجع السَّابق، ص. 31.

¹² - صحيفة الزُّهرة، ع. رمضان 1365هـ/أوت 1946م.

¹³ - مُحمَّد بوزغيبية: المرجع السَّابق، ص. 31.

¹⁴ - المجلَّة الرِّبوتنيَّة، مج. 1، ج. 5، ذو القعدة 1355هـ/جانفي 1937م، ص. 232.

¹⁵ - مجلَّة جوهر الإسلام، ع. 9، 1397هـ/1977م، ص. 38 وما بعدها.

ورغم تَحَرُّرِ الشَّيْخِ "مُحَمَّدَ عبد العزيز جعيط" في فقهه، وميله إلى التَّرجيح، فإنه كان مُقَيِّداً بأصول مذهب إمامه لما كان مفتياً مالِكياً؛ لأنَّ العادة جرت بالمحكمة الشَّرْعِيَّة التُّونِسِيَّة أنَّ المفتي المنتسب لأحد المذهبين المالكي أو الحنفي، لا يمكنه أن يخرج عن مذهبه ولو بلغ درجة الاجتهاد، وإذا كانت المسألة داخل المذهب، فعليه أن يُفتي بالقول المشهور والرَّاجح.

ولما تولى خطة مفتي الدِّيار التُّونِسِيَّة، أصبح الشَّيْخ "مُحَمَّد عبد العزيز جعيط" متحرراً في فتاويه وغير مُقَيَّد بمذهبه، وأمکنه ذلك أن يُفتي اعتماداً على المصلحة العامة وعلى قوَّة الدَّلِيل.¹

رابعاً- استخدام التَّنْزِيل القرآني في صناعة الفتوى عند العلَّامة "مُحَمَّد عبد العزيز جعيط".

الملاحظ عن الشَّيْخ "مُحَمَّد عبد العزيز جعيط" عند صناعته للفتوى وتوظيف التَّنْزِيل القرآني، أنَّه يستند إلى نوعين من الفقه، وهما: فقه الموازنات²، وفقه الأولويات³، للذان يعتبران تَواثُمَيْن لا ينفكان؛ حيث إنَّ فقه الموازنات هو المرتكز الأساسي للأولويات، إذ لا يمكن الوصول إلى الحكم من خلال توظيف التَّنْزِيل القرآني في المكان اللاتق، إلا إذا تمت الموازنة بين المصالح والمفاسد بقواعد الموازنة. ويتفق الفقهاء في أنَّ كليهما لا يُعْمَل به إلا في حالة تعدُّد الآراء، وفي حالة التَّزاحم والتَّعارض، وأنَّ ثمرة كلِّ منهما هي تقديم الرَّاجح والأوَّل،

¹ - مُحَمَّد بُوزغبيَّة: المرجع السَّابِق، ص.31.

² - فقه الموازنات: يُعْنَى به جُمْلَة أمور، هي: «الموازنة بين المصالح بعضها وبعض، من حيث حجمها وسعتها، من حيث عنقها وتأثيرها، من حيث بقائها ودوامها... وأنها ينبغي أن يُقدَّم ويعتبر، وأنها يسقط ويُلغى. الموازنة بين المفاسد بعضها وبعض من تلك الحيثيات التي ذكرناها في شأن المصالح وأنها يجب تقديمه، وأنها يجب تأخيرها أو إسقاطها. الموازنة بين المصالح والمفاسد إذا تعارضتا بحيث نعرف متى نقَدِّم درء المفسدة على جلب المصلحة، ومتى تُغتفر المفسدة من أجل المصلحة».

كما يُعرَف على أنَّه «مجموعة المعايير والأسس التي يُرجح بها ما تنازع من المصالح والمفاسد، ويُعرَف به أي المتعارضين ينبغي فعله، وأيهما ينبغي تركه». ينظر، عبد الله الكمال: تأصيل فقه الموازنات، ط.1، دار ابن حزم، بيروت، 2000م، ص. 49 - 50 وينظر، يوسف القرضاوي: أولويات الحركة الإسلاميَّة في المرحلة القادمة، ط.1، مؤسسة الرِّسالة، بيروت، 2000م، ص.29. وينظر أيضاً، عبد المجيد مُحَمَّد السَّوسو: فقه الموازنات في الشَّريعة الإسلاميَّة، ط.1، دار القلم، دبي، 2004م، ص.13.

³ - فقه الأولويات: ويُعْنَى به «وضعُ كلِّ شيء في مرتبته بالعدل، من الأحكام والقيم والأعمال، ثُمَّ يُقدِّمُ الأوَّلُ فالأوَّل، بناءً على معايير شرعيَّة صحيحة، يهدي إليها نور الوحي، ونور العقل». كما يُعرَف على أنَّه «العلم بالأحكام الشَّرْعِيَّة التي لها حقُّ التَّقديم على غيرها بناءً على العلم بمراتبها، وبالواقع الذي يتطلبها». ينظر، يوسف القرضاوي: في فقه الأولويات - دراسة جديدة في ضوء القرآن والسُّنة -، ط.1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1994م، ص.9. وينظر، يوسف القرضاوي: أولويات الحركة الإسلاميَّة في المرحلة القادمة، المرجع السَّابِق، ص.39. وينظر أيضاً، مُحَمَّد الوكيل: فقه الأولويات دراسة في الضَّوابط، ط.1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بيروت، 2005م، ص.16.

وهذا ما يستند إليه العلامة "جعيط": لأنَّ صناعته للفتوى واستخدام التَّنْزيل القرآني مَيَّالٌ فيها للترجيح، كما ذكرنا سابقاً.

أما اختلاف الفقهاء: في كون فقه الموازنات خاصاً بباب المصالح المرسلة، فهو ترجيح بين المصالح فيما بينها أو المفسدات فيما بينها، أو بين المصالح والمفسدات، بينما فقه الأولويات عام في كلِّ أبواب الشريعة، سواء ما ورد فيه نص أو لا، يأتي للترتيب، فيبيِّن ما حقُّه التَّقديم وما حقُّه التَّأخير، فهو يُقَدِّم الأولى والأرجح والأهم.

من المعروف أنَّ العلامة "جعيط" كان أحد أساطين أصول الفقه في العالم الإسلامي، مُحِيطاً إحاطة شاملة بآراء الفقهاء في المسائل المختلفة، متفنناً في استخدام القياس، مُلمّاً بما جرى به العرف في بلاده، كما أنَّه كان مجتهداً مُرْجِحاً، وكان مقصده الأسمى المصلحة والدَّلِيل والتَّعليل¹؛ هذا الأمر ترك العلامة "مُحمَّد عبد العزيز جعيط" يستند في صناعة فتواه إلى فقه الموازنات الذي يستند بدوره إلى مجموعة من المرتكزات والأسس تُساهم في بلورة صناعة الفتوى صناعة دقيقة باتجاه الحكم الصَّحيح الموافق لروح التَّشريع الإسلامي. وأهم هذه المرتكزات هي:

1- فقه النُّصوص الجزئية في ضوء مقاصد الشريعة: والمقصود أنَّ النُّصوص والأحكام ينبغي أن تؤخذ بمقاصدها دون الوقوف عند ظواهرها، وألفاظها؛ حيث إنَّ الجزئيات تندرج تحت الكلِّيات وترتبط بالأحكام بمقاصدها، وهذا ما اعتمد عليه العلامة "جعيط" في صناعة الفتوى، والإحاطة بمسألة تعليل الأحكام؛ لأنَّ الشريعة وأحكامها مُعلَّلة بمصالح ومقاصد هي الغرض الذي من أجله وُضعت، فالشريعة كُلُّها مصالح إمَّا تدرأ مفسدات أو تجلب مصالح، وقد أبان في التَّنْزيل القرآني ما في بعض الأحكام من المفسدات حائثاً على اجتناب المفسدات، وما في بعض الأحكام من المصالح حائثاً على إتيان المصالح²، كما أن: «أحكام الله كُلُّها مضبوطة بالحكم مُحالة على الأسباب والشرائط التي شرعها»³.

فأحكام الشريعة مُعلَّلة بالحكم والمصالح، في العاجل والآجل، وهذه المصالح تختلف رتبها فهي إمَّا ضرورية أو حاجية أو تحسينية، وفي هذا جمع العلامة "جعيط" بين كليَّاتها العامة وأدلِّتها الخاصة، واستحضر مقاصد الشريعة العامة وقواعدها الكلِّية، وبنى أحكامه على أساسها. لقد نبَّه الإمام "الشَّاطبي" على ضرورة التَّنسيق بين كليَّات الشريعة وجزئياتها، حيث بيَّن أنَّ الشريعة كُلُّها مبنية على "قصد المحافظة على المراتب الثلاثة، من "الضرورات والحاجيات والتَّحسينيات"، وأنَّ هذه الكلِّيات «تقضي على كلِّ جزئي تحتها... إذ ليس فوق

¹ - مُحمَّد بوزغيبية: المرجع السَّابق، ص. 5.

² - عز الدِّين عبد العزيز بن عبد السَّلام: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ج. 1، ط. 1، مؤسسة الرِّئان، بيروت، ص. 11.

³ - المرجع نفسه، ج. 2، ص. 300.

هذه الكليات كلي تنتهي إليه، بل هي أصول الشريعة»¹.

وعليه فإنَّ فقه النُصوص الجزئية في ظلال مقاصد الشريعة والنَّظر في الجزئيات في إطار الكليات هو أحد المرتكزات التي جعلت العلامة "جعيط" يوفق في اجتهاده وفي صناعته للفتوى، ويتوصَّل إلى أحكام للمستجدات بناءً على ما تقتضيه مقاصد الشريعة وقواعدها.

(2)- فقه الواقع ومتغيراته: المقصود بهذا المرتكز هو أنَّ فقه الواقع مُهمٌّ جداً في صناعة الفتوى، ومراعاة الواقع يدخل في دائرة المصالح المتغيرة والخاضعة لتغير الزمان والمكان والظروف، والأعراف، فالأحكام الاجتهادية القائمة على مصالح زمانية أو مكانية، تتغير تبعاً لتغير الزمان والمكان، فالحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا، «إذا تساوت المصالح من كلِّ وجه، فقد يُقدِّم الشرع بعضها على بعض بتفاوت الأماكن والأزمان»²، وفي هذا المضمار يقول "ابن القيم": «و الواجب شيء والواقع شيء، والفقيه من يطبق بين الواقع والواجب»³.

وهذا ما دأب عليه العلامة "مُحمَّد عبد العزيز جعيط"، حيث كان يدرس النَّازلة المعروضة عليه درساً وافياً، بتحليل عناصرها، وطروفيها وملابساتها، حتى يتسنى له فهم النَّص التشريعي ويخرجه من حيز النَّظر، ليتم تطبيقه بسلامة من خلال تفهمه الواعي للوقائع بمكوناتها وظروفها، وتبصُّر بما عسى أن يسفر عنه التطبيق للتنزيل القرآني من نتائج؛ لأنَّ هذا العمل هو الثمرة العملية المتوخاة من الاجتهاد التشريعي كله⁴؛ مثل فتواه ببلاده حول: "زكاة الفطر"⁵.

(3)- اعتبار المآلات: وذلك بالنَّظر إلى أثر وأثار الحكم المتوصل إليه عند صناعة الفتوى، ومدى ترتب المصلحة عنه في الواقع، وهذا ما يُعرف أيضاً بتحقيق المناط في الأفراد وفي الوقائع وفي الأزمنة، والنَّظر في المآلات «معتبر مقصود شرعاً، أكانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أنَّ المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصَّادرة من المكلفين بالإقدام أو الإحجام إلَّا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل»⁶، فالفعل إذا كان مشروعاً، لكنَّه يؤول إلى مفسدة تُساوي أو تغلب هذه المصلحة فلا بد من منعه بناءً على هذا المال، كما أنَّ الفعل قد يكون غير مشروع لما فيه من مفسدة، لكنَّه يؤول إلى مصلحة أعظم من المفسدة

¹ - إبراهيم بن موسى اللخعي (الشَّاطبي): الموافقات، تج: عبد الله ومُحمَّد دراز، ج.3، ط.2، دار الفكر العربي، القاهرة، 1975م، ص.5.

² - عز الدِّين عبد العزيز بن عبد السلام: المصدر السَّابق، ج.1، ص.147.

³ - ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن ربِّ العالمين، المصدر السَّابق، ج.6، ص.139.

⁴ - مُحمَّد فتحي الدَّريني: المنهاج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي، ط.3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م، ص.5.

⁵ - صحيفة الزَّهرة، ع. رمضان 1364هـ/سبتمبر 1945م.

⁶ - الشَّاطبي: الموافقات، المصدر السَّابق، ج.4، ص.196.

التي تَضَمَّنَهَا هذا الفعل، فهنا لا يصحُّ إطلاق القول بعدم مشروعيته، وهذا ما فعله العلامة "جعيط" حيث لم يبق عند ظاهر الأمر بل ذهب إلى مآلاتها، في فتواه حول "البيع والشراء عند صلاة الجمعة"¹.

4- قاعدة تغير الفتوى بتغير الزمان: من المعروف أنَّ أحكام الشريعة تنقسك إلى قسمين رئيسيين: أحكام مصدرها نصوص القرآن والسنة النبوية المشرفة مباشرة، وأحكام مصدرها الاجتهاد دون أنَّ تستند مباشرة إلى نصوص، مثل: أنَّ تكون مبني على مصلحة سكنت عنها النصوص أو عرف أو عادة لم ينشئها نص شرعي.

لا يختلف اثنان في أنَّ الأحكام في كلاً القسمين إنما ترمي إلى تحقيق مصالح الناس ومراعاة منافعهم. ومما لا ريب فيه أنَّ بعض هذه المصالح والمنافع يتبدل ويتغير بتغير الزمان أو المكان، أو لأي عامل من العوامل التي تؤثر في تغير المصالح. ففي القسم الثاني من الأحكام الذي لم يكن مصدره النص مباشرة، لم يجد عامة الفقهاء حرجاً في تقرير أنَّ المصلحة التي لم يأت بها نص أصلاً يمكن أنَّ تتغير وتصبح في حين من الأحيان مفسدة، أو أنَّ العادة والعرف الذي لم يتكوَّن نتيجة نص شرعي أصلاً، يمكن أن يتبدل ويتغير، وحينئذ قرروا بلا تحفظ أنَّ الأحكام في هذا القسم تتغير بتغير الزمان وأقرُّوا القاعدة الفقهية (لا ينكر تغير الأحكام بتبدل الزمان) المتعلقة بالقسم الثاني من الأحكام، وهي الأحكام التي لا تستند مباشرة على نص شرعي، بل مصدرها عرف أو مصلحة سكنت عنها النصوص الشرعية².

فالذي يتغير هو الأحكام الاجتهادية وأما القطعيات من الأحكام فلا تتغير، والذي يتغير هو أحوال الزمن والمصالح التي تبنى عليها الأحكام جلباً، والمفاسد التي تُراعيها الشريعة درءاً. وفي هذا يقول "ابن القيم": «الأحكام نوعان: نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها، لا بحسب الأزمنة والأمكنة ولا اجتهاد الأئمة، موجوب الواجبات وتحريم المحرمات والحدود المقدر بالشريعة على الجرائم ونحو ذلك، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يُخالف ما وُضِعَ عليه. والنوع الثاني ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زماناً ومكاناً وحالاً كمقادير التعزيزات واجناسها وصفاتها، فإنَّ الشارع ينوِّع فيها بحسب المصلحة». لذلك راعى العلامة "جعيط" شرط تغير الزمان والمكان ليصل إلى أحكام صحيحة مُحَقِّقة لمقاصد الشريعة³.

¹ - مُحمَّد بُوزغيبية: المرجع السابق، ص. 39.

² - ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين، المصدر السابق، ج. 4، ص. 338. وينظر، مُحمَّد سعيد خير بسطامي: مفهوم تجديد الدين، ج. 1، ط. 1، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة، 2012م، ص. 254 - 255.

³ - علال الفاسي: مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ط. 5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993م، ص. 13.

من باب المصالح لأنَّه الطَّرِيقُ الأَوْسَعُ في تدبُّرِ شُؤْنِ الأُمَّةِ عند نوازِلِها إذا التَّبَسَّتِ المَصَالِحُ¹.

5- مُراعاة العوائد والأعراف: للعرف مكانة في الشَّرْع، واعتباراً كبيراً عند الفقهاء، في شُؤْنِ الإلْزام والالتزام، فيما لا نصَّ فيه، بل قد يترك القياس إذا عارضه لأنَّه أقوى منه، وهذا إذا أدى القياس إلى غلوٍ. كما أنَّه من المصادر المهمَّة التي تركت أثراً ملموساً في الفقه الإسلامي، واعتمد عليه الأئمة كثيراً، وقد تفرَّعت عنه مجموعة من المبادئ الأصوليَّة والقواعد الفقهيَّة التي تنبني عليها الأحكام.

وللعرف أهميَّة بالغة، وذلك لما يَحَقِّقُ من مصالح النَّاسِ، ويؤمِّنُ لهم المنافع العامَّة، والمقاصد الرَّئيسيَّة التي جاءت الشَّرِيعَةُ الغراء بها، حيث راعت عاداتهم وما يجري عليه تعاملهم، وما استقرَّ عليه عملهم، واطمأنَّت له النَّفُوسُ، وألْفَتُهُ الطَّبَاعُ، ويكون هذا التَّعامل إذا توفَّرت فيه الشُّرُوط الشَّرعيَّة للعرف مصدراً للتَّشريع، وبذلك تلتقي أهداف الشَّرِيعَةِ مع مصالح النَّاسِ، فيكون التَّصَرُّفُ الفطري السَّليم معترفاً به في الاستنباط وبيان الأحكام إذ إِنَّ هذا الدِّينَ دينَ فطرة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾².

إنَّ العرف وسيلة أخرى للدلالة على مرونة الشَّرِيعَةِ الخالدة، ومُسايرتها لتطور الأحداث، فتكون صالحة لكلِّ زمان ومكان، فهي تُحَقِّقُ أهداف المجتمعات المختلفة، وتستجيب لمختلف البيئات والظُّروف، دون إلزام لهم بالأحكام الاجتهاديَّة، ومن شروط صناعة الفتوى واستخدام التَّنْزيل القرآني المناسب لها، معرفة أعراف النَّاسِ وعاداتهم، فالواجب على المفتي قبل أن يُبَيِّنَ الحكم ما هو معروض عليه أن يسأل عن العرف السَّائد عند من يستفتيه، وها هو "القرافي" يؤكِّد هذا ويقول: «ينبغي للمفتي إذا ورد عليه مُسْتَفْتٍ لا يعلم أنَّه من أهل البلد الذي منه المفتي وموضع الفتيا: أن لا يفتيه بما عاداته يفتي به حتى يسأله عن بلده، وهل حدث لهم عرف في ذلك البلد في هذا اللفظ اللغوي أم لا؟ وإن كان اللفظ عرفياً فهل عُرف ذلك البلد موافق لهذا البلد في عرفه أم لا؟ وهذا أمر متعيَّن واجب لا يختلف فيه العلماء، وأنَّ العادتين متى كانتا في بلدين ليستا سواء أنَّ حكمهما ليس سواء»³.

وبناء على اعتبار العرف قرَّر الفقهاء على اختلاف مذاهبهم القاعدة الفقهيَّة المعروفة

¹ - مُحَمَّد الطَّاهِر بن عاشور: مقاصد الشَّرِيعَةِ، تج: مُحَمَّد الحبيب بن الخوجة، ج.3، ط.1، وزارة الأوقاف والشُؤْنِ الإسلاميَّة - قطر، الدُّوْحَة، 2004م، ص.257.

² - سورة الرُّوم: الآية.30.

³ - أحمد بن إدريس القرافي: الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، المصدر السَّابِق، ص.73.

"العادة مُحَكِّمة"¹، وفَرَعُوا عليها عدَّة قواعد منها قولهم: "المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً"²، و"الثَّابت بالعرف كالثَّابت بالنَّص"³، و"الحقيقة ترك بدلالة العُرف"⁴، ولا ينكر تَغْييراً الأحكام بتَغْيِير الزَّمان والمكان، وغيرها وكلُّ هذا إذا لم يخالف العرف نصّاً شرعياً صريحاً⁵.

وقد تناول "القرافي" هذه المسألة وبَيَّن أنَّ الواجب هو مراعاة العرف في الفتاوى دائماً فقال: «وعلى هذا القانون - أي مراعاة العرف - تُراعى الفتاوى على طول الأيام، فمهما تجددَ العرف اعتَبِرَهُ، ومهما سقط أُسْقِطَهُ، ولا تجمد على السُّطُور في الكتب طول عمرك، بل إذا جاءك رجل من غير أهل اقليمك يستفتيك لا تُجِرْهِ على عرف بلدك وأسأله عن عرف بلده، وأُجِرْهِ عليه وأفته دون عرف بلدك، والمقرَّر في كتبك فهذا هو الحق الواضح المبين، والجمود على المنقولات أبداً ضلال في الدِّين، وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسَّلف الماضين»⁶.

وعليه فالصَّانِع للفتوى ليصل إلى الحكم الصَّحيح والذي يَحَقِّق الأولويَّة باعتماده، لا بد أن يُراعي العرف بالشُّروط التي ذكرها العلماء وهي:

1/- أن يكون العرف مُطَّرداً. 2/- أن يكون عاماً. 3/- ألا يخالف نصّاً شرعياً، وأن لا يكون في العرف تعطيل لنصٍّ ثابت، أو لأصل قطعي في الشَّريعة. 4/- أن يكون العرف المراد تحكيمه قائماً عند إنشاء التَّصرف. 5/- ألا يُعارض تصريح بخلافه.

6/- ضرورة التَّمييز بين المقاصد والوسائل: إنَّ التَّمييز بين ما هو مقصد للحكم الشَّرعي مما هو وسيلة إليه أو وسيلة إلى وسيلته، له أهمية كبيرة عند تطبيق الحكم، حتى لا يقع عند الموازنة والتَّرجيح بين المصالح خلل يُفضي إلى الإخلال بالمقصد الشَّرعي، وعدم تحقق حكم الأولى، ونظراً لهذه الأهمية يعتبر التَّمييز بين الوسائل والمقاصد عنصراً أساسياً في صناعة الفتوى، إذ لا يمكن أن يستغني عنه الفقيه والمفتي عند تقرير حكم الأولويَّة وعند تنزيل الأحكام على الوقائع، لأنَّ «موارد الأحكام على قسمين: مقاصد: وهي المتضمنة للمصالح

¹ - علي حيدر: دُرر الحُكَّام شرح مجلَّة الأحكام، تع: فهمي الحسيني، ج. 1، (ط.خ)، دار عالم الكتاب، الرِّياض، 2003م، ص. 44. وينظر، مُحمَّد ياسين بن عيسى (الفاداني): الفوائد الجَنِّيَّة حاشية المواهب السَّيِّئَة شرح الفرائد المهيَّة في نظم القواعد الفقهيَّة، تع: رمزي سعد الدِّين دمشقيَّة، ط. 2، دار البشائر الإسلاميَّة، بيروت، 1996م، ص. 289 وما بعدها. وينظر، أحمد الزَّرقاء: شرح القواعد الفقهيَّة، ط. 4، دار القلم، دمشق، 1996م، ص. 219. وينظر أيضاً، صالح بن غانم السَّدَّان: القواعد الفقهيَّة الكبرى وما تفرَّع عنها، ط. 2، دار بلنسيَّة، الرِّياض، 1996م، ص. 390 وما بعدها.

² - مُحمَّد محمود إبراهيم: المدخل إلى القواعد الفقهيَّة الكلِّيَّة، ط. 1، دار عمَّار، عَمَّان، 1998م، ص. 111. وما بعدها. وينظر أيضاً، صالح بن غانم السَّدَّان: القواعد الفقهيَّة الكبرى، المرجع السَّابق، ص. 390.

³ - المراجع السَّابقة بنفس الصَّفحات.

⁴ - المراجع السَّابقة بنفس الصَّفحات.

⁵ - جمال كركار: أثر العرف في تَغْيِير الفتوى، ط. 1، دار بن حزم للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، 2009م، ص. 53.

⁶ - أحمد بن إدريس القرافي: الفروق، أنوار البروق في أنواء الفروق، المصدر السَّابق، ج. 1، ص. 314.

والمفاسد في أنفسها. ووسائل: وهي الطرق المفضية إليها¹.

خامساً- نماذج من فتاويه.

للشيخ "مُحمَّد عبد العزيز جعيط" العديد من الفتاوى، فاق عددها الخمسون فتوى، انقسمت إلى فتاوى في العبادات، وفتاوى في المعاملات، وفتاوى في الآداب والسلوك، وفتاوى في الأسرة، وفتاوى مستحدثة، شغلت الرأي العام الإسلامي، وكان له فيها قدم السبق من حيث الحلة أو الحرمة؛ وحتى نبين منهجه في استخدام التَّنْزيل القرآني واستقاء شروط الفتوى ارتأينا أن نُقدِّم نموذجاً من فتاويه، وهي فتوى معالجة المريض بنقل الدَّم إليه.

السُّؤال: الحمد لله والصَّلَاة والسَّلَام على سيدنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه وبعد، فقد سُئِلْتُ من قبل وزارة الصِّحَّة عن حكم المداواة بتلقيح المريض بالدَّم سواء أكان دم المريض نفسه أو دم غيره، وسواء نقل الدَّم للمريض مباشرة من شخص وهو باق على حالته الطَّبِيعِيَّة، أو نقل له بعد تجفيفه وتصويره ومزجه بعد ذلك بما يصلح معه للمداواة بالتَّلْقِيح.

الجواب: والله الموفق للصواب أنَّ الدَّم مُحَرَّم أكله وشربه بنص القرآن² وهو نجس، فالمداواة به من وادي المداواة بالمحرَّم النَّجَس، والمداواة بذلك غير مباحة في حالة الاختيار إذا وجد في الأدوية الطَّاهِرة ما يغني عنه ويقوم مقامه، أمَّا في حالة الاضطرار كخوف الهلاك وانعدام الأدوية الطَّاهِرة التي تغني عن المداواة بالنَّجَس، فالجواز هو الأقوى من حيث القواعد وظواهر الآيات، ويكفي في حصول النَّفْع بنقل الدَّم، وفي خوف الهلاك يترك غلبة الظَّن، وقد اختلفت المذاهب في التَّدَاوي بالمحرَّم، فالرَّاجح في المذهب المالكي المنع، وللإمام مالك قول بالجواز كما نقله أبو الوليد الباجي في "المنتقى"³.

والمذهب الحنفي على الإباحة إذا عُلِم الشِّفاء به ولم يَقم غيره مقامه كما في حاشية "ابن عابدين"⁴، والمذهب الشَّافعي على جواز التَّدَاوي بجميع النَّجَاسَات للضرورة إلَّا الخمر.

شرح لما تضمنته الفتوى: تضمَّن هذا الجواب ثلاثة مطالب:

¹ - أحمد بن إدريس القرافي: الفروق. أنوار البروق في أنواء الفروق، المصدر السابق، ج. 2، ص. 451. وينظر، ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن ربِّ العالمين، المصدر السابق، ج. 4، ص. 553. وينظر أيضاً، أحمد بن إدريس القرافي: شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، ط. 1، دار الفكر للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، 2004م، ص. 353.

² - سورة المائدة: الآية 3. قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾.

³ - أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي: المنتقى شرح موطأ الإمام مالك، ج. 3، ط. 1، دار السَّعادة، القاهرة، 1914م، ص. 188 وما بعدها.

⁴ - مُحمَّد أمين بن عابدين: رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، ج. 1، ط. 1، مطبعة بولاق، القاهرة، 1975م، ص. 216.

الأول: إباحة نقل الدّم من إنسان إلى آخر في حالة الاضطراب كخوف هلاك النّفس أو العضو.

الثاني: تقييد الإباحة بما إذا لم يوجد من الأدوية الطّاهرة ما يغني عن نقل الدّم ويقع نفعه.

الثالث: كفاية غلبة الظّن في حصول المنع بنقل الدّم وفي خوف الهلاك.

أمّا الدّليل على المطلب الأوّل فهو ما تقرّر في الأصول من أنّ جميع الأحكام الشرعيّة لا تعدو ثلاثة أنواع. إمّا أن ترجع إلى حفظ الدّين أو النّفس أو العقل أو المال أو النّسب وتسعى الضّروريات. وإمّا أن ترجع إلى رفع الحرج والمشقة عن النّاس وتسعى الحاجيات، وإمّا أن ترجع إلى العادات المستحسنة ومكارم الأخلاق وتسعى التّحسينيّات¹، ومن هذا القسم تتناول الخبائث والنّجاسات، وأنّ هذه الأنواع متفاوتة الرّتبة والأهميّة، فيقدّم الأهم على المهم عند التّعارض، فالرتبة العليا في الأهميّة، وهي الضّروريات تُقدّم عند التّعارض على الحاجيات والتّحسينيّات، والرتبة الوسطى وهي الحاجيات تُقدّم عند التّعارض على التّحسينيّات، فإذا دار الأمر بين المحافظة على النّفس التي هي من الضّروريّات، وبين المحافظة على اجتناب الخبائث التي هي من التّحسينيّات يُقدّم حفظ النّفس على المحافظة على اجتناب الخبائث التي منها الدّم، فحينئذ يباح التّداوي بنقل الدّم من إنسان إلى آخر أو منه إلى نفسه لحفظ حياته من الهلاك.

وهذه الإباحة ظاهرة في القرآن الكريم، فقد جاء في سورة البقرة بعد تحريم الميتة والدّم وبقية المعطوفات قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾²، فدخل تخصيص حرمة تلك الأعيان بحال الضّرورة. وقال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّتُمْ إِلَيْهِ﴾³، والضرّورة تتناول التّغذي بتلك الأعيان في حال ما إذا ألمّ به الجوع ولم يجد شيئاً مُباحاً يتغذى به، وهذا لا خلاف فيه، وتتناول طلب البرء إذا لم يجد في الأدوية المباحة ما يفيد في العلاج. وتعيّن غير المباح للتداوي، وهذا ما اختلف فيه الأئمة المجتهدون لأدلة خاصة واردة في التّداوي وإن كان ظاهر الآيات إباحته، فمن الأدلّة الخاصة المبيحة للتّداوي بالمحرّم حديث العرينين الوارد في الصّحيحين من إباحة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم شرب أبوال الإبل لمدّاتهم بها⁴ لكن لا يتم الاستدلال إلّا إذا قلنا بنجاسة أبوالها، وهو ما ذهب إليه الحنفية والشافعية، أمّا إذا درجنا

¹ - الشّاطبي: الموافقات، المرجع السّابق، ج. 2، ص. 8 وما بعدها.

² - سورة البقرة: الآية 173.

³ - سورة الأنعام: الآية 119.

⁴ - صحيح البخاري: كتاب الوضوء، باب: أبوال الإبل، رقم الحديث 233. وينظر، ابن ماجة: السنن: كتاب الطّب، باب: أبوال الإبل، عند قوله ﷺ: «فَشَرِبْتُمْ مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا». رقم الحديث 3503.

على طهارتها وما ذهب إليه المالكية فلا يتم الاستدلال بالحديث.

ومن أدلة الإباحة تخصيص رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرير لسيدنا "عبد الرّحمان بن عوف" (ت.32هـ/652م) لمكان حكة¹ به لكن لا يتم الاستدلال به إلا بطريق القياس، لأنّ الحديث إنّما يدلّ على إباحة لبس الحرير المحرّم لدفع الأذى، فتُقاس المداواة على اللبس بجامع دفع الأذى.

ومن الأدلة الخاصة المانعة الحديث: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِيمَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ»²، لكن قيل في الاستدلال به إنّ المحرم في حالة الاضطرار بالتداوي يكون حلالاً غير محرّم.

وقد تبين مما سقناه أنّ الأدلة المانعة الواردة في التداوي بالمحرّم لا يقوى الاستناد إليها، لما يلحقها من احتمالات يسقط معها الاستدلال بها، وأنّ الأقوى التّعويل على ظاهر ما ورد في الآيات القرآنية من الإباحة حالة الاضطرار للتغذي أو التداوي، وحمل الاضطرار على المدلول العرفي المتبادر إلى الأفهام.

وهذا هو المناسب لما اختصّت به الملة الحنفية السّمة من وضع الإصرعناً وإرادة اليسر بنا، ودفع الحرج، وأيّ إصر وحرج وعسر أشدّ على النفس ممن تحقّر الهلاك للوثوب عليه، ويرى وسيلة النّجاة بين يديه ثمّ يُناد عن حضيرتها ويمنع من اقتعاد صهوتها، وأمّا دليل المطلب الثّاني فهو أنّ المباح الذي يقوم مقام الدّم المحرّم في النّفع ينفي حالة الاضطرار التي هي محلّ التّرخيص.

وأما دليل المطلب الثّالث فهو أنّنا وجدنا الرّخص تدور مع الظّن وجوداً وعدماً، فاكتمى بغلبة الظّن في إباحة الفطر في رمضان والتّيئم للصّلاة، والجمع بين الصّلاتين عند إرادة السّفر، غير أنّ غلبة الظّن التي يكتفى بها، يشترط فيها أن تكون مستندة إلى دليل كالتجربة وإخبار الأطباء.

وإذا فرغنا من بيان حكم التداوي بالمحرّم حالة الاضطرار على ما تقتضيه القواعد وظواهر العموميّات، فإنّنا نعود إلى بيان حكمه في المذاهب الثلاثة الحنفي والمالكي والشّافعي، على ما ورد في كتبها المعتمدة التي بها الفتوى.

فأمّا المذهب الحنفي فجوازه إذا علّم الشّفاء به لكن قول الطّبيب لا يحصل العلم، قال شارح الدرر³ ما نصّه: «اختلف بالتداوي بالمحرّم، وظاهر المذهب المنع كما في رضاع الكبير». وقيل «يرخص إذا علم فيه الشّفاء ولم يعلم دواء آخر كما رخص الخمر للعطشان

¹ - صحيح البخاري: كتاب اللباس، باب: ما يُرخص للرجال من الحرير، رقم الحديث.5739.

² - صحيح البخاري: كتاب الأشربة، باب: شراء الحلوى والعسل، رقم الحديث.5613.

³ - مُحمّد بن علي بن مُحمّد بن عبد الرّحمان الحنفي الحصفكي: حاشية الدر المختار شرح تنوير الأبصار، ج.1، ط.1، مطبعة بولاق، القاهرة، 1907م، ص.194.

وعليه الفتوى»، وكتب عليه "ابن عابدين" في "حاشيته" عليه: في النهاية عن الذخيرة «يجوز إن علم فيه الشفاء ولم يعلم دواء آخر»، واختاره صاحب النهاية في التنجيس، لأن الحرمة ساقطة عند الاستشفاء، كحل الخمر والميتة للعطشان والجائع، وأفاد الشيخ "عبد الغني النابلسي"¹ (ت.1143هـ) أنه لا يظهر الاختلاف في كلامهم لاتفاقهم على الجواز للضرورة، واشترط صاحب النهاية العلم لا ينافيه اشتراط من بعده الشفاء، ولذا قال: «والذي في شرح الدرر أن قوله لا للتداوي محمول على المظنون وإلا فجوازه باليقين اتفاقي كما صرح في المصنف².

وقول الأطباء لا يحصل به العلم، والظاهر أن التجربة يحصل بها غلبة الظن دون اليقين، إلا أن يريدوا بالعلم غلبة الظن وهو شائع في كلامهم. انتهى كلام "ابن عابدين" ببعض الاختصار³.

قلت: حمل العلم هنا على غلبة الظن وهو الذي ينبغي الجزم به، لأن التجربة لا يحصل بها إلا غلبة الظن ولا طريق هنا لإفادة الاعتقاد بالشفاء غيرها، وكيف يصح أن يهمل غلبة الظن مع أن غالب الأحكام الشرعية ظنية إما من جهة كون الدليل ظنيًا، وإما من جهة الدلالة كما بسط في أصول الفقه، وقد أمر الشارع بالقضاء استناداً للبيئة أو اليمين مع أنهم لا يفيدان إلا الظن⁴. ومجموع هذه الأدلة يفيد القطع باعتبار غلبة الظن.

وقول الحنفية قول الطبيب لا يحصل به العلم (أي الظن القوي) محمله فيما أعتقد، قوله الثائي عن طريق الاجتهاد والتجربة القاصرة غير المتكررة بكثرة. أما الناشئة عن تجربته وتجربة غيره من الأطباء التي تكررت كثيراً في أزمنة مختلفة، فلا ينبغي أن يحمل كلامهم عليها، وينبغي أن تفيد العلم المفسر بغلبة الظن، ومما يزيد هذا إيضاحاً ويترك الشبهة تتضاءل حوله افتضاحاً، أن التجربة في العصور السالفة قاصرة لا تفيد إلا ظناً ضعيفاً لأنها مجهود فردي في نطاق ضيق، بخلافها في زمننا فإنها اتسع مجالها ونظمت إجراءاتها وتغيرت أحوالها فأصبحت تجرى على عدد كثير من الحيوانات العجم في أزمنة متكررة، ثم على عدد عديد من آدميين والمرضى في المستشفيات من جمع من الأطباء الماهرين. وبعد ذلك يعلن بنتائج التجارب مما يحصل ظناً قوياً يكاد يقرب من اليقين، ومن هنا يتبين ضعف ما ذهب إليه بعض الفقهاء ممن يرى من التداوي بالمحرّم من الفرق بين

¹ - محمد بن الحسن النعماني الحنفي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، تع: عبد العزيز القارئ، ج.2، ط.1، مطبعة دار التراث، القاهرة، 1976م، ص.189.

² - الحنفية: المرجع السابق، ج.1، ص.194.

³ - ابن عابدين: رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، المرجع السابق، ج.1، ص.216.

⁴ - محمد أحمد عlish: فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك، ج.1، ط.1، دار المعرفة، بيروت، 1979م، ص.281.

التَّداوي بالمستخبَّث وبين إباحة التَّغْذِي به في حالة الاضطرار، بأنَّ التَّداوي لا يتيقَّن البرُّ منه فلم يُجز أن يُستعمل المحظور فيه، بخلاف أكل المستخبَّث وشربه للجوع والعطش ينبغي إفادته ونفعه.

أمَّا المذهب المالكي فيرى منع التَّداوي بالدم وغيره من النَّجاسات في باطن الجسد، وحكى صاحب "التَّوضيح" وغيره اتفاق المالكيَّة على المنع وإنَّما الخلاف بينهم في استعماله في ظاهر الجسد، لكن ذكر "أبو الوليد الباجي" في "المنتقى"¹ أنَّ قول الإمام "مالك" في "العتبيَّة" في التَّداوي بـ"المرتك" من عظام الميتة مع منعه من الصَّلَاة، حتى يغسل يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أنَّها رواية عنه في التَّداوي بما لا يحلُّ استعماله إلَّا للضرورة.

الثَّاني: أنَّه إنَّما يباح من ذلك ما فيه من خلاف في نجاساته.

الثَّالث: أنَّ ذلك في استعماله خارج البدن.

وأما المذهب الشَّافعي فيرى جواز التَّداوي بجميع النَّجاسات إلَّا الخمر، حكاها "ابن رسلان" (ت. 844هـ/ 1440م) في شرح "السُّنن من الشَّافعيَّة لحديث العرينين، حيث أمرهم بالشُّرب من أبوال الإبل للتداوي. وقد علمت ما يتعلق بهذا الدَّلِيل².

انتشر نقل الدَّم بصورة واسعة فما بين سنة (1344هـ/ 1925م) و(1364هـ/ 1945م)، ومنذ ظهور هذه المسألة كتب الكثير من الفقهاء المحدثين فتاويهم في إباحته مؤيدين رأي الشَّيخ "مُحمَّد العزيز جعيط" في ذلك، مثل: الشَّيخ "حسن مأمون" مفتي "مصر" سابقاً، وأصدر الشَّيخ الدُّكتور "مُحمَّد أيمن الصَّافي" كتاباً بعنوان "نقل الدَّم وأحكامه الشَّرعية" سنة (1392هـ/ 1973م)، وفي سنة (1400هـ/ 1979م) صدرت فتوى عن وزارة الأوقاف والشُّؤون الإسلاميَّة بدولة "الكويت" تبيح فيها نقل الدَّم بشرط الحصول على إذن المنقول منه.

وبعد هذا جوَّز الكثير من العلماء والمراجع الدينيَّة نقل الدَّم؛ ومثالنا على ذلك: العلامة "مُحمَّد شفيع" مفتي باكستان الأكبر الذي جوَّز نقل الدَّم³؛ كذلك الشَّيخ "موسى صالح شرف" الذي أفتى بحرمة بيع الدَّم، وحثَّ على التَّبرع به لإنقاذ المريض⁴.

فقد أباحت هذه الفتاوى إجراء نقل الدَّم واعتبرته من أعمال البرِّ والخير، وذلك لما فيه

¹ - الباجي: المنتقى شرح موطأ الإمام مالك، المرجع السابق، ج. 3، ص. 141. وينظر، أبو بكر بن العربي:

أحكام القرآن، تح: علي مُحمَّد الجاوي، ج. 1، ط. 1، دار الجيل، بيروت، 1988م، ص. 59.

² - المجلَّة الزَّيتونيَّة، مج. 8، ج. 1، جمادى الثَّانية 1371هـ/ مارس 1952م، ص. 16 وما بعدها.

³ - مُحمَّد بوزغيب: المرجع السابق، ص. 151 - 152.

⁴ - مجلَّة منار الإسلام، ع. 2، السنة 8، تصدر عن وزارة العدل والأوقاف، الإمارات العربيَّة المتحدَّة،

صفر 1403هـ/ ديسمبر 1982م، ص. 87.

من إنقاذ حياة أشخاص كثيرين.

سادساً- خاتمة واستنتاجات:

من خلال ما تقدّم توصلت إلى الاستنتاجات التالية:

✓ أن نموذج دراستنا الشيخ "مُحمَّد عبد العزيز جعيط"، كان عالماً أصولياً بارعاً في أصول الفقه، مُحيطاً بأراء الفقهاء، وبلغه أهل الأصول. كما كان عالماً مقاصدياً يستحضر في فتواه مقاصد الشريعة عند النازلة، حتى يكون استخدامه للتزليل القرآني سليماً مبنياً على الأحوط.

✓ التزام الشيخ بتحقيق المناط جعل أنموذج فتواه المقدمة تراعي تحقيق المصالح، بناء على فقه الموازنات وفقه الأولويات؛ لأنّه نظر إلى ما سيؤول إليه الأمر، من خلال إحياء النفس البشرية التي ستهلك إذا لم يُنقل لها الدّم وإن كان نجساً.

✓ أن الشيخ عند استخدامه للتزليل القرآني في صناعة فتواه، كان مستحضرًا للغة الوحي، فهمًا وإدراكًا وفقهاً، كما أنّه كان عالماً بأصول الحديث النبوي الشريف واستخداماته لغة ومعناً وتثميناً لمخرجات السنة النبوية الشريفة القولية، وأنّه كان عالماً بعلم الخلاف، ولهذا نجده يناقش ما ذهب إليه الفقهاء المسلمون قديماً، فيوافق ويقرُّ أو يُرجح؛ لأنّه كما أسلفنا كان أصولياً ومقاصدياً، ناهيك على أنّه كان عارفاً بمبادئ العلوم الإنسانية وتطوراتها.

وهذا ما يجب أن يكون عليه صنّاع الفتوى في هذا الزّمن، لنجيد في الفقه الإسلامي أصولاً ومقاصداً حتى تكون فتاونا سليمة تحفظ مجتمعاتنا الإسلامية وتُوصِّل المسلمين إلى الله سالمين.

قائمة المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم.

أولاً - المصادر:

✓ كتب الحديث النبوي الشريف:

(1)- الإمام بن ماجة مُحمَّد بن يزيد القزويني: سُنن ابن ماجة، تج: مُحمَّد فؤاد عبد الباقي، ط.2، دار إحياء الكتب العربية، 1979م.

(2)- الإمام مُحمَّد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، تج: مُحمَّد زهير بن ناصر النَّاصر، تج: مصطفى ديب البغا، ط.1، دار طوق النجاة، دمشق، 2002م.

✓ الكتب المرجعية:

(3)- إبراهيم بن موسى اللخمي (الشَّاطبي): الموافقات، تج: عبد الله ومُحمَّد الدَّرَّاز، ج.2، ج.3، ج.4، ط.2، دار الفكر العربي، القاهرة، 1975م.

(4)- أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي: المنتقى شرح موطأ الإمام مالك، ج.3، ط.1، دار السَّعادة، القاهرة، 1914م.

- (5)- أبو بكر بن العربي: أحكام القرآن، تح: علي مُحمَّد البجاوي، ج.1، ط.1، دار الجيل، بيروت، 1988م.
- (6)- أحمد بن إدريس القرافي: الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، تح: محمود عربوس، ط.1، مطبعة الأنوار، القاهرة، 1938م.
- (7)- _____: شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، ط.1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2004م.
- (8)- _____: الفروق: أنوار البزوق في أنواء الفروق، تح: مُحمَّد أحمد سراج الدين و علي جمعة مُحمَّد، ج.4، ط.1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2001م.
- (9)- أحمد بن يحيى النونشريسي: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تح: جماعة من الفقهاء، إشراف: مُحمَّد حيّ، ج.4، ط.1، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب، الرباط، 1981م.
- (10)- أحمد الزرقاء: شرح القواعد الفقهية، ط.4، دار القلم، دمشق، 1996م.
- (11)- جلال الدين السيوطي: الدُر المنثور في التفسير المأثور، ج.6، ط.1، دار الفكر، بيروت، 2011م.
- (12)- الرَّاغب الأصفهاني: مُفردات ألفاظ القرآن الكريم، تح: صفوان عدنان داوودي، ط.4، دار القلم، دمشق، 2009م.
- (13)- عبد الرَّحمن بن جاد الله البناني المغربي: حاشية البناني على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع لابن السُّبكي، ج.2، ط.1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1998م.
- (14)- عبد ربُّ النَّبي بن عبد الرَّسول الأحمَد نكري: دستور العلماء، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، تع و تح: حسن هاني فحص، ج.2، ط.1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م.
- (15)- عثمان بن عبد الرَّحمن الشَّهرزوري (ابن صلاح): أدبُ المفتي والمُستفتي، تح: موفق عبد الله عبد القادر، ط.1، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، 1986م.
- (16)- عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ج.1، ط.1، مؤسسة الرِّئان، بيروت، 1991م.
- (17)- علي بن عبد الكافي السُّبكي: الإمهاج في شرح المنهاج، ج.1، ط.1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م.
- (18)- علي بن مُحمَّد بن علي الجرجاني: التَّعريفات، تح: إبراهيم الأبيادري، ط.1، دار الرِّيان للتراث، القاهرة، 1985م.
- (19)- مُحمَّد أحمد عlish: فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك، ج.1، ط.1، دار المعرفة، بيروت، 1979م.
- (20)- مُحمَّد أمين بن عابدين: رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، ج.1، ط.1، مطبعة بولاق، القاهرة، 1975م.
- (21)- مُحمَّد بن أبي بكر بن أيوب (ابن قيم الجوزية): أعلام الموقعين عن ربِّ العالمين، تح: مشهور بن حسن آل سلمان و أحمد عبد الله أحمد، ج.6، ط.1، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الرباط، 2002م.
- (22)- مُحمَّد بن الحسن النَّعالي الحجوي: الفكر السَّامي في تاريخ الفقه الإسلامي، تح: عبد العزيز القارئ، ج.2، ط.1، مطبعة دار الثَّراث، القاهرة، 1976م.
- (23)- مُحمَّد بن عمر بن قاسم مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تح: عبد المجيد خيالي، ج.1، ط.2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010م.
- (24)- مُحمَّد بن علي بن مُحمَّد بن عبد الرَّحمان الحنفي الحصفكي: حاشية الدر المختار شرح تنوير الأبصار، ج.1، ط.1، مطبعة بولاق، القاهرة، 1907م.

- (25) - مُحَمَّد ياسين بن عيسى (الفاداني): الفوائد الجَنَّة حاشية المواهب السَّنَّة شرح الفرائد الميَّة في نظم القواعد الفقيَّة، تج: رمزي سعد الدِّين دمشقيَّة، ط.2، دار البشائر الإسلاميَّة، بيروت، 1996م.
- (26) - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: بصائر ذوي التَّمييز في لطائف الكتاب العزيز، تج: مُحَمَّد علي النَّجار، وعبد العليم الطَّحاوي، ط.3، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميَّة، القاهرة، 1996م.
- ثانياً- المراجع:
- (27) - أحمد بن أبي الضَّيَّاف: إتحاف أهل الزَّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تج: لجنة من وزارة الثقافة التُّونسيَّة، مج.1، ج.2، ط.2، الدَّار العربيَّة للكتاب، تونس، 2004م.
- (28) - جمال كركار: أثر العرف في تَغْيُر الفتوى، ط.1، دار بن حزم للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، 2009م.
- (29) - حسين خوجة: الدَّليل لكتاب بشار أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان، ط.1، المطبعة الرِّسميَّة العربيَّة، تونس، 1908م.
- (30) - صالح بن غانم السَّدلان: القواعد الفقيَّة الكبرى وما تفرَّع عنها، ط.2، دار بلنسيَّة، الرِّياض، 1996م.
- (31) - عبد الله بن الشَّيخ المحفوظ بَيَّة: صناعة الفتوى وفقه الأقلِّيَّات، ط.1، دار المنهاج للنشر والتَّوزيع، جدَّة، 2007م.
- (32) - عبد الله الكمال: تأصيل فقه الموازنات، ط.1، دار ابن حزم، بيروت، 2000م.
- (33) - عبد المجيد مُحَمَّد السُّوسو: فقه الموازنات في الشَّريعة الإسلاميَّة، ط.1، دار القلم، دبي، 2004م.
- (34) - علاال الفاسي: مقاصد الشَّريعة الإسلاميَّة ومكارمها، ط.5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993م.
- (35) - علي حيدر: دُرر الحُكَّام شرح مجلَّة الأحكام، تج: فهي الحسيني، ج.1، (ط.خ)، دار عالم الكتاب، الرِّياض، 2003م.
- (36) - قطب الرِّيسوني: صناعة الفتوى في القضايا المعاصرة، معالم وضوابط وتصحيحات، ط.1، دار ابن حزم، بيروت، 2014م.
- (37) - قطب مُصطفى سانو: صناعة الفتوى المعاصرة، ط.1، مكتبة الرشد، الرِّياض، 2013م.
- (38) - مُحَمَّد بودينة: مشاهير التُّونسيين، ط.1، مطبعة شركة فنون الرِّسم والنَّشر والصَّحافة، تونس، 1988م.
- (39) - مُحَمَّد بُوزغيبه: فتاوى شيخ الإسلام في تونس مُحَمَّد العزيز جعيط واجتهاداته وترجيحاته، ط.2، دار ابن حزم للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، 2005م.
- (40) - مُحَمَّد الخضر حسين: تونس وجامع الزَّيتونة، تج: علي الرِّضا الحسيني، ط.1، مؤسَّسة دار النُّوادر، دمشق، 2010م.
- (41) - مُحَمَّد الصَّالح بن عمر: الأدب الحديث والمعاصر، ط.1، بيت الحكمة قرطاج، تونس، 1990م.
- (42) - مُحَمَّد شُحُور: الكتاب والقرآن - قراءة مُعاصرة، ط.1، الأهالي للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، دمشق، 1990م.
- (43) - مُحَمَّد الطَّاهر بن عاشور: مقاصد الشَّريعة، تج: مُحَمَّد الحبيب بن الخوجة، ج.3، ط.1، وزارة الأوقاف والشُّؤون الإسلاميَّة - قطر، الدُّوحة، 2004م.
- (44) - مُحَمَّد الفاضل بن عاشور: الحركة الأدبيَّة والفكرية في تونس، ط.1، الدَّار التُّونسيَّة للنشر، 1972م.
- (45) - مُحَمَّد فتحي الدَّريني: المناهج الأصوليَّة في الاجتهاد بالرَّأي في النَّشرع الإسلامي، ط.3، مؤسَّسة

- الرّسالة، بيروت، 1997م.
- (46)- مُحمّد محمود إبراهيم: المدخل إلى القواعد الفقهيّة الكلّيّة، ط.1، دار عمّار، عمّان، 1998م.
- (47)- مُحمّد الوكيل: فقه الأولويات دراسة في الضوابط، ط.1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بيروت، 2005م.
- (48)- محمود شّام: إشعاع الفقه الإسلامي على القانون الوضعي بالبلاد التّونسيّة، ط.1، المطابع الموحّدة، تونس، 1986م.
- (49)- يوسف القرضاوي: أولويات الحركة الإسلاميّة في المرحلة القادمة، ط.1، مؤسسة الرّسالة، بيروت، 2000م.
- (50)- يوسف القرضاوي: في فقه الأولويات - دراسة جديدة في ضوء القرآن والسّنة، ط.1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1994م.
- ثالثاً- المجلّات والصّحف:
- (51)- صحيفة الزّهرة، ع. رمضان 1364هـ/سبتمبر 1945م.
- (52)- صحيفة الزّهرة، ع. رمضان 1365هـ/أوت 1946م.
- (53)- صحيفة الصّباح التّونسيّة، ع. ربيع الثّاني 1356هـ/جوان 1937م.
- (54)- صحيفة الصّباح التّونسيّة، ع. ذو القعدة 1375/مارس 1956م.
- (55)- صحيفة الصّباح التّونسيّة، ع. رمضان 1376/أفريل 1957م.
- (56)- صحيفة الصّباح التّونسيّة، ع. ذو القعدة 1377/جوان 1958م.
- (57)- صحيفة النّهضة التّونسيّة، ع. 124، محرم 1373هـ/سبتمبر 1953م.
- (58)- صحيفة العمل، ع. محرم 1377هـ/أوت 1957م.
- (59)- المجلّة الرّبتونيّة، مج. 1، ج. 5، ذو القعدة 1355هـ/جانفي 1937م.
- (60)- المجلّة الرّبتونيّة، مج. 1، ج. 10، ذو القعدة 1355هـ/جانفي 1937م.
- (61)- المجلّة الرّبتونيّة، مج. 8، ج. 1، جمادى الثّانية 1371هـ/مارس 1952م.
- (62)- مجلة منار الإسلام، ع. 2، السنة 8، تصدر عن وزارة العدل والأوقاف، الإمارات العربيّة المتحدّة، صفر 1403هـ/ديسمبر 1982م.
- (63)- كمال الدّين جعيط: «الشّيخ جعيط حياته وآثاره»، مجلة جوهر الإسلام، ع. 3، 4، ع. 6.
- ع. 9، الشّركة التّونسيّة لفنون الرّسم، تونس، 1977م/1978م.
- رابعاً- القواميس والمعاجم:
- (64)- أحمد بن فارس بن زكريا: مُعجم مقاييس اللغة، تح: مُحمّد عبد السّلام هارون، ج. 5، ط. 1، دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، 1979م.
- (65)- جمال الدّين بن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، ط. 1، دار المعارف، القاهرة، 1979م.
- (66)- خير الدّين الزّركلي: الأعلام، ج. (1 - 6)، ط. 1، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م.
- (67)- مُحمّد محفوظ: تراجم المؤلّفين التّونسيّين، ج. (1 - 4)، ط. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م.
- (68)- مُحمّد المرتضى الحسيني الزّبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تح: عبد الحلّيم الطّحاوي، ج. 21، ط. 1، مطبعة حكومة الكويت، الكويت 1984م.

دراسة تحليلية

gmazna5000@gmail.com



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إمام المهتدين بعثه الله بالهدى والحق المبين نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، ونحن على ذلك من الشاهدين، وصل الله وسلم عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه الغر الميامين صلاة دائمة إلى يوم الدين. أما بعد..

فإن الإسلام دين الهدى والتقى الكامل المهيمن على المناهج كلها أكمل الله به النعمة وبه أتمها، كما قال سبحانه جل وعلا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [المائدة: 3]، قد حوى جميع علوم الدين والدنيا باق خالد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ والباحث في تراث المسلمين وكتاباتهم ليجد عظيم استثمارهم لهذا الفضل العظيم؛ وتنزله على واقعهم المعاصر رغم اختلاف أمصارهم وتعاقب أزمانهم.

ومن أولئك العلماء الذين اعتنوا ببذلك فجعلوا كتاب الله دليلهم ومنهاجهم بحثوا في درره ونالوا أحسبهم من خيره وهديه ﷺ إمامٌ كبير بذل حياته لخدمة العلم، واستفاد منه خلق كثير، ذلك هو الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله، تظهر جليلة في تنوع مصنفاته وكثرتها واتساع موضوعاتها وتماييزها التي إن دلت إنما تدل على عقلية فذة نستشف بزوغها في غضون مؤلفاته والتي من أظهرها سفره العظيم " التحرير والتنوير"، لهذا تجده لا تكاد تخلو قضية عنده أو حادث من محيطه إلا وكتاب الله تعالى عمدته في استشهاده عليها احتجاجاً واستدلالاً واستنباطاً؛ ولا غرو فكتاب الله أساس الشريعة وعمدة أدلتها، وإليه ترجع علوم الحياتين برمتها، يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَزَكَّاهُ لَكَ الْكِتَابَ يَتْلُوهُ هَدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى الْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89]. حيث يقول في تفسيرها: (تبياناً لكل شيء) "من إصلاح النفوس،

وإكمال الأخلاق، وتقويم المجتمع المدني، وتبين الحقوق، وما تتوقف عليه الدعوة من الاستدلال على الوجدانية، وصدق الرسول ﷺ، وما يأتي في خلال ذلك من الحقائق العلمية والدقائق الكونية، ووصف أحوال الأمم، وأسباب فلاحها وخسارها، والموعظة بآثارها بشواهد التاريخ، وما يتخلل ذلك من قوانينهم وحضاراتهم وصنائعهم. وفي خلال ذلك كله أسرار ونكت من أصول العلوم والمعارف صالحة لأن تكون بياناً لكل شيء... وهذا من أبدع الإعجاز"⁽¹⁾.

ومن هنا ارتأيت تتبع لمحات من عبقرية هذا الشيخ الجليل، ذلك من خلال القيام بدراسة علمية تتلمس معالم من منهجيته في تنزيله النصوص الشرعية في تقويم واقعه وإصلاح مجتمعه جاءت تحت عنوان: "منهج الشيخ ابن عاشور رحمته الله في تنزيل الآيات على الواقع المعاصر: دراسة تحليلية"، سائلة المولى الهدى والسداد وحسن العاقبة في الدنيا ويوم الحساب.

التعريف بالموضوع: سيتناول الموضوع التعرف على منهج الشيخ ابن عاشور رحمته الله في تنزيله الآيات على الواقع والتي يستبين في ضوءها ملامح من منهجية الشيخ ابن عاشور رحمته الله وعظم عنايته بمحيطه وبراعته في تنزيل الآيات عليه وبيانه طرف من إعجازها في معالجة الواقع متجاوزة حدود الزمان والمكان إلى يوم القيامة.

أهمية الموضوع: تضافرت عدة أسباب لتكون في مجملها الدافع الأساسي لاختياره، تتلخص في الآتي:

- أن هذا الموضوع يجعل المسلم ينشغل بكتاب الله تعالى ويتدبره ويعيه ويفهمه عسى أن يكسبه ذلك ثمرة من ثماره البانعة فتضيء له ولأمته الدنيا والآخرة.
- أن الشيخ ابن عاشور رحمته الله من الأعلام الذين جمعوا جملة من الفوائد والأحكام، التي يجدر الاهتمام بها والإشارة إليها في دراسات بيّنة مستفيضة.
- المتأمل في مؤلفات الشيخ ابن عاشور رحمته الله يجد فيها العقل الراجح والرأي الصائب وسعة الفكر وقوة البيان والبرهان القاطع، فدراستها تعد مفتاحاً لمزيد من الاجتهاد والاستنباط لاسيما في جانب إصلاح الواقع وما يمر به من الأحداث.
- أن مجريات العصر وتحدياته في تزايد وتجدد، وليس لطالب العلم سبيل أنفع له من النظر في كتاب الله والوقوف على مضامينه وكلام العلماء في تبيينه، ومحاولة معالجتها وفق منهج واضح سليم.

(1) التحرير والتنوير، (14/253)

- يجمع هذا الموضوع بين علوم عظيمة الأمر الذي يفيد بدوره في تلاحق العلوم وتبادلها والإفادة بوسائلها وآلياتها، ومن ثم الخروج بأجلّ الفوائد وأنفعها.

أهداف البحث: هدفت دراسة هذا الموضوع إلى تحقيق عددٍ من الأهداف، يمكن إجمالها فيما يأتي:

- التعريف الموجز بالشيخ ابن عاشور رحمته وعصره.
- بيان عناية الشيخ ابن عاشور رحمته بالواقع وتنزيل الآيات عليه.
- ذكر أبرز الملامح المنهجية للشيخ ابن عاشور رحمته في تنزيه الآيات على الواقع.
- ذكر نماذج من القضايا عند الشيخ ابن عاشور رحمته وتنزيله الآيات عليها.

تساؤلات البحث وإشكالاته: يتمحور سؤال البحث الرئيس حول: ما منهج الشيخ ابن عاشور/ في تنزيل الآيات على الواقع المعاصر، ويتفرع منه الأسئلة التالية:

1. من هو الشيخ ابن عاشور رحمته وما أبرز أخلاقه وصفاته؟
 2. ما معالم عناية الشيخ ابن عاشور رحمته بالواقع وتنزيله الآيات عليه؟
 3. ما أهم ملامح منهج الشيخ ابن عاشور رحمته في تنزيل الآيات على واقعه المعاصر؟
 4. ما أبرز صور عناية الشيخ ابن عاشور رحمته بإصلاح الواقع المعاصر وتنزيله الآيات عليه؟
- الدراسات السابقة: هناك عدة دراسات تتشارك مع هذه الدراسة: "منهج الشيخ ابن عاشور/ في تنزيل الآيات على الواقع المعاصر" من أهمها ما يأتي:

الدراسة الأولى: منهج الطاهر بن عاشور في أصول الاعتقاد دراسة وتقويماً، للباحث: محمد بن حسن العمري، بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض، 1417هـ. وتختلف هذه الدراسة عن الدراسة الحالية في كونها اختصت بتناول منهج الشيخ ابن عاشور رحمته في تناوله مسائل الاعتقاد، وعرض ذلك على منهج أهل السنة والجماعة، وبيان وجه الاختلاف بينه وبينهم، بينما تتناول الدراسة الحالية منهج الشيخ ابن عاشور رحمته في تنزيل الآيات على الواقع فهما مختلفتان منهجاً، وبيانياً.

الدراسة الثانية: منهج الشيخ ابن عاشور رحمته في تقرير العقيدة من خلال تفسيره "التحرير والتنوير". للباحث: آدم جمعة آدم، رسالة ماجستير بكلية أصول الدين بجامعة أم درمان الإسلامية بالسودان، 2004م. وتختلف هذه الدراسة بكونها تتناول موضوعات العقيدة: فهي تتناول منهج الشيخ بالتحليل والنقد والدراسة وعرضه على منهج أهل السنة والجماعة، في حين تركز الدراسة الحالية في بيان منهجه الشيخ في تنزيه الآيات على الواقع.

الدراسة الثالثة: الإمام الطاهر محمد ابن عاشور رحمته الله ومنهجه في توجيه القراءات من خلال كتابه "التحرير والتنوير"، للباحث: محمد سعد عبد الله القرني، رسالة ماجستير، بكلية الدعوة وأصول الدين، بجامعة أم القرى، 1424هـ. وتختلف هذه الدراسة عن الدراسة الحالية في أنها قامت بالتعريف بشروط القراءات عند ابن عاشور رحمته الله من حيث مصادره في توجيه القراءات، وتعبيراته، وموقفه من الترجيح بين القراءات المتواترة، ودفاعه عنها ضد الطاعنين بها، وكذلك موقفه من القراءات الشاذة، بيد أن هذه الدراسة تتعلق ببيان منهج الشيخ ابن عاشور رحمته الله في تنزيله الآيات بشكل عام.

الدراسة الرابعة: منهج الشيخ ابن عاشور رحمته الله في تفسير آيات الأحكام وأثره على الفروع الفقهية من خلال كتابه "التحرير والتنوير": دراسة وصفية تحليلية. للباحث: علي هارون محمد، رسالة دكتوراه، من كلية الدراسات العليا بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، بالسودان، عام: 2010م. وتختلف هذه الدراسات عن الدراسة الحالية في كونها تركز على بيان منهج الشيخ ابن عاشور رحمته الله في الأحكام الشرعية؛ فهي دراسة فقهية مؤصلة، في حين أن الدراسة الحالية تتناول منهج الشيخ ابن عاشور رحمته الله في تنزيله الآيات بشكل عام؛ فهي دراسة ذات منحنى ثقافي إثرائي.

وبذلك تتضح الجوانب التي تختلف فيها الدراسة الحالية عن الدراسات السابقة، كما تظهر الإضافة التي تميزها عن سابقتها، مما لم يتم تناوله من قبل الباحثين -حسب علم الباحثة-، والله الموفق الهادي إلى سواء السبيل.

منهج البحث؛ وضوابطه: اقتضى البحث استخدام عدد من المناهج العلمية منها:

1. المنهج الاستقرائي؛ وذلك بجمع آراء الشيخ ابن عاشور رحمته الله، وتبويب ذلك على محاور البحث.

2. المنهج الوصفي؛ وذلك بعرض آراء الشيخ رحمته الله كما هي دون تعديل يمس جوهر الفكرة.

3. المنهج التحليلي: تحليل الآراء والأفكار الواردة في مؤلفات الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمته الله والتي لها علاقة بالموضوع المراد دراسته.

4. المنهج النقدي؛ وذلك عند مراجعة آراء الشيخ ابن عاشور رحمته الله في اعتدال وفق الضوابط الشرعية.

هذا إلى جانب أن الباحثة التزمت بالضوابط الآتية:

- كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني، وعزوها إلى مواضعها بذكر اسم السورة، ورقم الآية في الحاشية.

- تخريج الأحاديث النبوية من كتب السنة المعتمدة، دون التزام لفظ من خُرج منه، فما كان في الصحيحين أو أحدهما أكتفي بتخريجه منهما، دون ذكر حكمه؛ لتلقي الأمة لهما بالقبول، وما لم يوجد فيهما يُخَرَّج من كتب السنة الأخرى، مع بيان الحكم.

- التعريف بالكلمات والمصطلحات الغريبة، وذلك بالرجوع إلى الكتب المتخصصة من المعاجم والقواميس وغريب اللغة والحديث وغيرها.

- الرجوع إلى المصادر الأصلية قدر المستطاع، وما لم يوجد منها يشار إلى من نقل عنه، مع الاختصار على اسم الشهرة واسم الكتاب، تجنباً لثقل الحاشية وإرجاء بقية المعلومات إلى ثبت المراجع.

- ما أخذ بالنص يوضع بين قوسين "..."، عدا الشواهد الشعرية لغناها عن ذلك، وما كتب بالمعنى أو بتصرف يُشار إليه في الحاشية بكلمة "ينظر".

- تم تمييز مؤلفات الشيخ ابن عاشور رحمته بالاختصار على اسم الكتاب وموضع المعلومة من صفحاته.

- عمل فهرس المراجع والموضوعات.

تقسيمات البحث: يتكون البحث من مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة وفهارس على النحو الآتي:

المقدمة: وفيها: (التعريف بالموضوع وأهميته وتساؤلاته، والدراسات السابقة، وأهدافه، ومنهج البحث وضوابطه، وتقسيماته).

تمهيد: التعريف بالشيخ ابن عاشور رحمته وعصره.

المبحث الأول: عناية الشيخ ابن عاشور رحمته في تنزيله الآيات على الواقع.

المبحث الثاني: ملامح من منهجية الشيخ ابن عاشور رحمته في تنزيله الآيات على الواقع.

المبحث الثالث: وقفات من تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ ابن عاشور رحمته.

الخاتمة: النتائج - التوصيات.

الفهارس: فهرس المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات.

التمهيد: التعريف بالشيخ ابن عاشور رحمته وعصره

إنَّ البذرة الصالحة لا تنمو إلا بسقي ورعاية، وفي جو تتغذى منه وتعيش فيه، فكل حي في الوجود يتأثر بالهواء الذي يستنشقه والبيئة التي تظله؛ ولذلك كان للعصر الذي يعيش فيه العالم الأثر الذي يوجهه، وقد يكون الأثر من جنس حال العصر، فكثرة الفساد قد تحمل على التفكير الجدي في الإصلاح، وكثرة الشر قد تحمل على استحصاد العزائم للخير، وقد تكون دافعة للمصلح لأن يفكر في أسباب الشر فيقتلعها، وفي بذور الخير فيغذيها.

وقد كان العالم الإسلامي في أعقاب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي مائجاً

بالفوضى والاضطرابات، حيث التآمر الأوروبي على دولة الخلافة العثمانية، وسعي الدول الغربية إلى اقتسام أطراف العالم الإسلامي، بمحاولة بسط نفوذها على الولايات العثمانية في أوروبا والشرق العربي وشمال إفريقيا، هذا من الخارج⁽¹⁾. أما من داخله فيمور في كل اتجاه نتيجة تسلط الأعداء والسير خلف الأهواء، فانتشر الاستبداد والاضطهاد، وظهرت الفتن والكوارث، وساد الفقر والمرض، وانتشرت البدع، وشاع الجهل حتى غدا فهم كثير من المسلمين للإسلام منحرفاً بعيداً عن روح الإسلام الخالص، عقيدة وعبادة وسلوكاً.

ولم تكن البلاد التونسية بمنأى عن ذلك يومئذ، بل كانت كأخواتها من الأقطار الإسلامية⁽²⁾ تحتسي مرارة التخلف على مختلف الأصعدة وشتى المجالات علمياً وسياسياً واقتصادياً ودينياً. إلا أن هذه الأوضاع الأليمة لم تقف حجر عثرة لثلة من الأنفس الأبية لتجسد في غضون ذلك معنى التجاوب العكسي بين العصر وأهله. حيث ظهرت حركات إصلاحية في مختلف أقطار الدول الإسلامية، تباينت طرائقها بحسب الظروف البيئية، وما بين شد وجذب بين رجال هذه الحركات والظروف المحيطة بهم، بشرت العائلة العاشورية بولادة محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله بقصر جده لأمه "بالمرسى"، من الضواحي الشمالية للعاصمة التونسية في جمادى الأولى سنة 1299 هـ الموافق لشهر سبتمبر/أيلول 1879 م⁽³⁾.

ليعيش بعد ذلك مرحلتين تاريخيتين من تاريخ تونس الحديث والمعاصر، الأولى: مرحلة الاحتلال العسكري الفرنسي المباشر: من سنة 1298 هـ-1881 م إلى 1363 هـ-1956 م، أما الثانية: فهي مرحلة الحصول على الاستقلال السياسي وتبدأ من سنة: 1363 هـ-1956 م إلى سنة 1393-1973 م وهي السنة التي توفي فيها⁽⁴⁾. كانت لها أبلغ الأثر في فهم واقعه والسعي في إصلاحه ورقيه.

نسبه: هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد ابن عاشور رحمته، وأمه: فاطمة بنت الشيخ الوزير محمد العزيز بن محمد الحبيب ابن محمد الطيب بن محمد بو عتور⁽⁵⁾. لينشأ الشيخ ابن عاشور رحمته في كنف والد يأمل أن يكون على مثال جده في النبوغ والعلم والعبقرية، وفي جناح جده الوزير الذي يحرص أن يكون خليفته في العلم والجاه والسلطان⁽⁶⁾.

فالشيخ ابن عاشور رحمته سليل أسرة علمية امتازت بالسؤدد والعلم والفضل، أباً عن

(1) ينظر: تاريخ تونس، لمحمد الهادي الشرف، (ص: 70 وما بعدها).

(2) ينظر: من أعلام الزيتونة: الإمام محمد الطاهر بن عاشور حياته وأثاره، للغالي، (ص: 25).

(3) ينظر: من أعلام الزيتونة: الإمام محمد الطاهر بن عاشور حياته وأثاره، للغالي، (ص: 25)، (ص: 42).

(4) ينظر: نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، للحسني، (ص: 74-75).

(5) ينظر: كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ، (ص: 7).

(6) ينظر: من أعلام الزيتونة: الإمام محمد الطاهر بن عاشور حياته وأثاره، للغالي، (ص: 41-42).

جد، منهم من تقدم الشيخ ابن عاشور رحمته ومنهم من عاصره، فكان لهم الأثر المباشر في تنشئته وتوجيههم الله جميعاً⁽¹⁾. ليتبين بذلك أثر العناية الأسرية في تكوين العقلية العلمية لأبنائها، مما يجعل الوقوف على سير العلماء منهجاً أصيلاً في التربية يؤخذ من خلالها طرائق التعامل السوية ومنافعها على مستوى الأسرة والمجتمع.

شيوخه: أقبل الشيخ ابن عاشور رحمته على تحصيل العلم من علماء عصره الأجلاء، فكان لهم أبلغ التأثير في تكوينه، ومن أبرزهم شيخان كان لهما وزن كبير في تلك الأوساط: أحدهما: جده ومربيه؛ محمد العزيز بوعتور وأما الآخر فالشيخ سالم بوحاجب الذي كان كثيراً ما يتردد اسمه في مؤلفات الشيخ ابن عاشور /؛ مما يدل على مدى التلاقح الفكري بينها⁽²⁾. وهكذا نشأ متأصلاً في العلوم الشرعية، ومعاصراً الحركات الإصلاحية⁽³⁾، مصححاً مساراتها، ومتشرباً طرائق مشايخه العلمية في إصلاح حياته الاجتماعية.

تلاميذه: تتلمذ على يديه عدد كثير وجم غفير من كبار الوزراء وعظماء الكتاب ومشاهير الحكام ورجال الصحافة والاقتصاد⁽⁴⁾، إلا أن أولهم وأشهرهم على الإطلاق، ابنه العلامة الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور رحمته، والشيخ محمد الحبيب بلخوجة رحمته⁽⁵⁾. فنشؤوا على يديه ونهلوا من علمه ليصبحوا فيما بعد أعلاماً في مضمار الدعوة يشار إليهم بالبنان، شيوخاً في ذلك الجامع الأعظم الذي خرّج أجيالاً وأجيالاً، فما من عائلة تونسية أو جزائرية على الأخص إلا ولها صلة بجامع الزيتونة، والذي غدا بفضل الله تعالى ثم بفضل إصلاحات الشيخ ابن عاشور رحمته قبلة علمية يقصد إليها أهل العلم من شتى أرجاء المعمورة قاطبة⁽⁶⁾.

أشهر مؤلفاته: اعتنى الشيخ ابن عاشور رحمه الله بأمهات العلوم الإسلامية وبرع فيها، فتنوعت مؤلفاته متجاوزة الأربعين مصنفاً من أهمها ما يأتي:

1. تفسير "التحرير والتنوير" المسعى ب: "تحرير المعنى الشديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد"، يقع في 30 جزءاً، وقد حوى التحاليل اللغوية الدقيقة والاجتهادات المعقدة والترجيحات القيمة، ويعد أهم هذه الآثار وأشهرها على الإطلاق.

2. "مقاصد الشريعة"، ويعد فريداً في بابهِ من حيث التوسع والشمول للكشف عن أبعاد الغاية المروم تحقيقها وتقديرها، وقد عملت جلّ الجامعات الإسلامية على اعتماده، وعُدَّ الشيخ فيه مجدداً، بل مجتهداً أضاف إلى المعرفة الشرعية باباً من أهم أبوابها، مسجلاً

(1) ينظر: شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، لبلخوجة، (ص: 97).

(2) ينظر: نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، للحسني، (ص: 83).

(3) ينظر: شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، لبلخوجة، (ص: 97).

(4) ينظر: من أعلام الزيتونة: الإمام محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، للغالي، (ص: 70).

(5) ينظر: أليس الصبح بقريب، (ص: 9).

(6) ينظر: شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، لبلخوجة، (ص: 29).

به مرحلة هامة من أهم مراحل هذا العلم، وكان فيه مثلاً لتوظيف المعرفة التراكمية والانطلاق منها لتأسيس معرفة جديدة معتمدة عليها متميزة عنها.

3. "أليس الصبح بقريب"، ويعد من الأعمال الجليلة للشيخ ابن عاشور رحمته مع كونه كتبه في بداية حياته إلا أنه كان ذا نظرة عامة شاملة في مجال الإصلاح التربوي، وقد جسده ميدانياً في إصلاح التعليم بجامع الزيتونة، فحق للمربين تأملها والإفادة منها.

4. "أصول النظام الاجتماعي في الإسلام"، وقد عالج الشيخ ابن عاشور رحمته فيه قضايا متعددة؛ إذ تطرق فيه إلى خصائص هذا الدين في إصلاح الأفراد، وفي القسم الثاني عالج الإصلاح الاجتماعي وذكر أصولاً مهمة ومبادئ قويمه قام عليها هذا الدين العظيم.

ولديه غيرها بضعة وثلاثون مؤلفاً ما بين مطبوع ومخطوط والتي امتازت بكثير من المميزات والتبويات، والتي لم تطغَ كثرتها على جودتها؛ إذ إنه كثيراً ما تؤثر كثرة التأليف في مجال ما على جودتها وحصافتها فكيف بمجالات متنوعة وعلوم متفرقة⁽¹⁾.

صفاته: امتاز الشيخ ابن عاشور رحمته بأخلاق عظيمة فاضلة، من وقفاته تظهر من جنبايات أفكاره وفي ثنايا كتاباته، فكيف بمن عاشره وتلمذ تحت يده؛ لعل من أهمها:

الجود والسخاء: عادة ما يعرف السخاء بالمال والإنفاق فيه؛ ولكن هناك نوع آخر أجل منه وأعظم وهو السخاء المعرفي والتدفق العلمي؛ وقد تميز الشيخ ابن عاشور رحمته بذلك أيما تمييز؛ فهو سخي على مجتمعه يعطيه جل ما عنده وزبدة فكره وتقريراته يفصل له ما بظنه يستصعبه ويبين له ما يجهله ويشتبه عليه ويستثقله. وإن المتأمل في ذلك ليجده حاضراً في أول مجلد من تفسيره بل وفي أول وهلة من تفسيره؛ فقد بين تفسير البسمة في بضع عشر صفحة؛ ليتبين في غصونها عظم إفاضته بالعلم والمعرفة؛ فلا غرابة في حب الناس له واعتداده، فالنفوس مجبولة على حبٍّ من أحسن إليها.

الشجاعة: مما يوضح ذلك ما قام به بورقيبة من فتوى الإفطار في رمضان فقام في مشهد مهيب ليقول مقولته الشهيرة: "صدق الله وكذب بورقيبة" بعد أن قرأ آية الصيام؛ فقطع دابر هذه الفتنة بسبب ثباته وصده هذا الفساد. فالحق مصيره الانبلاج ولو بعد حين؛ وإن قضية التجنيس لتعد من المحن التي عصفت بالشيخ ابن عاشور رحمته في حياته ليتجلى منها شجاعته وجلده ومضيه قدماً فيما هو بصدهد ليجسد طريقة عظمى من طرق التعامل مع الأحداث وهي التغافل عنه والانشغال في المهمات؛ فالصبح قادم وإن طال ليله.

الصبر: من أبرز ما يتجلى منه من هذه السمات صبره وطول نفسه الذي استمر لقراءة النصف قرن من الزمان⁽²⁾؛ يقرر ويبين ويوضح ويدلل حتى تجاوزت صفحات تفسيره بضعة

(1) ينظر: من أعلام الزيتونة: الإمام محمد الطاهر بن عاشور حياته وأثاره، للغالي، (ص: 19-20).

(2) ذلك أنه اعتنى بالإضافة إليه وتهذيبه حتى بعد الانتهاء من تصنيفه، ومن ذلك ما أورده في تفسير =

عشر ألف صفحة؛ حيث يقول في ختامه كلمته المؤثرة التي جاء فيها: "قد وفيت بما نويت، وحقق الله ما ارتجيت، فجئت بما سمح به الجهد من بيان معاني القرآن ودقائق نظامه وخصائص بلاغته، مما اقتبس الذهن من أقوال الأئمة، واقتدح من زند لإنارة الفكر والهباب الهمة، وقد جئت بما أرجو أن أكون وفقت فيه للإبانة عن حقائق مغفول عنها، ودقائق ربما جلت وجوهاً ولم تجل كنها، فإن هذا منال لا يبلغ العقل البشري إلى تمامه، ومن رام ذلك فقد رام والجوزاء دون مرامه. وإن كلام رب الناس، حقيق بأن يخدم سعيًا على الرأس، وما أدى هذا الحق إلا قلم المفسر يسعى على القرطاس، وإن قلبي طالما استن بشوط فسيح، وكم زجر عند الكلال والإعياء زجر المنيع، وإذ قد أتى على التمام فقد حق له أن يستريح. وكان تمام هذا التفسير عصر يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب عام ثمانين وثلثمائة وألف. فكانت مدة تأليفه تسعًا وثلثين سنة وستة أشهر... وأرجو منه تعالى لهذا التفسير أن ينجد ويغور، وأن ينفع به الخاصة والجمهور، ويجعلني به من الذين يرجون تجارة لن تبور"⁽¹⁾.

التواضع: من يتمعن في حديث الشيخ ابن عاشور رحمته الله يجد التواضع في شموخ واعتزاز؛ تواضع بلا خنوع وابتدال، وهذا ما تكشف استشهاده وإيراداته واستدراكاته وتعقباته، بله مشاريعه ومنجزاته تجده ينسب الفضل لأهله؛ إذ لا خير لمن لا يعرف للسابق فضله، غير باخس حق نفسه، ومن ذلك اعترافه بالفضل والامتنان لغيره: والاعتراف بفضائل أهل الفضائل من عظيم المناقب والفضائل، وإن المتتبع لاستدراكات الشيخ ابن عاشور رحمته الله يلحظ بجلاء أدبه واعترافه بمنزلة العالم وإن اختلف معه، من ذلك تعقيبه على الإمام الجويني رحمته الله تردده في قبول المصالح المرسله فقال: "واني لأعجب فرط العجب من إمام الحرمين -على جلالة علمه ونفاذ فهمه- كيف تردد في هذا المقام"⁽²⁾، وكأنه بذلك يجسد مسلماً قويمًا في التعامل مع الخلافات العلمية واحتساب الإعذار فيها إن كان للعذر طريقًا. فالشيخ رحمته الله رغم اعتزازه بنفسه وإدراك تميزه وسبقه، إلا إنه لا يهضم غيره حقه وإنما يحتفي به معترفًا بفضله ويوقره، ذلك أن أعمال الاعتبارات الشخصية مفسد لقاصدي العلم أي مفسدة، وهو يسفر عن عقلية الشيخ ابن عاشور رحمته الله الفذة ورجاحة فكره واستقلاله، مع تأصيله وتقعيده واعتزازه، وفي هذين الطريقتين تبين وسطية الشيخ ابن عاشور رحمته الله حيث إنه لم يغلُ بمن قبله فيتعصب له مجمدًا عقله، ولم يغالِ برأيه فينفرد فيه دون اعتبار لغيره. مشيرًا مع ذلك إلى كيفية تحقيقه وتحصيله. وهذا لا شك منهج

=سورة الإسراء، حيث قال في هامش (15/19): "مقال حرّره عارف عارف في المجلة المسماة: (رسالة

العلم) بالمملكة الأردنية عدد 2 من السنة 12 كانون الأول سنة 1968م"، وهذا التاريخ بعد تاريخ فراغه

من التفسير بقرابة ثماني سنوات!

(1) التحرير والتنوير، (30/636-637).

(2) مقاصد الشريعة الإسلامية، (ص: 93).

العلماء الكبار، ولو تتبع باحث مقدمات التأليف لوجد منها ما يسر خاطر ويشفي الغليل. وما أوجبنا إلى ذلك في هذا الزمان الذي طالت فيه أعناق الأقزام تراحم جهابذة الأعلام، فيها هو الشيخ ابن عاشور رحمته وهو من هو، يلمح دون تصريح، وينصح دون تأنيب، مقتدياً في ذلك بالنبي الكريم ﷺ خير ولد آدم أجمعين.

اللطف واللين: وقد استفاد هذا المنهج من سماحة الدين الإسلامي؛ فهو يرى أن أخذ الناس بهذا الأسلوب طريق ناجع في التزامهم قيم الدين وهو ما قرره فقال: "إن للسماحة أثراً في سرعة انتشار الشريعة وطول دوامها؛ إذ أرانا التاريخ أن سرعة امتثال الأمم للشرائع ودوامهم على اتباعها كان على مقدار اقتراب الأديان من السماحة"⁽¹⁾. ولا غرابة في انتباهه ذلك؛ فقد ذم التكلف وجعله من أسباب الانحراف عن جادة الحق والصواب. حيث يقول: "إني قد وجدت السبيل المذموم في العلم راجعاً إلى التكلف، وترك المادة واتباع بنيات الطريق، وتعسف السيل المنحرفة. وأن ملاك الصواب هو ترك التكلف؛ ولذلك أرى ملاك آداب العلم قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: 89]"⁽²⁾.

قوة الحجة: المتعمق في أطروحات الشيخ ابن عاشور رحمته يلحظ قوة حجته واستدعاء تبريراته وكأنه ينطق لمغالط ويستعرض لمعارض، فيلحظ فيه اعتقاده أنه على صوابٍ وحق، وقد بين سره في ذلك فذكر أن للإنسان في نفسه صفات تجعل في كلامه تأثيراً في نفوس السامعين، وقوة في الدعوة إليه والدفاع عنه: "يحصُلُ ذلك بالتزامه متابعة الحق، وبكونه على نحو ما يطلبه من الناس"⁽³⁾.

الأخوة الصادقة: غالباً ما تكون طبيعة الجاد في عمله المتعمق في مقاله الفاحص في تصنيفاته؛ ترجح عقلانيته على شعوره وعاطفته؛ بيد أن الشيخ ابن عاشور رحمته قد كان ممن جمع بين الناحيتين؛ فكان قلبه أحسبه قلب طير، حساساً جواً للغير. يقول عنه صديقه وزميله في الطلب والحضر والسفر-موضع الإمعان وحقيقة الامتحان- الشيخ محمد الخضر حسين رحمته: "انعقدت بيني وبينه سنة 1317هـ صداقة بلغت في صفائها ومتانتها الغاية التي ليس بعدها غاية، وصداقة بهذه المنزلة تقتضي أن نلتقي كثيراً، وأن يكون كل منا يعرف من سريرة صاحبه ما يعرفه من سريرته، فكنت أرى لساناً لهجته الصدق، وسريرة نقية من كل خاطر سيئ، وهمة طماحة إلى المعالي، وجداً في العمل لا يمسه كلل، ومحافضة على واجبات الدين وآدابه"⁽⁴⁾.

(1) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، (ص: 24).

(2) المرجع السابق، (ص: 57).

(3) أصول الإنشاء والخطابة، (ص: 38).

(4) تونس وجامع الزيتونة، لحسين، (ص: 156).

وفاته: بعد عمر طويل حافل بالعمل الصالح المثمر والإنتاج العلمي الغزير، قارب القرن من الزمان، انتقل الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمته إلى جوار ربّه يوم الأحد 13 رجب 1393 هـ الموافق 12 أغسطس 1973 م، ودفن في مقبرة الزلاج من مدينة تونس رحمته رحمة واسعة وجمعنا به ووالدينا في دار كرامته⁽¹⁾.

المبحث الأول: عناية الشيخ ابن عاشور رحمته بتنزيل الآيات على الواقع:

اعتنى الشيخ ابن عاشور رحمته بتنزيل النص على واقعه من شتى جوانبه همه إصلاح مجتمعه بمجموعه وأفراده متخذاً من كتاب الله تعالى مرشده ودليله الذي حوى العلوم كلها صالح باق إلى انقضاء الدنيا ومن عليها، يقول الله تعالى: ﴿مَا قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، وقد استحضر الشيخ ابن عاشور / هذا الإعجاز التشريعي الذي لا تنفذ حكمه ولا تنقضي، مشيراً إلى "أن من مقاصد القرآن أمرين ... أحدهما: كونه شريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عباراته لمختلف استنباط المستنبطين، حتى تؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين، وثانيهما: تعويد حملة هذه الشريعة، وعلماء هذه الأمة، بالتنقيب، والبحث، واستخراج المقاصد من عويصات الأدلة، حتى تكون طبقات علماء الأمة صالحة - في كل زمان- لفهم تشريع الشارع ومقصده من التشريع، ... تبعاً لاختلاف مراتب العصور"⁽²⁾. وهذه مهمة كبرى ليست شعارات تُدعى ومقالات تقال، وإنما عمل دؤوب وقاد، وهذا ما كان لانتخا عند الشيخ ابن عاشور رحمته كالشمس في رابعة النهار، من أمثلة ما يدل على ذلك قوله: "قد كان حدا بي حادي الآمال، وأملى عليّ ضميري من عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف، للتفكير في طرق إصلاحنا العربي الإسلامي الذي أشعرتني مدة مزاولته متعلماً وعالماً بوافر حاجته إلى الإصلاح الواسع النطاق، فعقدت عزمي على تحرير كتاب في الدعوة إلى ذلك وبيان أسبابه"⁽³⁾. يقول ذلك وعمره لا يتجاوز الخامسة والعشرين متقدماً في ذهنه إصلاح حال الأمة الإسلامية، مستشعراً عظم الأمانة على عاتق البشرية؛ ربما أن منهم من همه كيف يحصّل احتياجاته، ومنهم من يريد أن تأتي إلى فيه دون حتى أن يتناولها، وهذا الشيخ ابن عاشور رحمته همه النهوض بأمة الإجابة بأكملها، ولله درها من همه حقيق أن تدرس ويؤسس عليها.

وإن المتتبع لكتابات الشيخ رحمته يجد هذه السمة حاضرة بدءاً من عنوانه حتى خاتمته. ومن هذا تبيينه في تفسيره بأنه سيبتدئ من حيث انتهى من يسبقه دون إجحاف لحقه أو نقلاً لرأيه نقلاً مجرداً من الإضافة والتعقيب ولا طائل منه غير التكرار والتأييد... فالإضافة والابتكار

(1) ينظر: أليس الصبح بقريب، (ص: 12).

(2) التحرير والتنوير، (158/3).

(3) أليس الصبح بقريب، (ص: 13).

إنما تؤتي ثمارها وتكون تقدماً حقاً حينما تأتي من حيث انتهى الآخرون؛ فينظر فيما أحسن إليه فيبقيه ويزينه ويزيده وما أخطأه ليصححه ويبينه ويقىمه. فالأقدمون "غرسوا لُنْجِي، وأسَّسوا لُنْشَيْد، وابتدؤوا لُنْزِيد"⁽¹⁾ وهذا منهج هام في التأليف؛ فإن التأليف لمجرد التأليف الذي لا إضافة فيه ولا تبين ولا جديد، ولا جمع متفرق أو تفصيل مجمل أو تحقيق، فإنه لا يعدو أن يكون تكراراً لما قد قيل، وليس في ذلك قيام نهضة تُذكر أو عمران أو إعادة مجد قديم. فهذا يرتقي العلم وتبلغ الأمة مجدها، فالعلوم تراكمية لا يمكن لطالها الاستغناء عن من سبقه إليها، كما لا يمكن للساكن على حيثياتها من بناء معرفة يغبطه الناس عليها.

ولهذا نجده ﷺ امتاز بالإمام بحديثات الموضوع ومحاولة فهمها مستصحياً علائق الأمور من تأثير الزمان أو المكان؛ ومن هنا فقد أشار ﷺ إلى أثر الواقع التشريعي آنذاك وما أثمر فيه من فهم لمقاصد وحكم التشريعات، وهو ما يمكن استخلاصه من قوله: "يقصر بعض العلماء ويتوَحَّل في خَصْخَاس من الأغلاط حين يقتصر في استنباط أحكام الشريعة على اعتصار الألفاظ، ويوجَّه رأيه إلى اللفظ مقتنعاً به، فلا يزال يقلِّبه ويحلِّله ويأمل أن يستخرج لُبَّهُ، ويهمل ما قدمناه من الاستعانة بما يحفُّ بالكلام من حافات القرائن والاصطلاحات والسياق. وإنَّ أدق مقام في الدلالة وأحوجه إلى الاستعانة عليها مقام التشريع، وفي هذا العمل تفاوت مراتب الفقهاء"⁽²⁾. فالشيخ ابن عاشور ﷺ نوه إلى أن الوحي الإلهي قد جعل للأحداث أثراً في التنزيل، ولو شاء سبحانه أن ينزله جملة من اللوح المحفوظ وأن يقرئ نبيه ﷺ وينفث في روعه سنته على الفور لقال كن فيكون، ولكن لحكمته تعالى ولكون شريعته باقية دائمة إلى انقضاء الدنيا ومن علمها، أعلم خلقه ضرورة فهم الواقع في الدعوة والتعليم والبيان. ولو انبرى باحث في استخراج ما لمعت به شخصية الشيخ ابن عاشور ﷺ من وقفات لاتضح معالم مهمة في حسه الواقعي الأخاذ.

معداً ذلك غايته العظمى وأمانة على عاتقه وعائق دعاة الشريعة وعلمائها؛ "ذلك لأن العالم بالشريعة لا تلبس عليه حقائق الأسماء الشرعية؛ فهو يفهم مواقعها حق الفهم، ويرعاها في مواقعها، ويعلم عواقبها من خير أو شر؛ فهو يأتي ويدعُ من الأعمال ما فيه مراد الله ومَقْصِدُ شرعه، فإن هو خالف ما دعت إليه الشريعة في بعض الأحوال أو في بعض الأوقات؛ لداعي شهوة أو هوى أو تعجل نفع دنيوي كان في حال المخالفة موقناً أنه مُوَرَّط فيما لا تحمد عقبا؛ فذلك الإيقان لا يلبث أن ينصرف به عن الاسترسال في المخالفة بالإقلاع أو الإقلال"⁽³⁾. فأهل العلم هم الوسيلة الحقيقية للمعرفة الصحيحة وتنزيلها، ومن هنا فإني أدعو أن تتعامل أقلام المفكرين المسلمين في جميع دول العالم وفق هذا المبدأ،

(1) المرجع السابق، (ص: 141).

(2) مقاصد الشريعة الإسلامية، (ص: 28).

(3) التحرير والتنوير، (305/22).

فليست القضية موازنة مفاهيم بمفاهيم، وإنما علم وبيان وتأصيل، وفق كتاب الله العظيم وسنة نبيه الأمين وفهم السلف الصالحين، فهذا المعين الذي يكون به صفاء الحقائق ونقاءها. وصدق الإمام ابن القيم رحمته، إذ يقول:

العلم قال الله قال رسوله	قال الصحابة هم أولو العرفان
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة	بين الرسول وبين رأي فلان
كلا ولا عزل النصوص وأنها	ليست تفيده حقائق الإيمان
إذ لا تفيدهم يقيناً لا ولا	علمًا فقد عزلت عن الإيقان ⁽¹⁾

المبحث الثاني: ملامح منهج الشيخ ابن عاشور رحمته في تنزيله الآيات على الواقع

موضوع هذا المبحث يُعنى بعرض ملامح من منهجية الشيخ ابن عاشور رحمته في تنزيل الآيات في إصلاح واقعه المعاصر؛ ولعل من أهمها ما يأتي:

الحدس المعرفي: ومع أن الشيخ ابن عاشور رحمته عاش في عصر كثُر فيه الجمود الفكري إلا أنه كان ذا حساسية عالية لمحيطه؛ ومما يؤكد ذلك استطراده في مسألة الرق والعبودية؛ فبالرغم من قدمها وانجلاء آثارها إلا أنه كان له نظرة بعيدة، فقد انتشرت آراء المعارضين وتعالّت أصوات المغرضين وتكاثرت كتابات الأقزام المتعاليين وشيخنا قد ووري التراب عقوداً في قبره، وفي هذا يقول: "وقد رأيت لزماً أن أنطرق إلى الخوض فيه وإن كان الرق في عصرنا هذا قد تضاءلت آثاره وبطلت أسبابه؛ لأنني رأيت في تطرق البحث إليه ما يدفع مطاعن بعض الطاعنين في التشريع الإسلامي"⁽²⁾.

النظر إلى المصالح والإعراض عن العوائق: لا يعرض الإنسان عن المصلحة المحققة

لأجل المفسدة المحتملة، ومن أمثلة ما يؤكد على هذا المنهج استنباطاته من قوله تعالى: ﴿وَسَيُؤَنِّتُكَ عَنِ الَّتِي تَنَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَلَنْ نُخَاطِبَهُمْ فَلَاحِقَ نَفْسِهِمُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكَ عَنْ الَّتِي تَنَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 220]، حيث قال: "وفي هذه إشارة إلى أنه ليس من المصلحة أن يعرض الناس عن النظر في أموال اليتامى اتقاءً لألسنة السوء، و تهمة الظن بالإثم، فلو تمالأ الناس على ذلك وقاية لأعراضهم لضاعت اليتامى، وليس هذا من شأن المسلمين؛ فإن على الصلاح والفساد دلائل ووراء المتصرفين عدالة القضاة وولاية الأمور يجازون المصلح بالثناء والحمد العلن ويجازون المفسد بالبعد بينه وبين اليتامى وبالتغريم بما أفاته بدون نظر"⁽³⁾. وهذا الأمر ذو أهمية بالغة اليوم خاصة مع انتشار وسائل التواصل

(1) القصيدة النونية، لابن القيم، (ص: 226).

(2) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، (ص: 93).

(3) التحرير والتنوير، (358/2).

الاجتماعي، وذلك من الجانبين من ناحية الإطراء من المجتمع؛ فهذا يدفع المحسن إلى أن يستزيد والمسيء يحجم ويتعظ. وهذا التنويه يفيد كذلك فيما انتشر اليوم من أن الإنسان قد يفوت على نفسه الكثير من الخير والمنفعة لأجل ما قد يظنه من التبعات التي ربما لا تكون إلا في ذهنه، ومن خشي صعود الجبال قضى عمره بين الحفر.

العبرة بالحق لا بكثرة مخالفته: الشيخ ابن عاشور رحمته يبحث عن إثبات الحق وتقديمه ودحض منكره والتحذير من زخرفه، ومن ذلك ما أشار إليه في ردة بعض العرب بعد وفاة النبي ﷺ: "كان سبب الردة أن كثيراً من العرب الذين أسلموا بعد فتح مكة كانوا حديثي عهد بالإسلام، ولم يتمكن الإيمان من قلوبهم ولم يفقهوا حقيقته، فظنوه طاعة لشخص الرسول، وأنه لما توفي فقد انحلت ربة الإيمان عنهم. ومثل هؤلاء وإن كثروا فلا تعجبك كثرتهم لجفائهم وجهلهم؛ ولذلك لما فهموا من تصدي المسلمين لقتالهم أن أمر الدين ليس باللعب كانوا سريعي الرجوع إلى الدين في أمد وجيز"⁽¹⁾. فأشار إلى أن العبارة بالحق لا بالكثرة أو ما قد يسمى بوهم الأكثرية، قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ تُلَاحِظَ أَكْثَرَهُمْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَكْفُرُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَلَئِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 116]، يفسر ذلك حديث النبي ﷺ: «لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنًا، وَإِنْ أَسَاءُوا أَسَاءًا، وَلَكِنْ وَطَنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنُوا أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا أَلَّا تَظْلِمُوا»⁽²⁾، ومعنى ذلك أن لا تكون الكثرة لها تأثير في التصحيح والتخطئة، وإنما على المؤمن أن يبحث عن الحق فيتبعه ولا تغره الكثرة فيكون إمعة⁽³⁾!

التفريق بين القول وقائله: فالشيخ ابن عاشور رحمته برع في هذه المنهجية؛ حيث استدل بأقوال من خالفهم ووظفها وفق ما يراه بغض النظر عن منهجهم؛ وهذا لا شك منهجية مهمة في الاستفادة من تراث الآخرين؛ ومن هنا فإن قائل الحق نأخذ منه ونتقبله لكونه حقاً بغض النظر عن تمسك قائله به أو انفلاته منه، وإن كان ذلك -أعني: العامل بالحق القائل به- أقرب للتأثير والقبول، فأشقى الخلق قد قبل منه الحق، كما في قصة أبي هريرة رضي الله عنه مع الشيطان⁽⁴⁾.

توظيف الأمور واستغلالها: من عبقرية الشيخ ابن عاشور رحمته أنه لا يترك نفسه مع

(1) نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم، (ص: 27).

(2) أخرجه الترمذي في سننه، ح (2007)، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو، (364/4).

ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته، ح (6271)، (ص: 905).

(3) ينظر: الوجيز، للخلف، (ص: 50).

(4) أخرجه البخاري في الصحيح، ح (2311)، كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه

الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز، (101/3).

الأمر سهلًا لا يعرف منها حقًا أو باطلًا. وإنما ينظر في الأمر كيف يستفيد منه وأين يضعه وفي أي منحى يوجهه، وقد تجلّى ذلك في تفسيره مستنبطًا هذا الهدي من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَحْصَيْتُمْ قَوْمًا اسْتَيْسَرَ مِنْهُ لَهْدِي﴾ [البقرة: 196]، أن "المقصود من هذا تحصيل بعض مصالح الحج بقدر الإمكان، فإذا فاتت المناسك لا يفوت ما ينفع فقراء مكة ومن حولها"⁽¹⁾. وهذه ديدن الناجحين والناجحين؛ فإنه لو سرت بفكرك في نواحي التاريخ لوجدت هذه الصفة من أبرز سمات حياتهم وأشهرها.

استنتاج المناسبات من دقائق الآيات: عادة ما يربط النبي المتيقظ بين الأمور ومناسباتها فيستننتج العلائق بين النصوص وسبيل أهل العلم في مروياتهم وطرق أدائها، ومن لطيف ذلك عند الشيخ ابن عاشور رحمته ربطه بين قول الله تعالى في ختام سورة النساء ﴿يَتَيْنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: 176]، وطريقة علمائه في دروسهم فقال: "في هذه الآية إيدان بختم الكلام... فتؤذن بختام السورة، وتؤذن بختام التنزيل إن صح أنها آخر آية نزلت كما ذلك في بعض الروايات، وإذا صح ذلك فلا أرى اصطلاح علماء بلدنا على أن يختموا تقرير دروسهم بقولهم: "والله أعلم" إلا تيمناً بمحاكاة ختم التنزيل"⁽²⁾.

سد الثغرات التخصصية: من عظيم تنوع مواطن الامتلاء المعرفي للشيخ ابن عاشور رحمته تنبيهه إلى الثغرات ومواطن النقص والالتباس، من ذلك التفاته إلى نقص شبه المستشرقين والمليدين متعجبًا من غفلة بعض المفسرين عن نقاشها، فعند بيانه قول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: 69] قال معقبًا: "اقتضت الآية نفي أن يكون القرآن شعرًا، وهذا الاقتضاء قد أثار مطاعن للملحدين"⁽³⁾، والحق أن "تنزيه النبي ﷺ عن قول الشعر من قبيل حيطة معجزة القرآن وحيطة مقام الرسالة مثل تنزيهه عن معرفة الكتابة"⁽⁴⁾؛ ولهذا يصرح الشيخ ابن عاشور رحمته بتيقظه لذلك بقوله: "ولم أر لأحد من المفسرين والخائضين في وجوه إعجاز القرآن التصدي لاقتلاع هذه الشبهة، وقد مضت عليها من الزمان برهة، وكنت غير مقتنع بتلك الردود ولا أرضاها، وأراها غير بالغة من غاية خيل الحلبة منهاها"⁽⁵⁾، ثم شرع في بيانها وردها مكملًا ومفندًا. فالشيخ ابن عاشور رحمته ينطلق من واقعه يتلمس حاجات أمته، وهذا الحس الشعوري الذي يتميز به

(1) التحرير والتنوير، (224/2).

(2) المرجع السابق، (68/6).

(3) التحرير والتنوير، (58/23).

(4) المرجع السابق، (64/23).

(5) المرجع السابق، (61/23).

يبين استراتيجيته مع واقعه حين يحسن اختيار الموضوعات التي ينشغل بها ويختار الثغرات التي يسدها فيقدم إثراء لأتمته.

الاطلاع بالهاف الممنهج: وعلى الرغم من موسوعية الشيخ ابن عاشور رحمته وكثرة اطلاعه إلا أنه واضح الرؤية دقيق الهدف لا يرمي بنفسه في كل واد ليسيره وفق ما يشاء، وإنما هو من يسير به يأخذ نفعه ويعرض عن سقيمه، ومما يدل على ذلك ما ذكره في مقدمة كتابه "أصول النظام الاجتماعي"، حيث أرشد الشيخ ابن عاشور رحمته إلى ضرورة تقليب صفحات تاريخ المسلمين المجيد من أجل الإسهام في ارتقاء الفرد والمجتمع معرضاً عن كبواتهم وترهاتهم، فنأخذ الصحيح وننجه وندع السقيم منها وننتبذه، وفي هذا يقول: "إن الباحث عن علاقة دين بالمدينة وتأثيره في ارتقاء الأمة لا محيص له من النظر في تاريخ الأمة المتلقية للدين وميزان الحال التي كانت عليها في زمن ظهوره. وإن إلقاء نظرة واسعة لهيئة مجتمع الأمة المتدينة بالإسلام في أزهر عصور اتباعها لتعاليمه لكاف للمتأمل الأملعي في تصور معظم مبادئ ذلك الدين، وبهذا كان المتطلع على ملاك محاسن هذا الدين مفتقراً إلى مطالعة تاريخ المسلمين في زمن النبوة وزمن الخلفاء الراشدين فمن يليهم، لم أرد بذلك مطالعة الحوادث السياسية والانقلابات الدولية، فإن ذلك لا يبلغ بالمتأمل مبلغه المقصود إلا بعناء شديد، وتصيد مختلف صور الحوادث التي تجديه في غرضه يتصيدا من بين تطويلات معظمها لا يجديه، بل عنيت ما يقرؤه في تضاعيف ذلك في حالة المسلمين في مجتمعهم"⁽¹⁾. هذا ما ينبغي أن تكون عليه منهجية المثقف الواعي والمصلح الحصيف، يدع ما فيه بأس إلى ما ليس فيه، يقدم على ما هو بصده مستصحاً القصد فيه؛ ذلك أن العشوائية والفوضوية في التناول قد تحيد بصاحبها عن الهدف الأصيل، بل قد تعرضه أحياناً إلى الحياء عن الطريق، نعوذ بالله من الحور بعد الكور وسوء المسعى والمنقلب.

ترتيب الأولويات: من منهج الشيخ ابن عاشور رحمته ترتيب الأولويات والبدء بالأهم فالمهم، مثاله ما بينه في منهجية كتابه "أصول النظام الاجتماعي في الإسلام" حيث ابتدأ بالفرد قبل المجتمع وبإصلاح اعتقاده قبل عمله⁽²⁾؛ فهو بذلك حرص على بيان ما حقه التقديم فيتصدر وما هو متأخر فيبني على المتقدم. من ذلك تمييزه بين مرتبتي الوسيلة والمقصد في مبحث المعاملات في توجه الأحكام التشريعية، حيث قال في مفتتحه: "هذا الباب هو المدخل لتمييز الأحكام الشرعية المنوطة بتصرفات الأمة ومعاملاتها؛ ليعرف ما هو منها في رتبة المقصد، فهو في المرتبة الأولى في محافظة الشرع على إثباته وقوعاً ورفعاً، وما هو في رتبة الوسيلة فهو في المرتبة الثانية تابع لحالة غيره. وهو مبحث مهم لم يف المتقدمون بما

(1) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، (ص: 5).

(2) ينظر: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، (ص: 41-97).

يستحقه من التفصيل والتدقيق"⁽¹⁾. وهذه العقلية التراتبية لا شك تعد سبباً من أسباب تفوقه ونبوغه؛ فإنّ المتمعن في حياة الناهين يجد لهذا الأسلوب القدر المعلى والمنهج الأبرز، وإن من الدراسات النفسية والاجتماعية اليوم لتركز على ضرورة مراعاة هذا الجانب في الحياة، وقد ألفت لأجله الكثير من المؤلفات التي تدعو إليه تنظيراً وتطبيقاً أو ضمناً وتعريضاً من خلال عرض سير القادة والناجحين.

التسامي عن الجدل الذي لا طائل منه: ذلك أن العاقل الحكيم لا يبدد جهده سدى، ولا يخوض مع من ليس فهم رجاء، من بعد ما تبين لهم الهدى، من ذلك حين عرّج ﷺ على من اعترض على ضرورة إقامة الإمامة فقال: "أجمع أصحاب رسول الله بعد وفاة النبي ﷺ على إقامة الخليفة لحفظ نظام الأمة وتنفيذ الشريعة، ولم ينزع في ذلك أحد من الخاصة ولا من العامة إلا الذين ارتدوا على أديارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، من جفاة الأعراب ودعاة الفتنة، فالمنازرة مع أمثالهم سدى"⁽²⁾. فقرر ويّن ثم شنع وأنكر على من بدل وغير، وهذا الأسلوب جد نافع وقويم، وقد جاء في السيرة النبوية ما هو قريب من ذلك. ولو فطن أهل الصلاح لذلك لألجموا أهل الزيغ والضلال بلجام أشد عليهم من الرمضاء في الهجير، ولوفروا عليهم أعماراً تلو الأعمار من الجهد والوقت الطويل وسخروه فيما نفعه أعظم وأجل، خاصة وأن من أهل الأهواء من يتقصّد ذلك من أجل تبديد الجهود وتشتيت العقول عن ما فيه نفعها، ولكن الله تعالى يمهّل ولا يهمل.

توظيف النظريات الحديثة: من منهج الشيخ ابن عاشور ﷺ استخدام مختلف العلوم في خدمة رأيه وما يؤول إليه وما بظنه أنه يبين الأمر ويجليه؛ لذا فإنه قد يستعين بالنظريات الحديثة، من أمثلة ذلك استخدامه لنظرية غاليليو الإيطالي وذلك عند بيانه قول الله تعالى: ﴿ وَرَى الْجِبَالِ تَحْسَبُهَا جَانِدَةً وَهِيَ تُؤَرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ لِّأَنَّهُ خَيْرٌ بِمَا نَفَعُكُمْ ﴾ [النمل: 88]، حيث قال: "اهتدى بعض علماء اليونان إلى أن الأرض هي التي تدور حول الشمس في كل يوم وليلة دورة تتكون منها ظلمة نصف الكرة الأرضي تقريباً وضيء النصف الآخر وذلك ما يعبر عنه بالليل والنهار، ولكنها كانت نظرية مرموقة بالنقد... وما تحققت هذه النظرية إلا في القرن السابع عشر بواسطة الرياضي (غاليلي) الإيطالي. والقرآن يدمج في ضمن دلالته الجمّة وعقب دليل تكوين النور والظلمة دليلاً رمز إليه رمزاً، فلم يتناوله المفسرون أو تسمع لهم ركزاً... والخطاب للنبي ﷺ تعليمًا له لمعنى يدرك هو كنهه؛ ولذلك خص الخطاب به ولم يعمم كما عمم قوله: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا أَلِيلَ لَيْسَكُنَّا فِيهِ ﴾ [النمل: 86] في هذا الخطاب، وادخاراً لعلماء أمتة الذين يأتون في وقت ظهور هذه الحقيقة

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية، (ص: 161).

(2) التحرير والتنوير، (399/1).

الدقيقة"⁽¹⁾. ومن هنا ينبغي التنبيه إلى ضيق هذه المنهجية بأن تكون معضدة بدلائل الشرع والعقل والحس أو ما يصح أن يسمى حقيقة علمية. لهذا فإني أهيب بالباحثين أن يتحرزوا من مزاحمة الأدلة الشرعية ببعض النظريات التي لم تثبت حقيقتها حتى لا يؤتى دين الله من قبلهم فيكون دليلهم حجة عليهم لا لهم؛ فإن شرع الله أعظم من أن يعضد بتطلعات بشرية وإن أبهرهم بريقها وعلو أصداها.

التنبيه إلى الجوامع والكليات: تزر مؤلفات الشيخ ابن عاشور رحمته بالربط بين الأمور ودلالاتها بجوامع كلية تجمع بين جنباتها علومًا وارفة تستوعب زمانه وما حل فيه من قضايا وأحداث ولو تتبعها الباحث لاستخرج مصنفات تترى تجمع بين نقله ومقاله واستنباطه، من ذلك ما ذكره في أجمع آيات للأخلاق وهي قول الله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: 199]، فقال: "قد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق؛ لأن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفواً عن اعتداء فتدخل في (خذ العفو)، أو إغضاء عما لا يلائم فتدخل في (وأمر بالعرف)،... وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها، وهي صالحة لأن يبين بعضها بعضاً، فإن الأمر بأخذ العفو يتقيد بوجوب الأمر بالعرف، وذلك في كل ما لا يقبل العفو والمسامحة من الحقوق، وكذلك الأمر بالعرف يتقيد بأخذ العفو وذلك بأن يدعو الناس إلى الخير بلين ورفق"⁽²⁾.

التكرار لأجل الإقرار: الشيخ ابن عاشور رحمته قد يكرر المعنى الذي يريد تأكيده في مواطن مختلفة وبأساليب متفرقة ليؤكد ضرورته وليبين أهميته وعظيم أثره، من ذلك تكرار تعريفه لفظة الإصلاح، ذلك لعظيم اهتمامه بالإصلاح فهو يعيد التعريف به كل ما ذكر وكما قيل: "من أحب شيئاً أكثر من ذكره"⁽³⁾، وذلك على عكس ما اعتاد عليه في معظم الألفاظ حيث يحيلها إلى أول ورود لها⁽⁴⁾، ولعله استفاده من اهتمام الشريعة الإسلامية لامثال أمر الله تعالى ونبيه عليه السلام، حيث بين ذلك عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَعْلَمَ إِلَهُكُمُ أَنَّكُمْ تَأْمِنُونَ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ مُبْتَغَىٰ الْوَعْدِ وَأَنَّهُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [البقرة: 47]، فقال: "أعيد خطاب بني إسرائيل بطريق النداء مماثلاً لما وقع في خطابهم الأول؛ لقصد التكرير للاهتمام بهذا الخطاب، وما يترتب عليه؛ فإن الخطاب الأول قُصِدَ منه تذكيرهم بنعم الله تعالى ليكون ذلك التذكير داعية لامثال ما يردُّ إليهم من الله من أمر، ونهي على لسان نبيه عليه السلام"⁽⁵⁾.

(1) التحرير والتنوير، (20/49-50).

(2) المرجع السابق، (9/229).

(3) المرجع السابق، (12/260).

(4) ينظر: المرجع السابق، (2/154)، (2/303)، (2/355-356).

(5) التحرير والتنوير، (1/482).

براعة الاستشهاد وحسنه: إذ يختار الشخص المناسب في بيان المقام المناسب، حيث يستشهد بالأنموذج الأعلى والقدح المعلن في معظم استدلالاته، ولهذا فإن سيرة النبي ﷺ أكثر ما يتخلل مباحثه وآراءه، يقول الشيخ ابن عاشور رحمه الله في بيان قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَكَلِمٌ عَظِيمٌ﴾ [القلم: 4]: "أنك إذا عرضت أية آية من أي القرآن الواردة في خلق حسن وعمل صالح وتأملت من سيرة رسول الله في الناحية الوارد فيها القرآن، وجدت سيرة رسول الله مطابقة لما تضمنه القرآن؛ فالقرآن إذن هو جامع مكارم الأخلاق، والرسول هو مظهر تلك المكارم"⁽¹⁾. وكأنه يريد أن يصل بالقارئ إلى الانتساء تنظيراً وتطبيقاً، فيقترب من الكمال بذلك ويدنو منه، وهذا منهج تربوي قويم حينما يصل بالمتلقين إلى الحرص على الاقتداء به وبسيرته ﷺ.

النظرة التفاؤلية: مع ما عليه وضع الشعوب الإسلامية من الوهن والدعة لم يصده ذلك من تلمس بصيص الأمل، وهو ما يستشف من ثنايا قوله رحمه الله: "ولقد يرى الناظر من مشاهدة عموم أحوال المسلمين على ما هم عليه اليوم من الزهادة في جم من محامد دينهم أو تأويلها على ما يفيت بعض المقصود منها، منظرًا لا يعدم إرشاده إلى حالة محمودة يوقن بأنها أثر لهم من تمكن تأثير وصايا دينهم كما شهد لهم بذلك منصفون من غير المسلمين الذين درسوه حق دراسته بإنصاف"⁽²⁾. ولهذا اليقين العميق ذأب على إيقاظ الهمم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

هندسة المشاعر: فعلى الرغم من واقعية الشيخ ابن عاشور رحمه الله إلا أنه يظهر بين طيات طرحه لمسات حانية وانتقادات بديعة، لحديث مرهف وكلام معسول، حقيق أن يوضع في مؤلف يظهر منه الجانب الشعاري للشيخ ابن عاشور رحمه الله، فمن ذلك سوقه بيت قصيد لصديق محبوب، يعبر عن فحوى ما يريد أن يقول، في خضم حديثه عن معجزة نبي الله سليمان عليه السلام في تعليمه منطق الطير، حيث قال: "الله تعالى أطلع سليمان بوحى على مختلف التقاطيع الصوتية التي في صفيح الطير وأعلمه بأحوال نفوس الطير عندما تصفر بتلك التقاطيع، وقد كان الناس في حيرة من ذلك كما... قال صاحبنا الشاعر البليغ الشيخ عبد العزيز المسعودي من أبيات في هذا المعنى:

فمن كان مسرورًا يراه تغنيًا ومن كان محزونًا يقول ينوح"⁽³⁾

حيث ذكر أنه صاحبه وبين كذلك مناقبه وساق بيتاً تفيض منه مشاعره؛ إذ يصف ما احتير فيه من شعور في الطير وسامعه. وهكذا كثيرًا ما يضمن شاعريته بين آرائه وإن كان

(1) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، (ص: 119).

(2) المرجع السابق، (ص: 5).

(3) التحرير والتنوير، (237/19).

نقاشاً علمياً مشحوناً.

استيعابه صنوف المخاطبين: يجد المتأمل في تراث ابن عاشور رحمته مراعاته لصنوف المخاطبين أثناء الشرح أو التبيين، فقد يخاطب العاطفة مكثراً من الأشعار عميقة التأثير، وقد يأتي بمعانٍ تلهب العقل الفطين، وقد يجمع بين الحسنيين، وقد لحظ هو نفسه ذلك من خلال تدبره لآيات القرآن الكريم فقال عند بيانه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَلِيُّ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بَايَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19]، فذكر أن هذا الدين يتميز بمظاهر عدة من بينها: "اختصاصه بإقامة الحجة، ومجادلة المخاطبين بصنوف المجادلات وتعليل أحكامه، بالترغيب وبالترهيب، وذلك رعي لمراتب نفوس المخاطبين، فمنهم العالم الحكيم الذي لا يقتنع إلا بالحجة والدليل، ومنهم المكابر الذي لا يرعوي إلا بالجدل والخطابة، ومنهم المترهب الذي اعتاد الرغبة فيما عند الله، ومنهم المكابر المعاند، الذي لا يقلعه عن شغبه إلا القوارع والزواجر"⁽¹⁾.

استشراف المستقبل: يتميز منهج الشيخ ابن عاشور رحمته بصياغة الأحداث بصورة متسلسلة متعاقبة تبين أثر الماضي في الحاضر، مستصحباً في ذلك سنن الله في كونه، وهذه الميزة بدت عليه منذ أول بزوغه في كتابه "أليس الصبح بقريب"، وكما يقال: إذا قام العالم يقوم العالم. ومن ذلك ما ذكره من تعجب لحال أرباب بعض الفرق مع أقوال أساطين مذهبهم متنبئاً بعد ذلك بتمحيصها من بني جلدتهم حيث قال: "ولا عجب أعجب من مرور الأزمان على مثل قوله الخوارج والإباضية والمعتزلة ولا ينبري من حذاق علمائهم من يهذب المراد أو يؤول قول قدمائه ذلك التأويل المعتاد، وكأنني بوميض فطنة نيهائم أخذ يلوح من خلل الرماد"⁽²⁾.

وهكذا يظهر طرف من ملامح الشيخ ابن عاشور رحمته المنهجية ولا عجب أن يبلغ هذا الشأن بعد فضل الله تعالى وتوفيقه وهو القائل رحمته: "إن مزية العلم، وشرَف الانتساب إليه، أمرٌ بلغ من اليقين والضرورة مبلغاً يقصر عنه البيان، وينتقص قدره محاولة إقامة البرهان، بعد أن تَوَجَّه الله تعالى بكتابه الكريم، وهو الذي علّم من لم يكن يعلم، وزكّى رسوله بأنه على خلق عظيم، وصراط مستقيم فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]، قولاً جعل طلب العلم، والحرص عليه، والاستزادة منه أعظم مطلوب لأشرف موجود"⁽³⁾، وهذا إن دل فإنما يدل على ذكاء الشيخ وزكائه معاً؛ فمن طهرت نفسه وكان زكياً، قوي عقله وصار ذكياً. فحقيق بطلبة العلم الاعتداد بسيرته، مخلصين النية لله وحده، فالعلم لا

(1) التحرير والتنوير، (195/3).

(2) المرجع السابق، (274/1).

(3) شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، ليلخوجة، (ص: 172).

يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، وهذا يبقى أترك لمن خلفك بإذن الله تعالى.

المبحث الثالث: وقفات من تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ ابن عاشور رحمته

من لطيف البيان والعرض، تقريب المعنى بما يحيط الشخص، من الأحداث والمواقف الملامسة له، وقد كان ذلك مشاهدًا في طرح الشيخ ابن عاشور رحمته؛ ولعل مما يستبين منه ذلك الجوانب الآتية:

فمن الجانب الشخصي: نراه يستأنس بمجاله العملي عند بيانه اصطناع أخوة يوسف البكاء لأجله عند عودتهم إلى أبيهم في قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَ آبَاهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ﴾ [يوسف: 16]، حيث قال: "بعض المتظلمين بالباطل يفعلون ذلك، وفطنة الحاكم لا تنخدع لمثل هذه الحيل ولا تنوط بها حكمًا، وإنما يناط الحكم بالبينة... ومن الأمثال "دموع الفاجر بيديه" وهذه عبرة في هذه العبرة"⁽¹⁾.

ومن ذلك ما ذكره عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدِينَ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوَّلَىٰ بِهِمَا فَلَآ تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَدْبُلُوا وَلَإِن تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135]، مستشهدًا بمحيطه العملي فقال: "وقد عرفت قاضيًا لا مطعن في ثقته وتزهره، ولكنه كان مبتلى باعتقاد أن مظنة القدرة والسلطان ليسوا إلا ظلمة: من أغنياء أرجال، فكان يعتبر هذين الصنفين محقوقين فلا يستوفي التأمل من حججهما"⁽²⁾، مؤكدًا ضرورة النظر في معطيات قضيته ولا يصرفه حال صاحبه عن استيفائها؛ فإن الذي يراعي حال الغني والفقير ويقدر إصلاح حال الفريقين هو الله تعالى.

ومن الجانب التربوي: عرف الشيخ ابن عاشور رحمته بحرصه وعظيم عنايته بإصلاح من حوله، فلا يكاد يغادر سبيلًا إلى الإرشاد إلا واغتنامه، فيستنتج الآراء الحكيمة من الدلالات البعيدة ويقدمها تقديم المربي الواعي الحريص على ذويه ومجتمعه، ومن ذلك إشارته إلى مسلك تربوي عظيم حين بيانه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22]، "وقوله: (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) جملة حالية... قد جعلت هاته الحال محط النبي والنفي تمليحًا في الكلام للجمع بين التوبيخ وإثارة الهمة؛ فإنه أثبت لهم علمًا ورجاحة الرأي ليثير همهم ويلفت بصائرهم إلى دلائل الوجدانية، ونهاهم عن اتخاذ الآلهة أو نفى ذلك مع تلبسهم به وجعله لا يجتمع مع العلم توبيخًا لهم على ما أهملوا من مواهب عقولهم وأضاعوا من سلامة مداركهم. وهذا منزع تهذيبي عظيم، أن يعمد المربي فيجمع لمن يربيه بين

(1) التحرير والتنوير، (12/236).

(2) المرجع السابق، (5/227).

ما يدل على بقية كمال فيه حتى لا يقتل همته باليأس من كماله؛ فإنه إذا ساءت ظنونه في نفسه خارت عزيمته وذهبت مواهبه، ويأتي بما يدل على نقائص فيه ليطلب الكمال فلا يستريح من الكد في طلب العلا والكمال⁽¹⁾.

ومن ذلك ما ذكره من توجيهه عند بيان قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا صَرَّفْنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقِينُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ إِلَيْكُمْ لَسْتُمْ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَكَانُهُ كَثِيرٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِن قَبْلُ فَمَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 94]، فقال: "كذلك كنتم من قبل: أي كنتم كفارًا فدخلتم الإسلام بكلمة الإسلام، فلو أن أحدًا أبى أن يصدقكم في إسلامكم أكان يرضيكم ذلك. وهذه تربية عظيمة، وهي أن يستشعر الإنسان عند مؤاخذته غيره أحوالًا كان هو عليها تساوي أحوال من يؤاخذ، كمؤاخذه المعلم التلميذ بسوء إذا لم يقصر في إعمال جهده. وكذلك هي عظيمة لمن يمتحنون طلبة العلم فيعتادون التشديد عليهم وتطلب عثراتهم، وكذلك ولاية الأمور وكبار الموظفين في معاملة من لنظرهم من صغار الموظفين، وكذلك الآباء مع أبنائهم إذا بلغت بهم الحماقة أن ينتهروهم على اللعب المعتاد أو على الضجر من الآلام⁽²⁾."

ومن الجانب العقدي: إقراره أنَّ البشر مفطورون على التوحيد والإقرار بدين الإسلام، كما أنبأ الله تعالى بذلك فقال: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30]، يقول ابن عاشور رحمه الله: "الأصول الفطرية هي التي خلق الله عليها الإنسان المخلوق لعمران العالم، وهي إذن الصالحة لانتظام هذا العالم على أكمل وجه، وهي إذن ما يحتوي علمه الإسلام الذي أراده الله لإصلاح العالم بعد اختلاله⁽³⁾". وكأنه بذلك يؤكد مسؤولية الإنسان عن أفعاله وتصرفاته، وأن لا يلقي باللوم على غير نفسه؛ فالله تعالى هيأه لنيل أفضل الكرامات في الدنيا والآخرة، وبين له الطريق على أيدي الرسل والرسالات، ووضع له بعد ذلك الحرية في اختيار ما شاء ابتلاء له واختبارًا. ليتضح من ذلك أن الانطلاق من الفطرة يعد مجالاً خصباً في دعوة البشر إلى الدين الحنيف وركيزة أساس ترشد نفوسهم إلى الهدى وتوقظها بعد سباتها.

ومن ذلك تشنعيه على من أخطأ في التوكل فظنه تواكل؛ حيث بين أنه عقيدة جاهلية جاء في السنة الصحيحة تبينها فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿

(1) المرجع السابق، (1/335).

(2) التحرير والتنوير، (5/168).

(3) مقاصد الشريعة الإسلامية، (ص: 62-63).

الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيَسَّخَنَّ لَهُمْ فِيهِمْ الذِّبَابُ أَرَضَى لَهُمْ وَلَيَجْبَأَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْرِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿55﴾ [النور: 55]، يقول الشيخ ابن عاشور رحمته: "التاريخُ شاهدٌ بأن ما تهيأ للمسلمين من عجائب الانتشار والسلطان على الأمم أمرٌ خارقٌ للعادة؛ فيتبين أن دين الإسلام هو الحق، وأن المسلمين كلما تمسكوا بعرى الإسلام لقوا من نصر الله أمراً عجيباً يشهد بذلك السابق واللاحق" ⁽¹⁾. يأتي بعد ذلك التماس الأسباب التابعة وهي الأمور المادية التي تحصل بالقوة وشدة التأثير في أي زمان ومكان، يقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60]، ويدخل في العدة كل ما يمكن اتخاذه من السيوف والرماح والأقواس والنبال من القوة في جيوش العصور الماضية، والدبابات والمدافع والطائرات والصواريخ من القوة في جيوش عصرنا، وما من شأنه التأثير من وسائل التطور والتقدم ⁽²⁾.

ومن الجانب الاجتماعي: تنبيهه إلى حقوق الأقرباء وأهم أولى من البعداء في الاهتمام كما بين ذلك الله تعالى في أجمع آية في القرآن الكريم ⁽³⁾ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90]، يقول الشيخ ابن عاشور رحمته: "خص الله بالذكر من جنس أنواع العدل والإحسان نوعاً مهماً يكثر أن يغفل الناس عنه ويتهاونوا بحقه أو بفضله، وهو إيتاء ذي القربى، فقد تقرر في نفوس الناس الاعتناء باجتلاب الأبعد واتقاء شره، كما تقرر في نفوسهم الغفلة عن القريب والاطمئنان من جانبه وتعود التساهل في حقوقه... ولأجل ذلك صرفوا معظم إحسانهم إلى الأبعدين لاجتلاب المحمدة وحسن الذكر بين الناس. ولم يزل هذا الخلق متفشياً في الناس حتى في الإسلام إلى الآن ولا يكثرثون بالأقربين" ⁽⁴⁾.

كما إنه أولى المرأة اهتماماً بالغاً فدعا إلى تعزيزها وتقويتها حتى تقوم بالدور المكفول لها لاسيما وأنها نصف المجتمع كما يؤكد ذلك فيقول: "كيف تُعْزَلُ المرأة عن الإصلاح جانباً وهي أحد صنفي البشر؟ وهي متولبة تربية الأبناء الذي بهم بقاء النوع! فهي إذاً مصدر غرس جذور الأخلاق فاضلها وسافلها" ⁽⁵⁾، ولهذا فقد انتقد الدعوات المغرضة التي تنادي باقتلاعها عن هذا الدور بدعوى مساواتها بالرجل ومشاركتها له في جميع المهام وفي كل مجال، وأن

(1) التحرير والتنوير، (19/25).

(2) ينظر: التحرير والتنوير، (55/10).

(3) فعن ابن مسعود س: أن هذه الآية أجمع آية في القرآن 7 شعب الإيمان، للبيهقي، (83/4).

(4) التحرير والتنوير، (256/14).

(5) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، (ص: 90).

ذلك من نواقض الفطرة البشرية وظلم لحقائق الأشياء بقلها وإفسادها، وكما يؤكد ذلك بقوله ﷺ: "يدخل في معنى تغيير خلق الله وضع المخلوقات في غير ما خلقها الله له"⁽¹⁾؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ [آل عمران: 36].

ومن الجانِب النفساني: إن الناظر في مؤلفات الشيخ ابن عاشور ﷺ يجد شعوره ينساب رقرقاً في وجدان قارئه، فينعكس تأثيره عليه من كونه برهاناً على صدق اهتمامه بتقدم أمته ورقمها، ليتضح في غضونه تلاقح المعرفة بالوجدان لإصلاح واقعه، وقوده القلب الذي تحرك بوفقه اللسان والأركان، يبينه ما أشار إليه حين تفسيره قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: 103]، إذ يقول: "الظاهر من قوله: (فإذا قضيت الصلاة) أن المراد من الذكر هنا النوافل، أو ذكر اللسان كالتسبيح والتحميد ...، فرخص لهم حين الخوف أن يذكروا الله على كل حال، والمراد القيام والقعود والكون على الجنوب ما كان من ذلك في أحوال الحرب لا لأجل الاستراحة"⁽²⁾؛ ليبين أن شرائع الله تؤخذ بالعزيمة ولا توكل النفس إلى الدعة والراحة، "وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة، وهي فرصة تأثر السامع، وانفعاله، وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته"⁽³⁾. فالشيخ ابن عاشور ﷺ في قوة عباراته حتى وكأنه يلهم قراءه تجسيدها، ليحث على السبق في بلوغهم القمم، وهذا أسلوب المثقف الواعي الذي يستثير حفيظة نفوس قرائه فيعزز مكانتهم للوصول بهم إلى ما ينفعهم. ولعل هذه المنهجية استقاها من عظيم تمنعه كلام الله تعالى، ليتبين أسلوبه ﷺ في إيقاظ جذوة النفوس للمعالي والجدة في طلبها.

ومن ذلك استدلاله بقول الله تعالى: ﴿يَتْلِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُ شُعْرًا وَفِصَالًا لِّتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13] في تقرير قيمة المساواة فقال: "الخبر في قوله: (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) مستعمل كناية عن المساواة في أصل النوع الإنساني ليتوصل من ذلك إلى إرادة اكتساب الفضائل والمزايا التي ترفع بعض الناس على بعض"⁽⁴⁾. ذاكراً ﷺ أنها حق مشاع بين أبناء الإسلام يجب على حكوماتهم رعايته وكفله لرعيته، مقررًا "إن انقسام الأمة إلى طبقات أمر واقعي ناشئ عن أسباب من مواهب عقلية، أو مغامرة في الأخطار، أو انتصار في الدفاع عن الحوزة، فلا نعني بالمساواة بين الطبقات

(1) التحرير والتنوير، (205/5).

(2) التحرير والتنوير، (188/5).

(3) المرجع السابق، (49/13).

(4) التحرير والتنوير، (261/26).

مكابرة ذلك الأمر الواقع، وإنما نعني أن لا يكون موجباً لاحتكار خصائص يحرم منها من لم يكن من تلك الطبقة⁽¹⁾. ليظهر من ذلك إلمامه بالواقع ودعوته لتحكيم الشرع عليه دون تسطيح الصورة أو تزيفها وإنما بالإحاطة لمختلف جوانبها ومن ثم تكييفها.

ومن الجانب الاقتصادي: يرى الشيخ ابن عاشور رحمته أن الاقتصاد أصل انتظام أمر المجتمع إذ به تأسيس مال للأمة التي به قوام أمرها، ولهذا يستدل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْثِرُوا

الْشَّهْمَةَ أَمْوَالِكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: 5]، في بيان معنى "المال" بآثره لا بنوعه فيقول: "كل ما به غنى صاحبه في تحصيل ما ينفع لإقامة شؤون الحياة"⁽²⁾. ويفسرها بقوله: "والأموال جمع مال، وهو ما بقدره يكون قدر إقامة نظام معاش أفراد الناس ... بحسب مبلغ حضارتهم حاصلاً بكدح"⁽³⁾. مؤكداً أن "أهم ما يقتضيه النظر في نظام أموال الأمة أن يتوجه النظر إلى وسائل توفير المال وحفظه بالاقتصاد؛ لتكون الأمة في غنى عن طلب الإسعاف من غيرها عند حاجتها؛ لأن الحاجة ضرب من العبودية"⁽⁴⁾.

ولهذا تراه نازلاً إلى الميدان مستنبطاً من وحيه تعالى أصل هذا العلم حيث يقول: "نأخذ قوله تعالى: ﴿كَفَى لَا يَكُنْ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ وَبَيْنَكُمْ﴾ [الحشر: 7] تفاصيل من علم الاقتصاد السياسي وتوزيع الثروة العامة، ونعلل بذلك مشروعية الزكاة والمواثيق والمعاملات المركبة من رأس مال وعمل، على أن ذلك تومئ إليه الآية إيماء"⁽⁵⁾. وكأنه بذلك يقرب الاقتصاد من مجتمعه وهو ما يبينه قوله: "تحقيق الثروة غاية علم الاقتصاد"، إذ يبدو القول عظيمًا بعيد المنال موكولاً إدراكه إلى الرؤساء وأصحاب الأموال، ثقيلًا على المجتمع إدراكه فكيف بالأفراد، إلا أن ابن عاشور رحمته فككه تفكيكاً مبسطاً، بحيث يجعل كل فرد في المجتمع مستشعراً كونه عضواً فاعلاً في تحقيقه حيث قال: "إنما يحصل توفير مال الأمة بتوفير ما لكل فرد منها؛ فإن الأمة مجموع الأفراد. وهذا التوفير يسمى ثروة"⁽⁶⁾. وهنا يلفت رحمته لفتة عجيبة يظهر منها عمق رؤيته وبعدها مبيناً أن التدوال مفتاح ثروة الأمة وغنائها ذلك "إن الحاصل منه في الأيدي إثراء وهمي؛ لأن الداخل في يد أحد الأفراد هو الذي خرج من يد آخر فالشيء المنتفع به شيء واحد، ولكنه يلوح شيء آخر باعتبار تغير موقعه، وقد يعود إلى اليد التي خرج منها أول مرة كما يقول الفقهاء: "الخارج من اليد وهو عائد إليها يعتبر كأن لم

(1) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، (ص: 139).

(2) المرجع السابق، (ص: 186).

(3) التحرير والتنوير، (2/187).

(4) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، (ص: 186).

(5) التحرير والتنوير، (1/43).

(6) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، (ص: 187).

يخرج⁽¹⁾، وعلم الاقتصاد يصرح "بأن الثروة عبارة عن الأشياء النافعة القابلة للتداول"⁽²⁾، وكذا فإن الشيخ ابن عاشور رحمته قد يأتي بكلام عميق ما يلبث أن تراه بين يديك ممتدًا نازلاً حاضراً في ذهنك مفهوماً لديك.

ومن هنا هذه وقفات من منهجية الشيخ ابن عاشور رحمته في تنزيله الآيات لإصلاح واقعه المعاصر وكما يقول رحمته: "وهذا المقدار من العلم منه ما لا يتحول مع تحول الأزمنة والأحوال، وذلك علوم الشريعة ووسائل إقامتها على الوجه الأتم"⁽³⁾، ولعل مما يميز هذه المنهجية مجابتهما الادعاءات الغربية وافتراءاتهم المغرضة، إذ تعرض الحوادث الآنية في ضوء الحقائق الشرعية، لتكون منارة سنية للنفوس السوية رغم تقلب الأزمان والأقضية الحياتية؛ وبهذا يجتمع للمسلمين الحسنيين، فيكونون منارة دعوية؛ فينشأ فيهم همة السعي إلى سيادة العالم كما سادته أسلافهم، فيتحول التغني بها والبكاء على أطلالها إلى السعي الدؤوب في استعادة أمجاد أمتهم وسيادة أتباعها.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فبفضل من الله تعالى وإعانتة وتوفيقه، تمت كتابة هذا الموضوع "منهج الشيخ ابن عاشور رحمته في تنزيل الآيات في الواقع المعاصر"، الذي تناول بين طياته عناية الشيخ ابن عاشور رحمته بإصلاح واقعه الاجتماعي في ضوء نصوص الوحي الإلهي الذي لا تنتهي عجائبه ولا تنقضي ليمت بعد ذلك الخلوص إلى أهم النتائج وأبرز التوصيات التي يتأمل تحقيقها؛ وذلك كما يأتي:

أولاً: النتائج:

- واقعية الشيخ ابن عاشور رحمته في طرحه مع تركيزه على ما هو بصدد بيانه وإثباته.
- امتاز ابن عاشور رحمته بجزيل الخلال والسمات كان لها الدور الأبرز في فكره الوقاد وشخصه الآخاذ.
- تأثر الشيخ ابن عاشور رحمته ببيئته وحرصه على إصلاح واقعه ومحيطه.
- عناية الشيخ ابن عاشور رحمته بواقعه المحيط مصلحاً ومستشرقاً لأحداثه وفق سنن

(1) المرجع السابق، (ص: 189).

(2) جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور /، (ص: 931).

(3) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، (ص: 87).

الله وتصريفاته في عبادته.

- للإمام ابن عاشور رحمته حس مرهف ووجدان جزيل. مخفي وراء أطروحاته العلمية ذات الأسلوب الموضوعي الرصين. يظهر ذلك: في مراسلاته ورثاءاته وخطبه.

- مركزية العقل عند الشيخ ابن عاشور رحمته في جل أطروحاته وكتباته ولا أدل على ذلك من عنوان كتابه العظيم "تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد".

- يمتاز الشيخ ابن عاشور رحمته باستثمار معطيات عصره وتوظيفها فيما هو بصدد بيانه وتقديره.

- يعد الشيخ ابن عاشور رحمته ذو حس عال بالمجتمع وما يحيط به من الأحداث متكيّفًا معه يدرس الداء ويصف الدواء وفق منهجية مطردة رغم تباين الأحوال وتجدد المتغيرات.

- اغتناء منهج الشيخ ابن عاشور رحمته بعدد من المزايا والسمات من أهمها: الجدة والابتكار مع الوسطية والتأصيل وقوة الاستشهاد وحسن المثال.

- دور التنشئة الأسرية في إذكاء النجاح والنبوغ بعد توفيق الله تعالى على كافة الأصعدة والمستويات.

- تراث الشيخ ابن عاشور رحمته ثورة في انتقاد الفكر وانبعاث العقل. حقٌّ أن يجرد صوابه من خطئه فيكون مقرر فكري عن جدارة.

- امتاز الشيخ ابن عاشور رحمته بالأصالة في تقريره الجوانب العقدية عند العبد مثبّتًا فطريتها وضرورتها اللازمة في التكوين البشري وجدانًا وفكرًا وانتهاجًا.

- تتناول آراء الشيخ ابن عاشور رحمته الجوانب الاقتصادية بأساليب معاصرة تضاهي النظرة الحديثة فيها متقدمة عليهم من ناحية تأصيلها وحاكمية الشرع عليها.

- يرى الشيخ ابن عاشور رحمته أن إبراز سماحة الدين الإسلامي في المجتمع سبب رئيس في جلب قلوب غير المسلمين إلى الدين جماعات وفرادى.

- تنوع القضايا التي تناولها الشيخ ابن عاشور رحمته في إصلاح واقعه المعاصر فحيث دار الفكر يجد للشيخ ابن عاشور رحمته بصمة واضحة ناصعة سياسيًا واقتصاديًا ونفسيًا وعقديًا وتربويًا واجتماعيًا وشخصيًا.

ثانيًا: التوصيات:

- الاتجاه إلى الأبحاث العمودية بدلًا من الأفقية فهو يعطي نماء أكثر في التفكير وخصوصًا من الإعادة والتكرير. كالتأصيل الثقافي عند الشيخ ابن عاشور رحمته دراسة تحليلية.

- أمكن استخلاص دراسة تُعنى بدور العلماء في التغيير الثقافي في الواقع المعاصر "ابن عاشور رحمه الله" أنموذجاً" فحياته حافلة بالإصلاح والتوجيه علمياً وعملياً جديرٌ أن تدرس كمنهجية تطبيقية للمربين والمصلحين.
- أوصي بمزيد من الأبحاث المعنية بكشف كنوز الشيخ ابن عاشور رحمه الله من ذلك جهود الشيخ ابن عاشور في تقرير النظم الإسلامية؛ أو النظم الإسلامية عند الشيخ ابن عاشور رحمه الله: جمع ودراسة.
- أوصي بدراسة ميادين التفكير عند الشيخ ابن عاشور رحمه الله ذلك إنه كانت محور قضاياه التي تستشف من بين أسطر كتاباته وأصداء خطبه وندواته.
- الاستفادة من العقليّات الفدّة ومواطن نبوغها؛ ودراسة أسباب هذا النبوغ والعوامل المؤثرة فيه وكيفية الاستفادة منه في تصحيح الواقع المعاصر.
- يمكن استخراج دراسة علمية تبين أثر البيئة الحياتية في تكوين العقلية الإسلامية: دراسة تحليلية، "ابن عاشور رحمه الله" - ابن تيمية رحمه الله أنموذجاً".
- يمكن الخلوص من الاطلاع على سيرة الشيخ ابن عاشور رحمه الله بدراسة بعنوان: صلاح الآباء وأثره في الأبناء، دراسة تحليلية "ابن تيمية رحمه الله" - ابن عاشور رحمه الله - الشوكاني رحمه الله: أنموذجاً".
- استخراج دراسة تبين علاقة ابن عاشور رحمه الله بغيره في النواحي الاجتماعية مثل: علم العمران بين ابن خلدون وابن عاشور الأسس والمظاهر والتصورات دراسة مقارنة.
- استغل المناوئين كبوات الشيخ ابن عاشور رحمه الله جاعلين منه شعاراً في الحداثة والتجديد لذا فإن في قلب الطاولة عليهم رد لشبهاتهم وترهاتهم عن الشيخ رحمه الله وآرائه كراهيه في المساواة ومرئياته القيمة فيها.
- وفي الختام أحمد الله وأشكره سبحانه وهو أهل للحمد والشكر على نعمه العظيمة وآلائه الكريمة، فله الحمد جلّ وعلا وتقديس حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والحمد لله الذي أعانني على كتابة هذا البحث، فما كان فيه من صواب فمن الله ﷻ وحده، وما كان فيه من خطأ أو نقص فهو من نفسي ومن الشيطان، وأستغفر الله ﷻ، وأتوب إليه، وصلّ اللهم وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

فهرس المراجع والمصادر

- أصول الإنشاء والخطابة، لابن عاشور رحمه الله، محمد الطاهر، تحقيق: ياسر بن حامد المطيري، ط1، (الرياض: مكتبة دار المنهاج، 1433هـ-2012م).
- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، لابن عاشور رحمه الله، محمد الطاهر، ط2، (تونس: دار

- سحنون، 1427هـ-2006م).
- أليس الصبح بقريب: التعليم العربي الإسلامي، لابن عاشور رحمته، محمد الطاهر، ط4، (دار سحنون: تونس، 1436هـ-2015م).
- تاريخ تونس، للشرف، محمد الهادي، ط3، (تونس: دار سراس للنشر، 1993م).
- تونس وجامع الزيتونة، لحسين، محمد الخضر، ط1، (سوريا: دار النوادر، 1431هـ-201م).
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، للبخاري، محمد بن إسماعيل، تحقيق: الناصر، محمد زهير، ط1، (بيروت: دار طوق النجاة، 1422هـ-2001م).
- جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور /، جمع وتحقيق: محمد الطاهر الميساوي، ط1، (الأردن: دار النفائس للنشر والتوزيع، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م).
- شعب الإيمان، للبيهقي، أحمد بن الحسين، ط1، (الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، 1423هـ-2003م).
- شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، لابن الخوجة، محمد الحبيب، د.ط، (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1425هـ - 2004م).
- القصيدة النونية، لابن القيم، محمد بن أبي بكر، ط1، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، 1415هـ-1994م).
- كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ، لابن عاشور /، محمد الطاهر، ط4، (دار سحنون: تونس، 1432هـ-2011م).
- مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور، محمد الطاهر، ط2، (الأردن: دار النفائس، 1421هـ-2001م).
- من أعلام الزيتونة، للغالي، بلقاسم، ط1، (تونس: دار سحنون، 1436هـ-2015م).
- نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، للحسيني، إسماعيل، ط1، (أمريكا: المعهد العالي للفكر الإسلامي، 1416هـ-1995م).
- نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم، لابن عاشور، محمد الطاهر، (القاهرة: المطبعة السلفية، 1344هـ-1924م).
- الوجيز في المذاهب الفكرية المعاصرة، للخلف، أحمد بن عبد العزيز، ط1، (المدينة المنورة: دار الإمام مسلم، 1437هـ-2016م).

الترغيب والترهيب عند الإمام الثعالبي في تفسيره من خلال إسقاطاته للنص القرآني

د/ زكرياء قادي

قسم أصول الدين - معهد العلوم الإسلامية - جامعة الوادي

Gadi-zakaria@univ-eloued.dz



ملخص

تعنى هذه الورقة البحثية والمقدمة إلى الملتقى الدولي الثامن بمعهد العلوم الإسلامية بجامعة الوادي، بالبحث في تفسير الإمام الثعالبي من خلال تنزيله لتفاسيره للقرآن الكريم على الواقع المعاش آنذاك، إذ يعد الإمام الثعالبي من العلماء الأجلاء في ذلك الزمان حيث اختص في علوم عديدة كالتفسير والحديث والفقه وغيرها، ومن خلال استقراء كتابه حاولت أن أصنف إسقاطاته على الواقع حيث تعين علي أن أصنفها ضمن باب التغيب والترهيب.

Abstract:

This research paper, presented to the Eighth International Forum at the Institute of Islamic Sciences at El-Oued University, is concerned with researching the interpretation of Imam Al-Thaalibi by drop on reality him for his interpretations of the Holy Qur'an on the reality lived at the time, as Imam Al-Thaalibi was considered one of the distinguished scholars at that time, as he specialized in many sciences such as interpretation, hadith, jurisprudence and others. And by extrapolating his book, I tried to classify its projections on reality, as I had to classify them under the section of absenteeism and intimidation.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين، ولا عدوان إلا على الظالمين المعتدين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الصادق الوعد وإمام المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله أجمعين أما بعد:

فقد قيض الله لكتابه رجلاً أفذاذاً، أفنوا أعمارهم في الدفاع عنه بحفظه في الكتب والصدور، من زمنه ﷺ، إلى يوم الناس هذا، في شتى ربوع الأرض مشرقاً ومغرباً، فغزوا به ما شاء الله أن يغزوا من الأمصار، فكان قرين القرآن الكريم في مختلف مجالس العلم، فكلما ذكر القرآن إلا وكان للتفسير مكاناً في ذلك، فيشرحون مهمه، ويقيدون مهمله، ويفصلون

مجمله، فلا انفصال لأحدهما عن الآخر، فكانت هذه سنة الله في الكون، فبرز في كل عصر من يتصدر لهذا العلم الجليل في كل مكان، فكان من هؤلاء الرجال علماء وأئمة من بلاد المغرب الإسلامي، فبرزوا بالدقة في تصانيفهم، والتحري في نقلهم للأخبار وتحملها، فقد كُتِب اسمهم مع كبار الأئمة، وقد وقع اختياري على أحد علماء المغرب الإسلامي، فهو على شهرته في علم القرآن والتفسير، وبه اشتهر، فقد كان من جهابذة أهل التفسير وهو الإمام أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي الجزائري، فكان عنواناً لبحثي التالي: الترغيب والترهيب عند الإمام الثعالبي في تفسيره من خلال إسقاطاته للنص القرآني.

فمن أسباب اختياري لهذا الإمام بهذا العنوان هو: شهرته الفائقة بتفسيره للقرآن العظيم المسمى بـ "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" أو كما يسميه بعضهم بنسبته إليه: "تفسير الثعالبي"، وعند البحث والتقصي تبين أنه من الشروح العظيمة في زمانه بين الشروح المعتمدة إذاك.

ومن خلال هذا طرح إشكالية بحثنا والتي تتمثل فيما يلي:

- من هو الإمام الثعالبي؟

- فيم تجلت إسقاطاته على الواقع في تفسير كتابه؟

أهداف الموضوع: يهدف الموضوع إلى إبراز أحد علماء الجزائر إلى طلبه العلم في تخصص علوم القرآن والتفسير خاصة وميدان العلوم الإسلامية عامة بأن هذا الإمام: وهو عبد الرحمن الثعالبي قد كان مفسراً بامتياز وهذا من خلال ما هو موجود في تفسيره الجليل.

وقد قسمت بحثي هذا إلى ثلاثة مباحث:

أما الأول فقد جعلته لترجمة الإمام الثعالبي، وجعلت فيه مطلبين، أولهما خصصته لحياته الشخصية، والثاني لحياة الإمام الثعالبي العلمية.

وأما المبحث الثاني فقد جعلته للتعريف بعلم التنزيل القرآني وأنواعه، وأما الثالث فقد جعلته كتطبيقات لإسقاطات الإمام الثعالبي على الواقع في تفسيره الجواهر الحسان ثم خاتمة: ذكرت فيها أهم النتائج والتوصيات.

هذا؛ فما كان من توفيق فمن الله وحده فله الحمد والشكر، وما كان من خطأ أو نسيان فمني ومن الشيطان، والله أسأل أن يجعل بحثي هذا نافعاً، ولوجهه تعالى خالصاً، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وأخردعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول: ترجمة الإمام الثعالبي

أذكر فيه جانباً من حياة الإمام الثعالبي الشخصية، وآخر من حياته العلمية.

حياته الشخصية: وأعرج في هذا المطلب على ذكر مولده ونشأته وتاريخ وفاته.

اسمه: هو فخر علماء الجزائر الإمام المسند: أبو زيد عبد الرحمن بن مخلوف الجزائري، بن عمر بن نوفل بن منصور بن محمد بن سباع بن مكي بن ثعلبة بن موسى بن سعيد بن المفضل بن عبد البر بن قيس بن هلال بن عامر بن حسان بن محمد بن جعفر بن أبي طالب، ويلقب بالثعالبي نسبة إلى الثعالبة¹ الذين استوطنوا متيجة².

مولده ونسبه: ولد الثعالبي سنة 785هـ، أو في التي بعدها بوادي "يسر" على نحو ست وثمانين كيلومتراً بالجنوب الشرقي من عاصمة الجزائر، بولاية بومرداس حالياً، وهو موطن آبائه وأجداده الثعالبة، أبناء ثعلب بن علي من عرب المعقل، فنشأ نشأة علم وصلاح بين أحضان أبويه، وتلقى مبادئ قراءته وتعلمه بالجزائر العاصمة وضواحيها، وفي سنة 802هـ، ارتحل إلى بجاية حيث قضى فيها ما يقرب من سبع سنوات، لازم فيها حضور مجالس علماءها وتلقى الدروس في مختلف الفنون³.

ولم تشر كتب التراجم إلى تاريخ زواج الثعالبي، ويبدو أنه لم يتزوج حتى عاد إلى الجزائر واستقر بها نهائياً، وقد أنجب ثمانية أولاد كلهم من بطن أم واحدة اسمها مريم، منهم أربعة ذكور، وأربع إناث؛ أما الذكور فهم: - محمد الصغير توفي باكراً بمرض الطاعون سنة 846هـ، - محمد ابن الصالحية توفي سنة 851هـ، - محمد الكبير كان حياً حين وفاة أبيه، - يحيى، وبه كان الثعالبي يكنى أولاً، ثم استقرت لأبي زيد⁴.

أما البنات فهن: فاطمة، ورقية، ومحجوبة، وقد توفين وهن صغيرات في سنة واحدة،

¹ - الثعالبة: قيل أنهم بطن ينتسبون إلى ثعلب بن علي بن بكر بن صفيّر، من العدنانية، كانوا يقيمون في الجزائر، وقيل هي نسبة إلى خياطة جلود الثعالب، وعمل الفراء. ينظر: الأنساب للسمعاني، تحقيق المعلبي اليمني، ط1، 1382هـ، 1962م، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، ج3، ص132.

² - ينظر: شجرة النور الزكية، محمد ابن سالم مخلوف، تعليق عبد المجيد خيالي، الطبعة الأولى، 1424 هـ - 2003 م، دار الكتب العلمية، لبنان، فرع فاس، جزء 1، ص 382. غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد، فهرست مرويات الثعالبي، تحقيق: محمد شايب شريف، الطبعة الأولى، 1426هـ، 2005م، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ص 11، آراء الشيخ عبد الرحمن الثعالبي الاعتقادية، من خلال تفسيره الجواهر الحسان، رسالة ماجستير في العقيدة، علي بن يحيى كعبي، إشراف: شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1435هـ، 2014م، ص 15.

³ - ينظر: غنيمة الوافد، المرجع السابق، ص 11.

⁴ - ينظر: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، محمد بن ميمون الجزائري، تقديم: محمد بن عبد الكريم، الطبعة الثانية، 1981م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 343، 345. آراء عبد الرحمن الثعالبي، مرجع سابق، ص 16.

وهي سنة 841هـ، أما بنته الرابعة فهي السيدة عائشة، توفيت سنة 851هـ¹.

نشأته: لم تذكر المصادر المترجمة لهذا الغمام شيئاً عن نشأته، إلا أن الظن بحال من حاله كالإمام يؤكد أن نشأته في بيت علم وفضل، ولا يبعد وجود أهل الصلاح في أسرته، كما أن الظن بمثله أن يكون درج على طلب العلم، كما يطلبه اهله من قراءة كتاب الله وحفظه في الصغر، وإطلاعه على كتب التاريخ، والتفسير، والحديث، والأصول، والكلام، والأدب، واللغة، والنحو، والصرف، والعروض، وغيرها².

وفاته: ظل الإمام الثعالبي طيلة حياته عاكفاً على الطاعات، متجرداً عن الدنيويات إلى أن ناداه أجله المحتوم صبيحة يوم الجمعة 23 رمضان من سنة 875هـ، دفن بمكان يعرف بـ "جبانة الطلبة"، خارج "باب الواد" بالجزائر العاصمة³.

حياته العلمية: في هذا المطلب أذكر حياة الإمام الثعالبي العلمية، مبيناً من خلال ذلك أبرز شيوخه، وبعضاً من تلاميذه، وأذكر بعضاً من مؤلفاته، ثم بعضاً من أقوال من أثنى عليه من العلماء.

شيوخه: تتلمذ الثعالبي على يد ثلة من العلماء المبرزين في زمانهم، فكان نصيبه الأكبر في طلبه للعلم حال رحلته للمشرق، وتونس، فكان ممن يولي اهتماماً للشيوخ حتى أنه يوصي بذكر مشايخ المؤلفين حتى يعرف قدر الرجال وعلى من تتلمذوا فقال: «وينبغي لمن ألف أن يعرف بزمانه وبمن لقيه من أشياخه، ليكون من يقف على تأليفه على بصيرة من أمره ويسلم من الجهل به، وقد قلّ الاعتناء بهذا المعنى في هذا الزمان وكم من الأفاضل انتشرت عنه فضائل جهل حاله بعد موته لعدم الاعتناء بهذا الشأن»⁴، فذكرت كتب التراجم للثعالبي عدداً من الشيوخ أذكر بعضاً منهم:

- أبو القاسم أحمد بن محمد بن إسماعيل البلوي البرزلي، أحد أئمة المالكية صاحب الفتاوى المتداولة، وهي في مجلدين، كان البرزلي موصوفاً بشيخ الإسلام توفي سنة 844هـ⁵.

- أبو مهدي عيسى بن أحمد بن محمد الغريني التونسي قاضي الجماعة بها وحافظها العالم الجليل المعظم، أوجد أهل زمانه علماً وديناً وفضلاً توفي سنة 813هـ، 815هـ⁶.

- محمد بن الخطيب بن محمد بن مرزوق الإمام المحقق العلامة المفسر المحدث

¹ - ينظر المرجع السابق، ص 16.

² - ينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وآخرون، الطبعة الأولى، 1418هـ، 1997م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص 09، 10.

³ - ينظر: غنيمة الوافد، مرجع سابق، ص 12.

⁴ - ينظر: غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد، مرجع سابق، ص 05.

⁵ - ينظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين السخاوي، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، لبنان، ج 11، ص 133.

⁶ - ينظر: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ص 243.

- الرواية، أخ عنه أعلام من أهل المشرق والمغرب، توفي سنة 842هـ¹.
- عبد الله بن مسعود بن علي أبو محمد القرشي التونسي، يعرف بابن القرشية، أخذ عن أبي العباس أحمد الزواوي شيخ بجاية، توفي سنة: 827هـ².
- أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر الولي أبو زرعة الكردي الأصل، المعروف بالعراقي، توفي سنة 836هـ³.
- تلاميذه: تتلمذ عليه يده ثلة من طلبة العلم الاجلاء ونذكر منهم:
- أبو العباس أحمد بن محمد بن زكري التلمساني ألف كتاباً في مسائل القضاء والفتيا، توفي سنة: 899هـ⁴.
- أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم التلمساني، توفي سنة: 909هـ⁵.
- علي بن عباد بن أبي بكر البستريني المغربي المالكي، سمع الحديث عن الثعالبي، له تأليف منها: "لطائف الإشارات في مراتب الأنبياء في السموات"⁶.
- مؤلفاته: للإمام الثعالبي تراث كبير، تمثل في مصنفات ومؤلفات، تفوق التسعين مؤلفاً، لا يزال بعضها مخطوطاً، بعضها متواجد بالسودان، وبعضها بالمكتبات الخاصة والعامة بالجزائر، والآخر بالمغرب وتونس وغيرها من المكتبات⁷.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، في عدة أجزاء، وهو أعظم كتبه، وأوسعها انتشاراً، وأعظمها نفعاً، وقد أشار الثعالبي في مقدمة تفسيره إلى أن الجواهر الحسان اختصره مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية، فقال: "وزدته فوائد جمة من غيره من كتب الأئمة وثقات أعلام هذه الأمة، وذلك قريب من مائة تأليف، وما منها تأليف إلا وهو منسوب لإمام مشهور بالدين ومعدود من المحققين"⁸.
- قطب العارفين، ومقامات الأبرار والأصدقاء⁹.
- جامع المهمات في احكام العبادات في فروع الفقه المالكي¹⁰.

¹ - ينظر: شجرة النور الزكية، المرجع نفسه، ص 244.

² - ينظر: الضوء اللامع، مرجع سابق، ص 244.

³ - ينظر: الضوء اللامع، المرجع نفسه، ص 236، 244.

⁴ - ينظر: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ص 266.

⁵ - ينظر: الضوء اللامع، مرجع سابق، ص 374.

⁶ - ينظر: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ص 244.

⁷ - ينظر: تاريخ الجزائر العام، لعبد الرحمن الجيلالي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، جزء 02، ص 182، نقلاً عن: علي كعبي، آراء الثعالبي الاعتقادية، مرجع سابق، ص 21. وغنيمة الوافد، ص 11.

⁸ - ينظر: مقدمة تفسير الجواهر الحسان، للثعالبي، مرجع سابق، جزء 01، ص 117.

⁹ - ينظر: معجم المؤلفين، عمر بن كحالة الدمشقي، مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان، جزء 05، ص 192.

¹⁰ - ينظر: المرجع السابق.

- تحفة القرآن في إعراب بعض آيات القرآن¹.
- شرح مختصر خليل².
- ثناء العلماء عليه: اشتهر الثعالبي بزهده وورعه، واهتمامه بالعلم وطلبه، فأثنى عليه الكثير ومنهم نذكر:
- قال محمد بن محمد بن مخلوف³: "الإمام علم الأعلام، الفقيه المفسر المحدث الراوية العمدة الفهامة الصالح الفاضل العارف بالله الواصل أثنى عليه جماعة من العلماء والدين المتين"⁴.
- وقال السخاوي⁵: "وكان إماماً علامة مصنفاً..."⁶.
- وقال التنبكي⁷: "الشيخ الإمام الحجة العامل الزاهد الورع ولي الله الصالح، العارف بالله أبو زيد، اشتهر بالثعالبي، صاحب التصانيف المفيدة، وكان من خيار عباد الله الصالحين، وهو ممن اتفق الناس على صلاحه وإمامته، أثنى عليه جماعة من شيوخه بالقلم والدين والصلاح كالإمام الأبى والولي العراقي والإمام الحفيد ابن مرزوق، وقد عرف هو بنفسه في مواضع من كتبه"⁸.
- بطاقة تعريفية حول كتاب الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي
- أريد من خلال هذا المطلب أن أعطي صورة تعريفية موجزة حول جواهر الثعالبي، فأذكر: اسمه، ونسبته لمؤلفه، وطبعاته، نبذة يسيرة عن منهجه من خلال مقدمة تفسيره، وذلك في الفروع الآتية:
- الفرع الأول: اسمه ونسبته لمؤلفه
- أولاً- اسمه: يظهر من خلال الاطلاع على بعض مؤلفات الثعالبي⁹، يتبين أن من

¹ - ينظر: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ص 265.

² - ينظر: التحفة المرضية، مرجع سابق، ص 342.

³ - هو محمد بن عمر بن علي سالم مخلوف عالم بتراجم المالكية توفي سنة 1360هـ.

⁴ - ينظر: شجرة النور الزكية، ص 264.

⁵ - هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي، أبو عبد الله العالم المحدث المؤرخ، له مؤلفات منها:

الجواهر والدرر، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، توفي سنة 902هـ، ينظر: معجم المؤلفين، مرجع

سابق، جزء 03، ص 399.

⁶ - ينظر: شجرة النور الزكية، ص 244

⁷ - أحمد بن أحمد التنبكي، عالم فقيه مؤرخ، ينظر: معجم المؤلفين، مرجع سابق، جزء 01، ص 145.

⁸ ينظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، للتنبكي، تقديم: الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، الطبعة الثانية،

2000م، دار الكاتب، طرابلس، ليبيا، جزء 01، ص 285.

⁹ ينظر مثلاً: الثعالبي، جامع الأمهات في أحكام العبادات، ص 177، وغنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد، ص 29.

منهجه الذي تميّز به التّصريح باسم مصنّفاته، وهذا الذي رأيناه في تفسيره؛ حيث قال في مقدّمة تفسيره: "وسمّيته بـ (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)"¹.

– الفرع الثّاني: طبعات التّفسير

– رغم القيمة العلميّة التي حواها هذا التفسير إلّا أنّه كتفسير ابن عطية، لم يُعن بتحقيق نصوصه، وتحرير مسائله، فلم يحقّق تحقيقاً علمياً رصيناً، ومع هذا فقد طُبِعَ عدّة طبعات، أذكر منها طبعتين فقط²:

- أولاً- طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة: 1408هـ، تحقيق محمد علي معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، في خمسة أجزاء. وهي أحسن الطبعات.
- ثانيا- طبعة دار عالم المعرفة للنشر والتّوزيع، الجزائر، طبعة خاصّة، سنة: 2011م، تحقيق عمّار الطّالبي، في أربعة أجزاء، وهذه الطبعة هي التي استطعت الحصول عليها ورقياً؛ لذلك جعلتها العمدة في الدراسة.

– الفرع الثّالث: لمحة يسيرة عن منهجه الخاص من خلال مقدّمة تفسيره

– لقد سطر الثّعاليّ معالم منهجه الخاص الذي سار عليه في تفسيره، وهي على النّحو الآتي:

– أولاً- جعل تفسير ابن عطية هو العمدة، وزاد عليه مسائل، وفوائد جمّة من غيره من الكتب.

– ثانيا- ما انفرد بنقله عن الطبريّ، فمن مختصر تفسير الطبريّ³.

– ثالثاً- كلّ ما في آخره (انتهى)، فليس هو من كلام ابن عطية، بل ذلك ممّا انفرد الثّعاليّ بنقله عن غيره.

– رابعاً- جعل علامة (ت) لنفسه بدلا من (قلت)، وجعل علامة (ع) لابن عطية.

– خامساً- ما نقله من الإعراب عن غير ابن عطية فمن (مختصر أبي حيّان)⁴ غالبا، وجعل (ص) علامة عليه.

– سادساً- كلّ ما نقله عن أبي حيّان، فإنّما نقله له بواسطة الصّفاقسيّ غالبا، قال الصّفاقسيّ: وجعلتُ علامة ما زدته على أبي حيّان (م). وحيث أطلق الثّعاليّ فالكلام لأبي حيّان.

¹ ينظر: تفسير الثّعالي، ج 1، ص 11.

² اقتصر على ما وقفت عليه ورقياً أو الكترونياً.

³ وهو مختصر الطبريّ لأبي عبد الله محمد اللّخميّ، ولم أقف – في حدود بحثي – على هذا المختصر.

⁴ وهو: المجيد في إعراب القرآن المجيد، للصّفاقسيّ، ولم أقف – في حدود بحثي – إلّا على تحقيق: إعراب الحزب الأوّل من سورة البقرة، وإعراب الجزء الأخير من القرآن، وسوف أذكرهما خلال الدراسة التطبيقية، مع العلم هناك تحقيقات أخرى لم أتمكّن من الحصول عليها.

- سابعا- ما نقله من الأحاديث الصَّحاح والحسان في (باب الأذكار والدَّعوات) عن غير البخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، فأكثره من كتاب الأذكار، وكتاب سلاح المؤمن في الدعاء والذكر¹.

- ثامنا- ما نقله في الترغيب والترهيب وأحوال الآخرة، فمعظمه من كتاب التذكرة، وكتاب العاقبة²، وربما زاد زيادات كثيرة من مصابيح السنّة³، وغيره⁴.

المبحث الثاني: التنزيل القرآني على الواقع:

وأذكر في هذا المبحث التعريف بالتنزيل على الواقع وأنواعه.

- التنزيل: مصدر من الرباعي للفعل نَزَلَ، وهي تدل على هبوط شيء ووقوعه من علو شيئا بعد الشيء، وأصله من نَزَلَ فتقول: نَزَلَ الرجل عن دابته نزولا، ونزل المطر من السماء نزولاً⁵.

وعرف ابن فارس كلمة (تنزيل) بقوله: "ترتيب الشيء ووضعه منزله"⁶.

إلا أن المعاصرين قد استخدموا في تفاسيرهم مصطلح ال (تطبيق) أمثال رشيد رضا، وابن باديس، وسيد قطب وغيرهم، ويريدون بذلك تطبيق الآيات على القرآنية على الحوادث والوقائع المعاصرة لهم.

والتعبير الأول أولى لأنه يحمل معنى التطبيق، ويوحى بأن آيات القرآن الكريم حية متجددة، تنزل في كل وقت وحين لمعالجة الوقائع والأحداث عبر مِ العصور، ولأن لفظ التنزيل يعطي رفعة للآيات وأنها تنزل من علو بحاكمية وسلطان⁷.

- الآيات: جمع آية وتطلق في اللغة على معان عدة منها⁸:

1- العلامة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ البقرة (248).

¹ كتاب الأذكار للنووي، وكتاب سلاح المؤمن لابن الإمام.

² كتاب التذكرة في أحوال الموتى وأمر الآخرة للقرطبي، وكتاب العاقبة في ذكر الموت لعبد الحق الإشبيلي.

³ كتاب مصابيح السنّة لأبي محمد البغوي.

⁴ ينظر: تفسير الثعالبي، ج 1، ص 7-9.

⁵ ينظر جمهرة اللغة لابن دريد (827/2)، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (417/5)، ولسان العرب لابن منظور (656/11).

⁶ معجم مقاييس اللغة لابن فارس (417/5).

⁷ تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، دراسة وتطبيق لعبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، ط 01، 2007م، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ص 28.

⁸ ينظر: معجم مقاييس اللغة، (168/1)، ولسان العرب (62/14).

- 2- العبرة: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ البقرة (248).
- 3- الأمر العجيب: ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ المؤمنون (50).
- 4- البرهان والدليل: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ الروم (22).
- 5- الجماعة: ومنه قولهم: خرج القوم بأيّتهم، أي بجماعتهم.
- وعُرِفَتْ في الاصطلاح¹: بأنها طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن الكريم.
- والمناسبة بين هذا المعنى الاصطلاحي والمعاني اللغوية السالفة الذكر واضحة، لأن الآية القرآنية معجزة ولو باعتبار انضمام غيرها إليها، ثم هي علامة من صدق ما جاء به ﷺ، وفيها عبر وذكرى لمن أراد أن يتذكر، وهي من الأمور العجيبة لمكانها من السمو والإعجاز، وفيها معنى الجماعة لأنها مؤلفة من جملة كلمات وحروف، وفيها معنى البرهان والدليل على ما تضمنته من هداية وعلم على قدرة الله وعلمه وحكمته، وعلى رسوله في رسالته².
- الواقع: اسم فاعل للفعل وَقَعَ، وهو يدل على سقوط شيء، فتقول: وقع الشيء وفوقاً فهو واقع³.
- والمقصود بالواقع في هذا المقام: هو عبارة عن السنن الإلهية، والأفعال الإنسانية الحاصلة في الزمن المعاصر.
- وهذا الواقع هو الذي يراد تنزيل الآيات عليه، وتوجيهه بحسبها⁴.
- المفسرين: جمع مُفسِّر، وهو المبين والموضح، يقال فسّر الشيء أي أبانه وأوضحه⁵.
- أما اصطلاحاً: فلا يوجد من وضع له حداً منطقياً سوى ما كتبه الدكتور حسين الحربي، وكذلك مساعد الطيار:
- قال الحربي: "هو من له أهلية تامة يعرف بها مراد الله تعالى بكلامه المتعبد بتلاوته، قدر الطاقة، وراض نفسه على مناهج المفسرين، مع معرفته جُملاً كثيرة من تفسير كتاب الله، ومارس التفسير علمياً بتعليم أو تأليف"⁶.

¹ مناهل العرفان للزرقاني (302/1).

² المرجع نفسه (303/1).

³ ينظر جمهرة اللغة (944/2)، ومعجم مقاييس اللغة (133-134/6)، ولسان العرب (402/8).

⁴ ينظر خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، للدكتور عبد المجيد النجار ص (112).

⁵ ينظر: معجم مقاييس اللغة (504/4)، ولسان العرب (55/5).

⁶ قواعد الترجيح عند المفسرين لحسين الحربي (33/1).

- وقال الطيار: "هو من كان له رأي في التفسير، وكان متصدياً له"¹.
 والمتأمل في هذين التعريفين، يلاحظ أنهما يدوران حول معنى واحد، إلا أن الأول قد أصاب تعريفه شيئاً من التطويل.
 فقوله مثلاً: (قدر الطاقة): قيد غير ضروري، لأن كل مفسر لا يمكن له أن يفسر كلام الله تعالى إلا بعد أن يبذل وسعته وقدر طاقته بالتدبر والتأمل.
 وقوله: (وراض نفسه عن مناهج المفسرين): قيد لا حاجة له في التعريف أيضاً، لأن العلم بمناهج المفسرين ليس له أثر في فهم التفسير، ولو أثبت هذا القيد لخرج منه الصحابة والتابعون رضي الله عنهم.
 وقوله: (مع معرفته جملاً كثيرة من تفسير كتاب الله): شرط مكرر، لأن معرفة جمل كثيرة من التفسير تُعتبر من مؤهلات تفسير كلام الله تعالى الذي عبّر عنه في بداية تعريفه بقوله: "من له أهلية تامة في التفسير"، فلا داعي لتكراره.
 فكان المناسب أن يقول: هو من له أهلية تامة في التفسير، وممارسه علمياً بتعليم أو تأليف.

وأما الدكتور الطيار فإنه قد أوجز التعريف، واختزل في طياته الكثير من المعاني، ولهذا فهو المرجح، وعلى هذا فإن تعريفه احتوى على ثلاثة أمور:
 الأول: أن يكون أهلاً للتفسير.
 الثاني: أن يكون له رأي في التفسير.
 الثالث: أن يكون متصدياً له².

فلا بد أن يرتبط كل منهم بالآخر دون الفصل بينهم، فمن كانت له آراء في التفسير لكنه غير متصدي له فإنه لا يكون في عداد المفسرين والعكس، ومن كان متصدياً له ولكن الأهلية فيه منتفية فإنه لا يسمى مُفسِّراً وهكذا³.
 ولذلك فإننا نستطيع أن نصفه بكونه مشاركاً في التفسير، كما هو رأي الدكتور الطيار، أو مختصاً في التفسير وعلوم القرآن، أو له جهود في الدراسات القرآنية.
 ونحو ذلك من العبارات والنعوت المناسبة لهُون أن يُطلق عليه وصف (المُفسِّر).
 تعريفه مركباً:

لا يوجد أحد عرّف هذا الموضوع إجمالاً بتعريف يحدد معالمه، ويبرز حدوده، إلا ما كان منها من اجتهاد في وضع مفهوم شامل لهذا الأمر:

¹ مفهوم التفسير والتأويل، لمساعد الطيار ص (215)

² تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، دراسة وتطبيق لعبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، ص 33.

³ المرجع السابق ص 33.

هو مقابلة الأحداث المعاصرة للمفسر بما يشابهها في كتاب الله تعالى، سواء كانت المقابلة تامة أو جزئية أو مخالفة لما عليه الآية¹.

أنواع التنزيل القرآني:

قسم العلماء تنزيل الآيات على الواقع من خلال عملهم بعدة أنواع، يمكن حصرها في اعتبارين:

الأول: أنواعه باعتبار التصريح والتلميح، وهو على نوعين:

1. تنزيل التصريح: وهو أن يصرح المفسر بأن معنى هذه الآية حاصل في زمنه وواقعه، فيعبر عنها أثناء تفسيره للآية بقوله: "كما هو الحال في زماننا"، أو "وهذا ما يكون في مجتمعنا"، ونحو ذلك من العبارات التي تفيد تصريح المفسر بما يكون في واقعه مشابها لما كانت عليه الآية الكريمة، وهذا النوع هو السائد والشائع والذائع فيها، ولذلك يصعب حصرها².

2. تنزيل التلميح: وهو أن يشير المفسر إلى أن معنى هذه الآية حاصل في زمنه وواقعه دون أن يصرح بذلك بل يورده على سبيل التعريض والتلميح، ولعل ذلك يرجع إلى الحالة السياسية في تلك الفترة التي لا تسمح بالإفصاح عن ما يكون فيها من القهر والظلم والفساد والإفساد والمخالفات العقدية والاجتماعية ونحو ذلك³.

الثاني: أنواعه باعتبار جزئية والكلية وهو على ثلاثة أنواع⁴:

1. تنزيل كلي: وهو أن يأتي المفسر بآية وفي الواقع ما يطابق معناها تماما، ومثاله ما ذكره القرطبي رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ الإسراء (45)، حيث ذكر بعض الروايات والتي منها إحالة امرأة أبي لهب عن رؤية النبي ﷺ لما علمت بنزول سورة المسد بشأنها وزوجها، فقرأ النبي ﷺ الآية السابقة فاعتصم عنها.

2. تنزيل جزئي: وهو أن يأتي المفسر بآية وفي الواقع ما يطابق جزءا من معناها، ومثاله ما ذكره الفخر الرازي عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ التوبة (34) حيث قال: "ولعمري من تأمل أحوال أهل الناموس والتزوير في زماننا وجد هذه الآيات كأنها ما أنزلت إلا في شأنهم وفي شرح أحوالهم، فترى الواحد منهم يدعي أنه لا يلتفت إلى الدنيا ولا يتعلق خاطره بجميع

¹ المرجع السابق ص 33.

² تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، دراسة وتطبيق لعبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، ص 61

³ تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، دراسة وتطبيق لعبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، ص 62.

⁴ المرجع نفسه ص 76.

المخلوقات، وأنه في الطهارة والعصمة مثل الملائكة المقربين، حتى إذا آل إلى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه ويتحمل نهاية الذل والدناءة في تحصيله". حيث نزل جزءاً من الآية بالرغم من أنها تحتوي على أكثر من جزء كالصد عن سبيل الله وكثر الذهب والفضة وترك النفقة في سبيل الله، إلا أنه اقتصر على جزء منها، وهو أكل أموال الناس بالباطل فقط.

3. تنزيل على ما يخالف المعنى: ويستخدمه المفسر إذا وجد في واقعه أحوالاً حث القرآن على خلافها والعكس، ويسمى أيضاً بالتنزيل العكسي، ومثاله ما كان يشتكي منه أبو حيان رحمه الله من أهل زمانه بمخالفتهم لكثير من أوامر الله تعالى، والتي منها الجهر بالدعاء إلى تعالى بطريقة بدعية تخالف شرع الله تعالى، ففي قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (الأعراف 55). يلاحظ أنه قد نزلها على ما يكون في واقعه فقال رحمه الله: "ولو عاش الحسن إلى هذا الزمان العجيب الذي ظهر فيه ناس يتسمون بالمشايخ، يلبسون ثياب شهرة عند العامة بالصلاح، ويتركون الاكتساب، ويرتبون لهم أذكاء لم ترد في الشريعة، يجهرون بها في المساجد، ويجمعون لهم خداماً يجلبون الناس إليهم لاستخدامهم، ونبش أموالهم....."¹.

المبحث الثالث: إسقاطات الإمام الثعالبي

في كتابه تفسير القرآن في باب الترغيب والترهيب.

- ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ البقرة 212، ومعنى فوقية هنا في الدرجة والقدر ويحتمل أن يريد أن نعيم المتقين في الآخرة فوق نعيم هؤلاء الآن. قلت: وحكي الداودي عن قتادة: فوقهم يوم القيامة. قال: فَوْقَهُمْ في الجنة. انتهى.

فإن تشوّفت نفسك أيها الأخ إلى هذه فوقية، وتنبّل هذه الدرجة العلية، فافرض دنياك الدنية، وازهدّ فيها بالكليّة لتسلّم من كل آفة وبلية، واقتد في ذلك بخير البرية².

• وفي هذا الإسقاط ترغيب لأهل زمانه في الزهد للدنيا ونيل الدرجات العلية.

- وقوله سبحانه: ﴿إِنْ تَمَسَّسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ...﴾ آل عمران 120: الحسنة والسيئة في هذه الآية: لفظ عام في كل ما يحسن ويُسوء، قلت: ويجب على المؤمن أن يجتنب هذه الأخلاق الذميمة ورؤينا في «كتاب الترمذي»، عن واثلة بن الأسقع (رضي الله عنه)، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ، فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ»³.

• وفي هذا الإسقاط ترهيب من الثعالبي لأهل زمانه من اتباع الأخلاق الذميمة

¹ ينظر البحر المحيط (312/4-313)، وتنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، دراسة وتطبيق لعبد العزيز

بن عبد الرحمن الضامر، ص 78.

² «تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن» (1/430).

³ «تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن» (2/99).

والاستشهاد بالحديث النبوي وهو من الإسقاط الاجتماعي الأخلاقي مع تدعيم قوله بحديث نبوي شريف.

- وقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ آل عمران 133، والمعنى: سارعوا بالطاعة، والتقوى، والتقرب إلى ربكم إلى حالٍ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ فيها.

قُلْتُ: وحقُّ على مَنْ فهِمَ كلامَ رَبِّهِ أَنْ يبادرَ وَيُسَارِعَ إلى ما ندبه إِلَيْهِ رَبُّهُ، وَأَلَّا يَتَهَاوَنَ بترك الفضائلِ الوارِدَةِ في الشَّرْع: الالتزام بأوامر الله عز وجل من الواجبات وفضائل الأعمال الشرعي والديني¹.

• وهذا ترغيب إلى النصيحة والدعوة للأخلاق الفاضلة ومحاربة التهاون في الدين والإصلاح.

- وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قَاتَل مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ آل عمران 146.

قُلْتُ: واعلم (رحمك الله) أَنَّ أَصْلَ الْوَهْنِ وَالضَّعْفِ عن الجِهَادِ، ومكافحةِ الْعَدُوِّ هو حُبُّ الدُّنْيَا، وكراهيةُ بَذْلِ النفوسِ لله، وبذل مهجها للقتل في سَبِيلِ اللَّهِ أَلَا ترى إلى حال الصَّحَابَةِ (رضي الله عنهم) ، وَقَلَّتْهُمْ في صَدْرِ الإسلام، وكيف فتح الله بهم البلاد، ودان لِدِينِهِمُ العباد، لما بَدَّلُوا لِلَّهِ أَنْفُسَهُمْ في الجهاد، وحالنا الْيَوْمَ، كما ترى عددُ أهل الإسلام كثيرٌ، ونكايتهم في الْكُفَّارِ نَزَرٌ سِيسِرٌ² فانظر (رحمك الله) ، فهل هذا الزمانُ إِلَّا زماننا بَعَيْنُهُ، وتَأَمَّلْ حال ملوكنا، إِنما هِمَّتْهُمْ جُمُوعُ الْمَالِ مِنْ حَرَامٍ وَحَلَالٍ، وإعراضُهم عَنْ أَمْرِ الجهاد، فإِنا لِلَّهِ وإِنا إِلَيْهِ راجِعُونَ على مصاب الإسلام².

• وإسقاط ترغيب في تحريض ودعوة أهل زمانه على محاربة الأعداء وإلى الجهاد ومحاربة أهل الكفر حكاما ومحكومين.

- صدر سورة النساء: «قُلْتُ: تَأَمَّلْ (رحمك الله) صَدَرَ هذه السورةِ معظمه إِنَّمَا هو في شَأْنِ الْأَجُوفَيْنِ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ مع اللسان، وهما الْمُهْلِكَانِ، وَأَعْظَمُ الْجَوَارِحِ أَفَهُ وَجَنَابَهُ على الإنسان»³.

• وهذا الإسقاط ترهيب من الاهتمام بالأجوفين وهما البطن والفرج وما يؤول بالإنسان بسببهما.

- وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ...﴾ النساء 82: المعنى: أَفَلَا يتدبَّر هؤلاء المنافقُونَ كَلَامَ اللَّهِ تعالى، فتظهر لهم براهيئته، وتلوح لهم أدلته، قُلْتُ: اعلم (رحمك الله تعالى) أَنَّ تدبَّر

¹ «تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن» (105/2)

² «تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن» (120/2)

³ «تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن» (176/2)

القرآن كفيلاً لصاحبه بكل خير، وأما الهذَرمة والعَجَلَة، فتأثيرها في القلب ضعيف¹.

• وهذا إسقاط ترغيب في الدعوة إلى القراءة المتأنية للقرآن المحققة للتدبر.

- وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ...﴾ الأعراف 146: المعنى: سَأَمْنَعُ وَأَصُدُّ، قال سفيان بن عُيَيْنَةَ: الآياتُ هنا كلُّ كتابٍ منزلٍ. قال ع: والمعنى عن فَهْمِهَا وتصديقها، وقال ابن جُرَيْج: الآياتُ: العلامات المنصوبة الدالة على الوحدانية، والمعنى: عن النظر فيها، والتفكير والاستدلال بها، واللفظُ يَعْمُ الوجْهَيْنِ «4»، والمتكبرون في الأرض بغير الحق: هم الكُفَّار، قُلْتُ: ويدخل في هذا المعنى مَنْ تشبَّه بهم من عُصاة المؤمنين. ترهيب عصاة المؤمنين من التشبه بالكفار وعده من الكبائر².

• وهذا تنزيل ترهيب في التحذير لأهل زمانه من الكبر والتشبه بالكفار.

- «وقوله سبحانه: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الأعراف 158 وهو حَضُّ على اتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وقوله: الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، أي: يصدق بالله وكلماته، والكلماتُ هنا: الآياتُ المنزلَة مِنْ عند الله كالتوراة والإنجيل، وقوله: وَاتَّبِعُوهُ لَفْظٌ عامٌّ يدخل تحته جميعُ إلزامات الشريعة، جعلنا الله مِنْ مَتَّبِعِيهِ على ما يلزم بِمَنِّهِ ورحمته.

قُلْتُ: فَإِنْ أُرِدَتْ الْفُوزُ أَهْلِهَا، فعليك باتباع النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيم شريعته، وتعظيم جميع أسبابه» ترغيب في الاقتداء والاتباع لرسول الله وسنته³.

وقوله سبحانه: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ: أي: في قصص يوسف وإخوته وسائر الرسل الذين ذُكِرُوا على الجملة، وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ في القرآن، قال عنه: مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى، وَالَّذِي يَبْنِي تَوْرَاةَ الْإِنْجِيلِ، وبقي الآية بَيْنَ وَاضِحٍ.

ت: كنت في وَقْتٍ أَنْظُرُ في «السيرة» لابن هشام، وَأَتَأَمَّلُ في خُطْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي أَوَّلُ خُطْبَةٍ خَطَبَهَا بِالْمَدِينَةِ، فإذا هاتِف يقول: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى، وقد كَانَ حصل في القلب عبرة في أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأفاضل أصحابه، رضي الله عنهم أجمعين، وسلك بنا مَنَاهِجَهُمُ الْمَرْضِيَّةَ، والحمد لله، وَسَلَامٌ على عباده الذين اصطفى/ وصلى الله على سَيِّدِنَا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً لقد كَانَ في قصصهم عبرة ما كَانَ حديثاً يُفْتَرَى⁴.

• تنزيل الترغيب في الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم من خلال النظر في سيرته وهو من الاسقاطات الشخصية للإمام الثعالبي.

¹ «تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن» (2/ 268)

² «تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن» (3/ 77)

³ «تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن» (3/ 86).

⁴ «تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن» (3/ 357).

- وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ الحج 64 قوله: فَتُصْبِحُ عبارة عن استعجالها إثر نزول الماء وروي عن عكرمة أنه قال: هذا لا يكون إلا ب «مكة» و «تهامة». قال ع : ومعنى هذا أنه أخذ قوله: فَتُصْبِحُ مقصوداً به صباح ليلة المطر، وذهب إلى أَنَّ ذلك الاخضرار في سائر البلاد يتأخر. قال ع : وقد شاهدتُ هذا في السُّوس الأقصى، نزل المطر ليلاً بعد قَحْطٍ، وأصبحت تلك الأرض الرملة التي تسفها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف دقيق.

قلت: وقد شاهدتُ أنا ذلك بصحراء سواكن بالمشرق، وهي في حكم مكة إلا أَنَّ البحر قد حال بينهما وذلك أَنَّ التعدية من جده إلى «سواكن» مقدار يومين في البحر أو أقل بالريح المعتدلة، وكان ذلك في أوّل الخريف، وأجرى الله العادة أَنَّ أمطار تلك البلاد تكون بالخريف فقط، هذا هو الغالب، ولمّا شاهدتُ ذلك تذكرتُ هذه الآية الكريمة، فسبحان الله ما أعظم قدرته! واللطيف: الْمُحَكِّمُ للأمور برفق¹.

• وهذا تنزيل الترغيب الى تدبر دلائل قدرة المولى وآياته الله الكونية .

- «قلت: وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ النور 21، ما يردع العاقل عن الاشتغال بغيره، ويوجب له الاهتمام بإصلاح نفسه قبل هجوم مَنِيَّتِهِ وَخُلُولِ رَمْسِهِ»².

• وهذا تنزيل في الترهيب من الاشتغال بأعراض المسلمين.

- «﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3)﴾ الصف 03. واختُلِفَ في السبب الذي نزلت فيه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ فقال ابن عباس وغيره: نزلت بسبب قَوْمٍ قالوا: لَوْ عَلِمْنَا أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَسَارَعْنَا إِلَيْهِ، ففرضَ اللَّهُ الجهادَ وأَعْلَمَهُمْ بِفَضْلِهِ وَأَنَّهُ يُحِبُّ الْمُقَاتِلِينَ في سبيله كالبنين المَرْصُوصِ، فَكَرِهَهُ قَوْمٌ منهم، وفَرُّوا يَوْمَ الْغَزْوِ فَعَاتَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بهذه الآية، وقال قتادة والضحاك: نزلت بسبب جماعة من شباب المسلمين كانوا يَتَحَدَّثُونَ عن أنفسهم في الغزو بما لم يفعلوا، قال ع: وَحُكِّمَ هذه الآية باقٍ غَابِرِ الدهرِ، وكلَّ مَنْ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ فهو مَقْفُوتُ الكلام، والقولُ الأوَّلُ يَتَرَجَّحُ بِمَا يَأْتِي [من أمرِ الجهادِ والقتالِ، والمَقْتُ البغضُ، من أجل ذنبٍ، أو رِيبةٍ، أو دناءة يصنعها الممقوت، وقول المرء ما لا يفعل مُوجِبٌ مَقْتِ اللَّهِ تَعَالَى، ولذلك فَرَّ كَثِيرٌ من العلماء عَنِ الْوَعْظِ والتذكيرِ وأَثَرُوا السكوتَ،- قلت:- وهذا بحسبِ فِقْهِهِ

¹ «تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن» (4/ 135).

² «تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن» (4/ 176).

الحالِ إِنْ وَجَدَ الْإِنْسَانُ مَنْ يَكْفِيهِ هَذِهِ الْمَثُونَةُ فِي وَقْتِهِ، فَقَدْ يَسْعُهُ السُّكُوتُ وَإِلَّا فَلَا يَسْعُهُ¹.

• وهذا أيضا فيه ترغيب الدعاة والعلماء في نشر رسالة الإسلام التي يحملونها وترهيبهم من كتمها ما لم يوجد من يتصدى لذلك.

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَزُونَ بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ البقرة (174).

وهذه الآية وإن كانت نزلت في الأحزاب، فإنها تناولت من علماء المسلمين من كتم الحق مختاراً لذلك بسبب دُنْيَا يَصِيغُهَا، وفي ذكر البَطْنِ تنبيهٌ على مذمتهم بأنهم باعوا آخرتهم بحظيهم من المطعم الذي لا خَطَرَ لَهُ، وعلى هُجَّتِهِمْ بطاعة بُطُونِهِمْ، قال الرَّبِّيعُ وغيره: سعى مأكولهم ناراً لأنه يؤول بهم إلى النار، وقيل: يأكلون النار في جَهَنَّمَ حقيقة².

ت: وينبغي لأهل العلم التنزه عن أخذ شيء من المتعلمين على تعليم العلم، بل يلتبسون الأجبر من الله عز وجل. ترهيب العلماء عن تقاضي الأجرة في نشر العلم.

- ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ الأنعام (125) وقوله سبحانه: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ هذه الآية نزلت بمكة، أمر عليه السلام أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطُّف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة³.

• الترغيب إلى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

- ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ الأنبياء (01)، ت: أنَّهَا الْأَخْ أَشْعَرُ قلبك مَهَابَةٌ رَبِّكَ، فالإيه مآلك وتأهب للقدوم عليه فقد آن ارتحالكَ أنت في سكرة لذاتك وغشية شهواتك وإغماء غفلاتك ومقراض الفناء يعمل في ثوب حياتك ويفصل أجزاء عمرك جزءاً جزءاً في سائر ساعاتك كل نفس من أنفاسك جزءاً منفصل من جملة ذاتك وبذهاب الأجزاء تذهبُ الجملة، أنت جملة تؤخذ، أحادها وأبعاضها، إلى أن تستوفي سائرها عساكر الأفضية، والأقدار مُحْدَقَةٌ بأسوار الإعمار تهدمها بمعاول الليل والنهار فلو أضاء لنا مصباحُ الاعتبار لم يبقَ لنا في جميع أوقاتنا سكونٌ ولا قرار⁴.

• وهذا التنزيل فيه ترهيب من الغفلة عن الموت والاستعداد للرحيل واستشعار يوم القيامة.

¹ «تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن» (424 / 5)

² «تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن» (361 / 1)

³ «تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن» (447 / 3)

⁴ «تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن» (80 / 4).

- ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ الأحقاف (35).

وقوله: وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ معناه: وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ عَذَاباً فَإِنَّهُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ، وَلَا تَسْتَطِيعُ تَعْمِيرُهُمْ فِي هَذِهِ النِّعْمَةِ فَإِنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَلْبُثُوا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَاعَةً لِاحْتِقَارِهِمْ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُنْقَضِيَّ مِنَ الزَّمَانِ يَصِيرُ عَدَمًا.

ت: وإذا علمت- أَيْهَا الْأَخ- أَنَّ الدُّنْيَا أَضْغَاثُ أَخْلَامٍ، كَانَ مِنَ الْحَزْمِ اشْتَغَالُكَ الْآنَ بِتَحْصِيلِ الزَّادِ لِلْمَعَادِ، وَحِفْظِ الْحَوَاسِ، وَمِرَاعَاةِ الْأَنْفَاسِ، وَمِرَاقَبَةِ مَوْلَاكَ، فَاتَّخِذْهُ صَاحِبًا، وَذَرِ النَّاسَ جَانِبًا¹.

• وهذا تنزيل الترهيب في الحذر من الاغترار بالدنيا والاشتغال بها والبقاء فيها والترغيب في تحصيل الزاد الأخروي وصحبة الله عز وجل.

- وقوله تعالى: ﴿فَافْرُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ المزل (20)، هو أَمْرٌ نَدْبٍ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ، وَقَالَ جَمَاعَةٌ: هُوَ فَرَضٌ لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَوْ خَمْسِينَ آيَةً، وَقَالَ الْحَسَنُ وَابْنُ سِيرِينَ: قِيَامُ اللَّيْلِ فَرَضٌ وَلَوْ قَدْرُ حَلَبٍ شَاةٍ، إِلَّا أَنَّ الْحَسَنَ قَالَ: مَنْ قَرَأَ مِائَةَ آيَةٍ لَمْ يُحَاجَّهُ الْقُرْآنُ وَاسْتَحْسَنَ هَذَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ قَالَ بَعْضُهُمْ: وَالرَّكْعَتَانِ بَعْدَ الْعِشَاءِ مَعَ الْوُتْرِ دَاخِلَتَانِ فِي امْتِنَالِ هَذَا الْأَمْرِ وَمِنْ زَادَ زَادَهُ اللَّهُ ثَوَابًا، ت: يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ الْمُبَادَرَةَ إِلَى تَحْصِيلِ الْخَيْرَاتِ قَبْلَ هُجُومِ صَوْلَةِ الْمَمَاتِ².

• وهو إسقاط الترغيب في صلاة قيام الليل والتحصيل في الدنيا بالنوافل وقراءة القرآن.

الخاتمة

وفي ختام هذا العمل نخلص إلى ما يلي:

- أن الإمام الثعالبي من العلماء الجزائريين أصحاب النفس العميق في علوم القرآن والسنة.

- أن تفسير الجواهر الحسان من التفاسير التي أضافت إلى الخزانة العلمية نوعاً معيناً من التفاسير، حيث انتهج فيه صاحبه مسائل وطرق عديدة، ومن ذلك الاستشهاد بالأحاديث النبوية، والاعتماد على من سبقه من علماء الشأن المتقدمين والمتأخرين، وتنزيله للعديد من المسائل في تفسيره على الواقع الذي يعيشه إذاك.

- نستطيع أن نصف معظم إسقاطات الإمام الثعالبي في الباب العقدي المتمثل في الترهيب من الآخرة والأخلاق المذمومة والقيامة ووعيدها والترغيب في والعمل الصالح والجنة ونعيمها.

¹ «تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن» (5/ 225).

² «تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن» (5/ 506).

- كما أوصي الباحثين أن يهتموا بتراث هذا العالم الجليل بتحقيق مالم يتحقق من أعماله ومخطوطاته حتى ترى النور، ويستفيد منها أهل هذا الزمان كونها تعد استقراء في تاريخ الجزائر بذكر بعض العادات والعبادات التي كانت في زمن أجدادنا والاستفادة منها.

المصادر والمراجع

- آراء الشيخ عبد الرحمن الثعالبي الاعتقادية، من خلال تفسيره الجواهر الحسان، رسالة ماجستير في العقيدة، علي بن يحيى كعي، إشراف: شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.
- تاريخ الجزائر العام، لعبد الرحمن الجيلالي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، نقلاً عن: علي كعي، آراء الثعالبي الاعتقادية.
- التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، محمد بن ميمون الجزائري، تقديم: محمد بن عبد الكريم، ط2، 1981م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، دراسة وتطبيق لعبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، ط 01، 2007م، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم .
- جمهرة اللغة لابن دريد.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وآخرون، الطبعة الأولى، 1418هـ، 1997م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، للدكتور عبد المجيد النجار
- شجرة النور الزكية، محمد ابن سالم مخلوف، تعليق عبد المجيد خيالي، الطبعة الأولى، 1424 هـ - 2003 م، دار الكتب العلمية، لبنان.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين السخاوي، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، لبنان.
- غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد، فهرست مرويات الثعالبي، تحقيق: محمد شايب شريف، الطبعة الأولى، 1426هـ، 2005م، دار ابن حزم، بيروت لبنان.
- لسان العرب لابن منظور .
- معجم المؤلفين، عمر بن كحالة الدمشقي، مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان.
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس .
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، للتنبكي، تقديم: الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، الطبعة الثانية، 2000م، دار الكاتب، طرابلس، ليبيا.

تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - من خلال تفسيريه العذب النмир وأضواء البيان - دراسة تحليلية مقارنة -

د/ حمدان بن لافي بن جابر العنزي

قسم الدراسات الإسلامية - جامعة الحدود الشمالية - المملكة العربية السعودية

hmdanlafee@hotmail.com



ملخص

يهدف البحث إلى التعرف على موضوع تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - من خلال تفسيريه العذب النмир وأضواء البيان.

والمنهج الذي سلكه الباحث في البحث المنهج التحليلي المقارن.

واشتمل البحث على ثلاثة مباحث، المبحث الأول: دراسة تعريفية لمعنى تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، وبالشخص محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله -، والمبحث الثاني: الملامح العامة لمنهج الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - في تنزيل الآيات على الواقع، والمبحث الثالث: تنزيل الآيات على الواقع بين كتابي أضواء البيان والعذب النмир.

ومن نتائج البحث: أن الملامح العامة لمنهج الشنقيطي رحمه الله في مسألة تنزيل الآيات على الواقع تتمثل في: إعمال قاعدة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وسلوكه أسلوب التصريح المباشر وأسلوب التلميح في طريقة تنزيل الآيات على الواقع، وتنوع الموضوعات والقضايا التي نزل عليها الآيات على الواقع حيث شملت: القضايا العقدية، وأسباب النصر وقضايا الجهاد في سبيل الله، وقضايا الآداب الاجتماعية وقضايا الوعظ والتذكير بالله، وقضايا في الإعجاز العلمي، وقضايا في الإعجاز التشريعي، ونقله تنزيل غيره على الآية، وغلب على تطبيقاته العموم؛ فهو يشير فيها إلى أحوال الناس العامة؛ ويربط بينها وبين معاني الآيات التي يفسرها، وأن الغالب على التطبيقات التي عني فيها الشنقيطي بتنزيل الآيات على الواقع هي من قبيل مخالفة الواقع لمعنى الآية، وعناية الشنقيطي رحمه الله في تنزيل الآيات على الواقع بتوجيه القارئ ونصحه وإرشاده ودعوته لتدبر الآيات من جهة، والتأمل في نفسه وحاله من جهة أخرى، والاستدلال بالواقع في الترجيح في مسألة خلافية.

ومن توصيات البحث: العناية بموضوع تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين من قبل الباحثين.

الكلمات المفتاحية: الواقع - تنزيل الآيات - الشنقيطي.

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أما بعد:

فقد عني العلماء قديماً وحديثاً بتدبر القرآن العظيم وتأمل آياته، والوقوف عند أحكامه وتوجيهاته، واستنباط العلاقة بين الواقع وحكمه وهداياته⁽¹⁾.

وكان من أولئك العلماء: الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- الذي شارك في هذا المجال بنصيب وافر؛ فقد كان حريصاً على التصدي لقضايا العصر ومشكلات الأمة الإسلامية بل مشكلات العالم أجمع، يلتمس لها الحل في ضوء الهدي القرآني ولا أدل على ذلك من قوله: "لو عملت الدنيا بأجمعها بهذا الكتاب الكريم لأزال جميع مشاكلها"⁽²⁾.

لذا رأيتُ الكتابة عن هذا الموضوع في هذا البحث المختصر الذي جعلت عنوانه "تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ محمد الأمين الشنقيطي-رحمه الله- من خلال تفسيره العذب النмир وأضواء البيان دراسة تحليلية مقارنة"؛ كأحد البحوث المقدمة إلى الملتقى الدولي الثامن: جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع، والذي ينظمه قسم أصول الدين بالتعاون مع مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية، معهد العلوم الإسلامية، جامعة الوادي في جمهورية الجزائر، وقد وقع الاختيار على العلامة محمد الأمين الشنقيطي-رحمه الله- باعتبار بلدة النشأة، وهي مورتانيا، وهي من بلاد الغرب الإسلامي.

فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله بريئان.

أهمية البحث وأسباب اختياره:

1- أهمية موضوع تنزيل الآيات على الواقع في ربط الناس بكلام ربهم؛ إذ يعد أحد أوجه العظمة لهذا الكتاب الكريم.

2- إبراز موضوع تنزيل الآيات على الواقع عند العلامة الشنقيطي - رحمه الله - لمكانته رحمه الله كمفسر، ولاشتمال كتابيه العذب النмир وأضواء البيان على مناقشة لكثير من القضايا المعاصرة، يلتمس لها الشيخ - رحمه الله - الحل في ضوء الهدي القرآني، ويصف

(1) تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم(ص22).

(2) العذب النмир (532/2).

العلاج الناجح لها، ويبين المخرج منها.

3- إن هذا الموضوع لم يجمع في مؤلف مستقل أو دراسة علمية مستقلة - فيما أعلم -.

4- إن الكتابة في تنزيل الآيات على الواقع توصية سابقة من باحثين سابقين.

حيث جاء في دراسة تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين للدكتور عبد العزيز الضامر ما نصه: "فإن هذا الموضوع ما زال بكرةً طرياً، يحتاج إلى مزيد من العناية والاهتمام، وحسبي أنني قد أتيت على بعض أطرافه ومسائله، ولعل الغد القريب يكشف لنا يراعةً تظهر شيئاً من مكنوناته"⁽¹⁾.

وجاء في دراسة تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم للدكتور يحيى زمزمي ما نصه: "أوصي الباحثين في مجال القرآن وعلومه أن يُعنوا بمسألة تنزيل الآيات على الواقع: بحثاً وتأصيلاً وجمعاً وتحريراً، وأوصي الكليات والأقسام المعنية بالقرآن وعلومه في الجامعات وغيرها بإعداد مشروعات علمية يشترك فيها الأساتذة والطلاب تعنى بجمع أقوال المفسرين في تنزيل الآيات على الواقع ودراستها وتصنيفها موضوعياً وتاريخياً"⁽²⁾.

أهداف البحث: يهدف البحث إلى تحقيق الأهداف التالية بمشيئة الله:

1- التعرف على المراد تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، وطريقة المفسرين في تنزيل الآيات على الواقع.

2- التعرف على أبرز معالم المنهج الذي سار عليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في تنزيله الآيات على الواقع.

3- التعرف على أوجه الاتفاق والاختلاف في ذكر قضايا تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- بين كتابي أضواء البيان والعذب النمير.

أسئلة البحث:

1- ما المراد بتنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين؟، وما طريقة المفسرين في تنزيل الآيات على الواقع؟

2- ما أبرز معالم المنهج الذي سار عليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في تنزيله الآيات على الواقع؟

3- ما أوجه الاتفاق والاختلاف في ذكر قضايا تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- بين كتابي أضواء البيان والعذب النمير؟.

(1) تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين (ص190).

(2) تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم (ص57).

الدراسات السابقة: لم أقف على دراسة علمية تناولت موضوع تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- من خلال تفسيريه العذب النмир وأضواء البيان دراسة تحليلية مقارنة، على سبيل الاستقلال للموضوع كما سرت عليه في هذا البحث، ويمكن تقسيم الدراسات التي لها علاقة بموضوع بحثي إلى قسمين:

القسم الأول: الدراسات التي تناولت موضوع تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين. ومن هذه الدراسات ما يلي:

الدراسة الأولى : تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين -دراسة وتطبيق- تأليف د. عبد العزيز الضامر - مطبوعة- وهو في الأصل رسالة علمية تقدم بها المؤلف لنيل درجة الماجستير، من قسم الكتاب والسنة، جامعة أم القرى.

وقد اشتملت على دراسة لموضوع تنزيل الآيات على الواقع من خلال تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، ومجالس التذكير لعبد الحميد باديس.

الدراسة الثانية: بعنوان: تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم تأليف د. يحيى زمزمي. بحث محكم منشور في مجلة البحوث والدراسات القرآنية، العدد (4)، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة: 1428هـ.

الدراسة الثالثة: تنزيل الآيات على الواقع في كتاب الخواطر للشيخ محمد متولي الشعراوي-دراسة ونقد-، إعداد: هند بنت سعد الفوزان، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الدراسات الإسلامية، تخصص التفسير والحديث، قسم الثقافة الإسلامية، كلية التربية، جامعة الملك سعود، عام 1437هـ/1438هـ.

وكل هذه الدراسات لم تتناول موضوع تنزيل الآيات على عند الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في كتاب العذب النмир من مجالس الشنقيطي في التفسير.

القسم الثاني: الدراسات التي تناولت موضوع تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-.

والذي وقفت عليه من هذه الدراسات دراسة واحدة بعنوان: التجديد التفسيري وتنزيل الآيات علي الواقع عند الأمين الشنقيطي (ت1393هـ)، للباحث: عبدالله محمد يوسف محمود، مجلة كلية الآداب، جامعة سوهاج، ع45، ج2، 2017م.

ويمكن إجمال الفرق بين هذه الدراسة وبين الدراسة التي قمتُ بها من خلال الآتي:

أولاً: إن هذه الدراسة لم تكن شاملة لجميع القضايا التي ذكرها الشيخ الأمين الشنقيطي -رحمه الله-؛ حيث حصرها الباحث في خمس قضايا هي قضايا علوم القرآن، والقضايا العقدية، والقضايا التشريعية، والقضايا الاقتصادية، والقضايا العقدية، واكتفى

بمثال واحد على كل قضية وأكثر هذه الأمثلة من كتاب أضواء البيان، بينما قمتُ في هذه الدراسة باستيعاب جميع الأمثلة التي ذكرها الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في كتابي العذب النمير وأضواء البيان.

ثانياً: لم يتعرض الباحث في الدراسة السابقة لمنهج الشيخ الأمين الشنقيطي-رحمه الله- في تنزيل الآيات على الواقع، بينما تمَّ في هذه الدراسة إفراده بمبحث مستقل، وهو المبحث الثاني من الدراسة.

ثالثاً: لم يتعرض الباحث في الدراسة السابقة لأوجه الاتفاق والاختلاف في ذكر قضايا تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- بين كتابي أضواء البيان والعذب النمير، بينما تمَّ في هذه الدراسة إفراده بمبحث مستقل، وهو المبحث الثالث من هذه الدراسة.

منهج البحث: اتبعت في هذا البحث المنهج التحليلي المقارن.

خطة البحث: وقد قسمت هذا البحث إلى، مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهارس علمية، على النحو الآتي:

- المقدمة: وتتضمن أهمية البحث وسبب اختياره، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطة البحث، وإجراءات البحث.

- المبحث الأول: دراسة تعريفية لمعنى تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، وبالشيخ محمد الأمين الشنقيطي-رحمه الله-.

- المبحث الثاني: الملامح العامة لمنهج الشيخ محمد الأمين الشنقيطي-رحمه الله- في تنزيل الآيات على الواقع.

- المبحث الثالث: تنزيل الآيات على الواقع بين كتابي أضواء البيان والعذب النمير.

- الخاتمة.

- فهرس المصادر والمراجع.

- فهرس الموضوعات.

إجراءات البحث:

1- جمع المادة العلمية لهذا البحث ؛ وذلك باستقراء كتابي العذب النمير وأضواء البيان واستخراج المواضع التي قام الشيخ رحمه الله بتنزيل الآيات فيها على الواقع وقد بلغت (66) موضعاً، ثم تقسيم تلك المواضع إلى موضوعات وقضايا، واستنباط الملامح العامة لمنهج الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في تنزيل الآيات على الواقع من تلك المواضع.

2- إجراء مقارنة في موضوع تنزيل الآيات على الواقع بين ما ذكره العلامة الشنقيطي- رحمه الله- في العذب النمير وكتاب أضواء البيان، وذلك بذكر أوجه الاتفاق والاختلاف بين ما

ذكره الشيخ -رحمه الله- من آيات قام بتنزيل الواقع عليها في أضواء البيان والعذب النмир.
3- عزو الآيات وترقيمها ؛ بذكر اسم السورة مع رقم الآية ووضعها بين معكوفين وذلك بعد نهاية الآية المنقولة.

4- تخرج الأحاديث الواردة في البحث، ونقل أقوال العلماء في الحكم عليها تصحيحاً أو تضعيفاً ؛ إذا كان الحديث في غير الصحيحين.

5- ختم البحث بخاتمة ذكرت فيها أبرز النتائج والتوصيات التي توصلت إليها.

6- تزويد البحث بالفهارس الآتية: فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

المبحث الأول: دراسة تعريفية لمعنى تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين،
وبالشيخ محمد الأمين الشنقيطي-رحمه الله-

أولاً: تعريف تنزيل الآيات على الواقع، وطريقة المفسرين في إنزال الآيات على الواقع.
المراد بها: مقابلة الأحداث المعاصرة في زمن المفسر، وإدخالها فيما يناسبها من الآيات القرآنية⁽¹⁾.

وهذه المقابلة يمكن أن تكون بموافقة الواقعة لنص الآية كالتطبيق العملي له، أو بمخالفة الواقعة لتوجيه الآية والإعراض عنها⁽²⁾.

ولقد عني جمع من المفسرين - قديماً وحديثاً - بذكر أمثلة ونماذج تطبيقية يقرنون فيها بين الآيات القرآنية وبعض الوقائع المعاصرة لهم ؛ إشارة منهم إلى أن معنى الآية ينطبق على تلك الواقعة، أو أن ما حدث في الواقع يخالف التوجيه القرآني.

ومن خلال ما وقفت عليه من نصوص لأهل العلم في تنزيل الآيات على الواقع فإن لهم مسلكين في ذلك:

المسلك الأول: أن يكون إنزال الآية على الواقع من كلام المفسر نفسه.

وهذا المسلك هو الذي سار عليه جُل المفسرين، والأمثلة على ذلك من كلام المفسرين كثيرة جداً⁽³⁾.

وسأورد مثلاً واحداً يؤيد ما ذكرته ؛ وهو ما ذكره الألوسي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْرِكُ زِينَتُهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور:31] فقال - رحمه الله -:- "ثم اعلم أن عندي مما يلحق

(1) ينظر: تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم (ص25).

(2) ينظر: تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين (ص33)، وتنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم (ص25)

(3) ينظر على سبيل المثال: التفسير الكبير للرازي (34/16)، والسراج المنير (136/3)، والتحرير والتنوير (28/5)، وتفسير سورة البقرة لابن عثيمين (88/3).

بالزينة المنهي عن إبدائها، ما يلبسه أكثر مترفات النساء في زماننا فوق ثيابهن ويتسترن به إذا خرجن من بيوتهن، وهو غطاء منسوج من حرير ذي عدة ألوان، وفيه من النقوش الذهبية أو الفضية ما يبهير العيون، وأرى أن تمكين أزواجهن ونحوهم لهن من الخروج بذلك، ومشيهن به بين الأجانب من قلة الغيرة، وقد عمت البلوى بذلك، ومثله ما عمت به البلوى أيضاً من عدم احتجاب أكثر النساء من إخوان بعولتهن، وعدم مبالاة بعولتهن بذلك، وكثيراً ما يأمرورهن به، وقد تحتجب المرأة منهم بعد الدخول أياماً إلى أن يعطوها شيئاً من الحلي ونحوه فتبدو لهم، ولا تحتجب منهم بعد، وكل ذلك مما لم يأذن به الله تعالى ورسوله -ﷺ- وأمثال ذلك كثير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" (1).

المسلك الثاني: أن يكون إنزال الآية على الواقع ليس من كلام المفسر، وإنما هو من كلام مفسر آخر قام بتنزيل الواقع عليها، فينقله عنه مستشهداً به.

وهذا المسلك اعتنى به الشيخ عبد الرحمن الدوسري -رحمه الله -.

يقول د. محمد الربيعه -وفقه الله:- " مما يؤيد عناية الدوسري -رحمه الله -بتطبيق الآيات وإنزال الواقع عليها عنايته بإيراد أقوال بعض المفسرين في ذلك، خاصة المتأخرين منهم: كمحمد عبده، وتلميذه محمد رشيد رضا، أما من المتقدمين فأكثر من أورد أقوالهم في ذلك القرطبي-رحمه الله-" (2).

وقد وقفت على موضع واحد نقل فيه الشنقيطي -رحمه الله- كلام غيره في تنزيل الآية على الواقع من غير ذكر القائل، وذلك عند بيان الحكمة من تحريم لحم الميتة والدم ولحم الخنزير في قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ ﴾ [الأنعام: 145] (3).

ثانياً: ترجمة موجزة للشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله :-

هو محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، ولد بمسقط رأسه (شنقيط) أو ما يعرف الآن بـ (جمهورية موريتانيا الإسلامية) عام (1325هـ)، ثم رحل إلى بلاد الحجاز في أول خروج له من بلاده ؛ لأداء حجة الإسلام عام (1367هـ).

وكان خروجه آنذاك على نية رجوعه إلى بلاده بعد فراغه من أداء مناسك الحج ؛ غير أن الله تعالى قَدَّرَ له المقام بمدينة رسول الله -ﷺ- حيث اشتغل هناك بالتدريس في كل من المسجد النبوي، ثم بالجامعة الإسلامية منذ افتتاحها عام (1381هـ) كما تنقل بين كل من

(1) روح المعاني (18/146).

(2) منهج الدوسري في تفسيره صفوة الآثار والمفاهيم (ص480).

(3) وسيأتي ذكره في موضعه من هذا البحث

الرياض العاصمة مدرساً بكلياتها ومعاهدها العلمية المختلفة، وكذا مكة المكرمة حيث كان عضواً مؤسساً برابطة العالم الإسلامي، وداعية بارزاً في مؤتمر الحج السنوي.

وذلك فضلاً عن رحلته للدعوة في عشرة من الأقطار الإفريقية التي انتهت ببلاده موريتانيا، حيث كان على رأس البعثة الصيفية التي تنظمها الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في إطار برنامجها السنوي الذي تُكَلَّفُ به كبار العلماء تبعاً في شتى أنحاء العالم.

وبعد عمر حافل بالعطاء العلمي قارب ثمانية وستين عاماً، توزعت بين القضاء والإفتاء ببلاده، ثم التدريس والدعوة في المملكة العربية السعودية، حَطَّ الشنقيطي - رحمه الله - عصا الترحال ليلقى ربه سبحانه عقب أداء مناسك حجه الأخير عام (1393هـ)، وليدفن بمقبرة (المعلّاة)، ببلد الله الحرام مكة المكرمة التي بدأ مقامه بها، ثم انتهت حياته فيها.

وقد ورّث علماً جماً في مصنفات عديدة منها: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ودفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب، وآداب البحث والمناظرة - رحمه الله -رحمة واسعة⁽¹⁾.

المبحث الثاني: الملامح العامة لمنهج الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله - في تنزيل الآيات على الواقع

من خلال النظر إلى النماذج التطبيقية -التي وقفت عليها من كلام الشنقيطي -رحمه الله-، يمكن أن تستخلص الملامح العامة لمنهجه في مسألة تنزيل الآيات على الواقع من خلال الآتي:

1- إعمال قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) التي اعتمد عليها أكثر من استخدموا التنزيل⁽²⁾.

ومن ذلك ما ذكره في معرض كلامه في التحذير من الرشوة عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَإِثْمِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ يَأْخُذُوا﴾ [الأعراف:169]، فقال -رحمه الله - : " وهذه الآية وإن كانت في اليهود فكل من فعل فعلهم فهو أخوهم يناله من وعيدها وعذابها ما نالهم، فيجب على المسلم إذا كان في منصب يوصل فيه الحق لصاحبه بإنابة من بسط الله يده أن لا يغير أحكام الله ويأخذ الرُّشا بدلاً منها، فإنه إن أخذ الرشوة وغيرَ وبدَّل فهو أخو اليهود " ⁽³⁾.

2- إنكاره على من فصل القرآن عن الواقع.

ومن ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ قَاتِبٌ وَهُوَ تُفَسَّرُ بِكُمْ تَرْحَمُونَ

﴾ [الأنعام:155].

(1) ينظر في ترجمته: الشنقيطي ومنهجه في التفسير (ص16)، ومقدمة العذب النмир (19/1)، د. خالد السبت.

(2) تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين (ص141، 142).

(3) العذب النмир (299/4).

فقال -رحمه الله :- "ومن غرائب الأشياء وعجائبها أن أكثر أهل المعمورة ممن يؤمنون بأنه كلام الله الذي أنزله على رسوله يطلبون الهدى في غيره، ويطلبون التشريع والتحليلات والتحريمات من غيره !! فهذا من الغرائب ! إذ كيف يعدل عاقل عن كلام خالق السماوات والأرض؟ فهو النور المبين، والحبل المتين الذي بيّنه سيد الخلق ﷺ بسنته الصحيحة، يعدل عن هذا زاعماً أنه ليس بصالح لهذا الوقت، وأن الحياة تطورت بعد نزوله تطوراً لا يلائم هذا القرآن !! ومن أنزل القرآن عالم بما يحدث من التطورات، وما يكون، فجعل القرآن ديناً خالداً لا ينسخه دين، باق إلى يوم القيامة، وهو عالم بما ينزل وما يحدث في الدنيا، بل لو عملت الدنيا بأجمعها بهذا الكتاب الكريم لأزال جميع مشاكلها، وأزال عنها كل ضرر، ونظّم علاقاتها على الوجوه الكاملة، وأراها الطريق الواضحة التي تحصل بها على خيري الدنيا والآخرة. وهودائماً يحث على التقدم والرقى في جميع ميادين الحياة؛ لأنه كلام رب العالمين"⁽¹⁾.

3- بيانه صلاحية القرآن لكل زمان ومكان.

قال -رحمه الله :- "فاعلموا أيها الإخوان أن هذا القرآن العظيم هو كلام رب العالمين ونوره المبين الذي أنزله على خلقه ليستضيئوا بنوره، وقد يشير إلى جميع الأشياء ولا تكون في الدنيا مشكلة إلا أشار إليها"⁽²⁾، وقال أيضاً - رحمه الله :- "ولا تأتي بلية ولا إلحاد يتجدد في الزمان إلا وهو مشار إليه في القرآن"⁽³⁾.

4- أنه سلك في طريقة تنزيل الآيات على الواقع أسلوبين رئيسيين:

أ- أسلوب التصريح المباشر: وذلك من خلال العبارات التي استخدمها في التطبيق مثل: قوله: "وهي مشكلة واقعة الآن"⁽⁴⁾، وقوله: "وهذه النزعة متجددة الآن"⁽⁵⁾، وقوله: "وله الأثر الفعال الآن"⁽⁶⁾، وقوله: "وأتباع هؤلاء كثير في هذا الزمان"⁽⁷⁾، وقوله: "لاسيما في هذا الزمن"⁽⁸⁾، وقوله: "في الأحوال الراهنة"⁽⁹⁾، وقوله: "وهذه مشكلة عظيمة في أقطار وقوله: "ومن المشاهد"⁽¹¹⁾، وقوله: "وهذا كالمشاهد"⁽¹²⁾، وقوله: "ومن نظر في إحصائيات"

(1) العذب النمير (532/2).

(2) العذب النمير (391/4).

(3) العذب النمير (420/3).

(4) العذب النمير (82/5).

(5) العذب النمير (309/3).

(6) العذب النمير (447/3).

(7) العذب النمير (309/3).

(8) العذب النمير (597/4).

(9) العذب النمير (446/3).

(10) العذب النمير (85/5).

(11) العذب النمير (183/3).

(12) العذب النمير (378/2).

(13) العذب النمير (330/3).

ب- أسلوب التلميح دون التصريح:

ومن ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُؤُوا الْقُرْآنَ حَتَّىٰ يَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَمَا يَتْلُو مِنْهُ﴾ [الأنعام:151] فقال -رحمه الله -: " واعلموا أننا نذكر أشياء في ضوء آيات القرآن عامة ، على سبيل النصيحة والإرشاد لعموم إخواننا المسلمين ، في ضوء القرآن العظيم ، من غير أن نقصد التعريض بشخص معين ، ولا بجهة معينة ؛ وإذاً فإننا نعلم أن من الفواحش الباطنة أكل الرُّشَا" (1).

5- أنه يشرع في تفسير الآية ثم يعقبه بالتنزيل إن كان فيه ما يناسب التنزيل، ويسهب في الاستطراد والتفصيل في هذه الواقعة.

ومثال ذلك: ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُؤُوا الْقُرْآنَ حَتَّىٰ يَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَمَا يَتْلُو مِنْهُ﴾ [الأنعام:52] قال - رحمه الله -: " وقوله: ﴿يَتْلُو مِنْهُ﴾... صفة الوجه من صفات الله جلّ وعلا أثبتنا لنفسه، وأثنى على هذه الصفة ثناء خاصاً لم يثن به على صفة غيرها حيث قال: ﴿وَبَيْنَ يَدَيْهِ رُوحُ الْجَنَّةِ وَالْإِكْرَارِ﴾ [الرحمن:27]، ونحن في هذه الدروس القرآنية مراراً نقول لكم: إن الطريقة السليمة التي إن متم ولقيتم الله عليها في هذا المأزق الذي ضلّ فيه الآلاف فإنكم تلقون ربكم بعقيدة صحيحة في هذا الباب أنها مركزة على ثلاثة أسس، كل واحد منها في ضوء الأسس الثلاثة لقيه سالماً، ومن أخلّ بواحد منها دخل في مهواة، قد لا يتخلص منها... ثم أفاض - رحمه الله - في بيان هذه الأسس" (2).

6- نقله تنزيل غيره على الآية.

وقد تقدم أن الذي وقفت عليه هو موضع واحد نقل فيه الشنقيطي - رحمه الله - كلام غيره في تنزيل الآية على الواقع من غير ذكر القائل، واكتفائه بقوله: هكذا قاله بعضهم ؛ وذلك عند بيان الحكمة من تحريم لحم الميتة والدم ولحم الخنزير في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾ [الأنعام:145] حيث قال -رحمه الله -: " الله - جل وعلا - حرم هذه الأشياء التي هي: الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير. ومعروف أن الله لا يحرم شيئاً إلا للضرر ، فقد يهتدي بعض الناس إلى حكمة هذا الشيء ، وقد يعجز البشر عن إدراكها. فالله -جل وعلا- محيط علمه بكل شيء ، ولا يحرم إلا لحكمة. لا يحرم شيئاً إلا وهو متضمن أضراراً عظيمة ، وهذه الأضرار قد يتحصلها البشر ، وقد يعجز عنها إدراك البشر ؛ لأن علم الخالق- جل وعلا - محيط بكل شيء ، يعلم أشياء يتقاصر عنها فهم البشر، وتحريم هذه الأشياء بعضهم يقول: إنه يفهم علته. وقال بعض العلماء: تحريم الميتة من جهة الطب ؛ لأن الدم الذي يسيل عنها بالذكاة يطيب لحمها

(1) العذب النمير (484/2).

(2) العذب النمير (315/1).

ويصححه ، فإذا ماتت فسد ذلك الدم واختلط في اللحم. بدليل أنك لو فصدت عرقاً من الميتة لا يقطر منه دم، فذلك الدم قد يختلط بذلك اللحم ، واختلاطه به فيه نوع من السلب له . بسبب بعض الأمراض ، ولذا لم يبيحه الله إلا للمضطر. قالوا: لأن شدة حرارة الجوع وألمه وشدته قد يقاوم تلك الأضرار فلا تهلكه ، ولم يبيحه إلا عند الضرورة التي يخاف صاحبها الموت، وزعموا أن تحريم الدم لأنه لا فائدة فيه البتة ، لا يستفيد الإنسان من أكل الدم في جوفه شيئاً ؛ لأنه إما أن (يستقر) في المعدة فيضرها ، ولا يتسرب في العروق ، ولا يستفيد صاحبه منه شيئاً عن طريق الفم، قالوا: وتحريم الخنزير لأن الخنزير قد تكون فيه مضار جدية ، قالوا: ومن نتائج أكله أن صاحبه يصير ديوثاً غالباً، تنزع منه غيره الرجال ، وغيره الإنسانية التي تكون في الرجال ، وهذا كالمشاهد ؛ فإن الذين يأكلون لحم الخنزير لا تكاد تجد فيهم غيره الرجال المعروفة ، كالشهامة المعروفة عند العرب ، فتجد زوجة الرجل تمشي من عنده مع الذكور ، وتنفرد معهم !! هكذا قاله بعضهم، والله تعالى أعلم ⁽¹⁾.

7- ربط الواقع بحال من سلف.

ومن ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: 51] قال -رحمه الله:- " فيجب على كل شاب وعلى مسلم ألا يتمسخر من الإسلام، وأن لا يتخذ الإسلام لهواً ولعباً، وأن لا يسخر من حملة الدين، ولا من هيئات العلماء، وليعلم أن هيئات العلماء هي السمات التي كان عليه السلف الصالح، والصحابة الكرام، والنبي ﷺ، وهو سمات الأنبياء الكرام في ماضي الزمان، هذا هارون - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - من أنبياء سورة الأنعام الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأنعام: 84]. وقال الله لنبينا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيمُهَدْيِهِمْ أَفَرَأَيْتَهُمْ أَفْتَدَهُ﴾ [الأنعام: 90] وهارون من الأنبياء الذين أمر نبينا أن يقتدي بهم، ومن الاقتداء بهم: الاقتداء بسمتهم الكريم لمّا غضب عليه أخوه وَجَدَهُ كَثَّ اللَّحْيَةِ مَعْفَاهَا ⁽²⁾.

8- ضرب أمثلة من الواقع، ومن ذلك:

قوله: "فعلى المسلم أن يعتبر بحرّ النار وبشدة النار، ويضع يده قريباً من حر النار الموجودة الآن حتى يعلم أنه لا قدرة له على حرّها، وأن حرّها أليم شديد" ⁽³⁾.

وقوله: "والله -جلّ وعلا- فعل هذا من العمليات بكل واحد منا، وأنا أؤكد لكم أنه لم يحتج أن يأخذ لأمه غرفة صحية، وأن يُبَنِّجها ويُنومها ويُشَقَّ طبقة بطنها العليا، ثم طبقة بطنها السفلى، ثم ينزع المشيمة التي على الولد، ثم يسلط الأشعة الكهربائية لينظر ماذا

(1) العذب النمير (377/2-379).

(2) العذب النمير (310/3).

(3) العذب النمير (207، 208/3).

يفعل؟! فأطباء جميع الدنيا لو اجتمعوا عن بكرة أبيهم من مشارق الأرض ومغاربها وأرادوا أن يعملوا عملية في جنين رحم امرأة فيستحيل أن يقدروا على أن يعملوا شيئاً حتى يشقوا طبقات بطنها الثلاث" (1).

وقوله: "ومن المُشاهد: أن هذه البلاد (2) نرجوا الله أن يعصمها ويحفظ القائمين عليها ويوفقهم للخير، ويرزقهم بطانة الخير، ويذهب عنهم بطانة السوء، لما كانوا يقطعون يد السارق، ويقيمون حدود الله، كل الإحصائيات العالمية في جميع أقطار الدنيا لا توجد بلاد أقل فيها ارتكاب الجرائم من السرقات ونحوها من أنواع الفجور مثل هذه البلاد، وكل ذلك بفضل الله جل وعلا ثم بفضل تحكيم ذلك الشرع السماوي، فأمرى كما مثلاً مع حضارتها لا يمكن أن تعد فيها جنایات السرقات، وجرائم الأخلاق وغيرها مما يزعمون أنهم في حضارة وتمدن، لما أهملوا تشاريع رب السماوات والأرض كثر فهم الخبث، وكثرت الجنایات" (3).

9- التطبيق العملي في تنزيل الآية الواقع.

ومن ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُتَعَدِّينَ﴾ [الأعراف:55] فقال - رحمه الله - : "ونحن وإنا كنا نعلم أن الإخفاء في الدعاء أفضل من الجهر به وندعو نحن غالباً في هذا المجلس دعاء ظاهراً قصدنا به أن يسمعنا إخواننا ويؤمنوا لنا فنكون مجتمعين على الدعاء في هذا الشهر المبارك، ولو أسررنا الدعاء لما سمعوه ولما آمنوا لنا، والمؤمن أحد الداعيين" (4).

10 - الاستدلال بالواقع في الترجيح في مسألة خلافة.

ومن ذلك ما ذكره في معنى الحمولة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ﴾ [الأنعام:142] قال - رحمه الله - : "أي: وهو الذي أنشأ لكم من الأنعام حمولة: أي: مراكب تحملون عليها أمتعتكم، وتركبون عليها، كالإبل. قال بعض العلماء: وكالبقر في بعض البلاد. وهو صادق؛ لأننا شاهدنا بعض الأقطار يحملون الأحمال الثقيلة على ذكور البقر من بلاد بعيدة إلى بلاد بعيدة، وقد يكون عندهم ذكور البقر يحمل الواحد منهم فوق ما بحمله البعير، ويسافرون عليها من بلاد إلى بلاد، وإن كان بعض علماء المالكية أفتى بأن البقر لا يجوز ركوبه، ولا الحمل عليه، ظناً منهم أن ركوبه والحمل عليه من تكليفه ما لا يطيقه (5)، ونحن شاهدنا في الأيام في بعض الأقطار ذكور البقر تكون معروضة تحمل الأثقال العظيمة من بلاد إلى بلاد رأي العين، وبذلك نعلم أنها داخلة في قوله: ﴿حَمُولَةٌ﴾ أي: ما

(1) العذب النمير (106/3).

(2) يعني المملكة العربية السعودية - حفظها الله بحفظه-.

(3) العذب النمير (183/3).

(4) المصدر السابق (403/3).

(5) ينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم (245/6)، والجامع لأحكام القرآن (277/12).

يحملون عليه أثقالهم كالإبل، وربما دخل البقر في بعض الأقطار"⁽¹⁾.

11 - غالب التطبيقات التي عني فيها الشنقيطي بتنزيل الآيات على الواقع هي من قبيل مخالفة الواقع لمعنى الآية.

ومن ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: 51] قال -رحمه الله -: "... لا يتخذ الدين هُزْوَاً ولعباً ؛ لأن الذين يتخذون الدين هُزْوَاً ولعباً سيجدون غيبَ ذلك. وأتباع هؤلاء كثر في هذا الزمان والعياذ بالله ؛ لأن كل نزعة كفرية تتجدد لها أغصان بعروقها القديمة، وهذه النزعة متجددة الآن تجدداً كثيراً ؛ لأن تجد كثيراً من الشباب في جميع أقطار المعمورة ممن ينتسبون إلى الإسلام يتخذون الدين هزواً ولعباً، ويتمسحون من الذي يصلي، ومن الذي يتسم بسمت الأنبياء، فيعفي ذقنه ولا يحلقه، وربما قلدوا عليه التيس استهزاء واحتقاراً. فهؤلاء ينالهم من وعيد الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعباً بقدر ما ارتكبوا. فيجب على كل مسلم شاباً كان أو غيره أن لا يتخذ الدين هزواً ولعباً، وألا يتخذ الدين لهواً ولعباً، فلا يسخر من الدين ولا يسخر من أهله، ولا يسخر من حملة الدين، ولا من العلماء، ولا من هياتهم. مع أن الذين يسخرون ذوقهم معكوس، وضمايرهم منطمسة؛ لأن هذا الذي يسخرون منه هو الشيء الذي ينبغي وهم في الحلة التي يُسخر منها، كما في أمثال العرب: (رمتي بدائها وانسلت)⁽²⁾ الآن إذا رأيت رجلاً ذقنه مثل ذقني، له لحية بيضاء موفورة لم تقطع منها شعرة، إذا سافر ورآه صبيان المسلمين وشبابهم في الخارج ينظرون إليه نظرة ازدراء واحتقار، كأنه في أعينهم تيس، لا يفهم عن الدنيا، ولا يساير ركب الحضارة، مع أنه في الواقع أن الرجل المعفي ذقنه المتسم بسمه الأنبياء هو الرجل العاقل الآخذ بالسمت الكريم ؛ لأن هذه اللحية هي أعظم ما يتميز به الذكر عن الأنثى، فحلقها والفرار منها فرار من كرم الرجولة وشرف الذكورة إلى أنوثة الخنوثة، يريد أن يتشبه بالأنثى !! وهذا شرف وكرم وجمال في وجهه، وميزة لفحولته وذكورته عن خنوثة الأنثى وضعفها، والرجال الكرام الذين أخذوا كنوز قيصر وكسرى لم يكن واحد منهم يحلق شيئاً من ذقنه، وكذلك سيد الخلق -ﷺ- كان أجمل الناس، وأحسن الناس وجهاً، وأكثر الرجال نساءً، ولحيته كثة معفاة، هي في غاية الجمال والكمال.... ومرادنا بهذا الكلام أن اتخاذ دين الله هزواً ولعباً ولهواً ولعباً انتشر في أقطار الدنيا، ولا سيما من الشباب الذين يَتَسَمَّونَ باسم المسلمين إذا رأوا رجلاً يذهب إلى الصلاة يصلي سخروا منه وهزؤا به ! يظنون أن الكرة رياضة خير من الصلاة. وإذا رأوا رجلاً متسماً بسمت الإسلام، أو عليه سمت الإسلام، أو ينادي باسم الدين يقولون: هذا رجعي، هذا رجل لا يفهم، هذا لا يساير ركب الحضارة !! ويتخذون العلماء، وحملة الدين، والنور السماوي، وتعاليم الدين

(1) العذب النمير (2/334، 335).

(2) مجمع الأمثال (1/286).

يسخرون منها، ويضحكون ويستهزئون فليحذروا من الاستهزاء بدين الله، ومن اتخاذ آيات الله هزواً ولعباً؛ لأن ذلك أمر عظيم عند الله" ⁽¹⁾.

12- تنوع الموضوعات والقضايا التي نزل عليها الآيات حيث شملت الآتي ⁽²⁾:

أ- القضايا العقدية: وهذه القضايا:

الموقف الصحيح من صفات الله عز وجل ⁽³⁾، والتضرع إلى الله تعالى حال الكرب والشدة ⁽⁴⁾، والحكم بغير ما أنزل الله في هذا العصر ⁽⁵⁾، والرد على الطبايعين الذين يزعمون أن المطر لم ينزله خالق وإنما هو أمر طبيعي ⁽⁶⁾، والتصوير وأنه هو سبب أول كفرو وقع في الأرض وأثره البالغ في إفساد الدين والدنيا ⁽⁷⁾، والسماع والرقص والغناء الصوفي ⁽⁸⁾.

ب - قضايا الجهاد في سبيل الله وأسباب النصر: وهذه القضايا:

بيان أحكام الجهاد والغنائم ⁽⁹⁾، وفضل الشهادة في سبيل الله ⁽¹⁰⁾، وفقه المبدأ والغاية من الجهاد في سبيل الله عند الجنود العسكريين ⁽¹¹⁾، وذكر الله هو السلاح الأكبر في ميادين القتال ⁽¹²⁾، وترك التنازع الذي هو سبب الفشل ⁽¹³⁾، وإعداد القوة للجهاد في سبيل الله ⁽¹⁴⁾.

ج - قضايا الآداب الاجتماعية: وهذه القضايا:

علاج من يحاول مضرة الإنسان ⁽¹⁵⁾، وبر الوالدين ⁽¹⁶⁾، وتحديد النسل ⁽¹⁷⁾، والرشوة ⁽¹⁸⁾، وإيفاء الكيل والميزان ⁽¹⁹⁾، والعدل في القول والفعل ⁽²⁰⁾، والموقف من الحضارة الغربية ⁽¹⁾.

(1) العذب النمير (309/3-311).

(2) سأكتفي بالإحالة على مواطن هذه القضايا من كتاب العذب النمير: حيث إن نقل كلام الشيخ في القضية الواحدة قد يستغرق عدة صفحات.

(3) العذب النمير (1/315)، (2/52 و56)، (3/347)، (4/9)، (5/346).

(4) العذب النمير (1/233) و(2/454) و(4/531).

(5) العذب النمير (1/521)، (2/74 و160 و232 و244)، (3/24 و317)، (4/215)، (5/406).

(6) العذب النمير (2/19)، (3/417)، (3/425).

(7) العذب النمير (3/108، 107)، (3/448-445).

(8) العذب النمير (4/592، 593).

(9) العذب النمير (5/13).

(10) العذب النمير (5/564).

(11) العذب النمير (5/176، 174).

(12) العذب النمير (3/78-75).

(13) العذب النمير (5/85، 81).

(14) العذب النمير (5/157، 153).

(15) العذب النمير (2/151، 150).

(16) العذب النمير (2/467-465).

(17) العذب النمير (2/474-472)، (4/409).

(18) العذب النمير (2/486-484)، (4/299).

(19) العذب النمير (2/513)، (3/586).

(20) العذب النمير (2/518).

والحذر من اتخاذ دين الله هزواً ولعباً⁽²⁾، والتحذير من فاحشة قوم لوط، وإتيان المرأة⁽³⁾، وعدم السخرية من حملة الدين، ولا من هيئات العلماء مثل إعفاء اللحية⁽⁴⁾.

د- قضايا الوعظ والتذكير بالله: وهذه القضايا:

واعظ المراقبة والعلم أكبر واعظ وأعظم زاجر نزل من السماء إلى الأرض⁽⁵⁾، والتحذير من اتباع الشيطان⁽⁶⁾، والتحذير من المعاصي التي هي سبب طمس القلوب⁽⁷⁾، والتحذير من إنقاص الكيل والميزان⁽⁸⁾، ووزن الأعمال يوم القيامة⁽⁹⁾، والخسران والمثالن المضروبان له⁽¹⁰⁾، وانقضاء الآجال⁽¹¹⁾، والتخويف من النار⁽¹²⁾، والشكر لرب العالمين⁽¹³⁾.

هـ- قضايا في الإعجاز العلمي: وهذه القضايا:

الإعجاز العلمي في مراحل خلق الإنسان⁽¹⁴⁾، والهيئة الجغرافية⁽¹⁵⁾، ومقر العقل من الإنسان⁽¹⁶⁾.

و- قضايا في الإعجاز التشريعي: وهذه القضايا:

دلالة القرآن الكريم على أصول الاقتصاد المثمر⁽¹⁷⁾، والإعجاز التشريعي في مسألة الرق⁽¹⁸⁾، والإعجاز التشريعي في حد السرقة⁽¹⁹⁾، والإعجاز التشريعي في حد القصاص⁽¹⁾.

(1) العذب النمير (545/2)، (207/3)، (575/4).

(2) العذب النمير (309/3).

(3) العذب النمير (548/3) ..

(4) العذب النمير (309/3).

(5) العذب النمير (392/1) و(64/3)، (68/5) و(199/5).

(6) العذب النمير (341/2).

(7) العذب النمير (128/2).

(8) العذب النمير (515/2).

(9) المصدر السابق (76/3)، (81/3).

(10) العذب النمير (85/3)، (616/3)، (173/4)، (633/5).

(11) العذب النمير (186، 185/3).

(12) العذب النمير (207/3).

(13) العذب النمير (97/3).

(14) العذب النمير (10/2 و41 و165 و508)، (103/3 و278)، (502/5).

(15) العذب النمير (543/1)، (386-384/3) وينظر (543/1).

(16) العذب النمير (159/1)، (502/2)، (347/4).

(17) العذب النمير (596/4).

(18) العذب النمير (242-240/2).

(19) العذب النمير (240/2)، (181/3).

والإعجاز التشريعي في تعدد الزوجات⁽²⁾، والإعجاز التشريعي في الطلاق والميراث⁽³⁾.

المبحث الثالث: تنزيل الآيات على الواقع بين كتاب أضواء البيان والعذب النمير

لم تكن قضية تنزيل الآيات على الواقع مُغفلةً في كتاب أضواء البيان للعلامة الشنقيطي- رحمه الله -، وقد أفاض - رحمه الله - في بيان هداية القرآن إلى ما فيه خيري الدنيا والآخرة، وهديه إلى حل جميع المشاكل العالمية بأقوم الطرق وأعدلها عند تفسير قوله الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَيِّنُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 9] فقال في مطلع تفسيره لهذه الآية: "وهذه الآية الكريمة أجمل - الله جلَّ وعلا- فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم. لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة. ولكننا إن شاء الله تعالى سنذكر جملاً وافرة في جهات مختلفة كثيرة من هدى القرآن للطريق التي هي أقوم بياناً لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تنبيهاً ببعضه على كله من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام، لقصور إدراكهم عن معرفة حكمها البالغة"⁽⁴⁾، ثم أفاض في كلامه على هذه الآية وأوضح هذا الجانب بالأدلة النقلية والعقلية -غفر الله له ورحمه-.

وقال في ختام تفسيره لهذه الآية: "ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: هديه إلى حل المشاكل العالمية بأقوم الطرق وأعدلها، ونحن دائماً في المناسبات نبين هدي القرآن العظيم إلى حل ثلاث مشكلات، هي من أعظم ما يعانيه العالم في جميع المعمورة ممن ينتهي إلى الإسلام، تنبيهاً بها على غيرها"⁽⁵⁾،... ثم شرع في بيان هذه المشاكل.

يقول الأستاذ أحمد الشيعي: "كان الشنقيطي من أولئك النفر من العلماء الذين يهتمون بمجريات الأحداث في أيامهم، ويدلون بأرائهم في مستجدات الأمور من حولهم؛ وليس أدل على ذلك من مناقشته مختلف القضايا الراهنة التي يكثر حولها الجدل، وتختلف بشأنها الآراء؛ الأمر الذي تجلت معه معاصرته وإحاطته بتلك القضايا بصورة واضحة لتفسير الآيات التي يتناول تحتها القضايا، ومن أمثلتها: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9] حيث ناقش من خلال تفسير هذه الآية قضايا تعدد الزوجات، وكون الطلاق بيد الرجل، وكون ميراث الرجل أكثر من ميراث المرأة، وقضية الرقيق وجواز

(1) العذب النمير (2/177 و538).

(2) العذب النمير (3/326)، (4/405).

(3) العذب النمير (3/326)، (4/391-399).

(4) أضواء البيان (3/487، 488).

(5) أضواء البيان (3/537).

رقهم من عدمه إلخ" (1).

وتقول الباحثة سميرة صقر: "ولقد حوى أضواء البيان مناقشة لكثير من القضايا المعاصرة، وعلاج للعديد من المشكلات المعضلة، عرضها المصنّف بأسلوبه العلمي الرصين، وعلاجها بفكره الغزير، وبما أفاض الله على قلبه ولسانه وعقله من هداية القرآن ونوره وإرشاده" (2).

وأما عن أوجه الاتفاق والاختلاف بين ما ذكره الشيخ - رحمه الله - من آيات قام بتنزيل الواقع عليها في أضواء البيان والعذب النمير فيمكن تلخيصه بالآتي:

أولاً: أوجه الاتفاق بين الكتابين:

ويمكن إجمالها في الآتي:

1- أنه سلك الطريقة نفسها في تنزيل الآيات على الواقع في كلا الكتابين، فيشرع في تفسير الآية ثم يعقبه بالتنزيل إن كان فيه ما يناسب التنزيل.

ومثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْفَنَاءُ وَالْأَسْهَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَلَى الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:90].

قال - رحمه الله -: "يفهم من هذه الآية الكريمة أن الخمر نجسة العين ؛ لأن الله تعالى قال إنها: رجس، والرجس في كلام العرب كل مستقذر تعافه النفس...، وعلى هذا، فالمسكر الذي عمت البلوى اليوم بالتطبيب به المعروف في اللسان الدارجي بالكولانيا نجس لا تجوز الصلاة به، ويؤيده أن قوله تعالى في المسكر: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ يقتضي الاجتناب المطلق الذي لا ينتفع معه بشيء من المسكر، وما معه في الآية بوجه من الوجوه، قال مقيده - عفا الله عنه -: لا يخفى على منصف أن التضمخ بالطيب المذكور، والتلذذ بريحه واستطابته، واستحسانه مع أنه مسكر، والله يصرح في كتابه بأن الخمر رجس فيه ما فيه، فليس للمسلم أن يتطيب بما يسمع ربه يقول فيه: إنه رجس، كما هو واضح" (3).

وقد يفرد للقضية التي يريد تنزيل الآية عليها عنواناً مستقلاً بعد تفسير الآية، كقوله: "مسألة" (4)، أو قوله: "تنبيه" (5)، وهذا في كتاب أضواء البيان دون العذب النمير.

2- قد يكرر الشيخ - رحمه الله - القضية في أكثر من موضع وذلك في كلا الكتابين.

(1) الشنقيطي ومنهجه في التفسير (1/26، 25).

(2) الشنقيطي ومنهجه في التفسير (ص597).

(3) أضواء البيان (2/154).

(4) ينظر: أضواء البيان (5/68)، (6/390)، (7/174 و662 و625 و668).

(5) ينظر: أضواء البيان (2/450)، (3/13 و146 و214)، (3/725)، (4/109)، (4/630)، (5/601 و811)،

(6/527)، (7/463 و638).

كقضية: الحكم بغير ما أنزل الله في هذا العصر⁽¹⁾.

3- أن هناك عدداً من القضايا ذكرها الشيخ - رحمه الله -وقام بتنزيل الواقع عليها في كلا الكتابين وهذه القضايا هي:

الموقف الصحيح من صفات الله -عز وجل-⁽²⁾، والتضرع إلى الله تعالى حال الكروب والشدة⁽³⁾، والحكم بغير ما أنزل الله في هذا العصر⁽⁴⁾، والرد على الطبايعين الذين يزعمون أن المطر لم ينزله خالق وإنما هو أمر طبيعي⁽⁵⁾، والموقف الصحيح من الحضارة الغربية⁽⁶⁾، وقضية التصوير⁽⁷⁾، ودلالة القرآن الكريم على أصول الاقتصاد المثمر⁽⁸⁾، والإعجاز التشريعي في مسألة الرق⁽⁹⁾، والإعجاز التشريعي في حد السرقة⁽¹⁰⁾، والإعجاز التشريعي في حد القصاص⁽¹¹⁾، والإعجاز التشريعي في الطلاق، والميراث⁽¹²⁾، الإعجاز التشريعي في تعدد الزوجات⁽¹³⁾، ومقر العقل من الإنسان⁽¹⁴⁾، والرد على الذين يقولون: إن الرجم والقتل للمحصن بالحجارة عمل وحشي لا ينبغي أن يكون في النظم الإنسانية⁽¹⁵⁾، والحذر من مشاركة المرأة للرجل في ميادين العمل⁽¹⁶⁾، وقضية إعفاء اللحية وعدم السخرية ممن يلتزمون بذلك⁽¹⁷⁾، وواعظ المراقبة والعلم أكبر واعظ وأعظم زاجر نزل من السماء إلى

(1) ينظر: العذب النمير (521/1)، (74/2 و160 و232 و244)، (24/3 و317)، (215/4)، (406/5)، وأضواء البيان (109/4)، (7/174 و617).

(2) ينظر: العذب النمير (315/1)، (52/2 و562)، (347/3)، (9/4)، (346/5)، وأضواء البيان (451/2).

(3) ينظر: العذب النمير (233/1) و(454/2) و(531/4)، وأضواء البيان (726/3)، (660/7).

(4) ينظر: العذب النمير (521/1)، (74/2 و160 و232 و244)، (24/3 و317)، (215/4)، (406/5)، وأضواء البيان (109/4)، (7/174 و617).

(5) ينظر: العذب النمير (19/2)، (417/3)، (425/3)، وأضواء البيان (859/5)، (537/6).

(6) ينظر: العذب النمير (545/2)، (207/3)، (575/4)، وأضواء البيان (476/4).

(7) ينظر: العذب النمير (448-445/3)، (108، 107/3)، وأضواء البيان (68/5).

(8) ينظر: العذب النمير (600-596/4)، وأضواء البيان (390/6).

(9) ينظر: العذب النمير (242-240/2)، وأضواء البيان (504/3)، (449/7).

(10) ينظر: العذب النمير (184-181/3)، (240/2)، وأضواء البيان (509/3).

(11) ينظر: العذب النمير (177/2 و538)، وأضواء البيان (508/3).

(12) ينظر: العذب النمير (326/3)، (399-391/4)، وأضواء البيان (497/3).

(13) ينظر: العذب النمير (326/3)، (405/4)، وأضواء البيان (494/3).

(14) ينظر: العذب النمير (502/2)، وأضواء البيان (780/5).

(15) ينظر: العذب النمير (237/2)، وأضواء البيان (515/3).

(16) ينظر: العذب النمير (331-329/3)، (399/4)، وأضواء البيان (502/3).

(17) ينظر: العذب النمير (309/3)، وأضواء البيان (630/4).

الأرض⁽¹⁾، والتحذير من اتباع الشيطان⁽²⁾، وهدى القرآن العظيم إلى حل ثلاث مشكلات: المشكلة الأولى: ضعف المسلمين في أقطار الدنيا في العدد والعدد عن مقاومة الكفار⁽³⁾، والمشكلة الثانية: تسليط الكفار على المؤمنين بالقتل والجراح وأنواع الإيذاء، مع أن المسلمين على الحق، والكفار على الباطل⁽⁴⁾، والمشكلة الثالثة: اختلاف القلوب الذي هو أعظم الأسباب في القضاء على كيان الأمة الإسلامية، لاستلزامه الفشل، وذهاب القوة والدولة⁽⁵⁾، والهيئة الجغرافية⁽⁶⁾.

ثانياً: أوجه الاختلاف بين الكتابين:

ويمكن إجمالها في الآتي:

1- أن كل القضايا التي تكررت في كلا الكتابين، وقام الشيخ -رحمه الله- بتنزيل الآيات على الواقع فيها اختلفت فيها مواضع التنزيل من الآيات، فلم تتكرر قضية واحدة ذكرها عند آية واحدة في كلا الكتابين.

فعلى سبيل المثال: قضية دلالة القرآن الكريم على أصول الاقتصاد المثمر.

ذكرها الشيخ-رحمه الله- في العذب النمير⁽⁷⁾ عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 36] ؛ بينما ذكرها في أضواء البيان⁽⁸⁾ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67].

2- أن تكون الواقعة التي قام الشيخ -رحمه الله- بتنزيل الآية عليها في كتاب أصرح من الكتاب الآخر.

مثل قضية إعفاء اللحية ذكرها الشيخ -رحمه الله- في أضواء البيان⁽⁹⁾ عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِحَبِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: 94]، بينما ذكرها في العذب النمير⁽¹⁰⁾ عند تفسير

(1) ينظر: العذب النمير (392/1) و(64/3)، (199/68.5/5)، وأضواء البيان(13/3).

(2) ينظر: العذب النمير (341/2)، وأضواء البيان(341/1).

(3) ينظر: العذب النمير (56/5)، وأضواء البيان(537/3).

(4) ينظر: العذب النمير (82/5)، وأضواء البيان(540/3).

(5) ينظر: العذب النمير (81/5)، وأضواء البيان(541/3).

(6) ينظر: العذب النمير (543/1)، (384/3)، وأضواء البيان(385/6).

(7) ينظر: العذب النمير(600-596/4).

(8) ينظر: أضواء البيان (630/4).

(9) ينظر: أضواء البيان(390/6).

(10) ينظر: العذب النمير(309/3).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلِبَاسًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: 52].

3- أن يذكر الشيخ -رحمه الله- موضوع واحد في كلا الكتابين، ويذكر في كل كتاب قضية من قضايا هذا الموضوع غير القضية التي ذكرها في الكتاب الآخر.

ومن ذلك موضوع التصوف؛ ذكره الشيخ -رحمه الله- في كلا الكتابين؛ غير أنه ذكر في العذب النمير قضية: السماع والرقص والغناء الصوفي⁽¹⁾، بينما ذكر في أضواء البيان قضية: قضية: ما يزعمه كثير من ملاحدة أتباع الجهال المدعين للتصوف من أن المراد بالوسيلة في قوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَهًا وَاسِيلَةً﴾ [المائدة: 35] الشيخ الذي يكون له واسطة بينه وبين ربه⁽²⁾.

4- انفرد كل كتاب بذكر قضايا ليست في الكتاب الآخر.

وبيانها كالآتي:

أولاً: القضايا التي انفرد بها كتاب العذب النمير وليست في أضواء البيان.

وهذه القضايا هي:

السماع والرقص والغناء الصوفي⁽³⁾، وبيان أحكام الجهاد والغنائم⁽⁴⁾، وفضل الشهادة في سبيل الله⁽⁵⁾، وفقه المبدأ والغاية من الجهاد في سبيل الله عند الجنود العسكريين⁽⁶⁾، وذكر الله هو السلاح الأكبر في ميادين القتال⁽⁷⁾، وإعداد القوة للجهاد في سبيل الله⁽⁸⁾، وعلاج وعلاج من يحاول مضرة الإنسان⁽⁹⁾، وبر الوالدين⁽¹⁰⁾، وتحديد النسل⁽¹¹⁾، والرشوة⁽¹²⁾، وإيفاء وإيفاء الكيل والميزان⁽¹³⁾، والعدل في القول والفعل⁽¹⁴⁾، والحذر من اتخاذ دين الله هزواً

(1) ينظر: العذب النمير (592، 593/4).

(2) ينظر: أضواء البيان (118/2).

(3) العذب النمير (592، 593/4).

(4) العذب النمير (13/5).

(5) العذب النمير (564/5).

(6) العذب النمير (176، 174/5).

(7) العذب النمير (78-75/3).

(8) العذب النمير (157، 153/5).

(9) العذب النمير (151، 150/2).

(10) العذب النمير (467-465/2).

(11) العذب النمير (409/4)، (474-472/2).

(12) العذب النمير (486-484/2)، (299/4).

(13) العذب النمير (513/2)، (586/3).

(14) العذب النمير (518/2).

ولعباً⁽¹⁾، والتحذير من سكنى وزراعة دار ثمود ودخولها للتفرج والنظر⁽²⁾، والتحذير من فاحشة قوم لوط، وإتيان المرأة المرأة⁽³⁾، والتحذير من المعاصي التي هي سبب طمس القلوب⁽⁴⁾، والتحذير من إنقاص الكيل والميزان⁽⁵⁾، ووزن الأعمال يوم القيامة⁽⁶⁾، والخسران والخسران والمثلان المضروبان له⁽⁷⁾، وانقضاء الآجال⁽⁸⁾، والتخويف من النار⁽⁹⁾، والشكر لرب لرب العالمين⁽¹⁰⁾، والإعجاز العلمي في مراحل خلق الإنسان⁽¹¹⁾.

ثانياً: القضايا التي انفرد بها كتاب أضواء البيان وليست في العذب النمير.

وهذه القضايا هي:

جريان الربا في الفلوس الحديدية الحالية⁽¹²⁾، وما يزعمه كثير من ملاحدة أتباع الجهاد المدعين للتصوف من أن المراد بالوسيلة في قوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:35] الشيخ الذي يكون له واسطة بينه وبين ربه⁽¹³⁾، وحكم استخدام الكولانيا⁽¹⁴⁾، وحكم البناء في متى⁽¹⁵⁾، والنداء بالروابط القومية والعصبية⁽¹⁶⁾، والوصول إلى السماء عن طريق الأقمار الصناعية⁽¹⁷⁾، واتخاذ القبور مساجد⁽¹⁸⁾، وإنعام الله على عباده بمركوبات لم تكن معلومة وقت نزول القرآن كالطائرات، والقطارات، والسيارات⁽¹⁹⁾، وإبطال مذهب الاشتراكية⁽²⁰⁾.

(1) العذب النمير (309/3).

(2) العذب النمير (539، 538/3).

(3) العذب النمير (548/3) ..

(4) العذب النمير (128/2).

(5) العذب النمير (515/2).

(6) العذب النمير (76/3)، (81/3).

(7) العذب النمير (85/3)، (616/3)، (173/4)، (633/5).

(8) العذب النمير (186، 185/3).

(9) المصدر السابق (207/3).

(10) العذب النمير (97/3).

(11) العذب النمير (10/2 و 41 و 165 و 508)، (103 و 278)، (502/5).

(12) ينظر: أضواء البيان (303/1).

(13) أضواء البيان (118/2).

(14) أضواء البيان (154/2).

(15) أضواء البيان (154/2).

(16) أضواء البيان (58 و 528)، (672/7).

(17) أضواء البيان (146 و 152).

(18) أضواء البيان (214/3).

(19) أضواء البيان (266/3).

(20) أضواء البيان (380/3)، (262/7).

وموعظة الاعتبار بحال القرية التي كانت ءامنة مطمئنة⁽¹⁾، وزعم بعض الملاحدة الكفرة المعاصرين: أن موسى-عليه السلام-لم يسافر إلى مجمع بحرين⁽²⁾، والانتفاع بلحوم الهدي والأضاحي⁽³⁾، وحلق المرأة شعر رأسها إلى قرب أصوله⁽⁴⁾، وما يزعمه ملاحدة الكفرة أن السماء فضاء لا جرم⁽⁵⁾، والإعجاز العلمي في اختلاط الماء الملح والماء العذب في مجرى واحد، واحد، ولا يختلط أحدهما بالآخر، بل يكون بينهما حاجز من قدرة الله تعالى ومن المواضع التي هو واقع فيها المحل الذي يختلط فيه نهر السنغال بالمحيط الأطلسي، ورؤية الشيخ - رحمه الله- ذلك بعينه⁽⁶⁾، وكشف الوجه للمرأة⁽⁷⁾، والتشاؤم بيوم الأربعاء الأخير من كل شهر⁽⁸⁾، وطلب النصر من الله مع ارتكاب المعاصي ممن يتسمون باسم الإسلام غرور⁽⁹⁾، وادعاء الاستغناء عن كتاب الله وسنة رسوله بالمذاهب المدونة من البلاء الذي عمّ بعض بلاد المسلمين⁽¹⁰⁾، والتحذير من كراهية ما أنزل الله على رسوله ﷺ⁽¹¹⁾، وما جرى في الأقطار الإفريقية من إبدال الهمزة الأخيرة في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّا بَيْنَا وَبَيْنَا نُزُلًا لَلْأُولَىٰ لَنَنصُرَنَّ﴾ [الصافات:16] وأمثالها في القرآن هاء خالصة من أشنع المنكروأعظم الباطل⁽¹²⁾.

الخاتمة

أحمد الله تعالى الذي مَنَّ علي بإتمام هذا البحث، وفيما يلي أوجز ما توصلت إليه من نتائج:

1- المراد بتنزيل الآيات على الواقع: مقابلة الأحداث المعاصرة في زمن المفسر، وإدخالها فيما يناسبها من الآيات القرآنية.

2- يجب على المفسر أن يكون مراعيًا الواقع الذي يعيشه، فيكون داعيًا إلى الله تعالى على بصيرة، ويصل بالقرآن إلى علاج أمراض الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

(1) أضواء البيان (450/3).

(2) أضواء البيان (201/4).

(3) أضواء البيان (601/5).

(4) أضواء البيان (651/5).

(5) أضواء البيان (811/5).

(6) أضواء البيان (375/6).

(7) أضواء البيان (662/6).

(8) أضواء البيان (132/7).

(9) أضواء البيان (451/7).

(10) أضواء البيان (463 و 458/7).

(11) أضواء البيان (625/7).

(12) أضواء البيان (836/7).

3- من خلال ما وقفت عليه من نصوص لأهل العلم في تنزيل الآيات على الواقع فإن لم مسلكين في ذلك: المسلك الأول: أن يكون إنزال الآية على الواقع من كلام المفسر نفسه، والمسلك الثاني: أن يكون إنزال الآية على الواقع ليس من كلام المفسر، وإنما هو من كلام مفسر آخر قام بتنزيل الواقع عليها، فينقله عنه مستشهداً به.

4- الملامح العامة لمنهج الشنقيطي - رحمه الله - في مسألة تنزيل الآيات على الواقع تتمثل في: إعمال قاعدة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإنكاره على من فصل القرآن عن الواقع، وبيانه صلاحية القرآن لكل زمان ومكان، وسلوكه أسلوب التصريح المباشر وأسلوب التلميح في طريقة تنزيل الآيات على الواقع، وأنه يشرع في تفسير الآية ثم يعقبه بالتنزيل إن كان فيه ما يناسب التنزيل، ويسهب في الاستطراد والتفصيل في هذه الواقعة، ونقله تنزيل غيره على الآية، وربط الواقع بحال من سلف، و ضرب أمثلة من الواقع، والتطبيق العملي في تنزيل الآية الواقع، والاستدلال بالواقع في الترجيح في مسألة خلافية، وغالب التطبيقات التي عني فيها الشنقيطي بتنزيل الآيات على الواقع هي من قبيل مخالفة الواقع لمعنى الآية، وتنوع الموضوعات والقضايا التي نزل عليها الآيات حيث شملت: القضايا العقدية، وأسباب النصر وقضايا الجهاد في سبيل الله، وقضايا الآداب الاجتماعية وقضايا الوعد والتذكير بالله، وقضايا في الإعجاز العلمي، وقضايا في الإعجاز التشريعي.

5- هناك قضايا تعرض لها الشيخ - رحمه الله - وقام بتنزيل الآيات فيها على الواقع في كلا كتابيه العذب النمير وأضواء البيان، وهناك قضايا انفرد بها كل كتاب عن الآخر، ويمكن إيضاح عدد تلك القضايا من خلال الجدول الآتي:

م	الكتاب التي ذكرت فيه القضايا	المجموع
1	القضايا التي تكررت في كلا الكتابين	22
2	القضايا التي انفرد بها كتاب العذب النمير	23
3	القضايا التي انفرد بها كتاب أضواء البيان	21
	المجموع الكلي	66

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

فهرس المصادر والمراجع

- 1- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، ط1، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة: 1426هـ/ 2006م.
- 2- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس: بدون.
- 3- تفسير القرآن الكريم (سورة البقرة)، محمد بن صالح العثيمين، ط1، دار ابن الجوزي، الدمام: 1423هـ.
- 4- التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت: 1421هـ/ 2000م.
- 5- تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم، د. يحيى بن محمد زمزمي، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، العدد (4)، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة: 1428هـ.
- 6- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين -دراسة وتطبيق- د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، ط1، من مطبوعات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم: 1428هـ.
- 7- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت: 1427هـ/ 2006م.
- 8- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود بن عبد الله الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: بدون.
- 9- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت: 1425هـ/ 2004م.
- 10- الشنقيطي ومنهجه في التفسير: في كتابه أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، أحمد سيد حسنين الشيمي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة: 1422هـ.
- 11- الشنقيطي ومنهجه في التفسير، سميرة صقر، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية للبنات، جدة: 1409هـ.
- 12- صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط3، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت: 1409هـ.
- 13- العذب النмир من مجالس الشنقيطي في التفسير، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، تحقيق: د. خالد بن عثمان السبت، ط2، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة: 1426هـ/ 2006م.
- 14- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط1، دار صادر، بيروت: بدون.
- 15- مجمع الأمثال، أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار الجيل، بيروت: 1407هـ/ 1987م.
- 16- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، تحقيق: محي الدين ديب مستو وآخرين، ط1، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت: 1417هـ/ 1996م.
- 17- منهج الدوسري في تفسيره صفوة الآثار والمفاهيم، د. محمد بن عبد الله الربيع، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: 1418هـ.

**توظيف أحداث بلاد الأندلس في تنزيل الآيات على الواقع
عند الإمام القرطبي (ت671هـ) – نماذج مختارة –**

ط.د/ مریم کروش – اشراف: د/ عباس منصر

قسم أصول الدين - معهد العلوم الإسلامية - جامعة الوادي

meriemkerrouche@gmail.com

abbasimam4@gmail.com



ملخص

جاءت هذه الورقة البحثية لتسلط الضوء على توظيف الأحداث التاريخية في بلاد الأندلس في قضية تنزيل الآيات على الواقع، واختير الإمام القرطبي لتطبيق هذا النوع من التنزيل كونه أحد الموظفين لأحداث التاريخ في التفسير العملي للقرآن الكريم.

وكان الإشكال الرئيس للبحث حول كيفية تطبيق أحداث التاريخ في تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام القرطبي؟ لينتظم البحث في شقين نظري: فيه التعريف بالقرطبي وتفسيره وبيان عنايته بقضية التنزيل، وكذا تصوير تاريخ قرطبة والأندلس في عهد القرطبي حتى نضع البحث في سياقه التاريخي، وتطبيقي: من خلال نماذج منتخبة من الجامع لأحكام القرآن تبين أعمال الإمام القرطبي لأحداث التاريخ في التنزيل الواقعي لآيات القرآن.

وتبيّن من البحث أن أحداث التاريخ مفردة من مفردات تنزيل القرآن على الواقع، ولأدّل على ذلك عناية أحد أقطاب التفسير ببلاد الأندلس بها.

الكلمات المفتاحية: القرطبي - تنزيل الآيات - تاريخ الأندلس.

مقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وأصحاب ومن اهتدى بهديه وانظم إلى لواءه وحزبه، أما بعد

فإن جهود علماء الإسلام في التفسير جهود ملامسة للواقع، فلم يكتب المفسرون كتبهم مجردة ومثالية بعيدة عن بيئاتهم وما يتطلع الناس إليه في أوقاتهم، بل دونوا تفاسيرهم وبثوا فيها تفاعلاتهم مع الواقع وإسقاطات النصوص القرآنية على معاشهم، ومن هؤلاء العلماء علماء الغرب الإسلامي، ووقع اختياري على أحد هؤلاء المفسرين كونه اعتنى بقضية التنزيل أكثر من غيره وهو الإمام القرطبي، فكان عنوان هذه الورقات البحثية المقدمة لأشغال الملتقى الدولي حول «جهود علما الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع».

- توظيف أحداث بلاد الأندلس في تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام القرطبي
(ت671هـ) نماذج مختارة -

دوافع اختيار البحث: فالدوافع ذاتية وموضوعية

- رغبتى الشديدة في الوقوف على تنزيلات القرطبي في مجال تاريخ بلاد الأندلس.
- كون الإمام القرطبي من أكثر المفسرين عناية بإعمال أحداث التاريخ في حقل التفسير.
- شهود عصر الإمام القرطبي اضطرابات وحروب صليبية مع أعداء الإسلام في الأندلس.
- سقوط قرطبة في حياة الإمام القرطبي وإشارته إلى ذلك في أكثر من مناسبة في تفسيره الجامع لأحكام القرآن.

الإشكالية: والإشكالية الرئيسية التي يجب عنها هذا البحث: ما هي أهم تنزيلات الإمام القرطبي في مجال أحداث بلاد الأندلس من خلال الأمثلة المنتخبة؟

المنهج: والمنهج المتبع في هذا البحث الاستقرائي المناسب للتتبع والتنقيب عن تنزيلات الإمام القرطبي في مجال الأحداث التاريخية، وكذا المنهج التاريخي في سرد بعض هذه الأحداث التاريخية.

خطة البحث: ولإنجاز هذا البحث رسمت الخطة التالية.

- مقدمة: فيها التعريف بالبحث: العنوان، دوافع الاختيار، الإشكالية، المنهج، الخطة.
- المبحث الأول: ترجمة الإمام القرطبي والتعريف بعصره وعنايته بتنزيل الآيات على الواقع.
- المبحث الثاني: أمثلة تطبيقية على توظيف القرطبي لأحداث بلاد الأندلس في تنزيل الآيات القرآنية على واقعه.
- خاتمة: فيها أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول

ترجمة الإمام القرطبي والتعريف بعصره وعنايته بتنزيل الآيات على الواقع.

المطلب الأول: ترجمة موجزة للإمام القرطبي.

الفرع الأول: اسمه ونسبه.

محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح- بسكون الراء والحاء المهملة- الأنصاري الخزرجي المالكي أبو عبد الله القرطبي.¹

الفرع الثاني: شيوخه وتلامذته.

سمع من ابن رواج، ومن ابن الجميزي، والشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي شارح «مسلم» وبعضه، وأبي علي الحسن بن محمد بن محمد البكري الحافظ، وغيرهم.

¹ ينظر: طبقات المفسرين: محمد بن علي الداوودي، دط، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، 69/2.

وروى عنه خلق كثير منهم ولده شهاب الدين أحمد¹.

الفرع الثالث: مصنفاته.

له مصنفات كثيرة منها ما ذكره الإمام الداوودي حيث قال: "جمع في تفسير القرآن كتاباً كبيراً في خمسة عشر مجلداً، سماه كتاب «جامع أحكام القرآن والميّن لما تضمنه من السنة وآي القرآن، وهو من أجلّ التفسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلة، وذكر القراءات، والإعراب، والناسخ والمنسوخ، وله «شرح الأسماء الحسنى» وكتاب في مجلدين سمّاه «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» وكتاب «التذكار في أفضل الأذكار» وضعه على طريقة «التبيان» للنووي لكن هذا أتم منه وأكثر علماً، وكتاب «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» وكتاب «شرح التقيّ» وكتاب «قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة». قال ابن فرحون: لم أقف على تأليف أحسن منه في باب، وله «أرجوزة» جمع فيها أسماء النبي ﷺ، وله تأليف وتعليق مفيدة غير هذه².

الفرع الرابع: وفاته وثناء أهل العلم عليه.

قال عنه الإمام الذهبي: "إمام متفّن متبحّر في العلم، له تصانيف مفيدة تدلّ على كثرة اطلاعه ووفور فضله، تُوفّي في أوائل هذه السّنة (671هـ) بمُنية بني خصيب من الصّعيد الأدنى"³.

وذكره محمد مخلوف في شجرة النور الزكية وقال في حق: "العالم الإمام الجليل الفاضل الفقيه المفسر المحصل المحدث المتفنن الكامل"⁴.

وقال ابن فرحون: "كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا المشغولين بما يعنهم من أمور الآخرة أوقاته معمورة ما بين توجهه وعبادة وتصنيف. جمع في تفسير القرآن كتاباً كبيراً في اثني عشر مجلداً سماه كتاب جامع أحكام القرآن والميّن لما تضمن من السنة وآي القرآن وهو من أجلّ التفاسير وأعظمها نفعاً أسقط منه القصص والتواريخ وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات والإعراب

¹ المصدر نفسه: 69/2.

² المصدر نفسه: 70/2. وينظر: ينظر: ترجمته نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، ط: 2، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997م، 211-210/2.

³ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين الذهبي، تج: بشار عواد معروف، ط: 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م، 229/15.

⁴ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: محمد بن سالم مخلوف، تج: عبد المجيد خيالي، ط: 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ-2003م، 282/1.

والناسخ والمنسوخ"¹.

وقال عنه السيوطي: "مصنف التفسير المشهور، الذي سارت به الركبان"².

وقال ابن العماد الحنبلي: "صاحب التفسير «الجامع لأحكام القرآن» الحاكي مذاهب السلف كلها، وما أكثر فوائده. وكان إماماً عالماً، من الغواصين على معاني الحديث، حسن التصنيف، جيد النقل"³.

وقال الدكتور عادل نويهض: "من كبار المفسرين، محدث، صالح متعبد، من أهل قرطبة بالأندلس، رحل إلى المشرق واستقر بمنية ابن خصيب في شمالي أسبوط، بمصر، وتوفي فيها"⁴.

المطلب الثاني: عناية الإمام القرطبي بتنزيل الآيات على الواقع في تفسيره.

يعد تفسير الإمام القرطبي من أجود التفاسير التي كتب في تفسير آيات الأحكام، فهو يعتمد إلى السور والآيات ويذكر ما يندرج تحتها من مسائل وأحكام، وقد يخیل إلى من لا معرفة له بمنهج القرطبي أن تفسيره فقهي صرف وهذا بالنظر إلى تسميته ((الجامع لأحكام القرآن)) وهذا مما لاشك فيه خطأ؛ لأن كلمة أحكام ليست مقتصرة على أحكام الفقه فحسب، بل هي جامعة وشاملة كل الأحكام العقدية والسلوكية والسياسية والمستجدات والنوازل... الخ، إذ يقول القرطبي مبيناً غرضه من تفسيره: "فَضَمَّنْتُ كُلَّ آيَةٍ تَضَمَّنَتْ حُكْمًا أَوْ حُكْمَيْنِ فَمَا زَادَ، مَسَائِلَ نُبَيِّنُ فِيهَا مَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ مِنْ أَسْبَابِ التُّزُولِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْغَرِيبِ وَالْحُكْمِ، فَإِنْ لَمْ تَتَضَمَّنْ حُكْمًا ذَكَرْتُ مَا فِيهَا مِنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ، هَكَذَا إِلَى آخِرِ الْكِتَابِ. وَسَمَّيْتُهُ بِ (الْجَامِعِ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ، وَالْمُبَيِّنِ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ السُّنَّةِ وَآيِ الْقُرْآنِ)"⁵.

ولما كان الكلام في النوازل والمستجدات مادته الأولى ومنطلقه الأول واقع المفسر المعاش وما يطرأ في بيئته من حوادث، وما يحدث في عصر المفسر من قضايا مصيرية للأمة تسترعي اهتمام المفسر، كان لزاماً على المفسر أن يتفاعل مع واقعه ويقرأ حوادث عصره، ويحاول أن

¹ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: إبراهيم بن علي المعروف بابن فرحون، تح: محمد الأحمد أبو نور، دط، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، دت، 309/2.

² طبقات المفسرين: جلال الدين السيوطي، تح: علي محمد عمر، ط: 1، مكتبة وهبه، القاهرة، 1396هـ، 92/1.

³ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد العلي ابن العماد الحنبلي، تح: محمود الأرنؤوط، ط: 1، دار ابن كثير، بيروت، 1406هـ-1986م، 585/7.

⁴ معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر: عادل نويهض، تق: حسن خالد، ط: 3، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1409هـ-1988م، 479/2.

⁵ الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، تح: أحمد البردوني إبراهيم اطفيش، ط: 2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1384هـ-1964م، 3/1.

ينطلق من القرآن ليجد حلولاً للمعضلات التي تواجه المسلمين في زمنه، وهذا ديدن الإمام القرطبي، حيث يقول الدكتور عبد العزيز الضامر في معرض كلامه عن القرطبي وبيان عنايته بقضية التنزيل: "وكان من الأمور التي تطرق إليها في تفسيره قضية تنزيل الآيات على الواقع، كيف لا، وقد كان واقعه يضجُّ بالقضايا والوقائع المتعددة على جميع الأصعدة في المشرق والمغرب، والتي كان من أبرزها تمكّن الصليبيين في الغرب والتتار في الشرق... فكان لا بد له من الرجوع إلى كتاب الله تعالى واستنطاق الآيات المناسبة لهذه الحوادث وتنزيلها عليها"¹.

وقد أشار القرطبي في مقدمة تفسيره أنه سيعتني بإيراد أحداث التاريخ التي لها أثر في الأحكام والمعاني وتحقيق المطلوب من تفسير القرآن إذ يقول في معرض بيان مسلكه في عدم ذكر الإسرائيليات والقصص وحوادث التاريخ إلا ما تعلق بما سبق: "وَأُضْرِبُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ قَصَصِ الْمَفْسَرِينَ، وَأَخْبَارِ الْمُؤَرِّخِينَ، إِلَّا مَا لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا غَيَّ عَنْهُ لِلتَّبَيِّنِ، وَأَعْتَصَمْتُ مِنْ ذَلِكَ تَبْيِينَ أَيْ الْأَحْكَامِ، بِمَسَائِلِ تَفْسِرُ عَنْ مَعْنَاهَا، وَتُرْشِدُ الطَّالِبَ إِلَى مُقْتَضَاهَا"².

وقد كانت تنزيلات القرطبي تمتاز بالدقة والنظر الثاقب واستقلالية الرأي والإشارة إلى التنزيل مباشرة دون التلميح أو الإيماء حيث يقول الذهبي عنه: "فإن القرطبي رحمه الله في تفسيره هذا حرٌّ في بحثه، نزيهٌ في نقده، عفٌّ في مناقشته وجدله، مُلِمٌّ بالتفسير من جميع نواحيه، بارعٌ في كل فن استطرد إليه وتكلَّم فيه"³.

المطلب الثالث: قرطبة في عصر الإمام القرطبي.

تعد قرطبة زمن الإمام القرطبي عاصمة الخلافة الأموية بإقليم الأندلس، فهي مركز الإشعاع العلمي والحضاري والعمراني ببلاد الأندلس، وتعد كبرى الحواضر الأندلسية ثقافة وفنونا، لأجل هذه المكانة التي كانت تحظى بها حرص القشتاليون النصارى أصحاب الصليب على الإطاحة بها واستردادها من أيدي المسلمين، فكان لهم ما أرادوا؛ إذ سقطت قرطبة بعد حروب الكَرّ والفر والإغارة سنة 633هـ، وتتابعت القلاع الأندلسية في السقوط الواحدة تلو الأخرى، وكان آخرها سقوطاً غرناطة سنة 897هـ⁴.

ويظهر بهذا ونحن نضع البحث في سياقه التاريخي أن زمن القرطبي كان مليئاً بالتوتر واللاإستقرار وحياة التأهب الدائم خوفاً على الأنفس والممتلكات نتيجة الإغارات والغدر الذي كان ينتهجه قادة الدولة القشتالية، وقد تفاعل الإمام القرطبي مع هذه الأحداث

¹ تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين نظرة تأصيلية: عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، ط:1، دار ابن حزم، بيروت، 1435هـ-2014م، ص 106.

² الجامع لأحكام القرآن: المرجع السابق، 3/1.

³ التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، دط، مكتبة وهبه، القاهرة، دت، 341/2.

⁴ ينظر: دولة الإسلام في الأندلس: محمد عبد الله عنان، ط:2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1417هـ-1997م، 425-424/4.

ووثقها، بل ووظفها في معرض تنزيلاته للآيات على الواقع. وسنعرض لجملة من المواضع التي تم رصدها تبين عناية القرطبي بتوظيف الأحداث التاريخية في قرطبة خصوصا وفي الأندلس عموما يظهر من خلالها إسقاطات القرطبي للنص القرآني على أحداث زمنه، وفي المبحث الموالي طائفة من الأمثلة الموضحة.

المبحث الثاني: أمثلة تطبيقية على توظيف القرطبي لأحداث بلاد الأندلس في تنزيل الآيات القرآنية على واقعه.

1/ توثيق حرب الكروالفريين النصاري والمسلمين في قرطبة:

فعند تفسير قوله تعالى ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ ذكر أن هذه الآية ومعها آية الجاثية وآية يس وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا.... كان يقرأها النبي ﷺ فيستتر من المشركين ثم علق القرطبي منزلا هذه الآية على حادثة حدثت معه شخصيا في قرطبة فقال: "قلت: ويزاد إلى هذه الآية أَوَّلُ سُورَةِ يَسَ إِلَى قَوْلِهِ "فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ". فَإِنَّ فِي السَّيْرِ فِي هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَقَامِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي فِرَاشِهِ قَالَ: وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخَذَ حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ فِي يَدِهِ، وَأَخَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَبْصَارِهِمْ عَنْهُ فَلَا يَرَوْنَهُ، فَجَعَلَ يَنْثِرُ ذَلِكَ التُّرَابَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ وَهُوَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ يَسَ: "يَسَ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ." - إِلَى قَوْلِهِ - "وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ". حَتَّى قَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ وَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ تُرَابًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى حَيْثُ أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ. قُلْتُ: وَلَقَدْ اتَّفَقَ لِي بِبِلَادِنَا الْأَنْدَلُسِ بِحَصْنِ مَنَّوَرٍ مِنْ أَعْمَالِ قُرْطُبَةَ مِثْلُ هَذَا. وَذَلِكَ أَنِّي هَرَبْتُ أَمَامَ الْعَدُوِّ وَانْحَرْتُ إِلَى نَاحِيَةِ عَنْهُ، فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِي فَارِسَانٍ وَأَنَا فِي قَضَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ قَاعِدٌ لَيْسَ يَسْتُرُنِي عَنْهُمَا شَيْءٌ، وَأَنَا أَقْرَأُ أَوَّلَ سُورَةِ يَسَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَعَبَّرَا عَلَيَّ ثُمَّ رَجَعَا مِنْ حَيْثُ جَاءَا وَأَحَدُهُمَا يَقُولُ لِلْآخَرِ: هَذَا ذَيْبِلَةٌ¹، يَعْثُونَ شَيْطَانًا. وَأَعْنَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَبْصَارَهُمْ فَلَمْ يَرَوْنِي، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا عَلَى ذَلِكَ"².

2/ توثيق سبب سقوط قلاع الأندلس الضائعة بسبب ترك الجهاد:

فعند قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ نزل هذه الآية على أهل الأندلس متأسفا على ضياع جوهرة الإسلام الضائعة فضاعت الأندلس حين ترك

¹ كلمة فرنسية تعني إبليس أو شيطان وهي موجودة في قاموس الفرنسية le diable ولعل هذه الكلمة من لغة اللاتين التي تفرقت فيما بعد إلى لغات عديدة ولكن أصلها واحد.

² الجامع لأحكام القرآن: 270/10.

المسلمون الجهاد في سبيل الله قال متأسفاً ومنزلاً: " قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: "عَسَى" مِنَ اللَّهِ إِجَابٌ، وَالْمَعْنَى عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا مَا فِي الْجِهَادِ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ فِي أَنْتُمْ تَغْلِبُونَ وَتَنْظُرُونَ وَتَغْنَمُونَ وَتُوجِرُونَ. وَمَنْ مَاتَ شَهِيدًا، وَعَسَى أَنْ تُجِبُوا الدَّعَةَ وَتَرَكَ الْقِتَالَ وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ فِي أَنْتُمْ تَغْلِبُونَ وَتَذِلُّونَ وَيَذْهَبُ أَمْرُكُمْ. قُلْتُ: وَهَذَا صَحِيحٌ لَا غَبَارَ عَلَيْهِ، كَمَا اتَّفَقَ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، تَرَكُوا الْجِهَادَ وَجَبُّوا عَنِ الْقِتَالِ وَكَثَرُوا مِنَ الْفِرَارِ، فَاسْتَوْلَى الْعَدُوُّ عَلَى الْبِلَادِ، وَأَيُّ بِلَادٍ؟! وَأَسْرَ وَقَتَلَ وَسَبَى وَاسْتَرْقَى، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ! ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَنَا وَكَسَبْتَهُ!"¹

3/ توظيف فتح بلاد الأندلس على يد طارق بن زياد:

فعند قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحَفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ وفي معرض ذكر مسألة متى يسيى الفرار من العدو وتوليا منهيا عنه؟ وذكر آراء أهل العلم ومنهم الجمهور في المسألة بتفصيل، متى كان الفرار من ضعف عدد المؤمنين فما دون كان النهي منصرفا إلى ذلك ومتى كان عدد الكفار أضعافا كثيرة لم يسيى ذلك توليا واستشهد القرطبي بغزوة مؤتة وانسحاب خالد بن الوليد من جحالف الروم وكانوا مأتي ألف في وجه ثلاثة آلاف ثم قال القرطبي: والصبر أفضل واستشهد بحادثة فتح الأندلس على يد طارق بن زياد وهذا تنزيل قبلي سابق لزمن المفسر فقال رحمة الله عليه: "الثانية- أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْأُولَى الْمُؤْمِنُونَ أَمَامَ الْكُفَّارِ. وَهَذَا الْأَمْرُ مُقَيَّدٌ بِالشَّرْطَةِ الْمُنْصَوِّصَةِ فِي مِثْلِي الْمُؤْمِنِينَ، فَإِذَا لَقِيتَ فِتْنَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِتْنَةً هِيَ ضِعْفُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَالْفَرَضُ الْأَوَّلُ أَمَامَهُمْ. فَمَنْ فَرَّ مِنْ اثْنَيْنِ فَهُوَ قَارٌّ مِنَ الرَّحْفِ. وَمَنْ فَرَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ فَلَيْسَ بِقَارٍّ مِنَ الرَّحْفِ، وَلَا يَتَوَجَّهَ عَلَيْهِ الْوَعِيدُ. وَالْفِرَارُ كَبِيرَةٌ مُوبِقَةٌ بِظَاهِرِ الْقُرْآنِ وَإِجْمَاعِ الْأَكْثَرِ مِنَ الْأَثَمَةِ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ مِنْهُمْ ابْنُ الْمَاجِشُونِ فِي الْوَاضِحَةِ: إِنَّهُ يُرَاعَى الضَّعْفُ وَالْقُوَّةُ وَالْعِدَّةُ، فَيَجُوزُ عَلَى قَوْلِهِمْ أَنْ يَفِرَّ مِائَةُ فَارِسٍ مِنْ مِائَةِ فَارِسٍ إِذَا عَلِمُوا أَنَّ مَا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ النُّجْدَةِ وَالْبَسَالَةِ ضِعْفٌ مَا عِنْدَهُمْ. وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ الجمهور فلا يحل فرار مائة إلا مِمَّا زَادَ عَلَى الْمِائَتَيْنِ، فَمَهْمَا كَانَ فِي مُقَابَلَةِ مُسْلِمٍ أَكْثَرُ مِنْ اثْنَيْنِ فَيَجُوزُ الْإِهْرَامُ، وَالصَّبْرُ أَحْسَنُ. وَقَدْ وَقَفَ جَيْشٌ مُؤْتَةٌ وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ فِي مُقَابَلَةِ مِائَتَيْ آلَفٍ، مِنْهُمْ مِائَةُ آلَفٍ مِنَ الرُّومِ، وَمِائَةُ آلَفٍ مِنَ الْمُسْتَعْرَبَةِ مِنْ لَحْمٍ وَجَذَامٍ. قُلْتُ: وَوَقَعَ فِي تَارِيخِ فَتْحِ الْأَنْدَلُسِ، أَنَّ طَارِقًا مَوْلَى مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ سَارَ فِي آلَفٍ وَسَبْعِمِائَةِ رَجُلٍ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، وَذَلِكَ فِي رَجَبِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ، فَالْتَقَى وَمَلَكَ الْأَنْدَلُسَ لَدْرِيقَ وَكَانَ فِي سَبْعِينَ آلَفَ عَنَانٍ، فَزَحَفَ إِلَيْهِ طَارِقٌ وَصَبَرَ لَهُ فَهَزَمَ اللَّهُ الطَّاغِيَةَ لَدْرِيقَ، وَكَانَ الْفَتْحُ"².

¹ المصدر السابق: 39/3.

² المصدر نفسه: 381/7.

4/ توثيق استشهاد والده بقرطبة سنة 627هـ:

وعند قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ طرح مسألة حكم الشهادة في سبيل الله وهل المقتول في غير المعتكف يسمى شهيدا أم لا؟ ووظف نازلة نزلت بهم في قرطبة فقال رحمة الله عليه: "الخامسة- العدو إذا صَبَحَ قَوْمًا فِي مَنَازِلِهِمْ وَلَمْ يَعْلَمُوا بِهِ فَقَتَلَ مِنْهُمْ فَهَلْ يَكُونُ حُكْمُهُ حُكْمَ قَتِيلِ الْمُعْتَكِفِ، أَوْ حُكْمَ سَائِرِ الْمُؤْتَى، وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ نَزَلَتْ عِنْدَنَا بِقَرْطَبَةَ أَعَادَهَا اللَّهُ: أغار العدو قصمه الله- صَبِيحَةَ الثَّالِثِ مِنْ رَمَضَانَ الْمُعْظَمِ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّمِائَةِ وَالنَّاسُ فِي أَجْزَائِهِمْ عَلَى غَفْلَةٍ، فَقَتَلَ وَأَسَرَ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ قُتِلَ وَالِدِي رَحِمَهُ اللَّهُ، فَسَأَلْتُ شَيْخَنَا الْمُقَرَّرَ الْأُسْتَاذَ أَبَا جَعْفَرٍ أَحْمَدَ الْمُعْرُوفَ بِأَبِي حِجَّةٍ فَقَالَ، غَسَلَهُ وَصَلَى عَلَيْهِ، فَإِنَّ أَبَاكَ لَمْ يُقْتَلَ فِي الْمُعْتَكِفِ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ. ثُمَّ سَأَلْتُ شَيْخَنَا رَبِيعَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ رَبِيعِ بْنِ أَبِي فَقَالَ: إِنَّ حُكْمَهُ حُكْمُ الْقَتْلَى فِي الْمُعْتَكِفِ. ثُمَّ سَأَلْتُ قَاضِي الْجَمَاعَةِ أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ قَطْرَالٍ وَحَوْلَهُ جَمَاعَةً مِنَ الْفُقَهَاءِ فَقَالُوا: غَسَلَهُ وَكَفَّنَهُ وَصَلَّى عَلَيْهِ، فَفَعَلْتُ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَفْتُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ فِي "التَّبَصُّرَةِ" لِأَبِي الْحَسَنِ اللَّخْمِيِّ وَغَيْرِهَا. وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا غَسَلْتُهُ، وَكُنْتُ دَفَنْتُهُ بِدَمِهِ فِي ثِيَابِهِ".¹

5/ توظيف ضعف المسلمين وتفرقهم وتسلب العدو عليهم:

فعند قوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ نزل الإمام القرطبي هذه الآية على حال المسلمين في بلاده بعد ذكره لأقوال السلف في معناها هل هي في الكفار خاصة أم عامة للمسلمين والكفار أم خاصة في أهل القبلة قال منزلا ومسقطا الآية على واقعه وحال المسلمين في بلاد الأندلس: " (وَيُذِيقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) أَيُّ بِالْحَرْبِ وَالْقَتْلِ فِي الْفِتْنَةِ، عَنْ مُجَاهِدٍ. وَالْآيَةُ عَامَّةٌ فِي الْمُسْلِمِينَ وَالْكَفَّارِ. وَقِيلَ هِيَ فِي الْكَفَّارِ خَاصَّةٌ. وَقَالَ الْحَسَنُ: هِيَ فِي أَهْلِ الصَّلَاةِ. قُلْتُ: وَهُوَ الصَّحِيحُ، فَإِنَّهُ الْمَشَاهِدُ فِي الْوُجُودِ، فَقَدْ لَبِسْنَا الْعُدُوَّ فِي دِيَارِنَا وَاسْتَوَلَى عَلَى أَنْفُسِنَا وَأَمْوَالِنَا، مَعَ الْفِتْنَةِ الْمُسْتَوَلِيَةِ عَلَيْنَا بِقَتْلِ بَعْضِنَا بَعْضًا وَاسْتِبَاحَةِ بَعْضِنَا أَمْوَالَ بَعْضٍ. نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ. وَعَنِ الْحَسَنِ أَيْضًا أَنَّهُ تَأَوَّلَ ذَلِكَ فِيمَا جَرَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ".²

6/ تنزيل الآية الأولى من سورة العنكبوت على ثغور المسلمين ببلاد الأندلس وغيرها:

فعند قوله تعالى ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ أقر الإمام ابن عطية على تنزيله هذه الآية في ثغور المسلمين وخطوط التماس مع بلاد الكفر،

¹ المصدر السابق: 272/4.

² المصدر السابق: 9/7.

فأورد قول ابن عطية الذي يرى أن الآية وإن نزلت في سبب خاص إلا العبرة بالعموم عملاً للقاعدة المشهورة قال رحمه الله: " قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُسَلِّيَةً وَمُعَلِّمَةً أَنَّ هَذِهِ هِيَ سِرُّهُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ اخْتِبَارًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِتْنَةً. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ بِهَذَا السَّبَبِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ فَهِيَ بَاقِيَةٌ فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَوْجُودٌ حُكْمُهَا بَقِيَّةَ الدَّهْرِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْفِتْنَةَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بَاقِيَةٌ فِي تَغَوُّرِ الْمُسْلِمِينَ بِالْأَسْرِ وَنِكَايَةِ الْعَدُوِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَإِذَا عُدِيَ أَيْضًا كُلُّ مَوْضِعٍ فِيهِ ذَلِكَ بِالْأَمْرَاضِ وَأَنْوَاعِ الْحَيِّ. وَلَكِنَّ الَّتِي تُشَبِّهُ نَازِلَةَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ قُرَيْشٍ هِيَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَمْرِ الْعَدُوِّ فِي كُلِّ تَغَرٍّ. قُلْتُ: مَا أَحْسَنَ مَا قَالَهُ. وَلَقَدْ صَدَقَ فِيمَا قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ¹.

هذا إقرار من الإمام القرطبي لتنزيل الإمام ابن عطية رحمه الله تعالى فقد وافق على هذا التنزيل واستحسن ما قاله بل وصدقه فيما ذهب إليه فاتفقت الفريضة الفكرية للقرطبي مع ما جادت به خاطرة الإمام ابن عطية فاتفق في هذا التنزيل عالمان جليلان من أئمة الأمة في التفسير وأبي عالمان !!!

الخاتمة

- تنزيلات الإمام القرطبي على حوادث بلاد الأندلس وثقت لأحداث تاريخية ذكرها المؤرخون في كتبهم، وبعضها انفرد القرطبي بتوثيقها.
 - هذه التنزيلات تعدّ تفاعلاً من القرطبي مع واقع أمته في وطنه وتفسيره غني بأنواع التنزيلات الأخرى الفقهية والعقدية والسلوكية.
 - إسقاط القرآن على الواقع ليس حكراً على لون التفسير الموضوعي الذي ظهر في العصر الحديث بل إن للمفسرين القدامى قصب السبق في الممارسة العملية لقضية التنزيل والإمام القرطبي واحد من هؤلاء.
- التوصيات**

- نوصي بجمع واستقراء تنزيلات الإمام القرطبي بأنواعها فهي حريّة بالجمع والدراسة والتحليل.

قائمة المصادر والمراجع

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: محمد بن سالم مخلوف، تع: عبد المجيد خيالي، ط: 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ-2003م.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين الذهبي، تح: بشار عواد معروف، ط: 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م.

¹ المصدر نفسه: 324/13.

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: إبراهيم بن علي المعروف بابن فرحون، تح: محمد الأحمد أبو نور، دط، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، دت.
- طبقات المفسرين: جلال الدين السيوطي، تح: علي محمد عمر، ط: 1، مكتبة وهبه، القاهرة، 1396هـ.
- طبقات المفسرين: محمد بن علي الداوودي، دط، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الحي ابن العماد الحنبلي، تح: محمود الأرناؤوط، ط: 1، دار ابن كثير، بيروت، 1406هـ-1986م.
- معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر: عادل نويهض، تق: حسن خالد، ط: 3، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1409هـ-1988م.
- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، تح: أحمد البردوني إبراهيم اطفيش، ط: 2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1384هـ-1964م.
- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين نظرة تأصيلية: عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، ط: 1، دار ابن حزم، بيروت، 1435هـ-2014م.
- التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، دط، مكتبة وهبه، القاهرة، دت.
- دولة الإسلام في الأندلس: محمد عبد الله عنان، ط: 2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1417هـ-1997م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب: شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، ط: 2، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997م.

تنزيل الآيات القرآنية على الواقع عند الإمام عبد المنعم بن الفرس من خلال كتابه «أحكام القرآن»

أ / محمد الصالح غريسي

قسم أصول الدين - معهد العلوم الإسلامية - جامعة الوادي
ghrissi-mohamdsalah@univ-eloued.dz



الملخص

تتناول هذه المداخلة . الموسومة بـ تنزيل الآيات القرآنية على الواقع عند الإمام عبد المنعم بن الفرس من خلال كتابه أحكام القرآن . توظيف الآيات القرآنية في الإسقاط على الواقع. وقد استعمل ابن الفرس هذا المبدأ في كتابه أحكام القرآن وفق آليات عموم النص وإطلاقه ومفهومه، وظهر من خلال مسائل النوازل والمستجدات الفقهية والفتوى في مجالات الجهاد والأسرة والسياسة، وأيضا وظف الآيات القرآنية في الردود على مختلف الفرق الإسلامية في مجال العقيدة. وحاولت دراسة ذلك من خلال الخطة الآتية:

أولاً: ماهية تنزيل الآيات القرآنية على الواقع عند المفسرين

ثانياً: التعريف بابن الفرس وكتابه أحكام القرآن

ثالثاً: نماذج من تنزيل الآيات القرآنية على الواقع في كتابه أحكام القرآن
الكلمات المفتاحية: التنزيل؛ الواقع؛ أحكام القرآن؛ الآيات القرآنية.

مقدمة

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

لقد اهتم مفسرو الأندلس . وهم جزء من الغرب الإسلامي . بكتاب الله تعالى قراءة وإقراء وتفسيرا واستنباطا، ومن هؤلاء ابن عطية، ابن العربي، القرطبي، وأبو حيان وغيرهم. ومن خصائص المدرسة الأندلسية في التفسير: "الإصلاح الاجتماعي وذلك بربط تفسير الآيات بالواقع والمجتمع الذي يعيشون فيه فيشربون إلى الانحرافات السلوكية والعقائدية في مجتمعهم سواء كانت من العامة أو من بعض المنتسبين إلى العلم أو من الحكام فحاربوا البدع والمنكرات، وحذروا من المعتقدات الزائفة، والطرق الصوفية الضالة، والتمسوا علاجها من آيات القرآن الكريم فيبينوه وشخصوا الداء ووصفوا الدواء"¹.

¹ - منهج المدرسة الأندلسية في التفسير، فهد بن عبد الرحمن الرومي، ص 68.

ومن المفسرين الذين ساهموا في توظيف النص القرآني وتنزيله على الواقع واستنباط حكم المستجدات الفقهية والنوازل والرد على الفرق الإسلامية المختلفة عقائدياً لأهل السنة الإمام عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم بن محمد الخزرجي الغرناطي، ويعرف بابن الفرس من خلال كتابه أحكام القرآن الذي فسر فيه آيات الأحكام فقط وسار فيه على الاتجاه الفقهي في التفسير.

ومشاركة مني في إثراء أعمال الملتقى الدولي الثامن في كلية العلوم الإسلامية بجامعة الوادي الموسوم بـ جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع اخترت أن تكون عنوان مداخلتي موسومة بـ: تنزيل الآيات القرآنية على الواقع عند الإمام عبد المنعم ابن الفرس من خلال كتابه أحكام القرآن. دراسة نماذج -

وتهدف هذه المداخلة إلى إبراز جهود الإمام ابن الفرس في توظيف الآيات القرآنية في الفتوى والنوازل والمستجدات الفقهية والسياسية، وفي الدفاع عن العقيدة الإسلامية. وأيضاً إبراز مدى عناية علماء الغرب الإسلامي بالإصلاح الاجتماعي انطلاقاً من الآيات والهدايات القرآنية.

ولتحقيق هذا الهدف والوصول إليه طرحت الإشكالية الآتية:

ما هي أبرز النماذج والمجالات التي وظف فيها الإمام ابن الفرس الآيات القرآنية في تنزيلها على الواقع؟ وما هي الآليات والقواعد التي استعملها في التنزيل؟

وللإجابة على الإشكالية السابقة قسمت المداخلة إلى:

أولاً: ماهية تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين

ثانياً: التعريف بالإمام ابن الفرس وكتابه

ثالثاً: أهم القواعد والآليات التي استعمل فيها ابن الفرس تنزيل الآيات على الواقع والأمثلة المختارة من خلال كتابه أحكام القرآن.

الدراسات السابقة: هناك عدة دراسات كثيرة تناولت كتاب أحكام القرآن لابن الفرس سواء من ناحية الفقه وأصوله أم من ناحية التفسير ومناهجه ومن ناحية الاستنباط.

أما الزاوية . وهي تنزيل الآيات على الواقع . التي عزمت على دراستها وإظهارها من خلال كتابه أحكام القرآن فلم أعثر على دراسة في ذلك بحسب بحثي وإطلاعي. فالموضوع بكر ولم يسبق إليه.

المنهج المتبع: إن المنهج الذي سلكته في الدراسة هو المنهج الاستقرائي القائم على تتبع المواضيع في كتاب أحكام القرآن؛ فقد قرأت الجزء الأول كاملاً قراءة فاحصة متأنية أما الجزء الثاني والثالث فقد قرأته قراءة سريعة مكثفياً بالملاحظة فقط. وبعد استخراج النماذج قسمتها بحسب مجالاتها إلى ثلاثة أقسام.

أولاً: ماهية تنزيل الآيات القرآنية على الواقع

اعتنى الباحثون المعاصرون المختصون في الدراسات القرآنية بإعطاء مفهوم لتنزيل الآيات القرآنية على الواقع، ومن أشهرهم في ذلك عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر إذ قال: "هو مقابلة الأحداث المعاصرة للمفسر بما يشابهها في كتاب الله تعالى، سواء كانت المقابلة تامة أو جزئية أو مخالفة لما عليه الآية"¹.

تعريف آخر: "إجراء حكم الآية على حادثة مستجدة من السنن الإلهية أو الأفعال والأحوال الإنسانية للفرد والجماعة، من ذي ملكة راسخة في التفسير والاستنباط"².

ثانياً: التعريف بالإمام ابن الفرس وكتابه أحكام القرآن:

1. التعريف بالإمام ابن الفرس:

نسبه وأسرته: هو عبدُ المنعم بن محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن فَرْج بن خَلَف بن سَعِيد بن هِشَام الْخَزَرْجِيُّ، غرناطي، أبو محمد، ابنُ الفَرَس³.

مولده ونشأته: كان مولده سنة أربع وعشرين وخمس مئة، قاله أبو سليمان بن حَوْط الله وأبو القاسم بن فَرْقَد. وقال ابنه أبو يحيى عبد الرحمن وأبو محمد ابنُ القُرطبي عنه: إن مولده سنة خمس وعشرين، زاد أبو الربيع بن سالم: آخر السنة⁴. والأرجح الرواية الثانية فهي منقولة عن ابنه وتلميذه ابن القرطبي وأبو الربيع.

وكان من بيت علم وجلالة مُستبحراً في فنون المعارف على تفاريقها، متحققاً بها نافذاً فيها، ذكي القلب حافظاً للفقه حاضر الذكر له، متقدماً في علوم اللسان فصيح المنطق.

شيوخه: أخذ ابن الفرس العلم عن شيوخ كثير ومتنوعين مما أثر إيجاباً في تكوين شخصيته الموسوعية العلمية القوية. وقد فاق عددهم الخمسين شيخاً منهم⁵: جده وأبوه وتفقه به في الحديث وكتب أصول الدين وسمع أبا الوليد الدباغ وأبا الحسن بن هذيل وأخذ عنه القراءات وغيرهما وأجاز له جماعة منهم أبو الحسن بن مغيث وأبو القاسم بن بقي وأبو الحسن بن شريح وابن العربي وأبو الحجاج القضاعي والرشاطي وأبو المظفر

¹ - تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، ص33، (المجلس الوطني للإعلام، الإمارات، 1428هـ/2008م)، ط1.

² - تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين بدلالة المفهوم، رقية بنت محمد العتيق، ص29، مجلة الجامعة الإسلامية، ملحق العدد: 183، الجزء الرابع عشر.

³ - الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ابن عبد الملك المراكشي، 46/3، (دار الغرب الإسلامي، تونس، 2012 م)، ط1، ت: إحسان عباس، وآخرون.

⁴ - نفس المصدر، 50/3.

⁵ - ينظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف، 218/1، (دار الكتب العلمية، لبنان، 1424 هـ - 2003م)، ط1، ت: عبد المجيد خيالي.

الشيباني وأبو سعيد الجلي والإمام المازري.

تلاميذه: تفرغ ابن الفرس للتدريس والإقراء والرواية فتلقى عنه العلم خلق كثير منهم:

ابنه أبو يحيى عبد الرحمن وأبو أحمد جعفر بن أبي الحسين ابن زعرور وأبو إسحاق بن عبد الله بن قسوم، وأبو بكر: ابن عبد النور وابن عتيق اللاردي، وأبو جعفر: ابن زكريا بن مسعود وابن عبد المجيد الجيار، وأبى الحسن: ابن الجنان وابن القطان وابن قطرال وابن واجب وابن أبي محمد بن يحيى وأبو الحسين عبيد الله بن عاصم وأبو الربيع بن سالم وأبو سليمان بن حوط الله وأبو عبد الله التجيبي وابن عبد الحق التلمسي...¹

مؤلفاته: له مصنفات كثيرة ومختصرات نبيلة ونظم ونثر، وكل ذلك شاهدٌ بمتانة علمه وصحة إدراكه، ومن أجليها: مصنفه في "أحكام القرآن"، فإنه أجَل ما أُلف في بابهِ، وهو الذي قال فيه الناقد أبو الربيع بن سالم: وهو كتاب حسن مفيد جمعه في ريعان الشَّيْبَتَيْن من طلبه وسنه، فللنشاط اللازم عن ذلك أثره في حسن ترتيبه وتهذيبه. وفرغ من تأليفه بمُرسِيَّة عام ثلاثة وخمسين وخمس مئة، وله في الأُبنِيَّة مصنف نافع.²

وفاته: اضطرَّ في روايته قبل موته بيسير لاختلال أصابه صَدَرَ خمس وتسعين وخمس مئة، مع علةٍ حَدَرٍ طاولته فترك الأخذ عنه، إلى أن توفي على تلك الحال بغرناطة عند صلاة العصر من يوم الأحد لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة سبع وتسعين وخمس مئة، ودُفِن خارج باب البيرة، وشهد جنازته عالم لا يُحصون كثرة، وكسر الناس نَعْشَهُ وتَقَسَّمُوهُ تبرُّكاً به.³

2. دراسة عن كتابه أحكام القرآن:

1. التعريف بالكتاب:

ألف هذا الكتاب أبو محمد عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجي الغرناطي المعروف بـ"ابن الفرس" حيث جمع فيه الأحكام الشرعية المستنبطة من القرآن الكريم. وألم فيه بمذاهب الفقهاء، ورجح كثيراً مذهب إمامه مالك بن أنس رحمه الله.⁴

وقد ألفه في سن مبكرة من عمره، إذ فرغ من تأليفه وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين عاماً. قال تلميذه أبو الربيع بن سالم الكلاعي عن كتابه: "وهو كتاب حسن مفيد جمعه في ريعان الشَّيْبَتَيْن من طلبه وسنه، فللنشاط اللازم عن ذلك أثره في حسن ترتيبه وتهذيبه".⁵

. سبب تأليفه له ولعه المبكر في معرفة الأحكام الشرعية واستنباطها من الكتاب العزيز.

¹ - الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ابن عبد الملك المراكشي، 47/3-48.

² - الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ابن عبد الملك المراكشي، 49/3. وينظر: سير أعلام النبلاء،

الذهبي، 364/21، والديباج المذهب ابن فرحون، 134/2.

³ - نفس المصدر، 50/3.

⁴ - تفاسير آيات الأحكام ومناهجها، علي بن سليمان العبيد، 327/1.

⁵ - نفس المرجع، 327/1.

وأيضاً اطلاعه على كتب الأحكام وعدم اقتناعه بوجود كتاب يشفي نهمة الباحث العالم¹.
وقد قال في ذلك:

"وإني لما تشوفت في عنفوان الطلب، ومبدأ التعلم إلى معرفة الأحكام الشرعية، تاقت النفس إلى هذه الطريقة، فنظرت في كتب أحكام القرآن المؤلفة في ذلك، فلم أجد فيها ما يشفي نهمة متعطش، ولا يقرعين طالب، لأنني وجدتها، قليلاً ما نبه فيها على مأخذ حكم من ألفاظ الكتاب إلا في اليسير الزر. وأجل من اشتغل بذلك أبو الحسن الكيا رحمه الله، فإنه سلك في ذلك الغرض المراد، لكنه ألم به إمام الطير يحسو الثماد. ولما رأيت الأمر كذلك عنيت بالبحث عن ذلك، وطلب المسائل التي تستند إلى شيء من أدلة الكتاب العزيز، فاجتمع من ذلك كثير. فرأيت أن أجمعها في كتاب ليسهل على الطالب معرفتها"².
وبين أنه لم يستقص الأحكام كلها بل ذكر ما هو واضح³. وقال في ذلك: "واقتصرت منها على ما هو أظهر تعلقاً، وأبين استنباطاً، ليكون مسباراً لغيرها ودليلاً على مأخذ سواها"⁴.

2.2 طريقة العرض التي سار عليها:

عرض ابن الفرس كتابه على الطريقة الآتية⁵:

1. ابتدأ كتابه بمقدمة بين فيها ما يجب على المفسر المجتهد الذي يريد تعرف أفعال المكلفين. فقال: "إنه لما كان كتاب الله تعالى الأصل لكل معلوم، وجب على من اتصف بصفات المجتهدين، وأراد تعرف أفعال المكلفين، أن يبدأ أولاً فيعرف المنسوخ منه من المحكم، فإذا عرف ذلك، أخذ في استنباط الأحكام منه"⁶.

ثم بين أسباب خلاف العلماء في المسألة الواحدة قائلا: "ولا شك أنه إذا أخذ ذلك علم من الأحكام ما تعارضت فيه أدلة الكتاب واحتمالاته، ووجد من السنة الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يعارض معنى الكتاب أيضاً فيجب أن ينظر في أقوى الأدلة، وأظهر الاحتمالات، فإذا سلك هذه السبيل أمكن أن يسدد ويوفق. وكثيراً ما يوجد من الأدلة والاحتمالات ما يكون أقوى عند قوم، وأضعف عند آخرين، وبحسب ذلك يقع اختلاف العلماء في المسألة الواحدة"⁷.

ثم ذكر سبب تأليفه للكتاب، وأعقب ذلك ببيان الفائدة من معرفة خلاف العلماء

¹ المرجع السابق، 327/1.

² - أحكام القرآن، ابن الفرس، 34/1، (دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م)، ط ١، ت: طه بن علي بوسريح.

³ - تفاسير آيات الأحكام ومناهجها، علي بن سليمان العبيد، 328/1.

⁴ - أحكام القرآن، ابن الفرس، 34/1.

⁵ - تفاسير آيات الأحكام ومناهجها، علي بن سليمان العبيد، 335/1 - 336.

⁶ - أحكام القرآن، ابن الفرس، 33/1.

⁷ - المصدر السابق، 33-34/1.

قائلا: "وما عرض من اختلاف لأهل العلم في شيء من ذلك ذكرته ليعرف الناظر في كتابي ما اتفق عليه من الأحكام، وما اختلف فيه، وهذه إحدى فوائد معرفة الخلاف. والفائدة العظمى في معرفته أن يعرف الإنسان منها أدلة الشرع واحتمالاته، فإن أهل العلم ما اختلفوا في شيء إلا عن أدلة تعارضت، واحتمالات تخالفت، فقوي عند أحدهم دليل واحتمال لم يقو عند الآخر. ولهذا كان الشافعي -رضي الله عنه- يقول بالقولين في السؤال عن مسألة واحدة في حال واحدة، ومالك -رضي الله تعالى عنه- وإن كان لم يقل مثل هذا، فكثيرا ما كان يقول قولاً في مسألة، ثم يقول قولاً آخر في المسألة بعينها، وكذلك أبو حنيفة وغيره من العلماء، فإذا انحصرك خلاف العلماء في مسألة علمت أن احتمالات الشريعة منحصرة لأنه لو كان هناك احتمال له قوة لقل به"¹.

2. ثم شرع في بيان الأحكام المستنبطة من القرآن فرتبها حسب ترتيب سور القرآن الكريم سورة سورة وبين في كل واحدة هل هي من المكي أو من المدني؟ وما فيها من أحكام وناسخ ومنسوخ.

3. وطريقته في عرض الأحكام أنه يذكر الآية التي فيها حكم أو أحكام فيبين ما يستنبط منها، ثم يذكر خلاف العلماء في أحكامها، وإن كان فيها ناسخ بينه مفصلاً، كما يبين سبب النزول إن كان لها سبب، وغير ذلك.

ثالثاً: أهم القواعد والآليات التي استعمل فيها ابن الفرس تنزيل الآيات على الواقع والأمثلة المختارة من خلال كتابه أحكام القرآن

استعمل الإمام ابن الفرس عدة آليات في التنزيل منها قاعدة المفهوم بنوعها مفهوم الموافقة ومفهوم المخالفة، وقواعد العموم وهي: الأصل أن تحمل ألفاظ القرآن وتراكيبه وجمله على العموم ما لم يرد دليل على التخصيص، وقاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وما سنورده في الأمثلة يبين ويثبت ذلك، وقد استعمل ابن الفرس التنزيل في عدة قضايا ومجالات عقدية وفقهية وسياسية:

أولاً: في مجال تصحيح الاعتقاد والدفاع عن العقيدة والرد على الفرق الإسلامية كالمعتزلة والخوارج والمرجئة والقدرية والصوفية والتصوف:

من المقاصد الأصلية للقرآن الكريم "إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح، وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق، لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما"².

¹ - المصدر السابق، 34/1 - 35.

² - التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، 40/1، (الدار التونسية - تونس، ١٩٨٤ هـ).

ومن أهم خصائص التفاسير الأندلسية: "البعد عن التيارات المنحرفة وسلامتها من آراء الفرق المختلفة في العقيدة؛ فقد حاربت كثيرا آراء الرافضة والمعتزلة وشطحات الصوفية والإسرائيليات التي تنال من عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ونتيجة لذلك فلم تظهر تفسير في الأندلس للشيعنة أو المعتزلة وغيرهم من الفرق كما ظهر في الشرق"¹.

بالرغم من أن موضوع الكتاب في أحكام القرآن التشريعية الفرعية إلا أننا وجدنا "ابن الفرس يستغل مناسبات آيات الأحكام في الدفاع عن مذهب أهل السنة والجماعة والرد على الفرق المخالفة لهم من المعتزلة، والمرجئة، والجبرية، والشيعنة، والخوارج وغيرهم"².

وفيما يلي بعض النماذج التي توضح ذلك:

1. قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا... ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: 31].

قال ابن الفرس: "وفي هذه الآية عندي رد على المنجمين والكهان، ومن يدعي معرفة شيء من الغيب؛ لأن الملائكة إذا لم تعلم إلا ما علمها الله تعالى فالأدميون أخرى، وبهذا يبطل قول الإسلاميين من المنجمين الذين يقولون لا خالق إلا الله عز وجل، وإنما النجوم دلالات على الغيوب وعادات أجراها الله تعالى كما أجرى الغيوم والسحب الثقيلة دلالة على الأمطار..."³.

2. قوله تعالى في صفة المنافقين وإظهارهم الإيمان مع إسرارهم على الكفر: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [آيات البقرة: 8].

قال ابن الفرس: "وفي هذه الآية رد على غلاة المرجئة. قال بعض المفسرين: وهم الكرامية، في قولهم: إن مهر الشهادتين بلسانه يدخل الجنة وإن لم يعتقد ذلك بقلبه تعلقاً منهم بقوله صلى الله عليه وسلم في بعض طرق حديث مالك بن الدخشم: «لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله فيدخل النار [وأني رسول الله]» وبغير ذلك من ظواهر الأخبار، لأنه تعالى قد نفى الإيمان عن المنافقين بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8]⁴.

3. قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: 47].

قال ابن الفرس: "وهذه الآية مما يحتج به المعتزلة في إبطال الشفاعة بقوله تعالى بعدها: ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ وبقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ مِنْ شَافِعِينَ﴾ ونحو ذلك، ولا حجة

¹ - منبر المدرسة الأندلسية في التفسير، صفاته وخصائصه، فهد بن عبد الرحمن الرومي، ص 66.

² - تفاسير آيات الأحكام ومناهجها، علي بن سليمان العبيد، 355/1.

³ - أحكام القرآن، أبو محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم، 53/1، (دار ابن حزم، بيروت - لبنان، 1427 هـ -

2006 م)، الطبعة: الأولى، ت: طه بن علي بوسريح.

⁴ - أحكام القرآن، 40/1.

في الآية لأنها محتملة أن تكون في الكافرين خاصة، وحقق هذا الاحتمال وصححه حتى لا يجوز غيره متواتر الأحاديث في مسلم والبخاري وغيرهما بالشفاعة في المؤمنين¹.

4. قوله تعالى: ﴿فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾ [البقرة: 22].

قال ابن الفرس: "اختلف في الرزق ما هو؟ فذهب الأكثر إلى أنه ما يصح الانتفاع به. وذهبت المعتزلة إلى أنه ما يصح تملكه، وليس الحرام عندهم برزق، وإن عاش الإنسان منه طول دهره. واحتج بعض الناس بهذه الآية على إبطال قولهم لأن الله تعالى أوقع اسم الرزق فيها على ما يخرج من الثمرات قبل التملك لها، أي أخرج منها ما يصلح أن يكون رزقاً لكم، وكذلك احتج على إبطال ذلك بعضهم أيضاً بقوله تعالى بعد هذا ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾ [البقرة: 25]².

5. وأيضاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿فاتقوا النار التي وقودها النار والحجارة أعدت للكافرين﴾ [البقرة: 24]. قال عبد المنعم: "في هذا دليل صحيح أن النار مخلوقة بعد، ورد على من قال إنها لم تخلق حتى الآن، وهو قول بعض المعتزلة، سقط فيه مندر بن سعيد. وكذلك قوله تعالى في الجنة في موضع آخر: ﴿أعدت للمتقين﴾ [آل عمران: 133] دليل على أن الجنة مخلوقة الآن خلافاً لمن قال فيها مثل قوله في النار"³.

6. قوله تعالى: ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ [النساء: 29].

قال ابن الفرس: "أباح الله تعالى في هذه الآية التجارات وهي اسم واقع على عقود المعاوضات المقصود بها طلب الأرباح ويؤخذ منه جواز طلب القوت بها. وفي هذا دليل على فساد قول من ينكر طلب الأقوات بالصناعات والتجارات من المتصوفة الجهلة؛ لأن الله تعالى حرم أكل الأموال بالباطل وأحلها بالتجارة وفي إحلاله تعالى ذلك إباحة أن يشتري الإنسان سلعة من آخر بدرهم وهي تساوي مائة"⁴.

ثانياً: في مجال الفقه والنوازل الفقهية:

1. قوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾ [البقرة: 114].

قال ابن الفرس: "وهذه الآية وإن كانت خرجت على ذكر مسجد مخصوص، فإنها تعم جميع المساجد على مشهور القول في هذا. قال بعضهم: وكذلك من خرب مدينة الإسلام

¹ - أحكام القرآن، 66/1.

² - أحكام القرآن، 41/1.

³ - أحكام القرآن، 43/1.

⁴ - أحكام القرآن، 157/2، (دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م)، ط 1، ت: منجية بنت

الهادي النفري السوایحي.

لأنها مساجد، وإن لم تكن موقوفة إذ الأرض كلها مسجد. ومما يتعلق بهذا، مسألة وقعت قديماً في المؤذن يؤذن في الأسحار، ويتهل بالدعاء ويردده إلى أن يصبح فشكاه الجيران وأرادوا قطعه، فاختلف الشيوخ فيها، ويمكن أن يحتج لترك المنع من ذلك بقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ [البقرة: 114]. ويدل على أن للمسلمين إخراجهم منها إذا دخلوها ولولا ذلك ما كانوا خائفين بدخولها، ويدل على أيضاً قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 17] وعمارتها تكون ببنائها وإصلاحها أو حضورها ولزومها¹.

2. قوله تعالى: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: 35].

من الأئمة الذين نبذوا التقليد والتعصب للمذاهب الفقهية الإمام ابن الفرس، ومن خلال كتابه أحكام القرآن في مناقشته لمسألة فقهية يتعجب الإمام من أهل الأندلس وما آل إليه أمرهم في الاقتداء بمذهب الإمام مالك فقال ابن الفرس: "واختلف المتأخرون من أشياخنا في جعل الأمانة بين الزوجين، فقالت طائفة منهم: بإجازة ذلك ولم تر بعث الحكمين. قالت: لأنه أمر لم يحكم به من كان قبلنا من أئمة العدل ولكن تخرج المرأة إلى دار الأمين أو يسكن أمين معها. وقد ذكر مثل هذا ابن سحنون عن أبيه من قول مالك في النصرانية الحاضنة إذا خيف منها أن تضم إلى ناس من المسلمين، وأنكرت طائفة هذا وقالوا: القول بالحكمين مما لا يجوز الحكم بغيره؛ لأن الله تعالى حكم به، وأصحاب النبي ﷺ، وهلم جرا، وقد بعث عمر بن الخطاب حكمين، وفعل ذلك علي ابن أبي طالب. وآية التحكيم محكمة لا خلاف في ذلك، وبذلك قال ابن لبابة. وقال ابن القطان: لا يقضي بإسكان أمانة معهما، يتعرف بها الضرر وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وأعجب من أهل بلادنا في هذه المسألة وشبهها يقلدون مالكاً في العظام، وإن لم يستند فيها إلى نص ويخالفونه في الدقائق، وإن استند فيها إلى نص ولم يقنعوا بخلاف مالك في هذه المألة حتى خالفوا فيها ما أمر الله تعالى به"².

ثالثاً: في قضايا الجهاد وإقامة الحدود وأمور السياسة:

1. قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256].

قال ابن الفرس: "وأما أهل الكتاب فباتفاق أنهم داخلون في الآية على هذا [القول]، بل التأويل لأنه لا خلاف في وجوب قبول الجزية منهم، إلا أني رأيت بعض أشياخ [أهل] زماننا يقول: الإمام مخير في أخذ الجزية من اليهود والنصارى إذا بذلوها ورضوا بالذمة فالإمام

¹ - أحكام القرآن، 96/1.

² - أحكام القرآن، 185/2.

مخير على قوله ألا يقبلها. ولا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف حكاه عن بعض أشياخه. ومما احتج به هذا القائل حديث النبي ﷺ عن عيسى ابن مريم -عليه السلام- أنه ينزل فيكسر الصليب ويضع الجزية قال: وهو لا يأتي إلا بشريعة محمد -عليه السلام-، فلولا أنه في شريعة محمد -عليه السلام- أن الإمام مخير لما جازله ألا يقبلها ولو كان قبولها منهم واجباً إذا بذلوا لما جازله أن يضعها، ولا يأخذها منهم. وهذا قول غريب لا يتجه إلا على القول الأول إن الآية منسوخة. وأما الاحتجاج بالحديث فيضعف لاحتمال أن قوله «يضع الجزية» أن يريد وضعها عليهم حتى لا يبقى منهم أحد إلا تحت الجزية. ويحتمل أن يريد ويسقطها ولا يرضى منهم إلا بالإسلام. وحكى ابن حزم الإجماع على أنه تحرم دماؤهم إذا بذلوا الجزية، وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29] وكان النبي ﷺ إذا بعث إلى قتالهم، أمر أن يدعوا إلى الإسلام فإن أجابوا، وإلا دعوا إلى الجزية، فإن أجابوا وإلا فالسيف. والمجوس مثلهم لأنه ﷺ قال: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» وهم أهل كتاب على قول، فلا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية باتفاق على ذلك القول¹.

2. قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256].

"ابن الفرس كان محيطاً بقضايا الأندلس عموماً، ويظهر ذلك من خلال إشارته للظروف السياسية التي مرت بها البلاد في مؤلفه أحكام القرآن، حيث يذكر لنا فتوى والده بعدم جواز تمكين المكرهين على الإسلام من الرجوع عنه، إبان الفتنة التي وقعت بالأندلس سنة 539هـ خلال ضعف حكم المرابطين"².

ومن الأمثلة على ذلك قوله: "قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256] لفظه لفظ الخبر ومعناه النبي، فإن أكره أحد ممن ذكرنا أنه لا يكره على الإسلام فهل يتعقد إسلامه ولا يكون عنه رجوع أم لا؟ ففيه في المذهب قولان، والشافعي يقول لا يصح إسلامه، وأبو حنيفة يقول يصح ويحكم به. والخلاف في المسألة مبني على أن النبي هل يدل على فساد المنهني عنه أم لا؟ فإذا قلنا إنه يدل على الفساد فليس إسلامهم بإسلام، وإذا لم يكن كذلك فكأنهم لم يسلموا فلهم الرجوع إلى ما كانوا عليه، وإن قلنا إنه يدل على الصحة كما قال بعضهم، فالإسلام منعقد تام، فإن رجع عنه قتل، وإن قلنا إنه لا يدل لا على فساد، ولا على صحة كما يذهب إليه المحققون من الأصوليين، فليس في الآية على شيء من ذلك دليل.

وقد وقعت هذه المسألة في زمن الفتنة عندنا بالأندلس، وقد كتب إلى أبي -رضي الله

¹ - أحكام القرآن، 383/1 - 384.

² . أثر القواعد الأصولية اللغوية في الاستنباطات الفقهية من خلال كتاب أحكام القرآن لابن الفرس الأندلسي، أحمد ظريف، ص14.

عنه-بعض ولاية الكور فأجابه بأنهم لا يمكنون من الرجوع عن الإسلام. وقال ابن عباس وغيره: إنما نزلت هذه الآية في قوم من الأوس والخزرج كانت المرأة منهم إذا كانت مقلاتاً لا يعيش لها ولد تجعل على نفسها إن جاءت بولد أن تهوده، فكان من بني النضير جماعة على هذا النحو، فلما أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني النضير قالت الأنصار: كيف نصنع بأبنائنا إذ فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه. وأما إذا جاء [الله] بالإسلام فنكرهم عليه فنزلت: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ الآية. وبهذا قال الشعبي ومجاهد: إلا أنه قال كان سبب كونهم في بني النضير الاسترضاع¹.

3. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:33].

قال ابن الفرس: "وقد استدل جماعة فقهاء قرطبة في أيام هشام بن عبد الحكم وحاجبه المنصور بن أبي عامر حين كشف عن عبد الملك بن منذر بن سعيد البلوطي القاضي صاحب الرد وجماعة سواه فيما أرادوه من خلع هشام وقتل محمد بن أبي عامر والاستبدال من هشام بابن عمه عبد الرحمن بن عبد الله، ووجه بذلك كتاباً لعبد الملك بن منذر إلى بعض من واعده على ذلك فأحضره المنصور وأحضر الكتاب بحضرة فقهاء قرطبة وقاضها ابن زرب، فاعترف عبد الملك وأنه أراد أن يفعل فاستفتى فيه فكلهم أفتى بقتله واحتج بالآية: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المائدة: 33] الآية، إلا أبا عمر ابن المكوي، فقال: لا أرى قتله لأنه رجل هم بالمعصية ولم يفعلها ولا جرد سيّفاً ولا أخاف سبيلاً مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أقيلوا ذي الهيثات عثراتهم»، فأخذ هشام بفتوى غيره من الفقهاء، فقتل عبد الملك وابن عمه عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر لدين الله².

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبفضله تنزل البركات والرحمات، في ختام هذه المداخلة المتواضعة سأحاول للممة أفكارها وفقراتها على شكل النتائج الآتية:

1. يعتبر موضوع تنزيل الآيات القرآنية على الواقع عند المفسرين من الدراسات القرآنية الحديثة من حيث نظيرها والقديمة من حيث تطبيقها.

2. يعتبر الإمام عبد المنعم بن الفرس من أئمة التفسير في الغرب الإسلامي . الأندلس . وكتابه في أحكام القرآن من أهم وأفضل الكتب المؤلفة في التفسير الفقهي على مذهب المالكية.

¹ . أحكام القرآن، 1/ 384 - 385.

² - أحكام القرآن، 2/ 408 - 409.

3 . استعمل ابن الفرّس التّنزيل في عدة مجالات خاصة في مجال الرد على الفرق الضالة، ومجال الجهاد والحياة السياسية في الأندلس.

4 . منهجه في التّنزيل يعتمد على قواعد العموم ودلالات المفهوم.

وأوصي الباحثين بمزيد العناية بهذا الموضوع وتوسيعه على كل أئمة التفسير في الأندلس كابن عطية، وأبي حيان وغيرهما.

وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أثر القواعد الأصولية اللغوية في الاستنباطات الفقهية من خلال كتاب أحكام القرآن لابن الفرّس الأندلسي، أحمد ظريف.
- أحكام القرآن، أبو محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم، (دار ابن حزم، بيروت - لبنان، 1427 هـ - 2006 م)، الطبعة: الأولى، ت 1: طه بن علي بوسريح.
- أحكام القرآن، عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم المعروف بابن الفرّس، (دار ابن حزم، بيروت - لبنان، 1427 هـ - 2006 م)، ط 1، ت 2: منجية بنت الهادي النفري السوايحي.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، (الدار التونسية. تونس، 1984 هـ).
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري، دار التراث، القاهرة، دت، دط، تحقيق وتعليق: محمد الأحمد أبو النور.
- الذيل والتكملة لكتّابي الموصول والصلة، ابن عبد الملك المراكشي، (دار الغرب الإسلامي، تونس، 2012 م)، ط 1، ت: إحسان عباس، وآخران.
- تفاسير آيات الأحكام ومناهجها، علي بن سليمان العبيد، دار التدمرية، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1431 هـ/ 2010 م، ط 1.
- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين بدلالة المفهوم، رقية بنت محمد العتيق، مجلة الجامعة الإسلامية، ملحق العدد: 183، الجزء الرابع عشر.
- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز بن عبد الرحمان الضامر، (المجلس الوطني للإعلام، الإمارات، 1428 هـ/ 2008 م)، ط 1.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، 1405 هـ - 1985 م، الطبعة: الثالثة، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط تقديم: بشار عواد معروف.
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف، (دار الكتب العلمية، لبنان، 1424 هـ - 2003 م)، ط 1، ت: عبد المجيد خيالي.
- منهج المدرسة الأندلسية في التفسير، صفاته وخصائصه، فهد بن عبد الرحمان الرومي، مكتبة التوبة، الرياض/السعودية، 1417 هـ. 1997 م، ط 1.

**المشروع الإصلاحي المستوحى من تنزيل النص القرآني
عند الشيخ الصحفي أبي يقطان إبراهيم الجزائري**

د / میلود بن حاج

جامعة زيان عاشور بالجلفة (الجزائر)

miloudbenhadj17@yahoo.fr



مقدمة

طرح العديد من الشيوخ والعلماء الجزائريين في فترة الاستعمار الفرنسي مشاريعهم الإصلاحية خاصة في المجال الاجتماعي، وكانت تهدف تلك المشاريع أساسا للحفاظ على ثوابت الشخصية الوطنية المتمثلة في الدين الإسلامي، واللغة العربية، وحب الوطن، والاعتزاز بالانتماء العربي والإسلامي، كما حاول هؤلاء الشيوخ بعلمهم، وجهودهم، ووسائلهم القضاء على كل الشوائب والمظاهر السلبية الغربية عن مجتمعنا بالبدع، والخرافات، وحب تقليد الآخر والتغريب، والتي كان الاستعمار له يد فيها، ومن أبرز شيوخ الإصلاح الذين ذاع صيتهم وطنيا ودوليا في النصف الأول من القرن العشرين الشيخ حمدي إبراهيم أبو اليقظان (1888-1973م) رائد الصحافة العربية الجزائرية في عصره.

ولقد جاءت دراستنا هذه لتعالج أبرز النقاط التي طرحها الشيخ أبو اليقظان في مشروعه للإصلاح الاجتماعي، والمعبر عنه في مختلف الصحف والجرائد خاصة منها التي أسسها هو، ذلك المشروع المستنبط ملامحه من خلال النص القرآني.

وتتمحور أهمية الموضوع حول معرفة معالم هذا المشروع الذي قدمه الشيخ أبو اليقظان في عصره، وأبرز النقاط التي طرحها الشيخ محاولاً دراسة وتشخيص العلل التي لاحظها في عصره مع تقديم الحلول في إطار ما نص عليه القرآن الكريم.

وتندرج إشكالية البحث تحت جزئية مفادها: كيف وظف الشيخ أبو اليقظان التنزيل القرآني في مشروعه للإصلاح الاجتماعي، وما هي أهم القضايا التي عالجها مستظهِراً، ومُشخِصاً، ومعللاً، ومراعياً في ذلك ما نص عليه القرآن الكريم من حلول؟

وأما الدراسات السابقة التي لها علاقة بموضوع البحث فنذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، الدراسة التي قام بها الدكتور قوبع عبد القادر تحت عنوان: "الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي 1920 و1954م"، الصادرة عن دار طليطلة للنشر في سنة 2015، وهي في الأصل رسالة ماجستير نوقشت بجامعة الجزائر، وقد عالج الباحث فيها الإصلاح الديني، والتربوي، والاجتماعي في منطقتي الزيبان وبسكرة، وميزاب بغرداية، وتطرق

إلى الوسائل الموظفة في هذه المجالات ومنها الصحافة، والجمعيات، والنوادي، وأما الدراسة التي قام بها الباحث علي بن زينب بعنوان: "جهود علماء الجزائر في الدعوة والإصلاح الاجتماعي من سنة 1830 إلى 1954م"، وهي أطروحة دكتوراه العلوم في العلوم الإسلامية، تخصص الإمامة والخطابة" تحت إشراف الأستاذ الدكتور عبد الكريم بوغزالة بمعهد العلوم الإسلامية، قسم أصول الدين، جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي، في الموسم الجامعي 2020-2021م؛ فقد تناولت في فصل منها جهود علماء الجزائر في الإصلاح الاجتماعي، ومنها على سبيل المثال لا الحصر دور شيوخ الدعوة في الحفاظ على الهوية الوطنية، والرد على دعاة الاندماج والتجنس، زيادة على جهودهم في الحفاظ على اللغة العربية، ومحاربة الآفات الاجتماعية، وتطرق هذه الرسالة إلى وسائل الدعوة والإصلاح في ذلك الوقت كالتعليم، والرحلات، والزيارات، والصحافة، والنوادي والجمعيات...الخ.

وقد قسّمت هذه الدراسة إلى قسمين رئيسيين، عنونت الأول بنبذة عن نشأة الشيخ أبي اليقظان، ونشاطه السياسي والإصلاحي، وتحدثت فيه عن النشأة الأولى للشيخ أبي اليقظان، ونشاطه السياسي، والإصلاحي والصحفي، وإنتاجه الفكري، وأقوال العلماء فيه.

وأما القسم الثاني فعنوانه هو: القرآن الكريم المصدر الأساسي للشيخ أبي اليقظان في أفكاره الإصلاحية، وتتبع في هذا القسم أفكار الشيخ أبي اليقظان من خلال استدلاله بالنص القرآني، وقسمته بحسب القضايا التي طرحها، وقدم الحلول لها على ضوء القرآن الكريم؛ فكانت العناوين الفرعية كالتالي: الدعوة إلى تقوى الله في حل مشكلات عصره، الحث على الإخاء والوحدة ونبذ الفرقة، الحث على التعاون الاجتماعي، والتحذير من دعاة الحداثة والتنوير، التحذير من مشروع التجنيس الفرنسي، صده لحملات التبشير المسيحي، انتقاده لسلبية بعض العلماء في عصره، انتقاده للذين يناشدون الإصلاح بالأقوال دون الأفعال.

ولقد تم اعتماد المنهج الوصفي، والمنهج التحليلي في هذه الدراسة من خلال جمع وعرض آراء الشيخ المصلح أبي اليقظان حول مشروعه للإصلاح الاجتماعي المستنبط من القرآن الكريم بحسب ما عرضه الشيخ أبو اليقظان نفسه للقضايا التي تطرق إليها؛ فهو يشخص الحالة ثم يقدم أسبابها وعللها، وفي الأخير يقترح علاجها على ضوء نصوص القرآن الكريم، فكان لا بد علينا من جمع مقالاته المتناثرة في الجرائد، والكتب سواء منها المصادر أو المراجع، وتبويب تلك الآراء تحت عناوين بارزة بحسب المواضيع والقضايا التي تطرق إليها الشيخ أبو اليقظان.

أولاً: نبذة عن نشأة الشيخ أبي اليقظان إبراهيم ونشاطه السياسي والإصلاحي

(أ) نشأته الأولى:

هو أبو اليقظان حمدي إبراهيم بن عيسى، ولد في 05 نوفمبر 1888 بالقرارة التابعة لغرداية¹، تلقى تعليمه الأول على الطريقة التقليدية؛ فالتحق بالكتاب وحفظ القرآن الكريم، ومبادئ الدين الإسلامي، واللغة العربية ثم انتقل إلى مدرسة الشيخ اطفيش²، وربما تعلم مبادئ التجارة شأنه شأن أهل ميزاب، وفي عام 1912م رحل إلى تونس لمواصلة تعلمه، فدرس في جامع الزيتونة ثم انتقل إلى المدرسة الخلدونية، وفي سنة 1914 ترأس أول بعثة علمية جزائرية ميزابية إلى تونس³.

(ب) نشاطه السياسي والإصلاحي والصحفي:

استغل أبو اليقظان تواجده في تونس بداية من سنة 1914 بالانخراط في التكوين للعمل السياسي، فالتحق بالمنظمة السرية للثعالي سنة 1917م، وفي عام 1920م أصبح عضواً في الحزب الدستوري الوطني بزعامة الثعالي، وكان هذا الحزب يضم عدداً من الجزائريين، وبعد عودته إلى الجزائر سنة 1925م، وجدها تمر بمرحلة جديدة وهي مرحلة ما بعد فشل حركة الأمير خالد، وإعلان ما يسمى بالإصلاحات الإدارية والسياسية، وظهور حركة ابن باديس، ومحاولات الاندماجيين ملء الفراغ، وظهور صحف جديدة في الساحة كالمنتقد لابن باديس، وصدى الصحراء للعقبي، والتقدم للاندماجين، وغيرهم، فانخرط أبو اليقظان في العمل الإصلاحي، وأصدر أول صحفه "وادي الميزاب" سنة 1926 التي كانت تُطبع في تونس، وتُوزع في الجزائر، وأسس المطبعة العربية عام 1931م، وشارك في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ثم أُنتخب عضواً في مجلسها الإداري سنة 1934م، وكانت له مراسلات مع زعماء الإصلاح والوطنية بالمشرق أمثال شكيب أرسلان، وسليمان الباروني⁴.

¹ محمد دراجي، الحركة الإصلاحية في الجزائر رجال وأفكار، دارالارشاد، 2013، ص 225. قردان الميلود، فتوح محمود، الشيخ إبراهيم أبو اليقظان رائد الحركة الإصلاحية بوادي ميزاب، مجلة جسور المعرفة، مجلد 07/ العدد 03، سبتمبر 2021، ص 376.

² تنسب إلى مؤسسها محمد بن يوسف اطفيش عاش بين سنتي 1821-1914م، من أشهر علماء الإباضية، وهو صاحب التأليف العديدة في مختلف العلوم العقلية والعقلية، ولا يزال تراثه المكتوب مخطوطاً في أغلبه نظراً لضخامته. يحيى حاج امحمد، يوسف باعمارة، "جريدة البستان" للشيخ إبراهيم أبي اليقظان بصمة جزائرية رائدة في الأدب الساخر، مجلة الأثر، العدد 31، جوان 2019، ص 203.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، عالم المعرفة، (طبعة خاصة)، الجزائر، 2011، ص 290-291. محمد دراجي، المرجع السابق، ص 225. قوبع عبد القادر، الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي 1920 و1954م، دارطليطلة للنشر، 2015، ص 81-82.

⁴ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج5، ص 291-292. علي بن زينب، جهود علماء الجزائر في الدعوة والإصلاح الاجتماعي من سنة 1830 إلى 1954م، "أطروحة دكتوراه العلوم في العلوم الإسلامية، تخصص الإمامة والخطابة"، إشراف: أ.د. عبد الكريم بوزغالة، معهد العلوم الإسلامية، =

استغل أبو اليقظان الصحافة كوسيلة لتمرير أفكاره الإصلاحية باعتبارها من أبرز الوسائل في عصره، وأسرعها وصولاً لتبليغ المقاصد بالنسبة للواعظ أو المرشد أو المفكر أو صاحب رأي، وما بالك إذا كان صاحب الرسالة هو من يملك الصحف التي يكتب فيها، وقد عبر عن ذلك بقوله: "...بناء على ذلك نقول أن الجرائد في هذا العصر من الفروض الكفائية لأن للوسائل حكم المقاصد وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"¹.

الجرائد التي أسسها أبي اليقظان

اسم الجريدة	تاريخ الصدور	تاريخ التعطيل	مجموع الأعداد
وادي ميزاب	1 أكتوبر 1926م	18 جانفي 1929	119
ميزاب	25 جانفي 1930		1
المغرب	29 ماي 1930م	9 مارس 1931	38
النور	15 سبتمبر 1931م	3 ماي 1933م	78
البستان	27 أفريل 1933م	13 جويلية 1933م	10
النبراس	21 جويلية 1933م	23 أوت 1933م	6
الأمة	8 سبتمبر 1933م	6 جوان 1936م	170
الفرقان	5 جويلية 1938م	3 أوت 1938م	6

المصدر: إلياس حاج عيسى، قضايا الإصلاح في العالم الإسلامي خلال القرنين 19 و20م من منظور محلي "منطقة مزاب نموذجاً"، أعمال الملتقى الوطني حول الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي خلال القرنين 19 و20م (المشارب والآفاق)، قسم العلوم الإنسانية، جامعة زيان عاشور بالجلفة، 10 فيفري 2020م، ص302. يحيى حاج امحمد، يوسف باعمارة، "جريدة البستان" للشيخ إبراهيم أبي اليقظان بصمة جزائرية رائدة في الأدب الساخر، مجلة الأثر، العدد31، جوان 2019، ص 203.

ج)- إنتاجه الفكري:

شهدت الفترة ما بين 1926 و1938م فترة صراع أبي اليقظان مع الإدارة الفرنسية؛ فكلما يصدر صحيفة إلا ومنعته الإدارة الفرنسية؛ فيقوم بإصدار صحيفة أخرى تحت عنوان جديد، وقد بلغ عدد الصحف التي أنشأها ثماني جرائد²، وتوقف أبو اليقظان عن نشر الصحف حيث انتقل إلى القرارة، وتفرغ للتأليف، ويقدر شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله فترة رجوعه إلى القرارة بأنها كانت إما بعد الحرب العالمية الثانية أو بعد اندلاع

=جامعة الوادي، الموسم الجامعي 2020-2021م، صص273-274. بوسعيد سومية، من أعلام الفكر الإسلامي الشيخ أبو اليقظان الصحفي المصلح، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد 25، ص 54.

¹ قوبع عبد القادر، المرجع السابق، ص ص 180-181.

² إلياس حاج عيسى، قضايا الإصلاح في العالم الإسلامي خلال القرنين 19 و20م من منظور محلي "منطقة مزاب نموذجاً"، أعمال الملتقى الوطني حول الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي خلال القرنين 19 و20م (المشارب والآفاق)، قسم العلوم الإنسانية، جامعة زيان عاشور بالجلفة، 10 فيفري 2020م، ص301.

الثورة التحريرية 1954م، بينما يحددها المؤرخ محمد دراجي ابتداء من سنة 1956م¹.

وكان أبو اليقظان قد ألف أثناء تواجده بتونس كتاب "إرشاد الحائرين" سنة 1923م وهو أول كتاب ألفه، وبعد عودته إلى الجزائر أصدر ديوانا في الشعر سنة 1931م، وطُبع هذا الديوان بالمطبعة العربية بالجزائر، وهي المطبعة التي أنشأها أبو اليقظان في العام نفسه 1931م، وقد تناول فيه أبو اليقظان مواضيع إصلاحية واجتماعية. ويعتبر ديوانه من الدواوين العربية القليلة التي طبعت في الجزائر في عصره، وفي عزلته بالقرارة ألف العديد من الكتب قيل بأنها بلغت ما يقارب الستين مؤلفا في الفكر والأدب والتفسير، ومن بين مؤلفاته: كتاب في تاريخ الصحافة التي أنشأها، وكتاب في الفقه بعنوان "سلم الاستقامة" الذي يقع في سبعة أجزاء مازال في حكم المخطوط، وكتاب في تاريخ الإباضية في سوف والجريد، وله كتاب في التعريف بالشيخ سليمان الباروني، وقد ترجم له في جزئين وجاء بنصوص عديدة تدل على مكانته عنده ومكاتبته معه²، وغيرها من الكتب؛ ولهذا فإلى جانب الكتابة الصحفية فقد كان أبو اليقظان صاحب ثقافة متعددة الجوانب؛ فكان مؤرخا، وشاعرا، وباحثا في الفقه، وتوفي أبو اليقظان رحمه الله في 30 مارس 1973م³.

(د)- أقوال العلماء فيه:

كانت لأبي اليقظان علاقات واسعة مع علماء وشخصيات عصره سواء في الجزائر، أو في الخارج سواء في تونس، أو في ليبيا، أو في المشرق عموما، وقد اكتسبها في مراحل تعلمه أو في رحلاته أو عبر مراسلاته، ومن الشخصيات المصرية التي أعجبت بجهد الكلمة عند الشيخ أبي اليقظان نظيره في مصر الشيخ المصلح رشيد رضا⁴؛ ففي رسالة نعي للشيخ أبي إسحاق اطفيش التي أرسلها إلى أبي اليقظان على إثر وفاة الشيخ رشيد رضا يقول فيها: "توفي بالأمس أفضل عالم بمصر الشيخ رشيد رضا صاحب (المنار)، وخسرتُ به أكبر صديق يفهمني وأفهمه في الدين والسياسة الإسلامية، وكانت وفاته خسارة لا تعوض؛ فكم كان حزني شديدا، وكان معنا يُحِبُّكَ ويُعَجِّبُ بإخلاصك ودينك ويقول: ليس في الجزائر صحيفة

¹ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج5، ص293. محمد دراجي، المرجع السابق، ص 225.

² أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج8، ص 220.

³ نفسه، ج5، ص ص 290، 294. ج8، ص ص 219-220. محمد دراجي، المرجع السابق، ص 225.

⁴ الشيخ محمد رشيد رضا: عاش بين (1282-1354هـ/1865-1935م)، بغدادي الأصل، أحد رواد الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي، وصاحب مدرسة المنار بمصر، وتلميذ محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، من الكُتَّاب، والعلماء بالحديث، والأدب، والتاريخ، والتفسير، أصله من طرابلس الشام، له العديد من الرحلات إلى الشام، والهند، والحجاز، وأوروبا، وعاد واستقر في مصر إلى أن توفي. من أشهر آثاره: مجلة المنار (34 مجلدا)، وتفسير القرآن الكريم (12 مجلدا)، وتاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده، وغيرهم من المصنفات. محمد ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص186. خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط6، ج6، بيروت، 2005، ص126.

إسلامية سوى صحيفة أبي اليقظان والشهاب. إنا لله وإنا إليه راجعون"¹.

وأما المفكر الليبي سليمان باشا الباروني فقد قال في حق أبي اليقظان: "فحل أوتي من قوة التصرف في مختلف المعاني، ومن واسع الخيال، وسحر البيان، وبلغ النظم ما يحمرله خجلا وجه أبي العلاء وأبي الطيب في المتقدمين، والزهاوي ومطران في المتأخرين، وبحق أقول أن بغداد متى فاخرت بأبي معروف ومنافسه، والقاهرة بأمر الشعراء وصاحبه، فللشمال الإفريقي أعظم الفخر بك يا أبا اليقظان"².

وقال فيه الشيخ عبد الحميد بن باديس: "أبو اليقظان إلى جانب ميزابيته التي يفاخر بها وله الحق عربي يجاهد ويجالد في سبيل العروبة، ووطني يناضل في سبيل الوطنية، ومسلم أخلص لله دينه يجعل الإسلام في الصف الأول من كل أعماله"³.

وأما أحمد توفيق المدني فقد وصفه بقوله: "الشيخ أبو اليقظان لا يتكلم إلا عن عقيدة ولا يكتب إلا عن إيمان، ولا يجاهد إلا في سبيل الإسلام وبلاد الإسلام، وقد أظهرت الأيام من بعد أنه مقارع مجاهد، ومقاوم معاند، صارع الاستعمار ولم يصرعه الاستعمار، ضرب بسهم في الجهاد الصحفي والفكري ما لم يبلغ أحد في الجزائر شأوه"⁴.

ثانيا: القرآن الكريم المصدر الأساسي للشيخ أبي اليقظان في أفكاره الإصلاحية:

ارتبط نشاط أبو اليقظان بالاتجاه الإصلاحي الوطني الداعي إلى النهضة وتحرير الجزائر بالإسلام والعربية⁵؛ فاستند في أفكاره الإصلاحية على ضوء النص القرآني بحسب المواضيع، والجوانب، والمشكلات التي طفت على السطح في عصره، وقد حاول أن يقدم الحلول من منظور مبادئه، وتكوينه العلمي، في عصر شهد فيه حركات إصلاحية مماثلة في العالم الإسلامي.

وقد كتب في العديد من مقالاته عن أهمية الرجوع إلى نصوص القرآن الكريم كدليل لحياة المسلم كلها؛ ففي القرآن الكريم الكثير من المواد التي تشمل تتبع حياة الإنسان من الميلاد إلى الوفاة، ففي مقاله في مجلة النبراس تحت عنوان: "القرآن بين الأمس واليوم، واجب المسلمين العظيم نحو كتابهم الكريم" عالج قضية هجران مسلمي جيله للقرآن الكريم في صيغة سؤال: ماذا أصبح هذا الكتاب بيننا؟⁶، وللتطرق إلى حيثيات هذه المشكلة

¹ محمد ناصر، الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي، كولور يوم للنشر، الجزائر، ط5، 2013م، ص 74. إلياس حاج عيسى، المرجع السابق، ص 300.

² محمد ناصر، أبو اليقظان في الدوريات العربية، المطبعة العربية، غرداية، 1985، ص ص 68-69.

³ محمد ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ص 121.

⁴ أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1988، ص 245.

⁵ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج5، ص 292.

⁶ جريدة النبراس، السنة الأولى/ العدد 2، يوم الجمعة 28/07/1933، محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، ألفا ديزاين ط2، الجزائر، 2006، ص 172. محمد دراجي، المرجع السابق، ص 227.

التي أرقته، ومعالجتها، قدم تصورا في مقاله هذا متكون من خمسة محاور تناولت ما يلي:

1/- التأكيد على أن الكثير من نصوص القرآن الكريم تناولت حياة المسلم، وتتبع مراحل حياته، ونشأته، وما يجب فيها، وما عليها في مرحلة الطفولة، والشببية، والكهولة، والشيخوخة.

2/- إيراد بعض المواد المذكورة في القرآن الكريم التي تهم الفرد المسلم في حياته المعيشية كطلب الرزق، والتطبيب، والتعلم، والوعظ، والإرشاد وغيرها.

3/- الحث على الإقتداء بالسلف الصالح في تعظيمهم للقرآن الكريم والعمل به من خلال الرجوع إلى أحكامه في مختلف مناحي الحياة التعبدية، ومجال المعاملات، فقال أبو اليقظان: " منذ نزول الكتاب العظيم والمسلمون في مختلف البلاد والعصور يتسابقون لحفظه، ويتباهون بتلاوته، ويتفاخرون بالتجمل به، ويتبارون في دراسته، ويتنافسون في حل مشكلاته، وفك معضلاته، واستخراج كنوزه والغوص عن جواهر لآليه وهم على ما هم عليه من العظمة والمنعة والعزة والثروة العظيمة من رجال العلم والحكمة والأدب والسياسة والاقتصاد"¹.

4/- عرض نماذج وأمثلة لمظاهر عناية وتعلق المسلمين في العصر الوسيط بالقرآن الكريم؛ إذ ذكر بأن المسلمين في الأندلس على سبيل المثال حرصوا على تحفيظ وتعليم بناتهم القرآن الكريم، فيقول أبو اليقظان: "ومما يُحكى في هذا الصدد: أنه في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية بالأندلس كان يوجد في حارة واحدة بقربطية مائة وخمسون فتاة يحفظون القرآن عن ظهر قلب حفظا صحيحا لو نسخ من إملاء إحداهن القرآن من أوله إلى آخره لما كانت من إملائها نقطة من الغلط..."².

5/- انتقد ابتعاد مسلمي عصره عن القرآن محذرا مفسدا هذا النشوز؛ فعدد الكثير من المخاطر، لخصها في قوله: "إن ظاهرة الزهد في القرآن والإعراض عنه، وصمم الأذان عن عظاته، وتعصيب الأعين عن عبره، وعقد الألسن عن تلاوته وثنى الصدور عن وعيه، وتنفير النفوس عن الورد عن حياضه، كل هذا دليل قاطع على قرب خراب العالم وفناء الأرض..."³.

والملاحظ أن استشهاد أبو اليقظان بالقرآن الكريم لم يقتصر في متون مقالاته الصحفية بل حتى في الخط الافتتاحي وفي ذيل الجرائد التي أسسها ففي حديثه مثلا عن الغاية من تأسيس مجلة ميزاب التي أنشأها في 25 جانفي 1930 قال: "إن لكل عمل غاية وغاية جريدتنا في مجموع أعمالها هي ترقية مدارك الأمة ورفع مستواها المادي والأدبي وإحلالها المحل اللائق بها بين الأمم الحية الناهضة الشاعرة بما لها وما عليها من الحقوق والواجبات نحو الله والناس في المعاش والمعاد..."⁴ ثم يختتم هذا المقطع بالآية الكريمة: "

¹ محمد دراجي، المرجع السابق، ص226.

² نفسه، ص227.

³ السابق، ص228.

⁴ جريدة ميزاب، العدد1، السنة1، الصادر بتاريخ 25 جانفي 1930.

لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ¹.

(أ)- الدعوة إلى تقوى الله في حل مشكلات عصره:

اختار أبو اليقظان آية كريمة عنواناً رئيسياً لمقاله الافتتاحي للعدد الأول الصادر في صحيفة الفرقان، وهي قوله تعالى: "يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا"²، وعن سبب اختياره لهذه الكريمة صرح بقوله: "بآيته الكريمة أتوج هذه الجريدة القوية في إيمانها، الشريفة في غايتها في هذه الآية، لو علقت البشرية دواء البشرية (...) ابسط أمامك خريطة الكرة الأرضية أمة أمة، واستعرض مشاكلها مشكلة فمشكلة، وأنظر إلى أي قرار تتردى إليها الإنسانية وفي أي ظلام تتخبط فيه البشرية، فهل تجد لذلك من سبب غير فقدان ذلك الشرط الأساسي -تقوى الله"³.

وقد عالج في مقاله شروط صلاح المجتمع والتي تتوقف على نقطة أساسية وهي: "تقوى الله"، فدافع على الفكرة الأساسية التي طالما يدعوا إليها، وهي: "لا يصلح آخر هذه الدنيا إلا بما صلح به أولها": فسر قوة المسلمين كامنة في دينهم يعني التمسك بالقرآن واتخاذهِ وسيلة عمل وسلوك⁴.

وقد ذكر أبو اليقظان أن مشكلات عصره سواء منها على الصعيد العالمي أو الإقليمي أو المحلي سببها البعد عن الله، وتكالب البشرية على بعضها البعض؛ فتطاحن الدول العظمى، وتنافسها الحربي أدى إلى الفوضى، واختلال الموازين، زيادة على ظهور الأزمات الاقتصادية، والأخلاقية كلها مشكلات ناتجة عن بعد الإنسان عن تقوى الله⁵.

وحتى يدعم أبو اليقظان رأيه بالحجة وضع مقارنة بين عصره وعصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ إذ يرى أن صحابة رسول الله كانوا قلة يخافون أن يتخطفهم الناس، ورغم ذلك ثبتهم الله بنصره على من عاداهم عكس المسلمين في عصر أبي اليقظان، وجوهر الفرق بين الحالتين حسبه هو: "تقوى الله"، والتقوى لا تكون إلا بالرجوع إلى الفرقان كتاب الله العزيز الحكيم الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور، هذه الحلقة المفقودة في عصره التي نبه عليها أبو اليقظان؛ إذ أن ابتعاد الناس عن القرآن في عصره أخرجهم من النور إلى الظلمات⁶.

¹ سورة الطلاق، الآية 11. جريدة ميزاب، العدد1، السنة1، الصادر بتاريخ 25 جانفي 1930.

² سورة الأنفال، الآية 29. جريدة الفرقان، السنة الأولى، العدد01، الصادر في 05 جويلية 1938.

³ محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، ص252.

⁴ جريدة الفرقان، السنة الأولى، العدد01، الصادر في 05 جويلية 1938. محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، ص263.

⁵ محمد دراجي، المرجع السابق، ص230.

⁶ جريدة الفرقان، السنة الأولى، العدد01، الصادر في 05 جويلية 1938. محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، ص253.

(ب)- الحث على الإخاء والوحدة ونبذ الفرقة:

جاهد أبو اليقظان بقلمه في الكثير من مقالاته للوحدة الوطنية والتمسك بروح الأخوة بين أفراد الأمة، والوقوف ضد مخططات المستعمر في ضرب مقومات المجتمع الجزائري بإثارة النعرات والعصبية العرقية، واللغوية، والمذهبية؛ فأصدر مقالا في افتتاحية العدد الأول من مجلة وادي ميزاب موجها للنخبة وخاصة منهم الصحفيين يُذكر فيه بضرورة التصدي لمحاولات المستعمر في بث الفرقة بين المجتمع الجزائري وهذا بالنضال لإظهار ما يجمع الأمة من وحدة، وإخاء، ووثام على منهج السلف الصالح القائم على الكتاب والسنة¹.

وفي قضية الوحدة الوطنية واصل أبو اليقظان في مقاله الحديث عن قضية التنوع في مكونات المجتمع الجزائري؛ فذكر أنها ظاهرة صحية كباقي الأمم الأخرى، وهذا بقوله: "أيها الجزائري الماجد اعلم أن القطر الجزائري مدينة واحدة تاريخية، مسورة بسور واحد وهو الإسلام، وسكان دورها هم سكانه؛ فلا يمنع انحياز كل في داره، ومحافظة على مميزاته عائلته في سائر سكان المدينة من التعاون والتعااضد على جلب المصلحة لها، ودرء المضرة عنها، فإن مصلحة المدينة هي مصلحة ديارها، ومضرتها هي مضرتها إذا أقبل النهار فإلى الجميع وإذا هجم الليل فعلى الجميع..."².

وفي مقال آخر تحت عنوان: "نحن وأنتم" تهجم الشيخ أبو اليقظان على من يفرق بين أفراد المجتمع الجزائري، وانتقد كل من وقع في فخ التفرقة التي انتهجها المستعمر الفرنسي من أجل تشتيت المجتمع وتفريقه على أساس الجهة أو العرق أو المذهب، فقال: "كفى، كفى، أيها السادة من نحن وأنتم؛ فقد جعلتم من قوتنا ضعفا ومن كثرتنا قلة، ومن عزنا ذلة، ومن غنانا فقرا، ومن علمنا جهلا، كفى، كفى من قولكم هذا مالكي، هذا حنفي، هذا إباضي، هذا تيجاني، هذا قادري، هذا عربي، هذا قبائلي، هذا شرقي، هذا غربي؛ فقد فتح هذا بين صفوفنا المتراصة للغير ثغرات واسعة؛ نفذ منها إلى نفوسنا فأجج نارها على بعضنا؛ وإلى قلوبنا فأفعمها؛ حقدا على بعضنا، وإلى ألسنتنا فانطقها ضد بعضنا، وإلى جموعنا فشتت شملها، وإلى أموالنا فنبيذها وإلى أخلاقنا فأفسدها، وإلى قوميتنا فأهانها وإلى بلادنا فجاس خلالها، وإلى ديننا فهتك حرمة.. أفبعد كل هذا نبقى في "نحن وأنتم"³.

وقد كتب مقاله هذا بعد الأحداث التي جرت بين الأباضية والمالكية في مدينة قسنطينة في أوت من سنة 1934، والتي أرجعها أبو اليقظان إلى دور يهود قسنطينة في تأجيج النعرات والعصبية المذهبية والعرقية بين عناصر المجتمع الجزائري في مقاله المعنون ب: "اليهود

¹ جريدة وادي ميزاب، العدد الأول، صدر بتاريخ 01/10/1926 م.

² نفسه. محمد دراجي، المرجع السابق، ص ص 233-234.

³ جريدة وادي ميزاب، العدد 26، صدر بتاريخ 01/04/1927 م. محمد دراجي، المرجع السابق، ص ص 234-235.

يبخرون الفلفل".¹

ويذهب أبو اليقظان في كتاباته هذه إلى أبعد من الوحدة الوطنية بل إلى الإتحاد في إطار الجامعة الإسلامية؛ فيرى بأن مقومات الأمة الإسلامية واحدة حتى وإن اختلفت ألسنتهم، وأجناسهم؛ فكتب العديد من المقالات التي تتحدث في هذا الاتجاه ومنها مقاله المعنون بالآية الكريمة: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ"² في مجلة وادي ميزاب الذي دعا فيه المسلمين للوقوف ضد أعداء الإسلام، وفي هذا المقال يستغرب كيف أن الأمم الأخرى كالأوروبية مثلاً فيها الكثير من الفوارق سواء منها العرقية واللغوية وأوجدت ما يوحدتها بينما الأمة الإسلامية لها كل مقومات ما يوحدتها لكنها مشتتة وممزقة؛ فدعا إلى توحيد الصفوف، والتسلح بالإيمان، والصدق، والإخلاص؛ فقال: "يا لله العجب أيتألب أعداء الإسلام ويتحدون على تقويض معاملهم وبينهم فراسخ من اختلاف اللغات والأديان والمذاهب، والمنازع والمشارب، ونختلف نحن على صيانتها وحمايتها والذود عن بيضته، ودفع الكيد والأذى عنه وقد جمعت بيننا روابط الوطن واللغة والدين ووحدت بين أهوائنا علائق المصالح والآلام؟ وحدوا صفوفكم رعاكم الله، وأجمعوا جهودكم، وضموا قواكم وسيروا إلى الأمام بقلوب مفعمة إيماناً، ونفوس طافحة صدقا وإخلاصاً؛ فإن الحالة حرجة للغاية، والأمر في شدة الخطر"³.

ج)-الحث على التعاون الاجتماعي:

تحدث أبو اليقظان في مقال له في مجلة النبراس تحت عنوان "التعاون الاجتماعي وأثاره في الأمم والجماعات" عن فضل العلم وأثاره في المجتمع كالتكافل في دفع المكاره، وتذليل المصاعب مصداقاً لقوله تعالى: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ"⁴، وقدم الشيخ أبو اليقظان شروطاً لكي يكون التعاون محكم الحلقات وموطد العلاقات كما يقول هو، وتتمثل في:⁵

1- أن يكون إحساس أفراد تلك الجماعة بالألم المشترك الذي يقع التعاون على دفعه، وشعورهم بخطرهم كاملاً ومتساوياً.

2- أن يحددوا الأمر الذي يقع التعاون عليه من جميع أطرافه، ويشخصوه تشخيصاً تاماً.

3- أن يؤمنوا إيماناً صادقا بنجاح المشروع الذي يقع تعاونهم عليه ويجزئ فائدته عليهم.

4- أن يفنى كل فرد منهم في بقية الجماعة؛ فلا يجعل لنفسه لزاماً حظاً، ولا لمصلحته

¹ جريدة الأمة، العدد 8، بتاريخ 6/11/1934. محمد بن صالح ناصر، المصدر السابق، ص 188.

² سورة الحجرات، الآية 10. جريدة وادي ميزاب، العدد 116، بتاريخ 11/01/1929م. وينظر محمد بن ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ص 121.

³ جريدة وادي ميزاب، العدد 116، بتاريخ 11/01/1929م. محمد دراجي، المرجع السابق، ص 236-237.

⁴ سورة المائدة، الآية 3. جريدة النبراس، السنة الأولى/العدد 2، بتاريخ الجمعة 28/07/1933.

⁵ جريدة النبراس، السنة الأولى/العدد 2، بتاريخ الجمعة 28/07/1933 بتصرف. محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954م، ص ص 174-175.

الشخصية قيمة؛ بل يكون همه صلاح الجماعة، ومنفعتنا.
(5)-يستلزم الاشتراك في الأعمال والتعاون، والتحلي بالصفات الفاضلة كالصبر، والأناة، وكظم الغيظ، والتثبت، وحسن الظن، وتحكيم العقل على العاطفة.

(د)- التحذير من دعاة الحداثة والتنوير:

حذر أبو اليقظان في مقالاته من الحداثيين في العالم الإسلامي، وأقلامهم المسمومة التي تشجع تقليد الغرب ولا تمنع في التجنيس، والانسلاخ من الهوية الوطنية والإسلامية؛ فقد انتقد التوجه العلماني الذي قام به مصطفى كمال أتاتورك، وبعض الكتاب في عصره الذي تأثروا بتيار الحداثة في عصره كعلي عبد الرزاق، وطه حسين، وسلامة موسى ومن نحا نحوهم؛ وصرح في مقاله الصادر بمجلة وادي ميزاب بقوله: "وقد تولى قيادة الكتائب مصطفى كمال، وأشياعه في (الأناضول) فبدأ أولا بإلغاء الخلافة الإسلامية من أصلها؛ ثم غنى بإعلان اللاتينية وتبديل أحكام الإسلام بأحكام سويسرية ثم هبت هذه الزوبعة في مصر يثيرها علي عبد الرزاق، وطه حسين، وسلامة موسى، وغيرهم(...). وأصبح دعاة التجديد يحدثون كل يوم حدثا في الإسلام من مسألة تعدد الزوجات إلى الطلاق إلى الحجاب إلى الإرث إلى الطعن في القرآن واللغة العربية..."¹.

(ه)- التحذير من مشروع التجنيس الفرنسي: وجه أبي اليقظان نداءه إلى الجزائريين برفض مشروع المستدمر الفرنسي لتجنيس الجزائريين²، وقد ترجم هذا النداء في العديد من مقالاته، ومنها مقاله المعنون بـ: "رأينا في التجنيس"؛ إذ يرى بأن التجنيس هو: "انسلاخ عن الجنسية الإسلامية والدخول في الجنسية الفرنسية، بمعنى الاعتراف بفساد الشريعة الإسلامية، وعدم الالتزام بأحكامها والاعتراف بصلاحيّة التشريع الفرنسي والالتزام بأحكامه..."، وقدم رأي الشريعة الإسلامية في قضية التجنس في قوله: "حكم التجنيس هو ردة؛ أي رجوع عن الإسلام إلى كفر الشرك، ومنه فموقف الشيخ أبي اليقظان واضح من قضية التجنيس والاندماج فهو يعتبرها ردة عن الإسلام وعلى المتجنس لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وفي رأيه فلا يوجد أكبر من ردة الانسلاخ عن الجنسية الإسلامية والرجوع عن الشريعة إلى اعتناق الجنسية الفرنسية والنزول في الأحكام للشريعة الفرنسية.

(و)- صده لحملات التبشير المسيحي:

أدرك أبو اليقظان منذ بداية عمله الصحفي بأن سياسة التبشير ما هي في حقيقة الأمر إلا قناع استعماري، وقدر حذر الجزائريين من هذه السياسة المهددة لشخصية الجزائر

¹ جريدة وادي ميزاب، العدد 88، بتاريخ 22/06/1929م. محمد دراجي، المرجع السابق، ص 237.
² وهو مشروع اقترحه الحاكم العام للجزائر "موريس فيوليت" في الفترة بين 1925-1927م، ويهدف هذا المشروع إلى تشجيع الجزائريين على التجنس بالجنسية الفرنسية مقابل حصولهم على الحقوق السياسية التي يتمتع بها الفرنسيين. محمد ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ص 104.

الإسلامية¹؛ لهذا فقد سخر أبو اليقظان قلمه في وجه مخططات المستدمر الفرنسي لمحاولة نشر المسيحية بين الجزائريين، وهذا بإصدار العديد من المقالات، ومنها تلك التي تحمل العناوين التالية: "يتقمصون في تبشيرهم"، و"تنهوا أيها الغافلون"، و"حركة التبشير في العالم الإسلامي"، و"الإسلام بين شقي المقرض"، "ماذا يريد المبشرون بالمسلمين"².

وتحدث أبو اليقظان في المقالات السالفة الذكر عن أعمال الجمعيات التبشيرية الفرنسية التي كانت تستهدف المجتمع الجزائري، وخاصة فئة الشباب محاولة ضرب عقيدته بالتشكيك في دينه ولغته، وإثارة الشبهات حول صحة القرآن الكريم والسنة النبوية؛ ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم³.

وحت أبو اليقظان أبناء عصره للوقوف في وجه هذه الحملات، وجاء موقفه هذا غيرته منه على إسلاميته من قرآن، ولغة فجعلته لا يتردد أبدا في فضح مكائد المستدمر الفرنسي، وساعده الأيمن من المبشرين المسيحيين، وفي نفس الوقت عاتب المسلمين بحالة اللامبالاة بما يحاط بهم من مخططات المتربصين في ضرب دين الجزائريين بقوله: "النوم العميق، والتخاذل المشين على السفاسف والخرافات بينما جامعتهم مشتتة، وإسلامهم تهدده الأخطار من كل جانب، وتلك الطوائف تعمل عملها والدول تشجعها وجهل المسلمين وفقرهم وضعفهم يساعدهم في متى النوم؟ وإلى متى الموت؟"⁴.

وقد كشف أبو اليقظان الوسائل التي يستخدمها المستعمر الفرنسي في سياستهم التنصيرية مستغلين التعليم، والتطبيب، وإنشاء الجمعيات، وإقامة المراكز الخيرية لجذب المحتاجين والبائسين؛ فحذر الشيخ من الوقوع في هذا الفخ، وضرورة الابتعاد عنه، وخاطب المبشرين بقوله: "كفوا عنا أيها المبشرون إذايتكم، وإفساد ديننا وأخلاقنا باسم التعليم والتطبيب (...). دعونا من تعليمهم وعلموا أنفسكم ودأوا أنفسكم فقد أغنانا الله عنكم وعن تعاليمكم بالإسلام..."⁵.

ز)- انتقاده لسلبية بعض العلماء في عصره: وهذا في سكوتهم لبعض القضايا الاجتماعية التي تحتاج إلى قول الحق، وقد عبر عن ذلك في مقال له في جريدة النور تحت

¹ يمينه برحال، دعوة علماء وادي ميزاب للتصدي للمبشرين وسياسة التنصير في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية، أعمال الملتقى الوطني حول الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي خلال القرنين 19 و20م (المشارب والآفاق)، قسم العلوم الإنسانية، جامعة زيان عاشور بالجلفة، 10 فيفري 2020م، ص 315.

² محمد ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ص 78 وما بعدها، و 104 وما بعدها. محمد دراجي، المرجع السابق، ص 236.

³ نفسه، ص 240.

⁴ جريدة وادي ميزاب، العدد 80، بتاريخ 27/04/1928م. محمد دراجي، المرجع السابق، ص 241.

⁵ جريدة وادي ميزاب، العدد 111، بتاريخ 07/12/1928م. يمينه برحال، المرجع السابق، ص 316.

عنوان: "إذا لم يكن الإصلاح لدفع الفساد فمتى يكون ولماذا يجب إذا؟"¹.

ونبذ أبو اليقظان سلبية بعضهم في معالجة القضايا الاجتماعية آنذاك، وتحدث عن واجب تقديم الكلمة وتوضيح الموقف من طرف علماء وقته لإصلاح ما يمكن إصلاحه، وأبرز ما صرح به في مقاله هذا: "يقولون لا معنى للإصلاح في هذا الوقت الذي عم فيه الفساد، وتغلغل في كل شيء من مقومات الحياة حتى لم يبق شيء صالح في الدنيا؛ فيقال لهم ما معنى الإصلاح إذا كان الصلاح عامًّا في كل شيء؟ أليس ذلك تحصيلًا للحاصل؟ وما هو عمل المصلح إذ لم يكن فساد يصلحه وما هي وظيفة الرسل والأنبياء وخلفاؤهم من العلماء؟"².

وقد ضرب الشيخ أبو اليقظان الأمثال في همة أسلافنا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فتحدث عن دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وجهاد صحابته في محاولتهم إصلاح المجتمع من خلال القضاء على الكثير من عادات الجاهلية السيئة كمظاهر الإغارة على القبائل، وحروب الثأر، والسلب والنهب، ثم عرج أبو اليقظان في الحديث عن دور عصر النهضة الأوروبية وحركة الإصلاح الديني في العصر الحديث التي قضت على سيطرة الكنيسة طيلة العصور الوسطى وحالة الجمود والخمول التي عاشتها أوروبا؛ فبين دور الإصلاح في الارتقاء بالأُمم إلى الحضارة والتطور.

وبعد هذا العرض والتشخيص في مقاله السالف الذكر قدم أبو اليقظان نظريته وتصوره للخطوات التي يجب اتخاذها من طرف العالم المصلح؛ فذكر أن أولها هو التحلي بالصبر، وثانيها اتخاذ الأسباب وإعداد العدة والوسائل والسعي تاركين النجاح بعد ذلك لإرادة الله فمن حصل منا وذلك مقتضى سنة الله (...) فقد نال غايته، وجنا ما غرس، ومن لم تساعده المقادير ولم ينجح في كل ما طلب فقد ينجح في بعضه، وإذا لم ينل شيئاً فقد قام بواجبه وارتفعت عنه المسؤولية واعذر من نفسه ومبلغ نفس عذرها مثل منجج"، ومعللاً بأن الفساد "من طبيعة العالم حتى أنه لا يصلح إلا بما فيه من فساد، وقد حكى الله تعالى لنا على لسان الملائكة طبيعة البشر في الأرض قبل خلقه بقوله: "أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ"³، وبعد هذا عدد أبو اليقظان بعض الفتن التي ظهرت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومن بعده كموقعة الجمل، وصفين، والنهروان، وحادثة كربلاء ومقتل الحسين، ... الخ، وكلها من أنواع الفساد -في نظره- ورغم ذلك لم تثن تلك المفاصد من مبادرة المصلحين الصادقين في تقديم النصيح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فمنهم من كان النصر حليفه، ومنهم من صد عنه، ومنهم من مضى شهيدا مبدأه قوله تعالى: "فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ

¹ ينظر إلى: جريدة النور، السنة 2/ العدد 57، بتاريخ 15/11/1932م.

² نفسه.

³ سورة البقرة، الآية 29 برواية ورش عن نافع. جريدة النور، السنة 2/ العدد 57، بتاريخ 15/11/1932م.

ح)- انتقاده للذين يناشدون الإصلاح بالأقوال دون الأفعال:

وفي مقال آخر رفع أبو اليقظان سقف انتقاداته إلى المطالبة بالأفعال وعدم الاكتفاء بالأقوال ، وهو المقال الذي عنونه ب: "بارك الله فيك" في مجلة البستان حيث صرح بقوله: "أعجبنا جريدتك وخطتها ومقالاتها، ونحن نتبعها بكل تعطش وشغف، ولم يقع لنا من القلق عندما يتخلف عنا عدد فأدب على نهجك القديم وخطتك السديدة، بارك الله فيك (...). نعم ، نعم ، نعم، (بارك الله فينا وفيكم)- يا هؤلاء السادات- المتواكلين وآلاف وملايين بركة لكم ولنا، ولكن هل هذا ما أوصاكم به ربكم الكريم الذي يقول: "الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ"²، وقوله تعالى: "أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ"³، بالله عليكم هل لفظ "بارك الله فيك" يسمن أو يغني عن جوع⁴.

وبالرجوع إلى الشعار الذي اتخذته أبو اليقظان خطأ لجريدته فهي جريدة أسبوعية فكاهية بقالب انتقادي؛ فمن الواضح أن تهكمه هذا نابع من موقفه من الذين يقولون بأفواههم ما لا يفعلون؛ فهم إن كانوا فعلا يشجعونه بعبارة "بارك الله فيك" إلا أن أبا اليقظان يريد من هؤلاء المبادرة إلى الأفعال لا الاكتفاء بالأقوال خاصة في المواقف والمبادرات إزاء القضايا التي تستحق ذلك، وهذا واضح عندما صرح في هذا المقال بقوله: "إن الأمة في حاجة أكيدة إلى إصلاح حالها من جميع الجهات (...). ولا بد من انتشالها ورفعها من وهدهتها فاذهب أنت لانتشالها ونحن هنا قاعدون"⁵.

خاتمة

وفي ختام دراستنا لموضوع مشروع الإصلاح الاجتماعي عند الشيخ الصحفي أبي اليقظان إبراهيم بن عيسى الجزائري المستنبط من النص القرآني خرجنا بعدة نتائج رسمت لنا ملامح هذا المشروع، وتتمثل فيما يلي:

- طرح الشيخ أبو اليقظان مواقفه وآراءه من بعض القضايا في عصره انطلاقا من ثقافته، وشخصيته المتشعبة بثوابت الأمة الإسلامية، ومنها القرآن الكريم، واللغة العربية.
- قدم أبو اليقظان أفكاره الإصلاحية لحل بعض مشاكل المجتمع الجزائري في عصره

¹ سورة آل عمران، الآية 146. جريدة النور، السنة 2/ العدد 57، بتاريخ 15/11/1932م.

² سورة التوبة، الآية 20. جريدة البستان، السنة الأولى/ العدد 3، بتاريخ 16/05/1933م

³ سورة التوبة، الآية 19. جريدة البستان، السنة الأولى/ العدد 3، بتاريخ 16/05/1933م.

⁴ جريدة البستان، السنة الأولى/ العدد 3، بتاريخ 16/05/1933م. محمد بن صالح ناصر، الصحف

العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954م، ص161.

⁵ جريدة البستان، السنة الأولى/ العدد 3، بتاريخ 16/05/1933م.

انطلاقاً مما ورد في القرآن الكريم من نصوص كثيرة.

- دعا الشيخ أبو اليقظان إلى ضرورة اهتمام الفرد المسلم بإصلاح عقيدته أولاً، وهذا بالرجوع إلى الله أي الدعوة إلى تقوى الله؛ فكلما ابتعد المسلم عن الله ضاقت به الدنيا، واستفحلت مشاكله.

- الحث على الوحدة الوطنية، ونبذ التفرقة، والوقوف في وجه مخططات المستعمر الفرنسي لتشتيت المجتمع الجزائري إلى فرق، ونعرات لغوية، ومذهبية.

- الدعوة إلى تجديد روح التعاون بين أفراد المجتمع الجزائري تحدياً للمصاعب التي تواجه أبناء البلد الواحد، وتوطيداً لمبدأ المصير المشترك الواحد، وهذا لا يكون إلا بالصبر، وإنكار الذات في سبيل المصلحة الجماعية والوطن.

- التحذير من الحداثة التي تغتّى بها دعاة التنوير في عصره؛ فهي تهدد الجزائريين في هويتهم الوطنية، وشخصيتهم الإسلامية.

- التحذير من مشاريع المستعمر الفرنسي التي تهدف إلى سلخ الجزائريين من وطنيتهم، ومن أخطرها مشروع التجنيس الفرنسي الذي يرى أبو اليقظان بأنه بمثابة ردة، وخروج عن الإسلام.

- الحث على صد حملات التبشير المسيحي، والتي استعملت فيها الجمعيات الفرنسية جميع وسائل الإغراء المادي والمعنوي لضرب عقيدة الجزائريين، والتشكيك في دينه.

- دعوة الشيخ أبي اليقظان لعلماء عصره لقول الحق، وإبداء آراءهم في قضايا العصر خاصة منها تلك المخاطر التي تهدد المجتمع اقتداء بما عمل به الأولون من الرسل والأنبياء والعلماء.

- رسم الشيخ أبو اليقظان شخصية العالم المصلح، وأهم الشروط الواجب توافرها لنجاح عمله الإصلاحية، وهي: التحلي بالصبر، وحسن التوكل على الله، والسعي واتخاذ الأسباب، التسليح بالوسائل اللازمة ومنها العلم،... الخ.

- حث الشيخ أبو اليقظان الجزائريين على العمل، وخلق المبادرات بالأفعال وليس بالأقوال، والابتعاد عن الشعارات الزائفة في القضايا التي تهم الأمة، وتهدد الهوية الجزائرية الإسلامية.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- أولاً: المصادر:
- (1)- الجرائد:
- - جريدة وادي ميزاب، العدد الأول، الصادر بتاريخ 01/10/1926 م.
- - جريدة وادي ميزاب، العدد 26، الصادر بتاريخ 01/04/1927 م.
- - جريدة وادي ميزاب، العدد 80، الصادر بتاريخ 27/04/1928 م.

- -جريدة وادي ميزاب، العدد 70 الصادر بتاريخ 17/10/1928م.
- -جريدة وادي ميزاب، العدد 111، بتاريخ 07/12/1928م.
- -جريدة وادي ميزاب، العدد116، الصادر بتاريخ 11/01/1929م.
- -جريدة وادي ميزاب، العدد88، الصادر بتاريخ 22/06/1929م.
- -جريدة ميزاب، السنة الأولى/العدد01، الصادر بتاريخ 25 جانفي 1930.
- -جريدة النور، السنة الثانية / العدد 57، بتاريخ 15/11/1932م.
- -جريدة البستان، السنة الأولى/العدد 3، بتاريخ 16/05/1933م.
- -جريدة النبراس، السنة الأولى/العدد 2، الصادر بتاريخ 28/07/1933.
- -جريدة الأمة، العدد 8، الصادر بتاريخ 6/11/1934.
- -جريدة الفرقان، السنة الأولى/العدد01، الصادر بتاريخ 05 جويلية 1938.
- (2)-الكتب:
- -ناصر محمد، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.
- -// ///، أبو اليقظان في الدوريات العربية، المطبعة العربية، غرداية، 1985.
- -// ///، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، ألفا ديزاين ط2، الجزائر، 2006.
- -// ///، الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي، كولوريوم للنشر، الجزائر، ط5، 2013م.
- ثانيا: المراجع:
- -برحال يمينه، دعوة علماء وادي ميزاب للتصدي للمبشرين وسياسة التنصير في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية، أعمال الملتقى الوطني حول الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي خلال القرنين 19 و20م(المشارب والآفاق)، قسم العلوم الإنسانية، جامعة زيان عاشور بالجلفة، 10 فيفري 2020م.
- -حاج عيسى إلياس، قضايا الإصلاح في العالم الإسلامي خلال القرنين 19 و20م من منظور محلي "منطقة مزاب نموذجاً"، أعمال الملتقى الوطني حول الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي خلال القرنين 19 و20م (المشارب والآفاق)، قسم العلوم الإنسانية، جامعة زيان عاشور بالجلفة، 10 فيفري 2020م.
- -حاج امحمد يحيى، باعمارة يوسف، "جريدة البستان" للشيخ إبراهيم أبي اليقظان بصمة جزائرية رائدة في الأدب الساخر، مجلة الأثر، العدد31، جوان 2019.
- -درابي محمد، الحركة الإصلاحية في الجزائر رجال وأفكار، دارالإرشاد، 2013.
- -الزركلي خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، ط16، بيروت، 2005.
- -بن زينب علي، جهود علماء الجزائر في الدعوة والإصلاح الاجتماعي من سنة 1830 إلى 1954م، " أطروحة دكتوراه العلوم في العلوم الإسلامية، تخصص الإمامة والخطابة"، إشراف: أ.د. عبد الكريم بوغزالة، معهد العلوم الإسلامية، جامعة الوادي، الموسم الجامعي 2020-2021م.
- -سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، عالم المعرفة، (طبعة خاصة)، الجزائر، 2011.
- -بوسعيد سومية، من أعلام الفكر الإسلامي الشيخ أبو اليقظان الصحفي المصلح، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد 25.
- -قردان الميلود، فتوح محمود، الشيخ إبراهيم أبو اليقظان رائد الحركة الإصلاحية بوادي ميزاب، مجلة جسور المعرفة، مجلد 07/ العدد 03، سبتمبر 2021.
- -قويح عبد القادر، الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي 1920 و1954م، دار طليطلة للنشر، 2015.
- -المدني أحمد توفيق، حياة كفاح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1988.

عند الشيخ محمد الهبري المجاوي التلمساني

أ/ نبيل بورس

قسم أصول الدين - معهد العلوم الإسلامية - جامعة الوادي

bouras-nabil@univ-eloued.dz



مقدمة

لقد حفل القطر الجزائري . على مر العصور المتعاقبة . بجملة من الأئمة الأعلام الأفذاذ الذين وهبوا أعمارهم، وبذلوا كل غال ونفيس في سبيل ربط الأمة بكتاب ربها، فكان ذلك ديدنهم وشغلهم الشاغل، فكان تفسيرهم لكتاب الله ذو صبغة إصلاحية، ومواكبا لروح العصر بكل المعايير.

ومن بين أولئك الأئمة البررة الشيخ الإمام محمد الهيري المجاوي التلمساني الذي أنحفنا بتفسيره . الماتع بحق . "واحة الوعظ والاعتبار من كلام العزيز الغفار"، الذي كان ثمرة سنوات طويلة في مجال الإمامة والتدريس.

وسأتناول في هذا البحث التعريف بهذه الشخصية ومنهجه في التفسير، وكذا ملامح البعد الواقعي الإصلاحى في تفسيره؛ خدمة لتراث هذه الأمة وإمادة للثام عن سيرة أحد أعلامها، وذلك ضمن الخطة الآتية:

المطلب الأول: سيرة الشيخ الهبري المجاوي.

المطلب الثاني: التعريف بتفسير الشيخ ومصادره فيه.

المطلب الثالث: ملامح البعد الواقعي عند الشيخ.

الخاتمة : وبها أهم النتائج والتوصيات.

المطلب الأول: سيرة الشيخ الهبري المجاوي

الفرع الأول: نسبه و مولده وأسرتة

هو الشيخ العلامة الفقيه محمد بن سيدي محمد بن اعرم بن محمد بلحاج الهبري المجاوي⁽¹⁾، من مواليد يوم الأربعاء السادس من شهر ذي الحجة سنة 1323هـ، الموافق للحادي والثلاثين من شهر جانفي سنة 1906 للميلاد، بمنطقة تسمى الحودسي، ببني

(1). المجاوي نسبة إلى قبيلة مجاوة أو قيل مشاوة بشمال المغرب الأقصى، وقد انتسب إليها زمرة من الأئمة الأعلام على غرار الشيخ عبد القادر المجاوي وغيره كثر، ينظر: تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم الحفناوي، دط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985م، (2/453).

وارسوس حوز الرمشي بولاية تلمسان⁽²⁾.

نشأ الشيخ الهبري المجاوي في أسرة اشتهرت . في تلك المنطقة . بالصَّلاح والعكوف على العلم الشرعي طلباً وتأصيلاً وتديراً.

فهذا جده الشيخ سيدي محمد بلحاج أحد أعيان المنطقة المشهود لهم بالصَّلاح و العلم وحفظ للقرآن، يعطينا انطباعاً عن هذه الشخصية وحبها للعلم حفيده حيث يقول: " ومن جملة ما حبانني الله به من مخطوطات والدي ومدوناته المحفوظة في البيت " ويسترسل في وصفها إلى أن يقول: "وبعض المخطوطات القديمة لجدي رحمة الله عليه"⁽³⁾.

أمَّا والده فقد كان رحمه الله صاحب زاوية لتعليم القرآن، أسهمت إبان الاستعمار الغاشم آنذاك . ورغم إمكانياتها المتواضعة . في تكوين العديد من حفظة كتاب الله عزوجل الذين التحقوا بها من كل مناطق القطر.

أما أخوه الأكبر السي بلحاج . الذي توفي قبل الاستقلال بسنتين . فقد اقتفى نهج والده بأن أسس مدرسة قرآنية بأحد ضواحي الحويصي وتخرج على يده الكثير من حفظة القرآن الكريم⁽⁴⁾ . وهذا أخوه الأصغر الملقب بالسّي القندوز كان هو كذلك معلماً بارعاً، تكون على يده العديد من حفظة القرآن، توفي رحمه الله سنة 1991م⁽⁵⁾.

بهذه التنشئة الأسرية المتميزة، التي كان ملؤها التحفيز المنقطع النظير، تطلعت همّة الشيخ الحواس للمضي قدماً في طريق طلب العلم والاستزادة منه.

الفرع الثاني: طلبه للعلم ووظائفه ووفاته

استهل الشيخ طلبه للعلم بحفظ القرآن الكريم على يد أبيه وأخيه الأكبر السّي بلحاج وحينها لم يتجاوز سنه التسعة سنين حيث حباه الله عز وجل ذاكرة قوية، ولما أتم الشيخ حفظه للقرآن التحق بحضرة الشيخ مصطفى بن رابح لتلقي مبادئ علوم الدين لمدة أربعة سنوات، ثم التحق بمعهد الحاج الجيلالي بالعطاف بولاية الشلف حالياً، ومكث فيها أربع سنوات كاملة⁽⁶⁾.

ثم انتقل . رحمه الله . إلى جامعة القرويين بفاس في المغرب الأقصى وكان ذلك بين سنتي 1929م و 1931م، حيث درس هنالك العلوم الدينية من نحو ولغة وصرف فقه وتفسير وحديث... على يد علماء أجلاء، أذكر منهم: الشيخ عباس البناني والشيخ القرشي والشيخ أبو الشتاء الصنهاجي والشيخ عبد السلام العلوي والشيخ محمد الحاج الشهير بابن المحشي.

(2). مقدمة تفسير واحة الوعظ والاعتبار من كلام العزيز الغفار، الأستاذ محمد توفيق المجاوي (نجل الشيخ)،

(26/1)

(3). المرجع نفسه.

(4). المرجع نفسه، (27. 26/1)

(5). المرجع نفسه، (28/1)

(6). المرجع نفسه، (29/1)

وقد لُقِّب . رحمه الله . حين رجوعه إلى مسقط رأسه بالفقيه السيِّ الهبري اعترافا بعلمه وتمكنه من علوم الدين، وحينها شاء قدر الله عزو جل أن عُيِّن الشيخ البشير الإبراهيمي مدرسا بدار الحديث بتلمسان، فكان للشيخ الهبري شرف مجالسته والتلمذ عليه، حيث سمع منه دروسا قيَّمة في التفسير والحديث وغيرها من فنون العلم، وصار من المقربين إليه⁽⁷⁾.

أما عن الوظائف التي شغلها الشيخ خلال مسيرته المهنية، فكانت للوهلة الأولى تنصيبه للتعليم والإفادة بقرية عين الحوت إلا أنها لم تدم طويلا، نظرا لانخراط الشيخ في العمل النضالي . بدءا من سنة 1934 . ضد المستعمر حيث تعرض حينها إلى المضايقات إلى أجبر على التوقف في أواخر سنة 1936، مما اضطره إلى العمل الحر حيث فتح دكانا للتعيش الحر الكريم، إلا أن صوت الشيخ لم يخفت يوما، مما اضطر السلطات الاستعمارية مع بداية الثورة التحريرية إلى الزج به في السجن إلى أن أطلق سراحه في غرة شهر جانفي 1957، ليعاد سجنه رحمه الله في الحادي عشر من شهر جوان لنفس السنة كونه من أعضاء جمعية العلماء المسلمين النشيطين حينها، حيث مكث ما يزيد عن الخمسة أشهر مع الأعمال الشاقة.

أما عن حياته المهنية بُعيد الاستقلال فقد كُلف من قبل جهة التحرير حينها بمهمة القضاء وأيضا تسيير قسمة الرمثي؛ إلا أنه طلب الإعفاء منها ليتفرغ للتعليم الديني وذلك أواخر سنة 1962م، حيث شغل منصب إمام خطيب بمسجد سيدي إبراهيم المصمودي ابتداء من غرة شهر جانفي سنة 1963 إلى غاية السادس والعشرون من شهر ديسمبر سنة 1967م، وفي تلك الفترة كُلف بتدريس فقه العبادات بالجامع الكبير بتلمسان فأجاد خلالها الشيخ وأفاد، ليشغل فيما بعد منصب الإمامة والتدريس بصفة رسمية بالجامع ، ثم عُيِّن مفتشا بوزارة الشؤون الدينية بتاريخ الخامس عشر من شهر مارس سنة 1970م، إلا أنه حوّل في نفس السنة إلى مدينة سعيدة، وظلّ في هذا المنصب إلى غاية الخامس والعشرون من شهر سبتمبر سنة 1974م، حينها أُرجع إلى تلمسان؛ إلا أنه استقال من منصبه في السنة نفسها، ليتفرغ إلى التدريس والخطبة بالجامع الكبير بالولاية.

توفي الشيخ محمد الهبري المجاوي . حمه الله . في الحادي عشر من شهر فيفري سنة 1988م عن عمر ناهز 82 عاما، رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جناته⁽⁸⁾.

المطلب الثاني: التعريف بتفسير الشيخ وميزاته.

الفرع الأول: التعريف بتفسير الشيخ

خلف الشيخ الهبري المجاوي خلال مسيرته العلمية مكتبة ثمينة حوت العديد من الكتب وأيضا المخطوطات التي خطها قلم الشيخ على مرّ تلك السنوات التي قضاه . رحمه

(7). مقدمة تفسير واحة الوعظ والاعتبار من كلام العزيز الغفار، الأستاذ محمد توفيق المجاوي (نجل الشيخ)،

(30. 29/1)

(8). المرجع نفسه، (27. 26/1)

الله . بين التدريس والإمامة، حيث يصفها لنا نجله الأستاذ توفيق المجاوي . في سياق حديثه عن الدافع لجمع شتات هذا تفسير . بقوله: "وبعدها عقدت النية وبدأت متوكلا على الله . رغم كثرة المخطوطات وتشعبها . وقررت إزالة بعض ما شأها من غبار تعميما للفائدة وخدمة للدين وطلبا للأجر"⁽⁹⁾.

فتفسير الشيخ الهبري في الحقيقة هو عبارة عن مجموعة من الخطب والدروس التي كان يلقيها . رحمه الله . طيلة المدة التي قضاها إماما ومدرسا بمساجد ولاية تلمسان، وعلى وجه الخصوص الجامع الكبير الذي زاول التدريس به مدة زادت عن العشر سنوات.

وقد طبع التفسير في مجلدين، حيث تكفلت وزارة الشؤون الدينية والأوقاف بهذه المهمة النبيلة، وذلك بمناسبة اختيار مدينة تلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية، حيث قام بتحقيقه الأستاذ المختار بن عامر: وقد أسماه ب: "واحة الوعظ والاعتبار من كلام العزيز الغفار"⁽¹⁰⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن مجموع الدروس التي ضمتها دفتي التفسير المطبوع هي 122 درسا، فسر فيها الشيخ سورة الفاتحة وسورة البقرة إلى غاية الآية 196، هذا بالإضافة إلى آيات أخرى بمناسبة ومواضيع مختلفة وهي في حدود 27 درسا.

وقد اعتمد الشيخ المجاوي في تفسيره على عدة مصادر، وقد تنوعت هذه المصادر تنوعا ملحوظا وشكلت مادته العلمية، فكانت كتب التفسير بمختلف توجهاتها الأثرية واللغوية والبلاغية والفقهية، وكذا كتب الأحاديث من الصحاح والسنن والمسانيد المرتكز الأساس، دون أن يغفل الشيخ كتب المعاجم التي كانت مستنده في بيان معاني ألفاظ القرآن ومدلولاتها، كما أنَّ القضايا الفقهية كانت محل اهتمامه رحمه الله حال تفسيره لآيات الأحكام لذا فقد شكلت كتب الفقه على المذاهب الأربعة مستنده في بيان المسائل الفقهية المختلفة.

وقد أضفى امتزاج المصادر المختلفة على تفسير الشيخ طابعا مميزا من حيث الحجة والبيان مع الإلمام بمعاني الآيات وإيضاح المشكلات، وبيان الأحكام وحسن إسقاط الآيات على ما يقتضيه المقام.

الفرع الثاني: ميزات تفسير الشيخ.

إنَّ القارئ في هذا المصنَّف يلمح جملة من الميزات التي اتَّسم بها تفسير الشيخ ، أسوقها على سبيل الإيجاز في النقاط التالية:

1. بساطة العبارة والسلاسة في الطرح، لذلك نجد الشيخ أحيانا يتكلم باللهجة العامية

(9). مقدمة تفسير واحة الوعظ والاعتبار من كلام العزيز الغفار، الأستاذ محمد توفيق المجاوي (نجل الشيخ)، (27. 26/1)

(10). أما عن سبب تسمية التفسير بهذا العنوان فيتضح من خلال البحث . والله أعلم . أنه من اختيار الأستاذ المختار بن عامر، إذ لم يشير الشيخ في تفسيره إلى هذه التسمية بعينها.

البسيطة كما هو وارد في الدرسين الرابع والعشرون والخامس والعشرون⁽¹¹⁾.

2. الجمع في التفسير بين الرواية والدراية.
3. الاختصار على المعاني الإجمالية لمضامين الآيات القرآنية.
4. عدم التعصب وطرحه للأراء بكل موضوعية .
5. عنايته بقضايا المسلمين الكبرى وواقعهم الراهن.
6. الميل بعض الشيء للمذهب المالكي في تناوله للمسائل الفقهية؛ لكن دون تعصب.
7. الطابع الدعوي من خلال دعوة الناس إلى الاعتبار بمواعظ القرآن الكريم.
8. الاهتمام بهدايات القرآن ومواعظه، وحسن الإسقاط لمضامين أي القرآن على الواقع المعيش.
9. الاختصار وعدم الاستطراد، وكذلك بروز شخصيته رحمه الله عند عرضه للمسائل ومناقشتها سواء المسائل التفسيرية أو غيرها.
10. الاستعانة بالأمثلة الواقعية لتقريب ما غمض من معاني الآيات القرآنية إلى ذهن القارئ.
12. الأمانة العلمية في النقل سواء تعلّق الأمر بالعزو إلى المصادر أو نسبة الأقوال إلى أصحابها.
13. الإلماع إلى المسائل التي قد لا تنقح في ذهن السامع، وصياغتها في شكل تساؤل.
14. العناية بإبراز الجانب المقاصدي للأحكام الواردة في أي القرآن الكريم بأسلوب سهل ميسور.

المطلب الثالث: ملامح البعد الواقعي عند الشيخ

إنّ تنزيل آيات القرآن الكريم وربطها بواقع الناس ميزة خاصة لكل مفسّر في عصره، ولقد اعتنى الشيخ بهذا الجانب واهتم به، يظهر هذا للناظر في تفسيره، وسأمثل لذلك من خلال النقاط التالية:

أ. في الجانب العقدي:

وقد بدا هذا جلياً في تفسير الشيخ، حيث لا تكاد تمر آية تعنى بهذا الجانب إلا وتجد الشيخ منوها بضرورة العناية بهذا الشأن سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، فمثلاً في سياق تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: 165] يقول: "إن كان ثمة علم، فنرى بعضهم ينكر تلك الأعمال الشركية بلسانه عند سؤاله؛ ولكنه يترأس حفلاتها، ويبذل جهده في تأويلاتها وتحريف نصوصها"⁽¹²⁾.

ب. في الجانب السياسي:

وهو أحد القضايا التي كانت محل اهتمام الشيخ خلال تعايطه لدرس التفسير، فعلى

(11). انظر: ؟؟؟

(12). تفسير واحة الوعد والاعتبار، (121/2).

سبيل التمثيل نجد أنّ من ملامح تلکم الإصلاح انتقاده لموقف الأمة الإسلامية . حکاما كانوا أو محکومين . من القضية الفلسطينية، حيث يقول حال تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ ﴾ [البقرة: 85]: "أيها الإخوة المواطنون إنّ هذا التوبيخ ينطبق علينا تماما، فنرى البعض منا يبكي على فلسطين وعلى الفلسطينيين بكاء التماسيح...ومن جهة أخرى يظهر عدوهم ويناصر مغتصبي أراضيهم" (13).

وحال تفسيره . رحمه الله . لقوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [البقرة: 40]، ينعي واقع الأمة وما وصلت إليه من ذل وهوان ، حيث يقول: "فجاس الأعداء خلال ديارنا، وعاثوا فسادا في أرضنا، ونقصوا أرضنا من أطرافها،...ومن يعتبرون أنفسهم مسلمين فينا فهم متعادون متخاذلون؛ بل متقاتلون مع بعضهم. ومتعاونون مع العدو.

وفي أقل من هذا عبرة لمن اعتبر، وذكرى لمن اذكر: ولكن أين المعتبرون بهذه التقلبات وهذه الأحداث؟" (14).

ج . في الجانب الاجتماعي:

تطرق الشيخ في دروس التفسير لجوانب اجتماعية شتى، وهي في الحقيقة تفصح عن مدى معاشيته . رحمه الله . لواقع مجتمعه، ففي معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ ﴾ [البقرة: 102]، نجده رحمه الله ذامًا لسلوك أصبح فاشيا في المجتمع الجزائري؛ ألا وهو الترويج والدعاية للكهنة والسحرة ووصفهم بالصّلاح (15).

د . في الجانب الاقتصادي:

لم يكن هذا الأمر عن ذهن الشيخ ببعيد، ممّا يعطينا انطبعا عن شخصية الشيخ، التي اتّسمت بالشمولية في الطرح ومخاطبته لجميع أطراف مجتمعه، خصوصا إذا تعلق الأمر بما فيه صلاح العباد والبلاد، فالشيخ حال تفسيره لقوله سبحانه: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ﴾ [البقرة: 262]، يقرر أنّ: "الأمة الجزائرية لا تنقصها مادة الإنفاق؛ وإنما ينقصها الإخلاص، فلو أخلص العامل في عمله وتحسين إنتاجه وأخلص الموزع في توزيعه والتاجر في تجارته لما ارتفعت تلك الصيحات من فقد المواد وغلائها" (16).

هـ . في الجانب التربوي والتعليمي:

ظَلَّ هذا الجانب ديدن الشيخ في أغلب دروسه، ممّا يُفصح عن مدى نظريته

(13). المصدر السابق، (396/1).

(14). المصدر نفسه (312/1).

(15). ينظر: المصدر نفسه، (456/1).

(16). ينظر: المصدر نفسه، (307/2).

الاستشرافية رحمه الله لأفاق مجتمعه وبلده، وحسبنا . كمثال على ذلك . ما قرره حين تفسيره لقوله تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف: 46] حيث يقول: " و أما الرجال الصّالحون فتكوينهم بالمدارس العلمية والتربية على الأخلاق الكريمة الفاضلة، إذ الحياة مبنية على ثلاثة دعائم: العلم ، والمال ، والأخلاق"⁽¹⁷⁾.

فبالإضافة إلى هذه القضايا الجوهرية، نجد الشيخ لم يغفل عن معالجة بعض الأفكار الهدامة والشبه المختلفة التي من شأنها أن تחדش بصميم العقيدة المسلم ومن ذلك مايلي:
تصحيح بعض الفهم الخاطئة:

ومثال ذلك عند تفسيره لقوله سبحانه: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ ﴾ [آل عمران: 103]، نجد الشيخ ينتقد من يجنح إلى الشقاق تحت مسمى الخلاف والذي حصل في هذه الأمة من لدن الصحابة عليهم الرضوان، حيث يصحح هذا المفهوم السقيم بقوله: "أيها الإخوة المؤمنون كان الخلاف في الصدر الأول من السلف الصالح بين علماء المسلمين ناشئا عن اختلاف الفهم للأحاديث النبوية والآيات القرآنية وكان تابعا لمقاصد الدين وحكمة التشريع... وكان بهذه الصفة مادة علم ومصدر رحمة وتوسعة لحل المشكلات وسيرا مع التطورات؛ ولكن يا للأسف قد حوّلنا هذه الخلافات عن هدفها الأسوى وغرضها والأهواء، والتعصب الأعشى، وصرنا نختلف حتى في اللبسة والهيئة والشكل"⁽¹⁸⁾.

الرّد على شبه المخالفين:

لم يستنكف الشيخ في رده على الشبه التي يذكرها المخالفون من أصحاب الديانات والملة الأخرى، وحسبنا كمثال على ذلك ما ذكره في سياق تفسيره لقوله جلّ وعلا: ﴿ وَمَا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة: 89] لتلك الشبهة التي يرددها أهل الكتاب وهو كون القرآن الكريم يقرب بأن كتبهم صحيحة غير محرّفة مصداقا لقوله تعالى: ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾، فيسوق الشيخ طائفة من الآيات في ردّ هذا القول، ثم يعقّب على ذلك مبينا أنه قد ذكر في سياق تلكم الآيات: تسليّة لقلب النبي صلى الله عليه وسلّم ، وليس فيه شيء ممّا ذكره وتمسّكوا به⁽¹⁹⁾.

الخاتمة

وفي ختام هذه الورقة البحثية لا يسعني سوى أن ألملم أهم النتائج المتوصل إليها، كما أثنى ببعض التوصيات

أولا: النتائج

شخصية الشيخ المتميزة و التي اتّسمت بالموضوعية في طرح القضايا والأمانة العلمية

(17). ينظر: تفسير واحة الوعظ والاعتبار، (350/2).

(18). المصدر نفسه (363/2).

(19). ينظر: المصدر نفسه (415/1).

في النقل.

. روح الشيخ النضالية وهمة العالية التي تنعى التخلف والركود وتسعى قدما إلى الإصلاح والتجديد.

. أسلوب الشيخ المتميز في التفسير والذي يجمع بين بساطة العبارة والإلمام بأمهات المعاني.

. النزعة الإصلاحية والبعد الواقعي في تفسيره لآيات الذكر الحكيم.

ثانياً:..التوصيات

. كتابة سيرة مفصلة عن حياة الشيخ محمد المجاوي؛ حتى تطّلع عليها الناشئة من طلبة العلم، إذ لا تزال هذه الشخصية العلمية في عداد المغمورين.

. السّعي إلى تحقيق مخطوطات الشّيخ، وإخراجها إلى حيّز النور.

وأخيراً:

أسأل الله التوفيق والسداد في القول والعمل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

. قائمة المصادر والمراجع

- . القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
- . تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم الحفناوي، دط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985م.
- . موسوعة العلماء و الأدباء الجزائريين، إعداد مجموعة من الأساتذة، إشراف رابع خدوسي، منشورات الحضارة، دت.
- . النسمات في تراجم علماء وصلحاء تاونات، عبد الكريم احميدوش، دط، دن، المملكة المغربية.
- . شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف، دط ، دار الكتاب العربي، دت
- . الجامع الصحيح المسند، محمد بن إسماعيل البخاري، ت: د. مصطفى ديب البغا، ط3، دار ابن كثير، بيروت، 1987م.
- . الجامع الصحيح، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، دط، دار الجيل بيروت، دت.
- . الجامع الصحيح من سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، ت: أحمد شاکر وآخرون، دط، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- . واحة الوعظ والاعتبار من كلام العزيز الغفار، الشيخ محمد الهبري المجاوي، ت: الأستاذ المختار بن عامر، ط1، دار الكتاب الملكي، الجزائر.

تنزيل النص القرآني على قضايا المرأة في الفكر الإصلاحي لدى أبي يعلى الزواوي

د / الربيعي عمير

متخرج من جامعة وهران 1 (الجزائر)

rebaiaamieur@gmail.com



ملخص

تعرضت المرأة المسلمة في الكثير من الأقطار الإسلامية ومنها الجزائر إبان العصور المتأخرة التي انتشر فيها الجهل بأحكام الإسلام، وهدى القرآن إلى مظاهر متعددة للظلم والحرمان الذي سُلِّطَ عليها بسبب تحكيم العوائد والأعراف التي سلبتها الكثير من حقوقها المادية والمعنوية المقررة لها في نصوص القرآن، والتي اتخذها أعداء الإسلام خلال الغزو الاستعماري مطية للظلم في الإسلام، واتهام أحكامه بظلم المرأة وإجحافها؛ ما وجد لهم أذانا صاغية لدى المسلمين على مستوى الحكومات والأفراد من الكتاب والمثقفين الذين سَخَّروا أقلامهم لنقد أحكام الإسلام، وتزيين الثقافة الغربية الوافدة التي اتخذت من المرأة سلاحا لتعميم الغزو الثقافي في كافة أقطار البلاد الإسلامية، وهذا ما أوجب على العلماء والمصلحين أن يقفوا في وجه تلك الحملات الموجهة ضد الإسلام وقطعيات القرآن، فكان ممن قاموا بالواجب ولبوا نداء الدفاع عن الإسلام أحد فرسان الدعوة الإصلاحية بالجزائر؛ مفتي جمعية العلماء المسلمين، وشيخ شبابها وشباب شيوخها: أبو يعلى الزواوي -رحمه الله- الذي كان من أبرز الكتاب البارعين في الدفاع عن أحكام القرآن، وأعرف الناس بخبايا العادات التي لا صلة لها بالإسلام، مما جعله ينطلق في إصلاحه لقضايا عصره عموما، وقضايا المرأة خصوصا من آيات القرآن الكريم، تنزيلا لها على الواقع الذي عايشه، تبرئة للإسلام من الأعراف البائدة، وإبطالا للشبهات المثارة حوله من قبل دعاة التحرر والسفور.

فجاءت هذه الورقة البحثية معتمدة على المنهج الوصفي التحليلي، لتبرز جانبا من جهود أبي يعلى الزواوي أحد علماء الإصلاح بالجزائر -رحمه الله- في معالجة قضايا المرأة في عصره انطلاقا من نصوص القرآن الكريم، من خلال ما قرَّره ونشره في مقالاته الإصلاحية المتنوعة، وذلك بالوقوف على منهجه في تطبيق النص القرآني على الواقع، وحصر قضايا المرأة التي عاصرها وعالجها من خلال الآيات القرآنية، وبيان طريقته في علاجها.

الكلمات المفتاحية: التنزيل، المرأة، أبو يعلى، الواقع، الزواوي، القضايا، الآيات القرآنية.

مقدمة

يعد الإمام أبو يعلى الزواوي أحد علماء الجزائر المصلحين الأفذاذ الذين كان لهم دور بارز في الحركة الإصلاحية التي ظهرت في العالم الإسلامي عامة. وفي القطر الجزائري خاصة، والتي ظهرت في أصعب مرحلة مرت بها الأمة الإسلامية، فلم تثنه الظروف الصعبة من تضيق الاستعمار، وتعتت الجهال، وكثرة المعاندين فضلا عن قلة ذات اليد أن يهب حياته في نصرة الإسلام، ونشر نور القرآن والتصدي لأمواج الشبهات التي جرفت بالكثير من المسلمين، ويحارب العادات البائدة التي يأبأها هدي القرآن، فجمع بين الوعظ والخطابة والتدريس والتأليف والكتابة؛ كل ذلك علاجا وتصحيحا للواقع الذي عاشه، حتى يعود الناس إلى سكة الإسلام الصحيح بطرح ونبد كل ما أدخل عليه، أو ألصق به ونسب إليه، وهو منه براء.

ومن الجوانب التي نالت حظها الوافر من كتابات أبي يعلى الزواوي قضية المرأة، حيث كتب بخصوصها الكثير من المقالات في مختلف جوانبها الشائكة التقليدية منها والمستجدة، بل خص بعضها بالتأليف، فكانت كتاباته بديعة في تشخيص الداء، ووصف الدواء المستنبط من آيات القرآن الذي هو دستور الأمة الثابت، ونورها الدائم، فلا تنتهي أسرارها، ولا تنقضي عجائبه مهما تداعت وتدافعت شبهات المشككين، فقد كان يعالج في كتاباته قضايا المرأة انطلاقا من آيات القرآن المحكمة، فيسقط المعاني على الواقع البعيد عن هدي الإسلام ليكشف عن مدى بعد ذلك الواقع عن نور القرآن، ثم يعقبه بالحلول الناجعة المستنبطة كذلك من القرآن الكريم.

ولذا جاء هذا البحث ليجيب عن الإشكال الآتي:

ما مدى عناية أبي يعلى الزواوي في معالجة قضايا المرأة الشائكة في عصره بتنزيل الآيات القرآنية على الواقع؟

ويتفرع عن هذا الإشكال الرئيس إشكالات فرعية تتمثل في:

- من هو أبو يعلى الزواوي، وما مكانته وأثاره العلمية؟
- كيف كان واقعه العلمي والدعوي في ربط الناس بالقرآن، وتنزيل الآيات القرآنية على قضاياهم؟

- ما المنهج الذي سلكه في تنزيل الآيات القرآنية على الوقائع التي عاصرها؟

- ما هي أبرز قضايا المرأة التي عاصرها، وكيف عالجها بتطبيق الآيات القرآنية عليها؟ وهذا الإشكال المطروح بإشكالاته الفرعية تقتضي الإجابة عنه أن يحمل البحث العنوان

الآتي: "تنزيل النص القرآني على قضايا المرأة في الفكر الإصلاحى لدى أبي يعلى الزواوي".

وتكمن أهمية هذا البحث في عنايته بجملة من قضايا المرأة التي لا تزال محل إثارة ونقاش علمي على مستوى الأفراد والمؤسسات العلمية، وحتى على المستوى الدولي، في ظل أنظمة عالمية تهدف فيها الدول الغربية القوية إلى فرض ثقافتها ونظرتها تجاه المرأة على بقية دول العالم؛ خصوصا دول العالم الإسلامي المستهدف بصفة استثنائية، ومن جهة أخرى تمحوره حول

جهود أحد علماء الجزائر الذي لم ينل حظه الكافي من العناية بخدمة تراثه، ونشره في الأوساط العلمية وتقريبه للباحث والدارس حتى يعم النفع بجهوده في خدمة الإسلام، ونصرة قضايا الأمة، والاستفادة من طريقته في نقض الشبهات المثارة حول بعض أحكام الإسلام.

أما الأهداف المرجوة التي يصبو إليها البحث فأهمها ما يأتي:

- التعريف بأحد أعلام الجزائر المصلحين، عضو ومفتي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وبيان مكانته العلمية وأهم آثاره.
- معرفة منهج أبي يعلى الزواوي في تنزيل النص القرآني على الأحداث والوقائع.
- حصر أبرز قضايا المرأة الشائكة على المستوى العالمي أو المحلي التي شغلت الساحة العلمية والإصلاحية في الحقبة الاستعمارية للجزائر.
- الوقوف على موقف القرآن الكريم من قضايا المرأة: القديمة منها والمستجدة التي عاصرها الشيخ الزواوي.

أما بخصوص الدراسات السابقة:

فقد حظي أبو يعلى الزواوي بعدة كتابات ومقالات في التعريف به، وذكر معالم منهجه الإصلاحي، لكن لم يتطرق منها أحد إلى منهجه في تنزيل النص القرآني على الواقع بصفة عامة، كما لم يتطرق أحد إلى موقفه من قضايا المرأة في عصره بصفة خاصة.

هذا وقد انتظمت خطة البحث في مقدمة، وثلاثة مطالب، وخاتمة، كما يأتي:

مقدمة: خصصت للتعريف بالموضوع، وإشكاليته، وأهميته...

المطلب الأول: ترجمة أبي يعلى الزواوي.

المطلب الثاني: منهج أبي يعلى الزواوي في تنزيل النص القرآني على الواقع.

المطلب الثالث: أبرز قضايا المرأة في زمانه، وطريقته في معالجتها من خلال الآيات القرآنية.

خاتمة: خصصت لأهم النتائج، والتوصيات.

فأرجو أن يقدم هذا البحث إضافة علمية تغطي جانباً من محاور الملتقى المبارك، ويحقق بعض أهدافه المرجوة، مع أن هذا العمل جهد بشري يعتريه الخطأ والنقصان، فما أصعب فيه فيتوفيق من الله وحده، وما وقع فيه من خطأ أو خلل، فمن نفسي ومن الشيطان، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.

المطلب الأول: ترجمة أبي يعلى الزواوي.

أولاً: مولده ونسبه.

هو السعيد بن محمد الشريف بن العربي بن يحيى بن الحاج بن آيت سيدي محمد الحاج، اشتهر ب: أبي يعلى الزواوي، ولد سنة 1866 بقرية تعارُوست⁽¹⁾، إحدى قرى قبيلة إغيل

(1) تعارُوست: كلمة باللغة القبائلية معناها المصطبة. ينظر: عبد الرحمن دويب، الشيخ أبو يعلى الزواوي حياته وأعماله، 37/1.

انزكري⁽²⁾، بمنطقة القبائل الكبرى، والواقعة حاليا في بلدية زكري، التابعة لدائرة عزازقة إحدى دوائر ولاية تيزي وزو.

والقرية التي ولد بها أبو يعلى هي التي استقر فيها والده محمد الشريف بعدما انتقل إليها، وعين بها إماما قبل أن يتزوج، وأما قريتهم الأصلية التي انتقل منها والده، وموطن جده فهي قرية تدعى: تافريت نايت الحاج⁽³⁾، الواقعة حاليا في بلدية: "أقرو" التابعة لدائرة: "آزفون"⁽⁴⁾.
ثانيا- نشأته وطلبه للعلم:

نشأ أبو يعلى الزواوي في بيت علم ودين حيث كان والده إماما ينتقل من قرية إلى قرية كما جرت بذلك عادة الأئمة آنذاك، فنشأ وترعرع في بيته على مائدة القرآن، حيث تلقى تعليمه الأولي في قريته على يد والده، فبدأ حفظ القرآن في سن السادسة، وختمه في الثانية عشر من عمره، ثم أتقن تجويده، كما تعلم مبادئ اللغة العربية وأجاد الخط العربي حتى برع فيه، ثم انتقل إلى زاوية عبد الرحمن الأيلولي بعزازقة التي كان يضرب بها المثل في العناية بالقرآن الكريم، والتي فيها نهل الشيخ من علوم القرآن والعقائد، والفقه، وعلوم العربية وآدابها، ولم يكتف بما أخذه من هذه الزاوية من مختلف علوم الشريعة وعلوم الآلة فقد زار العديد من زويا الجائرواخذ عن شيوخها⁽¹⁾.

كما تعلم أبو يعلى اللغة الفرنسية، وأجادها دون أن يلتحق بالمدرسة الفرنسية، حين استغل فترة سجنه فتعلم الفرنسية على يد مدير السجن الفرنسي ب: "تيزي وزو" على أن يعلمه الزواوي اللغة العربية، وشهد له بعد ذلك بإتقان الفرنسية بعض العلماء الذين عاصروه: كالشيخ الطيب العقبي، أما اللغة القبائلية فكانت لسانه الأصلي.
ثالثا- وظائفه، ورحلاته:

بعدما أنهى دراسته بالزاوية الأيلولية بدأ مرحلة جديدة في حياته، وهي التنقل بين مدن الجزائر، وأثناء تواجده بمدينة سدراته سنة 1890م كتب بخطه البديع رسالة لأحد التجار، فلما اطلع عليها القاضي بمدينة سوق أهراس أعجب بخطه، فطلبه وعينه كاتباً له، فتقلد حينها أول وظيفة رسمية له.

وبعد حوالي سنتين تقريبا سافر إلى تونس، وقد كان له بها أصحاب وأحباب، فاغتنم الفرصة وزار جامع الزيتونة العامر، ولقي كثيرا من شيوخه فاستفاد منهم، وأخذ عنهم.
وفي سنة 1900م سافر إلى الجزائر والتقى بالشيخ: المجاوي⁽²⁾، فأخذ عنه الكثير من العلوم

(2) إغيل: كلمة بالبربرية ومنها القبائلية معناها: ذراع، أي: أن اسم المكان: ذراع زكري.

(3) تافريت نايت الحاج: معناها عرين ذوي الحاج. ينظر: أبو يعلى الزواوي حياته وأعماله، 1/ 37.

(4) ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص 164.

(1) فتيحة صافر: أبو يعلى الزواوي شيخ الشباب وشباب الشيوخ، مجلة العلوم الإنسانية جامعة وهران، مجلد 8، عدد 2 ص 46.

(2) المجاوي (1264-1332هـ/1848-1913م) عبد القادرين محمد بن عبد الكريم، المجاوي، عالم جزائري، ومصلح سلفي، ولد بتلمسان، وفيها نشأ وتعلم، ثم رحل إلى جامعة القرويين فتخرج منها، وبعدها عاد إلى الجزائر فرفعين =

والمعارف، وتأثر به في منهجه الإصلاحي، وتولى هناك مهمة التدريس في مدرسة حرّة أبناء بعض العائلات المرموقة من أعيان الجزائر.

وفي سنة 1902 انتقل إلى باريس في وظيفة رسمية خلفا للشيخ أبي القاسم الحفناوي⁽³⁾، وفي سنة 1910م توجه إلى دمشق بعد أن قبلت فرنسا إرساله إلى الشام ظلّا منها أنه سيقنع الجزائريين هناك بالتجنس بالجنسية السورية تفاديا لرجوعهم إلى الجزائر، خوفا من الأفكار التحريرية التي ظهرت وقتها في الشام⁽⁴⁾.

وأثناء إقامته واشتغاله في دمشق اغتنم الفرصة للتعرف على بعض كبار العلماء والمفكرين، فتعرف على: الشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ مصطفى الطنطاوي -والد علي الطنطاوي الأديب-، والشيخ عبد القادر المغربي، كما التقى بالشيخ محمد الخضر حسين في بيت عبد الله نجل الأمير عبد القادر الجزائري، وتباحثا في بعض المسائل الشرعية، فأعجب الخضر حسين بطرحه وأشاد به⁽⁵⁾.

ومع بداية الحرب العالمية الأولى خرج أبو يعلى الزواوي من دمشق إلى مصر فلقى بعض علمائها الكبار واستفاد منهم، أبرزهم: الشيخ بخيت المطيعي، والشيخ محمد رشيد رضا الذي تقوت الصلة بينهما، وتوطدت علاقتهما، كما تعرّف في مصر على الشيخ طاهر الجزائري فلازمه واستفاد منه، وتعرّف كذلك على محب الدين الخطيب؛ صاحب مجلة (الفتح)، والكاتب الكبير محمد فريد وجدي صاحب كتاب: دائرة معارف القرن العشرين.

ومن مصر عاد إلى الجزائر، فاستقر بها وعين سنة 1920 إماما بجامع سيدي رمضان في أعالي القصبة، وبقي فيه إماما أكثر من 30 سنة إلى قبيل وفاته⁽¹⁾.

رابعا- عضويته في جمعية العلماء وجهوده الإصلاحية:

يعد الشيخ الزواوي أحد أعمدة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومن أبرز علمائها الداعين إلى تأسيسها، والساعين لإنشائها، ولكونه أكبر علمائها سنّا، وأسبقهم كتابة في مجالات

=مدرسا بجامع الكتاني بقسنطينة، ثم بالمدرسة الكتانية، ونقل بعدها إلى مدينة الجزائر، وولي التدريس بالقسم العالي بالمدرسة الثعالبية، فتخرج على يديه الكثير من القضاة، والأئمة، والمدرسين، والوعاظ، والمترجمين. ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر ص 286، 287.

(3) محمد الحفناوي (1269-1361هـ/ 1852-1941م)، أبو القاسم، محمد بن إبراهيم الديسي، فقيه وكاتب وشاعر ومؤرخ، ولد ببلدة الديس قرب بوسعادة، تعلم في عدة زوايا منها زاوية طولقة وزاوية الهامل، تولى التدريس بالجامع الكبير بالجزائر ابتداء من سنة 1897م، وشارك في تحرير الجريدة الرسمية "المبشر"، وتولى منصب الإفتاء المالكي سنة 1936م، ترك العديد من المؤلفات المطبوعة منها: تعريف الخلف برجال السلف. ينظر ترجمته: عمر بن رضا كحالة، معجم المؤلفين، 11/ 135، وعادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص 121، و الزركلي، الأعلام، 8/ 296.

(4) فتيحة صافر: أبو يعلى الزواوي شيخ الشباب وشباب الشيوخ، مجلة العلوم الإنسانية جامعة وهران، مجلد 8/ عدد 2 ص 46.

(5) عبد الرحمن دويب: الشيخ أبو يعلى الزواوي حياته وأعماله، 1/ 40.

(1) فتيحة صافر، أبو يعلى الزواوي شيخ الشباب وشباب الشيوخ، مجلة العلوم الإنسانية جامعة وهران، مجلد 8/ عدد 2 ص 46.

الدعوة والإصلاح تم اختياره رئيساً مؤقتاً للجمعية العامة المكلفة بوضع القانون الأساسي لجمعية العلماء، وبعد التأسيس أصبح رئيساً للجنة الفتوى، ورئيساً كذلك للجنة العمل الدائمة بها، وبقي وفيها لمبادئ الجمعية، ناصراً لمنهجها الإصلاحي، حتى بعد أن اعتزل تولي المناصب بها قبيل وفاة رئيسها الأول⁽²⁾.

وقد تنوعت وسائل الدعوة والإصلاح لدى أبي يعلى الزواوي إضافة إلى منصب الإمامة بمسجد سيدي رمضان الذي عمر فيه أكثر من ثلاثين عاماً، فقد اشتهر قبل ذلك بكونه كاتباً قديراً في مختلف المجالات الدعوية والإصلاحية المشهورة في زمانه داخل الوطن وخارجه، ولم يقتصر على الكتابة فقط في مجالات جمعية العلماء المسلمين، أو التي أنشأها علماء الإصلاح قبل تأسيس جمعية العلماء، وكذا مجالات دعاة الإصلاح خارج الوطن كمجلة "الفتح" التي أنشأها العالم، والكاتب الإصلاحي الكبير: محب الدين الخطيب، بل كتب حتى في مجالات خصومهم، كمجلة "النجاح" التابعة لابن عليوة الذي كان الخلاف محتدماً بين الإصلاحيين، وأتباع طريقته بصفة خاصة، وبين الإصلاحيين وسائر الطريقين بصفة عامة، غير أن أبا يعلى الزواوي كان له رأي آخر، حيث لم يمنعه توجهه السلفي الإصلاحي أن يكتب في مجالات الطريقين، والإباضيين، لأنه رسم طريقه الإصلاحي وأقامه على مبدأ نفع الجميع دون تنازل عن مبادئه السلفية الإصلاحية، سعياً منه إلى محاولة التقريب بين الفريقين، والتخفيف من حدة الخلاف المشتد بينهما؛ ما دام الجمع بين طريقتهما مستحيلاً، وهذا ما جلب عليه النقد واللائمة من الطرفين⁽³⁾.

خامساً- مؤلفاته وثناء بعض العلماء عليه:

أُحصي لأبي يعلى الزواوي ثلاثة عشر كتاباً بين مطبوع ومخطوط ومفقود، وقد طبع منها في حياته أربعة كتب على ترتيبها الزمني كالآتي⁽⁴⁾:

- 1- تاريخ الزواوة: طبع أول مرة في مطبعة الفيحاء، بدمشق سنة: 1340هـ/ 1922م.
 - 2- الخطب: طبع بالجزائر، بمطبعة باستيد جوردان، سنة: 1343هـ/ 1924م.
 - 3- الإسلام الصحيح: طبع في مصر بمطبعة المنار، سنة: 1345هـ/ 1926م.
 - 4- جماعة المسلمين: طبع أول مرة في تونس بمطبعة الإرادة، سنة: 1367هـ/ 1947م.
- أما بقية كتبه التي لم تطبع فهي كالآتي:

- كتاب جماعة المسلمين (الأصل)، الذي نشر مختصره.
- مرآة المرأة المسلمة، وهذا الكتاب مفقود.
- تعدد الزوجات في الإسلام.
- الخلافة قرشية.

(2) عبد الرحمن دويب: الشيخ أبو يعلى الزواوي حياته وأعماله، 42/1، 43.

(3) عبد الرحمن دويب: المرجع نفسه، 49-62.

(4) المرجع نفسه، 63-64.

- ذبائح أهل الكتاب.
- الأمة العربية.
- رسالة في الخلافة.
- كتاب الإصلاح.
- الفرق بين المشاركة والمغاربة في اللغة العامية وغيرها من الفروق ⁽¹⁾.
- وقد أثنى على الشيخ أبي يعلى خيرة العلماء الذين عاصروه نقتصر على ثلاثة منهم:
- يقول فيه الإمام ابن باديس رحمه الله:- «الشيخ السعيد الزواوي علامة سلفي، داعية إلى الإصلاح بالكتاب والسنة وعمل السلف الصالح» ⁽²⁾.
- ويقول فيه العلامة رشيد رضا -رحمه الله:- «صديقنا الأستاذ الفاضل، الشيخ سعيد ابن محمد الشريف الزواوي الجزائري، الإمام الخطيب بجامع سيدي رمضان بمدينة الجزائر» ⁽³⁾.
- وقال فيه مفتي الجزائر أحمد حماني -رحمه الله:- «الشيخ أبو يعلى الزواوي إمام مسجد سيدي رمضان بالقصبة من عاصمة الجزائر علامة من كبار علماء الجزائر الأحرار، محقق شجاع، سلفي العقيدة، طيب السريرة، حميد السيرة، بليغ القلم سليم النية ... وقد لُقّب في العلماء بشيخ الشباب وشباب الشيخ» ⁽⁴⁾.
- سادسا: وفاته، ودفنه، وتأبينه.

بعد حياة حافلة بالعطاء، والنصح للمسلمين، توفي رحمه الله في الساعة الثالثة من أمسية يوم الأحد الثامن من شهر رمضان سنة 1371هـ، الموافق للفاتح من شهر جوان سنة 1952م، بعدما أقعده مرض عضال أصابه في الجهاز البولي، ولازمه مدة عامين تقريبا، وقد بلغ من العمر زهاء تسعين سنة ⁽⁵⁾.

وفي زوال يوم الثلاثاء، العاشر من رمضان، ثالث شهر جوان شيعت جنازته إلى مقبرة عبد الرحمن الثعالبي، وشهد جنازته خلق كثير، وعدد لا يحصى من المشيعين، وحضر جنازته ودفنه عدد غفير من أعيان العاصمة، ووجهائها، وعلمائها، وكتائبها، وأدبائها ⁽⁶⁾.

وقد صُلّي عليه بوصية منه، صديقه المجل، وحببيه المقرب الشيخ الطيب العقبي، وأبّنه بكلمة أفاضت دموع الحاضرين، ثم أتبّنه وخطب على جثمانه بعد الصلاة عليه الشيخ بابا عمرو المفتي المالكي بالعاصمة، وبعدها رثاه مفتي مليانة الشيخ الفقيه، والأديب الشاعر البشير الرابحي، وخطب بعده بعض الأدباء والكتاب، منهم أحمد توفيق المدني، وأحمد بن زكري، وختم

(1) عبد الرحمن دويب: الشيخ أبو يعلى الزواوي حياته وآثاره، ص 63-64.

(2) المرجع نفسه، 67/1.

(3) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد 29، ربيع الآخر 1347هـ/14 أكتوبر 1928م، الجزء 6، ص 477.

(4) أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة 49/2، 50.

(5) ينظر: الشيخ أبو يعلى الزواوي حياته وأعماله: لعبد الرحمن دويب (1/66)، (1/141، 142)، (1/145، 146).

(6) المرجع نفسه، 66/1، 146/1.

تأبينه الكاتب البارع الشيخ الأمين العمودي، ثم دفن مأسوفا عليه، محزوننا على علمه، وجهاده باللسان في سبيل الإصلاح والتربية، ورثاه الكتاب والعلماء في مختلف الجرائد التي عرف بالكتابة بها، فرحمه الله رحمة واسعة⁽¹⁾.

المطلب الثاني: منهج أبي يعلى الزواوي في تنزيل النص على الواقع.

أولاً: معنى تنزيل النص على الواقع.

يدور معنى تنزيل النص على الواقع، أو تطبيق الآيات على الواقع إلى اجتهاد العالم أو المفسر في ربط معنى الآية القرآنية بما يقابلها من الأحداث والوقائع القائمة في المجتمع سواء كانت نوازل مستجدة، أو عادات وأعراف استقرت بمرور الزمن.

وتنزيل النص القرآني أو تطبيقه على الواقع لم يتعرض له العلماء المتقدمون بالبيان النظري لماهيته، وإن تطرقوا إلى تطبيقه العملي خاصة أئمة التفسير الذين كان الكثير منهم يربط بعض الآيات القرآنية التي لها صلة بالواقع بالظروف والأحداث التي عايشها.

وقد ظهرت العناية بمسلك تنزيل النص القرآني على الواقع بكثرة لدى العلماء المصلحين، وأئمة التفسير المتأخرين، الذين جعلوا القرآن الكريم منطلقاً أساسياً للإصلاح في شتى الميادين، واشتهر منهم: محمد رشيد رضا، وابن باديس، وأحمد شاكر، وسيد قطب، وغيرهم ممن اختص بالكتابة في التفسير، وكذا غيرهم ممن عالجوا قضايا زمانهم من خلال آيات القرآن التي تقابلها إما مقابلة كلية تامة، أو جزئية.

وقد اجتهد بعض الباحثين المعاصرين في وضع تعريف يحدد ماهية تنزيل النص القرآني على الواقع نذكر منها:

1- «هو مقابلة الأحداث المعاصرة للمفسر بما يشابهها في كتاب الله، سواء كانت المقابلة تامة، أو جزئية، أو مخالفة لما عليه الآية»⁽²⁾.

2- «هو اجتهاد المفسر في الكشف عن الرابط بين الآية القرآنية، وما يقابلها من الأحداث الواقعة في زمنه من خلال تفسيره للآية، بغية إيجاد العلاج القرآني لها»⁽³⁾.

ثانياً: واقع شيوخ زمانه مع ربط الناس بالقرآن الكريم، وموقف الزواوي منه.

رغم كثرة الاشتغال بتحفيظ القرآن الكريم في زمانه، وكثرة حفاظه في كافة أنحاء القطر الجزائري، إلا أن شيوخ الزوايا والطرق كان شغلهم وهمهم لا يتعدى تحفيظ القرآن في غالب الأحوال دون العناية بتفسيره وفهمه، فضلاً عن إسقاطه على الواقع وعلاج المعضلات التي كبلت الأمة من خلال نوره المبين، وهذا الجانب أخذ حظاً وافراً من كتابات أبي يعلى الزواوي الإصلاحية في نقد شيوخ زمانه الذين ضيعوا العمل بالقرآن وأهملوا هداية الناس به، حيث

(1) ينظر: الشيخ أبو يعلى الزواوي حياته وأعماله: لعبد الرحمن دويب، (1/66)، (1/141، 142)، (1/145، 146)

(2) عبد العزيز الضامر: تطبيق الآيات على الوقائع المعاصرة، ص 27، 28.

(3) مريم بوعافية/ د.حداة سابق: تنزيل النص على الواقع عند محمد الخضر حسين. مجلة المعيار، مجلد 22، عدد 44، ص 91.

كان الشغل الشاغل لغالبية أصحاب الطرق هو تكثير سواد المريدين المنتسبين لطريقهم مهما كانت أفعالهم وأقوالهم وعاداتهم مخالفة للقرآن، وكان غاية أغلب شيوخ الزوايا تحفيظ الطلبة القرآن حفظا سليما من اللحن دون أن يعتنوا بتدبره، وفهمه وإصلاح الواقع البعيد عن هدي القرآن به.

وفي ذلك يقول الزواوي: «وبالجملة فإن زوايا الزواوة اعتراها ما اعترى زوايا العالم الإسلامي... ولكن زوايا الزواوة بالزيادة في السقوط والانحطاط حتى بلغنا عن بعضها منع دراسة الفقه سيد العلوم، ويقول أهلها وطلبها إنها مؤسسة للقرآن فقط، وقد يمضي فيها طالب القرآن عشرا أو عشرين سنة في القرآن فقط يتغنى به، ولا يعرف فرائض الوضوء والطهارة ولا فرائض الصلاة ولا الصوم ولا الحج ولا العمرة ولا العربية بنحوها وصرفها وبيانها»⁽¹⁾.

وقال أيضا: «... ويقتصرون على القرآن ويتنافسون في حفظه وتجويده، وإتقان رسمه، ولكنهم يجمدون عليه ولا يزيدون عليه، إلا دروسا نحوية في بعض تلك الزوايا، ... وما عدا ذلك من الفقه -سيد العلوم- فقد منعه ربما بدعوى أنه يعوق عن حفظ القرآن، وهو غاية القرآن ونتيجته، والحال أن من أولئك الطلبة من يبلغ ثلاثين وأربعين سنة من العمر ومنهم من قد بلغ من الكبر عتيا، وهو لا يحسن فرائض الوضوء والصلاة، ويجهل مقاصد الإسلام... بقي له أن يقبع في زاوية من زوايا القرى ليؤذن ويصلي وهو جهول مثلهم، ويكتب التمام للمرضى ويقرأ على الموتى، أو يتكهن ويفتات على الله ويفتري -عياذا بالله-»⁽²⁾.

وهذا بلا شك مما زاد تكريس العوائد، وتمسك الدهماء بها، بعد أن تخلف أهل القرآن عن دورهم الواجب في تعليم الأمة دينها، ودعوتهم إلى ما يجب عليهم من أحكام القرآن، وتحذيرهم وتنفيرهم مما يقعون فيه مما حرمه القرآن، ولذا قال الزواوي: «أوليس من الأولى أن يتخرج، ويبدد إجازة العلوم الشرعية فيفيد الأمة، ويخدمها بذلك، ويخدم الإسلام، ويحارب الخرافات؟ بل لهذا نزل القرآن»⁽³⁾.

ثالثا: عناية أبي يعلى بتزليل آيات القرآن على الواقع الذي عايشه.

كان لرحلة أبي يعلى إلى الشام ومصر، بعدما تأثر بالفكر الإصلاحى السلفى للعالم الجزائري "عبد القادر المجاوي" دور بارز في تأثره بالمنهج الإصلاحى الذي انتبهه كبار المصلحين كالإمام: محمد عبده، وتلميذه رشيد رضا، والشيخ طاهر الجزائري، ومحب الدين الخطيب، وهو المنهج القائم على إعادة ربط المسلمين بكتاب ربهم الذي هو المنبع الصافى الذي لا ينضب معينه، ولا يكدر صفاءه، وبالطريقة التي كان عليها الرعيل الأول من الصحابة، ومن سار على نهجهم ممن جسدوا القرآن في مسيرتهم وحياتهم فسادوا الأمم، وصلح لهم أمر الدنيا والآخرة.

وهذا خلافا لما آل إليه حال الأمة في عصور الانحطاط، وقهر الاستعمار، بسبب البعد عن

(1) عبد الرحمن دويب: الشيخ أبو يعلى الزواوي حياته وأعماله، 3/ 234.

(2) عبد الرحمن دويب: المرجع نفسه، 3/ 251، 252.

(3) المرجع نفسه، 3/ 252.

هدي القرآن، رغم كثرة المشتغلين بحفظه من شيوخ وأئمة وطلبة لا يحصون من أبناء الزوايا، وأتباع الطرق الكثيرة والمتفرقة، والتي كانت غالبيتها لا تكتثر بما حل بالأمة من جهل وتخلف، إلى درجة عدم اهتمام الكثير من الطلبة وشيوخ الزوايا بإنكار العوائد التي هي من درجة الكبائر التي تصل إلى حد الكفر، ولا سيما ما تعلق منها بظلم المرأة، وحرمانها من حقوقها المشروعة في الميراث، وتعطيل التحاكم لشرعية الله تعالى، والتحاكم فقط للأعراف، والعادات المتوارثة، ولو على حساب حدود الله الشرعية، وأحكام كتابه القطعية، خصوصاً ما تعلق منها بشؤون المرأة والأسرة الجزائية عامة، وبلاذة الزاوة خاصة، حتى وصل الحال إلى حدٍ أصبحت فيه الزوجة كالمملوكة لزوجها لا حق لها في المطالبة بالطلاق مهما قامت الدوافع الشرعية للمطالبة به، بل سُلِّبَتْ حتى حق الخلع، لأن العادة جرت بحرمان المرأة بعض حقوقها المشروعة⁽¹⁾.

ومما قاله معاتبا وساخطا على بعض شيوخ زمانه بسبب بعدهم عن ربط القرآن بالواقع قوله: « وكذلك أجبنا البعض من شيوخ وطننا الزاوة الذين هم أشد حنقا وعداوة وبغضا للشيخ عليوة: أنه يأمر مريديه بأن يعتمدوا الكتاب والسنة، ويعملوا بقواعد الشرع العزيز، وليس هو مثلكم تسكتون عنهم في ترك تلك القواعد كالميراث الذي تولاه الله بنفسه، وكالتحاكم إلى القضاء، والقضاة الذين لا يُجْرُونَ الأحكام الشرعية التي انصرف عنها الكثير من الجهال في بلد الزاوة»⁽²⁾.

وفي ظل هذا الواقع الذي عرف بزهد أكثر شيوخ زمانه في ربط الناس عامة، ومريديهم خاصة بالقرآن الكريم لعلاج مشكلاتهم من الوحي الطاهر، ظهر منهج الزواوي الإصلاحية والدعوية قائما على علاج مشكلات الأمة في شتى ميادينها من خلال القرآن الكريم، فكانت كتبه ومقالاته كلها مؤسسة على ربط القرآن بالواقع، إما ببيان مصادمة الانحراف القائم، والداء السائد لما جاءت به الآيات المحكمات، وإما من خلال الحلول التي يستشفها الزواوي ويستنبطها من أي القرآن تكون بلسما شافيا لما حل بالأمة بسبب بعدها عن نور القرآن.

ولهذا كانت دعوته واضحة ونداءه إلى شيوخ زمانه صريحا في المطالبة بتحصيل العلوم والمعارف التي يستفاد منها تطبيق القرآن على واقع الأمة، فنشر مقالا في جريدة البصائر يحمل عنوان: "القرآن معدن، ولا بد من آلات لاستخراجه والانتفاع به".

ومما جاء فيه قوله: «... وهذا معنى قولنا: القرآن معدن تلزم الآلات لاستخراجه، فالآلات

(1) تطرق الزواوي كثيرا إلى العوائد السائدة المخالفة لمحكم القرآن، والتي أسهب في إنكارها، والإنكار على الشيوخ سكوتهم ورضاهم بالتحاكم لغير القرآن، ومما جاء عنه في ذلك قوله: «...ومنها عدم توريث قبائل تيزي وزو النساء بخلاف قسم بجاية... وكيفما كان لا يجوز مخالفة ركن عظيم في الشريعة كهذا... ومنها عدم تحاكم الزوجين إلى القاضي ولا إلى العالم، يحكمون العرف في الشؤون الزوجية، والعرف عندهم غير محدود، وأكثر القبائل كما قدمنا، قلما أن يتساهل في أخذ الخلع، ولو بأضعاف ما بذل من الصداق، ويعطيلها مدة الحياة، ولا يجبر في أمثال هذه، فإذا أجبره قتله؛ لأنه يرى ذلك اعتداء على حقه وعرضه، ولا يقبل عقله أن الشريعة هي أجبرته؛ لما رسخ في ذهنه أن المرأة خلص ملكه، لا يشاركها فيه أحد من العالمين» ينظر: الزواوي: تاريخ الزاوة ص 129.

(2) عبد الرحمن دويب: الشيخ أبو يعلى الزواوي حياته وأعماله، 1/ 376، 377.

هي العلوم العربية: النحو والصرف واللغة والبيان والمعاني، ثم الأصول الفقهية؛ ليتنبه الطالب إلى أخذها من الكتاب والسنة الصحيحة، وكذلك السيرة النبوية، وأن القرآن يلزم قارئه طلب جميع العلوم ... وبعبارة أخرى يلزم الشيوخ المرشدين أن يعظوا طلبة القرآن، ويقولوا لهم إن هذا القرآن كتاب الله جاءنا ولا بد أن نقرأه ونفهمه، لا أن نقرأه فقط، وأن نعمل بما نفهم؛ لا أن نفهم فقط»⁽¹⁾.

وما دعا إليه الزواوي شيوخ زمانه وطالهم به من العناية بفهم القرآن وفقهه والعمل به، ودعوة العامة إلى نبذ عاداتهم المخالفة له، جسده عمليا في كافة مقالاته الإصلاحية، فكان ينطلق من آيات القرآن الكريم ليعالج القضايا المختلفة التي يناقشها، إما فيما يدعو إليه مما له مستند من القرآن ينطبق على واقعه انطباقا كليا أو جزئيا، أو فيما يرفضه ويحذر منه مما هو مخالف لهدى القرآن فينطلق في علاج ذلك كله من آيات القرآن الكريم.

هذا ولقد تنوعت المجالات التي عالج فيها أبو يعلى قضايا عصره من القرآن فشملت الجانب السياسي، والجانب الديني والدعوي، والجانب الاجتماعي، وكذا الجانب الفكري والثقافي، وغير ذلك.

رابعا: المنهج الذي سلكه أبو يعلى الزواوي في تنزيل الآيات القرآنية على الواقع.

لقد سلك الزواوي في تنزيل النص القرآني على الواقع منهجا تتحدد معالمه مما يأتي:

1/ اعتماده في تطبيق النص على الواقع على أصولين مهمين:

الأصل الأول: قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

وهي القاعدة التي اعتمد عليها كل من اجتهدوا في تنزيل النص القرآني على الواقع مفسرين كانوا أو غيرهم، فإذا كان للآية سبب نزول، لا يقف عنده، بل يهتم بدلالة عموم النص، وإن أشار أحيانا إلى سبب النزول فيعقبه بما يدل على اعتماده دلالة عموم الآية⁽²⁾.

فمن ذلك أنه لما تكلم عن أهمية ودور الإصلاح وذكر أن الإصلاح مطلب طبيعي ضروري محبوب لدى جميع البشر، نبه إلى أن الإصلاح قد يدّعيه من هو فاقده لآلياته، بل قد يدّعيه المفسد كما أخبر بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۖ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 11-12].

فبعد استشهاده بالآية الكريمة في تقرير طرحه قال: «وهم المنافقون على عهده ﷺ والمفترون من بعده، وهم أصحاب الفرق الضالة المضلة التي سمّمت الأمة، ومزقتها كل ممزق؛ بسبب الانصراف عن الأصول الشرعية المعتبرة من كثرة التأويل المؤدي إلى التحريف، والخروج عن ظاهر الكتاب العزيز، وإجماع السلف، حتى صرنا نسمع في هذا الزمن الزمن أن الإسلام هو

(1) عبد الرحمن دويب: الشيخ أبو يعلى الزواوي حياته وأعماله، 3/ 253.

(2) ينظر: عبد العزي الضامر، تنزيل الآيات القرآنية على الواقع عند المفسرين، ص 47-51.

الذي أخرج المسلمين، وأنه لا يقبل الرقي حتى نبذته بعض الحكومات الإسلامية مقتدية بالنصرانية في فصل الحكومة عن الديانة»⁽³⁾.

ومن ذلك أنه لما كان في معرض التنديد بما وقعت فيه بعض الطوائف من محدثات مخالفة لروح الإسلام وهدى القرآن -إبراء منه لذمته- لما أوجب الله عليه من بيان الحق، ونصرة الدين استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُقِيمُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُرُونَهُ فَبَذَلُوهُ وَرَأَىٰ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187].

واستشهد عقبا بما ذكره الإمام الثعالبي في تفسيره للآية بأن دلالتها عامة في كل من علمه الله علما تنتفع به الأمة، فيدخل كافة علماء الأمة في هذا الميثاق، حيث قال: «قال عبد الرحمن الثعالبي في تفسيره "الجواهر الحسان": الآية توبيخ لمعاصري النبي ﷺ ثم مع ذلك خبر عام لهم ولغيرهم، قال جمهور العلماء: الآية عامة في كل من علمه الله علما، وعلماء هذه الأمة داخلون في الميثاق»⁽¹⁾.

الأصل الثاني: اعتماد على القياس.

فمع اعتماده على قاعدة العبرة بعموم اللفظ، أردف إليها الاستناد إلى دليل القياس بإلحاق الواقعة أو القضية التي عاصرها بالقضية التي ورد فيها النص مما لها سبب مخصوص، فيعتمد الدليل العقلي في الإسقاط، ولا سيما إذا كانت علة الحكم قائمة بصورة أبلغ، كما في مقام حديثه عن تخلف الأغنياء في زمانه عن أداء ركن الحج، وتذكيرهم بالوعيد الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 97].

قال عقب ذلك: «لا مفر للأغنياء من هذا الوعيد بخلاف الفقراء الضعفاء إذ قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ... إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَقْدِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 91-93]، ولا يقول أحد إن الآية في المنافقين المتخلفين عن الرسول ﷺ فإن قال، قلنا: فهؤلاء مثلهم وزيادة؛ لأنهم تخلفوا عن ركن الحج مثل القتال، وعن سنة الرسول، وعن أمر الله تعالى، وتخلف أغنيائنا في الجزائر عام في الأركان الإسلامية كلها، وفي

(3) عبد الرحمن دويب: المرجع نفسه، 1/ 451.

(1) عبد الرحمن دويب: الشيخ أبو يعلى الزواوي حياته أعماله، 4/ 88، 89، وينظر: الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن 2/ 147.

المشاريع الخيرية بأجمعها»⁽²⁾.

2- سلك ثلاثة أنواع لتطبيق النص على الواقع:

اعتمد أبو يعلى الزواوي في تنزيل النص القرآني على قضايا عصره ثلاثة أنواع من أبرز أنواع تطبيق النصوص على الواقع بينها على النحو الآتي:

أولاً: التزويل المباشر (التصريح):

ومعنى هذا النوع أن يصرح المفسر أو العالم بأن معنى الآية الكريمة حاصل في زمنه وواقعه، فيعبر عنها أثناء تفسيره للآية بقوله: (كما هو الحال في زماننا)، أو (هذا ما يكون في مجتمعنا)، ونحو ذلك من العبارات التي تفيد تصريح المفسر بما يكون في واقعه مشابها لما كانت عليه الآية الكريمة⁽³⁾.

وهذا النوع هو الغالب في تنزيل أبي يعلى الزواوي، حيث نجده يستعمل عبارات متنوعة في التصريح بتطبيق معنى الآية على واقعه، فمن ذلك:

أ/ تصريحه في مسألة ذم الاختلاف والتفرق الذي نخر جسد الأمة الإسلامية بمطابقة الآيات الكريمة الواردة في اختلاف بني إسرائيل وتفرقهم بعد موسى عليه السلام للواقع الذي تعيشه الأمة الإسلامية من كثرة الطرق والطوائف التي تضلل بعضها، وتكفر بعضها، فلما استشهد على ذلك الواقع المزري بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾⁽⁴⁾ وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ⁽⁵⁾ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ⁽⁶⁾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ⁽⁷⁾ [هود: 109-111].

صرح قائلا: «صدق الله العظيم، كأنها نزلت في زماننا هذا، ووقتنا هذا، وهي من عجائب القرآن»⁽¹⁾.

ب/ ومن ذلك تصريحه في معرض الاستشهاد بقوله تعالى في قوم سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾⁽⁸⁾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ⁽⁹⁾ [سبأ: 15، 16].

حيث قال: «فصدق علينا نحن أيضا ما وقع لسبأ إذ أخبرنا تعالى بما وقع لهم بسبب ذنوبهم ... فأرسل علينا نحن سيل أوربا»⁽²⁾.

(2) عبد الرحمن دويب: المرجع نفسه، 2/ 292، 293.

(3) الضامر: تنزيل الآيات القرآنية على الواقع للضامر ص 71، والضمير: تطبيق الآيات على الوقائع المعاصرة، ص 82.

(1) عبد الرحمن دويب: الشيخ أبو يعلى الزواوي حياته وأعماله، 1/ 494.

(2) عبد الرحمن دويب: المرجع نفسه، 2/ 90.

ج/ ومن ذلك قوله في معرض عن المحدثات المخالفة للشرع مما أحدثه الناس وتعلقوا به: «لقد وقعنا في مثل هذا حَذْوُ النعل بالنعل»⁽³⁾، يقصد ما ورد في بني إسرائيل من قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخْذُوا الزُّحَدُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: 169].

واستأنس فيما ذهب إليه بما قاله أحد أعمدة التفسير وهو أبو حيان الأندلسي في تفسيره بخصوص إسقاط هذه الآية على واقع الأمة حيث جاء في تفسيره: «إن لهذه الأمة حظا وافرا من هذا المعنى»⁽⁴⁾.

ثانيا: التنزيل غير المباشر (التلميح):

ومعنى هذا النوع: أن يقتصر المفسر أو العالم على الإيماء، والإشارة إلى أن معنى الآية واقع في زمانه دون تصريح بذلك، بل يورد تنزيهه على سبيل التعريض، وغالبا ما يكون الدافع إليه راجعا إلى الحالة السياسية السائدة في زمانه التي يكون فيها للتصريح تبعات وخيمة على العالم، أو على دعوته، مما يضطره إلى تفادي التصريح خشية الإيذاء، أو التضيق على دعوته. ونظرا لأن الحالة السياسية لأبي يعلى كانت حالة احتلال؛ فإنه كغيره من علماء عصره المصلحين يعدلون إلى التعريض والتلميح -غالبا- إذا تعلق الأمر بنقد السياسة الفرنسية الاستعمارية.

ومن الأمثلة على ذلك:

تأسفه على قلة المساجد في مدينة الجزائر، والتي كان عددها في زمانه أربعة مساجد؛ بينما كانت الحاجة قائمة إلى تشييد ضعفها عشر مرات، مقارنة بين عدد المساجد قبل الاحتلال، والتي كان عددها: "ثمانية عشر مسجدا" رغم قلة عدد السكان مقارنة بعدد السكان في زمانه الذي تضاعف أضعافا مضاعفة، وهذا كان في معرض كلامه عن المساجد واستشهادته بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ، وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 379].

فكان مما قاله: «وكنا نظن أن نزيد في المساجد، وعمارتها ماديًا وأدبيا لا في خرابها، وأنها عند الحكومة مثل الحدائق العمومية، تنفع ولا تضر، وأنها من المدنية، وينبغي أن يكون في مدينة الجزائر أربعون مسجدا بدل أربعة، وكانت ثمانية عشر عند الاحتلال، والسكان إذ ذاك

(3) أبو يعلى الزواوي: الإسلام الصحيح، ص 113.

(4) أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير، 216/5، ولفظه كما في تفسيره: "ولهذه الأمة من هذه الآية نصيب وافر".

أقل من الآن ألف مرة»⁽¹⁾.

فهذا الإسقاط مزج فيه بين التصريح والتعريض، فالتصريح جاء فيه أن فرنسا لا تهتم لشأن المساجد، ولا تحمل لها هم بنائها ولا عمارتها، وفي نفس الحال لمَّح إلى تناقض السياسة الاستعمارية التي تعتبر المسجد من المدنية، وهي لا تتعامل معه كبقية المرافق المدنية التي يحتاجها المواطن الجزائري، بل لمَّح بعد ذلك إلى أن سياسة فرنسا هي تعطيل المساجد، وعرقلتها والتضييق عليها، بدليل أن ثلاثة أرباع من المساجد التي كانت موجودة قبل الاحتلال قد عطلتها فرنسا، ولم يبق منها إلا أربعة من ثمانية عشر مسجداً؟

وكأنه يقول: إن بقية المساجد التي كانت موجودة قبل الاحتلال قد حولتها فرنسا إلى كنائس، أو مرافق مدنية، أو عسكرية، وتعدت على حرمتها، فكيف ينتظر منها أن تشيد المساجد، أو تسعى في عمارتها؟

ثالثاً: التنزيل العكسي.

وهو التنزيل الذي يكون على خلاف معنى الآية القرآنية، ويستخدمه المفسر أو العالم إذا وجد في واقعه أحوالاً حث القرآن على خلافها⁽²⁾، أو أمورا دعا إليها القرآن الكريم فغيّتها الناس في واقعهم وأهملوها، ولاسيما إذا كانت في دائرة القطعيات، والمسلمات الشرعية.

ونظراً لأن الواقع الذي عاش فيه أبو يعلى الزواوي كثرت فيه المنكرات، وتزايد فيه التهاون في العمل بأحكام القرآن، وتجراً فيه الناس على حدود الله، وبجلوا التحاكم إلى العادات على التحاكم إلى آيات القرآن البينات، وتعددت فيهم الطرائق المتنافرة، فإن هذا الواقع السيء حتم على أبي يعلى الزواوي أن يسلك في تنزيله الآيات القرآنية على الواقع مسلك التنزيل العكسي - أحياناً - من خلال الآيات التي يستدل ويستشهد بها، أو ينطلق منها في الإنكار على العامة والخاصة ما جانبوا فيه الحق الواضح الذي ليس بعده إلا الضلال، فتجده يستشهد غالباً على هذا النوع من الواقع بما جاء في القرآن من آيات تخالفه، وتحذر منه.

ونكتفي هنا بمثالين:

المثال الأول: حينما تكلم عن شهر رمضان، ومنافع الصيام الصحية التي منها ما أهر العلم الحديث، وغيرها من المنافع التي منها كذلك تعويد المسلمين خصالاً حميدة أبرزها تلك الخصلة العظيمة التي تمثل شطر الإيمان، وهي خلق الصبر، استشهد بما ورد في فضل الصبر من ثواب، وجزاء تضمنته الآية الكريمة: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا^١ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177]، ربط بعدها بين معنى الآية الكريمة، والواقع الذي عايشه ربطاً عكسياً حينما عاتب رجال زمانه الذين غلب عليهم التفريط في جانب الصبر على العبادة

(1) عبد الرحمن دويب: الشيخ أبو يعلى الزواوي حياته وأعماله، 2/ 379-381.

(2) الضامر، تنزيل آيات القرآنية على الواقع عند المفسرين، ص 78، الضامر: تطبيق الآيات على الوقائع المعاصرة، ص 89.

والطاعة، واستثقالهم لمواسم الفضل والخير، حتى صارت النساء أكثر منهم حرصا على العبادة، وأشد استعدادا للطاعة وثباتا عليها.

فقال رحمه الله: «وذكر الله في القرآن الصبر أكثر من سبعين مرة، والصبر من شأن الرجال، ومع هذا فإن النساء أكثر صوما من الرجال، وهنّ أكثر فرحا واستعدادا لرمضان منا، وهذا مما ثبت لي منذ ثمانية أعوام قضيتها في عمارة المسجد بالإمامة، فإذا كان نساؤنا خيرا من رجالنا فباطن الأرض خير لنا من ظهرها»⁽¹⁾.

المثال الثاني: لما تطرق إلى عيب من العيوب التي اشتهرت بها المجتمعات المسلمة بصفة عامة، والمجتمع الجزائري بصفة خاصة، وهو عيب التواكل والاعتماد الكلي على الحكومات، دون أن يبذل طاقته ليستغني بنفسه عنها فيستفيد وينفع أمته، ومن سبل نهوضه واعتماده على نفسه أن يستفيد من خبرات، وتجارب غيره من جيرانه، كما استفاد ابن آدم الأول من الغراب وأخذ عنه طريقة إكرام جثة أخيه بعدما قتله، حيث قال الله تعالى في شأنه: ﴿قَالَ يَبْنَوتِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأَوْرِي سَوْءَ أَخِي﴾ [المائدة: 31].

فقال الشيخ الزواوي منزلا معناها على واقع أهل زمانه تنزيلا عكسيا: «... أنهم متصفون بالعيب المشهور في الحكومات الإسلامية أن رعاياها متعلقون بالحكومة، ولا عمل لهم إلا ما عملت، أي: بلا أهلية للقيام بشؤون التعاون، والاجتماع من عقد الشركات العلمية، والتجارية والصناعية فيقومون بأنفسهم... وإن كان الجهل هو الذي أداهم إلى هذا أيضا، إلا أنهم لا يعذرون في هذا الزمان إذا لم يدركوا هذه الأمور، ولم يقتبسوا، ولم يأخذوا من جيرانهم، ولكنهم لم يقرؤوا القرآن، فلو قرؤوه وكانوا آدميين؛ لعملوا مثلما عمل ابن آدم الأول؛ إذ تحير في دفن أخيه، فأخذ عن الغراب ... إي وربي كأننا لسنا آدميين؛ لاستحكام الجهل فينا، واستيلائه علينا بجنوده العظيمة»⁽²⁾.

المطلب الثالث: أبرز قضايا المرأة في زمانه، وطريقته في معالجتها من خلال الآيات القرآنية

أغلب قضايا المرأة المطروحة في زماننا، والتي لا يزال الجدل فيها قائما إلى اليوم، كانت قد ظهرت بوادرها في عصره -رحمه الله-، فكان أبو يعلى أحد فرسان الكلمة الذين أدلوا بدلوهما فيها من خلال استنطاق الآيات القرآنية، ومحاكمة الأقوال والدعاوى المطروحة إليها، وكذا محاكمة العادات البالية، والأعراف المتنطعة التي ألصقت زورا بالإسلام؛ فضيقت على المرأة، وحرمتها الكثير من حقوقها المشروعة، إلى محكم الآيات القرآنية التي جاءت بأحكام مبنية على الخير والمنفعة، ومؤسّسة على الحكمة والرحمة؛ لا على الظلم والغلو والشدة.

وقد شهد له بطول باعه وسحر بيانه في معالجة قضايا المرأة أمير البيان شكيب أرسلان،

(1) عبد الرحمن دويب: الشيخ أبو يعلى الزواوي حياته وأعماله، 1/ 403-404.

(2) عبد الرحمن دويب: المرجع نفسه، 1/ 423-424.

والإمام المجدد محمد رشيد رضا، وقد أثرت نقل شهادتهما له بجودة كتاباته في هذا الشأن قبل الولوج إلى ذكر أبرز القضايا التي اهتم بها من قضايا المرأة عامة والمرأة المسلمة خاصة.

يقول شكيب أرسلان: «إني بمجرد ما قرأت الفصل البديع الممتع الوارد في عدد 1 ذي القعدة من بلاغكم تحت عنوان: سرّ تعدد الزوجات، أخذتني هزة الطرب، ولم أملك نفسي أن بادرت إلى تهنئة البلاغ بهذا المقال الفحل الذي فيه من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، وقوة التعبير، وشدة التأثير، وعلو النفس ما يجعله من أفضل ما كتب في هذا العصر، ومن حيث أن كاتب المقال لم يبق في القوس متزعا، فلا أجد في نفسي حاجة إلى إيراد شيء جديد يزيد الشمس نورا ...»⁽¹⁾.

فهذه شهادة أمير البيان لأبي يعلى الزواوي بقوته العلمية، وحجته البالغة، وجودة أسلوبه، وشدة تأثيره، في معالجة قضية كانت في زمانه نازلة العصر حينما ظهرت نداءات منع تعدد الزوجات؛ فاستجابت لذلك بعض الحكومات بداية من سقوط دولة الخلافة العثمانية، وظهور الدولة التركية الحديثة التي منعت التعدد بقوة القانون، واعتبرته جريمة في حق المرأة تأسيساً بقوانين الدول الغربية النصرانية.

وأما الشيخ محمد رشيد رضا فقد أشاد بما كتبه في مسألة أخرى مستقلة عن الأولى، وهي مسألة حجاب المرأة المسلمة الذي سلك فيه مسلكاً وسطاً بين المتشددين في شأنه ممن أدخلوا عليه أموراً ما أنزل الله بها من سلطان، وجعلوها من الحجاب الواجب، وبين المفرطين والسُفُوريين الذين تأثروا بالثقافة الغربية، فدعوا إلى ثقافة العري والتبرج باسم الحرية، فكانت كتاباته على المنهج الوسط القائم على نبذ الغلو، والتشدد في شأن الحجاب، والتحذير من مزالق التقليد الأعلى للمرأة الغربية المؤدي إلى الانحلال والتفسخ، والترويج للفاحشة والإباحية.

حيث قال في تقديمه لأول طبعة لكتاب "الإسلام الصحيح" للشيخ الزواوي: «... وتكلم بمناسبة وجوب ستر العورة في مسألة حجاب النساء التي اضطرب فيها مسلمو الأمصار في هذا العهد كلاً ما معتدلاً بين إفراط الحجازيين، وتفريط السُفُوريين»⁽²⁾.

وبعد هذا التقديم يمكن حصر القضايا المتعلقة بشأن المرأة، والتي عالجها أبو يعلى الزواوي في كتبه، ومقالاته في القضايا الآتية:

أولاً: قضية حرمان المرأة من الميراث.

حق المرأة في الميراث من الأمور القطعية المحسومة في الإسلام، حتى إن القرآن ساوى بين الرجل والمرأة في استحقاق كل منهما نصيبه الشرعي في الميراث، وهذا ما اتفقت عليه كلمة العلماء والمفسرين في تفسير آيات الميراث، ويكفي أن نذكر ما نقله ابن كثير عن بعض أئمة التابعين: «... كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورثون النساء، ولا الأطفال شيئاً،

(1) عبد الرحمن دويب: الشيخ أبو يعلى الزواوي حياته وأعماله، 1/ 423-424.

(2) رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد 29، ربيع الآخر 1347هـ/ 14 أكتوبر 1928م، الجزء 6، ص 477.

فأنزل الله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: 07]، أي: الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى، يستوون في أصل الورثة، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله تعالى لكل منهم، بما يدي به إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء⁽¹⁾.

ولأهمية الميراث وخطورته تكفل الله سبحانه وتعالى بتقسيمه على المستحقين له شرعا قسمة عادلة حتى لا تسول لأحد نفسه أن يجد مبررا لحرمان أحد من الورثة بغير مانع شرعي، فقال سبحانه: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ... فَرِيشَةُ مَرْبِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 11].

ومنذ أن دخل الإسلام بلاد المغرب ودان به العرب والبربر، استقام أمرهم على شريعة الله، ونالت المرأة حقوقها الثابتة لها في الإسلام بدءا بحقها في الميراث، واستقر ذلك في هذه البلاد قرونا من الزمن حتى بدأ الجهل ينتشر بين الناس، وتخلى أهل العلم والقرآن عن واجب نصرة الإسلام، وحماية أحكامه من العبث والتلاعب، ودبّ الضعف والهوان إلى مفاصل الحكومات الإسلامية؛ فغاب دورها في حماية الدين من خلال نظام الحسبة، وغلب على الناس الهوى، فحكّموا منطق الجاهلية الأولى، وعادوا إلى ما كانوا عليه من ظلم الإناث، وحرمانهن من حقهن في الميراث.

وفي ذلك يقول أبو يعلى الزواوي: «كان العرب -والزواوة منهم- لا يورثون الإناث، بل كانوا يثدونهن كما أخبر بذلك أصدق القائلين، وبلغ من أرسل رحمة للعالمين ﷺ، ثم لما أنقذهم الله بالإسلام من عبادة الأوثان والأصنام نهاهم عن ذلك، وعن جميع ما يضرهم، وأمرهم بجميع ما ينفعهم، فاستمر ذلك صدر الإسلام، وما بعده، إلى أن ضعفت الحكومات العربية الإسلامية التي هي قوام الديانة، وقوام الحسبة ومصدره، فتطرق الشيطان -لعنه الله- إلى أبناء عدوه الإنسان، فدلهم بغرور؛ كما دل أباهم من قبل...إنما العجب كل العجب إذ يقول الله لنا: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُزَّ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: 5، 6]، ولم نفعل، ولم نمتثل، واجهلاه، واحسرتاه، واندمتاه»⁽²⁾.

فمن خلال هاتين الآيتين اللتين استشهد بهما في سياق بيان أسباب تعطيل حكم توريث الإناث، نجد الزواوي يرجع سبب انتشار ظاهرة حرمان المرأة من الميراث بين المسلمين إلى اتباع الناس لخطوات الشيطان، الذي زين لهم سوء أعمالهم؛ فصدّهم عن سبيل الله، وأوردهم سبيل أصحاب السعير، بعدما غاب دور العلماء الذين يزعون بالدعوة والنصيحة، وغاب دور

(1) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم 2/ 219، وينظر: تفسير الطبري، 7/ 597، وتفسير القرطبي 5/ 46.

(2) الشيخ أبو يعلى الزواوي، حياته وأعماله، 3/ 227، 228.

السلطان الذي يزع الله به ما لا يزع بكتابه العزيز.

ونظرا لخطورة هذا الجُرم الذي هو انتهاك صارخ لحدود الله تعالى، فقد شدد الزواوي النكير على شيوخ الطرق في زمانه المتعاسين عن دورهم في البيان، وتعليم الناس الضروري من أحكام دينهم، والذين شغلهم الزعامة ونصرة الطريقة عن الانتصار للإسلام، ودعوة الناس إلى التحاكم لكتاب ربهم، ومن ذلك سكوتهم عن جريمة عدم توريث النساء، حتى قال في شأن أحد أقطابهم في بلاده: «... فلا نُسلم أن يسكت هو وأتباعه الغلاة فيه، والمفتخرون به، وما وقفنا لهم على أي إنكار، ولا غضب لله وللرسول وللإسلام الذي أكلوا به الدنيا... كيف ترجى الولاية لقوم لا قضاء لهم ولا ميراث؟ والله تعالى يقول: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ» [النساء: 13-14]»⁽¹⁾.

وقال في حق غيره: «وكذلك أجبت البعض من شيوخ وطننا الزاوية الذين هم أشد حنقا، وعداوة وبغضا للشيخ عليوة أنه يأمر مريديه بأن يعتمدوا الكتاب والسنة، ويعملوا بقواعد الشرع العزيز، وهو ليس مثلكم تسكتون عنهم في ترك القواعد: كالمراث الذي تولاه الله تعالى بنفسه...»⁽²⁾.

ولم يقتصر خطابه على إنكار سكوت شيوخ زمانه، بل شدد الإنكار حتى على عامة قومه الذين اعتادوا هذا الجرم الذي يصل بهم إلى حد الكفر، والخروج من دائرة الإسلام، ويستوجب البراءة منهم فنجده يقول لهم: «ولا تكونوا مثل الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمٌ مِنْ بَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا» [النساء: 150-151]... إن الله بريء من المخالفين لشريعته ورسوله، فافهموا هذا وأعلنوا على أنفسكم أنكم عرب مسلمون، وإلا فأنتم خليط من صنوف... أما الإسلام فلا يقبل التجزي كالجوهر الفرد، وإنا جمهور أهل العلم والشرفاء تبرأنا منكم، ومن أعمالكم التي تخالفون فيها شريعة الله ورسوله...»⁽³⁾.

ثانيا: قضية حجاب المرأة المسلمة.

لقد عايش الزواوي بدايات الدعوة إلى تحرير المرأة المسلمة، بعدما استوطنت المرأة الغربية البلاد الإسلامية إبان مرحلة الاستعمار، ونشرت ثقافة العري في جل العواصم، والمدن التي سكنتها، مما جعل مرضى القلوب يتأثرون بثقافة السفور تأثرا كليا، وبعدها عادت بعض البعثات العربية من البلاد الغربية تهم الإسلام بالرجعية وحرمان المرأة من حقوقها، فسخرت

(1) الشيخ أبو يعلى الزواوي، حياته وأعماله، 142/2.

(2) المرجع نفسه 1/ 378، 379.

(3) المرجع نفسه 3/ 239.

أقلامها للترويج للسفور، والدعوة إلى خلع الحجاب، وفي المقابل كان لبعض التوجهات الفقهية التي تشدد في شأن الحجاب من جهة، وزاد عليها بعض الأعراف السائدة في البلاد الإسلامية التي بالغت في شأن الحجاب وأدخلت فيه ما ليس منه، وما لم يقل به عالم أو فقيه قط، ما جعل القضية فيها طرفان متناقضان:

أحدهما: وهو الطرف المتشدد في شأن الحجاب، والذي يمثلُه صنفان: صنف لهم مستندهم الشرعي والفقهى كمن يرون وجوب تغطية المرأة جميع جسدها، وهذا ما نسبته الشيخ رشد رضا إلى أهل الحجاز، والصنف الآخر هم من لا مستند لهم إلا المبالغة في الغيرة الزائدة التي وصلت حد الغلو الذي لا يقول به أحد من أهل العلم والفقه.

والثاني: هم دعاة السفور والتبرج، وهذا الصنف هو الذي يحظى بالدعم والتشجيع الغربي الذي كان من أهدافه الاستعمارية تعميم ثقافته الغربية في بلاد الإسلام باستغلال المرأة التي بصلاحتها تصلح الأمة، وبانحرافها وفسادها تتحقق مآرب أعداء الإسلام.

وهذان الطرفان هما اللذان ذكرهما الشيخ رشيد رضا في تقديمه لكتاب الإسلام الصحيح للزواوي حين قال عنه: «... وتكلم بمناسبة وجوب ستر العورة في مسألة حجاب النساء التي اضطرب فيها مسلمو الأمصار في هذا العهد كلاً ما معتدلاً بين إفراط الحجازيين، وتفريط السفوريين»⁽¹⁾.

وبتبعي لما كتبه الشيخ الزواوي في مسألة الحجاب وجدته اشتغل كثيراً بالإنكار على الطرف المتشدد في شأن الحجاب خاصة من تشبثوا بعاداتهم المخالفة للإسلام في شأن الحجاب، فخصهم بالنقد تنبيهاً على براءة الإسلام من ذلك الغلو وتلك الشدة، وفيما يأتي أهم القضايا التي عالجها الزواوي في قضية حجاب المرأة المسلمة:

1- أن المعتبر في الحجاب ما دل عليه النص الشرعي، وجرى عليه عمل سلف الأمة: انطلق الزواوي في تقرير مبدأ التسليم لما نص عليه القرآن والسنة في أي جانب من جوانب الدين، ومن ذلك الحجاب من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 36].

حيث قال في ذلك قبل استدلاله بالآية الكريمة: «فليعلم الإخوان أن الحجاب في الإسلام لم يشدد فيه هذا التشديد المختلف فيه عند الطوائف الإسلامية... ولا حكم في هذه المسألة المهمة إلا لله، ولرسوله ما دنا مسلمين، وحكم الله هنا واضح، وكذلك سنة رسوله ﷺ، وسيرة السلف الصالح، فلا معدل عنها البتة...»⁽²⁾.

2- أن الذي شدد فيه القرآن من الحجاب هو الخلوة بالأجنبية: انطلاقاً من آيات تحريم إبداء الزينة لغير المحارم ذهب الزواوي إلى أن التشدد القائم في

(1) رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد 29، ربيع الآخر 1347هـ/ 14 أكتوبر 1928م، الجزء 6، ص 477.

(2) عبد الرحمن دويب: الشيخ أبو يعلى الزواوي حياته وأعماله، 153/2، 154.

عصره بخصوص الحجاب وشكله، أكثره قائم على تغليب الغيرة الزائدة إلى حد الغلو الذي يصادم الشرع، لأن القرآن ما شدد في جانب شكل الحجاب بقدر ما شدد على شأن الخلوة بالأجنبية، بعدما حدد من يجوز للمرأة أن تبدي زينتها لهم، وهؤلاء من يجوز لها الاختلاء بهم، ويفهم من ذلك التشديد الذي أكدته السنة في تحريم الخلوة بالأجنبية، ولو مع الحجاب وعدم إظهار الزينة.

ولذا قال: «والذي نراه لازماً في الحجاب، ومشدداً فيه الاختلاء بالأجنبية... وقد بين الله من لا جناح عليهن في الرؤية، والاختلاء بهن فقال تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا إِسَاءِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ [الأحزاب: 55]، وفي آية أخرى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ... وَلَا يَضْرِبْنَ بَأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31]»⁽¹⁾.

3- المبالغة في الجانب الشكلي للحجاب أدت إلى الغلو والتنطع:

خلص الزواوي من خلال الواقع الذي عايشه في البلدان الإسلامية التي زارها عامة، وفي بعض أقطار الجزائر خاصة؛ أن المبالغة في الجانب الشكلي والمظهري للحجاب أدت إلى انتشار عادات يرفضها الشرع المطهر، وينكرها العقل السليم، وتأبأها الفطرة السوية، ألصقت زورا بالحجاب، منها: منع رؤية الخاطب للمخطوبة، حيث قال «... فإن الحجاب الذي نراه جارياً مخالف بين تفریط وإفراط، ولم ينتظم أمره، وصار عادة فقط، فالبعض من المسلمين متنطع ومشدد فيه، لا ترى المرأة عندهم حتى في الخطبة... أليس من الظلم والباطل، وضد المصلحة أن تختفي المرأة الجميلة، وتختبئ عن الخطباء»⁽²⁾.

بل إن أغرب ما وصل إليه حال التنطع في شأن الحجاب منع الخاطبات من النساء -وليس الخاطب- من رؤية المخطوبة، وهي ظاهرة اشتهر بها سكان مدينة الجزائر في عصره؛ حيث اعتبر ذلك من المنكر القائم، والزور السائد إذ يقول: «... أما والحالة هذه؛ فإن أولياء المرأة عندنا بمدينة الجزائر يمنعون النساء الخاطبات أن يرين المخطوبة، بلغوا إلى هذه الحالة، وهو منكر ووزر عظيم»⁽³⁾.

4- رفض جميع صور الغلو في شأن الحجاب.

تطرق الزواوي إلى الكثير من مظاهر الغلو في ستر المرأة، وحجابه مما ليس له مستند

(1) أبو يعلى الزواوي: الإسلام الصحيح، 54، 55.

(2) المرجع نفسه، 55، 56.

(3) المرجع نفسه، 58.

شرعي، فأنكرها لمخالفتها ما جاء في القرآن والسنة وعمل الصحابة، ومن بعدهم، من أدلة وشواهد تدل على أن المرأة لم تكن مكبلة بهذه القيود التي تنسب إلى الحجاب وليست منه، وفي ذلك يقول: «وأما أن نجعلها كما هو الواقع كلها عورة، ومعة ورذيلة وقبيحة ومصيبة، أو بضاعة تشتري وتباع، ولا قيمة لها إلا للوطء -إن صلحت لذلك-، ولا تعرف هي أنها مخلوقة لغير ما هنالك، ولا خلق يمنعها من شهوتها، ولا حجاب يحول دونها إلا غلق أبواب الديار، وإحاطة الأسوار، أو إلا إذا وقف عليها أهلها وذووها حارسين بالسلاح ... أهذا هو الحجاب في الإسلام؟ كلا وألف كلا»⁽¹⁾.

ومن الشواهد التي استأنس بها من القرآن وأسقطها على الواقع الذي عايشه إسقاطا عكسيا قصة المراتين من قوم مدين مع كليم الله -موسى عليه السلام-، حيث يقول: «فلما قرأت القرآن، ووجدت فيه أن ابنتي شعيب ذهبتا في رعي الغنم، وفي سقي الماء، واجتمع موسى بهما، وتزوج إحداهما ... فأتل الآية: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾... إلخ الآيات»⁽²⁾.

5- ترك التشدد في شأن الحجاب لا يعني السفور والتشبه بالمرأة الغربية:

وحتى لا يُحمل طرح الزواوي الذي شدد فيه النكير على المتنطعين في شأن الحجاب، على أنه يدعو إلى ترك الحجاب والستر، ويشجع على مشابهة المرأة الغربية في لباسها قطع الطريق أمام ذلك، بالتشديد في وصف التبرج والتشبه بالمرأة الغربية بالكفر والمروق، فقال: «وأما التشبه بجارتها الإفرنجية في التجرد من اللباس، والحياء والدين، فتقص غداثها، وتبدي رقبته ونحرها، وثديها، وساعديها، وتتخذ المحيد من اللباس، وتقرمطه، فمروق وكفر، ونحن نعمل بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾»⁽³⁾.

ثالثا: قضية تعدد الزوجات:

مسألة تعدد الزوجات من المسائل التي فصل في مشروعيتها القرآن الكريم بالآية المحكمة: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَرْضَوْنَ النِّسَاءَ مَتًى وَتُكْفَرُوا عَنْهَا لَا تُفْرِغُوا مِنْهَا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [النساء: 34]، إذ حكم التعدد عند العدل فرع عن حكم الزواج بواحدة، ولم يختلف العلماء فيه، بل لم يكن كلامهم قديما في طرح مدى مشروعية التعدد من عدمه، وإنما كان بحثهم في نوع حكمه الأصلي، هل الأصل فيه الإباحة أو الاستحباب؟ وهل الأصل في الزواج التعدد، أو أن الاكتفاء بواحدة هو الأصل؟ كل ذلك طبعا مع العدل والقدرة.

(1) عبد الرحمن دويب: الشيخ أبو يعلى الزواوي، حياته وأعماله، 2/ 166.

(2) أبو يعلى الزواوي: تاريخ الزواوة، 126، 127.

(3) عبد الرحمن دويب: المرجع السابق، 2/ 166، 167.

إلا أن تأثر بعض الدول المسلمة بالعلمانية الغربية، وقيام حكومتها بسن قوانين تمنع التعدد معارضة بذلك ما جاء به نص القرآن، جعل علماء ذلك العصر يعترضون وينكرون تعطيل حكم الله تعالى، ومنهم أبو يعلى الزواوي الذي كتب في هذا الموضوع وأجاد حتى شهد له أمير البيان شكيب أرسلان بأنه لم يترك لغيره في الباب مقالا.

وتتجلى الجوانب التي عالج فيها أبو يعلى هذه المسألة فيما يأتي:

1- الأصل في التعدد الإباحة كما أن الأصل في الزواج الإباحة.

قرر الزواوي في إسقاط آية تشريع التعدد السابقة على واقعه الذي راجت فيه فكرة منع التعدد، واقتفاء الدولة التركية أثر النصارى في منعه، بالتأكيد على أن التعدد مشروع تشريعا ثابتا لا يتغير بتغير الزمان أو المكان، في حق كل من توفرت فيه شروطه؛ لأنه تشريع أحكم الحاكمين، فجاءت به الشريعة الغراء، حيث يقول: «تعدّد الزوجات موجود في شريعتنا الإسلامية الغراء، النقية البيضاء على تأويله، ولزومه لبعض الناس دون بعض، والأصل فيه الإباحة، وفي القرآن: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنً وَثُلُثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: 03]، وليس كل الناس يتزوجون أكثر من واحدة إلى أربع لا أكثر، ولا العكس، بل كان من الناس من لا ينبغي أن يتزوج واحدة، وهو من لا إرب له، ولا رغبة ولا قدرة له على القيام بها»⁽¹⁾.

فالذي قرره هنا دفاعا عن حكم التعدد المشروع بدلالة القرآن، أن التعدد في حكمه الشرعي والفطري كالزواج بواحدة، فكما أن من الناس من ليس أهلا للزواج أصلا ولو بواحدة، فكذلك الحال بالنسبة للتعدد فمن ليس أهلا لذلك بتحقيق العدل والقدرة على القيام بشؤون الزوجات، فليس أهلا للتعدد مثله مثل من لم يكن أهلا للزواج بواحدة، وإنما شرع التعدد للقادر عليه، وعلى توفير متطلباته المادية والمعنوية⁽²⁾.

2- منع التعدد وإجبار الناس على الاكتفاء بواحدة مصادرة للحكم الشرعي وعصيان لله ورسوله.

لما تناقلت الجرائد والمجلات نبأ منع الحكومة التركية لتعدد الزوجات، كثير من العلماء لم يصدقوا الخبر ومنهم أبو يعلى الزواوي الذي بادر إلى بيان الحكم على وجه الاحتمال مع تغليب حسن الظن بهم أن لا يصدر ذلك في بلد مسلم، حيث قال: «وعليه فيلزم الحكومة التركية الإسلامية أن لا تجعل الاقتصار على واحدة إجباريا، وإلا فهي تصادم وتصادر الحكم الشرعي، فإن فعلت فقد عصت الله ورسوله، وهذا مما لا نظن أنها تفعله، والذي قلنا إنها لا حرج عليها فيه هو: ترجيح عدم تعدد الزوجات -إن خيف عدم العدل-، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ

(1) عبد الرحمن دويب: الشيخ أبو يعلى الزواوي، حياته وأعماله، 221/2، 222.

(2) هشام شوقي: معالجة قضايا المرأة المعاصرة في فكر الشيخ أحمد شاکر من خلال آيات القرآن الكريم، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، المجلد 33، العدد 2، 2019م ص 94، 95.

أَلَا تَعْدِلُوا فَوَاحِشَةً ﴿النساء: 03﴾، ويبقى الباب مفتوحاً على أصله؛ للزومه وصلاحه»⁽³⁾.

فالمتأمل لكلامه يقف على تنبيهه لطيف وهو: أن للحاكم أن يمنع التعدد على من خيف منه عدم العدل، لا أن يمنع التعدد على العموم والجميع، فيكون بذلك مصادماً للنص الشرعي، ومصادراً لحكمه المستنبط منه.

3- تعدد الزوجات مشروع في جميع الشرائع السابقة:

مما استند إليه الزواوي واعتمد عليه في إنكار تعطيل حكم التعدد في بعض دول الإسلام تأسيساً بالحكومات النصرانية، هو كون التعدد حكماً لا يختص بالإسلام بل جاءت به كافة الشرائع السابقة، ولم يحرم لا في شريعة موسى ولا شريعة عيسى -عليهما السلام-. وقد ذكر القرآن أن الزواج والتعدد من سنة الأنبياء، حتى إنه لما طعن اليهود والنصارى في تعدد زواج النبي ﷺ جاء القرآن بالرد عليهم أن ذلك من سنن الرسل والأنبياء السابقين.

وفي ذلك يقول: «وكان هذا في سائر الأديان التي قبل الإسلام، وتزوج أبونا إبراهيم، وسليمان، ويعقوب، وداود أكثر من امرأة ... ولما طعن اليهود والنصارى في اعتناء النبي ﷺ بالتزوج ومواساة بعض النساء، أعني: كان تزوجه ببعض نسائه مواساة، وأخذاً بالخاطر والتسلية: كأمر سلمة، وحفصة -رضي الله عنهما- أجاب الله تعالى عن ذلك فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: 38]»⁽¹⁾.

4- مفاسد منع تعدد الزوجات.

ركز الزواوي في معالجة قضية تعدد الزوجات على جانب مفاسد منع التعدد، التي هي في ذاتها مفاسد قصد الشرع حماية العباد منها بتشريع التعدد، فرغم ما في التعدد من ضرر ومصائب؛ إلا أن منافعه أعظم وأرجح من مفاسد منعه وتعطيله؛ التي تتحمل المرأة منها الضرر الأكبر، والذي تعود عواقبه ووباله فيما بعد على قيم الأمة بالانحيار، والانحطاط الأخلاقي الذي وقعت فيه جميع الدول النصرانية التي منعت التعدد:

وفي ذلك يقول: «وأما إهمال تلك النسوة الجميلات، وعدم المبالاة بهن، فإن أنفسهن لا يستسلمن أن يكن خادماً مسترقاً مستعبداً ... فلذلك يندفعن إلى الموبقات ... ولذا كثر النكاح الفاسد؛ بل الزنا في أوروبا وأمريكا، ونشأ عن ذلك فساد الأخلاق، وكثر الانتحار والجنايات في ذلك السبيل»⁽²⁾.

وقال أيضاً: «من جعل النساء يندفعن إلى القحب والزنا، وامتألت بهن البيوت، ولم تسعهن حتى امتألت الشوارع، وغصت بهن الطرقات؛ غير منكري تعدد الزوجات؟ من سهّل الزنا، وشدد في الزواج غير منكري تعدد الزوجات؟ ومن تسبب في المرض الزهري، وجعل ملايين من

(3) عبد الرحمن دويب: المرجع السابق، 2/ 172.

(1) المرجع نفسه، 2/ 174، 175.

(2) المرجع نفسه، 2/ 243.

الشبان، والشابات غير صالحين للنكاح؛ غير منكري تعدد الزوجات؟»⁽³⁾.

ومما استغربه الزاوي أن الحكومات النصرانية، ومن تأثر بها، والتي تتحجج في منع التعدد بمضار التعدد قد فتحت باب التعدد في الحرام دون حدود ولا قيود، ففتحت للناس باب الزنا على مصراعيه، مع أن مفسد الزنا الجليلة أكثر من أن تحصر، ولا مجال لمقارنتها مع مفسد التعدد التي يتحججون بها، حيث قال: «ومن الجلي أن فتح باب الزنا على مصراعيه في الحكومات النصرانية من أوروبا وأمريكا، وتخلف كثير من النساء الجميلات اللاتي تعجبن أنفسهن، وبالأخص إذ يرين أنهن خادما ممتنات ومهانات، وضاهت بهن الأرض بما رحبت؛ بسبب عدم الزواج يندفعن إلى باب الزنا المفتوح المستلزم غلق باب الزواج، والعكس بالعكس»⁽⁴⁾.

5- إلزام مانعي التعدد بمنع الزنا المحرم في جميع الشرائع.

طالب الزاوي مانعي التعدد بمنع الزنا الذي مفسده الصحية والاجتماعية والأخلاقية أكثر بكثير من مصائب تعدد الزوجات المزعومة، ومع هذا تأذن فيه الحكومات النصرانية، ومن قلدهم من حكومات الدول الإسلامية، وتمنع التعدد وفي ذلك يقول: «ولتعلموا أيها الخصماء أننا نطلب منكم أمرا واحدا، وهو تحريم الزنا أو إباحته، فالمسلم منكم كافر بالضرورة إن قال بالثاني، وغير المسلم نطلب منه النظر والتأمل في مصائب الزنا وضرره، ومصائب تعدد الزوجات ... ثم ليقارن بين الضررين، ثم ليحكم: ﴿وَلْيَحْذَرِ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَالْوَلِيَّ لَهُمُ الْفَسِقُونَ﴾ [المائدة: 47]، أما نحن أهل القرآن فقد حكمنا بما في القرآن: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَى وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ﴾ [النساء: 03]، هذا مع العدل؛ فلذلك قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: 03]، فالعدل مأمور به في جميع الأحوال، وإن تعدد الزوجات كما قلنا مباح، وإنما ننكر منعه والموافقة على منعه، إذ تحريم ما أحل الله كتخليل ما حرم الله، سواء بسواء...»⁽¹⁾.

6- التعدد فرض عين على الأغنياء في عصره:

بناء على أن أمر التعدد عند أبي يعلى الزاوي وحكمه كحكم الزواج بواحدة تعتره الأحكام التكليفية الخمسة، مع أن الأصل فيه الإباحة، فإن حكمه يتغير بحسب حال الرجل من حيث القدرة وعدمها، ومن حيث الرغبة فيه وعدمها، ومن حيث الصبر عليه من عدمه، فإن حكم الزواج والتعدد يختلف من رجل إلى آخر، فكما يوجد من الرجال من لا ينبغي له الزواج، ولو بواحدة؛ فكذلك من الرجال من لا ينبغي له أن يعدد، وكما يوجد في المقابل من يكون الزواج واجبا عليه، وهو القادر عليه؛ الذي يترتب عن تركه له الوقوع في الفتنة لا محالة.

(3) عبد الرحمن دويب: الشيخ أبو يعلى الزاوي، حياته وأعماله، 2/ 195.

(4) المرجع نفسه 2/ 237.

(1) المرجع نفسه، 2/ 198.

فإن التعدد كذلك يكون في حق البعض واجبا، إما لمصلحته كمن لا يخشى عدم العدل، ولا تكفيه واحدة فيفتتن في دينه بتركه، وإما لمصلحة المرأة التي من حقها الفطري الزواج، وبمنع التعدد تحرم نسبة كبيرة منهم، ولا يسلم منهم من الفتنة إلا من سلمها الله، فبناء على ذلك ذهب الشيخ الزواوي إلى دعوة الأغنياء إلى التعدد؛ بل ذهب إلى أن التعدد في حقهم فرض عين، لأن عدم العدل المادي هو الذي يعوق غالبية الرجال عن التعدد، والأغنياء يتحقق فيهم جانب القدرة المادية على تحقيق العدل، فيكون من مصلحة النساء إلزام الرجال الأغنياء بالتعدد في زمانه الذي نافست فيه حالات الزنا حالات الزواج.

وفي ذلك يقول: «قلنا أنفا إن خشي الناكح عدم العدل فله أن لا يزيد عن واحدة، وإن علم عدم القدرة عن القيام ولو بواحدة، فله أن لا يتزوج بالمرّة. إذ الأصل في النكاح الإباحة من حيث الأحكام التكليفية الخمسة الشرعية... وقد تكون المرأة أيضا عقيما تحتاج إلى الأُنس والحماية أكثر من الرجل، وكذلك بسبب أن عدد النساء أكثر من عدد الرجال،... ولكثرة الهلاك في الرجال بالقتال، وغير ذلك، وحفظا لضيق النسوة، واندفاعهن إلى العهر كما هو الواقع، صار تعدد الزوجات فرض عين على الأغنياء في هذا العصر، وقد جاء الإسلام بإباحته وحصره في أربع، أي: لا يجوز أكثر من أربع»⁽¹⁾.

بل ذهب إلى ترجيح إلزام الرجل الكفء المتدين بالتعدد، ولو كان عاجزا عن النفقة متى وجد من يصبرن معه، أو يتعاونن معه على مشاق الحياة، حيث قال: «وعندي إذا جاز لمن له عقل كعقلي أن يقول عندي يلزم أن تعدد الزوجات لكل رجل عاقل متدين، ولو هو عاجز عن النفقة، وذلك أن الغرض المعتبر المؤكد هو حماية النساء، وأما النفقة والمسكن، فيتعاونن هو وإياهن، وهذا بشرط الصلاح»⁽²⁾.

رابعا: إمساك الزوجات بغير معروف.

من الأمور التي بنى عليها الإسلام العلاقة الزوجية هي إمساك الزوجة بغير معروف، أو تسريحها بإحسان؛ لقول الله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكِ بِمَعْرِفٍ أَوْ تَسْرِحِي بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: 229]، وهو الإمساك مع أداء الحقوق الواجبة لها عليه، فإن عجز عن بعض حقوقها الواجبة؛ كالنفقة والسكنى، وطالبت بالطلاق، فإن أبي؛ خرج عن حدِّ المعروف، وطلقها عليه الحاكم إن رفعت أمرها إليه، وفي ذلك يقول ابن العربي: «حكم الإمساك بالمعروف: أن للزوج إذا لم يجد ما ينفقه على الزوجة أن يطلقها، فإن لم يفعل خرج عن حدِّ المعروف، فيطلقها عليه الحاكم من أجل الضرر اللاحق لها في بقائها عند من لا يقدر على نفقتها»⁽³⁾.

ومن المشكلات والمعضلات التي عاصرها أبو يعلى الزواوي، وأدركها في مجتمعه، وبني قومه في بلاد الزواوة، قضية تسلط الزوج على المرأة تسلط تملك يجعلها عنده بمثابة المملوكة لا

(1) المرجع السابق 172/2-174.

(2) المرجع نفسه، 178/2.

(3) ابن العربي: أحكام القرآن، 1/270، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 3/155.

حق لها في المطالبة بالطلاق مهما قام الداعي إليه، ولا حق لها كذلك في الخلع، ولا في تدخل الحكّمين للصّح، كل ذلك من أحكام الإسلام التي نص عليها القرآن معطل بسبب تغليب العوائد، وغلظة الطبع حتى أسقط عليهم ما ورد في شأن بني إسرائيل الذين شدّدوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم.

ففي سياق حديثه عن سرد خصائص المجتمع الزاوي، التي منها ما هو حسن محمود شرعا، ومنها ما هو قبيح ومذموم شرعا، ذكر هذه الخاصية البعيدة عن هدي الإسلام فقال: «... ومنها صعوبة الطلاق بما يشبه امتلاك المرأة، وقد لا يفيد الخلع، ولا الجبر، ولا التحكيم، وقد قدّمنا أن التحكيم الذي هو عندهم مقبول لأدنى شيء إلا فيما يختص بالعرض، وفي هذا من المنكر والقسوة ما يسخط الله ورسوله ... بل وصف الله قلوب صنف من عباده بقوله وهو أصدق القائلين: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ أَلْمَاءٌ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 84]، والحال أنه ليس من الشبهة إمساك المرأة جبرا، يحبها وهي تبغضه، ولا من الكرامة إذابتها، فسحقا وتعسا لرجل لا تحبه امرأته وهو ممسك لها، لبئس الحياة حياته»⁽³⁾.

خامسا: تحريم الزواج بالغربيات.

من المسائل الفقهية والشرعية التي طرحت في عصر أبي يعلى الزاوي مسألة الزواج بالمرأة الغربية النصرانية التي هي من أهل الكتاب اللاتي نص القرآن على إباحتهن لأهل الإسلام فقال سبحانه: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مَحْصِينَ غَيْرِ مُسْفِحِينَ وَلَا تُمْخِذُوا بِأَحْذَانِكُمْ﴾ [المائدة: 05].

قال ابن عاشور: «فقوله: "والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب": عطف على: "وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم"، فالتقدير: والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب حل لكم»⁽¹⁾.

ونظرا لكون وضع الزواج بالكتابية يختلف بين الزواج بها في بلاد الإسلام، والزواج بها في بلاد النصارى، إذ في بلاد الإسلام يكون تحقق المقصد الذي راعاه الشارع من الزواج بالكتابية راجحا، ويسلم فيها الزواج من الموانع الشرعية التي تخل بصحة العقد، بخلاف الزواج بها في بلاد الكفر حيث تحكم علاقتهما الزوجية قوانين وضعية كفرية تضيق على المسلمين، وقد تمنع قيام العقد لاقتارانه بموانع تحول دون صحته، ما جعل بعض العلماء يفتون وينادون بمنع الزواج من النصرانيات الغربيات في بلادهن، لا لأنه رخصة زال موجهها، ولكن نظرا للقوانين الغربية التي تحكم العلاقة الزوجية سواء في تأسيسها أو في التحاكم إليها عند التنزع، أو من جهة ما يترتب على انتهاء العلاقة الزوجية من آثار تنافى ومقاصد الزواج في الإسلام، وممن أفتى

(4) أبو يعلى الزاوي: تاريخ الزاوية، 129.

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير 6/ 123.

بمنع الزواج بالنصرانيات في عصره أبو يعلى الزواوي متى كانت الموانع القائمة في عصره موجودة، فإن زالت أسباب المنع فلا حرج حينئذ، وفيما يأتي نقل كلامه في هذه النازلة في عصره:

حيث يقول: «إن التزوج بالنساء الإفرنسيات، أو الإنكليزيات، أو الألمانية، أو الطاليانيات، وسائر النصرانيات الغربيات (أوربا) -لا النصرانيات الشرقيات- لا يجوز إذ قد ارتفع معنى الآية: ﴿وَالْحَصْنَتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْحَصْنَتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: 05]، ليس لقول عطاء: رخص في التزويج بالكتابية لأنه كان في المسلمات قلة، فأما الآن ففهمن الكثرة فزالت الحاجة، بل إن الأولاد يلحقون بالوالدات وجنسياتهن ودولهن وديانتهم، ولا يجبرهن الزوج على شيء من ذلك بالرغم من أن قوانين الدول تجعل المرأة تابعة لجنسية الزوج، والعربي المسلم مستثنى من هذه القاعدة القانونية بحكم القوة. والحال أن أركان النكاح غير متوفرة عند المتزوجين في أوربا، إذ يعسر الحصول على نكاح خال من الموانع الشرعية في الخطبة والعقد والولي والإشهاد، وإن الزوج لا يقدر على إجبار زوجته عند الاختلاف إلى التحاكم إلى الشريعة الإسلامية، وبالطبع لا بد من الخلاف يوما ما، فالتحاكم إلى غير الشريعة في النكاح لا يجوز بالخصوص، وفي غيره بالعموم: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّبَعِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: 60]... وإنما يجوز التزوج بهن بهذا الشرط من زوال الموانع التي ذكرنا، وهيات»⁽¹⁾.

والمستفاد من كلامه رحمه الله في تطبيق آية إباحة الكتابية للمسلم على واقعه المعاصر أن ذلك ممنوع في صنفٍ من الكتابيات فقط، وهن الغربيات دون الشرقيات، لأن الغربيات يحكمهن قانون بلدانهم الذي يتنافى وأحكام الزواج في الإسلام بخلاف الكتابيات الشرقيات، وهن اللاتي يقطن في البلاد العربية والإسلامية، كمصر والشام وغيرهما، حيث لا مانع يرفع الحكم بإباحتهن للمسلم الذي دل عليه ظاهر نص الآية القرآنية. وأما الأسباب التي لأجلها حرم الزواوي الزواج بالمرأة الغربية فقد بينها الزواوي في كلامه، الذي أشار في ختامه إلى أن حكم المانع متلق بقيام تلك الموانع فإذا زال المنع وتقرر حكم الإباحة حينئذ. والله أعلم.

خاتمة

وبعد أن يسر الله تعالى لي الوصول إلى نهاية هذا البحث يحسن أن أختمه بأهم النتائج التي تم التوصل إليها، ثم أردفها ببعض التوصيات التي تبدو ذات أهمية تستدعي تسجيلها لعل الله ينفع بها:

أولاً: النتائج.

أبرز النتائج التي تيسر التوصل إليها من خلال هذا البحث تتمثل في:

(1) أبو يعلى الزواوي حياته وأعماله، 361/2، 362.

- 1- يعد أبو يعلى الزواوي أحد العلماء الكبار الذين أنجبهم الجزائر في أحلك ظروفها، ومن أبرز دعائهم الذين قادوا قاطرة الإصلاح فبلغت كتاباته الإصلاحية الآفاق وشهد له بقوة الحجة، وغزارة العلم أساطين البيان، وأئمة التجديد في العصر الحديث.
- 2- شملت كتابات أبي يعلى الزواوي الإصلاحية مختلف القضايا الواقعة في زمانه، وما امتاز به هو منهجه في التعامل مع تلك القضايا بعرضها دوماً على القرآن الكريم الذي هو دستور الأمة الثابت، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
- 3- عالج الإمام الزواوي مختلف القضايا التي ثار فيها الجدل في زمانه بخصوص المرأة المسلمة وحتى غير المسلمة، وظهرت في كتاباته وسطيته بين أهل الإفراط ودعاة التفريط، وهي الوسطية التي كان يستنطقها من آيات القرآن، حتى إن بعض القضايا التي عالجها لم يترك فيها لقائل بعده مقالاً بشهادة أساطين عصره.
- 4- دافع أبو يعلى الزواوي عن حقوق المرأة وكشف عن الكثير من مظاهر اضطهادها وظلمها التي مرت عليها آنذاك، بحيث تبقى كتاباته شاهدة على مظاهر الظلم الذي عانت منه المرأة المسلمة بين أهلها وذويها، في البلد المسلم، بحيث لو حكاها غيره لصعب تصديقها، وهي مظاهر سهلت على أعداء الإسلام الطعن فيه، وإثارة الشبهات حوله، وسهلت على الجهلة وضعاف النفوس تلقف تلك الشبهات والشكوك.
- 5- تعامل أبو يعلى مع أهل الشدة والإفراط في التعامل مع المرأة ببيان براءة القرآن من شدتهم وغلوهم، وتعامل مع أهل التفريط والانفتاح غير المنضبط ببيان المفسد والأضرار الخويمة التي تجني مراتها المرأة ثم تعم المجتمع في ضرب قيمه.
- 6- أثبت منهجه في تطبيق آيات القرآن على قضايا المرأة، أن كل الشبهات المثارة حول المرأة دافعها الهوى، وضرب الإسلام وتحطيم القيم البشرية الفطرية النبيلة التي جاء الإسلام للمحافظة عليها، وأن لا سبيل للمرأة المسلمة تحقق به المصلحة المشروعة ولا عزة لها إلا في التمسك بالقرآن الذي أعطاها من الحرية ما تنال به مصالحها وتسهم بدورها في حفظ مصالح الأمة.

ثانياً: التوصيات:

أسجل وصيتين مهمتين، هما:

- لفت عناية الباحثين إلى الاهتمام بتراث أبي يعلى الزواوي، لخدمته والاستفادة منه باستخراج كنوزه، كيف لا وقد قال عنه أبو القاسم سعد الله -رحمه الله-: "الواقع أن الشيخ [أبو يعلى الزواوي] يفرض عليك في كل مرة أن تراجع ما كتبت عنه، وتغوص فيما كتبت عنه حتى لا تظلمه نقيراً".
- أفراد بقية الجوانب الإصلاحية المتنوعة لدى أبي يعلى الزواوي بالدراسة والبحث، سواء من جهة تطبيقه للنصوص في معالجة بقية القضايا التي عاصرها في مختلف ميادين ومجالات الإصلاح التي لم يتعرض لها هذا البحث، أو من جهة العرض والنقد لبعض آرائه التي تحتاج

حقيقة إلى وضعها في ميزان النقد العلمي.

المصادر والمراجع

- 1- القرآن العظيم.
- 2- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
- 3- ابن كثير، إسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم، ت: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط2، 1420هـ، 1999م.
- 4- ابن العربي، محمد بن عبد الله المعافري: أحكام القرآن، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1424هـ، 2003م.
- 5- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف: البحر المحيط في التفسير، ت: صديقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط، 1420 هـ.
- 6- أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، دار عالم المعرفة، المحمدية، الجزائر، ط1، 2020م.
- 7- بلقاسم شتوان: أبو يعلى الزواوي حياته وأثره ومرجعته السلفية، مجلة المعيار، المجلد 18، العدد 36، 2014م.
- 8- الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ت: محمد علي معوض وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ.
- 9- رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد 29، ربيع الآخر 1347هـ/ 14 أكتوبر 1928م، الجزء 6.
- 10- الزركلي، خير الدين بن محمود: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م.
- 11- الزواوي، أبو يعلى، السعيد بن محمد الشريف: الإسلام الصحيح، تقديم أبو القاسم سعد الله، منشورات الخبر الجزائر، 2008.
- 12- الزواوي، أبو يعلى، السعيد بن محمد الشريف: تاريخ الزاوية، مراجعة وتعليق سهيل الخالدي، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، ط1، 2005م.
- 13- الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1420 هـ/ 2000م.
- 14- عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، ط2، 1400هـ، 1980م.
- 15- عبد الرحمن دويب: الشيخ أبو يعلى الزواوي حياته وأعماله، دار زمورة، درارية، الجزائر، 2013م.
- 16- عبد العزيز الضامر: تطبيق الآيات على الوقائع المعاصرة من خلال تفسير المنار ومجالس التذكير والظلال، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تخصص التفسير وعلوم القرآن، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، إشراف سليمان الصادق البيرة 1426هـ/ 2005م.
- 17- عبد العزيز الضامر: تنزيل الآيات القرآنية على الواقع عند المفسرين، دراسة وتطبيق، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط1، 2007م.
- 18- فتيحة صافر، أبو يعلى الزواوي شيخ الشباب وشباب الشيوخ، مجلة العلوم الإنسانية جامعة وهران، مجلد8، عدد 2، 2019.
- 19- القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ/ 1964م.
- 20- كحالة، عمر بن رضا: معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 21- مريم بوعافية/ د. حدة سابق: تنزيل النص على الواقع عند محمد الخضر حسين. مجلة المعيار، مجلد 22، عدد 44، ص 91. سنة 2018.
- 22- هشام شوقي: معالجة قضايا المرأة المعاصرة في فكر الشيخ أحمد شاكر من خلال آيات القرآن الكريم، مجلة جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة، المجلد 33، العدد 2، 2019م.

جهود علماء الغرب الإسلامي في التنظير الأصولي لاجتهاد تنزيل النص القرآني - الشاطبي أنموذجا -

ط. د/ عبد الوهاب مرابطين، إشراف: د/ عبد المجيد خلادي
كلية الشريعة والاقتصاد. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة
abdelmajid.khelladi@gmail.com



مقدمة

منذ أن أنزلت هذه الشريعة على الأرض تحمل في أصولها ما يدبر الأمر في الاعتقاد، ويرسي قواعد العدل والمصلحة في التشريع، والعقل الإنساني المؤمن بريانية مصدرها يجرده لفهمها ودركها الكافية، بأدلا في ذلك الوسع والغاية، استجلاء لحقائق التنزيل، ومقررات الوحي، الذي استدعى العقل المتبصر لفهم نصوصها، وتعقل معانيها، واستشراف مقاصدها وغاياتها، وأناط به مهمة استنباط الأحكام وتنزيل النصوص على الوقائع والمستجدات، بعد تبصر مآلاتها في ضوء ما يلابس الحياة وما يلم بها من أحداث.

فأي الكتاب العزيز أيقظت في الإنسان وعيا اعتقاديا وتشريعيا قصد الانتفاع بهذا الهدي وتوظيفه في صيانة الحياة الإنسانية على وجه الأرض من التردّي والانهيّار، من خلال وصل الحياة بالدين اعتقادا وعملا، وجعلت ذلك من فروض الكفايات لتنهض الأمة بعبء الاجتهاد تقريراً للأحكام وتنزيلاً لها على الوقائع والمستجدات بما يحقق مقصود الشارع، قال عز وجل: "ولوروده إلى الرسول وإلى أولى الأمر لعلمه الذين يستنبطونه منهم"¹.

وإنّ مما تقرر في العقل بداهة أن طبيعة الاجتهاد تتطلب عقلا متفهما ذا ملكة مقتدرة متخصصة، ونصا تشريعيا مقدسا يتضمن حكما يقرره ومعنى يستوجبه ومقصدا يستشرفه، غير أن ذلك كله لا يعدو أن يكون اجتهادا غير متجاوز حدود البحث النظري، إذ التفهم للنص الشرعي يبقيه في حيز النظر، ولكن تطبيقه على الواقع وتنزيله على ما استجد في حياة الناس من وقائع وأحداث يحتاج إلى تفهم واع للوقائع والمستجدات بمكوناتها وظروفها وملابساتها، وحسن البصيرة بمآلاتها ضمانا لستاد التوقيع وسلامة التنزيل.

ومن هنا كان النظر في محال الأحكام بتحقيق مناطاتها ومآلات التطبيق فرضا لازما، بل أصلا من أصول التشريع، يعنى به الاجتهاد التنزيلى للنصوص على الوقائع، القائم على اعتبار مقاصد الشريعة العامة وقواعدها الكلية، ليس فقط فيما لا نص فيه، بل كان ميدانه بادئ أمره نصوص الوحي تقريراً للحكم وتنزيلاً له.

ولقد كان لعلماء الغرب الإسلامي القدح المعلى في التنظير الأصولي لاجتهاد التنزيل، حيث ضربوا فيه بسهام وافرة، وبزوا في ذلك أقرانهم من المشاركة، بجهود ارتقت بالاجتهاد التنزيلى إلى

1- سورة النساء الآية 182.

مدارج الرشد وانتظمت به في مسالك التجديد في الفتوى والقضاء، حيث أبقتة موصولاً بروافد التجديد، ممدوداً بأسباب البقاء والنماء على نحو يدارج المستجدات ويكتنف النوازل ويلاصق واقع الناس في ضوء قواعد وضوابط تنير دروب تطبيق النصوص على المستجدات، وتعين المفتين على مقارعة صعاب النوازل، وتقويم اعوجاج ملتويات المسائل، ولو لم يكن من أعلام المغرب ممن برز في هذا الشأن إلا الإمام أبا إسحاق الشاطبي لكفاهم شرفاً وفخراً، وثناء ومدحاً.

ولقد كتب الباحثون في فكر الشاطبي رسائل ومقالات عديدة تناولت رؤية الإمام الشاطبي لاجتهاد التنزيل، ومنهم الدكتور عثمان بلخير في بحثه الموسوم بالبعد التنزيلي في التنزيل الأصولي عند الإمام الشاطبي- رسالة ماجستير تحت إشراف الأستاذ الدكتور أحسن زقور، بكلية العلوم الإسلامية جامعة وهران، وغيره ومقالات عديدة لكثير من الباحثين منهم الدكتور عبد المجيد النجار، وأحمد الريسوني وغيرهم.

وفي هذا السياق تأتي هذه المداخلة الموسومة بجهود علماء الغرب الإسلامي في التنزيل الأصولي لاجتهاد تنزيل النص القرآني - الشاطبي أنموذجاً- تبحث إشكالية مدى إسهام علماء الغرب الإسلامي عموماً والشاطبي خصوصاً في التنزيل لاجتهاد تنزيل النص القرآني على الوقائع والمستجدات، للمشاركة بها في الملتقى الدولي الثامن الموسوم بـ "جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع والذي يشرف بتنظيمه قسم أصول الدين بمعهد العلوم الإسلامية بجامعة حمة لخضر الوادي - الجزائر- يومي 15 و 16 نوفمبر 2022. متبعاً في ذلك خطة البحث الآتية:

المقدمة

المبحث الأول: اجتهاد التنزيل المفهوم، والأهمية.

المطلب الأول: مفهوم الاجتهاد والتنزيل.

المطلب الثاني: الاجتهاد عند الشاطبي بين الاستنباط والتنزيل.

المطلب الثالث: مفهوم اجتهاد التنزيل عند علماء الغرب الإسلامي.

المطلب الرابع: مبلغ عناية علماء الغرب الإسلامي باجتهاد تنزيل النص القرآني.

المبحث الثاني: أصالة الاجتهاد في تنزيل النص القرآني .

المطلب الأول: إبراز البعد التنزيلي في النص القرآني..

المطلب الثاني : إبراز البعد التنزيلي للنص القرآني في فتاوى وأقضية الصحابة.

المطلب الثالث: نماذج من اجتهادات الصحابة في تنزيل النص القرآني.

المبحث الرابع: مسالك تسديد التوقيع وسلامة تنزيل النص القرآني عند الإمام الشاطبي.

المطلب الأول: المسلك الأول تحقيق المناط.

المطلب الثاني: المسلك الثاني التحقق من المقاصد الشرعية.

المطلب الثالث: المسلك الثالث مراعاة المأل.

الخاتمة.

المبحث الأول: اجتهاد التنزيل المفهوم، والأهمية، والأصالة.

وتتعرض في ثنايا هذا المبحث المفاهيمي إلى ضبط مفهوم اجتهاد التنزيل وبيان أهميته في تطبيق الشريعة، وتأصيله من حيث إنه ليس بدعا من الفعل وإنما مسلك أصيل قديم.

المطلب الأول: مفهوم الاجتهاد والتنزيل.

لما كان الحكم عن الشيء فرع عن تصوره كان ضبط المفاهيم وإحكام التصورات برسم حدود ذهنية للموضوع محل البحث أول ما يجب الوقوف عنده.

الفرع الأول: مفهوم الاجتهاد.

لغة: الاجتهاد افتعال من الجهد¹، والجهد بالضم الوسع والطاقة²، وفي التنزيل العزيز "والذين لا يجدون إلاّ جهدهم"³، قال الفراء الجهد في هذه الآية الطاقة⁴، وعليه فالاجتهاد عند أهل البيان بذل الوسع والمجهود⁵.

اصطلاحاً: مرّ تعريف الاجتهاد بمراحل عديدة اقتضت تغيراً في مفهومه على اختلاف وتباين بين العلماء بين موسع ومضيق.

فمن الأوائل الذين عرفوه الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله حيث رادف بين الاجتهاد والقياس وقال: "هما اسمان لمعنى واحد"⁶.

ولم تكن هذه المطابقة منه بين القياس والاجتهاد بمحل من القبول عند من جاء بعده حتى ممن هو على مذهبه، حيث استدرك عليه الأصوليون بعبارات كثيرة، بدءاً بما قاله أبو المعالي الجويني: "وقال بعضهم القياس هو الاجتهاد في طلب الحق وهذا فاسد، فإن من كان يجتهد في طلب نص ليس قايماً"⁷. وتثنية بما عقب به الإمام الغزالي: "وقال بعض الفقهاء القياس هو الاجتهاد وهو خطأ لأن الاجتهاد أعم من القياس لأنه قد يكون بالنظر في العمومات ودقائق الألفاظ وسائر طرق الأدلة سوى القياس"⁸.

وعرفه الجويني بأنه "بذل الوسع في بلوغ الغرض"⁹ وهو من الغرابة بمكان إذ لم ينقله من من معناه اللغوي إلى حقيقة اصطلاحية فليس فيه ما يدل على ماهية الاجتهاد وكنهه وحقيقته. وهو أبعد ما يكون عن معهود العلماء في صناعة الحدود الجامعة المانعة.

1- ابن منظور جمال الدين بن مكرم، لسان العرب دار صادر، بيروت، لبنان ط1، 1990، مادة جهد، ج3، ص135.

2- المصدر نفسه، ج3، ص133.

3- سورة التوبة الآية 79.

4- ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص134.

5- المصدر نفسه، ج3، ص135.

6- الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس، الرسالة، تحقيق أحمد شاكر، طبعة مصطفى بابي الحلبي، ص377.

7- الجويني، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله، البرهان في أصول الفقه، تحقيق عبد العظيم الديب، قطر، ص14.

1- الغزالي، محمد أبو حامد الطوسي، المستصفى في علم الأصول، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب

العلمية، بيروت 1413 ص342

9- الجويني، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله، الورقات، دار السلام، بيروت دت، ص14.

وعرفه الغزالي بما هو أضبط من تعريف من تقدمه فقال: "بذل المجتهد وسعه في طلب العلم بأحكام الشريعة".

وعرفه ابن الحاجب المالكي: "بأنه استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن أو علم بحكم شرعي"، وتوالت بعد ذلك التعقيبات والاستدراكات حتى عرف الاجتهاد بأنه: "استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن أو علم بحكم"¹.

ويتحصل مما تقدم في تحصيل معنى الاجتهاد أنه بذل لأقصى الجهد وليس لمطلق الجهد ممن تأهل له بالنظر في الظنيات دون القطعيات لتحصيل حكم شرعي². وهو أقرب التعاريف إلى حقيقة وماهية الاجتهاد.

الفرع الثاني: مفهوم التنزيل.

سبق بيان معنى الاجتهاد في اللغة والاصطلاح وبقي الوقوف على مفهوم التنزيل :

التنزيل في اللغة: جاء في قواميس اللغة ومعاجمها في شرح مادة ن، ز، ل، النزول الحلول، قال سيبويه: "وكان أبو عمرو يفرق بين أنزلت ونزلت ولم يذكر وجه الفرق، وقال أبو الحسن: لا فرق بينهما إلا في كون الثانية صيغة تكثير، والتنزيل الترتيب، والتنزيل النزول في مهل، والإنزال ما أنزل في دفعة واحدة، والنازلة الشديدة من شدائد الدهر تنزل بالناس، والنزول بالضم الحلول، وهو في الأصل انحطاط من علو³، وقال الزبيدي: "التنزيل تدريجي، والإنزال دفعي، وتنزل نزل في مهلة⁴، ويذكر أهل اللغة في حصر المعاني التي أفادها التنزيل ما يلي⁵:

- الحلول.

- التكثير وتعدد الوجوه في ذلك التنزيل واختلاف مواطنه وطرقه.

- الترتيب والتهيئة وإصلاح مكان النزول.

- التمهيل والتدرج.

التنزيل في الاصطلاح: شاع استخدام هذا المصطلح عند المتأخرين المحدثين، مع العلم أنه لم يعزب عن استخدام المتقدمين، واستخدمه عامتهم في المعنى المرادف للوحي كقولهم شهد الصحابة التنزيل، ويقصدون نزول القرآن، وهو استعمال قرآني، قال عز وجل: "تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم"⁶، واستعمله العلماء من أهل الصنعة الأصولية، ومنهم ابن القيم وأبو إسحاق الشاطبي وهو عندهما بذات مراد المتأخرين المحدثين.

1 - الشنقيطي، محمد الأمين، مذكرة في أصول الفقه، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، دت ص 311.

2- بشير بن مولود جيش الاجتهاد التنزيلي، تقديم عمر عبيد حسنة، المكتبة الشاملة، ص 22.

3- ابن منظور، لسان العرب، مادة نزل، ج 11، 656 إلى 659.

4 - الزبيدي، أبو الفيض محمد مرتضى الحسني، تاج العروس من جواهر القاموس منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، ج 8، ص 133.

5 - عثمان بلخير، البعد التنزيلي في التنظير الأصولي عند الشاطبي رسالة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر، ص 18.

6- الأحقاف، الآية 02.

أ - مصطلح التنزيل عند المتقدمين:

استعمل الشاطبي مصطلح التنزيل عدة مرات منها في قوله: "وبيان ذلك أن الدليل المأخوذ بلفظ الوقوع معناه التنزيل على المناط المعين"¹، ومعناه وجود مراعاة لمناط الفعل المحكوم عليه، ودليل مراعاة المناط أو المحل قوله "يفيد الوقوع"، واستعمل الشاطبي أيضا صيغة الفعل في قوله "فالحاصل أن الشارع حكم على أفعال المكلفين بصفة مطلقة ومقيدة، وذلك إحدى المقدمتين وهي النقلية، ولا ينزل الحكم إلا بها على ما تحقق أنه مناط ذلك الحكم على الإطلاق أو التقييد"²، وهو معنى مرادف لما سبق.

واستعمله مرة ثالثة في قوله: "فلو فرض ارتفاع هذا الاجتهاد لم تنزل الأحكام الشرعية على أفعال المكلفين إلا في الذهن، وقصد بها جميعا بأن التنزيل هو تطبيق حكم الشرع على فعل المكلف في الواقع محاطا بملايساته وظروفه"³.

واستعمل الإمام ابن القيم مصطلح التنزيل، حين قال: "والواقع شاهد بهذا، والفقه تنزيل المشروع على الواقع"⁴، وله من المعنى نفس ما أفاده كلام الشاطبي، ويلحظ من كلامهما في استعمال هذا المصطلح وجود ثلاثة أركان هي⁵:

- المشروع ويقصد به الأحكام الشرعية.

- الواقع ويقصد به محال الأفعال ومناطات الأحكام.

- فعل التنزيل الذي تدل صياغته على إرادة وفعل وقعا على معنى النزول، وهي إرادة المجتهد أو من يقوم بعملية التنزيل.

ب - التنزيل في استخدام المتأخرين:

لم يحفل المتأخرون بهذا المصطلح إلا قليل منهم، ولكن استعمالهم له كان الغالب فيه إرادة التعريف، أي يذكر لتعريفه، عرفه الدكتور عبد المجيد النجار في كتبه ومقالاته عن مفهوم تطبيق الشريعة بأنه: "تنزيل الأحكام الشرعية الشاملة على حياة الإنسان"، وضبط مفهومه فقال: "ونعني بالتنزيل صيرورة الحقيقة الدينية التي وقع تمثيلها في مرحلة الفهم إلى نمط عملي تجري عليه حياة الإنسان في الواقع"⁶، ويقوم هذا التعريف على ثلاثة أركان هي⁷:

1 - الشاطبي أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق وشرح عبد الله دراز، المكتبة التوفيقية، القاهرة (2003)، ج 3، ص 63.

2- المصدر السابق ج 3، ص 35.

3- المصدر السابق، ج 4، ص 76.

4- ابن القيم محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 14، 1986، ج 5، ص 476.

5- عثمان بلخير، البعد التنزيли في التنظير الأصولي عند الإمام الشاطبي، ص 20.

6 - النجار عبد المجيد عمر، المنهج التطبيقي للشريعة الإسلامية تنزيلا على الواقع الراهن، مطبعة جامعة الإمارات، أبوظبي، ص 50.

7- عثمان بلخير، البعد التنزيلي في التنظير الأصولي، ص 22.

- الحكم الشرعي الذي وقع تمثله واستنباطه مجردا عن أي ملابسات خارجية أو إضافية.
- الواقع ويقصد به الحياة في سيرورتها محفوفة بملاساتها.
- القائم بمهمة النظر التنزيلي.

وعرفه الدكتور عثمان بلخير في بحثه الموسوم بالبعد التنزيلي في التنظير الأصولي عند الإمام الشاطبي بأنه: "النظر الشرعي لاستخلاص حكم شرعي يحكم أفعالا وتصرفات أو قضايا مقترنا بحيثيات تلك الوقائع والنوازل"¹.

المطلب الثاني: الاجتهاد عند الإمام الشاطبي بين الاستنباط والتنزيل .

ينقسم الاجتهاد باعتبار الجهة التي تعلق بها النظر إلى قسمين متكاملين من مجموعهما يتم الاجتهاد ويكمل ويتحقق المراد، وبيان هذا أن الحكم الشرعي طلبه كل ناظر وقبله كل مجتهد في الزمان على امتداده وفي المكان على اتساعه، ذلك أن العملية الاجتهادية مستمرة في البحث عن أحكام الوقائع والمستجدات، مهما تجددت وتطورت، والأصوليون إذ حرروا الكلام عن الاجتهاد قرروا أن البحث عن حكم النازلة يتم من جهتين جهة الدليل وجهة المحل، قال الإمام الشاطبي: "كل مسألة تفتقر إلى نظرين، نظر في دليل الحكم، ونظر في مناهله"².

والنص من كتاب الله ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد يدل على أفرادة دلالة النص الذي يحتمل معنى لا يحتمل غيره، وقد يدل على أحاده دلالة الظاهر الذي يدل على معنى يحتمل غيره، ولترجيح أحد هذه المعاني المحتملة ينبغي اعتبار المعنى الموافق لمقاصد الشريعة.

وهذا مسلك الراسخين في العلم يقوم على ردّ المتشابه إلى المحكم من نصوص الشريعة ومقاصدها الكلية، فيتضح بذلك الحق وتشرق شمس الحقيقة التي هي مراد الشارع في الخلق، وفي هذا يقول الإمام الشاطبي: "ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو على حرف واحد، وهو الجهل بمقاصد الشرع وعدم ضم أطراف بعضها لبعض، فإن مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هو على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها وعامها المرتب على خاصتها، ومطلقها المحمول على مقيدها، ومجملها المفسر ببيّنها إلى ما سوى ذلك من مناحيها، فإذا حصل للنظر من جملة أحكام من الأحكام فذلك الذي نظمت به حين استنبطت، كذلك الشريعة لا يطلب منها الحكم على جهة الاستنباط إلا بجملة لا من دليل منها أي دليل كان، فشأن الراسخين في العلم تصور الشريعة صورة واحدة، يخدم بعضها بعضا كأعضاء الإنسان إذا صورت صورة مثمرة، وشأن مبتغي المتشابهات أخذ دليل ما، أي دليل كان، عفواً، وأخذاً، أو ليّاً، وإن كان ثمة ما يعارضه من كلي أو جزئي"³.

القسم الثاني من الاجتهاد هو الذي أشعر به قول الشاطبي النظر في المناط يتوجه فيه البحث إلى محل الحكم من حيث مناسبته أو عدم مناسبته لتطبيق الحكم المستنبط من

1- المرجع السابق، ص 25

2- أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، تحقيق سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان السعودية دت، ج 2، ص 387.

3- المصدر نفسه، ج 1، ص 244 و 245.

الدليل وهو المسمى عند أهل الصنعة بتحقيق المناط، وجزم الغزالي باتفاق أهل الصنعة عليه، فقال: "أما الاجتهاد في تحقيق المناط فلا نعرف في الأمة خلافا في جوازه"¹، وإليه أشار ابن القيم في قوله: "ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم إلاّ بنوعين من الفهم، أحدهما فهم الواقع والفقه فيه والثاني فهم الواجب في الواقع"²، وفهم الواقع والفقه فيه هو مضمون الاجتهاد في المحل وهو أعم من مجرد تحقيق المناط، وعليه فالاجتهاد التام المفضي إلى حكم شرعي نهائي للواقعة المنظور فيها ينتظم بمسلكين، أحدهما النظر في استنباط الحكم من الأدلة ويسمى بالاجتهاد الاستنباطي، والثاني النظر في تطبيق الحكم وتنزيله على محله الذي هو النازلة ويسمى بالاجتهاد التنزيلي.

المطلب الرابع: مفهوم اجتهاد التنزيل عند علماء الغرب الإسلامي

بعد تعريف كل من الاجتهاد والتنزيل، وتقسيم الاجتهاد باعتبار الجهة المتعلق بها النظر وللتوصل إلى تعريف مرضٍ لهذا النوع من الاجتهاد عند علماء الغرب الإسلامي يحتاج الدارس إلى تتبع مقالات المتقدمين منهم خصوصا في كتب الأقضية والنوازل التي برع فيها مالكية المغرب، بما اختصوا به من المدارك العالية، والأذهان الصافية، حصلوها من كتب المتقدمين بالسير والتتبع وشفعوها بالنظر في قضايا العصر وما لا يسها من مقتضيات وظروف، أقدرتهم على امتلاك ناصية الصنعة الفقهية والأخذ بزمام الملكة العلمية التي تقدرهم على سداد التوقيع وسلامة التنزيل لنصوص الشرع وأحكامه على واقع الناس بما يحقق مقصود الشارع .

ومما لاشك فيه أن علم القضاء والفتوى هو أبرز وجوه وصور الاجتهاد التنزيلي فقد تحصل من كلام بعضهم ما يفيد بأن اجتهاد التنزيل هو "العلم بكيفيات انطباق كليات الفقه على جزئيات الواقع"، ويتحصل هذا من كلام ابن عبد السلام التونسي المالكي حين قال: "ولا غرابة في امتياز علم القضاء على غيره من أنواع علم الفقه وإنما الغرابة في استعمال كليات علم الفقه وانطباقها على جزئيات الواقع بين الناس وهو عسير على كثير من الناس"³.

وهذا المعنى المذكور معبر على ماهية الاجتهاد التنزيلي مشعر بأن هذا النوع من النظر لا يتأهل له إلاّ خاصة أهل الاجتهاد، وفي هذا قال ابن عرفة الورغمي مينا ما يختص به النوازليون من المفتين والقضاة عن عامة الفقهاء: "علماء الفتوى والقضاء أخص بالعلم بالفقه، لأن متعلق الفقه كلي من حيث كليته على جزئيات، فحال الفقيه من حيث هو عالم كحال عالم بكبرى قياس الشكل الأول فقط، وحال القاضي والمفتي كحال عالم بها مع علمه بصغراه، ولا خفاء أن العلم بها أشق وأخص، وأيضا القضاء والفتوى مبنيان على إعمال النظر في الصور الجزئية وإدراك ما اشتملت عليه من الأوصاف الكامنة فيها فيلغي

1- الغزالي، المستصفى من علم الأصول، ص 281.

2- ابن القيم، إعلام الموقعين، ج 1، ص 87.

1 - الونشريسي: أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المغرب، ج 10، ص 80.

طردها ويعمل معتبرها".¹

وغير بعيد عن مقالة ابن عبد السلام التونسي قول الونشريسي في سياق التفريق بين علم القضاء وفقه القضاء حيث قال: "والفرق بين علم القضاء وفقه القضاء فرق بين الأخص والأعم، ففقه القضاء أعم لأنه الفقه بالأحكام الكلية. وعلم القضاء هو العلم بتلك الأحكام الكلية مع العلم بكيفيات تنزيلها على النوازل الواقعة".²

وهو ذات المعنى الذي تكلم عنه ابن فرحون المالكي مبينا أن علم القضاء يفتقر إلى معرفة أحكام تجري مجرى المقدمات بين يدي العلم بأحكام الوقائع والجزئيات وغالب تلك المقدمات لم يجزلها في دواوين الفقه ذكرا ولا أحاط بها الفقه خبرا وعلمها مدار الأحكام".³

وعضد ابن فرحون تقريره هذا بما حكاه الفقيه النوازلي أبو الأصبغ عيسى بن سهل عن نفسه قال: "لولا حضوري مجلس الشورى مع الحكام ما دريت ما أقول في أول مجلس استشارني فيه الأمير سليمان بن الأسود وأنا يومئذ أحفظ المدونة والمستخرجة الحفظ المتقن".⁴

وبالجملة هو ما قصده الشاطبي بقوله: "أن يتحقق بالمعاني الشرعية على الخصوصيات الفرعية".⁵

وأطلق عليه بعض المعاصرين اسم اجتهاد التطبيق⁶، وذهب الدكتور عبد المجيد النجار التونسي إلى تسمية اجتهاد التنزيل بالاجتهاد في الصياغة قال: "وربما كان الاجتهاد في الصياغة أبين في فقه الفتاوى منه في فقه الأحكام، فهذا الفقه عند الأئمة المجتهدين خاصة يمثل قمة الاجتهاد في الصياغة، بما هو تنزيل للحكم الشرعي المجرد على نوازل عينية مشخصة تنزيلا يصاغ فيه من تلك الأحكام ما يعالج تلك النوازل العينية فيتحقق التدين المطلوب".⁷

ومن كلام هؤلاء جميعا يمكن أن نخلص إلى أن "الاجتهاد في التنزيل يتمثل في بذل الجهد للتوصل إلى تنزيل أحكام الشريعة على الوقائع الجزئية تنزيلا يتحقق به مقصود الشارع". تحقيقا للقاعدة المقررة "أن التشريع مقاصد وسائلها الأحكام"⁸، وكما هو مقرر عند المالكية "أن الوسيلة إذا لم يترتب عليها المقصد لا تشرع".⁹

المطلب الرابع: مبلغ عناية علماء الغرب الإسلامي باجتهاد تنزيل النص القرآني .

1 - التسولي أبو الحسن علي بن عبد السلام، البهجة في شرح التحفة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ح 1، ص 17.

2- الونشريسي، المعيار، ج 10، ص 78.

3- ابن فرحون، إبراهيم شمس الدين محمد، تبصرة الحكام، تحقيق جمال مرعشلي، دار عالم الكتب، ج 1، ص 2.

4- المصدر نفسه ح 1، ص 2.

5- الشاطبي، الموافقات، ج 5، ص 232.

6 - فتحي الدبرني، المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق سوريا ط 2، 1985، ص 05.

7 - النجار عبد المجيد، فقه التدين فهما وتنزيلا، سلسلة كتاب الأمة، مطبعة فضالة، المغرب ط 1410، 1هـ، ص 187

8- المصدر نفسه ص 72.

7- الأبي، صالح عبد السميع الأزهرى، الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، طبع باهتمام عبد الله اليسار، د ت، ص 9..

تكمُن أهمية اجتهاد التنزيل في التنظير الأصولي لعلماء الغرب الإسلامي في أمرين هما:

الأول: تناهي النصوص وعدم تناهي الوقائع والنوازل وهي الحقيقة التي أثبتتها النظائر من الأصوليين عموماً والمغاربة خصوصاً وقاموا للاستدلال بها على حجية الاجتهاد والقياس، قال ابن رشد الحفيد: "لا يخفى على من شذا طرفاً من التحقيق أن مأخذ الشريعة مضبوطة محصورة، وقواعدها معدودة محدودة، فإن مرجعها كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم"¹. وقال: "نحن نعلم قطعاً أن الوقائع التي يتوقع وقوعها لا نهاية لها". وقال أيضاً: "إن الوقائع بين أشخاص الأناسي غير متناهية والنصوص والأفعال والإقرارات متناهية".

فإذا علم على القطع ثبوت تناهي النصوص وعدم تناهي الوقائع والأحداث المتعلقة بأفعال المكلفين اقتضاء أو تخييراً أو وضعاً، وعلم أن كل فعل صدر من المكلف هو نازلة تستلزم حكماً شرعياً، حصل اليقين بأن لا مناص من اجتهاد تنزيلي يعصم من تعري الوقائع من الأفعال والتصرفات عن الأحكام، وفي هذا قال الشاطبي: "إن الوقائع في الوجود لا تنحصر فلا يصح دخولها تحت الأدلة المنحصرة، ولذلك احتيج إلى فتح باب الاجتهاد من القياس وغيره، فلا بد من حدوث وقائع لا تكون منصوصاً على حكمها ولا يوجد للأولين فيها اجتهاد، وعند ذاك فإما أن يترك الناس مع أهوائهم أو ينظر فيها بغير اجتهاد شرعي، وهو أيضاً اتباع للهوى وذلك كله فساد فلا يكون بد من التوقف إلى غير غاية، وهو معنى تعطيل التكليف لزوماً وهو مؤد إلى تكليف مالا يطاق، فإذا لا بد من الاجتهاد في كل زمان لأن الوقائع المفروضة لا تختص بزمان دون زمان"².

وقال في موضع آخر: "وكل صورة من صور النازلة مستأنفة في نفسها لم يتقدم لها نظير وإن تقدم لها في نفس الأمر لم يتقدم لنا"³.

ومما سبق يمكن الجزم بأنه لا يمكن الربط ولا الجمع بين المتناهي وغير المتناهي إلا بضرب من الاجتهاد يتنزل فيه المتناهي على غير المتناهي، وهو المسلم المتبع عند الصحابة بادئ أمره، وعليه جادة مسالك أهل النظر حيث لا نازلة تحدث إلا ولها حكم في كتاب الله نصاً أو دلالة، وهذا الأصل متفق عليه بين الفقهاء والشواهد على صحته من الكتاب والسنة ظاهرة. قال ابن رشد الجد: "لا نازلة إلا والحكم فيها قائم من القرآن إما بنص أو بدلالة علمه من علمه وجهله من جهله"⁴.

وقال أيضاً: "ما حدث من النوازل التي لا يوجد فيها نص في الكتاب والسنة ولا فيما اجتمعت عليه الأمة، يستنبط لها أحكام من الكتاب والسنة، لأن الله عز وجل يقول: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ

1- ابن رشد، أبو الوليد أحمد بن محمد، بداية المجتهد وكفاية المقتصد، تحقيق محمد صبيح حسن حلاق، مكتبة

ابن تيمية القاهرة، 1995 ج 1، ص 1.

2- الشاطبي، الموافقات، ج 5، ص 38.

3- الشاطبي، الموافقات، ج 4، ص 66.

4- ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد، فتاوى ابن رشد، تحقيق محمد الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي ج 2، ص 762.

والرسول".¹ وقال: "ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم".² فجعل المستنبط من الكتاب والسنة علما وأوجب الحكم به فرضا".³

الثاني: مفاده أن الشريعة جاءت لتحصيل مصالح العباد في المعاش والمعاد، وهذا ثابت بالاستقراء المفيد للقطع، قال الشاطبي: "والمعتمد إنما هو أننا استقرينا من الشريعة أنها وضعت لتحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد، استقراء لا ينازع فيه... وخلاف الظاهرية مطّرح منبوذ لا يلتفت إليه، لمخالفته إجماع علماء الأمة وجوب اعتبار المعاني في النصوص، حيث قال ابن رشد الجذ: "والأحكام إنما هي للمعاني لا لمجرد الألفاظ".⁴ وقال أيضا: "ولو قال إنه الأظهر من اللفظ وسلمنا له ذلك لما لزم اتباع مجرد اللفظ إذا خالفه المعنى، ذلك أنه تعالى إنما تعبدنا بمعاني الألفاظ لا بمجردّها، ولو اتبعنا مجردّها دون معانيها لعاد الإيمان كفرا، والدين لعبا.... فوجب حمل لفظ المحبّس على ما يعرف من مقاصد الناس بألفاظهم، وإن خالف ذلك موجب اللفظ في اللسان العربي".⁵

والمصالح إنما اعتبرت مصالح من حيث اعتبار الشرع لها لا من حيث إدراك المكلف وسميت عند أهل الأصول مقاصد الشريعة وهي عندهم بمحل من الاعتبار في فهم النص وتقرير الأحكام وتنزيلها فإذا أفضى الحكم عند تنزيله إلى مقصده الذي شرع من أجله فتطبيقه على المحل صحيح، وإذا تخلف المقصد عند تنزيل الحكم على المحل فتوقيعه خاطئ لما تقتضيه قاعدة: "أن الوسيلة إذا لم يترتب عليها المقصد لا تشرع إذ توقيع الأحكام يروم تحقيق مقاصدها في الخلق".

وهذا الاجتهاد في التطبيق مبناه على اعتبار المآلات، والنظر في المناطات، والتدبر في الخصوصيات، فضلا عن اعتبار قصود المكلفين في تصرفاتهم، قال أبو العباس الوئشريسي: "والمقايضة بين المسائل لا بد فيها من الالتفات إلى الخصوصيات المثيرة للفوارق".⁶ وكل هذه الأمور مطلوبة على سبيل الحتم والإلزام ليتنزل حكم الشرع على الواقع وفق قصد الشارع فالنظر في المناط هو الشق الأكبر من الاجتهاد القياسي، وليس هو عند أهل الأصول بمحل خلاف.

وأما اعتبار المآل فهو أصل معتمد في التشريع بل عليه تفرعت الأصول المصلحية الأخرى كالاستحسان وسد الذرائع والمصالح المرسلّة ومنع الحيل ومراعاة الخلاف واعتبار الأعراف و تحكيم العوائد، ومقتضى هذه الأمور كلها أن الحكم قبل إلحاقه بالواقعة محل النظر قضاء أو فتوى ينبغي اعتبار مدى تحقق قصد الشارع بذلك التطبيق والتنزيل وبديل على أصالة هذا المنهج في النظر ما ثبت من الاجتهاد المصلحي العمري من تعطيل حد السرقة عام الرمادة،

1- سورة النساء، الآية 59.

2- سورة النساء، الآية 83.

3- ابن رشد، فتاوى ابن رشد، ج 2، ص 761 و 762.

4- المصدر نفسه، ج 2، ص 894.

5- ابن رشد، فتاوى ابن رشد، ج 2، ص 1124.

6- الوئشريسي، المعيار المعرب ج 6، ص 16.

والمعلوم أن حد السرقة وهو القطع ثبت بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة، هو قوله تعالى: "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله"¹. والمقصد الشرعي منه كما قال ابن عاشور: "هو تأديب الجاني وإرضاء المجني ووزجر المقتدي بالجناة"²، حفظاً لأموال الناس، لكن لما ابتلي الناس بالمجاعة العامة وصار التداعي على الأموال سدا للرمق وصونا للنفوس من الهلاك أوقف سيدنا عمر تنفيذ القطع لإفضائه مآلاً إلى ما ينافي قصد الشارع في حفظ النفوس، وهو المقصود المقدم على حفظ المال، فضلاً على عدم إفضائه إلى المقصود الشرعي منه إذ المجاعة عامة والدافع للسرقة خوف الهلاك³.

المبحث الثاني: أصالة الاجتهاد في تنزيل النص القرآني.

وفي ثنايا هذا المبحث نستعرض تأصيل اجتهاد التنزيل و من حيث كونه مسلك قديم مستنبط من معهود التشريع القرآني والنبوي واجتهاد الصحابة في تنزيل النص القرآني على الواقع، وليس بدعا من الفعل جاء به العلماء في عصور متأخرة.

المطلب الأول: إبراز البعد التنزيلي في القرآن الكريم.

اعتبر فقهاء الغرب الإسلامي بالقرآن الكريم وسنوا بسننه في اعتباره للواقع عند تشريع الأحكام، وأتى الشاطبي بكثير من الخصائص القرآنية التي تقطع الشك باليقين وتنتصب أدلة على أصالة مفهوم التنزيل وصحة الاعتداد به مسلماً متبعاً في التشريع القرآني، ويمكن إجمال هذه الخصائص من تراث الشاطبي فيما يلي⁴:

1- مراعاة القرآن الكريم لمعهود الناس: ويدل لذلك ما وسم به الشاطبي المسألة الثانية في الطرف الأول من كتاب الأدلة بقوله: "الأدلة الشرعية لا تنافي قضايا العقول"⁵، وفي ثنايا شرحه لهذه المسألة ذكر أن الاستقراء دل على جريانها على مقتضى العقول ودليل ذلك أن العقول الراجعة تصدق أدلة الشرع وتنقاد لها طوعاً أو كرهاً.

وكون القرآن أتى وفق مقتضى عقول الناس وما يعرفونه ويحسنون فهمه، ولو جاء على غير ما اقتضاه مستوى عقولهم لم تكن أدلة للعباد ولم يدخلوا تحت أحكام التكليف بمقتضاها ثم لكان التكليف بمقتضاها شاقاً يخرج الناس من ريقته، لأن العاقل إذا أتاه ما لا يمكن تصديقه به سقط عنه التكليف، كما سقط عمن لا عقل له ليصدق أو لا يصدق مثل المعتوه والصبي والنائم⁶، وقد ردّ الشاطبي قول من قال إن القرآن خاطب البشر وفيه ما لا يعقلونه من المتشابهات وفواتح السور فذكر أن فواتح السور لا يتعلق بها تكليف، فخرج عن كونه دليلاً في الأعمال والتكاليف، بل هونادر في القرآن والنادر لا حكم له، ولا تنخرم به القاعدة السابقة، أما المتشابه فلا يعارض مقتضيات

1- سورة المائدة، الآية 38.

2- ابن عاشور محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص 271.

3- الاجتهاد التنزيلي، ص 36.

4- عثمان بلخير، البعد التنزيلي في التنظير الأصولي عند الإمام الشاطبي، ص 94.

5- الشاطبي، الموافقات، ج 3، ص 21.

6- المصدر نفسه، ج 3، ص 20، و ص 21، بتصرف في الصياغة.

العقول بل ذلك مجرد توهم للبعض بناء على اتباع الهوى كما نصت على ذلك آية التشابه من سورة آل عمران، لا مخالفة الشرع مقتضى العقل¹.

وإما لا يعلمها إلا الله فلأمر خارجي صُدَّت عنه العقول مراعاة لقدرتها على الفهم ومستواها في الإدراك².

2- المكي والمدني واختلاف المرحلة: من تتبع أي الكتاب العزيز من حيث زمن النزول ومواطنه، وقف على حقيقة تغير الخطاب وتدرج التشريع في الأحكام، ومن هنا عني العلماء بالمكي والمدني من القرآن من حيث ضبطه، لأن العلم به يورث علماً بأساليب الخطاب ومسالك التشريع، إذ هو مختلف باختلاف البيئات والمعتقدات والعوائد وسائر الأنماط الحياتية.

وقد استثمر الشاطبي الحديث عن المكي والمدني لتوظيفه في مسألة التنزيل فلاحظ أن القرآن المكي أجرى كليات الدين وقواعده الكبرى، ثم المدني شفع ذلك ببيان أحكام أفعال المكلفين وتفاصيلها.

والاختلاف بين المكي والمدني يشمل اختلافاً في الخطاب والمضمون، وذلك رعيًا للواقع الزماني والمكاني الذي يوجد فيه المسلمون، وقد بحث الشاطبي اختلاف صور التكليف بين المكي والمدني فألقى التكليف المكية موسومة بالإطلاق، والتكاليف المدنية مشوبة بالتقييد، ورد ذلك إلى الاختلاف بين المرحلتين من حيث قوة عزيمة الصحابة وتحملهم لمشاق التكليف، قال رحمه الله تعالى: "فالمشروعات المكية وهي الأولية كانت في غالب الأحوال مطلقة غير مقيدة،... إلا أن خطة الإسلام لما اتسعت ودخل الناس في دين الله أفواجا ربما وقعت بينهم مشاحنات في المعاملات ومطالبات بأقصى ما يحق لهم في مقطع حق أو عرضت لهم خصوصيات ضرورات تقتضي أحكاماً خاصة، فاحتاجوا عند ذلك إلى حدود تقتضيها تلك العوارض الطارئة"³.

والنظر بعين البصيرة في مكي القرآن ومدنيه مع ما ينتظمهما من وحدة التشريع يلتفت لا محالة إلى مراعاة الشارع لمحال التنزيل زمن تطبيق أحكام الشريعة بالتزام آليات لسداد التوقيع وصحة وسلامة التنزيل تحقيقاً للمقاصد المنوطة بالأحكام.

فالتشريع الإسلامي لا يفرض شكلاً مسبقاً للواقع الاجتماعي لتنزيل أحكامه عليه وإنما الإنسان والمجتمع هو محل خطابه وحكمه في سائر ظروفه واستطاعته وأحواله، ويبدأ مع المجتمع والإنسان من حيث هو، فينزل عليه الأحكام المناسبة لاستطاعته وقد مرّ المجتمع الأنموذج القدوة بعدة مراحل، وكان لكل مرحلة أحكامها، فهو في مكة مطبق لأحكام الإسلام وفي الطريق إلى المدينة مطبق لأحكام الإسلام، وفي المدينة مطبق لأحكام الإسلام، وفي بدر، وأحد، وحنين و.. فالذين قضوا من الصحابة في مكة أو في الطريق إلى المدينة طبقوا الإسلام المكلفين

1- المصدر نفسه، ج3، ص23.

4- السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، اعتنى به مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون

ج3، ص7، وهو قول ابن الحاجب والنووي وغيرهما

3- الشاطبي، الموافقات، ج4، ص191 و192.

به في تلك المرحلة، ولكل مرحلة استطاعتها وحكمها وتكليفها¹.

3- اعتماد القرآن نوعين من الخطاب: من تأمل القرآن الكريم في أساليبه الخطابية ألفاه يعتمد نوعين من الخطاب، رعباً لواقع المخاطب وما يليق بحاله، فاعتمد في خطاب المخالف ما لم يعتمد في خطاب المؤالف، فالنوع الأول خص به المخالف في الملة والاعتقاد وأرسي قواعده على إقامة الحجة بالبرهان العقلي وما يجري مجراه مما يصح الاستدلال به على المخالف. والثاني اعتمده في خطاب الموافق في الاعتقاد، وبناه على بيان الأحكام الشرعية العملية.

واختلاف الخطاب منشؤه اعتبار حال المخاطب، قال الشاطبي في معرض بيانه للخطاب الأول: "فطريقة البرهان العقلي يستدل به على المطلوب الذي جعل دليلاً عليه، وكأنه تعليم للأمة كيف يستدلون على المخالف كقوله تعالى: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا"²، وهذا الضرب يستدل به على المؤالف والمخالف"³، وقد ظهر منه اختيار الشارع ما يناسب الحال بين أنواع عدة من الأدلة. ومعيار هذا الاختيار تحقيق المقصد من هذا الخطاب، إذ لو فرض مخاطبة المخالف بخطاب التكليف كدلالة الأوامر والنواهي لما تحقق الغرض من توجيه المخالف للتأمل بعقله لإدراك صدق التوجه، وهو خطاب استعمله الأنبياء في الدعوة إلى الله، ومنه قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: "فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب"⁴.

4- الشرع أخرج من اعتباره ما لا يليق بالجمهور: من تأمل التشريع القرآني بمقابلة الفكر وعين البصيرة أثناء بيان المعاني وحمل الناس بمقتضاها، ألفاه تختار أقرب مسلك يليق بالجمهور وتجنب ما لا يليق به، وقد وصف الشاطبي هذا المسلك المعتمد في خطاب القرآن بـ "المطلوب المنبه عليه"⁵، وعدّه من عادة العرب في التبليغ، الذي يقوم على تقريب المعاني بألفاظ قريبة مترادفة، والعلة في هذا الاختيار هو مراعاة حصول المقصد بالإفهام والتبليغ، واعتبار حالهم في فهم المعاني من الطرق القريبة، فيحصل فهم الخطاب به ثم الامتثال وفقه، بعكس الثاني الذي لا يليق بالجمهور. فعدم مناسبته للجمهور أخرجه من اعتبار الشرع له لأن مسالكه صعبة المرام، وما جعل عليكم في الدين من حرج"⁶.

5- اعتماد التشريع القرآني مبدأ التدرج في تشريع الأحكام: اعتمد التشريع القرآني مبدأ التدرج في سن الأحكام الشرعية، وهو إذ يفعل ذلك تأسيساً لمنهج يراعي الواقع وأبعاده في عملية التشريع، والذي يتأمل نزول القرآن الكريم يلاحظ معهود الشارع في إنزاله خطاب الخلق، ومعاملته لهم بالرفق والحسنى، وكونه تنزل لهم بالتقريب والملاطفة في المعاملة نفسها⁷.

2- أحمد بوعود، (فقه الواقع أصول وضوابط)، عمرعبيد حسنة، سلسلة كتاب الأمة، مركز البحوث والدراسات، قطر العدد 75، ص 11.

2- الأنبياء، الآية 22.

3- الشاطبي، الموافقات، ج 3، ص 41.

4- البقرة، الآية 258.

5- الشاطبي، الموافقات، ج 1، ص 41.

6- المصدر نفسه ج 1، ص 42.

وقد أشار الشاطبي لهذا الملمح في تعامل الشرع مع العباد من خلال نزول القرآن، فنبه إلى وجوب أخذ هذا المسلك منه فقال: "وهو أصل التخلق بصفات الله والافتداء بأفعاله"²، وضبط أمثلة ذلك في قواعد أصلية وأخرى فرعية وذكر مجمل ما يستفاد من نزول القرآن منجما في نحو عشرين سنة، ففي هذه المدة كان الإنذار يترادف، والصراف يستوي بالنسبة إلى كل وجهة، وإلى كل محتاج إليه، وحين أبى من أبى الدخول في الإسلام بعد عشرين سنة أو أكثر بدؤوا بالتغليظ بالدعاء، فشرع الجهاد ولكن على تدريج أيضا، حكمة بالغة وترتبا يقتضيه العدل والإحسان"³.

وأمثلة ذلك كثيرة والذي يذكر منها عادة التدرج في تحريم الخمر، وقد تنبه السلف من الصحابة لهذا المعنى حيث قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: "إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس للإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل لا تزنا لقالوا لا ندع الزنا أبدا"⁴.

المطلب الثالث: إبراز البعد التنزيلي في اجتهاد الصحابة رضوان الله عليهم

وقد أدرك الصحابة رضي الله عنهم مقاصد التشريع وغاياته، ورسخت في أذهانهم معانيه، وتعاملوا بها في فقه النص الشرعي وتطبيقه، كما وظفوها في مواجهة المتغيرات والقضايا التي اعترضت حياتهم بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام وانقطاع الوحي⁵. وعملوا على تحقيق ذلك في اجتهاداتهم وأقيستهم وفتاويهم وأقضيتهم في أي نازلة اعترضت حياتهم، أو استجدت في واقعهم، فلم يقفوا عند حرفية النصوص الشرعية، ولم يجمدوا على ظواهرها، واجتهدوا في تطبيقها بما يحققوا به مقصود الشرع، وقد أثنى عليهم الشاطبي في مقدمة كتابه الموافقات ثناء عريضا فكان من جملة ما قاله: (...وأصحابه الذين عرفوا مقاصد الشريعة فحصلوها وأسسوا قواعدها وأصلوها، وجالت أفكارهم في آياتها، وأعملوا الجد في تحقيق مبادئها وغاياتها، وعنوا بعد ذلك باطراح الآمال وشفعوا العلم بإصلاح الأعمال، وسابقوا إلى الخيرات فسبقوا، وسارعوا إلى الصالحات فما لحقوا، إلى أن طلع في أفق بصائرهم شمس الفرقان، وأشرق في قلوبهم نور الإيقان، فظهرت ينباع الحكم منها على اللسان، فهم أهل الإسلام والإيمان والإحسان، وكيف لا وقد كانوا أول من قرع ذلك الباب فصاروا خاصة الخاصة ولباب اللباب، ونجومهم أهدى بأنوارهم أولوا الأبواب، رضي الله عنهم وعن الذين خلفوهم قدوة للمقتدين وأسوة للمهتدين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين)⁶.

1- المصدر نفسه، ج 3، ص 320.

2- المصدر نفسه، ج 3، ص 320.

3- المصدر السابق ج 3، ص 321.

4- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن، تحت رقم 4707.

5- ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، الدار التونسية للنشر، تونس، دت، ص: 21، 22.

6- الشاطبي، الموافقات، ج: 1، ص: 21 و 22.

فالصحابة الذين اطلعوا على نصوص الوحي كتابا وسنة، ما كان يخفى عليهم ما تضمنته نصوصُهما من المعاني والحكم، فاكتسبوا من ذلك ملكة مقاصدية في الفهم والاستنباط والتزليل، وتفاوتت مداركهم في ذلك قلة وكثرة بحسب مستوياتهم العلمية، فلم يكونوا كلهم في رتبة واحدة من الفقه والاجتهاد، وقد كان الخلفاء الراشدون في المقام الأول في الفتوى والفقه وإدراكاً لأسرار التشريع وإعمالاً للمقاصد، كما يتبين من اجتهاداتهم.

المطلب الثالث: نماذج من اجتهادات الصحابة في تنزيل النص القرآني على الواقع :

وأمثلة ذلك كثيرة في كتب الآثار وكتب الفقه غير أننا نكتفي في هذا المقام بمثالين

أ - مسألة تقسيم الأراضي المفتوحة (أراضي العراق)

النصوص الشرعية تدل على قسمة الأراضي المفتوحة على الفاتحين، قال تعالى: ﴿وَاغْلُظْ أُنْمًا غَنِمْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ أَمْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الأنفال:41.

لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه توقف في قسمة سواد العراق التي فتحت من قبل المسلمين، ورفض توزيعها على الفاتحين. حفظاً للمصلحة العامة، وتأميناً لمصلحة الأجيال القادمة من الأراضي قائلاً: (لَوْ لَا أَجْرُ الْمُسْلِمِينَ، مَا فَتَحَتْ قَرْيَةً إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ أَهْلِهَا، كَمَا قَسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ)¹. وعارضه في ذلك بعض الصحابة كبلال وعبد الرحمن بن عوف.

ووجه الاستدلال هنا أن عمر رضي الله عنه نظر إلى مصلحة الأجيال القادمة، حيث تحرم من خيرات الأراضي ومنافعها، إذا صارت تلك الأراضي في أيدي فئة قليلة من الفاتحين وأهلهم، مما يحصر المال في أيدي فئة معينة تتوارثه دون الآخرين تسخره لمصالحها الخاصة، وهذا مناف لمقصد العدل الذي أنزلت به الشرائع وأرسلت الرسل به.

وهذا الاجتهاد من عمر ليس تعطيلاً للنص الشرعي، بقدر ما هو إعمال لروحه ومآلاته. فهذه المسألة وإن وردت بشأنها نصوص صريحة، لكن عمر رضي الله عنه كيف تطبيقها وتنزيلها على الواقع على نحو لا يصادم غاية النصوص نفسها، ولا يتعارض مع المصالح الحقيقية للأمة، فهو رأى بجودة نظره أن تنزيل تلك النصوص أنفة الذكر في ظل الظروف التي حفت بها جعلها غير محققة لمقصودها الشرعي.

أ - مسألة الزواج بالكتابات:

لا خلاف عند الصحابة في جواز زواج المسلم من الكتابية² لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المائدة:05.

1 - البخاري، كتاب الخمس، باب الغنيمة لمن شهد الواقعة، رقم: 2957 ورقم: 3125 ورقم: 2334

2. الجصاص، أحكام القرآن، ج: 1، ص: 332 - ابن قدامة، المغني، ج: 7، ص: 500.

وكثير من الصحابة والتابعين تزوجوا نساء أهل الكتاب، فروى عن عثمان رضي الله عنه أنه تزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية¹ وهي نصرانية، وطلحة بن عبيد الله تزوج يهودية من أهل الشام، وحذيفة تزوج يهودية بالمدائن، وغيرهم من الصحابة. ولا خلاف عند العلماء في جواز التزوج بالكتابات.

وعمر بن الخطاب كان له اجتهاد آخر، فقد نهى الصحابة عن الزواج بهن، فقد روي أن حذيفة بن اليمان لما تزوج يهودية بالمدائن كتب إليه عمر: "أن خل سبيلها"، فكتب إليه حذيفة: "أحرام هي يا أمير المؤمنين؟"، فكتب إليه عمر: "أعزم عليك ألا تضع كتابي هذا حتى تخلي سبيلها، فإني أخاف أن يقتدي بك المسلمون فيختاروا نساء أهل الذمة لجمالهن، وكفى بذلك فتنة لنساء المسلمين"². وبروي أيضا عن ابن عمر أنه كرهه، فعن عبد الله بن نافع عن ابن عمر: أنه كان لا يرى بأسا بطعام أهل الكتاب ويكره نكاح نسائهم. ونافع عن ابن عمر: أنه كان إذا سئل عن نكاح اليهودية والنصرانية قال: "إن الله حرم المشركات على المسلمين ولا أعلم من الشرك شيئا أعظم من أن تقول ربه عيسى ابن مريم وهو عبد من عبيد الله"³.

ويتضح من موقف عمر أنه استند في نظره واجتهاده إلى ما فيه مصلحة للمسلمين في منع هذا الزواج، فقد اعتبره ذريعة إلى فتنة النساء المسلمات، لما يرينه من ميل الرجال المسلمين إلى نساء أهل الكتاب لجمالهن، خاصة إذا كان يفعل ذلك ممن يقتدى بهم، كحذيفة بن اليمان وهو صحابي معروف، أو يعتبر ذريعة إلى موقعة البغايا المومسات منهن عن طريق الزواج المشروع، وهو ما أكدته رواية أخرى عن عمر، حيث كتب إلى حذيفة قائلا: "أن خل سبيلها، فكتب إليه حذيفة: أحرام هي؟ فكتب إليه عمر: لا ولكن أخاف أن تواقعوا المومسات منهن"⁴. وهناك رواية أخرى أوردها صاحب المغني أن هذا النهي من عمر وجهه كل الذين تزوجوا بالكتابات⁵.

فهذه الآثار من عمر تؤكد - رغم ورود النص بجواز ذلك الزواج - أنه إنما نهى عن ذلك مراعاة للمصلحة ودرءا للفتنة، كمواقعة المومسات، وافتتان نساء المسلمين بذلك، وهو فقه دقيق من عمر أراد أن يحفظ به جماعة المسلمين مما قد يتسرب إليهم من الفساد والفتنة عن طريق استعمال هذا المباح وهو الزواج المسلمين من أهل الكتاب⁶، فالمنع هنا إنما هو حماية للصالح العام¹.

1 - نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص بن عمرو بن ثعلبة بن الحارث الكلبي. زوجة الصحابي الجليل عثمان رضي الله عنه ثالث الخلفاء الراشدين، ولدت من عائلة مسيحية في الكوفة، واعتنقت الإسلام لاحقا على يد أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أنجبت من عثمان ثلاث بنات، عرفت بشجاعته وصمودها ودفاعها المستميت عن عثمان لما دخلوا عليه لقتله، وقطعت أصابعها وهي تدافع عنه، ذات الأدب والبلاغة والفصاحة، وذات رأي يستشيرها عثمان دائما، كانت زوجة مخلصه وفيه ومطبعة لعثمان، ورفضت الزواج بعده من كبار الصحابة.

2. الجصاص، أحكام القرآن، ج: 1، ص: 332، ج: 2، ص: 324 - ابن قدامة، المغني، ج: 7، ص: 500.

3. الجصاص، أحكام القرآن، ج: 1، ص: 332، ج: 2، ص: 325.

4. المصدر نفسه، ج: 2، ص: 324.

5. ابن قدامة، المغني، ج: 7، ص: 501.

6. إن مصطلح الكتائب أطلقه القرآن على المرأة التي تدين بدين سماوي، أي تتبع كتابا من الكتب السماوية التي أنزلت على الأنبياء، مثل التوراة والإنجيل، لكن الملاحظ أن الكثير من النساء الكتائيات صرن غير ملتزمات بدينهن، ولا يمارسن شعائرهن، فهل ينطبق عليهن مصطلح الكتائيات؟

1. الدررني، نظرية التعسف ص: 167 وما بعدها - شلي، تحليل الأحكام، ص: 44 و43.

المبحث الثالث: مسالك تسديد التوقيع وسلامة تنزيل النص القرآني

عند الإمام الشاطبي

إن تنزيل نصوص الشريعة في واقع الحياة لتهتدي بها الإنسانية في جميع نواحيها لا تكفي فيه الإرادة المتواكلة، بل هو عمل اجتاهدي يلزمه الكثير من المناهج والقواعد، لذلك لم يكتف علماءنا بالتنبيه إلى ضرورة إعطاء التنزيل مكانته الحقيقية ضمن المباحث الأصولية، بل دعوا إلى أن يكون هذا التنزيل مسددا، ولم يكتفوا بذلك بل راحوا يكشفون منهجا قويا ومسلكا سليما يسدّد التنزيل وفقه، ومن هؤلاء الأئمة الأعلام والعلماء العظام الإمام الشاطبي في موافقاته، حيث ضمها القواعد الإجرائية لتنزيل أحكام الشريعة على الواقع، وتم استخراجها بجهود الباحثين الناظرين في تراث الشاطبي بمسلك الاستقراء متلمسين من كتاباته مسالك تسدّد العمل التنزيلي وهي مسالك ثلاثة¹:

المطلب الأول: مسلك تحقيق المناط زمن تنزيل النص.

ونتناول فيه مفهوم تحقيق المناط عند المتقدمين ثم عند الإمام الشاطبي خصوصا اعتبار للتطور التاريخي الحاصل في هذا المفهوم. ومختلف القواعد أو الضوابط التنزيلية المتعلقة بهذا المسلك.

الفرع الأول: مفهوم تحقيق المناط

يعرّف التحقيق بأنه النظر الدقيق في إثبات أمر متنازع فيه بغية التصديق والتأكيد بيقين². ويعرّف المناط بأنه العلة التي نيط بها الحكم³، أي ما أضاف الشرع الحكم إليه وناطه به ونصبه علامة عليه⁴.

وقد كان مصطلح تحقيق المناط مستعملا قبل الشاطبي في حيز ضيق يحصره في باب القياس بإثبات العلة التي وجدت في الأصل في الفرع ل يتم إلحاق حكم الأصل بالفرع، فلما جاء الشاطبي وسّع مدلوله ليصبح ضابطا مهما ومسلكا يفرع إليه في تطبيق الأحكام الشرعية وتنزيلها.

ولما كان تحقيق المناط عند المتقدمين من الأصوليين يعرّف بأنه التحقق من وجود علة الحكم في الجزئيات المعينة والمفردات المشخّصة لأجل تعدية حكم الأصل إلى الفرع، قالوا: "هو النظر في معرفة العلة في أحاد الصور بعد معرفتها في نفسها سواء كانت معروفة بنص أو إجماع أو استنباط"⁵.

وعرّفوه أيضا بأنه "إثبات العلة في أحاد صورها بالاجتهاد في معرفة وجودها في أحاد الصور

1- عثمان بلخير، البعد التنزيلي في التنظير الأصولي عند الإمام الشاطبي، ص 136.

2- الرازي محمد ابن أبي بكر، مختار الصحاح، ص 62.

3- الشنقيطي، نشر البنود على مراقي السعود، ج 2، ص 172

4- الغزالي، المستصفى في علم الأصول، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت 1413، ص 281.

1-الأمدي، أبو الحسن علي بن محمد، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ج 3، ص 335.

بعد معرفتها في ذاتها¹.

غير أنه لا تصح الغفلة عن تطور هذا المفهوم تطورا تاريخيا خرج به المقصود بتحقيق المناط من أضيق معانيه إلى أفق أوسع وفضاء أرحب وقد كان الغزالي أول من وسع مفهوم تحقيق المناط ليخرجه من دائرة القياس إلى دائرة الاجتهاد في التنزيل من خلال قوله: "وأما الاجتهاد في تعيين مناط الحكم فلا نعرف في الأمة خلافا في جوازه، ومثله الاجتهاد في تعيين الإمام بالاجتهاد، وكذا تعيين الولاة والقضاة، ومن هذا القبيل الاجتهاد في القبلة وليس ذلك من القياس في شيء"².

تحقيق المناط عند الإمام الشاطبي

وسع الشاطبي مفهوم تحقيق المناط جاعلا منه مبدأ كليا في تطبيق الأحكام الشرعية وميزانا لتسديد التنزيل وقد كان هذا المفهوم يضيق عند من سبقه من الأصوليين ومن بعده حتى جعله قسما من أقسام الاجتهاد حين قال رحمه الله تعالى: "الاجتهاد على نوعين أحدهما لا يمكن أن ينقطع حتى ينقطع أصل التكليف وذلك عند قيام الساعة"³.

وقد عرف الشاطبي تحقيق المناط بقوله: "هو أن يثبت الحكم بمدركه، لكن يبقى النظر في تعيين محله"⁴. وعليه فتحقيق المناط عنده عملية تقديرية تحتاج نظرا وتمييزا وتحققا من الصور المختلفة والمشابهة لجميع النوازل فلا يبقى صورة من الصور الوجودية المعينة إلا وللعالَم فيها نظر سهل أو صعب حتى يحقق تحت أي دليل تدخل، وهي عملية لاحقة لعملية التأكد من الحكم الشرعي كليا عاما، يليه تحقيق المناط الذي يحصل به تنزيله على الأفعال والأعيان الجزئية الخاصة. قال رحمه الله: "ذلك أن الشريعة لم تنصّ على حكم كل جزئية على حدة وإنما أتت بأمور كلية وعبارات مطلقة تتناول أعدادا لا تنحصر ومع ذلك فلكل معيّن خصوصية ليست في غيره ولو في نفس التعيين"⁵، ومن أمثلته التطبيقية معنى العدالة في الشاهد حيث قال تعالى: "وأشهدوا ذوي عدل منكم"⁶. وثبت للمكلفين معنى العدالة شرعا ولكن احتاجوا إلى تعيين من توصف بهذه الصفة والناس فيها على خلاف بين مستقل ومستكثر وواسطة فلا بد من التحقق من هذه الصفة بالاجتهاد نقلياً وعقلياً، وقد أثبت الشاطبي بشواهد هي من القوة بمكان شرعية الاجتهاد وعدم انقطاعه وانسداد بابه، بتحقيق المناط مما يستدعي بقاء بابه مفتوحا على الدوام لمحدودية النصوص وتناهيها مع تغير وتجدد الوقائع والأحداث⁷.

2- الفتوح، ابن النجار، شرح الكوكب المنير، تحقيق محمد الزحيلي، ونزيه حماد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1،

1993 ج4، ص 200.

2- الغزالي، المستصفى، ص 281.

3- الشاطبي، الموافقات، ج 4، ص 73 و 74.

4- الشاطبي، الموافقات، ج 4، ص 74.

5- الشاطبي، الموافقات، ج 4، ص 75.

6- سورة الطلاق، الآية 2.

7- عثمان بلخير، البعد التنزيلي في التنظير الأصولي عند الإمام الشاطبي، ص 143.

الفرع الثاني: القواعد التنزيلية المرتبطة بتحقيق المناط¹

من القواعد التنزيلية المتعلقة بتحقيق المناط مايلي²:

القاعدة الأولى: الاجتهاد في تحقيق المناط يحتاج إلى معرفة موضوع الواقعة معرفة جيدة. وذلك أول محطة نظر للمجتهد، إذ إنه عند تحقيقه للمناط لا يفتقر في ذلك إلى العلم بمقاصد الشريعة كما لا يفتقر فيه إلى معرفة علم العربية لأن المقصود من هذا الاجتهاد هو العلم بالموضوع على ما هو عليه³، كالنظر في صفة ماء الضوء وطهوريته برؤية لون أو شم ريح أو تذوق طعم، ووجه القول بهذه القاعدة عدة أدلة منها:

1- أنه لا يصح للعالم إذا سئل عن شيء كيف يحصل في الواقع إلا أن يجيب بحسب الواقع، ولا يتسنى له ذلك إلا بعد معرفته وإدراكه الدقيق له⁴.

2- لو لم يعتبر التدقيق بمعرفة الواقع لأدى ذلك إلى حدوث التشابه، لأن التشابه الواقع في الشريعة مرده إلى ثلاثة أضرب، واحد منها مرده إلى مناط الأدلة، وذلك كالتشابه في المأكول عند اختلاط الميتة بالذكية⁵، مما يستدعي بذل الوسع في التحقق من المناط بمعرفته جيدا وهو أحد أسباب دفع التشابه الموهوم عن الشريعة.

كما أن الحكم الشرعي الذي نزل به النص يتحقق مقصده في العموم متى جرت نوازل الحياة ووقائعها بمقتضاه وهذه الوقائع محفوفة بملايسات يجعل إجراء الحكم عليها لا يتحقق به مقصد فابتغاء تحقيق المقاصد الشرعية يستلزم تقديرا حول تحقيق الحكم الذي أفاده النص لمقصده الشرعي من عدمه، ولا يتم ذلك إلا بالنظر الجيد في حال الوقائع مع معرفة ظروفها وملايساتها الزمانية والمكانية⁶.

وقد اتخذ الشاطبي هذه القاعدة أصلا في فتاويه فيتعرف جيدا عن المناط المراد الجواب عن إشكالاته، وإلا فإنه يعمم الجواب ولا يحدد وجهها من وجوه المنع والجواز، ومن ذلك أنه سئل عمن يتقدم على غيره من العلوم فقال: "إن كل علم اقتضى الوقت والحال بالنسبة إلى طلب الشرع تقديمه فهو المقدم وما اقتضى تأخيرها فهو المؤخر"⁷. ومما يلزم ذكره انطلاقا من هذه القاعدة المنهجية إشارته إلى مفهوم التعاون في الاجتهاد الحاصل بما يسمى في زماننا بالمجامع الفقهية التي يحصل فيها من تكامل المعارف والعلوم من شتى الاختصاصات والميادين ما يسهم في تجلية موضوع الواقعة بحق لا خفاء فيه، ووجه القول بهذا التعاون أن تحقيق المناط يفتقر إلى العلم بما لا يعرف ذلك الموضوع إلا به من حيث قصدت المعرفة به، والإحاطة

2- سماها الدكتور عثمان بلخير قواعد تنزيلية وهي مجرد ضوابط لا ترقى لأن تكون قواعد لما تتميز به القاعدة من الشمول والضيبط والإحكام.

2- المرجع نفسه، ص 144.

3- الشاطبي، الموافقات، ج 4، ص 135.

4- الشاطبي، الموافقات، ج 3، ص 68.

5- الشاطبي، الموافقات، ج 3، ص 77.

6- عثمان بلخير، البعد التنزيли في التنظير الأصولي عند الإمام الشاطبي، ص 145.

2- الشاطبي إبراهيم بن موسى، فتاوى الشاطبي، تحقيق محمد أبي الأجناف، دار الغرب الإسلامي، ص 123.

بجميع العلوم والمعارف التي يتحقق بها في الوقائع من النادر بل من ضروب المستحيل إلا على سبيل خرق العوائد¹.

القاعدة الثانية: لعملية تحقيق المناط مرحلتان متتاليتان، مرحلة تحقيق المناط في الأنواع، ومرحلة تحقيق المناط في الأعيان.

وذلك أن تنزيل الحكم الشرعي بعد ثبوته بمدركه يتوقف على دراسة مناطه تحقيقاً، وقد ضبط الشاطبي منهجاً لهذا التحقيق والتأكد من تلك المساواة وهذا منهج يمر فيه المحقق بمرحلتين²:

1- المرحلة الأولى: تحقيق المناط في نطاق النوع (تحقيق المناط العام).

حيث إن تحقيق المناط لا بد أن يتجه في مرحلة أولى إلى البحث في انتمائه للأنواع التي يشملها الحكم فما كان منتمياً لنوع الحكم ألحق به، ولا يلحق به الحكم إلا بعد المعرفة بأن هذا المعين يشمل ذلك المطلق أو ذلك العام وقد يكون تحقيق المناط المتقدم الذكر سهلاً وقد لا يكون كذلك، قال الشاطبي رحمه الله: "الثالث هو نوع من تحقيق المناط المتقدم الذكر لأنه ضربان أحدهما يرجع إلى الأنواع لا إلى الأشخاص، كتعين نوع المثل في جزاء الصيد، ونوع الرقبة في العتق في الكفارات، وما أشبه ذلك مما يتضح به هذا النوع أكثر وما ذكره الشاطبي في الاجتهاد في العدالة حيث قال رحمه الله: "فإذا نظر المجتهد في العدالة مثلاً ووجد هذا الشخص متصفاً بها على حسب ما ظهر له أو وقع عليه ما يقتضيه النص من التكليف المنوطة بالعدول من الشهادات والانتصاب للولايات العامة أو الخاصة، وهكذا إذا نظر في الأوامر والنواهي النديبة والأمر الإباحية ووجد المكلفين والمخاطبين على الجملة أوقع عليهم نصوص الواجبات والمحرمات من غير التفات إلى شيء غير المشروط بالهيئة الظاهرة"³. ولذلك فتحقيق مناط واقعة شخص ما أراد أن ينتصب للقضاء تقتضي أن نحقق فيه هل يتصف بنوع العدالة فيلحق بها.

المرحلة الثانية: تحقيق المناط في نطاق العين (تحقيق المناط الخاص).

بعد الفراغ من تحقيق المناط العام يحتاج المجتهد إلى التدقيق في تحقيق مناط العين وهو مناط أخص، وذلك لاحتواء كل نوع على أفراد عينية كثيرة من الأفعال أو الفاعلين، أو الأحداث والصور فإفعال هذه المرتبة قد يؤدي إلى سوء تنزيل الأحكام الشرعية باعتبار ورود الاشتباه في بعض أفراد النوع الواحد، وقد أسهب الشاطبي في حديثه عن هذا النوع مؤكداً ضرورته للناظر في الوقائع في كل زمان ومكان حيث قال: "أما الثاني فهو النظر الخاص فأعلى من هذا وأدق، وهو في الحقيقة ناشئ عن حقيقة التقوى المذكورة في قول الله تعالى: "إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً"⁴. وقد يعبر عنه بالحكمة"⁵. ومثاله ذات مثال العدالة المتقدم فإذا تم التحقق من عدالة إنسان

1- عبد المجيد النجار، فقه التطبيق لأحكام الشريعة عند الإمام الشاطبي، مجلة الموافقات، ص 249.

2- عثمان بلخير، البعد التنزيلي في التنظير الأصولي عند الإمام الشاطبي، ص 147.

3- الشاطبي، الموافقات، ج 4، ص 78.

4- سورة الأنفال، الآية 29.

5- الشاطبي، الموافقات، ج 4، ص 80، بتصرف من الدكتور عثمان بلخير.

فهذا لا يكفيه في تولي مناصب الولايات فتلك الصفات التي حكم بها له بالعدالة حفتها ملايسات أخرجه عن دائرة أهلية الولاية أو القضاء، وتحقيقها وإثباتها نظر صعب لكنه محتاج إليه، فيتعرف على مداخل الشيطان ومداخل الهوى وحظوظ العاجلة وهل تصلح له بحسب نفسه ووقته وحاله وشخصه، فالنفوس ليست في قبول التكليف والأعمال على وازن واحد، فقد يكون العمل الصالح مدخلا ضررا أو فترة على رجل وقد لا يكون كذلك بالنسبة إلى آخر¹.

القاعدة الثانية: الأصل في تحقيق المناط أنه عمل المجتهد ولكنه غير مقتصر عليه.

والمقصود الأهم من هذا أن الاجتهاد في تحقيق المناط وإن كان من خالص عمل المجتهد، إلا أن فيه جانبا يتعداه إلى عموم المكلفين وإن لم يكونوا من أهل النظر والاجتهاد .

1- مرتبة المحقق المجتهد: لما كان تحقيق المناط يتعلق بتنزيل الأحكام التي أفادتها النصوص فهو من اختصاص المجتهد وهو ظاهر كلام الشاطبي لأنه نظر اجتهادي، قال رحمه الله: " فلا يبقى صورة من الصور الوجودية إلا وللعالم فيها نظر سهل أو صعب حتى يحقق تحت أي دليل تدخل"²، ولقوله: "ولا يتعين ذلك إلا بنظر واجتهاد ورد الدعاوى إلى الأدلة وهو تحقيق المناط بعينه"³. إذ المحقق المنزل للحكم الشرعي على النوازل والوقائع لا بد من اتصافه بصفات المجتهدين التي ذكرها الشاطبي عند كلامه عن شروط الاجتهاد، ويضاف إليها بلوغه درجة العلم والتقوى والحكمة التي تورثه نورا يقتدر به على التمييز والإدراك قال رحمه الله: "فصاحب هذا التحقيق الخاص الذي رزق نورا يعرف به النفوس ومرامها وتفاوت إدراكها وقوة تحملها للتكاليف وصبرها على تحمل أعبائها أو ضعفها، ويعرف التفاتها إلى الحظوظ العاجلة أو عدم التفاتها، فهو يحمل على كل نفس من النفوس من أحكام النصوص ما يليق بها، على أن ذلك هو المقصود الشرعي في تلقي التكليف"⁴.

2-مرتبة المحقق المكلف : وذلك أن عملية تحقيق المناط لا تختص بالمجتهد كما قال الشاطبي بل لا بد منها لكل ناظر وحاكم ومفت بل بالنسبة إلى كل مكلف يتعين عليه البحث في التكليف الثابتة في ذمته من التي لا غنى عنها في الالتزام بالتكاليف والمطالب الوقتية التي لا تحتاج زمنا واسعا⁵. ومثاله العامي الذي علم أن الزيادة الفعلية اليسيرة التي وقعت منه في الصلاة سهوا مغتفرة بخلاف الكثيرة، ووقعت له زيادة في صلاته تعين عليه النظر فيها حتى يردها إلى أحد القسمين⁶.

المطلب الثاني: التحقق من مقاصد الشريعة عند تنزيل النص.

لما كانت أحكام الشريعة ومجمل التكليف تتشوف إلى تحصيل مقصود الشارع منها كان لا

1- الشاطبي، الموافقات ج 4، ص 80.

2- الشاطبي، الموافقات، ج 4، ص 75.

3- الشاطبي، الموافقات، ج 4، ص 76.

4- الشاطبي، الموافقات، ج 4، ص 80.

5- الشاطبي : الموافقات، ج 4، ص 76.

6- عثمان بلخير، البعد التنزيلي في التنظير الأصولي عند الإمام الشاطبي، ص 155

بد من أن يكون الناظر فيها من أهل البصيرة بعلم المقاصد ليتحصل له به جودة نظر بوجوه المصالح والمفاسد .

الفرع الأول: مقاصد الشريعة ومدى عناية علماء الغرب الإسلامي بها .

1- مفهوم مقاصد الشريعة عند علماء الغرب الإسلامي.

كان لعلماء الغرب الإسلامي عظيم العناية وكبير الجهد في بناء صرح هذا العلم كما كان له من الحضور في الدرس الفقهي والأصولي النصيب الأوفر، ومع ذلك فإننا لا نجد لهم تعريفا فنيا علميا لمقاصد الشريعة الإسلامية، والشاطبي الذي وضع كتابا في المقاصد وأبدع في تقسيمها وبيان مراتبها على النحو الذي لم يسبق به على ما هو معلوم عند الدارسين والمحققين، لم يقم بتعريفها، مع ملاحظة أن الإمام أبا حامد الغزالي أول من حاول وضع تعريف للمقاصد. ولكن التعريف العلمي الفني لمقاصد الشريعة لم يتبلور بما يحقق الغاية ويوفي الكفاية إلى عصر ابن عاشور، ومن جاء بعده.

- تعريف المقاصد عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور: (ت1973م)

ما يلاحظ على الإمام ابن عاشور أنه لم يضع تعريفا جامعا للمقاصد الشرعية، إلا أنه قسمها إلى قسمين: مقاصد عامة ومقاصد خاصة، وأعطى تعريفا خاصا لكل قسم، فعرف المقاصد العامة بقوله: " هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها؛ بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة"¹، وعرف المقاصد الخاصة بقوله: " الكيفيات المقصودة للشارع في تحقيق مقاصد الناس النافعة أو لحفظ مصالحهم العامة في تصرفاتهم الخاصة، كي لا يعود سعيهم في مصالحهم الخاصة بإبطال ما أسس لهم من تحصيل مصالحهم العامة إبطالا عن غفلة أو استغلال هوى وباطل شهوة"². وكل من جاء بعد ابن عاشور كعلال الفاسي وأحمد الريسوني وغيرهما إنما أخذ عنه صلب التعريف مع بعض زيادة في ملحه لا في متنه مما يغني عن سرد مجموع التعاريف.

الفرع الثاني: أهمية مقاصد الشريعة والغاية منها:

بعد تعريف مقاصد الشريعة، نتبين وتلمس أهميتها وضرورة الإمام بها، والاطلاع على مسائلها ومباحثها، فهي تمثل روح الشريعة وجوهرها، ولقد بذل أسلافنا جهودا معتبرة في سبيل بناء صرح المقاصد الشرعية التي تعتبر لب الإسلام، وتمثل غاياته السامية، ويبقى جهدهم وإسهاماتهم صالحة للاستفادة منها والتأسيس عليها، وبخاصة العمل المتميز الذي قام به ثلة من العلماء كالجويني والغزالي والعز بن عبد السلام وعلماء المالكية خصوصا كالقرافي والمقري والشاطبي، ثم في العصر الحديث جهود الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، ومن بعده من الباحثين والدارسين عبر ملتقيات ومقالات ورسائل جامعية.

وتكمن أهمية مقاصد الشريعة الإسلامية في توظيفها عند تطبيق أحكام الشريعة والعمل

1- محمد الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة، المؤسسة الوطنية للكتاب ط سنة 1985 ص: 51

2- محمد الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة، ص: 146

بها، فالمقصد الشرعي يمثل جوهر الحكم ومآله، وعلى أساسه ينفذ الحكم أو يؤجل، وهو الدعامة في استنباط الحكم والترجيح بين المصالح أو المفاسد المتعارضة.

فالمقاصد تمكن الفقهاء والمجتهدين من فهم الشريعة على كمالها، وإدراك غاياتها وأهدافها، وتمنح القدرة على سلامة التعامل مع نصوص الوحي وتوظيف الأدلة الشرعية واستنباط الأحكام بما يحقق حسن الالتزام بالدين وفق يسر الشريعة وسماحتها، قال الإمام الشاطبي: "إنما تحصل درجة الاجتهاد لمن اتصف بوصفين أحدهما فهم مقاصد الشريعة على كمالها والثاني التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها"¹.

وبالنسبة لغيرهم من المقلدين والمتبعين هي معرفة غايات أحكام الشريعة على وجه الإجمال وأنها جاءت لمصلحة الإنسان في عاجله وأجله، ومن ثم يحصل للعامة أو المقلد فهم عام للشريعة ومقاصدها السمحة، وإدراك قيمتها وأهميتها، ومن ثم الاطمئنان لما جاء به دينه، والاعتزاز بالانتساب إليه، إذ يبعث فيه ذلك الحرص على الالتزام بأحكام الدين والاستقامة في تدينه، وحسن الامتثال سلوكا وعملا.

الفرع الثاني : القواعد التنزيلية المرتبطة بالتحقق من المقاصد الشرعية عند الإمام الشاطبي

بحث الأصوليون عموما وعلماء الغرب الإسلامي خصوصا مختلف المسالك التي يتوصل بها إلى معرفة مقاصد التشريع وغاياته، غير أن ذلك ليس بكاف ما لم يتتبع تحقق هذا المقصد أثناء عملية تنزيل الأحكام الشرعية ذلك لأنه لا يتحقق مقصدها من المصلحة بمجرد إجرائها الآلي على الأفعال، وقد اغفل الأصوليون قبل الشاطبي الحديث عن المسالك المتوصل بها إلى استمرار تحقق المقصد الشرعي في الفعل بعد تنزيل الحكم عليه²، وأدرك الشاطبي مدى أهمية وجود منهج يتحقق به من حصول المقاصد أو تخلفها عند التطبيق حيث تعرض لهذا المنهج بالشرح والتوجيه والتعليل غير أنه لم يسلكها في قواعد بل استنبطها الناظرين المستقرنون لتراثه حاصرين لها في قواعد ضابطة للتحقق من حصول مقصود الشارع عند التنزيل منها :

القاعدة الأولى: للتحقق من حصول المقاصد الشرعية مرتبتان:

- تحقق حصولها ضمن إطار النوع.

- تحقق حصولها ضمن إطار العين³.

المرتبة الأولى وهي التحقق من تحصيل المقصد ضمن إطار النوع، والمقصود بذلك إعمال النظر زمن تنزيل النص على الواقع من تحقق مقصود الشارع من الحكم باعتبار عموم ذلك الحكم كمقصد حفظ النفس بالنسبة لتحريم القتل وهذا الحكم ينطوي على كثير من الأنواع التي تستشرف نفس المقصد والذي منه تهيئة الطرقات وتنظيم المرور استشرافا لمقصد

1 - الشاطبي، الموافقات، ج:4، ص:105 و106

2- عبد المجيد النجار، فقه تطبيق أحكام الشريعة عند الإمام الشاطبي، مجلة الموافقات، ص 279.

3- عثمان بلخير، البعد التنزيلى في التنظير الأصولي عند الإمام الشاطبي، ص 165.

الشارع في حفظ النفوس، فالمقصد الشرعي الذي ثبت في الحكم العام يثبت في جميع أنواعه¹، وهذا كله من جهة التنظير، أما عند التنزيل فينبغي إجراء تحقيق في تلك الأنواع التي يشملها الحكم العام، هل يتحقق مقصد الشارع فيها زمن تنزيل الحكم الشرعي عليها أم لا، إذ قد يتحقق مقصود الشارع في بعض تلك الأنواع وقد لا يتحقق بل إن بعض أنواع الحكم قد يؤدي عند توقيعه إلى مفسدة، وحينئذ يصرف عن دائرة التطبيق قال الشاطبي رحمه الله: "فالحاصل أنه لا بد من اعتبار خصوصيات الجزئيات مع اعتبار كلياتها وبالعكس وهو منتهى نظر المجتهدين بإطلاق وإليه منتهى طلقهم في مرامي الاجتهاد"².

المرتبة الثانية: التحقق من تحصيل المقصد ضمن إطار العين، وهي تالية للمرتبة الأولى، حيث عندما يثبت في تنزيل الأحكام الشرعية على الوقائع أن نوعاً من أنواع الحكم الكلي يتحقق فيه المقصد الشرعي تأتي المرتبة الثانية لتوجب التحقق في أفراد ذلك النوع من حيث حصول المقصد فيها عند التوقيع أو عدم حصوله وقد أثار الشاطبي رحمه الله إشكالا يتعلق بمعرفة حصول المقصد الشرعي في أعيان الأفعال قبل وقوع الأعيان بالفعل أو بعدها واعتبر الخلاف في المسألة مشروعا، مبينا أن وجود الحكمة في محل عينا لا ينضبط لأن تلك الحكمة لا توجد إلا تالية لوقوع السبب، فنحن قبل وقوع السبب جاهلون بوقوعها أو عدم وقوعها³.

القاعدة الثانية: لا بد من الموازنة بين الضرر والنفع في الأعيان، ومنتهى القول فيها أن ما يعتبر عند تنزيل الحكم الشرعي هو حصول المصلحة التي هي عين مقصد الشارع ومستند صحة هذه القاعدة عدة وجوه واعتبارات تصح بمقتضى النقل والأثر كما تصح بحكم العقل والنظر منها:

1- عدم تمحض المصالح والمفاسد في الدنيا حيث يندر بل يكاد ينعدم وجود مصلحة خالصة من شائبة المفسدة، ومفسدة خالصة من شائبة المصلحة، ولذلك فالمعتبر هو ما تمحض من الطرفين بحكم الغالب وفي ذلك قال الشاطبي رحمه الله: "فالمصالح والمفاسد الراجعة إلى الدنيا إنما تفهم على مقتضى ما غلب فإن كان الغالب جهة المصلحة فهي المصلحة المفهومة عرفا، وإذا غلبت الجهة الأخرى فهي المفسدة المفهومة عرفا، ولذلك كان الفعل ذو الوجهين منسوباً إلى الجهة الراجحة، فإذا رجحت المصلحة فمطلوب ويقال فيه إنه مصلحة، وإذا غلبت المفسدة فمهربوب عنه ويقال عنه مفسدة"⁴.

2- عدم ثبات واطراد المصالح أو المفاسد في الأفعال. وذلك أن المصلحة أو المفسدة في الفعل ليستا ثابتتين مطردتين فيه بحيث يعلم أن هذا الفعل تغلب فيه المصلحة وأن هذا تغلب فيه المفسدة، وذلك لكون المصالح والمفاسد في الأفعال إضافية وليست ذاتية، وهذا يقتضي وجودها في حال دون حال ووقت دون آخر، وشخص دون غيره⁵. ومن ثمة حرص

1- عبد المجيد النجار، فقه تطبيق أحكام الشريعة عند الإمام الشاطبي، مجلة الموافقات، ص 280

2- الشاطبي، الموافقات، ج 3، ص 9 و 10.

3- عثمان بلخير، البعد التنزيلي في التنظير الأصولي عند الإمام الشاطبي، ص 168.

4- الشاطبي، الموافقات، ج 3، ص 21.

5- الشاطبي، الموافقات، ج 3، ص 33.

الشاطبي على ضرورة إجراء موازنة دقيقة لمعرفة غلبة المصلحة أو المفسدة الذي هو مظهر تحقق المقصد أو عدم تحققه، وقد وضع الشاطبي بعض الاعتبارات في الموازنة المطلوبة بين النفع والضرر ومنها¹:

1- اختلاف معطيات الزمان والمكان فرب فعل من الأفعال تتحقق فيه المصلحة في زمان ما أو مكان ما يكون بتغير الزمان والمكان أيلا إلى المفسدة، ومثل له الشاطبي بقوله ما يكون متبدلا في العادة من حسن إلى قبح وبالعكس مثل كشف الرأس، فإنه يختلف بحسب البقاع في الواقع فهو لذوي المروءات قبيح في البلاد الشرقية وغير قبيح في البلاد المغربية فالحكم الشرعي يختلف باختلاف ذلك فيكون عند أهل الشرق قادحا في العدالة وعند أهل المغرب غير قادح²، وذات الأمر يمكن أن ينزل على المعطى الزماني وذلك بتغير الأعراف والعوائد.

2- اختلاف النفوس: فرب حكم محقق مقصده الشرعي في شخص ما غير محقق له في شخص آخر لاختلاف الأمزجة والنفوس والأحوال الباطنية للإنسان قال الشاطبي رحمه الله: "إذا كان التشريع لأجل انحراف المكلف أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط الأعدل لكن على وجه يميل فيه إلى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه فعلى الطبيب الرفق بحال المريض على ما فيه صلاحه بحسب حاله وعادته وقوته ومرضه وضعفه"³.

3- اختلاف الأثر: ونقصد بالأثر ما يحدثه الفعل خارج محله فقد يكون فعل ما يجري عليه حكمه فيحصل مقصده ولا ترتب عليه آثار تمتد إلى غيره، ورب فعل آخر من نفس النوع يحصل مقصده ويكون له أثر بمفسدة خارج محله، وقد تكون أكبر من المصلحة الحاصلة في محله، وأمثلة هذا النوع كثيرة مما يحصل منفعة للنفس لمضرة للغير"⁴.

القاعدة الثالثة: لا بد من النظر في موافقة أو مخالفة قصد المكلفين لقصد الشارع، والمقصود الموازنة بين قصد الفعل وقصد الفاعل، ذلك لما علم من أنّ تنزيل الأحكام يعتمد تحقق مقاصد الشرع فإن أي تحريف لهذه المقاصد يؤدي حتما إلى عكس ما تقصد إليه الشريعة، ومن ذلك فعل الأحكام وتنزيلها على آحاد المكلفين مع تبني قصد آخر مخالف لقصد ذلك الفعل، وحينئذ وجب صرف تلك الأحكام عن ذلك المناط، قال الشاطبي رحمه الله: "كل من ابتغى من تكاليف الشريعة غير ما شرعت له فقد ناقض الشريعة، وكل من ناقضها فعمله في المناقضة باطل، فمن ابتغى في التكاليف ما لم تشرع له فعمله باطل، ومثاله أن يتزوج الرجل امرأة وقصده أن يحللها لزوجها الأول، وقصده هذا ظاهر المخالفة لقصد الشارع في الزواج، في دوام الزواج وثمرته الولد وحصول السكينة، وبالتالي يحكم على نكاحه بالبطلان لمناقضة قصد الشارع"⁵.

1- عثمان بلخير، البعد التزيلي في التنظير الأصولي عند الإمام الشاطبي، ص 169.

2- الشاطبي، الموافقات ج 2، ص 33.

3- الشاطبي، الموافقات، ج 2، ص 163.

4- عثمان بلخير، البعد التزيلي في التنظير الأصولي عند الإمام الشاطبي، ص 170.

5- الشاطبي، الموافقات، ج 2، ص 233.

المطلب الثالث: مسلك مراعاة المآل وأثره في سلامة تنزيل النص القرآني على الوقائع

الفرع الأول: مفهوم مراعاة المآل:

لم يحفل الأصوليون والفقهاء كثيراً بالبحث في مصطلح مراعاة المآل¹، غير أنه يمكن الجزم بأن معنى هذا المصطلح كان حاضراً في الفكر الأصولي تحت مسميات أخرى في المباحث الأصولية والقواعد الفقهية مما يندرج تحت مفهوم مراعاة المآل، ومن هنا اتفق الأصوليون أن العمل إذا كان يفضي إلى مفسدة ظاهرة أو يؤدي إلى مناقضة قصد الشارع فهو باطل مردود ومستندهم في ذلك نصوص الشرع الدالة على منع سبل الوقوع في المحذور².

1- المفهوم العام لاعتبار المآل:

يرد هذا المصطلح المركب بألفاظ عديدة مثل اعتبار المآل، مراعاة المآل، مآلات الأحكام، مآلات الأفعال والتصرفات... وغيرها، ولا يتغير المعنى لاستقرار وعدم تغير محوره وهو المآل، وهو في اللغة من الفعل آل بمعنى رجع، فيكون المآل هو المرجع، ويطلق على آخر ما يصير إليه الشيء، يقال طبخ الشراب فال إلى كذا وكذا، ويقال آل الشراب إذا خثر وانتهى بلوغه ومنتهاه من الإسكار³.

ومما تقدم يتضح أن مآلات الأفعال يعني بها ما يرجع إليه فعل الإنسان وينتهي، ويكون منتهاه في نفسه أو تأثيراً في غيره، والمقصود به عند إطلاقه عاماً "ما يؤول إليه الحكم الشرعي من أهداف ومقاصد"، فيؤدي القصاص إلى حفظ المهج، ويؤدي فرض الكفاية إلى معنى التضامن⁴.

2- المفهوم الخاص لاعتبار المآل

لم يضع العلماء بما فهم الشاطبي - مع ما خصّ به هذا الأصل من احتفاء ومزيد توسع وعناية - حداً ضابطاً لاعتبار المآل، كما هو معهود في صناعة الحدود والتعريفات، هذا وقد اعتنى بعض الدارسين لموافقاته ببيان معناه، وشرحه شرحاً عريضاً، وتقريره في الجملة "أن الأحكام الشرعية تبنى في وضعيتها النظرية المجردة أمراً ونهياً على اعتبار ما تؤدي إليه منطاتها من الأفعال باعتبار أجناسها المجردة من مصلحة أو مفسدة، لكن تلك الأفعال في حال تشخصها العيني قد يطرأ عليها من الملابسات ما يجعل بعض أعيانها تؤول إلى عكس ما قدر نظرياً أنه تؤول إليه أجناسها، وحينئذ فإن الفقيه يعدل بالنظر الاجتهادي عن حكم الأمر إلى حكم النهي، أو يعدل عن حكم النهي إلى حكم الأمر، اعتباراً لذلك المآل الذي غلب

1 - إلا ما كان من الإمام الشاطبي الذي تناوله بشيء من التفصيل في الجزء الرابع من كتابه الموافقات عند حديثه عن الاجتهاد.

2 - عبد الحميد العلمي، قواعد التنظير المآلي عند الإمام الشاطبي، مجلة الموافقات، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، الجزائر، ع2، ص309.

3- ابن منظور، لسان العرب، ج 11، ص 33.

4- عثمان بلخير، البعد التنظيري في التنظير الأصولي عند الإمام الشاطبي، ص 175.

على الظن أنه يؤول إليه في الواقع".¹

ومثاله نص الشارع على إباحة البيع تحصيلًا للمصالح وتوسعة على الناس، قال تعالى: "وأحل الله البيع وحرم الربا"²، فإذا باع شخص سلعة بعشرة إلى أجل ثم اشتراها بخمسة نقدا قبل الأجل، فهو لم يخرج عن صورة البيع، لكنه آل إلى صورة محرمة تحقق فيها الفساد، وهي التعامل بالربا وما فيه من تقويض معاني التعاون وفعل الخير، ومنه ينقلب الحكم إلى منع هذا البيع.³

الفرع الثاني: علاقة أصل مراعاة المآل بتنزيل النص القرآني على الوقائع.

كان من أثر مزيد عناية الشاطبي بهذا الأصل أن عده مسلكا من مسالك تنزيل أحكام الشريعة، يتعامل مع الحكم وما يؤول إليه عند تطبيقه وجربانه على أفعال المكلفين، بما لم يظهر عند من سبقه، لما يُرى من انحصار المباحث الأصولية عندهم في النزعة النظرية التي تهتم بفهم الحكم الشرعي ودركه من أدلة الشرع، فعلاقة هذا الأصل بتنزيل الحكم الشرعي علاقة أصيلة تقتضيها طبيعة عمل المجتهد التي لا تنحصر في استنباط الحكم الشرعي بما يتجاوزه إلى استحضار مآله، ولا يكون ذلك إلا عند التنزيل، فإذا لم يفعل فهو قاصر أو مقصّر⁴، ويظهر ذلك من خلال ما يلي:

1- متانة صلة هذا الأصل بمقاصد الشريعة: وقد أشار الشاطبي إلى صحة النسب بين مراعاة المآل ومقاصد الشريعة، فقال: "وهو مجال للمجتهد صعب المورد، محمود الغب، جار على مقاصد الشريعة"⁵، وهذا النسب هو الذي يؤكد الصفة التنزيلية لهذا المسلك، ذلك أن أحكام الشريعة سنت لتحقيق مقاصدها في الخلق، ومنتهى تحصيل المصالح ودرء المفسدات في الأوامر والنواهي، والبصيرة بما يؤول إليه الحكم من تحقق مقاصد الشريعة أو تخلفها، إنما هو نظر في حصولها في الواقع عند تطبيقها مع ما يلابسه من ظروف عارضة، وقد أقر الشاطبي بصعوبة هذا المسلك ودقته، فقال عنه: "وهو مجال للمجتهد صعب المورد..... فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها، وربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوي أو تزيد"⁶.

2- توسيع مدلوله حتى يشمل كثيرا من المباحث الأصولية التي لها علاقة بالتنزيل مثل سد الذرائع التي يكون الفعل فيها ذريعة بالمآل إلى الممنوع، ومثل قاعدة الحيل التي يؤول فيها ما ظاهره الجواز إلى ممنوع على سبيل التحيل، وقاعدة مراعاة الخلاف التي يقبل فيها القول المخالف الثابت بدليل مرجوح حال وقوع الفعل الممنوع بالدليل الراجح، وقاعدة الاستحسان

1 - عبد المجيد النجار، نحو منهج أصولي لفقه الأقليات، مجلة المجلس الأوروبي للإفتاء، إيرلندا، ص 59

2- سورة البقرة، الآية 275.

3- حسين حامد حسان، نظرية المصلحة في الفقه الإسلامي، مكتبة المتنبي بالقاهرة (د ت)، ص 195، 196.

4- الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، دار الكلمة، مصر، ط 1، ص 353.

5- الشاطبي، الموافقات، ج 4، ص 160.

6- المصدر نفسه، ج 4، ص 160.

التي تعد استثناء من الدليل العام سواء كان عموماً لفظياً أو قياساً دفعاً لأثره الضروري .

الفرع الثالث: القواعد التنزيلية المرتبطة بالنظر المآلي:

لما كان للشاطبي في الاحتفاء بهذا المسلك القدر المعلى فقد وقف على صعوبة هذا المسلك التنزيلي فوضع له قواعد منهجية ضابطة حتى لا تضل فيه الأفهام، ولا تنزل فيه الأقدام، زمن تنزيل النصوص على الوقائع ومن هذه القواعد ما يأتي¹:

القاعدة (1): وجوب النظر في مآل جريان الحكم الشرعي على أفعال المكلفين قبل التنزيل². من خلال ما يعرف عند الدارسين بالنظر التوقعي أو الاستشرافي لما يمكن أن يسفر عنه تطبيق الحكم في الواقع قبل التنزيل، وذلك بوجوب التقدير الجيد للحكم بمراعاة مآله عند عملية صياغة الحكم، وهو أمر من الصعوبة بمكان، لأنه لا يعرف مآل الحكم قبل جريان الحكم على أفعال المكلفين إلا مشوباً بالظنية التي قد تهدر معها مقاصد الأحكام في الأفعال، وكل هذا لم يثن الشاطبي من الجزم في هذه المسألة حين قال: "لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو الإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، خاصة والظن في المآل تختلف مراتبه وقد يبلغ مرتبة الظن الغالب، فضلاً على أن الاجتهاد في أحكام الشريعة في أغلبه قائم على الظن، وهو ما جعل التوقع هو لب مراعاة المآل"³.

القاعدة (2): من وسائل مراعاة المآل النظر في أحوال الواقع وما يجري عليه من انحراف. من المسالك التي يمكن معرفة مآل الحكم من خلالها العادة الاجتماعية وما عليه عرف الناس، وهذا لا يكون إلا بعد استقراء دقيق لحال المجتمع بمعرفة تلك الأنساق من الأعراف و العادات والثقافات التي يصبح لها حكم القانون الذي يحتكم إليه الناس⁴.

القاعدة الثالثة: وجوب تتبع مآل الفعل حتى بعد وقوعه، وذلك بالنظر فيما يؤول إليه الواقعة بعد وقوعها وجريان الأحكام عليها لأجل حسم مادة الفساد من الانتشار أو الحد منه قدر الإمكان، وتقليل الضرر هو مصلحة في حد ذاته، ذلك أن كثيراً من الأحكام يأخذ طريقه إلى الواقع جارياً على غير ما شرع له من الحكم، ومن ثمة فإنه يتطلب تعاملًا خاصاً يراعي المآل فيه بشكل مطلق، لأن الفعل إذ ذاك يكتسب خصوصية واقعية تقتضي عدم الحكم عليه إلا بعد النظر فيما يؤول إليه من المصالح والمفاسد⁵.

الخاتمة

بعد هذه السباحة في الرياض الوارفة والرحاب الفسيحة لتراثنا الأصولي والمقاصدي ومن خلال هذا البحث المتواضع الذي يروم إمطة اللثام عن شيء من جهود علماء الغرب الإسلامي الكرام وأتمته الأعلام في تنزيل النص القرآني على الواقع وفق تنظير أصولي يضمن سلامة

1- عثمان بلخير، البعد التنزيلي في التنظير الأصولي عند الإمام الشاطبي، 182.

2- الشاطبي، الموافقات، ج 4، ص 164.

3- الشاطبي، الموافقات، ج 4، ص 166.

4- عثمان بلخير، البعد التنزيلي في التنظير الأصولي عند الإمام الشاطبي، ص 185.

5- المرجع السابق، ص 186.

التطبيق وسداد التوقيع، فإننا ننتهي إلى جملة من النتائج والتوصيات هي:

1- النتائج

1- اجتهاد التنزيل الذي شاع استخدامه عند العلماء المعاصرين هو ذاته وبذات المفهوم عند المتقدمين مع الأخذ بعين الاعتبار التطور الحاصل في مفهومه عند علماء الغرب الإسلامي عموما وعند الشاطبي خصوصا "بأنه نظر شرعي لاستخلاص حكم شرعي يحكم أفعالا أو تصرفات أو قضايا متلبسة بحيثيات زمانية أو مكانية ..".

2- اجتهاد التنزيل مما لا مناص منه لضرورة استيعاب النص الشرعي للقضايا والحوادث والوقائع والنوازل غير المتناهية في الزمان على امتداده والمكان على اتساعه. وسبيل من سبل إحاطة المتناهي بالآمتناهي.

3- اجتهاد التنزيل منهج أصيل ومسلك سديد مستنبط من استقراء النص القرآني والحديث النبوي واجتهادات الصحابة.

4- لعلماء الغرب الإسلامي عموما وأبي إسحاق الشاطبي خصوصا إسهام عظيم في بناء صرح هذا الفقه وصياغة تنظير أصولي له، وفق منهج متكامل يسعف في فهم النص القرآني من خلال صحة الاستنباط، وسلامة تطبيقه على الواقع في ضوء حسن التنزيل وسداد التوقيع.

5- للإمام الشاطبي جهد يذكر فيشكر في تحقيق الموازنة بين جانب النظر وجانب التطبيق من خلال إبراز قواعد التنزيل ومسالك تسديده معتبرا إيّاه مرحلة من مراحل النظر الشرعي، يستندعها القصد إلى سلامة تنزيل الحكم على الواقع برعي مقصود الشارع في تحصيل المصالح وودفع المضار.

6- حسن تطبيق الأحكام وسداد تنزيل النصوص على الواقع وما يتجدد فيه من أحداث وقضايا ونوازل رهن بصيرة بالواقع من خلال تحقيق مناطات الأحكام وجودة نظر في المحال، مشفع بتمام الفهم لمقاصد الشريعة، وكمال النظر في مآلات الأفعال والتصرفات..

التوصيات:

1- ضرورة السعي نحو تأسيس فقه منهجي متكامل ضابط يكفل تنزيل نصوص الشريعة على الواقع المعقد في قضاياها والمتشعب في نوازلها، وذلك لأن مسألة استبعاد الشريعة من الحكم بدعوى عدم مواكبتها لتطور العصر تثار بقوة يدافع عنها أنصارها في ظل غفلة كثير من العاملين على بعث نهضة الأمة وبناء حضارتها وفق هدي الشريعة على هذا المتطلب الأساسي للنهوض الإسلامي متوهمين أن إخلاص العزم في الأخذ بأحكام الشريعة في كل مناحي الحياة كاف لأن يهدي الحياة وفق سننه.

2- ضرورة الاهتمام بما يزخر به التراث الفقهي والأصولي للمذهب المالكي عموما وتراث علماء الغرب الإسلامي خصوصا فيما تعلق ببناء منهج متكامل لتنزيل النصوص على الواقع وتسديد هذا التطبيق من خلال فقه النوازل الكاشف عن مناهج خاصة في التنزيل والتطبيق.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قائمة المصادر والمراجع

- 1- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح، دار ابن كثير، بيروت، لبنان.
- 2- العلمي عبد الحميد، قواعد التنظير المالي عند الإمام الشاطبي، مجلة الموافقات، العدد 17، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، الجزائر.
- 3- النجار عبد المجيد، نحو منهج أصولي لفقه الأقليات، مجلة المجلس الأوروبي للإفتاء، أيرلندا.
- 4- مالك بن أنس أبو عبد الله، الموطأ، رواية أبي مصعب الزهري، دار التأصيل، 2016.
- 5- ابن عبد البر يوسف بن عبد الله، الاستذكار، دار الفاروق الحديثة، سنة 2017.
- 7- الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، دار التأصيل، 2014.
- 8- الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، الموافقات، تحقيق وشرح عبد الله دراز، المكتبة التوفيقية، القاهرة (2003).
- 9- النجار عبد المجيد عمر، المنهج التطبيقي للشريعة الإسلامية تنزيلاً على الواقع الراهن، مطبعة جامعة الإمارات، أبو ظبي.
- 10- محمد بلتاجي حسن، منهج عمر بن الخطاب في التشريع، دار السلام، ط2، 1424هـ/2003م.
- 12- ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، الدار التونسية للنشر، تونس، دت، ص: 21، 22.
- 13- الغزالي، محمد أبو حامد، المستصفى في علم الأصول، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 14- الأمدى، أبو الحسن علي بن محمد، الأحكام في أصول الأحكام، دار الكتاب العربي، بيروت.
- 15- الفتوح، ابن النجار، شرح الكوكب المنير، تحقيق محمد الزحيلي، ونزبه حماد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1.
- 16- الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، فتاوى الشاطبي، تحقيق الأستاذ محمد أبو الأصفان، دار الغرب الإسلامي.
- 17- الونشريسي: أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المعرب.
- 18- الأبي، صالح عبد السميع، الثمر الداني، طبع باهتمام عبد الله اليسار، دت.
- 19- ابن رشد، أحمد بن محمد، بداية المجتهد، تحقيق محمد صبحي حسن حلاق، مكتبة ابن تيمية القاهرة
- 20- ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد، فتاوى ابن رشد، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- 21- أحمد بوعود، فقه الواقع أصول وضوابط، مركز البحوث والدراسات، قطر.
- 22- السيوطي، جلال الدين، الإقتان في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة ناشرون.
- 23- ابن القيم محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار ابن الجوزي.
- 24- ابن القيم محمد بن أبي بكر، زاد المعاد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة 14، 1986.
- 26- ابن فرحون، إبراهيم محمد، تبصرة الحكام، تحقيق جمال مرعشلي، دار عالم الكتب للنشر.
- 27- ابن منظور جمال الدين بن مكرم، لسان العرب دار صادر، بيروت، لبنان ط1، 1990.
- 28- الشاطبي: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، الاعتصام، دار ابن عفان السعودية.
- 29- التسولي أبو الحسن علي بن عبد السلام، البهجة في شرح التحفة، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- 30- الجويني، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله، البرهان في أصول الفقه، طبعة قطر.
- 31- الجويني، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله، الورقات، دار السلام، بيروت دت.
- 32- حسين حامد حسان، نظرية المصلحة في الفقه الإسلامي، مكتبة المتنبي بالقاهرة (د ت)،
- 33- الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، طبعة مدققة، مكتبة لبنان، بيروت
- 34- الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، دار الكلمة، مصر.
- 35- الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس منشورات دار مكتبة الحياة بيروت.
- 36- الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس، الرسالة، تحقيق أحمد شاکر، طبعة مصطفى الحلبي.
- 37- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، مذكرة في أصول الفقه، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.
- 38- الشنقيطي، عبد الله بن إبراهيم العلوي، نشر البنود على مراقي السعود، نشر بإشراف اللجنة المشتركة لإحياء التراث الإسلامي بين حكومتي دولي الإمارات والمغرب.
- 39- النجار عبد المجيد عمر، فقه تطبيق أحكام الشريعة عند الإمام الشاطبي، مجلة الموافقات،
- 41- عثمان بلخير، البعد التنزيلي في التنظير الأصولي عند الشاطبي رسالة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية، جامعة وهران.
- 42- فتحي الدربي، المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق ط2.
- 43- النجار عبد المجيد، فقه التدين فهما وتنزيلاً، مطبعة فضالة، المغرب ط. 1410
- 44- بشير بن مولود جحيش الاجتهاد التنزيلي، تقديم عمر عبيد حسنة، المكتبة الشاملة .

ولا ابتداءً أو من جهة الحياة الاجتماعية بالإهتمام بما أمر به سبحانه وتعالى بما يخدم الروابط الحميمة داخل الأسرة لتدوم عشتها، والأصرة الاجتماعية داخل المجتمع المسلم لتدوم ألفتة وتقوى شوكتة، بل اهتم القرآن حتى بمنهج التعامل مع غير المسلمين؛ لذلك آلى أهل التفسير عامة وأهل المغرب منهم خاصة أهمية بالغة لمعالجة القضايا بإسقاط أي القرآن على الواقع المعاش؛ فيستنبطون منها أحكاماً تصلح أحوالهم ودلالات تضبط صلتهم فيما بينهم، ومن ذلكم العلماء مفسر الديار التونسية الإمام محمد الطاهر بن عاشور -عليه رحمة الله- فقد اعتنى بهذا الجانب في تفسيره التحرير والتنوير، سواء في مقدمة تفسيره بذكر جانب من ذلك أو في ثنايا تحريره بالتطبيق العملي لما دلّت عليه أي القرآن بإسقاطها على واقع المجتمعات بغية إصلاح ما فسد منها من عقائد وعبادات وأخلاق.

وموضوع بحثي مندرج في إطار المحور الخامس من محاور هذا الملتقى بعنوان: توظيف تنزيل النص القرآني عند ابن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير.

إشكالية موضوع البحث:

لكل بحث وإن قصر إشكالية تطرح في مخيلة الباحث تبعث فيه حب الاطلاع، وبحث حثيث علّه يظفر بإجابة تروي غليله على تساؤلات كثيرة مندرجة تحت إشكال رئيس الذي هو بمثابة شرارة انقذاح الفكرة في فؤاده وفكره، ولعل إشكالية بحثي الأساسية تمحورت في: هل كانت لابن عاشور عناية بتوظيف وتنزيل النص القرآني على واقع الناس؟ وللإجابة عن هذا الإشكال لابد من التعرض بالإجابة على تساؤلات فرعية ألخصها النقاط الآتية:

* كيف تعامل ابن عاشور مع النصوص القرآنية في ربطها مع الواقع في تفسيره؟

* ما هي الجوانب التي مسّها ابن عاشور بتنزيل النص القرآني عليها بغية إصلاحها؟

* ما هي ثمرة إسقاط وتنزيل أي القرآن على الواقع الذي يعيشه الناس؟

أهمية موضوع البحث:

تتجلى أهمية الموضوع في النقاط الآتية:

* تعلّقه بأصل التشريع الأول ألا وهو كتاب الله ﷻ.

* إبراز جهود أحد العلماء المغاربة في خدمة هذا الجانب من التفسير والمقاصد القرآنية.

* تفصيل وبيان لنماذج تطبيقية من تفسير التحرير والتنوير في تنزيل بعض آيات

القرآن على الواقع.

* دراسة هذا الموضوع فيه بيان لمقصد من مقاصد القرآن الكريم المتمثل في الاهتمام

بأحوال المجتمع المسلم والرقى به في درجات الرفعة والقوة.

الدراسات السابقة:

أما عن الدراسات السابقة فقد عثرت على ملخص دراسة متمثلة في مقال للباحثة خلود الكيلاني بمعية الدكتور عبد الله أحمد الزيوت منشور بتاريخ سبتمبر 2021 بجامعة الأردن تحت عنوان تنزيل الآيات على الواقع عند ابن عاشور (الناحية الاجتماعية

والاقتصادية نموذجا) وهي بلا شك أقرب دراسة، إلا أنني لم أتمكن من تنزيل المقال بالكامل لعدم إتاحتها لأطلع على ما حوى من نقاط بحثية، ثم إني وجدت دراسة ثانية للدكتور عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر تحت عنوان تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين (دراسة وتطبيق) وقد قسمه إلى قسمين افتتحهما بتمهيد عرف فيه بمفردات البحث، وجعل القسم الأول للدراسة النظرية وضمه ثلاثة فصول وهي:

* الفصل الأول: أبان فيه عن معنى التنزيل وعلاقته بمسائل علوم القرآن.

* الفصل الثاني: تطرق فيه إلى نشأة تنزيل الآيات على الواقع، فوائده، حكمه وأنواعه.

* الفصل الثالث: تطرق فيه إلى طريقة القدامى في التنزيل.

ثم أتبعه بقسم ثان فجعله لتطبيق بعض المعاصرين لهذا التنزيل، وضمه فصلين:

* الفصل الأول: جعله لتطبيق ظاهرة التنزيل في تفسير المنار.

* الفصل الثاني: جعله لتطبيق ظاهرة التنزيل في مجالس الذكر.

ثم ختم موضوعه بخاتمة ذكر فيها ملخص بحثه ونتائجه.

ويختلف بحثي عن البحثين المذكورين، كونه يدرس هاته الظاهرة عند ابن عاشور بتنزيل آي القرآن وتوظيفها في الواقع بشكل عام.

المنهج المتبع في البحث:

اعتمدت في بحثي على منهج الاستقراء الجزئي، وذلك باختيار مواضع من تفسير التحرير والتنوير حيث

طبق ابن عاشور هاته الظاهرة، ثم درستها معتمدا في ذلك على المنهج التحليلي.

المنهجية المتبعة في كتابة البحث:

سلكت في العرض طريقة ذكر اسم السورة ورقم الآية بالمتن، وتخريج الأحاديث والآثار بالهامش مكتفياً في التخريج بالصحيح أو الصحيحين إن كان الحديث فيهما، وإن لم يوجد فيهما أو في أحدهما فأعزوه إلى كتب السنن أو غيرها من كتب الحديث المعتمدة، وكذلك الحال بالنسبة للنقول من كتب أهل العلم أذكر اسم الكتاب ومؤلفه ومن حققه إن وُجد ثم أذكر الجزء والصفحة وأتبعها بذكر دار النشر وسنة الطبع وهذا يكون أول مرة أنقل فيها من الكتاب، لأكتفي فيما بعد إن عاودت النقل منه باسم المؤلف والمؤلف المشهورين بهما، والجزء والصفحة فقط. كما أنني استعملت علامات الترقيم حسب ما يقتضيه المقام وتستوجبه منهجية كتابة البحوث.

وصف عام لخطة البحث:

افتتحت البحث بمقدمة اشتملت على التعريف بالموضوع وبيان أهميته والإشكالية التي يتمحور عليها مع ذكر بعض الدراسات السابقة في الموضوع وغيرها من عناصر المقدمة كما سترأها، ثم ثنيت بمبحث تمهيدي عرّجت فيه على التعريف بالكلمات المفتاحية المكونة لعنوان البحث، مع ذكر ترجمة وجيزة لابن عاشور.

قسمت صلب الموضوع إلى مبحثين:

خصصت المبحث الأول بدراسة نماذج تطبيقية لابن عاشور حيث وظف النص القرآني ونزله على واقع عصر سابق، وثبت بآخر فجعلته لدراسة بعض النماذج التطبيقية حيث نزلها ابن عاشور على الواقع الحديث.

ثم ختمت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهمّ النتائج المتوصّل إليها مع بعض التوصيات التي ظهرت لي من خلال معالجي للبحث.

هذا وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يغفر لنا الزلّات ويعفو عن السقطات والفلتات، إنّه ولي ذلك والقادر عليه.

المبحث التمهيدي: التعريف بالكلمات المفتاحية للبحث

مع ترجمة موجزة لابن عاشور

المطلب الأول: التعريف بالكلمات المفتاحية للبحث.

يرتكز عنوان بحثي على كلمتين هما: النص القرآني والواقع.

أولاً: تعريف النص القرآني: النص القرآني مركب إضافي يستوجب تعريفه تعريفه حديه المكون منهما أولاً.

النص لغة: النون والصاد أصل صحيح يدلّ على رفع وارتفاع وانتهاء في الشيء. منه قولهم نصّ الحديث إلى فلان: رفعه إليه. والنصّ في السير أرفعه...، ونصّ كل شيء: منتهاه¹. وقال في اللسان: "النصّ: رفعك الشيء. نص الحديث ينصّه نصّاً: رفعه. وكل ما أظهر، فقد نُصّ"².

من خلال ما عرضت من التعريف اللغوي للنص يظهر أنّه يدور حول ثلاثة معاني وهي: الرفع والانتهاء والظهور. إذن فالنص لغة: ما ازداد رفعة في الظهور حتى بلغ منتهاه. النص اصطلاحاً: لا شك أنّ المعنى الاصطلاحي للنصّ مستمدّ من معناه اللغوي؛ لذلك قيل في تعريفه:

هو ما ازداد وضوحاً على الظاهر لمعنى المتكلم، حتى لا يحتمل إلّا وجهاً واحداً لا يقبل التأويل³.

القرآن لغة: قال في اللسان: "القرآن معنى الجمع، وسي قرآنا لأنّه يجمع السّور، فيضمّها. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (القيامة: 16)، أي جمعه وقراءته، ﴿

1 - معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (356/5)، دار الفكر، ط: 1399هـ / 1979م.

2 - لسان العرب، ابن منظور، (97/7)، دار صادر - بيروت، ط: 3: 1414 هـ

3 - ينظر: كتاب التعريفات، الجرجاني، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ص 241، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ط 1: 1403 هـ / 1983م. والتعريفات الفقهية، محمد البركتي، ص 228، دار الكتب العلمية، ط 1: 1424 هـ / 2003م.

بِإِذَا فَرَائِنُهُ قَاتِبُغُ فُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ (القيامة: 17)، أي قراءته... وقرأت الشيء قرأنا: جمعته وضممت بعضه إلى بعض¹

القرآن شرعا: هو المنزل على الرسول ﷺ المكتوب في المصاحف المنقول عنه نقلاً متواتراً بلا شبهة².

بعد تعريفي لكلا حدي المركب الإضافي يمكنني أن أعرف النص القرآني فأقول:
النص القرآني: هو المنزل على الرسول ﷺ المكتوب في المصاحف المنقول عنه نقلاً متواتراً القطعي الدلالة.

ثانياً: تعريف الواقع

الواقع لغة:

قال في مقاييس اللغة: "وقع: الواو والقاف والعين أصل واحد يرجع إليه فروعه، يدل على سقوط شيء. يقال: وقع الشيء وقُوعاً فهو واقعٌ، والواقعة: القيامة، لأنها تقع بالخلق فتغشاهم"³.

وقال ابن منظور: "وقع على الشيء ومنه يقع وقعا ووقوعا: سقط،... والواقعة: النازلة من صروف الدهر...، وواقع المرأة ووقع عليها. جامعها"⁴.

من خلال ما نقلت عن أهل اللغة في لفظ "الواقع" يتبين أنه يدور حول النزول والسقوط والغشيان، فالواقع إذن هو ما حل بالمجتمع من أمور وحوادث فتعمهم وتغشاهم كأنها بهم لصيقة.

الواقع اصطلاحاً:

الواقع بشكل عام أمر متعارف عليه بين الناس ويقصدون به الحال التي يكون عليها أمرهم، وهو بلا شك مستمد من معناه اللغوي من حلول الأمر وغشيانه المجتمع.

فإذا تقرر هذا يمكنني أن أعرف الواقع اصطلاحياً فأقول:

وقد عرّفه الضامر بقوله: "الواقع: هو عبارة عن السنن الإلهية والأفعال الإنسانية الحاصلة في الزمن المعاصر"⁵.

فتقييد الضامر الواقع بما وقع من السنن الإلهية والأفعال الإنسانية في الزمن المعاصر، هو المقصود عند الإطلاق، لكن قد يكون من أهل التفسير ممن ينزل بعض الآيات على واقع

1 - لسان العرب، ابن منظور، (128/1).

2 - التعريفات، الجرجاني، ص 174. والتعريفات الفقهية، محمد البركي، ص 172 ببعض التصرف.

3 - مقاييس اللغة، ابن فارس، (133-134/6).

4 - لسان العرب، ابن منظور، (402-405/8).

5 - تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين دراسة وتطبيق، عبد العزيز الضامر، ص 29، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط1: 1428هـ/ 2007م.

زمن مضى كما سأورده وتجده في هذا البحث.
إذا تقرّر هذا فيمكنني القول بأنّ الواقع: هو الحال التي يكون عليها أمر الناس وتغشاهم
من خير أو شر.

المطلب الثاني: ترجمة موجزة لابن عاشور

أولاً: اسمه، نسبه، مولده ونشأته الأولى¹:

هو محمد الطاهر بن الشيخ محمد بن الشيخ محمد الطاهر بن الشيخ محمد بن
الشيخ محمد الشاذلي بن العالم الصالح عبد القادر بن العالم الزاهد الشيخ محمد بن
عاشور... وقد برز في هذه العائلة جدّ مترجمنا محمد الطاهر بن عاشور لتقلده مناصب
هامّة في القضاء والإفتاء والتدريس والإشراف على الأوقاف الخيرية، وغيرها. كما برز والد
المترجم له محمد بن عاشور الذي تولى رئاسة مجلس دائرة جمعية الأوقاف.

وقد استحكمت الصلّة بين الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الجدّ وتلميذه العالم
محمد العزيز بوعتّور، نتج عنها زواج مبارك بين محمد بن عاشور وابنة الشيخ محمد العزيز
بوعتّور فاطمة، فانجبا صاحب ترجمتنا الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الحفيد.

ولد محمد الطاهر بن عاشور بالمرسى وهي مدينة جميلة قرب العاصمة التونسية، في
بيت جدّه لأُمّه، فنشأ في رحاب العلم، حيث ابتدأ سيرورته بحفظ القرآن الكريم على يد
الشيخ المقرئ محمد الخياري، ثم حفظ مجموعة من المتون العلمية كالأجرومية في النحو
وابن عاشر في الفقه المالكي وغيرها.

ثانياً: حياته العلمية والعملية:

بعد بلوغ ابن عاشور سن الرابعة عشر من عمره وقد سبق له أنه حفظ القرآن وبعض
المتون العلمية دخل جامع الزيتونة الأعظم، وشرع ينهل من معينه بتوجيه من والده وجده
لأُمّه وأساتذته، فقرأ القطر والمقدمة والمكودي ولامية الأفعال وغيرها في النحو، وقرأ
الدمهوري على السمرقندية والتلخيص بشرح المطول للسعد وغيرهما في البلاغة، ودرس المزهر
للسيوطي والحماسة بشرح المرزوقي والمثل السائر لابن الأثير في اللغة، وقرأ الدردير وميارة على
المرشد والكفاية على الرسالة والتاودي على التحفة في الفقه، وقرأ الخطاب على الورقات
والتنقيح على القرافي وغيرهما في أصول الفقه، ودرس الصحيحين وغيرهما في الحديث، إلى
جانب المنطق والتاريخ والسيرة وعلم الكلام حتى تكونت له مكنة ومملكة علمية متنوعة.

وقد تتلمذ عن شيوخ عدة منهم:

- جدّه لأُمّه الشيخ الوزير محمد العزيز بوعتّور: فهو بمثابة الشيخ الأول والموجه لبسطه.
- عمر بن الشيخ: أخذ عنه شرح كتاب المواقف للإيجي، كما تلقى عنه دروس تفسير

1- محمد الطاهر بن عاشور، علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلموه، إياد خالد الطّباع، ص 22-24، دار
القلم، ط 1: 1426هـ/2005م.

البيضاوي.

- الشيخ سالم بوحاجب: درس عليه كتب الحديث والسنة مثل القسطلاني على البخاري، والزرقاني على الموطأ.¹

بعد إحراز صاحب ترجمتنا على شهادة التطوع سنة 1317 هـ، انتصب للتدريس بالجامع الأعظم، وفي سنة 1320 هـ ارتقى إلى رتبة مدرس من الطبقة الثانية، وبعدها بسنة واحدة انتدب للتدريس بالمدرسة الصادقية وبقي بها إلى سنة 1351 هـ ثم بقي يتدرج في المسؤوليات إلى أن عين عميدا للجامعة الزيتونية إثر استقلال تونس سنة 1376 هـ وبقي في هذا المنصب إلى غاية 1380 هـ.²

وقد تتلمذ عليه تلاميذ كثر منهم:

- محمد الصادق بن الحاج محمود.
- الشطي محمد الصادق بن محمد.
- محمد الفاضل بن محمد الطاهر بن عاشور.
- ابن شعبان أبو الحسن بن شعبان.³

ثالثا وفاته:

بعد حياة ملؤها التعليم والعلم والنشاط والعطاء يفارق الإمام محمد الطاهر بن عاشور الحياة لينتقل إلى الرفيق الأعلى عن عمر بلغ التسعين سنة ويزيد عنها بأربع، وذلك في ضاحية المرسى قرب تونس العاصمة يوم الأحد الثالث عشر من شهر رجب سنة 1394 هـ، ودفن بمقبرة الزلاج بتونس.⁴

المبحث الثاني: توظيف وتنزيل النص القرآني على الواقع.

اعتنى ابن عاشور بهذا المقصد النبيل، حتى جعله أولى المقاصد الشرعية للقرآن الكريم المتمثلة في الإصلاح العام، كالإصلاح العقدي والأخلاقي وغيرهما بدءاً من اللبنة الأولى المكونة للمجتمع؛ لذلك جمع بين التنظير له في مقدمة تفسيره، والتطبيق العملي بتنزيل آياته على الحياة الاجتماعية بغية إصلاحها وترميم ما فسد منها خلال تحريره، قال في المقدمة الرابعة: "إِنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى كِتَابًا لِصَلَاحِ أَمْرِ النَّاسِ كَافَّةً رَحْمَةً لَهُمْ لَتَبْلِيغِهِمْ مَرَادَ اللَّهِ مِنْهُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى

1 - ينظر شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وأثاره، بلقاسم الغالي، ص 37-46، دار ابن حزم، ط 1: 1417 هـ/1996 م.

2 - ينظر محمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلموه، إياد خالد الطباع، ص 50-55.

3 - ينظر المرجع نفسه، ص 44-49.

4 - ينظر: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وأثاره، بلقاسم الغالي، ص 68. ومحمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلموه، إياد خالد الطباع، ص 87.

لِلْمُسْلِمِينَ ﴿ (النحل: 89)، فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرائية، فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتركيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر. وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولاً من الصلاح الفردي إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه...¹.

إذن فالإصلاح العام مبدؤه إصلاح الفرد في جميع الميادين خاصة تلك التي تكون ذات صلة وثيقة ومباشرة بالمجتمع كالإصلاح الأخلاقي الذي من شأنه حماية أصرتهم الاجتماعية؛ لما له من أثر في توادهم وتراحيمهم، ولا أدلّ على ذلك من قول النبي ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»².

فانظر كيف جعل النبي ﷺ خلق إفشاء السلام بين أفراد المجتمع المسلم سبب في تحقيق نشر المحبة والألفة بينهم ليكون مجتمعاً قوياً متماسكاً.

ولبيان عناية القرآن بهذا المقصد أولاً، ثم لإظهار جهود ابن عاشور أحد علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع ثانياً، ولما كان من منهج ابن عاشور تقسيم أي القرآن في هذا المجال إلى قسمين، قسم منها جعل تنزيلها على وقت مضى، وقسم ثان جعل تنزيله على العصر الحديث حسب حوادث الزمان وتجدد الآفات؛ لذا قسمت هذا المبحث إلى مطلبين ذكرت في الأول منهما أنواع تنزيل النص القرآني وفوائده عموماً، وجعلت الثاني منهما في ذكر بعض الأمثلة التطبيقية من تفسير التحرير والتنوير حيث وظف ابن عاشور النص القرآني في الإصلاح العقائدي والأخلاقي وغيرهما.

المطلب الأول: أنواع تنزيل النص القرآني على الواقع وفوائده³.

الفرع الأول: أنواع تنزيل النص القرآني على الواقع.

نزل القرآن الكريم تبياناً لكل شيء ومصلحاً لكل فساد ظهر وسيظهر، فهو كتاب جامع لكل خير، مصلح لكل مفسد مقوم لكل معوج، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: 89)؛ لذلك تنوعت تنزيلاته على الواقع بحسب الأحداث والوقائع، وفيما يلي أذكر أنواع التنزيل التي استعملها أهل العلم.

- 1 - التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (38/1)، الدار التونسية للنشر - تونس، ط: 1984هـ.
- 2 - رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سبب لحصولها، رقم: 93، (44/1)، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: 1427 هـ/2006م.
- 3 - ينظر بحث هذا المطلب في تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر، ص 71-88.

أولاً: تنزيل النص القرآني باعتبار التصريح أو التلميح.
أ- تنزيل الآيات على الواقع تصريحاً.

عادة ما يصرّح أهل التفسير بتنزيل النص القرآني على واقع ما فيذكر ضمن تفسيرها الحادثة أو القضية المراد معالجتها بتلك الآية، ويعبر عن التنزيل بعبارة صريحة كأن يقول: وهذا ما وقع في مجتمعنا من كذا وكذا، أو ما حدث في الزمن الفلاني أو ما إلى ذلك من العبارات الدالة صراحة على توظيف النص القرآني وتنزيله على تلك الحادثة، وهذا النوع هو السائد والذائع في كتب التفسير.

ومثال ذلك: ما جاء في التحرير والتنوير وهو يتحدث عن الاختلاف والافتتال الواقع بعد الرسل وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلْ أَلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا﴾ (البقرة: 251)، قال ابن عاشور: "... كما وقع لبني إسرائيل في عصور كثيرة...، وكما وقع للنصارى في عصور..."¹.

ب- تنزيل الآيات على الواقع تلميحاً.

هذا النوع من التنزيل واقع بدرجة أقل من سابقه، ويكون توظيف النص القرآني فيه تلويحاً وتلميحاً لا تصريحاً، ووقوعه بهذا الشكل يكون لأمر يقصدها المفسر من عدم التشنيع بالشيء المراد تصحيحه أو الفساد المراد إصلاحه، ويكون عن طريق إشارة المفسر أن هذا الأمر واقع في عصره أو مجتمعه من غير تشهير فيصالح المخالفة من غير إحداث فتنة. ومثال ذلك ما جاء عن ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ بِإِنَّمَا إِلَهُمُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 180)، حيث قال: "... والمقصود من هذا القصر إبطال تعلل بعض الناس بترك الوصية بعلة خيفة ألا ينفذها الموكل إليهم تنفيذاً..."².

فأهم ابن عاشور الواقع من بعض من هو يعرفهم وربما أنه أستفتي من بعضهم في هاتاه المسألة فقال: "تعلل بعض الناس" ليصالح هاته المخالفة من غير تشهير ممن وقع في مثل هذا الإثم.

ثانياً: تنزيل النص القرآني باعتبار الكلية أو الجزئية.

أ- تنزيل النص القرآني باعتبار الكلية.

المقصود بالتنزيل الكلي هو توظيف النص القرآني في واقعة باعتبار ما دل عليه كليا، فيذكر المفسر الحادثة أو القضية بما يطابق معنى الآية تماماً.

ومثال ذلك ما جاء عن ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ

1 - ينظر التحرير والتنوير، ابن عاشور، (10/3).

2 - المرجع نفسه، (152/2).

لِالْفَرْيَةِ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرَ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ قَبْدَلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي هُمْ بِأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (البقرة: 57-58)، حيث ذكر قصة وقعت لبني إسرائيل ثم أردفها بقوله: "فهذه الآية تنطبق على هذه القصة تمام الانطباق..."¹.

ب-تنزيل النص القرآني باعتبار الجزئية.

المقصود بالتنزيل الجزئي هو أن يعتمد المفسر إلى النص القرآني فينزل بعض ما دل عليه على واقعة معينة.

ومثال ذلك: ما جاء عن ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيفًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 187)، حيث قال: "كان أكل المال بالباطل شنشنة معروفة لأهل الجاهلية بل كان أكثر أحوالهم المالية، فإن اكتسبهم كان من الإغارة ومن الميسر، ومن غصب القوي مال الضعيف، ومن أكل الأولياء أموال الأيتام واليتامى، ومن الغرر والمقامرة، ومن المراهبة ونحو ذلك، وكل ذلك من الباطل الذي ليس عن طيب نفس"².

فذكر ابن عاشور ما كان عليه أهل الجاهلية من أكل للأموال بالباطل دون ذكر ما دلت عليه أيضا من الإدلاء إلى الحكام بغية ذلك؛ فجعل إسقاط الآية على أهل الآية جزئيا.

الفرع الثاني: فوائد تنزيل النص القرآني على الواقع.

لا شك أن لكل مقصد من مقاصد القرآن الكريم فوائد وثمار تجنى من استغلاله وتطبيقه، ومن ذلك تنزيل وتوظيف النص القرآني على واقع الناس في جميع ميادين حياتهم، وسأذكر في هذا الفرع بعضا من الفوائد المستقاة من تطبيق أهل التفسير لهذا المقصد.

أولا: توثيق أبرز الأحداث التاريخية:

من خلال إسقاطات المفسر لأي القرآن على الواقع في زمنه الذي عاش فيه، يستفيد منه المؤرخ في توثيق الأحداث التي وقعت خلال تلك الفترة.

قال أحمد أمين: "فيظهر أن تفسير القرآن كان في كل عصر من العصور المتأخرة بالحركة العلمية فيه، وصورة منعكسة لما في العصر من آراء ونظريات علمية ومذاهب دينية...، حتى لتستطيع إذا جمعت التفاسير التي ألفت في عصر من العصور أن تتبين فيها

1 - المرجع السابق، (513/1).

2 - المرجع نفسه، (187/2).

مقدار الحركة العلمية وأي الآراء كان سائدا شائعا وأياها غير ذلك وهكذا¹.

ثانيا: تقريب معنى الآية من أفهام الناس.

فضرب المثل وتنزيل الآية على حادثة تقريب للفهم وتجلية لما قد يهيم من معنى عن كثير من الناس، ألا ترى أن الآية قد يفوت معناها كثيرا من المتدبرين لها، لكن بمعرفة سبب نزولها يظهر إجمالها ويتضح مرادها. وضرب المثل لها وتنزيل المفسر لها على واقعة معينة شبيه بالسبب الذي تنزل عليه الآية، وقديما قيل وبالمثال يتضح المقال. قال ابن تيمية: "ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب"².

ثالثا: ربط المسلم بأصل دينه الأول.

تنزيل آيات القرآن الكريم على الواقع الذي يعيشه المسلم لحل إشكالاته وتصحيح أخطائه، يستفاد منه ربط الفرد المسلم بالقرآن الكريم، فبه يحيى وإليه يلجأ في فك معضلاته، فإن فعل ذلك استقامت حياته قال تعالى: ﴿بِمَسِّ إِبْتِغَ هُدًى بَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْفِي﴾ (١٢١) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْفِتْمَةِ أَعْمًى ﴿ (طه: 121-122).

فهذه بعض الفوائد التي قد تستفاد من تنزيل النصوص القرآنية على الواقع الذي يعيشه المسلم.

المطلب الثاني: تنزيل النص القرآني على الواقع.

الفرع الأول: تنزيل النص القرآني على واقع عصر سابق.

تنزيل الآيات القرآنية وإن كان على واقع زمن سابق إلا أنه يحمل في طياته دعوة إلى الإصلاح العقدي والديني في الواقع الحديث؛ إذ القرآن كتاب هدى ونور صالح لكل زمان ومكان قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ (المائدة: 4)، لهذا كان القرآن دستور حياة لكل من أراد الاستقامة، ومصلح كل من أراد الإصلاح في جميع ميادين الحياة. وفيما يلي سأورد بعض النماذج التطبيقية لابن عاشور من خلال تفسيره.

النموذج الأول: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا ابْتِغَى الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ

مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا﴾ (البقرة: 251).

1 - فجر الإسلام، محمد أمين، ص 225، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة-مصر، ط 1 ولا سنة نشر.

2 - مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، ص 16، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط: 1390هـ/ 1980م.

الدراسة:

قال ابن عاشور في تفسيرها: "يجوز أن يكون الضمير المضاف إليه في قوله: ﴿مِنْ بُغْدِهِمْ﴾ مراداً به جملة الرسل أي ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعد أولئك الرسل من الأمم المختلفة في العقائد مثل اقتتال اليهود والنصارى في اليمن في قصة أصحاب الأخدود، ومقاتلة الفلسطينيين لبني إسرائيل انتصاراً لأصنامهم، ومقاتلة الحبشة لمشركي العرب انتصاراً لبيعة القليس التي بناها الحبشة في اليمن، والأمم الذين كانوا في زمن الإسلام وناووه وقتلوا المسلمين أهلهم، وهم المشركون الذين يزعمون أنهم على ملة إبراهيم واليهود والنصارى....، ويجوز أن يكون ضمير ﴿مِنْ بُغْدِهِمْ﴾ ضمير الرسل على إرادة التوزيع، أي الذين من بعد كل رسول من الرسل، فيكون مفيداً أنّ أمة كل رسول من الرسل اختلفوا واقتتلوا اختلافاً واقتتالاً نشأ من تكفير بعضهم بعضاً كما وقع لبني إسرائيل في عصور كثيرة بلغت فيها طوائف منهم في الخروج من الدين إلى حد عبادة الأوثان، وكما وقع للنصارى في عصور بلغ فيها اختلافهم إلى حد أن كفر بعضهم بعضاً، فتقاتلت اليهود غير مرة قتالاً جرى بين مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل، وتقاتلت النصارى كذلك من جراء الخلاف بين اليعاقبة والملكية قبل الإسلام، وأشهر مقاتلات النصارى الحروب العظيمة التي نشأت في القرن السادس عشر من التاريخ المسيحي بين أشياع الكاثوليك وبين أشياع مذهب لوثير الراهب الجرمانى الذي دعا الناس إلى إصلاح المسيحية واعتبار أتباع الكنيسة الكاثوليكية كفاراً لادعائهم ألوهية المسيح، فعظمت بذلك حروب بين فرنسا وأسبانيا وجرمانيا وانكلترا وغيرها من دول أوروبا. والمقصود تحذير المسلمين من الوقوع في مثل ما وقع فيه أولئك¹.

فانظر كيف نزل ابن عاشور هذا النص القرآني على أُمم كثيرة ممن سبقتنا، وضرب بهم المثل في افتتانهم واقتتالهم، الناتج من خراب العقيدة، وكل ذلك -أي تنزيله النص القرآني- قاصد به الإصلاح العقائدي للمجتمع المسلم وتحذيره مما وقعوا فيه من الاختلاف والفرقة.

النتيجة:

توظيف ابن عاشور لهذا النص القرآني وتنزيله على واقع أُمم خلت وما وقع بينهم من فساد عقائدي نتج عنه اختلاف وتناحر، جعله بمثابة البلمس الذي يرمي إلى الإصلاح العقائدي للفرد حتى يتحقق لهم الاجتماع وتبعد عنهم الفرقة والاختلاف.

النموذج الثاني: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَائِكُمُ﴾ (البقرة: 281).

الدراسة:

قال ابن عاشور في تفسيرها: "قال القرطبي: "يؤخذ من هذه الآية أنه يجوز للإمام أن

1 - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (3م9-10).

يقيم للناس شهوداً، ويجعل لهم كفايتهم من بيت المال، فلا يكون لهم شغل إلا تحمل حقوق الناس حفظاً لها"¹، قلت -أي ابن عاشور-: وقد أحسن قضاة تونس المتقدمون، وأمراؤها، في تعيين شهود منتصبين للشهادة بين الناس، يؤخذون ممن يقبلهم القضاة ويعرفونهم بالعدالة، وكذلك كان الأمر في الأندلس، وذلك من حسن النظر للأمة، ولم يكن ذلك متبعاً في بلاد المشرق، بل كانوا يكتفون بشهرة عدالة بعض الفقهاء وضبطهم للشروط وكتب الوثائق فيعتمد عليهم القضاة، ويكفون إلهم ما يجري في النوازل من كتابة الدعوى والأحكام، وكان مما يعد في ترجمة بعض العلماء أن يقال: كان مقبولاً عند القاضي فلان"².

فتوظف ابن عاشور لهاته الآلية وتنزله إياها على مجتمع بلده تونس في زمن متقدم، بتحسينه فعل القضاة المتقدمين وأمرائها من اختيار شهود عدولاً يستعملون في الشهادة بين الناس، فجعله من حسن النظر والتدبير للأمة في تحقيق العدل بينهم وإلحاق كل ذي حق بحقه، فيه إحياء لإصلاح ما فسد من المنظومة القضائية عندهم في زمنه، ودعوة لمن له الأمر أن يتأسي بمن مضى في تحقيق العدل عبر تعيين من هو حقيق بهذا الأمر ولو جعل لهم جُعل من بيت المال لكفاية مؤنتهم ومعيشتهم، فلا يكون لهم شغل إلا تحمل حقوق الناس حفظاً لها كما قال القرطبي -رحمه الله-.

ولبيان أهمية العدل في الإصلاح العام قال ابن عاشور في كتابه أصول النظام الاجتماعي: "وحسن العدل

مستقر في الفطرة فإن كل نفس تنشرح لمظاهر العدل ما كانت النفوس بمعزل عن هوى يغلب عليها في قضية خاصة أو في مبدأ خاص تنتفع فيه بما يخالف العدل... إلى أن قال: وافقت الشرائع والحكماء على التنويه بالعدل وأهميته وكفاك قول الحكيم أرسططاليس في دائرته: العدل مألوف به صلاح العالم"³.

النتيجة:

تنزيل هذا النص القرآني على واقع مجتمع مضى وما حقق من آثار حسنة فيه إيماء بتطبيقه في واقعنا اليوم لتحقيق العدل الذي هو أحد ركائز ودعائم وحدة وقوة المجتمع المسلم.

النموذج الثالث: في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا الَّذِينَ تَوَلَّيْتُمْ أَمْثَلُكُمْ ظَالِمٍ لِّنَفْسِهِمْ قَالُوا بِمِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً

1 - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (398/3)، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط 2: 1384هـ/1964م.

2 - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (113/3).

3 - أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ابن عاشور، ص 186، الشركة التونسية للتوزيع - تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر، ط 2. لا سنة نشر.

بَتَهَا جَرُّوْا بِهَا فَإِنَّهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٦﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٧﴾ (النساء: 96-97).
الدراسة:

قال ابن عاشور في تفسيرها: "وقد اتفق العلماء على أنّ حكم هذه الآية انقضى يوم
فتح مكة لأنّ الهجرة كانت واجبة لمفارقة أهل الشرك وأعداء الدين، وللتمكن من عبادة الله
دون حائل يحول عن ذلك، فلما صارت مكة دار إسلام ساوت غيرها...، غير أن القياس على
حكم هذه الآية يفتح للمجتهدين نظرا في أحكام وجوب الخروج من البلد الذي يفتن فيه
المؤمن في دينه، وهذه أحكام يجمعها ستة أحوال:

الحالة الأولى: أن يكون المؤمن ببلد يفتن فيه في إيمانه فيرغم على الكفر وهو يستطيع
الخروج، فهذا حكمه حكم الذين نزلت فيهم الآية، وقد هاجر مسلمون من الأندلس حين
أكرههم النصارى على التنصر، فخرجوا على وجوههم في كل واد تاركين أموالهم وديارهم
ناجين بأنفسهم وإيمانهم، وهلك فريق منهم في الطريق وذلك في سنة 902 م وما بعدها إلى
أن كان الجلاء الأخير سنة 1016 م¹.

اقتصرت على الحالة الأولى التي ذكرها ابن عاشور لما فيها من تنزيل الآية على واقع ذلك
الزمن، حيث هاجر المسلمون من الأندلس لما أكرههم النصارى على دينهم وعقيدتهم
الإسلامية، ففروا ناجين بدينهم، وحماية عقيدتهم ودينهم أصل حماية مجتمعهم المسلم
وبفقدانهما يحدث فيهم التفرق والتشردم، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا
تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَغْدَاءَ بَاءَلْتَبَيِّنَ فَلَّوْكُمْ فَبَاصْتَكُم
بِغَمَّتِهِ﴾ (آل عمران: 103).

قال ابن عاشور بعد أن ذكر جانبا من الإصلاح العقائدي في كتابه أصول النظام
الاجتماعي: "وأن أمة ينشأ اعتقاد دينها على هذه الأصول تنشأ لا محالة على عزة النفس،
والاهتمام بالاعتماد على استجلاب الأشياء من أسبابها، ورجاء الإعانة والبركة من الخالق،
وذلك يدرّب على قوة الإرادة والشعور بالرفعة عن التضييل والأوهام"².

فأصل الحفاظ على المجتمع الإسلامي هو إصلاح عقيدة الفرد داخل ذلك المجتمع؛
لذلك فرّ المسلمون -الذين تم تنزيل ابن عاشور الآية على حالهم- من الأندلس لما ضايقهم
النصارى في أصل دينهم ليبينوا مجتمعا متماسكا بعقيدة إسلامية تجمعهم ولا تفرقهم، وفي
هذا إيماء لتصحيح ما فسد من عقائد المسلمين في الوقت الحاضر والهجرة من بلد الكفار
إلى بلد المسلمين لحماية دينهم.

1 - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (178/5).

2 - أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ابن عاشور، ص 51.

النتيجة:

بناء على ما سبق فإن بناء مجتمع مسلم متماسك البنيان قويٌّ الأركان لا يكون إلا بالحفاظ على العقيدة الإسلامية لدى الفرد والمجتمع المسلم.

النموذج الرابع: في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ بَرَّوْا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام: 160).

الدراسة:

قال ابن عاشور في تفسيرها: "ووصف المشركين بأنهم فرقوا دينهم وكانوا شيعا: يؤذن بأنه وصف شنيع، إذ ما وصفهم الله به إلا في سياق الذم، فيؤذن ذلك بأن الله يحذر المسلمين من أن يكونوا في دينهم كما كان المشركون في دينهم، ولذلك قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: 11). وتفريق دين الإسلام هو تفريق أصوله بعد اجتماعها، كما فعل بعض العرب من منعهم الزكاة بعد رسول الله ﷺ فقال أبو بكر رضي الله عنه: (لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة)^{1،2}.

انظر كيف وظف ابن عاشور الآية الناهية عن التفرق ونزلها على فعل المرتدين بعد وفاة النبي ﷺ في منعهم الزكاة بحجة أنهم كانوا يعطونها للنبي ﷺ وقد توفّي، فقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه في تفريقهم بين عبادتين جليلتين من ركائز الإسلام وهي الصلاة والزكاة، وكان في منعهم الزكاة وتفريقها عن الصلاة سبيل للتفرق والتشردم وإضعاف وحدة المجتمع المسلم. ولا شك أن في ضعف الدين وذهاب أصوله عند كثير من المسلمين يضعف شوكتهم؛ لذلك حذر منه سبحانه وتعالى في كتابه في غير ما موضع.

وفي تنزيل ابن عاشور الآية على المرتدين الذين قاتلهم أبو بكر رضي الله عنه، فيه إيماء إلى تحذير المسلمين من الوقوع في مثل ما وقع أولئك من التفريق بين أصول الدين، ليحافظوا على وحدتهم المأمورين بإقامتها.

النتيجة:

بناء على ما سبق من البيان فإنّ توظيف ابن عاشور للآية وتنزيلها على واقع زمن سابق، فيه دعوة إلى الإصلاح العقائدي داخل المجتمع المسلم بتحذيره من الوقوع في مثل ما

1 - جزء من أثر طويل رواه البخاري في صحيحه، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، وقد أخرجه في عدة مواضع منها: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم 1399، (105/2)، دار طوق النجاة، ط 1: 1422هـ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، رقم 20، (31/1).

2 - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (8-193/194).

وقع فيه أولئك المرتدين.

الفرع الثاني: تنزيل النص القرآني على واقع العصر الحديث.

لما كان القرآن صالحا لكل زمان ومكان، كان تنزيل آيه الكريمة على واقع المجتمعات الإسلامية بغية إصلاح ما فسد منها من عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات أمرا مهما بل هو الطريق الصحيح في تشخيص الآفات التي يعاني منها المجتمع المسلم اليوم، وهو البلمس الحق في معالجة الأمراض الخرافية التي سادت مجتمعاتنا الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْفُورَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: 82)، لهذا اهتم علماء التفسير عامة وأهل الغرب منهم خاصة بهذا المقصد اهتماما كبيرا، وليبيان جانب من ذلك سأورد بعض النماذج التطبيقية لابن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير.

النموذج الأول: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ

﴿ (النساء: 32).

الدراسة:

قال ابن عاشور في تفسير الآية: "وقد أصبح هذا التمني في زماننا هذا فتنة لطوائف من المسلمين سرت لهم من أخلاق الغلاة في طلب المساواة مما جر أمما كثيرة إلى نحلة الشيوعية فصاروا يتخبطون لطلب التساوي في كل شيء ويعانون إرهابا لم يحصلوا منه على طائل. فالتمني عن التمني وتطلع النفوس إلى ما ليس لها جاء في هذه الآية عامًّا...، فكان من جوامع الكلم في درء الشرور. وقد كان التمني من أعظم وسائل الجرائم، فإنه يفضي إلى الحسد..."¹.

استغل ابن عاشور هاته الآية في التحذير من دعوى ظهرت في عصرنا الحديث والمتمثلة في طلب المساواة بين الرجل والمرأة في كل الميادين حتى لا يدع لكل جنس خاصيته، ولا شك أنها دعوة هدامة تنخر في وحدة المجتمع المسلم وأخلاقه؛ لهذا وظّف -رحمه الله- وأسقط النبي الموجود بالآية على الواقع السائد على طوائف من المسلمين لبيان سوء عاقبته المتمثلة في عدم حصول بغيتهم التي يأملون من جهة، ثم تفشي الحسد -الناجم عن ذلك- بين أفراد المجتمع من جهة أخرى، كما لا يخفى ما لصفة الحسد من أثر في انصداع وحدة المجتمع وضعف قوته.

فهذا التنازل شخص الداء ووصف الدواء وذلك بالنهي عن سلوك هذا المسلك في الجري وراء هاته الدعوات الخبيثة، ولكن بإعطاء كل ذي حق حقه كما قال ربنا ﷻ في تنمة الآية: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (النساء: 32).

1 - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (28/5).

النتيجة:

بناء على ما سبق بيانه فإن تنزيل ابن عاشور هاته الآية على الواقع الحديث تطبيق عملي في توظيف النصوص القرآنية على الواقع المعاش.

النموذج الثاني: في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ (المائدة: 35).

الدراسة:

ذكر ابن عاشور خلاف العلماء في اعتبار البادية والحضر في تسمية المحارب محارباً ثم قال: "والذي نظر إليه مالك هو عموم معنى لفظ الحاربة، والذي نظر إليه مخالفوه هو الغالب في العرف لندرة الحاربة في المصر. وقد كانت نزلت بتونس قضية لص اسمه «ناس» أخاف أهل تونس بحيله في السرقة، وكان يحمل السلاح فحكم عليه بحكم المحارب في مدة الأمير محمد الصادق باي وقتل شنقا بباب سويقة"¹.

تنزيل ابن عاشور آية الحاربة على واقعة حدثت عندهم بتونس، حيث نقّذ في المحارب الحكم الشرعي من اعتباره مفسداً في الأرض لإخافته الأمن وترويعه المواطنين بسليم أموالهم وخمله السلاح عليهم، إنما هي دعوة منه -رحمه الله- لولاة الأمور بمواصلة تطبيق هذا الحكم ليستبد الأمن في ربوع الوطن والمجتمع المسلم، ولا شك أن العمل على استتباب الأمن عامل رئيسي في الحفاظ على المجتمع المسلم ومن ثمة بناء مجتمع قوي.

النتيجة:

تنزيل ابن عاشور لآية الحاربة في إصلاح ما وجد في المجتمع من فقد الأمن وسلب للأموال، فيه معنى إصلاح هذا الفساد الأخلاقي الناجم في قوة تماسك المجتمع المسلم.

النموذج الثالث: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْءِ﴾ (النعام: 122).

(النعام: 122).

الدراسة:

قال ابن عاشور في معرض تفسيره الآية: "وهي مسألة -أي حكم الذبيحة التي لم يُسمَّ عليها- مختلف فيها بين الفقهاء على أقوال: أحدها: أن المسلم إن نسي التسمية على الذبح توكّل ذبيحته، وإن تعمد ترك التسمية استخفافاً أو تجنباً لها لم توكّل، وهذا مثل ما يفعله بعض الزوج من المسلمين في تونس وبعض بلاد الإسلام الذين يزعمون أن الجن تمتلكهم، فيتفادون من أضرارها بقرايين يذبحونها للجن ولا يسمون اسم الله عليها، لأنهم يزعمون أن الجن تنفر من اسم الله تعالى خيفة منه، (وهذا متفش بينهم في تونس ومصر) فهذه ذبيحة

لا تؤكل"¹.

تنزيل ابن عاشور هاته الآية على الواقع جاء عن طريق استنباطه من النهي المذكور في الآية عن أكل الذبيحة التي لم يسم عليها، معنى مناف لعقيدة من تعمد بعضهم لعدم التسمية على الذبيحة قاصدين بها قرايين للجن، وهذا العمل مناف بلا شك للإخلاص الذي أمر الله به في كتابه وأمر به رسوله ﷺ في سنته.

النتيجة:

توظيف ابن عاشور هذا النص في معالجة أمر متفشٍ في بلاده تونس وبلاد مصر من الذبح لغير الله، وحُكْمُه على هذا الفعل بالتحريم وتمثيله بما هو سائد هناك، هو توجيهه منه -رحمه الله- لترك مثل هاته الأمور المنافية لعقيدة المسلم.

النموذج الثالث: في تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلْيٍ﴾ (العلق: 2).

الدراسة:

قال ابن عاشور في تفسير لفظ ﴿عَلْيٍ﴾ في الآية الكريمة: "ومن إعجاز القرآن العلمي ذكر العلة لأنَّ الثابت في العلم الآن أن الإنسان يتخلق من بويضة دقيقة جدا لا ترى إلا بالمرآة المكبرة أضعافا تكون في مبدأ ظهورها كروية الشكل سابعة في دم حيض المرأة فلا تقبل التخلق حتى تخالطها نطفة الرجل فتمتزج معها فتأخذ في التخلق إذا لم يعقها عائق كما قال تعالى: ﴿مُخَلَّفَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّفَةٍ﴾ (الحج: 5)، فإذا أخذت في التخلق والنمو امتد تكورها قليلا فشابهت العلة التي في الماء مشابهة تامة في دقة الجسم وتلونها بلون الدم الذي هي سابعة فيه وفي كونها سابعة في سائل كما تسبح العلة"².

أدرجت هذا المثال وهو بمثابة تنزيل النص القرآني على واقع ما استحدثت من العلوم، لبيان أنَّ هذا الصنف من توظيف الآي القرآني في بيائها يندرج ضمن تنزيل النص القرآني على ما تُوصَل إليه من دقائق العلوم، وهو المسعى بالتفسير العلمي للقرآن. وفي هذا يقول الضامر معللا اقتصاره في كتابه على تنزيل النص على ما له صلة بالمجتمعات: "ولم أطرُق إلى التفسير العلمي والاكتشافات الحديثة التي اجتهد فيها كثير من الباحثين بتنزيل الآيات عليها، لأنه موضوع شائك..."³.

وهو بقوله هذا يقر بهذا النوع من التنزيل وعدوله عنه إنما كان لأسباب وقد ذكرها هناك.

أعود إلى تفسير ابن عاشور للآية، حيث ذكر أن العلة التي هي أصل خلقة الإنسان، وتنزيله على ما توصل إليه العلم الحديث من استكشاف تلكم الجسم السابح في الدم

1 - المرجع السابق، (8/40).

2 - المرجع السابق، (30/438).

3 - تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر، ص 15.

والمكُون بعد اجتماع نطفة الرجل ببويضة المرأة.

وفي هذا التنزيل والتوظيف دعوة من ابن عاشور إلى اعتبار ما أخبر به القرآن من حقائق علمية لم تكن معروفة قبل الدّال على مصداقيته وأنه من لدن حكيم عليم.
النتيجة:

تنزيل النص القرآني واقع ما استحدثت من العلوم فيه بيان لمصدريّة القرآن وأنه كلام الله ﷻ ليس من كلام البشر.
الخلاصة:

من خلال ما اطّلت وسقت من الأمثلة التطبيقية لتنزيل النص القرآني على الواقع عند ابن عاشور تبين أن جل اهتمامه كان منصبا على الإصلاح العقدي؛ إذ هو ركيزة كل إصلاح وقاعدته التي يبني عليها كل إصلاح سواه، قال رحمه الله: "وكان إصلاح الاعتقاد أهم ما ابتدأ به الإسلام، وأكثر ما تعرض له وذلك لأن إصلاح الفكرة هو مبدأ كل إصلاح ولأنه لا يرجى صح لقوم تطلّخت عقولهم بالعقائد الضالة، وخسّئت نفوسهم بأثار تلك العقائد المثيرة: خوفا من لا شيء، وطمعا في غير شيء، وإذا صلح الاعتقاد أمكن صلاح الباقي لأن المرء إنسان بروحه لا بجسمه"¹.

الخاتمة

وفيها أهم النتائج والتوصيات
النتائج:

- 1- طريقة ابن عاشور في تنزيل الآية على الواقع تمثلت في ربط ما دلت عليه الآية مع ما هو واقع في زمن من الأزمنة القديمة والحديثة.
- 2- أهم الجوانب التي اعتنى بها ابن عاشور بالإصلاح عن طريق تنزيل النص القرآني على الواقع هو الجانب العقدي الذي هو أساس كل إصلاح.
- 3- اهتمام علماء المغرب العربي ومنهم ابن عاشور بتوظيف تنزيل النص القرآني على الواقع بغية الإصلاح العقدي والأخلاقي وغيرهما على مستوى الفرد والمجتمع.
- 4- تنزيل النص القرآني على الواقع وإن كان مسألة اجتهادية إلا أنها تشبه إلى حدّ بعيد سبب النزول في بيان معنى الآية وتقرّيرها من فهم الناس.
- 5- من فوائد تنزيل النصوص القرآنية على الواقع ضبط وتوثيق تواريخ الحوادث والقضايا الاجتماعية والسياسية والدينية وغيرها.
- 6- قد يكون التنزيل وارد على أحداث أمم سبقت لكن فائدها تطال واقعنا الحديث وفي هذا بيان لصلوحيّة القرآن في جميع الأزمنة والأمكنة للإصلاح على مستوى جميع الميادين.
- 7- لا يشترط في التنزيل التصريح بما عليه واقع الناس بتسمية المخالف مثلا، إنما قد يكتفى

1- التحرير والتنوير، ابن عاشور، (194/3).

بالتلميح قصد التقويم الإيجابي، وذلك حسب ما يقتضيه الواقع وتقدير المصلحة والمفسدة.

التوصيات:

- 1- تعميم هاته الدراسة عند مفسري المغرب العربي في جميع أنواع الإصلاحات، تكون في شكل بحث ماستر.
 - 2- اقتراح ملتقى يهتم بجانب الإصلاح العقدي والفكري عند مفسري المغرب العربي.
 - 3- إجراء دراسات بحثية وملتقيات تهتم بالإصلاحات من الجانب الأخلاقي خاصة ونحن في زمن كثرت فيه الآفات الاجتماعية من قتل بغير حق وتجارة وتعاطي مخدرات وغيرها.
 - 4- اقتراح جملة من البحوث في مرحلة الماستر تهتم بجمع الآيات التي تعالج بتنزيله على الواقع مختلف الآفات الاجتماعية ودراستها عند علماء المغرب العربي قديما وحديثا لمعرفة كيفية إسقاطها بين القديم والحديث لعلها تثمر حلا لمعضلات العصر.
- هذا ما جادت به القريحة وسال به القلم، فما كان من صواب فمن الله وحده وأشكره على ذلك، وما كان من سهو ونسيان فمني ومن الشيطان ونعوذ بالله من الخذلان وصلى الله وسلم على نبينا محمد ﷺ.

فهرس المراجع

- * القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع.
- 1 - أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع- تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر، ط 2. لا سنة نشر.
 - 2- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس، ط: 1984 هـ.
 - 3- التعريفات الفقهية، محمد البركي، دار الكتب العلمية، ط 1: 1424 هـ / 2003 م.
 - 4- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية-القاهرة، ط 2: 1384 هـ / 1964 م.
 - 5- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين دراسة وتطبيق، عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط 1: 1428 هـ / 2007 م.
 - 6- شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، بلقاسم الغالي، دار ابن حزم، ط 1: 1417 هـ / 1996 م.
 - 7- صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط 1: 1422 هـ.
 - 8- صحيح مسلم، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 1: 1427 هـ / 2006 م.
 - 9- فجر الإسلام، محمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة- مصر، د ط ولات.
 - 10- كتاب التعريفات، الجرجاني، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
 - 11- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر - بيروت، ط 3: 1414 هـ.
 - 12- محمد الطاهر بن عاشور، علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلموه، إيداد خالد الطباع، دار القلم، ط 1: 1426 هـ / 2005 م.
 - 13- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط: 1399 هـ / 1979 م.
 - 14- مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط: 1390 هـ / 1980 م.

تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ عبد الله كنون من خلال "تفسير سور المفصل من القرآن الكريم"

ط.د/ شهرة قتال، إشراف: د/ نصيرة دهينة

كلية العلوم الإسلامية – جامعة الجزائر 1

ch.guettal@univ-alger.dz

n.dehina@univ-alger.dz



ملخص

تهدف هذه الورقة البحثية إلى إبراز جهود واحد من شخصيات الغرب الإسلامي في مجال التفسير وهو عبد الله كنون من خلال كتابه "تفسير سور المفصل من القرآن الكريم" الذي جاء استجابةً لواجب الوقت، المتمثل في ردّ الناس لدينهم، خاصة بعد ما عاشته هذه الشعوب بعد الفترة الاستعمارية واختلاطهم بالغرب وانهارهم بثقافتهم فتزعزت أساسات دينهم وعقيدتهم وأخلاقهم.

لهذا جاء هذا التفسير مختلفا عما كان موجودا قبله من جهة ربطه بالواقع، ومحاولة إسقاط معاني آياته على بعض القضايا التي شغلت الناس، ورغم كونه تفسيرا لسُبع القرآن فقط إلا أنه تضمن عددا لا بأس به من نماذج التّزِيل على الواقع، وهذا ما شجع على اختيار هذا التّفسير في محاولةٍ لجمع هذه المواضع، وبيان كيف عالَج المصنّف واقعه بتنزيل الآيات عليها، فجاءت هذه المداخلة لتحقيق هذا الغرض.

الكلمات المفتاحية: عبد الله كنون، تنزيل الآيات، التفسير، الواقع.

مقدمة

إنَّ أفضل ما اشتغل به المشتغلون من العلوم، ووجهت إليه الهمم، كتاب الله تعالى، من تمسك به هُدي، ومن اهتدى بنوره رشد، لهذا كان محل عنايةٍ من هذه الأمة منذ نزوله على محمد – صلى الله عليه وسلم- إلى وقتنا هذا، إلا أنَّ هذه العناية اتخذت أشكالاً عدّة، فمنها ما يرجع إلى لفظه وأدائه، ومنها ما يرجع إلى أسلوبه وإعجازه، ومنها ما يرجع إلى تفسيره وشرحه، أو استنباط العلاقة بين الواقع وحكمه وهداياته، إذ لا بد للمفسّر حتى يبلّغ دعوته إلى النَّاس كافة حق التّبليغ أن يكتب لعصره الذي يعيش فيه ويربط آيات الوحي الذي هو أساس صلاح الأمة بقضايا الناس، ذلك أن القرآن صالح لكل زمان ومكان، وصلوحه هذا ينبغي أن يكون واقعا مُعاشا ملموسا، ولكل زمان رجاله، ومن هؤلاء الشيخ "عبد الله كنون" الذي ما فُق من خلال تفسيره بين الفينة والأخرى أن يربط الآيات الكريمة بالواقع، فكان من علماء الغرب الإسلامي الذين سلكوا طريقة التّزِيل لهذا تناولتُ تفسيره بهذا البحث الذي عنوانته: تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ عبد الله كنون من خلال "تفسير سور المفصل من القرآن الكريم"

أولاً: أهمية الموضوع: تتلخص أهمية البحث في النقاط الآتية:

- دراسة جهود المفسرين وإيضاح منهجهم لبيان مدى تمسكهم بالأصل العظيم الذي سار عليه السلف من هذه الأمة.

- معرفة مناهج الأئمة في التفسير لها أهمية خاصة في تنمية المواهب وإثراء المادة العلمية لدى الباحث.

ثانياً: الإشكالية: تتلخص إشكالية هذا البحث في سؤال رئيسي:

ما هي معالم تنزيل النَّصِّ القرآني على واقع عبد الله كنون في مجال التفسير؟
تتفرع عنه مجموعة من التساؤلات:

من هو الشَّيْخ عبد الله كنون؟ وكيف كانت طريقته في التفسير؟ وكيف برزت قضية التَّنْزيل الواقعي للقرآن في تفسيره؟

ثالثاً: الدراسات السابقة: ومما كتب فيه:

- عبد الله كنون: سبعون عاماً من الجهاد المتواصل، عدنان الخطيب -دمشق: مجمع اللغة العربية، 1412 هـ: وهو مقال في مجلة آراء وأنباء.

- الدراسات الأدبية في المغرب: الأستاذ عبد الله كنون نموذجاً، أحمد الشايب، دار النشر: جامعة الملك فهد العليا للترجمة-طنجة، ط1، تاريخ النشر: 1991: أصل هذا الكتاب رسالة جامعية.

- عبد الله كنون وموقعة في الفكر الإسلامي السياسي الحديث، عبد القادر الإدريسي، دار النشر: دار الزهراء للإعلام العربي-القاهرة، ط1، تاريخ النشر: 1992.

رابعاً: منهج البحث: سلكت المنهج الوصفي التحليلي الاستقرائي بإذن الله، وفق الخطوات الآتية:

1. قراءة التفسير قراءة متأنية مع استخراج الشواهد والأمثلة لجهوده، ثم تصنيفها حسب طبيعة البحث.

2. التركيز على دراسة منهجه بصفة عامة بغض النظر عن مطابقة أقواله لأصول التفسير وضوابطه وهل هي راجحة أو مرجوحة.

3. اتباع منهج الجمع والتوصيف مع شيء من التحليل عند ذكر الأمثلة لكل قضية من قضايا التنزيل على الواقع.

4. الاعتناء بالآيات من حيث عزو الآيات إلى سورها وبيان أرقامها. واعتماد الخط العثماني في تدوين الآيات.

5. إحالة كلام أهل العلم إلى كتبهم إن كانت موجودة أو إلى أوثق المصادر المعتمدة في ذلك.

6. وضع خاتمة أعرض فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث.

خامساً: خطة البحث: تتكون خطة البحث من ملخص ومقدمة، ومبحثين وخاتمة وفهارس على النحو الآتي:

مقدمة: وتشتمل على أهمية الموضوع، والإشكالية، ودراسات سابقة، ومنهج البحث، والخطة.

المبحث الأول: تناولت فيه التعريف بالشيخ عبد الله كنون وتفسيره، وذلك في مطلبين، الأول: في التعريف بالمصنّف، أما الثاني ففي التعريف بالمصنّف وهو كتاب التفسير محل البحث. المبحث الثاني: تناولت فيه تنزيل الآيات على الواقع في تفسير عبد الله كنون، وقد قسمته إلى مطلبين أيضاً الأول: في تنزيل الآيات على الواقع في مجال العقيدة، والثاني تنزيل الآيات على الواقع في مجالات وقضايا متنوعة.

المبحث الأول: التعريف بالشيخ عبد الله كنون وتفسيره

كان عبد الله كنون رأس علماء المغرب في القرن الثالث عشر، مفتياً، محدثاً، لغوياً، قوياً للحق، دؤوباً على نشر العلم والإرشاد والنهي عن البدع حتى أودى بسبب ذلك وسُجن إبان الفترة الاستعمارية التي شهدتها منطقة المغرب، وفيما يلي ترجمة مختصرة لهذا الإمام وتعريف بتفسيره، وذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: تعريف بالشيخ عبد الله كنون

أولاً: مولده ونسبه: ولد الشيخ عبد الله كنون بمدينة فاس المغربية يوم السبت في الثلاثين من شعبان سنة 1326هـ الموافق لـ (سبتمبر) سنة 1908م، هو عبد الله بن عبد الصمد بن التهامي كنون الحسني، وكان بيت كنون من أشهر بيوتات العلم بفاس، التي يشد طلبة العلم الرجال إليها للاستفادة من علمائها في مختلف المجالات.

ثانياً: نشأته: نشأ عبد الله كنون في أسرة سنية محافظة، حفظ القرآن صغيراً بالكتاب وأتقن حفظ المتون، وقد قال وهو يحكي عن نفسه في سيرة ذاتية "كانت سني ست سنوات حين انتقلت مع والدي رحمه الله إلى طنجة، وكان ينوي هو وعمي العلامة المرحوم الشيخ محمد الهجرة إلى الشام، ولكن إعلان الحرب العظمى الأولى حال دون ذلك، وقد نشأت بطنجة حيث حفظت القرآن الكريم، وزاولت قراءة العلم على مشايخ عدة، وأكثرهم والدي الشيخ عبد الصمد. وكان مجال دراستي ينحصر في علوم العربية والفقه والحديث والتفسير، وأما الأدب فقد تعاطيته هواية"¹.

ثالثاً: نشاطه العلمي: تقلد رحمه الله عدة مناصب أهمها:

- التدريس في المعهد العالي ومديراً لمعهد الحسن للأبحاث بمدينة تطوان
 - عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، ثم عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
 - أميناً عاماً لرابطة العلماء في المغرب.
 - عضواً عاملاً في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر سنة 1963م.
- وبعد نحو عشر سنوات انتخب عضواً عاملاً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وكان عضواً شرفياً في مجمع اللغة العربية الأردني منذ تأسيسه عام 1977م وعضواً بالمجمع العلمي العراقي، إضافة إلى عضويته في المجمع الملكي لبحوث الحضارة. وقد ترأس صحيفة الميثاق -لسان حال رابطة علماء المغرب- حتى وفاته.

¹ من السيرة الذاتية التي كتبها عبد الله كنون بخط يده، نقلها: عدنان الخطيب، عبد الله كنون سبعون عاماً من الجهاد المتواصل في خدمة الإسلام والعروبة ورد شهادات الحاقدين والدقيقة، ص. 15.

رابعاً: آثاره العلمية: له مؤلفات كثيرة¹ في مجال الأدب والتاريخ غلبت ما تركه في مجال التفسير أو الفقه من أهمها:

- أحاديث عن الأدب المغربي الحديث
- أدب الفقهاء
- الإسلام أهدى
- إسلام رائد
- أمراؤنا الشعراء
- ترتيب أحاديث الشهاب لابن الحسن القلعي
- التيسير في صناعة التفسير/ للإشبيلي (تحقيق)
- جولات في الفكر الإسلامي
- ذكريات مشاهير رجال المغرب
- رسائل سعدية
- شرح مقصورة المكودي (وهو عبد الرحمن بن علي ت807هـ) عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب/ محمد بن موسى الحازمي الهمداني (ت584هـ) (تحقيق وتعليق وفهرسة)
- على درب الإسلام
- فضيحة المبشرين في احتجاجهم بالقرآن المبين
- القاضي عياض بين العلم والأدب
- القدوة السامية للناشئة الإسلامية، لقمان الحكيم
- محاذي الزقاقية (في التشريع الإسلامي بالمغرب)
- مفاهيم إسلامية
- ملتي ابن منظور الإفريقي: دراسات الملتقى الثاني 1392هـ في اللغة والأدب والتاريخ (مع آخرين)
- النبوغ المغربي في الأدب العربي
- تفسير سور المفصل من القرآن الكريم (وهذا الكتاب محل البحث)
- خامساً: وفاته
- توفي رحمه الله في الخامس من ذي الحجة سنة 1409 هـ الموافق لـ 1989م
- المطلب الثاني: التعريف بتفسير الشيخ عبد الله كنون
- لما كان القرآن الكريم هو الموجه الأول للأمة الإسلامية نحو صلاحها ونهوضها، عمل الشيخ عبد الله كنون على تفسيره كغيره من العلماء الذين اعتنوا بتحقيق هذه الغاية، وفيما يأتي نظرة تعريفية بهذا التفسير:

¹ انظر: محمد رمضان، تكملة معجم المؤلفين، ص340.

أولاً: اسم هذا التفسير

جعل رحمه الله عنوان كتابه: "تفسير سور المفصل من القرآن الكريم"، صدر عن دار الثقافة، دار البيضاء، الطبعة الأولى 1401-1981.

وكما هو واضح من عنوان الكتاب "تفسير سور المفصل من القرآن الكريم" أنه ليس تفسيراً كاملاً للقرآن بل لسور المفصل منه، وهي على الراجح من الأقوال تبدأ من سورة الحجرات إلى الناس، وهو على ثلاثة أقسام: (طوال) من الحجرات إلى عبس، و(وسط) من عبس إلى الضحى، و(قصار) من الضحى إلى الناس، ومما قيل في سبب تسميته بالمفصل لكثرة الفصل فيه بين السور بالبسملة.

ثانياً: أهم مميزات هذا التفسير

من حيث الشكل: فقد جعل عبد الله كنون سورة الفاتحة في آخر التفسير بعد سورة الناس وهذا خلاف لما هو عليه ترتيب المصحف، وخلاف لما مشى عليه والتزم به العلماء سواء المتقدمون منهم أو المتأخرون

أمّا من حيث المضمون: فقد جاء هذا التفسير مختصراً بعيداً عن التطويل والإطناب، وحتى لا يخرج عن الغاية التي من أجلها صُنف فإنه تجاوز فيه ذكر الأسانيد والمصطلحات العلمية المعقدة، والغوص في الخلافات المذهبية، حيث قال: "... وأدنى ما كنت أتصوره لتحقيق هذه الغاية تفسير في مثل حجم القرآن مرتين أو ثلاث على الأكثر سهل العبارة خالي من الاصطلاحات العلمية والأقوال المتعارضة، مركزاً على الأسس الثلاث التي قامت عليها دعوة الإسلام، وهي تصحيح عقيدة التوحيد بتطهيرها من الشوائب وتزكية النفوس بالأخلاق الفاضلة والقيم العليا وإعداد المسلمين لقيادة الإنسانية على ما فيه صلاح معاشها ومعادها..."¹ وهذا الذي يتناسب وهذا النوع من التفاسير التفسير الإصلاحي التربوي خاصة وأنه موجه لعامة الناس بمختلف مستوياتهم. وقد ذكر المصنف أنه أول تفسير مستقل بسور المفصل إذ لم يعرف تفسيراً اختص بها قبله.²

ثالثاً: أسلوب عبد الله كنون في تفسيره

ذكر المصنف الأسلوب المتبع في تفسيره، من ذلك:

- عدم صرف الآيات عن ظاهرها.
- اعتماده على المأثور من كلام السلف في بيان المعاني.
- الترجيح أحياناً عند تشعب الآراء.
- اعتماد قراءة نافع برواية ورش، مع الإشارة على غيرها عند الاختلاف.

رابعاً أهداف عبد الله كنون من تفسيره

ذكر في مقدمته أنّ تفسيره هذا تجربةٌ أو تطبيقٌ لفكرة راودته منذ بداية اشتغاله بأمر

¹ عبد الله كنون، تفسير سور مفصل القرآن الكريم، ص5.

² المصدر نفسه، ص8.

الدعوة والتبليغ، فأراد أن يضع تفسيراً مغايراً لما رآه في باقي التفسيرات التي تميزت إما بكبر حجمها فيصعب استيعابها من العامة، وإما باختصارها لدرجة انغلاق عباراتها مما يفوق مستوى القارئ العادي، فوقع اختياره على سور المفصل.

كما أن تميز سور المفصل بيسرها وكذا كثرة تلاوتها من قبل الناس في الصلوات، كان سبباً من الأسباب التي جعلت المصنف يختارها ويبدأ تجربته بها كما صرح بذلك في مقدمته "فإذا لم تنجح التجربة في السبع، فإنها لن تنجح في الكل"¹، وسبب آخر هو كون الأغراض التي تضمنتها سور المفصل هي مدار الدعوة الإسلامية في البدء وهي التي تهتم عموم المسلمين اليوم. وتحقيق هذه الأغراض أسى هدف يسعى الشيخ عبد الله كنون تحقيقه من خلال تفسيره هذا.

خامساً: مصادر هذا التفسير

صرح المصنف في مقدم تفسيره بالمراجع التي اعتمد عليها فقال: "... وكان اعتمادنا في الغالب على تفسير ابن جزي، وابن كثير والجلالين مع الرجوع في بعض الأحيان إلى تفسير الطبري والقرطبي وابن عطية والفخر الرازي والثعالبي"². إلا أن المتمعن في الكتاب يدرك مصادر أخرى من كتب السنة أو اللغة العربية وغيرها مما لم يصرح به المصنف: فمن أبرز كتب السنة التي رجع إليها سواء للاستدلال بالأحاديث والآثار الواردة بها، أو لترجيح معنى من المعاني:

- الصحيحين البخاري ومسلم
- سنن النسائي الصغرى
- سنن أبي داود
- سنن الترمذي
- سنن ابن ماجه ومما يلاحظ على منهجه: أنه يحتج بالأحاديث باختلاف درجتها بين الصحة والحسن في الغالب، إلا أنه أورد الموضوع منها كما في حديث "إذا ذلت العرب ذل الإسلام"³ وليبيان بعض المعاني اللغوية والمفردات فقد رجع إلى بعض كتب اللغة والغريب كمفردات القرآن الكريم للراغب الأصفهاني وغريب القرآن لابن عزيز وغيره كما أن القارئ للكتاب يجد أحياناً نصوصاً من التوراة والإنجيل يذكرها في سياقات معينة⁴

المبحث الثاني: تنزيل الآيات على الواقع في تفسير عبد الله كنون

الفترة التي عاش فيها عبد الله كنون كانت فترة حافلة بالأحداث والمتغيرات السياسية والاجتماعية، فقد شهد صراع الحربين العالميتين الأولى والثانية، واطلع على القضية الفلسطينية، وعاش الاستعمار وتأثيره السلبي على عقيدة أو على أخلاق المجتمعات الإسلامية،

¹ المصدر السابق، ص 7.

² المصدر السابق، ص 9.

³ سبق ذكره.

⁴ انظر: عبد الله الهنائي، تفسير سور المفصل للشيخ عبد الله كنون نظرة في المنهج وأسلوب التجديد دراسة استقرائية نقدية، ص 13.

كل هذا انعكس على شخصيته وفكره فجمع بين الأصالة والمعاصرة، وأدرج هموم عصره وقضايا مجتمعه في تفسيره كلما سنحت له الفرصة، وفيما يأتي نماذج على هذه القضايا التي أوردتها:

المطلب الأول: تنزيل الآيات على العقائد وبعض البدع المنتشرة

لما كان التوحيد أعظم وأول واجب على العباد، فقد ركز الشيخ عبد الله كنون في تفسيره على إصلاح عقيدة الفرد التي بصلاحيها يصلح المجتمع، كما دعا إلى تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة والمظاهر الجاهلية التي كانت منتشرة في مجتمعه خاصة أو في المجتمع الإسلامي عامة، وتفصيل ذلك كما يأتي:

أولاً: الدعوة إلى الالتزام بشرائع الله وعدم الابتداع في الدين

تأسف الشيخ كنون وهو يفسر قوله تعالى: ﴿أَتَّخِذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة: 16-17] من حال الناس اليوم لابتعادهم وصدهم عن دين الله بل ونسبتهم إليه ما ليس فيه من المساوئ والعيوب، الأمر الذي نفّر غير المسلمين من الدخول فيه بسبب هذه الادعاءات الباطلة المدخلة فيه، فقال: "وأكثر المسلمين اليوم على هذا الحال فإنهم خالفوا أوامر الله وابتدعوا في الدين ما ليس منه، فأعطوا بذلك فكرة سيئة للإسلام للأجانب كانت من أكبر العوامل في ازدراءهم له وانصرافهم عنه ومن ثم قال كثير من المصلحين إن الاسلام محبوب بالمسلمين"¹.

فاستحقوا بسبب ذلك عذاب مهين يذلهم الله به ويخزيهم يوم القيامة ولن تغني عنهم منه أموالهم ولا أولادهم ولن تنفعهم عند الله شيئا، مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الأنعام: 26] إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88-89]

ثانياً: خطورة التَّطاول والطَّعن في الصحابة رضوان الله عليهم

حبُّ صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم الطَّعن فيهم أو لعنهم، من مسائل العقيدة القطعية، ومما هو معلوم من الدِّين بالضرورة، ونظرا لخطورة ذلك فإنه لم يفت الشيخ عبد الله كنون وهو يفسر قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10] لم يفته التنبيه على هذه القضية التي ظهرت سواء من الرافضة أو من المسلمين الغافلين المتطاولين على صحابته رضوان الله عليهم، وأورد رحمه الله نقل ابن كثير استنباط الإمام مالك من هذه الآية أَنَّ الرَّافِضِيَّ الَّذِي يَسُبُّ الصَّحَابَةَ لَيْسَ لَهُ مِنْ مَالِ الْفِيءِ نَصِيبٌ لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾، كما استدل بما ورد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أمروا أن

¹ عبد الله كنون، تفسير مفصل سور القرآن الكريم، ص 134.

يستغفروا لهم فسبُّوهم¹، ثم قرأت ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية.²

ثالثا: في النفاق وإفشاء أسرار المسلمين للكفار

من القضايا التي رأى المصنف كثرة وقوعها بين المسلمين في زمنه، قضية التودد إلى الكفار مع ما هم عليه من عداوة وإعراض عما جاءهم من الحق، فقال: "وكم يحدث مثل هذا في المسلمين اليوم فتجد المغفلين منهم يبلِّغون العدو أسراراً وحوادث يستفيد منها في زيادة الضغط عليهم وإضعاف معنوياتهم وهم لا يلقون لذلك بالا، ولا نتكلم عنمن يفعل ذلك منهم قصداً ويتخذة حرفة فإن هذا لاحظ له في الإسلام وحكمه القتل ولو أُمِن³، واستدل بالآية التي هو بصدد تفسيرها في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة:1]، يعني: المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين، الذين شرع الله عداوتهم، ونهى أن يتخذوا أولياء، وأصدقاء، وأحلاء، كما قال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:51]، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، وقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَاللَّهُ نَفْسُكُمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:28] ولهذا قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عذر حاطب لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد.⁴

رابعا: في موالاة المسلمين الكفار

بعد بيان الشيخ عبد الله كنون غلط بعض المسلمين في المسارعة بإلقاء المودة للكفار والتزلف إليهم ولو على حساب أسرار الأمة بإفشائها ولو بغير قصد، لم يكتف بهذا وذهب إلى بيان معنى النبي عن الموالاة للكفار ومن هم المعنيون بهذا النبي، وذلك لما فسّر قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:8]، بين فيه أن النبي متعلق بالذين يحاربون المسلمين من أجل دينهم، ويعملون على إخراجكم من أوطانكم بالظلم والإرهاق ومصادرة الحريات العامة التي يتمتع بها الأفراد والأمم من كل جنس وقبيل، وكذلك الذين أعانوا الظالمين وكانوا حلفاء لهم والمغتصبين ممن يغضون الطرف عنهم مع مقدرتهم على كفههم عن العدوان فهؤلاء هم الذين

¹ رواه مسلم في صحيحه، رقم (3022)، كتاب التفسير، 2317/4، من طريق عروة بن الزبير، عن أبيه، قال: قالت لي عائشة: يا ابن أخي، أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فسبُّوهم!.

² انظر: عبد الله كنون، تفسير سور مفصل القرآن الكريم، ص144.

³ عبد الله كنون، تفسير سور مفصل القرآن الكريم، ص153.

⁴ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 115/8، وعبد الله كنون، تفسير سور مفصل القرآن الكريم، ص153-154.

أمرنا الله بمقاطعتهم وعدم موالاتهم وترك نصحتهم أو انتصاحتهم، ثم تأسف رحمه الله لسلوك المسلمين اليوم المخالف لأمر الله القطعي لهذا قذف في قلوبهم الرعب فخسروا قضايا كثيرة في هذا الزمن¹ أهمها قضية فلسطين وسيأتي الكلام عليها.

خامسا: في التحذير من السحر والشعوذة

ومن أفعال الجاهلية التي تأسف المصنّف لاستمرار الجبهة من الناس عليها إلى يومنا هذا السحر والشعوذة، حيث قال: "وهذا الأمر الذي نعاه القرآن الكريم على أهل الجاهلية لا يزال أثره في جبهة المسلمين مع الأسف فإن كثيرا منهم يعوذون بالسحرة وبأماكن في الخلاء والبحر ويعلقون عليهم من التماائم ما يظنون أنه يكون حائلا بينهم وبين أذى الجن، وبعضهم يسي ذلك صلحا ويلتزم فيه شروطا إن هو خالفها انتقض ذلك الصلح بزعمه واضطر إلى تجديده وإلا حاق به المكروه"². وهذا عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾³ وأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ [الجن: 6-7].

فمن يُقدم على مثل هذا الفعل ما عرف أنه ينقض بذلك عرى الإسلام ويرجع في حافة الجاهلية الأولى فلا حول ولا قوة إلا بالله³، قال القرطبي: "ولا خفاء أن الاستعاذة بالجن دون الاستعاذة بالله كفر"⁴.

سادسا: في ضرورة تخليص المساجد من مظاهر الشرك

عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: 18-19] استنكر رحمه الله ما يُفعل في بعض المساجد من بناء القباب على الأموات ومن إقامة حفلات اللهو الذي لا يليق ببيوت الله، وبأن الآية وإن كانت خطاباً للمشركين فهي تتوجه إلى المسلمين بطلب إخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى وتنزيه المساجد عن كل ما بُني عنه مما يشعر بتعظيم غير الله والانتهاك لحرمة الدين⁵، فالعبادة هي حق الله عز وجل، ليس لغيره فيها حق، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غيرهما.

سابعا: تحقيق عقيدة الإيمان باليوم الآخر

ها هو المصنف مرة أخرى ينزل آيات من سورة المطففين وهي قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿١﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَجَّينٍ ﴿٢﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٣﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيِّمٍ ﴿٥﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿٦﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧﴾﴾ ينزلها على حال كثير من عصاة المسلمين اليوم الذين يظهر من إصرارهم على المخالفات وتعتد بهم فيها أنهم لا يؤمنون ببعث ولا حساب، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: "معتد في أفعاله من تعاطي الحرام والمجازة في تناول المباح، والأثيم في أقواله إن حدث كذب وإن وعد أخلف وإن

¹ انظر: عبد الله كنون، تفسير سور مفصل القرآن الكريم، ص 158-159.

² المصدر نفسه، ص 264.

³ انظر: المصدر نفسه، ص 263-264.

⁴ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 10/19.

⁵ انظر: عبد الله كنون، تفسير سور مفصل القرآن الكريم، ص 267-268.

خاصم فجر".¹

ولما كان الإيمان بالبعث يقتضي الاستعداد له باستكثار الخير والكف عن المعاصي، إذ في هذا اليوم تبرز السرائر، وتُنشر أعمال العباد، فقد شبّه الشيخ عبد الله كنون استخفاف بعضهم بأوامر الدين فأُنكرها، بقول الكفار أساطير الأولين.²

ثامنا: في زيارة القبور للافتخار بمن فيها من الآباء والأجداد

من الأعمال الجاهلية التي تكلم عنها الشيخ عبد الله كنون والتي كان أثرها ظاهرا في الأوساط الإسلامية كنون قضية التفاخر بمن مات وقبر من الآباء والأجداد، عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلْهَيْكُمْ التَّكَاثُرُ ۚ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: 1-2]، فبين أنّ زيارة المقابر كناية عن الموت، كما قيل في معناها الإسراف في التكاثر حتّى جئتم القبور تفخرون بمن فيها من الآباء والأجداد، ولعله استشف هذا المعنى ممّا رُوي في سبب نزول الآية، من أنها نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار في بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا فقالوا إحداهما فيكم مثل فلان ابن فلان وفلان، وقال الآخرون مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء ثم قالوا انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبور، ومثل فلان، وفعل الآخرون مثل ذلك فأنزل الله ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر³ ثم استنكر هذا الفعل فقال: "وهو باطل من عمل الجاهلية ما يزال أثره ظاهرا في بعض الأوساط الإسلامية".⁴

المطلب الثاني: تنزيل الآيات على الواقع في قضايا مختلفة

كما ربط الشيخ عبد الله كنون كثيرا من الآيات على مظاهر ووقائع متعلقة بالعقيدة، فإنّه أيضا ينزل بعضها الآخر على ما هو مُعاش من قضايا في مختلف المجالات، أوردتها تحت هذا المطلب وتفصيلها كالآتي:

أولا: التحذير من عصيان أوامر الله عموما

عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَفِي مِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّن شَيْءٍ إِذَا أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِزْيَوْنٍ بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ۝ فَتَوَلَّىٰ مُرْكِبُهُمْ سَاحِرٌ ۖ أَوْ يَحْتَنِبُونَ ۝ فَأَخَذْتُهُمْ وَجُودَهُ فَبَبَذْتَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرِّيمِ ۝ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُم تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ۝ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْقَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝ فَمَا اسْتَظْلَعُوا مِن يَمَارٍ وَمَا كَانُوا مُتْتَصِرِينَ ۝ وَقَوْمٌ نُّوحٌ مِن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝﴾ [الذاريات: 38-46]

نبّه الشيخ كنون إلى أن المراد بسياق هذه القصص-قصص الأنبياء مع قومهم-والإشارة إليها على سبيل الاختصار هو التذكير بما جرى لأهلها من العذاب والهلاك، جزاء كفرهم وعنادهم ومخالفتهم عن أمر ربهم وتكذيبهم لرسولهم، فلا يأمن من فعل فعلهم وجحد وعاند

¹ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 346/8.

² انظر: عبد الله كنون، تفسير سور مفصل القرآن الكريم، ص 335-336.

³ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 451/8.

⁴ عبد الله كنون، تفسير سور مفصل القرآن الكريم، ص 402.

وعصى، أن يحلَّ به ما حلَّ بهم، وأن يهلكه الله كما أهلكهم، لأنه ليس بخير منهم ولا عنده ما يعصمه من العذاب كما قال تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾¹ أم يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿٤٣﴾ [القمر: 43-44].

ثم نزل رحمه الله معاني هذه الآيات على حال المسلمين اليوم فقال: "والمسلمون اليوم غارقون في بحر المعاصي ولذلك ضربهم الله بعصى الذلِّ فلا يرفعها عنهم حتى يفيؤوا إلى أمر ربهم، والله الأمر من قبل ومن بعد"¹.

ثانيا: ضرورة الرجوع إلى كتاب الله تدبرا وعملا

كثيرا ما نبّه المصنف رحمه الله في غير ما موضع على ضرورة الرجوع إلى كتاب الله ليس تلاوة باللسان فقط بل تدبرا وعملا، وذلك لما لاحظته على الأمة الإسلامية من هجره واتخاذهم له وراءها ظهريا، فعندما جاء إلى تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأُمُتُلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾² [الحشر: 21]، قارن متعجبا بين تلقي الجبل لهذا القرآن وتلقي الانسان له، فإذا كان الجبل وهو جماد مستعداً للتأثر بدعوة الكتاب العزيز فكيف بالنفوس البشرية والضمائر الإنسانية ؟ اللهم إلا أن تكون محكوما عليها بالشقاء، والعياذ بالله، فتصبح أفسى من الحجر، فالواجب التفكير في آيات الله والاعتبار بما تضمنته من الأمثال والحكم، والعمل بأوامرها، والوقوف عند حدوده وزواجره²، وفي موضع آخر عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْخِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾³ [الجمعة: 5]، يشبه صنيع اليهود هذا بصنيع من حمّل القرآن ولم يعمل بما فيه حيث قال: "وفي هذا تنبيه للمسلمين على أنَّ المقصود من حمل القرآن هو العمل به وامثال أوامره واجتناب نواهيه وإلا انطبق عليهم مثل اليهود والعياذ بالله فإن كل آية نزلت في الكفار تجر ذيلها على عصاة هذه الأمة"³.

ثالثا: من مظاهر تعذيب المستعمر الأسباني لمن ثبت ولم يرتد

نقل المصنّف رحمه الله مشهدا من مشاهد التعذيب التي عرفتھا الفترة الاستعمارية على دول المغرب الإسلامي، خاصة منطقة المغرب الأقصى التي تعرض قسم منها للاحتلال الفرنسي بحجة الحماية، والجزء الآخر تحت السيطرة الإسبانية، وذلك عند استحضاره لقصة أصحاب الأخدود وما فعله أولئك الكفار بالمؤمنين بعد أن أعجزهم صرفهم عن دينهم فجعلوا لهم حفيرا في الأرض وأَجَجُوا فِيهِ نَاراً وَقَذَفُوهُمْ فِيهَا، قال الله تعالى: ﴿فُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿١﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُجُودِ ﴿٢﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٣﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٤﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: 4-8]، إذ الغاية من هذه القصة هو أخذ العبرة بما حصل للمؤمنين مع ثباتهم على الإيمان، لذلك قال عبد الله كنون: "وإلا فإن مثل هذا الحادث قد تكرر وقوعه عبر العصور. وما

¹ عبد الله كنون، تفسير سور مفصل القرآن الكريم، ص 43.

² انظر: المصدر السابق، ص 148.

³ المصدر نفسه، ص 174.

فطائع ديوان التفتيش في اسبانيا الذي كان يحرق المسلمين الممتنعين من الردة ببيعية مناً¹.

رابعا: قضية التمييز العنصري المنافية لما جاء به الإسلام

ربط المصنف رحمه الله تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:13]، بالواقع المعاصر إذ يقول: "وهذه الآية قد سبقت كل الفلسفات وأزرت بكل الأيديولوجيات في تأصيلها لهذه القاعدة العظيمة قاعدة المساواة بين الناس من كل جنس ولون، ورفعت الإسلام فوق كل الأديان والمذاهب إذ جعلته دين الإنسانية جميعها لا فرق بين أبيضها و أسودها وذكرورها وإنائها، وقد جاء الحديث الشريف مؤكدا لمعناها ومؤسسا لمبناها فقال ﷺ: (لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بتقوى الله)². وعمل المسلمون في حاضرهم وماضهم على هذا المبدأ فلم يعرفوا قط حالة من حالات التمييز العنصري الذي تتخبط فيه إلى الآن شعوب ودول من بلاد الحضارة العصرية، ونسبها حضارة من باب التجوز وإلا فإن المجتمع الذي يُبنى على التمييز بين أفرادها مجتمع في حاجة شديدة إلى تلقي دروس الحضارة الحقيقية من نبعها الصافي وهو الإسلام³.

خامسا: تفضّل الغرب إلى المصلحة في تشريع الطلاق وسنه قانونا لديهم

أورد المصنف في تفسيره هذا جملة من الشُّبه التي يقذف بها الغرب على الإسلام والمسلمين قصد تشتيتهم وتشكيكهم في دينهم ومحاولة استبدال ما عندهم من شريعة إلهية بما هو أدنى من التشريعات والقوانين الوضعية، ومن هذه الطعون قولهم: إن ما عقده الله فوق سماواته لا ينقضه الخلق في الأرض، يعنون الرِّوَّاج والطلاق، لكن قولهم هذا سرعان ما خفت وسكت عندما أدركوا ما غاب عنهم من مصالح في هذا التشريع الرباني، وقد نزل الشيخ عبد الله كنون تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْضُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق:1] على ما هو واقع عند الغرب بخصوص قضية الطلاق، فقال: "فها هي ذي الأمم الأوروبية والأمريكية قد عرفت وجه المصلحة في هذا التشريع الضَّروري وأقره أكثرها فصار عندهم قانونا معمولاً به، بل إن بعضهم أسرف فيه فصار إلى ما كان عليه قبل الإسلام من فوضى والتَّسخير للمصلحة الشخصية بينما هو عند المسلمين مقيّد بقيود ولا يجوز إلا في الضَّرورة القصوى حيث يكون

¹ عبد الله كنون، تفسير سور مفصل القرآن الكريم، ص346.

² أورده الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم 2700) عن جابر بن عبد الله: يا أيها الناس! إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلغْتُ؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: فبُئِلَغُ الشاهد الغائب. وقال: إسناده صحيح.

³ عبد الله كنون، تفسير سور مفصل القرآن الكريم، ص20.

استمرار الزوجية أمرا لا يطلق¹

سادسا: دحض شبهة انتشار الإسلام بالسيف وأنه دين قتال

حاول عبد الله كنون عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحریم: 9]، الرّد على من يتهم الشريعة الإسلامية بكونها شريعة قتال لم تنتشر إلا بالسيف والقوة، وتفنيده لهذا الكلام ببيان المعنى الحقيقي للآية الذي غاب عن من يتكلم بهذه التهمة، من أنّ القتال إنما شرّعه الله في حال الاعتداء على المسلمين ولم يتركه مطلقا بل قيده بضوابط وشروط، قال ابن تيمية رحمه الله: "ومعلوم أن ظهور الإسلام بالعلم والبيان قبل ظهوره باليد والقتال؛ فإن النبي ﷺ مكث بمكة ثلاث عشرة سنة يظهر الإسلام بالعلم والبيان والآيات والبراهين، فأمنت به المهاجرون والأنصار طوعا واختيارا بغير سيف لما بان لهم من الآيات البينات والبراهين والمعجزات، ثم أظهره بالسيف..."². وبرهن المصنف في الأخير على كذب هذا الادعاء بما هو كائن؛ إذ لو كان المسلمون أهل قتال وبغي لكان الوضع خلاف ما هو واقع في الحقيقة من تسلط المسيحيين صنّاع الحروب والقتل على المسلمين، لكنهم يرمون المسلمين بما هو منه براء³.

سابعا: في القضية الفلسطينية

من القضايا التي شغلت الأمة الإسلامية وما زالت ليومنا هذا القضية الفلسطينية التي لم يغفل عن ذكرها المصنف رحمه الله عندما تطرق لتفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المتحنة: 9]، حيث بيّن نبي الله تعالى المسلمين عن موالات الكفار المحاربين المغتصبين للحريات العامة، ثم صرّح بأن خسارة الأمة الإسلامية لفلسطين إنما هو نتيجة لمخالفة الناس أمر ربهم في عدم موالاته المشركين، كما خسروا قضايا أخرى⁴.

ثامنا: في مزاعم تحرير المرأة

كانت وما زالت المرأة من أهم القضايا التي يعتمد عليها بعض الحاقدين لضرب الإسلام والمسلمين، وذلك بتشكيكها مرة في مكانتها ومرة أخرى في حقوقها التي منحها إياها الإسلام... وهكذا. والشيخ عبد الله كنون من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمُنَّجُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنَفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسَلُّوا مَا أَنَفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُم مَّا أَنَفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَخَكُّمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ

¹ عبد الله كنون، تفسير سور مفصل القرآن الكريم، ص 192.

² ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، 1/ 239.

³ انظر: عبد الله كنون، تفسير سور مفصل القرآن الكريم، ص 207.

⁴ انظر: المصدر نفسه، ص 158-159.

فَأَمْتَحِنُوهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِإِيمَانِهِمْ ۚ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُمْ مُؤْمِنِينَ فَلَا تَرْجِعُوهُمْ إِلَى الْكُفَّارِ ۚ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ۚ وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ [الممتحنة: 10] عالج هذه القضية حين قال: "واعلم أن هذه الآية قد أعطت للمرأة من العناية ما لم يعطها إياه أي قانون في الأرض"، وذلك من جهة أن في عدم ردِّ الممتحنة إلى الكفار - رغم أنَّ من شروط الحديبية ردُّها - بخلاف الرجل، فيه مراعاةً لضعفها وعدم احتمالها للعذاب فهذا رحمة بهن وشفافٌ عليهن من الفتنة، هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد حرَّم نكاحها على الكفار مطلقاً لما في ذلك من السيطرة عليها فإن الرجال قوامون على النساء ولا يؤمن عليهما مع هذا القيام من تحكُّم الزوج الكافر في عقيدتها والضغط على شعورها وذلك منافٍ للحرية الحقيقية التي ينبغي للمرأة تطلُّها.

كما أنَّ في إباحة نكاح المسلم المرأة الكتابية فهذا أيضاً فيه تكريم للمرأة من جهة أنَّه مبني أيضاً على احترام المسلم لدينها لأنَّه مؤمن بموسى وعيسى عليهما السلام. وختم المصنِّف بقوله: "فليعرف هذا من يتبجح بحرية المرأة في القوانين الوضعية وليقدر موقف الإسلام النبيل من المرأة مسلمةً كانت أو غير مسلمة حق قدره".¹

تاسعا: مفهوم حرية المرأة الصَّحيح في الإسلام

حاول الشَّيخ عبد الله كنون إيصال المعنى الحقيقي الشرعي لحرية المرأة لما رآه من اختلال هذا المعنى عند بعض المستهترين - على حد تعبيره - وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لَهُنَّ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 16] حيث بيَّن أنها نزلت في مبايعة النساء بمكة بعد الفتح، وكيف أنَّ النبي ﷺ أخذ عليهن العهد على أن لا يفعلن شيئا مما ذكر، ثم أورد ما جاء في قصة المرأة التي جاءت تباع النبي ﷺ فلمَّا سمعت قول الله تعالى {ولا يزني} قالت: يا رسول الله وهل تزني امرأة حرة!

فقال ﷺ: لا والله، ما تزني الحرة! بعدها قال المصنِّف: "وهكذا كان نساء العرب في الصدر الأول يفهمن الحرية لا كما يحاول أن يفهمها اليوم بعض المستهترين".²

عاشرا: في سعي الدول الغربية إضعاف المسلمين

بيَّن الشيخ عبد الله كنون أن مراد الكفار في كل زمان ومكان هو القضاء على دين الإسلام وتعفيه أثره ومحوه من الوجود، مصداقا لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُظْفَرُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: 8]، فكما فعل كفار قريش في محاربتهم للنبي

¹ عبد الله كنون، تفسير سور مفصل القرآن الكريم، ص 160.

² عبد الله كنون، تفسير سور مفصل القرآن الكريم، ص 162.

صلى الله عليه وسلم وصديهم الناس عن الإيمان به، فعل الصليبيون في حربهم للمسلمين مدة قرنين، وتفعل الدول الغربية اليوم قال المصنف: "وكما تفعل الدول الغربية اليوم في إصفافها على المسلمين ومقاومة كل حركة تقدمية تظهر في بلدٍ من بلاد الإسلام خوفاً من قوته وانتشاره وظهور حقيقته لشعوبهم الذين لا يزال الرؤساء الروحيون يصرفونهم بالكذب عنه، والكتّاب والباحثون يصورونه لهم في أقبح صورة ويخفون محاسنه عنهم، ولكن الله عز وجل وعد بأنه ينصر هذا الدّين ويرد كيد أعدائه في نحورهم ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ انتهى¹.

حادي عشر: مهمة نشر الدعوة تشمل المغاربة وليست خاصةً بالعرب فقط

عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة:3] بيّن الشيخ عبد الله كنون المعنى: أي وآخرين من العرب الذين بعث فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ بعدُ، وسيلحقون والمراد التابعون، وذكر أنّ هذا المعنى كالتكليف الصّريح للأمة العربية سابقها وللاحقها بالقيام بأداء الرسالة وتبليغ الدعوة إلى العالم قاصبه ودانيه وأنه هذا هو الأصل وإلا فإنه ما قلّ انتشار الإسلام إلا لَمَّا قلت همم العرب وفترت، واستشهد بحديث (إذا ذلت العرب ذل الإسلام)²،

والآيات الدّالة على عدم اختصاص بعثته صلى الله عليه وسلم بالعرب فقط كثيرة ذكر منها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبا:28]؛ كما استشهد بما جاء في قصة سلمان الفارسي رضي الله عنه، إذ صار بعد استعراجه من العرب بل من خاصة العرب بدليل، وعليه خلّص الشيخ عبد الله كنون إلى نتيجة أن كل من دان بالإسلام وتكلم العربية فهو عربي داخل في هذه الآية، وبناء عليها أنزل هذا المعنى على الشعوب المستعربة كالمغاربة وغيرهم فقال: "وعليه فإن الآية تصدق بالشعوب التي أسلمت وتعربت وقامت بدورٍ عظيم في نشر الإسلام ورفع رايته كالمصريين والمغاربة وسواهم، وهي منقبة عظي لهم"³. وهذا منه رحمه الله تأكيد على أنّ نشر الدعوة الإسلامية مهمة كل من دخل في الإسلام، خاصةً إن تكلم وفقه لغة القرآن التي بها أنزل.

خاتمة

وفي ختام هذا البحث أسرد أهم النتائج المتوصل إليها مع بعض التوصيات في محاولة للإجابة على الإشكالية المطروحة في هذا البحث، وبيانها كالآتي:

¹ المصدر السابق، ص167.

² أورده الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة، رقم 163، قال حديث موضوع. وفي استشهاده عبد الله كنون به في هذا المقام نظر فهو ينافي ما يريد بيانه من عدم اختصاص العرب بالرسالة لهذا اضطر بعده إلى إيراد آيات أخرى تؤكد فكرته، وقد علّق الشيخ الألباني على هذا الحديث فقال: "ولولا أن في معناه ما يدل على بطلانه لاقتصرنا على تضعيفه، ذلك لأن الإسلام لا يرتبط عزه بالعرب فقط بل قد يعزه الله بغيرهم من المؤمنين كما وقع ذلك زمن الدولة العثمانية... فثبت أن الإسلام يعز ويندل بعز أهله وذله سواء كانوا عربا أو عجمًا"، انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة، 302/1-303.

³ عبد الله كنون، تفسير سور مفصل القرآن الكريم، ص173.

أولاً: النَّتَاج

1. رغم كون التفسير مُقتصرًا على سور المفصل فقط إلا أنَّ معالم التَّنزيل القرآني على واقع المفسِّر واضحة، فقد أمكنني جمع تسعة وعشرين موضعا مع تركي لموضعين على الأقل لم أذكرها في البحث خشية التَّطويل.
2. مُواكبة عبد الله كنون لقضايا عصره وقدرته على الربط بين الجانب العلمي في التفسير والجانب العملي التطبيقي المعاش.
3. جهد الشيخ عبد الله كنون واضح في الدعوة الإسلامية من خلال محاولته تبليغ الرسالة بأسلوب جديد يتميز بسهولة العبارة والإيجاز والأهم أنَّه يلامس واقع الناس وانشغالاتهم.

ثانياً: التوصيات

1. هذا التفسير فيه نماذج تطبيقية أخرى -كما ذكرتُ سابقاً- لم أذكرها خشية التَّطويل، وعليه يمكن البحث عنها أو التفصيل أكثر فيما تم ذكره.
2. التَّنزيل القرآني على الواقع نوعان: تصريحي وهذا الذي تركز عليه البحث، وتلميحي لم أتطرق إليه لكنه موجود ويمكن أن يُخصَّصَ ببحثٍ مستقل.

مصادر ومراجع

1. إسماعيل بن عمر بن كثير (ت 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار النشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت، ط1، تاريخ النشر: 1419 هـ
2. تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 728هـ)، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق: علي بن حسن -عبد العزيز بن إبراهيم -حمدان بن محمد، دار العاصمة-السعودية، ط2، تاريخ النشر: 1419هـ - 1999م
3. عبد الله كنون، تفسير سور المفصل من القرآن الكريم"، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1401-1981.
4. عبد الله الهنائي، تفسير سور المفصل للشيخ عبد الله كنون نظرة في المنهج وأسلوب التجديد دراسة استقرائية نقدية.
5. عدنان الخطيب، عبد الله كنون سبعون عاما من الجهاد المتواصل في خدمة الإسلام والعروبة ورد شبهات الحاقدين والدقيقة، -دمشق: مجمع اللغة العربية، تاريخ النشر: 1412 هـ
6. محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار النشر: دار الكتب المصرية -القاهرة، ط2، تاريخ النشر: 1384 هـ - 1964م
7. محمد خير رمضان يوسف، تكملة مُعجم المؤلفين، وَفيات (1397 - 1415هـ)، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1418هـ - 1997م
8. محمد ناصر الدين الألباني (ت 1420هـ):
- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، دار المعارف، الرياض ط1، 1412 هـ - 1992 م
9. مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (206 - 261 هـ)، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1374هـ - 1955م.

إسقاط النص القرآني على شؤون السياسة والحكم عند ابن خلدون

ط. د / حفاوي عتوسي، إشراف: د / عبد الحميد فرج

كلية الحقوق والعلوم السياسية - جامعة الوادي

attoussi.af.39@gmail.com

hamid.fj.39.dz@gmail.com



مقدمة

إن اهتمامنا الرئيسي في هذا البحث سينصب على توضيح المنطلق الإسلامي لفكر ابن خلدون ونظرياته في السياسة. حيث يبقى ابن خلدون المفكر الإسلامي الذي لم تخرج أفكاره عن نطاق المعتقدات الدينية للإسلام أو تتناقض معها

إن فكر ابن خلدون إسلامي المبتدأ والمنتهى، ومقدمته الشهيرة إسلامية الأصول والمنطلق، قرآنية المبنى والتدليل. ونستشهد ببعض الآيات القرآنية، مشيرين إلى بعض فصول مقدمته التي ورد فيها كل منها، لتعزيز وجهة نظري فيما نذهب إليه من أن منطلق ابن خلدون في السياسة هو منطلق إسلامي خالص، غير متأثر فيه بأي مؤثرات أجنبية أرسطوطاليسية كانت أو أفلاطونية، لذلك تم طرح الإشكالية الموالية: كيف يمكن أن يتم توظيف النص القرآني عند ابن خلدون على شؤون السياسة والحكم والاقتصاد؟ وللإجابة على هذه الإشكالية تم طرح التساؤلات الموالية:

- من هو ابن خلدون؟
- كيف استدل ابن خلدون بالنصوص القرآنية؟
- وهل وفق ابن خلدون في توظيف النصوص القرآنية على شؤون الدولة والحكم والسياسة؟

أولاً: نبذة تاريخية عن ابن خلدون

«ابن خلدون» حياة ممتدة في خدمة العلم والسياسة:

اشتهر مؤلف المقدمة بين الناس وفي بيئات العلم والأدب باسم «ابن خلدون» ولكنه اسمه الفعلي كان «عبد الرحمن»، واسم والده «محمد»، وأما تلقيبه بلقب «ابن خلدون» فكان نسبة إلى اسم أحد أجداده القدماء، وخالد المعروف بخلدون¹ وهو الجد الذي دخل

1- اسم خلدون هو صيغة تفخيم من اسم خالد. لأن الواو والنون في آخر اللفظ تنزل على التفخيم أو الكبير وإظهار علو مكانة الشخص، وهي مأخوذة من المقطع الإسباني an أو un في آخر الكلمة. وهناك =

الأندلس مع جند اليمانية، قبل ولادة مؤلف المقدمة بمدة لا تقل عن أربعة قرون.

هكذا ينتمي «ابن خلدون» إلى أسرة عربية عريقة من يمن حضرموت، وكان جده الأعلى «خالد» المعروف بخلدون من بين القادة العسكريين الذين شاركوا في فتح الأندلس تحت قيادة «طارق بن زياد» في سنة 92 هـ (811م). ومنذ هذا التاريخ استقرت أسرته في مدينة أشبيلية وأصبحت من أكثر الأسر العربية نفوذاً وثروة ومكانة اجتماعية، حتى إنها خلال القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) كانت تتقاسم حكم هذه المدينة ومنطقتها مع أسرة يمنية أخرى هي «بنو حجاج». وقد عرف من بين أفراد «بني خلدون» عدد كبير من رجالات السياسة والمشاركة في النشاط الاجتماعي والعلمي على طول القرون التالية حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، حينما ألحت القوى المسيحية الإسبانية على الأندلس بالحملات العسكرية، فسقطت في أيديهم المدن الكبرى مثل قرطبة وغيرها. وحينئذ رأى أعلام أسرة «بني خلدون» أن يهاجروا من وطنهم إلى المغرب، فسكنوا مدينة سبتة لفترة قصيرة، ومنها انتقلوا إلى تونس التي كانت تحكمها دولة الحفصيين². وكان من أوائل هؤلاء المهاجرين «محمد» جد «ابن خلدون» المباشر، الذي تولى بعض المناصب الكبرى لسلطان تونس. وأما أبوه «محمد» فقد أثر الاشتغال بالعلم بعيداً عن السياسة.

ولد «عبد الرحمن بن خلدون» في سنة 832 هـ (1332م)، ووجهه أبوه لطلب العلم منذ صباه المبكر، فحضر مجالس علماء تونس الذين كان منهم كثيرون من مهاجري الأندلس، حيث تعلم وحفظ القرآن وهو يافع على يد الشيخ «أبي عبد الله محمد بن سعد»، ودرس العربية على يد أبيه وعلى يد عدد آخر من العلماء والمشايخ منهم «عبد الله محمد بن العربي الحصايري»، و«عبد الله محمد بن الشواش الزرزالي»، وقرأ الحديث على الشيخ «شمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر»، وأخذ الفقه عن «أبي عبد الله محمد بن عبد الله الجياني» وغيره، ولازم آخرين أخذ عنهم العلوم العقلية مثل «أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلبي» الذي أخذ عنه المنطق وسائر الفنون الحكيمة والتعليمية، حيث لازمه «ابن خلدون»، لمدة ثلاث سنوات بعد وفاة والديه في 849 هـ في الطاعون الجارف الذي عم بلاد العالم آنذاك³. كما واصل «عبد الرحمن بن خلدون» حضوره مجالس العلم على يد نخبة من كبار الأساتذة الذين رافقوا السلطان المغربي «أبا الحسن المريني» في غزوته لتونس في

=أسماء أندلسية تأثرت بهذه الصيغة مثل زيدون وحفصون وعبدون... إلخ، راجع: أحمد مختار العبادي،

«ثلاثة رموز عالمية مغربية في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)»، ورقة مقدمة إلى ندوة

عالمية ابن خلدون، مكتبة الإسكندرية، منتدى الإصلاح العربي، 5-7 ديسمبر 2006.

2- الحفصيون من سلالة خلافة الموحدين في مراكش.

3- لمزيد من التفاصيل عن حياة ابن خلدون يمكن الرجوع إلى عبد الرحمن بدوي: مؤلفات ابن خلدون،

المجلس الأعلى للثقافة: 2006، ص9.

سنة 847 هـ. وحينما عاد الكثيرون من هؤلاء إلى المغرب قرر «عبد الرحمن» أن يلحق بهم هناك لكي يستكمل تكوينه العلمي معهم. وقد بدأ «ابن خلدون» حياته العملية مبكرا، فقد عمل وهو في تونس مع «محمد بن تافراكين» حاكمها في عام 852 هـ ككاتب للعلامة أو المسئول عن وضع توقيع وختم السلطان على المراسيم التي يصدرها، وهو في نحو العشرين من عمره، وهكذا جمع بين طلب العلم والاشتغال بالسياسة. وفي فاس استدعاء السلطان المريني «أبو عنان فارس» لكي يتولى الكتابة له، فعمل في خدمته مدة منذ آخر سنة 856 هـ، حيث ضمه السلطان إلى هيئة علمائه التي تبحث في المسائل الدينية والنحوية بحضرة السلطان، ثم عينه بعد ذلك أمينا لشئونه (سكرتيرا)، واستغل «ابن خلدون» وجوده في فاس في النظر والقراءة والتعلم من كبار الشيوخ والعلماء من أهل المغرب والأندلس الوافدين على فاس بغرض السفارة أو الزيارة.

تناول ابن خلدون في الجزء الأول من كتابه المشهور: كتاب العبر، وهو الجزء المعروف بمقدمة ابن خلدون أو «بالمقدمة» فحسب، ارتقاء الحضارات وانحطاطها وأصل الأسر الحاكمة أو أساس الحكم، كما عرف ابن خلدون المنهج التاريخي ليفيد كأساس لتاريخ تفسيري وتعليلي، وهو في هذا سابق لكلا من (مكيافلي) في كتابه: الأمي و (مونتسكيو) في كتابه: (روح القوانين) الذي تعرض فيه لبحث أسباب نهضة الرومان وقوتهم وتدهورهم وانحطاطهم.

وقد حاول بعض الباحثين من أبناء الغرب والشرق على السواء، تحديث فكر ابن خلدون ونظرياته فمهم من جعله مفسرا ماديا للتاريخ، ورائدا للاتجاه المادي في علم الاجتماع، ومنهم من جعله مفكرا علمانيا، لا يقيم وزنا للبعد الديني في نظريته عن مجرى التاريخ الإنساني، كما حاول البعض الآخر من هؤلاء الباحثين لوى عنق بعض الآراء والمفاهيم الخلدونية لدرجة أنه جعل العصبية مرادفة للقومية.

ومن هؤلاء الباحثين من حاول إنكار المنطلق الإسلامي لفكر ابن خلدون ونظرياته، وإلغاء البعد الديني في مقدمته، وانتزاعه من ثقافته الإسلامية انتزاعا.

ويشير (ناتانيلشميت) N.Schmidt الأستاذ بجامعة كورنل بأمريكا أن ابن خلدون «إذا كان يذكر خلال بحثه كثيرا من آيات القرآن، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله، ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه في بحثه متفق مع نصوص القرآن»⁴.

ليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله. نحب أن نوضح أصالة منطلق ابن خلدون الإسلامي، وأن الرؤية الدينية عنده هي مسألة أساسية في منهجه، يضاف إلى ذلك حرص ابن خلدون على تدعيم كل أساسية في منهجه، يضاف إلى ذلك حرص ابن خلدون على

تدعيم كل نظرياته خاصة ما يتعلق منها بالسياسة والاقتصاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانيا: بعض الإسقاطات القرآنية على شؤون السياسة والحكم والاقتصاد
عند ابن خلدون

يجب التوضيح بأن أصالة منطلق ابن خلدون الإسلامي، وأن الرؤية الدينية عنده هي مسألة أساسية في منهجه، يضاف إلى ذلك حرصه على تدعيم كل أساسية في كل نظرياته ومنهجه، خاصة ما يتعلق منها بالسياسة والاقتصاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنذكر منها:

- فيما يتعلق بالمجتمعات وتكوينها الإنساني استدل ابن خلدون بقول الله تعالى: بعد بسم الله الرحمن الرحيم .

﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾⁵، هنا بصدد الحديث عن ضرورة الاجتماع الإنساني.

- وفيما يتعلق بالمنافسة والتسابق بتغليب القبلية والعشيرة للوصول الى السلطة، فنجد استدل بقوله سبحانه وتعالى بـ:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾⁶ وهنا بصدد الحديث على أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك، فالرئاسة لا تكون إلا بالغلب، وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى العصابات، ليقع الغلب منها وتكون الرئاسة لأهلها، فإذا وجب ذلك تعين أن الرئاسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم، إذ لو خرجت عنهم وصارت في العصابات الأخرى النازلة عن عصابتهم في الغلب، لما تمت لهم الرئاسة فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع إلى فرع، ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه لما قلناه من سر الغلب.

- وفيما يتعلق بالمواصفات التي ينبغي أن تتوفر في الحاكم، نجد ابن خلدون استدل بقول الله سبحانه وتعالى بـ: - وهنا أيضا وفي نفس السياق حول الحاكم استدل بقوله عز وجل :

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾⁷ والمعنى هنا أن بن خلدون أراد القول بأن هذه الأرض لو كان فيها إله غير الله لما رحمت البشرية بعضا البعض ولا متلات الأرض فسادا وخرابا.

5- طه: 50.

6- البقرة: 251.

7- الأنبياء: 22.

- وفيما يتعلق بانتساب العصبية والعشائرية والقبلية لأهل القرى والأرياف دون المدن والحضر، فقد استدل بقوله تعالى :

﴿لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون﴾⁸ هنا بصدد الحديث على أن سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل هم أهل العصبية. والمعنى أنه لا يتوهم العدوان على أحد مع تكون العصبية له، وأما المتفردون في أنسابهم فقل أن تصيب أحد منهم نعمة على صاحبه، قلما أظلم الجو بالشر يوم الحرب تسلل كل واحد منهم يبغي النجاة خيفة واستيحاشا من التخاذل فلا يقدرون من أجل ذلك على سكنى القفر لما أنهم حينئذ طعمة لما يهتمهم من الأمم سواهم.

- أما فيما يتعلق بإدارة شؤون الحكم والدولة، استدل ابن خلدون بقوله عز وجل :

﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم﴾⁹ أي هنا يريد الحديث على أن الدول العامة والحصول على الملك أصله الدين ولا يكون غير ذلك، وأن الإنسان محدود الإدراك والتفكير وحتى القدرة اللامتناهية، فبي من سمات الواحد القهار الذي أراد شيء فإنما يقول له كن فيكون وله القدرة على تأليف القلوب مهما تفرقت .

- وفيما يتعلق بالعمر الجيلي للدولة، فنجد ابن خلدون وظف الآية الكريمة الآتية:

﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾¹⁰ أي أنه هنا يريد القول بأن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص تماما، ويظهر من مساق الآية الكريمة ومفهومها أن الحكمة من التيه المقصودة من جراء الانغماس في الترف والنعيم وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلقوا به وأفسدوا من عصبيتهم حتى نشأ في ذلك التيه جيل جديد عزيز، لا يعرف الأحكام والقهر ولا يسام بالمذلة، فنشأت بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلب، ويظهر من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر.

- وفيما يتعلق بتطور الدول والأوطان وانقضاءها فقد استدل بقوله تعالى :

﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾¹¹، هنا بصدد الحديث على أن الحضارة غاية العمران، ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده. فإذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات والمعاصي وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منه جملة، ولا تزال في انتقاص

8- يوسف: 63.

9- الأنفال: 63.

10- الأحقاف: 15.

11- الإسراء: 16.

الى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعيًا عليهم في سلب ما كان الله قد أتاهم من الملك وجعل في أيديهم الخير.

﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه﴾¹²، بصدد الحديث عن حقيقة الرزق والكسب وأنه قيمة الأعمال البشرية، وإنما على الإنسان السعي لكسب القوت والرزق، فالله جعل لكل شيء سبباً.

كما يتأكد البعد الإسلامي عند ابن خلدون من خلال اختتامه كل فصل من فصول مقدمته بأية قرآنية أو أكثر بلغ عددها أربعاً وعشرين آية مضافاً إليها بعض الأحاديث النبوية الشريفة والدعاء إلى الله بالسداد، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر.

- فصل في حقيقة الملك، يختمه بالآية الكريمة ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾¹³.

- فصل في أن الملك والدولة إنما يحصلان بالقبيلة والعصبية، يختمه بقوله تعالى: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾¹⁴.

- فصل في أن الرئاسة على أهل العصبية، يختمه بقوله تعالى: ﴿عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾¹⁵.

- فصل في أن البيت والشرف لا يكون إلا بالأصالة، يختمه بالآية الكريمة: ﴿والله بكل شيء عليم﴾¹⁶.

- فصل في الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب، يختمه بقوله تعالى: ﴿الله غني عن العالمين﴾¹⁷.

- فصل في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط، يزيله بقوله تعالى: ﴿وهو الواحد القهار﴾¹⁸، والمعنى هو أنه كلما كانت الأمة أكثر وحشية كان ملكها أوسع، وذلك لأنهم أقدر على التغلب والاستبداد واستبعادهم على الطوائف لقدرتهم على محاربة الأمم سواهم

- فصل في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها، يختمه بقوله تعالى: ﴿وقل رب زدني علماً﴾¹⁹ وأنت أرحم الراحمين²⁰.

12- الجاثية: 13.

13- الأنعام: 61.

14- الأنعام: 101.

15- الأنعام: 73.

16- الحجرات: 16.

17- آل عمران: 97.

18- الرعد: 16.

19- طه: 114.

- فصل في أحوال الموالي والمصطنعين والمظللين في الدول يختمه بقوله تعالى: ﴿والله ولي المؤمنين﴾²¹، ﴿وهو على كل شيء قدير﴾²².

- فصل في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضرة، يختمه بهذا المعنى القرآني ﴿الله يخلق ما يشاء﴾ والأصل القرآني هو ﴿يخلق الله ما يشاء﴾²³. والمعنى هنا أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه، فالذي ألفه من الأحوال حتى صار خلقا وملكا وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبل، اعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيرا صحيحا.

- فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين، يختمه بقوله تعالى: ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾²⁴. والمعنى هو أن سبب التوحش الذي فيهم وأصعب الأمم انقيادا لبعضهم البعض نظر للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة فقلما تجتمع أهواءهم فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم الدين المذهب للغلظة والأنفة والوازع عن التحاسد والتنافس، فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذ بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق ثم اجتماعهم حصل لهم التغلب والملك وهم مع ذلك أسرع الناس قبول للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق.

- فصل فيما يتعلق بأن من عوائق الحصول على الملك انغماس القبيلة في الترف والنعيم، يختمه بقوله تعالى: ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾²⁵. والسبب في ذلك هو أن القبيلة إذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب، استولت على النعمة بمقداره، فعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء، فضلا عن الملك، فإن عوارض الترف والغرق في النعيم كاسر من سورة العصبية التي بها التغلب، وإذا انقضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلا عن المطالبة والتهمة الأمم.

- فصل في الجباية والضرائب وسبب قتلها وكثرتها، يختمه بالآية الكريمة: ﴿بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾²⁶. ويلحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيلة من جراء المغارم والضرائب، لأن هذه الأخيرة ضيما ومذلة لا تحتمله النفوس الأبية إلا إذا استهوتته عن

20- الأنبياء: 83.

21- آل عمران: 68.

22- الشورى: 09.

23- النور: 45.

24- البقرة: 247.

25- البقرة: 247.

26- ياسين: 83.

القتل والتلف، وأن عصبيتهم حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية، ومن كانت عصبيته لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة والمطالبة وقد حصل له الانقياد والذل، والمذلة عاتقة كما قدمناها، ومن قوله صلى الله عليه وسلم في شأن الحارث لما رأى سكة المحراث في بعض دور الأنصار "ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الذل"، فهو دليل صريح على أن المغرم والضرائب موجب للذلة.

- ونجد أيضا له فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران، يستشهد فيه بقوله تعالى: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾²⁷.

- كما نجد لابن خلدون فصل أيضا في أن أي أصناف الناس له أن يحترف بالتجارة، يختمه بالآية الكريمة: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾²⁸. والمعنى هنا هو أن صاحب العصبية إذا بلغ رتبة طلب ما فوقها فإذا بلغ رتبة السؤدد والإتباع ووجد السبيل إلى للتغلب القهر والإتباع لا يتركه لأنه مطلوب للنفس ولا يتم الاقتدار عليها إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعا، فالتغلب الملكي غاية العصبية، كما رأيت، ثم أن القبيل الواحد وأن كانت فيه بيوتات متعددة وعصبيات متفرقة، فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى.

- كما له فصل في نقل التجار للسلع ويختمها بهذا المعنى القرآني: ﴿الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ والأصل القرآني هو: ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾²⁹.

- وفصل أيضا في أن خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة عن المروءة، ويختمه بالآية الكريمة: ﴿والله خلقكم وما تعلمون﴾³⁰.

هذا بعض من الإسقاطات للنصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة للمفكر الإسلامي وعالم الاجتماع ابن خلدون على شؤون السياسة والحكم والاقتصاد والحياة العامة للمجتمع سواء كان في البدو أو الحضر، وهي بمثابة ردود على كل من أطلق على ابن خلدون على أنه مفكر علماني وبعيدا عن الدين الإسلامي، وقد حاول بعض الباحثين من أبناء الغرب والشرق على السواء، تحديث فكر ابن خلدون ونظرياته فمنهم من جعله مفسرا ماديا للتاريخ، ورائدا للاتجاه المادي في علم الاجتماع، لا يقيم وزنا للبعد الديني في نظريته عن مجرى التاريخ الإنساني، كما حاول البعض الآخر من هؤلاء الباحثين لو بعمق بعض

27- فصلت: 46.

28- البقرة: 251.

29- الذاريات: 58.

30- الصافات: 16.

الآراء والمفاهيم الخلدونية لدرجة أنه جعل العصبية مرادفة للقومية، حيث أثبت ابن خلدون أن الدين هو أصل نشأة الدولة والحضارة وتطورهما، لأن هي جمع الناس تحت لواء عقائدي ويؤلف بينهم تحت كنف الإله والأنبياء المرسلين.

ثالثاً: مفهوم الدولة عند ابن خلدون:

حاجة الإنسان إلى الاجتماع والحكم:

تلعب الحاجات الإنسانية دوراً بارزاً في نشأة العمران وتطوره، وبقاء الإنسان والجماعات البشرية، فيما يرى ذلك ابن خلدون، مرهون بأمرين أساسيين هما: القوت أو الغذاء الذي يضمن الحياة. والدفاع الذي يقي الإنسان من أخطار الطبيعة وتحدياتها. وإن كلا من الأمرين يقتضي الاجتماع البشري بين المرء وبني جنسه، والتعاون بين الناس من أجل الحفاظ على استمرار بقاء هذا التجمع الإنساني.

ويوضح ابن خلدون ما سبق بإشارته إلى قصور قدرة الواحد من البشر عن تحصيل حاجته من الغذاء، وضرورة الاجتماع الإنساني من أجل تحصيل الغذاء الذي به قوام وجوده فيقول:

إن الله سبحانه خلق الإنسان، وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهده إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله. إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء.

إن طبيعة الإنسان الذي فطر على الخير والشر والتعاون والعدوان، تحتم، إذن، وجود هذا الوازع لاستقامة أمور الحياة المدنية وعدم تعرض الإنسان للفناء أو الهلاك.

لقد أجمع فقهاء الإسلام على ضرورة قيام الحكم في الإسلام، وأنه فرض على الأمة كلها وهي مسئولة عن أدائه، وأن أمر الدين، لا يستقيم إلا باستقامة أمور الدنيا: أن الدين يتطلب إقامة الشعائر، وتنفيذ الأحكام، وإقامة العدل، وحماية الأموال وإقامة الحدود، وتحصين البلاد والدفاع عنه ضد الأعداء وجباية الأموال المستحقة على الفادرين، وتوزيع الصدقات على المحتاجين، وإدارة شؤون الدولة بمهارة وبراعة، وكل هذا يتطلب وجود «السلطان الحاكم الوازع».

وقد درس ابن خلدون ظاهرة الخلافة الإسلامية لما لها من أهمية بالغة في حياة المجتمع الإسلامي. ويجدر بنا هنا³¹ أن نعرض رأي ابن خلدون لظاهرة الخلافة من الناحية السياسية فحسب، فقد نشأت هذه الظاهرة بعد موت الرسول مباشرة وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، إذ

31- راجع: د. مصطفى الخشاب: النظريات والمذاهب السياسية، مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة، الطبعة الثانية 1378 هـ- 1958 م ص ص130.

اضطرتهم طبيعة الاجتماع وظروف الدولة، والمحافظة على الدين الجديد أن يختاروا خليفة للرسول، رئيسا أعلى يتولى أمورهم إذا أن هذا المنصب هو نيابة عن صاحب الشريعة، ومهمته حفظ الدين وسياسة الدنيا. وهو يختلف في طبيعته عن وظيفة الملك أو الحاكم السياسي، ووظيفته أعم وأشمل لأنه ينظر في تنظيم شؤون الناس الدنيوية والأخروية، وتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة. وستتضح لنا هذه التفرقة عندما نتحدث عن أنواع الحكم عند ابن خلدون.

«إن الدولة العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين إما من نبوة، أو دعوة حق، وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة، وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه...»³². ويدعم ابن خلدون رأيه بقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَفْتَيْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾³³.

إن الدين، عند ابن خلدون، هو أصل نشأة الدولة والحضارة وتطورهما، لأنه يجمع الناس تحت لواء عقائده ويؤلف بينهم تحت كنف الإله والأنبياء المرسلين.

ومعنى هذا أن نصب الإمام، وكما يرى ذلك ابن خلدون، وجماعة أهل السنة التي ينتمي إليها، واجب شرعا لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من مات ولم يعرف إمام زمانه، فقد مات ميتة جاهلية» ولأن المسلمين قد جعلوا أهم المهمات بعد وفاة النبي عليه السلام نصب الإمام وفي هذا يقول ابن خلدون:

وقد لعب الدين الإسلامي دورا مؤثرا في أحداث التاريخ الإسلامي، وتأسست الدولة الإسلامية في عهد الرسول الكريم والخلفاء الراشدين، وتوطدت دعائمه انطلاقا من الدين الحنيف، ومن حقائق التاريخ الثابتة، ذلك الارتباط الوثيق بين الدين والدولة في الإسلام خاصة في العصور الأولى.

إن ابن خلدون يقرر إذن، وبكامل الوضوح إن الدين من أسس قيام الدولة، وشرط ضروري لها.

دستور الحكم:

بعد أن حدد ابن خلدون الخلافة نظاما أمثل للحكم، أتى بعد ذلك بكتاب طاهر بن الحسين مظهرا إعجابه به وتقديره العميق له من خلال تعقيبه عليه. وقد قدم طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله من النصائح والوصايا في كتابه ما يمكن أن نسميه بدستور مكتوب للحكام في جميع شؤون الحكم من إدارة وقضاء ومالية ودفاع وصحة وعمارة وأوضح فيه ما يجب أن يتحلى به الحاكم في معاملاته مع مرءوسيه بخاصة، وجمهرة الناس

32- ابن خلدون: المقدمة 2/636.

33- الأنفال: 63.

بعامة. وقد احتل كتاب طاهر بن الحسين في تفكير ابن خلدون مكانا كبيرا نظرا لأصوله الإسلامية ونزغته الأخلاقية، وعناصره الشرعية واتجاهه التربوي في الاجتماع والسياسة.

وتلك مقتطفات من كتاب طاهر بن الحسين:

«عليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته، ومراقبته عز وجل ومزايلة سخطه، واحفظ رعبتك في الليل والنهار.

«الزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ومسؤول عنه، والعمل في ذلك كله بما يعصمك من الله عز وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه.

«اعتصم في أحوالك كلها بالله سبحانه وتعالى، والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسننه، وبإقامة دينه وكتابه، واجتذب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله عز وجل.

ولا تملين عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد. وأثر الفقه، وأهله والدين وحملته، وكتاب الله عز وجل والعاملين به. فإن أفضل ما يتزين به المرء الفقه في الدين والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به الله تعالى فإنه الدليل على الخير كله، والقائد إليه والأمر به والنهي عن المعاصي والموبقات كلها.

وآل من صافاك من أوليائك بالأفضال عليهم وحسن العطية لهم واجتذب الشح واعلم أنه أول ما عصى الإنسان به ربه، وأن العاصي بمنزلة الخزي، وهو قول الله عز وجل: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾³⁴.

ويمكن لنا أن نجعل أهم أسس نظام الحكم التي اختارها ابن خلدون وأعجب بها أثناء عرضه لكتاب طاهر الذي أوردنا فقرات مجزئة منه كنموذج لمنهج الحكم في المجتمع البشري الذي أبدع نظريته.

الإيمان بالله تعالى وبوحدانيته، والتوكل عليه والتسليم بقضائه، والاعتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام في أقواله وأحواله، والحرص على أداء الفرائض والسنن، وشكر الله على نعمه.

الإيمان بهيمنة الله وسيطرته على أمور العالم ومصائر البشر، وإن الملك له يؤتية من يشاء وينزعه ممن يشاء.

وتنحصر أنواع الحكم، عنده في ثلاثة:

1- الملك الطبيعي العلماني الاستبدادي، وهو «حمل الكافة على مقتضى الغرض

2- الملك السياسي العقلي الوضعي، وهو «حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة».

3- الخلافة السماوية الشرعية، وهي «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدينيوية الراجعة إليها.. فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا»³⁵.

إن الملك الطبيعي الفردي هو ثمرة العواطف والغرائز الإنسانية من ميول وأهواء كحب الذات، والرغبة في الاستعلاء والاستبداد والسعي إلى تحقيق المطامع الفردية الأنانية. وتشترك في هذا النوع من الحكم جميع الأمم التي يحتكر الحكم فيها طاغ مستبد، لا يعتمد في حكمه على سياسة عقلية أو سياسة شرعية، ويهدف إلى تحقيق المصالح الأنانية الضيقة له. وهذا النوع الاستبدادي من الحكم مذموم عند ابن خلدون. ويرى ابن خلدون أن مآل هذا الحكم الانهيار، لأن الناس لا يوافقون على منح ولأهم لحاكم استبدادي ظالم، فيعلنون العصيان فتندب القلائل وتسفك الدماء مما يؤذن بنهاية حكمه.

أما النوع الثاني من الحكم فهو الحكم أو الملك السياسي الوضعي الذي عرفه الفرس، الذين كانوا يستندون فيه إلى قوانين وضعية زمنية خلافا لنظام الملك الطبيعي الضار السابق الإشارة إليه.

إن الملك السياسي يعتمد، إذن على قوانين وضعية، يضعها فلاسفة الدولة وعظمائها بدون أن ينظر فيها إلى الشرع، وهدفهم من هذه القوانين جلب المصالح الدينيوية ودفع المضار. وهذا النوع من الحكم مذموم أيضا عند ابن خلدون، وإن كان يحلوه في بعض الأحيان مدحه، حيث يخضع الناس فيه لقوانين عقلية بدلا من الخضوع للحكم الاستبدادي الفردي أو الأوتوقراطي أو غير الدستور. ثم إن هذه القوانين الوضعية العقلية الزمنية التي يعتمد عليها هذا الحكم تكفل للدولة الهدوء والاستقرار والثبات اللازمة لضمان بقاء العمران.

وعلى ذلك فلا بد من نظام ثالث للحكم وهو الخلافة التي تتطابق فيها السياسة والشرعية، فتكون السياسة شرعية، تعتبر أحكام الشريعة فيها السلطة العليا ذات السيادة. والخلافة، بهذا، هي نظام يوحي به الله بواسطة الأنبياء ويراعي فيه جلب المنافع ودفع المضار ومصالح الناس الأخروية من جلب المنافع ودفع المضار أيضا. وفي هذا يقول ابن خلدون في

35- ابن خلدون: المقدمة 2/ 688.

تعريفه نظام الخلافة بأنه: «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدينية الراجع إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»³⁶.

ومما لا شك فيه أن النظرية السياسية الاقتصادية المثالية تستند بالأصالة إلى دعائم أخلاقية، لذلك يحرص أصحابها دائما على تعزيز معاني العدالة المثلى والفضيلة العليا والخير الأعلى، وليس من المستطاع إلى حد بعيد أن نعزل الفكرة السياسية (والاقتصادية) عن المعنى الحقيقي للأخلاق، ولذلك فحتى عند أولئك الذين توهموا أنهم فصلوا بين الأخلاق والسياسة (والاقتصاد)، نلاحظ أن بعض العناصر الأخلاقية قائمة في صميم نظرياتهم. ولعل السبب العميق في هذا هو أن المجتمع الإنساني، مهما تكن طبيعته، وأيا كانت مقوماته، مجتمع ينهض على بعض القيم الأساسية المرتبطة بالخير والفضيلة والمساواة والعدالة والحق والواجب. فإغفال القيم الأخلاقية في نظرية من النظريات هو إغفال متعمد من صاحبها واتجاه منه إلى الإشادة بالغرائز الأنانية التدميرية الكائنة في الإنسان.³⁷

خاتمة

إن الحياة المحتضرة في نظر ابن خلدون، توجب اللجوء إلى قوانين سياسية ملزمة يقلبها الناس عن رضا واقتناع، يكون مصدرها شرع الإسلام المستمد من أصول أربعة هي القرآن والسنة والإجماع والقياس. مثل تلك القوانين يمكن أن تحقق الصالح العام للمجتمع، وترشد الناس إلى ما هو أقوم في حياتهم الدنيوية والأخروية على حد سواء. وحكومة الخلافة، بهذا، تعد خير حكومة لما فيها من حفاظ على مصالح الناس في دنياهم وسلامة مصيرهم في آخرتهم.

ثم إن لأحكام الشريعة وظيفة دنيوية تتمثل في تخلي الناس عن عاداتهم المتخلفة وقبولهم الحكم المستلهم من وحي السماء، فنجد الدين يعمل على القضاء على التنافس والتحاسد بين الناس، وتميز بقدرته على تأليف القلوب وعلى الانقياد للحاكم والإقبال على الله. وكان له دور كبير في جمع العرب على كلمة واحدة، وتمكينهم من الملك.

36- المصدر السابق 2/ 688.

37- محمد فتحي الشنيطي: نماذج من الفلسفة السياسية، مكتبة القاهرة الحديثة 1961.

قائمة المراجع

- ابن خلدون: المقدمة .
- عبد الرحمن بدوي: مؤلفات ابن خلدون «المجلس الأعلى للثقافة: 2006.
- مصطفى الخشاب: النظريات والمذاهب السياسية، مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة، الطبعة الثانية 1378 هـ- 1958 م.
- محمد فتحي الشنيطي: نماذج من الفلسفة السياسية، مكتبة القاهرة الحديثة 1961.
- أحمد مختار العبادي، «ثلاثة رموز عالمية مغربية في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)»، ورقة مقدمة إلى ندوة عالمية ابن خلدون، مكتبة الإسكندرية، منتدى الإصلاح العربي، 5-7 ديسمبر 2006.

Ibn Kaldoun: Historian, Sociologist, and Philosopher

تنزيل القرآن على الواقع عند الإبراهيمي من خلال الآثار

ط.د/ رضوان بن قروط ، إشراف: أ.د/ لخضر حداد

كلية العلوم الإسلامية – جامعة الجزائر1

Kerroutradouane442@gmail.com



الملخص

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء حول تنزيل القرآن عند البشير الإبراهيمي على الواقع، من خلال كتابه الآثار؛ مجلية تميز الإبراهيمي في هذا الباب من خلال تأكيده على أهمية ربط الأمة بالقرآن لمعالجة أدوائها، وجعله ميزان أعمالها الظاهرة والباطنة، وتنزيله على واقعها تنزيل عمل واهتداء، وقد أعاد وأبدأ فيه، بالإضافة إلى تطبيق عملي من خلال كتاباته في تنزيل الآيات على واقع الأمة، وإن لم يكن متصديا للتفسير؛ ولكن الإبراهيمي له منهج أصيل في ذلك، قد يكون مشرعا للسالكين في هذا المضمار، يهتدي به من أراد تنزيل القرآن على الواقع، وهو ما رام الباحث بيانه وكشفه في هذه الورقات.

الكلمات المفتاحية: تنزيل القرآن، الواقع، الإبراهيمي.

Abstract

This research paper aims to shed light on the reality of the revelation .of the Qur'an by Al-Bashir Al-Ibrahimi through his book Al-Athar. showing the iBrahimi distinction in this section by emphasizing the importance of linking the nation with the Qur'an to treat its medicines, making it the balance of its visible and inward actions, and put it on reality,for work and guidance, and he repeated and started it, in addition to a practical application through his writings in downloading verses on the reality of the nation. He was not opposed to the interpretation, but the Ibrahimi has an original approach to that, which may be a legislator for those who follow in this field, as a guide for those who want to download the Qur'an to reality, which is what the researcher intended to explain and reveal in these papers.

Keywords: sending down the Qur'an, reality, the ibrahimi.

1-المقدمة:

الحمد لله رب العالمين الذي أنزل خير كتبه على خير رسله، واختار لحمله من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين؛ القائمين عليه بالتدبر والتفكر، وآله وصحبه أما بعد:

فقد شهد العصر الحديث بتلاحق أحداثه، وتوالي محدثاته، محنة للمسلم، فرضت عليه تساؤلات وجودية عن سبب هذا التقهقر الحضاري، وكان من بين الرؤى التي تدعى من أجلها المصلحون ضرورة العودة إلى المنبع الأصل إلى النص القرآني، هذا المعين الذي لا ينضب، والمورد الذي لا يكدركه كثرة الواردين والصادرين، وذلك حتى يجتنى هداه، وكان القائم على هذا الأمر ورثة الأنبياء من المصلحين؛ من ذلكم علامة الجزائر البشير الإبراهيمي، فقد كانت له عناية بإصلاح الأمة، وإيقاظها من غفلتها، وتنبيهها من سعتها، وبعث الروح فيها، وإذكاء نار العزة في جنبها، فقد كثرت في وقته أدواؤها وتعددت أسقامها، فيمم العلامة الإبراهيمي شطره نحو القرآن؛ موظفا إياه في دروسه وخطبه، ومنوها بمكانه من عملية الإصلاح، فعل الطبيب الحاذق الذي يختار من الأدوية ما هو أنفع وأجدى، وأوفق للظفرة والطبع السليم، بعيدا عن التكلف، لأجل ذلك رام الباحث أن يجعل ورقته البحثية تتناول هذه الحيثية ألا هي توظيف القرآن في الإصلاح وتنزيله على واقع الأمة في إبانها، لأجل أن نتبين فيها منهجه حتى نهتدي بمنارهم، ونقتدي بمسلكهم في ذلك، وهذه الحيثية والاهتمام بها على هذه الخصوصية فيما أعلم لم تطرق بعد، وإن كانت البحوث حول شخصية المصلح البشير الإبراهيمي كثيرة حول بلاغته وبيانه، وقد سلكت في ذلك الخطة الآتية بعد المقدمة ترجمة موجزة تعريف بتنزيل القرآن على الواقع وأنواعه وشروطه وضوابطه وفوائده، أما المبحث الثاني فتناولت فيه توظيف البشير الإبراهيمي للقرآن في الإصلاح: الأول مجملا والثاني مفصلا هذا الأخير ينقسم إلى قسمين: التصريح والتلميح وفي الأخير خاتمة تتضمن أهم النتائج والتوصيات. وقد عرف البحث بعض الصعوبات منها أن البشير الإبراهيمي لم يكن متصديا لتفسير القرآن فالمادة العلمية مبثوثة في مقالات وخطب، والميزة الثانية أن كثيرا منها مرتجل على الطريقة الخطابية في مخاطبة الجمهور ما جعلها تتميز بمميزات خاصة كالاستطراد.

وهذا لا ينقص من أهمية البحث فهي حول إمام كامل الآلة، له منهج أصيل يسهم البحث في تبين تقاسيمه، وطريقته.

2-ترجمة موجزة للبشير الإبراهيمي:

هو محمد بن بشير بن عمر الإبراهيمي ولد 1306هـ الموافق 1889 م رائد من رواد النهضة الجزائرية من كبار العلماء. ولد ونشأ بدائرة سطيف في قبيلة ريغة الشهيرة بأولاد إبراهيم (ابن يحيى بن مساهل) من أعمال قسنطينة وتفقه وتآدب بعلمه عالم البلد آنذاك محمد المكي ثم رحل إلى المشرق (سنة 1911) فأقام في المدينة إلى سنة 17 وفي دمشق إلى حوالي 1921 وعاد إلى الجزائر وقد نشطت حركة عبد الحميد ابن باديس ساهم في إنشاء جمعية العلماء (1931) وتولى ابن باديس رئاستها والإبراهيمي النيابة عنه. وأبعد رحمه الله إلى أفلو في الصحراء (1940)

وبعد أسبوع من وصوله إلى المعتقل توفي ابن باديس، وقرر رجال الجمعية انتخاب إبراهيمي لرئاستها. واستمر في (معتقل أفلو) من سنة 1940 - 43 وأطلق. فأنشأ في عام واحد 73 مدرسة بل كتاباً، وكان الهدف نشر اللغة العربية. وجعل ذلك عن طريق تحفيظ القرآن الكريم، إبعاداً لتدخل سلطات الاحتلال. وتهافت الجزائريون على بناء المدارس فزادت على 400 وزج في السجن العسكري (سنة 45) وعذب. وأفرج عنه فقام بجولات في أنحاء الجزائر لتجديد النشاط في إنشاء المدارس والأندية. ثم استقر (سنة 52) في القاهرة واندلعت الثورة الجزائرية الكبرى (54) فقام برحلات إلى الهند وغيرها لإمدادها بالمال. وعاد إلى الجزائر بعد استقلالها وتوفي سنة 1385هـ = 1965 م. وكان من أعضاء المجامع العلمية العربية في القاهرة ودمشق وبغداد. وله شعر منه (ملحمة) في تاريخ الإسلام والمجتمع الجزائري والاستعمار، قال: أنها 36 ألف بيت وكان ينشر مقالاته في جريدة البصائر، بالجزائر وهو رئيس تحريرها، فجمعت المقالات في كتاب (عيون البصائر - ط) وهو من خطباء الارتجال المفوهين.

وله كتب ما زالت مخطوطة، منها (شعب الإيمان) في الأخلاق والفضائل، و (التسمية بالمصدر) و (أسرار الضمائر العربية) و (كاهنة أوراس) قصة روائية و (نشر الطي من أعمال عبْد الحَيّ) ابن عبْد الكبير الكتاني، في نقد سيرته. وخصه محمد الطاهر فضلاء، بجزء مستقل من كتابه (أعيان الجزائر) سماه (الإمام الرائد محمد البشير الإبراهيمي - ط)¹

3-تنزيل القرآن على الواقع:

يعد هذا المبحث في الدراسات القرآنية جديدا في نوعه، أصيلا في مقصده، إذ هو الغاية والمقصد من إنزال القرآن الكريم، وهو الهداية للتي هي أقوم، ولكنه كمبحث مفرد فإنه من اهتمامات العصر؛ نظرا لتعقد الواقع والحاجة إلى تنزيل القرآن عليه، وشده إليه برباط علمي وثيق، يحلل أجزاءه، ويعالج مكنوناته، وقد أشار إلى أهمية ذلك العلماء؛ قال ابن القيم بعد أن فسر معنى بعض الآيات: "فَكَفَى بِهِذِهِ الْآيَةِ نُورًا، وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً، وَتَجْرِيدًا لِلتَّوْجِيدِ، وَقَطْعًا لِأَصُولِ الشِّرْكِ وَمَوَادِّهِ لِمَنْ عَقَلَهَا، وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ أَمْثَالِهَا وَنَظَائِرِهَا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْعُرُونَ بِدُخُولِ الْوَاقِعِ تَحْتَهُ، وَتَضَمُّنِهِ لَهُ، وَيَظُنُّونَهُ فِي نَوْعٍ وَفِي قَوْمٍ قَدْ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يُعْقِبُوا وَارِثًا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ الْقُرْآنِ".

وَلَعَمْرُ اللَّهِ إِنْ كَانَ أَوْلَئِكَ قَدْ خَلَوْا، فَقَدْ وَرِثَهُمْ مَنْ هُوَ مِثْلُهُمْ، أَوْ شَرٌّ مِنْهُمْ، أَوْ دُونَهُمْ، وَتَنَاوُلُ الْقُرْآنَ لَهُمْ كَتَنَؤُلِهِ لِأَوْلَئِكَ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّمَا تَنْقُضُ عَرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، إِذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْجَاهِلِيَّةَ".²

وقال في موضع آخر: "وَالنَّاصِصُ لِنَفْسِهِ. الْعَامِلُ عَلَى نَجَاتِهَا: يَتَدَبَّرُ هَذِهِ الْآيَاتَ حَقَّ تَدَبُّرِهَا. وَيَتَأَمَّلُهَا حَقَّ تَأَمُّلِهَا. وَيُزِيلُهَا عَلَى الْوَاقِعِ: فَيَرَى الْعَجَبَ. وَلَا يَظُنُّهَا اخْتَصَصَتْ بِقَوْمٍ كَانُوا قَبَانُوا. فَالْحَدِيثُ لَكَ. وَاسْمِعِي يَا جَارَةَ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ"³ فتزيل القرآن على الواقع في النفس، والأهل

¹ يتصرف من الأعلام للزركلي (54/6) ينظر ترجمته: في الآثار ج5، ص299/290/273/164.

² مدارج السالكين، ابن القيم، ج1، ص351.

³ مدارج السالكين، ابن القيم، ج2، ص267.

والأحوال والمقامات هو غاية عظيمة ومقصد جليل من مقاصد القرآن.

3-1. تعريفه: "هو مقابلة الأحداث المعاصرة للمفسر بما يشاهدها في كتاب الله تعالى، سواء

كانت المقابلة تامة أو جزئية أو مخالفة لما عليه الآية."⁴

وتنزيل القرآن على الواقع له نظير؛ هو نزول القرآن منجما على الحوادث والواقعات، وما يذكر من أسباب النزول، والأسئلة الواردة في القرآن من نحو يسألونك، أو ما نزل في حوادث مشهودة كغزوة بدر وأحد أو ما كان في بداية الدعوة من تسلية الرسول كسورة الضحى وغير ذلك كثير، ولكن الأول قطعي والثاني نظري اجتهادي، وكما أن حكمة الله اقتضت تنزيهه مفرقا منجما لحكم عالية وغايات عظيمة وردت في القرآن من نحو التثبيت والبيان وغيرها قال تعالى: وقال الذين كفروا لولا نزل القرآن...." الآية.

فلا يعزب عنا أن القرآن كتاب هداية نزل على مقتضيات الرحمة الإلهية؛ من إنزال الكتب وبعث الرسل، للهدى، والبيان، وإزالة الخلاف فإنه محل الاهتمام في كل زمان، ومكان؛ ولذا قال العلماء العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.⁵

فتنزيل القرآن على الواقع لم يزل ديدن العلماء، وما هذه الثروة الفقهية إلى مجال فسيح لتنزيل النصوص على الوقائع، والنوازل وهو ما يعرف في الفقه بفقه النوازل.

3-2. أنواعه: يقسم المهتمون بهذا الشأن تنزيل الآيات على الواقع إلى نوعين:

3-2-1. النوع الأول: تنزيل التصريح:

هو أن يذكر المفسر ما يصح أن ينزل عليه معنى الآية بنوع من الدلالة، وله ألفاظ مختلفة جرت عادة المفسرين أن يستعملوها لهذا الغرض، كأن يقول وهذا مثل ما يحصل في زماننا ونحو ذلك من العبارات التي يستفاد منها دخول هذه الواقعة بنوع من الدلالة المعتبرة تحت دلالة الآيات.

3-2-2. النوع الثاني: تنزيل التلميح:

هو أن يلمح المفسر، أو يعرض بدخول الوقائع تحت دلالة الآيات من طرف خفي، لسبب ظاهر من نحو خوف سلطان، أو خفي من نحو حكمة اجتماعية.⁶

3-3. شروطه وضوابطه:

يذكر المهتمون بهذا الباب بعض الضوابط في تنزيل القرآن على الواقع؛ نجملها في النقاط الآتية:⁷

سلامة المقصد في التنزيل وهو ضابط ذاتي؛ ليخرج القائل من الهوى، وسائر الغواشي المانعة من إصابة الحق.

ثانيا أن يكون ممن عرف بالعلم، واستجماع آله؛ حتى يسلم من مغبة القول على الله بلا

⁴ تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر، ص33.

⁵ ينظر مقدمة التفسير لابن تيمية، ص16.

⁶ ينظر: تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر ص71.

⁷ ينظر: تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر ص89.

علم، فمن تكلف ما ليس في طوقه، فقد أوبق نفسه، وأقحمها فيما لا تزول تبعته. ثالثاً أن يكون بصيراً بالواقع، بصيراً بمواقع الدلالة، وكيفية وقوعها على مدلولاتها بأصناف الدلالات المعتمدة شرعاً، ومبحث هذا في أصول الفقه، ولا يتوسل بعلوم لا تتأسس على أصل مكين من القرآن والسنة وفقه الصحابة، وطريقتهم في فهم النصوص.

3-4. فوائد:

يذكر من فوائد تنزيل القرآن على الواقع⁸:

أن يحيي القرآن في القلوب، ويكون المرأة الصقيمة التي تري عيوب واقعنا ويهتدي بها في ظلمات الجهل والشك. وأكرم بها فائدة إذ بها سعادة الدنيا والآخرة. كما تتضمن فوائد أخرى كتوثيق التاريخ والواقع، معرفة تفاعل العلماء مع الأحداث وغيرها من الفوائد.

4. توظيف البشير الإبراهيمي للقرآن في الإصلاح من خلال الآثار:

بالتأمل فيما ترك العلامة البشير الإبراهيمي من آثاره، فإنه يتبين أن توظيفه للقرآن كان على سبيل الإجمال من الدعوة إلى تحكيم القرآن، وتعظيم شأنه، وأنه طريق الفلاح والخلاص، وبيان مخالفة الكثير من العوائد للقرآن على سبيل الإجماع، وفي هذا الأسلوب شحذ الهمة في الرجوع إلى القرآن ووزن الأعمال به.

أما الطريق الثانية فهي الاستدلال بأي القرآن تصريحاً، أو تلميحاً وقبل ذلك يحسن أن نبين توظيف القرآن في الإصلاح على سبيل الإجمال.

4-1. منزلة القرآن عند البشير الإبراهيمي عملاً واستدلالاً: لم يفتأ الإبراهيمي من الدعوة إلى الرجوع إلى هدي القرآن، والسنة النبوية، ومن يطالع كتاب الآثار يجد العدد الجم من الموضوعات التي تطرق فيها إلى أثر القرآن في نهضة الأمة، وأنه المرقاة لعلوها ورفعها؛ يقول رحمه الله: "وقد كانت هذه الأمة معرضة عن القرآن مشغولة عنه بما لا يفيد، معتقدة فيه العقائد السخيفة مستغنية عن فهمه بحفظه مع تقصيرها في أداء لفظه، مستعينة عن تلاوته بتلاوة الأوراد والأذكار، وعن دراسته بدراسة كتب جافة من وضع المخلوق لا تبعث في النفس نشاطاً ولا تنشر في القلوب حياة ولا تغرس في الأفئدة فضيلة، ولا تقتلع منها رذيلة، ولا تشرف على القلوب المظلمة بنور، ولكنها بدأت اليوم ترجع إلى القرآن وتستجلي أنوار الهداية وأسرار الكائنات من آياته، وتأخذ الحياة قوية من تعاليمه، وكأنها برجعها إلى القرآن تجدد نفسها وتستأنف في الحياة تاريخها، وعسى أن تنتهي من هذه الوجهة الجديدة إلى غايتها، فتنتهي إلى السعادة والخير".⁹

ويشير أيضاً إلى عودة هذه الروح تسري من جديد في أهل الجزائر بفضل الله، ثم بفضل نشاط جمعية العلماء يقول رحمه الله: "نجحت الجمعية أيضاً في إلفات الأمة إلى القرآن وفي

⁸ ينظر: تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر ص 79.

⁹ آثار الإبراهيمي، ج 1، ص 284.

جمعها عليه وحملها على التدبر في معانيه، لتأخذ منه كل نفس على قدر استعدادها وتستشير من عبره وزواجه ما يسوقها إلى الخير ويزعجها عن الشر حتى يكون المؤمن مسوقاً بالقرآن مديراً به. وسنرى من تأثير القرآن في النفوس ما يحقق الأمنية التي تاق إليها حكماء الأمم وأعيانهم الوصول إليها، وهي الكمال الروحي من طريق سمو الأخلاق وهي الغاية التي وصل إليها سلفنا وما وصلوا إليها إلا بالقرآن.¹⁰

2-4. مسالك تنزيل القرآن على الواقع عند إبراهيمي:

يحسن بنا تأصيلاً للمسألة أن نشير أن تنزيل القرآن على الواقع عند إبراهيمي سلك فيه مسلكان:

1-2-4. الأول: صريح يشير فيه إلى بعض الوقائع، وتنزيل الآية إما بالموافقة، أو المخالفة وهذا يأتي غالباً في دروسه التي يكون فيها استدلال، وسرد للنصوص من الكتاب والسنة.
2-2-4. الثاني: فيسلك فيه مسلكاً بديعياً هو الاقتباس¹¹ من القرآن، دون التصريح بالآيات وعلة ذلك أن العلامة البشير الإبراهيمي خطيب مفوه، ومتحدث بارع متفنن في أساليبه، قد رقد القرآن لغته فهي قبس من ذلك الكتاب العظيم، فجاء ببيان قرآني بحق، ولا نعدم في هذا المسلك لمحة دالة وإشارة خفية عن حال الأمة وواقعها.
ولهذا سنقسم التنزيل إلى قسمين:

3-4. التنزيل الصريح:

إن أهم المظاهر التي تكشف عن حالة الجهل التي كان يعيشها المسلمون عامة، وفي الجزائر خاصة إبان حقبة المستعمر الفرنسي هي انتشار الشرك والبدع والخرافات التي تثبط العزائم وتميت السنن، ولقد قصد إليها المصلحون بحجج القرآن؛ يزيل عنها غشاوتها، وينير ظلمتها، ومن ذلكم البشير الإبراهيمي فقد أشار في طائفة من مقالاته إلى هذه الأدواء، مبيناً علاجها من القرآن في مسلك أصيل من تنزيل القرآن على الواقع نذكر طائفة من ذلك.

1-3-4. علاج عدم الاهتداء بالقرآن والتكسب به وقراءته على الأموات:

يشير الإبراهيمي إلى تخلف المعاني الواردة في الآيات، وهي الهدى الاهتداء، رغم تلاوته وحفظه وأن حظ أهل زمانه هو حروفه دون معانيه، ويبين بعض العادات الجارية في التعامل مع القرآن كقراءته على الأموات، أو التكسب به فيقول رحمه الله: "ولكن ما هو هذا القرآن الذي نكرره في كل سطر؟ أهو هذه (الأحزاب الستون) أو (الأجزاء الثلاثون) التي نحفظها وننفق على حفظها سنوات الطفولة العذبة، وسنوات الشباب الزهر. ثم لا يكون حظنا منه عند هجوم الكبر إلا قراءته على الأموات بدرهمات، واتخاذ جنة من الجنة وغير ذلك من الهنات الهينات؟"¹²

¹⁰ المصدر السابق ج1، ص284.

¹¹ الاقتباس فن بديعي وهو أن يضمن المتكلم في كلامه كلاماً آخر كالقرآن أو الحديث أو بيت شعر... ينظر: جواهر البلاغة لأحمد الهاشمي، ج1، ص338.

¹² آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (160/1)

ثم يتساءل عن تخلف الهداية عن تاليه من المتأخرين مع أنه أكسب الأولين هدى في العلم، وزكاه في العمل؛ يقول رحمه الله: "إن كان هو هذا فليم لم يفعل في الآخرين فعله في الأولين؟ ولم نرى حفاظه اليوم- على كثرتهم- أنقى الناس من هذه المعاني التي كان القرآن فيفيضها على نفوس حفاظه بالأسى؟ ونجدهم دائماً في أخريات الناس أخلاقاً وأعمالاً حتى لقد أصبحوا هدفاً لسخرية الساهر، يتكسبون بالقرآن فلا يجديهم، ويقعون في المزالق فلا يهديهم، مع أنهم يقرأون فيه {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّيِّ هِيَ أَقْوَمٌ}.¹³

ثم يربط الأمة في علاج داءها، وبرء سقامها إلى الدواء الشافي؛ فيقول رحمه الله: "وإنما السر كل السر في تدبره وفهمه، وفي اتباعه والتخلق بأخلاقه. ومن آياته ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، ومن آياته ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ و﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾." هذه هي الطريقة الواحدة التي اتبعها المسلمون الأولون فسعدوا باتباعها والاستقامة عليها¹⁴.

2-3-4. طاعة السادة والكبراء في البدع والمنكرات:

يشنع الإبراهيمي على بعض أهل زمانه البدع المحدثه في الجنائز؛ قائلاً: "والتذكر والاعتبار بمن حملوا على الأعواد. والخشوع معروف هو غير الصراخ والعويل والضجيج والتهويل وقد شيع الرسول - صلى الله عليه وسلم - أصحابه وبناته، وشيعه أصحابه من بعده وشيع الصحابة- رضوان الله عليهم- بعضهم بعضاً كذلك على هيئة واجمة رهيبة تأثيرها في مشاهديها تأثير ما بعده من تأثير."¹⁵

ثم عرض لبعض جدالهم بالباطل عن تلكم البدع، وما ذاك إلا تعصبا، ومما حكة للحق وأهله وطاعة للسادة والكبراء؛ فقال: "وما لنا ولهذا الموضوع وقد فرغ منه الناس كتابة وبحثاً، وهدى الله بذلك خلقاً كثيراً كتب الله لهم النجاة من هؤلاء الذين سيقول أتباعهم القليلون- والحمد لله-: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾."¹⁶

كما عالج الإبراهيمي بعض مظاهر الشرك كدعاء الأموات، وبناء القباب عليها، مؤيداً ذلك بالآيات من كتاب الله، وأن هذه المظاهر كتلكم التي أنكرها القرآن، وأبطلها يقول رحمه الله: "ومن آفات البعد عن هداية القرآن وعلوم القرآن وتربية القرآن أن الوثنية التي أودت بالأمم قبلنا، وكانت علة العلل في ضلالها وشقاقها، ولقي منها رسل الله الألاقي حتى قال نوح في الوثنيين من قومه، بعد أن ذكر أسماء أوثانهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا

¹³ المصدر السابق ج 1، ص 160.

¹⁴ المصدر نفسه، ج 1، ص 160.

¹⁵ المصدر نفسه، ج 1، ص 290.

¹⁶ المصدر نفسه، ج 1، ص 290.

سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا، وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾، وقال إبراهيم في أوثان قومه: رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ هَذَا الْمَرْضُ الْفَتَاكُ الَّذِي اسْتَعَصَى عَلَى أُولَى الْعِزْمِ مِنْ رَّسْلِ اللَّهِ عَلاَجُهُ، هُوَ الَّذِي غَفَلَ عَنْهُ الْمُسْلِمُونَ، وَهُوَ شَأْنُهُ عِلْمَاؤُهُمُ الْجَامِدُونَ حَتَّى اسْتَشْرَى وَأَعْضَلَ. فِهَذَا الْقَبَابُ الْمَشِيدَةُ، وَهِيَ أَوْثَانُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَضَلَّتْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ، وَأَكْثَرُ مِنَ الْكَثِيرِ، وَافْتَتَنُوا بِهَا، وَبِأَسْمَاءِ أَصْحَابِهَا حَتَّى أَلْهَيْتُهُمْ عَنْ دِينِهَا وَأَفْسَدَتْ عَلَيْهِمْ أَخْرَاهُمْ، وَغَلَوُا فِي تَعْظِيمِهَا حَتَّى أَصْبَحَتْ مَعْبُودَةٌ تُشَدُّ إِلَيْهَا الرِّحَالُ، وَتَقَرَّبُ لَهَا الْقَرَابِينُ وَالنَّدُورُ، وَتَسْأَلُ عَنْهَا الْحَاجَاتُ الَّتِي لَا تَسْأَلُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ، وَيَحْلِفُ بِهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَيَتَأَلَّى بِهَا عَلَى اللَّهِ، وَمَا جَرَّ هَذَا الْبِلَاءُ عَلَى الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ حَتَّى أَضَاعَتْ الدِّينَ وَالْدُنْيَا، إِلَّا سَكَوْتُ الْعُلَمَاءِ عَنْ هَذِهِ الْأَبَاطِيلِ أَوَّلَ نَشَأَتِهَا، وَعَدَمُ سِدِّهِمْ لِنِزَائِعِهَا حَتَّى طَغَتْ هَذَا الطُّغْيَانُ عَلَى عُقُولِ الْأُمَّةِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَقَّهُوا الْأُمَّةَ فِي كِتَابِ رَبِّهَا، وَسَاسُوهَا بِسُنَّةِ نَبِيِّهَا لَكَانَ لَهَا مِنْ سِيرَةِ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ عَاصِمٌ أَيْ عَاصِمٌ مِنْ هَذَا الشَّرِّ الْمُسْتَطِيرِ.¹⁷

3-3-4. سر التمكين في الأرض:

كان العلامة البشير الإبراهيمي دائما يستنهض الهمم بربط الأمة بما ناله السلف من السيادة في الدين والدنيا، ويشير إلى سبب ذلك بما ذكره القرآن؛ قائلا: "إن أسلافنا قاموا بما شرط عليهم القرآن في قوله: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. فتحقق معهم وعد الله في القرآن: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾. فكانوا خلفاء الأرض يقيمون فيها الحق والعدل وينشرون فيها الخير والرحمة ويطهرونها من الشرك والوثنية ويحققون حكمة الله بإقامة سننه الكونية والشرعية، لا يراهم الله إلا حيث يرضيه أن يراهم. لأن مما أفادهم القرآن استجلاء العبر من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِدُنُوبِهِمْ﴾.¹⁸

كم يدلل من القرآن على سبب عدم التمكين في الأرض، إنما هو من قبل الأنفس فيقول رحمه الله: "قلو أقمنا لجنة لامتحان المسلمين لسقط 99% منهم، لأننا مسلمون باللفظ والآلا فكيف نُغلب بالكُفْرَةِ، أَيْ كَذِبِ الْقُرْآنِ؟ حَاشَا لِلَّهِ: بَلْ نَحْنُ كَاذِبُونَ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وقد كرّر الله سبحانه هذا المعنى بأساليب مختلفة، فنحن إذن بين أمرين: فإما أننا كاذبون في إسلامنا، أو أن الله قد جار علينا، والله نزيه عن الجور. إذن فنحن كاذبون في إسلامنا ظالمون لأنفسنا فعلينا أن نتوب والتوبة تكون بالرجوع

¹⁷ آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج 1، ص 397.

¹⁸ آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج 1، ص 325.

إلى الله سبحانه وتعالى واتباع أوامره ونواهيه، والإقلاع عن الخضوع لغيره، وبمواجهة الحياة والاستهانة بها.¹⁹

كما يشير إلى فهم خاطئ ساد في عصره عن سر العزة نالها السلف؛ يقول رحمه الله: "يعتقد المسلمون كلهم أن سلفهم كانوا أكمل إيماناً من خلفهم وهذا صحيح، ولكنهم لا يبحثون عن علة كمال الإيمان في السلف حتى لكانهم يعتقدون أن ذلك بوضع إلهي وتخصيص رباني لا يد للكسب فيه، وهذا خطأ فاحش وجهل فاضح." وما دام الكلام في الإيمان، فهاته وانظر كيف فهمه السلف ومن أي معين استقوا فهمه ومن أي أفق استجلوا حقائقه. ثم انظر كيف فهمه الخلف ومن أين سقطت عليهم هذه الفهوم السخيفة. ثم أرجع كل معلول إلى علته بلا إجهاد للذهن ولا إنضاء للقريحة.²⁰

ثم يشير إلى فهم السلف لمعنى الإيمان من القرآن: "إن السلف تذرّعوا لفهم القرآن ذريعتين: الذوق العربي الصحيح، والسنة النبوية الصحيحة. وقد كانوا يؤمنون بأنه كل لا يتجزأ وأن بعضه يفسر بعضه وقد استعرضوه بعد فهمه بتلك الذرائع، فوجدوه يُعرّف الإيمان بالصفات اللازمة والتي يتكون من مجموعها، فيقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ الآية ويقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾. ويقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى آخرها. ويقول: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا جُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ إلى آخرها. ويقول: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ إلى آخرها. ويقول غيرها من الآيات الجامعة لشعب الإيمان وخصاله وصفاته الذاتية، ثم وجدوه لا يذكر الإيمان في المعارض المختلفة إلا مقروناً بالعمل الصالح ففهموا من القرآن ما هو الإيمان وما هي الأعمال الصالحة، فأمنوا وعملوا الصالحات فكان إيمانهم أكمل إيمان بالعمل والكسب لا بشيء آخر من الخوارق والاختصاصات. وعلى هذا النحو فهموا العبادة وتوحيد الله وكمالاته المطلقة والرسول ووظائفهم والملائكة الخ.

أما الخلف فقد عدلوا عن هذا كله منذ صاروا يفهمون الإيمان من القواعد التعليمية وفقدوا الذوق والاسترشاد بالسنة.²¹

كما يذكر الإبراهيمي بأسباب النصر والتمكين: "يا قوم: ما أخلف العيد، وما أخلفت من ربكم المواعيد. ولكنكم أخلفتم، وأسلفتم الشر فجزيتم بما أسلفتم، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.

فلو أنكم آمنتم بالله حق الإيمان، وعملتكم الصالحات التي جاء بها القرآن، ومنها جمع

¹⁹ آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (4/ 211).

²⁰ المصدر نفسه ج 1، ص 326.

²¹ المصدر نفسه، ج 1، ص 326.

الكلمة، وإعداد القوة، ومحو التنازع من بينكم، لأنجز الله لكم وعده، وجعلكم خلائف الأرض؛ ولكنكم تنازعتم ففشلتم وذهبت ريحكم، وما ظلمكم الله ولكن ظلمتم أنفسكم".²²

4-3-4. ترك التفهم والتدبر للقرآن:

بيان الإبراهيمي وقوع ما يخالف هدي الآية من التمسك بالقرآن يقول رحمه الله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ...﴾ ويقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلِّيْ هِيَ أَقْوَمٌ...﴾. وهذه الفوائد كلها لا تتحقق إلا بفهمه والعمل به، ولكن سواد المسلمين اليوم وقبل اليوم بقرون، ومن ورائهم علماؤهم، أصبحوا يعتقدون، وأعمالهم تشهد باعتقادهم، أن القرآن إنما أنزل لتتلى ألفاظه تعبدًا وتبركًا أو هدية للآخرين، وتكتب حروفه استشفاء من الأمراض والعاهات الجسدية.

إن هذه الآية وأمثالها هي أسلحتنا التي ندفع بها في نحور أعدائنا، وحوافزنا إلى ما نحاوله من فهم القرآن وتفهمه، وإلى ما ندعو إليه من إرجاع المسلمين إلى حظيرة القرآن".²³

لا يفتأ الإبراهيمي من تذكير أهل زمانه الحاجة إلى القرآن، وتدبر معانيه، وإتباع هدايته؛ فقال بعد أن شرح وظائف أهل القرآن ببيان رائع، و بكلام بديع، فصل ما أجملته الآيات فقال: "أما أنا- ولا أعوذ بالله من كلمة أنا- فلو ألقى علي هذا السؤال لتمردت على قوانين الجدل وأجبت على المغافصة والارتجال، ولم أرع إلا الاعتبار المناسب ومقتضى الحال. وجررت السائل (عن وظائف) القرآن إلى (وظائف) أهل القرآن مع القرآن، وقلت للسائل ضع على ظهر المصحف بالقلم العريض قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. وقوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ واجعل جملي ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ و﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ بين أقواس على هذه الأقواس المحنية تصيب من قارئه شاكلة انتباه فتزججه إلى معرفة أن هاتين الآيتين هما جواز الداخل إلى أقطار القرآن، وعمل هذه القلوب القاسية تستشعر حق القرآن عليها ووظيفتها التي يجب أن تقوم بها نحوه، وهي التدبر لمعانيه واتباعه".²⁴

ثم أسهب رحمه في ذكر معاني التدبر والاتباع، وحقوق القرآن علينا في ذلك، ويشير إلى حاجة الأمة في واقعها إلى مثل ذلك فقال رحمه الله: "إنه لم يمض على المسلمين في تاريخهم الطويل عصرهم فيه أبعد عن القرآن منهم في هذا العصر، ولم يمض على الدعاة إلى الحق وقت عظمت فيه العهدة واستغلظ الميثاق مثل هذا الوقت، وإنه لا مخرج لهم من هذه العهدة ولا تحلل من هذا الميثاق إلا بالدعوة إلى القرآن. فلا عجب- ونحن نشعر بثقل هذه الأمانة- من أن ترتفع أصواتنا بالدعوة إليه".²⁵

²² المصدر السابق، ج 3، ص 470.

²³ المصدر نفسه، ج 1 ص 404.

²⁴ المصدر نفسه، ج 1، ص 321.

²⁵ المصدر نفسه، ج 1، ص 322.

4-3-5. تفرق المسلمين وتشتتهم:

لقد كان تفرق المسلمين، وترك الاهتداء بالقرآن من أعظم الدلائل على ضعف قوتهم، وذهاب ربحهم فوصف العلامة الإبراهيمي حال المسلمين في الأزمان المتأخرة، وربط الناس في زمانه بالآيات الدالة على عدم التفرق من القرآن فيقول: "والقرآن يبدئ ويبعد في هذا الباب ويقص علينا من مبادئ بني إسرائيل ومصائرهم ومواردهم ومصادره ما فيه مزدجر، كل ذلك لنعتبر بأحوالهم، ولا نسلك الطريق الذي سلكوا فهلك كما هلكوا.

ولم يأل نبينا - صلى الله عليه وسلم - أمتة نصحاء وإبلاغا في هذا الباب، وكيف لا وقد أنزل عليه ربه ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِيَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ فِي سَعْيِهِمْ فُتْرٌ وَهُمْ فِي شِعْيِهِمْ خَسِرَةٌ﴾ فكان أخشى ما يخشاه على أمتة أن يدب فيها داء الأمم قبلها فتختلف كما اختلفت، وتتفرق في الدين كما تفرقت.²⁶

ثم يصف هذا التفرق الذي أدركه في زمانه، وحال الناس مع القرآن بقوله: "وقد وقع ما كان يخشاه - صلى الله عليه وسلم -، فتفرقت أمتة في الدين ولعن بعضها بعضا باسم الدين، وأكل بعضها مال بعض باسم الدين، وانتهكت الأعراض والحرمات باسم الدين، واتبعت سائر من قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع."²⁷

ولكنه يستبشر برجوع هذه الفئة المباركة إلى هداية القرآن.... "وقد قوى أملنا في رجوعهم إليه وإقبالهم عليه ما نراه من اصطباغ الحركة الإصلاحية الحديثة بالصبغة القرآنية، فهي سائرة إلى غايته، داعية إليه، مرشدة به، مستدلة بآياته، به تصول وبه تحارب، وعليه تحامي."²⁸

4-3-6. تنزيل بعض الآيات في التلاوم والاختلاف:

يقول رحمه الله: "كذلك يجب أن لا نقضي أعمالنا في التلاوم، وأن لا نكون كمن قال فيهم القرآن: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَؤْمُونَ﴾ فإذا تلاومنا فليكن ذلك زجرا عن الشر، وردعا عن الخلاف، ثم رجوعا سريعا إلى الحق، ولقد نهى شوقي إخواننا المصريين حينما كانوا يتلاومون فيشغلهم التلاوم عن قضيتهم والاستعداد، وبرأهم في موقف تجب فيه المؤاخاة الوطنية، ليردّهم إلى سبيل الرشاد، فقال:

لا يلم بعضكم على الخطب بعضا ... أيها القوم، كلكم أبرياء

فلندع اللوم والعتاب جانبا، ولنفعل ما يفعله الصاحي حين يستيقظ من النوم من حزم وتشمير وجد، فبذلك يلحق القوافل المبكرة، لا بالتباطؤ والإخلال ولعن الشيطان ومعاودة النوم."²⁹

4-3-7. اختلاف في صوم رمضان العيدين:

ينوه رحمه الله أن التفرق في مظاهر الدين كالعيد، وصوم رمضان بين المسلمين لمن الأمور التي تفك أواصر الأخوة، وتفت في عضد الوحدة، وينزل الآيات ذلك على ذاك الواقع الأليم

²⁶ المصدر نفسه، ج 1، ص 162.

²⁷ المصدر نفسه ج 1، ص 162.

²⁸ المصدر نفسه ج 1، ص 162.

²⁹ المصدر نفسه ج 2، ص 469.

قائلاً: "إن هذا الخلاف الفاشي بين المسلمين في الصوم والعيدين هو التفرق في الدين، ومن سَمَّاه بغير هذا فهو جاهل أو كاتم للحقيقة عمداً. والتفرق في الدين حَذَر منه القرآن فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، وقال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾. وكيف يرجو المسلمون الخير وهم متفرقون في دينهم، مخالفون لكتائبهم، معرضون عن وصايا نبيهم، ناكبون عن صراط سلفهم.

إن من أشنع أنواع آثار التفرق بين المسلمين اختلافهم في صوم رمضان وفي العيدين، ولو كان هذا الخلاف خلافاً صامتاً لا يصحبه تشهير لكان شراً مقدراً بقدره، ولكن خلافهم في هذا يصحبه تشهير من الصائم على المفطرون ومن المفطر على الصائم وتشنيع ينتهي إلى سبب الخلاف فيثير الأحقاد الدفينة والحزازات الطائفية.

أصبح الخلاف في الصوم والإفطار تجديداً للأحقاد الدينية فنكء لجراحها وإثارة للفتن النائمة، ولا مبرر له من اجتهاد أو خلاف مذهبي، أو اختلاف مطالع، فكل هذه الاعتبارات لا وزن لها في باب العلم، ولا محل لها في حقيقة الدين.³⁰

4-4. تنزيل التلميح:

سلك الإبراهيمي هذا المسلك كونه يرتجل الخطب فيسكب عليها من بلاغة القرآن باقتباس آيه أو بتشبيهه بليغ مؤثر.

4-4.1. إقامة القرآن:

قال رحمه الله: "قارنوا بين هذه الأمة الإسلامية المطوية في بطن الأرض وفي بطون الكتب، وبين هذه الأمة الإسلامية التي تدب على وجه الأرض تجدوا الفرق بعيداً جداً، ووجوه الشبه مفقودة البتة مع وجود الاشتراك في الاسم والنسبة. ثم التمسوا السبب تجدوه قريباً منكم، وما هو إلا هذا القرآن أقامه الأولون وجمعوا عليه قلوبهم وراضوا نفوسهم على أخلاقه، فعلمها الإيمان والأمان والإحسان، واتخذها الآخرون مهجوراً فحقت عليهم كلمة الله في أمثالهم"³¹. وهذا فيه إشارة إلى قول الله حكاية عن الرسول قوله: "يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً" ثم يرشد رحمه الله إلى الدواء مقتبساً من أي القرآن "يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن؟"³².

4-4.2. بعث الأمة في الرجوع إلى القرآن:

ففي تنزيل بديع من الإبراهيمي في جمع حضر بعض مناشط الجمعية فشبه بعث القلوب والأرواح بهذه الدعوة المباركة، وهي دعوة القرآن ببعث الأجساد من بارئها عز وجل؛ مستشهداً بالآية؛ يقول رحمه الله: "إنني كلما استعرضت حال هذه الأمة في فكري، أو عرضت نفسها على عيني قصداً في المحافل، أو عفواً في المجامع والأسواق - تلوح لخطاري آية من كتاب الله تنطق بسننه المطردة في الأمم والقرون، وقد لاح لي عندما اعترضتني اليوم هذه الجموع الحاشدة، بل

³⁰ المصدر السابق، ج 4، ص 82.

³¹ المصدر السابق ج 1، ص 363.

³² المصدر نفسه، ج 1، ص 363.

هذه الوفود الراشدة، في أقصى القرية- آية هي من دلائل قدرة الله على البعث الأخير، ومن الحجج الدامغة على منكريه ولكنها- مع ذلك- قريبة الحضور في أذهان المتفائلين مثلي بالبعث الأول في هذه الحياة الدنيا.

تلك الآية هي قوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

لاحت لي آية البعث من القرآن عندما لاحت لي آية الانبعاث منكم، فأجلت بصبرتي في الأولى، عندما أجلت بصبري في الثانية، فما زادت الثانية الأولى إلا تمكيناً وتثبيتاً³³.

3-4-4. مسلك الاقتباس في أبواب متفرقة:

يتميز أسلوب الإبراهيمي بالاقتباس من القرآن الكريم؛ بل هو من روعة سبكه يأتي بنيانا واحدا لا ترى شيئا يند عن نظرك، أو يمجّه طبعك، بل كأنما روعة القرآن تتجلى في بديع تشبيهاته، ومواقع تنزيلاته، وليس ذلك ترفا من القول، ولا نافلة من الهذر كيفما اتفقت، بل يحز في المفصل، ويأتي الأمور من أبوابها، مبينا علاج كثير من الأدواء في عصره؛ يقول رحمه الله: "وإن الصحف في لسان العُزف، كالصحائف في لسان الدين، منها: "صحائف الأبرار" و"صحائف الفجار" لذلك كان من حظ الأولى الابتلاء بالتعطيل والتعويق"³⁴.

وفي موضع آخر نقرأ له: "يا هؤلاء! إن الاستعمار شيطان، وإن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً"³⁵.

وعندما يتحدث عن الأحزاب مبينا لزوم الاجتماع وخطر الافتراق فيقتبس من القرآن قائلا: "ما ذكر القرآن الأحزاب بلفظ الجمع إلا في مقام الخلاف والهزيمة ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ وإن حزب الله في الأمة الجزائرية هو جمعية العلماء"³⁶.

ويقتبس من القرآن تفريط إخوة يوسف فيقول: "وديعه محمد عندنا، وأمانة عمر في ذمتنا، وعهد الإسلام في أعناقنا فلئن أخذها اليهود منا ونحن عصابة. إنا إذا لخاسرون"³⁷.

5. خاتمة:

بعد إجمالة النظر في كلام العلامة الإبراهيمي خلصنا إلى النتائج الآتية:

ربط الأمة بالقرآن على سبيل الإجمال من خلال تدبره، وتفهمه، وتنزيله التنزيل العلمي أولا، والتنزيل العملي ثانيا، وهذه الدعوة ظاهرة جليلة في كل مقالات العلامة البشير الإبراهيمي.

يتميز تنزيل الإبراهيمي للقرآن على واقع الأمة في عصره بالعمق؛ حيث كان يعالج الأدواء الملهكة في العقائد والأعمال، مرشدا إلى مخالفتها للقرآن، وما ذلك إلا لعظيم وقع القرآن في

³³ المصدر السابق، ج2، ص349.

³⁴ المصدر نفسه ج3، ص42.

³⁵ المصدر نفسه، ج3، ص288.

³⁶ المصدر نفسه، ج3 ص66.

³⁷ المصدر نفسه، ج3، ص445.

قلوب المسلمين.

كما سلك العلامة محمد البشير الإبراهيمي في ذلك مسلكان: المسلك الأول هو التصريح بدلالة الآية على الواقع، وانتظامه في منطوقها، ومفهومها مع حشد الأدلة على ذلك في وصف دقيق.

أما المسلك الثاني فهو إلى التلميح أقرب، وإن كان التلميح عند اقتضاء المقام يكون باقتباس أي القرآن الدالة على الواقع، وفي أحيان كثيرة يكون لها من الروعة، وحسن السبك ما يجعلها في لمحة دالة لأولي الأبواب تهدمهم إلى حسن مواقع القول في ذلك.

ومن أعظم ما يستخلص أن القرآن هو معين المصلحين الذي إليه يردون، ومنه يصدرن، وعليه يوصى باستخلاص هدايات القرآن في إصلاح الأفراد والمجتمعات، ولفت الانتباه إليها وإبرازها وتجليتها في بحوث هادفة قريبة المتناول لواقع الناس.

المراجع:

- القرآن الكريم.
- آثَارُ الإمام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي، مُحَمَّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي ت: أحمد طالب الإبراهيمي. دار الغرب الإسلامي. الطبعة: الأولى، 1997.
- الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد، الزركلي الدمشقي الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو 2002 م
- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر، الطبعة الأولى 1428 هـ / 2008 م.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، ت: د. يوسف الصميلي الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة: الثالثة، 1416 هـ - 1996 م.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، ت: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت.
- مقدمة في أصول التفسير، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، الناشر: دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، الطبعة: 1490 هـ / 1980 م.

**قراءة في تنزيل آيات الإصلاح الاجتماعي على الواقع
عند عبد الرحمن الشعالبي من خلال كتابه:
«الإرشاد لما فيه من مصالح العباد»**

ط. د / صلاح الدين خنوفة، إشراف: د / عباس منصر
قسم الحضارة الإسلامية-معهد العلوم الإسلامية - جامعة الوادي
Khenoufa-salaheddine@univ-eloued.dz



مقدمة

الحمد لله الذي خلق الأرض بقدرته، واصطفى ملك الموت لقبضته، واصطفى إسماعيل لنفخته، واصطفى جبرائيل لحمل رسالته، فالحمد لله الذي جعلنا من خير أمة أخرجت للناس، والحمد لله الذي جعلنا من أمة اقرأ، والحمد لله الذي شرف هذه الأمة بالوسطية، وأشهد إن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له ملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وصفيه من بين خلقه وخليفه وحبيبه، أرسله ربه بالبيان فأظهر دينه القويم على سائر الأديان. وبعد:

لقد أنزل الله القرآن الكريم كمعجزة خالدة أبدية صالحة لكل زمان ومكان تسير الواقع الإنساني العالمي بمختلف دياناته، وقد جاء نزول القرآن لمقاصد عملية، منها عملية الإصلاح في المجتمعات المسلمة.

1. التعرف بالموضوع:

إِنَّ القرآن الكريم كان نزوله منجما على عهد رسول الله ﷺ لغايات عديدة كإصلاح المجتمع الجاهلي حينها تدريجيا، لكن تلك الآيات التي تحدثت عن الإصلاح الاجتماعي حينها هي أيضا صالحة لزماننا هذا بحكم تشابه القضايا في القديم والحديث، ولأن ميزة الآيات القرآنية تعالج القضايا الاجتماعية إلى قيام الساعة من مستجدات جديدة تحدث في كل عصر ومصر، وإن من بين العلماء الذين اهتموا بالإصلاح الاجتماعي فهما وتنزيلا على واقعهم الإمام عبد الرحمن الثعالبي، فيستنطق الآيات القرآنية ويستخرج منها الدرر النفيسة لإصلاح الأمة الإسلامية والمجتمع المسلم في الواقع المعاصر الذي يشهد العديد من التقلبات في فهم النصوص القرآنية وتطبيقها.

2. أهمية الموضوع:

• أن الإصلاح الاجتماعي يكون من خلال التطبيق العملي لآيات القرآن الكريم.

- صعوبة عملية الإصلاح الاجتماعي في الوقت الراهن.
- دهاء العلامة عبد الرحمن الثعالبي في إصلاح الواقع على مستوى القطر الجزائري.
- المكانة الكبيرة لعبد الرحمن الثعالبي على مستوى الغرب الإسلامي.
- تردّي الأخلاق الاجتماعية وانحطاطها في عصر الثعالبي وفي عصرنا الحاضر.
- براعة عبد الرحمن الثعالبي على علماء عصره في تنزيل الآيات القرآنية على واقعه الذي عاش فيه.

3. الإشكالية:

من خلال استعراض أهمية الموضوع في العنصر السابق والتعريف به في العنصر الذي قبله، أطرح الإشكالات الآتية:

- من هو عبد الرحمن الثعالبي؟
- ما هو منهج عبد الرحمن الثعالبي في توظيف آيات الإصلاح الاجتماعي في كتابه الإرشاد؟
- ما هي أهم مجالات توظيف آيات الإصلاح الاجتماعي عند الثعالبي؟

4. الدراسات السابقة:

1. المقاصد الكبرى عند الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في تفسيره من خلال الأحاديث النبوية، د. عبد المجيد بيم، أستاذ محاضر بكلية العلوم الإسلامية، -جامعة الجزائر-.
2. التصوف في نظر الثعالبي، مكي عبد الكريم، جامعة تلمسان.
5. منهجية المعالجة والتقسيم:

-إنّ هذا النوع من المداخلات يقتضي معالجته بكيفيات ومناهج خاصة به لاسيما وأنّه يتعلق بالإصلاح، فارتأيت معالجته بالمناهج العلمية الآتية:

- المنهج التاريخي: حيث يبرز هذا المنهج في التعريف بعبد الرحمن الثعالبي.
- المنهج الوصفي: حيث تتضح معالمه ظاهرة في وصف كتاب الإرشاد لما فيه مصالح العباد.
- المنهج التحليلي: يبرز في تحليل الظاهر الاجتماعية من خلال الآيات وإسقاطها على الواقع.

وقد قمت بتقسيم المداخلات وفق الخطة الآتية:

- المبحث الأول: ترجمة عبد الرحمن الثعالبي
- المطلب الأول: اسمه ونشأته ومولده ووفاته
- المطلب الثاني: مشايخه وتلاميذه
- المطلب الثالث: مؤلفاته العلمية
- المبحث الثاني: التعريف بكتاب الإرشاد لما فيه من مصالح العباد.
- المطلب الأول: محتويات الكتاب.

المطلب الثاني: أهمية الكتاب.

المطلب الثالث: كتاب جامع لحكم مختارة من الجواهر الحسان.

المبحث الثالث: توظيف آيات الإصلاح الاجتماعي عند الثعالبي.

المطلب الأول: الإصلاح الاعتقادي للمجتمع.

المطلب الثاني: الإصلاح الاجتماعي.

المطلب الثالث: الإصلاح الروحي للمجتمع.

المبحث الأول: ترجمة عبد الرحمن الثعالبي.

سأنتطرق في هذا المبحث للحديث عن بعض الأمور التي تتعلق بحياة عبد الرحمن الثعالبي، كاسمه ومولده ووفاته، والمشايخ الذين تتلمذ على يدهم وتلامذته الذين تتلمذوا على يديه، وأيضا عن الآثار العلمية التي ألّفها الثعالبي.

المطلب الأول: اسمه ونشأته ومولده ووفاته.

هو عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الجعفري الثعالبي الجزائري¹، وهذا هو الاسم الذي دونه الثعالبي في مؤلفاته، أمّا الاسم الكامل الذي يحتوي سلسلة النسب فهو يمتد إلى الصحابة رضوان الله عليهم، وبالتحديد إلى جعفر ابن أبي طالب.

* فهو ثعالبي جعفري جزائري²، فأما الثعالبي هي نسبة إلى موطن الثعالبة الذين يعدون بطنا من بطون العرب قدموا من الجزيرة العربية إلى الجزائر وأقاموا بها، وكوّنوا إمارة الثعالبي بسهل متيجة، وأما نسبة الجعفري فهي تمتد إلى جعفر بن أبي طالب الطيار رضي الله عنه وهو ابن عم رسول الله ﷺ، والجزائري نسبة إلى جزائر بني مزغنة، وفي الوقت المعاصر نسبة إلى مدينة الجزائر، وبلد الجزائر.

* ويكنى الثعالبي بأبي زيد إذ يكونون كل من اسمه عبد الرحمن بها³.

* ولد عبد الرحمن الثعالبي بناحية وادي يسّر التي تقع بالجنوب الشرقي من مدينة الجزائر على بعد 86 كم وتسمى في الوقت الراهن مدينة بومرداس، فكانت ولادته سنة 786هـ-1385م، إلا أنه حصل خلاف في تاريخ مولده، والراجح هو ما ذكره المحققون من المؤرخين⁴.

¹ ينظر: تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي، (ج2، ص280).

² ينظر: الفكر السامي في تاريخ الفكر الإسلامي، محمد الحجوي، (ج2، ص342) وجامع الأمهات في أحكام العبادات، عبد الرحمن الثعالبي، (ج1، ص78).

³ ينظر: المصدر نفسه، (ج1، ص78).

⁴ ينظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد ابن سالم مخلوف، (ج1، ص382) وتاريخ الجزائر العام، الجيلالي، (ج2، ص280).

*نشأ عبد الرحمن الثعالبي في بيئة محافظة تحت ظلال أبيه وجده، فترعرع في كنفهما في واقع حسن صالح بالمنطقة التي وُلد بها، فكَبُرَ على الصلاح والتقوى والعبادة والعلم إلى أن أصبح شابا، فتعلّم العلم بمنطقته وتفقه وحضر دروس علمائها.

اشتغل رحمه الله منذ نعومه أظافره بحفظ القرآن الكريم التي هي العادة التي تعارف عليها من أراد أن يصبح عالما أو داعية أو إماما، ثم تعلم الكتابة والخط، ثم أصبح يطالع الكتب ويتعلم منها، وقد كان جادا في تحصيل العلوم النافعة في شتى الميادين، يقول عن نفسه في رحلته: "رحلت في طلب العلم في أواخر القرن الثامن، ودخلت بجاية في أوائل القرن التاسع، فلقيت الأئمة المقتدى بهم، أصحاب سيدي عبد الرحمن الوغليسي متوافرين، فحضرت مجالسهم، وكانت عمدة قراءتي بها على سيدي علي بن عثمان المانجلاتي رحمه الله بمسجد عين البربر"¹ ويُفهم من كلامه هذا أمور معينة وهي:²

1. أنه نشأ منذ صغره في الطاعة والعبادة وطلب العلم، فكان شابا صالحا ملازما للخير معاشرًا للعلماء، مقبلا على طلب الفائدة، أنفق شبابه في طلب المعالي حتى بلغ إلى أعلى المراتب.

2. أنه قام برحلات في القرى والمناطق المجاورة قبل أن تنتهي به الرحلة إلى بجاية، أخذ خلالها عن الأئمة الموجودين بالمنطقة، فحفظ القرآن والمتون وحضر دروس الأشياخ.

3. لم يكن منطويا على نفسه أو يميل إلى العزلة عن الناس، فهو يخاطب الناس خاصة الأفاضل والأماثل ويتفاعل معهم ويحضر مجالسهم ليتعلم منهم.

4. أنه كان يبلغ من العمر حين دخل بجاية 18 سنة.

كان معروفا عن عبد الرحمن الثعالبي أنه من أهل الدين والورع والعبادة والزهد والسخاء والكرم والأمانة والحفظ القوي والذاكرة القوية وكان يقول لأتباعه: "فإن أردت يا أخي اللحق بالمقربين، والكون في زمرة السابقين، فاطرح عنك دنياك، وأقبل على ذكر مولاك، واجعل الموت الآن نصب عينيك"³.

*توفي الإمام عبد الرحمن الثعالبي رحمه الله تعالى رحمة واسعة في صبيحة يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة خمس وسبعين وثمانمائة للهجرة الموافق الخامس عشر من شهر مارس 1470م، فخُمل جثمانه من بيته القريب من الجامع الأعظم ودفن بالمقبرة المعروفة ببجاية الطلبة، تقع في ربوة خارج باب الوادي، وصارت تعرف باسمه.⁴

¹ الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن الثعالبي، (ج1، ص11).

² جامع الأمهات في أحكام العبادات، عبد الرحمن الثعالبي، (ج1، ص82).

³ الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن الثعالبي، (ج5، ص374).

⁴ ينظر: تاريخ الجزائر العام، الجيلالي، (ج2، ص283).

لما توفي العالم الكبير عبد الرحمن الثعالبي ترك خلفه موجة من الحزن والألم لدى عموم الشعب الجزائري، وقد تأثر بوفاته تلامذته وأحبابه وأتباعه فكثرت الأسف على رحيله إلى دار البقاء، وحضر جنازته خلق كثير وجمع عظيم من سكان مدينة الجزائر.

المطلب الثاني: مشايخه وتلاميذه.

إنَّ من المعلوم ضرورة أن يصبح الإنسان عالماً لا بد أن يكون سلك أطواراً من العلم على يد شيوخ تتلمذ على أيديهم، وأن يكون قد تدرّج في النهل من علمهم، وهو ما يساهم بشكل كبير وفعلّال في تكوين شخصية الإنسان العالم فكرياً وعقدياً وسلوكياً، ومن هؤلاء عبد الرحمن الثعالبي الذي تتلمذ على يد عدد وفير من المشايخ منهم¹:

- أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد النقاوسي البجائي.
- أبو الحسن علي بن عثمان المنجلاتي البجائي الزواوي.
- علي بن موسى بن عبد الله بن محمد بن هيدور التادلي البجائي.
- أبو العباس أحمد ابن إبراهيم البجائي.
- أبو الربيع سليمان بن الحسن البوزيدي الشريف التلمساني.
- بلقاسم بن محمد بن عبد الصمد الزواوي المشدالي البجائي.
- أبو الحسن علي بن محمد اليليلتي.
- أبو مهدي عيسى اليليلتي.
- علي بن موسى البجاوي.
- علي بن محمد البجاوي.
- أبو مهدي عيسى بن أحمد بن محمد بن يحيى الغبريني.
- أبو عبد الله محمد بن خلف بن عمر التونسي الوشتاني الأبي.
- أبو يوسف يعقوب بن أبي القاسم الزغبي التونسي.
- أبو العباس أحمد بن محمد الهنتاني التونسي.
- أبو عبد الله محمد بن عبد الله القلشاني التونسي.
- أبو القاسم عبد العزيز بن موسى بن معطي العبدوسي الفاسي.
- أبو محمد عبد الله بن مسعود بن علي القرشي التونسي.
- أبو القاسم بن أحمد بن محمد المعتل بن إسماعيل البلوي القيرواني التونسي الشهير بالبرزلي.

• أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي المعروف بالحفيد.

¹ ينظر: جامع الأمهات في أحكام العبادات، (ج1، ص139-150).

تلاميذه:

لقد اشتهر عبد الرحمن الثعالبي كثيرا في أقطار المعمورة قاطبة، وبلغ صيته كل مبلغ، فجاءه طلبة العلم من كل حذب وصوب لأخذ العلم عنه والتعلم على يديه، فتصدّر للتعليم والتدريس، وتعلّم على يديه نخبة من التلاميذ الذين أصبحوا فيما بعد من كبار العلماء والمصلحين والدعاة، فقد أسهم هؤلاء المتخرجون على يد الثعالبي في العمل الإصلاحي بقوة كبيرة، فكانوا خير خلف لخير سلف لشيخهم الهمام، وسأذكر بعضا من تلاميذه لا على سبيل الحصر لأنهم أكثر جدا، ومن هؤلاء¹:

- أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري
- أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي الحسني التلمساني.
- أبو الحسن عيسى بن محمد التالوتي الأنصاري
- أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بابن زروق.
- عيسى بن سلامة بن عيسى البسكري
- عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي ثم القاهري الحنفي الشهير بابن الوزير.
- عبد الرحمن بن علي بن عبد الله الغبريني البجائي.
- أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن الخطيب بن مرزوق العجيسي التلمساني الشهير بابن مرزوق الكفيف.
- أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم محمد المغيلي التلمساني.
- نور الدين أبو الحسن علي بن عباد بن أبي بكر بن علي التستري البكري الفاسي المغربي.
- يعقوب بن عبد الرحمن بن يعقوب بن عبد الرحمن المغربي الفاسي المعروف بابن المعلم الشيفري.
- أبو إبراهيم إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الجليل السنجاسي
- أبو عبد الله بن محمد بن علي الخروبي الطرابلسي.
- أبو العباس أحمد بن محمد بن زكري المانوي التلمساني
- أبو عمرو محمد بن محمد بن محمد بن منظور القيسي المالقي.

المطلب الثالث: مؤلفاته العلمية.

إنّ عدد المشايخ الذين تتلمذ عليهم الثعالبي بالإضافة إلى الطلبة الذين علّمهم كان لزاما عليه أن يؤلف التآليف النافعة له كعالم وتلامذته من بعده تبقى ذخرا لهم، وأيضا من خلال رحلته المطولة لشقّ بقاع الأرض يطلب العلم إلى أن عُرفَ عنده بمصطلح ما يسمى "الجهاد العلمي" فهذا إن دلّ إنّما يدل على الروح العالية التي كانت تتملكه تجاه طلب

¹ ينظر: المصدر السابق، (ج1، ص156-164).

العلم والتأليف والتدريس، وقد صَنَّف الثعالبي في فنون عدة ومتنوعة تدل على تبحره وسعة اطلاعه، وهي جامعة بين فني الرواية والدراية أو المعقول والمأثور، فأبدع وتفنن في الكتابة والتأليف، وأضاف للمكتبة العلمية ثراء علميا ومعرفيا كبيرا، لهذا لقيت تأليفه قبولا ورواجا كبيرا في الأوساط العلمية وعند العلماء في مشارق الأرض ومغاربها، ويذكر الشيخ عبد الرحمن الجبلاي في تاريخه: "اعتكف الشيخ على التدوين والتأليف وأغلب عمه من ذلك خدمة علوم الشريعة المطهرة، وله في ذلك الباع الطويل فلقد ترك ما يزيد على التسعين مؤلفا بين متون وشروح وحواشي وتعاليق وكتب مستقلة في الوعظ والرقائق والتفسير والفقه والحديث والتاريخ"¹، ومصنفاته متفاوتة الأحجام، وسأنتظر فيما يأتي لمؤلفاته العلمية النافعة²:

• الجواهر الحسان في تفسير القرآن.

• المعجم المختصر.

• تحفة الإخوان في إعراب بعض آي القرآن.

• الذهب الإبريز في تفسير الغريب وإعراب بعض آي القرآن العزيز.

• المختار من الجوامع في محاذاة الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع.

• نفائس المرجان في قصص القرآن.

• الأربعون حديثا المختارة.

• إرشاد السالك.

• شرح مختصر ابن الحاجب الفرعي.

وإنَّ من مؤلفات الثعالبي التي تميَّزَ فيها عن غيره من علماء عصره وزمانه وحتى الذين سبقوه والذين أتوا بعده مؤلفاته التي صبغها بالصبغة الأثرية الروحية وهي³:

• العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة.

• رياض الصالحين.

• الأنوار المضيئة في الجمع بين الشريعة والحقيقة

• الدرر الفائقة المشتمل على أنواع الخيرات في الأذكار والدعوات

• نور الأنوار ومصباح الظلام.

• قطب العارفين ومقامات الأبرار والأصفياء والصديقين.

• الأربعون حديثا في الوعظ والرقائق.

¹ تاريخ الجزائر العام، الجبلاي، (ج2، ص282).

² ينظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن سالم مخلوف، (ج1، ص382).

³ ينظر: معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، (ج5، ص192) و معجم أعلام الجزائر-من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويمض، (ص 374، 377، 400، 403، 404، 414) وتاريخ الجزائر العام، الجبلاي، (ج2، ص 282).

الإرشاد لما فيه من مصالح العباد وهو الكتاب الذي قصدت دراسة جزء منه لما له تعلق وثيق جدا بعنوان المداخلة، وسأبين الترابط الوثيق في المبحث القادم إن شاء الله.

مناسبة المبحث الأول بموضوع الإصلاح الاجتماعي:

لهذا المبحث الأول بمطلبه الثاني صلة عميقة بموضوع الإصلاح الاجتماعي حيث إنّ ذكرى لتلاميذ الثعالبي هو لتبيين مدى حرص الثعالبي على إخراج جيل نافعا لأمته يكون صالحا لنفسه مُصلحا لمجتمعه وهو ما قام بفعله هؤلاء التلاميذ حيث تفرقوا في أقطار الوطن وأصلح كل منهم واقعه الذي يعيش، وذكرت مشايخه للتدليل على رغبة الثعالبي في التعلم ومن ثم تطبيق العلم إلى عمل إصلاحي للمجتمع وللأمة قاطبة كما سيتضح في المباحث القادمة.

* إنّ للمطلب الثالث من هذا المبحث الذي تحدثت فيه عن مؤلفات الثعالبي رابطة قوية بينه وبين الإصلاح الاجتماعي، حيث يدل كثرة تأليف الثعالبي على تنوع موضوعاتها الشرعية في جوانب عديدة وشتى، منها الإصلاح في الجانب الفقهي المتعلق بالعبادات والمعاملات، والإصلاح الاجتماعي المتعلق بالأفراد من ناحية الأخلاق الفردية، والأخلاق المجتمعية، وهذه المؤلفات طبق الثعالبي مضمونها عمليا على واقعه الذي عاشه حينها، لأنّ من أهداف تأليفه للكتب هو نفع العباد وإصلاح كل ما أفسدته العادات والتقاليد المجتمعية التي انتشرت في المجتمع وأصبحت دينا في نظر العوام من الناس.

المبحث الثاني: التعريف بكتاب الإرشاد لما فيه مصالح العباد.

قرّرت في هذا الموضوع اختيار كتاب للثعالبي قد ضمّته الحديث عن عملية الإصلاح والإصلاح وهو المُسمّى بالإرشاد لما فيه من مصالح العباد، ويبرز ذلك من خلال كلمتي "مصالح العباد" من العنوان، وكأنّ الثعالبي يريد أن يقول أنّ كتابي هذا أرشد به الناس والمجتمع إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة.

المطلب الأول: محتويات الكتاب.

اعتمد الثعالبي في كتابه على طريقة التبويب، أي تقسيم الكتاب إلى أبواب، وضمّن تحت بعض الأبواب فصولا معينة، وهذه الأبواب إجمالاً هي:

باب في العقيدة، باب في السلوك، باب في فرائض الوضوء، باب في فرائض الغسل، باب في التيمم، باب في أحكام الصلاة، باب في من أخذ أموال الناس، باب ما جاء في خروج عنق من النار، باب ما جاء في من كظم غيظاً، باب ما يجب على الإنسان من محاسبة نفسه، باب ذكر وصية نافعة إن شاء الله، باب في ذكر الموت، باب منه، باب منه في مثال المسوف والموفق، باب في ذكر وصية توبيخ النفس، باب منه، باب في ذكر حديث البراء المشهور، باب ذكر ما ينكشف للعبد عند الموت وثواب من أدخل على مؤمن سروراً، تنبيه، باب في ذكر وصية ووعظ، باب في ذكر الموت والخوف من الله سبحانه، فصل في فضيلة الخوف، باب في

اتساع القبر على الرجل الصالح، باب ما جاء أنَّ كل إنسان لا يخرج من الدنيا حتى يرى مكانه من الجنة أو النار، باب في كلام الحفظة وملك الموت عند الموت، باب في التوبة وشروطها، باب في تلاقي الأرواح وعرض الأعمال، باب الإسراع بالجنابة وكلامها، باب ذكر حكاية طويلة فيها وعظ ودعاء، باب ما جاء أنَّ القبر أول منازل الآخرة وفي البكاء عنده، باب ما يتبع الميت إلى قبره، باب في كلام القبر كل يوم، باب ما ينجي من ضغطة القبر وفتنته، باب في حسن الثناء على الجنابة، باب في حديث الرؤيا، باب ما جاء أنَّ الهائم تسمع عذاب القبر، فصل فيما رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء، باب ما جاء أنَّ الميت يسمع ما يقال، باب في حديث الرؤيا المتقدم عن البخاري، فصل، فصل، باب في أحوال الميت في قبره، باب في حديث إنَّما الأعمال بالنيات، والحض على العمل وفضل الذكر وما يتبع العبد من حسن الثناء ومن نقس عن مؤمن كربة، وفي أنَّ من ختم القرآن في أقل من ثلاث لم يفقه وكثرة الذكر، وفي حديث إذا أحب الله عبداً، وفي المجلس الصالح وفي إكرام ذي الشيبة، فصل في إثم من اغتاب مسلماً أو خذله وفي النميمة والكذب والمرء، باب في التكبر والتواضع وحفظ الجار والصاحب والإحسان إلى اليتيم والأرملة والمسكين وعزل أذى الطريق وفرح الله بتوبة عبده وفي إثم من عادى لله ولداً، باب ما جاء في البكاء من خشية الله، باب ما يحذر من محقرات الأعمال وفي المراقبة والحزن وفي قساوة القلب وآفة كثرة الضحك، باب في حسن الثناء على العبد وعلامة الولي وفي إثم من احتقر مسلماً وفي ذم الدنيا والتناظر فيها وجملة أحاديث في الزهد، باب فيمن أطعم مؤمناً أو سقاه والخوف والحياء والتحذير من الدنيا وفي التواضع والإيثار ووعيد المتكبرين وفي كظم الغيظ وإصلاح ذات البين، باب فيمن نظر في دينه إلى من هو فوقه وأدنى أهل الجنة وذكر الرؤيا وبحار الجنة وفي ثلاثة يجهنم الله وفي ثلاثة يبغضهم، باب في اجتماع النبي ﷺ مع الملائكة وفضل كلام الله ووصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنه والرضا بالقليل من الرزق وفي الصبر وطول العمر والتوكل وفيمن ترك شيئاً لله سبحانه، باب في المواعظ والأمثال وأنواع الصدقات وما جاء في السخي والبخيل وفي كظم الغيظ، باب في آفات الرياء وفي أسواق الجنة وفي أنَّ الله سبحانه جعل الرحمة مائة جزء، باب في علامة من أحبه الله سبحانه وفي الصمت وخطبة النبي ﷺ وسؤال جبريل عليه السلام، باب في فضل العلم ووصية لقمان وذكر الخصال التي كانت لسيدنا إبراهيم عليه السلام، باب من حمد الله وفي استجابة الدعاء وحكاية وهب بن منبه ومناجاة موسى عليه السلام وقصة عابد من بني إسرائيل، باب في تعظيم الحديث وفي علو الهمة عن الأكوان وفي اتباع السنة وعلامة الولي وفي المراقبة وجملة آداب وحكم مختصرة، باب في ذكر حكاية لثابت البناني وفضل المراقبة والخوف، باب في كلمات مختارة من حديث الداراني وحديث سويد بن الحارث وقول ابن أبي عاصم أصح ما بقي، باب ما جاء أنَّ الله سبحانه إنَّما ذكر ثواب النوافل في ذكر كلمات وعظمية، باب في المعرفة ودلائلها وأبيات لابن

الفارض وكلام حسن لإبراهيم الخواص وكلام لأبي حازم وحكاية عن جعفر بن محمد وحكم مالك، وذكر أبوابا لحكايات لعلماء أو صالحين في نظر الثعالبي.

باب في آداب الدعاء وفي دعاء إبراهيم لإسماعيل عليهما الصلاة والسلام وفي الاستعاذة من علم لا ينفع، باب في دعاء الحاجة، باب دواء في الوسوسة، باب ما جاء أنّ الدعاء موقوف بين السماء والأرض حتى يصلّى على النبي، باب ما يدعى به عقب المجالس وفي القوم يتفرقون ولم يذكروا الله ولم يصلوا على النبي ﷺ، فصل فيما يدعوه في مرضه، باب دعاء الاستخارة، فصل فيما يقوله صباحا ومساء، باب منه، باب جامع في فضل الذكر وفي خسارة من مرت عليه ساعة لم يذكر الله فيها وعرض الساعات على العبد وفي فضل أذكار معينة، باب جامع لأنواع من الأذكار وما جاء أنّ غراس الجنة وبناءها بالأعمال الصالحات وفي الباقيات الصالحات... كتاب فضل تلاوة القرآن، فصل في تدبر القرآن وتفهمه وترتيله وتحسين الصوت به وفي أنّ كل إنسان ينبغي له أن يقدر أنّه المقصود بكل خطاب في القرآن.

المطلب الثاني: أهمية الكتاب¹.

لا شك أنّ أهمية كل كتاب تقوم أساسا على ما يحويه الكتاب من مواضع، وقد سبق تقديمي لمحتوى الكتاب عموما، وبما أنّ المحتوى يرتكز على صلاح العبد في الدنيا والآخرة وإصلاح العباد في الدنيا للتزود ليوم الرحيل فإنّه يكتسي أهميته من هذا الجانب، وموضوع الكتاب هو الوعظ والإرشاد، وهذا دأب العارفين الذين حملوا همّ توجيه الناس وإرشادهم وتعليمهم وإصلاحهم ظاهرا وباطنا، وسخّروهم سبحانه لخدمة دينه، ويسّر لهم سبل ذلك، فالتزموا بما أمر الله به العلماء من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتذكير الناس بآلاء الله عز وجل وآياته، والأخذ بأيديهم من طريق المهالك إلى أقوم المسالك، والترغيب والترهيب.

*كتب في جانب الإرشاد الروحي العديد من العلماء الكبار كأبي حامد الغزالي والحارث المحاسبي والجنيد البغدادي والنووي والقرطبي والسكندري والسمرقندي وغيرهم من العلماء المبرزين الذين اهتموا وصبغوا مؤلفاتهم بالصبغة الصوفية المعتدلة، إلا أنّ هذا الكتاب يبقى بينه وبين الكتب الأخرى فرق جوهري وهو التجربة التي مرّ بها كلّ عالم، وكيفية ترجمته لهذا البعد الروحي عمليا واجتماعيا على واقعه المعاش، وأيضا كيفية الاستفادة من تلك التجربة في واقعنا المعاصر لاسيما أنّ الثعالبي هو جزائري، فالبيئة الجزائرية تختلف اختلافا حقيقيا على باقي البيئات الأخرى.

*إنّ الناظر في هذا الكتاب لا يدري أُلصقَ كتابا للحديث النبوي أو كتابا للتصوف المعتدل المبني على الكتاب والسنة، وهذا راجع لطبيعة الكتاب إذ يشتمل على أكثر من خمسمائة وألف حديث نبوي شريف، فهو عدد ضخم جدا، إلا أنّ المُتَمَعِّن في النظر فيه

¹ ينظر: الإرشاد لما فيه من مصالح العباد، عبد الرحمن الثعالبي، (ص52-55).

يعلم يقينا أنه كتاب في التصوف مستمد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ومُدعم بها.
*إنَّ مما يُدللُّ على أهمية الكتاب هو إيراد الثعالبي لتراجم بعض الصالحين، وحكايته عنهم كراماتهم التي حدثت لهم، وأخذ العبرة من تجاربهم .

*اشتمال هذا الكتاب على أبواب عدة من أبواب العلم، من التفسير وعلوم القرآن والحديث والفقه والأدب والتاريخ وغيرها، وقد أورد الثعالبي بعض النقول كانَّ بعدها المتخصصون مما زال أثره من الساحة العلمية ولم يعد موجودا، ككتاب "روضة الحقائق" لابن الخلال، و"التبطل" لابن عبد الغفور، و"رسائل التصوف" للشيخ الأنطاكي، و"الكلم الفارقة والحكم الحقيقية".

*يستمد هذا الكتاب أهميته أيضا أنه آخر تأليف ألفه الثعالبي في حياته في سن متأخر من حياته فقال: "كمل كتابنا هذا المسمى بالإرشاد، في أواخر ربيع الأول من عام تسعة وستين وثمان مائة، وقد بلغت من السنِّ نيفًا عن خمس وثمانين سنة، وهو آخر تأليف ألّفته، ولم آل في جمعه نصحا ولا ادّخرت وسعا"¹.

المطلب الثالث: فصل في حكم مختارة من الجواهر الحسان.

عقد الإمام الثعالبي عليه رحمة الله في كتابه الإرشاد فصلا ختم به الكتاب عنوانه "كتاب جامع لجملة من الأحاديث وحكم مختارة من الجواهر وربّما تکرّر بعضها لفائدة وتفسير جمل من الآي وذكر ما يناسبها من الأحاديث والحكم" وعقد أيضا بابا سمّاه "باب جامع مشتمل على فصول محتوية على جواهر مختارة من الجواهر" انتخبها الثعالبي من تفسير الذي سمّاه بالجواهر الحسان في تفسير القرآن ليكون كتابه هذا حلقة من حلقات كتب التفسير المختصرة المعاصرة وفق النّسق الذي جرى عليه كثير من المفسرين المعاصرين يضعون فيه تأملات قرآنية أو هدايات وحكم ربّانية وتوظيفها بحيث تصبح واقعا عمليا، ويفسر بعض آياته الكريمة أو يحلل ويستنبط، فالثعالبي اختار عددا معينا من الآيات القرآنية في السورة الواحدة، ونقل معها التفسير الذي يناسب موضوع الكتاب على سبيل العموم لكيلا يستطرد ويخرج عن المقصود ويطيل فيملُّ القارئ، فهو يهدف بهذا الانتخاب تشويق القارئ واستمتاعه بالشيء الذي كتبه.

*إنَّ هذا الكُتُبُ الذي أخذه من تفسيره لم يسرفها على طريقة الانتخاب الكلي لسور القرآن الكريم وآياتها، وإنّما الانتخاب الجزئي في آيات القرآن الكريم، والانتخاب الأغلب في سور القرآن الكريم، أي من سورة البقرة إلى سورة الناس، وإنّما اقتصر على انتخاب آيات من ثلاث أرباع القرآن الكريم، أي من سورة الأنعام إلى سورة النّاس حسب ما أورده في هذا الكُتُبُ كما قال هو رحمه الله عند انتهائه من المعوذتين فقال: "قلت: هنا انتهى بنا ما

¹ المصدر السابق، ص 670.

اخرناه من جواهر الأحاديث وبالله التوفيق¹ وسأذكر نموذج لإيراده هذه الحكم في كتابه²:
 قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ﴾³، قال الثعالبي⁴: "زيادة في التحذير، قال النووي: وروينا في كتاب" ابن السني" عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم أن يقول الرجل المسلم إذا أراد أن يطرح ثيابه: بسم الله الذي لا إله إلا هو⁵. وعن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "ستر ما بين الجن وعورات بني آدم إذا دخلوا الكنف أن يقولوا بسم الله"⁶، رواه الترمذي وقال إسناده ليس بالقوي".

مناسبة هذا المبحث بمطالبه الثلاثة بموضوع الإصلاح الاجتماعي:

* أن محتويات الكتاب كلها لها علاقة وطيدة بالإصلاح الاجتماعي للأفراد والمجتمع، حيث ساهم الثعالبي بهذا الكتاب في إصلاح المجتمع الذي كان يعيش فيه، ومحتويات الكتاب تعكس الصورة الاجتماعية التي كان يعيشها الشعب الجزائري، فبالتالي هو كتاب وظفه الثعالبي على واقعه، فجمع صفتي أنه كتاب علم وعمل.

* علاقة أهمية الكتاب بموضوع الإصلاح الاجتماعي هو أن هذا الكتاب يصلح أن يكون كتاب إصلاح للمجتمع ولا أدلّ على ذلك من عنوانه المحتوي على مصالح العباد، ويمكننا أن نوظفه واقعيا كذلك في واقعنا المعاصر وسأبين ذلك في الجزء التطبيقي.

* علاقة الكتيب الذي انتخبه الثعالبي من تفسيره بالإصلاح الاجتماعي هو أنه ضمن تفسيره للآيات القرآنية هدايات وأحكام عملية تطبيقية تساهم بشكل فعال في عملية الإصلاح، ووظف آيات القرآن عمليا لا أن يبقى تفسيريا نظريا، فأشار إلى كل موضوع فيه إفادة للمجتمع في ثنايا تفسيره للآيات التي اختارها في الإرشاد.

المبحث الثالث: توظيف آيات الإصلاح الاجتماعي عند الثعالبي.

لقد عرّج الإمام عبد الرحمن الثعالبي كثيرا في تفسيره للآيات التي تحدّثت عن الإصلاح إلى جعل النصّ القرآني وظيفيا في حياة المجتمعات لا أن يبقى حبيسا عند شرح ألفاظ

¹ المصدر السابق ص 640.

² المصدر نفسه، ص 461.

³ سورة الأعراف: 27.

⁴ المصدر السابق، ص 461.

⁵ الأذكار، النووي، باب أذكار اليوم والليلة، باب ما يقول إذا خلع ثوبه لغسل أو نوم أو نحوهما، (ج 1، ص 62) رقم: 125.

⁶ سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي، أبواب السفر، باب ذكر من التسمية عند دخول الخلاء، (ج 2، ص 503) رقم: 606. وقال: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده ليس بذلك القوي، وقد روي عن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم أشياء في هذا"، وقال الألباني: حديث صحيح، واللفظ: (إذا دخل أحدهم الخلاء) في سنن الترمذي.

الآيات والمسائل النحوية والإعرابية، وهذا إن دلّ إنّما يدل على حرص الإمام الثعالبي لتحقيق مقاصد القرآن الكريم التي نزل من أجلها، فهو العمدة في إصلاح المجتمعات، وسأورد نموذجين تطبيقيين لكل مطلب حتى تتضح الصورة أكثر.

المطلب الأول: الإصلاح الاعتقادي للمجتمع.

* ثبات القلوب على دين الله:

نجد الإمام الثعالبي في كتابه الإرشاد لما فيه مصالح العباد يؤكد على ثبات القلوب على دين ربّ العالمين، وأن يكون هذا الثبات عمليا وواقعيا لا مجرد كلام باللسان والقول، فإنّ القول وحده ما يكفي بل الواجب الاعتقاد والقول والفعل، حيث نراه يقول¹: "عند قوله سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾² فيه تأويلات، أقرّها ما حكاه مكي عن الطبري، قال: هذا خير من الله عزّ وجلّ أنّه أملك لقلوب العباد منهم لها، وأنّه يحول بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يدرك الإنسان شيئا من إيمان ولا كفر ولا يعي شيئا ولا يفهم شيئا إلا بإذنه ومشيتته سبحانه، وقد كان النّبي ﷺ كثيرا ما يقول في دعائه: "يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك" قلت ولفظ الترمذي: عن شهر بن حوشب قال: "قلت لأتمّ سلمة رضي الله عنها، يا أمّ المؤمنين ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك، قالت كان أكثر دعائه: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، قالت قلت يا رسول الله ما أكثر دعائك: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، قال يا أمّ سلمة إنّه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ وتلا معاذ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾³ وفي الباب عن عائشة والنّوّاس بن سمعان وأنس وجابر وعبد الله بن عمرو ونعيم بن همار، قال وهذا حديث حسن"⁴.

-يعالج الإمام الثعالبي قضية معاصرة ابتلي بهذا كثير من المسلمين في المجتمعات المسلمة وهي عدم الثبات على دين الله، تجد منهم من هو متقلب في مستنقعات الشهوات، ومنهم من يهاجم هذا الدّين من الحدائين والعلمانيين الذي هو دينه وغيرهم، فقد قدّم الثعالبي حلا من الحلول الوظيفية وهو الدعاء بتثبيت القلب على دين رب العالمين.

* عمارة المساجد:

تطرّق الإمام الثعالبي إلى علاقة المسلم بالمسجد، حيث أنّ هذه العلاقة هي أساس صلاح الفرد المسلم ومن ثمّ إذا صلّح الفرد صلّح المجتمع المسلم، قال الثعالبي⁵: قوله

¹ الإرشاد لما فيه من مصالح العباد، ص 463.

² سورة الأنفال: 24.

³ سورة آل عمران: 8.

⁴ سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي، أبواب الدعاء، باب، (ج 5، ص 423) رقم: 3522.

⁵ الإرشاد لما فيه من مصالح العباد، ص 464.

سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾¹، قال ابن عطية: لفظ هذه الآية الخير، وفي ضمنها أمر المؤمنين بعمارة المساجد، وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: "إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان" قال الثعالبي: زاد ابن الخطيب في روايته: "فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: "إنَّ الله ضمن لمن كانت المساجد بيته الأمن والأمان والجواز على الصراط يوم القيامة"² خرَّجه علي بن عبد العزيز البغوي في المسند المنتخب له، وروى البغوي أيضا في هذا المسند عن النبي ﷺ أنه قال: "إذا أوطن الرجل المساجد بالصلاة والذكر، تبشَّش الله له كما يتبشَّش أهل الغائب لغائبهم إذا قدم عليهم"³. قيل: ومعنى يتبشَّش: يفرح به. انتهى من الكوكب الدرّي.

يرى الثعالبي أَنَّ الرجل المسلم الذي يراود المسجد أنه من أهل الإيمان لأنَّ المؤمنين وحدهم هم الذين يكونون عُقَّارًا للمساجد، فمن كان يعمر المساجد وهو من المؤمنين حتميا سيكون مصلحا لمجتمعهم نافعا له، لأنَّه أصلح نفسه أولا بعمارته للمسجد، والله تعالى يفرح بهم، فمن كان معتقدا هذا المعنى فقد أفلح وفاز في الدنيا والآخرة.

المطلب الثاني: الإصلاح الاجتماعي.

* الإنفاق في سبيل الله:

قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾⁴

قال الثعالبي⁵: وحَدَّث أبو بكر بن الخطيب بسنده عن علي بن أبي طالب وابن عمر رضي رضي الله عنهم، عن النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: "إنَّ الله فرض للفقراء في أموال الأغنياء قدر ما يسعهم، فإن منعوهم حتى يجوعوا ويعروا ويجهدوا، حاسمهم الله حسابا شديدا وعَذَّبهم

¹ سورة التوبة: 18.

² مسند البزار، البزار، مسند أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، حديث أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم، (ج10، ص85) رقم: 4152، وقال: وهذا الحديث روي عن النبي صلى الله عليه وسلم نحو كلامه بغير لفظه، ولا نعلم هذا اللفظ يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الإسناد من هذا الوجه، وهو حسن الإسناد.

³ سنن ابن ماجه، أبو عبد الله ابن ماجه، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة، (ج1، ص262) رقم: 800 واللفظ: "ما توطَّن رجل مسلم المساجد للصلاة والذكر إلا تبشَّش الله له، كما يتبشَّش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم" قال محمد فؤاد عبد الباقي: في الزوائد إسناد صحيح رجاله ثقات، وقال الأرنؤوط: رجاله ثقات رجال الشيخين، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

⁴ سورة التوبة: 34.

⁵ المصدر السابق، ص464.

عذابا نكرا¹.

يُحذّر الإمام الثعالبي من خطورة عدم الإنفاق على اليتامى من طرف الأغنياء، فهو سبب لأن يُصيبهم الجوع والعراء، وهذا للأسف المجتمع المسلم واقع فيه اليوم حيث إنّ نسبة الفقر والمجاعة في العالم الإسلامي مرتفعة جدا، فمن أسبابها الشح والبخل وعدم الإنفاق على اليتامى، فالواجب على الأغنياء إخراج زكاة أموالهم وصدقاتهم لكي يساهموا في إصلاح الأوضاع الاجتماعية للمجتمع المسلم، وحتى لا ينالهم الوعيد الشديد الوارد في الآية وهو التبشير بالعذاب الأليم في الآخرة.

* التكافل الاجتماعي:

قوله سبحانه: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾² قال الثعالبي³: وهذه الآية الكريمة عامة في أنواع الخيرات، ومن أعظمها الرأفة والشفقة على خلق الله، مواساة الفقراء وأهل الحاجة، وقد روى أبو داود والترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: "أَيُّمَا مُسْلِمٍ كَسَا مُسْلِمًا ثَوْبًا عَلَى عَرِي، كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خَضِرِ الْجَنَّةِ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ أَطْعَمَ مُسْلِمًا عَلَى جَوْعٍ، أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، أَيُّمَا مُسْلِمٍ سَقَى مُسْلِمًا عَلَى ظَمَأٍ سَقَاهُ اللَّهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ"⁴ وروى علي بن عبد العزيز البغوي في المسند المنتخب عن النبي ﷺ أنه قال: "أَيُّمَا مُسْلِمٍ كَسَا مُسْلِمًا ثَوْبًا، كَانَ فِي حِفْظِ اللَّهِ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْهُ رَقْعَةً"⁵ وروى ابن أبي شيبه في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال: "أَيُّمَا أَهْلٍ عَرَصَةٌ ظَلَّ فِيهِمْ أَمْرٌ جَائِعًا، فَقَدْ بَرِثَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ"⁶.

ينوّه الإمام الثعالبي في هذه الآية أنّ على الإنسان أن يفعل كل الخير الذي يقدر عليه، لأنّ بفعل الخيرات تتحصن المجتمعات وتتطور، ويعوّض الله فاعل الخير في الدنيا والآخرة على ما فعله في الدنيا من خير كالشفقة على خلق الله ومواساة الفقراء وأهل الحاجات، وهكذا يتحقق الإصلاح في المجتمع وتتحقق اللحمة المجتمعية والأخوة الإيمانية، وهو ما يجب أن نذكّر به عموم المسلمين في واقعنا المعاصر الذي يشهد تحطما كبيرا من الناحية الاجتماعية.

¹ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ذكر من اسمه محمد واسم أبيه سعيد، محمد بن سعيد بن عمرو أبو عبد الله المروزي يعرف بالبورقي (ج3، ص244). قال صاحب كنز العمال: "الخطيب في تاريخه وابن النجار عن علي وفيه محمد ابن سعيد البورقي كذاب يضع"، وقال أبو نعيم في الحلية: "هذا حديث غريب من حديث محمد ابن الحنفية لا يعرف إلا من هذا الوجه".

² سورة الحج: 77.

³ الإرشاد لما فيه من مصالح العباد، ص506-507.

⁴ سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، باب في المنيحة، (ج3، ص110) رقم: 1683. وقال: إسناده حسن، وسنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، (ج4، ص214) رقم: 2449. وقال: هذا حديث غريب وقد روي هذا عن عطية عن أبي سعيد موقوفا، وهو أصح عندنا وأشبهه.

⁵ المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، (ج4، ص217) رقم: 7422. وقال: هذا صحيح الإسناد ولم ولم يخرجاه، واللفظ: "من كسا مسلما ثوبا لم يزل في ستر الله ما دام عليه منه خيط أو سلك".

⁶ مصنف ابن أبي شيبة، ابن أبي شيبة، كتاب البيوع والأقضية، باب في احتكار الطعام، (ج4، ص302) رقم: 20396 بزيادة: "من احتكر طعاما أربعين ليلة فقد برئ من الله، وبرئ الله منه".

المطلب الثالث: الإصلاح الروحي للمجتمع.

*** الاعتراف بالذنب:**

قوله سبحانه: ﴿وَأَخْرَجُوا عَتَرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخِرَ سَيْنَا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾¹ قال الثعالبي²: "قال أبو عثمان: هذه أرجى آية لهذه الأمة، قلت: روى البخاري عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ قال: "أتاني الليلة أتيان فابتهثاني فاتتهينا إلى مدينة مبنية يلين ذهبا ولين فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح ما أنت راء قالوا لهم اذهبوا فقعوا في ذلك النهر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة قالوا لي هذه جنة عدن وهذا منزل قالوا أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فتجاوز الله عنهم"³.

يرشدنا الثعالبي من خلال هذه الآيات إلى إصلاح المرء لنفسه، وذلك بالاعتراف بالذنب عند ارتكابه، لأن الاعتراف بالذنب هو أول خطوات إصلاح النفس البشرية، وهي المشكلة التي نعاني منها في مجتمعنا المسلم وهي عدم الاعتراف بالخطأ لأنهم يرون أن الإقرار بالذنب ضعف ومهانة للإنسان، بينما الثعالبي لكي يعلو بالنفس إيمانياً يبشر الفرد المسلم أن الاعتراف بالذنب هو طريق إلى جنة عرضها السماوات والأرض في صورة تجعل النفوس طاهرة نقية.

* تطهير النفس:

قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾⁴، قال الثعالبي⁵: قال ابن عطية: الحاجة الحسد في هذا الموضع. قال الثعالبي: وروى الترمذي الحكيم بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "إِنَّ بَدَاءَ أَمْتِي لَمْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِكَثْرَةِ صَوْمٍ وَلَا صَلَاةٍ إِنَّمَا دَخَلُوهَا بِسَلَامَةِ الصُّدُورِ وَسَخَاوَةِ الْأَنْفُسِ، وَحَسَنِ الْخُلُقِ، وَالرَّحْمَةِ لِكُلِّ الْمُسْلِمِينَ" وإلّا يثار على النفس أكرم الخلق. قال أبو يزيد البسطامي: قدم علينا شاب من بلخ حاجا فقال لي: ما حُدُّ الزهد عندكم، فقلتُ: إذا وجدنا أكلنا، وإذا فقدنا صبرنا، فقال: هكذا عندنا كلاب بلخ، فقلت له: فما هو عندكم، فقال: إذا فقدنا صبرنا، وإذا وجدنا أثرنا. قوله سبحانه: ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون قال ابن عطية: وشح النفس فقر لا يذهب به غنى المال بل يزيده ويتصّب به.

¹ سورة التوبة: 102.

² الإرشاد لما فيه من مصالح العباد، ص 468.

صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَأَخْرَجُوا عَرِفْرَافًا﴾، 3
سئل عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم ﴿التوبة: 95﴾، (ج 6، ص 69) رقم: 4674.

4 سورة الحشر: 9.

⁵ الإرشاد لما فيه من مصالح العباد، ص 611.

ينبه العلامة عبد الرحمن الثعالبي إلى ضرورة تطهير النفس من الحسد والشح والبخل الذي هو متلبس بكثير من المسلمين في واقعهم اليوم، فتوظيف هذه الآيات يكون بالتزام المسلم بالإيثار وعدم حسد النَّاس، حتى أدَّى ذلك بالثعالبي لإيراد أثره عن البسطامي في الصبر على الفقر والزهد فشبهه الذي قدم عليه بأن كلاب بلخ هكذا، وهو أثر أيضا ورد بين شقيق البلخي وإبراهيم بن أدهم، لهذا فالمسلم لا يحمل حسدا في قلبه ولا في صدره ويؤثر غيره على نفسه، فالإيثار أن يُقَدِّم الإنسان حقوق الخلق على حقه لا يُفَرِّق في ذلك بين قريب أو بعيد أو صاحب وهي أسعى سمات طهارة الروح.

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وفي ختام هذا البحث أُخْلِصُ إلى التَّائِبَاتِ الآتية:

1. يعتبر عبد الرحمن الثعالبي من كبار عُلمَاء عصره تأليفا وتدرسا، ومن المهتمين بأحوال عصره وما طرأ فيه من تقلبات وأحداث على كافة المستويات وهذا هو الواجب على العلماء.
2. يعتبر كتاب الإرشاد لما فيه من مصالح العباد من أفضل الكتب التي تحدّثت في موضوع الإصلاح الروحي في القرآن الكريم والسنة النبوية، والترغيب والترهيب، والزهد والفضائل.
3. منهج الثعالبي في الإصلاح الاجتماعي في كتابه يُماثل منهج تفسير آيات القرآن بالسنة النبوية، حيث يورد الآية ومعناها ويدعّم ذلك بالأحاديث النبوية الشريفة.
4. يركز الثعالبي في كتابه على جانب الإصلاح الروحي للمجتمع المسلم بشكل أكبر، فنجد أنه يكثر من أحاديث الترغيب والترهيب أثناء تفسيره للآيات.
5. تنزيل الثعالبي للآيات القرآنية السالفة الذكر على الواقع ليس تنزيلا صريحا، إنّما يسير في معالجته للواقع بقاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

التوصيات:

1. التجسيد العملي لعملية إعادة الاعتبار لكبار علماء المغرب الإسلامي وعلماء الجزائر خصوصا، وعلى رأسهم العلامة عبد الرحمن الثعالبي.
2. الاهتمام بتراث عبد الرحمن الثعالبي المطبوع، والبحث والتنقيب عن المفقود منه، وتحقيق المخطوط منه.
3. إمكانية اعتبار كتاب الإرشاد لما فيه من مصالح العباد للثعالبي كمقرر جامعي، واستحداث مقياس لتدرسه بعنوان الترغيب والترهيب في القرآن الكريم.

قائمة المصادر والمراجع

1. الأذكار، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر، الطبعة: 1، 1425هـ-2004م.
2. الإرشاد لما فيه من مصالح العباد، عبد الرحمن الثعالبي، حقق أصوله وقَدِّم له: محمد فؤاد بن الخليل القاسمي الحسني، الناشر: عالم المعرفة، الجزائر، سنة: 2011م.
3. تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن محمد الجيلالي، الناشر: مكتبة الشركة الجزائرية-دار

- مكتبة الحياة، الطبعة: 2، الأجزاء: 2، الجزائر، سنة: 1384هـ-1965م.
4. تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: 1، عدد الأجزاء: 16، بيروت، سنة: 1422هـ - 2002 م.
5. جامع الأمهات في أحكام العبادات، عبد الرحمن الثعالبي، دراسة وتحقيق: د. موسى إسماعيل، الناشر: عالم المعرفة، الأجزاء: 2، الجزائر، سنة: 2011م.
6. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن الثعالبي، تحقيق: محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: 1، بيروت، سنة: 1418هـ.
7. سنن ابن ماجه، بن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، عدد الأجزاء: 2.
8. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمّد كامل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، عدد الأجزاء: 7، الطبعة: 1، سنة: 1430هـ - 2009م.
9. سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج 1، 2) ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج 3) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج 4، 5)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، عدد الأجزاء: 5، الطبعة: 2، سنة: 1395هـ - 1975م.
10. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد بن سالم مخلوف، تعليق: عبد المجيد خيالي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: 1، الأجزاء: 2، لبنان، سنة: 1424هـ-2003م.
11. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: 1، عدد الأجزاء: 9، سنة: 1422هـ
12. الفكر السامي في تاريخ الفكر الإسلامي، محمد بن الحسن الحجوي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: 1، الأجزاء: 2، بيروت-لبنان، سنة: 1416هـ-1995م.
13. المستدرک علی الصحیحین، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: 1، عدد الأجزاء: 4، بيروت، سنة: 1411هـ - 1990م.
14. مسند البزار، أبو بكر أحمد العتكي المعروف بالبزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، (حقق الأجزاء من 1 إلى 9) وعادل بن سعد (حقق الأجزاء من 10 إلى 17) وصبري عبد الخالق الشافعي (حقق الجزء 18)، مكتبة العلوم والحكم، عدد الأجزاء: 18، الطبعة: 1، المدينة المنورة.
15. مصنف بن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد، الطبعة: 1، عدد الأجزاء: 7، الرياض، سنة: 1409هـ.
16. معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويمهض، الناشر: مؤسسة نويمهض الثقافية، الطبعة: 2، بيروت-لبنان، سنة: 1400هـ-1980م.
17. معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى-دار إحياء التراث العربي، الأجزاء: 15، بيروت.

منهج البحث في هذا الموضوع: يسلك الباحث في هذا الموضوع منهج الاستقراء وذلك بتتبع المواضع التي أنزل فيها المفسرون الآيات على الفرق الخمس وترتيبها، وفي كل مطلب من المطالب نكتفي بما يكفي أمثلة من مفسرين وأقوال، إذا كان المفسرون في المطلب كثيرين وأقوالهم كذلك.

خطة البحث في هذا الموضوع: يشتمل الموضوع على مقدمة، وخمسة مطالب، وخاتمة كالآتي:

مقدمة: وفيها تعريف بالبحث وبيان إشكاليته وأهميته وهدفه ومنهج البحث فيه وخطته.

وسبعة مطالب، كل مطلب يحوي ثلاثة فروع.

المطلب الأول: تنزيل النص القرآني على القدرية.

المطلب الثاني: تنزيل النص القرآني على الجبرية.

المطلب الثالث: تنزيل النص القرآني على الجهمية.

المطلب الرابع: تنزيل النص القرآني على الرافضة.

المطلب الخامس: تنزيل النص القرآني على الخوارج.

المطلب السادس: تنزيل النص القرآني على المعتزلة.

المطلب السابع: تنزيل النص القرآني على المرجئة.

وفي كل مطلب من هذه المطالب ثلاثة فروع: الفرع الأول: تعريف بالفرقة، والفرع الثاني:

تنزيل مفسري الأندلس، والفرع الثاني: تنزيل مفسري المغرب العربي.

خاتمة: وفيها إبراز لأهم نتائج البحث، وتوصيات مهمة.

المطلب الأول: تنزيل النص القرآني على القدرية

قبل أن نعرض أقوال مفسري الغرب الإسلامي على هذه الفرقة يتحتم علينا التعريف

بها وبأهم انحرافاتهما حتى يتضح فيما بعد تطابق تنزيل الآيات عليهما.

الفرع الأول: التعريف بفرقة القدرية وانقساماتها:

أولاً: التعريف بالقدرية:

نسبة إلى القدر، وهي فرقة كلامية ذات مفاهيم خاطئة في القدر، حيث زعموا أن العبد مستقل بإرادته وقدرته وليس لله في فعله مشيئته ولا خلق، وأنكر غلاتهم علم الله السابق، أول من أظهر القول بالقدر معبد الجهنّي (ت:80هـ) مقتولاً. تبرأ منهم الصحابة المتأخرون، وافترقوا فرقا كثيرة⁽¹⁾.

(1) ينظر: الفرق بين الفرق، البغدادي، تحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (دط)، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 1416هـ-1995م، ص: (114...201).

ثانيا: انقساماتها:

قال القرطبي: "وانقسمت القدرية اثنتي عشرة فرقة: الأحمرية- وهي التي زعمت أن في شرط العدل من الله أن يملك عباده أمورهم، ويحول بينهم وبين معاصيهم. والثنوية- وهي التي زعمت أن الخير من الله والشر من الشيطان. والمعتزلة - وهم الذين قالوا بخلق القرآن وجحدوا صفات الربوبية. والكيسانية وهم الذين قالوا: لا ندري هذه الأفعال من الله أو من العباد، ولا نعلم أتياب؟ الناس بعد أو يعاقبون. والشيطانية- قالوا: إن الله تعالى لم يخلق الشيطان. والشريكية- قالوا: إن السيئات كلها مقدرة إلا الكفر. والوهمية- قالوا: ليس لأفعال الخلق وكلامهم ذات، ولا للحسنة والسيئة ذات. والزيرية - قالوا: كل كتاب نزل من عند الله فالعمل به حق، ناسخا كان أو منسوخا. والمسعدية - زعموا أن من عصى ثم تاب لم تقبل توبته والناكثية- زعموا أن من نكث ببيعة رسول الله ﷺ فلا إثم عليه والقاسطية- تبعوا إبراهيم بن النظام في قوله: من زعم أن الله شي فهو كافر."⁽¹⁾

الفرع الثاني: تنزيل مفسري الأندلس.

نزل مفسرو الأندلس النص القرآني على فرقة القدرية تارة بالتصريح بالتنزيل عليهم، وتارة بالرد عليهم، غيرها مما ستجده في النقولات عنهم، وهذه بعض أقوالهم في تفاسيرهم، مرتبين حسب وفياتهم.

1- عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية الأندلسي (ت542هـ).

قال عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ "وهذه الآية ترد على القدرية المفوضة الذين يقولون إن القدرة لا تقتضي أن يؤمن الكافر وإن ما يأتيه الإنسان من جميع أفعاله لا خلق لله فيه تعالى عن قولهم."⁽²⁾

ونقل قول الإمام مالك عند قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا . قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَرًا شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مریم:29...33]. وقال مالك بن أنس رضي الله عنه في هذه الآية: ما أشدها على أهل القدر أخبر عيسى بما قضى من أمره وبما هو كائن إلى أن يموت."⁽³⁾

ونقل قول محمد بن سيرين وغيره، عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي

(1) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي، تحقق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط3، 1384هـ - 1964م، (4/161).

(2) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1422هـ، (288/2).

(3) المصدر السابق: (15/4)

آيَاتِ اللَّهِ أَتَى يُصْرَفُونَ: هي إشارة إلى أهل الأهواء من الأمة، وروت هذه الفرقة في نحو هذا حديثا وقالوا هي في أهل القدر ومن جرى مجراهم.⁽¹⁾

2- محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (ت 543هـ):

حكم بكفرهم مستدلا بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فقال: "وعلى هذا فإن المبتدعة وأهل الأهواء كفار، وقد اختلف العلماء في تكفيرهم. والصحيح عندي ترتيبهم، فأما القدرية فلا شك في كفرهم، وأما من عداهم فنستقرئ فيهم الأدلة، ونحكم بما تقتضيه..."⁽²⁾

وقال عند قوليت: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة: 127]: "إخبار عن أنه صارف القلوب ومصرفها وقالها ومقلها ردا على القدرية في اعتقادهم أن قلوب الخلق بأيديهم وجوارحهم بحكمهم، يتصرفون بمشيئتهم، ويحكمون بإرادتهم، واختيارهم، ولهذا قال مالك فيما رواه عنه أشهب: ما أبين هذا في الرد على أهل القدر: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: 110]. وقوله تعالى لنوح: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: 36]."⁽³⁾

3- محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت 671هـ).

أنزل القرطبي الآيات على القدرية في مواضع كثيرة جدا هذه بعضها.

قال عند قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]: "وفي هذه الآية رد على القدرية والمعتزلة والإمامية؛ لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية في صدور أفعاله منه، طاعة كانت أو معصية؛ لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله، فهو غير محتاج في صدورها عنه إلى ربه، وقد أكد بهم الله تعالى في هذه الآية إذ سأله الهداية إلى الصراط المستقيم، فلو كان الأمر إليهم والاختيار بيدهم دون ربهم لما سأله الهداية، ولا كرروا السؤال في كل صلاة."⁽⁴⁾

وقال: "وبين بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: 128] أن الأمور بقضاء الله وقدره ردا على القدرية وغيرهم."⁽⁵⁾

وقال في ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَمِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِنَفْسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا

(1) المصدر السابق: (568/4)

(2) أحكام القرآن، ابن العربي المالكي، تحقق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط3، 1424 هـ - 2003 م: (385/1)

(3) المصدر نفسه: (606/2)

(4) تفسير القرطبي: (149/1)

(5) المصدر نفسه: (200/4)

إِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١﴾ [آل عمران: 178]: "والآية نص في بطلان مذهب القدرية." (1)

وقال في ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: 25]: "وهذه الآية بينة الحجة في الرد على القدرية، لأنهم قالوا: هدى الله الخلق كلهم إلى صراط مستقيم، والله قال: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فردوا على الله نصوص القرآن." (2)

4- محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت 745هـ):

نقل قول محمد بن كعب القرظي عند قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: "قاتل الله القدرية لإبليس أعلم بالله منهم. يريد في أنه على أن الله يهدي ويضل." (3)

وقال عند قوله تعالى: "وظاهر الآية يرد على القدرية والمعتزلة" (4)

الفرع الثالث: تنزيل مفسري المغرب العربي:

أيضا نزل مفسرو المغرب العربي النص القرآني على فرقة القدرية تارة بالتصريح بالتنزيل عليهم، وتارة بالرد عليهم، وتارة بإقامة الحجة، وغيرها مما ستجده في النقولات عنهم، وهذه بعض أقوالهم في تفاسيرهم، مرتبين حسب وفياتهم.

1- مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني (ت 437هـ).

نقل قول ابن سيرين في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: 41]: "إن لم تكن هذه الآية نزلت في القدرية فإني لا أدري فيمن نزلت." (5)

وقال في قوله تعالى: في ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفافات: 161-162-163]: "وفي هذه الآية رد على القدرية لأن الضلال والهدى كل بمشيئة الله وقضائه ..." (6)

وقال: "وقيل: عني بالمجرمين هنا أهل القدر، وكذلك قوله: ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القم: 47] آيات في أهل القدر أيضاً." (7)

وقال في ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 7]: "وهذا فيه أعظم

(1) المصدر السابق: (288/4)

(2) المصدر نفسه: (329/8)

(3) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، تحقق: صديقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، دط: 1420هـ: (20/5)

(4) المصدر نفسه: (227/5)

(5) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره...، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني، تحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ.د: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، ط 1، 1429 هـ - 2008م: (6175/9)

(6) المصدر نفسه، (6460/10).

(7) المصدر نفسه، (5767/9).

حجة على القدرية أن كل امرئ ميسر لما قدر عليه قبل أن يخلق." (1)

2- محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت 1393هـ).

قال عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: 46]: "في هذه الآية الكريمة الرد الواضح على القدرية في قولهم: إن الشر لا يقع بمشيئة الله، بل بمشيئة العبد؛ سبحانه الله وتعالى علوا كبيرا عن أن يقع في ملكه شيء ليس بمشيئته" (2)

وقال عند قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: آية 39]: "وهذه الآية الكريمة تدل على رد مذهب القدرية ردا واضحا لا شك فيه؛ لأنه بين أن الضلال بمشيئته، والهدى بمشيئته، فلا يقع في الكون تحريكة ولا تسكينة إلا بمشيئته جل وعلا." (3)

وقال عند قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: آية 107]: "وهذه الآيات تزد على القدرية الزاعمين أن الكفر والمعاصي بمشيئة العبد لا بمشيئة الله، فمذهبهم باطل، قرأوا من سيئ فوقعوا فيما هو أشنع وأكبر منه." (4)

3- جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري (ت 1439هـ).

قال عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا تَبَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾: "أخذ الحذر واجب لأنه سبب شرعه الله تعالى لتوقي المكروه، ولكنه لا يمنع المقدور، وأخطأت القدرية إذا قالوا: الحذر يرد القدر، ولولا أنه كذلك ما أمروا به، وهو خطأ اعتقادي، فالأسباب تؤتي طاعة لله تعالى، وأما دفع المقدور، أي: ما قدره الله على الإنسان فلا بد من وقوعه، وفائدة الأخذ بالأسباب: إبعاد الخوف عن النفس وحصول شعور بالفوز والنجاة." (5)

وقال في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: 107]: "في الآية دليل على إبطال مذهب القدرية وهم نفاة القدر والزاعمون أن أفعال العباد لم تقدر عليهم وإنما هم الخالقون لها بدون إذن الله وإرادته." (6)

(1) المصدر السابق: (10/8294).

(2) أضواء البيان، الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، ط 1، 1415هـ - 1995م: (161/3).

(3) العذب النمير، محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط 2، 1426هـ: (1/229).

(4) المصدر نفسه: (2/79).

(5) أيسر التفاسير مع نهر الخير، أبو بكر جابر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط 5، 1424هـ/2003م: (1/507).

(6) المصدر نفسه: (2/102).

وقال عند قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد:16]: "في الآية رد على الملاحدة الشيوعيين الذين ينكرون وجود الله جل جلاله، ورد على القدرية الذين يزعمون أنهم يخلقون أفعالهم والله يقول: ﴿والله خالق كل شيء﴾ فلا يخرج شيء عن كونه مخلوقاً لله تعالى."⁽¹⁾

المطلب الثاني: تنزيل النص القرآني على الجبرية.

قبل أن نعرض أقوال مفسري الغرب الإسلامي على هذه الفرقة يتحتم علينا التعريف بها وبأهم انحرافاتهما حتى يتضح فيما بعد تطابق تنزيل الآيات عليهما.

الفرع الأول: التعريف بالجبرية وانقساماتها:

أولاً: التعريف بالجبرية: نسبة إلى الجبر، والجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى.⁽²⁾

ثانياً: انقساماتها: الجبرية أصناف. فالجبرية الخالصة: هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً، والجبرية المتوسطة: هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً.⁽³⁾

الفرع الثاني: تنزيل مفسري الأندلس.

نزل مفسرو الأندلس بعض آيات القرآن على هذه الفرقة وتنوعت عباراتهم في ذلك تجدهم في ما يلي:

1- عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية الأندلسي (ت542هـ):

قال عند قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:134]: "وفي هذه الآية رد على الجبرية القائلين لا اكتساب للعبد."⁽⁴⁾

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:280]: "وفي هذه الآية نص على أن الثواب والعقاب متعلق بكسب الإنسان، وهذا رد على الجبرية."⁽⁵⁾

وقال في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس:8]: "وفي هذه اللفظة رد على الجبرية ونص على تعلق العقاب بالتكسب الذي للإنسان."⁽⁶⁾

2- محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي (ت671هـ):

(1) المصدر السابق: (18/3).

(2) ينظر: الملل والنحل، الشهرستاني، تحقق: أمير علي مهنا وعلي حسن فاعور، ط3، دار المعرفة، بيروت، 1414هـ-1993م: (85/1).

(3) ينظر: المصدر نفسه، (85/1).

(4) المحرر الوجيز، ابن عطية: (214/1).

(5) المصدر السابق: (378/1).

(6) المصدر نفسه: (107/3).

قال عند قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281]: "وفي هذه الآية نص على أن الثواب والعقاب متعلق بكسب الأعمال، وهو رد على الجبرية."⁽¹⁾

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: 13]: "فقد بطل عندنا وعندكم أن يهديهم الله سبحانه على طريق الإلجاء والإجبار والإكراه، فصار يؤدي ذلك إلى مذهب الجبرية، وهو مذهب زُدل عندنا وعندكم، فلم يبق إلا أن المهتدين من المؤمنين إنما هداهم الله تعالى إلى الإيمان والطاعة على طريق الاختيار حتى يصح التكليف، فمن شاء آمن وأطاع اختيارا لا جبرا."⁽²⁾

- محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت 745هـ):

قال في قوله عز وجل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]: "وفي قوله: نعبد قالوا رد على الجبرية، وفي نستعين رد على القدرية."⁽³⁾

وقال في قوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: 280]: "ثم توفي كل نفس أي تعطى وافيا جزاء ما كسبت من خير وشر، وفيه نص على تعلق الجزاء بالكسب، وفيه رد على الجبرية."⁽⁴⁾

وقال أيضا في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِمَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: 8]: "وبما كانوا يكسبون إشعار بأن الأعمال السابقة يكون عنها العذاب، وفي ذلك رد على الجبرية، ونص على تعلق العقاب بالكسب، ومجيئه بالمضارع دليل على أنهم لم يزالوا مستمرين على ذلك ماضي زمانهم ومستقبله."⁽⁵⁾

3- محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزى الكلبي الغرناطي (ت 741هـ):

وجدت له تنزيلا واحدا وهو قوله في قوله عز وجل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]: "إياك نستعين: أي نطلب العون منك على العبادة وعلى جميع أمورنا، وفي هذا دليل على بطلان قول القدرية والجبرية، وأن الحق بين ذلك."⁽⁶⁾

الفرع الثالث: تنزيل مفسري المغرب العربي.

نزل مفسرو المغرب العرب كذلك بعض الآيات على هذه الفرقة بعبارات مختلفة نذكر

(1) تفسير القرطبي: (3/376).

(2) المصدر نفسه: (14/97).

(3) البحر المحيط، أبو حيان: (1/44).

(4) المصدر نفسه: (2/720).

(5) المصدر نفسه: (6/16).

(6) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزى، تحقيق: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم، بيروت - لبنان، ط 1، 1416هـ: (65/1).

بعضهم وأمثلة من أقوالهم.

1- محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي (ت 803هـ).

قال عند قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:74]: "هي حجة على الجبرية القائلين: بأن لا قدرة للعبد، ودليل لأهل السنة القائلين بالكسب."⁽¹⁾

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ...﴾ [النحل:127]: "فيه رد على المعتزلة في قولهم العبد خلق أفعاله ورد على الجبرية القائلين بأن حركة العبد كحركة المرتعش، وإنه قيل له: افعَلْ بأمرٍ لا فعل له ودليل لأهل السنة في إثبات الكسب لأنه أمر بالصبر ثم إنه لا صبر له إلا بالله."⁽²⁾

وقال عند قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَلَيَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون:106]: "يدل على اتصافهم بمذهب الجبرية القائلين: بأن لا قدرة للعبد ولا كسب، لأنهم أتوا هذا عذرا لهم، أن هذا أمر قدر علينا لا طاقة لنا به، كقول آدم لموسى صلى الله على نبينا محمد وعليهما وسلم: [تَلَوْنِي عَلَى أَمْرٍ قَدِرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ]*، وقولهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون:107] يدل على اعتقادهم أن لهم كسبا واختيارا"⁽³⁾

2- محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت 1393هـ).

قال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَمْتَدُّوا إِذَا أَبَدًا﴾ [الكهف:57]: "ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه جعل على قلوب الظالمين المعرضين عن آيات الله إذا ذكروا بها أكنة، أي: أغطية تغطي قلوبهم فتمنعها من إدراك ما ينفعهم مما ذكروا به، وواحد الأكنة كنان، وهو الغطاء، وأنه جعل في آذانهم وقرا، أي: ثقلا يمنعها من سماع ما ينفعهم من الآيات التي ذكروا بها، وهذا المعنى أوضحه الله تعالى في آيات أخر، كقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:7]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ الآية [البقرة:23]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا . وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّا أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء:45]... والآيات بمثل ذلك كثيرة جدا.

فإن قيل: إذا كانوا لا يستطيعون السمع ولا يبصرون ولا يفقهون: لأن الله جعل الأكنة

(1) تفسير ابن عرفة، تحقيق: جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1408هـ: (39/2).

(2) المصدر نفسه: (57/3).

(3) المصدر نفسه: (217/3).

المانعة من الفهم على قلوبهم، والوقر الذي هو الثقل المانع من السمع في آذانهم فهم مجبورون، فما وجه تعذيبهم على شيء لا يستطيعون العدول عنه والانصراف إلى غيره؟

فالجواب: أن الله جل وعلا بين في آيات كثيرة من كتابه العظيم: أن تلك الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، كالختم والطبع والغشاوة والأكنة، ونحو ذلك إنما جعلها عليهم جزاء وفاقا لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم، فأزاع الله قلوبهم بالطبع والأكنة ونحو ذلك، جزاء على كفرهم، فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء:155]، أي: بسبب كفرهم، وهو نص قرآني صريح في أن كفرهم السابق هو سبب الطبع على قلوبهم، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:5]. وهو دليل أيضا واضح على أن سبب إزاعة الله قلوبهم هو زيغهم السابق، ... إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الطبع على القلوب ومنعها من فهم ما ينفع عقاب من الله على الكفر السابق على ذلك. وهذا الذي ذكرنا هو وجه رد شبهة الجبرية التي يتمسكون بها في هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن العظيم.⁽¹⁾

وفي رد شبهة جعل الإلهام كالوحي عند الجبرية قال: "وما يزعمه بعض الجبرية أيضا من الاحتجاج بالإلهام في حق الملهم وغيره جاعلين الإلهام كالوحي المسموع مستدلين بظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام:125]، وبخبر «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»⁽²⁾ كله باطل لا يعول عليه، لعدم اعتضاده بدليل، وغير المعصوم لا ثقة بخواطره؛ لأنه لا يأمن دسيسة الشيطان، وقد ضمنت الهداية في اتباع الشرع، ولم تضمن في اتباع الخواطر والإلهامات.⁽³⁾

3- محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت 1393هـ).

قال في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:286]: "وهذه الآية تقتضي عدم وقوع التكليف بما لا يطاق في الشريعة، بحسب المتعارف في إرادة البشر وقدرهم، دون ما هو بحسب سر القدر، والبحث عن حقيقة القدرة الحادثة، نعم يؤخذ منها الرد على الجبرية."⁽⁴⁾

وقال عند قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:148]: "وفي الآية حجة على

(1) أضواء البيان، الشنقيطي: (312/3).

(2) أخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة الحجر، رقم (3127)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة: (268/4).

(3) أضواء البيان، الشنقيطي: (323/3).

(4) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: (137/3).

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:30]: "وبهذا بطل مذهب الجبرية؛ لأن الآية أثبتت مشيئة للناس وجعلت مشيئة الله شرطا فيها؛ لأن الاستثناء في قوة الشرط، فللإنسان مشيئته لا محالة"⁽²⁾.

المطلب الثالث: تنزيل النص القرآني على الجهمية.

قبل أن نعرض أقوال مفسري الغرب الإسلامي على هذه الفرقة يتحتم علينا التعريف بها وبأهم انحرافاتهما حتى يتضح فيما بعد تطابق تنزيل الآيات عليها.

الفرع الأول: التعريف بالجهمية وانقساماتها:

أولاً: التعريف بالجهمية: نسبة إلى الجهم، وهي فرقة كلامية ترجع تسميتها إلى مؤسسها وهو الجهم بن صفوان الترمذي، توفي سنة (128هـ) مقتولا، أنكرت جميع الأسماء والصفات، ويرون أن الإيمان هو المعرفة، والكفر هو الجهل، وأن الإنسان مجبر على أفعاله...⁽³⁾

ثانياً: انقساماتها: قال القرطبي: "وانقسمت الجهمية اثنتي عشرة فرقة: المعطلة- زعموا أن كل ما يقع عليه وهم الإنسان فهو مخلوق. وإن من ادعى أن الله يرى فهو كافر. والمريسية قالوا: أكثر صفات الله تعالى مخلوقة. والملتزمة- جعلوا الباري سبحانه في كل مكان. والواردية- قالوا لا يدخل النار من عرف ربه، ومن دخلها لم يخرج منها أبدا والزنادقة - قالوا: ليس لأحد أن يثبت لنفسه ربا، لأن الإثبات لا يكون إلا بعد إدراك الحواس، وما لا يدرك لا يثبت. والحرقية- زعموا أن الكافر تحرقه النار مرة واحدة ثم يبقى محترقا أبدا لا يجد حر النار. والمخلوقية- زعموا أن القرآن مخلوق. والفانية- زعموا أن الجنة والنار يفنيان، ومنهم من قال لم يخلقا. والعبدية - جحدوا الرسل وقالوا إنما هم حكماء. والواقفية- قالوا: لا نقول إن القرآن مخلوق ولا غير مخلوق. والقبرية- ينكرون عذاب القبر والشفاعة. واللفظية- قالوا لفظنا بالقرآن مخلوق."⁽⁴⁾

الفرع الثاني: تنزيل مفسري الأندلس.

لما كانت عقائد الجهمية تشترك كثيرا مع بعض الفرق الأخرى كالقدرية والمعتزلة لم أجد من مفسري الأندلس من نزل عليهم الآيات إلا القرطبي، وهذه أمثلة من تفسيره: قال رحمه الله: "قوله تعالى: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ أي بما خلق وهو خالق كل شيء، فوجب أن يكون عالما بكل شيء، وقد قال: ﴿ألا يعلم من خلق﴾ [الملك: 14] فهو العالم والعليم

(1) المصدر نفسه: (148/8).

(2) المصدر السابق: (415/29).

(3) ينظر: تفاصيل هذه الفرقة: الملل والنحل، الشهرستاني، (1/99-97)، مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري: (312/1).

(4) تفسير القرطبي: (162/4).

بجميع المعلومات بعلم قديم أزلي واحد قائم بذاته، ووافقنا المعتزلة على العالمية دون العلمية. وقالت الجهمية: عالم بعلم قائم لا في محل، تعالى الله عن قول أهل الزيغ والضلالات.⁽¹⁾

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:131]: "وفي هذه الآية دليل على أن النار مخلوقة ردا على الجهمية، لأن المعدوم لا يكون معدا."⁽²⁾

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء:108] ومعنى ﴿وهو معهم﴾ أي بالعلم والرؤية والسمع، هذا قول أهل السنة. وقالت الجهمية والقدرية والمعتزلة: هو بكل مكان، تمسكا بهذه الآية وما كان مثلها، قالوا: لما قال: ﴿وهو معهم﴾ ثبت أنه بكل مكان، لأنه قد أثبت كونه معهم، تعالى الله عن قولهم، فإن هذه صفة الأجسام والله تعالى متعال عن ذلك ألا ترى مناظرة بشر في قول الله عز وجل: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:7] حين قال: هو بذاته في كل مكان فقال له خصمه: هو في قلنسوتك وفي حشوك وفي جوف حمارك. تعالى الله عما يقولون!⁽³⁾

الفرع الثالث: تنزيل مفسري المغرب العربي.

كذلك لم أجد من نزل الآيات على هذه الفرقة من مفسري المغرب العربي إلا ثلاثة أقوال لثلاثة مفسرين، وهذه أقوالهم منسوبة إليهم:

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:3]: "واعلم أن ما يزعمه الجهمية من أن الله تعالى في كل مكان، مستدلين بهذه الآية على أنه في الأرض، ضلال مبين، وجهل بالله تعالى؛ لأن جميع الأمكنة الموجودة أحقر وأصغر من أن يحل في شيء منها رب السماوات والأرض، الذي هو أعظم من كل شيء، وأعلى من كل شيء، محيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء، فالسماوات والأرض في يده - جل وعلا - أصغر من حبة خردل في يد أحدنا، وله المثل الأعلى، فلو كانت حبة خردل في يد رجل فهل يمكن أن يقال: إنه حال فيها، أو في كل جزء من أجزائها، لا وكلا، هي أصغر وأحقر من ذلك."⁽⁴⁾

وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور عند قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران:141]: "ولذلك قال أبو الحسين بالتزام وقوع التغير في علم الله تعالى بالمتغيرات، وأن ذاته تعالى تقتضي اتصافه بكونه عالما بالمعلومات التي ستقع، بشرط وقوعها، فيحدث العلم بأنها وجدت عند وجودها، ويزول عند زوالها، ويحصل علم آخر،

(1) المصدر السابق: (261/1).

(2) المصدر نفسه: (203/4).

(3) المصدر نفسه: (379/5).

(4) أضواء البيان، الشنقيطي: (471/1).

وهذا عين مذهب جهنم وهشام. ورد عليه بأنه يلزم أن لا يكون الله تعالى في الأزل عالماً بأحوال الحوادث، وهذا تجهيل.⁽¹⁾

وقال الشيخ أبو بكر جابر الجزائري عند قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد:35]: "في الآية ردٌ على الجهمية القائلين بفناء نعيم الجنة."⁽²⁾

المطلب الرابع: تنزيل النص القرآني على الرافضة.

قبل أن نعرض أقوال مفسري الغرب الإسلامي على هذه الفرقة يتحتم علينا التعريف بها وبأهم انحرافاتهما حتى يتضح فيما بعد تطابق تنزيل الآيات عليهما.

الفرع الأول: التعريف بالرافضة وانقساماتها:

أولاً: التعريف بالرافضة: نسبة إلى الرفض، مصطلح أطلقه طوائف المسلمين على بعض الشيعة؛ نظراً لأنهم رفضوا إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقيل لأنهم رفضوا إمامة زيد بن علي لما سئل عن أبي بكر وعمر فترحم عليهما، رفضه قوم فقال لهم: رفضتموني، فسموا رافضة لرفضهم إياه، وهم مجمعون على أن النبي ﷺ نص على استخلاف علي بن أبي طالب باسمه، وكفروا أكثر الصحابة⁽³⁾.

ثانياً: انقساماتها: قال القرطبي: "وانقسمت الرافضة اثنتي عشرة فرقة: العلوية- قالوا: إن الرسالة كانت إلى علي وإن جبريل أخطأ. والأمرية-

قالوا: إن علياً شريك محمد في أمره. والشيعة- قالوا: إن علياً رضي الله عنه وصي رسول الله ﷺ ووليّه من بعده، وإن الأمة كفرت بمبايعة غيره. والإسحاقية- قالوا: إن النبوة متصلة إلى يوم القيامة، وكل من يعلم علم أهل البيت فهو نبي. والناووسية- قالوا: علي أفضل الأمة، فمن فضل غيره عليه فقد كفر. والإمامية- قالوا: لا يمكن أن تكون الدنيا بغير إمام من ولد الحسين، وإن الإمام يعلمه جبريل عليه السلام، فإذا مات بدل غيره مكانه. والزيدية- قالوا: ولد الحسين كلهم أئمة في الصلوات، فمضى وجد منهم أحد لم تجز الصلاة خلف غيرهم، برهم وفاجرهم. والعباسية- زعموا أن العباس كان أولى بالخلافة من غيره. والتناسخية- قالوا: الأرواح تتناسخ، فمن كان محسناً خرجت روحه فدخلت في خلق يسعد بعيشه. والرجعية- زعموا أن علياً وأصحابه يرجعون إلى الدنيا، وينتقمون من أعدائهم. واللاعنة - يلعنون عثمان وطلحة والزبير ومعاوية وأبا موسى وعائشة وغيرهم والمترتبة-

(1) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: (103/4).

(2) أيسر التفاسير مع نهر الخير، أبو بكر جابر: (32/3).

(3) مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط: 1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1369هـ-1950م، (88-87/1)، منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط: 1، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1406هـ-1986م، (73...21/1).

تشبهوا بزى النساك ونصبوا في كل عصر رجلا ينسبون إليه الأمر، يزعمون أنه مهدي هذه الأمة، فإذا مات نصبوا آخر. ثم انقسمت الجبرية اثنتي عشرة فرقة: فمنهم المضطربة قالوا: لا فعل للآدمي، بل الله يفعل الكل. والأفعالية قالوا: لنا أفعال ولكن لا استطاعة لنا فيها، وإنما نحن كالهائم نقاد بالجل. والمفروغية- قالوا: كل الأشياء قد خلقت، والآن لا يخلق شي. والنجارية- زعمت أن الله تعالى يعذب الناس على فعله لا على فعلهم. والمنانية- قالوا: عليك بما يخطر بقلبك، فافعل ما توسمت منه الخير. والكسبية- قالوا: لا يكتسب العبد ثوابا ولا عقابا. والسابقية- قالوا: من شاء فليعمل ومن شاء لا يعمل، فإن السعيد لا تضره ذنوبه والشقي لا ينفعه بره. والحبية- قالوا: من شرب كأس محبة الله تعالى سقطت عنه عبادة الأركان. والخوفية- قالوا: من أحب الله تعالى لم يسعه أن يخافه، لأن الحبيب لا يخاف حبيبه. والفكرية - قالوا: من ازداد علما أسقط عنه بقدر ذلك من العبادة. والخشبية - قالوا: الدنيا بين العباد سواء، لا تفاضل بينهم فيما ورثهم أبوهم آدم. والمنية قالوا: منا الفعل ولنا الاستطاعة.⁽¹⁾

الفرع الثاني: تنزيل مفسري الأندلس.

لقد انبرى مفسرو الأندلس للرد على الشيعة الروافض من خلال تنزيل الآيات عليهم بعبارات مختلفة تجدها في ما يلي:

1- عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية الأندلسي (ت542هـ):

قال عند قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَعَجِّبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود:73]: "وهذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل بيته لأنها خوطبت بهذا، فيقوى القول في زوجات النبي عليه السلام بأنهن من أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس، بخلاف ما تذهب إليه الشيعة، وقد قاله أيضا بعض أهل العلم، قالوا: «أهل بيته» الذين حرموا الصدقة، والأول أقوى وهو ظاهر جلي من سورة الأحزاب لأنه ناداهن بقوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: 32] ثم بقوله: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: 33]... والْبَيْتِ في هذه الآية وفي سورة الأحزاب بيت السكنى ففي اللفظ اشتراك ينبغي أن يتحسس إليه. ففاطمة رضي الله عنها من أهل بيت محمد ﷺ بالوجهين وعلي رضي الله عنه بالواحد، وزوجاته بالآخر، وأما الشيعة فيدفعون الزوجات بغضا في عائشة رضي الله عنها.⁽²⁾

وقال عند قوله عز وجل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:38]: "وقال بعض الشيعة إن الإشارة بهذه الآية إنما هي لعلي بن أبي طالب، وإن الله سيبعثه في الدنيا، وهذا هو القول بالرجعة،

(1) تفسير القرطبي: (164/4).

(2) المحرر الوجيز لابن عطية: (192/3).

وقولهم هذا باطل وافتراء على الله وبهتان من القول رده ابن عباس وغيره.⁽¹⁾

2- محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الأشبيلي المالكي (ت 543هـ):

قال عند قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 68]: "قال قوم: هذا خطاب من الله سبحانه لنبيه - ﷺ - والمراد بذلك الأمة، وكأن القائلين بذلك ذهبوا إلى تنزيه النبي - ﷺ - عن النسيان وهم كبار الرافضة - قبحهم الله-،... وإن عذرنا أصحابنا في قولهم: إن قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65]، خطاب للأمة باسم النبي - ﷺ -؛ لاستحالة الإشراف عليه، فلا عذر لهم في هذا لجواز النسيان على النبي - ﷺ - قال الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى﴾ [الأعلى: 6]. وقال - ﷺ - مخرجا عن نفسه: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنَسَى كَمَا تَنسَوْنَ»⁽²⁾، وقال وقد سمع قراءة رجل يقرأ: «لَقَدْ أَذَكَّرْنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً كُنْتُ أَنَسِيَهَا». وقال في ليلة القدر: «تَلَاخَى رَجُلَانِ فَنَسِيَتَهَا»⁽³⁾،⁽⁴⁾

وقال تحت قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33]، دفاعا عن عائشة رضي الله عنها ودفعاً لاستدلال الرافضة بهذه الآية: "مسألة: تعلق الرافضة بأية ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ تعلق الرافضة لعنهم الله بهذه الآية على أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - إذ قالوا: إنها خالفت أمر الله وأمر رسوله - ﷺ - وخرجت تقود الجيوش، وتباشر الحروب، وتقتحم مآزق الحرب والضرب، فيما لم يفرض عليها، ولا يجوز لها.

ولقد حصر عثمان، فلما رأت ذلك أمرت برواحلها فقربت، لتخرج إلى مكة، فقال لها مروان بن الحكم: يا أم المؤمنين؛ أقيعي هاهنا، وردي هؤلاء الرعاع عن عثمان؛ فإن الإصلاح بين الناس خير من حجبك.

وقال علماؤنا رحمة الله عليهم: إن عائشة كانت نذرت الحج قبل الفتنة، فلم تر التخلف عن نذرها؛ ولو خرجت عن تلك الثائرة لكان ذلك صوابا لها.

وأما خروجها إلى حرب الجمل فما خرجت لحرب، ولكن تعلق الناس بها، وشكوا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة، وتهاج الناس، ورجوا بركتها في الإصلاح، وطمعوا في الاستحياء منها إذا وقفت إلى الخلق وظنت هي ذلك، فخرجت مقتدية بالله في قوله: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ

(1) المصدر نفسه: (393/3).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم: (8607)، وغيره.

(3) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الصوم، باب الترغيب في طلبها في الشفع من العشر الأواخر فإنه إذا عد الشهر من آخره كانت أشفاعه أوتارا، رقم: (8607).

(4) أحكام القرآن، ابن العربي: (260/2).

نَجَوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴿[النساء: 114].

وبقوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: 9].

والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكر أو أنثى، حر أو عبد، فلم يرد الله بسابق قضائه، ونافذ حكمه، أن يقع إصلاح، ولكن جرت مطاعنات وجراحات، حتى كاد يفضي الفريقان، فعمد بعضهم إلى الجمل فعرقبه، فلما سقط الجمل لجنبه أدرك محمد بن أبي بكر عائشة، فاحتملها إلى البصرة، وخرجت في ثلاثين امرأة قرنهن علي بها، حتى أوصلوها إلى المدينة برة تقية مجتهدة، مصيبة ثابتة فيما تأولت، مأجورة فيما تأولت وفعلت؛ إذ كل مجتهد في الأحكام مصيب. وقد بينا في كتب الأصول تصويب الصحابة في الحروب، وحمل أفعالهم على أجمل تأويل.⁽¹⁾

3- محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت 671هـ).

قال عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 64] "وفيه رد على الروافض الذين يقولون: يجب قبول قول الامام دون إبانة مستند شرعي، وإنه يحل ما حرمه الله من غير أن يبين مستندا من الشريعة."⁽²⁾

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُفْسِدُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: 03]: "اعلم أن هذا العدد مثنى وثلاث ورباع لا يدل على إباحة تسع، كما قال من بعد فهمه للكتاب والسنة، وأعرض عما كان عليه سلف هذه الأمة، وزعم أن الواو جامعة، وعضد ذلك بأن النبي ﷺ نكح تسعا، وجمع بينهن في عصمته. والذي صار إلى هذه الجهالة، وقال هذه المقالة الرافضة وبعض أهل الظاهر، فجعلوا مثنى مثل اثنين، وكذلك ثلاث ورباع... وهذا كله جهل باللسان والسنة، ومخالفة لإجماع الأمة، إذ لم يسمع عن أحد من الصحابة ولا التابعين أنه جمع في عصمته أكثر من أربع وأخرج مالك في موطنه، والنسائي والدارقطني في سننهما أن النبي ﷺ قال لغيلان بن أمية الثقفي وقد أسلم وتحتة عشر نسوة: «اخْتَرْ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا وَفَارِقْ سَائِرَهُنَّ»⁽³⁾ ...⁽⁴⁾

وقال عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67]: "قيل:

(1) المصدر السابق: (3/569-570).

(2) تفسير القرطبي: (4/107).

(3) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الطلاق، باب جامع الطلاق، رقم: 1693، والدارقطني في السنن، كتاب النكاح، باب المهر، رقم: 3686، ولم أجده في سنن النسائي.

(4) تفسير القرطبي: (5/17).

معناه أظهر التبليغ، لأنه كان في أول الإسلام يخفيه خوفاً من المشركين، ثم أمر بإظهاره في هذه الآية، وأعلمه الله أنه يعصمه من الناس. وكان عمر رضي الله عنه أول من أظهر إسلامه وقال: لا نعيد الله سرا، وفي ذلك نزلت: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 64] فدلّت الآية على رد قول من قال: إن النبي ﷺ كتم شيئاً من أمر الدين تقية، وعلى بطلانه، وهم الرافضة...⁽¹⁾

4- أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت 745هـ). قال في كشف شبهة من شبهاتهم: "وقد استدلت الرافضة بقوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39]، على أن البدء جائز على الله تعالى، وهو أن يعتقد شيئاً ثم يظهر له أن الأمر خلاف ما اعتقده، وهذا باطل؛ لأن علمه تعالى من لوازم ذاته المخصوصة، وما كان كذلك كان دخول التغير والتبديل فيه محالاً. وأما الآية فقد احتملت تلك التأويلات المتقدمة، فليست نصاً فيما ادعوه، ولو كانت نصاً وجب تأويله."⁽²⁾

وقال تحت قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 38]: "وأما قول الشيعة: إن الإشارة بهذه الآية إنما هي لعلي بن أبي طالب، وأن الله سيبعثه في الدنيا، فسخافة من القول."⁽³⁾

وقال عند قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]: "وفي ذكر تدبر القرآن رد على من قال من الرافضة: إن القرآن لا يفهم معناه إلا بتفسير الرسول ﷺ."⁽⁴⁾

وقال عند قوله تعالى: ﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: 22]: "وفيه دليل على بطلان قول الرافضة إن الإمام لا يخفى عليه شيء، ولا يكون في زمانه أعلم منه."⁽⁵⁾

الفرع الثالث: تنزيل مفسري المغرب العربي.

كذلك نزل مفسرو المغرب العربي بعض آيات القرآن على الرافضة، نذكر بعضهم مع أمثلة من أقوالهم:

1- محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت 1393هـ). وجدت له موضعاً واحداً نقل فيه الإجماع على إمامة أبي بكر رداً على الرافضة في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا

(1) المصدر السابق: (242/6).

(2) البحر المحيط، أبو حيان: (399/6).

(3) المصدر نفسه: (530/6).

(4) المصدر نفسه: (726/3).

(5) المصدر نفسه: (225/8).

فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿[التوبة: 40]﴾ فقال: "وقد أجمع جميع المسلمين أنه أبو بكر (رضي الله عنه). وفي هذه الآية من سورة براءة أعظم منقبة لأبي بكر (رضي الله عنه)، فما يحاول به الإمامية وغيرهم من الشيعة من الكلام في أبي بكر (رضي الله عنه) وتفنيده ما دلت عليه هذه الآية من فضله وعظمته، كله باطل لا يلتفت إليه، وقد قال بعض العلماء: من أنكر أن أبا بكر صاحب رسول الله كفر لتكذيبه بهذه الآية الكريمة."⁽¹⁾

2- محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت 1393هـ).

قال كاشفا غلطهم في قراءة وتأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: 51]: "وقرأ بعض الرافضة ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ بصيغة التثنية، وفسروها بأبي بكر وعمر حاشا هما، وقاتلهم الله."⁽²⁾

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67]: "وإذ قد كانت هذه الآية من آخر ما نزل من القرآن علمنا أن من أهم مقاصدها أن الله أراد قطع تخرص من قد يزعمون أن الرسول قد استبقى شيئا لم يبلغه، أو أنه قد خص بعض الناس بإبلاغ شيء من الوحي لم يبلغه للناس عامة. فهي أقطع آية لإبطال قول الرافضة بأن القرآن أكثر مما هو في المصحف الذي جمعه أبو بكر ونسخه عثمان، وأن رسول الله اختص بكثير من القرآن عليا بن أبي طالب، وأنه أورثه أبناءه وأنه يبلغ وقر بعير، وأنه اليوم مخزن عند الإمام المعصوم الذي يلقيه بعض الشيعة بالمهدي المنتظر وبالوصي."⁽³⁾

3- جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري (ت 1439هـ).

أكثر الشيخ أبو بكر جابر من تنزيل الآيات على الرافضة، وهذه أمثلة من أقواله: قال تحت قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَآتُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 150] في هداية الآيات: "حرمة خشية الناس، ووجوب خشية الله تعالى". وعلق عليه في ما سماه نهر الخير: "في هذا إبطال للتقية التي جعلها الروافض من أصول دينهم."⁽⁴⁾

وفي رد استدلال الروافض على نكاح المتعة قال: "استدل الروافض بهذه الآية: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ على جواز نكاح المتعة، وهو استدلال فاسد وباطل، وكفي في بطلانه: إجماع أهل السنة والجماعة على بطلانه، وإنه زنا إلا أنه لا يقام على صاحبه حد الرجم

(1) العذب النмир، الشنقيطي: (530/5).

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور: (61/1).

(3) المصدر نفسه: (260/6).

(4) أيسر التفاسير مع نهر الخير أبو بكر جابر الجزائري: (132/1).

بالشبهة، والرسول ﷺ يقول: "ادْرءُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ"⁽¹⁾. ونكاح المتعة رخص فيه الرسول ﷺ مرة ثم أعلن عن حرمة. أعلن ذلك في حجة الوداع ليعلم كل إنسان ذلك، ومن الأدلة على حرمة المتعة: أن المتمتع بها لا ترث، والزوجة الشرعية ترث الربع والثمن.⁽²⁾

وبين ضلالهم في مسح الرجلين مباشرة في الوضوء تحت قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: 6] فقال: "وضلت الرافضة فأخذوا بقراءة: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالكسر، ومسحوا أرجلهم في كل وضوء وتركوا غسل الرجلين أبداً، والحامل لهم على ذلك أن رؤساءهم زينوا لهم ذلك وأوجبوه عليهم لعله أن يبقوا بعيدين عن الإسلام والمسلمين ليستغلوهم."⁽³⁾

وقال مبينا ضعف فهمهم للآيات وتقليدهم لأنتمهم تحت قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33]: "من جهل الرافضة وما وضع لهم من قواعد في دينهم لإخراجهم من الإسلام وإبعادهم عن جماعة المسلمين قصرهم هذه الآية على علي وفاطمة والحسين دون أزواج النبي ﷺ مع أن الخطاب في الآية لأزواج النبي ﷺ، وحديث الكساء لا ينافي إدخال سائر نساء النبي في أهل بيته إذ ليس فيه صيغة من صيغ القصر المعروفة في لغة القرآن ونصه في صحيح مسلم⁽⁴⁾ عن عائشة قالت "خرج رسول الله ﷺ غداة وعليه مرط مرحل فجاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾"⁽⁵⁾.

المطلب الخامس: تنزيل النص القرآني على الخوارج.

قبل أن نعرض تنزيلات مفسري الغرب الإسلامي على هذه الفرقة يتحتم علينا التعريف بها وبأهم انحرافاتهما حتى يتضح فيما بعد تطابق تنزيل الآيات عليهما.

الفرع الأول: التعريف بالخوارج وانقساماتها:

أولاً: التعريف بالخوارج: كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين؛ أو كان بعدهم على التابعين

(1) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الحدود، باب ما جاء في درء الحدود بالشبهات، رقم: (17057).

(2) أيسر التفاسير مع نهر الخير أبو بكر جابر الجزائري: (461/1).

(3) المصدر السابق: (598/1).

(4) في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، رقم: 61 - (2424).

(5) أيسر التفاسير مع نهر الخير أبو بكر جابر الجزائري: (257/4).

بإحسان، والأئمة في كل زمان⁽¹⁾، وأجمعت الخوارج على تكفير علي بن أبي طالب رضوان الله عليه إن حكم، وهم مختلفون هل كفره شرك أم لا، وأجمعوا على أن كل كبيرة كفر إلا النجدة فإنها لا تقول ذلك، وأجمعوا على أن الله سبحانه يعذب أصحاب الكبائر عذاباً دائماً إلا النجدة أصحاب نجدة⁽²⁾.

ثانياً: انقساماتها: اختلف في العدد الذي وصلت إليه فرق الخوارج، قال الشاطبي: "وأما الخوارج ف سبع فرق، وهم: المحكمة، والبيهسية، والأزارقة، والنجدة، والعبدية، والإباضية وهم أربع فرق: الحفصية، واليزيدية، والحارثية، والمطيعية"⁽³⁾.

وقال البغدادي: "وأما الخوارج فإنها لما اختلفت صارت عشرين فرقة وهذه أسماؤها: المحكمة الأولى والأزارقة ثم النجدة ثم الصفريّة ثم العجاردة، وقد اختلفت العجاردة فيما بينها فرقا كثيرة منها: الخازمية والشعبية والمعلومية والمجهولية والمعبدية والرشيديّة والمكرمية والحمزية والإبراهيمية والواقفة واختلفت الإباضية منها فرقا: حفصية وحارثية ويزيدية وأصحاب طاعة لا يراد الله بها، واليزيدية منهم أتباع ابن يزيد بن أنيس ليست من فرق الإسلام لقولها بأن شريعة الإسلام تنسخ في آخر الزمان بنبي يبعث من العجم، وكذلك في جملة العجاردة فرقة يقال لها الميمونية ليست من فرق الإسلام لأنها أباحت نكاح بنات البنات وبنات البنين كما أباحت المجوس، وسنذكر اليزيدية والميمونية في جملة الذين انتسبوا إلى الإسلام وما هم منهم ولا من فرقهم"⁽⁴⁾.

الفرع الثاني: تنزيل مفسري الأندلس.

نزل مفسرو الأندلس آيات على الخوارج وأكثرها مرويات عن السلف.

1- محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (ت 399هـ).

قال عند قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ الآية [آل عمران:7]: "كان الحسن يقول: نزلت في الخوارج. قال الحسن: وَمَعْنَى ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾: طلب الضلالة. قَالَ مُحَمَّدٌ: الْفِتْنَةُ تتصرف على ضرب؛ فكان الضرب الذي ابتغاه هؤلاء إفساد ذات البين في الدين، ومعنى (الزيف): الجور، والميل عن القصد"⁽⁵⁾.

نقل عن أبي غالب قال: "كنت مع أبي أمامة وهو على حمار، حتى انتهينا إلى درج المسجد

(1) ينظر: الملل والنحل، الشهرستاني، (114/1).

(2) ينظر: مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري، (114/1).

(3) الاعتصام، إبراهيم بن موسى الغرناطي الشاطبي، تحقق: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، ط1، 1412هـ - 1992م: (719/2).

(4) الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي، ص: (17).

(5) تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زَمَنِين، تحقق: حسين بن عكاشة ومحمد بن مصطفى الكثر، الفاروق الحديثة، القاهرة - مصر، ط1، 1423هـ - 2002م: (275/1).

2- عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية الأندلسي (ت542هـ):

قال: "وقال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ (آل عمران: 7): إن لم يكونوا الحرورية وأنواع الخوارج، فلا أدري من هم؟"⁽²⁾

وقال: "وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان في صلاة الفجر فناداه رجل من الخوارج بأعلى صوته فقراً هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: 65]، فعلم علي رضي الله عنه مقصده في هذا وتعرضه به فأجابه وهو في الصلاة بهذه الآية: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: 60]"⁽⁴⁾

(1) المصدر السابق: (310/1).

(2) المحرر الوجيز، ابن عطية: (402/1).

(3) المصدر نفسه: (207/2)

(4) المصدر نفسه: (344/4)

في أنهم لما زاعوا أزع الله قلوبهم⁽¹⁾.

3 - محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت 671هـ).

نقل قول قتادة بن دعامة السدوسي فقال: "وقال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: 7]: إن لم يكونوا الحرورية وأنواع الخوارج فلا أدري من هم."⁽²⁾

ونقل رواية أبي أمامة الباهلي فقال: "وروي عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: 118] قال: هم الخوارج."⁽³⁾

وقال عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]: "رد على الخوارج، حيث زعموا أن مرتكب الكبيرة كافر."⁽⁴⁾

وقال عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ. عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: 2-3]: "وعن علي رضي الله عنه أنهم أهل حروراء، يعني الخوارج الذين ذكرهم رسول الله ﷺ فقال: «تَحْفِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَأَعْمَالَكُمْ مَعَ أَعْمَالِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ...» [الحديث]"⁽⁵⁾ [الحديث]"⁽⁶⁾

الفرع الثالث: تنزيل مفسري المغرب العربي.

1- مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني (ت 437هـ).

نقل أثر أبي أمامة في تنزيله الآية على الخوارج حيث قال: "قال أبو أمامة ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسودت وجوههم﴾: هم الخوارج."⁽⁷⁾

ونقل أثر علي رضي الله عنه وسعيد كذلك في تنزيله هذه الآية عليهم فقال: "عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنهم الخوارج أهل حروراء. وقال: سعيد: هم الخوارج."⁽⁸⁾

وقال منزلا الآية عليهم: "ونزل في الحرورية ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: 27] الآية"⁽⁹⁾

(1) المصدر نفسه: (301/5)

(2) تفسير القرطبي: (13/4).

(3) المصدر نفسه: (179/4)

(4) المصدر نفسه: (386/5)

(5) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب إثم من رأى بقرأة القرآن أو تأكل به أو فخر به، رقم: (5058).

(6) تفسير القرطبي: (28/20)

(7) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي ابن أبي طالب: (1090/2).

(8) المصدر نفسه: (4479/6).

(9) المصدر نفسه: (4479/6).

2- عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت 875هـ).

الثعالبي بدوره ادلى بدلوه في نقل أقوال السلف في تنزيل الآيات على هذه الفرقة وما هي أقواله في ذلك:

نقل قول أبي أمامة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: 106] فقال: "﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال أبو أمامة: هي في الخَوَاجِ."⁽¹⁾

ونقل قول أبي سعيد الأنصاري في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا.﴾ [الكهف: 103-104] فقال: "وعن سعد بن أبي وقاص في معنى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ قال: هُمُ عِبَادُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَأَهْلُ الصَّوَامِعِ وَالِدِّيَارَاتِ وَعَنْ عَلِيٍّ: هُمُ الْخَوَاجُ وَيُضَعِّفُ هَذَا كُلَّهُ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾، وليس هذه الطوائف ممن يكفر بالله ولقائه، وإنما هذه صفة مشركي عَبْدِ الْأَوْثَانِ، وَعَلِيٌّ وَسَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ذَكَرَا قَوْمًا أَخَذُوا بِحُطِّهِمْ مِنْ صَدْرِ الْآيَةِ."⁽²⁾

3 - محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت 1393هـ).

نقل احتجاج ابن عباس على الخوارج في بطلان التكفير بالكبيرة بهذه الآية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: 178] فقال: "واحتج ابن عباس بهذه الآية على الخوارج في أن المعصية لا تنزل الإيمان، لأن الله سعى القاتل أخا لولي الدم، وتلك أخوة الإسلام مع كون القاتل عاصيا."⁽³⁾

وقال مفندا استدلالهم بظاهر الآية التي ستأتي في تكفير مرتكب الكبيرة فقال: "وتمسك بظاهرها الآية ونحوها الخوارج القائلون بتكفير مرتكب الكبيرة ﴿يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: 276] تمسكوا بنظائرها، وغفلوا عن تغليظ وعيد الله تعالى في وقت نزول القرآن: إذ الناس يومئذ قريب عهدهم بكفر، ولا بد من الجمع بين أدلة الكتاب والسنة."⁽⁴⁾

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضَرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: 158]: وفند استدلالهم بأن مرتكب الكبيرة مخلص في النار: "التقدير: لا ينفع نفسا غير مؤمنة إيمانها أو

(1) تفسير الثعالبي: (91/2).

(2) المصدر نفسه: (91/2).

(3) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: (142/2).

(4) المصدر نفسه: (91/3).

نفسا لم تكن كسبت خيرا في إيمانها من قبل كسبها، يعني أو ما يقوم مقام كسب الخير، مثل التوبة فإنها بعض اكتساب الخير، وليس المراد أنه لا ينفع نفسا مؤمنة إيمانها إذا لم تكن قد كسبت خيرا بحيث يضيع الإيمان إذا لم يقع اكتساب الخير، لأنه لو أريد ذلك لما كانت فائدة للتقسيم، ولكفى أن يقال لا ينفع نفسا إيمانها لم تكسب خيرا، ولأن الأدلة القطعية ناهضة على أن الإيمان الواقع قبل مجيء الآيات لا يدحض إذا فرط صاحبه في شيء من الأعمال الصالحة، ولأنه لو كان كذلك وسلمناه لما اقتضى أكثر من أن الذي لم يفعل شيئا من الخير عدا أنه آمن لا ينفعه إيمانه، وذلك إيجاد قسم لم يقل به أحد من علماء الإسلام.

وبذلك تعلم أن الآية لا تنهض حجة للمعتزلة ولا الخوارج الذين أوجبوا خلود مرتكب الكبيرة غير التائب في النار، والتسوية بينه وبين الكافر، وإن كان ظاهرها قبل التأمل يوهم أنها حجة لهم.⁽¹⁾

المطلب السادس: تنزيل النص القرآني على المعتزلة.

قبل أن نعرض أقوال مفسري الغرب الإسلامي على هذه الفرقة يتحتم علينا التعريف بها وبأهم انحرافاتهما حتى يتضح فيما بعد تطابق تنزيل الآيات عليها.

الفرع الأول: التعريف بالمعتزلة وانقساماتها:

أولاً: التعريف بالمعتزلة: المعتزلة فرقة إسلامية ظهرت في أواخر العصر الأموي، وازدهرت في العصر العباسي، اعتمدت على المجرد في فهم العقيدة الإسلامية، سميت بذلك لاعتزال واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري ومخالفته له في أمور في العقيدة، نفت جميع الصفات عن الله سبحانه، وانقسمت إلى فرق كثيرة.⁽²⁾

ثانياً: انقساماتها: اتفق البغدادي والشاطبي في عدد فرق المعتزلة، واختلفوا في بعض التسميات.

قال البغدادي: "المعتزلة اختلفت فيما بينها عشرين فرقة كل فرقة منها تكفر سائرهما وهن الواصلية والعمرية واليهودية والنظامية والأسوارية والمعمرية والاسكافية والجعفرية والبشرية والمردارية والهشامية والتمامية والجاحظية والحايطية والحمارية والخياطية وأصحاب صالِح قَبَّة المويسية والشحامية والكعبية والجبابية والهشمية المنسوبة إلى أبي هاشم بن الحبالى."⁽³⁾

وقال الشاطبي: "فأما المعتزلة فافترقوا إلى عشرين فرقة وهم: الواصلية، والعمرية،

(1) المصدر السابق: (8/ 188).

(2) ينظر: مقالات الإسلاميين، الأشعري: (17/1)، الملل والنحل، الشهرستاني: (1/ 56-90)، الفرق بين الفرق، البغدادي، ص: (20-21).

(3) الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي، ص: (93).

والهذيلية، والنظامية، والأسوارية، والإسكافية، والجعفرية، والبشرية، والمزدارية،
والهشامية، والنصاحية، والخطابية، والحديبية، والمعمرية، والشمامية، والخياطية،
والجاحظية، والكعبية، والجبائية، والمهشمية.⁽¹⁾

الفرع الثاني: تنزيل مفسري الأندلس.

1- عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية الأندلسي (ت542هـ).

قال منزلاً الآية في الرد على المعتزلة: "في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ ...
رد على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يخلق الضلال."⁽²⁾

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً
إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:8]: "وهذه الآية حجة على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يضل
العباد، ولولم تكن الإزاغة من قبله لما جاز أن يدعي في دفع ما لا يجوز عليه فعله."⁽³⁾

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا
أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام:107]: "في ظاهرها رد على المعتزلة القائلين إنه ليس عند الله لطف
يؤمن به الكافر وإن الكافر والإنسان في الجملة يخلق أفعاله، وهي متضمنة أن إشراكهم
وغيره وقف على مشيئة الله عز وجل."⁽⁴⁾

2- محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت671هـ).

قال بعد تفسير قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:6]: "هذه الآية رد على
القدرية والمعتزلة والإمامية، لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية في صدور أفعاله منه،
طاعة كانت أو معصية، لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله، فهو غير محتاج في صدورها عنه
إلى ربه، وقد أكذبهم الله تعالى في هذه الآية إذ سألوه الهداية إلى الصراط المستقيم، فلو كان
الأمر إليهم والاختيار بيدهم دون ربهم لما سألوه الهداية، ولا كرروا السؤال في كل صلاة."⁽⁵⁾

وقال عند قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ
أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:8]: "وهذه الآية حجة على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يضل العباد.
ولولم تكن الإزاغة من قبله لما جاز أن يدعي في دفع ما لا يجوز عليه فعله."⁽⁶⁾

وقال بعد تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ
الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي

(1) الاعتصام، الشاطبي: (719/2).

(2) المحرر الوجيز، ابن عطية: (112/1).

(3) المصدر نفسه: (404/1).

(4) المصدر نفسه: (332/2).

(5) تفسير القرطبي: (149/1).

(6) المصدر نفسه: (20/4).

فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿إبراهيم: 22﴾ "وفي هذه الآيات رد على القدرية والمعتزلة والإمامية ومن كان على طريقهم، انظر إلى قول المتبوعين: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ وقول إبليس: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ﴾ كيف اعترفوا بالحق في صفات الله تعالى وهم في دركات النار، كما قال في موضع آخر: ﴿كَلِمَا أَلْقِي فِيهَا فُوجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ [الملك: 8] إلى قوله: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ [الملك: 11] واعترفوا في دركات لظى بالحق ليس بنافع، وإنما ينفع الاعتراف صاحبه في الدنيا، قال الله عز وجل: ﴿وَأَخْرَجُوا عَنْهُمْ أَهْلَ قَرْيَةٍ سَوَاءً يَنْتَبِهُونَ﴾ [التوبة: 102]⁽¹⁾ وكل تنزيل على القدرية رد على المعتزلة فيما يخص نفي علم الله بما يستقبل، وكل رد على الخوارج رد على المعتزلة فيما يخص خلود مرتكب الكبيرة في النار.

الفرع الثالث: تنزيل مفسري المغرب العربي.

لم أجد من مفسري المغرب العربي من نزل الآيات على المعتزلة سوى مكي بن أبي طالب القيسي في موضع واحد وهو قوله تحت قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً﴾: "أي: لوفقههم إلى الإيمان بك يا محمد - وبما جئت به. ولكن قد سبق في قضائه من يؤمن، ومن لم يؤمن، وهذا كله رد على المعتزلة الذين يقولون: إن الإيمان والكفر مفوضان إلى العبد، بل كل عامل قد علم الله عز وجل، ما هو عامل قبل خلقه له، ولا تقع المجازاة إلا على ذلك بعد ظهورهم منهم، وإقامة الحجج عليهم."⁽²⁾ ولعل عدم تنزيلهم يرجع إلى اكتفائهم بما نزلوه من آيات على الفرق الأخرى فيما يشتركون مع المعتزلة.

المطلب السادس: تنزيل النص القرآني على المرجئة.

قبل أن نعرض أقوال مفسري الغرب الإسلامي على هذه الفرقة يتحتم علينا التعريف بها وبأهم انحرافاتهما حتى يتضح فيما بعد تطابق تنزيل الآيات عليهما.

الفرع الأول: التعريف بالمرجئة وانقساماتها:

أولاً: التعريف بالمرجئة: المرجئة اسم يطلق على الجماعة الذين يؤخرون العمل عن النية والعقد، ويقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.⁽³⁾ ثانياً: انقساماتها: قال القرطبي: "وانقسمت المرجئة اثنتي عشرة فرقة: التاركية قالوا ليس لله عز وجل على خلقه فريضة سوى الإيمان به، فمن آمن به فليفعل ما شاء. والسائبية قالوا: إن الله تعالى سيب خلقه ليفعلوا ما شاءوا. والراجئة قالوا: لا يسمى الطائع

(1) المصدر السابق: (358/9).

(2) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي ابن أبي طالب القيسي: (3330/5).

(3) الملل والنحل، الشهرستاني: (139/1).

طائعا ولا العاصي عاصيا، لأننا لا ندري ما له عند الله تعالى. والسلبية قالوا: الطاعة ليست من الإيمان. والمهيشية قالوا: الإيمان علم ومن لا يعلم الحق من الباطل والحلال من الحرام فهو كافر. والعملية قالوا: الإيمان عمل. والمنقوصية قالوا: الإيمان لا يزيد ولا ينقص. والمستثنية قالوا: الاستثناء من الإيمان. والمشيئة قالوا: بصر كبصيريد كيد. والحشوية قالوا: حكم الأحاديث كلها واحد، فعندهم أن تارك النفل كتارك الفرض. والظاهرية الذين نفوا القياس. والبدعية- أول من ابتدع هذه الأحداث في هذه الأمة.⁽¹⁾

الفرع الثاني: تنزيل مفسري الأندلس.

1- عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية الأندلسي (ت 542هـ).

قال رادا على المعتزلة والمرجئة بالآية التي ستأتي: "وتحكم بقولنا: هذه الآية النص في موضع النزاع، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فإنها جلت الشك وردت على الطائفتين، المرجئة والمعتزلة، وذلك أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ فصل مجمع عليه، وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ فصل قاطع بالمعتزلة راد على قولهم ردا لا محيد عنه، ولو وقفنا في هذا الموضع من الكلام لصح قول المرجئة، فجاء قوله: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ رادا عليهم، موجبا أن غفران ما دون الشرك إنما هو لقوم دون قوم، بخلاف ما زعموه من أنه مغفور لكل مؤمن.⁽²⁾

وقال مبينا ضلالهم: "وقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ أي لا يَصْلَاهَا صلي خلود، ومن هنا ضلت المرجئة لأنها أخذت نفي الصلي مطلقا في قليله وكثيره، والأشقى هنا، الكافر بدليل قوله الذي كذب."⁽³⁾

2- عبد المنعم بن عبد الرحيم المعروف بابن الفرس الأندلسي (ت 597هـ).

قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ الآيات [المنافقون: 1- 8]: "وفي هذه الآية رد على غلاة المرجئة. قال بعض المفسرين: وهم الكرامية، في قولهم: إن مهر الشهادتين بلسانه يدخل الجنة وإن لم يعتد ذلك...؛ لأنه تعالى قد نفى الإيمان عن المنافقين بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8]."⁽⁴⁾

وقال -واشترك في هذا مع ابن عطية-: "هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]، ردت على الطائفتين: المرجئة والمعتزلة، وذلك أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، فظل مجمع عليه. وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ

(1) تفسير القرطبي: (164/4).

(2) المحرر الوجيز، ابن عطية: (64/2).

(3) المصدر نفسه: (492/5).

(4) أحكام القرآن، ابن الفرس الأندلسي، تحقق: طه بن علي بوسريح، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط1، 1427هـ- 2006م: (40/1).

ذَلِكَ﴾ فيه رد لقول المعتزلة بتخليد المذنب ولو تم الكلام ها هنا عند قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ رِزْقًا عَلَيْهِمْ، مَبِيتًا أَنْ غُفِرَ مَا دُونَ الشَّرِّكَ إِنَّمَا هُوَ لِقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ، بِخِلَافٍ مَا زَعَمُوا مِنْ أَنَّهُ غُفُورٌ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ.﴾⁽¹⁾

3- محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت 671هـ).

قال ناقلا قول الإمام مالك ومحمد ابن إسحاق تحت قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:143]: "وقال مالك: إني لأذكر بهذه الآية قول المرجئة: إن الصلاة ليست من الإيمان. وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ أي بالتوجه إلى القبلة وتصديقكم لنبيكم."⁽²⁾

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:28]: "ثم وبخهم فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والميم صلة تقديره، أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، فكان في هذا رد على المرجئة، لأنهم يقولون: يجوز أن يكون المفسد كالصالح أو أرفع درجة منه."⁽³⁾

وقال ناقلا قول الزجاج: "وسمعت سلم بن الحسن يقول: سمعت أبا إسحاق الزجاج يقول: هذه الآية التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر، لقوله جل ثناؤه: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ وليس الأمر كما ظنوا، هذه نار موصوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولى، ولأهل النار منازل، فمنها إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب فجائز أن يعذب به. وقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:48]، فلو كان كل من لم يشرك لم يعذب، لم يكن في قوله: ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فائدة، وكان ويغفر ما دون ذلك كلاما لا معنى له."⁽⁴⁾

الفرع الثالث: تنزيل مفسري المغرب العربي.

1- مكي بن أبي طالب القيسي الفيرواني (ت 437هـ).

نقل قول أشهب في تنزيل الآية على المرجئة فقال تحت قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:143]: "وقال أشهب: وإني لأذكر بهذه

(1) المصدر نفسه: (216/2).

(2) تفسير القرطبي: (158/2).

(3) المصدر نفسه: (191/15).

(4) المصدر نفسه: (87/20).

الآية الرد على المرجئة وعلى أن الإيمان في هذه الآية يراد به الصلاة نحو بيت المقدس.⁽¹⁾

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:2]: "وهذا يدل على أن إقامة حدود الله من الإيمان بخلاف ما تدعيه المرجئة من أن الإيمان قول بلا عمل."⁽²⁾

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:5]: "وهذا نص واضح على أن الإيمان قول وعمل بخلاف ما قاله المرجئة أن الإيمان قول لا غير، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]، وبين هاهنا أن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وإخلاص العمل لله هو الدين المستقيم العادل."⁽³⁾

2- عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت 875هـ).

قال تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48] مبينا قول أهل السنة ورادا على المرجئة: "وقال أهل السنة: هو في المشيئة. وهذه الآية هي الحاكمة، وهي النص في موضع النزاع. وذلك أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ فصلٌ مجمعٌ عليه. وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ فصلٌ قاطع للمعزلة، رادٌّ على قولهم رداً لا محيد لهم عنه، ولو وقفنا في هذا الموضع من الكلام، لصحَّ قول المرجئة، فجاء قوله: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾، رداً عليهم مبيناً أن غفران ما دُونَ الشِّرك إنما هو لِقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ بخلاف ما زعموه من أنه مغفور لكل مؤمن."⁽⁴⁾

وقال: "وقوله سبحانه: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ المعنى: لا يصلّاها صليّ خلود، ومن هنا ضلّت المرجئة لأنها أخذت نفْي الصليّ مطلقاً."⁽⁵⁾

3- محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت 1393هـ).

قال تحت قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 143]: "وإن فسر الإيمان بالصلاة كان التقدير ما كان الله ليضيع فضل صلاتكم أو ثوابها، وفي إطلاق اسم الإيمان على الصلاة تنويه بالصلاة لأنها أعظم أركان الإيمان، وعن مالك: «إني لأذكر بهذا قول المرجئة الصلاة ليست من الإيمان»"⁽⁶⁾

وقال: "وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 53] جميعا تعليل للنهي عن اليأس

(1) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب: (487/1)

(2) المصدر السابق: (5017/8).

(3) المصدر نفسه: (8385/8).

(4) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي: (247/2).

(5) المصدر نفسه: (600/5).

(6) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور: (25/2).

من رحمة الله. ومادة الغفر ترجع إلى الستر، وهو يقتضي وجود المستور واحتياجه للستر فدل يغفر الذنوب على أن الذنوب ثابتة، أي المؤاخذة بها ثابتة والله يغفرها، أي يزيل المؤاخذة بها، وهذه المغفرة تقتضي أسباباً أجملت هنا وفصلت في دلائل أخرى من الكتاب والسنة منها قوله تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ [طه: 82]، وتلك الدلائل يجمعها أن للغفران أسباباً تطرأ على المذنب ولولا ذلك لكانت المؤاخذة بالذنوب عبثاً ينزه عنه الحكيم تعالى، كيف وقد سماها ذنوباً وتوعد عليها فكان قوله: إن الله يغفر الذنوب دعوة إلى تطلب أسباب هذه المغفرة فإذا طلبها المذنب عرف تفصيلها ... وجملة إنه هو الغفور الرحيم تعليل لجملة يغفر الذنوب جميعاً أي لا يعجزه أن يغفر جميع الذنوب ما بلغ جميعها من الكثرة لأنه شديد الغفران شديد الرحمة. فبطل بهذه الآية قول المرجئة أنه لا يضر مع الإيمان شيء⁽¹⁾.

هذا آخر البحث، وأحسب أنني لم آت بكل المفسرين ولا كل الأقوال وإنما اكتفيت بما يكفي أمثلة للقائلين وأقوالهم في تنزيل النص القرآني على الفرق.

خاتمة

في ختام هذا الموضوع نعرض النتائج والتوصيات الآتية:

أولاً: النتائج:

- تنزيل النص القرآني على الفرق اهتم به المفسرون المغاربة على مر التاريخ الإسلامي.
- التنزيل تارة يكون بالتصريح بالرد وبيان وجه الرد على الفرقة بعد بيان معنى الآية، وتارة يكون بالرد فقط لوضوح معنى الرد، وتارة يكون بالتصريح بالتنزيل.
- في تنزيل النص القرآني على كل فرقة تحذير من هذه الفرقة، وبيان بطلانها.

التوصيات:

- مواصلة عقد مثل هذا الملتقى المبارك خاصة ونحن في زمن كثرت فيه الفتن، والتبس الحق بالباطل لدى فئات كثيرة من المسلمين.
- العمل على إدراج مقياس: تنزيل النص القرآني على الواقع.
- تعميم البحث في بيان تنزيل مفسري المشرق الإسلامي النص القرآني على الفرق.

وفي الختام:

أسأل الله تبارك وتعالى أن يتكلل هذا الملتقى بالنجاح، وأن يوفق القائمين عليه والمشاركين فيه إلى التوفيق والسداد.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وإخوانه أجمعين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(1) المصدر السابق: (42/24).

تنزيل النص القرآني على الواقع وأثره في الإصلاح الاجتماعي

دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير التحرير والتنوير

لابن عاشور - رحمه الله -

د/ سلمى حضيض تركي العوفي

جامعة طيبة- المدينة المنورة- المملكة العربية السعودية

sht1432@hotmail.com



ملخص

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده... وبعد:

فهذا بحثٌ تناولت فيه موضوع تنزيل النص القرآني على الواقع وأثره في الإصلاح الاجتماعي دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور -رحمه الله-، وتكمن أهميته في الكشف عن هدايات القرآن وسننه وأسراره التي جعلت منه خطاباً ربانياً عالمياً خالداً، صالحاً لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة، وفي ذلك رد على من زعم تاريخية النصوص القرآنية.

ويهدف إلى بيان عناية ابن عاشور -رحمه الله- بمسألة تنزيل النص القرآني على الواقع تأصيلاً وتطبيقاً، والكشف عن معالم منهج ابن عاشور -رحمه الله- في تنزيل النص القرآني على الواقع، وذكر أبرز القضايا والأحداث في عصر ابن عاشور رحمه الله وتنزيله الآيات عليها، وبيان أثر تنزيل النص القرآني في الإصلاح الاجتماعي عند ابن عاشور رحمه الله.

وقسمت خطة البحث إلى مقدمة ومبحثين: المبحث الأول : الدراسة النظرية، وتحوي التعريف بمفردات العنوان، والتعريف بالإمام ابن عاشور رحمه الله، ومعالم منهج الإمام ابن عاشور رحمه الله في تنزيل النص القرآني على الواقع. أما المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية، وتحوي أبرز القضايا والموضوعات التي نزل ابن عاشور الآيات عليها، وأثر تنزيل الآيات على الواقع في الإصلاح الاجتماعي.

من نتائج البحث:

- تبين من خلال البحث في مفهوم تنزيل النص على الواقع قلة من كتب في تأصيل هذه القضية، وتقصير العلماء والباحثين في بيان علم التنزيل تأصيلاً وتطبيقاً، ولعل هذا الملتقى يسد هذه الثغرة العلمية ويجلي فروعها النظرية والتطبيقية.
 - عناية الإمام ابن عاشور رحمه الله بضوابط التنزيل ومن أبرزها: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإن تفسير القرآن مرتبط بفقه المقاصد، وإن مشاهدة الواقع يعين على تفسير الآيات القرآنية.
- الكلمات المفتاحية: تنزيل النص، الواقع، ابن عاشور، التحرير والتنوير، الإصلاح الاجتماعي.

المقدمة

الحمد لله القائل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّيْ هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

إن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن الكريم فيه هدى ونور وبينات، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرج من استضاء به من الظلمات إلى النور، ففيه الهدى والرشاد والصلاح وإقامة مصالح الخلق، وتحقيق سعادتهم الدنيوية والأخروية.

لقد اعتنى أهل العلم قديما وحديثا بتدبر القرآن العظيم وتأمل آياته، والوقوف عند أحكامه وتوجيهاته، واستنباط العلاقة بين الواقع وحكمه وهداياته، والمقارنة بين الأحداث المستجدة في عصورهم وما يناسبها من آيات القرآن وتوجيهاته، وتفاوت المفسرون في تنزيلهم الآيات على الواقع، قلة وكثرة، تصريحاً وتلميحاً، بحسب مناهجهم التفسيرية، أو قوة الأحداث وشدة الوقائع والنوازل في عصرهم.

وكان من الأئمة الأعلام والعلماء الكرام الذين عاشوا حياتهم بالقرآن ومع القرآن فقها وفهما، وتدبرا وعلماء، وتطبيقا وعملا، الإمام محمد الطاهر بن عاشور -رحمه الله- (ت1393هـ)، فكان له اهتمام خاص وعناية متميزة بتفسير القرآن الكريم، وربط معاني الآيات القرآنية بالواقع، مما كان له أثر في الإصلاح الاجتماعي في عصره، فجاءت مؤلفاته غنية بمسألة تنزيل الآيات على الواقع خاصة تفسيره: (تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد) المشهور باسم (التحرير والتنوير).

مشكلة البحث وتساؤلاته:

تتلخص مشكلة البحث في كيفية التعامل مع النص القرآني؛ حيث تعددت جهود المفسرين قديما وحديثا في شتى الأقطار الإسلامية شرقا وغربا في تعاملهم مع الآيات القرآنية وتفسيرها، ومن أبرز المسالك الحديثة في التفسير بالرأي تنزيل الآيات القرآنية على الواقع.

وهذا البحث يتطلع إلى إبراز جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل الآيات على الواقع وأثره في الإصلاح الاجتماعي، من خلال الكشف عن التنزيلات القرآنية عند الإمام ابن عاشور -رحمه الله- في تفسيره التحرير والتنوير.

ولذا رأيت أن أضع تفسير الإمام الطاهر بن عاشور (التحرير والتنوير) على محك النظر والفحص للإجابة على السؤال الآتي: ما مدى عناية الشيخ ابن عاشور بمسألة تنزيل النص القرآني على الواقع؟ ويتفرع عن هذا السؤال عدد من الأسئلة الآتية:

- ما المقصود بتنزيل النص القرآني على الواقع ؟

- ما معالم منهج ابن عاشور في تنزيل النص على الواقع من خلال تفسيره التحرير والتنوير ؟

- ما أبرز القضايا التي نزل فيها ابن عاشور النص القرآني على الواقع؟
- هل كان للواقع المعاصر والأحداث الجارية دور في تنزيل النص على الواقع عند ابن عاشور؟

- ما أثر تنزيل النص القرآني في الإصلاح الاجتماعي؟
الدراسات السابقة:

من أبرز الدراسات التي سبقت هذا البحث ما يأتي:

- (تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين -دراسة وتطبيق-) للدكتور: عبدالعزيز بن عبدالرحمن الضامر، وهو كتاب⁽¹⁾ قيّم في بابه، وضعه مؤلفه في قسمين: الأول: تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، أما الثاني: تطبيقات التنزيل المعاصر من خلال تفسير المنار ومجالس التذكير.

- (ضوابط تنزيل النص على الواقع) للدكتورة: ميادة بنت محمد الحسن، أستاذ الفقه والأصول المساعد في جامعة الملك فيصل، بحث منشور في مجلة العدل، العدد الثالث والسبعون.

- (تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام ابن القيم رحمه الله) إعداد الدكتور: يحيى محمد زمزمي، أستاذ مشارك بكلية الدعوة واصل الدين في جامعة أم القرى، ونشر في مجلة البحوث والدراسات القرآنية العدد الرابع.

ويلاحظ على هذه الدراسات والبحوث السابقة وغيرها مما وقفت عليه أنها تناولت الموضوع من جانبين: الأول: من حيث تأصيله كما في الدراسة الأولى والثانية، الجانب الثاني: من حيث تطبيقه عند أحد العلماء كما في الدراسة الثالثة عند الإمام ابن القيم رحمه الله، أما هذا البحث فيتناول تنزيل النص القرآني عند الإمام ابن عاشور رحمه الله تأصيلاً وتطبيقاً وأثر ذلك في الإصلاح الاجتماعي.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في جوانب عدة، منها ما يأتي:

- الكشف عن هدايات القرآن وسننه وأسراره التي جعلت منه خطاباً ربانياً عالمياً خالداً، صالحاً لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة، وفي ذلك رد على زعم وتوهم تاريخية النصوص القرآنية.

- لفت النظر إلى نوع من مناهج التفسير لم يؤلف فيها إلا قليل من المفسرين وهي

(1) كتاب مطبوع ومنشور في سلسلة الدراسات القرآنية (4) الصادرة عن جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، 1428هـ/2007م.

منهجية تنزيل النص القرآني على الواقع.

- أنه بحث يتناول علم من أعلام التفسير المعاصر الذي تميز بكثرة مصنفاته وتنوعها واتساع موضوعاتها، ولأشك أن تتبع التنزيلات القرآنية عند ابن عاشور رحمه الله، وتجليتها يجعل الإفادة منها حاصلة، وهذا مثر للمكتبة الإسلامية.

- أنه بحث لم يستطد كثيرا في الجانب النظري التأصيلي المتعلق بقضية تنزيل النص على الواقع، وإنما جعل شقه الأبرز في الجانب التطبيقي وهو ما يجعله حافلا بالنماذج والنصوص الكثيرة المقتبسة من التحرير والتنوير ضرورة، والمؤيدة بنصوص من كتبه الأخرى؛ مما يوفر على طالب العلم جهداً كبيراً ووقتاً وفيراً في التنقيب عن جهود الشيخ ابن عاشور في قضية التنزيل على الواقع.

- حاجة الناس لربط واقعهم بالنص القرآني، وتطبيق آياته على أحوالهم، لاسيما في هذه العصور التي كثرت فيها النوازل والمستجدات، وانتشرت الأهواء والجهالات.

أهداف البحث:

- بيان عناية ابن عاشور بمسألة تنزيل النص القرآني على الواقع تأصيلا وتطبيقا.
- الكشف عن معالم منهج ابن عاشور رحمه الله في تنزيل النص القرآني على الواقع.
- ذكر أبرز القضايا والأحداث في عصر ابن عاشور رحمه الله وتنزيله الآيات عليها.
- بيان أثر تنزيل النص القرآني في الإصلاح الاجتماعي عند ابن عاشور رحمه الله.

دواعي اختيار الموضوع:

إن موضوع جهود العلماء في تنزيل النص على الواقع لم يأخذ حظه من البحث والدراسة والبيان، ولم يفرد في مؤلفات مستقلة عدا إشارات يسيرة في بطون الكتب وأبحاث قصيرة لجهود بعض العلماء في هذه المسألة، ولأشك أن الكشف عن هذا الموضوع يحتاج إلى كتب وموسوعات بحثية ومؤتمرات وملتقيات علمية تسهم في تجلية جهود السابقين في تنزيل النص على الواقع تأصيلا وتطبيقا؛ فجاء هذا البحث استجابة لدعوة اللجنة العلمية بقسم أصول الدين بجامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي - للمشاركة في الملتقى الدولي الثامن: "جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع"، ورغبة من الباحثة في الإسهام ببيان جزء يسير من جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص على الواقع، اخترت المشاركة في المحور الرابع: توظيف تنزيل النص على الواقع وأثره في الإصلاح الاجتماعي عند الإمام ابن عاشور رحمه الله.

منهج البحث وإجراءاته:

اعتمدت في هذا البحث على المنهج الاستقرائي والتحليلي، وذلك بجمع آراء ابن عاشور رحمه الله المتعلقة بالموضوع وعرضها وتحليلها.

- إجراءات الباحث: لقد سرت في بحثي هذا وفق الضوابط المنهجية الآتية:
أولاً: الاختصار على تفسير التحرير والتنوير والإفادة من كتب المؤلف الأخرى مثل كتابه (أصول النظام الاجتماعي) وكتاب (أليس الصبح بقريب).

ثانياً: اتبعت طريقة في البحث عن تنزيلات ابن عاشور وتلخص في الآتي:

1- تتبعت تفسير "التحرير والتنوير" واستقرأت المواضيع ذات العلاقة بالبحث، ولا أدعي أنني أتيت على كل المواضيع نظراً لحجم الكتب الكبير وضيق الوقت المخصص لتقديم البحث، وهذا يحتاج إلى مشروع بحثي يشترك فيه عدد من الباحثين، وحسبي أنني وقفت على أغلب المواطن التي تخدم الموضوع، من خلال البحث باستخدام المصطلحات والألفاظ التي يغلب استعمالها في تنزيل الآيات على الواقع المعاصر، واستخدمت في ذلك برنامج المكتبة الشاملة.

2- تتبعت المقدمات كاملة وعددها عشر مقدمات بالإضافة إلى مقدمة المصنف، ووجدت لابن عاشور كلاماً نفيساً في موضوع التنزيل بثه في مقدمات كتابه، نقلت منها ما يخدم موضوع البحث سواء في التأصيل أو التطبيق.

3- تتبعت كلام ابن عاشور في تفسيره للآيات التي يغلب فيها تنزيل المفسرين على الواقع، أو التي لها علاقة وثيقة بمسألة التنزيل مثل سبب النزول وآيات السنن الكونية والاجتماعية وآيات الإعجاز والمقاصد وغيرها.

ثالثاً: اجتهدت في استنباط المسائل المتعلقة بالبحث، وصنفت المواضيع التي وقفت عليها حسب دلالاتها وموضوعاتها، تأصيلاً وتطبيقاً في القضايا المختلفة.

رابعاً: عرّفت بموضوع البحث وأهميته، وعرّفت بإيجاز بالإمام ابن عاشور -رحمه الله- خامساً: استنبطت المعالم العامة لمنهج ابن عاشور رحمه الله في مسألة تنزيل النص على الواقع.

سادساً: اجتهدت في حصر أغلب القضايا والموضوعات التي نزل فيها ابن عاشور النص القرآني على الواقع.

سابعاً: وثقت كلام ابن عاشور وغيره ممن نقلت عنهم نصاً أو بالمعنى في هامش كل صفحة بذكر عنوان الكتاب والصفحة. ثم ذكرت معلومات المرجع كاملة في قائمة المصادر والمراجع.

ثامناً: ختمت البحث بأبرز النتائج والتوصيات، ثم وضعت فهرس المصادر والمراجع.

خطة البحث:

قسمت خطة البحث إلى مقدمة ومبحثين كالآتي:

المبحث الأول: الدراسة النظرية، وتحوي مطلبين:

المطلب الأول: التعريف بمفردات العنوان وبالإمام ابن عاشور -رحمه الله-.

المطلب الثاني: معالم منهج الإمام ابن عاشور -رحمه الله- في تنزيل النص القرآني على الواقع.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية، وتحتوي مطلبين:
المطلب الأول: أبرز القضايا والموضوعات التي نزل ابن عاشور آيات عليها.
المطلب الثاني: أثر تنزيل النص القرآني في الإصلاح الاجتماعي .

المبحث الأول: الدراسة النظرية

في هذا القسم النظري من البحث أعرف بمفردات العنوان، وأترجم للإمام ابن عاشور رحمه الله، ثم أبين ضوابط ومعالم منهجه في تنزيل النص القرآني على الواقع.

المطلب الأول: التعريف بمفردات العنوان وبالإمام ابن عاشور رحمه الله

أولاً: التعريف بمفردات العنوان وهي كالاتي: التنزيل، النص، القرآن، الواقع، الأثر، الإصلاح، الاجتماعي.

- (تنزيل): "النون والزاء واللام كلمةٌ صحيحة تدلُّ على هُبوب شيء ووقوعه، والتنزيل: ترتيب الشيء ووضعه منزله"⁽¹⁾. واستخدم المعاصرون كلمة "تطبيق" بمعنى تنزيل.

- (النص): في اللغة: "النون والصاد أصلٌ صحيح يدلُّ على رَفَعٍ وارتفاعٍ وانتهاء في الشيء، منه قولهم نصَّ الحديث إلى فلان: رَفَعَهُ إليه"⁽²⁾، وفي لسان العرب: "كل ما أظهر فقد نُصّ. وقال عمرو بن دينار ما رأيت رجلاً أنص للحديث من الزهري أي أرفع له وأسند، وأصل النص: أقصى الشيء وغايته، ثم سمي به ضرب من السير سريع، والنصّ التوقيف، والنصّ التعيين على شيء ما، ومنه قول الفقهاء: نصُّ القرآن ونصّ السنّة أي ما دل ظاهر لفظهما عليه من الأحكام"⁽³⁾.

والنص اصطلاحاً: عرفه الجرجاني: "ما لا يحتمل إلاّ معنًى واحداً وقيل ما لا يحتمل التأويل، وقيل هو ما زاد وضوحاً على الظاهر لمعنى في المتكلم وهو سوق الكلام لأجل المعنى"⁽⁴⁾.

وقد ذكر التهانوي أن النص له معان متعددة وهي:

1- كل ملفوظ مفهوم المعنى من الكتاب والسنة ظاهراً أو نصاً أو مفسراً، حقيقة أو مجازاً عاماً أو خاصاً.

2- والنص بمعنى الظهور.

(1) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (417/5).

(2) المرجع السابق، (356/5).

(3) لسان العرب، لابن منظور (98-97/7).

(4) التعريفات، للجرجاني (309).

3- ما لا يتطرق إليه احتمال أصلاً.

4- ما لا يتطرق إليه احتمال مقبول يعضده دليل.

5- الكتاب والسنة أي ما يقابل الاجماع والقياس⁽¹⁾.

- (القرآن): مصدر مرادف للقراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (٥) ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَذَكَرْهُ﴾ (٥٨). ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ من باب إطلاق المصدر على مفعوله، ويسمى الكتاب والقرآن والفرقان والذكر والتزليل، ويعرف بأنه: كلام الله المعجز، المنزل على النبي محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته⁽²⁾.

والمقصود بالنص القرآني: ما يختص بما هو قطعي الثبوت وقطعي الدلالة في الثوابت؛ لأن فهم النص ضروري لإنزال أحكامه منازلها، وهو أمر لا مناص منه مع أي نص من النصوص قطعية الدلالة والثبوت.

- (الواقع): اسم فاعل للفعل وقع، ويدل على سقوط شيء، تقول: وقع الشيء وقوعاً فهو واقع⁽³⁾.

الواقع في الاصطلاح: عرفه عبدالمجيد النجار أنه: عبارة عن السنن الإلهية والأفعال الإنسانية الحاصلة في الزمن المعاصر، وهذا الواقع هو الذي يراد تنزيل الآيات عليه وتوجيهه بحسبها⁽⁴⁾.

وبناء على ذلك فالمقصود من تنزيل النص القرآني على الواقع: إحلال معنى الآيات القرآنية ومطابقتها على ما يناسبها من الأحداث والوقائع الكونية والإنسانية.

- (الأثر) الهمزة والياء والراء، له ثلاثة أصول: تقديم الشيء، وذكر الشيء، ورسم الشيء الباقي⁽⁵⁾. ويطلق على النتيجة، أو الأمر الحاصل من الشيء، والآثار: هي اللوازم المعللة بالشيء، أو جملة الأمور التي تنتج عن الشيء المسبب لها⁽⁶⁾.

- (الإصلاح) في اللغة من أصلح يصلح إصلاحاً، والصالح ضد الفساد⁽⁷⁾، ومادة صلح تعود في جملتها إلى استقامة الشيء واعتداله، واستقامة الإنسان على الأخلاق الفاضلة، والنهي عن ضدها من الانحراف والفساد.

(1) انظر: كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، للهاوني، (1/ 1695).

(2) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، لعبدالعظيم الزرقاني (ص 14-19).

(3) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (6/ 102).

(4) انظر: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، لعبدالمجيد النجار، (ص 120).

(5) مقاييس اللغة، لابن فارس (1/ 75).

(6) انظر: التعريفات، للرجزاني (ص 23).

(7) مقاييس اللغة، لابن فارس (3/ 236).

وعرفه الألوسي بأنه: (الإتيان بما ينبغي، والاحتراز عما ينبغي⁽¹⁾)، وعرفه ابن باديس بأنه: (إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله بإزالة ما طرأ عليه من فساد⁽²⁾)، ومن معانيه في القرآن الكريم ما يقابل الفساد، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

- (الاجتماعي): مصدر اجتمع وأصله جمع، ومنه الجماعة والمجتمع ويعني: جماعة من الناس تربطها روابط ومصالح مشتركة وعادات وتقاليد وقوانين واحدة⁽³⁾.

فالمراد بآثر التنزيل في الإصلاح الاجتماعي: أي الأمور التي تنتج عن تطبيق آيات القرآن الكريم على الواقع الاجتماعي، وتكون سبباً في حصولها، ولها دور في استقامة الفرد وصالح المجتمع.

ويعرّف تنزيل النص القرآني على الواقع باعتباره مركباً كالآتي:

- معالجة الوقائع والأحداث من خلال كلام الله تعالى في كل عصر وزمن، لمشابهاة بحوادث ووقائع عصر التنزيل التي من أجلها نزل بعض النص القرآني الكريم⁽⁴⁾.

- "مقابلة الأحداث المعاصرة للمفسر بما يشابهها في كتاب الله تعالى، سواء كانت المقابلة تامة أو جزئية أو مخالفة لما عليه الآية"⁽⁵⁾.

وبناء على ما سبق يتضح أن المقصود بتنزيل النص القرآني على الواقع هو تطبيق آيات القرآن الكريم على السنن الكونية والبشرية، أو تصوير ما تصدق عليه الآية من الأحداث والوقائع الجارية في عصر المؤلف، كما يتبين من خلال التعريفين السابقين أن أركان التنزيل ثلاثة: النص، والواقع، والمنهج، كما أن التنزيل قد يكون تاماً أو جزئياً، وقد يكون موافقاً أو مخالفاً لمعنى الآية.

وقد تبين من خلال البحث في مفهوم تنزيل النص على الواقع قلة من كتب في تأصيل هذه القضية، وتقصير العلماء والباحثين في بيان علم التنزيل تأصيلاً وتطبيقاً، ولعل هذا الملتقى يسد هذه الثغرة العلمية ويجلي فروعها النظرية والتطبيقية.

ثانياً: التعريف بالإمام ابن عاشور رحمه الله.

نسبه وأسرته:

هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد ابن عاشور رحمه الله، وأمه: فاطمة بنت الشيخ الوزير محمد العزيز بن محمد الحبيب ابن محمد الطيب بن محمد بوعتور.

(1) روح المعاني، الألوسي (214/7).

(2) مجالس التذكير، لابن باديس (231/1).

(3) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، 396/1.

(4) تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، لعبد العزيز الضامر، (ص 40).

(5) المرجع السابق، (ص 33).

ويعود أصل أسرته (آل عاشور) إلى عهد ازدهار الحضارة الأندلسية ببلد الأندلس، ومنها انتقلت إلى بلاد المغرب 1030هـ/1620م، ثم إلى تونس في حدود سنة 1060هـ/1648م. وكان أول من دخلها من أفراد هذه الأسرة الشيخ الصالح الشريف أبو عبد الله محمد بن عاشور الحسني بعد خروج والده من الأندلس فأراً بدينه من القهر والتنصير، ومن سلالة آل عاشور البارزين والده محمد بن عاشور، وهو وإن لم تكن له آثار علمية إلا أنه قد برز في ميدان المسؤوليات الوظيفية؛ فتولى رئاسة مجلس دائرة جمعية الأوقاف، فأحسن إدارتها.

وتقلد ابن عاشور مناصب مهمة: كالقضاء والإفتاء والتدريس والإشراف على الأوقاف الخيرية والنظارة على بيت المال والعضوية بمجلس الشورى، وله العديد من المؤلفات المطبوعة والمخطوطة امتاز فيها بتحرير المسائل وتدقيقها، والميل إلى الاستقلال في الرأي في كثير من مباحثه العلمية.

ومن أبرز شيوخه الشيخ سالم بوحاجب⁽¹⁾، وجده ومربيه محمد العزيز بوعتور الذي كثيراً ما يتردد اسمه في مؤلفات الشيخ ابن عاشور رحمه الله، وقد تتلمذ على يديه نخبة من رجال الفكر والثقافة أصبحوا فيما بعد من شيوخ الزيتونة وعلمائها، وأولهم وأشهرهم على الإطلاق، ابنه العلامة الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور رحمه الله، والشيخ الدكتور محمد الحبيب بلخوجة رحمه الله⁽²⁾.

أشهر مؤلفاته:

اعتنى الشيخ ابن عاشور رحمه الله بأهميات العلوم الإسلامية وبرع فيها، فتنوعت مؤلفاته متجاوزة الأربعين مصنفًا من أهمها ما يأتي:

1- تفسير "التحرير والتنوير" المسمى بـ "تحرير المعنى الشديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد"، يقع في 30 جزءًا، وقد حوى التحاليل اللغوية الدقيقة والاجتهادات المعمقة والترجيحات القيمة، جمع فيه ما في التفاسير ثم أضاف إلى المعرفة زادًا وضح به مراد الله تعالى، ويعد أهم هذه الآثار وأشهرها على الإطلاق.

2- كتاب "كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ"، و "النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح للبخاري"؛ مما يدل على حفظ الشيخ لعلم الحديث النبوي، واهتمامه بأحاديث النبي ﷺ ونقدها نقد العارف بأحوال علم المصطلح في الحديث.

3- "مقاصد الشريعة"، ويعد فريدًا في بابها من حيث التوسع والشمول للكشف عن

(1) هو: سالم بن عمر بوحاجب البنبلي؛ ولد ببنبلة عام 1244هـ، فقيه مالكي، محقق، لغوي أديب شاعر، كان من أعلام عصره، تولى التدريس بجامع الزيتونة فكانت مدة تدريسه أكثر من ستين سنة، كما نصب للفتيا وعُين كبيرًا لأهل الشورى المالكية، من مؤلفاته: "تقارير على شرح الأشموني على الخلاصة الألفية لابن مالك"، و"ديوان خطبه المنبرية"، توفي بالمرسى سنة 1342هـ، ودفن بمقبرة الزلاج. انظر: الأعلام، للزركلي، (71/3)، وتراجم المؤلفين التونسيين، لمحفوظ، (81-78/2).

(2) انظر: الإمام محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، للغالي، (41-42)، والأعلام، للزركلي، (174/6).

أبعاد الغاية المروم تحقيقها وتقريرها، وقد عملت جلّ الجامعات الإسلامية على اعتمادها، وعُدَّ الشيخ فيه مجددًا، بل مجتهدًا أضاف إلى المعرفة الشرعية بابًا من أهم أبوابها، مسجلًا به مرحلة هامة من أهم مراحل هذا العلم، متجاوزًا بذلك أصحاب هذا الفن، كالشاطبي في "الموافقات"، وكان فيه مثالًا لتوظيف المعرفة التراكمية والانطلاق منها لتأسيس معرفة جديدة معتمدة عليها متميزة عنها.

4- "أليس الصبح بقريب"، ويعد من الأعمال الجليلة للإمام ابن عاشور رحمه الله مع كونه كتبه في بداية حياته إلا أنه كان ذا نظرة عامة شاملة في مجال الإصلاح التربوي، وقد جسّمه ميدانيًا في إصلاح التعليم بجامع الزيتونة، يعد وثيقة لحياة الطالب وفيه وصف بليغ لمعاشه، فوصف دروسه وسكنه وأسباب تأخره، ووجوه إصلاحه، فحق للمربين تأملها والإفادة منها.

5- "أصول النظام الاجتماعي في الإسلام"، وقد عالج الشيخ ابن عاشور رحمه الله فيه قضايا متعددة؛ إذ تطرق فيه إلى خصائص هذا الدين في إصلاح الأفراد، وفي القسم الثاني عالج الإصلاح الاجتماعي وذكر أصولًا مهمة ومبادئ قويمه قام عليها هذا الدين العظيم.

6- "نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق"، ويعد من أبرز الكتب التي اتضحت فيها آراء الإمام السياسية -رغم صغر حجمه- فتحدث فيه عن الخلافة والحكومة في التاريخ، والوحدة الدينية والعرب.

ولديه غيرها بضعة وثلاثون مؤلفًا ما بين مطبوع ومخطوط والتي امتازت بكثير من المميزات والتبويبات، والتي لم تطغَ كثرتها على جودتها؛ إذ إنه كثيرًا ما تؤثر كثرة التأليف في مجال ما على جودتها وحصافتها فكيف بمجالات متنوعة وعلوم متفرقة⁽¹⁾.

وفاته:

بعد عمر طويل حافل بالعمل الصالح المثمر والإنتاج العلمي الغزير، قارب القرن من الزمان، انتقل الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله إلى جوار ربه يوم الأحد 13 رجب 1393هـ الموافق 12 أغسطس 1973م، ودفن في مقبرة الزلاّج من مدينة تونس⁽²⁾.

المطلب الثاني: منهج ابن عاشور رحمه الله في تنزيل النص القرآني على الواقع

اتخذ ابن عاشور منهجًا خاصًا في التنزيل أثناء تفسيره لكلام الله تعالى، وأكد على ضرورة مراعاة الواقع وحالة المخاطب وعصره وأنها من أبرز المقاصد الأصلية التي يجب على المفسر العناية بها، فقال:

"السادس- من مقاصد القرآن-: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم

(1) انظر: من أعلام الزيتونة: الإمام محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، للغالي، (19-20).

(2) انظر: الأعلام، للزركلي، (6/174).

إلى تلقي الشريعة ونشرها"⁽¹⁾ وقد تميز هذا المنهج بضوابط ومعاليم، منها ما يأتي:

أولاً: ضوابط التنزيل عند ابن عاشور:

انطلق ابن عاشور في تأصيل قضية التنزيل وتطبيقها من خلال ضوابط عدة، منها على سبيل المثال:

الضابط الأول: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، حيث يعد من الضوابط والقواعد المهمة والركائز الأساسية في قضية التنزيل التي اعتمد عليها ابن عاشور رحمه الله وأشار لها في تفسيره، والأمثلة على ذلك من كلامه كثيرة، منها:

• قوله في بيان حكم التسمية على الذبيحة والحكمة منها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾: "وربما كان المشركون في تحيلهم على المسلمين في أمر الذكاة يقتنعون بأن يسألوهم ترك التسمية، بحيث لا يُسمون الله ولا يسمون للأصنام، فيكون المقصود من الآية: تحذير المسلمين من هذا الترك المقصود به التمويه، وأن يستعنى على الذبائح غير أسماء آلهتهم .

فإن اعتدنا بالمقصد والسياق، كان اسم الموصول مراداً به شيء معين، لم يذكر اسم الله عليه، فكان حكمها قاصراً على ذلك المعين، ولا تتعلق بها مسألة وجوب التسمية في الذكاة، ولا كونها شرطاً أو غير شرط بله حكم نسيانها . وإن جعلنا هذا المقصد بمنزلة سبب للأنزول، واعتدنا بالموصول صادقاً على كل ما لم يذكر اسم الله عليه، كانت الآية من العام الوارد على سبب خاص، فلا يخص بصورة السبب، وإلى هذا الاعتبار مال جمهور الفقهاء المختلفين في حكم التسمية على الذبيحة"⁽²⁾.

• وفي المقدمة الرابعة من كتابه التحرير والتنوير ذكر ابن عاشور أن خطاب القرآن عام للعرب وغيرهم، مما يبين تأكيداً على قاعدة العبرة بعموم اللفظ، حيث فقال: "فيجب أن تعلموا قطعاً أنه ليس المراد من خطاب العرب بالقرآن أن يكون التشريع قاصراً عليهم أو مراعيًا لخاصة أحوالهم، بل إن عموم الشريعة ودوامها وكون القرآن معجزة دائمة مستمرة على تعاقب السنين ينافي ذلك، نعم إن مقاصده تصفية نفوس العرب الذين اختارهم كما قلنا لتلقي شريعته وبثها ونشرها، فهم المخاطبون ابتداءً قبل أمة الدعوة فكانت أحوالهم مرعية لا محالة، وكان كثير من القرآن مقصوداً به خطابهم خاصة، وإصلاح أحوالهم، قال تعالى: ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي عَلَّمَ قَوْمًا مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ (وقال) ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ إِلَهُكُمُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا مِنْهُمْ﴾ (لكن ليس ذلك بوجه للاقتصار على أحوالهم).

(1) التحرير والتنوير (1 / 41).

(2) المرجع نفسه، (8 / 39-40).

• ومما يبين هذه القاعدة قوله: "ومعنى كون أسباب النزول من مادة التفسير، أنها تعين على تفسير المراد، وليس المراد أن لفظ الآية يقصر عليها؛ لأن سبب النزول لا يخصص"⁽¹⁾.

• وقوله أيضا: "الخطاب في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّهْمَةَ﴾ (كمثل الخطاب في) ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ﴾ (هو لعموم الناس المخاطبين بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُوا رَبِّكُمْ﴾ [الحج: 1] ليأخذ كل من يصلح لهذا الحكم حظّه من الامتثال"⁽²⁾.

• ومن الأمثلة أيضا قوله عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نِصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نِصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ "فالنهي عن التمتي وتطلع النفوس إلى ما ليس لها جاء في هذه الآية عامًا، فكان كالتنزيل للأحكام السابقة لسدّ ذرائعها وذرائع غيرها، فكان من جوامع الكلم في درء الشرور"⁽³⁾.

فهذه الشواهد والأمثلة وغيرها من كلام ابن عاشور تبين مدى عنايته بقاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، في تنزيل النص القرآني على الواقع.

الضابط الثاني: إن تفسير القرآن مرتبط بفقّه المقاصد: وهذا من الضوابط والقواعد المهمة في تنزيل النص على الواقع، لذا اهتم ابن عاشور بهذه القاعدة وأكد عليها في أكثر من موضع من كلامه:

• ذكر ابن عاشور رحمه الله في المقدمة الرابعة: فيما يحق أن يكون غرض المفسر، وأن معرفة المقاصد والعلم بها من أهم غايات المفسر، بل من أهم أدواته في التفسير، فقال: "تتطلعون بعد إلى الإفصاح عن غاية المفسر من التفسير، وعن معرفة المقاصد التي نزل القرآن لبيائها حتى تستبين لكم غاية المفسرين من التفسير على اختلاف طرائقهم، وحتى تعلموا عند مطالعة التفاسير مقادير اتصال ما تشتمل عليه، بالغاية التي يرمي إليها المفسر فتزنوا بذلك مقدار ما أوفى به من المقصد، ومقدار ما تجاوزته، ثم ينعطف القول إلى التفرقة بين من يفسر القرآن بما يخرج عن الأغراض المرادة منه، وبين من يفصل معانيه تفصيلا، ثم ينعطف القول إلى نموذج مما استخرجه العلماء من مستنبطات القرآن في كثير من العلوم"⁽⁴⁾.

الضابط الثالث: إن القرآن نزل منجما حسب الأحداث والوقائع:

اعتنى ابن عاشور بقضية نزول القرآن منجما حسب الوقائع والأحداث فجعل لها اعتبارا عند تنزيل الآيات على الواقع، ومن الأمثلة على ذلك:

• قوله: "وجملة ﴿لَعَلَّكُمْ يَرْجِعُونَ﴾ استئناف بياني لحكمة إذاقتهم العذاب الأدنى في الدنيا بأنه لرجاء رجوعهم، أي رجوعهم عن الكفر بالإيمان. والمراد: رجوع من يمكن رجوعه

(1) التحرير والتنوير، (24/1).

(2) المرجع السابق، (234/4).

(3) المرجع السابق، (28/5).

(4) المرجع السابق، (38/1).

وهم الأحياء منهم. وإسناد الرجوع إلى ضمير جميعهم باعتبار القبيلة والجماعة، أي لعل جماعتهم ترجع. وكذلك كان فقد آمن كثير من الناس بعد يوم بدر وبخاصة بعد فتح مكة، فصار من تحقق فهم الرجوع المرجوّ مخصوصين من عموم ﴿الَّذِينَ فَسَّوْا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَّوْا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [السجدة: 20]، فبقي ذلك الوعيد للذين ماتوا على الشرك، وهي مسألة الموافاة عند الأشعري⁽¹⁾.

الضابط الرابع: التحذير من الخوض في تفسير الآيات بلا علم: من معالم منهج ابن عاشور ومن الضوابط المهمة في قضية التنزيل عنده النبي عن الخوض في التفسير بلا علم، لما يترتب عليه من أثر في صحة التنزيل، حيث يقول رحمه الله: "فقد رأينا تهافت كثير من الناس على الخوض في تفسير آيات من القرآن فمنهم من يتصدى لبيان معنى الآيات على طريقة كتب التفسير ومنهم من يضع الآية ثم يركض في أساليب المقالات تاركاً معنى الآية جانباً، جالباً من معاني الدعوة والموعظة ما كان جالباً، وقد دلت شواهد الحال على ضعف كفاية البعض لهذا العمل العلمي الجليل فيجب على العاقل أن يعرف قدره، وأن لا يتعدى طوره، وأن يرد الأشياء إلى أربابها"⁽²⁾.

الضابط الخامس: إنَّ مشاهدة الواقع تعين على تفسير الآيات القرآنية: من ضوابط وقواعد التنزيل عند ابن عاشور مشاهدة الواقع والنظر في سنن الله الكونية.

عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ إلّا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٦٥﴾ قال رحمه الله: "ومعنى نفي أن يهديهم طريقاً: إن كان طريقاً يوم القيامة فهو واضح: أي لا يهديهم طريقاً بوصلهم إلى مكان إلّا طريقاً يوصل إلى جهنم. ويجوز أن يراد من الطريق الآيات في الدنيا، كقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]. فنفي هديهم إليه إنذار بأن الكفر والظلم من شأنهما أن يخيماً على القلب بغشاوة تمنعه من وصول الهدى إليه، ليحذر المتلبس بالكفر والظلم من التوغّل فيهما، فلعله أن يصبح ولا مخلص له منهما. ونفي هدى الله أيّاهم على هذا الوجه مجاز عقلي في نفي تيسير أسباب الهدى بحسب قانون حصول الأسباب وحصول آثارها بعدها. وعلى أي الاحتمالين فتوبة الكافر الظالم بالإيمان مقبولة، وكثيراً ما آمن الكافرون الظالمون وحسن إيمانهم، وآيات قبول التوبة، وكذلك مشاهدة الواقع، ممّا يهدي إلى تأويل هذه الآية."⁽³⁾

ثانياً: معالم منهج التنزيل عند ابن عاشور

تميز منهج ابن عاشور بمعالم عدة، لاسيما عند تنزيه آيات القرآن على الواقع، وفيما

(1) المرجع السابق، (21 / 233).

(2) المرجع السابق، (1 / 37).

(3) المرجع السابق، (6 / 47 - 48).

يأتي أذكر بعض هذه المعالم مع بيان شواهدا من كتاباته:

أ- لفت النظر إلى أحوال المخلوقات وواقعها عند تفسير الآيات: ومن الأمثلة على ذلك ما يأتي:

• قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَتْ خَلْقُهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ "ولا شك أن هذه الخلافة لا تتقوم إلا بالعلم أعني اكتساب المجهول من المعلوم وتحقيق المناسبة بين الأشياء ومواقعها ومقارنتها وهو العلم الاكتسابي الذي يدرك به الإنسان الخير والشر ويستطيع به فعل الخير وفعل الشر كل في موضعه ولا يصلح لهذا العلم إلا القوة الناطقة وهي قوة التفكير التي أجلي مظاهرها معرفة أسماء الأشياء وأسماء خصائصها والتي تستطيع أن تصدر الأضداد من الأفعال لأن تلك القوة هي التي لا تنحصر متعلقاتها ولا تقف معلوماتها كما شوهد من أحوال النوع الإنساني منذ النشأة إلى الآن وإلى ما شاء الله تعالى"⁽¹⁾.

• وعند تفسير قوله تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَقَدْ لَبَّاهُمْ عَلَى بَعْضِهِمْ عَلَيَّ بَعْضٌ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ "عليه الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون" قال ابن عاشور: "فلا جرم أن ذلك يقتضي تفوق مخلوقات بعض الآلهة على مخلوقات بعض آخر بعوارض من التصرفات والمقارنات لازمة لذلك، لا جرم يستلزم ذلك كله لازمين باطلين...وثاني: اللازمين أن تصير مخلوقات بعض الآلهة أوفر أو أقوى من مخلوقات إله آخر بعوارض تقتضي ذلك من آثار الأعمال النفسانية وآثار الأقطار والحوادث كما هو المشاهد في اختلاف أحوال مخلوقات الله تعالى الواحد، فلا جرم أن ذلك يفضي إلى اعتزاز الإله الذي تفوقت مخلوقاته على الإله الذي تنحط مخلوقاته"⁽²⁾.

ب- أنه يبدأ في تفسير الآية ثم يعقبه بالتنزيل إن كان فيها ما يناسب تنزيله على الواقع:

• ومثاله ما جاء عند قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ حيث بدأ في تفسير الآية وما تشمل عليه من معان: "واتقوا الله وصية جامعة للراجعين من الحج أن يراقبوا تقوى الله في سائر أحوالهم وأماكنهم ولا يجعلوا تقواه خاصة بمدة الحج) ثم رأى مناسبة تنزيلها على واقعه وعصره بقوله: (كما كانت تفعله الجاهلية فإذا انقضى الحج رجعوا يتقاتلون ويغيرون ويفسدون وكما يفعله كثير من عصاة المسلمين عند انقضاء رمضان"⁽³⁾.

(1) المرجع السابق، (1/ 419).

(2) المرجع السابق، (18/ 115).

(3) المرجع السابق، (2/ 264).

• ومثاله أيضا ما جاء عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ٣٩﴾ حيث بدأ في تفسير الآية وما تشمل عليه من معان ثم رأى مناسبة تنزيلها على واقعه وعصره بقوله: (وكثيراً ما عرضت للمسلمين وغيرهم شبه وأغلاط في هذا المعنى، صرفتهم عن تطلّب الأشياء من مظانّها وقعدت بهم عن رفو أخلالهم في الحياة الدنيا أو غرّتهم بالتفريط فيما يجب الاستعداد له، كل ذلك للتخليط بين الأحوال الدينية الأخروية وبين السنن الكونية الدنيوية، كما عرض لابن الراوندي من حيرة الجهل في قوله :

كَمْ عَالَمٍ عَالَمٍ أَغْيَتْ مَذَاهِبُهُ وَجَاهِلِي جَاهِلِي تَلَقَّاهُ مَرْزُوقاً
هَذَا الَّذِي تَرَكَ الْأَوْهَامَ حَائِرَةً وَصَيَّرَ الْعَالَمَ النِّحْرِيرَ زَنْدِيقاً⁽¹⁾

ج- أنه اهتم كثيرا بقضايا التنزيل الاجتماعي، لجهل الناس وتفريطهم فيها، مثل الفساد والخمر والزنا واللواط وأكل أموال اليتامى.

ومثاله:

• عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ...﴾ قال ابن عاشور: المقصود بيان الحال التي يمنع فيها السفه من ماله، والحال التي يؤتى فيها ماله، وقد يقال كان مقتضى الظاهر على هذا الوجه أن يقدم هنالك حكم منع تسليم مال اليتامى لأنّه أسبق في الحصول، فيتّجه لمخالفة هذا المقتضى أن نقول قدّم حكم التسليم، لأنّ الناس أحرص على ضده، فلو ابتدأ بالنهي عن تسليم الأموال للسفهاء لآخذها الظالمون حجة لهم، وتظاهروا بأنهم إنّما يمنعون الأيتام أموالهم خشية من استمرار السفه فيهم، كما يفعله الآن كثير من الأوصياء والمقدمين غير الأتقياء، إذ يتصدّون للمعارضة في بينات ثبوت الرشد لمجرد الشغب وإملاط المحاجير من طلب حقوقهم .

• وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٢٠﴾ قال ابن عاشور: "وخصّ الله بالذكر من جنس أنواع العدل والإحسان نوعاً مهمّاً يكثر أن يغفل الناس عنه ويتهاونوا بحقه أو بفضله، وهو إيتاء ذي القربى فقد تقرّر في نفوس الناس الاعتناء باجتلاب الأبعد وإتقاء شرّه، كما تقرّر في نفوسهم الغفلة عن القريب والاطمئنان من جانبه وتعود التساهل في حقوقه . ولأجل ذلك كثر أن يأخذوا أموال الأيتام من موالهم، قال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ أَمْوَالُهُمْ﴾ [سورة النساء : 2]، وقال : ﴿وَأَيُّ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ﴾ [سورة الإسراء : 26]، وقال : ﴿وَمَا يَتَّبِعْ عَلَيْكُمْ فِي الْحَبْتِ فِي يَتْلَىٰ الْإِنْسَاءِ﴾ [سورة النساء : 127] الآية . ولأجل ذلك صرفوا معظم إحسانهم إلى الأبعدين لاجتلاب المحمّدة وحسن الذّكر بين الناس . ولم يزل هذا الخلق متفشّياً في الناس حتى في

(1) المرجع السابق، (7 / 255).

الإسلام إلى الآن ولا يكثرثون بالأقربين⁽¹⁾.

د- من معالم منهج ابن عاشور أنه استخدم ألفاظ التنزيل غير المباشر، أو ما يسمى بالتلميح والإشارة، كأن يقول بعد تفسير الآية (توجيه واستنباط) أو يقول: فأين هذا الوصف من...؟ ألم تر...؟ فتدبر في هذه المعاني! ومن تأمل ونظر وجزم، ومن تأمل بإنصاف وجد، فيجد ربنا أن ننظر وغيرها من ألفاظ الإشارة أو التنزيل غير المباشر.

ومن الأمثلة على ذلك:

• في تفسير سورة الفاتحة قال: "وصف بأنه مَلِك يوم الدين وهو وَصَف بما هو أعظم مما قبله لأنه ينبت عن عموم التصرف في المخلوقات في يوم الجزاء الذي هو أول أيام الخلود، فَمَلِك ذلك الزمان هو صاحب المُلْك الذي لا يشذ شيء عن الدخول تحت مُلكه، وهو الذي لا ينتهي ملكه ولا ينقضي، فأين هذا الوصف من أوصاف المبالغة التي يفيضها الناس على أعظم الملوك مثل مَلِك الملوك (شَاهَان شَاه) وَمَلِك الزمان وَمَلِك الدنيا (شَاه جَهَان) وما شابه ذلك⁽²⁾.

• ولما ذكر معنى ضعف الحيوية وضعف الممات في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۝ إِذَا لَأَذُنُكَ ضَعْفَ الْحَيَوةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ۖ تَرَى لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝﴾⁽³⁾ حث على تدبر هذا المعنى فقال: "أن مصائب الدنيا وأزأؤها مسببة على أسباب من الأغلاط والأخطاء فلا يؤثر في التفادي منها حسن النية إن كان صاحبها قد أخطأ وجه الصواب، فتدبر في هذه المعاني تدبر ذوي الألباب، ولهذا خولف التعبير المعتاد استعماله لعذاب الآخرة. وعبر هنا بضعف الحياة وضعف الممات"⁽³⁾.

• ومنها أيضا الإشارة إلى التنزيل على الواقع بقوله ألم تر: "هكذا كان شأن الذكر والأنثى فما ولدا من الأولاد نشأ مثل نشأتها في الأحوال كلها، ألم تتركب اهتدى أحد بني آدم إلى دفن أخيه من مشاهدة فعل الغراب الباحث في الأرض فكانت الاستنباط الفكري والتقليد به أسَّ الحضارة البشرية⁽⁴⁾.

• قال رحمه الله: (ومن تأمل بإنصاف وجد متانة معنى قوله: (أني ممدكم بألف من الملائكة (في كون (أن) تفسيرية، دون كونها مجرورة بحرف جر محذوف. مع أن معنى ذلك الحرف غير بين)⁽⁵⁾.

• وقال أيضا: "فالزنى مثنة لإضاعة الأنساب ومَظَنَّةٌ للقتال والتهارج فكان جديراً

(1) التحرير والتنوير (14 / 256).

(2) المرجع السابق، (1 / 177).

(3) المرجع السابق، (15 / 177).

(4) المرجع السابق، (2 / 303).

(5) المرجع السابق، (9 / 275).

بتغليظ التحريم قصداً وتوسلاً . ومن تأمل ونظر جزم بما يشتمل عليه الزنى من المفسد ولو كان المتأمل ممن يفعله في الجاهلية فقبحه ثابت لذاته، ولكن العقلاء متفاوتون في إدراكه وفي مقدار إدراكه، فلما أيقظهم التحريم لم يبق للناس عذر⁽¹⁾.

• عند تفسير قول الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وبعد أن ذكر معناها قال رحمه الله: "فيجدر بنا أن ننظر الآن فيما تضمنته هذه الآية من المعنى في تاريخ ظهور الشرائع وفي أسباب ذلك"⁽²⁾.

هـ- غالباً يستخدم لفظ التشبيه في تنزيل الآيات على الواقع، مثل: (كما يفعله المربي الناصح... كما يفعل المستشار... كما يفعل التلميذ، كما يفعل بعض الجبال والعصاة، كما شوهد في عصرنا... الخ) ومن الأمثلة على ذلك قوله:

• "ليعلموا أن الإغلاظ عليهم ليس إلا حرصاً على صلاحهم وأنه غني عنهم كما يفعله المربي الناصح حين يزجر أو يوبخ فيرى انكسار نفس مرياه فيجبر خاطره بكلمة لينه ليريه أنه إنما أساء إليه استصلاحاً وحباً لخيره فلم يترك من رحمته لخلقه حتى في حال عتوهم وضلالهم وفي حال حملهم إلى مصالحتهم"⁽³⁾.

• ﴿وَتَحْنُ سُجُوحُ يَحْمَدِكَ﴾ (يحتمل معنيين أحدهما أن يكون الغرض منه تفويض الأمر إلى الله تعالى واتهام علمهم فيما أشاروا به كما يفعل المستشار مع من يعلم أنه أسد منه رأياً وأرجح عقلاً فيشير ثم يفوض كما قال أهل مشورة بلقيس إذ قالت: ﴿أَقُوْنِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُوْنَ﴾ ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قَوْلَ وَأَوْلُوْا بِأَيِّ شَيْءٍ﴾ أي الرأي أن نحاربه ونصده عما يريد من قوله: ﴿وَأَقُوْنِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: 31] ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: 32، 33]، وكما يفعل التلميذ مع الأستاذ في بحثه معه ثم يصرح بأنه مبلّغ علمه، وأن القول الفصل للأستاذ، أو هو إعلان بالتنزيه للخالق عن أن يخفى عليه ما بدا لهم من مانع استخلاف آدم، وبراءة من شائبة الاعتراض، والله تعالى وإن كان يعلم براءتهم من ذلك إلا أن كلامهم جرى على طريقة التعبير عما في الضمير من غير قصد إعلام الغير، أو لأن في نفس هذا التصريح تبركاً وعبادة، أو إعلان لأهل الملأ الأعلى بذلك⁽⁴⁾.

و- الإشارة إلى التنزيل بقوله: (وقد كانت العرب تفعل كذا...) ومن الأمثلة على ذلك:

• عند قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَخْتَرَهُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال رحمه الله: "وقد كانت العرب تختتم على قوارير الخمر ليصلحها انحباس

(1) المرجع السابق، (15 / 91).

(2) المرجع السابق، (2 / 303).

(3) المرجع السابق، (1 / 324).

(4) المرجع السابق، (1 / 404).

الهواء عنها وتسلم من الأقدار في مدة تعتيقها⁽¹⁾

ز- أنه يستخدم أحيانا في تنزيل الآيات على الواقع عبارة: وفي عصرنا هذا أو كما شوهد في عصرنا.. الخ، ومن الأمثلة على ذلك :

• في قوله تعالى: ﴿ وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ قال: (وفي عصرنا أصبح الأطباء يعتاضون لبعض الصبيان بالإرضاع الصناعي، وهم مع ذلك مجمعون على أنه لا أصلح للصبى من لبن أمه⁽²⁾).

• ومن ذلك أيضا عند تفسيره لمعنى القوة في قوله تعالى: ﴿ وَاعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ قال: "والقوة كمال صلاحية الأعضاء لعملها، وتطلق القوة مجازاً على شدة تأثير شيء ذي أثر، وتطلق أيضاً على سبب شدة التأثير، فقوة الجيش شدة وقعه على العدو، وقوته أيضاً سلاحه وعتاده، وهو المراد هنا، فهو مجاز مرسل بواسطتين، فأتخاذ السيوف والرماح والأقواس والنبال من القوة في جيوش العصور الماضية، وأتخاذ الدبابات والمدافع والطائرات والصواريخ من القوة في جيوش عصرنا⁽³⁾".

• وقال أيضا في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا ﴾ وإنما كانت الريح التي أصابت عاداً بهذه القوة بسبب قوة انضغاط في الهواء غير معتاد فإن الانضغاط يصير الشيء الضعيف قوياً، كما شوهد في عصرنا أن الأجسام الدقيقة من أجزاء كيميائية تسمى الدرة تصير بالانضغاط قادرة على نفس مدينة كاملة، وتسمى الطاقة الذرية، وقد نُسف بها جزء عظيم من بلاد اليابان في الحرب العامة⁽⁴⁾.

ح- تقريب المعنى وربطه بالواقع عن طريق ذكر الاسم المعاصر للمسمى أو الموصوف في القرآن أو ذكر أوصافه وأثاره كأسماء الأماكن، ومن ذلك ما يأتي:

• عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى شِمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَكُفِّرُوا عَنْكَ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ قال رحمه الله: "كانت مساكنهم بالجعر بكسر الحاء وسكون الجيم بين الحجاز والشَّام، وهو المكان المسمى الآن مدائن صالح⁽⁵⁾".

• وعند قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوْقًا ﴾ ذكر ابن عاشور أن ذلك الذي اندك منه لم يرجع، ولعل آثار ذلك الدك ظاهرة فيه إلى الآن⁽⁶⁾.

• وقال في تفسير قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾

(1) المرجع السابق، (254/1).

(2) المرجع السابق، (431 / 2).

(3) المرجع السابق، (55 / 10).

(4) المرجع السابق، (259 / 24).

(5) المرجع السابق، (216 / 8).

(6) المرجع السابق، (93 / 9).

عين حمئة... "وفيهما منابع النفط الآن ولم يكن معروفاً يومئذ" (1).

• وقال أيضاً: "وما زالت البندقية إلى الآن مصدر دقائق صنع الزجاج على اختلاف أشكاله وألوانه" (2).

• "فاليقوبية، ويسمّون الآن (أَرْثُودُكْسُ)، ظهروا في أواسط القرن السادس المسيحي" (3) وغيرها من الشواهد والأمثلة الكثيرة التي اعتنى ابن عاشور ببيانها وتنزيلها على الواقع من خلال الاسم أو الوصف.

ط- أنه أحياناً يسمى التنزيل توسع المفسر في التفسير:

أشرت سابقاً في تعريف التنزيل أن بعض المعاصرين يسميه تطبيقاً وبعضهم يسميه تنزيلاً، لكن ظهري من خلال كلام ابن عاشور أنه أحياناً يسمى التنزيل توسع المفسر في التفسير، وظهر ذلك جلياً في تنزيله بعض الآيات على الواقع والاستطراد في التنزيل؛ ولأنك أن هذه المعرفة الواسعة والإشارة العميقة تنم عن عقلية استقصت المعرفة من أوكارها، وهكذا فإن المتتبع لمؤلفات الشيخ ابن عاشور رحمه الله يجد أنه ما فتى يتحدث في كل فن ولون؛ يستدل ويوضح ويوجه ويبين بكل ما أوتي من علم ومعرفة وذوق. وكتبه حافلة بتاريخ العلوم وفوائدها على اختلاف فنونها وتصنيفاتها، مما يدل على سعة اطلاعه وعلو كعبه في العلوم فقد تكلم في الطب وعلم الجغرافيا والتاريخ واللغة والأدب والاقتصاد وعلم الطبيعيات وغيرها، ومن الأمثلة على ذلك: سعة علمه في اللغة: قوله عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلٌ بِهِ يَبْدِرُ الْوَلَّيْ﴾ [البقرة: 173] أي ما أعلن به أو نودي عليه بغير اسم الله تعالى، وهو مأخوذ من أهل إذا رفع صوته بالكلام ومثله استهل... وقيل مشتق من الهلال؛ لأنهم كانوا إذا رأوا الهلال نادى بعضهم بعضاً، وهو عندي من تلفيقات اللغويين وأهل الاشتقاق، ولعل اسم الهلال إن كان مشتقاً وكانوا يصيحون عند رؤيته وهو الذي اشتق من هلّ وأهلّ بمعنى رفع صوته؛ لأن تصاريّف أهلّ أكثر، ولأنهم سموا الهلال شهراً من الشبهة (4). فاستدرك على أهل اللغة هذا الاشتقاق مُبدئاً حقيقة المعنى المراد، ومرجعاً إليه أصل الاشتقاق.

ي- التنبيه على أهمية شحذ الهمم في البحث عن موضوع معين:

قال ابن عاشور: "مراد الله من كتابه هو بيان تصاريّف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطاباً بيناً وتعبدياً بمعرفة مراده والاطلاع عليه فقال: ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبَرَكًا لِّتَذَكَّرَ أَتَيْنَهُ وَلَمَّا تَذَكَّرْ أَوَلَوْ الْآلَاءِ ۝﴾ (سواء قلنا إنه يمكن الاطلاع على تمام مراد الله تعالى وهو قول علمائنا والمشاخي والسكاكي وهما من

(1) التحرير والتنوير، (16 / 26).

(2) المرجع السابق، (18 / 238).

(3) المرجع السابق، (6 / 57).

(4) المرجع السابق، (2/ 119-120).

المعتزلة، أم قال قائل بقول بقية المعتزلة إن الاطلاع على تمام مراد الله تعالى غير ممكن وهو خلاف لا طائل تحته إذ القصد هو الإمكان الوقوعي لا العقلي، فلا مانع من التكليف باستقصاء البحث عنه بحسب الطاقة ومبلغ العلم مع تعذر الاطلاع على تمامه.⁽¹⁾

ك- توظيف النظريات الحديثة في التنزيل:

من معالم منهج الشيخ ابن عاشور رحمه الله في التنزيل أنه استخدام مختلف العلوم في خدمة رأيه وما يؤول إليه وما بظنه أنه يبين الأمر ويجليه؛ لذا فإنه قد يستعين بالنظريات الحديثة، من أمثلة ذلك استخدامه لنظرية غاليليو الإيطالي وذلك عند بيانه قول الله تعالى: ﴿ وَرَبِّكَ لِلْبَّالِ حَسْبُهَا جَمَادَةٌ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُغِرَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ حَكِيمٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: 88]، حيث قال: "إن الناس كانوا يحسبون أن الشمس تدور حول الأرض فينشأ من دورانها نظام الليل والنهار، ويحسبون الأرض ساكنة. واهتدى بعض علماء اليونان إلى أن الأرض هي التي تدور حول الشمس في كل يوم وليلة دورة تتكون منها ظلمة نصف الكرة الأرضي تقريباً وضياء النصف الآخر وذلك ما يعبر عنه بالليل والنهار، ولكنها كانت نظرية مرموقة بالنقد... وما تحققت هذه النظرية إلا في القرن السابع عشر بواسطة الرياضي (غاليلي) الإيطالي".⁽²⁾

وهذا يدل على مدى عناية ابن عاشور بضوابط التنزيل وقواعده، ومقدرته العلمية والمعرفية في تنزيل النصوص القرآنية على الواقع.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية

في هذا المبحث أتناول أبرز القضايا التي نزل ابن عاشور الآيات عليها ثم أبين أثر التنزيل في الإصلاح الاجتماعي

المطلب الأول: أبرز القضايا والموضوعات التي نزل ابن عاشور الآيات عليها

يعد ابن عاشور من أبرز من استخدم قضية التنزيل على واقعه لاسيما في تفسيره التحرير والتنوير؛ فقد احتوى على الكثير من التطبيقات والتنزيلات في موضوعات مختلفة أبرزها القضايا الإيمانية والاجتماعية؛ فقد كان واقعه يضح بالقضايا والأحداث الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية... فكان لابد له من الرجوع إلى كتاب الله تعالى واستنطاق الآيات المناسبة لهذه الوقائع وتنزيلها عليها.

وفي هذا المبحث أذكر بعض القضايا والموضوعات التي نزل ابن عاشور الآيات عليها، ومنها الموضوعات الآتية:

(1) التحرير والتنوير، (1 / 39).

(2) المرجع السابق، (20/ 49-50).

أولاً: الإيمانيات

اهتم ابن عاشور رحمه الله بتزليل الآيات على الواقع في مجال العقيدة والايمان والتوحيد ونبذ البدع والمعتقدات الباطلة ⁽¹⁾ ومن الأمثلة على ذلك:

• قال ابن عاشور: "وقولهم: مَنْ الله عليهم (قالوه على سبيل التهكم ومجاراة الخصم، أي حيث اعتقد المؤمنون أَنَّ الله مَنْ عليهم بمعرفة الحق وحرَم صناديد قريش، فلذلك تعجَّب أولئك من هذا الاعتقاد، أي كيف يُظنَّ أَنَّ الله يَمَنَّ على فقراء وعبيد ويترك سادة أهل الوادي . وهذا كما حكى الله عنهم) ﴿ وَكَأَلُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: 31] . وهذه شنشنة معروفة من المستكبرين والطغاة . وقد حدث بالمدينة مثل هذا. روى البخاري أَنَّ الأقرع بن حابس جاء إلى رسول الله ع فقال : إِنَّمَا بَايَعَكَ سُرَّاقُ الْحِجِجِ مِنْ أَسْلَمَ وَغِفَارٍ وَمُزَيْنَةَ وَجُهَيْنَةَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ع: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَتْ أَسْلَمُ وَغِفَارُ وَمُزَيْنَةُ وَجُهَيْنَةُ خَيْرًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ وَبَنِي عَامِرٍ وَأَسَدٍ وَغُفَارٍ أَخَابُوا وَخَسِرُوا (أي أخاب بنو تميم ومن غطف عليهم) فقال: نعم قال : فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ لَخَيْرٌ مِنْهُمْ ⁽²⁾ .

• وفي فتنة القول بخلق القرآن: ذكر ابن عاشور قول الشيخ أبو محمد بن أبي زيد في (الرسالة): (وإن القرآن كلامُ الله ليس بمخلوق فيبيد ولا صفة لمخلوق فينفد) ثم قال رحمه الله: "وقد نقشوا على أسطوانة من أساطين الجامع بمدينة سوسة هذه العبارة: (القرآنُ كلامُ الله وليس بمخلوق) وهي ماثلة إلى الآن ⁽³⁾ .

• وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ..﴾ قال ابن عاشور في حكم تبليغ العلم وجواب السائل منزلاً ذلك على عصره: (وجب على العالم إذا جلس إليه الناس للتعلم أن يلقي إليهم من العلم ما لهم

(1) مذهب ابن عاشور وعقيدته: المتأمل في مذهب ابن عاشور يجد أنه أشعري، سلفي، عقلاني المنهج؛ لأن المتابع لسيرة الشيخ ابن عاشور رحمه الله يجد أنه يصحح في أكثر من موضع بأنه أشعري المعتقد؛ فعند تفسيره الهدى في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38] قال إن هذه الآية أسعد بمذهبننا أيها الأشاعرة من عدم وجوب الهدى كله على الله تعالى، انظر: التحرير والتنوير، (443/1). بيد أن حقيقة سيره على منهج الأشاعرة يتضح جله في أثناء بيانه آيات الصفات، ومع ذلك فإن المدقق لكتابات الشيخ ابن عاشور رحمه الله يجده لا يلتزم بمذهبه العقدي وإنما قد يقرن بينه وبين المذهب الصحيح كثيراً، بله أنه يسير في جملة أبواب الاعتقاد على منهج السلف الصالح، ولعل هذا سببه أنه ابن بيئته لم يستطع التملص من مذهبه كافة وإنما في تضاعيف بيانه نجده قد حاد عنه، وعليه فإن الشيخ ابن عاشور رحمه الله أقرب إلى منهج أهل السنة والجماعة من مذهب الأشاعرة. وهم بدورهم أقرب الطوائف إلى المنهج الحق من بقية الفرق والمذاهب كما يقرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فيقول: إن الأشاعرة وإن كان في كلامهم من الأدلة الصحيحة وموافقة السنة ما لا يوجد في كلام عامة الطوائف فإنهم أقرب طوائف أهل الكلام إلى السنة والجماعة والحديث، وهم يعدون من أهل السنة والجماعة عند النظر إلى مثل المعتزلة والرافضة ونحوهم، بل هم أهل السنة والجماعة في البلاد التي يكون أهل البدع فيها المعتزلة والرافضة ونحوهم. انظر: بيان تلبس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لابن تيمية، (538/3).

(2) التحرير والتنوير، (7/ 254).

(3) المرجع السابق، (25/ 147).

مقدرة على تلقيه وإدراكه، فظهر بهذا أن الكتمان مراتب كثيرة وأن أعلاها ما تضمنته هذه الآية، وبقية المراتب تؤخذ بالمقايسة، وهذا يعني أيضاً في جواب العالم عما يلحق إليه من المسائل فإن كان قد انفرد بذلك أو كان قد عين للجواب مثل من يعين للفتوى في بعض الأقطار فعليه بيانه إذا علم احتياج السائل ويحيى في انفرداه بالعلم أو تعيينه للجواب وفي عدم انفرداه الوجهان السابقان في الوجوب العيني والوجوب الكفائي⁽¹⁾.

• وفي معنى التحريف ذكر ابن عاشور قوله: "والتحريف: الميل بالشيء إلى الحرف وهو جانب الشيء وحافته، وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ في سورة المائدة (13)، وهو هنا مستعمل في الميل عن سواء المعنى وصريحه إلى التأويل الباطل، كما يقال: تنكّب عن الصراط، وعن الطريق، إذا أخطأ الصواب وصار إلى سوء الفهم أو التضليل، فهو على هذا تحريف مراد الله في التوراة إلى تأويلات باطلة، كما يفعل أهل الأهواء في تحريف معاني القرآن بالتأويلات الفاسدة"⁽²⁾.

• ومثاله أيضاً في بيان القدر الإلهي ومعنى الأمر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ بمعنى الشأن لأنه المناسب لإنكارهم قدرته على إحياء المريم، أي لا شأن لله في وقت إرادته تكوين كائن إلا تقديره بأن يوجد، فعبّر عن ذلك التقدير الذي ينطاع له المقدور بقول: ﴿كُنْ﴾ ليعلم أن لا يباشر صنعه بيد ولا بألة ولا بعجن مادة ما يخلق منه كما يفعل الصنّاع والمهندسون، لأن المشركين نشأ لهم توهم استحالة المعاد من انعدام المواد فضلاً عن إعدادها وتصويرها، فالقصر إضافي لقلب اعتقادهم أنه يحتاج إلى جمع مادة وتكييفها ومُضي مدة لإتمامها"⁽³⁾.

• وفي الرد على من طعن في نبوة محمد ﷺ قال ابن عاشور: "وهذه الآية صالحة للرد على نصارى زماننا الذين طعنوا في نبوته بمطاعن لا منشأ لها إلا تضليل وتمويه على عامتهم لأن الطاعنين ليسوا من الغباوة بالذين يخفى عليهم بهتانهم كقولهم إنه تزوج النساء، أو أنه قاتل الذين كفروا، أو أنه أحب زينب بنت جحش"⁽⁴⁾.

• ومن شواهد التزليل في هذا المجال كلامه عن القرآن الكريم وأسلوب القصص القرآني حيث قال: "وفيما ذكرنا ما يدفع عنكم هاجسا رأيته خطراً لكثير من أهل اليقين والمتشككين وهو أن يقال: لماذا لم يقع الاستغناء بالقصة الواحدة في حصول المقصود منها. وما فائدة تكرار القصة في سور كثيرة؟ وربما تطرق هذا الهاجس ببعضهم إلى مناهج الإلحاد في القرآن. والذي يكشف لسائر المتحيرين حيرتهم على اختلاف نواياهم وتفاوت

(1) المرجع السابق، (71/2).

(2) المرجع السابق، (75/5).

(3) المرجع السابق، (79/23).

(4) المرجع السابق، (17/26).

مداركهم أن القرآن - كما قلنا هو بالخطب والمواظع أشبه منه بالتأليف. وفوائد القصص تجتليها المناسبات وتذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هي معه، فلا يعد ذكرها مع غرضها تكريرا لها لأن سبق ذكرها إنما كان في مناسبات أخرى . كما لا يقال للخطيب في قوم، ثم دعت المناسبات إلى أن وقف خطيبا في مثل مقامه الأول فخطب بمعان تضمنتها خطبته السابقة إنه أعاد الخطبة، بل إنه أعاد معانيها ولم يعد ألفاظ خطبته . وهذا مقام تظهر فيه مقدرة الخطباء فيحصل من ذكرها هذا المقصد الخطابي . ثم تحصل معه مقاصد أخرى : أحدها رسوخها في الأذهان بتكريرها⁽¹⁾

ثانياً: العبادات

تعددت القضايا التي طبق فيها ابن عاشور النص القرآني على الواقع ومنها القضايا التعبدية، ومن الشواهد على ذلك ما يأتي:

• في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ بيّن ابن عاشور رحمه الله معنى الآية وذكر اختلاف الفقهاء في حكم أكل مالم يذكر اسم الله عليه، ولفت النظر إلى واقع بعض الناس في هذه المسألة فقال: "هي مسألة مختلف فيها بين الفقهاء على أقوال : أحدها : أنّ المسلم إن نسي التسمية على الذبح تؤكل ذبيحته، وإن تعمّد ترك التسمية استخفافاً أو تجنّباً لها لم تؤكل، وهذا مثل ما يفعله بعض الزنوج من المسلمين في تونس وبعض بلاد الإسلام الذين يزعمون أنّ الجنّ تمتلكهم، فيتفادون من أضرارها بقرايين يذبحونها للجنّ ولا يسمّون اسم الله عليها، لأنّهم يزعمون أنّ الجنّ تنفر من اسم الله تعالى خيفة منه، (وهذا متفشّ بينهم في تونس ومصر) فهذه ذبيحة لا تؤكل . ومستند هؤلاء ظاهر الآية مع تخصيصها أو تقييدها بغير النسيان، إعمالاً لقاعدة رفع حكم النسيان عن الناس . وإنّ تعمّد ترك التسمية لا لقصد استخفاف أو تجنّب ولكنه ثناقل عنها، فقال مالك، في المشهور، وأبو حنيفة، وجماعة، وهو رواية عن أحمد : لا تؤكل . ولا شك أنّ الجهل كالنسيان، ولعلّهم استدلّوا بالأخذ بالأحوط في احتمال الآية اقتصاراً على ظاهر اللفظ دون معونة السياق"⁽²⁾ .

• ذكر ابن عاشور عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنَ...﴾ متابعته للمالكية في مسألة الارضاع ثم مخالفته لهم فقال: "وقد جرى في كلام المالكية في كتب الأصول: أن مالكا خصص عموم الوالدات بغير ذوات القدر، وأن المخصص هو العرف، وكنا نتابعهم على ذلك ولكني الآن لا أرى ذلك متجهاً ولا أرى مالكا عمداً إلى التخصيص أصلاً، لأن الآية غير مسوقة لإيجاب الإرضاع"⁽³⁾ .

(1) المرجع السابق، (68 / 1).

(2) المرجع السابق، (40 / 8).

(3) المرجع السابق، (440 / 2).

ثالثاً: القضايا الاجتماعية

وتعد من أبرز القضايا التي طبق فيها النص على الواقع : فقد بين حال الناس في عصره واشتكى من بعض المظاهر المنتشرة في عصره مثل: الربا والحسد والبدع والمنكرات، والإسراف، وبين أهمية الإصلاح الاجتماعي، ومن الشواهد على ذلك ما يأتي:

• قال ابن عاشور في ضرورة التخلص من الربا: "فلما صارت سيادة العالم بيد أمم غير إسلامية، وارتبط المسلمون بغيرهم في التجارة والمعاملة، وانتظمت سوق الثروة العالمية على قواعد القوانين التي لا تتحاشى المراهبة في المعاملات، ولا تعرف أساليب مواساة المسلمين، دهش المسلمون، وهم اليوم يتساءلون، وتحريم الربا في الآية صريح، وليس لما حرمه الله مبيح . ولا مخلص من هذا المضيق إلا أن تجعل الدول الإسلامية قوانين مالية تُبنى على أصول الشريعة في المصارف، والبيوع، وعقود المعاملات المركبة من رؤوس الأموال وعمل العمال . وحوالات الديون ومقاصتها وبيعها . وهذا يقضي بإعمال أنظار علماء الشريعة والتدريس بينهم في مجمع يحوي طائفة من كل فرقة كما أمر الله تعالى".⁽¹⁾

• وذكر في مسألة دفن الميت بعض البدع التي يفعلها الناس فقال: "فيؤخذ من الآية وجوب الدفن في الأرض إلا إذا تعذر ذلك كالذي يموت في سفينة بعيدة عن مراسي الأرض أو لا تستطيع الإرساء، أو كان الإرساء يضر بالراكبين أو يخاف تعفن الجثة فإنها يُرمى بها في البحر وتثقل بشيء لترسب إلى غريق الماء . وعليه فلا يجوز إحراق الميت كما يفعل مجوس الهند، وكان يفعله بعض الرومان، ولا وضعه لكواسر الطير كما كان يفعل مجوس الفرس، وكان أهل الجاهلية يتمدحون بالميت الذي تأكله السباع أو الضباع وهو الذي يموت قتيلاً في فلاة، قال تآبط :

لا تدفنوني إن دُفني مُحَرَّم عليكم ولكن خامري أم عامر

وهذا من جهالة الجاهلية وكفران النعمة".⁽²⁾

• وعند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ﴾ قال ابن عاشور: "وقد أصبح هذا التمي في زماننا هذا فتنة لطوائف من المسلمين سرت لهم من أخلاق الغلاة في طلب المساواة مما جرّأهم كثيراً إلى نحلة الشيوعية فصاروا يتخبطون لطلب التساوي في كل شيء ويعانون إرهاباً لم يحصلوا منه على طائل، فالنهي عن التمي وتطلع النفوس إلى ما ليس لها جاء في هذه الآية عاماً، فكان كالتيديل للأحكام السابقة لسدّ ذرائعها وذرائع غيرها، فكان من جوامع الكلم في درء الشرور . وقد كان التمي من أعظم وسائل الجرائم، فإنه يفضي إلى الحسد، وقد كان أول جرم حصل في الأرض نشأ عن الحسد . ولقد كثّر ما انتهبت أموال، وقتلت نفوس للرغبة

(1) التحرير والتنوير، (4 / 87).

(2) المرجع السابق، (29 / 433).

في بسطة رزق، أو فتنة نساء، أو نوال مُلك، والتاريخ طافح بحوادث من هذا القبيل⁽¹⁾.

• وعند بيانه اصطناع أخوة يوسف البكاء عليه عند عودتهم إلى أبيهم في قول الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: 16]، استخدم التنزيل في بيان الآية حيث قال: "بعض المتظلمين بالباطل يفعلون ذلك، وفطنة الحاكم لا تنخدع لمثل هذه الحيل ولا تنوط بها حكماً، وإنما يناط الحكم بالبينّة. جاءت امرأة إلى شريح⁽²⁾ تخاصم في شيء وكانت مبطلّة فجعلت تبكي، وأظهر شريح عدم الاطمئنان لدعواها، فقيل له: أما تراها تبكي؟! فقال: قد جاء إخوة يوسف أباهم عشاء يبكون وهم ظلمة كذبة، لا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بالحق... ومن الأمثال "دموع الفاجر بيديه" وهذه عبرة في هذه العبرة"⁽³⁾.

• وفي مجال القضاء ما ذكره عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ سُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَمْدُوا وَلَئِنْ تَاوَلُوا أَوْ تَمَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135]، استشهد بمحيطه العملي فقال: "وقد عرفت قاضيًا لا مطعن في ثقته وتزهره، ولكنه كان مبتلى باعتقاد أن مظنة القدرة والسلطان ليسوا إلا ظلمة: من أغنياء أو رجال، فكان يعتبر هذين الصنفين محقوقين فلا يستوفي التأمل من حججهما"⁽⁴⁾، مؤكداً ضرورة النظر في معطيات قضيته ولا يصرفه حال صاحبه عن استيفائها؛ فإن الذي يراعي حال الغني والفقير ويقدر إصلاح حال الفريقين هو الله تعالى.

رابعاً: في بيان حال الأمم الأخرى، وتنزيل الآيات عليهم

تعرض ابن عاشور رحمه الله في تفسيره لبيان حال الأمم الأخرى كالنصارى وبني إسرائيل والغرب المعاصر... ومن الأمثلة على ذلك ما يأتي:

• عند قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الْعِلْمَ أَكَانُوا عَلِيمًا﴾ قال رحمه الله "فهذه حالة النصارى في وقت نزول الآية ثم إن النصارى من العصور الوسطى إلى الآن توسعوا فتركوا استقبال جهة معينة فلذلك تكون كنائسهم مختلفة الاتجاه وكذلك المذاهب المتعددة في الكنيسة الواحدة"⁽⁵⁾.

(1) المرجع السابق، (28/5).

(2) هو: شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي: يكنى: بأبي أمية، أدرك الجاهلية، وكان من كبار التابعين، ثقة شاعراً قائماً قاضياً، بل أعلم الناس بالقضاء، ذا فطنة وذكاء ومعرفة وعقل ورصانة، استقضاءه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الكوفة، فأقام قاضياً خمساً وسبعين سنة لم يتعطل فيها إلا ثلاث سنين امتنع فيها من القضاء في فتنة ابن الزبير رضي الله عنه، اختلف في وفاته، فقيل: 87هـ، وقيل: 80هـ، وقيل: 78هـ، وقيل غير ذلك. ينظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد، (193-182/6)، وفيات الأعيان، لابن خلكان، (463-460/2).

(3) التحرير والتنوير، (236/12).

(4) المرجع السابق، (227/5).

(5) المرجع السابق، (10/2).

• وذكر أيضا في تفسير معنى الميثاق في قول الله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاتَّقُوا مَا فِيهِ لَعْنَةُ تَنَفُّوتٍ ٣٦ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٣٧﴾ . فقال: "والميثاق في هاته الآية كالعهد في الآيات المتقدمة مراد به الشريعة ووعدهم بالعمل بها، وقد سمته كتبهم عهداً كما قدمنا وهو إلى الآن كذلك في كتبهم⁽¹⁾ .

• وذكر أيضا حال النصارى كما بينته الآية الكريمة وكما هو واقعهم المنطوي على البغض والعداء والانقسام في قوله تعالى : ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْتُكُمْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فقال موضعا واقعهم: "ثم إن دولهم كانت منقسمة ومتحاربة، ولم تزل كذلك، وإنما تألبوا في الحروب الصليبية على المسلمين ثم لم يلبثوا أن تخاذلوا وتحاربوا، ولا يزال الأمر بينهم كذلك إلى الآن . وكم ضاعت مساعي الساعين في جمعهم على كلمة واحدة وتأليف اتحاد بينهم، وكان اختلافهم لطفاً بالمسلمين في مختلف عصور التاريخ الإسلامي، على أن اتفاقهم على أمة أخرى لا ينافي تمكن العدواة فيما بينهم، وكفى بذلك عقاباً لهم على نسيانهم ما ذكروا به"⁽²⁾ .

• أشار إلى التحريف الواقع في التوراة الموجودة الآن فقال: "وابن نوح هذا هو ابن رابع في أبنائه من زوج ثانية لنوح كان اسمها (واعة) غرقت، وأنها المذكورة في آخر سورة التحريم. قيل كان اسم ابنه (ياماً) وقيل اسمه (كنعان) وهو غير كنعان بن حام جد الكنعانيين . وقد أهملت التوراة الموجودة الآن ذكر هذا الابن وقضية غرقه وهل كان ذا زوجة أو كان عزباً"⁽³⁾ .

• وقال أيضا عند تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٣٨ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ٣٩ تُطَاعُ ثَمَرًا أَمِينٍ ٤٠ وَمَا سَجِبَ كَرِيمٌ يَجْتَنُونَ ٤١ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ٤٢ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ٤٣ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ٤٤ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ٤٥ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٤٦﴾ "وفي هذه الآية إشارة بينة على أن من الخطأ أن يوزن حال الدين الإسلامي بميزان أحوال بعض المسلمين أو معظمهم كما يفعله بعض أهل الأنظار القاصرة من الغربيين وغيرهم إذ يجعلون وجهة نظرهم التأمل في حالة الأمم الإسلامية ويستخلصون من استقرارها أحكاماً كلية يجعلونها قضايا لفلسفتهم في كنه الديانة الإسلامية"⁽⁴⁾ .

خامساً: في بيان بعض القضايا العلمية

• ففي مجال الإعجاز العلمي: استخدم ابن عاشور كثيراً قضايا الإعجاز العلمي في

(1) التحرير والتنوير، (1 / 541).

(2) المرجع السابق، (6 / 149).

(3) المرجع السابق، (12 / 75).

(4) المرجع السابق، (30 / 167).

التنزيل القرآني ومن الأمثلة على ذلك: قال: "ومن إعجاز القرآن العلمي ذكر العلاقة لأن الثابت في العلم الآن أن الإنسان يتخلق من بويضة دقيقة جداً لا ترى إلا بالمرآة المكبرة أضعافاً"⁽¹⁾.

• في مجال الطبيعيات: جمع قوله تعالى: ﴿فَلَحَيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [البقرة: 164] أصول علم التاريخ الطبيعي وهو المواليذ الثلاثة المعدن والنبات والحيوان، زيادة على ما في بقية الآية سابقاً ولاحقاً من الإشارات العلمية الراجعة لعلم الهيئة وعلم الطبيعة وعلم الجغرافيا الطبيعية وعلم حوادث الجو"⁽²⁾.

• في مجال علم العمران: ما بينه في قوله تعالى: ﴿فَعَتَّ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَّةَ أَخِيهِ قَالَ يُوزِلْنِي أَسْحَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوَّةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: 31] فقال: "وهذا المشهد العظيم هو مشهد أول حضارة في البشر، وهي من قبيل طلب ستر المشاهد المكروهة. وهو أيضاً مشهد أول علم اكتسبه البشر بالتقليد وبالتجربة، وهو أيضاً مشهد أول مظاهر تلقي البشر معارفه من عوالم أضعف منه كما تشبه الناس بالحيوان في الزينة، فلبسوا الجلود الحسنة الملونة وتكلموا بالريش الملون وبالزهور والحجارة الكريمة، فكم في هذه الآية من عبرة للتاريخ والدين والخلق"⁽³⁾.

• في علم الطب: ما ذكره عند بيان قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقُ السِّنِّكِ وَالْوَنَكْرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: 22]، حيث يرى: "أن اختلاف ألوان البشرية؛ لأن البشر منحدر من أصل واحد وهو آدم، وله لون واحد لا محالة، ولعله البياض المشوب بحمرة، فلما تعدد نسله جاءت الألوان المختلفة في بشراتهم... وأن التشريح أثبت أن ألوان لحوم البشر التي تحت الطبقة الجلدية متحدة اللون"⁽⁴⁾.

• في علم الجغرافيا: ما ذكره من معادن الأرض حين بيانه قول الله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ [الإسراء: 50]، حيث قال: "الحديد: تراب معدني، أي لا يوجد إلا في مغاور الأرض، وهو تراب غليظ مختلف الغلظ، ثقيل أذكرن اللون، وهو إما محتت الأجزاء وإما مورقها، أي مثل الورق. وأصنافه ثمانية عشر باعتبار اختلاف تركيب أجزائه، وتتفاوت ألوان هذه الأصناف، وأشرف أصنافه الخالص، وهو السالم في جميع أجزائه من المواد الغربية. وهذا نادر الوجود وأشهر ألوانه الأحمر، ويقسم باعتبار صلابته إلى صنفين أصليين يسميان الذكر والأنثى، فالصلب هو الذكر واللين الأنثى. وكان العرب يصفون السيف الصلب القاطع بالذكر. وإذا صهر الحديد بالنار تمازجت أجزاؤه وتميع وصار كالحلواء، فمنه ما يكون حديد صلب،

(1) المرجع السابق، (30 / 438).

(2) المرجع السابق، (2 / 84).

(3) المرجع السابق، (6 / 174).

(4) المرجع السابق، (21 / 74-75).

ومنه ما يكون حديد تطريق، ومنه فولاذ. وكل صنف من أصنافه صالح لما يناسب سبكه منه على اختلاف الحاجة فيها إلى شدة الصلابة مثل السيوف والدروع⁽¹⁾.

• في علم التاريخ: ما ذكره من تاريخ بني إسرائيل حيث قال: "جاء في التاريخ أن مبدأ استقرار بني إسرائيل بمصر كان سببه دخول يوسف ÷ في تربية العزيز طيفار كبير شرط فرعون، وكانت مصر منقسمة إلى قسمين مصر العليا الجنوبية المعروفة اليوم بالصعيد لحكم فراعنة من القبط وقاعدتها طيبة، ومصر السفلى وهي الشمالية وقاعدتها منفيس وهي القاعدة الكبرى التي هي مقر الفراعنة، وهذه قد تغلب عليها العمالة من الساميين أبناء عم ثمود وهم الذين يلقبون في التاريخ المصري بالرهاة الرحالين والهكصوص في سنة 3300 أو سنة 1900 قبل المسيح على خلاف ناشئ عن الاختلاف في مدة بقائهم بمصر الذي انتهى سنة 1700 ق م عند ظهور العائلة الثامنة عشرة، فكان يوسف عند رئيس شرط فرعون العمليقي، واسم فرعون يومئذ أبو فيس أو أبيي، وأهل القصص ومن تلقف كلامهم من المفسرين سموه ريان بن الوليد، وهذا من أوهامهم، وكان ذلك في حدود سنة 1739 قبل ميلاد المسيح، ثم كانت سكنى بني إسرائيل مصر بسبب تنقل يعقوب وأبنائه إلى مصر حين ظهر أمر يوسف وصار بيده حكم المملكة المصرية السفلى⁽²⁾.

فهذه الأمثلة والشواهد تدل على مدى عناية الامام ابن عاشور رحمه الله بربط معاني الآيات وتنزيلها على الواقع المعاصر، كما تدل على سعة علمه وتنوع الموضوعات التي تناولها، والعلوم والفنون التي أبدع فيها.

المطلب الثاني: أثر تنزيل النص القرآني في الإصلاح الاجتماعي

عُرف الشيخ ابن عاشور رحمه الله بحرصه وعظيم عنايته بإصلاح من حوله، فلا يكاد يغادر سبيلًا إلى الإرشاد إلا واغتنمه، فيستنتج الآراء الحكيمة من الدلالات البعيدة ويقدمها تقديم المربي الواعي الحريص على ذويه ومجتمعه، ومن ذلك إشارته إلى مسلك تربوي عظيم حين بيانه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22]، "وقوله: (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) جملة حالية... قد جعلت هاته الحال محط النهي والنفي تلمييحًا في الكلام للجمع بين التوبيخ وإثارة الهمة؛ فإنه أثبت لهم علمًا ورجاحة الرأي ليثير همهم ويلفت بصائرهم إلى دلائل الوجدانية، ونهاهم عن اتخاذ الآلهة أو نفى ذلك مع تلبسهم به وجعله لا يجتمع مع العلم توبييحًا لهم على ما أهملوا من مواهب عقولهم وأضاعوا من سلامة مداركهم. وهذا منزع تهذيبي عظيم، أن يعتمد المربي فيجمع لمن يربيه بين ما يدل على بقية كمال فيه حتى لا يقتل همته باليأس من كماله؛ فإنه إذا ساءت ظنونه في نفسه خارت عزيمته وذهبت مواهبه، ويأتي بما يدل على نقائص فيه ليطلب الكمال فلا يستريح من الكد في طلب العلا

(1) التحرير والتنوير، (126/15).

(2) المرجع السابق، (491-490/1).

ولذا اهتم ابن عاشور رحمه الله بإصلاح الواقع الاجتماعي في عصره من خلال كتاباته، ففي كتابه أصول النظام الاجتماعي في الإسلام يبين كيفية إصلاح العمل ودوره في إصلاح الفرد والمجتمع، فابتدأ ذلك بقوله: "أعمال العاملين تجري على حسب معتقداتهم وأفكارهم، فجدير بمن صلحت عقائده وأفكاره أن تصدر عنه الأعمال الصالحة"⁽²⁾، ثم استأنف في شرح هذه المقدمة في أكثر من بضع عشرة صفحة⁽³⁾.

وفي كتابه التحرير والتنوير ذكر ابن عاشور في المقدمة الرابعة أن من أعظم مقاصد المفسر عند تفسيره أي القرآن أن تكون غايته إصلاح أحواله الفردية والجماعية والعمرانية فقال: (إن القرآن أنزله الله تعالى كتاباً لإصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم قال الله تعالى) وأنزلنا عليك الكتاب تبينا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين (فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية. فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيته، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد؛ لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السيرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالخلق بترك الحسد والحقد والكبر. وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولاً من الصلاح الفردي إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات ومواثبة القوى النفسانية. وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية، وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع)⁽⁴⁾.

وذكر فيه أيضاً أهمية النظر إلى المصالح والإعراض عن العوائق، فلا يعرض الإنسان عن المصلحة المحققة لأجل المفسدة المحتملة، ومن أمثلة ما يؤكد على هذا المنهج استنباطاته من قوله تعالى: ﴿وَمَسَاوِيكُ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ مِّنْ مُّخَالَظِهِمْ وَإِنَّا لَكَنَّا مُّذَمِّمُونَ﴾ [البقرة: 220]، حيث قال: "وفي هذه إشارة إلى أنه ليس من المصلحة أن يعرض الناس عن النظر في أموال اليتامى اتقاءاً لللسنة السوء، وتهمة الظن بالإثم، فلو تماهى الناس على ذلك وقاية لأعراضهم لضاعت اليتامى، وليس هذا من شأن المسلمين؛ فإن على الصلاح والفساد دلائل ووراء

(1) التحرير والتنوير، (335/1).

(2) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، لابن عاشور (29، 58).

(3) انظر: المرجع السابق، (ص: 58-74).

(4) التحرير والتنوير، (38/1).

المتصرفين عدالة القضاة وولاة الأمور يجازون المصلح بالثناء والحمد العلن ويجازون المفسد بالبعد بينه وبين اليتامى وبالتغريم بما أفاته بدون نظر⁽¹⁾.

والخلاصة أن ابن عاشور قد وظف في تفسيره الدعوة إلى إصلاح حال الأمة، لإنقاذها مما هي عليه من القضايا المتنوعة في عصره التي تخالف الشرع، والبحث عن علاجها من خلال تنزيل الآيات على الواقع.

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:
ففي نهاية هذا البحث الذي تناولت فيه موضوع تنزيل النص القرآني على الواقع وأثره في الإصلاح الاجتماعي من خلال تفسير التحرير والتنوير للإمام ابن عاشور رحمه الله، والوقوف على طرف من علمه وفقهه في تفسير آيات القرآن الكريم وتنزيلها على الواقع، أخلص فيه إلى أهم النتائج والتوصيات كالآتي:

أولاً: نتائج البحث

1- تبين من خلال البحث في مفهوم تنزيل النص على الواقع قلة من كتب في تأصيل هذه القضية، وتقصير العلماء والباحثين في بيان علم التنزيل تأصيلاً وتطبيقاً، ولعل هذا الملتقى يسد هذه الثغرة العلمية ويجلي فروعها النظرية والتطبيقية.

2- عناية الإمام ابن عاشور رحمه الله بضوابط التنزيل ومن أبرزها: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإن تفسير القرآن مرتبط بفقه المقاصد، وإن مشاهدة الواقع يعين على تفسير الآيات القرآنية.

3- من أبرز معالم منهج ابن عاشور رحمه الله في تنزيل النص على الواقع: لفت النظر إلى أحوال المخلوقات وواقعها عند تفسير الآيات، والتنوع في استخدام ألفاظ التنزيل المباشرة وغير المباشرة وتوظيف النظريات الحديثة في التنزيل.

4- تنوعت الموضوعات التي عني فيها الإمام الطاهر بن عاشور بتنزيل النص على الواقع، فشملت الجوانب الإيمانية والتعبدية والاجتماعية والأحوال العامة وفي مجال العلوم والفنون الطبيعية والإنسانية.

5- إن ابن عاشور كان حريصاً على إصلاح واقعه ومجتمعه؛ فلم يكتف بتنزيل الآيات على الواقع من خلال تفسيره التحرير والتنوير وإنما ناقشه وعالجه من خلال كتبه الأخرى مثل: "أصول النظام الاجتماعي" و"أليس الصبح بقريب".

ثانياً: التوصيات:

(1) المرجع السابق، (358/2).

- 1- أوصي أهل العلم بالعناية بكتاب الله تعالى فهما وتدبرا، علما وعملا.
 - 2- أوصي الباحثين في مجال الدراسات القرآنية أن يعنوا بالبحث عن مسألة تنزيل النص القرآني على الواقع تأصيلا وتطبيقا.
 - 3- أوصي الباحثين في الدراسات العليا والمراكز البحثية بإعداد مشروعات بحثية تعنى بجمع أقوال المفسرين في تنزيل النص القرآني على الواقع.
 - 4- أوصي القائمين على برامج الإعلام بمختلف أنواعه أن يوظفوا مسألة تنزيل النص القرآني على الواقع في إصلاح الفرد والمجتمع والأمة.
- هذا والله أسأل أن ينفعنا ويرفعنا بالقرآن العظيم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

فهرس المصادر والمراجع

- 1- القرآن الكريم.
- 2- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، محمد الطاهر ابن عاشور، ط2، (تونس: دار سحنون، 1427هـ-2006م).
- 3- الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: 1396هـ)، الناشر: دار العلم للمالين، الطبعة: الخامسة عشر.
- 4- تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، ط2، (بيروت: دار الغرب الإسلامية، 1414هـ - 1994م).
- 5- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ، تحقيق: إبراهيم الأبياري، عدد الأجزاء: 1
- 6- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر/ بحث منشور في سلسلة الدراسات القرآنية (4) الصادرة عن جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، 1428هـ/ 2007م.
- 7- خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، عبد المجيد النجار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة، سلسلة المنهجية الإسلامية (5).
- 8- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي أبو الفضل، دار إحياء التراث العربي - بيروت، عدد الأجزاء: 30
- 9- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1410هـ-1990م).
- 10- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: 15.
- 11- مجالس التذكير، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (المتوفى: 1359هـ)، المحقق: عمار طالي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الطبعة: الأولى (عام 1388 هـ - 1968 ميلادية)، عدد الأجزاء: 4 أجزاء.
- 12- معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، 1429هـ - 2008 م، عدد الأجزاء: 4.

- 13- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المحقق : عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، الطبعة : 1399هـ - 1979م، عدد الأجزاء : 6
- 14- من أعلام الزيتونة الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، بلفاسم الغالي، ط1، (تونس: دار سحنون، 1436هـ-2015م).
- 15- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني (المتوفى : 1367هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة
- 16- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (المتوفى: بعد 1158هـ)، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة الأولى - 1996م، عدد الأجزاء: 2.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، ط1، (بيروت: دار صادر، 1351هـ-1971م).

ورغم القيمة العلمية لتنزيلات الشيخ أحمد سحنون على الواقع من خلال كتابه "توجيهات ودراسات إسلامية"، إلا أن الكثيرين يجهلونه ويجهلون جهوده ومعالم منهجه في تنزيل الآيات على الواقع، لذا أردنا من خلال هذا البحث طرح الإشكال الرئيس الآتي: ما هي أهم معالم منهج الشيخ أحمد سحنون في تنزيل الآيات على الواقع من خلال كتابه "توجيهات ودراسات إسلامية"؟ وتكمن أهمية هذا البحث في:

- التعريف بعلم من أعلام الجزائر قضى عمره في الإصلاح والدعوة والإرشاد.
 - تنزيل الآيات على الواقع أسهمت بشكل كبير في فهم معاني كلام الله.
 - التعرف على أهم معالم منهج الشيخ أحمد سحنون في تنزيل الآيات على الواقع.
 - بيان معالم ضوابط تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ أحمد سحنون.
- هذا وقد تجنبت الخوض في بعض المسائل التي لها علاقة بالموضوع؛ كالدراسة النظرية لمصطلحات عنوان البحث، مراعاة لحجم البحث وأجال إيداعه، ولتناول الزملاء لها في المحور الأول من الملتقى.

أما عن الدراسات السابقة لهذا الموضوع فلم أجد -حسب اطلاعي- دراسة غُيّت ببيان تنزيلات الشيخ أحمد سحنون على الواقع، وقد قُمت بتقسيم هذا البحث بعد المقدمة إلى ثلاثة مباحث وخاتمة، كالآتي:

- المبحث الأول: ترجمة موجزة للشيخ أحمد سحنون وبيان صيغه في التنزيل
 - المبحث الثاني: أساليب ومعالم منهج الشيخ أحمد سحنون في التنزيل على الواقع
 - المبحث الثالث: مجالات وضوابط الشيخ أحمد سحنون في التنزيل على الواقع
- الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

وسلكت في هذا البحث عدّة مناهج اقتضتها الدراسة، ومن ذلك المنهج الوصفي في المبحث الأول من خلال التعريف الموجز بالشيخ أحمد سحنون وبيان عباراته في التنزيل، وكذا المنهج الاستقرائي والتحليلي في المبحثين الثاني والثالث، وذلك من خلال استقراء تنزيلات الشيخ أحمد سحنون وتحليلها ودراستها.

وفي الختام أحمد الله سبحانه الذي وفقني لإكماله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول: ترجمة موجزة للشيخ أحمد سحنون وبيان صيغه في التنزيل
يتضمن هذا المبحث التعريف الموجز بالشيخ أحمد سحنون، ثم بيان أهم العبارات والصيغ التي استخدمها في تنزيل الآيات القرآنية على الواقع، وذلك من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: ترجمة موجزة للشيخ أحمد سحنون

ولد الشيخ أحمد سحنون في ليشانة قرب مدينة بسكرة سنة 1325هـ/1907م¹، حفظ القرآن الكريم وعمره 12 سنة على يد والده وشيوخ قريته، من أبرزهم الشيخ محمد خير

¹ يُنظر: بن سلامة الربيعي، موسوعة الشعر الجزائري، (501/1).

الدين²، وشيوخ زاوية طولقة، وكان عصامياً في باقي تكوينه وثقافته.

لم يدرس الشيخ أحمد سحنون عند الإمام عبد الحميد بن باديس، إلا أنه كان على تواصل معه، فكان يمدّه بالنصائح والتوجيهات، إلى أن أصبح ركناً من أركان الحركة الإصلاحية بالجزائر في سنوات الأربعينات.

في سنة 1936م اصطحبه شيخه فرحات بن الدراجي³ إلى العاصمة، وأسندت إليه مهمة التدريس في مدرسة الشبيبة الإسلامية، وكان إلى جانب ذلك له مساهمات في عدد من الجرائد والمجلات؛ كجريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين، التي كان يكتب فيها الشعر والمقالات الإصلاحية⁴.

عُيّن الشيخ في سنة 1947م عضواً في المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، واشتغل أستاذاً بمدرسة التهذيب الحرة في حي بولوغين فمديراً عليها، وتولّى إمامة المسجد مع إدارة المدرسة⁵.

شارك الشيخ في حرب التحرير ضد الاستعمار الفرنسي، فأُلقي عليه القبض سنة 1956م، فتنقل بين السجون، وعانى ما عانى من القمع خلال السنوات الثلاث التي قضاها في السجن، ليخرج منه سنة 1959م، ويواصل معركة التحرير ضد المستعمر⁶.

بعد الاستقلال عاد الشيخ رفقة المخلصين من رجال هذا الوطن ليواصل عمله الإصلاحي في الكتابة، والدعوة والإرشاد، فأُسندت له مهمة الإمامة والخطابة بالجامع الكبير، وتخرج على يديه مجموعة من الدعاة والعلماء، وتم تعيينه عضواً في المجلس الإسلامي إلى غاية سنة 1968م، حيث استقال وتحول إلى مسجد دار الأرقم بشوفالي الجزائر⁷.

كان للشيخ رحمه الله نشاط سياسي كبير خلال فترة الثمانينات والتسعينات، منها رئاسته لرابطة الدعوة سنة 1989م التي كانت مظلة التيارات الإسلامية كلها، ونظراً لمواقف الشيخ من النظام السياسي آنذاك فقد واجهته امتحانات عسيرة، منها محاولة اغتياله⁸.

² الشيخ محمد خير الدين البسكري هو أحد رجالات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وتقلّد عدّة وظائف ومسؤوليات بها، منها توليه مسؤولية جريدة البصائر منذ صدورها، كما عُيّن في اللجنة التنفيذية بالمؤتمر الإسلامي الجزائري سنة 1936م، توفي رحمه الله يوم الجمعة 1993/12/10 (يُنظر: أحمد سحنون، تأيّن شيخي العظيم الإمام محمد خير الدين، مجلة الموافقات، الجزائر، العدد: 3، 1994م، (ص381)).

³ الشيخ فرحات بن الدراجي الليشاني البسكري، فقيه مالكي، درس بالزيتونة وتخرج منها بشهادة التطوع سنة 1931م، ثم انضم إلى جمعية العلماء المسلمين بعد تأسيسها مباشرة، سُجن في بداية الحرب العالمية الثانية بسبب كتاباته ودروسه المناهضة للاستعمار، بعد خروجه عاد إلى لجنة تحرير البصائر، توفي في 13 ماي 1951م (يُنظر: رابح خدوسي، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، (17-16/2)).

⁴ يُنظر: رابح خدوسي، المرجع السابق، (128/2)، ومحمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، (ص677).

⁵ يُنظر: رابح خدوسي، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، (128/2).

⁶ يُنظر: محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، (ص677).

⁷ يُنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (553/10)، ورابح خدوسي، المرجع السابق، (129-128/2).

⁸ يُنظر: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، (240/1)، وأبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (553/10).

مؤلفاته: للشيخ موهبة كبيرة في كتابة الشعر، ومن أعماله الشعرية التي كتبها وهو في السجن ديوانه المسّى "حصاد السجن" الذي صدر سنة 1977م، وله ديوان شعر آخر سمّاه: "تساؤل وأمل"، كما كانت له جهود كبيرة في الكتابة في المجالات والجرائد المختلفة: كالبصائر والشهاب، ومن ذلك كتابه "دراسات وتوجهات إسلامية" الذي جمع فيه مقالاته التي كان ينشرها في جريدة البصائر.

وقد أثنى على الشيخ أحمد سحنون كل من عاصره، ومن ذلك الشيخ عبد القادر صبيد الذي كتب فيه كتاباً سمّاه: "الشيخ سحنون الأديب المصلح"، وقال عنه الأستاذ الهادي الحسني: "كان رجلاً ليس كأحد من الرجال، وعالمًا ليس كأحد من العلماء، فقد أخلصت السنون جوهره، وأظهرت البلايا معدنه وأحمت الفتن رأيه، وأعلت النسيجة منزلته، وأعلت المروءة قيمته، ورفع الزهد مكانه"⁹، وأثنى عليه الشيخ الطاهر آيت علجت فقال: "الشيخ أحمد سحنون كاد يكون أمة وحده لأنه انفرد بأشياء وانفرد بصفات فكثير من الصفات تفرقت عند غيره من الدعاة واجتمعت عنده بما فيها الزهد الفناعة مكارم الأخلاق والحكمة في الدعوة إلى الله والتأثر فقد كان شديد التأثر لما يُصيب الأمة فإذا سمع بحدث من الأحداث السيئة أصاب الجزائر خاصة أو بلاد الإسلام عامة يُصاب بالمرض الذي يُلزمه الفراش أياماً رحمة الله عليه"¹⁰. توفي رحمه الله في الجزائر العاصمة سنة 1424هـ/2003م ودفن بها¹¹.

المطلب الثاني: صيغ التنزيل على الواقع عند الشيخ أحمد سحنون

استخدم الشيخ أحمد سحنون عدّة صيغ وعبارات تُشير إلى تنزيل الآيات القرآنية على واقع أهل زمانه، ومن الأمثلة على ذلك:

الفرع الأول: عبارة "كما تشير إليه الآية"

وهذه العبارة من العبارات الصريحة على ربط الآيات بواقعه، ومثالها قوله: "... وإذا كانت الكلمة اللينة والصدر الرحب من خير أدوات الدعوات بحيث تجعل العدو صديقا كما تشير إليه الآية، فبعكس ذلك تكون الكلمة الجافية والصدر الضيق من شرّ أسباب النفور بحيث يجعلان الصديق عدواً، وهذا ما آل إليه حال المسلمين بعد أن انحرفوا عن منهج القرآن وأدب الإسلام..."¹².

الفرع الثاني: عبارة "وهكذا عكس المسلمون الآية"

هذه العبارة كذلك من العبارات الصريحة الدالة على التنزيل، ومثالها قوله: "...وهكذا فالتعاون على الإثم والعدوان الذي نهى الله عنه قد حلّ محلّ التعاون على البرّ والتقوى الذي

⁹ نقلا عن: رايح خدوسي، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، (129/2).

¹⁰ العلامة الطاهر آيت علجت يتحدث عن أخيه العلامة أحمد سحنون، عمار رقية الشرفي، موقع المكتبة الشاملة الجزائرية، تاريخ الاطلاع: 2022-10-10، الساعة: 22:29، على الرابط: <https://shamela-dz.net/?p=158>

¹¹ يُنظر: رايح خدوسي، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، (129/2).

¹² أحمد سحنون، دراسات وتوجهات إسلامية، (ص45)

أمر الله به، وهكذا عكس المسلمون الآية؟¹³.

الفرع الثالث: عبارة "يعني رجل هذا العصر"

ومن الأمثلة على استعمال هذه العبارة، قوله: "فكأن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ يعني رجل هذا العصر ولكن لا خير في عصر لا يسير على مقتضى هذه الكلمة..."¹⁴.

الفرع الرابع: عبارة "إنها لصورة طبق الأصل -أي معنى الآية-

وهذه من العبارات الصريحة الدالة على التطابق الكلي بين الآية والواقع، ومثالها قوله: "﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ [المنافقون: 4] ما شاء الله! إنها لصورة طبق الأصل -أي معنى الآية- لطبقة كبيرة في المجتمع، يخدعك مظهرها اللامع المتبيح عما يُخفي وراءه من تفاهة وحقارة وزيف..."¹⁵.

الفرع الخامس: عبارة "فإن فيه-أي الآية- قطع الطريق عن أعذار المعتذرين"

وردت هذه العبارة في قوله: "وليتأمل القارئ جيدا قوله: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ الآية، فإن فيه قطع الطريق عن أعذار المعتذرين لهضم حقوق المرأة وإساءة عشرتها، بدافع نفور الطبع، فربما جعل الله فيما نكره ما نحب ونحن لا نعلم، فلا نفتر بتمويه الطبع"¹⁶.

الفرع السادس: عبارة "فنقول لهم على ضوء هذه الآية"

ومثالها قوله: "كما أن هذه الآية الكريمة تقطع حجة الذين يرون أن الإسلام أصبح بحاجة أكيدة إلى أن تلحق به أشياء كثيرة وتُضاف إليه مسائل جديدة اقتضتها حالة العصر وأوضاعه الحديثة، فنقول لهم- على ضوء هذه الآية-: إن الإسلام غني عن كل زيادة، بريء من كل نقص..."¹⁷.

الفرع السابع: عبارة "نتناول الآية من موضع العبرة فيها لا غير"

وهي من العبارات الصريحة على تنزيل الآيات، ومثالها قوله: "...إنما نتناول الآية من موضع العبرة فيها لا غير، بأن نقارن ما تضمنته من وصف عباد الرحمن، بما نحن عليه الآن، ليكون ذلك حافزا لنا على السير على منهاجهم والتخلق بأخلاقهم، وهذا نفس ما قصد إليه القرآن"¹⁸.

الفرع الثامن: عبارة "ولكن المسلمين اليوم"

من العبارات كذلك الدالة على التنزيل هذه العبارة، ومثالها قوله: "إذن- فشرف هذه الأمة وفضلها على الأمم قائم على بقاء هذا الدين في العمل به والدعوة إليه، ولكن المسلمين اليوم

¹³ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص58)

¹⁴ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص65)

¹⁵ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص89)

¹⁶ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (265)

¹⁷ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص86-87).

¹⁸ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص92).

لم يعملوا بدينهم فضلا عن أن يدعوا إليه..."¹⁹.

الفرع التاسع: عبارة "أين هؤلاء اليوم"

وهذه من العبارات التي استخدمها الشيخ، فبعد إشارته لنماذج حيّة من صفات عباد الرحمن في القرآن الكريم، قال: "وقلت: أين هؤلاء اليوم؟ وكيف اختفوا جميعا فلم تقع العين على واحد منهم؟..."²⁰.

الفرع العاشر: عبارة "نعم هذه هي الحال الغالبة على الناس تجاه هذه الآيات"

وهذه كذلك من العبارات الصريحة في الدلالة على التنزيل، حيث قال بعد ذكره لقوله تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: 105]: "نعم هذه هي الحال الغالبة على الناس تجاه هذه الآيات ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾، كأنها شيء لا يستحق الالتفات".²¹

المبحث الثاني: أساليب ومعالج منهج الشيخ أحمد سحنون في التنزيل على الواقع

يتضمّن هذا المبحث عرض أساليب الشيخ أحمد سحنون في التنزيل على الواقع، ثم بيان أهم معالم منهجه في التنزيل من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الثالث: أساليب الشيخ أحمد سحنون في التنزيل

سلك الشيخ أحمد سحنون في تنزيل الآيات القرآنية على الواقع، أسلوبين؛ هما:

أولاً: التصريح المباشر

يُقصد بالتصريح المباشر لأسلوب التنزيل أن يُصرح المفسّر أن معنى الآية أو الآيات واقع في زمانه وواقعه، فيعبّر عنها أثناء تفسيره للآية.²²

وهذا الملمح ظاهر وكثير في تنزيل الشيخ أحمد سحنون، الذي قصد من خلال التصريح أن تصل رسائله إلى أصحابها وتؤدي مفعولها وأثرها في أهل زمانه، ومن الأمثلة على ذلك:

• عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: 33] وقوله: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7]، قال: "... ولكن أرباب المال حسبوا أنفسهم أربابا للمال، ولم يفهموا أن المال مال الله وهم خلفاؤه عليه ..." ²³.

• وعند تفسير قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، قال: "ولكن العلماء أوفر حظا من هذا الواجب لأنهم ورثة الأنبياء في الدعوة إلى الله وإصلاح المجتمع ولأنهم أعلم من غيرهم بطرق الدعوة وأساليبها..." ²⁴.

¹⁹ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص185).

²⁰ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص260).

²¹ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص282).

²² يُنظر: عبد العزيز الضامر، تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، (ص71).

²³ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص28).

²⁴ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص44).

• وعند تفسير قوله : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:34]، قال: "... وهذا ما آل إليه حال المسلمين بعد أن انحرفوا عن منهج القرآن وأدب الإسلام، فقد كانت أخلاقهم تفتح لهم القلوب وتفسح أمامهم الطريق وتجعل من أولئك الأعداء الأشداء والخصوم الألداء أخداما وإخوانا وعلى الدعوة إلى الله ونصره دينه أنصارا وأعداؤه..."²⁵.

ثانيا: التنزيل غير المباشر

يُقصد بالتنزيل غير المباشر أن يُشير المفسر أن معنى الآية أو الآيات واقع في زمانه، دون أن يُصرح بذلك، بل يُورده على سبيل التعريض والتلميح، والسبب في ذلك يرجع غالبا إلى الأوضاع السياسية التي تستدعي منه عدم الإفصاح خشية الإيذاء أو التنكيل.²⁶

وهذا الملمح ظاهر في تنزيل الشيخ أحمد سحنون في مواضع كثيرة من كتابه، وذلك نظرا للظروف السياسية التي كان يمارسها الاستعمار الفرنسي والرقابة الصارمة التي كان يفرضها على الجرائد والمجلات، مما دعا الشيخ أحمد سحنون لاستعمال أسلوب التعريض عند الإشارة إلى الاستعمار الفرنسي بعبارات يدل عليها السياق الذي قبلها أو بعدها، ومن أمثلة ذلك:

• عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [هود:25]، قال: "وهكذا كل طاعية تتحكم فيه الأنانية ويعميه الغرور فيتحدى الخلق والخالق لا بد أن يلقي مصرعه على نحو من الأنحاء"²⁷.

• وعند تفسير قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:3]، قال: "... وإنما راجت بصفة مدهشة، في هذه الفترة الحاسمة من حياة هذه الأمة، لغرض آخر جديد غير غرض (الشيخ أحمد) وأكبر منه، غرض تعين على فهمه وتفسيره الحالة الحاضرة، لعله يراد به صرف تفكير الأمة عما يسبب القلق لمستغلها وتخدير شعورها، فتخلد إلى الدعة، والسكون، وذلك ما لا يكون..."²⁸، والمقصود هنا كذلك المستعمر كما يدل عليه سياق الكلام الذي يسعى من وراء نشر البدع تخدير الشعب وإبعاده عن قضيته الأولى.

• وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾، قال: "فلا يفرح الظالمون ولا تطمئن بهم المضاجع ولا تقر أعينهم بما استولوا عليه بالسلب والتهب وسفك الدماء، فإنهم إلى تباب، وإن ملكهم إلى زوال و﴿إِنَّ رَيْكَ لِبِالْمُرْصَادِ﴾، وإن النعمة تدوم مع الكفر ولا تدوم مع الظلم كما يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكيف إذا اجتمع كفر وظلم، ولا يستبد الأسي والجزع بالظالمين، ولا تذهب نفوسهم حسرات فإن الله لا بد- إن ثبتوا وصبروا - ناصرهم ومؤيدهم ومستجيب دعائهم"²⁹.

²⁵ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص45).

²⁶ يُنظر: عبد العزيز الضامر، تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، (ص72).

²⁷ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص66).

²⁸ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص87).

²⁹ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص138).

فمن تأمل هذه النقول التي ذكرها الشيخ أحمد سحنون يظهر له بجلاء أنه لم يصح باسم المستعمر الغاشم، وإنما استعمل أسلوب التعريض والتلميح، كما يدلّ على ذلك سياق الكلام.

المطلب الثاني: معالم منهج الشيخ أحمد سحنون في التنزيل

الاستقراء الكلي الذي قُمت به على تنزيلات الشيخ أحمد سحنون على الواقع، نتج عنه استخراج قرابة الثلاثين موضعاً تطبيقياً، عُني فيها الشيخ أحمد سحنون بتأصيل هذا الإسقاط وبيانه، وعلى هذا يمكن حصر بعض ملامح منهجه في النقاط الآتية:

الفرع الأول: الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية في التنزيل

من أمثلة الاستدلال بالآيات القرآنية عن الإسقاط على الواقع قوله: "...نعم هذه هي الحال الغالبة على الناس تجاه هذه الآيات ﴿يَمُرُّونَ عَلَيمًا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ كأنها شيء لا يستحق الالتفات"³⁰.

ومن أمثلة استدلاله بالحديث النبوي على التنزيل قوله: "... وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، وغضب عليهم فلم يقبل دعاءهم وكفى بهذا عقاباً لهم وحق عليهم بذلك قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم»"³¹.

الفرع الثاني: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

وهذه القاعدة تظهر عند الشيخ أحمد سحنون من خلال التطبيق العملي لها، عند تنزيل الآيات القرآنية على الواقع، ومن ذلك استدلاله عند الرد على منكري البعث والجزاء بسبب نزول قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ...﴾ [يس:77-79]، فقال: "وروي أن العاص بن وائل أخذ عظماً رميماً ففته وقال للنبي ﷺ: أترى يحيى الله هذا بعدما بلى ورم؟ فقال ﷺ: نعم ويدخلك النار، ونزل فيه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:77-79]، وهذه كلها أدلة قوية على أن من خلق الخلق قادر على أن يعيدهم ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾"³².

فهذا السبب كما هو ظاهر وإن كان خاصاً بالعاص بن وائل عندما أنكر البعث والجزاء، إلّا أن الشيخ أخذ بعموم اللفظ ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ...﴾، وأسقطه على منكري البعث والجزاء الذين ظهروا في زمانه فقال: "لذلك لا يخلو زمان ولا مكان من منكبين للبعث والجزاء ولا سيما في هذا العصر المادي الذي لا يؤمن أهله إلا بكل مادي محسوس ولقد رأينا كثيراً من المسلمين اليوم جرفهم هذا التيار، تيار الإنكار لعالم الغيب وعدم الإيمان بغير

³⁰ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص282).

³¹ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص185).

³² أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص70).

المادي المحسوس من الأشياء، ولاسيما من تثقف ثقافة غربية"³³.

الفرع الثالث: الإسهاب في بيان وجه تنزيل الآيات على الواقع

وهذا ملمح واضح عند الشيخ أحمد سحنون فنجد أنه يسهب في بيان وجه تنزيل الآيات القرآنية على واقعه، كما فعل ذلك عند عقده مقارنة بين عباد الرحمن وما عليه أهل زمانه، كما سيأتي بيانه في المطلب الأول من المبحث الثالث.

الفرع الرابع: إبراز وجه المخالفة الكلي بين التنزيل والواقع (التنزيل العكسي)

يُقصد به أن يقوم المفسر بالتنزيل على ما يُخالف معنى الآية³⁴، وقد استخدم الشيخ أحمد سحنون هذا التنزيل في بعض المواضع، ومن أمثلة ذلك:

- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2]، أشار إلى أن واقع المسلمين اليوم معاكس تماما للمعنى الذي دلّت عليه الآية، فقال: "وهكذا فالتعاون على الإثم والعدوان الذي نهى الله عنه قد حلّ محلّ التعاون على البر والتقوى الذي أمر الله به، وهكذا عكس المسلمون الآية؟ وهذا التشجيع للمبطلين قد غرهم"³⁵.
- وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34] أشار إلى أن واقع المسلمين اليوم بعكس مضمون الآية، فقال: "وإذا كانت الكلمة اللينة والصدر الرحب من خير أدوات الدعوات بحيث تجعل العدو صديقا كما تشير إليه الآية، فبعكس ذلك تكون الكلمة الجافية والصدر الضيق من شر أسباب النفور بحيث يجعلان الصديق عدوا، وهذا ما آل إليه حال المسلمين بعد أن انحرفوا عن منهج القرآن وأدب الإسلام..."³⁶.

الفرع الخامس: استخدام التنزيل الكلي في بعض الأحوال

يُقصد بالتنزيل الكلي بأن يكون التطابق كليا بين معنى الآية أو الآيات والواقع³⁷، ومن أمثلة ذلك ما ذكره بعد تفسيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدٌ﴾ [المنافقون: 4]، حيث قال: "ما شاء الله! إنها لصورة طبق الأصل - أي معنى الآية- لطبقة كبيرة في المجتمع، يخدعك مظهرها اللّماع المتبجح عما يخفي وراءه من تهاهة وحقارة وزيف..."³⁸.

الفرع السادس: ضمّن الشيخ بعض التنزيلات لمواقف شخصية وقصصا عاينها بنفسه

من حين لآخر نجد الشيخ أثناء تنزيل بعض الآيات على واقع أهل زمانه، يستشهد بمواقف

³³ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص71).

³⁴ يُنظر: الضاهر، تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، (ص78).

³⁵ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص57).

³⁶ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص45).

³⁷ يُنظر: تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين (ص76).

³⁸ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص89).

شخصية أو قصص عاينها بنفسه، ومن الأمثلة على ذلك، ذكره لقصة الغلام التي عاينها بنفسه أثناء زيارته لمنطقة زلزال الأضنام، وذلك أثناء تنزيل قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٌ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: 105] على هذه الحادثة، فقال: "وبينما أنا مستغرق في هذه التأملات، أستجلي العبر من هذه المثلثات، وأسكب ما صنته من عبرات، على هذا الجانب الخصب، من الوطن الحبيب، الذي استحال خطاما وعاد أنقاضاً، وإذا بأحد الرفاق في هذه الرحلة، يجذبني من طرف ثوبي ويلفتني إليه قائلاً: تعال واسمع، فهذا زلزال آخر يُنسبك هذا الزلزال الذي ما يزال أثره عالقا بنفسك، آخذاً بلبك، فالتفت في فزع ودهش، واستفسرته النبأ فقال: الآن وصلت رسالة من طفل إلى والده يقول له: إن لم تسرع إلي انتحرت،- ذلك لأن هذا الطفل من هؤلاء الأطفال الذين اضطهرهم هذا الزلزال إلى أن يأووا إلى معهد من المعاهد الدينية الكاثوليكية خارج البلاد المصابة بالزلزال- وأخذ الطفل بعد ذلك يقص على والده كيف أنهم سُلِموا إلى راهب ناولهم نوعاً من الحلوى أنكروها وكرهوها..."³⁹.

الفرع السابع: حُثِّمَ تنزيله بتوجيه النصح إلى القارئ وإرشاده للتدبر والتأمل في آيات الله في آخر كل تنزيل للآيات القرآنية على واقع أهل زمانه، يُحاول الشيخ غالباً توجيه النصح للقارئ الذي يُخاطبه من خلال جريدة البصائر التي كان ينشر فيها هذه المقالات، ودعوته لتدبر آيات الله والعمل بها، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها:

- كلامه عند قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19]، حيث قال: "وليتأمل القارئ جيداً قوله: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ الآية، فإن فيه قطع الطريق عن أعذار المعتذرين لهضم حقوق المرأة وإساءة عشرتها، بدافع نفور الطبع، فربما جعل الله فيما نكره ما نحب ونحن لا نعلم، فلا نغتر بتمويه الطبع"⁴⁰.

- كلامه عند قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24]، حيث قال مخاطباً القارئ والسامع: "... فلنتدبر القرآن ولا سيما في هذا الشهر شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن لنصل إلى كل خير يدعوا إليه القرآن"⁴¹.

- كلامه عند قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 272]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: 36]، ...، حيث قال مخاطباً القارئ والسامع: "... وإذن- فلا يُفْت في أعضادنا ما يقوم في طريقنا من صعوبات وعراقيل، فما علينا إلا السعي المتواصل في سبيل الدعوة إلى الله، وإسعاد الإنسانية في العاجلة والآجل و﴿اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾"⁴².

³⁹ يُنظر: أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص286).

⁴⁰ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص265)

⁴¹ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص64)

⁴² أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص82)

• كلامه عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: 66]، حيث قال: "فتعالوا إلى القرآن فهو الدواء إن أَعْضَلَ الداء وعزَّ الدواء"⁴³.

المبحث الثالث: مجالات وضوابط الشيخ أحمد سحنون في التنزيل على الواقع

يتضمن هذا المبحث عرض مجالات التنزيل على الواقع عند الشيخ أحمد سحنون، ثم بيان أهم ضوابطه في التنزيل من خلال المطالبين الآتيين:

المطلب الأول: مجالات تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ أحمد سحنون

تضمن هذا الكتاب الذي ألفه الشيخ أحمد سحنون فصولاً دينية واجتماعية كانت قد نُشرت في جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حاول من خلاله الشيخ أحمد سحنون إصلاح ومعالجة أوضاع وطنه وأمته عن طريق استغلال المناسبات المختلفة: كمناسبات الزواج والختان واحتفالات المولد النبوي ورأس السنة الهجرية وليالي رمضان خاصة ليلة السابع والعشرين منه؛ لأنه كان لا يمرُّ على آية لها علاقة بواقعه ومجتمعه؛ إلا حاول ربطها.

وحسب الاستقراء الكلي لتنزيلات الشيخ أحمد سحنون للآيات القرآنية على الواقع، فإنه يمكن حصر أهم مجالات التنزيل في: التنزيل العقدي والتعبدي، التنزيل السياسي والفكري، التنزيل الاجتماعي والسلوكي.

الفرع الأول: التنزيلات العقدية والتعبدية

حسب الاستقراء فإن التنزيلات العقدية والتعبدية، تُعد من أكثر القضايا التي نزل عليها الشيخ أحمد سحنون الآيات وربطها بالنصوص القرآنية، وذلك رداً على الانحرافات والشبه العقدية التي كانت مثارة في زمانه، ومن الأمثلة على ذلك:

أولاً: تحذير أهل زمانه من البدع والخرافات العقدية

من الآيات التي تناولها الشيخ في موائد القرآن الكريم تفسير قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، وأشار إلى أن هذه الآية هي عنوان كمال هذا الدين، كما كانت آية ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9] عنوان مجد الخلود للقرآن.

فقد لاحظ الشيخ رحمه الله الانتشار الكثير للبدع المخالفة للشرع في أهل زمانه، فأراد تحذير أمته منها، فقال: "فهذه الآية عنوان مجد الكمال للإسلام فهي تغلق الباب في وجه المبتدعين الذين لا تطيب لهم الحياه إلا على تعدى الحدود وتَسَوَّرَ الأبواب، والإتيان- دائماً- بجديد لا تُسيغه إلا عقولهم الشاذة، فيحدثون في دين الله ما لم يأت به نص، ولم يقم عليه دليل، بدعوى الاستحسان فلا يجنون من صنيعهم إلا عكس ما أرادوا، وإذا بهذا الذي أدخلوه

⁴³ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص171)

على دين الله هو الذي يخرجهم منه جزاء وفاقا، وذلك معنى قوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»⁴⁴، وخفي عنهم أن الله ما سكت عما تبجحوا به إلا رحمة بهم وشفقة عليهم، قال ﷺ: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدد حدودا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم، غير نسيان، فلا تبحثوا عنها»^{45،46}.

ومن البدع المحدثه التي كانت منتشرة في زمن الشيخ وكثر حولها اللغط، الرسالة المفتعلة المنتحلة عن رسول الله ﷺ التي يروجها الشيخ أحمد خادم القبر الشريف، فتصدى لها الشيخ وبين خطأها من خلال إسقاط مضمون الآية عليها، وأن نبينا محمد ﷺ لم ينتقل إلى الرفيع الأعلى إلا وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، أقبعد كل هذا يأتي (الشيخ أحمد) أو غيره ليكذب على الله ويتجراً على رسول الله ﷺ، ويأتينا برسالة جديدة، قال الشيخ: "وأدهى وأمر، من كل ما مر، تلك الرسالة المفتعلة المنتحلة عن رسول الله ﷺ التي يروجها الشيخ أحمد خادم القبر الشريف، كما هو مثبت في صدر هذه الرسالة، التي أثارت ضجة وكثر حولها اللغط، وشغلت بال كثير من الناس، حتى كتب إلينا بعضهم يسأل عن حقيقة أمرها، إنها لجرأة منكرة على رسول الله ﷺ، ودناءة مفضوحة في الاتجار بدين الله، وتحيل بارد ممقوت، للعيش على هامش الحياة، إن محمدا ﷺ قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونام قبر العين مرتاح الضمير، ناعم البال، لأنه ما انتقل إلى جواربه حتى نزل عليه من ربه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:3] أبعد هذا كله يأتي (الشيخ أحمد) أو غيره يكذب على الله ويتجراً على رسول الله ﷺ، ويأتينا برسالة جديدة"⁴⁷.

ومما يُبين فقه الشيخ واطلاعه الكبير بواقع أمته، إشارته إلى الجهة التي تقف وراء هذا الترويج المدهش والكبير لهذه البدعة والغرض الحقيقي المقصود من ورائه خاصة في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ أمته.

فالشيخ رحمه الله يكشف لأمته خطط المستعمر الذي يُريد تخدير شعبه وغمسه في البدع والخرافات حتى يصرفه عن قضيته المحورية المتمثلة في نيل الاستقلال والتحرر، وأن ذلك لن يتحقق لهم بإذن الله، فقال: "وإنما راجت بصفة مُدهشة، في هذه الفترة الحاسمة من حياة هذه الأمة، لغرض آخر جديد غير غرض (الشيخ أحمد) وأكبر منه، غرض تُعين على فهمه وتفسيره الحالة الحاضرة، لعله يُراد به صرف تفكير الأمة عما يُسبب القلق لمستغلميها وتخدير شعورها، فتخلد إلى الدعة، والسكون، وذلك ما لا يكون..."⁴⁸.

ثم يختم كلامه بربط واقعه بمضمون هذه الآية بصيغة صريحة فقال: "كما أن هذه الآية

⁴⁴ أخرجه البخاري في صحيحه، باب إذا اصطالحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم: 2550، (959/02)، ومسلم في صحيحه، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم: 1718، (132/5).

⁴⁵ أخرجه الطبراني في معجمه الكبير، باب مكحول عن ثعلبة، (255/22).

⁴⁶ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص86).

⁴⁷ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص86).

⁴⁸ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص87).

الكرامة تقطع حجة الذين يرون أن الإسلام أصبح بحاجة أكيدة إلى أن تلحق به أشياء كثيرة وتضاف إليه مسائل جديدة اقتضتها حالة العصر وأوضاعه الحديثة، فنقول لهم-على ضوء هذه الآية:- إن الإسلام غني عن كل زيادة، بريء من كل نقص، ولو كان يحتاج إلى زيادة أو بقي على شيء من النقص، لتكفل الله بتلك الزيادة ولسد ذلك النقص خصوصاً وهو الدين الذي جعله الله خاتمة الأديان، وجعله صالحاً لكل جيل ولكل زمان، فكيف يترك الباب مفتوحاً لهؤلاء المتطفلين المتفلسفين⁴⁹.

ثالثاً: دعوة أهل زمانه وأمته إلى التفكير والتدبر في آيات الله

بعد الزلزال الكبير الذي ضرب منطقة الأصنام وحولها إلى شبه أطلال، وأمام الفاجعة العظيمة التي ألمت بالشعب الجزائري، كتب الشيخ مقالاً عنوانه بـ: "إذا زلزلت الأرض" عبر فيه عن حزنه وألمه الشديد لما ألم بأمته ووطنه الحبيب.

بدأ الشيخ بتفسير قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:105]، وبين أن التفكير والتدبر في آيات الله التي بَيَّنَّها في الأرض والسَّمَوَات هي الكنوز الثمينة التي تُغذي الفكر البشري وتُوقظ مشاعره وتشجذ عزائمه، وتفتح له نوافذ فكره على دُنَى وحيوات ما كان ليقف عليها لولا التفكير والتدبر.

ثم انتقل الشيخ كعادته إلى إسقاط هذه الآية على واقعه لبيان الخلل وإصلاحه، وبيان العلاج المناسب لذلك، فقال: "ولكن هذه الكنوز الثمينة القيمة مفتاحها التفكير، فلا يحظى بشيء من نفائسها وأغلاقيها من لم يفكر فيها، ويُمعن النظر إليها، ويرسل أشعة عقله عليها، وهذه هي الحال الغالبة على الناس، ولذا نبّه الله عباده إلى ما غفلوا عنه من الانتفاع بهذه الآيات بقوله: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:105] نعم هذه هي الحال الغالبة على الناس تجاه هذه الآيات ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾، كأنها شيء لا يستحق الالتفات"⁵⁰.

وخلّص الشيخ في الأخير بعد حكاية قصّة الغلام الذي طلب من والده أن يُدرّكه قبل أن ينتحر بعدما اضطره الزلزال ومجموعة من الأطفال أن يأووا إلى أحد المعاهد الدينية الكاثوليكية بعيداً عن مكان الزلزال، وذلك من الضغوط النفسية التي عاشوها داخل هذا المعهد من الرهبان والصلبان والطقوس الدينية التي لم يعتادوها ولم ينشأوا عليها، والتي أحسوا معها بالخوف على عقيدتهم، إنّ هذا هو الزلزال الحقيقي الذي ينبغي أن نكون منه على حذر، فليس الزلزال أن تموت مسلماً شهيداً تحت الأنقاض، ولكن الزلزال أن تخسر دينك الإسلام، ولو عشت بعد ذلك ألف عام، ولو كان المسلمون كلهم كهذا الغلام، لانتصر الإسلام⁵¹.

⁴⁹ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص86-87).

⁵⁰ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص282).

⁵¹ ينظر: أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص286).

حاول الشيخ توظيف هذه الآية لمعالجة واقع أمته التي غفلت عن التفكير والتدبر في آيات الله، وذلك بدعوتهم إلى الانتفاع بآيات الله التي تغذي فكرهم وتشجذ عزائمهم للإقبال على الله.

رابعا: دعوة أهل زمانه للتصدي لمنكري البعث والجزاء

من القضايا التي تصدى لها الشيخ وظهرت في زمانه مسألة إنكار البعث والجزاء، وقد حاول الشيخ تفنيد هذه الدعوة وردّها، ومن الأدلة التي أوردها: قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُنْ نُطْقَةً مِنْ مِثِّي يَوْمَئِذٍ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ فَخْلَقٍ فَسَوًى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: 36-40]، وقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: 5-8] ...

وبعد سرده لكل هذه الأدلة، حاول إسقاطها على واقعه فقال: "لذلك لا يخلو زمان ولا مكان من منكرين للبعث والجزاء ولا سيما هذا العصر المادي الذي لا يؤمن أهله إلا بكل مادي محسوس ولقد رأينا كثيرا من المسلمين اليوم جرفهم هذا التيار، تيار الإنكار لعالم الغيب وعدم الإيمان بغير المادي المحسوس من الأشياء، ولا سيما من تثقف ثقافة غربية، فإذا حدثهم عن العالم الآخر سخروا منك وضحكوا ملء أفواههم على بقائك متمسكا بهذه القشور (هكذا). ولولا أن الله لم يرد بهم خيرا لرأوا أن الإيمان بالبعث والجزاء لا يُفوت عليهم شيئا من رغباتهم كما يُفوتهم عليهم إنكارهم وكفرهم..."⁵².

خامسا: تحذير شباب أمته من دعوة الإلحاد التي ظهرت في زمانه

كان الشيخ رحمه الله على دراية كبيرة بما يُحاك من مخططات ضد الشباب لإبعاده عن دينه، وعن قضيته الأولى، وهي تحرير البلاد، ومن ذلك إسقاطه على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 117]، وقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: 38]، فقال: "وأكبر ما ابتليت به الدعوة الإسلامية في هذا العصر هذه الدعوة الإلحادية التي تقوم بها الكثرة الغالبة من شبابنا الذي قضت عليه ظروفه السيئة أن يتلقى ثقافته عن قوم ليس لهم عدو إلا الإسلام حتى أصبح مقياس الرقي عندهم عقوق هذا الدين الذي بذل شباب الإسلام الأولون في الدعوة له والدفاع عنه دماءهم وأرواحهم، ولكن سينصره الله وإن خذله المسلمون كما نصره قبل أن يخلقوا والعالم كله يتيه في الشرك والوثنية"⁵³.

سادسا: مقارنة بين أوصاف عباد الرحمن وما عليه أهل زمانه

ضمن حلقات أصدرها الشيخ أحمد سحنون في جريدة البصائر تحت مسمى: "على مائدة القرآن" عقد فيها مقارنة بين عباد الرحمن وبين ما عليه أهل زمانه، من أجل أخذ العبرة

⁵² أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص70).

⁵³ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص46).

والتأسي بهم والسير على خطاهم، ومن ذلك:

• أشار الشيخ إلى أن القرآن وصف عبد الرحمان بصحة العقيدة والإخلاص في العمل، إذ يقول: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:78]، ثم أسقط هذه الآية على واقع أهل زمانه، فقال: "ونحن لو صحت عقيدتنا في الله وأخلصنا العمل لله ووقفنا عند حدود الله لما سلط علينا من لا يرحمنا ولا يخاف الله"⁵⁴.

• وأشار الشيخ إلى أن القرآن وصف عباد الرحمان بأنهم لا يبيتون نياما، وإنما يبيتون سجدا وقياماً، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان:64]، ثم أسقط هذه الآية على أهل زمانه، فقال: "وأين اليوم هؤلاء، إنهم لأعزم من الكبريت الأحمر، وإنما الذين يوجدون بكثرة هم الذين يتهاونون بالفرض ويسهون عن المكتوبة فيستحقون الويل الذي وعد الله به أمثالهم"⁵⁵.

• وذكر الشيخ كذلك أن القرآن الكريم وصف عباد الرحمان بتجري الحق في كل ما يأتون فلا يشهدون الزور، ولا يحضرون اللغو، إذ يقول: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان:72]، ثم أسقط هذه الآية على أهل زمانه، فقال: "ونحن أطلقنا لألستنا العنان تمدح بغير حق وتذم بغير حق، وتلك هي شهادة الزور بعينها، أما اللغو فقد أصبحت سوقه هي السوق الرائجة النافقة لدينا، وليس اللغو إلا هذا الهراء مما يسقى أدباً وهذا الفحش مما يدعى غناء، وهذا الرقص الداعر والتمثيل السخيف الذي يسقى فنا"⁵⁶.

ربط الشيخ في هذه الآيات بين صفات عباد الرحمن المضمنة في الآيات القرآنية وبين ما عليه أهل زمانه، وذلك ليكون حافزا لهم للسير على مناهجهم والتخلق بأخلاقهم ولناخذ منهم العبرة.

الفرع الثاني: التنزيلات السياسية والفكرية

تأتي القضايا السياسية والفكرية في المرتبة الثانية بعد التنزيلات العقدية، التي حاول الشيخ تنزيل الآيات عليها وربطها بالنصوص القرآنية، فحاول الشيخ من خلال هذه الإسقاطات التصدي لمؤامرات وخطط المستعمر الفرنسي الغاشم، وذلك عن طريق التحريض على مقاومته، وإفشال مخططاته، ومن الأمثلة على ذلك:

أولاً: تحريض شعبه على مقاومة الاستعمار الذي حرّمه جنة بلاده

كان الشيخ يُحاول في كل مناسبة شحن شعبه ضد المستعمر الغاشم، وذلك بحقن وإثارة الغيرة على شخصيته ولغته ودينه، وبث روح الحقد والكراهية، فمن ذاك استغلاله لأحد مناسبات رأس السن الهجرية ليستنهض الهمم لتجنيد الأموال في معركة الاستقلال ضد المستعمر، واعتبر أن المال هو طريق الاستقلال، وحذر من مغبة الشحّ بالمال في شهر الله الحرام

⁵⁴ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص93).

⁵⁵ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص93).

⁵⁶ «دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص93).

وهو شهر زكاة الأموال، وحذر من فتنة الشيطان في الأموال مستدلاً على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:6]، فقال: "واعلموا أننا أموالكم فتنة فلا يفتنكم الشيطان ولا يدخل عليكم من هذه الثغرة" ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:6]⁵⁷.

وبعد تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:6] قال: "واعلموا أن لكم شيطانين: الشيطان الذي أخرج أبويكم من الجنة. وشيطان الاستعمار الذي حرمكم جنة بلادكم ولم يترك لكم فيها إلا حظ الخدم فأنتم وأموالكم وأوطانكم ملك له، الشيطان الأول يغيركم بالبلخ فيما يحييكم وينهض بكم من عثرتكم، والشيطان الثاني يعزركم بأتلاف مالكم وتبيد ثروتكم فيما فيه هلاككم وفناؤكم وذهاب ربحكم، إن الاستعمار الذي وكل بكم ينصب لكل درهم من دراهمكم فخا ويضع لكل حاسة من حواسكم شهوة تتسرب منها أموالكم وتفسد بها أخلاقكم وتتسمم بها صحتكم، فجعل لعيونكم شهوة التمثيل الداعر والرقص الفاجر، ولأذانكم الغناء البذي والإذاعة البغي، ولأنوفكم الحشيشة المسممة، ولأفواهكم الخمر المبيدة ولغرائزكم الجنسية مؤسسات البغاء والعار والخنى، كل هذه البليات بالوعات لأموالكم وجرائيم لصحتكم وآفات لأخلاقكم، فباستيلائه على أموالكم يقص أجنحتكم وبتسميمه لصحتكم يشل حركتكم وبإفساده لأخلاقكم يقضي على حياتكم"⁵⁸.

فالإمام رحمه الله استغل هذه المناسبة ليربط هذه الآية بالواقع الذي يعيشه، وبين خطر شيطان الاستعمار الجاثم على صدر أمته، وكيف استطاع أن يوجه أموال الأمة نحو الفحش والدعارة والرقص والفجور، بدل إنفاقها في حرب الاستقلال.

ثانياً: تحذير المستعمر من الظلم وبيان عاقبة الظالمين

تحدث الشيخ في هذا المقال الذي عنوانه: "عقبى الظالمين" عن الظلم الكبير الذي تعرض له الشعب الجزائري من المستعمر الفرنسي، الذي عاث في الأرض فساداً وظلماً وسلباً وقهراً وتشريداً، إلا أن الشيخ كعادة علماء الجمعية استخدم أسلوب التعريض في الكلام عند ذكر لفظ "المستعمر"، لكن يدل على هذا التعريض مقدمة المقال، حيث قال: "إن بناء يقوم على الظلم هباء، وإن ارتقاء على جماجم القتلى لا يقال له ارتقاء، وإن ملكاً يجمع من السلب والنهب واللصوصية ليس له بقاء"⁵⁹.

ثم ذكر الشيخ بعض الآيات القرآنية التي بينت مصارع الظالمين وعواقب الطغاة السيئة، فذكرت ظلمهم ومساوئهم، ثم عواقبهم ومصائرهم، بانقراضهم وخراهم وتذهب رهبهم: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِيَهُمْ﴾ [الحقاف:25] ﴿قَتَلْتُمْ نَفْسًا وَهُمْ حَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل:52]..

واستغل الشيخ مضمون هذه الآيات ليبين للمستعمر عاقبة الظلم، ويواسي المظلومين المقهورين، فقال: "فلا يفرح الظالمون ولا تطمئن بهم المضاجع ولا تقرأ عينهم بما استولوا عليه

⁵⁷ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص119).

⁵⁸ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص119).

⁵⁹ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص137).

بالسلب والنهب وسفك الدماء، فإنهم إلى تباب، وإن ملكهم إلى زوال ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِاْمُرْصَادٍ﴾. وإن النعمة تدوم مع الكفر ولا تدوم مع الظلم كما يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فكيف إذا أجمع كفر وظلم، ولا يستبد الأسي والجزع بالمظلومين، ولا تذهب نفوسهم حشرات فإن الله لا بد- إن ثبتوا وصبروا - ناصرهم ومؤيدهم ومستجيب دعائهم⁶⁰.

ثم استغل الشيخ هذه الكلمة ليوّجه رسالة إلى إخوانه المغاربة يحثهم فيها على الصبر والثبات على ظلم المستعمر، والدعاء لهم بالنصر والتحرر، فقال: "وإننا بهذه المناسبة لنذكّر إخواننا المغاربة الذين يبتلون في سبيل حريتهم واستقلالهم، ويبدون من الصبر والثبات والشجاعة ما هو جدير بأمثالهم، ولا يسعنا إلا أن نعلن تضامنا معهم ونضم أصواتنا إلى أصواتهم ونرفع احتجاجنا ضد أعدائهم، ونسأل الله أن ينصرهم ويثبت أقدامهم ويكلل بالنجاح أعمالهم، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: 42] ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ و﴿لَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 193]"⁶¹.

فالشيخ هنا يبين الظلم الذي يتعرض له شعبه من المستعمر الفرنسي التي عاث في البلاد قتلًا وسلبًا ونهبًا في محاولة منه لربط أحوال واقعه بالآيات القرآنية التي تحكي عاقبة الظالمين.

ثالثاً: دعوة أهل زمانه إلى التصدي لمخططات المستعمر الفرنسي

أرشد الشيخ أمته إلى أن قدوتنا هو محمد ﷺ الأسوة الحسنة، وعليها أن نتأسى ونقتدي به في سيرته وأعماله، وذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21].

وبعد بيانه لمقتضيات الاقتداء برسول الله ﷺ، أشار إلى خطر العُشُو عنها، ثم أسقط ذلك عن واقعه، فقال: "والتي منذ عشونا عنها-أي عند الاقتداء برسول الله ﷺ ونحن في ظلمات بعضها فوق بعض والتائه في الظلمات يمد يده إلى كل من يأخذ بيده ولو لم يعلم إلى أي هاوية يسير به، وذلك ما وقع لنا فبينما نحن في متاهتنا إذ مد إلينا شيطان الاستعمار الأوربي يده المضللة لا ليخرجنا من الظلمات إلى النور، بل ليخرجنا إلى ظلمات أشد منها ظلاماً، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 36-37] وهذا الشيطان يوسوس لنا دائماً بأن من الخير أن لا نلتفت إلى الماضي ويريد بذلك أن لا نعود إلى تاريخنا فتتأثر بتلك السيرة الملائكية ونهتدي بتلك الأنوار القدسية، وتكتمل حياتنا التهذيبية نقصها الفادح بذلك الجانب الأهم، جانب القدوة الحسنة، ولذلك نصبح خير خلف لخير سلف، ففسير سيرتهم ونأتي من أعمال الخير والفتح وال عمران ما كرسوا له حياتهم، وفي ذلك كله تبيد ظلامه وظلمه، والقضاء على سلطانه وحكمه.

لذلك فلا أقض لمضجع الاستعمار من أن يرى الأمة التي أنشبت فيها مخالفه وأخضعها

⁶⁰ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص138).

⁶¹ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص138).

لحكمه، تقبل على تاريخ أسلافها تستظهر صفحاته لنقتبس منه الشعاع الهادي وتأخذ منه الحكمة البليغة والعظة البالغة، وتستلميه دروس الوطنية الصادقة وأمثلة البطولة العالية، إن القدوة الحسنة هي التي تنشئ البيئة الصالحة وإن الله إذ يأمرنا بالدعوة⁶².

وفي هذا التنزيل بين الشيخ عُشُونَا عن الاقتداء برسول الله ﷺ واتباع سنته، الأمر الذي ترك يد المستعمر تمتد إلينا، وأشار إلى أنه لا سبيل لقض مضجع المستعمر إلا بالرجوع والتأسي بما كان عليه سلفنا.

رابعا: دعوة الأمة الجزائرية للجهاد في سبيل الله ضد المستعمر

عند كلام الشيخ عن التجارة الرابحة استدل بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف:10-13] وبعد تفسيره لهذه الآيات حاول أن يسقطها على واقعه فقال: "إذن- فمدار الأمر على هذه التجارة، إذ فيها ربح الدنيا والآخرة، ورضى الله والناس والنصر القريب على العدو الداخلي وهو النفس، والعدو الخارجي، وهو المستعمر فانصر الله ينصرك وتاجر مع الله يربحك"⁶³.

ربط الشيخ بين مضمون الآيات وواقع أهل زمانه، لشحذ همّة شباب أمته للجهاد في سبيل الله من أجل إخراج المستعمر ونيل الاستقلال.

خامسا: بيان مصارع الطغاة ومصائر الظلمة من المستعمرين وأذنانهم

أشار الشيخ إلى أن القسم القصصي من القرآن يكاد يتلخص في تصوير مصارع الطغاة ومصائر الظلمة، ثم مثل لذلك بمصرع فرعون واستدل بقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْنَا وَفَعَلْنَا بِمُوسَىٰ وَهَارُونَ كَمَثَلِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء:103] ومصرع قارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصاص:81] ومصرع مدينة سبا: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكَافُورَ﴾ [سبا:15-17] ومصرع قوم نوح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:14].

ثم قام بتنزيل ذلك على واقعه وبيان عاقبة الظالمين، فقال: "وهكذا كل طاغية تتحكم فيه الأنانية ويعميه الغرور فيتحدى الخلق والخالق لا بد أن يلقي مصرعه على نحو من الأنحاء وعلى صورة من الصور: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنْبِهِ فَمَبْهُمٌ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْظِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا

⁶² أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص189).

⁶³ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص216).

أَنْفُسَهُمْ يَظْلُمُونَ﴾ [العنكبوت:40]، والعبرة التي نستخلصها من مصارع الطغاة ومصائر الظلمة هي أن الأفوياء يجب أن لا يغتروا وأن الضعفاء يجب أن لا يقنطوا فإن لهذا العالم حارسا من عناية الله وكافلا من رعايته وتديبره فلا يتركه تعبت به أيدي المفسدين وتتحكم فيه شهوات الظالمين المستبدين⁶⁴.

هذا الإسقاط بين فيه الشيخ مصارع الطغاة والظالمين؛ وكلامه هنا يقصد به المستعمر الغاشم الذي طغى وتجبر؛ إلا أنه وكما ذكرنا في معالم منهج الشيخ استخدم أسلوب التعريض والتلميح خوفا من بطشه.

الفرع الثالث: التنزيلات الاجتماعية والسلوكية

حاول الشيخ من خلال التنزيلات الاجتماعية للنصوص القرآنية إصلاح حال أمتة الاجتماعي، من خلال التصدي لبعض الأعراف والتقاليد الفاسدة التي انتشرت في زمانه، ومن الأمثلة على ذلك:

أولا: حث أهل زمانه إلى الإنفاق في سبيل الله وصرفها فيما ينفع الأمة

بين الشيخ رحمه الله أهمية إنفاق المال فيما ينفع هذه الأمة ويصلح شأنها ويرفع كيانها، وحذر من الشح والإسراف من خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور:33] وقوله: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:7].

ثم استغل الشيخ هذه المناسبة ليسقط هذين الآيتين لمعالجة واقع أهل زمانه الذي انتشر فيه شح الأغنياء وأرباب الأموال على الإنفاق في سبيل الله وكثر الفقر والجريمة، فقال: "ولكن أرباب المال حسبوا أنفسهم أربابا للمال، ولم يفهموا أن المال مال الله وهم خلفاؤه عليه، ومن هنا تبدأ العقدة فهم إذ حسبوا أن المال مالهم ضربوا دونه الأسداد وشحوا به على المحتاجين والفقراء من إخوانهم ثم أطلقوا فيه أيديهم يبعثرونه في شهواتهم وملذاتهم فجمعوا بين رذيلتي الشح والإسراف وتسابقوا إلى إسقاط الله وإسقاط إخوانهم الفقراء الذين فرض الله حقوقهم في هذه الأموال، وأصبحت هذه الأموال تصرف في كل شيء إلا فيما ينفع هذه الأمة ويصلح شأنها ويحفظ كيانها"⁶⁵.

ثم بين أن الأغنياء هم الأعداء الحقيقيون لهذه الأمة الذين جمعوا أموالهم منها ثم بخلوا بها عنها فقال: "وإذا كان للأمة أعداء حقيقيون فهم أغنياؤها الذين جمعوا أموالهم منها ثم بخلوا بها عنها، والمال جعله الله وقود الأعمال فإذا شح الناس بالمال تعطلت الأعمال وصاحب هذه الجريمة والمستول عنها هم أغنياؤها (المحترمون) الذين لا يشعرون إلا بأنفسهم ولا يحترمون إلا شهواتهم ولا يحتفلون بالأمة التي أغنتهم فأفقروها وسمتهم فأهزلوها، حاشا فئة منهم عرفت ما لها وما عليها وتغلبت على أنانيتها وأشركت إخوانها في ماليها فظهر عليها فضل الله ونعمته وكافأها بمحبة الخلق في الدنيا وبخلود الذكر على الألسنة، والقلوب..."⁶⁶.

⁶⁴ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص66).

⁶⁵ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص28).

⁶⁶ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص28).

فالشيخ رحمه الله حاول من خلال تفسير الآيتين معالجة ظاهرة الفقر التي انتشرت في زمانه عن طريق تذكير الفقراء إلى ضرورة الإنفاق على الأغنياء وعلى ما ينفع الأمة ويرفع كيانها، وذكرهم بأن المال مال الله، وأن الله جعلهم مستخلفين فيه.

ثانيا: دعوة أهل زمانه إلى توطيد روابط الأخوة الإسلامية حتى يعود للأمة مجدها من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران:103]، وقوله ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الحديد:7]، وقوله: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:63] بين الشيخ أن الإسلام نجح في توحيد المسلمين، لأنه وحد قلوبهم برباط الأخوة الإسلامية التي أقام أساسها على صخرة صلبه، وهي تقوى الله، والحب في الله.

ثم نزل الشيخ مضمون هذه الآيات على واقع أهل زمانه الذين تبددت فيهم أخوة الإسلام، وخلفتها أخوة المصالح والأغراض، فقال: "إن هذه الأخوة- أخوة الروح لا الجسد، وأخوة الدين لا الدنيا، وأخوة في الله، لا في المصلحة- التي ربط الإسلام بها ما بين القلوب- لو بقيت للمسلمين لبقى لهم كيانهم وسلطانهم، ولكن هذه الأخوة تبدد شملها، ودالت دولتها، وخلفتها أخوة المصالح والأغراض، وأخوة الكاسات والخليلات"⁶⁷.

وخلص الشيخ في الأخير لدعوة أمته لتوطيد روابط الأخوة الإسلامية بين أفرادها، حتى يجمع الله شملها ويوحد كلمتها، ويعود لها مجدها وعزتها بين الأمم.

فالشيخ رحمه الله وُفق في استثمار مضمون هذه الآيات وإسقاطه على واقع أمته ومعالجته من خلال الدعوة إلى تحقيق روابط أخوة الدين لا الدنيا قبل الدعوة إلى توحيد الكلمة.

ثالثا: دعوة أمته لوجوب المحافظة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

تناول الشيخ رحمه الله في هذا المقال أحد الدعامات التي حفظ الله بها هذا الدين وقام عليها بناؤه المتين: ألا وهي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين أن خيرية هذه الأمة تكمن في وجوب القيام بهذا الواجب، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:110].

وبعد تفسير الشيخ للآية وبيان أن شرف هذه الأمة وفضلها في المحافظة على واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قام بتنزيل معناها على واقعه فقال: "إذن- فشرف هذه الأمة وفضلها على الأمم قائم على بقاء هذا الدين في العمل به والدعوة إليه، ولكن المسلمين اليوم لم يعملوا بدينهم فضلا عن أن يدعوا إليه، ومن ثم خرجوا من فردوس السعادة الذي كانوا فيه، وحكم الله فيهم من كانوا تحت حكمهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، وغضب عليهم فلم يقبل دعاءهم وكفى بهذا عقابا لهم وحق عليهم بذلك قوله ﷺ: «الذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا

⁶⁷ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص303).

وأسفاه على هذه الأمة! اختار الله لها خير وظيفة في الدنيا، وهي وظيفة الأنبياء، وهي الدعوة العامة إلى الخير العام، فلم تعرف قيمة ما بيدها، ولم تجعل من كفاح نبينا في هذا الميدان خير قدوتها، وكتابتها يستصرخها بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21] ولكن كيف تقتدي بنبيها ﷺ وهي لا تلتفت إلى تاريخه....⁶⁹.

نجد أن الشيخ هنا حاول توظيف هذه الآية لدعوة أهل زمانه للعمل بهذا الدين والدعوة إليه، وإلى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

رابعا: دعوة أهل زمانه للمحافظة على حقوق المرأة وحسن معاشرتها

تناول الشيخ في هذا المقال الدعوة إلى حسن مصاحبة الأم، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19]، ثم حاول إسقاط هذه الآية على واقع أمته التي انتشر فيه هضم حقوق المرأة والانتقاص من شأنها فقال: "وليتأمل القارئ جيدا قوله: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ الآية، فإن فيه قطع الطريق عن أعدار المعتزدين لهضم حقوق المرأة وإساءة عشرتها، بدافع نفور الطبع، فربما جعل الله فيما نكره ما نحب ونحن لا نعلم، فلا نغتر بتمويه الطبع"⁷⁰.

يبدو من خلال هذا الربط للآيات بالواقع أن هضم حقوق المرأة وإساءة عشرتها، كان له انتشار كبير في زمانه، لذا نجد أن الشيخ تصدى لمثل هذه الظواهر الاجتماعية وحاربها.

خامسا: دعوة أهل زمانه إلى إصلاح ذات البين والتحذير من الخلاف والتفرق

تناول الشيخ في هذا المقال الدعوة إلى إصلاح ذات البين، وإزالة كل أشكال الخلاف بين المسلمين، حتى تكون قلوبنا مجتمعة متحدة، وأن ديننا حذرنا من نكون من المنافقين الذين قال الله في حقهم: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، وقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: 59].

ثم حذر الشيخ على ضوء ما تضمنته هاتين الآيتين أمته من المفتنين الذين يستغلون ما يحدث بين المسلمين من خلاف لزرع نار الفتنة والتفرق، فقال: "ولكن فينا شياطين يصدون عن الدين، وإن فينا مفرقين يستغلون ما يحدث من خلاف بين المسلمين فيوغرون صدورهم ويوقدون نار الفتنة بينهم بما ينفثون من سموم السعاية وما ييثون من جرائم الوشاية لا يخافون في الشر لومة لائم رضوا بأن يكونوا قناطر للشر ومعابر للفتنة كما رضوا لأنفسهم بهذه السفارة الرخيصة سفارة الجرائم في نقل الأمراض فرق بينهم وبينها إلا أن الجرائم تسمم

⁶⁸ أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم الحديث: 2169، (268/4)، وقال

الترمذي: حديث حسن.

⁶⁹ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص185).

⁷⁰ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص265).

الأبدان وهؤلاء يسممون القلوب التي لا صلاح للأبدان إذا فسدت"⁷¹.

ويواصل الشيخ توصيفه للواقع بأن المسلم إذا قام بوظيفة الإفساد بين إخوانه، فماذا أبقى للشيطان الذي يسعى لإشقاء بني آدم، وماذا أبقى للمستعر المتخصص في غرس شجرة الخلاف الملعونة، فقال: "وإذا قام المسلم بهذه الوظيفة الوضيعة فما الذي أبقى للشيطان الذي يجعل الخلاف وسيلته الكبرى لإشقاء بني آدم في العاجل والآجل، وماذا أبقى للمستعمر الأستاذ الأكبر المتخصص في غرس شجرة الخلاف الملعونة وتنميتها وتموين الفتنة وتغذيتها على أنه إذا كان في مجتمعنا دعاة للشر والفتنة فإن فيه كذلك دعاة للخير والألفة وكلا الفريقين معروف بأعماله، فلتعرف الأمة ذلك ولتعمل به، وإذا لم يعظها شيء فلتتعظ بما يقع في مجتمعها من خصومات أودت بوحدها وفتكت بمالياتها..."⁷².

يظهر من هذا الإسقاط ربط الشيخ بين دعاة الخير والألفة، والمخالفين لهم وهم دعاة الشر والفتنة، وعلى رأسهم شيطان المستعمر، منها أمته للتفريق بين الفريقين.

سادسا: دعوة المسلمين إلى التحلي بالأخلاق والفاضلة

أشار الشيخ إلى هدي القرآن في دعوة المسلمين إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة، إذ يقول: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:34] ثم أسقط هذه الآية على واقعه فقال: "وإذا كانت الكلمة اللينة والصدر الرحب من خير أدوات الدعوات بحيث تجعل العدو صديقا كما تشير إليه الآية، فبعكس ذلك تكون الكلمة الجافية والصدر الضيق من شر أسباب النفور بحيث يجعلان الصديق عدوا، وهذا ما آل إليه حال المسلمين بعد أن انحرفوا عن منهج القرآن وأدب الإسلام..."⁷³.

بين الشيخ من خلال هذا التنزيل على الواقع ما آل إليه حال المسلمين في زمانه من ضعف وهوان، من جراء بعدهم عن منهج القرآن وأدب الإسلام.

سابعا: دعوة أمته للتعليم وعدم الاكتفاء بالمظاهر الكاذبة

أشار الشيخ إلى أن القرآن حذر من الاغترار بالمظاهر الخداعة، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشِبٌ مُسْنَدَةٌ﴾، ثم أسقط هذه الآية على واقعه فقال: "ما شاء الله! إنها لصورة طبق الأصل لطبقة كبيرة في المجتمع، يخدعك مظهرها اللامع المتبجح عما يخفي وراءه من تفاهة وحقارة وزيف، طبقة تعيش على حساب المجتمع- ما دام الظالم الضارب في البيداء، ... إنها لصورة رائعة من صور القرآن تهيب بالناس أن يتعلموا ولا يكتفوا بالمظاهر الكاذبة التي لا يطول أمدها إذ سرعان ما يفضحها الواقع"⁷⁴.

⁷¹ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص125).

⁷² أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص125).

⁷³ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص45).

⁷⁴ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص45).

ثامنا: الحسرة على واقع أمته وعرض نماذج من عباد الله للتأسي والاقتداء بهم
 ذكر الشيخ في هذا المقال نماذج حية من عباد الله، الذين وصفهم القرآن بقوله: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 16-17]، وبقوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ وبقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الذاريات: 17-18].

وبعد ذكره لهذه الآيات حاول إسقاطها على واقع أهل زمانه فقال: "وقلت: أين هؤلاء اليوم؟ وكيف اختفوا جميعا فلم تقع العين على واحد منهم؟ .. فطفرت دمعة أخرى من عيني، على غير شعور مني، إذ علمت أن هذا العصر المادي قد أجذب من أمثال هؤلاء، ولم يبق إلا من يبيتون نياما، لا قياما، وأمواتا لا أحياء..."⁷⁵.

يظهر من خلال هذا الاسقاط حسرة الشيخ الشديدة على بعد أهل زمانه عن التعبد والتقرب إلى الله بالطاعات والعبادات، وانشغالهم بالدنيا وشهواتها.

تاسعا: مقارنة بين أوصاف عباد الرحمن وما عليه أهل زمانه

ضمن حلقات أصددها الشيخ أحمد سحنون في جريدة البصائر تحت مسمى: "على مائدة القرآن" عقد فيها مقارنة بين عباد الرحمن وبين ما عليه أهل زمانه، من أجل أخذ العبرة والتأسي بهم والسير على خطاهم، ومن ذلك:

- أن الشيخ أشار إلى أن القرآن وصف عباد الرحمان بالمشي على الأرض هونا فقال: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 73]، ثم أسقط هذه الآية على أهل زمانه فقال: "ونحن قلما نمشي هونا، لأننا نمشي مسوقين بدوافع من دنيانا ومقودين بجواذب من هوانا، وما أحكم الإسلام، إذ يلحظ سلوكنا حتى في مشيتنا لنعطي للأمم المثل الأعلى في كل شيء..."⁷⁶.

- وأشار إلى أن القرآن وصف عباد الرحمان بالرشد والكياسة وحسن التصرف بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67]، ثم أسقط هذه الآية على واقعه فقال: "أما نحن فما أبعد الرشd وحسن التصرف منا فنحن- إذ ننفق- إما مسرفون أو مقترون، وكلا الأمرين ذميم"⁷⁷.

- وذكر الشيخ أن القرآن وصف عباد الرحمان بالطموح إلى معالي الأمور في الدنيا والدين، إذ يقول: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74]، ثم نزل هذه الآية على أهل زمانه، فقال: "ونحن قد رضينا بالدون في الدنيا والدين"⁷⁸.

- وأن القرآن وصف عبد الرحمان بأن لهم قلوبا رقيقة تتأثر بكلام الله وتعتبر بآيات الله إذ

⁷⁵ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص260).

⁷⁶ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص92).

⁷⁷ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص93).

⁷⁸ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص94).

يقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُجُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان:73]، ثم أسقط هذه الآية على أهل زمانه فقال: "ونحن على النقيض من ذلك تماماً قد قست قلوبنا ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:74]"⁷⁹.

ليخلص الشيخ في الأخير إلى خلاصة هذه المقارنة، حيث قال: "الحق أننا في واد وعباد الرحمن الذين وصفهم القرآن في واد، لأننا في واد، والقرآن في واد، حتى كأننا موكلون بمخالفة القرآن، فإذا أردنا أن نكون من عباد الرحمن، فلنتأدب بآداب"⁸⁰. وقد وفق الشيخ أيما توفيق في تنزيل آيات صفات عباد الرحمن المضمّنة في الآيات القرآنية وبين ما عليه أهل زمانه، وذلك ليكون حافزاً لهم للسير على منهاجهم والتخلق بأخلاقهم ولناخذ منهم العبرة.

المطلب الثاني: ضوابط تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ أحمد سحنون

نجد أن الشيخ أحمد سحنون وقف موقفاً متوازناً من إسقاط الآيات القرآنية على الواقع، ويظهر ذلك من خلال الضوابط التي التزم بها في التنزيلات التي سبق بيانها، والتي يمكن حصرها في النقاط الآتية:

الفرع الأول: الموضوعية والتجرد عند تنزيل الآيات على واقعه

ومعنى هذا الضابط أن يتجرد المجتهد من كل المقررات السابقة (الأفكار، المذاهب، النظريات، التصورات،) أثناء فهمه للنص وتنزيله على واقعه، وفي هذا يقول المودودي في كتابه المبادئ الأساسية لفهم القرآن تحت عنوان: منهج لدراسة القرآن: "يجب كخطوة أولى على من يريد فهم القرآن، سواء آمن به أو لم يؤمن أن يُخلي ذهنه ما أمكن من جميع ما استقر فيه من قبل من التصورات والنظريات، ويُطهره من سائر ما يُكنّه من الرغبات الموالية أو المناوئة، ثم يكب على دراسته بقلب مفتوح وأذن واعية وقصد نزاهة لفهمه، أما الذين يدرسونهم واضعين طائفة من التصورات في أذهانهم مقدماً، فما يقرؤون بين دفتيه إلاّ تصوراتهم أنفسهم، ولا يجدون شيئاً من رائحة القرآن، ولا يصلح هذا المنهج لدراسة إي كتاب من الكتب، فكيف بالقرآن الذي لا يفتح كنوز معانيه أبداً للذين يدرسونه باتباع مثل هذا المنهج"⁸¹.

والمتمثل في كتابات الشيخ أحمد سحنون وتنزيلاته للآيات القرآنية على الواقع يلمس تجرده في الفهم والاستنباط والإسقاط على الواقع.

الفرع الثاني: التزام الشيخ النظرية المتكاملة في النص الشرعي

من المقرر أن العالم إذا أراد النظر في قضية ما، يقوم بجمع كل النصوص التي وردت متحدثاً حول هذه القضية، بما في ذلك الأحاديث النبوية التي تُعين على فهم الآيات القرآنية، أما إذا اقتصر في النظر على بعض النصوص القرآنية دون بعض فإن نظره للقضية تكون قاصرة، كما قال الإمام الشاطبي: "... فإن القضية وإن اشتملت على جمل: فبعضها متعلق ببعض لأنها قضية واحدة نازلة

⁷⁹ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص94).

⁸⁰ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص94).

⁸¹ المودودي، المبادئ الأساسية لفهم القرآن، (ص26-27).

في شيء واحد، فلا محيص للمتهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرق النظر في أجزائه؛ فلا يتوصل به إلى مراده، فلا يصح الاختصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض، ...⁸².

فالشَّيْخُ أَحْمَدُ سَحْنُونُ رحمه الله كان إذا تناول قضية من القضايا، فإنه يجمع لها كل النصوص الواردة فيها، وفي بعض الأحيان يلجأ إلى الأحاديث النبوية التي تُعينه على فهم الآيات القرآنية الواردة في هذه القضية، ومن الأمثلة على ذلك: قضية إنكار البعث والجزاء التي ظهرت في زمانه، والتي حاول الشيخ تفنيدها والرد عليها، من خلال جمع الآيات التي تتعلق بهذه القضية، ومنها:

قوله تعالى: ﴿يُحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَى * ثُمَّ كَانَ عِلقَةً فَخَلَقَ فَسَوَى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: 36-40].

وقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ ذَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: 5-8].

ثم لجأ إلى السنة النبوية للاستعانة بها في فهم الآيات القرآنية، ومنها بيان سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ ...﴾ [يس: 77-79]. فقال: "وروي أن العاص بن وائل أخذ عظماً رميماً ففتته وقال للنبي ﷺ: أترى يحيي الله هذا بعدما بلى ورم؟ فقال ﷺ: نعم ويدخلك النار، ونزل فيه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 77-79]، وهذه كلها أدلة قوية على أن من خلق الخلق قادر على أن يعيدهم ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾⁸³.

ثم بعد هذا العرض للأدلة التي تُثبت البعث والجزاء من الكتاب والسنة، انتقل إلى تنزيلها على واقع أهل زمانه، فقال: "لذلك لا يخلو زمان ولا مكان من منكرين للبعث والجزاء ولا سيما هذا العصر المادي الذي لا يؤمن أهله إلا بكل مادي محسوس ولقد رأينا كثيراً من المسلمين اليوم جرفهم هذا التيار، تيار الإنكار لعالم الغيب وعدم الإيمان بغير المادي المحسوس من الأشياء، ولا سيما من تثقف ثقافة غربية"⁸⁴.

والأمثلة على ذلك كثيرة⁸⁵ لا يسع المجال لذكرها مراعاة لحجم البحث.

الفرع الثالث: إحاطة الشيخ أحمد سحنون وفهمه الدقيق لواقعه

كما هو معلوم فإن فقه الواقع واجب للعالم، قبل البت في الحوادث والنوازل التي تطرأ في حياة الناس؛ كما أشار إلى ذلك الإمام ابن القيم بقوله: "ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى

⁸² الشاطبي، الموافقات، (266/4).

⁸³ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص70).

⁸⁴ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، (ص71).

⁸⁵ يُنظر مثلاً: الأدلة الواردة في: قضية وجوب المسارعة للتوبة، ص 72-73، ...

والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علماً⁸⁶، وتبرز أهميته الفهم الدقيق للواقع في كونه يُعد البوابة التي يلج منها العلماء إلى استنباط الحكم.

والقرائن والأمارات التي أوردتها الشيخ في تنزيلاته للواقع والتي سبق ذكرها كافية لبيان الفهم الدقيق للشيخ لواقع أهل زمانه، ولمخططات المستعمر الغاشم، ومن الأمثلة على ذلك: تعجبه للانتشار المذهل للرسالة المنسوبة للشيخ أحمد خادم القبر الشريف بين أفراد المجتمع، خلال هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الأمة، ثم يبين الغرض الحقيقي من هذا الانتشار، فقال: "... وإنما راجت بصفة مدهشة، في هذه الفترة الحاسمة من حياة هذه الأمة، لغرض آخر جديد غير غرض (الشيخ أحمد) وأكبر منه، غرض تعين على فهمه وتفسيره الحالة الحاضرة، لعله يراود به صرف تفكير الأمة عما يسبب القلق لمستغليها وتخدير شعورها، فتخلد إلى الدعة، والسكون، وذلك ما لا يكون..."⁸⁷، وهذا فيه دليل على الفهم الدقيق للشيخ لواقعه.

الفرع الثالث: الانطباق التام لتنزيلات الشيخ أحمد سحنون على الواقع

المتأمل في تنزيلات الشيخ أحمد سحنون على واقع أهل زمانه، يلاحظ الانطباق التام لمضمون الآيات على القضايا والنوازل التي وقع عليها الإسقاط: بل نجد أن الشيخ يصرح في كثير من الأحيان على هذا التطابق، ومن ذلك ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشِبٌ مُسْنَدَةٌ﴾، حيث قال: "ما شاء الله! إنها لصورة طبق الأصل -أي معنى الآية- لطبقة كبيرة في المجتمع..."⁸⁸.

الفرع الرابع: تكييف الشيخ أحمد سحنون للواقع شرعاً

ونقص بتكييف الشيخ للواقع شرعاً، مدى موافقة أحكامه التي أسقطها على الواقع للكتاب والسنة، لأن الموافقة شرط من شروط تنزيل الحكم على الواقع، كما أشار إلى ذلك الإمام ابن القيم بقوله: "ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان قوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر..."⁸⁹.

والمتأمل في إسقاطات الشيخ أحمد سحنون على واقع أهل زمانه والتي سبق الإشارة إليها، يلاحظ أن الشيخ لم يخرج على ما حكم به علماء أهل زمانه في جلّ القضايا التي تعرض إليها: كالإمام عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي، ...، ومن الأمثلة على ذلك:

• وافق رده على منكري البعث والجزاء، ردّ الإمامين: عبد الحميد بن باديس⁹⁰؛ والبشير الإبراهيمي⁹¹.

⁸⁶ ابن القيم، أعلام الموقعين، (69/1)

⁸⁷ أحمد سحنون، دراسات وتوجهات إسلامية، (ص87).

⁸⁸ أحمد سحنون، دراسات وتوجهات إسلامية، (ص89)

⁸⁹ ابن القيم، أعلام الموقعين، (69/1)

⁹⁰ ابن باديس، آثار ابن باديس، (85/2)

⁹¹ البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، (349/2)

• وكذا عند رده على الداعين للإلحاد، فقد وافق رده ما ذكره الإمام عبد الحميد بن باديس⁹² والبشير الإبراهيمي⁹³ بصورة تكاد تكون حرفيه....

والأمثلة الدالة على موافقة الشيخ لمن سبقه من أهل العلم في الحكم على القضايا والحوادث التي تطرأ على حياة الناس كثيرة لا يسع المجال لذكرها أو التفصيل فيها.

خاتمة

في الختام يمكن الخروج بأهم النتائج والتوصيات التي تمّ التوصل إليها من خلال:
أولاً: من أهم النتائج:

• لقد كان للتكوين العلمي للشيخ أحمد سحنون بداية من حفظه للقرآن في سن مبكرة، وشيوخه، ومؤلفاته، الأثر الكبير في تميزه في تنزيل الآيات القرآنية على واقعه.

• عناية الشيخ أحمد سحنون -كعادة علماء جمعية العلماء المسلمين- بتنزيل الآيات على الواقع، ومحاولة مقارنة القضايا والحوادث الحادثة في زمانه، بما يناسبها من آيات القرآن.

• للشيخ أحمد سحنون أسلوب مميز في تنزيل الآيات على الواقع، جمع فيه بين التصريح المباشر أحياناً، والتصريح غير المباشر أحياناً أخرى.

• يذهب الشيخ إلى أن العبرة في تنزيل الآيات القرآنية على الواقع بعموم اللفظ الذي جاءت به الآية لا بخصوص السبب الذي نزلت من أجله.

• اتخذ الشيخ أحمد سحنون من ربط الآيات على واقعه، أداة لحث الناس للرجوع للقرآن والاعتراف من معينه الصافي، وإصلاح أحوال مجتمعه.

• تنوعت مجالات إسقاط الآيات على الواقع عند الشيخ أحمد سحنون، بين: المجال العقدي والتعبدية، المجال السياسي والفكري، والمجال الاجتماعي والسلوكي؛ إلا أن المجال الأول هو الذي غلب على إسقاطات الشيخ.

• تميّز منهج الشيخ أحمد سحنون في إسقاطه للآيات القرآنية على الواقع، بسهولة أسلوبه وبعده عن التكلف والتعقيد.

• التزم الشيخ أحمد سحنون الأمثلة التي ورد ذكرها في البحث، تُبين بوضوح الضوابط التي التزم بها الشيخ أحمد سحنون في تنزيلاته للآيات القرآنية على الواقع.

ثانياً: من أهم التوصيات

• دعوة الباحثين للعناية بجمع مقالات الشيخ أحمد سحنون في مختلف الجرائد والمجلات، وإخراجها في كتاب واحد حتى يستفيد منها طلبة العلم.

• الدعوة إلى جمع تنزيلات الشيخ أحمد سحنون من مختلف الصحف والمجلات ودراستها.

• دعوة الأساتذة والباحثين للعناية بتنزيل الآيات على الواقع عند مفسري الغرب الإسلامي، كمذكرات ماستر ودكتوراه.

⁹² ابن باديس، آثار ابن باديس، (127/3)

⁹³ البشير الإبراهيمي، آثار الأمام محمد البشير الإبراهيمي، (271/2)

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، مصحف المكتبة الشاملة الذهبية، إصدار رجب 1443هـ.
- إبراهيم بن موسى الشاطبي، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، تقديم: بكر بن عبد الله أبوزيد، دار ابن عفان، ط1، 1417هـ-1997م.
- الإبراهيمي، أنار الإمام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997م.
- ابن باديس، أنار ابنُ باديس، المحقق: عمار طالي، مكتبة الشركة الجزائرية ط1، 1968م.
- ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، المحقق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ-1991م.
- أبو الأعلى المودودي، المبادئ الأساسية لفهم القرآن، دار التراث العربي، دط، دت.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، الجزائر، طبعة خاصة، 2007م.
- أحمد سحنون، تأيين شيخي العظيم الإمام محمد خير الدين، مجلة الموافقات، الجزائر، العدد:3، 1994م.
- بن سلامة الربيعي، موسوعة الشعر الجزائري، دار الهدى، الجزائر، 2002م.
- الترمذي، سنن الترمذي، المحقق: أحمد محمد شاکر (ج1، 2)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج3)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج4، 5)، مكتبة الحلبي - مصر، ط2، 1395هـ - 1975م.
- دراسات وتوجهات إسلامية، أحمد سحنون، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1992م.
- رابح خدوسي ومن معه، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، منشورات الحضارة، الجزائر، طبعة 2014م.
- الطبراني، المعجم الكبير، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط2.
- عبد العزيز الضامر، تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين - دراسة وتطبيق - ط1، 2007م.
- العلامة الطاهر آيت علجت يتحدث عن أخيه العلامة أحمد سحنون، عمار رقبة الشرفي، موقع المكتبة الشاملة الجزائرية، الاطلاع: 2022-09-10م، الساعة: 22:29، الرابط: <https://shamela-dz.net/?p=158>
- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، المحقق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، ط5، 1414هـ-1993م.
- محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2006م.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، المحقق: أحمد بن رفعت بن عثمان حلبي القره حصار، محمد عزت بن عثمان الزعفران بوليوي، أبو نعمة الله محمد شكري بن حسن الأنقروي، دار الطباعة العامة، تركيا، 1334هـ.
- الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، 1420هـ.

تعليم المرأة عند ابن عاشور

د/ يمينه سلمان

جامعة باتنة 1

selmaniami@gmail.com



ملخص

يتناول هذا البحث عرضاً لقضية من قضايا الإصلاح الاجتماعي عند ابن عاشور، وهي قضية تعليم المرأة والتي تحدث عنها خاصة في كتابيه: أصول النظام الاجتماعي، وأليس الصبح بقريب: دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، موظفاً في ذلك تنزيل النص القرآني، علماً أن للرجل دور بارز في إصلاح التعليم وتجديده في جامع الزيتونة بتونس، فضلاً عن التدريس والتأليف والإفتاء.

وقد سلط البحث الضوء بعد التعريف بابن عاشور على رأيه في قضية تعليم المرأة وبيان دورها البارز في الإصلاح، ثم على مسألة الحث على اكتساب العلم في الإسلام، وتفرد الإسلام من بين سائر الأديان بالتنويه بفضل العلم والاتصاف به، وأخيراً تناول مسألة إلحاق المرأة بالرجل في التكليف بطلب العلم وسائر التكالييف، وأن معظم ما تطالب به المرأة من العلم تشترك فيه مع ما يُطالب به الرجل، ويختص كل منهما بتعلم ما يتوافق مع فطرته.

كلمات مفتاحية: ابن عاشور، تعليم المرأة، فضل العلم، الإصلاح.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد منّ الله تعالى على الأمة الإسلامية بكتابه الكريم وجعله لها نورا تستضيء به في الدنيا لتسعد في الدارين، فمنه تستمد الحلول لمشكلاتها، والإجابات عن أسئلتها، فهو المصدر الأول لأحكام هذا الدين.

لذلك نجد أن العلماء أولوا قضية تنزيل النص القرآني على الواقع اهتماماً بالغاً، وخاصة منهم علماء الغرب الإسلامي على مختلف تخصصاتهم، ونخص بالذكر منهم في هذا البحث المتواضع الأستاذ الأكبر المتبحر في العلوم الإسلامية الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ورؤيته لقضية تعليم المرأة، علماً أن للرجل دوراً بارزاً في إصلاح التعليم وتجديده في جامع الزيتونة، إذ أنه أدخل نظاماً مهماً على التعليم في إطار فهم للشريعة والواقع.

وللشيخ مؤلفات كثيرة أخص بالذكر منها مؤلفين اثنين، تناول فيهما موضوع البحث:

الأول: أليس الصبح بقريب: دراسة تاريخية وآراء إصلاحية: عرض فيه ابن عاشور تاريخ المعارف البشرية عند الأمم القديمة وعند العرب في الجاهلية، ثم في العصور الإسلامية

الزاهية، كما يَبين فيه أهمية تعليم المرأة في الإسلام، ثم بين مواطن الخلل التي أصابت مناهج التعليم في عصور الانحطاط، ثم عرض طريقته للإصلاح التربوي والتعليمي.

الثاني: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام: تحدث فيه في قسمه الأول عن أصول إصلاح الأفراد من خلال إصلاح الاعتقاد وإصلاح التفكير وإصلاح العمل، وتطرق في هذا القسم إلى شأن المرأة في الإسلام، وتحدث في قسمه الثاني عن الإصلاح الاجتماعي.

وقد أحببت أن يكون لي دور في توضيح قضية تعليم المرأة عند ابن عاشور على شكل بحث مقدم ضمن المحور الرابع (توظيف تنزيل النص القرآني في الإصلاح الاجتماعي) للملتقى الدولي الثامن بعنوان: جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع من تنظيم جامعة الوادي، معهد العلوم الإسلامية، قسم أصول الدين، بالتعاون مع: مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية، بتاريخ: 15-16 نوفمبر 2022م. والله أسأل السداد والتوفيق.

أهمية الدراسة:

تظهر أهمية الدراسة في كونها بحثا يعالج قضية اجتماعية مهمة، وهي قضية تعليم المرأة من خلال النص القرآني عند الشيخ الطاهر ابن عاشور، وهو أحد أبرز العلماء المعاصرين المتضلعين في تفسير النص القرآني، مرتكزا على علم مقاصد الشريعة الذي برز وأبدع فيه، وجدد في مباحثه، بجانب اهتمامه الكبير بالإصلاح الاجتماعي.

مشكلة الدراسة: تتمثل مشكلة الدراسة في الإجابة على السؤال الآتي:

ما مدى أهمية تعليم المرأة عند ابن عاشور في ظل النصوص القرآنية وبارتكازه على مقاصد الشريعة وفهمه للنصوص القرآنية على وفقها؟

أهداف الدراسة: من أهداف الدراسة:

- 1- بيان المكانة الرفيعة التي أولاها الإسلام للمرأة.
- 2- بيان ضرورة تعليم المرأة للقيام بدورها الإصلاحي في تربية الأبناء.
- 3- إبراز فضل اكتساب العلم في الإسلام لعنصري الإصلاح في المجتمع: المرأة والرجل.
- 4- مناقشة بعض المسائل بالرجوع إلى المصادر المعتمدة.

الدراسات السابقة: من الدراسات السابقة التي لها علاقة بالبحث:

- شمام محمود، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور وعنايته بحقوق المرأة، مجلة الهداية المجلس الإسلامي الأعلى (1999م).

- عودة عبد الله وسامح عبد الإله، القضايا الاجتماعية المتعلقة بالمرأة قراءة في تفسير التحرير والتنوير، مجلة مدرات للعلوم الاجتماعية والإنسانية، المركز الجامعي غليزان (2021م).

منهجية المعالجة والتقسيم: اعتمدت هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي؛ وذلك باستعراض أقوال ابن عاشور المتعلقة بقضية التعليم في الإسلام عموما، وتعليم المرأة على وجه الخصوص، وبيان استدلالاته بالنص القرآني، ثم تحليل آرائه.

الخطبة:

- مقدمة.
- المبحث الأول: ابن عاشور وموقفه من تعليم المرأة.
- المطلب الأول: تعريف بابن عاشور.
- المطلب الثاني: ضرورة تعليم المرأة للقيام بدورها الإصلاحي في تربية الأبناء.
- المبحث الثاني: ابن عاشور وتعليم المرأة من خلال النص القرآني.
- المطلب الأول: الحث على اكتساب العلم.
- المطلب الثاني: إلحاق المرأة بالرجل في التكليف بطلب العلم وسائر التكليف عموماً.
- المطلب الثالث: واقع تعليم المرأة في الإسلام.
- الخاتمة.

المبحث الأول: ابن عاشور وموقفه من تعليم المرأة

في هذا المبحث نتعرف على ابن عاشور (نسبه ونشأته، علمه وأدبه، ومؤلفاته) في المطلب أول، وفي مطلب ثانٍ نبين ضرورة تعليم المرأة للقيام بدورها الإصلاحي في تربية الأبناء.

المطلب الأول: تعريف بابن عاشور:

الفرع الأول: نسبه ونشأته:¹

هو السيد محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، من بيت آل عاشور الأشراف الأندلسيين، وجده للأب الشيخ محمد الطاهر بن عاشور قاضي الحضرة التونسية، وصاحب المؤلفات القيمة، وجده للأم العلامة الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتور.

ولد الأستاذ بتونس سنة (1296هـ-1879م)، وشب على تعلم القرآن حتى أتقنه حفظاً، وفي سنة (1310هـ-1892م) دخل جامع الزيتونة، فثابر على تعليمه حتى أحرز شهادة (التطويع) سنة (1317هـ-1896م).

وفي سنة (1320هـ-1899م) فاز في مناظرة التدريس من الرتبة الثانية، وفي سنة (1324هـ-1903م) ارتقى بمناظرة أيضاً إلى التدريس من الرتبة الأولى.

وفي سنة (1321هـ-1900م) سعي مدرساً بالمدرسة الصادقية، مع بقائه مدرساً بالجامع الأعظم، وفي سنة (1325هـ-1904م) سعي نائباً عن الدولة لدى نظارة جامع الزيتونة العلمية، فابتدأ أعماله بإدخال نظم مهمة على التعليم بحسب ما سمح به الحال، وحرر يومئذ لائحة في

1- محمد الخضر حسين، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، جمع وضبط: المحامي علي الرضا الحسيني، سوريا: دار النوادر، ط: 1، 1431 هـ - 2010 م، 156-154/11. ومحمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط: 2، 1994 م، 304/3، 305. وعادل نويهض، معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ط: 3، 1409 هـ - 1988 م، 542، 541/2.

إصلاح التعليم، وعرضها على الحكومة، فأمكن تنفيذ شيء منها، وأبقى كثير منها إلى فرص أخرى، كما سعى في إحياء بعض العلوم العربية بالجامع، وقد كان غالب أهل العلم يقتصر منها على النحو، وعلى المعاني والبيان، فأكثر من دروس الصرف في مراتب التعليم الثلاث، ومن دروس أدب اللغة، وشرع في تدريس "ديوان الحماسة" بنفسه. ولما تأسست لجنة النظر في تنقيح برنامج التعليم سنة (1329هـ-1908م)، كان الأستاذ ابن عاشور عضواً في هذه اللجنة، وهو الذي تولى تقرير حالة التعليم، وكان الاعتماد على لائحته المشار إليها آنفاً.

وقدم لائحة في إيجاد تعليم ابتدائي إسلامي منظم في خمس مدن من مدن تونس. وفي تلك السنة سعي عضواً بالمجلس المختلط العقاري.

وفي سنة (1331هـ-1913م) أسندت إليه خطبة القضاء المالكي بعاصمة تونس، ودخل في هيئة النظارة العلمية التي تدير شؤون جامع الزيتونة.

وفي سنة (1341هـ-1923م) سعي مفتياً مالكيّاً بالديار التونسية، وعاد إلى التدريس بالجامع الأعظم وبالمدرسة الصادقية، وفي سنة (1343هـ-1925م) عهد إليه بأمر النيابة عن الشيخ (باش مفتي) رئيس المالكية، وفوض إليه مباشرة وظائفه الشرعية والعلمية.

وفي سنة (1345هـ-1927م) ارتقى إلى رتبة باش مفتي بالأصالة؛ أي: صار رئيساً للمجلس الشرعي المالكي، وتلك الخطة تخوله أيضاً أن يكون أحد رئيسي المعهد الزيتوني، واستمر على إلقاء دروسه في مواقيتها، مع أن خطته تخوله الانقطاع عن التدريس؛ إذ لم يبق معها في صف المدرسين.

وفي جمادى الأولى سنة (1351هـ-1932م) صدر الأمر الملكي بتلقيبه (شيخ الإسلام المالكي)، وتسويته بزميله (شيخ الإسلام الحنفي) تسوية تامة.

الفرع الثاني: علمه وأدبه¹

شب الأستاذ على ذكاء فائق، والمعية وقادة، فلم يلبث أن ظهر نبوغه بين أهل العلم. تقلب الأستاذ في مناصب التدريس، وقام بتدريس كتب عالية في جامع الزيتونة، فدرّس "دلائل الإعجاز"، و"الشرح المطول" للفتازاني، و"شرح المحلى لجمع الجوامع"، و"مقدمة ابن خلدون"، وقام بتدريس تفسير القرآن الكريم، و"موطأ" مالك بن أنس، و"ديوان الحماسة". وللاستاذ فصاحة منطق، وبراعة بيان، ويضيف إلى غزارة العلم وقوة النظر: صفاء الذوق، وسعة الاطلاع في آداب اللغة.

قال عنه صديقه الشيخ محمد الخضر حسين: "...فكنت أرى لساناً لهجته الصدق، وسريرة نقية من كل خاطر سيئ، وهمة طماحة إلى المعالي، وجداً في العمل لا يمسّه كلل، ومحافظة على واجبات الدين وآدابه، وبالإجمال: ليس إعجابي بوضاءة أخلاقه، وسماحة آدابه بأقل من

1- محمد الخضر حسين، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، 156/11، 157. ومحمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 306/3.

إعجابي بعبقريته في العلم."

وقال عنه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

"الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور علم من الأعلام الذين يعدّهم التاريخ الحاضر من ذخائره، فهو إمام متبحّر في العلوم الإسلامية، مستقلّ في الاستدلال لها، واسع الثراء من كنوزها، فسيح الذرع بتحمّلها، نافذ البصيرة في معقولها، وافر الاطلاع على المنقول منها، أقرأ وأفاد، وتخرّجت عليه طبقات ممتازة في التحقيق العلمي، وتفرد بالتوسّع والتجديد لفروع من العلم ضيّقها المنهاج الزيتوني، وأبلاها الركود الذهني، وأنزلتها الاعتبارات التقليدية دون منزلتها بمراحل: فأفاض عليها هذا الإمام من روحه وأسلوبه حياة وجدة، وأشاع فيها مائة وروناً، حتى استرجعت بعض قيمتها في النفوس، ومنزلتها في الاعتبار.

وبعيد جداً أن يبلغ الإصلاح في الكلية الزيتونية مبلغه قبل أن تقوم الدراسات العليا فيه على ساق، وقبل أن تنفق لها في عرصاته سوق، وقبل أن تشمل تلك الدراسات التفسير والحديث والأخلاق والأدب والتاريخ".¹

ثم أشار إلى دوره البارز في إصلاح التعليم وتجديده، بقوله: "هذه لمحات دالة- في الجملة- على منزلته العلمية، وخلاصتها أنه إمام في العمليات لا ينازع في إمامته أحد.

وأما العمليات فلا نعدّ منها التدريس في جامع الزيتونة، وإنما نعدّ منها إصلاح التعليم في جامع الزيتونة، وقد اجتمعت في الأستاذ وسائله، وتكاملت أدواته، من عقل راجح لا يخيس وزنه، وبصيرة نافذة إلى ما وراء المظاهر الغرّارة، وفكر غوّاص على حقائق الأشياء، وذكاء تشفّ له الحُجب، واطلاع على تاريخنا العلمي في جميع أطواره، واستعداد قوي متمكّن للتجديد والإصلاح، ومن شأن هذه المواهب المتجمعة في أمثال الأستاذ أنها تكمن حتى تُظهرها الحاجة والضرورة؛ والحاجة إذا ألحّت كشفت عن رجل الساعة، وأخرجت القوائم المنتظر، وقد وُجدت الحاجة إلى الإصلاح في كليتنا، فوجد الرجل المدّخر، فكان الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور؛ وإن تدبير الأحوال الاجتماعية لأقوى وأبقى من تدبير الجماعات، وإن تدبير الجماعات لأثر من روح الاجتماع، وإن غفل الناس عن ذلك".²

قام برحلات إلى المشرق لأداء فريضة الحج وإلى أوروبا واستانبول. وهو أول من أحرز على الجائزة التقديرية للرئيس الحبيب بورقيبة.

قال عن نفسه: "ولا أنس برفقة ولا حديث أنسي بمسامرة الأساتيد والإخوان في دقائق العلم ورقائق الأدب، ولا حُب إلي شيء ما حُببت إلي الخلوة إلى كتاب والقرطاس متنكبا كل ما يجري من مشاغل تكاليف الحياة الخاصة ولا أعباء الأمانات العامة التي حملتها فاحتملتها في القضاء وإدارة التعليم حالت بيني وبين أنسي في دروس تضيء منها بروق البحث الذكي والفهم

1- محمّد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط: 1، 1997، 549/3.

2- المرجع السابق.

الصائب بيني وبين أبنائي الذين ما كانوا إلا قرة عين وعدة فخر، ومنهم اليوم علماء بارزون، أو في مطالعة تحارير أخلص فيها نجيا إلى الماضي من العلماء والأدباء الذين خلفوا لنا آثارهم الجليلة ميادين فسيحة ركضنا فيها الأفهام والأقلام ومرامي بعيدة سدّدتنا إليها صائب المهام.

فالحمد لله الذي بؤنا بين الماضي من أسلافنا والآتين من أخلافنا منزلة من تلقى الأمانة فأداها وأوتي النعمة فشكرها ووفّاها" (من الكلمة التي ألقاها يوم إسناد جائزة الرئيس بورقيبة إليه).¹

وكان من أعضاء المجمعين في دمشق والقاهرة، واشتهر بالصبر وقوة الاحتمال وعلو الهمة والاعتزاز بالنفس والصمود أمام الكوارث والترفع عن الدنيا توفي يوم الأحد 13 رجب 1393/12 أوت 1973. ودفن بمقبرة الزلاج.²

الفرع الثالث: مؤلفاته:

أولا: مؤلفاته المطبوعة:³

- (1) أصول الإنشاء والخطابة.
- (2) أليس الصبح بقريب.
- (3) التحرير والتنوير تفسیر القرآن الكريم.
- (4) حاشية على التنقيح للقرافي في أصول الفقه سمي التوضيح والتصحيح.
- (5) شرح قصيدة الأعشى الأكبر في مدح المخلّق.
- (6) قصة المولد النبوي الشريف.
- (7) كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ.
- (8) مقاصد الشريعة الإسلامية.
- (9) موجز البلاغة.
- (10) النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح.
- (11) النظام الاجتماعي في الإسلام.
- (12) الوقف وأثره في الإسلام.

ثانيا: ومن تحقیقاته:⁴

- (1) ديوان بشار بن برد، طبع لأول مرة في القاهرة في أربعة أجزاء.
- (2) الواضح في مشكلات المتنبي.
- (3) سرقات المتنبي.
- (4) ديوان النابغة الذبياني، جمع وشرح وتعليق.

1- محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 306/3، 307.

2- المرجع السابق، 307/3.

3- المرجع السابق، 307/3، 308.

4- المرجع السابق، 308/3.

ثالثاً: ومن مؤلفاته المخطوطة:¹

- (1) أصول التقدم في الإسلام.
- (2) أمالي على دلائل الإعجاز.
- (3) أمالي على مختصر خليل.
- (4) آراء اجتهادية.
- (5) تراجم بعض الأعلام.
- (6) تحقيق وتصحيح وتعليق على كتاب الاقتضاب لابن السيد البطليوسي مع شرح أدب الكاتب.

- (7) تحقيق وتعليق على كتاب خلف الأحمر المعروف بمقدمة في النحو.
 - (8) تعليقات وتحقيق على حديث أم زرع.
 - (9) تعليقات على المطول وحاشية السيالكوتي.
 - (10) شرح ديوان الحماسة.
 - (11) شرح معلقة امرئ القيس.
 - (12) تصحيح وتعليق على كتاب الانتصار لجالينوس للطبيب ابن زهر.
 - (13) كتاب تاريخ العرب.
 - (14) جمع وشرح ديوان سحيم.
 - (15) الفتاوى.
 - (16) قضايا وأحكام شرعية.
 - (17) غرائب الاستعمال.
 - (18) مراجعات تتعلق بكتابي معجز أحمد واللامع العريزي.
 - (19) مسائل فقهية وعلمية تكثر الحاجة إليها ويعول في الأحكام عليها.
 - (20) قلائد العقبان للفتح بن خاقان شرح وتحقيق وإكمال.
 - (21) تحقيق لشرح القرشي على ديوان المتنبي.
- رابعاً: مقالاته ورسائله:²

فقد جمع المحقق محمد الطاهر الميساوي مقالات الإمام ورسائله في أربعة أجزاء بعنوان: جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر بن عاشور.

المطلب الثاني: ضرورة تعليم المرأة للقيام بدورها الإصلاحي في تربية الأبناء:

ذكر ابن عاشور أن العرب في الجاهلية كانوا يفرقون بين البشر على أساس الذكورة والأنوثة؛ فكانوا يرفعون من شأن الرجل ويحطون من شأن المرأة، واستدل على ذلك بما ورد

1- المرجع السابق، 308/3، 309.

2- محمد الطاهر الميساوي (جمع وقراءة وتوثيق)، جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر بن عاشور، الأردن، دار النفائس، ط: 1، 1436هـ/2015م.

في سورة الأنعام فقال:

"... العرب في الجاهلية جعلوا المرأة منعزلة عن التكليف ومنحطة في القربات، وقد حكي الله عنهم في سورة الأنعام: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّدُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ...﴾ (139) الأنعام. يعني أن ما تلده البهيمة¹ والسائبة² إن وُلد حيا فهو خالص للذكور يأكلونه، ولا تأكله النساء، وما وُلد ميتا يأكله الرجال والنساء.

وقد سفيهم الله في ذلك فقال: ﴿... سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (139) الأنعام. وسوغوا المؤودة وهي الأنثى، فلأبها أن يدفنها حية خشية السبي أو الفقر، ولا تُمكن أمها ولا إختوها صد أبها عن ذلك، قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ (140) الأنعام.³

ثم ذكر موقف الإسلام من هذه التفرقة فقال:

"أما الإسلام فلم يحسب في دعوته فرقا شديدا بين الرجل والمرأة، بل أمر النساء بمثل ما أمر به الرجال."⁴

وبين أنه لا يمكن عزل المرأة عن دور الإصلاح لأنها تقوم بتربية الأبناء، وهي أحد صنفي البشر، وعدم تعليمها يجعلها غير مؤهلة لتربية أولادها التربية الكاملة، ويحرم الأمة من الانتفاع بصنف كامل من البشر، فقال:

"... وكيف تُعزل المرأة عن الإصلاح جانبا، وهي أحد صنفي البشر، وهي متولية تربية الأبناء الذين هم بقاء النوع، فهي إذن غرس جذور الأخلاق فاضلها وسافلها، فبقاء المرأة منحطة الفكر، غارقة في الجهل إبقاء لها في حالة منحطة، وذلك يسلب منها الأهلية لتربية أولادها تربية كاملة، ولسياسة بيتها على الوجه الأكمل، ويسلب الأمة الانتفاع بصنف كامل من البشر، فلذلك كان استئناؤها من التكليف الشرعية إزالة لاستعدادها الفطري..."⁵

1- البهيمة هي الناقة كانوا يشقون أذنبا بنصفين طولاً علامة على تخليتها؛ أي أنها لا تُركب ولا تُنحر، ولا تُمنع عن ماء ولا عن مرعى، ولا يجزرونها، ويكون لبنها لأصنامهم، ولا يشرب لبنها إلا ضيف، والظاهر أنه يشربه إذا كانت ضيافة لزيارة الصنم، أو إضافة سادته... وإذا ماتت حنفت أنفها حلّ أكل لحمها للرجال وحرم على النساء. انظر ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، ط: 1984، 72/7.

2- السائبة البعير أو الناقة يُجعل نذرا عن شفاء من مرض أو قدوم من سفر، فيقول أجعله لله سائبة، وحكم السائبة كالبعيرة في تحريم الانتفاع، وكانت علامتها أن تُقطع قطعة من جلدة فقار الظهر. المرجع السابق، 72/7، 73.

3- ابن عاشور، محمد الطاهر، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، مصر: دار السلام، ط: 1، 1426هـ/2005م، ص: 90.

4- المرجع السابق.

5- المرجع السابق. وفي هذا السياق يذكر الشيخ البشير الإبراهيمي أن حرمان المرأة المسلمة في الجزائر وغيرها من الأقطار الإسلامية من التعليم نزعة قديمة خاطئة راجت بين المسلمين، وهي أن تعليم البنات مفسدة لها، ويردد أصحاب هذه النزعة أثارا مقطوعة الأسانيد مخالفة لمقاصد الشريعة العامة، وتربية محمد صلى الله عليه وسلم العملية لنسائه ونساء المسلمين العالمات. انظر محمد البشير الإبراهيمي، أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط: 1، 1997م، 64/200.

بل إن المخاطبين بالإصلاح هم جميع الناس بغض النظر عن الجنس واللون والمنزلة، وفي هذا يذكر¹ ابن عاشور أن الإسلام جاء بتوجيه الخطاب بدعائم الإصلاح لسائر الناس الرجال والنساء، والبيض والسود، والسادة والسوقة.

وعلازمة ذلك أن دعوته وخطابه لم تفصل بين أفراد النوع في الكثير الغالب وإنما صرحت بالتعميم في خطابات كثيرة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (107)﴾ الأنبياء، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ... (28)﴾ سبأ، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُتَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ... (97)﴾ النحل.

ثم يذكر² أن هذا العموم تابع لمعنى الفطرة المؤسس عليه الإسلام، فإن استواء البشر في أصل الفطرة يقضي أن يستووا في الدعوة والتشريع الفطري، إلا إذا دخل على الفطرة شيء من الاختلاف فيظهر لذلك الاختلاف أثر في التشريع كما في بعض أحكام النساء.

كما تحدث ابن عاشور عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿... وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ (228)﴾ البقرة، عن عناية الإسلام بشأن المرأة باعتبارها نصف النوع الإنساني والمربية الأولى فقال:

"ودين الإسلام حري بالعناية بإصلاح شأن المرأة، وكيف لا وهي نصف النوع الإنساني، والمربية الأولى التي تفيض التربية السالكة إلى النفوس قبل غيرها، والتي تصادف عقولا لم تمسها وسائل الشر، وقلوبا لم تنفذ إليها خراطيم الشيطان. فإذا كانت تلك التربية خيرا وصدقا وصوابا وحقا، كانت أول ما ينتقش في تلك الجواهر الكريمة، وأسبق ما يمتزج بتلك الفطر السليمة، فهيأت لأمثالها من خواطر الخير منزلا رحبا، ولم تغادر لأغيارها من الشرور كرامة ولا حبا. ودين الإسلام دين تشريع ونظام، فلذلك جاء بإصلاح حال المرأة، ورفع شأنها لتتبع الأمة الداخلة تحت حكم الإسلام إلى الارتقاء وسيادة العالم."³

والخلاصة أن القرآن الكريم سفّه أهل الجاهلية بسبب عزلهم المرأة وجعلها في مرتبة أقل من الرجل، وخاطب جميع الناس بالإصلاح رجالا ونساء، بيضا وسودا، وسادة وعامة.

ويرى ابن عاشور أن عزل المرأة عن الإصلاح جانبا، وهي أحد صنفَي البشر والمسؤولة عن تربية الأبناء الذين بواسطتهم تستمر عمارة الأرض يسلب الأمة الانتفاع بصنف كامل من البشر. وهذا الذي ذهب إليه جمهور علماء الأمة،⁴ فمشروعية تعليم المرأة لا خلاف فيه، لكن في الحدود الشرعية، وذلك من النواحي التالية:

1- أن تحذر الاختلاط بالشباب في قاعات الدرس، فلا تجلس المرأة بجانب الرجل، فقد

1- انظر المرجع السابق، ص: 89.

2- ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص: 89.

3- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 400/2، 401.

4- انظر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، الموسوعة الفقهية الكويتية، الكويت: دار السلاسل، ط: 2.

جعل النبي صلى الله عليه وسلم للنساء يوما غير يوم الرجال يعظهن فيه. بل حتى في العبادة لا يخالطن الرجال، بل يكن في ناحية منهم يستمعن إلى الوعظ ويؤدين الصلاة.

2- أن تكون محتشمة غير متبرجة بزینتها لقول الله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (31) النور. وفي اتباع ذلك ما يمنع من الفتنة ومن إشاعة الفساد.

وهذا ما ذهب إليه صاحب أضواء البيان في قوله: "والعلم قسمان: علم سماع وتلقي، وهذه سيرة زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعائشة كانت القدوة الحسنة في ذلك في فقه الكتاب والسنة وكم استدركت على الصحابة رضوان الله عليهم، وهذا مشهور ومعلوم.

والثاني، علم تحصيل القراءة والكتابة... ويجب أن تكون النظرة لهذه المسألة على واقع الحياة اليوم، وفي كل يوم، وقد أصبح تعليم المرأة من متطلبات الحياة، ولكن المشكلة تكمن في منهج تعليمها وكيفية تلقها العلم".¹

المبحث الثاني: ابن عاشور وتعليم المرأة من خلال النص القرآني

في هذا المبحث نتناول مطلب الحث على اكتساب العلم في الإسلام، ومطلب إلحاق المرأة بالرجل في التكليف بطلب العلم، وسائر التكاليف عموما، ثم مطلب واقع تعليم المرأة في الإسلام على النحو الآتي:

المطلب الأول: الحث على اكتساب العلم:

ذكر ابن عاشور² أن الإسلام انفرد من بين سائر الأديان بالتنويه بفضل العلم والأمر بالاتصاف به: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (9) الزمر.

وبوضع رسوم التعليم والتربية وتعميمهما والإلزام بهما، وذلك كثير في وصايا القرآن، ومن ذلك أول ما أنزل: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) العلق.

ومن أول ما أنزل فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (4) القلم.

وجعل منه فرضا على كل نفس وهو مالا يُستغنى عنه، ومنه فرض كفاية وهو الذي يتعين وجود عارفين به في الأمة.

وقال ابن عاشور³ أن الآيات القرآنية في رفع شأن العلم كثيرة، أعظمها قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (122) التوبة.

1- الشنقيطي: محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415هـ/1995م، 21/9، 22.

2- انظر ابن عاشور: محمد الطاهر، أليس الصبح بقريب: دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، تونس: دار سحنون، القاهرة: دار السلام، ط: 1427هـ/2006م، ط: 1، ص: 22.

3- ابن عاشور، النظام الاجتماعي في الإسلام، ص: 85، 86.

فدعا الله المؤمنين إلى توجيه طوائف من جميع فرقهم لأجل التفقه في الدين، أي التفهم فيه، إتماماً لمقصد الشريعة من بث الإصلاح في العقيدة والتفكير. والعمل، وابتدأهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ... (122)﴾ التوبة، الصادر في صورة معذرتهم عن تخلف فريق منهم عن طلب العلم، إذ لا يصلح الحال برحلة جميع الناس لطلب الفقه في الدين؛ لأن نظام العمران لا يستقيم بتوجه كل الناس إلى عمل واحد، ولو كان ذلك العمل أشرف الأعمال مثل طلب العلم، ولأن الأهلية لهذا التفقه لا تتوفر في جميع الناس.

ثم بين أن الغاية من نفعهم هي التفقه في الدين، والتفقه التفهم الذي به تنكشف معاني الدين ومقاصده أتم انكشاف، فإذا فعل ذلك أمكن العمل بما يطلبه الدين عملاً مبراً عن الخطأ والتقصير، وفي الحديث الصحيح: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين"¹

ثم ذكر ابن عاشور أهمية الدين والتفقه فيه وكيفية تحصيله للمتفقهين، وللمبلغ إليهم، ثم غايته للفريقين، فقال:

"إن الدين لما كان هو جامع إصلاح النفوس والأخلاق والأعمال، والداعي إلى الإقبال على صلاح هذا العالم كان الأمر بالتفقه فيه واستخراج خباياه ضماناً لحصول المقصود منه في نفوس المتفقهين وفي نفوس المبلغ إليهم ولذلك علم الله المسلمين كيفية تحصيله للفريقين بقوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ ... (122)﴾ التوبة، فقوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ تعليم لكيفية تحصيله للمتفقهين أنفسهم، وقوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا﴾ تعليم لكيفية تحصيله، لعموم كل فرقة، لأن الإنذار إبلاغ ما فيه تخويف من المخالفة.

وبين غايته للفريقين بكلمة جامعة عامة وهي قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي يتقون مخالفة ما يدعوهم الدين إليه، وتلك المخالفة بأن يقعوا فيما يأباه الدين منهم."²

ثم بين³ ابن عاشور أن ضابط مقدار ما يلزم كلا الفريقين أن يتعلمه في التفقه في الدين، فأما فريق حملة العلم وهم المتفقهون في الدين فمقدار ما يلزمهم من العلم هو معظم الدين، لأنهم مقصودون للتلقي، والناس مستفتون لهم وبتفاوتهم في الإحاطة بعلم ما يعتري قومهم وفهم ما يستنبطونه من الدين تتفاوت درجاتهم في الفضل، لقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11)﴾ المجادلة؛ وأما فريق الأقوام الذين لم يطلبوا العلم من أربابه، وهم الذين ينذرهم المتفقهون، فمقدار ما يلزمهم من العلم نوعان:

- نوع يلزمهم عموم ودوام معرفتهم به، وهو ما لا يحصل مقصد الدين فيهم إلا به من اعتقاد وعمل ووسائلهما.

1- البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق د. مصطفى ديب البغا، دار طوق النجاة، ط: 1، 1422هـ، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، رقم: 71، 25/1.

2- ابن عاشور، النظام الاجتماعي في الإسلام، ص: 86.

3- انظر ابن عاشور، النظام الاجتماعي في الإسلام، ص: 86، 87.

- ونوع تلزمهم معرفته عندما تحل الحاجة إلى العمل بمقتضاه وذلك يلزم كل من حل به موجه أن يسأل عنه الفريق الأول وهم العلماء، أو يبحث عنه في مؤلفاتهم إن كان أهلاً لذلك. وبناء على ما سبق ذكر ابن عاشور¹ أن حكم طلب العلم قد يبلغ حد الوجوب على الكفاية وذلك بمقدار ما تتوقف عليه إقامة الشريعة ومصالح الأمة.

وتعيين العلوم المحتاج إليها يُسند إلى العلماء وولاة الأمور، وأما تعيين الطلبة الذين يزاولون تلك العلوم فيكون من رغباتهم، ومن تعيين أهل العلم، بناء على اختبار مداركهم.

ثم إن ارتقاء الأمة في درج الكمال بوفرة علمائها، واضمحلالها باضمحلال علمائها، وفي حديث البخاري عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من أشرط الساعة أن يظهر الجهل ويقل العلم."²

وذكر ابن عاشور أن تأويل العموم الوارد في حديث: "طلب العلم فريضة على كل مسلم."³ يرجع إلى تعيين القدر المفروض.

فالدلائل الصريحة في الحث على اكتساب العلم، وبيان فضله كثيرة، وما ذكره ابن عاشور في حكم اكتساب العلم هو ما ذهب إليه علماء الأمة، فقد ذكر الطبري⁴ -على سبيل المثال- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (122) التوبة، أن طلب العلم ينقسم قسمين: فرض على الأعيان كالصلاة والزكاة والصيام، وفي هذا المعنى جاء الحديث المروي "إن طلب العلم فريضة."⁵

وفرض على الكفاية كتحصيل الحقوق وإقامة الحدود والفصل بين الخصوم ونحوه، إذ لا يصلح أن يتعلمه جميع الناس فتضيع أحوالهم وأحوال سراياهم، وتنقص أو تبطل معاشهم، فتعين بين الحالين أن يقوم به البعض من غير تعيين، وذلك بحسب ما يسره الله لعباده، وقسمه بينهم من رحمته وحكمته بسابق قدرته وكلمته.

المطلب الثاني: إلحاق المرأة بالرجل في التكليف بطلب العلم،

وسائر التكاليف عموماً:

يذكر ابن عاشور أن المرأة كانت في جميع العصور السالفة قبل الإسلام وبين جميع الأمم عضواً كالأُنثى في المجتمع على تفاوت في مقدار الشلل تفاوتاً غير بعيد المدى.

والمرأة في العرب لم تكن مثل الأمة، بل كانت محل الكرامة والحرمة، ولكنها كانت معاملتها مقصورة على ما تلاقيه في بيتها، وكانت مهضومة في كثير من حقوقها في المجتمع، وملغاة في

1- انظر المرجع السابق، ص: 87.

2- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، رقم: 5577، 104/7.

3- ابن ماجه: أبو عبد الله محمد، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم: 224، قال الألباني: صحيح، المصدر نفسه.

4- انظر القرطبي: أبو عبد الله محمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط: 2، 1384هـ/1964م، 295/8.

5- سبق تخريجه، ص: 13.

تثقيفها، وترقية تفكيرها.¹

لهذا جاء الإسلام بإلحاق المرأة بالرجل في التكاليف من اعتقاد وعمل وآداب ومعاملات، وجمع في الأقوال التشريعية بين ذكر الرجال والنساء.²

ويستدل³ على ذلك بالنصوص القرآنية التالية:

- قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (97) النحل.

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (35) وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ... (36) الأحزاب.

- وقال تعالى معلنا حقوق المرأة في الإسلام: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَمَ بِالْمَعْرُوفِ ...﴾ (228) البقرة.

- وقال في الترغيب: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ...﴾ (195) آل عمران.

- وقال في الترهيب: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ...﴾ (73) الأحزاب.

- وقال في شأن الآداب والصيانة: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ... (31) النور.

﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ (35) الأحزاب.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (58) الأحزاب.

- وفي مقام ترسيم الحالة الاجتماعية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ولتخرج العواتق وذوات الخدور وليشهدن الخير ودعوة المسلمين"⁴

1- انظر ابن عاشور، النظام الاجتماعي في الإسلام، ص: 90.

2- المرجع السابق، ص: 91. انظر كذلك: فؤاد أحمد باشا، رؤى إسلامية في فلسفة العلم والتنمية الحضارية، شركة روابط للنشر وتكنولوجيا المعلومات مصر، دط، 2017، ص 267.

3- انظر المرجع السابق.

4- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحيض، باب شهود الحائض العيدين ودعوة المسلمين ويعتزلن المصلى، رقم: 324، 72/1، ولفظ البخاري هو: "يُخْرِجُ الْعَوَاتِقُ وَذَوَاتُ الْخُدُورِ، أَوِ الْعَوَاتِقُ ذَوَاتُ الْخُدُورِ، وَالْحَيْضُ، وَلَيَشْهَدُنَ الْخَيْرَ، وَدَعْوَةَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَعْتَزِلُ الْخَيْضَ الْمَصْلَى." والعواتق: جمع عاتق وهي الأنثى أول ما تبلغ والتي لم تتزوج بعد. انظر المصدر السابق.

- وفي مقام التشريع قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ...﴾ (36) الأحزاب.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا...﴾ (38) المائدة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى...﴾ (178) البقرة.

- والمبايعة في الإسلام والتزام أحكامه أول ما جاءت خاطبت النساء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يُسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعِهِنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (12) الممتحنة.

فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بايع الرجال بايعهم بمثل هذه الصيغة بعد تحويل الضمان إلى ضمانات التذكير.

وقد شمل قوله: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعِهِنَّ...﴾ (12) الممتحنة، جميع الشريعة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم إلا الأحكام التي قامت الأدلة على استثناء النساء منها. وبعدما ذكر ابن عاشور هذه النصوص بين أنها هي دليل العلماء في تقريرهم أن صيغ العموم في القرآن تشمل النساء فقال:

"ومن أجل هذه العمومات قرر الأئمة المجتهدون أن صيغ العموم لتي في القرآن تشمل النساء مثل: مَنْ الشرطية، وكلّ وغيرهما، ولو كانت صيغها جارية على التذكير، وأن جموع المذكورين كانت في أصل الوضع غير شاملة لهن للأدلة الدالة على عموم الشريعة، كما تقرر في أصول الفقه."¹

- ثم انفرد² ابن عاشور بذكر دليل إضافي على ذلك من القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (192) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (193) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (194) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ...﴾ (195) آل عمران.

وقال: "فأسند الدعاء لضمانات الرجال وجاوبهم على دعائهم بالتعميم بقوله: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى﴾، فعلمنا أن اصطلاح القرآن أن صيغ التذكير تشمل

1- المرجع السابق، ص: 92.

2- انظر المرجع السابق، ص: 92.

النساء، ولأن عادة العرب إذا خاطبوا جمعا فيه ذكور ونساء أن يجروا الخطاب بالتذكير على طريقة التغليب، ومقام التشريع يشبه مقام الخطاب، لأن الأمة كلها مقصودة بتوجيه الخطاب التشريعي.¹

- ثم استدل ابن عاشور بسؤال النساء وفهمن أم سلمة أم المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا نغزوا؟"² فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ...﴾ (32) النساء. وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جهادهن أن يقمن على المرضى ويواسين الجرحى، وغير ذلك من شؤون الإعانة عدا القتال.³

ثم إن ملاك الأحكام التي ثبتت فيها التفرقة بين الرجال والنساء هو الرجوع إلى حكم الفطرة، فكما حُرمت المرأة من الجهاد حُرِم الرجل من الحضنة.⁴

وبناء على ما سبق نستنتج أن معظم ما تُطالب به المرأة من العلم تشترك فيه مع ما يُطالب به الرجل ويختص كل منهما بتعلم ما يتوافق مع فطرته، وفي هذا يقول ابن عاشور: "وينبغي لنا من هذا أن العلم الذي تُطالب به المرأة تجري برامجه على مثل ما جرت عليه مراعاة التشريع له، فمعظم البرامج تتساوى مع برامج تعليم الرجال، وتختص المرأة بتعليم ما يثقف من معاني فطرتها ما لم يكن مثله للرجال، وكذلك القول في برامج تعليم الرجال."⁵

المطلب الثالث: واقع تعليم المرأة في الإسلام:

ذكر ابن عاشور⁶ أن الأمم التي دخلت في الإسلام كانت مقتصرة في العناية بالتعليم على صنف الذكور دون الإناث، حيث وجدوا حالة سائدة على معظم الأمم وهي حالة اقتصار المرأة من تلقاء نفسها على تدبير المنزل وتربية الأبناء، فقنعت النساء بتلقي نظام الحياة من أمهاتهن وبتلقي واجبات الديانة من آبائهن وإخوانهن ثم أزواجهن على تفاوت في كلا الصنفين. ثم ذكر أنه في أحوال نادرة قد تلهم المرأة تجاوز ما عليه مثيلاتها كما كانت درجة عائشة أم المؤمنين، وأم الدرداء، أو درجة سكيئة بنت الحسين، وفادات نحوهن مثل العاملة الشيرازية

1- المرجع السابق، ص: 92.

2- الترمذي: محمد بن عيسى أبو عيسى، سنن الترمذي، تحقيق إبراهيم عطوة، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط: 2، 1395هـ-1975م، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: ومن سورة النساء، رقم: 3022، 237/5.

وفيه: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: «يَغْزُو الرِّجَالُ وَلَا تَغْزُو النِّسَاءُ وَإِنَّمَا لَنَا نِصْفُ المِيرَاثِ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: 32].

قال الألباني: صحيح الإسناد، المصدر السابق.

3- انظر المرجع السابق، ص: 92.

4- انظر المرجع السابق.

5- المرجع السابق، ص: 93. انظر كذلك: فؤاد أحمد باشا، رؤى إسلامية في فلسفة العلم، المرجع السابق، ص: 267-268.

6- ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، 52، 53.

التي ذكر ابن العربي (في العواصم) أنها قتلت في الفتنة سنة 412 هـ بالمسجد الأقصى، والعالمة شهدة بنت أحمد بن الفرج الدينوري، الملقبة بفخر النساء التي حدثت بدارها سنة 114 هـ حسب ما ذكره القرطبي.

وكذلك كان توجيه الموجهين من أهل الرأي في المسلمين. وشواهد التاريخ دلت على أنه لم يوجد في تاريخ البشر قبل القرن الثالث عشر الهجري أمة حاولت إلحاق المرأة بالرجل في المعارف، ولا قبل القرن الرابع عشر إلحاقها به في التكاليف الاجتماعية.

فكان تعليم النساء لا يجاوز به تلقينهن القرآن وفقه العبادات، والمعاشرية وأنواعها من الأدب والأخلاق والكتابة، وذلك قصارى تعليم المرأة من أول ظهور الإسلام. وفي مطالعة أحوال نساء النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة ما يُقنع من وصف تلك الحالة، ثم التدريب على قوام المنزل.

وقد روي في كتب السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للشفاء العدوية: "علمي حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة".¹

ففيه دليل على مشروعية تعليم المرأة الكتابة.

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوج رجلاً امرأة بما معه من القرآن.²

وكان في النساء من يتلقين علم الشريعة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فكان من فقيحات النساء عائشة أم المؤمنين، قال مسروق: رأيت مشيخة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون عائشة عن الفرائض.

وكذلك كانت أم الدرداء المدنية خيرة بنت أبي حدرود وهي زوج أبي الدرداء عويمر، صحابية، وفي صحيح البخاري أن أم الدرداء كانت فقيهة.

وكان تعليم المرأة في العادة خاص بالحرائر، وهي عادة أبطلها الإسلام، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ورجل كانت له أمة فعلمها، فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران".³

1- عَنْ الشَّافِعِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا عِنْدَ حَفْصَةَ فَقَالَ لِي: «أَلَا تَعْلَمِينَ هَذِهِ رُقِيَّةُ النَّمْلَةِ كَمَا عَلَّمْتَهَا الْكِتَابَةَ». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ سُلَيْمَانُ بْنُ الْأَشْعَثِ، سَنَنَ أَبُو دَاوُدَ، تَحْقِيقُ مُحَمَّدٌ مَحْيِي الدِّينِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، الْمَكْتَبَةُ الْعَصْرِيَّةُ، بَيْرُوتَ، كِتَابُ الطَّبِّ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّقَى، رَقْمٌ: 3887، 11/4. صححه الألباني.

2- عَنْ سَهِيلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امْرَأَةً، فَقَالَتْ: إِنَّهَا قَدْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «مَا لِي فِي النِّسَاءِ مِنْ حَاجَةٍ»، فَقَالَ رَجُلٌ: زَوْجُهَا، قَالَ: «أَعْطَاهَا ثَوْبًا»، قَالَ: لَا أَجِدُ، قَالَ: «أَعْطَاهَا وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ»، فَأَعْتَلَّ لَهُ، فَقَالَ: «مَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ؟» قَالَ: كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «فَقَدْ زَوَّجْتُكَ بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ، كِتَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ، بَابُ خَيْرِكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلِمَهُ، رَقْمٌ: 5029، 192/6.

3- عَنْ أَبِي بَرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَمَنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أُمَّةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، ثُمَّ أَغْتَقَ هَا فَتَزَوَّجَهَا فَبَلَغَهَا أَجْرَانِ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ تَعْلِيمِ الرَّجُلِ أُمَّتَهُ وَأَهْلَهُ، رَقْمٌ: 97، 31/1.

ثم تطرق ابن عاشور¹ لذكر موضع تعليم النساء، فقال أن تعليمهن كان في بيوتهن يعلمهن أبائهن أو أزواجهن ونحوهم من المحارم، واستشهد على ذلك بما ذكره عياض (في المدارك) أن عيسى بن مسكين صاحب سحنون كان يعلم بناته وبنات أخيه بنفسه كل يوم بعد العصر. ولم تكن النساء يحضرن دروس العلم مع الرجال، قال سحنون: كانوا يعدون تعليم الجواري مع الغلمان فسادا.

ولما بنيت القاهرة واستقر بها مُلك الفاطميين جعلوا مجالس تعليم النساء أمور الديانة في الجامع الأزهر، ولا يحضرن مجالس العلم التي في الإيوان، ومن النادر معرفة النساء الكتابة. ثم ذكر ابن عاشور واقع تعليم البنات بعد ذلك، فقال:

"أما تعليم البنات ... فأما في الأندلس فقد كان على الطريقة المشرقية، كنّ يلقن في صباهن (الموطأ)، ويعلمن الكتابة والقراءة ثم يصرفن إلى تدبير المنزل إلا من كانت تشد فتبرع في الأدب والشعر، مثل حفصة الركونية، وأمة العزيز بن دحية، وولادة بنت المستكفي.

وأما في إفريقية فهو على مثال واحد لم تختلف أطواره: كانت في تونس نساء يحسنّ قليلا من القراءة والكتابة وبعض القرآن، فكن يجعلن بديارهن بيوتا للتعليم، ترد إليهن البنات من ديار آبائهن لتعليم القرآن والخياطة والتطريز وغير لك من شؤون النساء، وتسمى كل دار من هذه الدور: دار المعلمة، وكان حظ أكثرهن الإهمال، ولم يكن لهن من تدبير المنزل إلا قواعد تجريبية يتلقينها من أحوال الأمهات، وهي إلى الآن مهمة العناية في سائر إفريقية الشمالية، إلا ما ظهر أخيرا من إنشاء مدرسة البنات بتونس سنة 1320هـ".²

إن هذه النصوص النبوية التي استشهد بها ابن عاشور في حديثه عن واقع تعليم المرأة إنما هي مبنية ومؤكدة لما ورد في النصوص القرآنية التي سبقت في المطلبين الأول والثاني من هذا المبحث.

وهي تؤكد أن الإسلام يشجع على تعليم المرأة إذا كان بضوابط شرعية، وهذا ما يؤكد الصديق المقرب لابن عاشور محمد الخضر حسين فيقول: "ونحن لا نعارض في تعليم المرأة، ولا في استمرارها على التعليم إلى أبعد مدى، ولكننا نريد الاحتفاظ بأساس كمالها، وهو الصيانة ونقاء العرض".³

وهو ما يؤكد أيضا أحمد محمد شاكر إذ يقول:

"... إن كثيرا من الناس يخطئون فهم شرائع الإسلام في المرأة، ويخدعون بما يتأول بعض الكتاب والدعاة نصوص القرآن والسنة، وما ينكر بعضهم من بديهيات الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة، والله المستعان.

1- أليس الصبح بقريب، ص: 54.

2- المرجع السابق، ص: 88.

3- محمد الخضر حسين، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، 197/2/4.

فأساس البحث في هذا كله وجوب تعليم المرأة كتعليم الرجل سواء بسواء، والمراد بالتعليم تعليم ما يجب معرفته من شؤون الدين والفقه فيه، حتى يعرف الرجل والمرأة ما يأتي وما يدع وما يجب وما حرم، وكيف يؤدي ما أمره الله بأدائه، وهذا يختلف باختلاف الزمن واختلاف البيئة، ولكن الضروري لكل إنسان مفهوم بداهة، وليس في هذا أدلة خاصة بل هو من عموم الأدلة التي لم تخص رجلاً أو امرأة. وقد وردت أحاديث في تعليم المرأة بهذا المعنى، منها حديث أبي موسى الأشعري في البخاري أن رسول الله قال: "ثلاثة لهم أجران". فذكر منهم "رجل كانت عنده أمة، فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران". وحديث ابن عباس في البخاري أيضاً: "أن رسول الله خرج ومعه بلال فظن أنه لم يسمع النساء، فوعظهن وأمرهن بالصدقة" إلخ. وذلك في صلاة العيد في المصلى أي الصحراء. وقد عرف من النساء بالعلم والفيتا كثيرات جداً أعظمن شأنًا عائشة أم المؤمنين، وغيرها من الصحابة كأم الدرداء ومن التابعين وغيرهم.¹

ولئن كان خلق النبي صلى الله عليه وسلم القرآن،² ومعناه العمل به والوقوف عند حدوده، والتأدب بأدابه، والاعتبار بأمثاله وقصصه، وتدبره، وحسن تلاوته.³ فإنه ينبغي أن نتذكر أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مفتوحاً للنساء لا للعبادة فقط بل ولتلقى العلم؛ يقول منير محمد الغضبان:

"كان المسجد للرجال والنساء، فلقد كانت الصفوف الأولى للرجال، والصفوف الأخيرة للنساء. ولم يكن المسجد دار عبادة فقط، بل كان الجامعة العلمية العليا التي يتلقى المسلمون علومهم منها وعلى رأس هذه الجامعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أجل هذا كان الحرص المستمر من النساء على شهود الخير وجماعة المسلمين. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يعقد لهن درساً خاصاً يعلمهن ويعظهن ويذكرهن. ولو كان المسجد للعبادة فقط لأمكن استغناء الكثير من النساء عن الحضور إليه، إذ الإسلام جعل صلاة المرأة في بيتها خيراً من صلاتها في المسجد النبوي، لكن تلقي العلم من منبعه النبوي الموحى إليه لم يكن ليتاح للمرأة المسلمة إلا في المسجد".⁴

وهكذا فإن التطبيق العملي لتعليم المرأة كان في زمن رسول الله وفي مسجده، وهو الذي كان خلقه القرآن يتأدب بأدابه، ويقف عند حدوده صلى الله عليه وسلم.

1- أحمد محمد شاكر، جبهة مقالات العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر، جمعها وأعدتها واعتنى بها: عبد الرحمن بن عبد العزيز بن حماد العقل، دار الرياض، ط: 1، 1426هـ/2005م، 620/2.

2- عن سعيد بن هشام قال: قلت لعائشة: يا أم المؤمنين أنبئني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: «ألبست ثياباً قرأت القرآن؟» قلت: بلى، قالت: «فإن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن». أخرجه مسلم في صحيحه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، رقم: 139، 511/1، 512.

3- المصدر السابق، 512/1.

4- منير محمد الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، الأردن، الزرقاء، مكتبة المنار، ط: 1، 1404هـ/1984م، ص: 383.

خاتمة

يمكن أن نلخص ما توصلنا إليه في النقاط التالية:

- الإسلام لم يحسب في دعوته فرقا شديدا بين الرجل والمرأة بل أمر النساء بما أمر به الرجال في أغلب الحالات.
 - تعليم المرأة يجعلها مؤهلة لتربية أولادها التربية الكاملة، وإبقاؤها غارقة في الجهل يسلب منها أهلية ذلك.
 - عزل المرأة عن دور الإصلاح يحرم الانتفاع بصنف كامل من البشر.
 - القرآن الكريم سقّه أهل الجاهلية بسبب عزلهم المرأة وجعلها في مرتبة أقل من الرجل وخطب جميع الناس بالإصلاح رجالا ونساء، بيضا وسودا، سادة وعامة.
 - انفرد الإسلام من بين سائر الأديان بالتنويه بفضل العلم، والأمر بالتصاف به.
 - معظم ما تُطالب به المرأة من العلم تشترك فيه مع ما يطالب به الرجل، ويختص كل منهما بتعلم ما يتوافق مع فطرته.
- التوصيات:

- تنبيه المرأة إلى تعلم ما ينفعها والتصدي للدعوات الفاسدة التي تهمش فكر المرأة وتنظر إليها على أنها جسد وحسب، إبراز حياة الفاضلات العالمات كأمهات المؤمنين، والصالحات من هذه الأمة للاقتداء بهن بما ينفع الناس، ويصلح به حال المرأة.
- رفع مستوى الوعي لديها وبيان ما يُحاك ضدها لإبعادها عن دينها وفطرتها التي فطرها الله عليها.
- بيان موقف الإسلام من تعليم المرأة وانتقاد بعض الأوضاع المخالفة للشرع بسبب الفهم الخاطئ للدين، بحرمانها من التعلم.
- الاهتمام بالمزيد من البحث بموضوع المرأة وبيان منزلتها في الإسلام ردا على شبهات الحداثيين.
- تعاني المرأة في بعض مناطقنا من حرمانها من التعلم ومن التعليم، لذا توصي الدراسة الأئمة والدعاة والباحثين بالمزيد من تسليط الضوء على هذه المسألة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد محمد شاكر، جبهة مقالات العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر، جمعها وأعدّها واعتنى بها: عبد الرحمن بن عبد العزيز بن حماد العقل، دار الرياض، ط: 5، 5421هـ/2221م.
2. ابن عاشور: محمد الطاهر، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، مصر: دار السلام، ط: 1، 1426هـ/2005م.
3. ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، ط: 1984.
4. ابن عاشور: محمد الطاهر، أليس الصبح بقريب: دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، تونس: دار سحنون، القاهرة: دار السلام، ط: 1427هـ/2006م، ط: 1، ص: 22.

5. ابن ماجة: أبو عبد الله محمد، سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.
6. أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.
7. البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق د. مصطفى ديب البغا، دار طوق النجاة، ط: 1، 1422هـ.
8. الترمذي: محمد بن عيسى أبو عيسى، سنن الترمذي، تحقيق إبراهيم عطوة، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط: 2، 1395هـ-1975م.
9. الشنقيطي: محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415هـ/1995م.
10. عادل نويهض، معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»، قدم له: مُفتي الجمهورية اللبنانية الشَّيخ حسن خالد، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ط: 3، 1409هـ - 1988م.
11. فؤاد أحمد باشا، رؤى إسلامية في فلسفة العلم والتنمية الحضارية، شركة روابط للنشر وتقنية المعلومات مصر، دط، 2017.
12. القرطبي: أبو عبد الله محمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط: 2، 1384هـ/1964م.
13. محمد البشير الإبراهيمي، أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط: 1، 1997م.
14. محمد الخضر حسين، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، جمع وضبط: المحامي علي الرضا الحسيني، سوريا: دار النوادر، ط: 1، 1431هـ - 2010م.
15. محمد الطاهر الميساوي (جمع وقراءة وتوثيق)، جبهة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر بن عاشور، الأردن، دار النفائس، ط: 1، 1436هـ/2015م.
16. محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط: 2، 1994م.
17. مسلم في صحيحه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.
18. منير محمد الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، الأردن، الزرقاء، مكتبة المنار، ط: 1، 1404هـ/1984م.
19. وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، الموسوعة الفقهية الكويتية، الكويت: دار السلاسل، ط: 2.

ونظرا لأهميّة ما خلفه هذا الإمام الكبير من آثار عظيمة ومتنوّعة في مجال التنزيل؛ ارتأيت أن أستخرج نماذج منها للمشاركة بها في هذا الملتقى المبارك، فجاء هذا العمل مؤسوماً بـ: "توظيف النص القرآني عند الإمام ابن باديس".

أولاً- أهميّة الموضوع: تبرز أهميّة الموضوع في:

1- كون هذه الآثار تحوي دروساً ومقالات امتازت بروح النّزعة الإصلاحية التي نحتاج إليها في واقعنا المعيش.

2- مكانة الشيخ عبد الحميد بن باديس؛ بصفته أحد أعلام الجزائر خاصة، والعالم الإسلامي عامّة.

3- إنّ دراسة التنزيلات القرآنية الإصلاحية تُثري الملكة الدعويّة والوعظية لدى الباحث.

ثانياً- إشكالية الموضوع:

كما هو معلوم أنّ الشيخ ابن باديس اشتهر بالتنزيل القرآني على أرض الواقع في تفسيره فقط، بينما للشيخ ابن باديس آثاراً أخرى من غير التفسير، والمتمثلة في الدروس والمقالات الإصلاحية والوعظية التي كان ينشرها في مجلاته، فمن هذا المنطلق يمكن طرح الإشكالات الآتية: كيف جاءت تنزيلات الإمام ابن باديس للنص القرآني على أرض الواقع في غير التفسير؟ وهذا هو السؤال الرئيس، وإلى جانبه أسئلة فرعية أخرى هي:

1- ما هي الطريقة التي سلكها الشيخ في تنزيلاته للنص القرآني؟

2- ما هو منهج الشيخ في تنزيلاته للنص القرآني؟

3- هل ارتكز الشيخ في تنزيلاته للنص القرآني على أسلوب واحد؟

ثالثاً- المنهج المتبع:

اتبعت في دراستي لهذا البحث على:

1- المنهج الوصفي: وقد ظهرت معالم هذا المنهج في المطلب الأول المخصص لترجمة الشيخ ابن باديس.

2- المنهج التحليلي: من خلال تتبع مواضع التنزيل للنص القرآني، ودراستها

رابعاً- الدراسات السابقة:

الدراسات الذي عنيت بدراسة تنزيل النص القرآني عند ابن باديس، هي:

- 1- الإمام عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدعوة من خلال آثاره في التفسير والحديث، رسالة مقدمة لنيل الماجستير، للطالب عامر العرابي، قسم الكتاب والسنة، كلية أصول الدين، جامعة أم القرى، إشراف: سايمان صادق البيرة، 1408، 1409هـ؛ حيث خصّص فيها الباحث مبحثاً كاملاً للكلام ربط النصوص بالواقع عند ابن باديس في التفسير والحديث.
- 2- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر، ط1، 1428هـ، 2007م،

سلسلة محكمة تصدر عن جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ومن التفاسير التي اختارها في الشق التطبيقي من الكتاب، هو مجالس الشيخ ابن باديس.

3- تنزيل الآيات على الواقع عند ابن باديس من خلال تفسيره مجالس التذكير، هشام شوقي، مقال نُشر مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، بتاريخ: 2016/12/12م.

4- منهج الإمام ابن باديس في تنزيل آيات القرآن الكريم على الواقع، حدة سابق، وحبيبة زماملية، مقال نُشر في العدد الرابع من مجلة المنهل التابعة لجامعة الوادي، في جانفي سنة 2017م.

هذه الدراسات التي بين أيدينا انحصرت حدودها في التفسير، وتميّزت دراساتي عن هذه الدراسات، أنها تناولت التنزيل القرآني عند ابن باديس في آثاره من غير التفسير.

خامسا- خطة العمل:

الخطة النهائية لموضوع البحث، كانت كالآتي:

مقدمة: وفيها بيان لأهمية الموضوع، وطرح لإشكاليته، وذكر للدراسات السابقة، وعرض لخطة النهائية.

المطلب الأول: التعريف بالشيخ عبد الحميد بن باديس

المطلب الثاني: طريقة الإمام ابن باديس ومنهجه في تنزيل الآيات

المطلب الثالث: نماذج من تنزيلات الإمام ابن باديس في آثاره من غير التفسير

خاتمة: وفيها حصْرُ للنتائج التي توصلت إليها، وإعطاء لمجموعة من التوصيات التي تزيد في خدمة الموضوع.

وختاماً نسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا وخطأنا وعمدنا وجنّا وهزلنا وكلّ ذلك عندنا، والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المطلب الأول: التعريف بالإمام عبد الحميد بن باديس

الفرع الأول: اسمه ونسبه ومولده ونشأته

أولاً- اسمه ونسبه:

هو عبد الحميد بن محمّد المصطفى بن المكيّ بن محمّد كحول بن الحاج علي النوري بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن بركات بن عبد الرحمن بن باديس الصنهاجي.

والدُّه محمّد المصطفى بن باديس صاحب مكانة مرموقة بين جماعة الأشراف، تبوأ منصب عضو في المجلس الجزائريّ الأعلى والمجلس العام، أمّا والدته فهي زهيرة بن علي بن جلول من أسرة مشهورة في قسنطينة¹.

¹ عمار طالي، آثار ابن باديس، 73/1؛ وموقع الشيخ ابن باديس على النت: <http://www.binbadis.net>، تاريخ الاطلاع: 2015/04/20، على الساعة: 06:57.

ونسب أُسْرَتِهِ عَرِيق في الشَّرَف والمكانة، مشهور بالعلم والثَّراء والجاه، عُرِفَتْ منه شخصيَّات تاريخيَّة كبيرة من أبرزها المعزَّ بن باديس الصَّنهاجيّ مؤسَّس الدولة الصَّنهاجيَّة الأولى، التي خلفت الأغالبة على مملكة القيروان¹.

ثانيا- مولده:

وُلِدَ الشَّيْخ عبد الحميد بن باديس يوم الأربعاء 11 ربيع الثاني سنة 1307هـ الموافق لـ 4 ديسمبر سنة 1889م، على الساعة الرابعة بعد الظهر، وسُجِّل في البلديَّة يوم الخميس 12 ربيع الثاني سنة 1307هـ الموافق ليوم 5 ديسمبر سنة 1889م، بمدينة قسنطينة، وهو الولد البكر لأبويه².

ثالثا- نشأته:

نشأ ابن باديس في أحضان تلك الأسرة العريقة في العلم والجاه، متمسكة بالدين، ومحافظة على القيام بشعائره، وحريصة على تنشئة أبنائها على أساس تربية إسلاميَّة وتقاليذ أصيلة، حيث وجَّه والده وجهه صالحة، فحرص على أن يربِّيه تربية إسلاميَّة خاصَّة، فلم يُدْخِلْهُ المدارس الفرنسيَّة كبقية أبناء العائلات المشهورة، بل أرسل به إلى الكُتَّاب³، وأوصاه قائلا: "يا عبد الحميد، أنا أكفيك أمر الدنيا، أنفق عليك، وأقوم بكلِّ أمورك، ما طلبت شيئا إلَّا لبيت طلبك، كلمح البصر، فأكفني أمر الآخرة، كُن الولد الصَّالح العالم الذي ألقى به وجه الله"⁴.

وفي هذا الصَّد يقول ابن باديس: "إنَّ الفضل يرجع أوَّلًا إلى والدي الذي ربَّاني تربية صالحة ووجَّني وجهة صالحة. ورضي لي العلم طريقة أتبعها ومشربا أردُّه وقاتني وأعاشني وبراني كالسَّهم وراشني وحماني من المكاره صغيرا وكبيرا. وكفاني كلف الحياة فلاشكرته بلساني ولسانكم ما وسعني الشكر. ولأكل ما عجزت عنه من ذلك لله الذي لا يُضيع جزاء العاملين"⁵.

الفرع الثاني: حياته العلميَّة ونشاطه الإصلاحي

أولا- حياته العلميَّة:

كانت الدروس الأولى التي تلقَّاها ابن باديس هي حفظ القرآن الكريم، حيث أتمَّ حفظه وعمره لم يتجاوز الثلاث عشرة سنة، ولمَّا أبدى نجابة وذكاء قُدِّم لصلاة التراويح مدَّة ثلاث سنوات، ثمَّ انتقل للدراسة على الشيخ حمدان الونيسي؛ حيث تلقَّى على يديه علوم اللُّغة

¹ ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص82.

² عبد العزيز فيلاي، وثائق جديدة من جوانب خفية في حياة الإمام عبد الحميد بن باديس الدراسية، ص9.

³ مصطفى أحمدياتو، ابن باديس وجهوده التربوية، ص62.

⁴ عبد العزيز فيلاي، وثائق جديدة من جوانب خفية في حياة الإمام عبد الحميد بن باديس الدراسية، ص10.

⁵ عمار طالي، آثار ابن باديس، 138/2.

والفقه والحديث، وقد توطّدت الصلّة بينهما قبل هجرة الشيخ إلى المدينة المنورة¹.

تزوَّج ابن باديس من ابنة عمّه يامنة بنت أبي بكر بن باديس في سنّ مبكرة لا يزيد عمره على 15 سنة، كمعادة كبار العائلات القسنطينيّة التي تفرح بالابن الأكبر، وتحفظ بينات العمومة لأبنائها، وكان ذلك سنة 1904م، فرزق بولد أسماه على بركة الله إسماعيل، لكن هذه الزيجة لم تستمر طويلاً؛ لأنّ الزوجة رفضت الإقامة عند بيت أهله، فبقي ابنه تحت حضانة جدّه يدرس في حلقات والده إلى أن وصل عمره 17 سنة، حيث شاء القدر أن يُتوفّي في حادث مؤلم مفاجئ في 17 جوان 1919م².

وفي سنة 1908م³ سافر إلى تونس ليُكمل تعليمه ويوسّع معارفه، وسنّه إذ ذاك تسعة عشر عاماً، فانتسب إلى جامع الزيتونة، وعُرف في دراسته بالجدّ والنشاط، فأخذ يتلقّى الثّقافة الإسلاميّة العربيّة، ويأخذ عن جماعة من أكابر علماء الزيتونة وبعد ثلاث سنوات من الجدّ والاجتهاد، تخرّج بشهادة التطويع سنة 1910-1911م وعمره ثلاث وعشرون سنة، حيث كان ترتيبه الأوّل بين جميع الطلبة النّاجحين، كما كان الطالب الجزائريّ الوحيد الذي تخرّج من الزيتونة في تلك الدورة، فعلم سنة واحدة في جامع الزيتونة على عادة المتخرّجين في ذلك الوقت⁴.

وأهمّ شخصيّتين تركتا الأثر العميق في تكوين شخصيّة ابن باديس العلميّة، وشهد لهما بالرّفعة والمهارة في خوض بحار المعارف والعلوم، هما الشيخان محمد التّخلي القيرواني، والطّاهر بن عاشور.

ولمّا رجع الشيخ من تونس عاد شُعلة من الحماسة وشهاباً واريّاً من الدّين، فقصد الجامع الكبير وأخذ في إلقاء الدروس وابتدأ بتدريس كتاب الشّفاء للقاضي عياض، ولكن المكائد جيّكت له، فعمل أعداؤه على إقلاقه ومنعه وأطفأوا عليه الضّوء وهو في الدرس فقرّر السّفر للحجّ إلى بيت الله الحرام ولقاء شيخه حمدان الونيسي، فاستأذن أباه وسافر⁵.

وهناك التقى بالعلماء ومفكّري العالم الإسلاميّ، وسعى إلى شيخه حمدان الونيسي الذي كان قد هاجر إلى الحجاز فراراً من اضطهاد السّلطة له، وعرض على تلميذه عبد الحميد أن يبقى هناك مُقيماً مثله، كما التقى هناك بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وربطت بينهما صداقة قويّة؛ إذ لازم عبد الحميد محمّد البشير طيلة ثلاثة أشهر قضياها في

¹ عبد المجيد رزوقة، جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ص 80.

² عبد العزيز فيلاي، وثائق جديدة من جوانب خفية في حياة الإمام عبد الحميد بن باديس الدراسية، ص 12.

³ ذكر فيلاي أنّ سفر الشيخ ابن باديس إلى تونس كان سنة 1910م. (عبد العزيز فيلاي، وثائق جديدة من جوانب خفية في حياة الإمام عبد الحميد بن باديس الدراسية، ص 15).

⁴ أحمد حماني، صراع بين البدعة والسنة، 246/1.

⁵ عمّار طالي، أثار ابن باديس، 80/1.

دراسة أوضاع وطنهما الذي تردى أمام الوطأة الاستعماريّة عليه، كما التقى في المدينة المنورة حسين أحمد الهندي الذي استشاره في أمر أستاذه التونسي، ولكن الشيخ الهندي أشار إليه بالرجوع إلى بلاده حيث تستفيد الجزائر من علمه وعمله¹.

وعند رجوعه، عرّج على مصر، وزار جامع الأزهر الشريف بالقاهرة ووقف على نظام الدراسة والتّعليم فيه، ثم زار مفتي الديار المصريّة الشيخ محمّد بخيت المطيعي في داره، ولمّا قدّم له كتاب شيخه حمدان التونسي قال له: "ذاك رجل عظيم"، وكتب له إجازة في دفتر إجازاته بخطّ يده².

وبهذا تكون قد انتهت المرحلة الأولى لتكوين فكر ابن باديس، ليبدأ بعدها أهمّ مرحلة وأصعبها؛ وهي مرحلة الإصلاح والنّهوض بأمة الجزائر، وتعليم أبنائها، وخاصة عندما تأسست جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931م، وأصبح رئيساً لها.

ثانياً- نشاطه الإصلاحيّ:

عندما رجع ابن باديس إلى قسنطينة سنة 1913م انتصب بالجامع الأخضر للتدريس والدعوة للإصلاح، فكان يقوم بإلقاء 12 درساً يومياً، حيث ابتكر طريقة جديدة لتفسير القرآن الكريم.

وإلى جانب اجتهاده في الحقل الإصلاحيّ فتح واجهة جديدة للكفاح القلبيّ، فأنشأ بقسنطينة جريدة "المنتقد" سنة 1925م، قامت بحملات صادقة ضدّ سياسة فرنسا التعسّفيّة فأوقفوا نشاطها، وخلفتها جريدة "الشهاب" شهر نوفمبر سنة 1925م، ثمّ تطوّرت إلى مجلّة سنة 1926م، وبعدها برزت جريدة "السنة" سنة 1933م فأوقفوا نشاطها، لتصدر بعد 12 يوماً جريدة "الشريعة" فعملّتها الإدارة الفرنسيّة، وخلفتها جريدة "السّراط" عام 1933م³.

ولا ننسى نادي الترقّي بالجزائر الذي استطاع ابن باديس النشاط من خلاله؛ حيث تمّ تأسيس "جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين" عام 1931م في اجتماع حضره العديد من علماء القطر الجزائريّ ومن شتّى الاتجاهات الدينيّة والمذهبيّة، وانتخب الشيخ ابن باديس رئيساً لها والبشير الإبراهيميّ نائباً له⁴.

كما أظهر مواقفه السياسيّة في البرقيّات العديدة التي بعث بها إلى جهات إسلاميّة، وأخرى أجنبيّة يوضّح فيها موقف الجمعيّة من مختلف الأحداث خاصّة مسألة الخلافة الإسلاميّة، وقضيّة تقسيم فلسطين⁵.

الفرع الثالث: شيوخه وتلاميذه

¹ محمد بوي الدين سالم، ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، ص33.

² ابن باديس، الشهاب، الجزء 11، مجلد 11، ص607.

³ مفدي زكريّا، الذكرى العشرون لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس، (مقال)، ص 78، 79.

⁴ المرجع السابق، ص79.

⁵ مصطفى احميداتو، عبد الحميد بن باديس وجهوده التربويّة، ص81.

أولاً- شيوخه: تتلمذ ابن باديس مباشرة على أكثر من عشرين أستاذا من الجزائر، وتونس، والمدينة المنورة، ومصر، نذكر منهم¹:

محمد الصادق بن القاضي (ت1911م)، ومحمد العزيز الوزير (ت1911م)، ومحمد البشير صفر (ت1917م)، ومحمد حمدان الونيسي (ت1920م)، ومحمد النخلي القيرواني (ت1924م)، وأبو الفضل محمد الجيزاوي (ت1926م)، ومحمد بخيت المطيعي (ت1936م)، ومحمد الصادق النيفر (ت1938م)، ومحمد بن يوسف (ت1938م)، وحسين أحمد الفيض أبادي الهندي (ت1957م)، ومحمد الخضر بن الحسين (ت1958م)، ومحمد الطاهر بن عاشور (ت1973م).

ثانيا- تلاميذه:

من الطبيعى على أيّ معلّم مكث في التعليم مدّة ثمان وعشرين سنة لا بدّ وأن يكون له تلاميذ، ف كذلك حال الشيخ ابن باديس الذي كان يدرس عنه الطلاب مدّة أربع سنوات، فمن كان قادرا على الاستزادة في العلم سافر إلى الأزهر أو الزيتونة، وإلا وجهه الشيخ ابن باديس للتعليم، وهكذا كان تعامله مع الطلبة طيلة مدّة تعليمه، حتّى أصبحوا يُعدّون بالآلاف، ويقوم على التدريس معه نجباء المتخرجين من مدرسته، أو من مريديه، وعدد تلاميذه لا يمكن حصره، حتّى إنّ الشيخ أحمد حمّاني ذكر أكثر من 50 تلميذا؛ إذ يُعدّ واحدا منهم، ثمّ قال في خاتمة إحصائه للتلاميذ: "...مات بعضهم، واستشهد آخرون، وما يزال بعضهم في الحياة"²، ولنكتف بذكر بعضهم وهم: مبارك الملي (ت1945م)، والهادي السنوسي (ت1956م)، والفضيل الورتلاني (ت1959م)، والرّبيع بوشامة (ت1959م)، وعبد الكريم عقون (ت1959م)، وباعزيز بن عمر (ت1977م)، ومحمد صالح بن عتيق (ت1993م)، وأحمد حماني (ت1998م)³.

الفرع الرابع: وفاته وأثاره وأقوال العلماء فيه

أولاً- وفاته:

لقد أصيب الشيخ عبد الحميد بن باديس بمرض شديد الوطأة نتج عنه ضعف في الكلى، وانعدام تجمّع البول، وهذا المرض الخطير أعيا الأطباء، وألزمه الفراش ثلاثة أيام، ثم فاضت روحه الطيّبة، ولحقت بالرفيق الأعلى بُعيد زوال يوم الثلاثاء 08 ربيع الأوّل 1359هـ، الموافق لـ 16 أفريل 1940م، وشيّعت جنازته يوم الأربعاء في موكب حافل حضره زهاء السبعين ألف شخص، يتقدّمهم أعضاء جمعيّة العلماء، وطلّاب الجامع الأخضر، وصلى عليه الشيخ العربي التبسي، وأبّنه بكلمة مؤثرة ممّا جاء فيها: "كان ابن باديس هو الجزائر، فلتكن

¹ عبد العزيز فيلاي، وثائق جديدة من جوانب خفية في حياة الإمام عبد الحميد بن باديس الدراسية، ص12، مع التصرف في الترتيب.

² أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، 262/2، 263.

³ المرجع نفسه، 263/2، مع التصرف في الترتيب.

الجزائر اليوم ابن باديس"، ودُفن في روضة أسرته بحي الشهداء قرب مقبرة قسنطينة¹.

ثانيا- آثاره:

إن المتأمل في حياة الإمام ابن باديس يجده دائم النشاط والحيوية رغم ما كان يعانيه من طرف المستعمر الفرنسي، فتارة تجده في المسجد يُلقي على تلاميذه الدرس بعد الآخر، وتارة تجده صحافياً، وتارة تجده مُفتياً، وتارة تجده يؤسّس لمدارس الفقه والحديث، وكأنّ الكسل والنوم لا يعرفان له سبيلاً، وقد أثر عنه قوله: "شغلنا تأليف الرجال عن الكتب"²، فرغم المسؤولية التي كانت على عاتقه إلّا أنّه لم يمنعه ذلك من التأليف، بحيث جمعت من أفواه تلاميذه ومُحبّيه، وكذا من المجالات التي أراد المستعمر الفرنسي طمسها، وهذا ما أمكن استخلاصه:

- تفسير ابن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير: طُبع ونُشر سنة 1948م.
- مجالس التذكير من حديث البشير النذير: طبعته وزارة الشؤون الدينية بالجزائر سنة 1983م.³

- العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية: وهي عبارة عن الدروس التي كان يُلمها الأستاذ ابن باديس على تلاميذه، في أصول العقائد الإسلامية وأدلتها من القرآن والسنة النبوية على الطريقة السلفية.

- رجال السلف ونسأؤه: وهي مجموعة من المقالات ترجم فيها ابن باديس لبعض الصحابة رضوان الله عليهم، وما لهم من صفات اكتسبوها من الإسلام، وما كان من أعمالهم في سبيله، نُشرت تلك التراجم في مجلة الشهاب.

- تحقيق كتاب العواصم من القواصم للإمام ابن العربي، وقُدّم له وطبعه سنة 1928م، في جزئين بمطابع الشهاب بقسنطينة.

- تراجم أعلام: ترجمة لكثير من أعلام الإسلام من السلف والخلف، في صفحات مجلة الشهاب تحت هذا العنوان.

- آثار ابن باديس: قامت وزارة الشؤون الدينية في الجزائر بجمع كثير ممّا حوته صحافة الجمعية من نشاطات الإمام عبد الحميد بن باديس في مجالات: التربية والتعليم، والرحلات التي كان يقوم بها داخل الوطن لنشر دعوته⁴.

- القصص الهادف. - مبادئ الأصول. - رسالة جواب سؤال عن سوء مقال. - تحفة المستهدي في إثبات خروج المهدي. - التأفين لمنكر التآيين.

أما باقي الآثار الأخرى فقد نُشرت كلّها في شكل مقالات ومحاضرات وخطب وقصائد

¹ محمد الدراجي، الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد، ص17.

² ابن باديس، مجالس التذكير، ص 14.

³ مصطفى احميداتو، عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، ص81.

⁴ مصطفى احميداتو، عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، ص81.

شعرية في صحف "الشَّهاب"، و"البصائر".¹

ثالثاً- أقوال العلماء فيه:

- ابن نبي: "لقد بدأت معجزة البعث تتدفَّق من كلمات ابن باديس، فكانت تلك ساعة اليقظة، وبدأ

الشعب الجزائري المخدَّر يتحرَّك، ويا لها من يقظة جميلة مباركة..."².

- البشير الإبراهيمي: "وعبد الحميد بن باديس عظيم بأكمل ما تُعطيه الكلمة من معنى؛ فهو عظيم في علمه، عظيم في أعماله، عظيم في بيانه وقوَّة حجَّته، عظيم في تربيته وتثقيفه لجيل كامل، عظيم في مواقفه من المألوف الذي صيَّره السكوت ديناً، ومن المخوف الذي صيَّره الخضوع إلها، عظيم في بنائه وهدمه، عظيم في حربه وفي سلِّمه، عظيم في اعتزازه بإخوانه، ووفائه لهم، وعرفانه لأقدارهم، وإذا كان من خوارق العادات في العظماء أتهم بينون من الضَّعف قوَّة، ويُخرجون من العدم وجوداً، ويُنشئون من الموت حياة، فكلَّ ذلك فعل عبد الحميد بن باديس من الأُمَّة الجزائرية"³.

- محمد بن الحسن الحجوي: أرسل نسخة من كتابه (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي) هديةً للشيخ ابن باديس، فبعث له بتقرير أثبتته مؤلَّف الكتاب قائلاً: "تقرير علَّامة القطر الجزائري، أشهر عالم مفكِّر فيه، ورئيس علمائه كافَّة، الشيخ عبد الحميد بن باديس، المدرِّس بقسنطينة، وصاحب مجلَّة الشَّهاب"⁴.

المطلب الثاني: طريقة الإمام ابن باديس ومنهجه في تنزيل الآيات

في هذا المطلب نسلِّط الضوء على الخطوط العريضة لطريقة الشيخ ابن باديس في تنزيل النص القرآني، وبيان أسلوبه في ذلك، وهي كالآتي:

الفرع الأوَّل: طريقة الشيخ ابن باديس في تنزيله لآيات القرآن

من خلال قراءتي لنماذج التنزيل عند الشيخ بدت لي طريقته في التنزيل، وهي:

1- عادة ما يتوجَّع الشيخ مقالاته بعناوين توجي إلى صلب الموضوع الذي يريد الكلام عنه، أو بعض أفكاره، حتَّى يسهِّل على القراء بجميع أصنافهم فهمه، ومعرفة ما المطلوب منهم من خلاله، مثل قوله: "فلسطين الشهيدة"⁵، فهذا العنوان عند قراءتك له يزرع في نفسك الإحساس بالمسؤولية الكبيرة تجاه نصرة أهلنا في هذه الأراضي المقدَّسة، وهو التنزيل المراد في الموضوع.

¹ ابن باديس، مجالس التذكير، 39/1.

² مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 24.

³ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 589/3.

⁴ الحجوي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، 43/1.

⁵ آثار ابن باديس، ت: عمار طالبي، ج 3، ص 413، ط 1، 1388 هـ، 1968 م، دار ومكتبة الشركة الجزائرية.

2- تصدير الموضوع بمقدمة مشوّقة تهيئ القارئ للدخول في الموضوع وقراءته، مثل قوله: "كنت- وأنا قادم للعاصمة من مصيف "حصن الماء" - أحوم على موضوع أختاره للمحاضرة التي اقترحها عليّ أعضاء النادي المحترمون. فوقع فكري على المرأة وحالتها وواجباتها وحقوقها. وبينما أنا أفكر فيها وأجمع أطراف الحديث في شأنها إذا أنا برجل مسلم جزائري ببرنوسه وقنوره وقف أمامي- لم يقف أمام حسي ولكن وقف أمام خيالي- وأخذ ذلك الرجل يخاطبني بشدة وعنجهية ويقول:...."، فهذه المقدمة تترك أخي القارئ تتشوّق لمعرفة تفاصيل الموضوع الذي عناه الشيخ، وتنزيلاته.

3- الانتقال بسلسلة بين مفاصل الموضوع، وبأفكار مرتّبة حتّى يسهّل على القراء استيعاب الموضوع؛ لأن هدف الشيخ من خلاله هو الإصلاح.

4- تنوّع طريقة التّزليل عند الشيخ، فمنها مثلاً:

- سيره على طريقة المفسرين فيذكر الآية ثمّ يورد التّزليل: مثل صنيعه عند قوله تعالى:

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228]؛ حيث قال: "فعلينا أن نعلّمها ما تكون به مسلمة، ونعرفها من طريق الدين ما لها وما عليها"¹.

- وتارة يخالفهم فيورد معنى الآية ثمّ تنزيلها، ويختتم بذكر الآية، ومثاله: "وأوحى الله إليه بذبح ابنه فامتثل، واستشار ابنه إسماعيل فأجاب وقبل، فطرحه للذبح وأسلم الله في القصد والعمل، ففداه الله بذبح عظيم، وترك عليه في الآخرين سلام على إبراهيم، وأبقى سنة الضحية في الملة الإبراهيمية، والشرعية المحمدية، تذكراً بهذا العمل العظيم، والإسلام الصادق لرب العالمين، ليتعلم المسلمون التضحية لله بالنفس والنفيس، وليعلموا أن المسلم من صدق قوله فعله، ومن إذا جاء أمر الله كان لله كله.

فتدبروا أيها المسلمون في هذا السر العظيم ومرونا أنفسكم على التضحية في كل وقت في سبيل الخير العام بما تستطيعون ولا تقطعوا عن التضحية ولو ببذل القليل، حتى تصير التضحية خلقاً فيكم في كل حين واجعلوا قصة هذا النبي الجليل نصب أعينكم، وتدبروا دائماً ما قصه الله منها في القرآن العظيم عليكم، وأحيوا هذه السنة ما استطعتم، وأسلموا لله رب العالمين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ ۝ فَبَشِّرْهُ بِعَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ لِيْ أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ۚ قَالَ يَتَّبِعُكَ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَقَلَّ لِلْجَيْنِ ۝ وَكَذَبْنَاهُ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمَ ۝ فَذَصَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 100 - 105]².

الفرع الثاني: معالم منهج ابن باديس في تنزيلاته

¹ آثار ابن باديس، ج3، ص469.

² آثار ابن باديس، ج3، ص530.

بعد اطلاعي على النماذج المدروسة برزت لي بعض المعالم المنهجية في تنزيلات الشيخ، وهي:

1- إقتصاره غالبا على إيراد الشاهد القرآني: ومثاله عندما أراد الكلام عن موضوع (فلسطين الشهيدة)؛ حيث ضمّن تمهيده الشاهد القرآني المعني بالتنزيل، وهو قوله تعالى: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: 1].¹

2- التنوّع الأسلوب في تنزيل الآيات: تنوعت أساليب الشيخ في طرحه للمواضيع التي عالجه بالتنزيل القرآني، فممنها:

أ- التنزيل انطلاقا من المواقف الشخصية: ابن باديس في موضوعه (الرجل المسلم الجزائري)، انطلق من التنزيل الافتراضي، عن طريق الحوار الذي دار بينه وبين الرجل في الخيال.²

ب- التنزيل انطلاقا من القصص القرآني: في موضوع (خطبة عيد الأضحى) انطلق الشيخ في تنزيله من قصة سيدنا إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام وما جاء في أحداثها.³

ت- التنزيل عن طريق المقارنة: نجد هذا الأسلوب عند طرحه الموضوع (التسامح الإسلامي)؛ حيث جعل مقارنة بين الدين الإسلامي، وغيره من الملل المتواجدة في الجزائر في زمنه.⁴

ث- استعماله الأسلوب المباشر وغير المباشر في التنزيل من حيث التصريح: فمن الأول: ما جاء في موضوع خطبة عيد الأضحى؛ حيث قال في آخر كلامه: "ليتعلم المسلمون التضحية لله بالنفس والنفيس، وليعلموا أنّ المسلم من صدّق قوله فعله، ومن إذا جاء أمر الله كان لله كله. فتدبروا أيها المسلمون في هذا السر العظيم، ومزّتوا أنفسكم على التضحية في كل وقت في سبيل الخير العام بما تستطيعون ولا تقطعوا عن التضحية ولو ببذل القليل..."⁵.

فهذه دعوة إلى الجهاد ومقاومة الاستعمار الفرنسي، من خلال تأكيده على التضحية. ومن الثاني: ما رأيناه في موضوع (الرجل المسلم الجزائري)؛ حيث قال بعد قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228]: "فعلينا أن نعلّمها ما تكون به مسلمة، ونعرفها من طريق الدين ما لها وما عليها"⁶. فأسقط معنى الآية الظاهر، وهو أنّ كما أنّ لهنّ حقوق، فإنّ عليهن واجبات.⁷

¹ آثار ابن باديس، ج3، ص413.

² آثار ابن باديس، ج3، ص464.

³ آثار ابن باديس، ج3، ص530.

⁴ آثار ابن باديس، ج3، ص488-490.

⁵ آثار ابن باديس، ج3، ص530.

⁶ آثار ابن باديس، ج3، ص469.

⁷ تفسير المراغي، ج2، ص166، ط1، 1365هـ، 1946م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.

4- اكتفاؤه ببيان المعنى الظاهر للآية، وحملها على العموم عند التنزيل: مثل ما جاء في كلامه عن آثار الوطنية الإسلامية العادلة (الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء)، فقال: "وتخاطب جميع الأمم والأوطان بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَذَرُ عَلَيْكُمْ فَاعْتَذِرُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا آعْتَذَىٰ عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 194] ¹.

5- استعماله لصيغ في التنزيل:

أ- قوله: "وهذه هي وطنيتنا..." ².

ب- قوله: "فأمام هذا الرجل الخيالي المرعب وحُججه الدامغة ما وسعني إلا العدول عن التفكير في المرأة إلى التفكير في الرجل..." ³.

ت- قوله: "كلّ مسلم مسؤول..." ⁴.

ث- قوله: "فالفضل في منازل الدنيا والآخرة بما هو منك..." ⁵.

ج- قوله: "نكتب هذا ليطلع قراؤنا..." ⁶.

ح- قوله: "ليعلم المسلمون...فتدبروا أيها المسلمون" ⁷.

6- من أهم النقاط المنهجية الظاهرة على تنزيلات الشيخ ابن باديس، التنزيل الإجمالي لآيات الموضوع الذي يعالجه، وهو على هيئة التفسير الموضوعي: مثال ذلك عند كلامه عن (لا فضل بالمال لمن ذا فضل فيه): حيث جمع جملة من الآيات على خطى الدراسة الموضوعية للموضوع القرآني ⁸.

المطلب الثالث: نماذج من تنزيلات الإمام ابن باديس في آثاره من غير التفسير

أتناول في هذا المطلب نماذج من تنزيلات الإمام ابن باديس في آثاره، من خلال منشوراته في جريدة الشهاب، وغيرها وسأعنون لها بحسب مجالات التنزيل الإصلاحي على النحو الآتي:

الفرع الأول: الإصلاح السياسي

الشيخ ابن باديس كان مهتماً بالإصلاح السياسي، على المستويين: الداخلي، والخارجي، سأذكر مثالا لكلهما:

أولاً- الإصلاح السياسي الداخلي

عنوان المقال: الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء

¹ آثار ابن باديس، ج3، ص368.

² آثار ابن باديس، ج3، ص368.

³ آثار ابن باديس، ج3، ص365.

⁴ آثار ابن باديس، ج3، ص414.

⁵ آثار ابن باديس، ج3، ص473.

⁶ آثار ابن باديس، ج3، ص493.

⁷ آثار ابن باديس، ج3، ص530.

⁸ آثار ابن باديس، ج3، ص471.

بهذا الشعار توج الإمام ابن باديس به جريدته (المنتقد) في رأس كل عدد منها لأكثر من عشرين سنة، وأراد الشيخ من خلال صنيعه ترسيخ وبيان حقيقة الوطن والوطنية في أذهان من لا يفقهونها، وقد نبّه الشيخ إلى أنه لا يفقه هذا الأمر إلا من غدّي بالعلم الصحيح الذي يُشعره بالحب لكل من يجد فيهم صورته الإنسانية، ويصير له الأرض كلها وطنًا، وهذا هو وطنه الأكبر، فلا يعرف ولا يحب الوطن الأكبر إلا من عرف واجب الوطن الكبير، وهو بلاده وأرضه، ولا يعرف ولا يحب الوطن الكبير إلا من عرف وأحب الوطن الصغير، وهو بيته وأسرته.

وهذه هي الوطن والوطنية الحقّة، والوطنية الإسلامية العادلة: إذ هي التي تحافظ على الأسرة بجميع مكنوناتها وعلى الأمة بجميع مقوماتها وتحترم الإنسانية في جميع أجناسها وأديانها.

ولكي يثبت الشيخ هذا الميثاق القيم في نفوس أفراد شعبه بين آثار هذه الوطنية الإسلامية العادلة وفوائدها مستندا إلى جملة من آيات التنزيل، فقال:

- "هي تخاطب البشرية كلها في جميع أجناسها بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

- وتخاطبها في جميع أديانها بقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: 6].

- وتخاطب جميع الأمم والأوطان بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ جَنَّتُوا لِلْإِسْلَامِ فَأَجْتَنَّ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: 61]، وبقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْدَى عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾¹ [البقرة: 194].²

ثم كرّر الكلام مؤكّدا على التمسك بهذه الوطنية الإسلامية العادلة، وربط الحضور وكلّ مسلم بهذا الميثاق النفيس إلى أن يلقي ربه؛ حيث قال: "وهذه هي وطنيتنا معشر المسلمين الجزائريين الأفارقة ووطنية كل مسلم صادق في إسلامه ووطنيته. وقد أعلنّاها يوم قلنا...: (الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء) وسرنا على مقتضاها إلى اليوم في كل ما قلنا وكتبنا وسنبقى عليها- ككل مسلم جزائري- حتى نلقى الله إن شاء الله".³

¹ الآثار والفوائد التي استنبطها الشيخ ابن باديس من الآيات الثلاثة الأخيرة اعتبر فيها عموم اللفظ، فهي وردت في المشركين، وخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين. الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد محمد شاكر، ج24، ص661، ط1، 1420هـ، 2000م، مؤسسة الرسالة، وج14، ص40. والقاسي، محاسن التأويل، ت: محمد باسل عيون السود، ج2، ص60، ط1، 1418هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

² آثار ابن باديس، ج3، ص368.

³ آثار ابن باديس، ج3، ص368.

نلاحظ في هذا المقال أنّ الشيخ ابن باديس أراد أن يرسخ معنى الوطنية الإسلامية العادلة في قلوب أفراد الوطن، وربطهم بما جاء في القرآن الكريم من هدايات وتنزيلات، معتبرا فيها عموم اللفظ، في معانيها، وحتّى في لفظ التنزيل، وهذا حتّى يمكن الفرد المسلم الجزائري من استيعاب هذا المبدأ المبارك، ويشجّعه على الامتثال له.

ليت شعري أين نحن الآن من هذه الوطنيّة لقد تخلّى أناس في زمن مضى عن المعنى الباديسي لهذه الوطنية الإسلامية العادلة، فكانت تعيش ألاً وطنيّة، وترفع شعار (الحق فوق الضعيف والوطن بعد كلّ شيء)؛ لذا عشنا في بلادنا فترات زمنية عصيبة والفتن بأنواعها تعصف بنا من كل جانب، وأوضاع الوطن متقلّبة غير ثابتة لمدة زمنية طويلة تتلاعب بمصيره أياد داخلية وخارجية خائنة لا علاقة لها بالوطن والوطنية.

ولكن هناك إرهابات وإضاعات نراها تبشّر بيزوغ شمس جديدة للوطنية السمحة شعارها (الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء) تكشف لنا عن أياد صالحة مصلحة تحاول النهوض بهذا الوطن واسترجاع سيادته المفقودة حتى يصل إلى برّ الأمان.

ثانيا- الإصلاح السياسي الخارجي

عنوان المقال: فلسطين الشهيذة

هذا عنوان مقال نشره الإمام ابن باديس في مجلة الشهاب؛ حيث افتتحه بقيمة المسجد الأقصى، وأنه ثالث الحرمين الشريفين وأنّ رحابه مثل رحاب مكة والمدينة، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: 1]، حتّى يربط قلب القارئ المسلم بهذا المسجد ويعظّم قدسيته في نفسه، ويزرع فيه روح المسؤولية، ويهيّأه لما سيأتي من خطاب في مقاله حول ما يجري فيه من ظلم وعدوان، تنبها له بأنّ كل ما هو واقع به كأنه واقع برحاب المسجد الحرام ومسجد طيبة.

وبعد أن أعطى الشيخ ابن باديس لمحة موجزة حول الحالة العامة التي كانت عليها فلسطين أوف السنين؛ حيث يبيّن فيها نشأة هذا الاستعمار على أرض فلسطين الآمنة والرحاب المقدّسة، فأحالتها جحيما لا يطاق، وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحا لا يندمل.

ثمّ التفت الشيخ رحمه الله إلى القارئ المسلم منبها له وموقظا فيه ضميره النائم تجاه فلسطين والأقصى، فقال: "كل مسلم مسؤول أعظم المسؤولية عند الله تعالى على كل ما يجري هنالك، من أرواح تزهق، وصغار تُبتم، ونساء تُرمل، وأموال تُهلك، وديار تُخرّب، وحرمان تُنتهك، كما لو كان ذلك كلّ واقعا بمكة أو بالمدينة، إن لم يعمل لرفع ذلك الظلم الفظيع بما استطاع"¹.

ولقد ذكر لنا الشيخ نموذجا يُقتدى به من رجل جزائري عاقي من أوساط الناس

¹ آثار ابن باديس، ج3، ص414.

متمسك بدينه يتألم من حالة القدس الشريف، ويعظم فيه هذه الروح وهذا الشعور.
 ففى الإمام ابن باديس كيف ابتدأ بذكر الآية القرآنية، ثم جعل لها تنزيلا ربط به قلوب المسلمين وحيم لثالث الحرمين وأولى القبلتين، ولكون البركة اكتنفته من نواحيه كلها، فكان أخرى لهذه الضمائر الميتة أن تحيا من جديد فتدفع الظلم والعدوان عن مقدسها.
 فلسطين الشهيدة شيخنا لا تزال شهيدة إلى يومنا هذا، وللأسف لقد انتشر في زماننا ما يسمّى، بالتطبيع، فجّل الحكومات العربية والإسلامية يعيشون التطبيع مع الصهاينة الغاصبين، وأمّا نموذج الفرد الجزائري الذي ذكرته يا شيخنا فقد توارثناه جيلا بعد جيل، ونبشرك بأنّ الجزائر حكومة وشعبا ترفع شعار: (الجزائر مع فلسطين ظالمة أو مظلومة)، وهي تؤكد السير عكس تيار التطبيع.

الفرع الثاني: الإصلاح الاجتماعي

عنوان المقال: الرجل المسلم الجزائري

أصل هذه المقالة محاضرة ألقاها الإمام ابن باديس ارتجالا بنادي الترقى بالعاصمة، ثم أعاد نشرها سنة 1929م في مجلة الشهاب.

وقد ذكر الشيخ سبب اختياره لهذا العنوان، من خلال الحوار الخيالي الذي جرى بينه وبين الرجل المسلم الجزائري، وذلك عند اختيار الشيخ أول الأمر الكلام عن المرأة وحالتها وحقوقها وواجباتها، فأتاه ذلك الرجل المسلم الجزائري يحتجّ كيف تقدمون موضوع المرأة عن الرجل الذي هو أبوها، وزوجها، وليلها ومصدر خيرها وشرها، فما كان على الشيخ إلا أن يستجيب لرغبة هذا الرجل؛ حيث قال الشيخ: "فأمام هذا الرجل الخيالي المرعب وحججه الدامغة ما وسعني إلا العدول عن التفكير في المرأة إلى التفكير في الرجل فاخترت موضوع المقالة: "الرجل المسلم الجزائري"¹، ثم قسم الشيخ محاضراته بالكلام على هذا الرجل المسلم الجزائري أولا من نواح ثلاث: رجولته، إسلاميته، جزائريته، ثم ثنى كلامه على المرأة المسلمة الجزائرية كذلك من نواح ثلاث: أنوثتها، إسلاميتها، جزائريتها.

وعند كلام الشيخ عن رجولة الرجل وإسلاميته، وأنوثة المرأة وإسلاميتها، نراه التمس هداياتها من آيات التنزيل، فابتدأ كلامه بتعريف هذا الرجل معنى الرجولة الحقيقية التي تجعله مؤهلا للقيام برئاسة بيته، واستحقاق ولايته، وبيان واجباته نحو أهل بيته؛ حيث ربط الشيخ كلامه بأي القرآن، فقال: "هو رئيس البيت: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: 34]، فعليه واجب الرعاية: بالسعي والتكسب، بالتهذيب والتعليم، للزوجة، وللابناء، وللبنات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْأَجَارُ﴾ [التحریم: 6]، وله حق

¹ آثار ابن باديس، ج3، ص365.

الولاية: ﴿وَالرَّجَالُ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: 228]، درجة الولاية بالنظر والتدبير، والتنظيم والتسيير، فهو السيد في بيته ليكون سيّداً في قومه¹.

وبعدها انتقل الشيخ إلى الصفة الثانية، وبَيّن للرجل حقيقة إسلاميّته التي يجب أن يتّصف بها حتّى يحصل السعادة الأخروية التي لا يخفى بيانها على أحد، والسعادة الدنيوية التي خفي على كثير من الناس أمرها؛ لذا كشف الشيخ ابن باديس لهؤلاء عن حقيقتها، وكيف دعا هذا الإسلام إلى تحصيل هذه السعادة الدنيوية من خلال آيات التنزيل؛ حيث قال: "وأما تحصيلها لسعادة الدنيا فقد صار في هذه العصور المتأخرة عند كثير من الناس مما يخفى، مع أنّ دعوته إلى تحصيل السعادة والسيادة في الدنيا في آيات القرآن العظيم كثيرة جداً، فدعا إلى العلم بمثل قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: 114]، وللصلاح بمثل قوله تعالى: ﴿هُوَ أَشْدُّ مِنْ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرُ فِيهَا﴾ [هود: 61]، وإلى الصناعة وإتقانها بمثل قوله تعالى: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفِيَّزَ فِي السَّيِّئَاتِ﴾ [سبا: 11]، وإلى التجارة بمثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 10]...².

ثمّ نبّه الشيخ هذا الرجل إلى أنّ الإسلام كما دعا إلى تحصيل السعادة الدنيوية، أيضاً جعل لها ضوابط حتّى لا تكون هذه السعادة على حساب أيّ مسلم آخر، فبيّن له بأنّ الإسلام كذلك يدعوا بالمقابل إلى السلامة، والمحبة، والترقي بالعلم، والسيادة بالعدل والإحسان، فقال: "وهو إلى هذا دين السلامة و«المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»³، ودين المحبة «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»⁴، ودين الترقّي بالعلم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9]، ودين السيادة بالعدل، والسيادة بالإحسان ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: 90]⁵. وبعدها بيّن الشيخ للرجل جزائريّته ونسبته إليها، وواجباته نحوها، ووضّح له طريق العلم بهذا والعمل به.

ثمّ أردف الشيخ الكلام عن شقيقة هذا الرجل في الخلقة والتكليف، وشريكته في البيت والحياة، وبَيّن دليل الخلقة على ما بين الرجل والمرأة من لحة اتصال، وما لكل واحد منهما

¹ آثار ابن باديس، ج3، ص465.

² آثار ابن باديس، ج3، ص466.

³ رواه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عمرو بن العاص رضي الله عنهما، حديث رقم: 7086، ج11، ص658. ت: شعيب الأرناؤوط، وآخرون، ط1، 1421هـ، 2001م، مؤسسة الرسالة، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

⁴ رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم: 13، ج1، ص12، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، 1422هـ، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي).

⁵ آثار ابن باديس، ج3، ص466.

على الآخر من توقف لبلوغ الكمال؛ حيث ابتداءً بأصغر جزء من مادة تكوينهما، ولكي يتمّ البيان عرض ذلك على ما جاء فيه من آي القرآن، فقال: "...ويبتدئ ذلك في أصغر جزء وأول مادة للتكوين، وهو الجوهر الفرد في اللسان العلمي القديم، والكهربياء في اللسان العلمي الحديث، فإنه مركب من قوتين زوجيتين موجبة وسالبة، مصداق قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: 49]، ويعمّ هذا القانون جميع المخلوقات ومنها الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبا: 8]¹، ثمّ وضّح الشيخ إسلامية هذه المرأة، من خلال قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228]، وانطلاقاً منها قال الشيخ: "فعلينا أن نعلمها ما تكون به مسلمة، ونعرفها من طريق الدين ما لها وما عليها"².

الملاحظ في مقال الشيخ أنّه وضع من خلال آيات القرآن وهداياته، الأسس الصحيحة التي يعرف بها الرجل المسلم الجزائري رجوليته، وإسلاميته، وجزائريته الصحيحة، وتعرف بها المرأة المسلمة الجزائرية، أنوثتها، وإسلاميتها، وجزائريتها، الصحيحة كذلك، وكانت انطلاقته من الواقع المفترض، وحواره مع ذلك الرجل، مشيراً إلى تنزيله على الواقع، وداعياً المجتمع إلى العمل على ترسيخ هذه الأوصاف فيهما، حتّى نهض -كما قال الشيخ- بالرجل والمرأة نهضة صحيحة نرجوا من ورائها كل خير وكمال.

مقال الشيخ ابن باديس هذا يعالج واقعنا المير، الواقع الذي تخلى فيه كل من الرجل والمرأة عن هذه الركائز المتينة والأوصاف الحميدة، فأنتمجوا لنا ذكورا، وشبه ذكور، مسلمين بالوراثة، جزائريين بالبطاقة، لهذا وجب علينا نحن كمجتمع مسلم جزائري أن نبعث الروح الباديسية في دعوتنا من جديد، ونعمل على تحديث مثل هذه الخطابات ونشرها في المجتمع.

الفرع الثالث: الإصلاح الأخلاقي

عنوان المقال: لا فضل بالمال لمن كان ذا فضل فيه

هذا المقال من منشورات الإمام ابن باديس في مجلّة الشهاب سنة 1929م، يتناول فيه حقيقة التفاضل بين العباد في الدنيا والآخرة.

بدأ الشيخ بيانه لمعاني الفضل، والفاضل، والمفضل، والتفضيل، وأشار بأنّ الله تعالى قد فضل بين عباده بحكمته في العطاء دنيا وآخرة، وأنّ الله تعالى لم يجعل كلّ العطاءات سببا للتفضيل في القدر والمنزلة.

ثمّ أتبع الشيخ كلامه بأمثلة متنوّعة من العطاءات الحسيّة منها والمعنوية، والمتمثّلة في الجسم والعلم، وقوّة العقل والبدن، وأخيرا العطاء في العمل، ويبيّن ما يكون منها سببا في فضل القدر في الدنيا فقط، وما يكون منها سببا في فضل القدر والمنزلة في الدارين، واعتمد

¹ آثار ابن باديس، ج3، ص468.

² آثار ابن باديس، ج3، ص469.

الشيخ في بيان ذلك كله على الهدايات القرآنية بإسقاطه لآيات التنزيل؛ حيث قال: "فالفضل في الجسم والفضل في العلم سببان في فضل القدر والمنزلة، وبهما فُضِّل طالوت على بني إسرائيل واختير عليهم ملكاً. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: 247]، وليس المراد هنا من الجسم كبره وضخامته، بل المراد صِحَّتُه وقوته بقوة فؤاده، فَإِنَّ ضخامة الجسم مع السقم أو ضعف القلب بلاء على صاحبها، وفضل القدر والمنزلة المتسبب عن فضل الجسم والعلم هو فضل يستحق به التقديم في هذه الدنيا، وأما نيل الفضل بهما في منازل الأخرى فمتوقف على العمل بهما"¹.

فانظر معي كيف أسقط الشيخ آية قصة طالوت في سورة البقرة؛ لبيان أَنَّ التفضيل في الجسم والعلم تفضيل دنيوي، ولن يكون هناك تفضيلاً آخرى إلا بالعمل.

وأما مثال القوة والعقل فذكر فيه الشيخ تفاضل الرجل على المرأة، فقال "والرجل فُضِّل على المرأة في قوة العقل وقوة البدن وكانت قوته هاتان سببين في فضله في القدر والمنزلة والتقديم عليها في هذه الدنيا، قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: 34]..."².

وها هو الشيخ استند في بيان هذا التفاضل الدنيوي في قوتي العقل والبدن بما جاء في آية القوام من سورة النساء.

وأخيراً يختم الشيخ بما يكون به التفاضل في الدنيا والآخرة، بقوله: "وأما الفضل في العمل فإنه سبب في فضل القدر والمنزلة دنياً وأخرى، قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 95]، وتعليق الحكم هو التفضيل بالمشتق؛ وهو المجاهدين، مؤذن بعلية ما منه الاشتقاق وهو الجهاد، فيستفاد من سببيته في الفضل والتقديم في القدر والمنزلة"³.

لقد ذكر الشيخ ابن باديس تلك الأمثلة التي بين من خلالها ما يكون به التفاضل بنوعيه الدنيوي والأخروي، حتّى يصل بنا إلى بيت القصيد الذي به عنوان المقال، وهو عطاء المال، فهل هو سبب في التفاضل أم لا؟ هنا يجيبنا الشيخ ابن باديس بقوله: "وأما المال فلم يكن أبداً- سبباً في فضل القدر والمنزلة، ولذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: 71]، فجعل التفضيل فيه فيزيد فيه حظ بعض الناس على بعض، ولم يقل

¹ آثار ابن باديس، ج3، ص471.

² آثار ابن باديس، ج3، ص472.

³ آثار ابن باديس، ج3، ص472.

(بالرزق)؛ لأن الرزق ليس سبباً لتفاضل الناس في الأقدار والمنازل لا دنيا ولا أخرى؛ لأن منازل الآخرة يتفاضلون فيها بما قدموا من صالح الأعمال، ومنازل الدنيا يتفاضلون فيها- على الحق والعدل- بالكفاءات والأخلاق والأعمال"¹.

فالمال إذن ليس سبباً للتفاضل لا في الدنيا ولا في الآخرة، كما ذكر الشيخ أنفاً، ولكي يؤكد لنا الشيخ ذلك استرجع ما جاء في قصة طالوت، فقال: "وقدر الله تعالى على بني إسرائيل لما قالوا في طالوت: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: 247]، منكرين استحقاقه للملك بأنه ليس من بيت الملك ولا بذئ مال لاعتقادهم أن الفضل بمنزلة الملك إنما يتسبب عن النسب والمال، ردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَرَأَاهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: 247]؛ ليبين لهم أن منازل الفضل في هذه الدنيا بالكفاءات الشخصية لا بما هو خارج عنها من النسب والمال"².

وبعد أن أنهى التوضيح والبيان والتفصيل من خلال هدايات القرآن وتنزيلاته، التفت إلى القارئ الكريم منهاً ومذكراً له ومرشداً، فقال له: "فالفضل في منازل الدنيا والآخرة إنما هو بما هو منك، من جسمك وأخلاقك وعلمك وعملك لا بما هو باين عنك ومباين لك من هذا الحطام. حتى إذا حصلت من حلّه، وأنفقت في محله، كان لك الفضل العظيم بما كان لك فيه من أعمال"³.

مقال الشيخ يظهر لنا جانباً من الخلال التي كانت منتشرة في عصره، ربما يرجع ذلك إلى الأوضاع الاقتصادية التي كان يعيشها الشعب الجزائري؛ لذا أراد تذكير الناس بأنه لا تفاضل في المال لمن كان ذا فضل فيه، وربطه بالآيات القرآنية لبيان التفاضل الحقيقي الذي يكون سبباً للتفضيل في القدر والمرتبة دنيا وآخرة.

ما عسانا أن نقول الآن والجزائر تعيش زماناً أفضل من زمان ابن باديس من الناحية المعيشية، والاستقرارية، لكن بقي التفاضل المالي، بل زاد وانتشر في مجتمعنا، فالنظرات المادية ظلت المقياس الأول للتفاضل في كثير من الشؤون المختلفة بين جلّ الناس بمختلف طبقاتهم، لذا علينا استدراك هذا الأمر بتذكير المجتمع بميزان التفاضل في الدنيا والآخرة كما أرشدنا إليه الإمام.

الفرع الرابع: الإصلاح العقدي

عنوان المقال: التسامح الإسلامي: (نظر المسلمين إلى غير المسلمين ونظر غيرهم إليهم)
المقال الذي بين أيدينا نشره الإمام ابن باديس سنة 1936م، في مجلته الشهاب على

¹ آثار ابن باديس، ج3، ص472.

² آثار ابن باديس، ج3، ص473.

³ آثار ابن باديس، ج3، ص473.

جزأين: (التسامح الإسلامي1، التسامح الإسلامي2)، وما تركه يعيد الكلام في جزء آخر إلا لأهمية الموضوع، وما هو جار من الأحداث والفتن المتجددة التي يؤجج نارها أعداء الدين من الملل الأخرى بقسنطينة وبونة.

افتتح الشيخ ابن باديس مقاله هذا بإعطاء لمحة حول سماحة الإسلام وما انبنى عليه من الحق وما جاء به للبشرية من خير، لذا قرر الإسلام محبة الإسلام في قلوب المسلمين وكره ما سواه، دون أن يحملوا حقدا على مخالفيهم أو يمسههم بأذى مقارنة مع غيره من الملل الأخرى، وما انبنت عليه من الباطل، وما أدخل عليه منه، وما أصيبت به كتبها من التحريف والضياع، لذا كان رؤساء كل ملة ينشرون ذلك الحقد الديني والتعصب، ويوقعون على المخالف أنواعا من الشرور والبلايا والفتن.

ثم بدأ الشيخ بذكر مقارنة بين ما يدعوا إليه الإسلام من التسامح والتعايش ونبذ التعصب الديني، وما تدعوا إليه الملل الأخرى كالكاثوليكية، والنصرانية، مزينا كلامه بتنزيلات آيات القرآن وهداياته، ونظرا لجمال هذه المقارنة وعظم الفائدة التي تحويها سأعرضها بأسلوب الخالص حتى يسهل استيعابها:

1- ما جاء به الإسلام:

- الإسلام عرّف أتباعه أنّ اختلاف الأمم وتباينهم في نحلهم هو بمشيئة الله وما كانت مشيئته إلا حكمة وصوابا، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [النحل: 93]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 99]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: 118]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوَظَّنَّ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: 100]؛ لأجل أن يقتلع جذور الحقد الديني والتعصب على المخالف من قلوبهم.

- الإسلام عرّف أتباعه وجه الحكمة في هذا الاختلاف، وهي أنّ تباين أعمالهم بتباين مشاربهم ومداركهم مما هو ضروري لنمو العمران وتقدم الإنسان وظهور حقائق الأفراد والأمم بالابتلاء والاختبار فيما أوتيت من عقول وإرادات وقوى وأعمال. فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَقِمْوا لِحُزْنَتِ﴾ [المائدة: 48].

- الإسلام أقرّ المخالفين على ما ينتحلون ويعتبرونه ديناً، وسماه ديناً، وحكم بأن يُترك لهم، فقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: 6].

- الإسلام أقرّ للمخالفين معابدهم، وذكرها بما يقتضي وجوب احترامها بما يذكر فيها من اسم الله، وقرنها بالمساجد تأكيداً لذلك الاحترام فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتِ صَوْمُعٌ وَبِيعٌ وَصَلَوْتُ وَمَسْجِدٌ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: 40].

- الإسلام أقرّ للمخالفين كتبهم لهم، وسمّاهم أهل الكتاب، وأقرّ ما يعملونه من دينهم

وسمّاه عملاً فقال: ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ [الشورى: 15].

- الإسلام أقرّ للمخالفين أحكامهم فيما بينهم، ومنع من التعرّض لهم إلا إذا جاءوا بطوعهم واختيارهم متحاكمين إلى الإسلام فقال: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَلَا حَكْمَ يَنْتَهُمْ أَوْ أُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: 42]¹.

ببيان هذه الحقائق من سنن الله وحكمته، ربّي الإسلام المسلمين على التسامح وكوّن نظرهم لغيرهم من أهل الملل، فهم لا يرون في اختلاف تلك الملل إلا شيئاً قد قضاه الله، فسلمت قلوبهم من الحقد الديني الممقوت والتعصب المذموم.

2- ما جاءت به الهيئات الدينية النصرانية، والكاثوليك

- هذه الفرق تعلم أتباعها صلوات يومية عدائية ترسخ جذور الحقد والتعصب الديني، وهي دعوات تُكرّر في أوقات مخصوصة ضد الإسلام والمسلمين، وهذا نص صلاة من الصلوات اليومية: "...وأقدم إليك صلواتي من أجل الغاية التي أنت ساع في سبيلها كل يوم على المذبح، وأقدم إليك صلواتي بصفة أخص، من أجل اتخاذ كل الكاثوليك، ومن أجل محاربة الإسلام"².

- هذه الفرق تنشر التبشير، وغاية هذا التبشير هو النضال ضد الإسلام.

ثمّ التفّت الشيخ ابن باديس إلى فروقات من واقعه، لكي يبين للمسلمين الجزائريين فرقا آخر يعيشونه في واقعهم، يبيّن فيه مظهراً آخر من مظاهر التسامح الإسلامي، وعداء النصرانية والكاثوليك، وهذه الفروقات هي:

- المسلمون لا تجد في صحافتهم ومجلاتهم الفصول العريضة والمقالات الطويلة تبحث في النصرانية، إلا إذا كان من باب رد العدوان.

- الهيئات الدينية النصرانية لكل هيئة منها مجلتها ويكاد لا يخلو عدد منها من الكلام على الإسلام، وتصويره بالصورة المنفرة البغيضة المثيرة للأحقاد والحاملة على التعصب.

وأخيراً ذكر الشيخ ابن باديس سبب إيراد لهذه المفارقات، فقال: "نكتب هذا ليطلع قراؤنا على حقائق واقعية تتصل بالحياة الاجتماعية بينهم وبين من يسكنونهم في وطنهم، وليعلم إخواننا المسلمون عظيم نعمة الله عليهم بما شرعه لهم من أصل التسامح العظيم فيزدادوا به تمسكاً، فيعيشوا سالمي الصدور من داء الحقد الديني والتعصب الممقوت، وليعرف الذين يبثون تلك السموم أن أعمالهم لا تخفى على غيرهم، فعسى أن يقلعوا عنها ويرجعوا للعمل معنا على بث التسامح بين عباد الله"³.

¹ آثار ابن باديس، ج3، ص489.

² آثار ابن باديس، ج3، ص491.

³ آثار ابن باديس، ج3، ص493.

هذا المقال كما نرى دلالة على النظر في أحوال الواقع الذي يعتريه الحقد والتعصب الديني، والعداءات المعلنة؛ لذا أراد الشيخ ابن باديس تحذير وتنبيه المسلمين الجزائريين لهذا الأمر ببيان سماحة دينهم، وموقفه من الديانات التي يتعايشون مع أهلها، وعداوة من يعايشونهم من أصحاب الملل الأخرى، بطريقة المقارنة، وربط ذلك بآيات وهدايات القرآن الكريم بصورة العموم وظاهر المعاني.

في الحقيقة حتى الواقع الذي نعيشه يا شيخ لم يسلم الإسلام فيه من هذه العداءات والصراعات، بالرغم من أن نسبة تواجد هذه الملل في بلادنا ضئيلة جداً، ولكن تنوعت وسائلهم وتطوّرت في نشر عداءاتهم وشبهاتهم حتى ولجت بيوتنا من غير إذن، يقابله في الوقت نفسه خمول وجمود مسّ رجال الدعوة والإصلاح، فمجهودهم لا يقارن بمجهود أعداء الدين، وما نظنّه إلا بسبب ضعف الدين فينا وانقسامنا، حتى أضحيننا لقمة سائغة في نظرهم، والله عز وجل يقول: ﴿إِنْ تَصُورُوا اللَّهَ يَضُرَّكُمْ﴾ [محمد: 7].

الفرع الخامس: الإصلاح الديني

عنوان المقال: خطبة منبرية (سرّ التضحية)

هذا المقال هو من منشورات الشيخ ابن باديس سنة 1934م في مجلة الشهاب، وهي عبارة عن خطبة لعيد الأضحى، وذلك استجابة لطلب الكثير من الإخوة حتى يخطبوا بها.

ابتدأ الشيخ ابن باديس خطبته كسائر الخطب المنبرية بالحمد والثناء، ثم الصلاة على خاتم الأنبياء، وبعدها ذكر بيوم العيد وفضله، وبعدها انتقل إلى ذكر إشارات مهمة من قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام آخرها استجابته وابنه إسماعيل عليهما السلام لأمر ربهما، وبقيت سنة الضحية في الملة الإبراهيمية، والشرعية المحمدية، تذكراً بهذا العمل العظيم، وإسلام الصادق لرب العالمين، واستنبط الهدايات من هذه القصّة القرآنية، لبث روح التضحية والاستجابة عند المسلمين، فقال: "...ليتعلم المسلمون التضحية لله بالنفس والنفيس، وليعلموا أنّ المسلم من صدّق قوله فعله، ومن إذا جاء أمر الله كان لله كله. فتدبروا أيها المسلمون في هذا السر العظيم ومروا أنفسكم على التضحية في كل وقت في سبيل الخير العام بما تستطيعون ولا تقطعوا عن التضحية ولو ببذل القليل، حتى تصير التضحية خلقاً فيكم في كل حين..."¹، ثم تلا آية قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ ۝ فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلِّمٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِلَيَّ أَرَى فِي السَّمَاءِ أَنِّي أَبْهَكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَوُا ۝ قَالَ يَكُنَّ أَبْعَدُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ سَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَكَلَّاهُ لِلْجِبِينِ ۝ وَكَذَيْتَهُ أَنْ يَتَّبِعَهُمْ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 100 - 105].

¹ آثار ابن باديس، ج3، ص530.

كما رأينا الشيخ ابن باديس في هذه الخطبة النموذجية ابتداءً بكلامه بذكر معالم القصة القرآنية، ثم استخرج مكنونها وهدايتها، وربطها بواقع المسلمين؛ حيث رغبهم في تمرين الأنفس على التضحية في سبيل الخير العام، ولو ببذل القليل، ثم أورد آيات قصة إبراهيم عليه السلام، وفي هذا التنزيل دعوة غير مباشرة إلى التضحية بالصمود ضد الاستعمار.

أشهر تنزيلات الخطباء لآيات قصة إبراهيم عليه السلام هو برّ الوالدين، ومنذ أن ابتدأت حضور الخطب المتعلقة بعيد الأضحى لم أسمع مثل هذا التنزيل المتعلق بالتضحية بالنفس في سبيل الخير، واستنباط مثل هذه الهدايات والتنزيلات تنبئ على الرؤية الواقعية والدقيقة التي تعبر عن حالة المجتمع.

خاتمة

بعد هذه الجولة العلميّة الوعظية الإصلاحية الممتعة التي قمت بها مع الشيخ ابن باديس في منشوراته، أصِل الآن إلى نهاية هذا العمل، ولكن قبل الافتراق أودّ أن ألخصّ لك عزيزي القارئ أهمّ النتائج التي توصّلت إليها من خلاله، وأرفقها ببعض التّوصيات:

أولاً- أهمّ النتائج:

- 1- البيئة الأسريّة الملائمة ساعدت في تكوين الشخصية العلميّة للشيخ ابن باديس.
- 2- بالرغم من قلة النماذج إلّا أنّ أساليب الشيخ ابن باديس فيها متنوّعة.
- 3- من أهمّ أساليب التفسير التي تعنى بهدايات القرآن وتنزيلها على الواقع هو أسلوب التفسير الموضوعي، ولقد رأينا ملامحه عند ابن باديس من خلال موضوعاته.
- 4- الأسلوب الجديد الذي برز عند الشيخ ابن باديس في التنزيل القرآني هو التنزيل انطلاقاً من المقارنة.
- 5- قوة اطلاع الشيخ ابن باديس الشامل على قضايا ومستجدات العصر الذي يعيشه.
- 6- الملكة التفسيرية التي يمتلكها الشيخ مكنته من سلوك الطريق الصحيح في ربط نصوص الوحي بالواقع.
- 7- تنزيلات الشيخ ابن باديس جاءت شاملة للعديد من القضايا السياسية، والدينية، والعقدية... وغيرها.

ثانياً- أهمّ التّوصيات:

- 1- إعداد دراسات تُعنى بدراسة معالم التفسير الموضوعي في آثار الشيخ ابن باديس.
 - 2- هناك مقالات ومنشورات باديسية، لازالت دقات قلب الإصلاح تنبض فيها، حُقّ لها إعادة نشرها في المجلات الجزائرية الحالية.
 - 3- رسالتي إلى الخطباء والوعاظ، بأن يعتنوا بهذا التراث الباديسي القيم، من حيث الاستفادة من منشوراته ومقالاته وخطبه الإصلاحية.
- وأخيراً هذا ما وُقِّعت لكتابته، وأرجوا أن أكون قد وقَّيت هذا الموضوع بعض حقّه، والله

أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلُ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ مَنْ كَتَبَهُ وَقَرَأَهُ وَصَحَّحَهُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَأَخْرَجُونَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قائمة المراجع والمصادر

- القرآن الكريم برواية حفص
- ابن أبي دينار، كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1286هـ.
- أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، دون ط، دار البعث، دون تط. 1 عمّار طالبي، آثار ابن باديس، 80/1.
- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م.
- الحجوي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، اعتنى به: أيمن صالح شعبان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1416هـ/1995م. - آثار ابن باديس، ت: عمار طالبي، ج3، ص413، ط1، 1388هـ، 1968م، دار ومكتبة الشركة الجزائرية.
- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد محمد شاكر، ط1، 1420هـ، 2000م، مؤسسة الرسالة.
- القاسمي، محاسن التأويل، ت: محمد باسل عيون السود، ط1، 1418هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تفسير المراغي، ط1، 1365هـ، 1946م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.
- صحيح البخاري، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، 1422هـ، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي).
- عبد الحميد بن باديس، مجلة الشهاب، الجزء 11، مجلد 11، قسنطينة، الجزائر.
- عبد الرشيد زروقة، جهاد ابن باديس، ط1، دار الشهاب، بيروت، 1420هـ/1999م.
- عبد العزيز فيلاي، وثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، بدون ط، دار الهدى، عين مليلة، دون تط.
- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دون ط، دار الفكر، دمشق، دون تط.
- محمد الدراجي، الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد، دون ط، دار الهدى، 2012م.
- محمد بيهي الدين سالم، ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1420هـ/1999م.
- مسند الإمام أحمد ت: شعيب الأرنؤوط، وآخرون، ط1، 1421هـ، 2001م، مؤسسة الرسالة.
- مصطفى احميداتو، عبد الحميد وجهوده التربوية، ط1، وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 1418هـ/1997م.
- مفدي زكريا، الذكرى العشرون لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس، مجلة: الفكر التونسية، ع 78، ماي 1960م، تونس.
- موقع الشيخ ابن باديس على النت: <http://www.binbadis.net>، تاريخ الاطلاع: 20/04/2015، على الساعة: 06:57.

دلالة اللفظ القرآني وأثره في تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ محمد الحواس بوسنة في تفسيره

د/ عز الدين كربوش

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله
Azeddinekerbouche@gmail.com



مقدمة

كانت الآيات زمن التنزيل ترد موافقة للواقع تعالج قضايا البشرية، فتشرع لهم الأحكام، وتهديهم إلى أفضل السبل، وتبعدهم عن طريق الشيطان وأبواب الهلاك، وبذلك تفي بحاجاتهم الإيمانية، وترشدتهم إلى مقوماته الخلقية، وتبين لهم تشريعات الإسلام: فتفرق بين الحلال والحرام، والطيب والخبيث، والمأمور به والمنهي عنه، فكان القرآن يحقق الاكتفاء لأهل الإيمان، فلا يستشكل عليهم أمر إلا وضح لهم، ولا تخفى عليهم مسألة إلا أعلمهم بها، ولا يختلفون بينهم إلا بصرهم بالحق، ولم يدم هذا الأمر إلا فترة حياة النبي صلى الله عليه وسلم حين كان الوحي يأتيه من السماء، وبانقطاع الوحي احتاجت الأمة إلى علماء مقتدرين يستنطقون نصوص القرآن لينزلوها على واقع الأمة، ويربطوها بالمستحدثات وما جد منها في كل عصر.

ولقد ساعد أهل التفسير والفقه في استنباط دلالات متجددة بحسب المستجدات والوقائع سعة اللغة العربية وغنى ألفاظها بالمعاني، فكان من شروط المتعرض لكتاب الله أن يكون على دراية بعلوم اللغة العربية بمستوياتها المختلفة، فإن اللغة هي وسيلة الخطاب القرآني، ولن تفهم هذه الرسالة حق الفهم إلا بمعرفة سنن العرب في كلامهم، ولذلك توافق العلماء قديما وحديثا على ضرورة الإمام بعلوم اللغة العربية للمجتهدين في استنباط الأحكام من القرآن الكريم، وكذلك من السنة النبوية، فإن اللغة إحدى آليات فك الرموز والتنقيب عن الدلالات للوصول إلى الأحكام المقصودة.

ومن هذه الجهود التي لفتت انتباهي تفسير القرآن الموسوم بـ: "الفيض الرباني في بيان معاني القرآن" لصاحبه: "محمد الحواس بوسنة"، والذي جاء بأسلوب معاصر يربط النص القرآني بواقع الأمة، ويحاول صاحبه أن يجعل من إرشاداته هداية للحائرين ونورا للمهتدين، وذلك من خلال ما يستلهمه من آيات الذكر الحكيم، ورأيت أن صاحب التفسير قد وفق إلى حد كبير في بسط دلالات النصوص بأسلوب واقعي متجدد، فأصبح المعنى مألوفا يحمل رسالة بيّنة الغاية والمقصد، لا يجد فيه القارئ لبسا ولا غموضا يؤدي إلى الحيرة والشك.

وذلك ما دعاني إلى اختيار هذا التفسير ليكون ميدانا لبحث موضوع تنزيل الآيات على الواقع، وهنا تبادرت إلى ذهني تساؤلات شكلت مجتمعة إشكالا يحتاج إلى بحث وتمحيص من أجل الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما سر مواكبة النص القرآني وشروحه لمتغيرات العصر؟
- ما دور اللفظ القرآني في تحقيق دلالة متجددة للنص القرآني؟
- ما هي خصائص اللفظ القرآني الذي تميز بالحياة والتجدد؟
- هل كان لدلالة اللفظ القرآني علاقة بتنزيل النصوص على الواقع في التفسير الذي بين أيدينا؟

ومن أجل الإجابة عن التساؤلات السابقة وغيرها من الأسئلة الفرعية التي تندرج تحتها، طرحت فكرة البحث في الموضوع الذي عنونته بـ "دلالة اللفظ القرآني وأثره في تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ محمد الحواس بوسنة في تفسيره".

ونهدف من وراء البحث في هذا الموضوع: إلى بيان القيمة العلمية لهذا التفسير، وبيان طرقه في الغوص في معاني الآيات مثل: تنزيل النصوص على الواقع، واستثمار غنى الألفاظ في البحث عن المعاني الواسعة والمتجددة.

وتكمن أهمية هذا البحث في كونه يرتبط بأحد أشرف العلوم (علم التفسير)، وذلك لارتباطه بالقرآن الكريم، كما أن الموضوع يبحث في إحدى آليات تجديد الخطاب القرآني وربطه بالوقائع، وذلك باستثمار ألفاظه المتميزة في دلالتها على المعنى المراد.

وعلمي في هذا البحث مبني على شقين:

شق نظري: حاولت فيه التعريف بالموضوع وما يتعلق به، وأضفت إلى ذلك تعريفا موجزا بالتفسير وصاحبه، أما الشق التطبيقي فاتجهت فيه إلى عرض نماذج من الكتاب، لبيان أسلوب الكاتب في تنزيل الآيات على واقع الأمة، وبيان دور الألفاظ الأساسية في تنزيل الآيات، وذلك وفق خطة البحث الآتية:

مقدمة: تعرضت فيها للتعريف بالموضوع، وبيان إشكالية البحث، وذكر الأسباب الموضوعية لاختياره، كما وضحت فيها خطة البحث، وعملنا فيه.

المبحث الأول: مسائل نظرية تتعلق بالموضوع.

المطلب الأول: خصائص اللفظ القرآني. وقفنا فيه مع مميزات الألفاظ القرآنية، من وضوح ودقة... وغيرها.

المطلب الثاني: تنزيل الآيات على الواقع. عرفنا فيه بهذه العملية وتاريخ ظهورها وعلاقتها بعلم التفسير.

المطلب الثالث: التعريف بصاحب التفسير. قدمنا فيه نبذة عن سيرة صاحب التفسير العلمية والعملية.

المطلب الرابع: التعريف بكتاب "الفيض الرباني في بيان معاني القرآن"، عرفنا فيه بهذا التفسير وأشرنا إلى أبرز مميزاته.

المبحث الثاني: نماذج تطبيقية من الكتاب. وقفنا فيه مع عشرة أمثلة الأولى في الكتاب التي

تم تنزيلها على الواقع.

خاتمة. ذكرنا فيها أهم النتائج التي توصلنا إليها.

المبحث الأول: مسائل نظرية تتعلق بالموضوع.

يحتاج البحث في هذا الموضوع للتطرق إلى نقاط مهمة تشكل المسائل الرئيسية لموضوع البحث، منها معرفة خصائص اللفظ القرآني ومميزاته، ومعرفة عملية تنزيل النصوص على الواقع خصوصا ما تعلق منها بعلم التفسير، وكذلك التعريف بالكتاب، ومؤلفه.

المطلب الأول: خصائص اللفظ القرآني.

إن أعظم حدث في تاريخ اللغة العربية نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين، حيث اختار الله -عز وجل- ألفاظها لتكون وعاء للمعاني التي أراد أن يخاطب بها الناس، ولم يكن هذا الاختيار إلا عن علم وحكمة من صاحب التنزيل، ودليل على دقة ألفاظ القرآن الكريم في إيراد المعاني، وسعتها في احتوائها، ونحن نؤمن إيمانا جازما أنه لولا قدرة اللغة العربية على استيعاب تلك المعاني، وعرضها في أكمل صورة لما اختارها الله -عز وجل- لهذه المهمة، ولما شرفها بها، وبهذا أصبحت اللغة العربية من وسائل فهم الكتاب والسنة، وأصبح العلم بها من الواجبات الكفائية على الأمة⁽¹⁾، وفي هذا المعنى يقول صاحب التفسير اللغوي للقرآن الكريم: "كانت لغة العرب من أهم المصادر وأوثقها في معرفة دلالات الكلام (أي معاني الألفاظ) التي يدور عليها كثير من علم التفسير، ليعرف المراد بالخطاب"⁽²⁾، ولعل أحد أهم المباحث اللغوية التي كانت محل اهتمام وبحث الأصوليين والفقهاء مباحث الألفاظ، من حيث الدلالة الأصلية (المعجمية) والصرفية والنحوية والسياقية... وغيرها، ومن حيث الخصوص والعموم، والتقييد والإطلاق...، والتفسير اللغوي أو اللفظي للقرآن الكريم عملية دقيقة تحتاج إلى علم وتمحيص نظري وتربيت في إطلاق الأحكام، يقول القرضاوي: "أنبه هنا على قضية مهمة جدا، وهي أن اللغة التي يرجع إليها، ويؤخذ بها هي اللغة المعروفة في عصر نزول القرآن، والعبرة بما تدل عليه الألفاظ في ذلك العصر، لا بالدلالات الحادثة بعد ذلك"⁽³⁾، فما هي خصائص اللفظ القرآني:

1. الوضوح:

اتسمت ألفاظ القرآن الكريم بالوضوح والبعد عن الغرابة، فلم يستطع أهل العربية من أعداء الرسول أن يجدوا بابا للطعن في دلالات ألفاظه، بل كانوا ينهرون من حسن نظمه وتناسق دلالاته، فلا يجدون مخرجا غير وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالسحر، وكان مما يعاب على الشعراء استعمال الألفاظ الغريبة، التي لم تكن مألوفة الاستعمال، كما يعاب عليهم خفاء المعنى بسبب سوء التركيب وهجانة الأسلوب، وهذا ما لم يجده في القرآن الكريم، يقول

¹ - ينظر: فقه التنزيل حقيقته وضوابطه: وسيلة خلفي، دار الوعي، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009م، ص44.

² - التفسير اللغوي للقرآن الكريم: مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، الدمام -السعودية، دط، ص5.

³ - كيف نتعامل مع القرآن العظيم: يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة- مصر، الطبعة الثالثة، 1421هـ/ 2000م، ص232.

عبد الله دراز: "وتقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف والملاسة والإحكام، والخلو من كل غريب عن الغرض، ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك دون كد خاطر ولا استعادة حديث، كأنك لا تسمع كلاما ولغات بل ترى صوراً وحقائق ماثلة"⁽¹⁾، فإن القرآن على علو فصاحة ألفاظه يركب المعنى في صورة سلسلة مستساغة تناسب كل مقام، فحققت آياته قمة البلاغة والبيان عند الوعد والوعيد والزجر والتهديد والأمر والنهي، ولم يستطع أحد من فصحاء العرب أن يطعن في بيان القرآن، وهو يتحداهم في الإتيان بمثله، ثم بعشر سور من مثله، بل بسورة واحدة فما استطاعوا ولا قاربوا، يقول صاحب بلاغة القرآن الكريم: "هذا الكتاب العظيم الذي أعجز فصحاء العرب وبلغاءهم، وأذهلت كلماته النيرة الساطعة وآياته الباهرة الوضاعة عقول الناطقين بلغة الضاد"⁽²⁾، واعتراف أعداء النبي وتسليمهم خير دليل على وضوح دلالات ألفاظه، وبعدها عن كل علامات الضعف والغربة والاستهجان.

2. دقة المعنى:

وتتصف ألفاظ القرآن الكريم بهذه الميزة بلا خلاف بين المهتمين بالدراسات القرآنية والبلاغية، فإن اللفظ القرآني يحمل من الدلالات الظاهرة والخفية ما لا يحمله لفظ غيره، يقول ابن عطية: "وكتاب الله لو نزع منه لفظة ثم أدت لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد"⁽³⁾، وكأنك تحس أن اللفظ القرآني خلق لهذا الموضع، وهو ما يؤكد صاحب خصائص التعبير القرآني: "يؤدي معناه في دقة فائقة تكاد تؤمن معها بأن هذا المكان إنما خلقت له هذه اللفظة دون سواها، ولذلك لا تجد في القرآن ترادفاً، بل كل كلمة تحمل إليك معنى جديد"⁽⁴⁾، وحتى الكلمات المعربة والغريبة فقال العلماء أن القرآن استعملها لأنه لا يوجد غيرها يغني عنها في مواقعها من نظم الآيات، لا في حال الأفراد ولا التركيب⁽⁵⁾، وحتى الألفاظ المتقاربة جداً في الدلالة فلا شك في وجود فروق دلالية وقف عليها العلماء، يقول فاضل السامرائي: "قد يحذف في التعبير القرآني من الكلمة نحو (استطاعوا) و(اسطاعوا)، و(تنزل) و(تتزل)، و(توفاهم) و(توفاهم)، و(لم يكن) و(لم يك)، وما إلى ذلك وكل ذلك لغرض وليس اعتباطاً، فالتعبير القرآني تعبير في مقصود، كل كلمة بل كل حرف إنما وضع لقصد"⁽⁶⁾، وقد

¹ - النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن: محمد عبد الله دراز، تحقيق: عبد الحميد الدخاني، دار طبية للنشر والتوزيع، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، 1421هـ/2000م، ص147.

² - بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز إعراباً وتفسيراً بإيجاز: بهجت عبد الواحد الشبخي، مكتبة دنديس، عمان- الأردن، الطبعة الأولى، 1422هـ/2001م، ج1، ص5.

³ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 1422هـ/2001م، ج1، ص52.

⁴ - خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: عبد العظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة- مصر، الطبعة الأولى، 1413هـ/1992م، ص245.

⁵ - ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، المكتبة العصرية، بيروت- لبنان، دط، 1424هـ/2003م، ص62.

⁶ - بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: فاضل صالح السامرائي، العاتك لصناعة الكتاب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، الطبعة الثانية، 1427هـ/2006م، ص9.

أظهرت الإحصاءات التي قام بها المهتمون حول الإعجاز العددي في القرآن الكريم دقة متناهية في اختيار الألفاظ ووضعها. واكتشفوا توافقا عدديا عجيبا بين لفظي (الدنيا والآخرة) و(الحياة والموت) و(الملائكة والشياطين) و(الجنة والنار)، قال السامرائي: "لقد تبين أنه لم توضع الألفاظ عبثا ولا من غير حساب، بل هي موضوعة وضعا دقيقا بحساب دقيق دقيق"⁽¹⁾.

3. سعة المعنى:

وهو ما يطلق عليه أيضا ثراء المعنى، فالقرآن يدل بالكلمة الواحدة أو الكلمات المختصرة على معان متعددة يطول شرحها، وينتقي من الألفاظ جوامعها وأغناها بالدلالة، ومثل له بعض العلماء⁽²⁾ بلفظي: (الهدى) الذي عد له سبعة عشر معنى، وكذلك لفظ (السوء)، فاستمت ألفاظ القرآن بالمرونة والغنى بما يتناسب مع المعاني الشرعية والأمور العملية، كما غذى هذا الثراء اختلاف القراءات القرآنية، فإن تباين القراءات يتعدد معه المعنى، وكذلك المشترك اللفظي الذي يكثر في القرآن الكريم، وجمعت ألفاظه بين مخاطبة العقل والوجدان كما يصفها صاحب النبأ العظيم: "وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معا بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معا يلتقيان ولا يبغيان، وأن يخرج من بينهما شرابا خالصا سائغا للشاربين، وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم حيثما توجهت"⁽³⁾، وتم اختيار ألفاظه بما يفي بالمعنى دون إسراف أو تقتير: "فانظر حيث شئت من القرآن الكريم، تجد بيانا قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير، يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية، (نقية) لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها، (وافية) لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه"⁽⁴⁾.

المطلب الثاني: تنزيل الآيات على الواقع:

لقد كان نزول القرآن الكريم بحسب الوقائع والأحداث، فكانت الآيات تنزل لتجيب عن استفسار أو تحل إشكالا مما كان يعرض على النبي صلى الله عليه وسلم فلا يجد له جوابا، فينتظر الوحي ليسد حاجته، فكان ذلك من دلائل النبوة، فالرسول لا يدعي علما إلا بما علمه الله، كما أن نزول القرآن كان مسليا عن النبي الكريم ومثبتا لعزيمته، وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وانقطاع الوحي انتقل الصحابة إلى تنزيل النصوص على النوازل الحادثة، فقد علموا أن القرآن لا يتجاوز الزمن، ولا يضيق به مكان، فيبقى القرآن نورا لكل من يطلب الهداية ومرجعا لمن يريد العلم النافع وموجها لمن يسعى لتحقيق العمل الصالح، ولعل أحد أشهر حوادث تنزيل النص القرآني على الواقع يوم وفاة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، حيث اضطرب الناس من أثر الصدمة عليهم وألم الفاجعة في نفوسهم حتى قطع أبو بكر رضي الله عنه هذا الشك باليقين فقال: "من كان منكم يعبد محمدا صلى الله عليه وسلم فإن

¹ - التعبير القرآني: فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمان- الأردن، الطبعة الرابعة، 1427هـ/2006م، ص 12.

² - خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، ص 367.

³ - النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن: محمد عبد الله دراز، ص 145..

⁴ - المصدر نفسه، ص 141.

محمدا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا﴾ ال عمران/144⁽¹⁾، فكانت تلاوة أبي بكر لهذه الآية في هذا الوضع الصعب بمثابة البلمة الشافي الذي وقع على قلوب سيطرت عليها الحيرة والدهشة من هول الموقف، فاستكانت وهذأت وسلمت لقضاء الله.

وبقيت التفاسير تجدد عرض معاني القرآن الكريم بخطاب معاصر متجدد يستجيب لحاجات الأمة في شتى المجالات، وذلك في ما عرف عند المسلمين بفقه النوازل، أو تنزيل النصوص على الواقع، وهي عملية لها ضوابطها وشروطها التي تنظم هذه العملية التي تهدف إلى إحياء النصوص وتفعيل دلالاتها وربطها بواقع الناس، ولا شك أن فترة الضعف التي مرت بها الأمة الإسلامية كان لها أثرها على الإنتاج العلمي على غرار التفسير، حيث ظهرت تفاسير جافة لا تعدو شرح الألفاظ وذكر المعاني العامة دون ربط للنصوص بالواقع، وذلك ما جعل بعض المصالحين في العصر الحديث ينتقد هذه التفاسير، ويعيرها بالنقص والضعف، فكانت إحدى رسائل محمد عبدو لإصلاح التفسير، وكان أثر ذلك في ظهور تفاسير معاصرة تحمل نزعة إصلاحية، وتميل إلى إيجاد حلول لما علق بالأمة من تجاوزات في الجانب العقائدي أو التشريعي، نذكر منها: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، ومجالس التذكير لعبد الحميد بن باديس وغيرها.

ويعد تنزيل النصوص على الواقع عند المفسرين ضرباً من الاجتهاد؛ حيث يسعى صاحب التفسير إلى ربط دلالات الآيات بواقع الناس، ويجتهد في استنباط أحكام واقعية تصلح عقائد المتلقين وعباداتهم ومعاملاتهم، ويعرّف تنزيل نصوص القرآن على الواقع بأنه: مقابلة الأحداث المعاصرة للمفسّر بما يشابهها في كتاب الله تعالى، سواء كانت المقابلة تامة أو جزئية أو مخالفة لما عليه الآية⁽²⁾، فتتزيل النصوص على الواقع عبارة عن عملية قياس واستنباط تقرن النصوص الثابتة بالأحداث الواقعية التي تدخل تحت دلالاتها، وذلك بمفهوم المشابهة أو المخالفة، وبذلك تأخذ حكمها من دلالات النص وتوجيهاته، ويعرف هذا الفن أيضاً بأنه: إيقاع الأفعال وفق مقتضى الأدلة، وتطبيق الحكم الكلي على الواقعة الجزئية المندرجة ضمنه، سواء كانت واقعة لها سابقة من جنسها أو نازلة جديدة⁽³⁾، وهذا يتطلب فهماً عميقاً للنص، ووقوفاً على مراد الشارع منه، ودقة في إسقاط الدليل على الواقعة، أما الاجتهاد في تنزيل الأحكام، فإن ركنه الأساسي هو الأحداث والوقائع التي هي محل التنزيل، ولذلك يعد فهم الواقع قسيماً لفهم الحكم المتعلق به⁽⁴⁾.

¹ - صفة الصفوة: جمال الدين ابن الجوزي، تحقيق: خالد مصطفى طرطوسي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، دط، 1433هـ/2012م، ص90.

² - تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين دراسة وتطبيق: عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، مجلة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى، 1428هـ/2007م، ص33.

³ - فقه التنزيل حقيقته وضوابطه: وسيلة خلفي، ص102.

⁴ - المصدر نفسه: ص187.

المطلب الثالث: التعريف بصاحب التفسير.

هو محمد الحواس بوسنة الجزائري، ولد يوم السابع والعشرين من شهر مارس سنة إثمين وثلاثين وتسع مائة وألف (1932م). بصالح باي ولاية سطيف الجزائر، وسط عائلة عرفت بالعلم طلبا وتعلّما وتأليفًا، فأخذ القرآن في زاوية جده، ونهل من علم والده محمد الطيب بوسنة، وذلك قبل أن يتوجه إلى جامع الزيتونة حيث أفاد من ثلة من علمائها الأفاضل كعبد الحليم محمود شيخ الأزهر لاحقا، ومحمد الطاهر بن عاشور، وابنه محمد الفاضل بن عاشور، وعند عودته إلى الجزائر التحق بجامعة الجزائر ليتحصل على شهادة اللسانس في الفلسفة.

وقد شغل الرجل مناصب عدة بداية من أستاذ في الطور الابتدائي إلى أستاذ لمادة الفلسفة بالطور الثانوي، ثم أستاذًا للتربية وعلم النفس بالمعهد التكنولوجي للتربية، أضف إلى ذلك نشاطه الدعوي في المساجد قبل أن ينتقل إلى الإمامة رسميا سنة واحد وثمانين وتسع مائة وألف (1981م) مدرسا وخطيبا بعدد المساجد.

وقد أسهم المؤلف بعدة مؤلفات منها المطبوع: كالكتاب الذي هو محل دراستنا (الفيض الرباني في بيان معاني القرآن)، والتربية والتعليم عند ابن خلدون، وخواطر في التربية والتعليم، وفهرست أعلام المفسرين للقرآن الكريم عبر العصور الإسلامية، والإسلام دين العدل والإحسان.

ومجموعة أخرى لا تزال مخطوطة: كالمعرجات الحاسمة في تاريخ الجزائر المعاصرة، وفهرست أعلام ومتصوفة الجزائر وزواياهم عبر العصور، والمعلّى والمدلى في ذكر فقهاء منطقة "عين ولان"، وأعلام من الجزائر، وعجالة في مقاصد التشريع.

انتقل الشيخ محمد الحواس بوسنة إلى جوار ربه يوم: السادس أفريل سنة إحدى عشر وألفين (2011م)، وذلك بعد مسيرة حافلة بالعلم والعطاء، حيث خلف وراءه ذكرا حسنا وثناء واسعا⁽¹⁾.

المطلب الرابع: التعريف بكتاب "الفيض الرباني في بيان معاني القرآن".

يعد تفسير "الفيض الرباني في بيان معاني القرآن" علامة على العلم الذي جمعه المؤلف، وثمره من ثمار جهده في التأليف، وصورة لمنهجه في عرض الأفكار، وبيان الأحكام التي جاءت في كتاب الله -عز وجل- ضمنه المؤلف تفسير سورة الفاتحة، البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، طبع الكتاب في مجلدين بتحقيق عبد الكريم حامدي، وقد أدخل على عنوان التفسير تعديلا ليكون العنوان مختصرا وجامعا -حسب رأيه⁽²⁾- فأصبح العنوان: "الفيض الرباني في بيان معاني القرآن" بدل العنوان الذي أطلقه المؤلف: "الفيض الرباني في ذكر بعض معاني الذكر الحكيم"، وكانت نية المؤلف إتمام تفسيره إلا أن المرض ثم الموت عاجلاه، ذلك منعه من

¹ لمزيد معلومات عن حياته، ينظر: الأعمال الكاملة للشيخ محمد الحواس بوسنة السطايفي ج 6 (تأبين الشيخ الإمام محمد الحواس بوسنة)، دار كنوز الرشيد للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2015م، ص 105، 131.

² الفيض الرباني في بيان معاني القرآن: محمد الحواس بوسنة، تحقيق: عبد الكريم حامدي، دار كنوز الرشيد للنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة- الجزائر، دط، 2015م، ج 1، ص 9.

غاياته.

لقد كانت المادة العلمية التي طرحها المؤلف في تفسيره متنوعة تنوع المصادر التي اعتمد عليها، كالطبري في تفسيره: (جامع البيان في تفسير القرآن، وابن الجوزي في تفسيره: (زاد المسير)، والزجاج في كتابه: (معاني القرآن)، والقرطبي في تفسيره: (الجامع لأحكام القرآن).

إن المتصفح لتفسير محمد الحواس بوسنة يرى منهجا خاصا يعتمد على الاختصار، ويزاوج بين النقل والاجتهاد وإبداء الرأي؛ فيفسر القرآن بالقرآن وبالحديث وأقوال الصحابة وأئمة التفسير، ذلك لم يمنعه في مواضع عدة من إبداء رأيه والترجيح بين الأقوال، ورد بعضها وتضعيفه، وهو في ذلك يحاول إظهار قوة ما يذهب إليه بالدليل والحجة والرجوع إلى سبب النزول، ودون إغفال لأقوال معتبرة لأصحاب التفاسير الذين سبقوه، وهو ما أشار إليه في مقدمة تفسيره، حيث قال: "واتبعت أثناء تفسيري لبعض معاني الآيات القرآنية ما كان قد نادى به أبو حامد الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية من وجوب الاجتهاد في فهم القرآن الكريم حتى يتحرر المفسر للقرآن من الآراء المسبقة، ويتعد عن الاجترار والتكرار"⁽¹⁾ وذلك ما عاد على الكتاب بطعم خاص ونكهة مميزة، تحس معه بشخصية صاحب الكتاب ونظراته المتأمل في دلالات الألفاظ والنصوص.

لعل أحد مميزات هذا التفسير عن غيره من التفاسير: أن الشيخ قد نأى بنفسه عن الخوض في كثير من المسائل اللغوية والبلاغية التي يرى أنها زائدة ولا فائدة من كثرة الخوض فيها غير شغل النفس بما لا ينفع، بل يراه من إدخال شيء في التفسير ليس منه، قال: "مع البعد بمعاني القرآن عن النحو والبلاغة والفلسفة والإسرائيليات وغيرها، والتي أدخلها بعض المفسرين في تفاسيرهم، وبذلك أدخلوا في تفسير القرآن ما ليس منه"⁽²⁾، فصب جهده على بيان المعاني الدقيقة التي أرسلها المولى -عز وجل- لعباده، ولأجل اختزال الطريق الموصول إلى معاني الآيات ومقاصدها فقد اجتنب المؤلف الانجرار وراء الجدالات الفقهية، وإيراد الخلافات التي تشتت فكر القارئ، وتحول دون إحاطته بالمعنى المراد من الآيات، وكذلك بالبعد عن الأقوال الضعيفة والواهيّة المبنية على الإسرائيليات خصوصا.

المبحث الثاني: نماذج تطبيقية من الكتاب.

لقد وقفنا في التفسير الذي بين أيدينا على مواضع متعددة، قام فيها صاحب التفسير بتزليل الآية على الواقع، وربط فيها المعنى بإرشادات عملية، وهي تربو على الخمسين موضع في المجلد الأول فقط، وكثيرا ما نجد المعنى الممتد من عهد نزول الوحي إلى عصر المؤلف يدور حول لفظ أو ألفاظ قرآنية، تميزت تلك الألفاظ بالحياة والتجدد لتعطي رسائل إلهية لا تفنى بالتقادم، وإنما تتجدد دلالاتها بتجدد المتلقين واختلاف الوقائع.

¹ - المصدر السابق، ج 1، ص 14.

² - المصدر نفسه، ج 1، ص 15.

النموذج الأول: قوله تعالى: ﴿إياك نستعين﴾ الفاتحة 5.

لقد كان تنزيل معنى هذه الآية على الواقع يدور حول لفظ (الاستعانة)، ومعناه طلب العون كما جاء عند الأصفهاني: "الاستعانة طلب العون"⁽¹⁾، وجاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم بالمعنى ذاته: "نستعين نطلب العون"⁽²⁾، ويقول صاحب المعجم الوافي لكلمات القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿استعينوا بالله﴾ الأعراف 128: "اطلبوا العون منه"⁽³⁾.

وجاء اللفظ في صيغة الفعل الذي يفيد الحدوث والتجدد، يقول الزركشي في الفرق بين الخطاب بالاسم والفعل: "الفعل يدل على التجدد والحدوث، والاسم على الاستقرار والثبوت، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر"⁽⁴⁾، والمضارع (نستعين) يفيد الحال والاستقبال، فحاجة الخلق إلى الخالق تتجدد ولا تنقطع، كما أن الاستعانة مربوطة بما وقر في القلوب من إيمان بضعف الخلق وقوة الخالق، ولذلك نخصه بالاستعانة به على قضاء الحوائج، وذلك ما يدل عليه تركيب الآية على أحد أساليب القصر بتقديم المفعول على الفعل والفاعل، وهكذا يوجهنا مولانا -عز وجل- إلى دوام الاستعانة بالله وحده في قضاء المصالح ودفع المضار، فبعد بدل الجهد وتقديم الأسباب وجب تفويض النتائج إلى مسبب الأسباب سبحانه، قال صاحب المنار: "فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا من ذلك، ونبدل في إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول وقوة، وأن نتعاون ويساعد بعضنا بعضاً على ذلك، ونفوض الأمر في ما وراء كسبنا إلى القادر على كل شيء، ونلجأ إليه وحده، ونطلب المعونة المتممة للعمل والموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواه"⁽⁵⁾.

وقد حمل صاحب التفسير هذا المعنى ليسقطه على واقعنا، فإن الناس لا غنى لهم عن الاستعانة بالله -عز وجل- في عصرنا وفي كل عصر، فقال: "فكل ما يفعله الإنسان من أعمال عظيمة أو حقيرة فאלله هو المعين للعباد على تحقيقها وإتمامها، سواء ما تعلق منها بأمر الدين أو الدنيا"⁽⁶⁾.

ويرد على أولئك الذين ربما اغتروا بعلمهم واكتشافاتهم فيقول: "وحتى الإنجازات العلمية العظيمة من اختراع واكتشاف في مجال العلوم والصناعات، إنما يتم ذلك بعون الله وتوفيقه،

¹ - المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت - لبنان، دط، دت، ص 598.

² - معجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مطبوعات مجمع اللغة العربية، القاهرة- مصر، دط، 1409هـ/ 1988م، (ع و ن)، ج 1، ص 805.

³ - المعجم الوافي لكلمات القرآن الكريم: محمد عتريس، مكتبة الآداب، القاهرة- مصر، الطبعة الأولى، 1427هـ/ 2006م، (استعينوا)، ص 65.

⁴ - البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت- لبنان، دط، دت، ج 4، ص 66.

⁵ - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد رضا، دار المنار، القاهرة- مصر، الطبعة الثانية، 1366هـ/ 1947م، ج 1، ص 59.

⁶ - الفيض الرباني في بيان معاني القرآن: محمد الحواس بوسنة، ج 1، ص 21.

فألله سبحانه يأخذ بعقولنا وأعيننا فيضعها حيث أراد تعالى فتتكشف المعارف والقوانين والنظريات⁽¹⁾.

ويحذر من مغبة الإلحاد وسوء الأدب مع الله التي يقع فيها بعضهم فيقول: "ومن يعتقد من العلماء أنه يصل إلى تلك القوانين الكونية والعلمية بنفسه دون عون من الله فهو ملحد -عافانا الله منه- أو هو مؤمن غير متواضع لم يوفقه إيمانه إلى معرفة الله حق المعرفة"⁽²⁾.

وهكذا يجعل مرور المؤمن على هذه الآية يذكره بكل هذه المعاني العظيمة، خاصة أنها من سورة الفاتحة التي يكررها المصلي في كل ركعة من صلاته.

النموذج الثاني: قوله تعالى: ﴿وَالضَّالِّينَ﴾ الفاتحة⁷.

يتمحور تنزيل الآية التي بين أيدينا على الواقع على لفظ (الضالين)، الذين أمرنا الله عز وجل أن ندعوه ليجنبنا سبيلهم ومنهجهم، فقد ضلوا وجانبوا طريق الهداية، يقول الراغب: "الضلال العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية"⁽³⁾، ويميل صاحب الكتاب إلى القول بأن المراد بهم في الآية: النصارى، قال: "أما الضالون الذين ضلوا السبيل بعد رفع الله عيسى بن مريم- عليه السلام- فهم النصارى الذين ساروا في العمه وتاهوا في الضلال"⁽⁴⁾، وهذا الكلام أردفه إلى بيان أن المغضوب عليهم هم اليهود الذين علموا الحق وكنتموه فغضب الله عليهم، قال: "ولكن حقد اليهود وتعصمهم أعمى أبصارهم عن الهداية والإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا يبشرون بظهوره، والقرآن تحدث عن تمادي اليهود على الكفر رغم علمهم اليقيني بصحة نبوة ورسالة الرسول الكريم"⁽⁵⁾، والقول بأن الضالين هم النصارى هو قول جماهير المفسرين، ففي المعجم الوافي لكلمات القرآن الكريم شرح كلمة الضالين بأنهم: "الذين انحرفوا عن سواء السبيل، والضلال في كلام العرب هو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق، والمراد بالضالين النصارى لقول الله فيهم: ﴿قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل﴾ المائدة 77، وقد استعمل القرآن الكريم في الآية الاسم خلافاً للآية السابقة حيث استعمل الفعل لدلالة إضافية، قال صاحب إشارات الإعجاز: "واسماً لأن الضلالة إنما تكون ضلالة إذا لم تنقطع"⁽⁶⁾، فاستعمل الضالين ولم يستعمل ضلوا لأن الاسم يدل على ثبوت الصفة لهم، والتصاقها بهم.

أما عن تنزيل الآية على واقعنا فيتحدث صاحب التفسير عن الضلال الذي يعيشه العالم المسيحي اليوم، وعدائه للإسلام، وتحالفه مع أهل الشرك والوثنية الذين هم أبعد الناس عن

¹ - الفيض الرباني في بيان معاني القرآن: محمد الحواس بوسنة، ج 1، ص 21.

² - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ - المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ص 509.

⁴ - الفيض الرباني في بيان معاني القرآن: محمد الحواس بوسنة، ج 1، ص 23.

⁵ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁶ - إشارات الإعجاز في مظان الإعجاز: بديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة- مصر، الطبعة الثالثة، 2002، ص 36.

الديانات السماوية، فيقول: "ونصارى أوروبا ساروا في الاتجاه الذي سار عليه اليهود، فكفروا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم كما كفر اليهود من قبل بعيسى، وخاصة بعد ظهور غلاة الصليبية ك(بطرس الناسك⁽¹⁾) الذي قاد الحروب الصليبية، وقد عم هذا الحقد كل أرجاء المعمورة، وتعصبوا أكثر من تعصب اليهود، بل تحالفوا مع الوثنيين والمشركين ضد الإسلام، ظهر هذا مع التتار والمغول"⁽²⁾.

وبذلك يوضح أن هذه الطائفة من أهل الكتاب التي التسق بها الوصف بالضلال في القرآن الكريم، فهي حقا تسرح في الضلال إلى يومنا هذا، فتكفر بالنبي الذي بشر به -عيسى عليه السلام- وتساند قتلة الأنبياء والمشركين بالله، فصدق فيها وصف الله -عز وجل-.

النموذج الثالث: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ﴾ البقرة: 13.

ومحور تنزيل هذه الآية على الواقع لفظ (السفهاء) الذي قال الراغب في معناه: "السفه خفة في البدن"⁽³⁾، فهو خفة تنم عن جهل وسوء تصرف، كما جاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم: "السفهاء ج سفهه، من يتصرف عن جهل أو نقصان دين"⁽⁴⁾. وفي المعجم الوافي لكلمات القرآن الكريم يقول: "السفهاء جمع سفهه وهو الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار، والسفه سخافة العقل وخفة الحلم وفساد البصيرة"⁽⁵⁾، ولا يختلف صاحب التفسير عن هذا المعنى في تعريف السفه حيث يقول: "السفاهة نوع من البله وسوء التصرف"⁽⁶⁾، وفي تفسير المنار يعرف السفه بقوله: "المراد بالسفه الطيش وخفة العقل وضعف الرأي، ومن لوازمه سوء التصرف"⁽⁷⁾.

وهنا يعرض صاحب الكتاب لمسألة فقهية اختلف فيها فقهاء الأمة؛ وهي مسألة الحجر على السفهه الذي لا يحسن التصرف في ماله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السَّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ النساء: 5، فذكر قول المالكية بالحجر على السفهه الذي لا يحسن التصرف في ماله، والذي منعه الحنفية لتنافيه مع كرامة الإنسان فيقدمونها على حفظ المال، وهنا يرجح صاحب التفسير قول الحنفية ويدعو إلى العمل به، قال: "ولعمري أن هذا الفهم الحنفي للنفس الإنسانية أقرب إلى الحق مما ذهبت إليه المالكية؛ لأن الجانب النفسي يؤثر على سلوك المرء، فالأبله إذا حجر عليه سيزداد بلاهة وسفاهة"⁽⁸⁾، ويعلل هذا الترجيح بحفظ كرامة الإنسان، وكذلك بالأثر النفسي السلبي الذي يزيد صاحبه سفها بدل أن يحفظه منه، فهو يرى أن علاج السفه لا يكون بعزل السفهه، ومنعه من التصرف في ماله وأملاكه، فإن ذلك لا يزيده إلا سذاجة وسوء تصرف.

¹ - بطرس الناسك راهب وخطيب فرنسي عاش بين (1050/1115 م) اشتهر بقيادته حملة الفقراء ضد الشرق.

² - الفيض الرباني في بيان معاني القرآن: محمد الحواس بوسنة، ج 1، ص 23، 24.

³ - المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ص 414.

⁴ - معجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (س ف هـ)، ص 575.

⁵ - المعجم الوافي لكلمات القرآن الكريم: محمد عتريس، ص 499.

⁶ - الفيض الرباني في بيان معاني القرآن: محمد الحواس بوسنة، ج 1، ص 34.

⁷ - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد رضا، ج 1، ص 159.

⁸ - الفيض الرباني في معاني القرآن: محمد الحواس بوسنة، ج 1، ص 34.

النموذج الرابع: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ البقرة:31.

لقد كان مدار شرح هذه الآية وتنزيلها على الواقع على لفظ (عَلَّمَ) الوارد في الآية، والمراد بالعلم إدراك الأشياء على حقيقتها، كما قال الراغب: "العلم إدراك الشيء بحقيقته.... والتعليم اختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر في نفس المتعلم"⁽¹⁾. وهنا يبين صاحب التفسير معنى تعليم المولى -عز وجل- آدم عليه السلام الأسماء كلها؛ وذلك عن طريق ما زرعه فيه من غرائز، ونصطلح عليه اسم (الفطرة)، أضف إلى ذلك القابلية والاستعداد لتقبل المكتسبات، وتعلمها من المحيط الطبيعي والاجتماعي، ويؤكد أنها صفة مميزة اختص بها بنو آدم عن غيرهم من الكائنات، وفي هذا المعنى يقول النورسي: "أي صورته بفطرة تضمنت مبادئ لأنواع الكمالات، وخلقته باستعداد زرع فيه أنواع المعالي، وجهزه بالحواس العشر وبوجدان تتمثل فيه الموجودات، وأعدّه بهذه الثلاث لتعلم حقائق الأشياء بأنواعها، ثم علمه الأسماء كلها"⁽²⁾، ويربط في هذه الآية بين خلق آدم -عليه السلام- وتفضيله على الملائكة وبين تعليمه الأسماء كلها فيقول: "إن خلافة الله تعالى في أرضه لإجراء أحكامه وتطبيق قوانينه تتوقف على علم تام... فخلقته وسواه ونفخ فيه من روحه ورباه ثم علم الأسماء وأعدّه للخلافة"⁽³⁾، فالغاية من التفضيل والتعليم هي الإعداد للخلافة، وفي هذا تنويه بفضل العلم وأهله فهم الأحق بالتقديم والاستشارة: "(عَلَّمَ) فيه إشارة إلى تنويه العلم ورفعة درجته وأنه هو المحور للخلافة"⁽⁴⁾.

وهنا يبين المؤلف مفهوم بعض المصطلحات التي يجري الخلط بين مدلولاتها، وتستعمل في غير موضعها، فيفرق بين التربية والتعليم؛ فالتربية مبنية على تنشئة البشري وإعداده للحياة إعدادا متكاملا، بالاهتمام بالجانب العقلي والاجتماعي والوجداني والأخلاقي، أما التعليم فيقول أنه يهتم بالجانب المعرفي لا غير⁽⁵⁾، وكذلك يفرق بين التعليم والترويض والثاني منهما يستعمل للحيوان، ويقول أن التعليم يبني على الحب المتبادل بين المعلم والمتعلم، أضف إلى ذلك الإثارة والتشويق، أما الترويض فإنه يقوم على التخويف والقمهر.

أما ربط الموضوع بالواقع فيدعو فيه صاحب التفسير الراغبين في ولوج عالم التربية والتعليم أن يعطوا هذه المهمة الدقيقة قدرها من الاهتمام، بالتحلي بالصبر وحسب هذه المهمة النبيلة وتعلم أبجدياتها، ويقول في ذلك: "نقول لكل من يرغب في أن يكون مربيا: عليه أن يتحلى بالصبر، وتعلم صنعة التعليم، والحب للمهنة وللمتعلمين"⁽⁶⁾، كما يدعو إلى الشفقة على المتعلمين مع البعد عن الشدة والبطش فهي من خصائص عملية ترويض الحيوان، تتنافى مع كرامة الإنسان، قال: "وننبه المعلمين إلى البعد عن الشدة والقمهر ضد المتعلمين، وإلا تحولت

¹ - المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ص580.

² - إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: بديع الزمان سعيد النورسي، ص241.

³ - المصدر نفسه، ص240.

⁴ - إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: بديع الزمان سعيد النورسي، ص241.

⁵ - الفيض الرباني في معاني القرآن: محمد الحواس بوسنة، ج1، ص34.

⁶ - المصدر نفسه، ج1، ص49.

العملية من عملية تربوية إلى عملية ترويضية حيوانية لا تليق بكرامة الإنسان⁽¹⁾.

النموذج الخامس: قوله تعالى: ﴿اتَمَرُونِ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ البقرة 45.

وهذه الآية تحمل قاعدة عملية يعترف بها كل عاقل، فلا ينبغي لمن يوجه الناس ويذكرهم ويعظهم أن يسهو عن العمل بما يدعو إليه، والمعنى العام لهذه الآية مبني على لفظ: (الأمر بالبر ونسيان النفس)، والأمر قال عنه الراغب: "ومصدر أمرته: إذا كلفته أن يفعل شيئاً"⁽²⁾، والأمر هنا من باب الطلب والدعوة إلى فعله، كما جاء في معجم ألفاظ القرآن: "الأمر بالمعروف الطالب فعله"⁽³⁾. أما لفظ النسيان فجاء في معجم ألفاظ القرآن: "نسي: غاب عن ذاكرته وحافظته"، ولكنه ذكر أن معناه في هذه الآية بمعنى الترك والإهمال⁽⁴⁾، وهو إنكار على الأخبار الذين ينصحون الناس ويبخلون على أنفسهم بالعصيان والعناد، قال الزمخشري: "وكان الأخبار يأمرهم من نصحوه في السر من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ولا يتبعونه، وقيل: كانوا يأمرهم بالصدقة ولا يتصدقون، وإذا أتوا بصدقات ليفرقوها خانوا فيها"⁽⁵⁾.

وفي تنزيل الآية على الواقع يعطف صاحب التفسير على كلامه عن التربية والتعليم، فيوجه القائمين على هذه المهمة أن يكونوا رساليين لا طالبي أجره فحسب، وأن يتحلوا بأخلاق المربين أينما وجدوا وحيثما ارتحلوا قال: "رجال التربية يؤكدون بالنسبة لشخصية المعلم أنه ينبغي أن يكون معلماً أينما كان وحيثما وجد، في المدرسة مع تلاميذه، أو خارجها مع الناس، فالمعلم يجب أن يكون له وجه واحد في تعامله مع خالقه، ومع المحيطين به من الناس"⁽⁶⁾، وكذلك يوجه كلمة لرجال الدين والدعاة إلى الله بأن يقدروا المكانة التي اصطفاهاهم الله - عز وجل - لتبوءها وسط الناس، فيكونوا لهم القدوة الحسنة فيفعلون المعروف قبل أمر الناس به، وينتهون عن المنكر قبل نهي الناس عنه، فقال: "رجل الدين معلم ومربي لغيره، وخليفة لأنبياء الله ورسله، فيجب أن يكون القدوة الحسنة لغيره، لا أن يتسم سلوكه بالتذبذب والخيانة، والتلون كالحرباء، يلبس لكل حالة لباسها، فهذا السلوك لا يليق بمكانة رجل الدين والدعاة إلى الله بنية ومقصد سليم، ولهذا يفترض في الداعية إلى الله أن يمثل لأعمال المبرات والطاعات قبل أن يطلبها من غيره، هذا المعنى هو ما ترشد إليه الآية الكريمة"⁽⁷⁾.

¹ - الفيض الرباني في معاني القرآن: محمد الحواس بوسنة ، ج 1، ص 49.

² - المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ص 88.

³ - معجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (أ م ر)، ص 78.

⁴ - المصدر نفسه، ص 1096.

⁵ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل: جار الله الزمخشري، تحقيق: خليل مأمون شيخا،

دار المعرفة، بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة، 1430هـ/ 2009م، ص 74.

⁶ - الفيض الرباني في معاني القرآن: محمد الحواس بوسنة، ج 1، ص 60.

⁷ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

النموذج السادس: قوله تعالى: ﴿ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾¹
البقرة 61.

يدور معنى هذه الآية حول علاقة بني إسرائيل بالله -عز وجل- بعد تنكرهم لنعم الله عليهم، وعصيانهم لأنبيائه، بل كيدهم لأنبياء الله وقتلهم إياهم، فكان عاقبة ذلك سقوطهم من عين الله، وحق عليهم غضب الله وعقابه، قال الزمخشري: "باءوا بغضب من الله أي: صاروا أحقاء بغضبه"⁽¹⁾، فكتب عليهم التيه في الصحراء حتى تجردهم الابتلاءات من تلك الأمراض التي علقت بقلوبهم، قال الراغب: "الغضب ثوران دم القلب إرادة الانتقام..... وإذا وصف الله تعالى به فالمراد به الانتقام دون غيره"⁽²⁾، وقد استعمل الله -عز وجل- لفظ الغضب نكرة للدلالة على شدته، جاء في تفسير المنار: "وتنكير الغضب على أنه نوع عظيم من سخطه جل شأنه"⁽³⁾.

أما عن تنزيل الآية على الواقع فإن المؤلف ذكر أن آثار التيه الذي كان لبني إسرائيل عقوبة من الله على عصيانهم لم ترسخ في أذهانهم، وذلك ألصق بهم صفة (المغضوب عليهم) الذين حق عليهم غضب الله، فإن الدرس لم يؤتي ثمرته، ولا يزال اليهود وحركتهم الصهيونية لا يسلمون من شر ولا ينتهون عن فساد، فقال: "ونشير إلى أن آثار التيه لم ترسخ في أذهان الشعب الإسرائيلي، إذ سرعان ما انحرفوا وزاغوا وكانوا يقتلون الأنبياء والرسل، وإلى اليوم كيدهم لم يسلم منه إنسان أو أمة أو شعب"⁽⁴⁾، ويؤكد أن صفة الإفساد في الأرض، وإلحاق الأذى بالآخرين صفة أخرى تضاف إليهم، زيادة على صفة كتمان الحق، وإنكاره بعد العلم به، قال: "ولهذا السبب فاليهود أصبحوا محل تهمة ليس فقط لأنهم كتموا الحقيقة، وإنما لمسلكياتهم المطبوعة على الشر، وليس المسلمون هم العرضة لخطر اليهود فحسب، بل الناس جميعاً"⁽⁵⁾، ويضيف أن الزمن قد ابتسم لهم مع العالم المسيحي الذي أصبح في خدمة مخططاتهم بوعد (بلفور) ثم المساندة الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية، قال: "وإن ابتسمت لهم الأيام لهم في هذا العصر بعد الحرب العالمية الأولى مع الإنجليز ووزير خارجيتها (بلفور)، ثم مع الأمم الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية بسبب عداوة (هتلر) لهم"⁽⁶⁾، أما عن السبب الحقيقي لهذه المساندة فيذكر أن عداوة هتلر لليهود وانتهاكه لحقوقهم مجرد غطاء للمسألة، وإنما السبب الحقيقي لتلك المؤازرة هو الوصول إلى الثروات التي تملكها البلدان العربية والإسلامية، قال: "وهذا النازي ليس عدوا لليهود فحسب، بل هو عدو للبشرية جمعاء، وإنما أوروبا وأمريكا وجدتا في قضية (هتلر) مبرراً لضرب المسلمين في فلسطين، والمبرر الحقيقي هو أنهم وجدوا في اليهود (حصان طروادة)، لضرب العرب والمسلمين والسيطرة على الثروات

¹ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل: جار الله الزمخشري، ص 79.

² - المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ص 608.

³ - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد رضا: ج 1، ص 332.

⁴ - الفيض الرباني في معاني القرآن: محمد الحواس بوسنة، ج 1، ص 75.

⁵ - المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

⁶ - المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

المختلفة التي تزرعها المنطقة"⁽¹⁾.

النموذج السابع: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَهُمْ﴾ البقرة: 74.

تتحدث هذه الآية عن الحالة التي وصل إليها مجتمع بني إسرائيل من شدة تطبع قلوبهم، وذلك بسبب المعاصي والذنوب، قال الراغب: "القسوة غلظ القلب، وأصله من حجر قاس"⁽²⁾. وجاء في معجم ألفاظ القرآن: "قست: غلظت وصلبت"، وقال: القلوب القاسية هي الغليظة البعيدة عن الرحمة"⁽³⁾. وفي المعجم الوافي لكلمات القرآن الكريم: "والقسوة الغلظ والصلابة فهي من صفات الحجارة، وتوصف بها القلوب مجازاً لتعبر عن عدم تأثر قلوبهم بالقوارع والعظا"⁽⁴⁾، والعظا"⁽⁴⁾، وقد ذكر الله -عز وجل- هذه الصفة في بني إسرائيل بعد قصة البقرة التي تدعو إلى الاعتبار ولين القلوب، إلا أن قلوبهم أصبحت لا تنتفع بموعظة ولا تذكير، فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَهُمْ﴾ البقرة: 74. كما أن في هذا إشارة إلى أن قلوبهم تغيرت ولم تبق على قلوب الأولين الذين اعتبروا بتلك الحادثة، وتأثرت بها قلوبهم، قال صاحب المنار: "فالعطف ب(ثم) يفيد أن الأولين منهم قد خشعت قلوبهم لما رأوا في زمن موسى -عليه السلام- ما رأوا ثم خلف من بعدهم خلف كان أمر قسوتها ما وصفه -عز وجل-"⁽⁵⁾، وقد استعمل لفظ الشدة مع القساوة لدلالة أقوى، فلم يقل: أقسى من الحجارة، بل قال: أشد قسوة، قال الزمخشري: "لكونه أبين وأدل على فرط القسوة"⁽⁶⁾.

ويقول صاحب التفسير أن الله -عز وجل- وجه تهمة القتل إلى بني إسرائيل جميعاً؛ فقال: ﴿وَإِذ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ البقرة: 72، ويقول أن سبب هذه التهمة أمور:

- أن الأغلبية في هذا المجتمع أصبح فيه قابلية للفساد والإجرام والقتل.

- الصمت على منكرات شنيعة تحدث بينهم فلا تجد منكراً.

- فتاوى أحبارهم المضلة بجواز قتل الصالحين والمسلمين من غير ذنب أو إثم.

وعن تنزيل هذه الآية على الواقع يتحدث صاحب الكتاب عن صفة القسوة التي وسم بها شعب بني إسرائيل في القرآن الكريم، ويؤكد أن هذه الصفة التصقت بهم، ولا تزال من مميزاتهم من عهد نزول الوحي إلى يومنا هذا، لم يتوبوا منها، ولا تطهرت منها قلوبهم، فقال: "وهذه القسوة ما زالت فيهم إلى اليوم، وما يفعلونه اليوم مع الفلسطينيين خير شاهد على ما أقول، فقد كسرت عظام أطفال الحجارة على مرأى وسماع من العالم"⁽⁷⁾.

النموذج الثامن: قوله تعالى: ﴿مَا أَنزَلَ عَلَى الْمَلَكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ البقرة: 102.

¹ - الفيض الرباني في معاني القرآن: محمد الحواس بوسنة، ج 1، ص 75.

² - المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ص 671.

³ - معجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (ق و)، ص 898.

⁴ - المعجم الوافي لكلمات القرآن الكريم: محمد عترس، ص 680.

⁵ - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد رضا، ج 1، ص 353.

⁶ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل: جار الله الزمخشري، ص 83.

⁷ - الفيض الرباني في معاني القرآن: محمد الحواس بوسنة، ج 1، ص 85.

جاء في الآية لفظاً (هاروت وماروت) وقد وقع بين أهل التفسير خلاف في حقيقتهما، أهما من الملائكة، أم من الشياطين، أم من بني آدم، ويذكر الأصفهاني الأقوال الثلاثة: "هاروت وماروت هما الملكان، وقال بعض المفسرين: هما اسمان شيطانين من الإنس أو الجن"⁽¹⁾. وجاء في معجم ألفاظ القرآن: "ماروت كان هو وهاروت ملكين كلفا تعليم الناس السحر فتنة لهم"⁽²⁾، وفي كل الأحوال فهما فتنة وابتلاء للناس، قال الزمخشري: "والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس، من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً... كما ابتلى قوم لوط بالنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني"⁽³⁾.

أما صاحب الكتاب فقد نأى بنفسه عن الأقوال الضعيفة، والتي لم تبين على دليل قوي فقال: "سنكتفي بما قاله المحققون من أن (هاروت وماروت) كانا رجلين متظاهرين بالصالح والتقوى في (بابل) المدينة المعروفة في التاريخ، وكان الرجلان يعلمان الناس السحر، وبلغ حسن اعتقاد الناس فيهما أن ظنوا أنهما ملكان من السماء، وما يعلمانه للناس هو وحي من الله"⁽⁴⁾.

أما عن تنزيل هذه الآية على الواقع فيحذر فيه صاحب التفسير من القول في كتاب الله بغير علم، ودون إدراك لحقيقة معانيه التي أرادها الله قال: "على المسلم ألا يتفلسف في المتشابه من القرآن مما قد يضر بإيمانه"⁽⁵⁾، فيجعل القضية إيمانية عقائدية مما يدل على خطورة التساهل التساهل فيها.

النموذج التاسع: قوله تعالى: ﴿ومن اظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها﴾ البقرة 114.

لقد كان مدار تنزيل الآية التي بين أيدينا على الألفاظ الآتية: (منع عمارة المساجد بذكر الله، والسعي في خرابها)، وأكمل الذكر ما توافق فيه القلب واللسان، جاء في معجم ألفاظ القرآن: "ذكر الله استحضار عظمتهم مع التدبر"⁽⁶⁾، وله ألوان شتى كالصلاة وقراءة القرآن والتسبيح والتهليل والدعاء... ومنه قوله تعالى: ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾ الجمعة 9، وإذا كان الأصل في السعي هو المشي السريع، فإنه يستعمل للجد في الأمر، والاجتهاد في تحصيل الخير أو الشر، قال الراغب: "السعي: المشي السريع، وهو دون العدو، ويستعمل للجد في الأمر خيراً كان أو شراً"⁽⁷⁾، وجاء في معجم ألفاظ القرآن: سعى: "عمل عملاً خيراً كان أو شراً"⁽⁸⁾، وإذا كان نزول هذه الآية في النصارى الذين كانوا يطرحون الأذى في بيت المقدس، والروم الذين غزوا أهله ولم يعرفوا له ولا لأهله حرمة، أو كان في مشركي مكة الذين

¹ - المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ص 840.

² - معجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (م ا روت)، ص 1029.

³ - الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقبول في وجوه التأويل: جار الله الزمخشري، ص 89.

⁴ - الفيض الرباني في بيان معاني القرآن: محمد الحواس بوسنة، ج 1، ص 107.

⁵ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁶ - معجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (ذ ك ر)، ص 431.

⁷ - المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ص 411.

⁸ - معجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ص 572.

منعوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من دخول مكة للعمرة عام الحديبية، فإن لفظ الوعيد عام يشمل كل من اتصف بهذه الصفات، قال الزمخشري: "فإن قلت: فكيف قال: ﴿مساجد الله﴾ وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام، قلت: لا بأس أن يجيء الحكم عاما وإن كان السبب خاصا، كما تقول: لمن آذى صالحا واحدا، ومن أظلم ممن آذى الصالحين"⁽¹⁾، كما أن القرآن استعمل استفهام الإنكار للدلالة على شناعة الأمر، قال محمد رشيد رضا: "هي كل حال ناطقة بوجوب احترام كل معبد يذكر فيه اسم الله تعالى بالصلاة والتسبيح، وبتحريم السعي في خراب المعابد، وبالحكم على الذين يصدون الناس عنها ويسعون في خرابها -أي هدمها أو تعطيل شعائرها ومنع عبادة الله فيها- بكونهم أظلم الناس كما يستفاد من استفهام الإنكار"⁽²⁾.

أما عن معنى الآية في واقعنا فقال: "مثل ما فعل كمال أتاتورك في تركيا الذي حول المساجد إلى متاحف، وصد المسلمين عن المساجد، أو صرفهم عن الدين، أم تعلق الأمر بما يحدث في الجزائر"⁽³⁾، وهذه أمثلة عن منع عمارة مساجد الله بالذكر والصلاة، أما السعي في خراب بيوت بيوت الله فقال فيه: "وقد استهدفت المساجد أيام الجمعة في الجزائر بالقنابل تلقى في المساجد على المصلين بدوافع سياسية، كان من المفروض أن تعالج تلك القضايا في غير بيوت الله، لأن المجتمع مسلم، ولا أحد يسمح لغيره بأن يستعمل المسجد للدعاية السياسية والوصول إلى الكرسي"⁽⁴⁾، وكأنه يقول أن هذا يدخل في دلالة الآيات فهذا تخريب لبيوت الله، ومنع لعمارتها بالذكر والصلاة، وهو من أشد الظلم عند الله، وعاقبة الظلم وخيمة.

النموذج العاشر: قوله تعالى: ﴿ووصى بها إبراهيم بنبيه ويعقوب﴾ البقرة 132.

يدور معنى هذه الآيات حول (الوصية) التي تناقلتها عائلة النبوة؛ عائلة إبراهيم عليه السلام من الجد إلى الأبناء إلى الأحفاد، وبيان قيمة هذه الوصية وحاجتنا إلى التمسك بها، والعمل بما جاء فيها في كل عصر، وهي وصية ارتكزت على أصل متين؛ وهو مبني أساسا على معرفة نعمة الهداية للإسلام والمحافظة عليها، قال صاحب الكتاب: "ومما يلفت الانتباه في وصيتي الرسولين، أنها بنيت على ركيزة العقيدة باعتبارها رأس الحكمة والخير، ولأن صلاح الفرد والمجتمع تابع لصلاح إيمانه وعقيدته"⁽⁵⁾، وقد سماها الله -عز وجل- وصية لما في هذا اللفظ من حرص على إرشاد الناس لما يحقق منافعهم العاجلة والآجلة، فقد عرف الراغب الوصية بقوله: "الوصية التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترا بوعظ من قولهم: أرض واصمة: متصلة النبات"⁽⁶⁾، وجاء في المعجم الوافي لكلمات القرآن الكريم: "وصاه بكذا: رغب إليه في أن يفعله لما فيه من خير

¹ - الكشف عن حقائق التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل: جار الله الزمخشري، ص 93.

² - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد رضا، ج 1، ص 432.

³ - الفيض الرباني في معاني القرآن: محمد الحواس بوسنة، ج 1، ص 120.

⁴ - المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

⁵ - المصدر نفسه، ج 1، ص 139.

⁶ - المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ص 873.

وصلاح⁽¹⁾، وقد استعمل لفظ (وصى) لأنه أبلغ من (أوصى)، "وصى فيها معنى التكثر في أبلغ من أوصى"⁽²⁾، كما أن استعمال (وصى) ناسب المقام، فقد ثبت أن القرآن الكريم يستعمل (أوصى) في الأمور المادية، أما (وصى) فيستعملها للأمور المعنوية والشرعية، يقول السامرائي: "ومن ذلك استعمال (وصى) و(أوصى) فكل ما ورد فيه من (وصى) بالتشديد فهو في الدين والأمور المعنوية وكل ما ورد من (أوصى) فهو في الأمور المادية"⁽³⁾، وقد حملت هذه الوصية أصل النجاة السعادة في الدارين بتوحيد الله وإقامة شريعته، قال محمد رشيد رضا: "دين الله تعالى واحد في حقيقته، وروحه التوحيد والاستسلام لله تعالى والخضوع والاذعان لهداية الأنبياء، وهذا كان يوصي أولئك النبيون أبناءهم وأممهم، فتبين أن دين الله تعالى واحد في كل أمة وعلى لسان كل نبي"⁽⁴⁾.

وعند تنزيل الآية على واقعنا قال المؤلف: "والدرس الذي يمكن للمسلم المتسم سلوكه بالصلاح والخير والتقوى، أن يستخلصه من هاتين الوصيتين قيما يتصل بتنشئة أبنائنا وفلذات أكبادنا"⁽⁵⁾، وهنا يلقي المؤلف اللوم على غالبية العلماء الذين لم يعطوا هذه الآية ومثيلاتها حقها من البيان والاستنباط الذي يوجه لعامة المسلمين للعمل به، قال: "فلم يرع هذا الأمر عدا قلة من العلماء في مقدمتهم أبو حامد الغزالي -رحمه الله- وكتابه في الموضوع لم تعط له العناية الكافية من المسلمين فبقي حبيس المكتبات والخزائن الخاصة"⁽⁶⁾، ويؤكد المؤلف على ضرورة الأخذ بهاتين الوصيتين في تربية الأبناء، وإعداد رجال المستقبل إعدادا يشمل كل جوانب الشخصية قال: "على المسلمين أن ينظروا إلى ما جاء في وصيتي الخليل إبراهيم وحفيده يعقوب -عليهما السلام- فيجعلون من هاتين الوصيتين الأساس في تربية الطفل المسلم، الذي يجب أن يكون عقله ووجدانه ومداركه كلها مفعمة بالتربية القرآنية، باعتبار القرآن حجر الأساس في بناء شخصية الفرد المسلم"⁽⁷⁾.

خاتمة

لا ندعي أن هذا العمل قد أعطى لموضوع البحث حقه من البحث والجمع والتدقيق، بقدر ما نعتقد أننا قد سلطنا الضوء على مدونة مميزة من كتب التفسير، وفتحنا باب البحث في جانب من جوانبها، آملي أن يكون هذا إسهاما في إحياء منهج مدرسة التفسير في الغرب الإسلامي، والتي اشتهر علماءها ببروز ظاهرة تنزيل الآيات على الواقع في تفاسيرهم، وقد خلصنا في نهاية هذا البحث إلى نتائج نذكرها بين أيديكم:

¹ - المعجم الوافي لكلمات القرآن الكريم: محمد عتريس، ص 899.

² - المعجم الوافي لكلمات القرآن الكريم: محمد عتريس، ص 899.

³ - التعبير القرآني: فاضل صالح السامرائي، ص 15.

⁴ - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد رضا، ج 1، ص 477.

⁵ - المصدر نفسه، ج 1، ص 139.

⁶ - المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

⁷ - المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

- 1- ربط المؤلف بين معاني الآيات وواقع الأمة في صورة شيقة متناغمة مبنية على علم وبصيرة.
 - 2- تنوعت الأحكام المنزلّة بين أحكام فقهية وتوجيهات أخلاقية وإرشادات فكرية.
 - 3- وقفت على النزعة الإصلاحية البارزة عند صاحب الكتاب، وحرقته على حال الأمة خاصة عند التطرق للقضايا الحساسة.
 - 4- لقد كان للألفاظ الواردة في الآيات دور واضح في تنزيل الأحكام على الواقع، بما تحمله من دلالات واسعة ومتجددة.
 - 5- إذا كان صاحب الكتاب قد أغفل الجانب اللغوي والبلاغي في الشرح إلا أنه ركز على الجانب الدلالي، والوقوف على فحوى الخطاب.
- وفي ختام هذا البحث لا يسعنا إلا أن نوصي بـ:
- المحافظة على هذا الملتقى الذي يسלט الضوء على موضوع بحث يكتسي أهمية خاصة.
 - الاهتمام بتفاسير الغرب الإسلامي التي عرفت بتميز أسلوبها، ومنهجها الخاص في عرض المادة العلمية.
 - إعطاء تفسير (الفيض الرباني في بيان معاني القرآن) للشيخ محمد الحواس بوسنة حقه من الدراسة والبحث.

قائمة المصادر والمراجع:

- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: بديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة- مصر، الطبعة الثالثة، 2002.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، المكتبة العصرية، بيروت- لبنان، دط، 1424هـ/2003م.
- الأعمال الكاملة للشيخ محمد الحواس بوسنة السطايفي ج6 (تأبين الشيخ الإمام محمد الحواس بوسنة)، دار كنوز الرشيد للنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة- الجزائر، دط، 2015م.
- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت- لبنان، دط، دت.
- بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز إعراباً وتفسيراً بإيجاز: بهجت عبد الواحد الشخيلي، مكتبة دنديس، عمان- الأردن، الطبعة الأولى، 1422هـ/2001م.
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: فاضل صالح السامرائي، العاتك لصناعة الكتاب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، الطبعة الثانية، 1427هـ/2006م.
- التعبير القرآني: فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمان- الأردن، الطبعة الرابعة، 1427هـ/2006م.
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد رضا، دار المنار، القاهرة- مصر، الطبعة الثانية، 1366هـ/1947م.
- التفسير اللغوي للقرآن الكريم: مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، الدمام - المملكة العربية السعودية، دط، دت.

- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين دراسة وتطبيق: عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، مجلة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى، 1428هـ/2007م.
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: عبد العظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة- مصر، الطبعة الأولى، 1413هـ/1992م.
- صفة الصفوة: جمال الدين ابن الجوزي، تحقيق: خالد مصطفى طرطوسي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، دط، 1433هـ/2012م.
- فقه التنزيل حقيقته وضوابطه: وسيلة خلفي، دار الوعي، الجزائر العاصمة- الجزائر، الطبعة الأولى، 2009م.
- الفيض الرباني في بيان معاني القرآن: محمد الحواس بوسنة، تحقيق: عبد الكريم حامدي، دار كنوز الرشيد للنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة- الجزائر، دط، 2015م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: جار الله الزمخشري، تحقيق: خليل مأمون شيجا، دار المعرفة، بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة، 1430هـ/2009م.
- كيف نتعامل مع القرآن العظيم: يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة- مصر، الطبعة الثالثة، 1421هـ/2000م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 1422هـ/2001م.
- معجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مطبوعات مجمع اللغة العربية، القاهرة- مصر، دط، 1409هـ/1988م.
- المعجم الوافي لكلمات القرآن الكريم: محمد عتريس، مكتبة الآداب، القاهرة- مصر، الطبعة الأولى، 1427هـ/2006م.
- المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت- لبنان، دط، دت.
- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن: محمد عبد الله دراز، تحقيق: عبد الحميد الدخاخي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، 1421هـ/2000م.

توظيف أحداث بلاد الأندلس في تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام القرطبي (ت671هـ) – نماذج مختارة –

ط.د/ مريم كروش، إشراف: د/ عباس منصر

قسم أصول الدين – معهد العلوم الإسلامية – جامعة الوادي

meriemkerrouche@gmail.com

meneceur-abbas@univ-eloued.dz



ملخص

جاءت هذه الورقة البحثية لتسلط الضوء على توظيف الأحداث التاريخية في بلاد الأندلس في قضية تنزيل الآيات على الواقع، واختير الإمام القرطبي لتطبيق هذا النوع من التنزيل كونه أحد الموظفين لأحداث التاريخ في التفسير العملي للقرآن الكريم.

وكان الإشكال الرئيس للبحث حول كيفية تطبيق أحداث التاريخ في تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام القرطبي؟ لينتظم البحث في شقين نظري: فيه التعريف بالقرطبي وتفسيره وبيان عنايته بقضية التنزيل، وكذا تصوير تاريخ قرطبة والأندلس في عهد القرطبي حتى نضع البحث في سياقه التاريخي، وتطبيقي: من خلال نماذج منتخبة من الجامع لأحكام القرآن تبين إعمال الإمام القرطبي لأحداث التاريخ في التنزيل الواقعي لآيات القرآن.

وتبين من البحث أن أحداث التاريخ مفردة من مفردات تنزيل القرآن على الواقع، ولأدّل على ذلك عناية أحد أقطاب التفسير ببلاد الأندلس بها.

الكلمات المفتاحية: القرطبي – تنزيل الآيات – تاريخ الأندلس.

مقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وأصحاب ومن اهتدى بهديه وانظم إلى لواءه وحزبه، أما بعد

فإن جهود علماء الإسلام في التفسير جهود ملامسة للواقع، فلم يكتب المفسرون كتبهم مجردة ومثالية بعيدة عن بيناتهم وما يتطلع الناس إليه في أوقاتهم، بل دونوا تفاسيرهم وبنوا فيها تفاعلاتهم مع الواقع وإسقاطات النصوص القرآنية على معاشهم، ومن هؤلاء العلماء علماء الغرب الإسلامي، ووقع اختياري على أحد هؤلاء المفسرين كونه اعتنى بقضية التنزيل أكثر من غيره وهو الإمام القرطبي، فكان عنوان هذه الورقات البحثية المقدمة لأشغال الملتقى الدولي حول "جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع" - توظيف أحداث بلاد الأندلس في تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام القرطبي (ت671هـ) -

دوافع اختيار البحث: فالدوافع ذاتية وموضوعية

- رغبتى الشديدة في الوقوف على تنزيلات القرطبي في مجال تاريخ بلاد الأندلس.
- كون الإمام القرطبي من أكثر المفسرين عناية بإعمال أحداث التاريخ في حقل التفسير.
- شهود عصر الإمام القرطبي اضطرابات وحروب صليبية مع أعداء الإسلام في منطقة الأندلس.

- سقوط قرطبة في حياة الإمام القرطبي وإشارته إلى ذلك في أكثر من مناسبة في تفسيره الجامع لأحكام القرآن.

الإشكالية: والإشكالية الرئيسية التي يجب عنها هذا البحث: ما هي أهم تنزيلات الإمام القرطبي في مجال أحداث بلاد الأندلس من خلال الأمثلة المنتخبة؟

المنهج: والمنهج المتبع في هذا البحث الاستقرائي المناسب للتتبع والتنقيب عن تنزيلات الإمام القرطبي في مجال الأحداث التاريخية، وكذا المنهج التاريخي في سرد بعض هذه الأحداث التاريخية.

خطة البحث: ولإنجاز هذا البحث رسمت الخطة التالية.

مقدمة: فيها التعريف بالبحث: العنوان، دوافع الاختيار، الإشكالية، المنهج، الخطة.
المبحث الأول: ترجمة الإمام القرطبي والتعريف بعصره وعنايته بتنزيل الآيات على الواقع.
المبحث الثاني: أمثلة تطبيقية على توظيف القرطبي لأحداث بلاد الأندلس في تنزيل الآيات القرآنية على واقعه.

خاتمة: فيها أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: ترجمة الإمام القرطبي والتعريف بعصره
وعنايته بتنزيل الآيات على الواقع.

المطلب الأول: ترجمة موجزة للإمام القرطبي.

الفرع الأول: اسمه ونسبه.

محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح- بسكون الرء والحاء المهملة- الأنصاري الخزرجي المالكي أبو عبد الله القرطبي.¹

الفرع الثاني: شيوخه وتلامذته.

سمع من ابن رواج، ومن ابن الجميزي، والشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي شارح «مسلم» بعضه، وأبي علي الحسن بن محمد بن محمد البكري الحافظ، وغيرهم.

¹ ينظر: طبقات المفسرين: محمد بن علي الداوودي، دط، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، 69/2.

وروى عنه خلق كثير منهم ولده شهاب الدين أحمد¹.

الفرع الثالث: مصنفاته.

له مصنفات كثيرة منها ما ذكره الإمام الداوودي حيث قال: "جمع في تفسير القرآن كتاباً كبيراً في خمسة عشر مجلداً، سماه كتاب «جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي القرآن، وهو من أجلّ التفسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلة، وذكر القراءات، والإعراب، والناسخ والمنسوخ، وله «شرح الأسماء الحسنى» وكتاب في مجلدين سمّاه «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» وكتاب «التذكار في أفضل الأذكار» وضعه على طريقة «التبيان» للنووي لكن هذا أتم منه وأكثر علماً، وكتاب «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» وكتاب «شرح التقصّي» وكتاب «قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة». قال ابن فرحون: لم أقف على تأليف أحسن منه في بابيه، وله «أرجوزة» جمع فيها أسماء النبي ﷺ، وله تأليف وتعليق مفيدة غير هذه².

الفرع الرابع: وفاته وثناء أهل العلم عليه.

قال عنه الإمام الذهبي: "إمام متفّن متبحّر في العلم، له تصانيف مفيدة تدلّ على كثرة اطلاعه ووفور فضله، تُوفّي في أوائل هذه السّنة (671هـ) بمُنية بني خصيب من الصّعيد الأدنى"³.

وذكره محمد مخلوف في شجرة النور الزكية وقال في حق: "العالم الإمام الجليل الفاضل الفقيه المفسر المحصل المحدث المتفنن الكامل"⁴.

وقال ابن فرحون: "كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا المشغولين بما يعنهم من أمور الآخرة أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف. جمع في تفسير القرآن كتاباً كبيراً في اثني عشر مجلداً سماه كتاب جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وأي القرآن وهو من أجلّ التفاسير وأعظمها نفعاً أسقط منه القصص والتواريخ وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات والإعراب والناسخ

¹ المصدر السابق: 69/2.

² المصدر السابق: 70/2. وينظر: ترجمته نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد بن محمد المقري التلمساني، ط:2، دارصادر، بيروت، لبنان، 1997م، 210/2-211.

³ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين الذهبي، تج: بشار عواد معروف، ط:1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م، 229/15.

⁴ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: محمد بن سالم مخلوف، تج: عبد المجيد خيالي، ط:1، دارالكتب العلمية، بيروت، 1424هـ-2003م، 282/1.

وقال عنه السيوطي: "مصنف التفسير المشهور، الذي سارت به الركبان"².

وقال ابن العماد الحنبلي: "صاحب التفسير «الجامع لأحكام القرآن» الحاكي مذاهب السلف كلها، وما أكثر فوائده. وكان إماماً عالماً، من الغواصين على معاني الحديث، حسن التصنيف، جيد النقل"³.

وقال عادل نويهض: "من كبار المفسرين، محدث، صالح متعبد، من أهل قرطبة بالأندلس، رحل إلى المشرق واستقر بمنية ابن خصيب في شمالي أسبوط، بمصر، وتوفي فيها"⁴.

المطلب الثاني: عناية الإمام القرطبي بتنزيل الآيات على الواقع في تفسيره.

يعد تفسير الإمام القرطبي من أجود التفاسير التي كتب في تفسير آيات الأحكام، فهو يعتمد إلى السور والآيات ويذكر ما يندرج تحتها من مسائل وأحكام، وقد يخیل إلى من لا معرفة له بمنهج القرطبي أن تفسيره فقري صرف وهذا بالنظر إلى تسميته "الجامع لأحكام القرآن" وهذا مما لاشك فيه خطأ؛ لأن كلمة أحكام ليست مقتصرة على أحكام الفقه فحسب، بل هي جامعة وشاملة كل الأحكام العقدية والسلوكية والسياسية والمستجدات والنوازل... الخ، إذ يقول القرطبي مبيناً غرضه من تفسيره: "فَصَمَّمْتُ كُلَّ آيَةٍ تَضَمَّنَتْ حُكْمًا أَوْ حُكْمَيْنِ فَمَا زَادَ، مَسَائِلَ نُبَيِّنُ فِيهَا مَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ مِنْ أَسْبَابِ التُّزُولِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْغَرِيبِ وَالْحُكْمِ، فَإِنْ لَمْ تَتَضَمَّنْ حُكْمًا ذَكَرْتُ مَا فِيهَا مِنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ، هَكَذَا إِلَى آخِرِ الْكِتَابِ. وَسَمَّيْتُهُ بِ(الْجَامِعِ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ، وَالْمُبَيِّنِ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ السُّنَّةِ وَآيِ الْقُرْآنِ)"⁵.

ولما كان الكلام في النوازل والمستجدات مادته الأولى ومنطلقه الأول واقع المفسر المعاش وما يطرأ في بيئته من حوادث، وما يحدث في عصر المفسر من قضايا مصيرية للأمة تسترعي اهتمام المفسر، كان لزاماً على المفسر أن يتفاعل مع واقعه ويقرأ حوادث عصره، ويحاول أن ينطلق من القرآن ليجد حلولاً للمعضلات التي تواجه المسلمين في زمنه، وهذا ديدن

¹ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: إبراهيم بن علي المعروف بابن فرحون، تح: محمد الأحمد أبو نور، دط، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، دت، 309/2.

² طبقات المفسرين: السيوطي، تح: علي محمد عمر، ط: 1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1396هـ، 92/1.

³ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد العلي ابن العماد الحنبلي، تح: محمود الأرناؤوط، ط: 1، دار ابن كثير، بيروت، 1406هـ-1986م، 585/7.

⁴ معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر: عادل نويهض، تق: حسن خالد، ط: 3، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1409هـ-1988م، 479/2.

⁵ الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، تح: أحمد البردوني إبراهيم أطفيش، ط: 2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1384هـ-1964م، 3/1.

الإمام القرطبي، حيث يقول الدكتور عبد العزيز الضامر في معرض كلامه عن القرطبي وبيان عنايته بقضية التنزيل: "وكان من الأمور التي تطرق إليها في تفسيره قضية تنزيل الآيات على الواقع، كيف لا، وقد كان واقعه يضجّ بالقضايا والوقائع المتعددة على جميع الأصعدة في المشرق والمغرب، والتي كان من أبرزها تمكّن الصليبيين في الغرب والتتار في الشرق... فكان لا بد له من الرجوع إلى كتاب الله تعالى واستنطاق الآيات المناسبة لهذه الحوادث وتنزيلها عليها"¹.

وقد أشار القرطبي في مقدمة تفسيره أنه سيعتني بإيراد أحداث التاريخ التي لها أثر في الأحكام والمعاني وتحقيق المطلوب من تفسير القرآن إذ يقول في معرض بيان مسلكه في عدم ذكر الإسرائيليات والقصص وحوادث التاريخ إلا ما تعلق بما سبق: "وَأُضْرِبُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ قَصَصِ الْمَفْسِرِينَ، وَأَخْبَارِ الْمُؤَرِّخِينَ، إِلَّا مَا لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا غَيَّ عَنْهُ لِلتَّبَيِّنِ، وَاعْتَصَمْتُ مِنْ ذَلِكَ تَبْيِينَ أَيْ الْأَحْكَامِ، بِمَسَائِلِ تَفْسِرَ عَنْ مَعْنَاهَا، وَتُرْشِدُ الطَّالِبَ إِلَى مُقْتَضَاهَا"².

وقد كانت تنزيلات القرطبي تمتاز بالدقة والنظر الثاقب واستقلالية الرأي والإشارة إلى التنزيل مباشرة دون التلميح أو الإيماء حيث يقول الذهبي عنه: "فإن القرطبي رحمه الله في تفسيره هذا حُرٌّ في بحثه، نزيهٌ في نقده، عفٌّ في مناقشته وجدله، مُلِمٌّ بالتفسير من جميع نواحيه، بارعٌ في كل فن استطرد إليه وتكلّم فيه"³.

المطلب الثالث: قرطبة في عصر الإمام القرطبي.

تعد قرطبة زمن الإمام القرطبي عاصمة الخلافة الأموية بإقليم الأندلس، فهي مركز الإشعاع العلمي والحضاري والعمراني ببلاد الأندلس، وتعد كبرى الحواضر الأندلسية ثقافة وفنونا، لأجل هذه المكانة التي كانت تحظى بها حرص القشتاليون النصارى أصحاب الصليب على الإطاحة بها واستردادها من أيدي المسلمين، فكان لهم ما أرادوا؛ إذ سقطت قرطبة بعد حروب الكَرّ والفر والإغارة سنة 633هـ، وتتابعت القلاع الأندلسية في السقوط الواحدة تلو الأخرى، وكان آخرها سقوطاً غرناطة سنة 897هـ⁴.

ويظهر بهذا ونحن نضع البحث في سياقه التاريخي أن زمن القرطبي كان مليئاً بالتوتر واللا استقرار وحياة التأهب الدائم خوفاً على الأنفس والممتلكات نتيجة الإغارات والغدر الذي كان ينتهجه قادة الدولة القشتالية، وقد تفاعل الإمام القرطبي مع هذه الأحداث

¹ تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين نظرة تأصيلية: عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، ط:1، دار ابن

حزم، بيروت، 1435هـ-2014م، ص 106.

² الجامع لأحكام القرآن: المرجع السابق، 3/1.

³ التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، دط، مكتبة وهبه، القاهرة، دت، 341/2.

⁴ ينظر: دولة الإسلام في الأندلس: محمد عبد الله عنان، ط:2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1417هـ-1997م،

425-424/4.

ووثقها، بل ووظفها في معرض تنزيلاته للآيات على الواقع. وسنعرض لجملة من المواضع التي تم رصدها تبين عناية القرطبي بتوظيف الأحداث التاريخية في قرطبة خصوصا وفي الأندلس عموما يظهر من خلالها إسقاطات القرطبي للنص القرآني على أحداث زمنه، وفي المبحث الموالي طائفة من الأمثلة الموضحة.

المبحث الثاني: أمثلة تطبيقية على توظيف القرطبي لأحداث بلاد الأندلس في تنزيل الآيات القرآنية على واقعه.

1/ توثيق حرب الكروالفرين النصارى والمسلمين في قرطبة:

فعند تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ ذكر أن هذه الآية ومعها آية الجاثية وآية يس وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا.... كان يقرأها النبي ﷺ فيستتر من المشركين ثم علق القرطبي منزلا هذه الآية على حادثة حدثت معه شخصيا في قرطبة فقال: " قلت: ويزاد إلى هذه الآية أَوَّلُ سُورَةِ يَسَ إِلَى قَوْلِهِ "فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ". فَإِنَّ فِي السَّيْرِ فِي هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَقَامِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي فِرَاشِهِ قَالَ: وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخَذَ حَفَنَةً مِنْ تُرَابٍ فِي يَدِهِ، وَأَخَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَبْصَارِهِمْ عَنْهُ فَلَا يَرَوْنَهُ، فَجَعَلَ يَنْثِرُ ذَلِكَ التُّرَابَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ وَهُوَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ يَسَ: " يَسَ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. " إِلَى قَوْلِهِ -" وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ". حَتَّى قَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ وَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ تُرَابًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى حَيْثُ أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ. قُلْتُ: وَلَقَدْ اتَّفَقَ لِي بِبِلَادِنَا الْأَنْدَلُسِ بِحَصْنِ مَنَّوَرٍ مِنْ أَعْمَالِ قُرْطُبَةَ مِثْلُ هَذَا. وَذَلِكَ أَنِّي هَرَبْتُ أَمَامَ الْعَدُوِّ وَانْحَرْتُ إِلَى نَاحِيَةِ عَنْهُ، فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِي فَارِسَانٍ وَأَنَا فِي قَضَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ قَاعِدٌ لَيْسَ بِسُتُرْنِي عَنْهُمَا شَيْءٌ، وَأَنَا أَقْرَأُ أَوَّلَ سُورَةِ يَسَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَعَبَّرَا عَلَيَّ ثُمَّ رَجَعَا مِنْ حَيْثُ جَاءَا وَأَحْدُهُمَا يَقُولُ لِلْآخَرِ: هَذَا دَبِيلَةٌ¹، يَعْثُونَ شَيْطَانًا. وَأَعْنَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَبْصَارَهُمْ فَلَمْ يَرَوْنِي، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا عَلَى ذَلِكَ "².

2/ توثيق سبب سقوط قلاع الأندلس الضائعة بسبب ترك الجهاد:

فعند قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ نزل هذه الآية على أهل الأندلس متأسفا على ضياع جوهرة الإسلام الضائعة فضاعت الأندلس حين ترك

¹ كلمة فرنسية تعني إبليس أو شيطان وهي موجودة في قاموس الفرنسية le diable ولعل هذه الكلمة من لغة اللاتين التي تفرقت فيما بعد إلى لغات عديدة ولكن أصلها واحد.

² الجامع لأحكام القرآن: 270/10.

المسلمون الجهاد في سبيل الله قال متأسفاً ومنزلاً: " قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: "عَسَى" مِنَ اللَّهِ إِجَابٌ، وَالْمَعْنَى عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا مَا فِي الْجِهَادِ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ فِي أَنْتُمْ تَغْلِبُونَ وَتَنْظُرُونَ وَتَغْنَمُونَ وَتُؤْجِرُونَ. وَمَنْ مَاتَ مَاتَ شَهِيدًا، وَعَسَى أَنْ تُجِبُوا الدَّعَةَ وَتَرَكَ الْقِتَالَ وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ فِي أَنْتُمْ تَغْلِبُونَ وَتَذِلُّونَ وَيَذْهَبُ أَمْرُكُمْ. قُلْتُ: وَهَذَا صَحِيحٌ لَا غَبَارَ عَلَيْهِ، كَمَا اتَّفَقَ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، تَرَكُوا الْجِهَادَ وَجَبُّوا عَنِ الْقِتَالِ وَكَثَرُوا مِنَ الْفِرَارِ، فَاسْتَوْلَى الْعَدُوُّ عَلَى الْبِلَادِ، وَأَيُّ بِلَادٍ؟! وَأَسْرَ وَقَتَلَ وَسَبَى وَاسْتَرْقَى، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِعُونَ! ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَنَا وَكَسَبْتَهُ!"¹

3/ توظيف فتح بلاد الأندلس على يد طارق بن زياد:

فعند قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ وفي معرض ذكر مسألة متى يسيى الفرار من العدو توليا منهيا عنه؟ وذكر آراء أهل العلم ومنهم الجمهور في المسألة بتفصيل، متى كان الفرار من ضعف عدد المؤمنين فما دون كان النهي منصرفا إلى ذلك ومتى كان عدد الكفار أضعافا كثيرة لم يسيى ذلك توليا واستشهد القرطبي بغزوة مؤتة وانسحاب خالد بن الوليد من جحالف الروم وكانوا مأتي ألف في وجه ثلاثة آلاف ثم قال القرطبي: والصبر أفضل واستشهد بحادثة فتح الأندلس على يد طارق بن زياد وهذا تنزيل قبلي سابق لزمن المفسر فقال رحمة الله عليه: "الثانية- أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْأُولَى الْمُؤْمِنُونَ أَمَامَ الْكُفَّارِ. وَهَذَا الْأَمْرُ مُقَيَّدٌ بِالشَّرْطَةِ الْمَنْصُوصَةِ فِي مِثْلِي الْمُؤْمِنِينَ، فَإِذَا لَقِيتَ فِتْنَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِتْنَةً هِيَ ضِعْفُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَالْفَرَضُ الْأَوَّلُ أَمَامَهُمْ. فَمَنْ فَرَّ مِنْ اثْنَيْنِ فَهُوَ قَارٌّ مِنَ الرَّحْفِ. وَمَنْ فَرَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ فَلَيْسَ بِقَارٍّ مِنَ الرَّحْفِ، وَلَا يَتَوَجَّهَ عَلَيْهِ الْوَعِيدُ. وَالْفِرَارُ كَبِيرَةٌ مُوبِقَةٌ بِظَاهِرِ الْقُرْآنِ وَإِجْمَاعِ الْأَكْثَرِ مِنَ الْأَثَمَةِ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ مِنْهُمْ ابْنُ الْمَاجِشُونِ فِي الْوَاضِحَةِ: إِنَّهُ يُرَاعَى الضَّعْفُ وَالْقُوَّةُ وَالْعِدَّةُ، فَيَجُوزُ عَلَى قَوْلِهِمْ أَنْ يَفِرَّ مِائَةُ فَارِسٍ مِنْ مِائَةِ فَارِسٍ إِذَا عَلِمُوا أَنَّ مَا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ النُّجْدَةِ وَالْبَسَالَةِ ضِعْفٌ مَا عِنْدَهُمْ. وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ الجمهور فلا يحل فرار مائة إلا مِمَّا زَادَ عَلَى الْمِائَتَيْنِ، فَمَهْمَا كَانَ فِي مُقَابَلَةِ مُسْلِمٍ أَكْثَرُ مِنْ اثْنَيْنِ فَيَجُوزُ الْإِهْرَامُ، وَالصَّبْرُ أَحْسَنُ. وَقَدْ وَقَفَ جَيْشٌ مُؤْتَةٌ وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ فِي مُقَابَلَةِ مِائَتَيْ أَلْفٍ، مِنْهُمْ مِائَةُ أَلْفٍ مِنَ الرُّومِ، وَمِائَةُ أَلْفٍ مِنَ الْمُسْتَعْرَبَةِ مِنْ لَحْمٍ وَجَدَامَ. قُلْتُ: وَوَقَعَ فِي تَارِيخِ فَتْحِ الْأَنْدَلُسِ، أَنَّ طَارِقًا مَوْلَى مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ سَارَ فِي أَلْفٍ وَسَبْعِمِائَةِ رَجُلٍ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، وَذَلِكَ فِي رَجَبِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ، فَالْتَقَى وَبَلَكَ الْأَنْدَلُسِ لَدْرِيْقٍ وَكَانَ فِي سَبْعِينَ أَلْفَ عَنَانٍ، فَزَحَفَ إِلَيْهِ طَارِقٌ وَصَبَرَ لَهُ فَهَزَمَ اللَّهُ الطَّاغِيَةَ لَدْرِيْقٍ. وَكَانَ الْفَتْحُ"².

¹ المصدر السابق: 39/3.

² المصدر نفسه: 381/7.

4/ توثيق استشهاد والده بقرطبة سنة 627هـ:

وعند قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ طرح مسألة حكم الشهادة في سبيل الله وهل المقتول في غير المعتكز يسمى شهيدا أم لا؟ ووظف نازلة نزلت بهم في قرطبة فقال رحمة الله عليه: "الْخَامِسَةُ- الْعُدُو إِذَا صَبَحَ قَوْمًا فِي مَنَازِلِهِمْ وَلَمْ يَعْلَمُوا بِهِ فَقَتَلَ مِنْهُمْ فَهَلْ يَكُونُ حُكْمُهُ حُكْمَ قَتِيلِ الْمُعْتَرِكِ، أَوْ حُكْمَ سَائِرِ الْمُؤْتَى، وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ نَزَلَتْ عِنْدَنَا بِقَرْطُبَةٍ أَعَادَهَا اللَّهُ: أَغَارَ الْعَدُو قِصَمَهُ اللَّهُ- صَبِيحَةَ الثَّالِثِ مِنْ رَمَضَانَ الْمُعْظَمِ سَنَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّمِائَةِ وَالنَّاسُ فِي أَجْزَائِهِمْ عَلَى غَفْلَةٍ، فَقَتَلَ وَأَسَرَ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ قُتِلَ وَالِدِي رَحِمَهُ اللَّهُ، فَسَأَلْتُ شَيْخَنَا الْمُفَرِّئَ الْأُسْتَاذَ أَبَا جَعْفَرٍ أَحْمَدَ الْمُعْرُوفَ بِأَبِي حِجَّةٍ فَقَالَ، غَسَلَهُ وَصَلَى عَلَيْهِ، فَإِنَّ أَبَاكَ لَمْ يُقْتَلَ فِي الْمُعْتَرِكِ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ. ثُمَّ سَأَلْتُ شَيْخَنَا رَبِيعَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ رَبِيعِ بْنِ أَبِي فَقَالَ: إِنَّ حُكْمَهُ حُكْمُ الْقَتْلَى فِي الْمُعْتَرِكِ. ثُمَّ سَأَلْتُ قَاضِيَ الْجَمَاعَةِ أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ قَطْرَالٍ وَحَوْلَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ فَقَالُوا: غَسَلَهُ وَكَفَّنَهُ وَصَلَّ عَلَيْهِ، فَفَعَلْتُ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَفْتُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ فِي "التَّبَصُّرَةِ" لِأَبِي الْحَسَنِ اللَّخْمِيِّ وَغَيْرِهَا. وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا غَسَلْتُهُ، وَكُنْتُ دَفَنْتُهُ بِدَمِهِ فِي ثِيَابِهِ".¹

5/ توظيف ضعف المسلمين وتفرقهم وتسلب العدو عليهم:

فعند قوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ نزل الإمام القرطبي هذه الآية على حال المسلمين في بلاده بعد ذكره لأقوال السلف في معناها هل هي في الكفار خاصة أم عامة للمسلمين والكفار أم خاصة في أهل القبلة قال منزلا ومسقطا الآية على واقعه وحال المسلمين في بلاد الأندلس: " (وَيُذِيقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) أَيُّ بِالْحَرْبِ وَالْقَتْلِ فِي الْفِتْنَةِ، عَنْ مُجَاهِدٍ. وَالْآيَةُ عَامَّةٌ فِي الْمُسْلِمِينَ وَالْكَفَّارِ. وَقِيلَ هِيَ فِي الْكَفَّارِ خَاصَّةٌ. وَقَالَ الْحَسَنُ: هِيَ فِي أَهْلِ الصَّلَاةِ. قُلْتُ: وَهُوَ الصَّحِيحُ، فَإِنَّهُ الْمَشَاهِدُ فِي الْوُجُودِ، فَقَدْ لَبِسْنَا الْعُدُوَّ فِي دِيَارِنَا وَاسْتَوَلَى عَلَى أَنْفُسِنَا وَأَمْوَالِنَا، مَعَ الْفِتْنَةِ الْمُسْتَوَلِيَةِ عَلَيْنَا بِقَتْلِ بَعْضِنَا بَعْضًا وَاسْتِبَاحَةِ بَعْضِنَا أَمْوَالَ بَعْضٍ. نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ. وَعَنِ الْحَسَنِ أَيْضًا أَنَّهُ تَأَوَّلَ ذَلِكَ فِيمَا جَرَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ".²

6/ تنزيل الآية الأولى من سورة العنكبوت على ثغور المسلمين ببلاد الأندلس وغيرها:

فعند قوله تعالى ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ أقر الإمام ابن عطية على تنزيله هذه الآية في ثغور المسلمين وخطوط التماس مع بلاد الكفر،

¹ المصدر نفسه: 272/4.

² المصدر السابق: 9/7.

فأورد قول ابن عطية الذي يرى أن الآية وإن نزلت في سبب خاص إلا العبرة بالعموم عملاً للقاعدة المشهورة قال رحمه الله: " قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُسَلِّيَةً وَمُعَلِّمَةً أَنَّ هَذِهِ هِيَ سِرُّهُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ اخْتِبَارًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِتْنَةً. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ بِهَذَا السَّبَبِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ فَهِيَ بَاقِيَةٌ فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَوْجُودٌ حُكْمُهَا بَقِيَّةَ الدَّهْرِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْفِتْنَةَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بَاقِيَةٌ فِي تَغَوُّرِ الْمُسْلِمِينَ بِالْأَسْرِ وَنِكَايَةِ الْعَدُوِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَإِذَا اعتُبرَ أَيْضًا كُلُّ مَوْضِعٍ فِيهِ ذَلِكَ بِالْأَمْرَاضِ وَأَنْوَاعِ الْمَحَنِ. وَلَكِنَّ الَّتِي تُشَبِّهُ نَازِلَةَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ قُرَيْشٍ هِيَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَمْرِ الْعَدُوِّ فِي كُلِّ تَغَرٍّ. قُلْتُ: مَا أَحْسَنَ مَا قَالَهُ. وَلَقَدْ صَدَّقَ فِيمَا قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ¹.

هذا إقرار من الإمام القرطبي لتنزيل الإمام ابن عطية رحمه الله تعالى فقد وافق على هذا التنزيل واستحسن ما قاله بل وصدقه فيما ذهب إليه فاتفقت القريحة الفكرية للقرطبي مع ما جادت به خاطرة الإمام ابن عطية فاتفق في هذا التنزيل عالمان جليلان من أئمة الأمة في التفسير وأئمة عالمين !!!

الخاتمة

- تنزيلات الإمام القرطبي على حوادث بلاد الأندلس وثقت لأحداث تاريخية ذكرها المؤرخون في كتبهم، وبعضها انفرد القرطبي بتوثيقها.
 - هذه التنزيلات تعدّ تفاعلاً من القرطبي مع واقع أمته في وطنه وتفسيره غني بأنواع التنزيلات الأخرى الفقهية والعقدية والسلوكية.
 - إسقاط القرآن على الواقع ليس حكراً على لون التفسير الموضوعي الذي ظهر في العصر الحديث بل إن للمفسرين القدامى قصب السبق في الممارسة العملية لقضية التنزيل والإمام القرطبي واحد من هؤلاء.
- التوصيات**

- نوصي بجمع واستقراء تنزيلات الإمام القرطبي بأنواعها فهي حريّة بالجمع والدراسة والتحليل.

قائمة المصادر والمراجع

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: محمد بن سالم مخلوف، تع: عبد المجيد خيالي، ط: 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ-2003م.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين الذهبي، تع: بشار عواد معروف، ط: 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: إبراهيم بن علي المعروف بابن فرحون،

¹ المصدر السابق: 324/13.

- تح: محمد الأحمدى أبونور، دط، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، دت.
- طبقات المفسرين: جلال الدين السيوطي، تح: علي محمد عمر، ط:1، مكتبة وهبه، القاهرة، 1396هـ.
- طبقات المفسرين: محمد بن علي الداوودي، دط، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الحي ابن العماد الحنبلي، تح: محمود الأرنؤوط، ط:1، دار ابن كثير، بيروت، 1406هـ-1986م.
- معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر: عادل نويهض، تق: حسن خالد، ط:3، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1409هـ-1988م.
- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، تح: أحمد البردوني إبراهيم أطفيش، ط:2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1384هـ-1964م.
- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين نظرة تأصيلية: عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، ط:1، دار ابن حزم، بيروت، 1435هـ-2014م.
- التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، دط، مكتبة وهبه، القاهرة، دت.
- دولة الإسلام في الأندلس: محمد عبد الله عنان، ط:2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1417هـ-1997م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب: شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، ط:2، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997م.

وقد عالج عبد النجار في معرض كلامه عن المقاصد الشرعية: مقاصد حفظ قيمة الحياة الإنسانية، من ناحية حفظ الدين، ومن ناحية حفظ إنسانية الإنسان.

أهمية الموضوع:

تظهر أهمية الموضوع في الحاجة الملحة له في هذا العصر سواء فيما تعلق بتنزيل النص القرآني على الواقع واستحضار الآيات القرآنية عمليا، أو ما تعلق بالحاجة لإبراز مقاصد الشريعة في أحوال الناس.

كما تظهر الحاجة لتسليط الضوء على إنسانية الإنسان في ظل ما يعيشه إنسان اليوم من امتحانٍ وهدرٍ لقيمته وكرامته.

الإشكالية:

ومن هذا المنطلق فإن الإشكالية المركزية التي تطرحها هذه الورقة هي: كيف عالج عبد المجيد النجار مقصد حفظ إنسانية الإنسان انطلاقا من توظيفه لتنزيل النص القرآني على واقع اليوم؟

أهداف الدراسة:

بيان تنزيل عبد المجيد النجار للنص القرآني على الواقع من خلال الرؤية المقاصدية التي يطرحها فيما تعلق بمسألة الإنسان باعتبارها من أهم القضايا المطروحة في الواقع الإسلامي الراهن، فضلا عن الراهن الحضاري العالمي المعاصر.

الدراسات السابقة:

ومن بين الدراسات التي عالجت هذا الموضوع نجد مقال بعنوان: تطور التنظير المقاصدي في العصر الحديث، شوقي الأثر، مجلة إسلامية المعرفة، السنة 23، العدد 90، 2017/1438، والذي قام فيه الباحث بتقويم التنظير المقاصدي بدءا من بن عاشور وما قدمه في هذا المجال ليصل إلى أهم إنجازات المعاصرين في هذا العلم، وهو مختلف عن بحثنا من خلال أنه دراسة للمسار المقاصدي برؤية تقويمية، بينما بحثنا اختص بالكلام عن جزئية من جزئيات المقاصد الشرعية وهي مقصد حفظ إنسانية الإنسان، ويتقاطع مع نقاط بحثنا في الجزء الأخير من بحثه والذي عنوانه بمحاولة رائدة والتي تكلم فيها عن إسهامات عبد المجيد النجار في الفكر المقاصدي.

أما بقية ما توصلنا إليه فهو إما متعلق بجانب من جوانب المقاصد الشرعية مختلفة عن نقاط بحثنا، أو متعلقة بشخصية غير الشخصية التي نحن بصدد البحث في الفكر المقاصدي عندها، كتلك المتعلقة بمقاصد العمران مثلا، والمعنونة بمقاصد العمران في الشريعة الإسلامية، من إعداد الطالب: إلياس بولفخاد، إشراف الدكتور: بوبكر لشهب،

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، تخصص الفقه وأصوله، قسم الشريعة، معهد العلوم الإسلامية، جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي، و التي عرجت على مقصد العمران والضوابط المقاصدية للعمارة الإسلامية، ويبدو جلياً الاختلاف بين ما تناولته هذه الأطروحة، وموضوع بحثنا، إذ أن كلاً منهما اقتصر على مقصد من المقاصد الشرعية، كما أن بحثنا زاد التخصيص بالبحث في هذا المقصد عند عبد المجيد النجار دون غيره.

منهج الدراسة:

تم اعتماد ما يفرضه هذا النوع من الدراسات غالباً: فكان المنهج الاستقرائي من خلال محاولة الوقوف على ما تم كتابته فيما تعلق بالمقاصد الشرعية عموماً، ومقصد حفظ إنسانية الإنسان خصوصاً عند عبد المجيد النجار.

وكذا المنهج الوصفي التحليلي من خلال عرض ما تم جمعه وتفكيك العناصر المتعلقة بالمقاصد ومقصد حفظ إنسانية الإنسان عن طريق الشرح والتفسير ودراسة هذه الأجزاء للوصول إلى رؤية شاملة حول طرح عبد المجيد النجار لهذا الموضوع.

خطة البحث:

وقد اشتملت خطة البحث على ما يأتي:

مقدمة.

المبحث الأول: ضبط مفاهيم وشخصيات البحث.

المبحث الثاني: مقصد حفظ إنسانية الإنسان في الواقع الراهن.

خاتمة.

المبحث الأول: ضبط مفاهيم وشخصيات البحث.

لقد بذل علماء الغرب الإسلامي جهوداً واضحة في محاولات تنزيل النص القرآني على الواقع في مجالات متنوعة ومتباينة، وقد حاول عبد المجيد النجار توظيف هذا التنزيل على الواقع في معرض كلامه عن مقاصد الشريعة، وفي هذا المبحث سنحاول ضبط المفاهيم المتعلقة بهذا البحث، بدءاً بمفهوم تنزيل النص القرآني على الواقع، ومفهوم مقاصد التشريع، وصولاً إلى ترجمة لشخصية عبد المجيد النجار.

المطلب الأول: مفهوم تنزيل النص القرآني على الواقع.

إن المفهوم المرتبط بتنزيل النص القرآني على الواقع لدى الباحثين في تفسير القرآن الكريم هو: "مقابلة الأحداث المعاصرة للمفسر بما يشابهها في كتاب الله تعالى، سواء كانت المقابلة تامة أو جزئية أو مخالفة لما عليه الآية".¹

1- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر، جائزة دبي للقرآن الكريم، ط1، 1428، 2007، ص33.

و في إطار أعم فقد تكلم عبد المجيد النجار عن "فقه التدين" بوصفه منهجا لتنزيل الدين على الواقع، وأنه ينبغي أن يتأسس على ثلاثة محاور رئيسية، أولها: الفهم أي فهم الدين وفهم الواقع الإسلامي المراد إصلاحه، وثانيها: الصياغة وهي إعداد التعاليم الدينية في هديها المطلق لتكون مشروعا مقدرا على قدر الواقع الزمني الذي يراد إصلاحه، ومعتبرا فيه خصائص الواقع حتى يكون قابلا للتنزل عليه، وثالثها: الإنجاز وهو التنزيل الفعلي للمشروع، الذي وقعت صياغته من حيث كيفية التنزيل ووسائله ومسالكه وأدابه، وتنفيذي بالتالي إلى أن يؤدي المشروع أكله، في اندراج السلوك الفردي والاجتماعي في الهدي الديني.²

فيمكن القول أن تنزيل النص الديني إنما يتم بهذه الآليات الثلاث السابق ذكرها والتي هي مرتبطة بالنص الديني، والواقع، والمجتهد "العقل"، ليتحقق توظيف تنزيل النص القرآني على الواقع، أو ما أسماه هوب "فقه التدين".

وبالعودة إلى التراث الفقهي الإسلامي، فإننا نجد صورة ناضجة لفقه التدين؛ فالمذاهب الفقهية في نشأتها وفي تطورها، ليست إلا اجتهادات الأئمة في تنزيل الدين على واقع الحياة، ولذلك اصطبغت هذه المذاهب بألوان متباينة في المناطق التي نشأت فيها، رغم أنها تقوم كلها على تنزيل الأوامر الإلهية الثابتة، كما يظهر ذلك جليا في كتب النوازل والفتاوى، وكما يظهر الجانب الأصولي أيضا إذ أن من أبرز الأبواب الأصولية التي كرس لها هذا هو باب مقاصد الشريعة.³

المطلب الثاني: مفهوم مقاصد الشريعة.

لا يمتري أحد في أن كل شريعة شرعها الله للناس إنما ترمي أحكامها إلى مقاصد رعى إليها المشرع جل وعلا، إذ قد ثبت بالأدلة القطعية نفي العبثية، وشريعة الإسلام هي أعظم الشرائع وأقومها، والشرائع كلها خاصة شريعة الإسلام جاءت لما فيه صلاح البشر في العاجل والآجل، أي في حاضر الأمور وعواقبها.⁴

وقد تكلم طه جابر العلواني، عن فقه المقاصد بأنه يتأسس على مبدأ اعتماد الكليات التشريعية، وتحكيمها في فهم النصوص الجزئية وتوجيهها، فهو نوع من رد المتشابهات إلى المحكمات، والفروع إلى الأصول، ليربط بين الأحكام الجزئية وصياغتها في قانون عام دلت على اعتبار الشرع له الكثير من الأدلة والشواهد، منتهجا في هذا منهجا استقرائيا شاملا، وهذا القانون الكلي يعتبر مقصدا من مقاصد الشريعة.⁵

2- في فقه التدين فهما وتنزيلا، عبد المجيد النجار، (د، ن)، (د، ط)، (د، ت) ج 1، ص 21.

3- في فقه التدين فهما وتنزيلا، عبد المجيد النجار، بتصرف، ج 1، ص 18.

4- مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، دار الكتاب المصري، مصر، دار الكتاب اللبناني، لبنان، (د، ط)، 2011، ص 15، 16.

5- مقاصد الشريعة، طه جابر العلواني، دار الهادي، لبنان، ط 1، 1421، 2001، ص 124.

والمقصد الأعلى للشريعة الإسلامية بحسب الرؤية المقاصدية التي نصَّ عليها عبد المجيد النجار هي تمكين الإنسان من تحقيق ما فيه خيره ومصلحته بتحقيق غاية وجوده وهي الخلافة في الأرض، وذلك بصالح الذات الفردية والهيئة الاجتماعية بما يفضي إلى سعادة الدارين.⁶

ويشار إلى أن مفهوم المقاصد لم يغيب عن التراث الإسلامي منذ بداية تدوينه، فقد كان حاضرا في أي القرآن الكريم وكذا في السنة النبوية بدلالات العلل والمآلات بما جاءت به أحكام الشريعة، وكان بلفظ المصلحة المتحققة، أو المقصودة من الأحكام، أما مصطلح المقاصد المعروف اليوم، فقد أستعمل من القرن الرابع هجري مع الحكيم الترمذي وغيره، ليصبح فيما بعد مبحثا مستقلا في أصول الفقه منذ الشاطبي في القرن الثامن هجري، لتكون الدعوات اليوم ليصبح مصطلح المقاصد علما على علم قائم بذاته.⁷

المطلب الثالث: ترجمة موجزة لعبد المجيد النجار.

عبد المجيد النجار: من مواليد تونس 1945، حاصل على درجة الدكتوراه في العقيدة والفلسفة في جامعة الأزهر سنة 1981، وعمل أستاذا بجامعة الزيتونة بتونس، كما تولى التدريس بالعديد من الجامعات العربية والأجنبية، فقد عمل أستاذا بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بالجزائر، وأستاذا زائرا بجامعة الإمارات، وجامعة قطر، وعمل بجامعة الأردن، والجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، وأستاذا بالمعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية بباريس، وهو عضو الجمعية التأسيسية الوطنية التونسية، ومقرر لجنة التوطئة والمبادئ العامة لإعداد الدستور التونسي.⁸

فهو عالم المقاصد وأصول الدين وعلم في الفكر الإسلامي، تعرض بسبب انتمائه لحركة النهضة للنفي سنة 1989 وعاد بعد الثورة التونسية في 2011، وهو أمين عام مساعد رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ورئيس فرعه في تونس، وكذلك عضو المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، كتبه مفيدة جداً لفهم أصيل متصل مع الواقع.⁹

له عدة مؤلفات، من بينها:

فقه التدين فهما وتزيلا: والذي كان على جزأين من جملة ما تناوله فهما: والذي عالج فيه آليات تنزيل الدين على الواقع "فقه التدين"، وتطرق فيه لعدة نقاط أهمها ما تعلق

6- مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، ط2، 2008، ص17.

7- منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية، فتحي حسن ملكاوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 1441، 2020، ص173.

8- مركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق، <https://www.cilecenter.org/ar/node/1128>، تم الولوج للموقع يوم: 2022/10/14 الساعة: 19:21.

9- الموقع الرسمي لمجلة الرشد، <https://alrashad.org/author/3/>، تم الولوج للموقع يوم: 2022/10/14 الساعة: 18:07.

بربطه بين النص الديني والواقع والعقل المدرك، وتفصيله في: فقه الفهم، فقه الصياغة في العقيدة، فقه الصياغة في الشريعة، فقه الإنجاز.

مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة: ويعد كتابه هذا "نقطة في التنظير المقاصدي المعاصر، بما حمله من إضافة تعيد التنظير المقاصدي إلى طريق تجاوز النظر الشكلي والجزئي للنص والواقع، وتحقيق النظر الشمولي المتكامل المطبق".¹⁰

ومن جملة ما تناوله هذا الكتاب: مدخل إلى مقاصد الشريعة حاويا مقدمات عامة حول هذا العلم، وتصنيفات لهذه المقاصد، ثم عرّج إلى مقاصد الشريعة في حفظ: قيمة الحياة الإنسانية، الذات الإنسانية، المحيط المادي، لينتقل بعدها إلى الكلام عن تفعيل مقاصد الشريعة.

وفي كلامه عن مقاصد الشريعة في حفظ قيمة الحياة الإنسانية عالج ذلك في عنصرين رئيسيين أولها مقصد حفظ الدين، وثانيها مقصد حفظ إنسانية الإنسان، وهو الذي نحن بصدد معالجته فيما هو آت.

المبحث الثاني: مقصد حفظ إنسانية الإنسان في الواقع الراهن.

لقد شغلت قضية الإنسان التفكير الفلسفي المعاصر بعد أن قامت الحداثة بإحلال الإنسان محل الإله، وأضفت عليه هالة من القدسية، وبإسقاطها للمرجعية الدينية فإنها ظلت تتخبط دون هدي، ليكون ما بعدها "ما بعد الحداثة" نافيا للفكرة المركزية السابقة معلنا سقوط الإنسان أو ما عبر عنه بـ "موت الإنسان"، لتدخل الفكر الإنساني في حالة من التخبط والتهنأ.

بين هذا وذاك كانت الأحكام الشرعية في الإسلام معلية لمكانة الإنسان عن سائر مخلوقات الله، ضابطة لفكره وسلوكه، مانحة له الطمأنينة بحفظها لفطرته وكرامته...، فظهرت الحاجة الملحة للنظر في مقاصد التشريع انطلاقا من النص القرآني، ومن بين أهم هذه المقاصد التي تكلم عنها عبد المجيد النجار فيما تعلق بالإنسان هو مقصد إنسانية الإنسان.

المطلب الأول: القصد من إنسانية الإنسان.

إن القول بإنسانية الإنسان هي "ماهية التي بها كان إنسانا ولم يكن شيئا آخر(..)، فكما جاء التشريع الإسلامي يجعل في أعلى مقاصده حفظ الدين الذي به تتحدد حقيقة الحياة وقيمتها، فقد جاء أيضا يجعل في أعلى تلك المقاصد حفظ إنسانية الإنسان، إذ هي أساس التكليف بالدين".¹¹

10 - تطور التنظير المقاصدي في العصر الحديث، شوقي الأزهر، مجلة إسلامية المعرفة، السنة 23، العدد 90، 1438، 2017، ص 39.

11 - مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبد المجيد النجار، ص 84.

ومقصد حفظ إنسانية الإنسان الذي تطرّق له عبد المجيد النجار أوسع من حفظ النفس الذي تكلم عنه المقاصديون سابقا لكونه ينحو منحى النفس الفردية، أما في هذا السياق فهو أوسع إذ هو متعلق بحقيقة الإنسانية في كل فرد من أفراد هذا الكائن الإنساني، وأحكام الشريعة مستفيضة في توجيهها إلى حفظ إنسانية الإنسان، وهذا دافع النجار لإفراده كمقصد مستقل.¹²

يضاف لهذا الدافع أيضا ما آل إليه الوضع الإنساني اليوم من اعتداء سافر على إنسانية الإنسان، على كل المستويات (فلسفي ثقافي، عملي واقعي)، فكانت الفلسفات العدمية والعبثية والوجودية، كما وجدت أيضا التشريعات التي تلغي الفروق بين الجنسين وتشجع بناء على ذلك للزواج المثلي، هذا غير الهندسة الوراثية التي تسعى إلى الاستنساخ البشري، ما أوجب الكلام عن الحفاظ على إنسانية الإنسان كمقصد شرعي أساسي من مقاصد الشريعة الإسلامية تتوقف عليه حقيقة الحياة الإنسانية ومعناها وغاية وجودها.¹³

كلّ هذا لحفظ ما كلف الإنسان به وهو الخلافة، ولعلّ ما يندرج ضمن هذا المقصد العظيم "مقصد حفظ إنسانية الإنسان" هي: حفظ الفطرة والكرامة الإنسانية، وحفظ غائية الحياة والحرية الإنسانية، وهو ما ستناوله فيما هو لاحق.

المطلب الثاني: مقصد حفظ الفطرة والكرامة الإنسانية.

من أهم المقاصد التي سعت الشريعة الإسلامية لترسيخها والحفاظ عليها هي الفطرة الإنسانية، كما نص القرآن الكريم على كرامة الإنسان للحفظ على معنى الإنسانية فيه، وستناول هذا في فرعين أساسيين:

الفرع الأول: حفظ الفطرة الإنسانية.

والفطرة: "هي الخلقة، أي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق، ففطرة الإنسان هي ما فطر -أي خلق- عليه الإنسان ظاهرا وباطنا، أي جسدا وعقلا".¹⁴

"والفطرة النفسية للإنسان هي الحالة التي خلق الله عليها عقل النوع الإنساني سالما من الاختلاط بالرعونات والعادات الفاسدة، فهي المراد من قوله تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾".¹⁵ وهي صالحة لصدور الفضائل عنها".¹⁶

ومن مسالك حفظ الفطرة:

1. حفظ الفطرة من التبدل: كانت الأحكام الشرعية في الإسلام حائّة على الحفاظ

12- المصدر السابق ص85.

13- المصدر نفسه ص85.

14- مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، ص93.

15- سورة الروم: 30.

16- مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، ص95.

على فطرة الإنسان على نحو ما خلقت عليه من وضع، مانعة أن يطالها التبديل والتغيير، فقد قال جل وعلا على لسان الشيطان: ﴿وَلَا مَرِيئَ لَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾¹⁷ والآية كانت في سياق ذم المشركين بما يقومون به من أعمال شركية كتغيير خلق الله في الأنعام، وإن شدد النبي عنه في الأنعام، فشده أكثر فيما يتعلق بالإنسان، ومنه كان النهي عن الوشم والنمص، أو تشبه النساء بالرجال أو العكس، لأنه محاولة للانسلاخ من الأنوثة إلى الرجولة، أو العكس، شاملا ذلك التشبه الجسدي أو النفسي في العواطف والغرائر -التي انتشرت بشكل جليّ في واقع الناس اليوم- كعمليات تبديل الجنس أو الاستنساخ البشري، وكل هذا يندرج ضمن خانة المنع الشرعي حفظا للفطرة الإنسانية في بعدها الجسماني.¹⁸

أما في بعدها النفسي فقد خلق الله الإنسان على استعداد للنظر في الآيات الكونية للوصول لمعرفة الحق ولكن ذلك الاستعداد قد يهدر بطمسه بالشهوات الغالبة، أو بالتعالي والتكبر، أو بالتقليد الأعمى للأباء والأجداد، فينتهي إلى ما يشبه الإلغاء لتلك الفطرة، ليتساوا بالأنعام، أو أقل منها درجة، وأكثر منها ضلالا، قال جل علا: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾¹⁹ فوقع التشنيع عليهم لتغييرهم لفطرتهم.²⁰

2. حفظ الفطرة بالتوازن: فيتوازن الجانب المادي فيها مع الجانب الروحي، كما يتوازن العقل مع الأحاسيس والعواطف، وكذا البعد الفردي مع البعد الجماعي في ذات النفس، فهذه الفطرة قائمة على توازن دقيق بين مكونات كثيرة من المتقابلات، ولعل هذا من معاني قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾²¹ فحسن التقويم يظهر أكثر ما يظهر في توازن ما خلق عليه الإنسان من قوى والمركبات المكونة لفطرتة، وليس لذلك التوازن نظير في سائر المخلوقات الأخرى.²²

3. حفظ الفطرة بالإشباع: فالفطرة الإنسانية كما خلقت على تقدير محدد في ذات مكنوناتها، وفي توازنها، فقد خلقت أيضا أن لتلك المكونات من حيث ذاتها ومن حيث توازنها حاجات مادية تطلب تلبيتها، كغذاء لها به تثبت وتقوى، وتؤدي المطلوب منها، فإن هي حرمت من ذلك الغذاء، فكبت مطالبها، أو اختلت المقادير التي يقع بها الإشباع بالإسراف في المقادير والشح فيها خلافا لما تقتضيه طبيعتها القائمة على التوازن، أدى ذلك إلى خلل فيها فيمسر وظائفها التعطيل.²³

17- سورة النساء: 119.

18- مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبد المجيد النجار، ص 88، 89، 90.

19- سورة الفرقان: 44.

20- مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبد المجيد النجار، ص 91.

21- سورة التين: 5.

22- مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبد المجيد النجار، ص 92.

23- المصدر نفسه، بتصرف، ص 94.

والمطالب الفطرية مشروعة في كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿رُزِقَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ
النَّسْكِ وَالْبَيْنِ وَالْفَنَاطِرِ الْمَقْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ
مَتْنِعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَقَدْ عِنْدَهُ خُسْنُ الْمَقَابِ ۝﴾²⁴

فهذا إقرار لهذه الفطرة فيما تطلبه من إشباع لشهوات الجنس والولد والمال فتلك
طبيعة معتبرة في الإنسان وليست نقيصة أو مذمة فيه.²⁵

وكما قصدت الشريعة إلى تلبية مطالب الفطرة، فإنها كانت قاصدة أن يكون ذلك وفق
إشباع لحاجاتها، ليحفظ بذلك التوازن بين مكوناتها وتنطلق في أداء مهمتها الوجودية،
فالتوازن في تلبية المطالب الفطرية مقصد مندرج ضمن مقصد حفظ الفطرة، فكما تحفظ
من التبديل والتغيير، تحفظ أيضا من الميل في ذات مكوناتها، وتبلى مطالبها بتوازن، فلا
يعود الإغراق في بعضها بالكبت والإرهاق على بعضها الآخر.²⁶

الفرع الثاني: حفظ الكرامة الإنسانية.

خلق الإنسان مكرما، وقد قرر القرآن الكريم ذلك بقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ
وَمَلَأْنَاهُمْ فِي الْآلِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝﴾²⁷

فالكرامة حق إنساني مكفول لجميع البشر، وقد عبر علال الفاسي في هذا الإطار
بقوله: "والكرامة حق لكل أحد برا كان أو فاجرا، تقيا أو عصيا، لأن الجزاء يترتب على
الأعمال وهي بحسب صفاتها الشرعية، أما الشخص فهو الإنسان دائما حتى المجرم ينال
عقابه ولكن ليس لأحد أن ينال من كرامته بتعبيره وشتمه أو التشنيع عليه بما فعل".²⁸

لتكون الكرامة الإنسانية بذلك مشكلة لعنصر أساس مكون لمعنى الإنسانية في هذا
الكائن، فشعور المهانة جراء ما يعامل به من تحقير وإذلال وانتهاك للكرامة، فإنه يكون
مكسور الإرادة، فلا يستطيع أن ينتج شيئا فضلا أن يكون في مقام الريادة والابتكار، فكانت
الأحكام الشرعية الحافظة للكرامة ملغية لكل سبب من أسباب التفاضل المتعلقة بالخلقة
الذي نتج عنه مقاييس تتدنى ببعض الناس إلى أوضاع من الدونية والمهانة.²⁹

وبناءً عليه أيضا فرضت كفالة الإنسان من قبل محيطه الاجتماعي الأقرب، كما
حرمت الغيبة والنميمة والهمز واللمز، والتحريم المغلظ للقدف، بل وحفظت كرامة الذات
الإنسانية في آفاقها البعيدة حتى في أحوال السلم والحرب، فحرمت المثلة بالأعداء، وأوجبت

24- سورة آل عمران: 14.

25- مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبد المجيد النجار، ص 95.

26- المصدر نفسه، ص 97.

27- سورة الإسراء، 70.

28- مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، دار الغرب الإسلامي، ط 5، 1993، ص 235.

29- مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبد المجيد النجار، ص 99.

المطلب الثالث: مقصد حفظ غائية الحياة والحرية الإنسانية.

إن مما تقوم عليه معاني الإنسانية في الإنسان هو أن لحياته غاية كما أنه حرا لإرادة، فإذا فقد هذان العنصران انعدمت حياته، وسينقسم الكلام عن هذا في هذا المطلب أيضا إلى فرعين، أولهما متعلق بحفظ غائية الحياة، وثانيهما بحفظ الحرية الإنسانية.

الفرع الأول: حفظ غائية الحياة.

فلم يكن وجود الإنسان في هذه الدنيا عبثا، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾³¹، كما قال جل وعلا أيضا: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾³².

وقد جاء القرآن الكريم ببيان واف مفصل للغاية التي خلق من أجلها الإنسان، والتي ينبغي أن يتمثلها في نفسه إيمانا، ويسعى فيها عملا، وقد جاء القرآن الكريم في عديد آياته مبينا أن الله تعالى خلق الإنسان لغاية الخلافة، ومضمون الخلافة في الأرض يشتمل على عنصرين أساسيين: أولهما ترقية ذات الإنسان بتزكية الفرد في نفسه وفكره وجسمه، وتقوية صلته بخالقه، وتزكية الهيئة الجماعية بالتراحم والتعاون والتكافل، ليرتقي الإنسان فردا وجماعة في سلم الإنسانية، وثانيها التعمير في الأرض علما بقوانينها واستثمارا لخيراتهما.³³

وقد جاءت في ذلك أحكام شرعية كثيرة تجتمع كلها عند أن تحفظ هذه الغائية قائمة في النفس، مثل ما جاء من نهي مغلظ على القنوط من رحمة الله واليأس منها، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَمُودِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾³⁴، فالْيَاسُ من رحمة الله أن يشعر اليأس بأن حياته لم يبق لها من غاية، وكما كان التحريم المطلق لأن يقتل الإنسان نفسه انتحارا.³⁵

فحفظ غائية الحياة مقصد شرعي من الضروري استصحابه في واقع اليوم لانتشار الأفكار التفكيكية والعبثية التي تفضي إلى إلغاء أي غاية من وجود الإنسان والكون.

الفرع الثاني: حفظ حرية الإنسان.

خلقت الموجودات الكونية كلها مسوقة إلى مصائرهما على سبيل الحتم، إلا الإنسان فقد خلق بإرادة حرة يختار بها مصيره، وهو معنى قوله جل وعلا: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ

30- المصدر السابق، بتصرف، ص100.

31- سورة المؤمنون، 115.

32- سورة القيامة، 36.

33- مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبد المجيد النجار، ص102، 103.

34- سورة الزمر: 53.

35- مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبد المجيد النجار، ص103، 104.

وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ فَأَيُّهَا أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٣٦﴾ وهذه الأمانة حملها الإنسان دون كل الموجودات بناءً على إرادته الحرة التي بها كان إنساناً.³⁷

وحينما تطرأ على النفس عوامل الاستبداد فإنها تفقد قدرتها على الانطلاق فيما تريد لتبدع في الفكر أو في القول والعمل، وهذا عائق على القيام بواجب التعمير، إذ التعمير لا يكون إلا بالمبادرة والابتكار، وأما الارتهاق النفسي لإرادة خارجية فإنه مكبل للإنسان، وهو أحد مقتضيات قوله تعالى: ﴿مَرْبَبَ اللَّهِ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾.³⁸ فالذي ضرب به المثل عاجز، وسبب عجزه هذه العبودية التي سلبت حريته.³⁹

ولعل جامع الأحكام الشرعية التي وضعت لتحقيق مقصد حفظ الحرية هي تلك الأحكام المتعلقة بالرق، لتنتهي في جملتها إلى التضيق في مداخله وأسبابه، وتتفرع على تلك الأحكام أحكام أخرى كثيرة تلتقي عند ذات المقصد الذي هو حفظ الحرية، كالحكم بحرية المعتقد، حرية التفكير، حرية العمل، التنقل، وتحريم الاعتداء على الحريات الشخصية بانتهاك حرمة البيوت والدخول إليها بغير إذن.⁴⁰

فقد كان مقصد حفظ الحرية مطلباً شرعياً ملجأ في العصر الحاضر، لتحقيق المقصد العام هنا وهو حفظ إنسانية الإنسان، عن طريق حفظ فطرته وكرامته، وغائية الحياة، ليتحقق بكل هذا مقصد حفظ قيمة الحياة الإنسانية، كمقصد شرعي وأساسي نص عليه النص القرآني، وعمل رواد الفكر الإسلامي على استحضاره في واقع اليوم.

خاتمة

لقد عالج عبد المجيد النجار مقصداً مهماً من مقاصد التشريع الإسلامي في إطار حفظ قيمة الحياة الإنسانية، والذي اندرج ضمن عناصر هذا الأخير وهو مقصد إنسانية الإنسان، منطلقاً من توظيفه لتنزيل النص القرآني على الواقع، ومن أهم النتائج الأساسية التي خلصت إليها هذه الورقة، والتي تأتي في إطار الإجابة عن إشكالية البحث هي:

- الداعي لإفراد هذا المقصد الشرعي هو ما آل إليه الوضع الإنساني اليوم من اعتداء على إنسانية الإنسان، فكانت الحاجة له لبيان حقيقة الحياة الإنسانية وقيمتها وغاية وجودها، ومعنى الإنسانية يحمل بعداً جماعياً متجاوزاً الإنسان الفرد إلى الإنسان النوع.
- من مقومات حفظ إنسانية الإنسان: حفظ الفطرة والكرامة الإنسانية، وكذا غائية الحياة والحرية الإنسانية.

- من مسالك حفظ الفطرة الإنسانية التي نصَّ عليها الشارع الحكيم هي حفظها من

36- سورة الأحزاب، 72.

37- مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبد المجيد النجار، ص 104.

38- سورة النحل: 75.

39- مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبد المجيد النجار، ص 105.

40- المصدر نفسه، بتصرف، ص 106، 107.

- التبديل والتغيير ، كما تحفظ بتلبية مطالها لإشباع حاجتها بتوازن.
- الكرامة هي مشترك إنساني نص عليه القرآن الكريم، لتكون بذلك مقصدا قطعيا من مقاصد الشريعة الإسلامية.
 - غائية الحياة مقصد أساسي من مقاصد الشريعة، إذ هذه الغائية مكون مكونات الإنسانية، وبإهدارها ينهدم جزء منها.
 - لقد حققت التشريعات الإسلامية مقصد الحرية ودعت للحفاظ عليه، حتى لا تتعطل ملكات الفرد فلا يعيقه ذلك عن ما هو مطلوب منه من تعمير في أرض الله.
 - جاءت الشريعة لحفظ هذه المقومات حفظا لإنسانية الإنسان، وحفظا من وراء ذلك لما كلف به من مهمة الخلافة.
- وقد خالصنا في نهاية هذا البحث إلى مجموعة من التوصيات نجملها فيما يأتي:
- ضرورة البحث والاهتمام بموضوع تنزيل النص القرآني وتوظيفه في المجالات المختلفة، لربط الناس بكلام الله، ومصاحبته لواقعهم.
 - ضرورة عقد الملتقيات والندوات والتأليف في المقاصد الشرعية فيما حاجة الناس إليه اليوم وتفعيلها للدفع بعجلة الأمة الإسلامية لركب الحضارة دون انفصال عن ما نصت عنه أي القرآن.
 - تسليط ضوء أكبر على الإنسان ، بالتذكير بما منحه الله له و الدفع بالإنسان المسلم ليكون فعّالا على مستوى العالم بنشر القيم الإنسانية التي جاءت الشريعة قاصدة لها.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- تطور التنظير المقاصدي في العصر الحديث، شوقي الأزهر، مجلة إسلامية المعرفة، السنة 23، العدد 90، 1438، 2017.
 - تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر، جائزة دبي للقرآن الكريم، ط1، 1428، 2007.
 - في فقه التدين فهما وتنزيلا، عبد المجيد النجار، (د، ن)، (د، ط)، (د، ت)، الجزء 1.
 - مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، دار الغرب الإسلامي، ط5، 1993.
 - مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، دار الكتاب المصري، مصر، دار الكتاب اللبناني، لبنان، (د، ط)، 2011.
 - مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، ط2، 2008.
 - مقاصد الشريعة، طه جابر العلواني، دار الهادي، لبنان، ط1، 1421، 2001.
 - منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية، فتحي حسن ملكاوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 1441، 2020.
- المواقع الإلكترونية:
- الموقع الرسمي لمجلة الرشد، <https://alrashad.org/author/3/>، تم الولوج للموقع يوم: 2022/10/14، الساعة: 18:07.
 - موقع مركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق، <https://www.cilecenter.org/ar/node/1128>، تم الولوج للموقع يوم: 2022/10/14، الساعة: 19:21.

تنزيل النص القرآني عند محمد عبد الكريم الجزائري من خلال تفسيره توجيهات القرآن الكريم

ط.د/ سلسبيل نصيرة، إشراف: د. هشام شوقي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة

salsabil9715@gmail.com

h.chougui84@gmail.com



مقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونؤمن به ونتوكل عليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. أما بعد:

أنزل الله القرآن الكريم على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء وخاتمهم، ليكون معجزة خالدة إلى يوم الدين، ويكون السراج المنير للمسلمين في كل زمان ومكان، وتعهده بحفظه من كل تحريف قد يصيبه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾²³ الإنسان:

فلما كان القرآن الكريم آخر الكتب السماوية ودستور حياة للبشر، حاول المفسرون في كل زمن خوض غمار القرآن والغوص في أسواره لاستخلاص الرؤى الشاملة للقرآن الكريم للمشاكل المعاصرة له.

ومن هؤلاء الأعلام المفسر الجزائري محمد عبد الكريم الجزائري الزواوي، الذي أبدى اهتماما واضحا بالقضايا المعاصرة في مؤلفاته، والتي من بينها تفسير "توجيهات القرآن الكريم". ورغم جهوده الكبير في ربط الواقع المعاصر بالدين الحنيف، إلا أن كثير من الناس يجهلون شخصه وكتاباته، لذا سنحاول من خلال مداخلتنا هذه للإجابة عن الإشكال التالي: ما ملامح تنزيل الآيات على الواقع عند محمد عبد الكريم الجزائري من خلال تفسيره "توجيهات القرآن الكريم"؟

أهمية البحث:

1. التعريف بمفسر جزائري معاصر مغمور.
2. تسليط الضوء على أحد إسهامات العلماء الجزائريين في مجال التفسير.
3. الاطلاع على بعض آرائه تجاه بعض القضايا المعاصرة.
4. إبراز مدى اهتمام محمد عبد الكريم بواقع أمته.

5. التعرف على طرق عرض المفسر للقضايا المعاصرة، وكيفية ربطه للوقائع بالآيات القرآنية.

6. التأكيد على صلاحية القرآن لكل زمان ومكان.

الدراسات السابقة:

لا توجد دراسات سابقة تحدثت عن تنزيل الآيات على الواقع عند محمد عبد الكريم الجزائري.

المنهج المتبع: استعملنا المنهج الاستقرائي الجزئي، وذلك في تتبع المواضع التي أسقط المفسر فيها الآيات على الواقع، متبوعا بتحليل أقواله وتنزيلاته.

خطة البحث:

مقدمة:

المطلب الأول: التعريف بمحمد عبد الكريم الجزائري وتفسيره.

الفرع الأول: التعريف بمحمد عبد الكريم الجزائري.

الفرع الثاني: التعريف بتفسير توجيهات تفسير القرآن الكريم.

المطلب الثاني: أنواع تنزيل النص عند محمد عبد الكريم الجزائري وأشهر ألفاظه.

الفرع الأول: أنواع تنزيل الآيات على الواقع عند محمد عبد الكريم الجزائري.

الفرع الثاني: بعض الألفاظ الدالة على تنزيل الآيات على الواقع الجزائري.

الفرع الثالث: مجالات تنزيل الآيات على الواقع عند محمد عبد الكريم الجزائري.

المطلب الأول: التعريف بمحمد عبد الكريم الجزائري وتفسيره.

الفرع الأول: التعريف بمحمد عبد الكريم الجزائري

ولد العلامة الدكتور محمد بن عبد الكريم الجزائري 25 أفريل من سنة 1924م ب "زمورة" العلم والثقافة، ولاية برج بوعريريج، توفيت أمه وهو رضيعا، ثم والده وهو لم يتجاوز السادسة من العمر.

بدأ دراسته الأولى في كتاتيب برج زمورة على يد الشيخ العربي كشاط ولكن دراسته الأكاديمية انطلقت بعد، زواجه وعمره 20 سنة على يد العلامة الجليل عمر بن أبي حفص الزموري رحمه الله، درس على يده بعض المتون، ثم تلقى علوم الفلك على يد الشيخ عبد المالك الأخضر.

عايش الحقبة الاستعمارية بكل تفاصيلها، حيث سافر إلى تونس أين مكث هناك سنة واحدة، بجامع الزيتون، ثم سرعان ما قرر العودة إلى الجزائر، أين زاول التعليم في الطورين الابتدائي والثانوي. تحصل على الماجستير ثم على الدكتوراه في الأدب العربي. بعدها سافر إلى

باريس كداعية لمدة 30 سنة . ألف أكثر من 60 مؤلفا بين التأليف والتحقيق والترجمة في شتى المجالات، أهمها:

- التفسير «توجيهات القرآن العظيم».
 - وسيرة المصطفى ﷺ «العبر والأحكام في حياة محمد عليه الصلاة والسلام».
 - جلب له بعض كتبه متاعبا لصراحتها وجراتها، نذكر منها:
 - الثقافة ومآسي رجالها.
 - المقري وكتابه نفح الطيب وهي رسالة الدكتوراه.
 - سلسلة في ميزان الإسلام.
 - الحكم الشرعي لزواج المسلم من غير المسلمة، وزواج المسلمة من غير المسلم.
 - تبديل الجنسية، ردة وخيانة.
 - مساجد الضرار من جديد.
 - فضائح تكشفها فخاخ الديمقراطية في الجزائر.
- كما له مؤلفات أدبية عديدة منها ديوان كشف الستار، كتاب دمعة الجزائر الذي أحرقه الاستعمار كما قال مؤلفه، وهو قصائد شعرية ثورية وروايات تمثيلية وقصص أدبية.

كما حقق العديد من الكتب منها:

- إتحاف المنصفين والأدباء لحمدان بن عثمان.
 - بهجة الناظر لعبد القادر المشرفي.
 - رسالة الإمام مالك بن أنس إلى الخليفة هارون الرشيد.
 - الاكتراث في حقوق الإناث، محمد بن خوخة الجزائري...
- وترجم عدة كتب:
- ترجمة مذكرات حمدان بن عثمان خوخة الجزائري.
 - ترجمة محاضرة القرآن والعلوم الحديثة للدكتور موريس بوكاي.
 - ترجمة كتاب المرأة لحمدان بن عثمان خوخة الجزائري.

أثنى عليه معاصروه وأقرانه¹؛ منهم:

1) قال عنه أبو القاسم سعد الله: "والدكتور عبد الكريم ليس غريبا عن التحقيق ولا عن الثقافة الوطنية فهو بثقافته الواسعة وتجاربه في ميدان تحقيق المخطوطات خير مؤهل لنشر هذه الآثار العلمية"².

¹ الدكتور محمد بن عبد الكريم الجزائري بأقلام العلماء والأساتذة والباحثين، بن سعيدي سمير، جامعة جيجل، العدد4، جوان 2021. 157-159.

² فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ت: محمد عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية لنشر الكتاب، دن، ص4.

2) وقال عنه سعدي بزيان: "كل ما أوردته من حديث ومواقف للدكتور محمد بن عبد الكريم، فهو وجه منير ومثقف في الثقافة الجزائرية وقد ظل وفيا للجزائر وجل ما حققه في التراث فهو عن التراث الجزائري، وفي مقدمتها المرأة"³.

وقد تولى التدريس والتعليم بمختلف المناطق بالجزائر منذ 1948م، ولمدة عشرين عاما، شرقا وغربا ووسطا، وعمل في المكتبة الوطنية في قسم المخطوطات، وبعد رحلة طويلة بين تونس وبغروت وتركيا وباريس استقر الدكتور رحمه الله أخيرا ببلده وأشرف على عديد الرسائل الجامعية، لم يقعه المرض ولا ضعف البصر عن الاجتهاد والتأليف والمراجعات.

لقي ربه صبيحة الجمعة التاسع نوفمبر 2012 م بسطيف، متأثرا بمرض الربو، ودفن رحمه الله بمسقط رأسه بزمورة.⁴

الفرع الثاني: التعريف بتفسير توجيهات تفسير القرآن الكريم.

ألف محمد عبد الكريم تفسيراً تحت عنوان "توجيهات القرآن الكريم"، من سبع مجلدات، أفرد الأول منها لمباحث علوم القرآن، فيما خصص الستة الآخرين لتفسير السور حسب ترتيبها المصحفي.

تميز التفسير بتبويب وتنظيم فريد:

1) يقدم للسورة بتعريف مختصر يذكر فيه: اسمها، مكية أو مدنية، عدد آياتها، قال: "سورة البقرة مدنية إلا آية 281 فإنها نزلت في حجة الوداع. وهي مائتان وست وثمانون آية"⁵.

2) يقطع السورة لعدة مقاطع دون أن يضع عنوان للمقطع .

3) بعد ذكر الآيات، يعنون "شرح المفردات"، ويفرده لشرح غريب المقطع، ويتجاوزه إن كان المقطع خاليا من الغريب.⁶

4) ثم يعنون "مجمل المعنى" ويقدم فيه التفسير العام للمعنى، واختلف صنيعه ابتداء من سورة غافر، فدمج بين العنوانين وصار "شرح المفردات مع مجمل المعنى"⁷.

5) ثم تأتي "التوجيهات"، وهي بمثابة مساحة يستغلها المفسر لذكر سبب النزول، والأحكام الفقهية، والتنزيلات على الواقع، واختلاف المفسرين وغيرها.

6) غلب على تفسيره التفسير بالمأثور إذ لا يكاد يخلو له قول إلا واستد عليه بنظائر من

3 وقفة مع المثقف الجزائري الراحل د. محمد بن عبد الكريم الجزائري (1912/ 2024) بمناسبة صدور أعماله الكاملة عن «دار الوعي» بالجزائر، سعدي بزيان، <https://elbassair.dz/14047>, 2022/10/30/03:22.

4 ينظر: توجيهات القرآن الكريم، محمد عبد الكريم الجزائري، مؤسسة المعالي للنشر والإعلام، ط1، 2013م، 403/1. الدكتور محمد بن عبد الكريم الجزائري وجهوده في البحث والكتابة والتحقيق والدعوة، سمير بن سعدي، مجلة

التاريخية الجزائرية، جامعة المسيلة، العدد9، سبتمبر 2018.

5 توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 32/2.

6 توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 235/5.

7 توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 509/6.

الآيات، أو بحديث أو أثر، فإن لم جد استعان بأقوال العلماء والمفسرين من قبله.
(7) "الأسلوب السهل الممتنع الذي اعتمد عليه المفسر فهو يناسب المجتهدين والباحثين
الراسخين، ويناسب أيضا الدارسين في بدايات الأبحاث والتعمق في الدراسات القرآنية،
والقارئ العادي الذي يبحث عن فهم عملي لكتاب الله من غير مشقة في الوصول للمراد"⁸.

المطلب الثاني: أنواع تنزيل الآيات على الواقع عند محمد عبد الكريم الجزائري

سنتناول في هذا المطلب الألفاظ التي استعان بها محمد عبد الكريم في تنزيل الآيات،
والمجالات التي طبق فيها تنزيلاته.

الفرع الأول: أنواع تنزيل الآيات على الواقع عند محمد عبد الكريم .

قبل التطرق لأنواع تنزيل الآيات على الواقع سنتحدث عن تعريف "تنزيل الآيات على
الواقع" كمصطلح:

عرفه عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر بـ: "هو مقابلة الأحداث المعاصرة للمفسر بما
يشاكلها في كتاب الله تعالى، سواء كانت مقابلة تامة أو جزئية أو مخالفة لما علي الآية"⁹.
وعُرف أيضا: هو ترتيب ووصل بين الوحي والواقع على معنى تبين المسالك والكيفيات
التي يأخذ بها الوحي مجراه نحو الوقوع، ويأخذ بها الواقع مجراه نحو التكيف بالزمامات
الوحي¹⁰.

ويمكن تعريفه بقولنا: هو إسقاط المفسر المؤهل المدرك للواقع، للآيات القرآنية الكريمة
على مستجدات العصر ونوازلها، بهدف استخلاص رأي الشارع فيها ومعالجة المشكلة.
أن يكون من أهل العلم الشرعي متمكن من فهم الواقع، وفهم حكم الله في الآيات المراد
تنزيلها، فيكون على دراية تامة بمعاني الآيات ومقاصدها، دون أن يخضع المفسر الوحي
لمتغيرات الواقع أو يخضع للهوى أو التعصب المذهبي والعقدي، ويكون على دراية أيضا
بالواقع ومتطلباته، بالإضافة إلى معرفة التعليل المشترك بين النازلة ودليلها المناسب لها.
كما يجب أن ينتبه المفسر المتصدي للتنزيل على الواقع، أن الأحكام الثابتة والقطعية،
والأحكام التعبدية التي لا مجال للرأي فيها ولا للاجتهاد، وكذا الأمور العقيدة لا تتغير مع
الزمان والمكان¹¹.

أما عن أنواع تنزيلات النص القرآني عند محمد عبد الكريم ؛ فهي نوعان:

⁸ توجهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 5/1.

⁹ تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، جائزة دبي الدولية للقرآن
الكريم، ط1، 2006م، ص33.

¹⁰ خلافة الإنسان بين الوحي والعقل بحث في جدلية النص والعقل والواقع، النجار، هيرندن- فيرجينيا -الولايات
المتحدة الأمريكية: المعهد العالي للفكر الإسلامي، ط3/1420هـ، ص115.

¹¹ ينظر: منهج الطبري في تنزيل الآيات على الواقع من خلال كتابه "التفسير والبيان لأحكام القرآن، خديجة سائر
الرشيد، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، 1441هـ، 131/121.

تنزيل صريح:

ذلك بأن يصرح المفسر بتمائل ما تصفه الآية الكريمة وواقعهم المعاش، ويستخلص حكما مقررًا أو نتيجة حتمية لخبر مذكور. وعرفه الضامر بقوله: "أن يصرح المفسر بأن معنى هذه الآية حاصل في زمنه وواقعه فيعبر عنها أثناء تفسيره"¹².

"أن يبين المفسر أن معنى الآية أو حكمها منطبق على واقعه، وواقعه داخل فيها"¹³.

ومثال ذلك ما ذكره محمد عبد الكريم عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارُ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ البقرة: 174.

قال مفسرنا: "أن هذه الآية تنطبق على كل من كتم الحق مختارًا وباع الباقية بالفانية وفرط بالدعوة إلى الله نزولًا عند رغبة نفسه وشهوة هواه، وبدافع ما يتقاضاه من حقير سحت دنياه، الذي طالما أعماه عن إِبصار الحق وأصماه"¹⁴.

تنزيل خفي:

هو أن يعي المفسر نازلة من نوازل عصره لكن لا يصرح بتطابقها مع الآية وإسقاطها عليها، بل يكتفي بذكر الحكم والتفصيل فيه تفصيلًا يذهب اللبس عن القضايا المستجدة ويجعلها واضحة بينه.

وعبر عما يقاربه الضامر بتنزيل التلميح، وجعله خاصًا بالتنزيل في حالة تردي الأوضاع السياسية وترصد الحكام بالعلماء والبطش بهم، حيث قال: "هو أن يشير المفسر إلى معنى هذه الآية حاصل في زمنه وواقع دون أن يصرح بذلك بل يورده على سبيل التعريض والتلميح"¹⁵.

ومثال التنزيل الخفي عند محمد عبد الكريم، ما ذكره في توجيه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ آل عمران: 20، قال: "أن محاجة الكافرين والملحدين ومجادلتهم في دي في دين الله قد لا تجدي المسلمين نفعًا، ولا يرجى منها ارعواء المعاندين والمخاصمين؛ إذ كان كفرهم وإلحادهم عن عناد مستمر، ونكران للحق المبين، ومع ذلك فالمسلمون مطالبون بمجاراتهم ودعوتهم إلى دين الله الحق

¹² تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، مصدر سابق، ص71.

¹³ منهج الطريفي في تنزيل الآيات على الواقع من خلال كتابه "التفسير والبيان لأحكام القرآن، خديجة سائر الرشيد، ص133.

¹⁴ توجهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 236/2.

¹⁵ تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، مصدر سابق، ص72.

بالحجة والعقل والمنطق وأدلة الإقناع وإظهار محاسن الإسلام لهم¹⁶.

ذلك والله أعلم رد لما تعيشه الساحة من كثرة السجلات والمناظرات التي لا فائدة منها سوى تظليل الناس ومحاولة فتنهم، بطرح شبهاتهم وأباطيلهم بدعوى البحث عن الحق.

الفرع الثاني: بعض الألفاظ الدالة على تنزيل الآيات على الواقع.

وظف المفسر العديد من العبارات أثناء إسقاطه لبعض الآيات على واقعه، في محاولة منه لاستنباط أحكام شرعية أو سنن كونية أخبر عنها القرآن الكريم، من شأنها أن تحسن حال المسلمين وتصلحه انطلاقاً من نظرة قرآنية. ومن العبارات المستعملة، نذكر ما يلي:

1. وهي مشاهدة للعيان في زماننا الحاضر:

وهي من أقوى العبارات الصريحة في ربط الآيات بحاضر المفسر ووقائعه، ومثال ذلك: استخدامها في قوله: "وهي مشاهدة للعيان في زماننا الحاضر عندما نرى حكومة إسرائيل تسرع إلى افتداء يهودي واحد بأكثر من ألف مسلم"¹⁷.

2. عصرنا الحاضر:

وهي كذلك من العبارات الصريحة الدالة على تنزيل الآيات على عصر المفسر، ومثاله قوله: "وأكثر من هذا أننا مازلنا في عصرنا الحاضر نسمع ونرى استمرار الحوار الجاري بين القساوسة المسيحيين والمتعلمين من علماء المسلمين الرسميين في شأن صحة العقيدتين، واعتراف كل فريق منهما بصحة عقيدة الفريق الآخر"¹⁸.

3. تنطبق الآية:

ومثال استعمال هذه الجملة في الدلالة على التنزيل، قوله: "أن هذه الآية تنطبق على أدعياء التصوف الذهني والاستنباط العقلي، فيدعون بذهنهم الجوال وعقلهم القوال، أنهم استطاعوا أن يصيبوا هدفهم المرغوب"¹⁹.

4. مُشاهد:

هذه المفردة ليست في قوة ما قبلها، لكن توحى بمعاصرة المفسر لأحداث أخبرت عنها الآيات القرآنية منذ قرون، ومثال ذلك: "أن السحر مضر بالساحر والمسحور معا، وليس فيه أية فائدة لأي منهما وهو مؤثر في المسحور حسبما توارت به الآثار والأخبار وحسبما هو مشاهد بين الناس زماناً ومكاناً"²⁰.

¹⁶ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 25/3.

¹⁷ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 126/2.

¹⁸ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 182/2.

¹⁹ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 144/4.

²⁰ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 149/2.

5. زمانا ومكانا:

وهي عبارة دالة على استصحاب الحال والحكم المنصوص عليه في الآية إلى زمن المفسر وما بعده، وغالبا ما يكون معالجة لواقع معاش، أراد المفسر من خلال استصحابه تذكير الناس وتنبيههم، مثاله: "والخطاب عام وشامل لجميع المكلفين والمكلفات زمانا ومكانا"²¹.

6. سائر الأجيال:

وهي من العبارات خفية الدلالة على تنزيل الآيات على مستجدات عصر المفسر، ومثالها: "وأن الله تعالى سعى اليهود قتلة لرضاهم بفعل أسلافهم، وإن كان بينهم نحو سبعمائة سنة. وليقس هذا على سائر الأجيال"²².

7. استعمال ألفاظ معاصرة

وقد يستعمل المفسر بعض الكلمات المتداولة في عصره، في ضرب الأمثلة تدليلا منه على إلحاقها بحكم الآية ومن هذه الكلمات: "دول المسلمين"²³ "صداقة بين الدولتين"²⁴، "رشاوي سافرة"²⁵، "السبحة"²⁶، "فتصير لفظة سيد سي ولفظة سيدة ست"²⁷، "القرعة"²⁸ وغيرها من الألفاظ.

الفرع الثالث: مجالات تنزيل الآيات على الواقع عند محمد عبد الكريم الجزائري:

كان محمد عبد الكريم الجزائري لا يفوت فرصة للحديث عن أي خلل أصاب الأمة الإسلامية، أو عن حكم شرعي ألحت الحاجة إلى إعادة التذكير به خاصة ذاك الذي تناسته الشعوب وغفلت عنه. وهو في ذلك تارة يعبر عن القضايا المعاصرة تصريحاً فينتقد الحال ويقترح الحلول، وتارة يلمح إلى الإرشادات دون تمحيص للحال.

فالتأمل لتفسيره يلحظ تنوع المجالات التي حضرت باهتمام اصلاحي تبليغي لدى د. محمد عبد الكريم، ومن أبرز هذه المجالات، ما يلي:

المجال الحربي:

اهتم المفسر باستخلاص بعض الأحكام من آيات الغزوات والأخبار، التي اهملها معاصروه في تعاملاتهم مع العدو، ومن بينها، التعامل مع الأسرى فعند تفسيره لقوله تعالى:

²¹ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 2/238.

²² توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 3/195.

²³ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 2/181.

²⁴ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 2/181.

²⁵ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 3/272.

²⁶ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 3/207.

²⁷ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 3/50.

²⁸ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 3/54.

﴿ ثُمَّ أَشْهَرُ هَؤُلَاءِ تَقَتَّلُوا أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْمَذْوَإِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّرٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيَّ أَسْفَى الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِفَاعِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: 85. حيث انتقد التخاذل العربي اتجاه الأسرى المسلمين في فلسطين وغيرها، وتناسهم الحكم الشرع القائل بالمسارعة في افتداء الأسرى وفكهم من قبضة العدو، في مقابل تمسك بني إسرائيل بتشريعهم، ومحاولتهم المستميتة في تحرير الأسرى في أقرب الأجال، حيث قال: إن إنقاذ الأسير وفك أسره كان واجبا شرعيا عند بني إسرائيل ولذلك قد كانوا حرصين كل الحرص على إنقاذ كل من وقع منهم في الأسر ولو كلفهم ذلك ما كلفهم من دفع أموال كثيرة وتعويضات ثمينة في مقابل إنقاذ يهودي واحد، لما جاء في التوراة إنك لن تجد مملوكا من بني إسرائيل إلا اشتريته فأعتقه، وهذا الأمر ما يزال معمولاً به في شريعة بني إسرائيل إلى يوم يبعثون، وهذه الحقيقة منطبقة عندهم إلى أبد الأبدين وهي مشاهدة للعيان في زماننا الحاضر عندما نرى حكومة إسرائيل تسرع إلى افتداء يهودي واحد بأكثر من ألف مسلم قد وقعوا أسرى في قبضتها ونشاهد عكس ذلك، عندما نرى آلاف المسلمين لا يزالون أسارى في قبضة حكومة إسرائيل. ونرى دول مسلمة لم تحرك ساكنا لإنقاذ أبناء ملتهم، مع أن الشريعة الإسلامية توجب عليهم ذلك وتفرضه فرضا كفائيا²⁹.

قرن المفسر هنا الواقع المشاهد من حال المسلمين وحال اليهود مذكرا لهم بالحكم الشرعي في محاولة منه، لشحذ الهمم العربية الخاملة، وإيقاظ الضمير القومي الإسلامي في نفوس حكامها العملاء.

فمن أعظم ما يُنصر المظلومون به، فكاك الأسرى المسلمين من أيدي العدو؛ إما بالجهاد أو بالفداء، وقد أَعْظَمَ العلماء ذلك، وجعل الله لهم نصيبا من مال الزكاة "وفي الرقاب"، فيدخل في ذلك فك الأسرى المسلمين من الكفار، يعني: لو أن الكفار أسروا أحدا من المسلمين، وأعطيناه من هذا المال الذي تصدق به عمر لكان هذا صحيحا كما نعطيهم من الزكاة³⁰.

وأرجع المفسر حالة الضعف والهوان التي عليها المسلمون اليوم إلى خوفهم من الموت، فعند توجيهه لقوله تعالى: ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ مِنَ الَّذِينَ أُشْرَكُوا يَوْمَ أُنْذِرُ أُوْلَهُمْ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ فَرْتَضُونَ وَمَا هُوَ بِمُخْرِجِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: 95-96.

²⁹ توجهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 126/2.

³⁰ ينظر: شرح الإمام بأحاديث الأحكام (172/2)، فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام ط المكتبة الإسلامية (4/282).

قال: "كان المسلمون يطلبون الموت في سبيل الله، فتوهب لهم الحياة المرضية عند الله، وهذا ما يعاكس تماما ما عليه المسلمون في العصر الحاضر، حيث أصبحوا مضربا في الخوف والجبن عند اليهود أنفسهم، بعد أن كان أسلافنا يضربون المثل باليهودي في الخوف القاتل والجبن المستذل... هذا وإن دل على شيء فإنما يدل على أننا نحن معشر المسلمين المستسلمين قد أمسينا أخط الناس خلقا وأحقرهم مطلبا وأضيعهم ديناً، وأحرصهم على الحياة الفانية"³¹.

في مجال الأحكام:

كان للمجال الديني التشريعي حيز من تفسير توجهات تفسير القرآن، حيث حاول المفسر تصريحا وتلميحا إبراز الأحكام الشرعية التي تناساها المجتمع، أو غُيّبت قصرا بإحلال القوانين الوضعية محل التشريعات الإسلامية، بغض النظر عن الأهداف المعلنة والخفية، فكلها شرمحض حل على الأمة الإسلامية.

وقد أشار محمد عبد الكريم إلى ذلك عند استخلاصه درر قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُبْصِرُونَ﴾ البقرة: 86.

فقال: "إن العمل ببعض ما جاء في الكتب السماوية وإهمال العمل ببعض الآخر، يعد تعطيلاً لها وكفراً بما أنزل الله. وهذا أمر شائع مشاهد في جل الشعوب الإسلامية وهو فاش مطبق في جميع دولهم التي استعاضت عن أحكام الشريعة الإسلامية بالقوانين الوضعية والبيانات الشيوعية وباعت العيون الصحيحة بالعمور"³².

وإنما استحلوا استبدال أحكام الشريعة بالقوانين الوضعية بحجة تشعب القضاء الإسلامي لوجود الحكم بالمذاهب المختلفة، وعدم تنفيذ الأحكام غالباً، مع قسوة الأحكام الشرعية كالقطع والرجم³³.

واستخلص مفسرنا حكم ترجمة القرآن الكريم التي انتشرت في القرن الماضي، عند توجيهه لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ البقرة: 104.

فقال: "أن الأمر باستبدال لفظ "انظرننا" بلفظ "راعنا" يدل دلالة واضحة على منع ترجمة القرآن الكريم وعدم جواز نقله إلى غير لغته التي نزل بها، لأن بناء ألفاظه وتركيب

³¹ توجهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 139/2.

³² توجهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 127/2.

³³ ينظر: محاسن الشريعة ومساوئ القوانين الوضعية، عطية بن محمد سالم، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط: 1، 1393 هـ - 1973 م، (ص: 43).

صيفه، أمر محدود مرسوم من لدن الله الحكيم الخبير"³⁴.

وقد استقر بين المسلمين على أن الترجمة لا تعتبر قرآناً وإنما يقصد بها نقل معاني القرآن بحيث يتسنى للإنسانية الاطلاع عليها والاهتداء بتعاليمها"³⁵.

كما تحدث عن قضية الاجتماع للذكر واحتج بعموم لفظ الذكر، في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿٣٣﴾ آل عمران: 191.

قال والمعارض على الذاكرين جماعة محجوج بحجتين اثنتين: أن الكتاب والسنة قد أطلقا الذكر ولم يقيداه بالفرد والجماعة،...أن هناك أحاديث نبوية تشير إلى استحباب الاجتماع على الذكر وعلى قراءة القرآن، كقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قيل يا رسول الله، وما رياض الجنة قال حلق الذكر"³⁶.

وقد اختلف العلماء في الذكر الجماعي بين مجيز ومانع، ويرى شيخ الإسلام: أن "الاجتماع على القراءة والذكر والدعاء حسن مستحب إذا لم تتخذ ذلك عادة راتبة كالاجتماعات المشروعة، ولا اقترن به بدعة منكرة"³⁷.

في المجال الاجتماعي:

ويراد بها المشاكل الاجتماعية المستجدة في عصر المفسر، سواء تعلقت بالعلاقات العامة أو العلاقات الأسرية، والفردية.

تطرق المفسر للحديث عن أموال اليتامى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ﴿٤٠﴾ النساء: 5.

إذ أن الآية الكريمة حذرت على وجه الإطلاق إعطاء الأموال للسفهاء سواء كانوا إناثاً أو ذكوراً؛ فإنما ينجر عن ذلك فساد عظيم؛ حيث قال: "وهذا هو الظلم لعمرى بعينه، وإلقاء بالأيدي إلى التهلكة. وهذا ما قد أثبتته الواقع الملموس وأخطأت فيه التجربة محرّ المراد، وعادت على ذومها بالخسران المبين زماناً ومكاناً؛ فكم من بيوت بسفه التبذير وإهمال التدبير قد أقفرت، وكم خزائن أموال ملأى بهما نفدت، وكم دول بهما أفلست، فصيرت أيادي شعوبها هي السفلى، بعدما كانت هي العليا: عطاء وتكرماً، وقد رغب الله عباده في حفظ أموالهم

³⁴ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 160/2.

³⁵ ترجمة القرآن الكريم، أحمد علي عبد الله، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد الستون / شوال - ذو القعدة - ذو الحجة - 1403 هـ، (ص: 91)

³⁶ ينظر: توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 207/3.

³⁷ ينظر: مجموع الفتاوى، ت: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف = الشريفة، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 1416هـ/1995م، (22/523).

بحسن التدبير وصونها من التبذير؛ لأن بها قوام أجسادهم، وصلاح معاشهم³⁸.

كما تحدث أيضا عن موضوع انتشر كثير في العصور المتأخرة، الذين يسيؤون العشرة مع زوجاتهم، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكُفُّوا عَنْهُمَا وَيَعْمَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ النساء: 19.

حيث ساق العديد من الآيات الحاتئة على حسن المعاشرة، والأحاديث التي أوصى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاعتناء بالنساء ثم قال: "فعلى الرجال زمانا ومكانا أن يقتدوا برسول الله فيما يخص معاشرتهم لزوجاتهم"³⁹.

ثم أحال إلى كتب الفقه والأحكام بقوله: وقد تكفلت كتب الفقه والأحكام بما يتعلق بمعاشرة الرجال لزوجاتهم، وبمعاشرة النساء لأزواجهن، وفصلت ذلك بكل ما يقتضيه الرجل والمرأة وبينت لكل ذي حق حقه"⁴⁰.

وفي ظل الانهيار العربي بالغربي، وتميع المسلمين في الموروث العلماني حذر مفسرنا من ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿هَآئِنْتُمْ أُولَآءِ لِيُجْزَيْنَكُمْ وَتُقْمَتُمْ بِالْكِتَابِ عَلَيْهِ ءَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمْ ءَلَا تَأْمِنُ مِنَ ءَلِ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ آل عمران: 119.

حيث ذكر توجيهها في غاية الأهمية نصه: "في هذه الآية دلالة واضحة على عدم جواز استعانة المسلمين بأهل الذمة في تسيير شؤونهم، وعدم جواز استشارتهم في أي شيء من أمور المسلمين؛ كما لا يجوز تقليدهم في سياستهم وثقافتهم وحضارتهم، المبنية على أمزجتهم المعادية لشريعة الله، وهذا عام في جميع الكفار، سواء كانوا أهل ذمة أو أهل حرب"⁴¹.

وتبعاً لذات الموضوع قال عند تفسيره قول الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَآدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ المائدة: 65.

"فقد لبسنا العدو في ديارنا، واستولى على أنفسنا وأموالنا، مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضاً، واستباحة بعضنا أموال بعض... نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن"⁴².

في المجال السياسي:

ويراد بالمجال السياسي ما يتعلق بأمور الحكام مع المحكومين، سواء في العلاقات أو في

³⁸ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 3/234.

³⁹ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 3/257.

⁴⁰ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 3/258.

⁴¹ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 3/136.

⁴² توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 4/116.

لم يفت مفسرنا أن يجعل للمجال السياسي المعاصر مكانا في تفسيره، فاستوقفه قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ وَمَنْ يَكُلَّ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ آل عمران: 161.

فتحدث عن غلول الحكام بقوله: "من الغلول ما يأخذه الحكام من غير الضروريات لأنفسهم من أموال الشعوب، أو ما يهدى لهم إبان حكمهم قال رسول الله : من استعملناه على عمل فرزقناه رزقا فما أخذ بعد ذلك فهو غلول".

ثم ساق حديث عن أبي حميد الساعدي ليتوصل في نهاية قوله إلى أن استئثار الحكام بشيء من أموال الشعوب دونهم، يعد اغتصابا عقلا وشرعا، ومن غصب شيئا وجب عليه رده مع تأديبه⁴³.

وقد أبدى المفسر غضبه واستيائه من الوضع الحالي لانسحاق الحكام المسلمين نحو ما يمليه الغرب ووصفهم بالأغبياء، فقال: "وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء، وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء"⁴⁴.

كما تحدث عن السعي نحو تحالف عربي غربي ضد المسلمين، فقال إثر تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿١٣٠﴾ البقرة: 120، قال: "...هذه قاعدة ربانية مطردة زمانا ومكانا. فكيف جاز لدول المسلمين أن يوادوا اليهود والنصارى ويسترضوهم بكل وسائل الاسترضاء؟ بل قد تحالفوا معهم ضد إخوانهم المسلمين وحكمهم في شؤونهم الداخلية والخارجية وأسما هذا التحكيم صداقة بين الدولتين"⁴⁵.

الخاتمة

في نهاية هذه المداخلة توصلنا إلى مجموعة من النتائج أهمها:

محمد عبد الكريم الجزائري عالم جزائري له تأليف كثيرة تظهر اهتمامه بقضايا أمته.

❖ تفسير "توجيهات القرآن الكريم" يظهر موسوعية المؤلف، وإحاطته بكتب التفسير وعلوم القرآن، وإلمامه بالتفسير بالمأثور والعقلي.

❖ قدم المفسر التفسير بأسلوب سهل ممتنع، يجد فيه كل قارئ ضالته.

❖ ربط المفسر بعض الآيات القرآنية بحالة عصره، مستجيبا لمتطلبات مجتمعه.

❖ حاول المفسر من خلال تنزيل الآيات على الواقع ربط القارئ المعاصر بالقرآن الكريم

⁴³ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 179/3.

⁴⁴ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 137/3.

⁴⁵ توجيهات القرآن الكريم، مصدر سابق، 181/2.

وتعزيز صلاحيته لكل زمان ومكان في نفوسهم.

❖ استعمل المفسر أسلوب التصريح والتلميح أثناء التطبيق العملي لتزليل الآيات على الواقع.

❖ استعان المفسر أثناء إسقاطه للآيات على المستجدات عبارات متفاوتة الدلالة،

وألفاظ معاصرة.

❖ أغلب تصريحات المفسر في الإسقاطات كانت خاصة بالمجال السياسي والحربي، من

خلال تشخيص الداء ووصف الدواء.

❖ فصل المفسر بين تفسيره للآيات، وإسقاطاته على الواقع التي تكون دائما تحت عنوان

"التوجيهات".

المصادر والمراجع

- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط1، 2006م.
- توجهات القرآن الكريم، محمد عبد الكريم الجزائري، مؤسسة المعالي للنشر والإعلام، ط1، 2013م.
- خلافة الإنسان بين الوحي والعقل بحث في جدلية النص والعقل والواقع، النجار، هيرندن- فيرجينيا-الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط 1420/3هـ.
- الدكتور محمد بن عبد الكريم الجزائري بأقلام العلماء والأساتذة والباحثين، بن سعدي سمير، جامعة جيجل، العدد4، جوان 2021.
- الدكتور محمد بن عبد الكريم الجزائري بأقلام العلماء والأساتذة والباحثين، بن سعدي سمير، جامعة جيجل، العدد4، جوان 2021. 159-157.
- الدكتور محمد بن عبد الكريم الجزائري وجهوده في البحث والكتابة والتحقيق والدعوة، سمير بن سعدي، مجلة التاريخية الجزائرية، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، العدد9، سبتمبر 2018.
- الدكتور محمد بن عبد الكريم الجزائري وجهوده في البحث والكتابة والتحقيق والدعوة، سمير بن سعدي، مجلة التاريخية الجزائرية، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، العدد9، سبتمبر 2018.
- شرح الإمام بأحاديث الأحكام، ابن دقيق العيد، ت: محمد خروف العبد الله، دار النوادر، سوريا، ط: 2، 1430 هـ - 2009 م.
- فتح إله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ت: محمد عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية لنشر الكتاب، د.ن.
- فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام، محمد بن صالح العثيمين، ت: صبيح بن محمد رمضان، أم إسماء بنت عرفة بيومي، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، ط: 1، 1427 هـ - 2006 م.
- محاسن الشريعة ومساوئ القوانين الوضعية، عطية بن محمد سالم، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط: 1، 1393 هـ - 1973 م.
- منهج الطريفي في تنزيل الآيات على الواقع من خلال كتابه "التفسير والبيان لأحكام القرآن، خديجة سائر الرشيد، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، 1441هـ.
- وقفة مع المثقف الجزائري الراحل د. محمد بن عبد الكريم الجزائري (1912/ 2024) بمناسبة صدور أعماله الكاملة عن «دار الوعي» بالجزائر، سعدي بزيان، <https://elbassair.dz/14047>.
- مجموع الفتاوى، ت: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 1416هـ/1995م.

تنزيل النص القرآني على الواقع عند عبد الرحمن شيبان من خلال دروسه ومقالاته

ط.د/ برجيجان موعاد، إشراف: د/ علي خضرة

قسم أصول الدين - معهد العلوم الإسلامية - جامعة الوادي

Bordjihane-mouad@univ-eloued.dz

khedourah-ali@univ-eloued.dz



ملخص

صاحب العصر الحديث تغيرات في كثير من مجالات الحياة، أدى أغلبها إلى تراجع المسلمين فضاعت منهم القيادة والسيادة، فصاروا أتباع غيرهم. بعدما كان غيرهم تبع لهم، وهذا ما جعل علماء الإسلام يبحثون عن حل يعيد للأمة الإسلامية ما ضاع منها، من خلال الرجوع إلى آي القرآن الكريم، وكان للشيخ عبد الرحمن شيبان الدور الفعال في ذلك، وهو وإن لم يفسر القرآن كله إلا أنه تناول الكثير من آياته في مقالاته وفي دروسه التي سجلت عنه في حلقة في المساجد، حاول من خلالها علاج الأمراض التي يعاني منها المجتمع في وقته وواقعه الذي عاش فيه، وهو ما نهدف إليه من خلال هذا المقال وهو بيان جهوده في تنزيله للآيات القرآنية على واقعه.

الكلمات المفتاحية: القرآن، الواقع، عبد الرحمن شيبان، دروس مسجلة.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد ﷺ، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين: وبعد فإن الله تعالى زين السماء بالشمس والقمر والنجوم وجعلها نورا لم يمتد بها في ظلمات البر والبحر، وزين الأرض بالأنبياء وورثتهم - العلماء - لم يمتد بهم في ظلمات الكفر والجهل، ومن هؤلاء الورثة الشيخ عبد الرحمن شيبان - رحمه الله - أحد علماء العقد الأخير في بلدنا الجزائر، وصاحب سيرة علمية عملية حافلة، بين بلدي تونس والجزائر، تتلمذ على أيدي شيوخ فضلاء، مارس مهمة التعليم، وله عضوية في المجلس الأعلى الإسلامي، ومجمع الفقه الإسلامي الدولي، كتب الكثير من المقالات، وألقى دروس عديدة بالمسجد مفرغة في أشرطة، إلى غير ذلك من الأعمال التي مارسها في حياته ونفع به الإسلام والمسلمين مما سنتعرف عليه في هذا المقال، فمن هو الشيخ عبد الرحمن شيبان؟ وما هي جهوده في تنزيل النص القرآني على واقعه؟

وقد قسمنا البحث إلى مقدمة ومحورين، تناولنا في المحور الأول إحدى عشر أمرا متعلقا بسيرة الشيخ عبد الرحمن شيبان، أما الثاني فقد خصصناه للحديث عن المسائل

التي نزل فيها الشيخ الآيات القرآنية على واقعه.

المحور الأول: الشيخ عبد الرحمن شيبان حياته وأثاره.

يعتبر الشيخ عبد الرحمن شيبان أحد أعمدة الفكر والإصلاح في العصر الحديث، وهب حياته كلها لخدمة الإسلام، جعل القرآن الكريم غذاء روحه، ودليل كلامه؛ لرد الفتن والشبهات التي تُضرب بها بلادنا الجزائر خاصة، والأمة الإسلامية عامة، فعمل رحمه الله على ربط الكثير من القضايا الواقعية بالآيات القرآنية؛ هدفه من وراء ذلك تصحيح المعتقدات المنحرفة، وتحسين السلوك والمعاملات بين أفراد المجتمع.

أولاً: اسمه ونسبه⁽¹⁾:

عبد الرحمن بن محمد البشير بن دحمان بن السعيد بن دحمان بن شعبان، الذي أطلق عليه -شيبان- يصل نسبه إلى الأدارسة الأشراف، ولد -رحمه الله- في قرية الشرفه دائرة مشدالة ولاية البويرة في عائلة محافظة عرفت بحمها للعلم، كان أبوه ممن يتقنون اللغة العربية والفرنسية، وأمه من أسرة محافظة أصلها أمازيغي من القبائل من عرش بني منصور، سمي في بداية مولده بمحمد الصالح، ثم غير والده اسمه فيما بعد إلى عبد الرحمن نسب إلى جده من أبيه، دعا له والده عند الملتزم أن يفتح الله عليه أبواب العلم والمعرفة ليكون عالم وداعية إلى الله، فقبل الله دعائه فجعله عالماً وداعية⁽²⁾.

ثانياً: مولده:

ولد عبد الرحمن شيبان يوم 12 جمادى الأولى 1336هـ الموافق لـ 23 فيفري 1918م⁽³⁾.

ثالثاً: حياته العلمية⁽⁴⁾:

بدأ الشيخ عبد الرحمن شيبان حياته العلمية في كتاب قرينه، فكان أول ما بدأ به حفظ القرآن الكريم على يدي شيخه المختار الورثاني، ثم أخذ الأسس الأولى للعلوم التوحيد والفقه واللغة العربية على يد الشيخ الشريف السحنوني في زاوية الشيخ بن سحنون، وكان الشيخ شيبان يحدث عنها خيراً ويقول: "أنها زاوية إصلاحية خالية من البدع والشعوذة من الناحية الدينية، ومنزهة من العمالة للاستعمار من الناحية السياسية"⁽⁵⁾،

1- ينظر محمد الصديق قادري، الشيخ عبد الرحمن شيبان وجهوده في الدعوة والإصلاح، أطروحة دكتوراه، ص34. بتصرف. وينظر السيرة الذاتية للشيخ عبد الرحمن شيبان، منتدى تاريخ وعلماء الإسلام، 11 جويلية 2011.

2 - الشيخ عبد الرحمن شيبان المجاهد المربي المصلح الأديب، محمد الصديق قادري وآخرون، جامعة الأمير عبد القادر، ديوان المطبوعات الجامعية قسنطينة 2014 ص110، بتصرف.

3 - نفس المرجعين.

4- ينظر محمد الصديق قادري، الشيخ عبد الرحمن شيبان وجهوده في الدعوة والإصلاح، أطروحة دكتوراه، ص31. بتصرف. وينظر السيرة الذاتية للشيخ عبد الرحمن شيبان، منتدى تاريخ وعلماء الإسلام، 11 جويلية 2011.

5 - الشيخ عبد الرحمن شيبان وجهوده في الدعوة والإصلاح، محمد الصديق قادري، أطروحة دكتوراه، ص32.

في سنة 1948م التحق عبد الرحمن شيبان بمعهد الشيخ عبد الحميد بن باديس، وشرع في دروس البلاغة والأدب العربي، وفيه تعرّف على مجموعة من المشايخ المفكرين أمثال الشيخ العربي تبسي، وأحمد رضا حوجو، وساهم معهم في الدعوة وكتابة مقالات متنوعة في مجالات التوعية والإصلاح، أين أثمر التحاقه بالمعهد تأسيس جريدة الشعلة عام 1949م، وصنف من الأساتذة المتفوقين مع عدد من المشايخ الكرام أمثال الشيخ أحمد حماني، وعبد القادر الياجوري، وغيرهم.

رابعاً: حياته في تونس⁽¹⁾ :

التحق الشيخ عبد الرحمن شيبان بجامع الزيتونة أول مرة في سنة 1938م، وفيه تحصل المزيد من العلوم المختلفة؛ كعلم الأصول، وعلم الفقه، والحديث، والمنطق...بالإضافة إلى النشاطات الأخرى في الثقافة والسياسة، كحركة الطلاب الجزائريين التي عيّن رئيساً لها في سنة 1946م، والتي فتحت له علاقات جيدة مع مشايخ الزيتونة، ومكنته من نيل شهادة تحصيل يطلق عليها اسم التطوع تمنح للطلاب بعد سبع سنوات مختتمة بامتحان، وفي سنة 1956م بعد عودته من الجزائر إلى تونس أعطيت له مهمة الإعلام من طرف جبهة التحرير الوطني؛ ليبلغ صدى ثورة التحرير لمسامع العالم بأسره، فكتب رحمه الله في جريدة المقاومة، وجريدة الشاب الجزائري، وبقي يكتب إلى أن استقلت الجزائر في سنة 1962.

خامساً: رحلته إلى ليبيا⁽²⁾ :

في عام 1960م تلقى الشيخ عبد الرحمن شيبان -رحمه الله- دعوة من طرف جبهة التحرير الوطني متمثلة في تعيينه كرئيس وفد للجبهة، فلب النداء فخرج من تونس للمرة الثانية متوجهاً نحو ليبيا التي مكث فيها أربعة أشهر يترأس المنصب، ثم عاد بعد ذلك إلى تونس للمرة الثالثة لمواصلة النضال بالفلم مع الجبهة إلى غاية الاستقلال سنة 1962م.

سادساً: الأعمال التي مارسها⁽³⁾

بعدما عاد إلى الجزائر بعد الاستقلال تقلّد عبد الرحمن شيبان -رحمه الله- عدة مناصب كان أولها تعيينه نائباً عن ولاية سطيف، ثم ولّاه قطاع التربية الوطنية مهمة التقرير للجنة، فأشرف على منشورات وزارة التربية الوطنية، وكان أيضاً في هذه الفترة من

1 - ينظر محمد الصديق قادري، الشيخ عبد الرحمن شيبان وجهوده في الدعوة والإصلاح، أطروحة دكتوراه، ص38. بتصرف. وينظر السيرة الذاتية للشيخ عبد الرحمن شيبان، منتدى تاريخ وعلماء الإسلام، 11 جويلية 2011م.

2 - المرجع نفسه، ص34 بتصرف، وينظر السيرة الذاتية للشيخ عبد الرحمن شيبان، منتدى تاريخ وعلماء الإسلام، 11 جويلية 2011م.

3 - المرجع نفسه، ص31-35 بتصرف، وينظر السيرة الذاتية للشيخ عبد الرحمن شيبان، منتدى تاريخ وعلماء الإسلام، 11 جويلية 2011م.

الذين استدعوا لإعداد دستور الدولة الجزائرية المستقلة، وفي سنة 1964 منحت له شهادة لسانس، أما سنة 1966م فكانت مساهمة فعّالة مع وزير التربية الوطنية آنذاك أحمد طالب إبراهيمي في ترسيم اللغة العربية في منظمة اليونسكو، في سنوات السبعينات أعدّ رحمه الله سلسلة المختار ليعتمدها التعليم الجزائري، في فاتحة الثمانينات وبذات في جويلية 1980م، عين وزيرا للشؤون الدينية والأوقاف، ونظّم في هذه الفترة ملتقيات عدة في مجال الفكر الإسلامي متمثلة في:

- القرآن الكريم.
- ثم السنة النبوية.
- ثم الاجتهاد.
- ثم الصحوة الإسلامية.
- ثم الإسلام والغزو الثقافي.
- ثم الإسلام والعلوم الإنسانية.

وعضويته في المجلس الأعلى الإسلامي ومجمع الفقه الإسلامي الدولي أيضا لم تكن غائبة، ومشاركته في الندوات العلمية داخل الوطن وخارجه حاضرة، شرف الجزائر بتمثله لها إلى أن توفاه الله رحمه الله، ساهم في تأسيس معهد العلوم الإسلامية بالجزائر، كذا له سعي مشرف يذكر في جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة عند افتتاحها؛ متمثلا في تولية الشيخ محمد الغزالي رحمه الله على رئاسة المجلس العلمي فيها، وتمكينه من إلقاء حصة تلفزيونية يوم الاثنين تحت مسمى "حديث الاثنين"، أما التسعينات فلعل أبرز الأحداث فيها توليه رئاسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد وفاة الشيخ أحمد حماني في سنة 1999م، كما تولى منصب رئاسة تحرير جريدة البصائر، في سنة 2002م أعاد رحمه الله تأسيس نادي الترقى الذي أقامت دعائمه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، منحت له كلية الإمام الأوزاعي بلبنان شهادة الدكتوراه في علوم الشريعة الإسلامية في جوان سنة 2009م تقديرا لأعماله التي قدمها للإسلام والمسلمين.

سابعاً: عوامل نبوغه:

المتبّع لسيرة الشيخ رحمه الله يدرك يقينا أن جمعية علماء المسلمين الجزائريين من عوامل نبوغه، وخاصة شيخها الكبيرين رائد النهضة والإصلاح الشيخ عبد الحميد بن باديس، والمفكر الأديب الشيخ البشير الإبراهيمي، اللذين كان ههما بعث جزائر جديدة متحضرة، وأمة إسلامية راقية، تخلصت من الجهل والامية التي غرسها المستعمر وسقاها بدماء الأبرياء، فكان لفكر الجمعية ونضالها الدور الكبير في نبوغ عبد الرحمن شيبان والعمل معها ونشر أفكارها، بالإضافة للعائلة التي تربى فيها، والزواية التي بدأ دراسته فيها، والجامعة الزيتونية التي أكمل نضجه فيها كلها عوامل نبوغه وتكوينه.

ثامنا: شيوخه⁽¹⁾ :

كان لتتلمذ الشيخ عبد الرحمن شيبان على أيدي مشايخ أجلاء في كل من الجزائر وتونس الفضل الكبير في إثراء معلوماته في كل من العلوم الإسلامية واللغة والآداب، ومن هؤلاء المشايخ شيخ قريته المختار الخياري الورثيلاني، وشيخ المدرسة السحنونية الشيخ امحمد الشريف السحنوني⁽²⁾، وفي تونس أخذ العلم عن شيخ الزيتونة محمد الطاهر بن عاشور وتأثر به كثيرا، والشيخ مختار بن حمودة، والشيخ محمد الفاضل بن عاشور، والشيخ الشاذلي بن قاضي وغيرهم، ومما قاله رحمه الله: "وأعترف بالفضل لمن درّسني بالجامعة الزيتونية، وعلى رأسهم الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الذي شعرت تجاهه بعاطفة الأب على ابنه، ... ومن شيوخ الزيتونة الفضلاء الذين كان لهم فضل تكويني العلمي الشيخ محمد بوشريبة، والشيخ محمد عباس، والشيخ محمد الصالح النيفر"⁽³⁾.

تاسعا: مؤلفاته⁽⁴⁾ :

لم يعرف عن الشيخ رحمه الله كتب ألفها، وجل ما كتبه مقالات في مختلف الجرائد الجزائرية والتونسية، ودروس يلقيها في مساجد العاصمة، ولعل السبب والله أعلم حذوه طريقة الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي كان يرى أن التفرغ للتدريس أولى من التأليف لسبب الظروف التي تعيشها البلاد آنذاك، وأن تربية الأجيال أولى من تأليف الكتب، ومن الجرائد التي كتب فيها جريدة البصائر، وجريدة الشعلة، وجريدة المقاومة، وغيرها، ومن الملفت للنظر أن عدد المقالات التي كتبها الشيخ ألفت ست كتب نذكرها وهي:

- حقائق وأباطيل: طبعه المجلس الإسلامي الأعلى، ودارثالة.
- الأسرة المسلمة وتحديات العصر: طبعته دار الأمانة.
- الجزائر وفلسطين بين قوة الحق وحق القوة: طبعته دار الخلدونية.
- من هدي الإسلام: طبعته دار الخلدونية.
- سوانح في الفكر والأدب والسياسة: طبعته دار الخلدونية.
- في موكب الثورة: طبعته دار الخلدونية.

عاشرا: موضوع مقالاته:

تناول قلم الشيخ عبد الرحمن شيبان رحمه الله موضوعات متعددة خاصة بالجزائر،

1 - المرجع السابق، ص36، بتصرف.
2 - ينظر سوانح الفكر والأدب والسياسة، عبد الرحمن شيبان، جمع وتحقيق نوار جدواني، ط1، الجزائر 2012، ص372.
3 - انظر أروى النيفر، الشيخ محمد الصالح النيفر حياته وآثاره، ط1 دار لبنان 2005 - بتصرف-
4 - ينظر محمد الصديق قادري، الشيخ عبد الرحمن شيبان وجهوده في الدعوة والإصلاح، أطروحة دكتوراه، ص-41، 42. بتصرف

وبالعالم الإسلامي عموماً، سماته في الجزائر رجل يدعوا إلى الجماعة ونبذ الفرقة والخلاف، وسماته في العالم الإسلامي حرصه على تحقيق الانتصار لقضاياها، تدور مقالاته حول مايلي:

1- تصحيح المفاهيم ورد الشبه والمغالطات.

2- التربية الأسرية ومواجهة التحديات.

3- القضية الفلسطينية.

4- الإسلام وتعاليمه.

5- التربية والتعليم.

6- الفكر الإسلامي.

7- السياسة.

8- الثقافة والحضارة.

9- اللغة العربية(الأدب، النقد،...).

الحادي عشر: وفاته⁽¹⁾:

في شهر مدحه ربنا بزول القرآن قضى نحبه والتحق بالرفيق الأعلى فضيلة الشيخ عبد الرحمن شيبان، أحد فرسان الدعوة، وقادة العلم والثقافة والفكر، وكان ذلك يوم الجمعة 12 أوت 2011م الموافق لـ 12 رمضان 1431هـ، عُمر رحمه الله 93 سنة، وكان دفنه في مقبرة الشرفه نهلول بدائرة مشدالة ولاية البويرة، تاركا وراءه أربعة أبناء هم أيضا من النخبة: أطباء وهم الدكتور عبد الحميد والدكتور محمد الأمين، والدكتور خالد، والدكتور نوفل، وله بنتان حاصلتان على دكتوراه في العلوم الطبية، أما ابنه الخامس شهاب فكان أستاذا توفي في حياة والده، كما له إخوة وأخوات أشهرهم وزير الشؤون الدينية السابق الدكتور سعيد شيبان.

المحور الثاني: جهود الشيخ عبد الرحمن شيبان في تنزيله النص القرآني على الواقع

إن ما يشهده العصر الحديث من تغير وتحول أناء الليل و أطراف النهار بدا صعب المراس، وخاصة بعدما هجر القرآن كثير من الأنام كما هو مشاهد في واقعنا الحالي، فكان من الضروري بمكان بيان صلاحية القرآن الزمكانية، والحالية لهؤلاء الأنام، ليرجعوا من الهجر عنه إلى العودة إلى تعاليمه، ومن الاقتناع بوهمية واقعية غيره، إلى الاقتناع بيقين واقعيته وحده.

أولاً: مفهوم تنزيل النص القرآني على الواقع:

يطلق تنزيل النص القرآني على الواقع ويراد به: بذل المجهود من طرف عالم مسلم

1- ينظر محمد الصديق قادري، الشيخ عبد الرحمن شيبان وجهوده في الدعوة والإصلاح، أطروحة دكتوراه، ص35.بتصرف. وينظر السيرة الذاتية للشيخ عبد الرحمن شيبان، منتدى تاريخ وعلماء الإسلام، 11 جويلية 2011م.

لإيضاح العلاقة بين النص القرآني والواقع لمعالجة ظاهرة من الظواهر من خلال ما يفتحه الله عليه من الفتوحات⁽¹⁾.

تنبيه: ومن الجدير بالذكر أن الجهد الذي يبذله العالم المسلم الذي توفرت فيه شروط الاجتهاد، مقيد بالضوابط التي وضعها العلماء للتفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي المحمود، وإيضاح الحقائق العلمية اليقينية لكشف الظواهر الكونية.

ثانيا: فائدة تنزيل النص القرآني على الواقع:

- معرفة مجريات الأحداث في كل زمان ومكان وحال.
- معرفة اجتهادات العلماء والوقوف على آراء متنوعة في مسألة واحدة.
- إيضاح مدلولات الآيات وتوافقها مع واقع الناس ومعالجتها لمشاكلهم يجعلهم متمسكين بالقرآن.
- الإنسان الحضري يصبو إلى معرفة كل جديد، وخاصة إذا تعلق الأمر بقضايا تخصه، مما يجعل العلماء المجتهدين في كشف الرابط بين القرآن والواقع أشد إقبالا عليهم من غيرهم.
- رد الشبهات التي يرمى بها الإسلام-القرآن، السنة، محمد ﷺ- من طرف أعدائه الحاقدين الذين يشوهون حقيقة موافقة القرآن للواقع وصلاحيته لكل زمان ومكان وحال.

- ثالثا: منهج الشيخ عبد الرحمن شيبان في تنزيل الآيات على الواقع:

المتمعن للنظر والتفكير في طريقة الشيخ عبد الرحمن شيبان في تعامله مع النص القرآني وتنزيله على الواقع يلاحظ بأنه يحذو حذوين هما:
أولا: الانتقاء: فهو يختار من الآيات ما يوافق موضوعه الذي هو بصدد الحديث عنه، ليعالج بالآية القرآنية قضية واقعية، وقد يدعم ذلك بأحاديث نبوية شارحة للآية، وقصص واقعية فمثلا في حديثه عن التحاكم إلى المحاكم والقوانين الوضعية التي أغنانا الله عنها بالقرآن الكريم، والسنة النبوية يستدل بقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: 65].

قال: "في هذا الزمان إذا اختلف الناس في بعض الأمور يذهبون إلا المحكمة يعني يرفعون قضية وكل واحد منهم يتخذ محاميا يدافع عنه، القاضي هو الله تعالى، لا يرضى حتى يقبل الفرد بأن الله تعالى هو الذي يحكم والرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي يرجع إليه في القضايا، فيه حادثة ذكرت أن شخصين اختلفا فاحتكما إلى سيدنا عمر بن

1 - تعريف من اجتهادي حاولت فيه تقريب مفهوم تنزيل النص القرآني على الواقع، مع مراعاة التنبيه الذي أشرت إليها تحت التعريف.

خطاب ﷺ، وقد احتكما قبل ذلك إلى النبي ﷺ فوافق المحكوم له، وعند حضورهما عند عمر بن خطاب ﷺ سأل عمر المحكوم له فأخبره بما حصل في ذلك وقد تأكد من صحة ما قيل من عند المحكوم عليه، فاستل سيفه فضرب المحكوم عليه فقتله عقاباً لعدم قبوله حكم النبي ﷺ، لما يصدر حكم من الرسول ﷺ لا بد أن يقبل دونما أن يتحرك شيء في النفوس، ودونما غضب، لا بد أن يسلموا له" (1).

ثانياً: الإشارة: من خلال دروسه وكتاباتهِ يلمح إلى أن الظاهرة أو القضية التي يتكلم عنها والتي تمارس في عصره بصورة ما، أو يعيشها المسلمون مخالفةً لمذلول الآية ومعناها، فلو رجعوا إلى القرآن الكريم لكان خيراً لهم فمثلاً عندما أتى على الكلام حول العزة التي فقدها المسلمون قال: "لماذا المؤمنون الذين وعد الله أنهم أعزاء نراهم اليوم أذلة؟! كنت قد أشرت في مناسبات سابقة لذلك، لقد تأملت في القرآن الكريم، فوجدت سرّاً في سورة آل عمران في الآية يقول الله تعالى فيها مخاطباً المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (102) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران 102-103]" (2).

ثالثاً: تنزيل الآيات على الواقع في دروس الشيخ عبد الرحمن شيبان.

عرف الشيخ عبد الرحمن شيبان - رحمه الله - بحبه للقرآن الكريم وتعلقه به شرحاً وتشجيعاً لتعلمه وتعليمه، وبالمقابل لم يكن غافلاً عن مجتمعه وواقع عصره وما يحدث فيه؛ التنصير، والفتن، والدعوة إلى الأخلاق السيئة عبر وسائل الإعلام، هذا داخلياً، أما خارجياً؛ فالحدائث، والعولمة، والتحرر، والإرهاب، والحروب العربية، كل ذلك لم يكن ليخفى عن مجاهد مفكر مصلح مثل الشيخ عبد الرحمن شيبان، لقد كان - رحمه الله - طبيباً يصف الدواء، وصيدلياً في نفس الوقت يصرف الدواء، فقد كان يتأمل في القرآن الكريم عن أسباب الأمراض التي يعاني منها واقع المجتمع الجزائري، وأمة الإسلام، وكذا يبحث عن دواءها من المنبع نفسه لمعالجتها، فبيّن بذلك أهمية القرآن في معالجة الواقع.

وسنركز في هذا العنصر على بعض المواضيع التي أجرى فيها الشيخ المقارنة بين نصوص القرآن الكريم والواقع المعاصر له من خلال دروسه ومقالاته، والتي وجدناها شملت المسائل التالية:

1- العقيدة الإسلامية وسط بين طرفين متناقضين:

لما أتى الشيخ عبد الرحمن - رحمه الله - على ذكر قصة امرأة عمران وولادتها لمريم

1 - درس ألقاه الشيخ عبد الرحمن شيبان في مسجد حيدرة بالجزائر العاصمة يوم الجمعة 11 جمادى الأولى 1429هـ الموافق لـ 16 ماي 2008م.

2 - المصدر نفسه.

البتول، وميلاد عيسى عليه السلام من مريم بغير أب قال: "الشاهد هنا أن المسلمين لم يقولوا مثلما قالت اليهود، ولم يبالغوا كما بالغ أهل عمران في قولهم أنه ابن الله، وهي عقيدة المسيحيين اليوم قائمة على ثلاثة عناصر، الله ، الولد، وروح القدس، فهم يقصدون بهذا أن الله تعالى ثالث ثلاثة عناصر، فقال عنهم القرآن: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 73]، كافر من قال إن الله ثالث ثلاثة، أمة محمد ﷺ موقفها لا مع اليهود الملاعين، ولا مع النصارى..."⁽¹⁾ ثم يستأنف كلامه بنموذج واقعي عن بعض أبناء بلده الجزائر قائلا: "في الجزائر، جزائر مليون ونصف المليون شهيد، جزائر القراءان الكريم، جزائر السنة النبوية، لنا إخوان وأخوات تركوا دين محمد ﷺ ويدخلون في أوهام لا أقول دين عيسى - عليه السلام- كونه دين لم يبق، ونحن لن نكون مؤمنين إلا إذا أمانا بعيسى وجميع الرسل، لو كان أولادنا يقرؤون هذه الآية في المدارس ما كان لياتهم أحد فيصدقونه، إذا تعلم الولد العقيدة الصحيحة، ما هو الإسلام ؟ على ماذا يقوم؟ كيف يكون لله ولد؟! ندعو الله تعالى أن يعصم أبناءنا وبناتنا من الإغراض عن دين محمد ﷺ الذي به يسعدون في دنياهم وآخرتهم"⁽²⁾.

2- العزة والكرامة بقاؤهما وضياعهما:

إن الواقع المرير الذي آلت إليه الأمة اليوم، من تخلف في كثير من مجالات الحياة، وفقدتها لعزتها، جعل علماء الإسلام يبحثون عن كيفية الخروج من هذا التخلف، والرجوع إلى تلك العزة والتمكين والنصر، ويظهر هذا من خلال دعوتهم وكتابتهم ونصحهم لأئمة المسلمين وعامتهم، والشيخ عبد الرحمن شيبان واحد من هؤلاء العلماء المصلحين الذين بذلوا جهودا جبارة في سبيل تحقيق النصر والتمكين في الأرض لأمة الإسلام، وتوجيههم إلى ما فيه سعادة دنياهم وآخرهم من خلال بيان معاني النصوص القرآنية، ومن أمثلة ذلك تفسيره لقوله تعالى في سورة المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8]، العزة لمن؟ الله خالق الكون وللرسول وللمؤمنين، الموصوف بالعزة هورب العزة سبحانه وتعالى ورسله في طليعتهم محمد ﷺ، والمؤمنون بما جاءت به رسالة محمد، وأتباع الأنبياء كلهم، لما نتأمل هل للمؤمنين عزة؟! نأخذ مثلا واحدا بيت المقدس الذي كان قبلة المسلمين والمسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، هذا البيت هوبين أرجل اليهود ألعن أمة في الأرض، أين العزة للمؤمنين؟! لماذا المؤمنون الذين وعد الله أنهم أعزاء نراهم اليوم أذلة؟! كنت قد أشرت في مناسبات سابقة لذلك، لقد تأملت في القراءان الكريم، فوجدت سراً في سورة آل عمران في

1 - درس ألقاه في مسجد حيدرة بالجزائر العاصمة، يوم الجمعة 20 ربيع الأول 1429 هـ الموافق لـ 28 مارس 2008م.

2 - المصدر نفسه.

الآية يقول الله تعالى فيها مخاطباً المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 102-103]، أعبدوا الله أكمل ما يمكن أن تعبدوه... اثبتوا على العبادة ليس لعام أو اثنين، بل لابد أن تكونوا ثابتين على ما جاء به الله تعالى ونبيه من عبادات وعقائد، وموتوا على ذلك حتى تلقوا الله هذا الشرط الأول، أما الشرط الثاني فتمسكوا بالوحدة، وكونوا موحدين... لأن الوحدة تأتي بالقوة، والقوة تأتي بالعزة، العزة ليست للضعيف، العزة تكون للقوي والقوة بما تكون؟ تكون بالوحدة، أمة متفرقة أمة ضعيفة، والأمة الضعيفة تكون ذليلة، نحن نرى تأييد للصهاينة ما حصل من قبل، اليهود رغم تفرقهم في الأوطان لكن رأيهم جامع ويتعاونون بينهم بالأموال والسياسة في كل مكان وزمان، الله تبارك وتعالى اشترط حتى تكون العزة كما أخبر في سورة المنافقين اشترط شرطين:

- أن نكون مؤمنين ونبقى على الإيمان حتى نلقى الله.

- وأمرنا بالوحدة.

فالله تعالى وضع قوانين فمن اتبعها أفلح، ومن انحرف عنها ضل وساء حاله⁽¹⁾.

3- التنافس يكون في الإصلاح لا في الإفساد:

لا يخفى على كل عاقل في العصر الحديث أثر الرياضة على النفوس، وخاصة كرة القدم وبالذات المباراة التي حصلت بين منتخبي الجزائر ومصر بأم درمان حيث وصل الأمر بالجمهور الكروي إلى السب والشتم والضرب، كتب عنها الشيخ عبد الرحمن شيبان قائلاً: "...فالإطار الصحيح للتنافس الرياضي خصوصاً، وأي تنافس آخر، أن يكون مدعاة للبناء لا للهدم، والسمو لا للانحطاط، لهذا دعا الله المؤمنين في الآية ستة وعشرون من سورة المطففين إلى التنافس فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ سُبُلَ الْمُتَفَقِّهِينَ الَّذِينَ هُمْ يُخَالِفُوا بِحُكْمِ اللَّهِ فَرِيقٌ فِيهَا كُفْرٌ كُفْرًا بَدِيعٌ قَلِيلٌ يُتْلَىٰ وَهُوَ أَشْدُّ مِنْ عُذُقِ الْحَصَىٰ أَن يَزِلَّ عَنْهُ وَالصَّفَاتُ السُّفَىٰ وَالْأَفْئِدَةُ الْهَضْبَىٰ وَالْأَبْصَارُ الْهَارِبَةُ وَالْأَنْفُسُ الْكَافِرَةُ﴾ [المطففين: 26]، لكن إذا ترتب عن التنافس التباغض والتحاسد، الذي يفضي إلى إفساد ذات البين، ويضعف الروابط التي تصل بين الطرفين، ويشعل فتيل الفتنة بينهما، فإن ذلك يخرج التنافس عما شرع له، وأقيم لأجله، فيصبح تحاسدا لا تنافسا، وذلك ما حذرنا رسول الله ﷺ منه، دفعنا لما ينجر عن التحاسد من ويلات التباغض التي تكون وبالا على الطرفين، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك ؓ في كتاب الأدب، في باب ما ينهى عنه من التدابر والتحاسد، أن رسول الله ﷺ قال: "لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم

1- درس ألقاه الشيخ عبد الرحمن شيبان في مسجد حيدرة بالجزائر العاصمة يوم الجمعة 11 جمادى الأولى 1429هـ الموافق لـ 16 ماي 2008م.

أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاثة أيام⁽¹⁾، ولذا فإن ما نراه من تداعيات جد مؤسفة المترتبة عن هذه المنافسة الرياضية، مناف لتأخي الشعبين الشقيقين، ويهدد مصالحهما بشكل خطير، لا يخدم إلا أهداف العدو الحقيقي، الذي يترصب بهما معا، فضلا عن كونه مخالفا لما أمر به رسول الله ﷺ من وجوب التأخي بين المسلمين... وليدركا أن النصر الحقيقي الذي تريده الأمة، من أدناها إلى أقصاها، إنما يتمثل في هزيمة العدو وإجلائه عن كل شبر من البلاد العربية والإسلامية، لا مجرد فوز في مقابلة رياضية بين شقيقين، وأن الهزيمة التي تخشاها الأمة فعلا وترفضها، هي تلك التي تتمثل في انخدالنا أمام العدو، وتمكينه من استباحة أرضنا وعرضنا، لا مجرد انهزام في مباراة كروية، لا تهدم بنيانا، ولا تقتل إنسانا⁽²⁾.

4- التحذير من إلغاء العقوبات الشرعية التي جاء بها النص القرآني:

كثير من الناس من يتكلم عن التحضر والتقدم وهم بعيدين بتفكيرهم عن منهج القرآن الكريم في هذا المجال والأمر أنهم يعتقدون أن العقل الإنساني الضعيف قد يجد أشياء تلاءم عصره وواقعه أفضل مما جاء به القرآن الكريم، فجاء الرد من الشيخ عبد الرحمن شيبان قائلا: "أسمح العاقل لنفسه بأن يتصور ويعلن أن عقوبة بشرية أرضية قد تكون أردع للقتلة السفاكين وأنسب لحقوق الإنسان من الآية القرآنية التي تجاوزها الزمان، كلاً والله فلا يصدر هذا القول من عقل واع وقلب مؤمن يعلم أن الزمان مخلوق لا يتجاوز أحكام خالقه"⁽³⁾، وبهذا وغيره في كثير من الجرائد في مقالاته ردّ الشيخ رحمه الله تعالى على أولئك الذين يزعمون أن عقوبة القصاص قديمة تجاوزها الزمن، وأنها تنافي حقوق الإنسان، ويبن لهم أن تؤهم هذا لا يمكن أن يحقق مقصد ردع الجريمة وحفظ الدماء والأنفس، فقال -رحمه الله-: "أقول لهؤلاء هل السجن أردع من الإعدام... فإذا أردنا أن ينتفي القتل في المجتمع يجب أن نقتص من القاتل"⁽⁴⁾. وكل هذا الكلام ذكره -رحمه الله- في معرض حديثه عن عقوبة القصاص الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179].

5- التحذير من مخالفة النصوص القرآنية أثناء إصدار القوانين الوضعية:

شغلت قضية الزواج بالولي أو بدونه كثير من منابر العصر الحديث سواء القانوني، أو الاجتماعي، أو السياسي، فكان لابد من منبر العلوم الإسلامية أن يدلي بدلوي رأيه في هذه المسألة التي كادت أن تعم بها البلوى، وكان ممن تكلم من علماء المنبر الإسلامي في هذه القضية الشيخ عبد الرحمن شيبان، فوقف رحمه الله موقفا صارما في عدم إلغاء ركنية

1 - أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير، حديث رقم: 6065، 19/8.

2 - عبد الرحمن شيبان، نعم للتنافس لا لتحاسد، موقع جريدة البصائر، <http://www1.albassair.org>

3- جريدة البصائر العدد 305، في تاريخ 11-18 سبتمبر 2006 م، ص 1.

4- جريدة الخبر، في تاريخ 14 جانفي 2009 م، ص 6.

الولي من أركان الزواج، بل أكد بأن صحة الزواج متوقف على توفر هذه الركنية، ورد شبهة من ألصق إسقاط الولي في الزواج بالمذهب الحنفي قائلا: "بأن الأحناف لا يتساهلون في ركن الولي بل قيدوا المسألة إذا غاب الولي بشروط تخص كل من الزوج والزوجة؛ كالبلوغ، والرشد، والكفاءة، والأخلاق وغيرها، حسب ما أفتاه به مفتي سوريا أحمد بن محمد الأمين كفتاروا، وقال بأن ما ذهب إليه الجمهور في المسألة مقدم على ما انفرد به الأحناف في علاج هذه المسألة"⁽¹⁾، كما استدل -رحمه الله- لكلامه بنص من القرآن في سورة البقرة وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 232].

واستدل بحديث رسول الله ﷺ "لا نكاح إلا بولي"⁽²⁾، ولم يخيب الله سعي الشيخ عبد الرحمن بل وفقه وسدده، وأعلن وطنيا من طرف مجلس الوزراء عدم إلغاء ركنية الولي من أركان الزواج وشروطه، وكان ذلك في عهدة الرئيس الراحل عبد العزيز بوتفليقة سنة 2005م.

6- كيفية التعامل مع الأفكار الوافدة والمذاهب الحديثة التي غزت المجتمعات الإسلامية:

لفت انتباه الشيخ عبد الرحمن شيبان -رحمه الله- بعض أفكار مخالفة لهدى القرآن الكريم والسنة النبوية في وقته، غزت عقول أبناء المجتمع المسلم عبر مواقع، وإذاعات، وكتابات، فأراد -رحمه الله- تحذيرهم من كيدها وشرها، والأخذ بأيديهم إلى بر الأمان؛ إلى نصوص الوحي وتعاليمه التي تحقق لهم النجاة في الدارين، فجاء رده على الدعوة إلى التحرر، والتحلل باسم المدنية والحضارة كافيا وافيا، فقال: أن المسلم مطالب بأن يحيا مع المؤمنين أخا وأن يتعايش مع غيره إنسانا يعطي للناس ما يفيدهم ويأخذ من الناس ما يفيد من غير استعلاء وتطاول ولا استخذاء وإصغار"⁽³⁾ وكان هذا الكلام في معرض حديثه عن العولمة التي قال فيها: "إن التعامل مع العولمة أو العالمية أمر يوجب الدين والعقل معا، وإن الفوز في ذلك لمن يكون له رصيد حضاري أثيل من ناحية، ويتخذ الحطة من أن يتلعه المبتلعون، من المعتدين الأثمين من ناحية أخرى"⁽⁴⁾ وهكذا حاول الشيخ عبد الرحمن شيبان -رحمه الله- إعطاء صورة للوافد من بلدان غير إسلامية، وكيفية التعامل معه خلال الاستعداد بالعدة التي يتطلبها ذاك الواقع، من تسليح بالعلم والقوة التي تقيه من استغلال

1- الأسرة المسلمة وتحديات العصر، ص 199-200.

2 - سليمان بن داود، مسند أبي داود الطيالسي، تحقيق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر - مصر، الطبعة الأولى، 1419 هـ - 1999 م، ج 3، ص 73، رقم الحديث: 1566.

3 - عبد الرحمن شيبان، سوانح في الفكر والأدب والسياسة، ص 195.

4 - المصدر نفسه، ص 199.

الآئمين له، وهذا مصداق قوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ ...﴾ [الأنفال:60].

7- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب لإصلاح الواقع:

لما أتى الشيخ رحمه على شرح حديث الرسول ﷺ: إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها⁽¹⁾، ذكر منه الله على أمة محمد ﷺ بأن جعل لهم وفيهم رسولا منهم، صاحب ولادته إرهابات، وأيده بمعجزات كان أعظمها القرآن وخير ما أعطاه الله للإنسانية، فهو المعجزة الخالدة الباقية، بل بسببه جعل الله هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر⁽²⁾، ويظهر من كلام الشيخ -رحمه الله- أن الصلح الذي حصل للإنسانية كان بفضل هاتين الشعبتين -الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- الذي جاء به القرآن، وبلغه فرسان القرآن في أنحاء العالم.

8- الاهتمام بالإنفاق ونبذ الشح لصلاح الواقع:

في معرض قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولِيَاءُهُ إِلَّا الْمُتَفَقُّونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:34]، استدل الشيخ عبد الرحمن شيبان -رحمه الله- بهذه الآية ميّنا قيمة المال وأثره في تغير حال الواقع، من السوء إلى الأحسن، سواء في السلم، أو في الحرب، فقال: "فليحذر الأغنياء من أن يبخلوا بما أغدق الله عليهم فليحذروا العذاب الذي ينتظرهم في الوعيد القرآني الشديد"⁽³⁾.

9- التذكير بصفات خير الأنام ﷺ:

أدرك الشيخ عبد الرحمن شيبان -رحمه الله- أن الصفات الحميدة أحد عوامل الاستقامة والبعد عن الانحراف؛ لذا وظف أثناء كلامه عن صفات الرسول ﷺ الحميدة آية من القرآن الكريم مفادها فضل صفاته عليه الصلاة والسلام في التنفير

من الكفر، وحلول الشفقة والرحمة بين أفراد المجتمع، ففي تفسير قوله تعالى ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة:129]، يذكر العرب بفضل الله عليهم، وشرفهم أن بعث فيهم رسولا منهم، يتألم لألمهم، ويحرص على نفعهم، وإبعاد الشر عنهم، شفيق بهم ورحيم قائلا: "تشريف لهذه الأمة، المولى تعالى اختار أمته من بين الأمم واختار له الجو الذي يلائم نشر هدايته في العالمين، وله خمس صفات أولها من أنفسكم أي ليس من غبركم، ثانيها عزيز عليه ما عنتم أي شديد عليه ويتألم من

1 - أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، الرقم 4291، ص 4291.

2 - درس ألفاه الشيخ عبد الرحمن بمسجد القدس حيصة الجزائر العاصمة يوم الجمعة 09 ربيع الأول 1444هـ، الموافق لـ 01 جوان 2001م، بتصرف.

3 - عبد الرحمن شيبان، جريدة البصائر، العدد 150 بتاريخ 30 جوان- 05 جويلية 2003، ص- 03 بتصرف.

الشر الذي يصيبكم مثل الأم والأب لولدهما، محمد ﷺ يشق عليه أن يرى أمته في شر وبؤس، حريص عليكم أي حريص على هدايتكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم، ما هي الرأفة والرحمة؟ الرأفة هي الشفقة مثلاً إذا عندك شفقة على ولد رأيته أمامك يتألم، إذا أشفقت عليه تسرع لحمله وطمئننته، والذي ليس له رحمة يتركه، الرحمة تتبع الشفقة تتبع الرأفة، لا يرحم من لا يرأف، الذي لا يشفق على الناس، محمد رؤوف بالمؤمنين ويدعو الله أن يرحمهم، اللهم اجعلنا ممن يشفق عليهم النبي، المولى وصف نبيه بصفتين من صفاته، أعطيت هذه الأوصاف للنبي فقط ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة:129]، إذا كانت هذه الصفات منهم وفهم تشفق وترحمهم وإن أعرضوا عن الحق فيكفي شهادة المولى عليك، ليكفر من كفر وينحرف من انحرف، مهمة الرسل تبليغ هداية الله إلى الناس، فمن قبل وآمن فأجره على الله، ومن عصا فجزاؤه عليه.

10- العمل بالقرآن أساس أصول المجد في الدنيا، والسعادة في الآخرة:

لم يغفل الشيخ عبد الرحمن شيبان -رحمه الله- عن القرآن والتذكير بأهله حتى وهو في أيامه الآخرة من حياته في مرض موته بمركز يتلقى فيه العناية الصحية؛ ففي يوم 12 شعبان 1432هـ الموافق لـ 14 جويلية 2011م وبذات في مصحة الشفاء بحيدرة الجزائر العاصمة، كتب الشيخ رحمه الله وصيته الأخيرة إلى الشعب الجزائري والأمة العربية الإسلامية يذكرهم فيها بأسس المجد في الدنيا، والسعادة في الآخرة، والتي قامت وعاشت بها ولأجلها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أسسها الإمام ابن باديس - رحمه الله- والذي وصفه الشيخ عبد الرحمن بأنه الإمام القرآني وهذا إن دلّ على شيء دلّ على أن القرآن أساس الأسس الخمسة التي ذكرها الشيخ عبد الرحمن والمتمثلة في الدين والعلم، والعدل، والشرف والوحدة، وسبب للتقدم الحضاري وصلاح واقع الجزائريين والأمة الإسلامية في كل زمان، ومكان، وحال، وهذا نص وصيته:

"إن رسالة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أسسها الإمام القرآني السيّد الشيخ عبد الحميد بن باديس عليه رحمة الله في 05 ماي 1931م هي:

العمل على نشر أصول المجد في الدنيا، والسعادة في الآخرة وهي:

- الدين والعلم والعدل والشرف والوحدة.

- والأخذ بأسباب الحضارة والتقدم الاقتصادي في جميع المجالات.

فحافظوا على جمعية العلماء، تضمّنوا هذه الغاية المثلى بحول الله تعالى.

﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ

وَالشَّهَادَةِ فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ سورة التوبة⁽¹⁾.

خاتمة

- بعد هذه الدراسة في رحاب دروس ومقالات الشيخ عبد الرحمن شيبان -رحمه الله- وتنزيله للنص القرآني على الواقع يمكن استنتاج جملة من النتائج أهمها:
- الشيخ عبد الرحمن من الشخصيات العلمية الفكرية التي تأثرت بالقرآن وعملت به، ينبغي أن تدرس للنشء لأخذ القدوة، وسيرته في حياته خير دليل على ذلك.
 - أن الشيخ عبد الرحمن شيبان أحد علماء الإصلاح في عالمنا الإسلامي المعاصر، جعل من النص القرآني علاجاً للواقع وما يعانيه من الأزمات.
 - المواضيع التي نزل فيها الشيخ عبد الرحمن شيبان النصوص القرآنية على الواقع متنوعة ، وتواكب الأحداث.
 - التعامل مع النص القرآني وتنزيله على الواقع يعد من الأعمال الجليلة التي ينبغي أن يحرص عليها العلماء والدعاة إلى الإسلام؛ لمعالجة إشكاليات عصرهم، وهذا ما نلتمسه في شخصية الشيخ عبد الرحمن شيبان.
 - ركّز الشيخ عبد الرحمن وهو المفكر المصلح في تنزيل النصوص القرآنية على الواقع في دروسه التفسيرية على أهمية العودة إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ لإصلاح أوضاع الأمة فمهما صلح أولها.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم- مصحف ورش الالكتروني مصادق عليه من طرف الشؤون الدينية والأوقاف يوم الأربعاء 06 جانفي 2016م.
- الشيخ عبد الرحمن شيبان المجاهد المربي المصلح الأديب، محمد صديق قادري وآخرون، جامعة الأمير عبد القادر، ديوان المطبوعات الجامعية قسنطينة.
 - الشيخ عبد الرحمن شيبان جهوده في الدعوة والإصلاح، محمد صديق قادري، أطروحة دكتوراه نوقشت في عام 2019م.
 - أروى النيفر، الشيخ محمد الصالح النيفر حياته وآثاره، دار لبنان، ط1، 2005م.
 - جريدة الخبر، في تاريخ 14 جانفي 2009م.
 - درس ألقاه الشيخ عبد الرحمن شيبان في مسجد حيدرة بالجزائر العاصمة يوم الجمعة 11 جمادى الأول 1429هـ الموافق لـ 16 ماي 2008م.
 - درس ألقاه في مسجد حيدرة بالجزائر العاصمة، يوم الجمعة 20 ربيع الأول 1429هـ

1 - وصية الشيخ عبد الرحمن شيبان وهو في مصحة الشفاء بحيدرة الجزائر العاصمة يوم 12 شعبان 1432هـ الموافق لـ 14 جويلية 2011م

الموافق لـ 28 مارس 2008م.

- سليمان بن داود، مسند أبي داود الطيالسي، تحقيق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر - مصر، ط1، 1419هـ - 1999م.

- صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ.

- عبد الرحمن شيبان، من هدي الإسلام، دار الخلدونية، الجزائر. ط1، 2009م.

- عبد الرحمن شيبان، نعم للتنافس لا لتحاسد، موقع جريدة البصائر،
//http://www1.albassair.org

- عبد الرحمن شيبان، سوانح في الفكر والأدب والسياسة. جمع وتحقيق نور جدواني، الجزائر، ط1، 2012م.

- عبد الرحمن شيبان، الأسرة المسلمة وتحديات العصر، دار الامة، ط1، 2009م.

دور التنزيل على الواقع في التفسير في توثيق الأحداث التاريخية " أحكام القرآن " لأبي بكر بن العربي نموذجاً

ط.د/ مسعود عاد، إشراف: د. عباس منصر

قسم أصول الدين – معهد العلوم الإسلامية – جامعة الوادي

messaoudad1957@gmail.com

menecur-abbas@univ-eloued.dz



ملخص

هذه المداخلة الموسومة بـ "دور التنزيل على الواقع في التفسير في توثيق الأحداث التاريخية، " أحكام القرآن " لأبي بكر بن العربي، نموذجاً"، احتوت تفاصيل متعلقة بحياة الإمام ابن العربي الشخصية والعلمية، والتعريف بكتابه: " أحكام القرآن " وأهميته العلمية، ودوره كأنموذج لأهمية التفسير في توثيق الأحداث التاريخية من خلال التنزيل على الواقع، وقد قسمت المداخلة إلى أربعة عناوين رئيسة وهي:

أولاً: التعريف بشخصية الإمام أبي بكر بن العربي، وقدراته العلمية، ونشاطاته.

ثانياً: التعريف بكتاب " أحكام القرآن"، وأهميته العلمية.

ثالثاً: دور التنزيل على الواقع في التفسير في توثيق الأحداث التاريخية عند ابن العربي من خلال تفسيره " أحكام القرآن".

رابعاً: نتائج البحث وتوصياته.

وأما أهم ما تهدف إليه هذه المداخلة، فهو الكشف عن مدى أهمية النص التفسيري في توثيق الأحداث التاريخية من خلال التنزيل على الواقع.

1. المقدمة

رغم أن الهدف الرئيس للنص التفسيري هو البيان عن مراد الله تعالى من خلال القرآن الكريم، إلا أنه من بركات علم التفسير ومنافعه، قيام المفسرين بتنزيل المعاني التفسيرية على الواقع الذي عاشوا فيه أو السابق لهم، تشخيصاً منهم لصعوبات ذلك الواقع، وطلباً لمحاولة علاجه. ولا شك أن هذه الظاهرة تعد معلماً إصلاحياً تستهدفه جهود المفسرين. وفي هذا السياق الإيجابي، تأتي أهمية جهود ابن العربي في توثيق الأحداث التاريخية من خلال عملية التنزيل على الواقع في تفسيره " أحكام القرآن"، باعتبار توثيق الحدث التاريخي صورة من صور ذلك التنزيل. فمن هو الإمام أبو بكر بن العربي؟ وما مدى أهمية تفسيره " أحكام القرآن"، وما هو دوره كأنموذج للتوثيق التاريخي من خلال التنزيل على الواقع؟؟

ويعود سبب اختيار هذا الموضوع لحدثه، ولما له من أهمية في الكشف عن دور التفسير في توثيق الحدث التاريخي، ويترجم جهود المفسرين ومساهماتهم في معالجة صعوبات الواقع من خلال العمل التفسيري. وتهدف هذه المداخلة إلى إبراز دور التفسير في التوثيق التاريخي في سياق

التنزيل على الواقع، من خلال جهود الإمام ابن العربي في أحكامه. وقد انتظمت هذه المداخله في العناوين الرئيسة التالية:

1- التعريف بشخصية الإمام بن العربي ومؤهلاته العلمية.
2- التعريف بالأهمية العلمية لكتاب "أحكام القرآن" باعتباره أنموذج الدراسة ومصدرها الأول.

3- الكشف عن مدى أهمية التفسير في توثيق الأحداث التاريخية من خلال التنزيل على الواقع، ودور الإمام ابن العربي في ذلك.

4- بيان مدى توافق توثيق ابن العربي للأحداث التاريخية مع تقارير المؤرخين، عبر النماذج الواردة في الدراسة.

- ثم ختمت المداخله بذكر نتائج الدراسة، والإشارة إلى بعض التوصيات الهامة.

2 . التعريف بالإمام ابن العربي وكتابه "أحكام القرآن"

2-1 نسبه ومولده ونشأته:

هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله الأندلسي الإشبيلي المالكي المعافري، المعروف بالقاضي ابن العربي⁽¹⁾.

مولده بإشبيلية⁽²⁾ بالأندلس يوم الخميس 22 شعبان 468هـ⁽³⁾، نشأ في بيت علم وجاه ورئاسة، فوالده أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربي، كان من فقهاء إشبيلية ورؤسائها⁽⁴⁾، وزيرا لدى الأمير المعتمد ابن عباد⁽⁵⁾، وجده لأمه، أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني الذي كان رجل سياسة وشاعرا وعالما بالحديث⁽⁶⁾.

2-2 حياته العلمية وأعماله:

- تحصيله العلمي بموطنه: نشأ ابن العربي في بيت علم وجاه، وقد حرص والده وشيخه الأول على بناء شخصيته العلمية، فقد عين له ثلاثة أساتذة أحدهم يدرسه القراءات، والثاني علم العربية، والثالث الرياضيات، وقد سجل في قانون التأويل خلاصة تحصيله العلمي في

1- ينظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف، لاط؛ المطبعة السلفية، القاهرة، 1349هـ، ج1، ص136.
2- إشبيلية: Seville: مدينة أسبانية تقع على الوادي الكبير جنوب غرب مدريد، تبعد عنها بنحو 531 كلم. ينظر: Atlas classique. Paris 1980. P:34.

3- قال ابن بشكوال: سألته (أي ابن العربي) عن مولده فقال لي: ولدت ليلة الخميس لثمان بقين من شعبان، سنة ثمان وستين وأربعمئة. " ينظر: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ابن بشكوال، ط:2، مكتبة الخانجي، 1374هـ، 1955م، "ص559

4- توفي بالإسكندرية سنة 493هـ، روى عنه ابن العربي القصيدة الرائية لابن الجزيري. ينظر، الصلة، ص279. الغنية في شيوخ القاضي عياض، ص66

5- ثالث وآخر ملوك بني العباد في الأندلس، ولد 431هـ، بمدينة باجة، توفي 488هـ بمدينة آغمات. ينظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، تح: إحسان عباس، ط:1؛ بيروت، دار صادر، 1994، ج5، ص21. نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري التلمساني، تح: إحسان عباس، ط:1؛ بيروت، دار صادر، 1997م، ج1، ص490، ج2، ص94

6- أندلسي إشبيلي، (392هـ-460هـ)، ينظر: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج2، ص93

الأندلس، فقد أتقن القرآن بقراءاته العشر، وجمع فنونا من العربية حتى أنه لم يغادر الأندلس حتى أحكم كتاب سيويه⁷.

- رحلته إلى المشرق في طلب العلم: تحت دوافع مختلفة، منها السياسية كظروف سقوط دولة بني العباد، والعلمية كالاستفادة من الحركة العلمية بالمشرق، والدينية كأداء فريضة الحج⁽⁸⁾. قام ابن العربي برفقة والده برحلته إلى المشرق العربي.

خرج من إشبيلية نحو الشرق، وعمره سبعة عشر عاما، عام 485هـ⁽⁹⁾، ومر في طريقه بجواضر علمية كثيرة، وقابل علماء كثيرين، واستفاد منهم، فقد وصل إلى بجاية وقابل علماء منهم: محمد بن عمار المايورقي⁽¹⁰⁾، ولما دخل تونس لقي علماء منهم: أبو عبد الله المازري⁽¹¹⁾، ثم دخل مصر، وأخذ عن علماء أهمهم: القاضي أبو الحسن الخلعي⁽¹²⁾، وفي القدس، حيث مكث بها أكثر من ثلاث سنوات يتفقه على يد العلامة أبو بكر الطرطوشي وغيره⁽¹³⁾، وفي دمشق لقي الحافظ أبو الفتح المقدسي⁽¹⁴⁾، ووصل بغداد في 489هـ⁽¹⁵⁾، وجلس إلى حلقة أبي سعيد الحلواني⁽¹⁶⁾، وأبي حامد الغزالي⁽¹⁷⁾، وحج في عام 489هـ، واتصل بمكة بجمهرة من العلماء منهم: أبو الفوارس طراد أبو محمد الزينبي وغيره⁽¹⁸⁾.

وبسبب الغزو الصليبي لبيت المقدس وموت والده بمصر 493هـ، عاد ابن العربي إلى إشبيلية، محملا بعلم غزير، وخبر وفير⁽¹⁹⁾.

- 7- قانون التأويل، أبو بكر بن العربي، تح: محمد السليمان، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ص. 415.
- 8- ينظر: الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، أبو بكر بن العربي، تح: عبد الكبير العلوي المدغري، ط1: مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2006، ج1، ص19. قانون التأويل، ص77، 85، 89، 421.
- 9- الغنية في شيوخ القاضي عياض، القاضي عياض، تح: ماهر زهير جرار، ط1: دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1402هـ، 1982، ص66.
- 10- ذكره ابن العربي في قانون التأويل، له ترجمة في ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض، تح: سعيد أعراب، ط1: المغرب، مطبعة فضالة، 1983م، ج8، ص159.
- 11- محمد بن علي بن أحمد التميمي، المعروف بالإمام، إمام إفريقية، شرح كتاب مسلم، توفي 586هـ (شجرة النور الزكية، ص371، الديباج المذهب، ابن فرحون، ت: محمد الأحمد، (دط، دار التراث، دت) ج2، ص250.
- 12- علي بن الحسن المصري الشافعي، صاحب الفوائد العشرين، ولد سنة 405هـ، وتوفي في 482هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، شعيب الأرنؤوط، ط3: مؤسسة الرسالة، 1405هـ، 1985م، ج19، ص74-76.
- 13- محمد بن الوليد بن خلف الفهري الأندلسي، الفقيه المالكي، توفي 520هـ، (انظر الصلة: 545).
- 14- نصر بن إبراهيم المقدسي الفقيه الشافعي، أبو الحافظ، له كتب كثيرة منها: الحجة على تارك المحجة، ولد: 377هـ، وتوفي 490هـ. ينظر: طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، تح: محمد الطناحي، ط2: دار هجر، السعودية، 1413هـ، ج5، ص352.
- 15- ينظر: مع القاضي أبي بكر بن العربي وسعيد أعراب، (ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1987) ص33.
- 16- يحيى بن علي البزاز الحلواني، من أئمة الفقهاء الشافعية، صنف التلويح في فقه المذهب، توفي سنة 520هـ، طبقات الشافعية الكبرى، ج7، ص333.
- 17- محمد بن محمد بن أحمد، الغزالي الطوسي الشافعي، صاحب الإحياء وغيره، توفي 505هـ، طبقات الشافعية الكبرى ج7، ص191.
- 18- طراد بن محمد بن علي الهاشمي الزينبي، إمام حنفي، قرأ عليه ابن العربي ببغداد، توفي 493هـ. ينظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي، ط1: دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ، ج4، ص19.
- 19- مع أبي بكر بن العربي، ص12.

- شيوخه وتلاميذه:

أخذ ابن العربي على عشرات الشيوخ، منهم: والده أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربي، وأبو القاسم الحسن بن عمر الهوزني، وأبو بكر الطرطوشي، وأبو حامد الغزالي، وأبو عبد الله المازري، وغيرهم.⁽²⁰⁾

كما تتلمذ على يديه مئات الطلاب، من مشاهيرهم: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (القاضي عياض) (ت 544هـ)⁽²¹⁾، وأبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت 578هـ)⁽²²⁾، وأبو محمد عبد الله بن محمد الصنهاجي (ابن الأشيري) (ت 561هـ).⁽²³⁾

- أعماله ونشاطاته:

اشتغل الإمام ابن العربي في وظائف شتى، ومارس أنشطة عملية متنوعة، أهمها:

- القضاء: تولاها بإشبيلية، بمرسوم مرابطي عام 528هـ، ومشى فيه بالعدل.⁽²⁴⁾
- التدريس: انقطع بعد القضاء للعلم تأليفا وتدرسا، وصار مسجده بإشبيلية كعبة طلاب العلم.⁽²⁵⁾

- الجهاد: شارك فيه بلسانه وسنانه، مع أمراء اشبيلية في مواجهة الخطر الصليبي وخاصة بالساحل الشرقي للأندلس.²⁶

- ثناء العلماء عليه

قال عنه شيخه أبو حامد الغزالي: "والشيخ الإمام أبو بكر بن العربي، قد أحرز من العلم وقت تردده إلينا ما لم يحرزه غيره مع طول الأمد، لما خص به من صفاء الذهن، وذكاء الحس، واتقاد القريحة...."²⁷

وقال عنه تلميذه ابن بشكوال: "الإمام الحافظ، المستبحر، ختام علماء الأندلس، وآخر أئمتها وحفاظها...."²⁸.

- وفاته: توفي بنواحي فاس بالمغرب، سنة 543هـ.²⁹

2-3 التعريف بكتابه أحكام القرآن:

- آثاره العلمية:

خلف ابن العربي آثارا علمية كثيرة، ومؤلفات قيمة وفيرة، في التفسير وعلوم القرآن مثل

20- سبقت الترجمة لهم.

21- انظر: شجرة الدر الزكية ص. 140.

22- انظر: نفس المصدر ص. 154، والصلة 559.

23- التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، ت: عبد السلام الهراس (دط، بيروت: دار الفكر، 1415/1995) ج 2 ص 304.

24- البيان المغرب في اختصار تاريخ الأندلس والمغرب، ابن عذارى المراكشي، ت: بشار عواد معروف، (ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1434هـ / 2003م) ج 3، ص 48، والصلة: ص 559.

25- الغنية في شيوخ القاضي عياض، ص. 68.

26- قانون التأويل، ص. 100.

27- نفس المصدر، ص. 450.

28- الصلة، 558.

29- شجرة الدر الزكية، ج 1، ص 137.

أحكام القرآن، والناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، والحديث مثل القبس في شرح موطأ مالك بن أنس، وعارضة الأحوذ في شرح سنن الترمذي، والفقه وأصوله مثل: المحصول في علم الأصول، وعلم الكلام مثل: العواصم من القواصم، والوصول إلى معرفة الأصول، واللغة والأدب مثل: ملجئة المتفقيين،³⁰ وترتيب الرحلة³¹، والزهد والرقائق مثل سراج المهتدين في آداب الصالحين³².

- التعريف بكتاب "أحكام القرآن":

يعد الكتاب مرجعا مهما للتفسير الفقهي عند المالكية، وهو من أمهات كتب الشريعة واللغة والتفسير.³³

والكتاب مطبوع عدة طبعات، مثل طبعة مطبعة سعادة بالقاهرة 1331 هـ، وطبعة دار المعرفة بيروت 1392 هـ، وطبعة دار الكتب العلمية بيروت 2003/1424 م.³⁴

ونسبته إلى صاحبه معلومة مشهورة، نسبه إليه جل من ترجم له، مثل ابن فرحون في الديباج المذهب³⁵، بل نسبه ابن العربي لنفسه في مواضع من كتبه فقال في قانون التأويل: "وتحقيق ذلك قد مضى في سورتي النساء والقصص من كتابنا، أعني كتاب أحكام القرآن".³⁶

وهو من كتب اتجاه التفسير الفقهي، ومن محاسنه أن المؤلف ضمنه العديد من حالات الإسقاط على الواقع، مما يجعله نموذجا بارزا لدور التفسير في معالجة مشكلات الحياة.

وفي هذا السياق يلحظ أن الإمام ابن العربي قد اعتنى أيضا بتوظيف دور الإسقاط على الواقع في التفسير في توثيق الأحداث التاريخية بمختلف أبعادها وألوانها، وهو ما سوف نعالجه في المبحث التالي.

3 - دور التنزيل على الواقع في التفسير، في توثيق الأحداث التاريخية.

3-1 تعريف التفسير، وتعريف تنزيله على الواقع.

• تعريف التفسير:

أ- لغة: قال ابن منظور: "فسر: الفسر البيان، فسر الشيء يفسره بالكسر، ويفسره بالضم

30- نشرته مجلة العلوم العربية والإنسانية، المجلة العلمية لجامعة القصيم بالسعودية، مجلة محكمة، المجلد: 10، العدد: 2، ص 1151، تحت عنوان: مسائل كتاب ملجئة المتفقيين إلى معرفة غوامض النحويين واللغويين، لأبي بكر ابن العربي - جمعا ودراسة- فريد عبد العزيز الزامل السليم، تاريخ: رجب 1438، مارس 2017.

31- لخصه بنفسه في مقدمة قانون التأويل، وجمعه سعيد أعراب وطبعه باسم: مع القاضي أبي بكر بن العربي". سبقت الإشارة إليه.

32- كلها مؤلفات مطبوعة ومنشورة متداولة.

33- ينظر: التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، (دط، القاهرة: مكتبة وهبة، دت) ج2، ص 331، وكذلك مقدمة أحكام القرآن، محمد البجاوي، ط دار المعرفة 1392 هـ، ج1، ص3.

34- انظر: مقدمة أحكام القرآن لابن العربي، ت: محمد عبد القادر عطا، ص 36، 31.

35- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون، ت: محمد الأحمدي، (دط، دار التراث للطبع والنشر، دت) ج2، ص252.

36- قانون التأويل ص 607.

فسرا، وفسره أبانه... والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل..³⁷

- فمعناه يدور في اللغة على الكشف والبيان.

ب- اصطلاحا: عرفه العلماء بتعريفات عدة، إلا أن أشملها تعريف الزركشي وهو:

"علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه ..."³⁸.

• تعريف التنزيل على الواقع:

عرفه الدكتور عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر فقال:

"هو مقابلة الأحداث المعاصرة للمفسر، بما يشابهها في كتاب الله تعالى، سواء كانت المقابلة تامة أو جزئية أو مخالفة لما عليه الآية".³⁹

2-3 الأوضاع التاريخية للأندلس والعالم الإسلامي منذ أواسط القرن الرابع الهجري.

منذ منتصف القرن الرابع الهجري، انقسمت الرقعة الإسلامية أقساما عدة، قام على كل منها وال تسمى بأمر المؤمنين، ففي المغرب، ظهرت ممالك الطوائف السبعة في الأندلس، إثر سقوط الخلافة الأموية في 422هـ/1031م⁴⁰، وحتى عندما وحد المرابطون الأندلس تحت قيادة يوسف بن تاشفين سنة 484هـ⁴¹، فقد عاجلتهم العوامل الداخلية بالضعف، وأهمها ثورة الموحدين بالمغرب الأقصى⁴²، وقد أعطت هذه الظروف الفرصة للصليبيين لهجوموا المقاطعات الإسلامية في الأندلس، وبنزعونها الواحدة تلو الأخرى.

وفي المشرق كانت الخصومة على أشدها بين العباسيين والفاطميين، وكانت الدول تتغالب، فيقوم بعضها على أنقاض بعض، فالسلجوقيون بعد بني بويه، والأتابكة⁴³ بعد السلجوقيين، والأيوبيون بعد الفاطميين، وفي هذا الجو المفعم بغيوم الفرقة والعداء تحركت رياح الحروب الصليبية الكبرى في المشرق منذ أوائل القرن الخامس الهجري⁴⁴، كما تحركت في بلاد الأندلس.

هذا هو السياق التاريخي الذي وثق بن العربي جملة من حوادثه من خلال إسقاط النص

37- لسان العرب، ابن منظور (ط1، بيروت: دار صادر، دت) ج5، ص55.

38- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (ط1، دار إحياء الكتب العربية، 1376/1957)، ج1، ص13.

39- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، (ط1، دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، بإذن طبع من المجلس الوطني للإعلام بدولة الإمارات 2006) ص33.

40- انبعاث الإسلام في الأندلس، محمد الكتاني، (ط1، بيروت: دار الكتب العلمية 1426/2005 م) ص32.

41- انظر: الزلاقة معركة من معارك الإسلام الحاسمة، جميل عبد الله محمد المصري، (دط، السعودية: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، دت) ص201. (يوسف بن تاشفين: مؤسس دولة المرابطين، توفي 500 هـ، الزلاقة: ص500).

42- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصر، ت: جعفر الناصري/ محمد الناصري (د.ط، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1418هـ/1997م) ج2 ص117.

43- الدولة الزنكية بالشام ومصر (521-660 هـ) (1127-1261 م)، على يد عماد الدين زنكي، شملت الشام ومصر وبعض العراق، أسقطها المغول 660هـ، (انظر: موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر، أحمد معمور العسيري، (ط1، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 1417 هـ - 1996

44- تاريخ الفقه الإسلامي، محمد علي السائس، (د.ط، بيروت: دار الكتب العلمية، دت) ص127.

التفسيري على الواقع، سواء تعلق الأمر بالأحداث السياسية والعسكرية أو بالأحداث العلمية والثقافية أو بالأحداث الاجتماعية والدينية.

3-2 أمثلة تطبيقية من دور الإسقاط على الواقع في التفسير في توثيق الأحداث التاريخية من خلال النص التفسيري في كتاب "أحكام القرآن" للإمام ابن العربي.

- توثيق الأحداث التاريخية

أ- الأحداث السياسية والعسكرية

مثال 1: هجوم النصارى على إشبيلية 527هـ

قوله تعالى: ﴿انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ [التوبة: 41].

قال ابن العربي: "مسألة انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم هل هي محكمة أم منسوخة"

المسألة الثالثة: قال علمائنا: اختلف في إحكام هذه الآية أو نسخها... على قولين: والصحيح أنها غير منسوخة، وقد تكون حالة يجب فيها نفير الكل إذا تعين الجهاد على الأعيان بغلبة العدو على قطر من الأقطار، أو بحلوله بالعقر؛ فيجب على كافة الخلق الجهاد والخروج إليه؛ فإن قصروا عصوا.

- ثم قال مسقطا هذا البيان على واقعه وموثقا للحدث التاريخي القائم:

ولقد نزل بنا العدو قصمه الله سنة سبع وعشرين وخمسمائة؛ فجاس ديارنا، وأسر جيرتنا، وتوسط بلادنا في عدد هال الناس عدده، وكان كثيرا، وإن لم يبلغ ما حدوده، فقلت للوالي والمولى عليه: هذا عدو الله، وقد حصل في الشرك والشبكة، فلنكن عندكم بركة، ولتظهر منكم إلى نصره دين الله المتعينة عليكم حركة، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع هذه الأقطار فيحاط به فإنه هالك لا محالة إن يسركم الله له؛ فغلبت الذنوب، ووجفت القلوب بالمعاصي، وصار كل أحد من الناس ثعلبا يأوي إلى وجاره، وإن رأى المكروه بجاره؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.⁴⁵

- الحدث في تقارير المؤرخين:

- قال ابن القطان المراكشي: ⁴⁶باب ذكر أنباء سنة سبع وعشرين وخمسمائة

45- أحكام القرآن، أبو بكر بن العربي، تح: محمد عبد القادر عطا، (ط3، بيروت: دار الكتب العلمية، 2003/1424) ج2 ص516-517.

46- أبو محمد حسن بن علي بن القطان المراكشي، ولد نحو 580هـ - 1154م، مقرب للموحدين، من شيوخه محمد بن عيسى الأزدى "ابن المناصف" (ت 620 هـ)، وأبي الحجاج يوسف بن محمد المكلائي "الأحدب" (ت 626 هـ)، من تلاميذه: محمد بن عبد الملك صاحب كتاب "التكملة والذيل"، (ت 703 هـ)، له مؤلفات عديدة - جلها مفقود- منها: نظم الجمان، شفاء الغلل في أخبار الأنبياء والرسل، توفي 628 هـ، (ترجمته في نفح الطيب، تح: إحسان عباس 180/3، 161/135، 4... والبيان المغرب "القسم الموحد ص 446... والذيل والتكملة 10/1، 14، 77، 122، 144...).

"... ففي هذه السنة خرج السليطين، النصراني الطاغية⁴⁷، وابن هود⁴⁸، إلى بلد المسلمين، فهبطوا إلى إشبيلية، وانديست خيلهم، واقتحمت ما وجدت، ثم هبطوا إلى شريش⁴⁹، فدخلوها، وقتلوا من وجدوا فيها، واستباحوا وبالغوا في نكاية المسلمين، ثم رجعوا إلى بلادهم⁵⁰."

- وتقص علينا الرواية النصرانية غزوة قام بها القشتاليون في 1133م/527هـ ومعهم سيف الدولة المستنصر بن هود في أراضي الأندلس... وتقول أن الفونسو ريمونديس ملك قشتالة⁵¹، قسم جيشه لهذا الغرض إلى قسمين... سار هو على رأس أحدهما، وقاد الآخر سيف الدولة والدون ريديرجو كونتالت دي لارا" زعيم مملكة ليون... ووصل الجيش النصراني في زحفه إلى أحواز إشبيلية، وهو يحرق المزارع، والقرى، والقلاع المهجورة، ويدمر المساجد، ويحرق المصاحف، ويقبض على الفقهاء ويعذبهم⁵²...

- يقول ابن عذارى المراكشي ونقلًا عن رواية ابن حمادة، أن العدو وصل إلى حومة شريش والبحيرة "بين إشبيلية وقادس"، ولم يلقه أحد من المسلمين. ويضع تاريخ هذه الغزوة في سنة 527هـ/1133م.⁵³

- والغزوة أشار إليها الذهبي في ترجمته لأحمد بن عبد الملك بن هود.⁵⁴

*يتبين من خلال ما سبق توافق توثيق ابن العربي للهجوم على منطقته إشبيلية وضواحيها، مع ما قرره المؤرخون حول هذا الهجوم، وتطابق التوصيف الذي أورده مع ما أورده من تفاصيل متعلقة بالحدث.

مثال 2: غزو الجيش الفاطمي القدس وانتزاعها من أيدي العباسيين (491-492هـ).
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: 10].

قال ابن العربي: [فيها مسألتان: المسألة الأولى قوله: ﴿فَضْلًا﴾ [سبأ: 10]: فيه أربعة عشر

-
- 47- هو الفونسو السابع ملك قشتالة ، بين 1126-1137م، (انظر: هامش نظم الجومان ، ص229).
- 48- أحمد بن عبد الملك بن هود ، الملقب بالمستنصر بالله الأندلسي، صاحب منطقة "سرقسطة"، إستعان بالإفرنج على إقامة دولته، كان يلقب بسيف الدولة ، توفي في منتصف شعبان 540هـ (انظر: سير أعلام النبلاء ، الذهبي، (د.ط، القاهرة: دار الحديث، 2006/1427) ج 14، ص448. وكذلك: بغية الملمتس في تاريخ رجال الأندلس، أبو جعفر الضبي، (د.ط، القاهرة: دار الكتاب العربي، 1967) ص43.
- 49- منطقة تقع جنوب إشبيلية، (انظر: أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، (ط1، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، 1987/1407) الخريطة رقم 88.
- 50- نظم الجمان لترتيب ماسلف من أخبار الزمان، ابن القطان المراكشي، تج: د.محمود علي مكي، (ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990) ص229.
- 51- CASTILLA، قشتالة: مقاطعة إسبانية و تقع شمال غرب إسبانيا، (38-43 شمالا) ، منطقة حكم ذاتي مع مقاطعة ليون منذ 1983(أطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، (ط.جديدة، بيروت: مكتبة لبنان، د.ت) اللوحة 78 (إسبانيا والبرتغال).
- 52- دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، (ط2، القاهرة: مكتبة خفاجي، 1411هـ/1990م) ج3، ص142.
- 53- انظر: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى المراكشي، تج: بشار عواد معروف، (ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003/1434) ج3، ص73.
- 54- سير أعلام النبلاء، ج2، ص448.

قولاً:.....

الرابع عشر: قوله: ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:16].

والمراد هاهنا من جملة الأقوال حسن الصوت.. المسألة الثانية وفيه دليل الإعجاب بحسن الصوت... وكان ابن الكازروني يأوي إلى المسجد الأقصى، ثم تمتعنا به ثلاث سنوات، ولقد كان يقرأ في مهد عيسى فيسمع من الطور، فلا يقدر أحد أن يصنع شيئاً طول قراءته إلا الاستماع إليه.

- ثم قال منزلاً هذا السياق التفسيري على الحدث التاريخي:

" وكان صاحب مصر الملقب بالأفضل قد دخلها في المحرم سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وحولها عن أيدي العباسية، وهو حنق عليها وعلى أهلها بحصاره لهم وقتالهم له، فلما صار فيها، وتدانى بالمسجد الأقصى منها، وصلى ركعتين تصدى له ابن الكازروني، وقرأ: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾ [آل عمران: 26] فما ملك نفسه حين سمعه أنقال للناس على عظم ذنبهم عنده، وكثرة حقه عليهم: ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ [يوسف: 92].⁵⁵

- الحدث في تقارير المؤرخين

- يذهب جل المؤرخين إلى أن الحادث قد وقع في رمضان 491 هـ، في حين يعده آخرون قد حدث في شعبان 489 هـ،⁵⁷ واختار غيرهم لتاريخه سنة 490 هـ،⁵⁸ وقد عبر ابن خلكان عن هذا الاختلاف في تحديد تاريخه فقال: " وكان الأفضل شاهنشاه المنعوت بأمر الجيوش قد تسلمه من سكران بن أرتق في يوم الجمعة لخمس بقين من شهر رمضان سنة إحدى وتسعين، وقيل: في شعبان سنة تسع وثمانين، والله أعلم بالصواب..⁵⁹

- واختار ابن العربي سنة: 492 هـ ليس بعيداً مما ذهب إليه جل المؤرخين، في الاعتداد بسنة 491 هـ تاريخاً للحادث، فالظاهر أن ابن العربي لم يكتف بمجرد دخول الجيش المصري القدس، واستلامه المدينة، بل عد في الحسبان مدة الشهور الثلاثة حتى تمكن الأفضل فيها من إخماد رد فعل المقدسيين. وبسط الأمن في المدينة المقدسة، وقد أشار ابن العربي في نصه صراحة إلى عامل حصار الجيش للأهالي، وعامل مقاتلة الأهالي له، وهو ما أيدته روايات المؤرخين، ومنهم ابن الأثير.⁶⁰

55- أحكام القرآن، ج4، ص4،5.

56- مثل المقرئ في "إتحاف الحنفاء بأخبار الفاطميين الخلفاء" ج3، ص22 "والصفدي في" الوافي في الوفيات، ج5 و ص189" وأبي يعلى القلانسي في تاريخ أبي يعلى ج1، ص80... وغيرهم.

57- مثل العليي اليمني في "أنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تج: عدنان نباتة، دط، عمان: دار ندريس، دت، ج1، ص305" والذهبي في "تاريخ الإسلام" ج10، ص668، وابن الأثير في "الكامل في التاريخ" ج4، ص363. وغيرهم.

58- مثل ابن خلدون في "تاريخ ابن خلدون" ج4، ص86، وغيره.

59- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ابن خلكان، تج: إحسان عباس، دط، بيروت: دار صادر (1900) ج1، ص179.

60- انظر أيضاً: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تج: عمر عبد السلام تدمري، (ط1)، بيروت: دار الكتاب العربي،

1417/1997) ج8، ص424.

مثال3: الحملة الصليبية على أرض فلسطين 492هـ

قوله تعالى: ﴿وَهَـزِيَ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم: 25]

قال ابن العربي: فيها ثلاث مسائل:

المسألة الثانية: في صفة الجذع قولان:

أحدهما: أنه كان لنخلة خضراء، ولكنه كان زمان الشتاء، فصار وجود التمر في غير إبانة آية.

الثاني: أنه كان جذعا يابسا فهزته، فاخضر وأورق وأثمر في لحظة.

- ثم قال مؤكدا كلامه بالتزليل على الواقع المشاهد آنذاك، فوجه سياق النص إلى ما

يعتبر توثيقا منه لوصول الحملة الصليبية إلى منطقة القدس وضواحيها: "ودخلت بيت لحم⁶¹ سنة خمس وثمانين وأربعمائة، فرأيت في متعبدهم غارا عليه جذع يابس كان رهبانهم يذكرون أنه جذع مريم بإجماع، فلما كان في المحرم سنة اثنتين وتسعين دخلت بيت لحم قبل استيلاء الروم عليه لسته أشهر".⁶²

• فقد جعل شهر شعبان، سنة 492هـ هي تاريخ دخول الصليبيين منطقة القدس وأحوالها ومنها بلدة بيت لحم التي ذكرها.

- الحملة الصليبية على الأرض المقدسة في تقارير المؤرخين.

- قال ابن العماد في "شذرات الذهب": "سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة

فما انتشرت دعوة الباطنية بأصهبان وأعمالها وقويت شوكتهم وأخذت الفرنج لعنهم الله بيت المقدس بكرة يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان بعد حصار شهر ونصف".⁶³

- قال ابن الأثير في "الكامل في التاريخ": "ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ.. ذِكْرُ مُلْكِ الْفَرَنْجِ، لَعَنَهُمُ اللَّهُ، الْيَتَّى الْمُقَدَّسَ...".⁶⁴

- قال خليل إبراهيم السامرائي في "تاريخ العرب وحضارتهم بالأندلس": "ونتيجة لسقوط

بيت المقدس بيد الأوروبيين عام 492 هـ/ 1099م، عبرت قوات أوروبية إلى إسبانيا وبدأت تعاون ملك أرغون من أجل استرداد أهم المدن الأندلسية".⁶⁵

61- بالفتح، وسكون الحاء المهملة، بلدة فلسطينية تقع جنوب القدس، بينها وبين الخليل، وهي الموضع الذي ولد فيه المسيح عليه السلام، بينها وبين القدس ستة أميال "نحو 10 كلم"، انظر: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسيني الطالبي، المعروف بالشريف الإدريسي، (ط1)، بيروت: عالم الكتب، 1409هـ) ج1، ص521. والمعالم الأثرية في السنة والسيرة، محمد بن محمد حسن شُرَّاب، (ط1)، بيروت/ دمشق: دار القلم/ الدار الشامية، 1411هـ) ص55، وللمزيد راجع: موقع wafa مركز المعلومات الوطني الفلسطيني، المدن الفلسطينية في حدود فلسطين (الأراضي المحتلة عام 1967)، بيت لحم. تاريخ التصفح 2022/09/29م.

62- أحكام القرآن، ج3، ص149، 150.

63- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد، تج: محمود الأرنؤوط، (ط1)، دمشق: دار ابن كثير، 1406/1986) ج5 ص401.

64- الكامل في التاريخ، ج8، ص423، 424.

65- تاريخ العرب وحضارتهم بالأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، (ط1)، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2000) ص261.

- ولم أقف على من خالف رواية ابن العربي من المؤرخين القدماء منهم والمحدثين في حدود علي.

ب- الأحداث العلمية والثقافية

المثال 1: رحلته العلمية إلى بلاد المشرق

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: 87].

- قال ابن العربي: فيها أربع مسائل:

[مسألة إذا فسد الدين عند الناس وعم الحرام]

المسألة الثالثة: قال علماؤنا: هذا إذا كان الدين قواما، ولم يكن المال حراما؛ فأما إذا فسد الدين عند الناس، وعم الحرام فالتبطل وترك اللذات أولى، وإذا وجد الحلال فحال النبي - صلى الله عليه وسلم - أفضل وكان داتشمند⁶⁶ - رحمه الله - يقول: إذا عم الحرام وطبق البلاد، ولم يوجد حلال استؤنف الحكم، وصار الكل معفوا عنه، وكان كل واحد أحق بما في يده ما لم يعلم صاحبه. وأنا أقول: إن هذا الكلام منقاس إذا انقطع الحرام، فأما والغصب متماد، والمعاملات الفاسدة مستمرة، ولا يخرج المرء من حرام إلا إلى حرام فأشبهه المعاش من كان له عقار قديم الميراث يأكل من غلته..

- ثم أن ابن العربي أنزل ما ذهب إليه من ندرة الطعام الحلال على واقعه من خلال ذكر مشهد من رحلته في طلب العلم إلى المشرق كأهم حادث علمي في حياته وحياة من تعلم على يديه فقال: "وما رأيت في رحلتي⁶⁷ أحدا يأكل مالا حلالا محضا إلا سعيدا مغربي، كان يخرج في صائفة الخطي، فيجمع من زريعته قوته ويطحنها ويأكلها بزيت يجلبه الروم من بلادهم⁶⁸.

- وإذا كان ابن العربي قد وثق كثيرا من أحداث رحلته في "أحكام القرآن" من خلال تنزيل النص التفسيري على الواقع، من الأماكن، والمقابلات، والحوادث، والمناظرات، والشخصيات، فإنه كثيرا ما أحال التفاصيل على كتابه "ترتيب الرحلة للترغيب في الملة" والذي لخصه هو نفسه في كتابه "قانون التأويل"، وجمعه الأستاذ سعيد أعراب في كتابه "مع القاضي أبي بكر بن العربي". وكان أحكام القرآن من مصادره في ذلك.

- قوله تعالى: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: 7]

قال ابن العربي: "المسألة الخامسة في تعيينها: وفيه قولان:

الأول أن أشهب قال عن مالك: هي دمشق؛ وقال محمد بن كعب القرظي: هي الإسكندرية.

66- يعني به الإمام أبو حامد الغزالي "انظر: مع القاضي أبي بكر بن العربي، مرجع سابق ص219".
67- يقصد رحلته إلى المشرق العربي من 485هـ إلى 493هـ، انظر: الأتس الجليل، مصدر سابق، ص302، وأيضا: مع القاضي أبي بكر بن العربي ص66. ثم أن ورود اسمي أبي حامد الغزالي، وسعيد المغربي في النص يشير إلى أنه يعني رحلته إلى المشرق.

68- أحكام القرآن ج3، ص249، 230.

وتحقيقها أنها دمشق؛ لأنها ليس في البلاد مثلها وقد ذكرت صفتها وخبرها في كتاب ترتيب الرحلة للترغيب في الملة.⁶⁹

- حدث الرحلة في تقارير المؤرخين

قال ابن بن بشكوال في الصلة: "لقيته بمدينة إشبيلية حرسها الله ضحوة يوم الاثنين خلنا من جمادى الآخرة من سنة ست عشرة وخمسمائة فأخبرني رحمه الله أنه رحل مع أبيه إلى المشرق يوم الأحد مستهل ربيع الأول من سنة خمس وثمانين وأربع مائة. وأنه دخل الشام ولقي بها أبا بكر محمد بن الوليد الطرطوشي وتفقه عنده، ولقي بها جماعة من العلماء والمحدثين.

ودخل بغداد وسمع بها ...، ثم رحل إلى الحجاز فحج في موسم سنة تسع وثمانين.... ثم عاد إلى بغداد ثانية وصحبها أبا بكر الشاشي⁷⁰، وأبا حامد الطوسي⁷¹ وغيرهما من العلماء والأدباء... ثم صدر عن بغداد ولقي بمصر والإسكندرية جماعة من المحدثين، فكتب عنهم واستفاد منهم وأفادهم؛ ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث وتسعين وقدم بلده إشبيلية بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق.⁷²

قال ابن عساكر في "تاريخ دمشق: محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي الأندلسي الإشبيلي: قدم دمشق وسمع بها الفقيه أبا الفتح المقدسي.. وخرج من دمشق سنة إحدى وتسعين راجعا إلى بلده وكان قد سمع ببغداد... وتفقه على أبي بكر الشاشي وأبي حامد الغزالي... وحدث بدمشق فسمع منه عبد الله وعبد الرحمن ابنا أحمد بن صابر وأحمد بن سلامة بن يحيى الأبار ولما عاد إلى بلده صنف كتابا في شرح جامع أبي عيسى سماه عارضة الأحوزي في شرح كتاب الترمذي".⁷³

- قال الذهبي في "العبر في خبر من غير": "والقاضي أبو بكر بن العربي محمد بن عبد الله بن محمد الإشبيلي المالكي الحافظ، أحد الأعلام، وعالم أهل -الأندلس ومسندهم. ولد سنة ثمان وستين وأربع مئة، ورحل مع أبيه سنة خمس وثمانين، ودخل الشام فسمع من الفقيه نصر المقدسي وأبي الفضل بن الفرات، وبغداد من أبي طلحة التّعالى وطراد، وبمصر من الخلي، وتفقه على الغزالي وأبي بكر الشاشي وأبي الوليد الطرطوشي".⁷⁴

69- نفس المصدر، ج4، ص.391، 392

70- محمد بن أحمد بن حسين بن عمر القفال الشافعي ، من أكبر شيوخ ابن العربي، له مصنفات حسنة أهمها كتاب العلية، توفي 507هـ ، ينظر: طبقات الشافعية الكبرى، ج6، ص45.

71- سبقت ترجمته.

72- انظر: الصلة ، ص 558.

73- تاريخ دمشق، ابن عساكر، تج: عمرو بن غرامة العمروي، (د.ط، دار الفكر للطباعة والنشر 1415/1995) ج54، ص 24.

74- العبر في تاريخ من غير، الذهبي، تج: أبو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول، (د.ط، بيروت: دار الكتب العلمية، دت) ج2 و ص.468، 469.

- المثال 2: المناظرات العلمية

أ - مناظرة الفقيه الحنفي الزوزني⁷⁵ مع فقيه الشافعية عطاء المقدسي⁷⁶

- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ...الآية﴾ [البقرة: 178].

- قال ابن العربي: "فيها إحدى عشرة مسألة...".

[مسألة الاختلاف في قوله تعالى كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ]

المسألة الثالثة:

اختلف الناس في: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: 178]؛ فقيل: هو كلام عام مستقل بنفسه؛ وهو قول أبي حنيفة.

وقال سائرهم: لا يتم الكلام هاهنا؛ وإنما ينقضي عند قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ [البقرة: 178] وهو تفسير له، وتتميم لمعناه، منهم مالك والشافعي.

- ثم شرع ابن العربي ينزل مثل هذا الخلاف على واقعه، موثقاً بذلك إلى إحدى المناظرات العلمية التي تكلم عنها في "أحكام القرآن" كحدث تاريخي يعكس ما كان عليه المستوى العلمي للأمة آنذاك، فقال: "فائدة ورد علينا بالمسجد الأقصى سنة سبع وثمانين وأربعمائة فقيه من عظماء أصحاب أبي حنيفة يعرف بالزوزني زائراً للخليل صلوات الله عليه فحضرنا في حرم الصخرة المقدسة طهرها الله معه، وشهد علماء البلد، فسئل على العادة عن قتل المسلم بالكافر، فقال: يقتل به قصاصاً؛ فطولب بالدليل، فقال: الدليل عليه قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: 178]. وهذا عام في كل قتيل.

فانتدب معه للكلام فقيه الشافعية بها وإمامهم عطاء المقدسي، وقال: ما استدل به الشيخ الإمام لا حجة له فيه من ثلاثة أوجه:..."

فقال الزوزني: بل ذلك دليل صحيح، وما اعترضت به لا يلزمي منه شيء....."

وجرت في ذلك مناظرة عظيمة حصلنا منها فوائد جمة ..⁷⁷

ب - مناظرة القاضي الريحاني⁷⁸ مع الفقيه الصاغانى⁷⁹

- كما وثق ابن العربي لمناظرة علمية أخرى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿... ولا تقتلواهم

75- لعله أبو سعد أحمد بن محمد الزوزني ، ذكره الذهبي في طبقة (530-550هـ) (انظر: المعين في طبقات المحدثين، تج: همام عبد الرحيم سعيد، (ط1، عمان: دار الفرقان 1404) ص46. وعين سعيد أعراب وفاته ب (536هـ) (انظر مع القاضي ابي بكر بن العربي ، ص108).

76- فقيه القدس وقاضيهما، يسميه المفرد ابن عطاء، فقيه شافعي، ذكره ابن العربي فيكتبه مثل أحكام القرآن: 90/1، وترتيب الرحلة " مع القاضي ابي بكر: ص ص206، وقانون التأويل: ص436.

77- انظر نص المناظرة كاملاً في أحكام القرآن ، 92,91,90/1. (أحجمنا عن نقله كاملاً خشية الإطالة).

78- أبو الفضل الريحاني، القاضي الحنفي، رئيس مدرسة أبي عقبة الحنفية، ذكره ابن العربي في كتبه مثل ، ترتيب الرحلة" مع القاضي أبي بكر ص209، وقانون التأويل ص439، وأحكام القرآن : 152/1.

79- نسبة إلى صاغان، بالغين المعجمة وآخره نون قرية بمرور وقد تسمى جاغان كود... (معجم البلدان، ياقوت الحموي ، (د.ط، بيروت: دار الفكر، دت) ج3، ص389.

عند المسجد الحرام حتى يقتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين﴾ [البقرة: 191].

- قال ابن العربي: فيها أربع مسائل:

[مسألة قوله تعالى ولا تقتلوه عند المسجد الحرام حتى يقتلوكم فيه]

المسألة الثانية: قوله تعالى ﴿ولا تقتلوه عند المسجد الحرام حتى يقتلوكم فيه﴾ [البقرة: 191]: فيه قولان: أحدهما: أنه محكم قاله مجاهد وأبو حنيفة.

الثاني: أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [التوبة: 5] وقال قتادة: هو منسوخ بقوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ [البقرة: 193].

- ثم شرع ابن العربي في تنزيل هذا الخلاف على واقعه، موثقاً لهذه المناظرة، فقال:

- قال القاضي أبو بكر بن العربي: وقد حضرت في بيت المقدس طهره الله بمدرسة أبي عتبة الحنفي والقاضي الريحاني يلقي علينا الدرس في يوم جمعة، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رجل بهي المنظر على ظهره أطمار، فسلم سلام العلماء، وتصدر في صدر المجلس بمدارع الرعاء، فقال له الريحاني: من السيد؟ فقال له: رجل سلبه الشطار أمس، وكان مقصدي هذا الحرم المقدس، وأنا رجل من أهل صاغان من طلبة العلم فقال القاضي مبادراً: سلوه، على العادة في إكرام العلماء بمبادرة سؤالهم.

- ووقعت القرعة على مسألة الكافر إذا التجأ إلى الحرم، هل يقتل فيه أم لا؟ فأفتى بأنه لا يقتل...

- فاعترض عليه القاضي الريحاني منتصراً للشافعي ومالك وإن لم ير مذهبهما على العادة، فقال:.....⁸⁰.

تواجد ابن العربي في القدس وحضوره المناظرات العلمية في تقريراته وتقاريرات المؤرخين.

- قال ابن العربي في "قانون التأويل": "وحين صليت بالمسجد الأقصى فاتحة دخولي له، عَمَدْتُ إلى مدرسة الشافعية بباب الأسباط، فألفت بها جماعة من علمائهم في يوم اجتماعهم للمناظرة عند شيخهم القاضي الرشيد⁸¹ يحيى الذي كان استخلفه عليهم شيخنا الإمام الزاهد نصرُ بن إبراهيم النابلسي المقدسي، وهم يتناظرون على عادتهم..."

- ونقل سعيد أعراب رواية ابن العربي في "مع القاضي أبي بكر بن العربي" ترتيب الرحلة: "فاتخذت بيت المقدس مباءة... وأدخل مدارس الحنفية والشافعية في كل يوم لحضور المتناظرين من الطوائف..."

80- أحكام القرآن ، ج1، ص 151/152. (انظر فيه نص المناظرة كاملة). والظاهر أنها حدثت بين 485هـ -488هـ على اعتبار تصريحه ببقائه في القدس أكثر من 3 سنوات كما في قانون التأويل ص433. وفي كتاب مع القاضي أبي بكر ص 203.

81- هو القاضي يحيى بن المفرج، أبو الحسن اللخي المقدسي. (أورده السبكي في طبقات الشافعية الكبرى: 335/7، تحت الترجمة رقم 1036).

- قال مجير الدين العليبي في "أنس الجليل بتاريخ القدس والخليل" والإمام أبو بكر بن العَرَبِيِّ مُحَمَّد بن عبد الله المغربي المُعَاوِي الأندلسي الأشبيلي الحَافِظ المشهُور...قدم بيت المُقَدَّس وروى عنه خلق كثير من العلماء...⁸².

ج- الأحداث الدينية والاجتماعية

مثال1: موسم الحج لسنة 489هـ.

قوله تعالى: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم...الآية﴾

[إبراهيم:37].

قال ابن العربي: "فما أربع مسائل:...

المسألة الثانية: في قوله تعالى ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع﴾ [إبراهيم:

37] لا يجوز لأحد أن يتعلق به في طرح عياله وولده بأرض مضيعة اتكالا على العزيز الرحيم، واقتداء بفعل إبراهيم، كما تقول الغلاة من الصوفية في حقيقة التوكل؛ فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله؛ لقولها له في هذا الحديث: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، ولما كان بأمر منه أراد تأسيس الحال وتمهيد المقام، وخط الموضوع للبيت المحرم والبلدة الحرام، أرسل الملك فبحث بالماء، وأقامه مقام الغذاء، ولم يبق من تلك الحال إلا هذا المقدار؛ فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «ماء زمزم لما شرب له»⁸³.

وقد اجتزا به أبو ذر ليالي أقام بمكة ينتظر لقاء النبي - صلى الله عليه وسلم - ليستمع منه قال: حتى سمت وتكسرت عكن بطني...⁸⁴

- وفي سياق الكلام عن أهمية ماء زمزم وبركته، ذهب ابن العربي ينزل نصه التفسيري

على واقعه، موثقا بذلك لحدث ديني هو حجه سنة 489هـ فقال:

ولقد كنت بمكة مقيما في ذي الحجة سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكنت أشرب ماء زمزم كثيرا، وكلما شربته نويت به العلم والإيمان حتى فتح الله لي بركته في المقدار الذي يسره لي من العلم، ونسيت أن أشربه للعلم؛ ويا ليتني شربته لهما، حتى يفتح الله علي فيهما، ولم يقدر؛ فكان صغوي إلى العلم أكثر منه إلى العمل، ونسأل الله الحفظ والتوفيق برحمته.⁸⁵

وقد أكد أن ذلك تاريخا لحجته عند تفسير قوله تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج..الآية﴾ [الحج:78]. فقال: ولقد نزلت بي هذه النازلة سنة تسع وثمانين، كان معي ما استيسر من الهدى، فلما رميت جمرَةَ العقبة، وانصرفت إلى النحر جاء المزين وحضر الهدى، فقال أصحابي: ننحر ونحلق، فحلقت، ولم أشعر قبل النحر...⁸⁶

82- أنس الجليل: 302/1.

83- أخرجه أحمد في المسند عن جابر بن عبد الله، رقم الحديث: 14849، ج 23، ص 140، قال شعيب الأرنؤوط: محتمل للتحسين.

84- أحكام القرآن ص 97، 98.

85- أحكام القرآن، ص 98.

86- أحكام القرآن ص 309، 310.

حدث حجه بموسم 489هـ في تقارير المؤرخين.

- قال ابن بشكوال في الصلة في تاريخ أئمة الأندلس: "ثم رحل إلى الحجاز فحج في موسم سنة تسع وثمانين..."⁸⁷.

- قال ابن العماد في "شذرات الذهب": "ثم دخل الحجاز فحج في موسم سنة تسع وثمانين..."⁸⁸

- وقد نقل الأستاذ "محمد السليمان" في تحقيقه على كتاب "قانون التأويل" تفاصيل حجته بجمعها من مختلف كتبه مثل "عارضة الأحوذى" و"سراج المريدين" و"إتحاف الورى" و"أحكام القرآن" الخ ، فقال في بداية كلامه رواية عن ابن العربي: "لما كانت سنة: 489 أهل علينا هلال ذي الحجة ليلة يوم الخميس بالرَّبَّة، فرحلنا عنه، وقد فرح الناس بوقفة الجمعة ليجتمع لهم فضل اليومين، فضل يوم عرفة، وفضل يوم الجمعة."⁸⁹

وقال في أواخر كلامه عن هذا الحدث مؤكدا صحة تاريخه من قول ابن العربي نفسه: "وقد رأيت بمكة صندوقاً فيه حجر عليه أثر قدم قد انمى واخلولق، فقالوا كلهم هذا أثر قدم إبراهيم عليه السلام، وهو موضوع بإزاء الكعبة، لمستة بيدي وخدي تبركاً به في ذي الحجة من سنة 489 والحمد لله رب العالمين"⁹⁰.

مثال 2: توثيق مشاهداته الدينية في الأرض المقدسة.

أ- مشاهدته قبور الأنبياء عليهم السلام سنة (487هـ).

قوله تعالى: ﴿وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ [يوسف: 84].

قال ابن العربي: "فيها ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: حدث مالك عن حزن يعقوب أنه حزن سبعين ثكلى. قيل: فما أعطي؟ قال:

أجر سبعين شهيدا. قال مالك: قال يوسف لما حضرته الوفاة: ما انتقمتم لنفسي من شيء أتى إلي، فذلك زادي اليوم من الدنيا، وإن عملي لاحق بعمل آبائي، فآلحقوا قبري بقبورهم."⁹¹

- ثم انتقل ابن العربي إلى تزييل هذا السياق على واقعه وهو بالأرض المقدسة، فوثق لمشهد ديني يتعلق بقبور بعض الأنبياء من بني إسرائيل عليهم السلام، فقال: "المسألة الثانية: قوله: "آلحقوا قبري بقبور آبائي" شاهدناه سنة سبع وثمانين... وهو في قرية جيرون ... وفي

87- الصلة، ص 558.

88- شذرات الذهب، ج6، ص233.

89- قانون التأويل ص80.

90- قانون التأويل ص82.

91- أحكام القرآن 73/3.

92- والمعروف اليوم أن بابا من أبواب الجامع بدمشق، وهو باب الشرقى، يقال له باب جيرون...، وقال قوم: جيرون هي دمشق نفسها، وقال الغوري: جيرون قرية الجبابرة في أرض كنعان، وقد أكثر الشعراء القدماء والمحدثون من ذكره.. (معجم البلدان 199/2). والظاهر من كلام ابن العربي أنه يقصد بلدة "حبرون" التي هي الاسم القديم لمدينة الخليل، وتبعد عن القدس ثمانية عشر ميلا، ولعل جيرون في نصه محرفة عن "حبرون"، فإنها اسم القرية التي فيها قبر إبراهيم الخليل عليه السلام بالبيت المقدس وقد غلب على اسمها الخليل. (انظر معجم البلدان 212/2)، (المسالك والممالك 1: 1059)، (حسن المحاضرة، السيوطي، ص13) وغيرها.

وسط القرية بانيان مرصوص من حجارة عظام سورا عظيما، في داخله مسجد، في الجانب الغربي منه مما يلي القبلة إسحاق، ويليهِ في الجانب المذكور إبراهيم الخليل، ويليهِ في الطرف الجنوبي من الجانب الغربي يعقوب على نسبة متماثلة. وفيما يقابلها من الجانب الشرقي قبور أزواجهم على الاعتدال، على كل قبر حجر عظيم واحد... وفي الجانب القبلي منه خارج هذا الحرم قبر يوسف متبذرا، ...، وهيئة قبر يوسف - صلى الله عليه وسلم - كهينة قبورهم. وهذا أصح الأقاويل في موضع قبره ...⁹³

- توثيق ابن العربي في تقارير المؤرخين

- قال الحميري في "الروض المعطار في خبر الأقطار": "ويقال إن إبراهيم الخليل عليه السلام دفن في جيرون من أرض الكنعانيين في مزرعة اشتراها إبراهيم وفيها دفنت سارة وإسحاق عليهما السلام، وموضع قبورهم مشهورة على ثمانية عشر ميلاً من بيت المقدس في مسجد هناك يعرف بمسجد إبراهيم عليه السلام."⁹⁴

وقال المطهر المقدسي في "البدء والتاريخ": "... فعاد إبراهيم عم إلى أرض فلسطين فسكنها وكثرت ماشيته ونعمه وغلमानه وابتاع مزرعة حبرون وفيها قبره وقبر إسحاق ويعقوب..."⁹⁵

ب- مشاهدة جذع ولادة المسيح عليه السلام سنة (485هـ)

قوله تعالى: ﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾ [مريم: 25]

قال ابن العربي: فيها ثلاث مسائل:

المسألة الثانية: في صفة الجذع قولان:

أحدهما: أنه كان لنخلة خضراء، ولكنه كان زمان الشتاء، فصار وجود التمر في غير إبانهِ آية. الثاني: أنه كان جذعا يابساً فهزته، فاحضر وأورق وأثمر في لحظة."⁹⁶

- ومن هذا التفسير أخذ ابن العربي يتزل الكلام عن صفة الجذع على الواقع، موثقاً بذلك لمشهد ديني تاريخي هام، وهو جذع النخلة الذي شهد حادث ولادة السيد المسيح عليه السلام ببيت لحم، فقال: "ودخلت بيت لحم سنة خمس وثمانين وأربعمائة، فرأيت في متعبدهم غارا عليه جذع يابس كان رهبانهم يذكرون أنه جذع مريم بإجماع، فلما كان في المحرم سنة اثنتين وتسعين دخلت بيت لحم قبل استيلاء الروم عليه لستة أشهر، فرأيت الغار في المتعبد خاليا من الجذع. فسألت الرهبان به، فقالوا: نخر وتساقط، مع أن الخلق كانوا يقطعونه استشفاء حتى فقد."⁹⁷

93- أحكام القرآن 73، 74/3

94- الروض المعطار في خبر الأقطار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الجيمري تج: إحسان عباس (ط2)، بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة (1980) ص. 186

95- البدء والتاريخ، المطهر بن طاهر المقدسي، (د.ط، بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، د.ت) ج3، ص52. وتسميته القرية "حبرون" بالحاء موافق لما عليه أكثر المؤرخين، كما سبق تفصيله.

96- أحكام القرآن 249/3، 250.

97- أحكام القرآن 250/3

- جذع ولادة المسيح عليه السلام ببیت لحم في تفریقات المؤرخین.
- قال القرزونی، زکریاء بن محمد (ت 682هـ) في "أثار البلاد وأخبار العباد":
بیت لحم: قرية على فرسخین من بیت المقدس، كان بها مولد عیسی، علیه السلام. وبها
كنیسة فیها قطعة من النخل، زعموا أنها النخلة التي أكلت منها مریم لما قیل لها: وهزي إليك
بجذع النخلة.⁹⁸

- قال الهروي، أبو الحسن (ت 611هـ)، في "الإشارات إلى معرفة الزیارات":
- بیت لحم: بلدة بها مولد عیسی علیه السلام ...، وبهذه الكنيسة أثار وعماره عجيبة من
الرخام والفص المذهب والعمد، وتاریخ عمارتها یزید على ألف ومائتي سنة، منقور في الخشب
لم یتغیر إلى زماننا هذا، وبه موضع النخلة المذكورة في القرآن العزیز وَهْزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ
...⁹⁹، وفيه تفریقا لما وثقه ابن العربی من تفاصيل حول عین الجذع.

مثال 3: توصیف أحوال النساء في بلاد الشام (485هـ-492هـ).
قوله تعالى: ﴿...وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: 33].

قال ابن العربی: فیها ثمان مسائل:

لمسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: 33]

یعني اسكن فیها ولا تتحرکن، ولا تبرجن منها، حتی إنه روي ولم یصح أن النبی - صلی الله
علیه وسلم - لما انصرف من حجة الوداع قال لأزواجه هذه؛ ثم ظهور الحصر: إشارة إلى ما
یلزم المرأة من لزوم بیته، والانکفاف عن الخروج منه، إلا للضرورة.¹⁰⁰

- ثم أن ابن العربی شرع في تنزیل هذا المعنى على واقع المرأة العربية ببلاد الشام كنموذج
لحال المرأة العربية آنذاك، فقال موثقاً ذلك الواقع الاجتماعي الخطير: "ولقد دخلت نیفا على
ألف قرية من برية، فما رأیت نساء أصون عیالا، ولا أعف نساء من نساء نابلس التي رمي فیها
الخیل - علیه السلام - بالنار، فإني أقمت فیها أشهراً، فما رأیت امرأة في طریق، نهارة، إلا يوم
الجمعة، فإني يخرجن إليها حتی یمتلئ المسجد منهن، فإذا قضیت الصلاة، وانقلبن إلى منازلهن
لم تقع عینی على واحدة منهن إلى الجمعة الأخرى. وسائر القرى ترى نساؤها متبرجات بزينة
وعطلة، متفرقات في كل فتنة وعصلة.

وقد رأیت بالمسجد الأقصى عفاف ما خرجن من معتكفهن حتی استشهدن فيه.¹⁰¹

- هذا الحدث وثقه كانطباع شخصي، ولذلك اكتفيت بما قرره ابن العربی نفسه.

98- أثار البلاد وأخبار العباد، القرزونی، (د.ط، بیروت: دار صادر، د.ت) ج 1، ص 159.

99- الإشارات إلى معرفة الزیارات، الهروي أبو الحسن، (ط)، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، (1423)، ص 34.

100- أحكام القرآن 568/3، 569.

101- أحكام القرآن 569/3، وفي قوله عن نساء القدس "حتى استشهدن فيه، إشارة إلى زمن الحادثة، وهو الحملة
الصليبية على بیت المقدس 492هـ كما سبق، كما أنه تجدر الإشارة إلى أن ابن العربی كان موجود بالقدس منذ
485هـ كما أكد ذلك بزيارته لبیت لحم في 485هـ عند كلامه عن قوله تعالى: ﴿وهزي إليك بجذع النخلة تساقط
عليك رطباً جنياً﴾...

4 - الخاتمة

توصلت هذه الدراسة " المداخلة" إلى النتائج التالية

- تعود عناية أبي بكر بن العربي المميّزة بالتزئيل على الواقع بما في ذلك توثيق الأحداث التاريخية كصورة منه، إلى قوة مؤهلاته العلمية من جهة، وإلى اتساع نشاطاته، واحتكاكه بالواقع المعاش من جهة ثانية.

- توثيق الأحداث التاريخية من خلال العمل التفسيري وهو شكل من أشكال التزئيل على الواقع، وإحدى مفردات سياقه.

- يتمثل مسلك ابن العربي في التوثيق التاريخي من خلال التزئيل على الواقع في: التصدير بالنص القرآني، يعقبه بذكر أهم المسائل المرتبطة بتفسير الآية، ثم إسقاط النص التفسيري على أحد أحداث الواقع التاريخي المعاصر تأريخاً له وتقريراً للنص القرآني.

- النص التفسيري مصدر مهم للتوثيق التاريخي، ضمن عملية التزئيل على الواقع.

- كتاب "أحكام القرآن"، مجال خصب لدراسة موضوع التزئيل على الواقع في التفسير.

• التوصيات:

- حث الباحثين وطلبة الدراسات العليا على عمل دراسات فعالة حول مختلف انواع

التزئيل على الواقع في تفسير "أحكام القرآن".

- توسيع مجال الدراسات إلى الكشف عن جهود علماء المدرسة المغربية التفسيرية في موضوع التزئيل على الواقع بما في ذلك التوثيق التاريخي

5- قائمة المصادر والمراجع

• القرآن الكريم.

1. آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني زكريا بن محمد، (دط، بيروت: دار صادر، دت).
2. أحكام القرآن، أبو بكر بن العربي، تج: محمد عبد القادر عطا، ط3، بيروت: دار الكتب العلمية، 2003/1424.
3. الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصر، ت: جعفر الناصري/ محمد الناصري (دط، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1418هـ).
4. الإشارات إلى معرفة الزيارات، الهروي أبو الحسن، (ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1423هـ).
5. أطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ط. جديدة، بيروت: مكتبة لبنان، دت، اللوحة 78 (اسبانيا والبرتغال).
6. أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ط1، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، 1987/1407 الخريطة رقم 88.
7. انبعاث الإسلام في الأندلس، محمد الكتاني، (ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1426).
8. الأئس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجير الدين علي، تج: عدنان عبد المجيد نباتة، دط، عمان: دار دنديس، دت.
9. البدء والتاريخ، المطهرين طاهر المقدسي، دط، بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، دت.
10. بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس، أبو جعفر الضبي، دط، القاهرة: دار الكتاب العربي، 1967.
11. البيان المغرب في اختصار تاريخ الأندلس والمغرب، ابن عذارى المراكشي، ت: بشار عواد معروف، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1434هـ.
12. تاريخ العرب وحضارتهم بالأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ط1، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2000.
13. تاريخ الفقه الإسلامي، محمد علي السائس، دط، بيروت: دار الكتب العلمية، دت.
14. التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، دط، القاهرة: مكتبة وهبة، دت.
15. التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، ت: عبد السلام الهراس دط، بيروت: دار الفكر، 1995/1415.

16. تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز عبد الرحمن الضامر، ط1، دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، طبع بإذن المجلس الوطني للإعلام بالإمارات 2006.
17. الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، ابن القطان المراكشي، تج: د.محمود علي مكي، (ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990.
18. دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، ط2، القاهرة: مكتبة خفاجي، 1411هـ/ 1990م .
19. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون، ت: محمد الأحمد، دط، دار التراث للطبع والنشر، دت.
20. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ط1، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه 1376/1957.
21. الزلافة معركة من معارك الإسلام الحاسمة، جميل عبد الله محمد المصري، دط، السعودية: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، دت.
22. سير أعلام النبلاء، الذهبي، شعيب الأرنؤوط، ط3: مؤسسة الرسالة، 1405هـ، 1985م.
23. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف، لاط: المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1349هـ.
24. شنرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد، تج: محمود الأرنؤوط، ط1، دمشق: دار ابن كثير، 1406/1986.
25. الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ابن بشكوال، ط2: مكتبة الخانجي، 1374هـ، 1955م..
26. طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، تج: محمد الطناحي، ط2: دار هجر، السعودية، 1413هـ.
27. العبر في تاريخ من غير، الذهبي، تج: أبو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول، دط، بيروت: دار الكتب العلمية، دت.
28. الغنية في شيوخ القاضي عياض، القاضي عياض، تج: ماهر زهير جرار، ط1: دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1402هـ.
29. قانون التأويل، أبو بكر بن العربي، تج: محمد السليمان، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة.
30. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تج: عمر عبد السلام تدمري، ط1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1417/1997.
31. لسان العرب، ابن منظور، ط1، بيروت: دار صادر، دت.
32. المعالم الأثرية في السنة والسيرة، محمد بن محمد حسن شُرَّاب، ط1، بيروت/ دمشق: دار القلم/ الدار الشامية، 1411هـ.
33. معجم البلدان، ياقوت الحموي ، دط، بيروت: دار الفكر، دت.
34. مع القاضي أبي بكر بن العربي وسعيد أعراب، ط1، بيروت : دار الغرب الإسلامي .
35. لجنة المتفقهين إلى معرفة غوامض النحويين، أبو بكر بن العربي، نشرته مجلة العلوم العربية والإنسانية، المجلة العلمية لجامعة القصيم بالسعودية، مجلة محكمة، المجلد:10، العدد:2، ص1151، تحت عنوان: مسائل كتاب لجنة المتفقهين إلى معرفة غوامض النحويين واللغويين، لأبي بكر بن العربي – جمعا ودراسة- فريد عبد العزيز الزامل السليم، تاريخ: رجب 1438، مارس 2017.
36. موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر ، أحمد معمور العسيري، ط1، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 1417 هـ - 1996
37. موقع wafa مركز المعلومات الوطني الفلسطيني، المدن الفلسطينية في حدود فلسطين (الأراضي المحتلة عام 1967)، بيت لحم. تاريخ التصفح 2022/09/29م.
38. الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، أبو بكر بن العربي، تج: عبد الكبير العلوي المدغري، ط1: مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2006.
39. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي، المعروف بالشريف الإدريسي، ط1، بيروت: عالم الكتب، 1409هـ.
40. نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقرئ التلمساني، تج: إحسان عباس، ط1: بيروت، دار صادر، 1997م.
41. وفيات الأعيان، ابن خلكان، تج: إحسان عباس، ط1: بيروت، دار صادر، 1994.
42. المعين في طبقات المحدثين الذهبي، تج: همام عبد الرحيم سعيد، ط1، عمان: دار الفرقان (1404).
43. الروض المعطار في خبر الأقطار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الجُمَيْرِي تج: إحسان عباس ط2، بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة 1980..

توظيف تنزيل النص القرآني في النوازل والمستجدات عند القرطبي من خلال تفسيره الجامع لأحكام القرآن

ط.د/ سلسبيل شنوف، إشراف: د/ محمد تمرغين

مخبر مناهج البحث في العلوم الإسلامية

قسم العقائد والأديان-كلية العلوم الإسلامية - جامعة الجزائر1

s.chennouf@univ-alger.dz

m.timezghine@univ-alger.dz



مقدمة

لقد جاءت الأحكام التشريعية الربانية موافقة لمصلحة الخلق ودافعة للمفاسد عنهم، ولتحقق هذا المقصد يلزمنا فهم سليم لنصوص الشرع واستنباط قويم وتنزيل حكيم، على اختلاف الأمكنة وتغير الأزمنة والأشخاص والأحوال والأوضاع، كل ذلك من أجل الاهتمام بالنص القرآني في كل نازلة، أو وضع مستجد، أو معرفة حكم، أو إبطال فعل. وعُدَّ التنزيل على الواقع من أدق وأهم ما يخلص إليه العالم، وهو أعلى درجة من الفهم والاستنباط.

وقد اهتم الفقهاء والمفسرون في كل زمان بهذا الجانب بحسب طبيعة الفترة المكانية والزمانية فقد تفاوت التطبيق من مكان إلى آخر، وهذا ما ظهر في تفاسير المغاربة حيث أولوا اعتناء بفقه النوازل والمستجدات الطارئة على عصرهم. من هنا تظهر أهمية معرفة هذا التطبيق لأن دراسة وتتبّع توظيف العلماء للنصوص وربطها بأحداث واقعيهم، يُلهم العلماء والدعاة بكيفية ربط الناس بالقرآن وتقريب الوحي من حياتهم، ليزدادوا فهما وتعلقا واستشعارا لخطاب الله في أي وضع أو حادثة تطرأ عليهم. فكيف كان توظيف أهم مفسري الغرب الإسلامي للإمام القرطبي- للنص القرآني مع ما عاشه من وقائع ونوازل؟

سأعرّف في هذا البحث الموجز بالإمام القرطبي ومنجه في تفسيره، وأركز على إبراز نماذج من توظيف الإمام القرطبي لتنزيل النص القرآني على أحداث ومستجدات عصره.

الدراسات السابقة:

-تطبيق الآيات على الوقائع المعاصرة من خلال المنار ومجالس التذكير والظلال.عبد العزيز الضاهر، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى-كلية الدعوة وأصول الدين.

-فقه الواقع في ضوء القرآن الكريم: أصول وتطبيقات، بركة حسن المبروك، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان الإسلامية-كلية أصول الدين، السودان. 2009م.

-تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم، يحيى بن محمد ززمي، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، العدد الرابع، السنة الثانية.

اشتمل البحث على مقدمة ذكرت فيها أهمية البحث ومضمونه وأهم الدراسات السابقة، ومبحثين المبحث الأول تعريف بالقرطبي وتفسيره الجامع لأحكام القرآن والمبحث الثاني نماذج

من توظيف القرطبي لتزليل النص القرآني في النوازل والمستجدات، المطلب الأول نماذج من نقده وتقويمه لواقعه، والمطلب الثاني نماذج من وصفه وتوجيهه لواقعه، ثم خاتمة بها أهم النتائج والتوصيات.

خطة البحث:

مقدمة.

المبحث الأول: التعريف بالقرطبي وتفسيره.

المبحث الثاني: نماذج من توظيف تزليل النص القرآني في النوازل والمستجدات عند القرطبي. خاتمة.

المبحث الأول: التعريف بالإمام القرطبي وتفسيره.

المطلب الأول: التعريف بالإمام القرطبي.

أ. اسمه ونسبه ومولده:

• اسمه ونسبه: هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن قَرْح بسكون الراء والحاء المهملة، الخزرجي الأنصاري القرطبي الأندلسي¹.

• كنيته: أبو عبد الله، ولقبه بعضهم بشمس الدين².

• مولده: لم تذكر المصادر التي ترجمت للقرطبي شيئا عن تاريخ ولادته، ولكن رجح بعض من ترجم له أن ولادته كانت في بداية القرن السابع بقرطبة³، وذلك اعتمادا على بعض الأحداث التي ذكرها القرطبي في بعض كتبه والتي توحى بأنه حينها كان صغيرا لا يزال يطلب العلم، مثل ما ذكره في قصة مقتل والده والتي أشار إليها في تفسيره، فقال: "أغار العدو-قصمه الله- صبيحة الثالث من رمضان المعظم سنة سبع وعشرين وست مئة والناس في أجراهم⁴ على غفلة، فقتل وأسر، وكان من جملة من قُتِلَ والذي رحمه الله⁵".

ب. نشأته وطلبه للعلم:

نشأ في مدينة قرطبة التي كانت قلعة من قلاع العلم، وفيها نشأ جهازة من العلماء في مختلف الفنون، كما انتشرت المدارس والمكتبات العلمية في أرجاءها آنذاك، واستفاد من جلّ علماء بلده، في شتى الفنون ولذلك نجده في كتبه كثيرا ما يتعرض لذكرهم، فيقول: "سمعت شيخنا، وأخبرني قراءةً عليه"، وكان ذلك بقرطبة وهو في مرحلة الطلب. أسرته كانت فقيرة، والده كان يشتغل بالزراعة وكان يباشر في حصاد بعض المحاصيل بنفسه يوم قُتِلَ مع غيره من

¹ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ت: إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1388هـ/1968م، ج: 2، ص: 210. جلال الدين السيوطي، طبقات المفسرين، ت: علي محمد عمير، مكتبة وهبة، ط: 1، 1396هـ/1976م، ص: 92. شمس الدين محمد بن علي الداوودي، طبقات المفسرين، راجعها لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1403هـ/1983م، ج: 2، ص: 69.

² مشهور حسن محمود سلمان، الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، دار القلم، دمشق، ط: 1، 1413هـ/1993م، ص: 13.

³ بضم أوله وسكون ثانيه، وضم الطاء المهملة أيضا، والباء الموحدة، وهي مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها.

⁴ معجم البلدان، ياقوت الحموي، ت: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج: 4، ص: 325.

⁵ الجرين: موضع اللُّز، وقد يكون للتمر والعنب، والجمع أجرنة وجُرْن. لسان العرب، ج: 13، ص: 87.

⁵ مشهور حسن، الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، ص: 13-15.

وقد أقبل القرطبي منذ صغره على طلب العلم، وقضى جلّ وقته في مدارسته وتلقيه من العلماء ولم يقتصر على الأخذ من شيوخه فقط بل كان يداوم النظر في الكتب ويقرأ على أهل العلم وقد أجاز به بعض هذه الكتب كما حدّث بذلك عن نفسه في بعض كلامه: "وقد رَوينا ذلك بالإجازة"، ويقول أيضاً: كنت بالأندلس قد قرأت أكثر كتب المقرئ الفاضل أبي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان^{7, 8}.

ج. رحلاته:

د. شیوخه وتلامیذه:

(1) شیوخہ:

• شيوخه بالأندلس:

- أبو سليمان ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري.
- أبو عامر يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع الأشعري.
- أبو جعفر أحمد بن محمد القيسي، المعروف بابن أبي حجة.
- أبو الحسن علي بن قُرطال بن عبد الله بن محمد الأنصاري، القرطبي.

⁶ نفس المرجع السابق، ص: 32.

هو أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد الداني، القرطبي المقرئ صاحب التصانيف، ولد سنة (371هـ)، وكان أحد الأئمة في علم القراءات، مات في النصف من شوال سنة (444هـ). الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1419هـ، 1998م، ج: 3، ص: 211.

⁸ مشهور حسن، الإمام القرطبي شيخ أئمة المفسرين، ص: 33.

9 هي مدينة عظيمة من مدن مصر اختلفوا في أول من أنشأها، ف قيل هي إرم ذات العماد، و يقال أن الإسكندر والقرمان أخوان بني كل واحد مدينة بأرض مصر وسمها باسمه. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج:1، ص:183.

¹⁰ بالفتح وتشديد ثانيه ثم واو ساكنة وميم، هي ولاية غربية من ولايات مصر، وهي في منخفض الأرض كالدارة، ويقال أن النيل أعلى منها. الحموي، معجم البلدان، ج: 4، ص: 286.

¹¹ هي بلدة أنشأها الملك الكامل ابن الملك العادل بن أيوب بين دمياط والقاهرة، وربطت بها في وجه الأفرنج لما ملكوا دمياط وذلك في سنة 616هـ الحموى، معجم البلدان، ج: 5، ص: 212.

¹² هي مدينة بجنب الفسطاط يجتمع سور واحد وهي اليوم المدينة العظمى بمصر، أول من أحدثها جوهر غلام المعز أبو تميم معدّ بن إسماعيل الملقب بالنصور. الحموى، معجم البلدان، 4: ج، ص: 310.

13 ضبطها الحموي منية أبي الخُصيب، بضم ثم السكون ثم ياء مفتوحة، مدينة كثيرة الأهل والسكن على شاطئ النيل في الصعيد الأدنى، الحموي، معجم البلدان، ج: 5، ص: 218.

• شيوخه بمصر:

- أبو محمد عبد الوهاب بن رواج _ واسمه ظافر_ بن علي بن فتوح بن حسين الأزدي، القرشي، الإسكندراني، المالكي، الجَوْشَنِي.
- أبو الحسن بهاء الدين علي بن هبة الله بن سلامة اللّخمي، المصري، الشافعي، المعروف بابن الحُميري.
- أبو العباس ضياء الدين أحمد بن عمر الأنصاري، الأندلسي، القرطبي، يعرف بابن المزّين.
- أبو علي الحسين بن محمد بن محمد بن عمروك البكري، النيسابوري، ثم الدمشقي.

(2) تلاميذه:

- ابنه شهاب الدين أحمد. قال السيوطي (911هـ)¹⁴: "وروى عنه _أي عن القرطبي_ بالإجازة: ولده شهاب الدين أحمد"¹⁵.
 - أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن إبراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين الثقفي، العاصمي، الغرناطي.
 - أبو بكر محمد بن كمال الدين أبو العباس أحمد بن أمين الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن الميمون الميموني القسطلاني، المصري، الفقيه، المالكي.
 - ضياء الدين أحمد بن أبي السعود بن أبي المعالي البغدادي المعروف بالسطريجي.
- هـ. آثاره ومؤلفاته: يمكننا أن نقسم آثاره إلى قسمين:
1. الكتب المطبوعة، منها:
 - الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمّنه من السنة وآي الفرقان. وهو أهم كتبه، فقد أثنى عليه الكثير من العلماء.
 - التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، وهو كتاب مشهور، كتبه في مجلدين، جمعه من الأخبار والآثار وما يتعلق بالموت والحشر والجنة والنار والفتن، وقد ذكره المصنف في تفسيره في مواطن كثيرة.
 - الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، يعالج قضية العقيدة والإيمان بالله وبأسمائه وصفاته.
 - التذكار في أفضل الأذكار. طبعه أول مرة و نشره محمد أمين الخانجي، وخرّج أحاديثه وعلق على حواشيه أحمد الغماري. وموضوعه هو القرآن الكريم، جمع فيه أربعين حديثاً في فضل القرآن وقارنه ومستمعه.
 2. الكتب المخطوطة، منها:
 - الانتهاز في قراءة أهل الكوفة والبصرة والشام وأهل الحجاز.
 - أرجوزة، جمع فيها أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وشرحها .

¹⁴ هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضير السيوطي، جلال الدين، ولد سنة 849هـ، إمام حافظ مؤرخ

أديب نشأ في القاهرة يتيماً، له نحو 600 مصنف، توفي سنة 911هـ. الزركلي، الأعلام، ج: 3، ص: 301.

¹⁵ السيوطي، طبقات المفسرين، ص: 92.

- منهج العبّاد ومحجّة السالكين والزّهاد.
 - اللّمع اللؤلؤية في شرح العشرينات النبوية.
 - رسالة في ألقاب الحديث.
 - شرح النقصي لما في الموطأ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 - و. وفاته: توفي رحمه الله ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة واحد وسبعون وستمئة،
بمنية بني خصيب ودُفن بها.¹⁶
 - ز. ثناء العلماء عليه:
 - قال الداوودي(945هـ)¹⁷: "كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الورعين الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعينهم من أمور الآخرة، أوقاته معمورة ما بين توجّه وعبادة وتصنيف"¹⁸.
 - قال ابن العماد(1089هـ)¹⁹: "كان إماماً علماً، من الفواصين على معاني الحديث، حسن التصنيف، جيّد النقل"²⁰.
 - قال الذهبي(ت:1397هـ)²¹: "كان رحمه الله من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الزاهد في الدنيا، المشغولين بما يعينهم من أمور الآخرة، وبلغ من زهده أن طرح التكلف، وصار يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية، وكانت أوقاته كلها معمورة بالتوجه إلى الله وعبادته تارة، وبالتصنيف تارة أخرى، حتى أخرج للناس كتباً انتفعوا بها"²².
- المطلب الثاني: التعريف بتفسير القرطبي.**

1. اسم الكتاب، ونسبته لمؤلفه:

- اسمه: ذكر الإمام القرطبي اسمه في مقدمة تفسيره فقال: "وسمّيته الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنته من السنّة وآي الفرقان، جعله الله خالصاً لوجهه، وأن ينفعني به ووالديّ، ومن أراد بمتّنه، إنه سميع الدعاء، قريب مجيب، أمين"²³.
- نسبته لمؤلفه: أجمعت المصادر التي ترجمت للإمام القرطبي على أن له كتاباً في تفسير القرآن الكريم، غير أنهم اختلفوا في ذكر اسمه، فهناك من اكتفى بذكر أن له كتاباً في التفسير

¹⁶ المقرئ، نفح الطيب، ج:2، ص:213.

¹⁷ هو محمد بن علي بن أحمد شمس الدين الداوودي، المالكي، شيخ أهل الحديث في عصره، مصري، من تلاميذ جلال الدين السيوطي، توفي سنة 945هـ الزركلي، الأعلام، ج:6، ص:291.

¹⁸ الداوودي، طبقات المفسرين، ج:2، ص:69.

¹⁹ هو عبد الحي بن أحمد بن محمد، أبو الفلاح ابن العماد الحنبلي الدمشقي، الملقب بالعكري، مؤلف شذرات الذهب، وشارح المنتقى، توفي سنة 1089هـ ابن الغزي، ديوان الإسلام، ج:3، ص:320.

²⁰ ابن العماد، شذرات الذهب، ج:7، ص:585.

²¹ هو محمد بن حسين الذهبي، عالم من علماء الأزهر، عُرف ببحوثه القيمة في مناهج المفسرين، اغتيل في شهر رجب سنة 1397م، محمد خير رمضان يوسف، تكملة معجم المؤلفين، تكملة معجم المؤلفين، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط:1، 1418هـ/1997م، ص:474.

²² محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، ج:2، ص:336.

²³ محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنّة وآي الفرقان، ت: عبد الله ابن المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط:1، 1427هـ/2006م، ج:1، ص:8.

كصاحب طبقات المفسرين حيث قال: "مصنف التفسير المشهور الذي سارت به الركبان"²⁴. وهناك من ذكر عنوان الكتاب موجزا، كصاحب الأعلام حيث قال: "من كتبه الجامع لأحكام القرآن، عشرون جزءا، يعرف بتفسير القرآن"²⁵.

2. منهجه في التفسير:

يبن الإمام القرطبي منهجه في التفسير في مقدمته فقال: "فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع، الذي استقل بالسنة والفرض، ونزل بها أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمري، وأستفرغ فيه منيتي، بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا، يتضمن نكتا من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعا بين معانيها، ومبين ما أشكل منها بأقوال السلف، ومن تبعهم من الخلف."²⁶

وطريقته العامة في التفسير هي إيراد تفسير أية أو أكثر في مسائل مرتبة حسب مباحث، يتمثل مجملها في:

- ذكر فضل السورة أو الآية وما ورد في ذلك من أخبار، وربما ذكر فضل السورة قبل بدئه بالمسائل.

- ذكر سبب النزول.

- تفسير الآية بما ورد فيها من آثار وهو ما يُعرف بالتفسير بالمأثور و بما تحتمله الألفاظ من معاني في اللغة، مستشهدا على ذلك بأشعار العرب، وأقوالهم.

- ذكر الأحكام الفقهية المتعلقة بالآية، مع ذكر الاختلاف فيها بين الأئمة، مع إيراد أدلة كل منهم. وكثيرا ما يستطرد أثناء ذكر هذه الأحكام، فربما خرج إلى ما لا صلة له بالتفسير.

- ذكر ما يتعلق بالألفاظ والآية من اشتقاق، وتصريف، وإعلال، وإعراب، مع إيراد أقوال أئمة اللغة فيها أحيانا.

- ذكر وجوه القراءات، المتواترة منها وغيرها.

إلى غير ذلك من ترجيح لقول، أو تصحيح لحديث، أو تعقب لمصنف، أو ردّ لأقوال بعض الفرق، أو تنبيه على سلوك غلاة المتصوفة.²⁷

لم يكتف الإمام القرطبي ببيان منهجه في التفسير وإنما بين شرطه ومجمل ما ذكره:

- إضافة الأقوال إلى قائلها، والأحاديث إلى مصنفها.

- أضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بد منه.

- تفسير آيات الأحكام، والإسفار عن معناها بمسائل ترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمن

كل آية تتضمن حكما فأكثر مجموعة مسائل يتبين فيها ما تحويه من أسباب النزول، والغريب،

²⁴ السيوطي، طبقات المفسرين، ص: 92.

²⁵ الزركلي، الأعلام، ج: 5، ص: 322.

²⁶ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: 1، ص: 7.

²⁷ انظر: عبد المحسن التركي، مقدمة تحقيق تفسير القرطبي، ص: 10.

والحكم. وإن لم تتضمن حكماً ذكر ما فيها من تفسير وتأويل.²⁸

المبحث الثاني: نماذج من تنزيل النص القرآني في النوازل والمستجدات عند القرطبي.
يتطلب تنزيل النص القرآني على النوازل والمستجدات معرفة حقيقية بالواقع وحيثياته، وخصوصياته وملابساته، ليستسنى تنزيل الحكم بكيفية تحقق مقاصد التشريع وتقرّب خطاب الله من واقع الناس؛ لتقويم أخطائهم وتوجيه مواقفهم.

وقد أجاد ابن القيم -رحمه الله- لما قال: "والحاكم إذا لم يكن فقيه النفس في الأمارات، ودلائل الحال، ومعرفة شواهد، وفي القرائن الحالية والمقالية، كفقّه في كليات الأحكام: أضاع حقوقاً كثيرة على أصحابها، وحكم بما يعلم الناس بطلانه ولا يشكون فيه، اعتماداً منه على نوع ظاهر لم يلتفت إلى باطنه وقرائن أحواله".²⁹

ثم أشار إلى نوعين من الفقه، لا بد للحاكم منهما: "فقه في أحكام الحوادث الكلية، وفقه في نفس الواقع وأحوال الناس، يميز به بين الصادق والكاذب، والمحق والمبطل. ثم يطابق بين هذا وهذا، فيعطي الواقع حكمه من الواجب، ولا يجعل الواجب مخالفاً للواقع".³⁰
وهكذا كان صنيع الإمام القرطبي حيث وظّف كثيراً من الآيات القرآنية في تقويم الناس من ناحية العبادات، ونقد الاعتقادات الباطلة وتوجيه الأحداث والمستجدات التي طرأت في عصره، وفي هذا المبحث سأعرض نماذج من هذا الأمر.

المطلب الأول: نقد وتقويم القرطبي للواقع وفق الآيات.

في قوله تعالى: ﴿كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ البقرة: 249.
شرح القرطبي مقصد الله عز وجل من قوله "كم من فتنة قليلة" الآية، أنها تحريض على القتال واستشعار للصبر واقتداء بمن صدق ربه. ثم علّق قائلاً: "هكذا يجب علينا نحن أن نفعل؟ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا".³¹
وفي ربطه هذا ببيان أن انهزام العدد الكبير أمام اليسير من العدو الذي حصل في عصره، إنما سببه الأعمال القبيحة وعدم الصدق مع الله عز وجل.

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمُ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ المائدة: 58.
علّق القرطبي في المسألة الثامنة من تفسير هذه الآية على من يخطأ في كيفية الأذان في وقته ووصفهم بالجهال، قائلاً: "وحكم المؤذن أن يترسل في أذانه، ولا يطرب به كما يفعله اليوم كثير من الجهال، بل وقد أخرجه كثير من الطعام والعوام عن حد الإطراب، فيرجعون فيه الترجيعات، ويكثرون فيه التقطيعات حتى لا يفهم ما يقول، ولا بما به يصول. روى الدارقطني

²⁸ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: 1، ص: 8.

²⁹ ابن قيم الجوزية، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ت: نايف بن أحمد الحمد، راجعه: سليمان بن عبد الله العمير - إبراهيم بن علي العبيد، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، ط: 4، 1440 هـ - 2019 م، ج: 1، ص: 6.

³⁰ المرجع السابق، ج: 1، ص: 7.

³¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: 4، ص: 245.

من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن يطرب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الأذان سهل سمح فإن كان أذانك سهلاً سمحاً وإلا فلا تؤذن)³².

في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الأنعام: 59.

بين القرطبي لجوء أهل زمانه للكهنة والعرافين خصوصاً في مصر، قائلاً: "وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان بآتيان المنجمين، والكهان لاسيما بالديار المصرية، فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجمين، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقه والدين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل، ومن أديانهم على الفساد والضلال"³³.

وهذه التفاتة مهمة من القرطبي خصوصاً في هذه الآية التي تؤكد أن الله عز وجل وحده عالم بالغيب، وأن هؤلاء المنجمين إنما يتسببون في ضياع الدين والمال والوقوع في الضلال. في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ...﴾ التوبة: 34.

شرح القرطبي المقصود بالأخبار والرهبان وذكر الأقوال فيما كانوا يفعلونه باسم الدين قائلاً: "والأخبار علماء اليهود. والرهبان مجتهدو النصارى في العبادة." بالباطل" قيل: إنهم كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضا باسم الكنائس والبيع وغير ذلك، مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف إلى الله تعالى، وهم خلال ذلك يحجبون تلك الأموال، كالذي ذكره سلمان الفارسي عن الراهب الذي استخرج كنزه، ذكره ابن إسحاق في السير. وقيل: كانوا يأخذون من غلاتهم وأموالهم ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع. وقيل: كانوا يرتشون في الأحكام، كما يفعله اليوم كثير من الولاة والحكام"³⁴.

في القول الثالث بأن الأخبار والرهبان كانوا يرتشون في الأحكام، أسقط القرطبي هذا الفعل على الولاة والحكام في زمانه.

المطلب الثاني: وصف وتوجيه القرطبي للواقع وفق الآيات.

في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ...﴾ البقرة: 216.

ذكر القرطبي قول أبي عبيدة في الآية: "عسى" من الله إيجاب، والمعنى عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات مات شهيداً، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم. ثم علق قائلاً: "وهذا صحيح لا غبار عليه، كما اتفق في بلاد الأندلس، تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد، وأي بلاد؟! وأسر وقتل وسبي واسترق، فإن الله وإنا إليه راجعون! ذلك بما قدمت أيدينا وكسبتة!"³⁵.

³² المصدر السابق، ج: 8، ص: 69.

³³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: 8، ص: 404.

³⁴ المصدر السابق، ج: 10، ص: 181.

³⁵ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: 3، ص: 417-418.

يظهر لنا من تعليق القرطبي ربطه لأحداث الأندلس، وأن استيلاء العدو عليها كان نتيجة كره الناس للقتال والجهاد وفرارهم من المواجهة.

في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ آل عمران: 118. بين القرطبي في ضوء هذه الآية عدم جواز استكتاب أهل الذمة، قائلا: "فلا يجوز استكتاب أهل الذمة، ولا غير ذلك من تصرفاتهم في البيع والشراء والاستنابة إليهم".³⁶ ثم أسقط هذا الأمر على حال الناس في عصره مع أهل الكتاب وكيف أهم خالفوا بذلك أمر الله عز وجل، قائلا: "وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء".³⁷

في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ الفرقان: 20.

في المسألة الرابعة من تفسير هذه الآية أورد القرطبي أحاديث تدل على أن أبغض الأماكن هي الأسواق، ثم علق عليها ببيان حكم دخولها، قائلا: "ففي هذه الأحاديث ما يدل على كراهة دخول الأسواق، لا سيما في هذه الأزمان التي يخالط فيها الرجال النسوان. وهكذا قال علماؤنا لما كثر الباطل في الأسواق وظهرت فيها المناكر: كره دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم في الدين تنزيها لهم عن البقاع التي يعصى الله فيها. فحق على من ابتلاه الله بالسوق أن يخطر بباله أنه قد دخل محل الشيطان ومحل جنوده، وإنه إن أقام هناك هلك، ومن كانت هذه حاله اقتصر منه على قدر ضرورته، وتحرز من سوء عاقبته وبليته".³⁸

في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ الأحقاف: 20.

بين القرطبي حدود الاستمتاع بالطيبات في الحياة الدنيا وهدي النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه في ذلك، قائلا: "والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه: على المرء أن يأكل ما وجد، طيبا كان أو قفارا، ولا يتكلف الطيب ويتخذة عادة، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يعتمد على أصلا، ولا يجعله ديدنا. ومعيشة النبي صلى الله عليه وسلم معلومة، وطريقة الصحابة منقولة، فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير، والله يهب الإخلاص، ويعين على الخلاص برحمته".³⁹

ربط القرطبي في هذه الآية بين الاستمتاع الزائد بالطيبات وتفشي الحرام والفساد في عصره لأن اعتياد النفس على تحصيل كل ما تشتهي يدفع بها إلى الكسب الحرام فيصعب الخلاص وينعدم الإخلاص.

³⁶ المصدر السابق، ج: 5، ص: 274.

³⁷ المصدر السابق، ج: 5، ص: 274.

³⁸ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: 15، ص: 388.

³⁹ المصدر السابق، ج: 19، ص: 208-209.

خاتمة

في ختام البحث ذكر أهم ما خلُصت إليه من نتائج:

-الإمام القرطبي من المفسرين المغاربة الذين أكثروا من تنزيل الآيات القرآنية على الواقع.
-يرجع إكثار القرطبي من ربط النص بالواقع إلى اهتمام علماء قطره بفقه النوازل والمستجدات الطارئة في عصره.

-اهتم القرطبي برصد وتسجيل وتصحيح ما وقع من أحداث في بلده وفي رحلاته في ضوء الهدي القرآني.

-أولى القرطبي مسلك الاستنباط والربط والتحليل أهمية كبرى فخلص إلى معالجة واقعه وفق الآيات القرآنية.

التوصيات:

-حث العلماء المفسرين لكلام الله في أي مكان ينشطون فيه على الاهتمام بجانب ربط الناس بالقرآن عن طريق قضية التطبيق على الواقع.

-يجب ربط النص القرآني بواقع الإنسان، لأن كلام الله عز وجل موافق لكل عصر، وفيه إصلاح لكل وضع، وتصحيح لكل فهم خاطئ للشرع، وعلاج كل مشكل في أي عصر.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، مشهور حسن محمود سلمان، دار القلم، دمشق، ط: 1، 1413هـ/1993م.
- تذكرة الحفاظ، الذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1419هـ، 1998م.
- التكملة لكتاب الصلة، الحافظ ابن الآبار، ت: د.عبد السلام الهراس، دار الفكر ، بيروت، 1415هـ/1994م.
- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، ت: عبد الله بن المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط: 1، 1427هـ/2006م.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، ت: د، بشار معروف ود، السرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1415هـ/1985م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي الدمشقي، دار ابن كثير، دمشق، ط: 1، 1412/1991هـ.
- طبقات المفسرين، جلال الدين السيوطي، ت: علي محمد عمير، مكتبة وهبة، ط: 1، 1396هـ/1976م..
- طبقات المفسرين، شمس الدين محمد بن علي الداوودي، راجعها لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1403هـ/1983م.
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن قيم الجوزية، ت: نايف بن أحمد الحمد، راجعه: سليمان بن عبد الله العمير - إبراهيم بن علي العبيد، دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، ط: 4، 1440هـ/2019م.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، ت:فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، ت: إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1388هـ/1968م.

يُخالفه إلا وأشار إليه وبين الحكم الصائب وخطأ ما يقع في واقع المسلمين، وذلك بتوظيف المعارف والمعلومات المتداولة عند المسلمين في حياتهم اليومية، فكان هذا من الجوانب الإصلاحية التي اهتم بها الشيخ في تفسيره، وهذا ما جعل كتابه "أيسر التفاسير" من التفاسير المعاصرة النافعة .

وقد اجتهدت في هذه الورقة البحثية في جمع ما تعلق بهذه القضية من تفسيره، للمشاركة بها في الملتقى الدولي الذي نظمته -مشكورا- معهد العلوم الإسلامية بجامعة الوادي تحت عنوان "جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع"، وكان عنوان هذه المداخلة "تنزيل آيات الأحكام على النوازل المعاصرة عند الشيخ: أبي بكر جابر الجزائري من خلال تفسيره "أيسر التفاسير مع حاشيته- نهر الخير-".

وسأسعى من خلال هذه الورقة البحثية الإجابة عن إشكاليات وتسؤلات متعددة مجملها:

- 1 - ما هي آيات الأحكام التي قام الشيخ أبو بكر جابر الجزائري بتنزيلها على الواقع؟.
 - 2- وما هو المنهج الذي سلكه الشيخ في تنزيلاته؟ .
 - 3 - ما القيمة العلمية لهذه التنزيلات في الساحة العلمية؟ .
 - وقبل ذلك كله، من هو الشيخ أبو بكر الجزائريين وما منهجه في تفسيره؟ .
- أهمية البحث:

تعددت الجوانب التي تظهر أهمية هذه المداخلة، ومجملها فيما يلي:

- 1- الرغبة في المساهمة في إبراز جوانب من جهود الشيخ أبي بكر التفسيرية .
- 2- التعرف على اهتمام الشيخ بتنزيل آيات الأحكام على الواقع.
- 3- الاطلاع على مدى اهتمام الشيخ بأحكام النوازل المعاصرة .
- 4- التأكيد على إعجاز القرآن، فهو صالح للعمل به في كل عصر ومصر.
- 5- إبراز اهتمام الشيخ بخدمة المسلمين وذلك ببيان بعض أحكام القرآن الفقهية بتنزيلها على الواقع المعيش.

الدراسات السابقة:

بعد اطلاعي على البحوث التي كتبت حول الشيخ أبي بكر الجزائري، وجدت دراسات عديدة تناولت جوانب متعددة من حياة الشيخ وتفسيره ونشاطه الدعوي، غير أنني لم أجد -فيما وقع بين يدي- دراسة تناولت قضية تنزيل الآيات عنده من خلال تفسيره .

ومن تلك الدراسات التي استفدت منها في بحثي ما يلي:

- كتاب "التفسير و المفسرون في غرب إفريقيا"، د: محمد بن رزق بن طهوني، وأصل هذا الكتاب أطروحة علمية نال بها المؤلف درجة الدكتوراه، وقد تناول في الفصل الأول من الباب الأول: تراجم المفسرين في غرب إفريقيا فذكر ترجمة للذين كانوا من أهل المنطقة، ومنهم الشيخ أبو بكر-رحمه الله-، كما تطرق في الباب الثاني إلى دراسة حول التفاسير، فذكر

منها كتاب "أيسر التفاسير" الذي جعله ضمن الفصل الثالث فجعله من أمثلة كتب التفسير بالرأي المحمود، فقام بدراسة قيّمة لهذا التفسير وبيّن منهج المؤلف فيه .

- مقال "الشيخ أبو بكر جابر الجزائري الواعظ، المصلح، الفقيه، المفسّر"، وهو مقال كتبه د: المسعود جمادي، نُشر في مجلة الإحياء، المجلد 19، العدد 22، سبتمبر 2019، ذكر فيه ترجمة مفصلة للشيخ أبي بكر جابر الجزائري .

كما أن هناك دراسات على المواقع الإلكترونية تتضمن السيرة الذاتية للشيخ، منها:
- سلسلة "أعلام السلفية (13)، ترجمة العالم الواعظ المعمر أبو بكر الجزائري"، إعداد مركز سلف للبحوث و الدراسات، ورابطها:

https://salafcenter.org/wp_content/uploads

_ ترجمة (إمام المسجد النبوي) فضيلة الشيخ أبو بكر جابر الجزائري، ل عبد الله أحمد آل علاف الغامدي، ورابطها: <http://saaid.net/doat/gamdi/31.htm> .

المنهج المتبع:

تعددت المناهج المستعملة في هذا البحث بحسب المسألة المراد تحريرها، فقد قمت باستعمال المنهج الاستقرائي؛ وذلك حين تتبع تفسير الشيخ من أجل استخراج المواضع المتعلقة بالبحث، كما استعملت المنهج التحليلي؛ وذلك بتحليل و توضيح أقوال الشيخ في عدة مواطن .

خطة البحث:

وللإحاطة بهذا الموضوع من جميع جوانبه قمنا بتقسيم هذه الورقة البحثية إلى ثلاثة مطالب هي:

مقدمة:

المطلب الأول: مقدّمات متعلقة بمصطلحات البحث . وتحتة خمسة فروع:

الفرع الأول: ترجمة الشيخ أبي بكر جابر الجزائري .

الفرع الثاني: التعريف بكتاب "أيسر التفاسير" وبيان منهج مؤلفه فيه .

الفرع الثالث: تعريف تنزيل الآيات على الواقع، وأنواعه .

الفرع الرابع: تحديد مجال التنزيل في هذا البحث .

الفرع الخامس: تعريف آيات الأحكام .

المطلب الثاني: أمثلة تطبيقية لتنزيل آيات الأحكام على النوازل المعاصرة عند أبي بكر

الجزائري. وتحتة ستة فروع:

الفرع الأول: قضية البنوك الربوية المعاصرة .

الفرع الثاني: الأحكام المتعلقة بقضية إنجاب الأولاد.

الفرع الثالث: قضية حرمة العادة السرية والحفلات الغنائية .

الفرع الرابع: كيفية إعداد القوة للجهاد وحكم أسرى فلسطين.

الفرع الخامس: بيان مقدار المسافات والمكاييل المعاصرة في مسافة القصر ومقدار فدية الصيام.

الفرع السادس: الرد على من أنكر القصاص في الحضارة الغربية المعاصرة ومن تأثر بها. الخاتمة: وفيها أهم النتائج المتوصل إليها .
وتفصيل ذلك كله كما يلي:

المطلب الأول: مقدّمات متعلقة بمصطلحات البحث .

الفرع الأول: ترجمة الشيخ أبي بكر جابر الجزائري .

أولاً: اسمه ونسبه ونشأته:

هو الشيخ أبو بكر جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر الجزائري، غلبت عليه الكنية فُعرف بأبي بكر الجزائري، واسم أبيه موسى بن عبد القادر بن جابر، و جابر جدّه الأكبر، و كنية: أبو عبد الرحمن .

والشيخ من بني هلال أحد القبائل العربية، و التي خرجت من الجزيرة العربية، واستقرت في إفريقيا واستوطنتها، فهو عربي الأصل .

ولد بالنواة القديمة أو ما يعرف بالدرسة القديمة، أي أنّه ينتمي لعرش جابر المعروفين ببساطتهم وتعلقهم بالدين بقرية (ليوه) بكسر اللام مع المد، وفتح الواو ثم بعدها هاء، وهي قرية زراعية من قرى بسكرة، بينها وبين بسكرة أربعون كيلومترا، وكان مولده عام (1342هـ/1921م) وقيل عام (1340هـ)، وتوفي والده في عامه الأول، فنشأ يتيما في حجر أمه. وله ابن واحد وهو الدكتور عبد الرحمن بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وله من البنات تسع، ومن الأحفاد والأسباط ما يفوق السّتين عددا¹.

ثانيا: طلبه للعلم:

كانت أسرته: أبائوه وأجداده حقاظ القرية للقرآن الكريم، يتوارثون ذلك، فنشأ في ذلك الجوّ المتدين، فأشرفت أمّه على تعليمه وتحفيظه القرآن الكريم، وغرست فيه الأخلاق الفاضلة، فأتّم حفظ القرآن في سنّ السادسة عشر، أو الرابعة عشر، وكان له شرف إمامة الناس وعمره ست عشرة سنة، ثم أضاف إلى ذلك حفظ الأجرومية في النحو، ومنظومة ابن عاشر في الفقه المالكي، ومن ثمّ انتقل إلى بسكرة، فدرس على أحد شيوخها نعيم النعيمي، وفي أثناء ذلك قدم قرية ليوة شيخ فاضل يسمى "عيسى معتوق" فعاد إليها ليدرس عليه العربية و المنطق ومصطلح الحديث وأصول الفقه، وكان الشيخ قد دخل في هذه الفترة مرحلة الشباب، فرحل إلى العاصمة ليعمل مدرّسا في إحدى المدارس الأهلية، وهناك بدأت مرحلة جديدة في حياته، إذ جمع إلى عمله في التدريس مواصلة الدراسة على الشيخ

¹ التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا، د محمد بن رزق بن طهوني، ط1، 1426، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ج1، ص201-202.

الطيب العقبي الذي كانت له شهرة في ميادين العلم والإصلاح، فلزم دروسه في التفسير طوال سنوات، فكان لهذه الملازمة أثرها الكبير في شخصيته، إذ يعتبره من أفضل مشايخه والموجه الأكبر لسلوكه في النهج الإسلامي الصحيح¹.

ولقد شارك الشيخ في مختلف ألوان النشاط الإسلامي فعمل في (حزب البيان الجزائري)، ثم في (شباب الموحدين)، ومارس التعليم لكتاب الله مدة أربع سنوات، ثم في تعليم الأحداث من بنين وبنات لمدة أربع سنوات في العاصمة، وعمل في الصحافة فأنشأ مجلة (الداعي)، والتي لم يصدر منها سوى بضعة أعداد، وكانت كاسمها؛ دعوة إلى توحيد الأحزاب والجمعيات الجزائرية، وبعد احتجاب (الداعي) أسندت إليه إدارة جريدة (اللواء) الناطقة بلسان شباب الموحدين، واستمر على إدارتها حتى ترك الجزائر مهاجرا إلى الحجاز في عام (1372هـ)، فقدم إلى مكة للحج والعمرة والزيارة، وكان قصده بعد أداء فريضة الحج الرجوع إلى بلده إلا أن الإخوة الجزائريين المهاجرين المقيمين بالمدينة حببوا له البقاء للاستفادة منه، ولأسيما عمه عيسى-رحمه الله- والذي كان محبا للمدينة النبوية وتمنى الموت بها، وقد استجاب الله دعاءه فتوفي بعد الحج مباشرة، فتأثر الشيخ بذلك في حبه للبقعة المباركة -المدينة النبوية الطاهرة-، فأحب المدينة فصار من أعلامها وهذه ثمرة الحب الصادق فعزم على البقاء وواصل بعد ذلك الأخذ على مشايخ المدينة؛ فلزم حلقة الشيخ عمر بري، والشيخ محمد الحافظ، وكذلك الشيخ محمد الخيال، ورئيس قضائها وخطيب مسجدها الشيخ عبد العزيز بن صالح.

ثم بعد ذلك عام (1374هـ، 1961م) نال الشهادة العالمية من كلية الشريعة بجامعة الرياض، وحصل على إجازة من رئاسة القضاة بمكة المكرمة للتدريس بالمسجد النبوي الشريف، فأصبحت له حلقة يدرس فيها تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف وغير ذلك، وقد أمّ الناس به في صلاة العصر عام (1413هـ) عندما تأخر إمام المسجد النبوي الشيخ عبد العزيز بن صالح، ولذلك ذكره عبد الله بن أحمد العلاف الغامدي في كتابه "أنمة الحرمين" تحت عنوان "مشايخ كان لهم شرف الإمامة في المسجد النبوي"².

ثالثا: شيوخه وتلاميذه:

درس على يد العديد من المشايخ في بلاده الجزائر، وفي المدينة المنورة، ومن هؤلاء:

أ- من مشايخه في الجزائر: الشيخ نعيم النعيمي، الشيخ عيسى معتوق، الشيخ الطيب العقبي.

ب- ومن مشايخه في المدينة المنورة: الشيخ عمر بري، الشيخ محمد الحافظ، الشيخ محمد الخيال.

¹ المرجع نفسه، ج 1، ص 201-202.

² أنمة الحرمين، عبد الله بن أحمد العلاف الغامدي، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، 1432هـ، ص 122.

وأما تلاميذه فقد تخرّج على يديه الكثير من الطلاب من الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية في مرحلتي الماجستير والدكتوراه في قسم التفسير، أما في كلية الشريعة بالجامعة، والمسجد النبوي الشريف فلا يُحصى عدد ذلك إلا الله، منهم: الشيخ العلامة عبد الرحمن بن صالح بن محيي الدين، والأستاذ الدكتور عدنان بن عبد العزيز الخطيري، والشيخ عبد الرحمن بن صدوق الجزائري، والشيخ إدريس بن إبراهيم المغربي، والشيخ حمزة بن حامد بن بشير القرعاني، والشيخ الدكتور عبد الله بن الشيخ محمد الأمين، والشيخ حسام الدين عفانة، والشيخ صالح المغامسي، وغيرهم .

رابعاً: أعماله:

شغل الشيخ عدة مناصب خلال حياته أهمها:

- 1- مدرّسا بوزارة المعارف وذلك في المدرسة المحمدية .
 - 2- مدرّسا بالمدرسة السلفية .
 - 3- مدرّسا بدار الحديث المدنية .
 - 4- مدرّسا بالجامعة الإسلامية التي كان له دور فعّال في إنشائها، حيث دعى المسؤولين إلى بنائها، والتحق بها الشيخ، وبقي فيها حتى أحيل للتقاعد عام 1406هـ .
 - 5- مدرّسا وواعظا بالمسجد النبوي الشريف، ف قضى فيه أكثر من خمسين عاما .
 - 6- كان من الداعين إلى إنشاء رابطة العالم الإسلامي، وإذاعة القرآن الكريم .
- وقد عرف الشيخ على نطاق واسع بحكم ممارسته للتدريس بالحرم النبوي لخمسین عاما 'ويعد كتابه "منهاج المسلم" من أكثر مصنفاته قبولا وانتشارا في البلدان العربية، كما اكتسب مكانة مهمة في الوسط الأكاديمي الشرعي من خلال عمله أستاذا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة لأزيد من عشرين عاما ¹ .

خامسا: مؤلفاته:

تميزت مؤلفات الشيخ بسهولة الأسلوب و جزالة التركيب وقوّتهوقربها من الفهم، تأليفه إصلاحية دعوية لتقريب وتفهم الإسلام الصحيح الخالي من البدع، وقد قام بتأليف عدد كبير من المؤلفات، منها:

- 1- منهاج المسلم، كتاب عقائد وآداب وأخلاق وعبادات ومعاملات، وهو من أكثر مصنفاته قبولا وانتشارا في البلدان العربية .
- 2- عقيدة المؤمن: يشمل على أصول عقيدة المسلم جامع لفروعها.
- 3- العلم والعلماء .
- 4- نداءات الرحمن لأهل الإيمان .

¹ التيسير اللغوي لمعاني القرآن بالتفسير والبيان لدى أبي بكر الجزائري من خلال كتابه-أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير-، حيزة كروش، أقلام الهند، السنة الرابعة، العدد الرابع، (أكتوبر-ديسمبر 2019) دراسات ومقالات .

5- الإنصاف فيما قيل في المولد من الغلو والإجحاف .

6- المرأة المسلمة .

7- هذا الحبيب محمد-صلى الله عليه وسلم-يا محب .

8- رسائل الجزائري: وتبلغ رسائل الشيخ أكثر من مائة رسالة إصلاحية هادفة جمعت

معظمها في مجلدات خمس باسم رسائل الجزائري، وغيرها من المؤلفات .

9- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، وبهامشه: نهر الخير على أيسر التفاسير". وهو تاج مؤلفاته .

سادسا: وفاته:

توفي رحمه الله في المدينة المنورة قبيل فجر الأربعاء 4 ذو الحجة 1439هـ الموافق 15 أغسطس 2018م، عن عمر ناهز 97 عاما، بعد صراع مع المرض، وصلي عليه صلاة الجنازة بعد ظهر يوم وفاته في المسجد النبوي الشريف، ودفن في مقبرة البقيع¹. فرحمه الله وجزاه خيرا على ما قدم للإسلام والمسلمين .

الفرع الثاني: التعريف بكتاب "أيسر التفاسير" وبيان ومنهج مؤلفه فيه .
أولا: التعريف بالتفسير:

من أبرز مؤلفات الشيخ والتي شهدت رواجا كبيرا كتابه في التفسير "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير"، وهو مطبوع في خمس مجلدات، ووضع له حاشية سماها "نهر الخير" طُبعت بهامشه، والتي جعلها كالتعليق على تفسيره، أضاف فيها بعض الزيادات؛ كالتشواهد اللغوية، والآثار والأحاديث النبوية، وذكر الاختلاف الوارد في الآية ذات الوجوه، وغيرها من الفوائد التي رآها مناسبة، والتي ذكرها في مقدمة تفسيره، هذا وقد بين الشيخ-رحمه الله- السبب الداعي لكتابة هذا التفسير في فقال: "هذا ونظراً لليقظة الإسلامية اليوم فقد تعين وضع تفسير سهل ميسر يجمع بين المعنى المراد من كلام الله، وبين اللفظ القريب من فهم المسلم اليوم. تُبين فيه العقيدة السلفية المنجية، والأحكام الفقهية الضرورية، مع تربية ملكة التقوى في النفوس، بتحبيب الفضائل وتبغيض الرذائل، والحث على أداء الفرائض واتقاء المحارم. مع التجميل بالأخلاق القرآنية والتحلي بالآداب الربانية. وقد هممت بالقيام بهذا المتعين عدة مرات في ظرف سنوات،..."².

¹ ينظر ترجم الشيخ موسعة المراجع الآتية: مقال: الشيخ أبو بكر جابر الجزائري الواعظ، المصلح، الفقيه، المفسر، د المسعود جمادي، مجلة الإحياء، المجلد 19، العدد 22، سبتمبر 2019، ص: 660-627، ومقال: أعلام السلفية (13)، ترجمة العالم الواعظ المعمر أبو بكر الجزائري، إعداد مركز سلف للبحوث والدراسات، https://salafcenter.org/wp_content/uploads/08/2018، ومقال: بعنوان: ترجمة (إمام المسجد النبوي) فضيلة الشيخ أبو بكر جابر، عبد الله أحمد آل علاف الغامدي، الجزائري،

<http://saaid.net/doat/gamdi/31.htm>

² أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ج 1، ص 7.

ثانياً: منهجه فيه:

قام الشَّيْخ أبو بكر الجزائري بتوضيح منهجه في مقدمة تفسيره، حيث ذكر أنَّ مميزات هذا التفسير:

- الوسطية بين الاختصار المخل، والتطويل الممل .
- اتباع منهج السلف في العقائد والالتزام بعدم الخروج عن المذاهب الأربعة في الأحكام الفقهية .

- إخلاؤه من الإسرائيليات صحيحها وسقيمها إلا ما لا بد منه لفهم الآية الكريمة وكان مما تجوز روايته لحديث.. "وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"¹ .

- صرَّح أيضاً بإغفال الخلافات التفسيرية و الالتزام بما رجحه ابن جرير الطبري في تفسيره عند اختلاف المفسرين في معنى الآية، وقد لا يأخذ برأيه في بعض التوجيهات للآية .

- إخلاء الكتاب من المسائل النحوية والبلاغية والشواهد العربية وعدم التعرض للقراءات إلا نادراً جداً للضرورة حيث يتوقف معنى الآية على ذلك .

- بالنسبة للأحاديث فقد اقتصر على الصحيح والحسن منها دون غيرهما، ولذا لم يعزها إلى مصادرها إلا نادراً .

- جاء تفسيره خالياً من ذكر الأقوال وإن كثرت والالتزام بالمعنى الراجح والذي عليه جمهور المفسرين من السلف الصالح، حتى إن القارئ لا يفهم أن هناك معنىً غير الذي فهم من كلام ربه تعالى .

وهذه ميزة جليلة وذلك لحاجة جميع المسلمين على فكر إسلامي موحد صائب سليم ولذا فقد جعل الكتاب دروساً منظّمة متسقة فقد جعل الآية الواحدة أو الآيتين أو أكثر درساً فيشرح كلماتها، ثم يبين معناها، ثم يذكر هدايتها المقصودة منها للاعتقاد والعمل² .

الفرع الثالث: تعريف تنزيل الآيات على الواقع، وبيان أنواعه .

أولاً: تعريفه:

عرّف الدكتور عبد العزيز الضامر تنزيل الآيات على الواقع بقوله: "هو مقابلة الأحداث المعاصرة للمفسّر بما يشابهها في كتاب الله تعالى، سواء كانت المقابلة تامة أو جزئية أو مخالفة لما عليه الآية"³، فإذا قام المفسر بإسقاط معنى آيات القرآن على واقعه الذي يعيشه فهو تنزيل للآيات على الواقع .

¹ رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم: 3274 .

² هذا ملخص ما ذكره الشَّيْخ في مقدمة تفسيره مبيناً منهجه فيه، ينظر: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبي بكر جابر الجزائري، ج1، ص6 و7 .

³ تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، دراية وتطبيق، عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، الطبعة الأولى (1428-2007)، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ص33 .

ثانيا: أنواعه:

هناك عدة اعتبارات تقسم وفقها قضية تنزيل الآيات على الواقع منها: تقسيمها باعتبار

التصريح والتلميح، وهي على نوعين:

1-تنزيل التصريح: وهو أن يصرح المفسر بأن معنى هذه الآية حاصل في زمنه وواقعه، فيعبر عنها أثناء تفسيره للآية بقوله: "كما هو الحاصل في زماننا"، أو "...وهذا ما يكون في مجتمعنا"، ونحو ذلك من العبارات التي تفيد تصريح المفسر بما يكون في واقعه مشاهدا لما كانت عليه الآية الكريمة .

2- تنزيل التلميح: وهو أن يشير المفسر إلى أن معنى هذه الآية حاصل في زمنه وواقعه دون أن يصرح بذلك بل يورده على سبيل التعريض و التلميح، ولعل السبب في ذلك -والله أعلم - يرجع إلى الحالة السياسية في تلك الفترة التي لا تسمح بالإفصاح عن ما يكون فيها من القهر و الظلم، والفساد والإفساد، والمخالفات العقدية والاجتماعية ونحو ذلك مما يضطر المفسر إلى عدم التصريح خشية الإيذاء والتنكيل، ومنعا للفتنة و حقنا لدماء المسلمين، فيتخذ القرآن سبيلا وطريقا لتوجيه الناس من خلاله وربطهم به¹ .
ومن خلال استقراء تنزيلات الشيخ أبي بكر الجزائري نجد أنها اشتملت على هذين النوعين:

- فتتوزل التصريح جاء في مواضع كثيرة من تفسيره، وقام الشيخ بتوظيف مجموعة من الألفاظ و الصيغ الدالة عليه، فتجده أحيانا يقول: "حال...اليوم"، أو يقول "وهو يعادل...الآن"، أو "ما يعرف الآن.."، "والواقع شاهد على هذا"، "وهذا مشاهد منهم اليوم"، "لا يزال..."، "ما زال إلى اليوم..."، "وهو شأن...طوال الحياة" وغيرها من الصيغ .

ومن الأمثلة على ذلك ما قاله الشيخ أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴾ مريم: 59، فقال "قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ ﴾ مخبر تعالى عن أولئك الصالحين ممن اجتنبى وهدى من النبیین وذريّاتهم، انه خلف من بعدهم خلف سوء كان من شأنهم أنهم ﴿ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾ فمَنهم من آخرها عن أوقاتها ومنهم من تركها ﴿ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ فانغمسوا في حمأة الرذائل فشرّبوا الخمر وشهدوا الزور وأكلوا الحرام ولهبوا ولعبوا وزنوا وفجروا، بعد ذهاب أولئك الصالحين كما هو حال النصارى واليهود اليوم وحتى كثير من المسلمين..."² .

- وأمّا تنزيل التلميح فهو موجود أيضا في تفسيره، ومن أمثلته ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَکِنْ جَحَّتْهُمُ بَیَاتِهِمْ لِقَوْلِنَ الَّذِینَ کَفَرُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُطِيلُونَ ﴾ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴿ الروم: 58-59، حيث قال "في هذه

¹ المصدر السابق، ص: 71-72.

² المرجع نفسه، ج 3، ص 319.

الآية إنذار خطير للجهال وتنديد بالجهل، إذ أهله لا يفهمون عن الله ولا يهتدون إلى سبل الخير وطريق السعادة والكمال ولذا أوجب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلب العلم على كل مسلم في قوله "طلب العلم فريضة على كل مسلم"¹، وما أصاب المسلمين ما أصابهم من خوف وهون ودون إلا نتيجة لجهلهم بربهم ومحابه ومكارهه وضروب عباداته وكيفيات أدائها لتزكوا بها نفوسهم وتطهر أرواحهم وقلوبهم"². فهذا تلميح منه للواقع الذي يعيشه المسلمون.

- ومن أمثلته أيضا: ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَا ذَرَّةٍ فِي زُنْحَارٍ أَوْ كَمِثْقَا ذَرَّةٍ فِي زُنْحَارٍ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَضَرِبَ اللَّهُ الْأَمْثَلِ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿﴾ النور: 35، حيث قال: "الإشارة إلى أن ملة الإسلام لا يهودية ولا نصرانية، لا اشتراكية ولا رأسمالية. بل هي الملة الحنيفية من دان بها هدى ومن كفرها ضل" فهو تلميح منه على بطلان نظام الدول الكافرة ومناهجها وقوانينها وأن الإسلام هو دين الهدى المحقق لسعادة الإنسان في الدارين³.

الفرع الرابع: تحديد مجال التنزيل في هذا البحث:

إن الناظر في تفسير الشيخ أبي بكر جابر الجزائري يجد فيه عناية بارزة بتنزيل الآيات في الواقع، فقد أراد أن يكون تفسيره مُقَرَّبًا لمعاني القرآن للمسلمين، وتماشيا مع واقعهم المعاصر، وقد أشار إلى هذا في مقدمة تفسيره فقال: "هذا ونظراً لليقظة الإسلامية اليوم فقد تعين وضع تفسير سهل ميسر يجمع بين المعنى المراد من كلام الله، وبين اللفظ القريب من فهم المسلم اليوم"⁴.

وبعد التتبع لتفسيره نجد تنوع مجالات التنزيل عند الشيخ، فنجدها تدور بين: العقدية، والاجتماعية، والدعوية، والمتعلقة بالأداب الإسلامية، وما يتعلق بأحوال المسلمين في هذا العصر، وغيرها.

وبما أن البحث خاص بتنزيل آيات الأحكام على الواقع والنوازل المعاصرة، فإننا سنسلط الضوء على هذا الجانب من التنزيلات دون غيره عند الشيخ، وهو من الجوانب المهمة في حياة المسلم وعلاقته بربه.

الفرع الخامس: تعريف آيات الأحكام :

المقصود بآيات الأحكام في بحثنا هذا هي: الآيات التي تضمنت أو أشارت إلى أحكام فقهية عملية، فجميع آي القرآن يمكن استنباط الأحكام منها سواء أكانت في القصص أو

¹ رواه ابن ماجه في سنن، [افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم]، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم: 224.

² أيسر التفاسير، ج 4، ص 195.

³ المرجع نفسه، ج 1، ص 55، الهامش 4.

⁴ المرجع نفسه، ج 1، ص 7.

العقائد أو الآداب.

وانطلاقاً مما سبق فقد اختلف المفسرون والفقهاء في تحديد آيات الأحكام وبيان عددها، بسبب اختلاف أنواعها، فهناك: الأحكام الصريحة، وفي مقابلها: الأحكام المستنبطة، وهذا أمر يختلف بين العلماء، فنجد منهم من يكتفي بذكر الأحكام المصرح بها في الآية فيكون تحديده مختلفاً عما أتاه الله مَلَكَةً في الاستنباط، فتجده ينص عليها حتى من آيات القصص و الترغيب و الترهيب .

وهذا المسألة نبه عليها الإمام الزركشي في البرهان حيث قال: "ثم قيل: إن آيات الأحكام خمسمائة آية، وهذا ذكره الغزالي وغيره، وتبعهم الرازي، ولعل مرادهم المصرح به، فإن آيات القصص والأمثال وغيرها يستنبط منها كثير من الأحكام، ومن أراد الوقوف على ذلك فليطالع كتاب الإمام الشيخ عز الدين بن عبد السلام.

ثم هو قسمان:

أحدهما: ما صرح به في الأحكام؛ وهو كثير، وسورة البقرة والنساء والمائدة والأنعام مشتملة على كثير من ذلك والثاني: ما يؤخذ بطريق الاستنباط ¹.

وقد كان الشيخ أبو بكر الجزائري ممن أوتي قوة في الاستنباط وبيان الأحكام، فاستنبط في الآيات الصريحة وغيرها، كما سأيينه في المطلب الثاني التطبيقي .

المطلب الثاني: أمثلة تطبيقية لتنزيل آيات الأحكام على النوازل المعاصرة

عند أبي بكر الجزائري

بعد عملية الاستقراء التي قمت بها في تتبع تنزيلات الشيخ لآيات الأحكام على النوازل المعاصرة وجدتها كثيرة ومتنوعة وذلك نظراً لكثرة المستجدات إضافة إلى أن قضية التنزيل كانت من مقاصد الشيخ في تفسيره، وقد اخترت ستة نماذج لقضايا متنوعة تعطينا منهجاً عاماً لطريقة الشيخ في التنزيل، جعلت كل نموذج منها فرعاً للمطلب وتفصيلها كما يلي:

الفرع الأول: قضية البنوك الربوية المعاصرة:

وقد تحدث الشيخ عن قضية ربا البنوك المعاصرة في ثلاثة مواضع من تفسيره، ففي الموضع الأول منها: رد الشيخ أبو بكر الجزائري على من لم يعتبر النوك المعاصرة بنوكاً ربوية مثلها مثل ربا الجاهلية المحرم، وذلك لما فسر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشْتَرُونَ رَغًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَنْفِرْ لَكُمْ حَطَلًا كُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ 58﴾ ¹ بَدَلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ 59﴾ البقرة: 58-59، حيث ذكر الشيخ عدم امتثال بني إسرائيل لأمر الله لما أمرهم الله به حين دخولهم بيت المقدس، بأن يدخلوا الباب سجداً ويقولوا حطة لذنوبنا، فخالفوا أمر الله

¹ البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، (1376هـ - 1957م)، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ج2، ص4، 3.

بتغييرهم الفعل الذي أمروا به والقول الذي قيل لهم فدخلوا الباب زاحفين على أستاذهم قائلين: حبة في شعيرة فابتعدوا عن مراد الله، ثم نزل الشيخ الآية على قضية قديمة حديثة وهي "حرمة تأويل النصوص الشرعية للخروج بها عن مراد الشارع منها، ومثل بها بمثال معاصر فيمن لم يعتبر معاملات البنوك المعاصرة معاملات ربوية فقال: "كتاويل الروافض، لفظ: بقرة بعائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ البقرة: 67، وكتاويل بعض المعاصرين إن ربا البنوك ليس هوربا الجاهلية الحرام"¹.

وأما الموضع الثاني الذي تحدث فيه الشيخ عن قضية البنوك المعاصرة فكانت عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَحَبَّطُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة: 275، حيث بين الشيخ صفة المعاملة في ربا البنوك المعاصرة فقال: "وحقيقته أن يكون لك على المرء دين فإذا حل أجله ولم يقدر على تسديده تقول له: أخرجوه أجلاً وتزيد في رأس المال قدرًا معيناً، هذا هوربا الجاهلية، والعمل به اليوم في البنوك الربوية فيسلفون المرء مبلغاً إلى أجل ويزيدون قدرًا آخر نحو العشر أو أكثر أو أقل، والربا حرام بالكتاب والسنة والإجماع وسواء كان ربا فضل أو ربا نسيئة"².

وأما في الموضع الثالث فقد شدد الشيخ أبي بكر في ربا البنوك المعاصرة وجعله أشد من ربا الجاهلية، وذلك لما فسر قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الذِّبْرُ ءَامِنُونَ لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ آل عمران: 130، حيث قال الشيخ: "ربا البنوك اليوم شر من ربا الجاهلية هو: أن يبيع الرجل أخاه شيئاً إلى أجل فإذا حلَّ الأجل ولم يجد سداداً قال له أخرجوه، أما ربا البنوك فإنه يبيعه نقداً بنقد إلى أجل بزيادة فورية يسجلها عليه"³. ومما سبق يظهر اعتناء الشيخ بقضية تنزيل الآيات على البنوك الربوية المعاصرة، واستغلاله لكل مناسبة تطرأ للتنبيه على خطر التعامل مع هذه البنوك والتحليل في ذلك والرد على من يحرف حقائق الأشياء وسميها بغير اسمها.

الفرع الثاني: الأحكام المتعلقة بقضية إنجاب الأولاد:

وهذه القضية قديمة وتعرض لها الفقهاء والمفسرون بالحديث، ولكن الشيخ أبي بكر الجزائري لما فسر الآيات المتعلقة بها تحدث عن عدة قضايا معاصرة تتعلق بإنجاب الأولاد القضية؛ يمكن تلخيصها في أربعة مسائل هي: علاج العقم، تحديد النسل، معرفة جنس الجنين، تناول حبوب منع الحمل، وذلك في عدة مواضع من تفسيره، بياها كما يلي:

¹ أيسر التفاسير، ج1، ص60.

² المرجع نفسه، ج1، ص268.

³ المرجع نفسه، ج1، ص374.

1- القضية الأولى: علاج العقم: لا شك أن الذرية الطيبة من أجل نعم الودود الكريم على عباده، و السعي لتحقيق هذه النعمة جائز ومطلوب، وذلك باتخاذ الأسباب اللازمة لذلك كالزواج مثلاً، والتداوي المشروع وغيرها، وقد يتولي الله العبد بالعقم، فيستعجل بعضهم الحمل بأي طريق مشروع أو ممنوع خاصة في العصر الحديث الذي تطور فيه الطب وظهرت طرق مخالفة للشرع، ولذلك ورد في القرآن الكريم حصر هذه القضية في أربعة أقسام: فالله تعالى يهب لعباده من الأولاد ما يشاء فيخص بعضها بالإناث وبعضها بالذكور، وبعضها بالصنفين جميعاً، ويجعل البعض عقيماً، والعقيم التي لا تلد، وكذلك رجل عقيم إذا كان لا يولد له وذلك في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتَا وَهَبَ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَرَ﴾ الشورى: 49¹، ولذلك فإن الشيخ أبي بكر الجزائري لما فسر هذه الآية نبه على بعض الطرق الحديثة لمعالجة العقم وبين أنها مخالفة للشرع ليجتنبها المسلمون، فقال -رحمه الله- "من هداية الآيات... وجود عقم في الرجال وعقم في النساء، ولا بأس بالعلاج الجائز المشروع عند الشعور بالعقم أو العقر، أما ما ظهر الآن من بنوك المني، والإنجاب بطريق صب ماء فحل في فرج امرأة عاقروما إلى ذلك فهذه من أعمال الملاحدة الذين لا يدينون لله بالطاعة له والتسليم لقضائه، وإن صاموا وصلوا وادعوا أنهم مؤمنون إذ لا حياء لهم ولا إيمان لمن لا حياء له، وحسبهم قبحا في سلوكهم هذا الكشف عن السوءات بدون إنقاذ حياة ولا طلب رضا الله رب الأرض والسموات"².

2- القضية الثانية: تحديد النسل: انتشرت ظاهرة تحديد النسل في البلدان الغربية الكافرة، حيث تدعو المتزوجين إلى إنجاب عدد محدد من الأولاد لا ينبغي تجاوزه، لزعيمهم أن هذا يؤمن حياة راتقة في شتى المجالات: الاقتصادية والاجتماعية وغيرها، وللأسف الشديد فإن هذا المفهوم الباطل انتشر لدى الكثير من المسلمين، وقد بين الشيخ بطالانه أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الشَّرِكَاتِ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِزُدُّوهُمْ وَلِيلِيسُوا عَلَيْهِمْ دِيْنَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ﴾ الأنعام: 137. فهذه الآية ذكر فيها قتل المشركين لأولادهم بالوآد والذبح، قربانا إلى الأصنام، وخوفاً من الجوع أو من العار، وكانوا يقتلون البنات دون البنين³، ولما فسر الشيخ أبي بكر الجزائري الآية، قاس عليها ظاهرة تحديد النسل التي انتشرت بين مختلف المجتمعات المعاصرة فقال -رحمه الله-: "وتحديد النسل اليوم وإلزام الأمة به من بعض الحكام من عمل أهل الجاهلية الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم كقتل البنات خشية العار والأولاد خشية

¹ الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام - القاهرة الطبعة: السادسة، 1424 هـ، (9/ 5097).

² أيسر التفاسير، ج4، ص623.

³ التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الغرناطي، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، الطبعة: الأولى - 1416 هـ، (1/ 276)، والبحر المديد ابن عجيبة الحسني، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية / 2002 م. 1423 هـ (2/ 209).

كما استدلل الشيخ على هذه القضية بما صدر عن فرعون حين أمر بقتل أولاد بني إسرائيل وذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ فِرْعَوْنٌ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّيْعُ آبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَعِجِيهِمْ فَيَسْأَلُهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ القصص: 4، حيث قال "فاستعمل طريقة تقليلهم والحد من كثرتهم بذبح الأولاد الذكور منهم وإبقاء الإناث منهم وهي سياسة تشبه تحديد النسل اليوم التي يستعملها الهالكون اليوم وهم لا يشعرون" ².

3- القضية الثالثة: معرفة جنس الجنين: ورد في القرآن الكريم أن علم ما في الأرحام من مفاتيح الغيب الخمس التي اختص بها الله تعالى وذلك في قوله تعالى وذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْتُمِبُ غَنًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ لقمان: 34، ومعنى ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أي: ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره ³، ولكن قد تعرض إشكالية لقارئ القرآن قضية معاصرة وهي تمكن العلماء من معرفة جنس الجنين قبل ولادته، ولذلك فإن الشيخ لما فسر هذه الآية نزلها على هذا الأمر المستجد حيث أشار إلى أن استخدام الآلات الحديثة في معرفة جنس الجنين أمر لا يناقض اختصاص الله - سبحانه وتعالى - بعلم الغيب، فقال "ما ادّعى اليوم من أنه بواسطة الآلات الحديثة قد عرف ما في رحم المرأة فهذه المعرفة ليست داخلية في قوله تعالى ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ لأنها بمثابة من فتح البطن ونظر ما فيه فقال هو كذا، وذلك لوجود أشعة عاكسة، أما المنفي عن كل أحد إلا الله أن يقول المرء: إن في بطن امرأة فلان ذكراً أو أنثى ولا يقرب منها ولا يجربها في ولادتها السابقة، ولا يحاول أن يعرف ما في بطنها بأية محاولة" ⁴، وهذه الإشارة من الشيخ يفهم منها جواز التعرف على جنس الجنين بواسطة الآلات الحديثة، وأنه أمر لا بأس به، فهو لا يقدر في علم الله - تبارك وتعالى -.

4- القضية الرابعة: تناول حبوب منع الحمل: وهذه الحبوب ما انتشر أمره في شتى البلاد الغربية والإسلامية، فكان لا بد من معرفة حكمها الشرعي، فالتمس العلماء لها حكماً شرعي من القرآن والسنة بطريق الاستنباط، ومن هؤلاء الشيخ أبي بكر الجزائري، فإنه لما فسر قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِ أَنْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمَائِنِي مَنْ نَزَرَ فُكُّهُ وَإِنِّي أَخَافُ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ﴾ الأنعام: 151، "بين

¹ أيسر التفاسير، ج2، ص127-128.

² المرجع نفسه، ج4، ص52.

³ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير القرشي، ت: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، 1420هـ- 1999 م، (4/435).

⁴ أيسر التفاسير، ج4، ص220.

حكم حبوب منع الحمل قياساً على العزل فقال: "استدل بهذه الآية من قال بتحريم العزل ومثله اليوم استعمال الحبوب لمنع الحمل والجمهور على الجواز للضرورة فقط لقول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العزل: "ذلك الوأد الخفي"¹ فإنه ان لم يدل على التحريم دل على الكراهية"².

الفرع الثالث: قضية حرمة العادة السرية والحفلات الغنائية :

أما قضية الاستمنااء فقد كان معروفاً عند المتقدمين ونص الفقهاء القدامى على حكمه وهو التحريم كما يراه الإمام الشافعي³، ولكن التنزيل الذي وقع من الشيخ أبي بكر الجزائري في هذه القضية فهو من حيث تسميتها حيث صارت تسمى بـ "العادة السرية"، ولذلك بين الشيخ حكمها وهو الحرمة ولو سميت بغير اسمها، وهذا أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ غَيْرَ مَلُومِينَ ۖ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ۝﴾⁴ المعارج: 30-31، حيث قال "حفظ الفرج بستره عن أعين الناس ما عدا الزوج وصيانتها من فاحشة الزنا واللواط وجلد عميرة أي: الاستمنااء باليد والمعروف اليوم بالعادة السرية لقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْيُنِهِمْ هَادٍ غَافِضُونَ﴾"⁴.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الغناء، فحكمه معروف عند الفقهاء المتقدمين والمعاصرين⁵، ولذلك نبه الشيخ على حكمها وأظهر مسماتها الجديد وهو "الحفلات الغنائية" وذلك لما فسّر قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ يَقْرَعُ عَلَيَّ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝﴾ لقمان: 6، فذكر الشيخ أن لهو الحديث هو الغناء ثم قال: "من هداية الآيات... حرمة حفلات الرقص والغناء الشائعة اليوم في العالم كافر ومسلمه"⁶.

الفرع الرابع: كيفية إعداد القوة للجهاد وحكم أسرى فلسطين:

من المسائل التي اعتنى بها الشيخ ولم يهملها "القضية الفلسطينية" حيث نزل بعض الآيات المتعلقة بالقضية وكان يسميها باسمها ويحث على الاهتمام بها، ومن ذلك أنه لما فسّر قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝﴾ النساء: 75، بين وجوب الشيخ تحرير الأسرى بفلسطين وحث المؤمنين على القتال في سبيل الله حتى يُعبد الله وحده ويتخلص الأسرى المسلمين من كيد العدو وتعذيبه، ثم إن الشيخ

¹ رواه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب جواز الغيلة وهي وطء المرضع وكراهة العزل، رقم: 3638.

² أيسر التفاسير، ج2، ص140.

³ تفسير الإمام الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، جمع وتحقيق ودراسة: د. أحمد بن مصطفى الفزّان (رسالة دكتوراه)، دار التدمرية - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1427 - 2006 م، (3/ 1098).

⁴ أيسر التفاسير، ج5، ص434.

⁵ ينظر تفصيل القضية في كتاب "تحريم آلات الطرب" للشيخ الألباني، تحريم آلات الطرب، مكتبة الدليل، ط1.

⁶ أيسر التفاسير، ج4، ص200 و202.

بين حكم إبقاء الأسرى بفلسطين في يد الأعداء فقال: "الإجماع على وجوب تخليص الأسرى من المسلمين بالقتال أو بالمال، ولا يحل تركهم تحت الكافر يضطهدهم ويعذبهم من أجل دينهم. وفي الحديث الصحيح: "فكوا العاني"¹ وهو الأسير، وسي العاني لما يعانيه من آلام وأتاعاب، والمسلمون اليوم أسرى تحت اليهود في فلسطين، والمسلمون تاركون لهم غير مهتمين بهم، وهو ذنب عظيم".²

كما حث الشيخ على إعداد العدة لقتال اليهود وغيرهم من الأعداء بحسب ما يناسب العصر من تطور في الآلات الحربية، وذلك لما فسّر قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ﴾³ الأنفال: 60، حيث قال: "من هداية الآيات: وجوب إعداد القوة وهي في كل زمان بحسبه إن كانت في الماضي الرمح والسيف ورباط الخيل، فهي اليوم النفائة المقاتلة والصاروخ، والهدروجين والدبابة والغواصة، والبارجة"⁴، وقال في تفسيره لسورة العاديات "الترغيب في الجهاد والإعداد له كالخيل أمس، ونفاث الطائرات اليوم".⁴

الفرع الخامس: بيان مقدار المسافات والمكايل المعاصرة في مسافة القصر ومقدار فدية الصيام:

أباح الله تعالى القصر في السفر رخصة منه وصدقة على عباده، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾⁵ النساء: 101، وقد بين الفقهاء مقدار المسافة التي يقصر فيها المسافر بالقياسات القديمة التي كانت معروفة عندهم⁶، ولذلك فإن الشيخ لما فسّر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁷ البقرة: 185، بين مسافة القصر بوحدة الكيلومتر المعروفة في زماننا حتى تكون واضحة عند القارئ فقال: "أوسط ما قيل في مسافة القصر إنها أربعة بُرْد، وهي ثمانية وأربعون ميلاً، والميل ألفا ذراع عند أهل الأندلس وهو يعادل الكيلو المتر المعروف الآن".⁷

وأما القضية الثانية وهي مقدار فدية الصيام فقد ذكر الشيخ في سورة البقرة أنه

¹ رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الأحكام، باب إجابة الحاكم الدعوة، رقم: 6752.

² أيسر التفاسير، ج 1، ص 509.

³ المرجع نفسه، ج 2، ص 325.

⁴ المرجع نفسه، ج 5، ص 607.

⁵ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي

العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - 1418 هـ، (93/2).

⁶ البحر المديد، لابن عجيبة، (1/477).

⁷ أيسر التفاسير، ج 1، ص 164.

حفتان من الطعام¹، ثم بين مقدار الحفنتين بوحدة الكيلوغرام المعروف في زماننا هذا لتكون المسألة واضحة، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفَدْيَةٌ مِنْ صِيَالٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ فَلَا يَأْتُمُّ مَنْ شَمَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَيَسِيرًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَعَوْا إِنْ رَجَعْتُمْ يَكُ عَشْرٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرًا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْعَمَلُوا إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣١﴾﴾ البقرة: 196، حيث قال: "ويجزئ اليوم كيلو رز أو بر أو تمر لكل مسكين ولا يجوز إلقاء ذلك لحمام الحرم كما يفعل الجاهل"²

الفرع السادس: الرد على من أنكر القصاص في الحضارة الغربية المعاصرة ومن تأثر بها: شرع الله - سبحانه وتعالى- القصاص، لما فيه من حكم كثيرة جاء ذكرها مجملة في قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة، 179) لأنه إذا علم القاتل أنه إن قتل قُتل أمسك وارتدع عن القتل. ففيه حياة للذي بهم يقتله، وحياة للهام³، وهذا الحكم لم تختص به الشريعة الإسلامية بل كان معمولاً به عند الأمم السابقة، السابقة، إلا أن أنظمت الدول الغربية المعاصرة تنكره بشدة بدعوى منافاته للإنسانية، وهذا ما وضحه الشيخ أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ القصص: 33، حيث قال "يريد نفس القبطي الذي قتله خطأ أيام كان شاباً بمصر ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ أي يقتلوني به إن لم أبين لهم وأفهمهم حجتى... من هداية الآيات: بيان أن القصاص كان معروفاً معمولاً به عند أقدم الأمم، وجاءت الحضارة الغربية فأنكرته فتجرأ الناس على سفك الدماء وإزهاق الأرواح بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية ولذلك صرح أن تسمى الخسارة البشرية بدل الحضارة الغربية"⁴.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة العلمية مع استنباطات الشيخ أبي بكر وتنزيلاته للآيات على الوقائع المعاصرة، نخلص إلى ما يلي:

- الشيخ أبو بكر جابر الجزائري فقيه مفسر مصلح بارع أراد أن يجد حلولاً لبعض مشاكل وأمراض الأمة من خلال كلام الله تعالى .
- كتاب "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير"، مع حاشيته القيّمة "نهر الخير على أيسر التفاسير" تفسير جليل تضمن فوائد جليّة متنوّعة وفرائد نادرة .

¹ المرجع السابق، ج1، ص161.

² المرجع نفسه، ج1، ص177.

³ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق الثعلبي، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1422 هـ- 2002 م، (56/2).

⁴ أيسر التفاسير، ج4، ص72-73.

- اهتمّ الشيخ - رحمه الله - في تفسيره بتنزيل الآيات على الواقع، وذلك في مجالات مختلفة، منها ما تعلّق بالأحكام الفقهية، فكان يقوم أحياناً بتنزيل آيات الأحكام على الواقع .
- قام المُفسّر ببيان حكم بعض النوازل المعاصرة أثناء تفسيره للقرآن، حيث بين أسماء الأشياء عند المعاصرين ومقدار المسافات والمكايل المعاصرة وغير ذاك .

قائمة المصادر والمراجع

- مصحف المدينة برواية حفص عن عاصم .
- الأساس في التفسير، سعيد حوّي، دار السلام - القاهرة الطبعة: السادسة، 1424 هـ .
- أبسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية الطبعة: الخامسة، 1424 هـ/2003 م .
- أئمة الحرمين، عبد الله بن أحمد العلاف الغامدي، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1432 هـ .
- البحر المديد ابن عجيبة الحسني، دار الكتب العلمية . بيروت، ط2 / 2002 م . 1423 هـ .
- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، (1376 هـ - 1959 م)، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه .
- تحريم آلات الطرب" للشيخ الألباني، تحريم آلات الطرب، مكتبة الدليل، الطبعة: الأولى.
- التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الغرناطي، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، الطبعة: الأولى - 1416 هـ .
- تفسير الإمام الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، جمع وتحقيق ودراسة: د. أحمد بن مصطفى الفزّان (رسالة دكتوراه)، دار التدمرية - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1427 - 2006 م .
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير القرشي، ت: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط2، 1420 هـ- 1999 م .
- التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا، د محمد بن رزق بن طرهوني، ط1، 1426 هـ، دار ابن الجوزي.
- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، دراية وتطبيق، عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، الطبعة الأولى (1428-2007)، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم .
- التيسير اللغوي لمعاني القرآن بالتفسير والبيان لدى أبي بكر الجزائري من خلال كتابه-أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير-، حيزية كروش، أقلام الهند، السنة 4، العدد 4، (أكتوبر-ديسمبر 2019)/دراسات ومقالات .
- صحيح البخاري، دار ابن كثير، بيروت، ط: 3، 1407/1987، ت: د مصطفى ديب البغا.
- صحيح مسلم، دار الجيل - بيروت ودار الأفاق الجديدة - بيروت .
- مقال : الشيخ أبو بكر جابر الجزائري الواعظ، المصلح، الفقيه، المفسّر، د المسعود جمادي، مجلة الإحياء، المجلد 19، العدد 22، سبتمبر 2019 .
- مقال: أعلام السلفية (13)، ترجمة العالم الواعظ المعمر أبو بكر الجزائري، إعداد مركز سلف للبحوث لدراسات، https://salafcenter.org/wp_content/uploads/08/2018/الرباط: .
- مقال: بعنوان: ترجمة (إمام المسجد النبوي) فضيلة الشيخ أبو بكر جابر، عبد الله أحمد آل علاف الغامدي، الجزائري، الرباط:
- <http://saaaid.net/doat/gamdi/31.htm>.

**تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام القرطبي
من خلال كتابه الجامع لأحكام القرآن
- المقومات، الأنواع، الدلالات، الموضوعات -**

د / قويدر العشي

كلية العلوم الإسلامية والإنسانية – جامعة وهران1

Lachebi.kouider@univ-oran1.dz



مقدمة

يعتبر موضوع تنزيل الآيات على الواقع من المواضيع التي تحتاجها الأمة اليوم، لما فيها من ربط واقع المسلمين بالآيات القرآنية، لبعث فيهم روح الأمل واستدراك مواطن الضعف والهبوان، باعتبار أن القرآن الكريم إنما هو كتاب تقررت فيه سنن الكون التي وضعها الله سبحانه وتعالى لقيام هذه الحياة على المنهج الصحيح.

ولقد اشتغل المفسرون بالقرآن الكريم وأبدعوا في علومه، وأعطوا اعتبارا كبيرا لمسألة تنزيل الآيات على الوقائع والأحداث التي يعيشونها و يشاهدونها من خلال قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومن هؤلاء المفسرين الإمام أبو عبد الله القرطبي من خلال كتابه الجامع لأحكام القرآن، والاسم على المسمى، فهو كتاب موسوعي يجمع بين التفسير والفقه، وقد تضمن جانبا كبيرا لإسقاطات الآيات على الواقع الاجتماعي و السياسي الذي كان يعيشه الإمام.

وتكمن أهمية الموضوع في أنه ربط الجانب النظري لفقه التنزيل بالجانب التطبيقي من خلال تتبع تنزيلات الإمام للآيات القرآنية على الواقع والتي تنوعت مجالاتها في كتابه الجامع.

ويقوم موضوع البحث على الإشكالية التالية: ما دام الإمام القرطبي قد ذكر جانباً من ربط الآيات بالواقع وتزليلها عليه، فما هي مقومات التنزيل التي كان يمتلكها الإمام القرطبي، وما هي أنواعه ودلالاته ومجالاته؟

وقد تناولت بعض الدراسات الحديثة الموضوع و جاءت على شكل تمهيدات و مقدمات في معرفة معالمه الكبرى، مثل البحث الذي قدمه د. عبد العزيز عبد الرحمن الضامر في كتابه تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، وكذلك ما قدمه أ.د. محمد بن عبد العزيز محمد العواحي في ورقته العلمية التي شارك فيها في المؤتمر القرآني الدولي السنوي (مقدس 8) بعنوان: إسعاد الإنسان بهدى القرآن أقامه مركز بحوث القرآن الكريم بجامعة ملايا بالشراكة مع

كرسي الملك عبد الله بن عبد العزيز للقرآن الكريم بجامعة أم القرى والمتمثلة في العنوان التالي: منحه العلماء في تنزيل الهدايات على الواقع.

ولقد أبدع الباحثان بحثهما، وكانا بالنسبة لي الطريق الذي مهد لي ويسر لي البحث في الموضوع من خلال معرفة معالمه ومجالات ذلك على كتاب الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.

الموضوع الذي يقتضي ذلك، فالموضوع دراسة لجزئية تضمنها الكتاب المدروس تقتضي تتبع لهذه الجزئية وتحليلها.

وقسمت البحث إلى مقدمة وخاتمة وخمسة مباحث:

- مبحث تمهيدي فيه تعريف للكتاب وصاحب الكتاب.
- مبحث يتحدث عن أنواع التنزيل الموجودة في الكتاب.
- مبحث يتحدث عن مقومات التنزيل التي امتلكها الإمام القرطبي.
- مبحث يتحدث عن أنواع الدلالات التي استعملها الإمام القرطبي في التنزيل.
- مبحث أخير يتحدث عن مجالات التنزيل.

المبحث الأول

التعريف بالكتاب وصاحبه

المطلب الأول: التعريف بالكتاب:

يعتبر كتاب الجامع من الكتب التي وسعت كل ما يتعلق بالأحكام التي تضمنها القرآن الكريم، وقد اعتمد على طريقة جمعت بين علمين الفقه والتفسير، فإذا فسر آية أعقها بذكر ما تعلق بها من أحكام فقهية ثم أردفها بآراء مذاهب الأئمة.

وأما سبب تأليفه فقد ذكره صاحبه بقوله: " فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع الذي استقل بالسنة والفرض ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض رابت بأن اشتغل به مدى عمري واستفرغ فيه مني ¹."

والظاهر في الكتاب في مجموعه قد غلبت عليه مباحث اللغة والقراءات والأحكام الأصولية التي تدخل من ضمن التفسير وتدخل في قضايا فقه اللغة، اعتمدها الإمام القرطبي في استدلالاته على آراءه التفسيرية واستنباطاته الفقهية، وأكد ذلك بقوله في مقدمة كتابه: " بأن

¹ - الجامع لأحكام القرآن، تج: أحمد بن شعيبان بن أحمد، محمد بن عبادي بن عبد الحليم، مكتبة الصفا، القاهرة:

أكتب فيه تعليقا وجيزا يتضمن نكتا من التفسير واللغات والإعراب والقراءات¹، وأشار إلى ذلك من اهتم به من الباحثين دراسة وتحقيقا، يقول بهجت البيطار: "وبدوا للمتأمل في التفسير نفسه أنه يغلب عليه البحث في الفنون العربية والمباحث اللغوية والمسائل الفقهية"².

وتضمن الكتاب في كثير من جوانبه إسقاطات للواقع الذي كان يعيشه الإمام في مواضع بيان مناسبة الآية للواقع الاجتماعي وعادة ما كان ذلك متضمنا في الرد على أهل البدع والزيف والضلالات التي استحدثت في قومه، وقد أشار إلى ذلك بقوله في بيان طريقة تأليفه للكتاب أنه جاء للرد على أهل الزيف والضلالات³، وللواقع السياسي من حيث نقد حكام عصره ومبين ما آل إليه حالهم من التدهور والضعف وتغيير حكم الله وتبديله⁴.

والملاحظ في منهجية الكتاب في عرض المسائل التي تضمنتها الآية والتي كانت على شكل فوائد، أنها ربطت بين سبب النزول وبين الواقع الذي عاشه الإمام القرطبي من حيث تشابه الأحداث، وهذه في حقيقتها تدخل ضمن الاستحسانات التي ترجحت في عقل العالم الذي استحكم معاني ومراد الشارع وقد استحضرت لديه في عالم الشهادة، وكأن واقع حاله تشابهت معاملته مع مناسبة الآية. يقول الإمام الزركشي مقررًا ذلك: "والعالم قد يحدث له حوادث فيتذكر أحاديث وآيات تتضمن الحكم في تلك الواقعة وإن لم تكن خطرت له تلك الحادثة قبل حفظه للنص"⁵.

المطلب الثاني: التعريف بصاحب الكتاب

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي، وقد اختلف في سنة ولادته، وقد كانت ولادته على الأرجح⁶ في أواخر القرن السادس، ثم رحل إلى صعيد مصر واستقر بمنية أبي خصيب واستقر فيها إلى أن توفي في شوال سنة 671 هـ.

كان الإمام القرطبي زاهدا وورعا، وقد أثنى عليه العلماء، قال ابن فرحون: "كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا المشغولين بما يعينهم من أمور الآخرة"⁷، وكان جريئا في الحق ولم تكن تأخذه في الله لومة لائم⁸، وكان كثير العناية بمظهره

¹ - المصدر نفسه، 22/1.

² - تفسير الإمام أبي عبد الله القرطبي وهو المسمى بالجامع لأحكام القرآن، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، محرم صفر 1364 هـ كانون الثاني وشباط 1945 م، 20، 562/2.

³ - الجامع لأحكام القرآن، 22/1.

⁴ - تفسير الإمام أبي عبد الله القرطبي، بهجت البيطار، 20، 562/2.

⁵ - البرهان في علوم القرآن، تج: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1: 1957، 31/1.

⁶ - ينظر: الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين، ط15: 2002، 322/5، و ينظر: القرطبي حياته وآثاره العلمية ومنهجه في التفسير، مفتاح السنوسي بلعم، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط1: 1998، 86/.

⁷ - الديباج المذهب، تج: محمد الأحمد أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، 308/2.

⁸ - ينظر: الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، مشهور حسن محمود سلمان، دار القلم، دمشق، ط1: 1993، 50/.

دون تكلف ولم يصبه من الغنى ما يجعله يعيش حياة مترفة، وكان كثير الجد وقد كرس حياته للعلم والمطالعة والتأليف ولذلك وصفه مترجموه أن أوقاته كانت معمورة ما بين عبادة وتصنيف¹.

قال عنه الذهبي مبينا مكانته العلمية: " إمام متفنن متبحر في العلم له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور فضله "²، وقال عنه السيوطي: "مصنف التفسير المشهور الذي سارت به الركبان"³.

المبحث الثاني

مقومات التنزيل التي كان يمتلكها الإمام القرطبي

ونذكر فيه واقع الإمام القرطبي الذي يعيش فيه باعتبار أنه المقوم الأساسي باعتباره يمثل الميدان الذي دفع الإمام إلى تنزيل ما في الآيات من الأحكام، ثم نردف ذلك بالمقومات العامة التي يمتلكها الإمام رحمة الله عليه.

المطلب الأول: واقع الإمام القرطبي

كان واقع الإمام القرطبي مليء بالقضايا المتعددة مست واقعه السياسي والاجتماعي، جعلته في كثير من الأحيان يسقط الآيات على واقعه ويذكر أحواله وأحوال قومه سواء تعلق الأمر بعامة الناس أو بعلية القوم كالحكام والفقهاء، وكانت له من البواعث النفسية التي جعلته كثير الانشغال بهوم المسلمين شديد التمسك بسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - متأثرا بما حل بالأمة، ولذلك جاءت تصانيفه مصبوغة بهذه الصبغة، فهو يشكو دائما من كثرة الفساد الذي كان يعيشه ويراه، فألف كتابه التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، فكان يذم الغنى المترف الذي يضعف العبادة⁴، يقول الإمام القرطبي في ذلك: "هذا هو الزمان الذي استولى فيه الباطل على الحق وتغلب فيه العبيد على الأحرار من الخلق فباعوا الأحكام ورضي بذلك منهم الحكام، فصار الحكم مكسا والحق عكسا لا يوصل إليه ولا يقدر عليه"⁵.

ومن أبرز الظروف التي مر بها الإمام هي الظروف السياسية فقد كان لها الأثر الكبير في تنزيل الآيات على الواقع الذي يعيشه بطريق التصريح تارة وتارة بطريق التلميح لأسباب موضوعية تتعلق بخطورة الوضع وملابساته ولأسباب شخصية تتعلق بالمفسر ذاته، فقد

¹ - ينظر: المرجع السابق، /55-57.

² - تاريخ الإسلام، تج: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2: 1993، 75/50.

³ - طبقات المفسرين، تج: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1: 1396، /92.

⁴ - ينظر: الديباج، ابن فرحون، مصدر سابق، 309/2.

⁵ - التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، تج: الصادق بن محمد بن إبراهيم، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع الرياض، ط1: 1425، /1228.

عاش مرحلة تمكن الصليبيين في الغرب والتتر في الشرق، وبالضبط في القرن السابع - عصر القرطبي - عاشت الأندلس ألوان البطش والنهب والتمزق والضيق إثر احتلال النصارى أوطانها حتى انتهى الأمر بسقوط قرطبة¹ عبر عنها الإمام بقوله: "لبسنا العدو في ديارنا واستولى على أنفسنا وأموالنا مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضا واستباحة بعضنا أموال بعض"²، هذا في قرطبة والأندلس، أما في مصر فقد انتشرت فيها عقائد فاسدة وأعراف منكرة قال الإمام وهو يصف ذلك الواقع: "هذا الانحناء والتكفي الذي نسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية وعند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض حتى أن أحدهم إذا لم يقم له وجد في نفسه كأنه لا يؤبه به وأنه لا قدر له، وكذلك إذا التقوا انحى بعضهم إلى بعض عادة مستمرة وورثة مستقرة ولاسيما عند التقاء الأمراء والرؤساء نكبوا عن السنن وأعرضوا عن السنن"³.

وقد تجد في الجامع بيانا لأحكام تتعلق بالأفكار العقديّة الباطلة التي كانت سائدة في عصره تقودها عصبية مقيته أو مدارس فكرية هدامة وانتشارها في عامة الناس يقول الإمام في ذلك: "فكيف في زماننا هذا الذي يرى فيه الإنسان مكبا على الظلم حريصا عليه لا يقلع والسجدة في يده زاعما أنه يستغفر الله في ذنبه وذلك استهزاء منه واستخفاف"⁴.

فالظاهر أن الطبيعة المكانية والزمانية هي التي جعلت الإمام القرطبي يكثر في تفسيره القياس على الواقع أو ما عبر عليه بقوله: "المشاهد في الوجود"⁵، ويمكن أن يرجع ذلك إلى اهتمام المغاربة بهذا النوع من الفقه (فقه التنزيل) ومن ذلك ما كتبه المفسر ابن الزبير الغرناطي في رسالته بعنوان: "الزمان والمكان" كان الغرض منها بعث الأمل والهمة في نفوس الأندلسيين بتنزيل وعد النصر الذي وعدت به هذه الأمة⁶.

المطلب الثاني: مقومات التنزيل

امتلك الإمام القرطبي بعض المقومات التي أهلته إلى تنزيل الآيات على الواقع الذي يعيشه، فإن الأمر لم يكن من طريق رد الفعل أو التشبيهي، وإنما كان مبنيا على مرتكزات انطلق منها الإمام في تنزيل النص على الواقع من ذلك:

¹ - ينظر: تاريخ المسلمين في الأندلس، محمد سهيل طقوش، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط3: 2010، بيروت لبنان، 565/.

² - الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، 9/7.

³ - الجامع، مصدر سابق، 201/9.

⁴ - الجامع، مصدر سابق، 211/4.

⁵ - الجامع، مصدر سابق، 9/7.

⁶ - ينظر: تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، طباعة من المجلس الوطني للإعلام، الإمارات، ط1: 2007، 62/.

- الوقائع المعروضة التي كانت تحتاج إلى معرفة الحكم الشرعي فيها، وكان بعضها يحتاج إلى بذل جهد والاجتهاد القائم على معرفة ظروفها وأسبابها، خاصة بعض المسائل الفقهية التي شاهدها وقد عرضت عليه كالدخول إلى الحمام وحكم من مات على حين غرة هل يعد من الشهداء.

- مهارته في الاستنباط والإلحاق بطريق الاجتهاد المبني على تعميم الأحكام على الوقائع من غير أن يشطط في ذلك.

- ملكة الفهم وخبرة بالواقع وحسن التبصر بتصرفات المكلفين ومآلات أفعالهم، وكل هذا موجود عند الإمام، فإنه رحمة الله عليه لا يترك مناسبة تعلق بها حكم شرعي لها علاقة بالجانب السياسي أو الاجتماعي إلا أنزل ذلك بواقعه محققا لمناطاتها وناقدا ومدركا لمآلاتها¹.

المبحث الثالث

أنواع تنزيل الآيات على الواقع الموجودة في الجامع

تبين لبعض الباحثين من خلال عمل المفسرين أن التنزيل للآيات يتنوع بحسب اعتبارين²، وبفرض أن هذا الحصر هو الغالب عند أهل التفسير، فقد تبين أن هذين الاعتبارين قد وجدا في تفسير الجامع:

المطلب الأول: الاعتبار الأول

وهو مبني على طبيعة العبارة المستعملة من طرف المفسر، وتأتي على صيغتين:

- بصيغة التصريح: بأن يستعمل المفسر من العبارة ما تدل على أن هذه الآية تنطبق على واقعه، فيعبر عنها بألفاظ صريحة، مثل قول الإمام القرطبي في تفسيره: "وهذا الحكم جار عندنا بالأندلس"³، "وهي معدومة عندنا"⁴، "وهذه المسألة نزلت عندنا بقرطبة"⁵، وغيرها من العبارات التي تدل على أن التنزيل جاء صراحة من المفسر.

- بصيغة التلميح: وهو أن يستعمل المفسر التعريض على أن هذا المعنى واقع في زمنه من غير أن يصرح وهذا النوع يأتي كثيرا من جانب ما يفهم من كلام المفسر، كقول مجاهد في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 124)، "ليس للظالمين عهد، وإذا عاهدته فانقضه"⁶، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (غافر: 3) قال: "هم السفاكون

¹ - ينظر: تفسير الإمام أبي عبد الله القرطبي، بهجت البيطار، مرجع سابق، م 20، 565/2.

² - تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، مرجع سابق، /71.

³ - الجامع، مصدر سابق، 40/4.

⁴ - الجامع، مصدر سابق، 194/3.

⁵ - الجامع، مصدر سابق، 208/4.

⁶ - جامع البيان، الطبري، دار التربية و التراث، مكة المكرمة، 22/2.

للدماء بغير حق"¹، وهذا تعريض واختيار منه لتفسير ابن عباس تناسب ذلك مع واقع مريد طغى فيه الحجاج بن يوسف².

واختيار هذه الصيغة من طرف بعض المفسرين يرجع بحسب بعض الباحثين³ إلى أسباب، فقد يكون السبب سياسيا ومثاله ما بيناه في قول مجاهد رحمة الله عليه وإن كان معنى الآية أعم من ذلك، وقد يكون السبب يتعلق بأشخاص معينة أو يتعلق بما يحفظ ببضة المسلمين ووحدةهم، فيستعمل المفسر التلميح والتعريض أو يستعمل دلالة المفهوم أو دلالة العموم، وهذا موجود في موضع بيان المعتقدات الفاسدة والمدارس الهدامة التي تخالف شريعة الإسلام بغير أن يشير إلى الألقاب والأسماء كقول الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿ وَخَذُ يَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبَ بِهِ - وَلَا تَحْنُثْ ﴾ (ص: 44)، المسألة السادسة: "استدل جهال المتزهدة وطعام المتصوفة بقوله تعالى لأيوب: الآية، على جواز الرقص، قال أبو الفرج الجوزي: وهذا احتجاج بارد"⁴، وعندما ذكر أسباب النصر وشروطه في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا اللَّهَ كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة: 249) وبعد ذلك قال: "وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإننا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا"⁵، تلميحاً لما في عصره من الظلم والفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد.

إلا أنه لا بد من التنبيه إلى مسألة تتعلق بهذا القضية، وهو أن التنزيل بطريقة التلميح في حقيقته صعب المنال يحتاج إلى جهد في معرفة المعنى المقصود من هذا التنزيل، باعتبار أن المقارنات بين الآيات والواقع الذي يعيشه المفسر والذي يخالف التوجيه الصحيح، خاصة ما يتعلق بتنزيل الآيات على الفرق الضالة والمعتقدات الفاسدة، فإن المقصود هو التنبيه إلى دخول هذه الفرق في حكم النص وليس المقصود أنه سبب النزول، يقول الإمام الشاطبي: "كما قاله القاضي إسماعيل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: 159) بعد ما حكى أنها نزلت في الخوارج وكأن القائل بالتخصيص - والله أعلم - لم يقل به بالقصد الأول، بل أتى بمثال مما تتضمنه الآية، كالمثال المذكور، فإنه موافق لما كان مشتهراً في ذلك الزمان، فهو أولى ما يمثل به ويبقى ما عداه مسكوتاً عن ذكره عند القائل به ولو سئل العموم لقال به"⁶.

¹ - تفسير مجاهد، تج: محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط1: 1989، /583.

² - ينظر: تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، المرجع السابق، /73.

³ - ينظر: المرجع السابق، و الصفحة نفسها.

⁴ - الجامع، مصدر سابق، 157/15.

⁵ - الجامع، مصدر سابق، 194/3.

⁶ - الاعتصام، تج: حامد أحمد الطاهر، دار الغد الجديد، القاهرة، ط1: 2008، /83.

المطلب الثاني: الاعتبار الثاني

ويأتي على ثلاثة أنواع:

- تنزيل كلي: وهو تنزيل يطابق واقع المفسر، من ذلك ما ذكره الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعْ لَهُ فَخُذْ مِنْهُ ضَرْبًا مِمَّا تَشَاءُ﴾ (الإسراء: 45)، وقد ذكر مواقف كثيرة حصلت لبعض الصالحين قد اعتصموا بهذه الآية، ثم نزل رحمه الله هذه الآية على موقف حصل له شخصيا، قال: "ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك أنني هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن فعبرا علي ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر: هذا ديبله - يعنون شيطاننا - وأعنى الله عزوجل أبصارهم فلم يروني والحمد لله حمدا كثيرا على ذلك"¹.

ومن ذلك ما ذكره الإمام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: 169)، قال: "المسألة الخامسة: العدو إذا صبح قوما في منازلهم ولم يعلموا به فقتل منهم، فهل يكون حكمه حكم قتل المعترك أو حكم سائر الموتى، وهذه المسألة نزلت عندنا بقرطبة أعادها الله، أغار العدو - قصمه الله - فقتل وأسر، وكان من جملة من قتل والذي رحمه الله، فسألت شيخنا المقرئ الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بأبي حجة فقال: غسله وصلي عليه، فإن أباك لم يقتل في المعترك بين الصفيين.. ثم بعد ذلك وقفت على المسألة في التبصرة لأبي الحسن اللخي وغيرها، ولو كان ذلك قبل ذلك ما غسلته وكنت دفنته بدمه في ثيابه"².

- تنزيل جزئي: وهو تنزيل يطابق الواقع في بعض جزئياته، مثل تفسير الرازي رحمه الله لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصْهَدُونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْزِبُونَ الدَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: 34) فذكر من واقعه ما يطابقه فنزل جزءا من الآية رغم أنها تحتوي على أكثر من جزء كالصيد في سبيل الله وكنز الذهب والفضة، فذكر منها أكل أموال الناس بالباطل فقط، قال: "ولعمري من تأمل أحوال أهل الناموس والتزوير في زماننا وجد هذه الآيات كأنها ما أنزلت إلا في شأنهم وفي شرح أحوالهم، فترى الواحد منهم يدعي أنه لا يلتفت إلى الدنيا ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات وأنه في الطهارة والعصمة مثل الملائكة المقربين حتى آل

¹ - الجامع، مصدر سابق، 10/199.

² - الجامع، مصدر سابق، 4/208.

الأمر إلى الرغبة الواحد تراه يتهاك عليه ويتحمل نهاية الذل والدناءة في تحصيله"¹.

- التنزيل العكسي: وهو أن ينزل المفسر الآية على واقع يخالفها، أو حثت على خلافه، مثل ذلك ما ذكره الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ (آل عمران: 118)، قال: "قلت وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء"².

المبحث الرابع

دلالات التنزيل عند الإمام القرطبي

تعددت دلالات التنزيل في كتاب جامع الأحكام بين الاستدلال بالعموم والاستدلال بالمفهوم، وقبل بيان هذه القضية وتفصيلها لزم بيان موقف المفسرين منها:

المطلب الأول: موقف المفسرين من دلالة المفهوم

تعتبر دلالة المفهوم من القضايا التي يشترك فيها علوم القرآن الكريم مع علم أصول الفقه، وعادة ما كانت هذه القضية وفق المنهج الأصولي في تحريرها وبيان حقيقتها وموقف الشرع منها، قال الإمام السيوطي: "فالأول (المفهوم) ما يوافق حكمه المنطوق، فإن كان أولى سمي فحوى الخطاب كدلالة (فلا تقل لهما أف) على تحريم الضرب لأنه أشد، وإن كان مساويا سمي لحن الخطاب أي معناه كدلالة (إن الذين ياكلون أموال اليتامى ظلما) على تحريم الإحراق لأنه مساو للأكل في الإلتلاف، واختلف هل دلالة ذلك قياسية أو لفظية مجازية أو حقيقية على أقوال بينهاها في كتبنا الأصولية"³، فلذلك فإن الأخذ بهذه الدلالة في التفسير مبني على أصل تقررت معالمة في علوم القرآن الذي يعد الآلة الأساسية للتفسير.

قال أبوحيان في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: 7) "ونبه يقوله (مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) على أن ما فوق الذرة يراه قليلا كان أو كثيرا وهذا يسمى مفهوم الخطاب وهو أن يكون المذكور والمسكوت عنه في حكم واحد بل يكون المسكوت عنه بالأولى في ذلك الحكم"⁴.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفِجْشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النساء: 25)، "والآية الكريمة سياقها كلها في الفتيات المومنات فتعين أن المراد بقوله: (فإذا أحصن) أي تزوجن، كما فسره ابن عباس ومن تبعه، وعلى كل من القولين إشكال على وذهب

¹ - مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3: 1420، 34/16.

² - الجامع، مصدر سابق، 137/4.

³ - الإتيان، تج: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب: 1974، 106/3.

⁴ - البحر المحيط في التفسير، تج: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت: 1420، 524/10.

الجمهور وذلك أنهم يقولون: إن الأمة إذا زنت فعلها خمسون جلدة سواء كانت مسلمة أو كافرة مزوجة أو بكرا مع أن مفهوم الآية يقتضي أنه لا حد على غير المحصنة ممن زنى من الإمام وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك"¹.

قال الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (الكهف: 38) "دل مفهومه على أن الأخ الآخر كان مشركا بالله تعالى يعبد غيره"².

قال الإمام ابن عطية في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَهُمْ مَظْهَرًا وَلَا يُدْرِكُوا أَهْلَهُمْ مِنْهُ وَلَا يَسْتَكْبِرُوا بِهِمْ عَلَيْكُمْ﴾ (آل عمران: 130)، "قوله مضاعفة إشارة إلى تكرار التضعيف عاما بعد عام كما كانوا يصنعون فدلّت هذه العبارة المؤكدة على شناعة فعلهم وقبحه ولذلك ذكرت خال التضعيف خاصة، وقد حرم الله جميع أنواع الربا، فهذا هو مفهوم الخطاب إذ المسكوت عنه من الربا في حكم المذكور"³.

- من تطبيقات تنزيل الإمام القرطبي بدلالة المفهوم:

- يقول الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: 249)، "فهذه أسباب النصر وشروطه"⁴، فدل منطوق الآية على أن النصر من عند الله وأن ذلك لا يكون بكثرة العدد أو العدة وأن الصبر من أسباب النصر، ثم نزل المعنى المخالف على واقعه، قال: "وهي معدومة عندنا، فإننا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا.."⁵.

- يقول الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ أَرْضٍ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام: 59) "فالله عنده علم الغيب وبيده الطرق الموصلة إليه لا يملكها إلا هو"⁶ وهو منطوق الآية، ثم نزل المفهوم المخالف على واقعه فقال: "قال علماؤنا: وقد انقلبت

¹ - تفسير القرآن العظيم، تج: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط1: 1419، 229/2.

² - الجامع، مصدر سابق، 301/10.

³ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تج: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1422، 507/1.

⁴ - الجامع، مصدر سابق، 194/3.

⁵ - الجامع، مصدر سابق، 194/3.

⁶ - الجامع، مصدر سابق، 3/7.

الأحوال في هذه الأزمان بإتيان المنجمين والكهان..¹.

- يقول الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ، (آل عمران: 118) ، " أكد الله تعالى الزجر عن الركون إلى الكفار "² وهو منطوق الآية، ثم نزل المفهوم المخالف على واقعه فقال: "وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء.."³.

المطلب الثاني: موقف المفسرين من دلالة العموم

يرى المفسرون - في الغالب العام - أن الأحداث التي نزلت بها الآيات غير مقصورة عليها، بل تعم كل ما شابهها من وقائع، واشتهر عندهم أن العبرة بعموم اللفظ، وهي من الدلالات الأصولية التي نوقشت وتحررت معالمها وقضاياها في علم الأصول بشيء من التفصيل، وقد عرفت هذه القاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) عند من اختص بعلم القرآن وجعل لها مبحثا مستقلا تحررت مسائله وفق المنهج الأصولي.

قال الإمام الطبري: " أن أحكام الله جل ثناؤه في أي كتابه فيما أمر ونهى على العموم مالم يخص ذلك ما يجب التسليم به "⁴، ويقول في موضع آخر: " مع أن الآية تنزل في معنى فتعم ما نزلت به فيه وغيره، فيلزم حكمها جميع ما عمته لما قد بينا من القول في العموم والخصوص "⁵. وقال الإمام السيوطي: " ومن الأدلة على اعتبار عموم اللفظ احتجاج الصحابة وغيرهم في وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة شائعا ذائعا بينهم "⁶.

ويقول الإمام ابن تيمية: " والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه، فلم يقل أحد من علماء المسلمين إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص فتعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ "⁷.

ويقول الإمام ابن باديس: " ونزول الآيات في الكافرين لا يمنع من تطبيقها على من شاركهم في مثل الحال الذي أنكرته عليهم من المؤمنين، لأن الوصف المذموم مذموم سواء أكان المتصف

¹ - الجامع، مصدر سابق، 4/7.

² - الجامع، مصدر سابق، 136/4.

³ - الجامع، مصدر سابق، 137/4.

⁴ - جامع البيان، مصدر سابق، 208/2.

⁵ - المصدر نفسه، 169/8.

⁶ - الإتيان، مصدر سابق، 111/1.

⁷ - مقدمة في أصول التفسير، تاج: عدنان محمد زرزور، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2: 1972، 47.

به مومنا أم كان كافرا"¹.

وقد استعمل الإمام القرطبي في تفسيره العموم في مواطن الخلاف، كأن يقول: وقيل هو على العموم، أو يقول: وقالت طائفة: الآية على العموم، أو يستعمله في موطن الترجيح، فيقول: وظاهرها العموم، أو يقول: فهو على العموم في الصحيح من الأقوال، أو يقول: والصحيح العموم.

من تطبيقات تنزيل الإمام القرطبي بدلالة العام:

- يقول الإمام القرطبي: "قد ذم الله تعالى الكفار بكثرة الأكل فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾، (محمد: 12)، فإن كان المؤمن يتشبه بهم ويتنعم بتنعمهم في كل أحواله وأزمانه، فأين حقيقة الإيمان والقيام بوظائف الإسلام، ومن كثر أكله وشربه كثر هممه وحرصه وزاد بالليل كسله ونومه، فكان نهاره هائما وليله نائما"²، فدل أن العبرة بالأوصاف الموجودة المتمثلة في الاشتغال بالتنعم وترك دعوة الله وخدمة دينه، سواء وجدت عند أهل الكفر أو عند أهل الإيمان.

- يقول الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، (النساء: 115)، والآية وإن نزلت في سارق الدرع أو غيره فهي عامة في كل من خالف طريق المسلمين"³.

- يقول الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، (الأنعام: 153)، وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد"⁴.

لكن لا بد من التنبيه إلى قضية قد ينكر الإمام التعميم فيها عند التنزيل، مثل ما في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ ۚ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبِطُونَ﴾، (العنكبوت: 48) قال الإمام: "في كتابة النبي صلى الله عليه وسلم قال جماعة بجواز ذلك وأنه كتب بيده منهم السمنائي وأبو ذر والباجي ورأوا أن ذلك غير قادح في كونه أميا، قال: قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وقد أنكرها كثير من متفقهة الأندلس وغيرهم وشددوا

¹ - مجالس التذكير، تج: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1: 1995، 146/.

² - الجامع، مصدر سابق، 53/11.

³ - الجامع، مصدر سابق، 290/5.

⁴ - الجامع، مصدر سابق، 101/7.

النكير فيه ونسبوا قائله إلى الكفر"¹، فأشار الإمام إلى قضية نيه إليها وهي تكفير المسلمين فقال: " وذلك دليل على عدم العلوم النظرية وعدم التوقف في تكفير المسلمين ولم يتفطنوا، لأن تكفير المسلم كقتله"².

ولذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾، (البقرة: 159)، قال في المسألة الأولى: " واختلفوا من المراد بذلك فقيل أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم وقد كتم اليهود أمر الرجم، وقيل المراد كل من كتم الحق في عامة في كل من كتم علما من دين الله يحتاج إلى بثه"³، والقضية تتعلق باللعن والتي ذكرت سابق تتعلق بالكفر، فالظاهر الغالب - بعد تتبع مسائل تشابهها - أن الإمام يتحرى في مسائل الكفر والفسوق واللعن، ولا يقطع بالتعميم، وإنما يذكر الأقوال من غير مناقشة، بخلاف الإمام الطبري الذي أعمل التعميم، فقال - تفسيرا للآية السابقة:

" وهذه الآية وإن كانت نزلت في خاص من الناس، فإن معني بها كل كاتم علما فرض الله تعالى ببيانه للناس"⁴.

المبحث الخامس

موضوعات تنزيل الآيات على الواقع عند القرطبي

لا نقصد بالموضوعات الحصر باعتبار أن كل حادثة أو واقعة نزل بشأنها القرآن الكريم غير مقصورة عليها، بل النص يعم كل الوقائع التي شابهت الحادثة أخذا بالقاعدة الكبرى في التفسير " العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"، وإنما نقصد تنوع مجالات التنزيل، من ذلك:

المطلب الأول: موضوعات العقيدة

وهي من الموضوعات الأساسية، بل هو منطلق التنزيل الواقعي الذي انطلق منه المفسرون جميعا من خلال قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: 38)، قال الإمام القرطبي: " أي ما تركنا شيئا من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن، إما دلالة مبينة مشروحة وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول"⁵، وقد تعددت مجالات هذا الموضوع منها:

¹ - الجامع، مصدر سابق، 253/13.

² - الجامع، مصدر سابق، 253/13.

³ - الجامع، مصدر سابق، 147/2.

⁴ - جامع البيان، مصدر سابق، 251/3.

⁵ - الجامع، مصدر سابق، 314/6.

- الرجاء: قال الله تعالى: ﴿وَتَحَسَّبُهُمْ أَيَقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلَّمَهُمْ بَسِطَ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾، (الكهف: 18)، قال الإمام القرطبي: "فكذلك تعلقنا أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين، كلب أحب قوما فذكره الله معهم فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام وحب النبي صلى الله عليه وسلم".¹

- الاستهزاء: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ (البقرة: 231)، قال الإمام القرطبي: "فكيف في زماننا هذا الذي يرى فيه الإنسان مكبا على الظلم حريصا عليه لا يقلع والسبحة في يده زاعما أنه يستغفر الله في ذنبه وذلك استهزاء منه واستخفاف".²

- السجود: قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: 34) قال الإمام القرطبي: "وهذا السجود المنهي عنه قد اتخذ جهال المتصوفة عادة في سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم، فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه يسجد للأقدام لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها لجهالة منه، ضل سعيهم وخاب عملهم".³

- الرياء: قال الله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: 32)، قال الإمام القرطبي: "عن ابن وهب يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف، قلت: هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذي عم فينا الفساد وكثر فيه الطغام وطلب فيه العلم للرئاسة لا للدراية بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمرء والجدال الذي يقسي القلب ويورث الضغن وذلك مما يحمل على التقوى وترك الخوف من الله تعالى".⁴

- الكهانة والعرافة: قال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، (الأنعام: 59)، قال الإمام القرطبي: "وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان بإتيان المنجمين والكهان لا سيما بالديار المصرية فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجمين، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقهاء والدين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فمهرجوا عليهم بالمحال واستخرجوا منهم الأموال فحصلوا من أقوالهم على السراب والال ومن أديانهم على الفساد والضلال".⁵

¹ - الجامع، مصدر سابق، 276/10.

² - الجامع، مصدر سابق، 162/4.

³ - الجامع، مصدر سابق، 245/1.

⁴ - الجامع، مصدر سابق، 239/1.

⁵ - الجامع، مصدر سابق، 5/7.

- التعدي في النعم: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، (المائدة: 87) ، قال الإمام القرطبي: "قال علماؤنا رحمة الله عليهم في هذه الآية وما شبهها والأحاديث الواردة في معناها رد على غلاة المتزهدين وعلى أهل البطالة من المتصوفين، إذ كل فريق منهم قد عدل عن طريقه وحاد عن تحقيقه"¹.

المطلب الثاني: موضوعات العبادة

ويتعلق الأمر بتنزيل ما يخالف جوهرها من خشوع وسكون نفس على ما ابتدعه بعض الجبال في عصر المفسر، يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر: 23)، قال الإمام القرطبي: "أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله، فهذه حال العارفين بالله الخائفين من سطوته وعقوبته لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الوعيق والزئير ومن النفاق الذي يشبه نفاق الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله والخوف منه والتعظيم لجلاله ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفا من الله"².

المطلب الثالث: موضوعات المعاملات

ونقصد بالمعاملات كل ما يدخل فيما يحفظ حقوق العباد وما يندرج ضمن الآداب العامة، من ذلك:

- الحذر من أسباب الهزيمة: قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (النساء: 141)، وذكر الإمام القرطبي فيها خمس مسائل، الثالثة منها قال فيها: "إن الله سبحانه وتعالى لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا إلا أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهاوا عن المنكر ويتقاعدوا عن التوبة فيكون تسليط العدو من قبلهم.. وقد وجد ذلك في هذه الأزمان بالفتن الواقعة بين المسلمين، فغلضت شوكة الكافرين واستولوا على بلاد المسلمين حتى لم يبق من الإسلام إلا أقله، فنسأل الله أن يتداركنا بعفوه ونصره ولطفه"³.

- الجهاد: قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 216)، قال الإمام القرطبي: "وقال أبو عبيدة: "عسى" من الله إيجاب والمعنى عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجون ومن مات مات شهيدا،

¹ - الجامع، مصدر سابق، 196/6.

² - الجامع، مصدر سابق، 265/7.

³ - الجامع، مصدر سابق، 317/5.

وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم.

قلت: وهذا صحيح لا غبار عليه كما اتفق في بلاد الأندلس، تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد وأي بلاد وأسر وقتل وسبي واسترق فإننا لله وإنا إليه راجعون ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته"¹.

- دخول الحمام: قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (النور: 30)، قال الإمام القرطبي: "أما دخول الحمام في هذه الأزمان فحرام على أهل الفضل والدين لغلبة الجهل على الناس واستسهالهم إذا توسطوا الحمام رموا مآزرهم حتى يرى الرجل البهي ذو الشيبة قائما منتصبا وسط الحمام وخارجه باديا عن عورته ضامًا بين فخذه ولا أحد يغير عليه، هذا أمر بين الرجال فكيف من النساء لا سيما بالديار المصرية إذ حماماتهم خالية عن المظاهر التي هي عن أعين الناس سواتر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"².

- دخول الأسواق: قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (الفرقان: 20)، يقول الإمام القرطبي: "قال علماؤنا: لما كثر الباطل في الأسواق وظهرت فيها المناكر، كره دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم في الدين تنزيها لهم عن البقاع التي يعصى الله فيها. فحق على من ابتلاه الله بالسوق أن يخطر بباله أنه قد دخل محل الشيطان ومحل جنوده، وإنه إن أقام هناك هلك، ومن كانت هذه حاله اقتصر منه على قدر ضرورته وتحرز من سوء عاقبته وبليته"³.

- عاقبة المعاصي: قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بَنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلْقُوا بِاللَّهِ كَمَ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وََاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: 249)، قال الإمام القرطبي: "قلت: هكذا يجب علينا نحن أن نفعل، لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة وذلك بما كسبت أيدينا"⁴.

¹ - الجامع، مصدر سابق، 31/3.

² - الجامع، مصدر سابق، 161/12.

³ - الجامع، مصدر سابق، 14/13.

⁴ - الجامع، مصدر سابق، 194/3.

- الخاتمة:

تضمن هذا البحث جملة من النتائج التي يمكن تلخيصها في نقاط:

- كتاب الجامع لأحكام القرآن وإن غلبت عليه مباحث اللغة والقراءات والأحكام الأصولية، إلا أنه تضمن جانباً واسعاً من التنزيلات على الواقع الذي كان يراه الإمام القرطبي ويعيشه ويتألم من مرارته.

- اهتم الإمام القرطبي بهموم الأمة وبالواقع الذي عبر عليه بعبارة المشاهد في الوجود، فكان فقهه في تنزيل الآيات على الواقع ينطلق من إيمانه بضرورة التبدل والتغيير وترك ما يفسد الحياة والدين.

- قد امتلك الإمام القرطبي مقومات أهله إلى حسن فقه الواقع وحسن تنزيله للآيات على واقعه، فقد شاهد أقوال الأمة وسقوطها وعرف أسباب ذلك، وكانت له من المهارات في الاستنباط وتعميم الأحكام على الوقائع ما جعلته يحسن في القياس.

- تنوعت تنزيلات الإمام القرطبي في تفسيره على الواقع، فقد استعمل التصريح والتعريض لأسباب موضوعية وأخرى شخصية، وقد ينزل الآية كلها على واقعه أو ينزل على واقعه الذي يخالفها، وقد تنوعت دلالات التنزيل فاستعمل دلالة العموم ودلالة المفهوم.

- تعددت عند الإمام القرطبي مجالات التنزيل على الواقع، فشملت الأحكام العقائدية والعبادات والمعاملات.

ومن التوصيات التي نوصي بها: أن تتوسع دراسة نوازل المفسرين على واقعهم انطلاقاً من الجمع بين علمين، علم التفسير وعلم التاريخ الاجتماعي والسياسي للفترة الزمنية التي عاشها المفسر، لتكتمل الدراسة من كل جوانبها باعتبار أن دراسة الواقع هو المقوم الرئيسي لفقه التنزيل.

- المصادر والمراجع:

- 1- الإتيقان، السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب: 1974.
- 2- الاعتصام، الشاطبي، تح: حامد أحمد الطاهر، دار الغد الجديد، القاهرة، ط1: 2008.
- 3- الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين، ط15: 2002.
- 4- الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، مشهور حسن محمود سلمان، دار القلم، دمشق، ط1: 1993.
- 5- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، تح: صديقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت: 1420.
- 6- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط1: 1957.
- 7- تاريخ الإسلام، الذهبي، تح: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2: 1993.

- 8- تاريخ المسلمين في الأندلس، محمد سهيل طقوش، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط3: 2010.
- 9- التذكرة بأحوال الموتى و أمور الآخرة، القرطبي، تح: الصادق بن محمد بن إبراهيم، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع الرياض، ط1: 1425.
- 10- تفسير الإمام أبي عبد الله القرطبي وهو المسمى بالجامع لأحكام القرآن، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، محرم صفر 1364 هـ كانون الثاني وشباط 1945 م.
- 11- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط1: 1419.
- 12- تفسير مجاهد، تح: محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط1: 1989.
- 13- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، طباعة من المجلس الوطني للإعلام، الإمارات، ط1: 2007.
- 14- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تح: أحمد بن شعبان بن أحمد، محمد بن عيادي بن عبد الحليم، مكتبة الصفا، القاهرة: 2005.
- 15- جامع البيان، الطبري، دار التربية والتراث، مكة المكرمة.
- 16- الديباج المذهب، ابن فرحون، تح: محمد الأحمد أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.
- 17- طبقات المفسرين، السيوطي، تح: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1: 1396.
- 18- القرطبي حياته وأثاره العلمية و منهجه في التفسير، مفتاح السنوسي بلعم، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط1: 1998.
- 19- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1422.
- 20- مجالس التذكير، ابن باديس، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1: 1995.
- 21- مفاتيح الغيب، الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3: 1420.
- 22- مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، تح: عدنان محمد زرزور، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2: 1972.

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
• التعريف الملتقى	5
• كلمة مدير الملتقى	9
• د/ عباس منصر	9
• كلمة رئيس الملتقى	11
• أ.د/ إبراهيم رحمانى	11
• مجموع بحوث الملتقى	13
• شروط تنزيل النّصّ القرآنيّ على الواقع.	15
• د/ علي زواري أحمد	15
• تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ مبارك الميلي من خلال كتاب " الشرك ومظاهره " - دراسة نظرية تطبيقية واقع أهل زمانه-.	41
• د/ هشام شوقي	41
• قاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" وأثرها في تنزيل النصّ القرآني على الواقع.	61
• د/ العيد حديق	61
• معيارية التفكير المقاصدي من خلال تنزيل النص القرآني على موارد الإصلاح الاجتماعي.	81
• أ.د/ قبلي بن هني	81
• التنزيل المقاصدي للآيات ضبطاً وتقويماً - دراسة في موافقات الشاطبي -.	111
• د/ زيان سعيدي	111
• منهج علماء قسنطينة في توظيف الآيات القرآنية في مسائل الأسرة - من خلال نوازل ابن الفكون -.	135
• د/ إبراهيم ريغي	135
• تنزيل النّصّ القرآني في صناعة الفتوى عند علماء المغرب الإسلامي المعاصرين " مُحمّد عبد العزيز جعيط " أنموذجاً.	147
• د/ محمد حتاي	147
• منهج الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله في تنزيل الآيات في الواقع المعاصر - دراسة تحليلية -.	173
• د/ مزنة عبد العزيز علي اللحيان	173

	• الترغيب والترهيب عند الإمام الثعالبي في تفسيره من خلال إسقاطاته للنص القرآني.
203	كح د/ زكرياء قادي
	• تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - من خلال تفسيره العذب النмир وأضواء البيان - دراسة تحليلية مقارنة -.
221	كح د/ حمدان بن لافي بن جابر العنزي
	• توظيف أحداث بلاد الأندلس في تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام القرطبي (ت671هـ) - نماذج مختارة -.
245	كح ط.د/ مريم كروش - إشراف: د/ عباس منصر
	• تنزيل الآيات القرآنية على الواقع عند الإمام عبد المنعم بن الفرس من خلال كتابه «أحكام القرآن».
255	كح أ/ محمد الصالح غريسي
	• المشروع الإصلاحى المستوحى من تنزيل النص القرآني عند الشيخ الصحفي أبي يقظان إبراهيم الجزائري.
267	كح د/ ميلود بن حاج
	• البعد الواقعي في الدرس التفسيري عند الشيخ محمد الهبري المجاوي التلمساني
283	كح أ/ نبيل بوراس
	• تنزيل النص القرآني على قضايا المرأة في الفكر الإصلاحي.
	لدى أبي يعلى الزواوي.
291	كح د/ الربيعي عمير
	• جهود علماء الغرب الإسلامي في التنظير الأصولي: اجتهاد تنزيل النص القرآني - الشاطبي أنموذجا -.
321	كح ط.د/ عبد الوهاب مرابطين، إشراف: د/ عبد المجيد خلادي
	• توظيف تنزيل النص القرآني عند ابن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير.
351	كح ط.د/ عبد الجبار بالقط ، إشراف: د/ عبد القادر شكيمة
	• تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ عبد الله كنون من خلال "تفسير سور المفصل من القرآن الكريم".
371	كح ط.د/ شهرة قتال، إشراف: د/ نصيرة دهينة
	• إسقاط النص القرآني على شؤون السياسة والحكم عند ابن خلدون.
387	كح ط.د/ حفناوي عتوسي، إشراف: د/ عبد الحميد فرج

401	• تنزيل القرآن على الواقع عند الإبراهيمي من خلال الآثار . ط.د/ رضوان بن قروط ، إشراف: أ.د/ لخضر حداد
415	• قراءة في تنزيل آيات الإصلاح الاجتماعي على الواقع عند عبد الرحمن الثعالبي من خلال كتابه: «الإرشاد لما فيه من مصالح العباد» . ط.د/ صلاح الدين خنوفه، إشراف: د/ عباس منصر
433	• تنزيل مفسري الغرب الإسلامي النص القرآني على الفرق الكبرى المنتسبة للإسلام . ط.د/ عبد القادر بن محمد شكيمة
463	• تنزيل النص القرآني على الواقع وأثره في الإصلاح الاجتماعي -دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير التحرير والتنوير . لابن عاشور - رحمه الله - ط.د/ سلمي حضيض تركي العوفي
495	• تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ أحمد سحنون من خلال كتابه: "دراسات وتوجهات إسلامية" . ط.د/ مختار قديري
523	• تعليم المرأة عند ابن عاشور . ط.د/ يمينة سلماني
543	• توظيف النص القرآني عند الإمام ابن باديس في غير التفسير . ط.د/ الصادق ذهب
567	• دلالة اللفظ القرآني وأثره في تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخ محمد الحواس بوسنة في تفسيره . ط.د/ عز الدين كربوش
587	• توظيف أحداث بلاد الأندلس في تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام القرطبي (ت671هـ) - نماذج مختارة - . ط.د/ مريم كروش، إشراف: د/ عباس منصر
597	• توظيف تنزيل النص القرآني على الواقع في مقاصد التشريع " مقصد حفظ إنسانية الإنسان عند عبد المجيد النجار أنموذجا" . ط.د/ صفية فضلة، إشراف: د/ زهير بن كتفي
609	• تنزيل النص القرآني عند محمد عبد الكريم الجزائري من خلال تفسيره توجيهات القرآن الكريم . ط.د/ سلسبيل نصيرة، إشراف: د. هشام شوقي
623	• تنزيل النص القرآني على الواقع عند عبد الرحمن شيبان من خلال دروسه

	ومقالاته.
	ط.د/ برجيجان موعاد، إشراف: د/ علي خضرة
	• دور التنزيل على الواقع في التفسير في توثيق الأحداث التاريخية " أحكام القرآن " لأبي بكر بن العربي نموذجاً.
639	ط.د/ مسعود عاد، إشراف: د. عباس منصر
	• توظيف تنزيل النص القرآني في النوازل والمستجدات عند القرطبي من خلال تفسيره الجامع لأحكام القرآن .
659	ط.د/ سلسبيل شنوف، إشراف: د/ محمد تمزغين
	• تنزيل آيات الأحكام على النوازل المعاصرة عند الشيخ: أبي بكر جابر الجزائري من خلال تفسيره "أيسر التفاسير مع حاشيته - نهر الخير -".
669	ط.د/ أمينة بوذيب، إشراف: د/ عبد القادر شكيمة.
	• تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام القرطبي من خلال كتابه الجامع لأحكام القرآن - المقومات، الأنواع، الدلالات، الموضوعات -
687	ط.د/ قويدر العشي.
705	• قائمة المحتويات